الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل

(٥)

الباب السابع

الحضارة الإسلامية وأسباب سقوطها وعوامل النهوض بها

(١)

جمع وإعداد

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

الباب السابع

الحضارة الإسلامية وأسباب سقوطها وعوامل النهوض بها (١)

#المستقبل لهذا الدين

الأربعاء ٢ رجب ١٤٢٥هـ - ١٨ أغسطس ٢٠٠٤

الإسلام منهج حياة:

الإسلام منهج حياة بشرية واقعية بكل مقوماتها، منهج يشمل التصور الاعتقادي الذي يفسر طبيعة الوجود، ويحدد مكان الإنسان في هذا الوجود، كما يحدد غاية وجوده الإنساني.. ويشمل التنظيمات الواقعية التي تنبثق من ذلك التصور الاعتقادي وتستند إليه، وتجعل له صورة واقعية متمثلة في حياة البشر، كالنظام الأخلاقي والينبوع الذي ينبثق منه، والأسس التي يقوم عليها، والسلطة التي يستمد منها. والنظام السياسي وشكله وخصائصه، والنظام الاجتماعي وأسسه ومقوماته، والنظام الاقتصادي وفلسفته وتشكيلاته، والنظام الدولي وعلاقاته وارتباطاته..

ونحن نعتقد أن المستقبل لهذا الدين، بهذا الاعتبار: باعتباره منهج حياة، يشتمل على تلك المقومات كلها مترابطة، غير منفصل بعضها عن بعض، المقومات المنظمة لشتى جوانب الحياة البشرية، الملبية لشتى حاجات الإنسان الحقيقية، المهيمنة على شتى أوجه النشاط الإنسانية.

وهذا الدين بهذا الاعتبار ليس مجرد عقيدة وجدانية منعزلة عن واقع الحياة، وليس مجرد شعائر تعبدية يؤديها المؤمنون بهذا الدين فرادى أو مجتمعين، وليس مجرد طريق إلى الآخرة لتحقيق الفردوس الأخروي؛ بينما هناك طريق، أو طرق أخرى لتحقيق الفردوس الأرضي، غير منهج الدين، وغير نظم وتنظيمات الدين !

وهذا الدين من الوضوح في هذا المعنى بحيث يبدو أن ليس هنالك أمل في نجاح أية محاولة لتصويره في صورة العقيدة المنعزلة عن واقع الحياة البشرية، والتي لا علاقة لها بتنظيمات الحياة الواقعية، وتشكيلاتها وأجهزتها العملية. أو العقيدة التي تعد الناس فردوس الآخرة إذا هم أدوا شعائرها وعباداتها، دون أن يحققوا – في واقع

مجتمعهم – أنظمتها وشرائعها وأوضاعها المتميزة المتفردة الخاصة ! فهذا الدين ليس هذا.. ولم يكن هذا.. ولا يمكن أن يكون هذا..

و هناك جهود جبارة تبذل–منذ قرون– لحصر الإسلام في دائرة الاعتقاد الوجداني، والشعائر التعبدية، وكفه عن التدخل في نظام الحياة الواقعية؛ ومنعه من الهيمنة الكاملة على كل نشاط واقعي للحياة البشرية–كما هي طبيعته، كما هي حقيقته، وكما هي وظيفته–.

لقد كانت هذه الخصائص في هذا الدين.. خصائص الشمول والواقعية والهيمنة.. هي التي تعبت منها الصليبية العالمية في هجومها على الأمة المسلمة في الوطن الإسلامي. كما أنها هي التي تعبت منها الصهيونية العالمية كذلك، منذ عهد بعيد! ومن ثم لم يكن بد أن تبذلا معاً الجهود الجبارة لحصر هذا الدين في دائرة الاعتقاد الوجداني والشعائر التعبدية؛ وكفه عن التدخل في نظام الحياة الواقعية؛ ومنعه من الهيمنة على نشاط الحياة البشرية.. وذلك كله كخطوة أولى، أو كموقعة أولى، في معركة القضاء عليه في النهاية!

وبعد أن أفلحت تلك الجهود الجبارة؛ ونالت انتصارها الحاسم على يد [أتاتورك]– البطل!!!– في إلغاء الخلافة الإسلامية؛ وفصل الدين عن الدولة؛ وإعلانها دولة [علمانية] خالصة. عقب محاولات ضخمة بذلت في شتى أقطار الأمة المسلمة التي وقعت في قبضة الاستعمار قبل ذلك، لزحزحة الشريعة الإسلامية عن أن تكون هي المصدر الوحيد للتشريع؛ والاستمداد من التشريع الأوروبي؛ وحصر الشريعة في ذلك الركن الضيق المسدود: ركن ما سموه:الأحوال الشخصية!

بعد أن أفلحت تلك الجهود الضخمة، ونالت انتصارها الحاسم على يد [البطل!!!] أتاتورك.. تحولت إذن إلى الخطوة التالية – أو الموقعة التالية– ممثلة في الجهود النهائية، التي تبذل الآن في شتى أنحاء الوطن الإسلامي؛ لكف هذا الدين عن الوجود أصلاً؛ وتنحيته حتى عن مكان العقيدة، وإحلال تصورات وضعية أخرى مكانه ؛ تنبثق منها مفاهيم وقيم، وأنظمة وأوضاع ، تملأ فراغ [العقيدة] ! وتسمى مثلها .. عقيدة ..

وصاحب هذه المحاولة ضربات وحشية تكال لطلائع البعث الإسلامي في كل مكان على ظهر هذه الأرض؛ تشترك فيه كل المعسكرات المتخاصمة التي لا تلتقي على شيء في مشارق الأرض ومغاربها، إلا على الخوف من البعث الإسلامي الوشيك؛ الذي تحتمه طبائع الأشياء، وحقائق الوجود والحياة، ودلالات الواقع البشري من هنا و من هناك ..

ولكننا نعلم كذلك أن هذا الدين أضخم حقيقة، وأصلب عوداً، وأعمق جذوراً، من أن تفلح في معالجته تلك الجهود كلها، ولا هذه الضربات الوحشية كذلك.. كما أننا نعلم أن حاجة البشرية إلى هذا المنهج أكبر من حقد الحاقدين على هذا الدين؛ وهي تتردى بسرعة مخيفة في هاوية الدمار السحيقة؛ ويتنادى الواعون منها بصيحة الخطر، ويتلمسون لها طريق النجاة.. ولا نجاة إلا بالرجوع إلى الله.. والى منهجه القويم للحياة.

إن هتافات كثيرة من هنا ومن هناك تنبعث من القلوب الحائرة.. تهتف بمنقذ، وتتلفت على مُخَلِّص. وتتصور لهذا المخلص سمات وملامح معينة تطلبها فيه، وهذه السمات والملامح المعينة لا تنطبق على أحد إلا على هذا الدين!

فمن طبيعة المنهج الذي يرسمه هذا الدين، ومن حاجة البشرية إلى هذا المنهج، نستمد نحن يقيننا الذي لا يتزعزع، في أن المستقبل لهذا الدين، وأن له دوراً في هذه الأرض هو مدعو لأدائه – أراد أعداؤه كلهم أم لم يريدوا – وأن دوره هذا المرتقب لا تملك عقيدة أخرى– كما لا يملك منهج آخر– أن يؤديه. وأن البشرية بجملتها لا تملك أن تستغني طويلاً عنه.

إن البشرية قد تمضي في اعتساف تجارب متنوعة هنا وهناك– كما هي الآن ماضية في الشرق وفي الغرب سواء– ولكننا نحن مطمئنون إلى نهاية هذه التجارب، واثقون من الأمر في نهاية المطاف.

إن هذه التجارب كلها تدور في حلقة مفرغة، وداخل حلقة التصور والخبرة البشرية المشوبة بالجهل، والنقص، والضعف، والهوى، في حين يحتاج الخلاص إلى الخروج من هذه الحلقة المفرغة، وبدء تجربة جديدة أصيلة، تقوم على قاعدة مختلفة كل الاختلاف: قاعدة المنهج الرباني الصادر عن علم [بدل الجهل] وكمال [بدل النقص]

وقدرة [بدل الضعف] وحكمة [بدل الهوى].. القائم على أساس: إخراج البشر من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده دون سواه.

مفرق الطريق بين منهج هذا الدين، وسائر المناهج غيره:

إن مفرق الطريق بين منهج هذا الدين، وسائر المناهج غيره: أن الناس في نظام الحياة الإسلامي يعبدون إلهاً واحداً، يفردونه بالألوهية، والربوبية، والقوامة، فيتلقون منه وحده التصورات والقيم والموازين، والأنظمة والشرائع والقوانين، والتوجيهات والأخلاق والآداب.. بينما هم في سائر النظم يعبدون آلهة وأرباباً متفرقة، يجعلون لها القوامة عليهم من دون الله، حين يتلقون التصورات والقيم والموازين، والأنظمة والشرائع والقوانين، والتوجيهات والآداب والأخلاق، من بشر مثلهم. فيجعلونهم بهذا التلقي أرباباً، ويمنحونهم حقوق الألوهية والربوبية والقوامة عليهم.. وهم مثلهم عبيد كما أنهم عبيد..

ونحن نسمي هذه النظم التي يتعبد الناس فيها الناس–كما يسيمها الله سبحانه– نظماً جاهلية. مهما تعددت أشكالها، وبيئاتها، وأزمانها. فهي قائمة على ذات الأساس الذي جاء هذا الدين–يوم جاء– ليحطمه، وليحرر البشر منه، وليقيم في الأرض ألوهية واحدة للناس؛ وليطلقهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده؛ بالمعنى الواسع الشامل لمفهوم [العبادة] ومفهوم [الإله] ومفهوم [الرب] ومفهوم [الدين] .

لقد جاء هذا الدين ليلغي عبودية البشر للبشر، في كل صورة من الصور، وليوحد العبودية لله في الأرض، كما أنها عبودية واحدة لله في هذا الكون العريض..{ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ[٨٣]}[سورة آل عمران].

والمنهج الإسلامي المنبثق من هذا الدين– بهذا الاعتبار– ليس نظاماً تاريخياً لفترة من فترات التاريخ، كما أنه ليس نظاماً محلياً لمجموعة من البشر في جيل من الأجيال، ولا في بيئة من البيئات.. إنما هو المنهج الثابت الذي ارتضاه الله لحياة البشر المتجددة، ولتبقى هذه الحياة مكيفة بالصورة العليا التي أكرم الله فيها الإنسان عن العبودية لغير الله.

والناس إما أن يعيشوا بمنهج الله بكليته فهم في توافق مع نواميس الكون، وفطرة الوجود، وفطرتهم هم أنفسهم. وإما أن يعيشوا بأي منهج آخر من صنع البشر، فهم في خصام مع نواميس الكون، وتصادم مع فطرة الوجود، ومع فطرتهم هم أنفسهم، بوصفهم قطاعاً في هذا الوجود.. تصادم تظهر نتائجه المدمرة من قريب أو من بعيد.

ونحن– كما قلنا– نستيقن أن الناس عائدون إلى الله؛ عائدون إلى منهجه هذا للحياة. وأن المستقبل لهذا الدين عن يقين. ونحن مستيقنون كذلك أن كل الجهود التي بذلت أو سوف تبذل لزحزحة هذا الدين عن طبيعته كمنهج للحياة البشرية الواقعية، في كل مجالاتها العملية والشعورية؛ سوف تبوء بالفشل والخيبة. وقد بانت بوادر الفشل والخيبة.. لأن هذه العزلة ليست من طبيعة هذا الدين.

كُلُّ دينٍ منهَج حَيَاة

ونظراً لهذه الحقيقة.. لم يكن هناك دين إلهي هو مجرد عقيدة وجدانية، منعزلة عن واقع الحياة البشرية في كل مجالاتها الواقعية، ولا مجرد شعائر تعبدية يؤديها المؤمنون بهذا الدين فرادى أو مجتمعين، ولا مجرد [أحوال شخصية] تحكمها شريعة هذا الدين، بينما تحكم سائر نواحي الحياة شريعة أخرى مستمدة من مصدر آخر، تؤلف منهجاً آخر للحياة غير منبثق انبثاقاً من [دين الله].

وما يملك أحد يدرك مفهوم كلمة [دين] أن يتصور إمكان وجود دين الهي ينعزل في وجدان الناس، أو يتمثل فحسب في شعائرهم التعبدية، أو[أحوالهم الشخصية]، ولا يشمل نشاط حياتهم كله، ولا يهيمن على واقع حياتهم كله، ولا يقود خطى حياتهم في كل اتجاه، ولا يوجه تصوراتهم، وأفكارهم، ومشاعرهم، وأخلاقهم، ونشاطهم، وارتباطاتهم في كل اتجاه.

لا.. وليس هناك دين من عند الله هو منهج للآخرة وحدها، ليتولى دين آخر من عند غير الله وضع منهج للحياة الدنيا.. فهذا تصور مضحك لحقيقة الواقع الكوني والبشري.. وذلك أن مقتضى هذا التقسيم المفتعل أن يكون لله جانب واحد من جوانب هذه الحياة ينظمه، ويشرف عليه، وينحصر [اختصاصه] فيه، ويكون لغير الله جوانب أخرى كثيرة ينظمها ويشرف عليها [أرباب] آخرون، يتعلق بها اختصاصهم.

إنه تصور مضحك إلى حد أن الذين يفكرون على هذا النحو، سيضحكون من أنفسهم، ومن تفكيرهم، ويسخرون من سذاجتهم وركة أفكارهم.. لو أنهم رأوا الأمر حقيقة من هذه الزاوية الصحيحة، وتحت هذا النور الهادئ الهادي..

وإلا يقم نظام الحياة كله على هذا التفسير الشامل الكامل، فهي إذن أهواء البشر. وهي إذن الجاهلية التي جاء كل دين من عند الله لإخراج الناس منها، ورفعهم إلى الربانية.. وإلا تكن العبودية لله وحده–ممثلة في التلقي عنه في هذا كله–فهي العبودية للعبيد.. وقد جاء دين الله لتحرير العباد من عبادة العبيد!

لا حاجة بنا للإطالة أكثر من هذا في هذه الحقيقة البديهية التي ما كان يجوز أن تكون موضع جدال، لولا تلك الملابسات النكدة التي قامت في أوروبا، وأدت إلى ذلك [الفصام النكد] بين الدين والدولة. بل بين الدين والحياة.

الفصَامُ النَّكِدْ

ليس من طبيعة [الدين] أن ينفصل عن الدنيا، وليس من طبيعة المنهج الإلهي أن ينحصر في المشاعر الوجدانية، والأخلاقيات التهذيبية، والشعائر التعبدية. أو في ركن ضيق من أركان الحياة البشرية.. ركن ما يسمونه [الأحوال الشخصية].

ليس من طبيعة [الدين] أن يفرد لله –سبحانه– قطاعاً ضيقاً في ركن ضئيل–أو سلبي– في الحياة البشرية، ثم يسلم سائر قطاعات الحياة الإيجابية العملية الواقعية لآلهة أخرى وأرباب متفرقين، يضعون القواعد والمذاهب، والأنظمة والأوضاع، والقوانين والتشكيلات على أهوائهم، دون الرجوع إلى الله!

ليس من طبيعة [الدين] أن يشرع طريقاً للآخرة، لا يمر بالحياة الدنيا! طريقاً ينتظر الناس في نهايته فردوس الآخرة عن غير طريق العمل في الأرض، وعمارتها، والخلافة فيها عن الله، وفق منهجه الذي ارتضاه!

ليس من طبيعة [الدين] أن يكون هذا المسخ الشائه الهزيل! ولا هذه الألعوبة المزوقة التي يلهو بها الأطفال! ولا هذه المراسم التقليدية التي لا علاقة لها بنظم الحياة العملية!

ليس من طبيعة [الدين] -أي دين فضلاً عن دين الله- أن يكون هذا العبث الممسوخ الهزيل.. فمن أين إذن جاءته هذه السلبية الهازلة ؟ وكيف إذن وقع ذلك [الفصام النكد] بين الدين والحياة ؟.

لقد تم ذلك [الفصام النكد] في ظروف نكدة! وكانت له آثاره المدمرة في أوروبا.. ثم في الأرض كلها، حين طغت التصورات الغربية، والأنظمة الغربية، والأوضاع الغربية، على البشرية كلها في مشارق الأرض ومغاربها..

ولم يكن بد-وقد انفصمت حياة المخاليق عن منهج الخالق- أن تسير في هذا الطريق البائس؛ وأن تنتهي إلى هذه النهاية التعيسة؛ وأن تحيط بالبشر الدائرة التي يتعذبون الآن في داخلها، ويذوق بعضهم بأس بعض، بينما هم عاجزون عن معرفة طريق الخلاص منها.. وهم يصطرخون فيها..!!.

انتهى دور الرجل الأبيض

لقد انتهى العصر الذي يسود فيه الرجل الأبيض؛ لأن حضارة الرجل الأبيض قد استنفدت أغراضها المحدودة القريبة، ولم يعد لديها ما تعطيه للبشرية من تصورات ومفاهيم ومبادئ وقيم، تصلح لقيادة البشرية، وتسمح لها بالنمو والترقي الحقيقيين.. النمو والترقي للعنصر الإنساني، وللقيم الإنسانية، وللحياة [الإنسانية].

إنها مبتوتة عن الأصل الكبير الذي لا تقوم الأنظمة الاجتماعية، ولا تعيش المبادئ والقيم، إلا إذا انبثقت منه، وقامت عليه. الأصل الاعتقادي المرتبط بالله، والتفسير الكلي للوجود، ومركز الإنسان فيه، وغاية وجوده الإنساني.. ومن ثم كانت قيماً محدودة موقوتة؛ لأنها في الأصل قيم مبتوتة!.. نبات لا جذور له في أعماق الفطرة البشرية؛ لأنه ليس آتياً من المصدر الذي جاءت منه الفطرة البشرية.

ومن أجل أنها لم تنبثق من ذلك الأصل؛ ولم تجئ من هذا المصدر، فإنها قامت على أساس مناقض لفطرة الإنسان؛ ولم تراع في الأسس التي قامت عليها، ولا في الوسائل التي اتخذتها، ولا في الطريق التي سارت فيه.. لم تراع في هذا كله احتياجات [الإنسان] الحقيقية، المنبثقة من طبيعة تكوينه، وأصل خلقته وحقيقة فطرته، وأهملت إهمالاً شنيعاً أهم مقوماته-التي بها صار الإنسان إنساناً- ولم تهملها فحسب، بل طاردتها في جفوة وعنف.. وسارت في طريق معارض للحقيقة الإنسانية،

وللحاجات الحقيقية لبني الإنسان، وللقيم الصحيحة التي ينبغي أن تطبع الحياة الإنسانية وتميزها.

ومن ثم أخذ [الإنسان] يشقى شقاءً مريراً بالحضارة، التي قامت–أو المفروض أنها قامت– لخدمته وترقيته وإسعاده.. وحين تتناقض[الحضارة] مع [الإنسان] فالنتيجة الحتمية بعد فترة–تطول أو تقصر– من صراع الإنسان مع الحضارة، ومن الآلام والتضحيات، والخسائر والمرارات، أن ينتصر الإنسان، لأنه هو الأصل. ولأن فطرته أعمق وأبقى من أنماط الحضارة الطارئة عليها.. الحضارة المنبتة عن الله، وعن منهجه للحياة.

ثم ماذا؟

ثم إنه الخواء ينخر في روح الحضارة الغربية، بمذاهبها جميعاً، وبأنظمتها جميعاً، الخواء الذي تختنق فيه روح [الإنسان]، وتنهدر فيه قيمة [الإنسان]، وتنحدر فيه خصائص [الإنسان].. بينما تتكدس [الأشياء] وتعلو قيمتها، وتطغى على كل قيمة للإنسان!

إن بريق الحضارة المادية لا يجوز أن يغشي أبصارنا عن حقيقة الشقاء الذي باتت تعانيه البشرية في ظل هذه الحضارة. وإن الصواريخ المطلقة، والأقمار الصاعدة، لا يجوز أن تلهينا عن الدرك الذي ينحدر إليه [الإنسان] ومقومات [الإنسان]!

إن الإنسان هو أكرم ما في هذه الأرض. إنه هو الكائن الأساسي فيها، والمستخلف في مقدراتها. وكل شيء فيها في خدمته–أو ينبغي أن يكون كذلك–و[إنسانيته] هي المقوم الأعلى الذي يقاس به مدى صعوده أو هبوطه. وسعادة روحه هي مقياس ما في الحضارة التي يعيش فيها من ملاءمة لطبيعته أو مصادمة..

فإذا رأينا [الإنسان] ينحدر في صفاته [الإنسانية] وفي تصوره للقيم الإنسانية..

إذا رأيناه وقوداً للآلة، أو عبداً لها، أو تابعاً ذليلاً من توابعها..

إذا رأيناه– تبعاً لهذا– ينحط في تصوره وذكائه وأخلاقه..

إذا رأيناه يهبط في علاقاته الجنسية إلى أدنأ من درك البهيمة..

إذا رأينا وظائفه الأساسية تعطل وتذوي وتتراجع..

إذا رأيناه يشقى ويقلق ويتحير، ويعاني من القلق والحيرة ما لم يعانيه قط في تاريخه من الشقاء والتعاسة، والأمراض العصبية والنفسية، والشذوذ والعته، والجنون والجريمة.

إذا رأيناه هارباً من نفسه، ومن المخاوف، والقلاقل التي تلفه بها الحضارة المادية، والأنظمة الاجتماعية، والسياسية، والأخلاقية، والفكرية.

إذا رأيناه هائما على وجهه يقتل سآمته ومله، بما يقتل به روحه وجسمه وأعصابه، من المكيفات والخمور، أو ما يشبه المكيفات والخمور من الأفكار السود، ومذاهب اليأس والقنوط الملبس والضياع الأليم.. كما في [الوجودية] وغيرها من مذاهب الفكر التعيسة.

إذا رأيناه يئد نسله، أو يبيع أولاده، ليشتري بهم ثلاجات وغسالات كهربائية-كما جاءتنا الأنباء عن أوروبا الضائعة.

إذا رأيناه في مثل هذه الحال النكدة.. فإن جميع ما يصل إليه [العلم] في معزل عن [روح الإنسان] من تيسيرات للحياة المادية، ومن رفاهيات حضارية.. لا يغير شيئاً من حقيقة الانحدار الذي تهوي إليه البشرية؛ ومن حقيقة الشقاء الذي تعانيه؛ ومن حقيقة التعاسة التي تزاولها.. ثم.. من حقيقة فشل هذه الحضارة وقرب نهايتها.. ومن ثم حقيقة الحاجة الماسة إلي نظام آخر أصيل، بريء-في أساسه- من العيوب الأساسية التي أفسدت حياة البشر؛ وضيعت عليهم ثمار العلم والمعرفة والتقدم الحضاري.. نظام يسمح للإنسانية بأن تحقق غاية وجودها الإنساني-كما أرادها خالقها العظيم- وأن تستخدم [العقل] و[العلم] و[التجربة] استخداماً آخر، يتناسق مع احتياجاتها الحقيقية؛ ومع مقتضيات فطرتها الأصيلة.

لقد انتهى دور الرجل الأبيض.. انتهى دوره سواء أكان روسياً أم أمريكياً، إنجليزياً أم فرنسوياً، أم سويسرياً أم سويدياً.. إنه لابد من قاعدة من التصور الاعتقادي لكافة المذاهب والمناهج والنظم والأوضاع التي تقوم عليها حياة [الإنسان]. لابد من تفسير صحيح للوجود، ولمركز الإنسان فيه، ولغاية وجوده الإنساني. وهذا ما أغفلته حضارة الرجل الأبيض، بل حاربته حرباً شعواء، يستوي في هذا جميع الأنظمة السائدة في الغرب، وفي الشرق جميعاً.

والإنسان في حاجة إلى [عقيدة] تعمر قلبه؛ وتنبثق منها تصوراته؛ وتقدم له التفسير الشامل لحياته وللكون من حوله؛ ولعلاقته هو والكون بالخالق الأعلى..[عقيدة] ترسم له أهدافاً أكبر من ذاته، وأعم من جيله، وأبعد من حاضره، وأرفع من واقعه؛ وتربطه بذات علوية، لها عليه رقابة وسيطرة؛ يحبها ويخشاها؛ ويتقي غضبها ويطلب رضاها؛ وينتظر عونها على الخير؛ ويستحي من مواجهتها بالشر؛ ويرجو جزاءها العادل الكامل، الذي يعوض عليه ما يفوته في صراعه للشر في هذه الحياة الدنيا؛ ويربط حياته كلها بها؛ ويتلقى عنها نظام حياته، ومناهج فكره وسلوكه؛ كما يتلقى عنها شعائر عبادته سواء بسواء.. فتستقيم حياته كلها حزمة واحدة، لا فصام فيها ولا صدام..

ولقد يشغل الإنسان بعض الوقت بجوعة الجسد، وما يتعلق بها من الإنتاج بشتى وسائله وصنوفه، ومن المتاع الحسي بشتى ألوانه ومذاقاته.. وما أن تهدأ هذه الجوعة حتى تتحرك في الكائن الإنساني جوعة أخرى. جوعة لا يسدها الطعام، ولا يرويها الشراب، ولا يكفيها الكساء، ولا تسكنها كل ضروب المتاع.. إنها جوعة من نوع آخر. جوعة إلى الإيمان بقوة أكبر من البشر؛ وعالم أكبر من المحسوس؛ ومجال أكبر من الحياة الدنيا.. وجوعة إلى الوئام بين ضمير الإنسان وواقعه، بين الشريعة التي تحكم ضميره والشريعة التي تحكم حياته. بين منهج حركته الذاتية، ومنهج الحركة الكونية من حوله. جوعة إلى [إله] واحد؛ يتلقى منه شريعة قلبه، وشريعة مجتمعه على السواء.. وكل نظام للحياة لا يحقق السعادة للكائن البشري إلا إذا تضمن كفاية هذه الجوعات المتعددة في كينونته الواحدة.. وهذه السمة هي التي خلت منها حضارة الرجل الأبيض!

ولهذا السبب –من وراء كل سبب– انتهى دور الرجل الأبيض..

المُخَلِّص

'إن هتافات كثيرة من هنا ومن هناك، تنبعث من القلوب الحائرة وترتفع من الحناجر المتعبة .. تهتف بمنقذ، وتتلفت على [مخلص]، وتتصور لهذا المخلص سمات وملامح معينة تطلبها فيه..وهذه السمات والملامح المعينة لا تنطبق على أحد إلا على [هذا الدين] .

المستَقبل لهذا الدّين

وحين يتقرر أن الإسلام:

هو وحده القادر على إنقاذ البشرية مما يحدق بها من أخطار ماحقة، تدلف إليها مقودة بسلاسل الحضارة المادية البراقة.

وهو وحده القادر على منحها المنهج الملائم لفطرتها، ولاحتياجاتها الحقيقية.

وهو وحده الذي ينسق بين خطاها في الإبداع المادي، وخطاها في الاستشراف الروحي.

وهو وحده الذي يملك أن يقيم لها نظاماً واقعياً للحياة يتم فيه هذا التناسق الذي لم تعرفه البشرية قط إلا في النظام الإسلامي وحده على مدى التاريخ ..

حين يتقرر هذا كله تتضح معه شناعة الجريمة التي يرتكبها – في حق البشرية كلها – أولئك الذين يوجهون الضربات الوحشية لطلائع البعث الإسلامي في كل مكان، والذين يجندون قواهم كلها، لطمس معالم المنهج الإسلامي، ومواراته عن أعين البشرية المتطلعة إلى منقذ، المتلفتة على [مخلِّص]، وتنفيرها منه بشتى الخدع والتمويهات والأكاذيب!

إنها جريمة بشعة في حق البشرية المنكوبة بهذه الحضارة المناقضة لفطرتها ولاحتياجاتها الحقيقة المهددة بغلبة الفلسفة المادية عليها..وهي في كل لحظة تقترب من الهوة الرعيبة، ولا منقذ لها إلا هذا الدين، الذي يحاربه أعداء البشرية، في كل مكان على وجه الأرض، بشتى الخطط، والمؤامرات، والأساليب!

إلا أن هذه الحرب المشبوبة على الإسلام لا تفقدنا الثقة المطلقة في أن [المستقبل لهذا الدين].

لقد صمد الإسلام في حياته المديدة، لما هو أعنف وأقسى من هذه الضربات الوحشية، التي توجه اليوم إلى طلائع البعث الإسلامي في كل مكان. وكافح – وهو مجرد من كل قوة غير قوته الذاتية– وانتصر، وبقي، وأبقى على شخصية الجماعات والأوطان، التي كان يحميها، وهو مجرد من السلاح!

إن الإسلام هو الذي حمى الوطن الإسلامي في الشرق من هجمات التتار؛ كما حماه من هجمات الصليبيين على السواء .. ولو انتصر الصليبيون في الشرق كما

انتصروا في الأندلس قديماً، أو كما انتصر الصهيونيون في فلسطين حديثاً، ما بقيت قومية عربية، ولا جنس عربي، ولا وطن عربي .. والأندلس قديماً وفلسطين حديثاً كلاهما شاهد على أنه حين يطرد الإسلام من أرض، فإنه لا تبقى فيها لغة ولا قومية، بعد اقتلاع الجذر الأصيل!

والمماليك الذين حموا هذه البقعة من التتار، لم يكونوا من جنس العرب إنما كانوا من جنس التتار! ولكنهم صمدوا في وجه بني جنسهم المهاجمين، حمية للإسلام، لأنهم كانوا مسلمين! صمدوا بإيحاء من العقيدة الإسلامية، وبقيادة روحية إسلامية من الإمام المسلم [ابن تيمية] الذي قاد التعبئة الروحية، وقاتل في مقدمة الصفوف!

ولقد حمى صلاح الدين هذه البقعة من اندثار العروبة منها، والعرب، واللغة العربية .. وهو كردي لا عربي، ولكنه حفظ لها عروبتها ولغتها حين حفظ لها إسلامها من غارة الصليبيين. وكان الإسلام في ضميره هو الذين كافح الصليبيين، كما كان الإسلام في ضمير الظاهر بيبرس، والمظفر قطز، والملك الناصر .. هو الذي كافح التتار المتبربرين!

والإسلام هو الذي كافح في الجزائر مئة وخمسين عاماً. وهو الذي استبقى أرومة العروبة فيها. حتى بعد أن تحطمت مقوماتها الممثلة في اللغة والثقافة، حينما اعتبرت فرنسا اللغة العربية –في الجزائر– لغة أجنبية محظوراً تعليمها! هنالك قام الإسلام – وحده – في الضمير، يكافح الغزاة، ويستعلي عليهم، ولا يحنى رأسه لهم لأنهم أعداؤه [الصليبيون]! وبهذا – وحده – بقيت روح المقاومة في الجزائر، حتى أزكتها من جديد الحركة الإسلامية التي قام بها عبد الحميد بن باديس، فأضاءت شعلتها من جديد .. وهذه الحقيقة التي حاول أن يطمسها المغفلون والمضلِّلون، يعرفها الفرنسيون والصليبيون جيداً لأنهم [صليبيون]!

إنهم على يقين أن [الإسلام]، باستعلاء روحه على أعدائه، هو الذي يقف في طريقهم. ومن ثم يعلنونها حرباً على [المسلمين] .. لا على [العرب]!

والإسلام هو الذي كافح في برقة وطرابلس ضد الغزو الطلياني .. وفي أربطة السنوسية وزواياها نمت بذرة المقاومة، ومنها انبثق جهاد عمر المختار الباسل النبيل..

وأول انتفاضة في مراكش، كانت منبثقة من الروح الإسلامي. وكان [الظهير البربري] الذي سنه الفرنسيون سنة ١٩٣١ وأرادوا به رد قبائل البربر هناك إلى الوثنية، وفصلهم عن الشريعة الإسلامية .. هو الشرارة التي ألهبت كفاح مراكش ضد الفرنسيين.

لقد كافح الإسلام – وهو أعزل – لأن عنصر القوة:

كامن في طبيعته، كامن في بساطته ووضوحه وشموله، وملاءمته للفطرة البشرية، وتلبيته لحاجاتها الحقيقية. كامن في الاستعلاء عن العبودية للعباد بالعبودية لله رب العباد؛ وفي رفض التلقي إلا منه، ورفض الخضوع إلا له من دون العالمين.

كامن كذلك في الاستعلاء بأهله على الملابسات العارضة كالوقوع تحت سلطان المتسلطين، فهذا السلطان يظل خارج نطاق الضمير مهما اشتدت وطأته .. ومن ثم لا تقع الهزيمة الروحية طالما عمر الإسلام القلب والضمير، وإن وقعت الهزيمة الظاهرية في بعض الأحايين.

ومن أجل هذه الخصائص في الإسلام يحاربه أعداؤه هذه الحرب المنكرة؛ لأنه يقف لهم في الطريق، يعوقهم عن أهدافهم الاستعمارية الاستغلالية، كما يعوقهم عن الطغيان والتأله في الأرض كما يريدون!

ومن أجل هذه الخصائص يطلقون عليه حملات القمع والإبادة، كما يطلقون عليه حملات التشويه والخداع والتضليل!

ومن أجل هذا يريدون أن يستبدلوا به قيماً أخرى، وتصورات أخرى، لا تمت بسبب إلى هذا المناضل العنيد؛ لتستريح الصهيونية العالمية، والصليبية العالمية، والاستعمار العالمي من هذا المناضل العنيد!

إن خصائص الإسلام الذاتية هي التي تحنق عليه أعداءه الطامعين في أسلاب الوطن الإسلامي .. هذه هي حقيقة المعركة؛ وهذا هو دافعها الأصيل..

ولكن الذي لا شك فيه – على الرغم من ذلك كله – هو أن [المستقبل لهذا الدين].. فمن طبيعة المنهج الذي يرسمه هذا الدين؛ ومن حاجة البشرية إلى هذا المنهج نستمد نحن يقيننا الذي لا يتزعزع، في أن المستقبل لهذا الدين. وأن له دوراً في هذه الأرض هو مدعو لأدائه – أراد أعداؤه أم لم يريدوا – وأن دوره هذا المرتقب لا تملك

عقيدة أخرى – كما لا يملك منهج آخر– أن يؤديه، وأن البشرية بجملتها لا تملك كذلك أن تستغني طويلاً عنه. ولا حاجة بنا إلى المضي في توكيد هذه الحقيقة على هذا النحو.

فنكتفي في هذا الموضع بعرض عبرة عن الواقع التاريخي للإسلام، لعلها أنسب العبر في هذا المقام:

بينما كان [سراقة بن مالك] يطارد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصاحبه أبا بكر رضي الله عنه – وهما مهاجران خفية عن أعين قريش .. وبينما كان سراقة يعثر به فرسه كلما هم أن يتابع الرسول وصاحبه، طمعاً في جائزة قريش المغرية التي رصدتها لمن يأتيها بمحمد، وصاحبه، أو يخبر عنهما .. وبينما هو يهم بالرجوع وقد عاهد النبي صلى الله لعيه وسلم أن يكفيهما من وراءه ..

في هذه اللحظة قال النبي صلى الله عليه وسلم: [يا سراقة. كيف بك وسوارى كسرى؟] .. يعده سوارى كسرى شاهنشاه الفرس! [ملك الملوك!].. والله وحده يعلم ما هي الخواطر التي دارت في رأس سراقة؛ حول هذا العرض العجيب؛ من ذلك المطارد الوحيد .. إلا من صاحبه الذي لا يغني شيئاً عنه، والمهاجر – سرّاً – معه! ولكن كالرسول – صلى الله عليه وسلم – كان عارفاً بالحق الذي معه، معرفته بالباطل الذي عليه الجاهلية في الأرض كلها يومذاك .. وكان واثقاً من أن هذا الحق لابد أن ينتصر على هذا الباطل. وأنه لا يمكن أن يوجد [الحق] في صورته هذه، وأن يوجد [الباطل] في صورته هذه، ثم لا يكون ما يكون!

كانت الشجرة القديمة قد تآكلت جذورها كلها، بحيث لا يصلها ري ولا سماد .. كانت قد خبثت بحيث يتحتم أن تجتث .. وكانت البذرة الطيبة في يده هي المعبأة للغرس والنماء .. وكان واثقاً من هذا كله ثقة اليقين .

نحن اليوم في مثل هذا الموقف بكل ملابساته، وكل سماته. مع الجاهلية كلها من حولنا.. فلا يجوز– من ثم – أن ينقصنا اليقين في العاقبة المحتومة. العاقبة التي يشير إليها كل شيء من حولنا. على الرغم من جميع المظاهر الخادعة التي تحيط بنا!

إن حاجة البشرية اليوم إلى هذا المنهج، ليست بأقل من حاجتها يومذاك .. وإن وزن هذا المنهج اليوم – بالقياس إلى كل ما لدى البشرية من مناهج – لا يقل عنه يومذاك ..

ومن ثم ينبغي ألا يخالجنا الشك في أن ما وقع مرة في مثل هذه الظروف لابد أن يقع. ولا يجوز أن يتطرق إلى قلوبنا الشك، بسبب ما نراه من حولنا، من الضربات الوحشية التي تكال لطلائع البعث الإسلامي في كل مكان، ولا بسبب ما نراه كذلك من ضخامة الأسس التي تقوم عليها الحضارة المادية.. إن الذي يفصل في الأمر ليس هو ضخامة الباطل، وليس هو قوة الضربات التي تكال للإسلام. إنما الذي يفصل في الأمر هو قوة الحق، ومدى الصمود للضربات!

إننا لسنا وحدنا .. إن رصيد الفطرة معنا .. فطرة الكون وفطرة الإنسان .. وهو رصيد هائل ضخم .. أضخم من كل ما يطرأ على الفطرة من أثقال الحضارة .. ومتى تعارضت الفطرة مع الحضارة، فلا بد أن يكتب النصر للفطرة .. قصر الصراع أم طال.

أمر واحد يجب أن يكون في حسابنا

إن أمامنا كفاحاً مريراً شاقاً طويلاً. لاستنقاذ الفطرة من الركام، ثم لتغليب الفطرة على هذا الركام، كفاحاً مريراً يجب أن نستعد له استعداداً طويلاً، يجب أن نستعد بأن نرتفع إلى مستوى هذا الدين ..نرتفع إلى مستواه في حقيقة إيماننا بالله. وفي حقيقة معرفتنا بالله، فإننا لن نؤمن به حق الإيمان حتى نعرفه حق المعرفة ..

ونرتفع إلى مستواه في عبادتنا لله. فإننا لن نعرف الله حق المعرفة إلا إذا عبدناه حق العبادة.

ونرتفع إلى مستواه في وعينا بما حولنا، ومعرفتنا لأساليب عصرنا .. ورحم الله رجلاً عرف زمانه واستقامت طريقته.

ونرتفع إلى مستواه في إحاطتنا لثقافة عصرنا وحضارته؛ وممارسة هذه الثقافة، وهذه الحضارة ممارسة اختبار واختيار .. فإننا لا نملك الحكم على ما ينبغي أن نأخذ منها، وما ينبغي أن ندع، إلا إذا سيطرنا عليها بالمعرفة والخبرة. فمن المعرفة والخبرة نستمد سلطان الاختيار ..

ونرتفع إلى مستواه في إدراكنا لطبيعة الحياة البشرية، وحاجاتها الحقيقية المتجددة، فنرفض ما نرفض من هذه الحضارة، ونستبقي ما نستبقي عن خبرة بالحياة ذاتها تعادل خبرتنا بهذه الحضارة كذلك!

وهذا كفاح مرير .. وكفاح طويل .. ولكنه كفاح بصير وكفاح أصيل.. والله معنا ..{...وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[٢١]}[سورة يوسف] ..وصدق الله العظيم.

من كتاب:'المستقبل لهذا الدين' للأستاذ/سيد قطب رحمه الله .

=======================

#هل نحن مسلمون

محمد قطب

بسم الله الرحمن الرحيم

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

صدق الله العظيم .

" ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ، ولكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل " . حديث شريف

مقَدّمَة–كيف انحسر مفهوم الإسلام في نفوسنا إلى هذا الحد ؟؟

كيف انحسر من مفهوم شامل للحياة البشرية في جميع اتجاهاتها ، بل مفهوم شامل – في الحقيقة – للكون والحياة والإنسان ، لكي يصبح مجرد عبادات تؤدى على نحو من الأنحاء ، بل لا تؤدى أحياناً إلا " بالنية " .. بل لا تؤدى أحياناً على الإطلاق ، لا بالنية ولا بغير النية .. ثم يظل يدور في أخلادنا – مع ذلك – أننا مسلمون صادقو الإسلام ؟

كيف انحسر من دستور شامل يحكم الحياة البشرية كلها وينظمها : يحكم اقتصادياتها واجتماعياتها ، ومادياتها وروحانياتها ، وسياستها وأفكارها ومشاعرها ، وسلوكها العملي في واقع الحياة ، لكي يصبح مجرد مشاعر هائمة لا رصيد لها من الواقع .. مشاعر تدور في نفس صاحبها – إن دارت – وهو يعيش في مجتمع غير مسلم ولا يستنكر الحياة فيه ولا يحاول تغييره . وتدور في نفسه – إن دارت – وهو ذاته لا يسلك سلوك المسلمين في حياته الخاصة ولا العامة . فتقاليده غير إسلامية ، وأفكاره غير إسلامية ، وتصوراته غير إسلامية ، وسلوكه اليومي لا يمت بصلة إلى الإسلام ، سواء في علاقة الفرد بالفرد أو الفرد بالجماعة أو الفرد بالدولة ، أو علاقة الرئيس بالمرءوس ...

كيف انحسر من حياة كاملة قائمة على مبادئ الإسلام وأفكاره ومثله وسلوكه الواقعي ، تشمل الدنيا والآخرة والأرض والسماء والحاكم والمحكوم والرجل والمرأة والأسرة والمجتمع ، لكي يصبح جزئيات مبعثرة لا رابط بينها ولا دلالة فيها ، كالرقعة الشائهة في نسيج غير متناسق الأجزاء ؟

كيف نبتت تلك الأفكار العجيبة التي تقسم الإسلام مشاعر من ناحية وسلوكا عمليا من ناحية أخرى ، ثم تفصل بين هذه وتلك ، وتتصور أن المشاعر وحدها يمكن أن تكون إسلاما بمعزل عن السلوك ؟!

كيف دار في أخلاد المسلمين أنهم يستطيعون أن يستوردوا اقتصادياتهم من أي نظام على وجه الأرض غير إسلامي ، ويستوردوا أصول مجتمعهم وقواعده من أية فكرة على وجه الأرض غير إسلامية ، ويستوردوا تقاليدهم من أي مجتمع على وجه الأرض غير مسلم ، ثم يظلوا مع ذلك مسلمين ؟!

كيف أمكن أن يتصور المسلم أنه يستطيع أن يخالف تعاليم ربه في كل شيء ، ويخون أماناته كلها ، فيغش ويكذب ويخون ويخدع ، ويتجاوز المتاع المباح إلى المتعة المحرمة ، ويقبل الذل والمهانة حرصاً على هذا المتاع ، ويخلي نفسه من تبعة إقامة المجتمع المسلم سواء بسلوكه الذاتي أو بالدعوة إلى ذلك المجتمع ، ويشارك بذلك كله في إقامة مجتمع غير مسلم ، قائم على الظلم والانحراف

والمعصية .. ثم يتصور بعد ذلك أن بضع ركعات في النهار – مخلصة أو غير مخلصة – يمكن أن تسقط عنه تبعاته أمام الله وتسلكه في عداد المسلمين ؟!

كيف أمكن أن تتصور المسلمة أنها تستطيع أن تخالف تعاليم ربها وتخون أماناته : فتغش وتكذب وتحقد وتغتاب .. وتخرج عارية تعرض فتنتها في الطريق لكل عين نهمة وجسد شهوان ، وتخلي نفسها من تبعة إقامة المجتمع المسلم ، سواء بالسلوك المستقيم في ذات نفسها ، أو بتربية أبنائها عليه ، أو بالدعوة إلى ذلك المجتمع .. وتشارك بذلك كله في إقامة مجتمع غير مسلم قائم على الظلم والانحراف والمعصية .. ثم يدور في خلدها بعد ذلك أن " النية الطيبة " في داخل قلبها يمكن أن تسقط عنها تبعاتها أمام الله وتسلكها في عداد المسلمات ؟!

من أين أتت تلك الأفكار الغريبة التي تقول : ما للدين ونظام المجتمع ؟ ما للدين والاقتصاد ؟ ما للدين وعلاقات الفرد بالمجتمع وبالدولة ؟ ما للدين والسلوك العملي في واقع الحياة ؟ ما للدين والتقاليد ؟ ما للدين والملبس – وخاصة ملابس المرأة ؟ ما للدين والفن ؟ ما للدين والصحافة والإذاعة والسينما والتلفزيون ؟

وباختصار .. ما للدين والحياة ؟ ما للدين والواقع الذي يعيشه البشر على الأرض ؟!

لا شك أن هناك أسبابا كثيرة لهذا " الانحسار " الذي يعانيه الإسلام في نفوس المسلمين .

فلم يكن كذلك المجتمع المسلم حين كان يمارس حقيقة الإسلام .

بل لم يكن كذلك المجتمع المسلم إلى عهد قريب – مع كل ما أصابه من فساد خلال القرون – إلى ما قبل الحملة الفرنسية على وجه التحديد .

لقد بدأت الفُرقة بين مثل الدين والسلوك الواقعي مبكرة في تاريخ الإسلام .. من عهد الأمويين مثلا .. ولكنها كانت فرقة لا تخل بقواعد المجتمع المسلم في مجموعه . كانت الحكومة في العاصمة هي التي تفسد – فساداً جزئيا – في سياسة الحكم والمال . ولكن المجتمع في غير العاصمة ظل إلى حد كبير يمارس أصول الإسلام وقواعده ، وتحكم حياته المفاهيم الإسلامية في الكليات والجزئيات . والأهم من ذلك كله أن نظام المجتمع كان يقوم على الإسلام ابتداء ، ويستمد قوانينه كلها من شريعة الإسلام ولا يستمدها من أي مصدر سواه .

ثم اتسعت هذه الفرقة حين حكم الأتراك ...

ومع ذلك فقد ظل كثير من أمور المجتمع ومفاهيمه إسلامية خالصة ، وكذلك سلوكه العملي وأخلاقه ومعاملاته وتصوراته وأفكاره .

حتى كان الغزو الصليبي الأخير في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وامتداده في القرن العشرين .

وعند ذلك حدث اختلاف كبير في المجتمع المسلم .. واختلال كبير ..

وهذا الكتيب الصغير محاولة – سريعة – لتتبع هذا الخط الذي أدى إلى انحسار المفهوم الإسلامي الضخم الشامل ، لكي يصبح جزئيات مبعثرة لا رابط لها ولا دلالة فيها .. ولكي يصبح مجرد عبادات – مخلصة أو غير مخلصة – يحسب أصحابها أنها الإسلام كله ، وأنهم ملاقو ربهم بها وقد رضي عنهم ورضوا عنه .. حتى وهو يقول لهم في كتابه العزيز إن ذلك ليس هو الإسلام كما أراده الله !

فإذا عرفنا كيف نبع هذا الانحراف وامتد .. فلعلنا أن نصحو إلى ما فيه من كيد .. ولعلنا أن نفيء إلى الله وإلى أنفسنا ..

ونعود مسلمين ..

والله الموفق إلى ما يريد .

محمد قطب

مفهوم الإسلام

كيف فهم المسلمون الأوائل معنى الإسلام ؟

وكيف ينبغي لنا نحن أن نفهم معناه ؟

لا شك أن المسلمين الأوائل لم يفهموا من الإسلام ما نريد نحن أن نفهمه في عصرنا الحاضر : أنه مجموعة من العبادات يؤديها الإنسان بمعزل عن السلوك العملي ، وأن الإنسان يستطيع أن يتجه إلى الله – مخلصا – في أثناء العبادة ، ثم يتجه لغير الله في أي أمر من أمور الحياة .

إنما الإسلام – كما فهمه الرسول صلى الله عليه وسلم وكما فهمه عنه أصحابه وأتباعه – هو إسلام النفس كلها لله . هو أن يكون كيان الإنسان كله متوجها إلى الله

. هو أن تكون أفكار الإنسان ومشاعره وسلوكه العملي كلها محكومة بالدستور الذي أقره الله .

لم يفهم المسلمون من شهادة : أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، أنها كلمة تقال باللسان دون أن يكون لها مدلول مستقر في أعماق النفس وفي واقع الحياة .

وإنما فهموا من شهادة : أن لا إله إلا الله ، أن الله هو المالك الوحيد لهذا الكون ، والمدبر الوحيد لكل ما يقع فيه من أحداث . وأنه هو وحده الذي ينبغي أن يعبد ، وأن تتوجه إليه القلوب بالخشية والتقوى . وأنه هو وحده واهب الحياة ومقدر الموت ، وهو وحده الرزاق ذو القوة المتين . وأن التوجه إلى غيره بالعبادة أو الخشية ، والظن بأن أحداً غيره أو أية قوة من قوى السماوات والأرض تملك للناس نفعاً أو ضراً هو لون من الشرك يستعيذون منه بالله .

وفهموا فوق ذلك من معنى لا إله إلا الله أنه وحده الذي يملك ويحكم . هو الذي يشرّع للبشر ويضع لهم قوانين حياتهم ودستور معيشتهم ، وليس أحد غيره أو أية قوة من قوى السماوات والأرض . وأن هذا الأمر قديم قدم البشرية كلها ، فقد نزل مع آدم منذ هبط آدم إلى الأرض : (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (١) فهو أمر ملازم للبشرية في تاريخها كله : أن يلتزموا هدى الله ويتصرفوا بمقتضاه .. وإلا فما هم بمسلمين .

كما فهموا من شهادة أن محمدا رسول الله ، أنه – صلى الله عليه وسلم – هو الرسول المعتمد لتبليغ هذه الرسالة : هذا الهدي الذي يلتزم البشر بطاعته واتباعه ، وأنه هو المبلّغ عن ربه الذي تنبغي طاعته مع طاعة الله : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ) (٢) ، (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) (٣) .

وأنه – صلى الله عليه وسلم – هو التطبيق العملي الحي لرسالة السماء ، فهو القدوة في كل عمل وكل تصرف ، وهو قائد الجماعة المسلمة ومربيها ، وأستاذها ومعلمها ، والنور الذي تستضيء به في الظلمات .

* * *

ذلك كان المفهوم العام – أو الإجمالي – لشهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله . المفهوم الذي كان الإنسان يعتبر مسلما بمجرد أن يستقر في خلده ، لأنه في حقيقته يمثل حقيقة الإسلام ، الكفيلة – وحدها – بمجرد استقرارها في ضمير إنسان أن تحول حياته ، وتوجهه إلى الطريق السويّ .. الطريق إلى الله .

وقد تفرعت عن هذا المفهوم الإجمالي – أو انبسطت معه بتوجيهات القرآن المفصلة وسلوك الرسول العملي – عدة مفاهيم أخرى ، كانت عميقة الغور في نفوس المسلمين الأوائل ، تنعكس في مشاعرهم وأفكارهم وتصرفاتهم ، وإن لم " يفلسفوها " كما نفلسفها نحن ، ويكتبوا فيها الكتب والمجلدات !

فهم المسلمون – بداهة – أن النية وحدها المضمرة في القلب لا يمكن أن تكون إسلاما ! وأنه ما لم تتحقق هذه النية في أعمال محسوسة وسلوك واقعي ، فهي لا تساوي شيئاً في ميزان الواقع وميزان الله . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : " ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي . ولكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل " (٤) .

ونحن – بعد أن تفلسفنا وتوسعنا في المعرفة السيكلوجية خاصة – ندرك صدق هذه البديهية وعمق دلالتها في حياة الإنسان .

إن الإنسان كثيرا ما يخيل إليه أنه مقتنع بفكرة ما تمام الاقتناع ، وأنه ممتلئ بها إلى حد التشبع ، وأنه ليس في حاجة إلى أن يحدث نفسه فيها أو يحدثه أحد غيره ، فهي مقررة في أعماق نفسه ، مستقرة فيها ، لا شك في أمرها ولا جدال .

ثم يكون هذا كله خداعا لا رصيد له من الواقع .. أو هو رصيد ضئيل لا يكفي لتحريك عجلة الحياة .

إنك وأنت جالس تحلم يخيل إليك أنك بدفعة صغيرة قد تستطيع أن تحرك الكون !! ثم تحاول تحريك منضدة من مكانها فإذا هي تثقل عليك ، وإذا أنت محتاج – لكي تزحزحها من مكانها – أن تزيد من قوتك الدافعة ، أو أن تنمي الرصيد الواقعي للرغبة الكامنة في نفسك ، حتى تتعادل مع المقاومة أولا ، ثم تأخذ في الزيادة بعد ذلك . وبقدر ما تزيد ، تكون الحركة المحسوسة في عالم الواقع ؛ وتكون الحركة هي المقياس الحقيقي للرصيد .

وليست هذه حقيقة خاصة بعالم الإنسان وحده ، ولكنها حقيقة من حقائق الكون الأكبر ، وجزء من ناموس الوجود .

وقد أدرك كل مخترع لآلة متحركة ، أن القوة الكامنة وحدها لا تكفي . وأنها ينبغي أولا أن تتحول من قوة كامنة إلى قوة ظاهرة – أي تتحول من النية إلى العمل – ثم تكون بالقدر الذي يكفي لا لمعادلة المقاومة فحسب ، بل للزيادة عليها ، حتى تنتج الحركة الحقيقية المطلوبة في واقع الحياة .

والحركة – قانون الوجود الأكبر – قائمة على هذه الحقيقة : تحويل القوة الكامنة إلى قوة ظاهرة ، وزيادة هذه القوة بحيث تتغلب على المقاومة ثم تتحرك في الاتجاه المطلوب .

والنفس الإنسانية – وهي طاقة كونية – تسير على القانون ذاته ، فلا فرق في طاقات الكون العظمى بين الماديات والمعنويات ! والمادة والطاقة شيء واحد في عرف العلم الحديث !

النية وحدها لا تكفي .. لأنها قوة كامنة لم تتحول إلى حركة وعمل ، ولم تجرب نفسها أمام العقبات !

والآن فلننظر : ما المعوقات " الطبيعية " في حياة الإنسان ، التي لا تكفي " النية " لمقاومتها .. والتي ينبغي تحويل هذه النية إلى قوة حقيقية لتعادلها أولا ، ثم تزيد عليها لتنتج الحركة الحقيقية في واقع الحياة ؟!

معوقات كثيرة كامنة في داخل النفس ، وموجودة كذلك في واقع الحياة .

فمن داخل النفس : الإلف .. والعادة .. والتقليد .. والرغبة في الحياة السهلة .. وكراهة الجهد .. وكراهة التعرض للتعب والأخطار ..

والعنوان العام الذي يجمعها هو " الهوى " أي الرغبة في الاستجابة لما تهواه النفس من نزعات .

وفي الواقع الخارجي : العرف الاجتماعي الظالم والقوى المنحرفة التي قد توجد في المجتمع وتسيطر عليه .

والعنوان العام الذي يجمعها هو " الطاغوت " أي كل قوة طغت عن حدها وتجاوزت خطها المستقيم .

الهوى من داخل النفس ، والطاغوت من خارجها ، هما " المقاومة " التي ينبغي أن تتحول النية إلى قوة حقيقية لتعادلهما أولا ، ثم تزيد عليهما لتنتج الحركة المستقيمة المتمشية مع ناموس الكون وإرادة الله .

والهوى من داخل النفس ، والطاغوت من خارجها قوى " حقيقية " واقعة متحركة ذات ضغط وثقل واندفاع . ومن ثم فالنية وحدها لا تكفي لمقاومتها ، فضلا عن التغلب عليها لإحداث الحركة المستقيمة في الطريق الصحيح .

وتلك بديهية من بديهيات النفس وبديهيات الحياة ، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدركها حق إدراكها وهو يقول : " ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ، ولكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل " . كما كان يدركها أصحابه الأوائل وهم يجاهدون ويجهدون ليقيموا أنفسهم على النهج ، ويقيموا المجتمع على قواعد الإسلام .

ما قيمة النية الطيبة المخلصة في واقع الحياة ؟!

أو – من جانب آخر – ما عيبها ؟

عيبها أنها خداع ! أنها تخيِّل إليك – وأنت تحلم – أنك بدفعة صغيرة قد تستيطع أن تحرك الكون !

ولكنك لم تجرب كم يحتاج من الجهد أن تحرك المنضدة من الأرض !

أنت مقتنع – بإخلاص – أنك نظيف القلب نقي السريرة مستقيم الطباع ، متصل بالله عامل بما يرضاه .

نعم .. ولكن حين يحتاج ذلك منك أن تمتنع عن رغبة من رغباتك ، أو تغير إلفك وعادتك ، أو تقاليد المجتمع الذي تعيش فيه ؟! حين يحتاج منك أن تقف في وجه الناس تحولهم عن انحرافهم ، أو تدفعهم عن طريقك لكي لا يحرفوا خطواتك عن الطريق .. وينالك من ذلك الأذى والألم والحرمان ؟!

حين يحتاج منك أن تواجه الطاغوت – أي أنواع الطاغوت – وتتعرض حياتك للأخطار ؟!

ما موقفك عندئذ ؟ وما الرصيد " الواقعي " للنية الطيبة الكامنة في ضميرك ؟!

حقا .. إنه لا قيمة لشيء ولا لعمل بدون هذه النية الكامنة في النفس . ولكن هي وحدها ما قيمتها إذا لم تتحول إلى قوة ظاهرة تعمل في واقع الحياة ؟

وهل كان تعنتا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول : " ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ، ولكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل " ؟

أم إن الرسول كان واقعيا إلى أقصى درجات الواقعية ؟

إن الرصيد الحقيقي لهذه النية الطيبة ، هو مقدرتها على مقاومة الهوى من داخل النفس ، والطاغوت من خارجها . فإذا لم تتحول إلى المقاومة الواقعية أو لم تقدر عليها .. فهل تزيد على فقاعة جميلة المنظر تنفثئ عند أول لمسة ، وتضيع في الفضاء ؟!

ومن أجل ذلك لم يكتف الإسلام قط بالنية الطيبة ، ولم يَتَلَةّ بها عن العمل المثمر في واقع الحياة .

ومن أجل ذلك لم يقل القرآن " الذين آمنوا " وإنما قال دائما : " الذين آمنوا وعملوا الصالحات " .. ما وقر في القلب وصدقه العمل ..

وكان الإسلام بذلك دين الفطرة ، لأنه يتمشى مع فطرة الكون وناموس الوجود .

* * *

وكان ذلك – كما قلنا – بديهية من البديهيات التي فهمها المسلمون الأوائل عن الإسلام .

ومن إدراكهم لهذه البديهية في المفهوم الإسلامي عملوا في عالم الواقع لتحقيق الفكرة الإسلامية ، ولم يكتفوا بالأماني الطيبة والمثل المعلقة في الفضاء .

عملوا في السلوك الفردي من ناحية ، وفي الواقع المادي للمجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية من ناحية أخرى .

لم يفهم أحد من المسلمين الأوائل أنه يستطيع أن يكون مسلما – بالنية الطيبة – وهو يخالف الإسلام في سلوكه الواقعي ، اعتمادا على أن الله " رب قلوب " وأنه مطلع على بواطن النفس ، مدرك للنوايا الطيبة المختفية وراء الأعمال !! وإنما أدركوا أن النية والعمل وجهان لأمر واحد لا دلالة لأحدهما بدون الآخر . النية الطيبة وحدها بدون عمل هي تَمَنٍّ فارغ لا رصيد له من الواقع . والعمل وحده المنقطع عن النية الطيبة ، عمل ضائع في السماء والأرض ، لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما

أريد به وجهه خالصاً – وهذا هو معنى النية الطيبة – ومقاييس الأرض ذاتها تكشف الزيف ولو بعد حين !

لم يفهم أحد من المسلمين الأوائل أنه يستطيع أن يكون مسلما – بالنية الطيبة – وهو ينساق مع هواه الذاتي في أمر من أمور الحياة ، إيثارا لمغنم قريب ، أو راحة متاحة ، أو ضنا بالنفس عن التعب والجهد والأخطار ! أو ينساق مع المجتمع – غير المسلم الذي كان يواجهه أولا – في تقاليده أو انحرافه ، إيثارا لراحة البال ، أو حرصا على المكانة والتقدير والاحترام في ذلك المجتمع ، أو صونا للنفس من أذاه ، سواء كان هذا الأذى هو الغمز واللمز والتحقير والسخرية ، أو كان الأذى المادي الذي يؤذي البدن ويحرم من القوت أو يعرض الحياة نفسها للزوال .

إنما أدركوا إن الإسلام معناه تنفيذ الإسلام في عالم الواقع . معناه أن السلوك الشخصي لكل منهم يجب أن يكون إسلاميا مهما ترتب على ذلك من الأخطار . وأن المجتمع الذي يتألف منهم يجب أن يكون إسلامياً كذلك ، مهما ترتب على ذلك من الأخطار .

وهنا حقيقة نذكرها ..

إن النفس لا تستقيم دائما على النهج ، ولا تقدر دائما على مواجهة الصعاب .

وإنها لتضعف أحيانا عن هذا وذاك : (وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً) (٥)

والله يعلم من عباده ضعفهم ، ويقيل منهم عثرتهم ويقبل توبتهم .. ما داموا لا يصرون على العصيان : (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ، وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (٦) .

ولكن هناك فرقا بين هذه الحقيقة المقررة في حياة البشرية ، وبين الظن بأن النية الطيبة وحدها تكفي للحياة وتكفي للإسلام ! .. فإنما قبل الله التوبة عن عباده وكتب على نفسه الرحمة ، للذين يجاهدون في تحويل النية الطيبة إلى عمل واقعي مثمر ، ثم يسقطون من الجهد في الطريق ، ولكنهم لا يصرون على سقطتهم ، إنما يقومون من عثرتهم ، يتوجهون إلى الله أن يقيلهم منها ، ويقبلهم في عباده .. فيمن الله عليهم

بالمغفرة والرضوان : (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً) (٧) .

* * *

ولم يفهم المسلمون الأوائل أنهم يستطيعون أن يكونوا مسلمين – بالنية الطيبة – ثم يتركوا المجتمع غير المسلم على ما هو عليه ، حتى ولو لم يجاروه في انحرافه وينساقوا معه في الانحراف .

وإنما فهموا أن معنى إسلامهم هو تحويل هذا المجتمع المنحرف إلى مجتمع مسلم يؤمن بالله ويلتزم بحدود ما أنزل الله .. وإلا فما هم بمسلمين !

وكان جهادهم كله هو حصيلة هذه الإدراك البديهي لمعنى الإسلام .

الإسلام حركة في داخل النفس وفي حقيقة الواقع .. وما كان من الممكن أن تستقر هذه العقيدة في نفوس المسلمين دون ان تتحول منها إلى واقع الحياة . وهذا هو الذي حدث في المجتمع الأول الذي نشأ فيه الإسلام . فبمجرد أن استقرت حقيقة الإيمان في نفوس المسلمين القلائل الذين رباهم الرسول صلى الله عليه وسلم وصنعهم على عينه ، أخذت الحركة تمتد من نفوسهم إلى المجتمع الخارجي المنحرف يريدون تقويمه ، وإلى النفوس الضالة يريدون هدايتها ، وإلى التقاليد المنتكسة يريدون رفعها إلى المستوى اللائق ببني الإنسان ، مهتدين في ذلك كله بهدي الله ورسوله ، والقدوة العملية المتمثلة في تصرفات الرسول .

ونجحوا .. لأنهم أرادوا ، وعملوا لتحقيق إرادتهم في عالم الواقع بعد أن حققوها في عالم الضمير ، وعندئذ كانوا مسلمين !

* * *

وكان من البديهيات التي أدركها المسلمون الأوائل أن هذا المجتمع – المسلم – ينبغي أن يقوم على شريعة الله ، وأنه لا يمكن أن يكون مسلما بمعزل عن شريعة الله .

وعلى هذه البديهية قام المجتمع الإسلامي فترة طويلة جدا من الوقت ، وكانت هذه سمته المتفردة التي يعرف بها ، ويتميز بها عن غيره من المجتمعات .

وقد أدرك هذه السمة المميزة في تاريخ الإسلام – القائمة على تلك البديهية – كل باحث في هذا التاريخ ، حتى المستشرقون ، الذين نصبوا أنفسهم – كما سيجيء في فصول الكتاب – لهدم هذه الركيزة الكبرى ، ومحاولة فصل المجتمع عن الشريعة في حياة المسلمين . حتى هؤلاء المستشرقون أنفسهم أدركوا قوة هذه السمة المميزة ، وعمقها في بنية المجتمع الإسلامي وشدة رسوخها فيه .

يقول جب Gibb في كتابه " الاتجاهات الإسلامية المعاصرة Modern Trends in Islam " :

" إن نوع المجتمع الذي تبنيه جماعة لنفسها يتوقف أساساً على معتقداتها حول كنه هذا الكون وغايته ، وحول مكان النفس الإنسانية فيه . وهذه نظرية مألوفة ألفة كافية ، ولا تفتأ منابر الكنيسة ترددها أسبوعا بعد أسبوع . ولكن ربما كان الإسلام هو الدين الوحيد الذي قصد في ثبات وإلحاح إلى بناء مجتمع وفق هذا المبدأ ، وقد كانت أداته الرئيسية لتحقيق هذا الغرض هي الشريعة " .

ويقول جرونيباوم Von Grunebaum في كتابه " الإسلام Islam " (الأقواس من عندنا للشرح) :

" إن الأمر الذي اقتضى عشرات السنين من المسيحيين الأوائل لكي يدركوه قد أدركه محمد (صلى الله عليه وسلم) بعد سنوات قليلة : وهو أنه ما دامت إرادة الله قد اقتضت أن تمتد الحياة الدنيا فترة من الوقت طالت أو قصرت ، فإن جماعته (الجماعة الإسلامية) ينبغي أن تستقر فيها ، في النقاء كامل مع تعاليم الوحي المنزل . ومن ثم أصبحت مهمة الجماعة أن تنشئ نمطاً شاملا للحياة في ظل الله (أي في ظل الوحي الإلهي) يشمل كل وجه من وجوه الوجود البشري ، من أول التصور إلى الدفن (أي يشمل الأمور الفكرية والمعنوية – التصورية – كما يشمل الأمور السلوكية والمادية) ويلغي كل تمييز بين المقدس والدنيوي من مظاهر الحياة ، بجعل كل دقيقة من دقائق هذه الحياة متصلة بعضها ببعض برباط الدين ، ومحتاجة إلى مراسم (دينية) لتكملتها عند أداء أي عمل من الأعمال مهما كان نوعه . وبهذه الطريقة توحدت صورة السلوك إلى حد ما ، ولكن الحياة كلها حتى أدق تفصيلاتها أعطيت صورة سامية مستمدة من دلالتها الدينية . ولم تكن حياة الفرد

وحده هي التي ينبغي أن تتحول إلى مجموعة متسقة من الأعمال التي يتطلبها الله منه ، بل إن المجتمع الإسلامي في مجموعه كان ينبغي أن يحول بالمثل : فصارت الدولة والجيش والخزانة (بيت المال) في اصطلاح المؤمنين الأوائل دولة الله وجيش الله وخزانة (بيت مال) الله " .

ويقول ولفرد كانتول سميث Wilfed Cantwell Smith في كتابه " الإسلام في التاريخ المعاصر Islam in Modern History " : في المقدمة : " وإذ كانت السمة الأولى المميزة للعالم الإسلامي هي أنه " إسلامي " فإننا نقدم لبحثنا بمحاولة لتوضيح ما تعنيه هذه الحقيقة " .

ثم يقول في ص ٢٦ – ٢٧ في فصل " الإسلام والتاريخ " (الأقواس الشارحة من عندنا) .

" .. لقد لاحظ الباحثون (في أمر هذا الدين) بروز وضع المجتمع في الإسلام ... ومن البيّن أن المجتمع الإسلامي ذو تماسك ملحوظ ، وأن ولاء أعضائه وترابطهم عظيم القدر . وقد أدرك كثيرون أن الجماعة (الإسلامية) ليست مجموعة اجتماعية فحسب ، بل مجموعة دينية . وأن " الدين والدولة " أمر واحد إذا استخدمنا تعبيرنا الغربي غير المناسب .. إن المجتمع الإسلامي لا يترابط بعضه مع بعض – كالمجتمعات الأخرى – بمجموعة من الولاءات والتقاليد فحسب ، وبنظام متقن السبك من القيم والعقائد . ولا هو نتاج مثل أعلى رفيع فحسب ، بل إنه ينبض بالحيوية الناجمة عن اقتناع شخصي عميق ، اقتناع ديني له حرارته ودلالته في نفس كل عضو من أعضائه . ونستطيع أن نقول إن هذا المجتمع – هذه الجماعة – هي التعبير عن المثل الأعلى الديني ، مستخدمين كلمة " ديني " بالمعنى الفردي الذي سبق شرحه . وإذا كانت عقيدة ما أو نظام ثيولوجي (قائم على أساس ديني) يمكن أن يكون تعبيرا عن الصورة العقلية للاعتقاد الشخصي – كما هو الشأن في كثير من الحالات ، وفي المسيحية بصفة خاصة – فإن النظام الاجتماعي بما يحويه من ألوان النشاط المختلفة هو التعبير – في صورة عملية – عن الاعتقاد الشخصي للمسلم " .

ولا نحتاج أن نمضي طويلا في اقتطاف النصوص أو تتبعها عند المستشرقين ، فقد أبرزوا كلهم هذه السمة الواضحة في المفهوم الإسلامي والتاريخ الإسلامي : وهي أن المجتمع الإسلامي منبثق من العقيدة الإسلامية وقائم عليها ، بحيث لا يمكن فصل المجتمع عن العقيدة ، ممثلة في سلوك عملي مستمد من التشريع الشامل الذي يأخذ كل منحى من مناحي الحياة .

وقد كانت تلك – كما أسلفنا – بديهية من بديهيات المفهوم الإسلامي عند المسلمين الأوائل ، فلا إسلام بغير مجتمع مسلم ، ولا إسلام بغير جهد واقعي – من كل فرد مسلم – لإقامة المجتمع على أسس مستمدة من شريعة الإسلام .

* * *

وكان من بديهيات هذه الإدراك كذلك ان الشريعة الإسلامية شيء شامل ، يشمل كل نشاط الإنسان على وجه الأرض .

لم يفهموا أن التشريع الإسلامي يقتصر على العبادات وحدها . أو على " الأحوال الشخصية ! " من زواج وطلاق وعتاق وإرث فحسب . وإنما فهموا أنه يشمل كذلك كل " المعاملات " التي يمكن أن تنشأ في المجتمع ، ما دام هذا المجتمع مسلما – أي قائما على أسس إسلامية – وما دام هذا المجتمع هو التعبير المباشر أو الانبثاق المباشر للفكرة الإسلامية في عالم الواقع والعيان .

البيع والشراء والملك والرهن والإجارة والدين .. وكل المعاملات " المدنية " أو " الاقتصادية " بين الفرد والفرد أو بين الفرد والمجتمع أو بين الفرد والدولة ، يشرع لها الإسلام ، وتقوم على أساس من هذا التشريع . فيحل البيع ويحرم الربا ، ويحرم الاحتكار ، ويحرم الغصب والسلب والنهب والغش والجور ، ويحرم تكديس الأموال في أيدي فئة من الأغنياء وحبسها عن بقية المجتمع ، وتؤدي أموال الزكاة وتنفقها الدولة في مصارفها المنصوص عليها ، وتحدد موارد لبيت المال وقواعد لتوزيع المال بين الناس . وتقوم من ذلك كله قواعد للعدالة الاجتماعية يحددها كتاب الله وسنة رسوله ، وتلتزم بها الدولة لتكون دولة مسلمة .

وسياسة الحكم ، وكل ما يترتب عليها من علاقات الفرد بالدولة والدولة بالفرد ، تحددها نصوص القرآن وروحه ، وتحددها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم

تحددها الجماعة المسلمة من وحي هذه وتلك . فَيُنَصّ على مبدإ الشورى . وعلى طاعة الله وطاعة الرسول ، وطاعة أولي الأمر المستمدة من طاعتهم لله والرسول كما حددها الخليفة الأول أبو بكر في صراحة حيث يقول : " أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم " وهو قول مستمد من نص حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق " (٨) .

والتشريع الجنائي له نصوص محدودة واضحة تلتزم الجماعة المسلمة بتنفيذها ، في حد القتل والزنا والسرقة والخمر والردة والإفساد في الأرض .. وفيما دون الحدود .. ملتزمين كذلك بالشروح النظرية والعملية التي تحتويها السنة ، من مثل : " ادرءوا الحدود بالشبهات " وقبول الفرد المجرم الذي يوقع عليه الحد فردا عاملا في المجتمع المسلم بمجرد توبته وإعلانه الإقلاع عن جريمته ، وعدم تعبيره بها ولا قفل سبل العيش الشريفة أمامه من أجلها (٩) ...

وتقاليد المجتمع وآداب السلوك وآداب الجنس تحددها كذلك تشريعات الإسلام وتوجيهاته ، فَيُنَصّ على أن السلام والإخاء والتعاون والمودة والبر هي سمات المجتمع المسلم المتصل بالله . وتُحَدّد طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة في المجتمع المسلم تحديداً صريحا واضحاً يشمل كل علاقات الجسد والروح ، ويُبَيّن ما تلبسه المرأة وما لا تلبسه وما تبديه وما تخفيه . وتبين آداب الجنس بما يحفظ نظافة المجتمع في ذات الوقت الذي ترضي فيه الفطرة السليمة وتشبع كل نوازع الحياة المستقيمة (١٠) .

وهكذا وهكذا تشمل الشريعة كل أمر من أمور الحياة .

* * *

وقد فهم المسلمون الأوائل من التشريع الإلهي أنه المصدر الدائم للحياة . وأنه لا مصدر سواه – ولا يمكن أن يكون مصدر سواه – لتنظيم الحياة البشرية على الأرض .

وكان هذا بديهية من بديهيات الإيمان الجاد بالله .. وإلا فما معنى هذا الإيمان – حين يكون جاداً ومستقراً في أعماق النفس – إذا لم يكن معناه التصديق بما يقوله الله

للناس في كتابه ، من أنه – سبحانه – أراد لهم الخير بما شرع لهم ، وأنه ألزمهم – إلزاماً جاداً – بتنفيذ ما شرع لهم ، وأنه يعتبرهم كافرين وظالمين وفاسقين إذا لم يحكموا بما أنزل الله ؟!

وما معنى الإيمان الجاد بالله إذا لم يصدق المسلم ما يقوله الله في كتابه ، من أن كل شرع غير شرع الله هو " هوى " لطائفة من البشر ، منحرف عن الحق ، وأن شرع الله وحده هو الحق ، لأنه صادر عن الحق الذي لا يظلم ولا يتبع الأهواء ؟

وما معنى الإيمان الجاد بالله إذا دار في خلد المسلم أن علم الله محدود ، وأن علم البشر وتجربتهم أفضل من علم الله وأصدق ، وأولى بالاتباع ؟!

وما معنى الإيمان الجاد بالله إذا دار في خلد المسلم أن هذا التشريع المفصل كله ، الموصول بناموس الكون وقوانين الوجود ، قد كان من أجل تلك الحفنة من العرب في شبه الجزيرة ، وفي فترة محدودة من حياتهم ، هي الفترة القصيرة التي قضاها الرسول صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم ، والله سبحانه وتعالى يقول له في كتابه إن هذا الدين للناس جميعاً : " للعالمين " : (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) (١١) (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (١٢) وإن القرآن – بكل ما يحوي من تشريعات وتوجيهات – هو الحق : (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ) (١٣) وهذا الحق موصول بناموس الوجود الأكبر : (وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) (١٤) فهذا التشريع الحق ، الذي بمقتضاه تجزى كل نفس بما كسبت ، هو من نفس الحق الذي خلق الله به السماوات والأرض ، وليس إذن حقاً جزئيا من أجل تلك الحفنة من العرب في شبه الجزيرة ، ولا موقوتاً بالفترة المحدودة التي قضاها الرسول صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم ، والله يقول للبشرية كافة – للعالمين – في آخر ما نزل من القرآن : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً) (١٥) .

ما معنى الإيمان الجاد بالله إذا دار في خلد المسلم شيء من ذلك كله ، أو ارتاب في " الحق " الذي يحمله هذا الدين ، بكل ما فيه من تشريع وتوجيه ؟

إنه تناقض مع حقيقة الإيمان بالله .. لا يقدم عليه مسلم صحيح الإيمان صحيح التفكير .

وقد مرت أربعة عشر قرناً منذ نزل هذا التشريع ، ومرت بالبشرية في أقطار الأرض تجارب شتى ، وتفلسف الناس وتعلموا ، ودرسوا في العلوم السياسية ما درسوا ، فإذا الخلاصة التي انتهوا إليها من هذا العلم كله : أن كل تشريع أرضي هو تعبير عن " الطبقة " التي تملك وتحكم ، وأنه يمثل مصالحها هي على حساب بقية الطبقات . فالإقطاع مرة يحكم ، فيشرع لحساب طبقة الإقطاعيين ولحماية مصالحهم على حساب بقية " الشعب " . ورأس المال مرة يحكم ، فيشرح لحساب طبقة الرأسماليين ولحماية مصالحهم على حساب العمال . ودكتاتورية البروليتاريا مرة تحكم ، فتشرع لحساب طبقة العمال (نظرياً على الأقل) على حساب بقية الآدميين .. ولم يحدث غير ذلك في التاريخ .

وهذا هو الذي قرره الله في كتابه ، من أن كل شرع غير شرع الله " هوى " يميل مع أصحابه حيث يميلون .

ثم .. لقد مرت أربعة عشر قرناً منذ نزل هذا التشريع ، ومرت بالبشرية في أقطار الأرض تجارب شتى ، فإذا هذه التجارب ذاتها تثبت أن كل ما انحرف به الناس عن شريعة الله قد سبب لهم شقوة مريرة لا تكاد تطاق ، وهدد أمنهم وراحتهم ، ومزقهم شيعاً ، وأذاق بعضهم بأس بعض ، فضلا عن الشقاء العالمي الشامل الذي أنتج في التاريخ المعاصر حربين متتاليتين في ربع قرن ، والثالثة على الأبواب تهدد بأفظع دمار عرفه التاريخ . وفضلا عن تفتت الأسرة وتحلل الأخلاق وتمزق أعصاب الفرد بين شتى الاتجاهات ، مما تشهد به أمراض الجنون والاضطرابات النفسية والعصبية وضغط الدم وحوادث الانتحار التي شهدت منها البشرية في هذا الجيل ما لم تشهده مجتمعاً في أجيال !

* * *

وقد أدرك المسلمون الأوائل مع ذلك – وإن لم يفلسفوا علمهم كما نفعل نحن في هذه الأيام – أن في الطبيعة البشرية عنصراً ثابتاً وعنصراً متغيراً على الدوام ، وإن ارتبط العنصران ارتباطاً كاملا في كيان الإنسان . وأدركوا كذلك أن تشريع الله الدائم

للبشرية في جميع عصورها وأجيالها ، قد كفل العنصر الثابت والعنصر المتغير معاً ، وربطهما ربطاً محكماً برباط الدين ورباط العقيدة في الله .

" في الإنسان عنصر ثابت مستمد من حقائق أزلية في تكوينه لا يغيرها تغير الأحوال والظروف :

" أنه صدر عن إرادة الله : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) (١٦) .

" وأن البشر جميعهم من نفس واحدة : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) (١٧) .

" وأن من هذا النفس – أي من جنسها – قد خلق " الزوج " الذي يلتقي بها ويوائمها : (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا (١٨)) (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) (١٩) .

" وأن من هذه النفس وزوجها انبث الخلق كلهم والشعوب : (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً (٢٠)) . (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ (٢١)) .

" وقد ترتب على هذه الحقائق الأزلية حقائق أخرى فصارت مثلها دائمة لا تتغير :

" ترتب عليها أن يحس الخلق – بفطرتهم ما دامت سليمة – يحسوا بعظمة الله بالقياس إلى ضآلتهم فيعبدوه ، ويستمدوا منه العون في الحياة .

" وترتب عليها أن يحس الزوجان – اللذان خلقهما الله من نفس واحدة – بحنين والتصاق بعضهما ببعض ، وأن وجودهما لا يتكامل إلا متحدين متوادين متراحمين .

" وترتب عليها أن يحس الناس – حين تصفو سريرتهم وتنظف نفوسهم – بالأخوة في الإنسانية ، إذ هم من نفس واحدة ذات رحم مع الجميع ، فيتعاونوا ويتشاركوا في الخير .

" تلك عناصر دائمة لأنها ترتكز على أسس دائمة .

" وثمت عناصر أخرى تجدّ كل يوم ، نتيجة تطور المعلومات البشرية ، والتفاعل الدائم بين العقل والكون ، يحاول أن يتعرف أسراره ، ويستكنه كنهه ، ويستخرج كنوزه

، ويسخرها لمنفعته ، فتقوم أوضاع جديدة ، وينتقل الناس من بداوة إلى حضارة ، ومن زرع إلى صناعة ، ومن صناعة إلى .. ؟

" والإسلام دين الفطرة ، يجاري الفطرة البشرية في جانبيها جميعا

" الجانب الأول يعطيه شرائع ثابتة . والجانب الآخر يعطيه أسسا ثابتة ، ثم يترك له مجال التطور الدائم في إطار تلك الأسس الثابتة ، متمشيا في ذلك مع فطرة الكون وفطرة الحياة .

" الجانب الأول يعطيه العقيدة . والعقيدة في الله واحدة لا تتغير ، لأن الأساس الذي تقوم عليه ثابت لا يتغير .

" وإلى جانب العقيدة يعطيه كذلك تشريعات الزواج والطلاق والحدود وتشريعات مدنية ودولية مختلفة .

" الزواج والطلاق – أو العلاقة بين الرجل والمرأة عامة – عنصر ثابت له تشريع ثابت ، لأنه يرتكز على أسس لا تتغير . هي الرجل من جهة ، والمرأة من جهة ، والعلاقة الشديدة التي تجذب كلا منهما للآخر وتشده إليه .

" والحياة تتغير ظروفها : المجتمع يتغير ، والاقتصاد يتغير ، ونظم التعليم تتغير . والسياسة تتغير . ولكن ذلك لا يغير شيئا من الحقيقة الثابتة التي تحكمها الفطرة بفسيولوجيتها وبيولوجيتها ، وغددها وكيماوياتها ، وهي أن الرجل رجل والمرأة إمرأة . ولا غنى لأحدهما عن الآخر ولا انفصال ولا استقلال (٢٢)

" والحدود – أي العقوبات المفروضة على الجرائم – عنصر ثابت كذلك لأنه يرتكز على شيء ثابت : هو علاقة الإنسان بأَخيه الإنسان – أو علاقة الفرد بالمجتمع – وحرمة كل إنسان التي لا يجوز أن يعتدي عليها الآخرون .

" والحياة تتغير ظروفها : ارتباطات العمل تتغير . وعلاقات الإنتاج تتغير . وعلاقات الإنسان " بالآلة " تتغير . والنظم السياسية تتغير . ولكن ذلك لا يغير شيئاً من الحقيقة الثابتة التي تحكمها وقائع التاريخ البشري . وهي أن الناس كلهم من نفس واحدة ، وعلاقة الرحم تربط الجميع " (٢٣) .

" وكذلك بعض التشريعات المدنية لها صفة الثبوت كالبيع والإجارة والرهن والدين والوكالة .. إلخ . فكانت لها تشريعات ثابتة . ومثلها التشريعات الدولية لتي تحكم علاقات الدول في السلم والحرب .

" أما الجانب المتطور من الحياة البشرية ، وهو في الوقت ذاته متصل بالجانب الثابت ، فهو سياسة الحكم وسياسة المال ، و " شكل " المجتمع أو شكل البيئة من بدوية إلى زراعية إلى تجارية إلى صناعية .. إلخ

" وتلك أمور كما قلنا تتطور بتطور العقل البشري وتفاعله مع الكون ، ولكنها في تطورها لا تنفصل عن الأصل الثابت ، ولا يمكن أن تنفصل ، بحكم وحدة الإنسان وترابطه ، واستحالة تجزئته وتقطيعه ، وفصل بعضه عن بعض .

" وفي هذه الأمور كان الإسلام حكيما غاية الحكمة ، مسايراً للفطرة ملبياً لحاجتها ، فوضع الخطوط العريضة ولم يضع التفصيلات . أو وضع " الإطار " الذي يريد للبشرية أن تتطور في حدوده ، وترك لكل جيل من الأجيال المتعاقبة أن يضع " الصورة " التي تناسبه وتعجبه ، وتتفق مع مزاجه وظروفه المادية ومبلغه من العلم والإنتاج . بشرط واحد . هو أن تكون الصورة على قدر الإطار ، لا أكبر منه فيتحطم ، ولا أصغر منه فيبدو حولها الفراغ .

" في سياسة الحكم وضع أساسين : العدل والشورى : (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) (٢٤) (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) (٢٥)

" ثم لم يحدد طريق الشورى . وهل يكون مجلس واحد أَو مجلسان . وهل ينتخب المجلس أو يعين . وهل يكون التمثيل شخصياً أو مهنياً .. إلخ .. إلخ .. وترك ذلك للتجارب البشرية واجتهادها في التطبيق .

" وفي سياسة المال وضع مجموعة من الأسس ذات طابع واحد يجمعها في النهاية : هو ضرورة اشتراك الناس في الخير ، بحيث لا يكون منه محروم .

" قرر القرآن أن المال في الأصل مال الله ، وهو أعطاه للجماعة : (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) (٢٦) . (وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ) (٢٧)

" وقرر أن الجماعة هي صاحبة الحق الأول فيه ، وأن الفرد " موظف " فيه يستحقه بحسن قيامه عليه ، فإذا لم يحسن القيام عليه عاد إلى الجماعة صاحبة الحق الأول فيه : (وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً) (٢٨) .

" وقرر أن الله يكره حبسه في يد فئة قليلة من الناس تتداوله فيما بينها ويحرم فيه مجموع الشعب : (كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ) (٢٩) .

" وقرر فريضة الزكاة على الأموال حقا معلوما للفقراء ، تأخذه لهم الدولة وتعطيه لهم من بيت المال : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ...) (٣٠) .

" والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :" الناس شركاء في ثلاث : الماء والكلأ والنار " (٣١) .

ويقول : " لأن يمنح أحدكم أخاه (أرضه) خير له من أن يأخذ خرجاً معلوما " (٣٢) .

" وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : " لولا آخر المسلمين ما فتحت قرية إلا قسمتها بين أهليها كما قسم النبي صلى الله عليه وسلم خيبر " (٣٣) .

" ثم لم يحدد طريق اشتراك الناس في مال الله الذي أعطاه للجماعة . وهل تكون بتأميم المرافق العامة . أم تكون بإشراك العمال في رأس المال ، أم تكون بإعطائهم الأجور التي تكفل حاجاتهم الضرورية التي بينها الرسول في حديثه : " من ولي لنا عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا ، أو ليست له زوجة فليتخذ زوجة ، أو ليس له خادم فليتخذ خادما ، أو ليست له دابة فليتخذ دابة " (٣٤) .

" لم يحدد صورة معينة من هذه الصور ، وترك الأجيال المتعاقبة تفكر لنفسها في الصورة التي تناسبها ، وتتلاءم مع إمكانياتها . ولم يضع – في سياسة المال أو سياسة الحكم – تفصيلات ثابتة جامدة ، لكي لا تصطدم بالنمو المطرد في أحوال الجماعة ، والتطور المستمر فيها . ولكنه مع ذلك لم يدع هذه الأمور تفلت من الأصول الثابتة . ولم يدعها للناس يتصرفون فيها بلا دليل ، بحجة أنهم أعلم بأمور " دنياهم " ! فقد كان هذا التصرف الحر – في أوربا ، وفي خارج الإطار الإسلامي عامة – شناعة بشعة يندى لها جبين الإنسانية " المتطورة " ! كان الإقطاع في أوربا ثم كانت الرأسمالية بكل ما فيهما من مظالم غنية عن الوصف .

وكلاهما حرام في نظر الإسلام ، فهما يجعلان المال – سواء في صورة أرض أو رأسمال – دُولة بين الأغنياء وحدهم ، ويحرم منه بقية الشعب . ثم كان الخلاص منهما هو الشيوعية – أي العبودية المطلقة للدولة ، والدكتاتورية المطلقة على الأفراد !

" والإسلام – كلمة الله لجميع البشر على الأرض ولجميع الأجيال – لم يكن ليترك الناس لمثل هذا " التطور " الذي يرسفون فيه في الأغلال ، وإنما يأخذ بيدهم دائماً ويرشدهم ، حتى وهو يترك لهم حرية النمو وحرية التكيّف مع ما يجدّ من الأوضاع ، ليكلا يشردوا عن الطريق ، ولكي يحتفظوا بتحررهم الوجداني الدائم في جميع الأوضاع وجميع الأحوال " (٣٥) .

وقد أدرك المسلمون الأوائل ذلك كله ، وإن لم يفلسفوه كما نصنع نحن ، فكان فقههم كله في الأمور الثابتة هو شرح النصوص وبيان حالات انطباقها مع المحافظة الكاملة عليها ، كما كان فقههم في الأمور المتغيرة – مع المحافظة الدائمة على أصولها – هو قولة عمر بن عبد العزيز : " يجدّ للناس من الأقضية (من الأحكام) بقدر ما يجد لهم من القضايا " .

* * *

وأدرك المسلمون كذلك من مفهوم الإسلام أن الأرض والسماء حسبة واحدة !

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة ، فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها ، فليغرسها فله بذلك أجر " .

" وأول ما يخطر على البال – من هذا الحديث – هو هذه العجيبة التي تتميز بها الفكرة الإسلامية : أن طريق الآخرة هو هو طريق الدنيا بلا اختلاف ولا افتراق !

" إنهما ليسا طريقين منفصلين : أحدهما للدنيا والآخر للآخرة ، وإنما هو طريق واحد يشمل هذه وتلك ، ويربط ما بين هذه وتلك .

" ليس هناك طريق للآخرة اسمه العبادة . وطريق للدنيا اسمه العمل .

" وإنما هو طريق واحد أوله في الدنيا وآخره في الآخرة . وهو طريق لا يفترق فيه العمل عن العبادة ولا العبادة عن العمل . كلاهما شيء واحد في نظر الإسلام .

وكلاهما مختلطان ممتزجان . وكلاهما يسير جنباً إلى جنب في هذا الطريق الواحد الذي لا طريق سواه .

" العمل إلى آخر لحظة من لحظات العمر . إلى آخر خطوة من خطوات الحياة . يغرس الفسيلة والقيامة تقوم هذه اللحظة . عن يقين !

" وتوكيد قيمة العمل ، وإبرازه ، والحض عليه ، فكرة واضحة شديدة الوضوح في مفهوم الإسلام . ولكن الذي يلفت النظر هنا ليس تقدير قيمة العمل فحسب ، وإنما هو إبرازه على أنه الطريق إلى الآخرة الذي لا طريق سواه .

" وقد مرت على البشرية فترات طويلة في الماضي والحاضر ، كانت تحس فيها بالفُرقة بين الطريقين . كانت تعتقد أن العمل للآخرة يقتضي الانقطاع عن الدنيا ، والعمل للدنيا يزحم وقت الآخرة .

" وكانت هذه الفرقة بين الدنيا والآخرة عميقة الجذور في نفس البشرية ، لا تقف عند هذا المظهر وحده ، وإنما تتعداه إلى مفاهيم أخرى تتصل بالكيان البشري في مجموعه .

" فالدنيا والآخرة مفترقتان .

" والجسم والروح مفترقان .

" والمادي يفترق عن اللامادي .

" والفيزيقا – بلغة الفلاسفة – تفترق عن الميتافيزيقا .

" والحياة العملية تفترق عن الحياة المثالية أو عن مفاهيم الأخلاق .

" إلى آخر هذه التفرقات التي تنبع كلها من نقطة واحدة ، هي التفرقة بين الدنيا والآخرة ، أو بين الأرض والسماء .

" .....

" والكيان النفسي بحكم فطرته التي فطره الله عليها .. وحدة .

" وحدة تشمل الجسم والعقل والروح . تشمل " المادة " و " اللامادة " . تشمل شهوات الجسد ورغبات النفس وتأملات العقل وسبحات الروح . تشمل نزوات الحس الغليظة وتأملات الفكر الطليقة ورفرفات الروح الطائرة .

" ولا شك أن جزئيات هذا الكيان متعارضة ، وأن كلا منها جانح في اتجاه .

" ذلك إذا تركت وشأنها ، ينبت كل نابت منها على هواه !

" ولكن العجيبة في هذا الكيان البشري ، عجيبة الفطرة التي فطره الله عليها ، أن هذا الشتات النافر المنتثر ، يمكن أن يجتمع ، يمكن أن يتوحد ، يمكن أن يترابط ، ثم يصبح – من عجب – في وحدته تلك وترابطه ، أكبر قوة على الأرض ! ذلك حين تقبس الذرة الفانية من قوة الأزل الخالدة ، فتشتعل وتتوهج ، وتصبح طليقة كالنور .. تمتزج فيها المادة واللامادة فهما سواء .

" والطريق الأكبر لتوحيد هذا الشتات النافر المنتثر ، وربطه كله في كيان ، هو توحيد الدنيا والآخرة في طريق .

" عندئذ لا تتوزع الحياة عملا وعبادة منفصلين ، ولا تتوزع النفس جسما وروحا منفصلين ، ولا تتوزع الأهداف عملية ونظرية ، أو واقعية ومثالية لا تلتقيان .

" حين يلتقي طريق الدنيا بطريق الآخرة ، وينطبقان فهما شيء واحد ، يحدث مثل هذا في داخل النفس ، فتقترب الأهداف المتعارضة ، ويلتقي الشتات المتناثر ، ثم ينطبق الجميع فهو شيء واحد . وتلتقي النفس المفردة – بكيانها الموحد – تلتقي بكيان الحياة الأكبر ، وقد توحدت أهدافه وارتبط شتاته ، فتتلاقى معه وتستريح إليه وتنسجم في إطاره ، وتسبح في فضائه كما يسبح الكوكب المفرد في فضاء الكون ، لا يصطدم بغيره من الأفلاك ، وإنما يربطها جميعاً قانون واحد شامل فسيح .

" والإسلام يصنع هذه العجيبة . ويصنعها في سهولة ويسر .

" يصنعها بتوحيد الدنيا والآخرة في نظام : (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) . (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .

" وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم الترجمة الكاملة الصادقة للفكرة الإسلامية . ومن ثم كانت الدنيا والآخرة في نفسه طريقاً واحدا و " حسبة " واحدة " (٣٦) .

* * *

وأدرك المسلمون كذلك أن " العبادة " في المفهوم الإسلامي معنى شامل جداً ، يشمل كل نشاط الحياة :

" من أبرز سمات المنهج الإسلامي أنه منهج عبادة ، ولكن العبادة في هذا المنهج ليست مقصورة على مناسك التعبد المعروفة من صلاة وصيام وزكاة .. وإنما هي معنى أعمق من ذلك جداً .. إنها الصلة الدائمة بالله .

" هذه الصلة في الحقيقة هي منهج التربية كله . تتفرع منه جميع التفريعات وتعود في النهاية إليه .

" والصلاة والصيام والزكاة والحج ، وسائر الشعائر التعبدية ، إن هي إلا مفاتيح . مجرد مفاتيح للعبادة ، أو " محطات " يقف عندها السائرون في الطريق يتزودون بالزاد . ولكن الطريق كله عبادة . وكل ما يقع فيه من نسك أو عمل ، أو فكر أو شعور ، فهو كذلك عبادة .. ما دامت وجهته إلى الله .

" والعبادة بهذا المعنى تشمل الحياة .

" إنها لا تقتصر على اللحظات القصيرة التي تشغلها مناسك التعبد ، وما كان هذا هو القصد من الآية الكريمة : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (٣٧) . وإلا فما قيمة لحظات عابرة في صفحة الكون ، لا تكاد تترك لها أثراً وتضيع في الفضاء ؟

" إنما قيمتها أن تكون منهج حياة يشمل كل الحياة . قيمتها أن تكون خطة سلوك وخطة عمل وخطة فكر وخطة شعور ، قائمة كلها على منهج واضح ، يتبين فيه – كل لحظة – ما ينبغي وما لا ينبغي أن يكون .

" ومرد الأمور كلها في ذلك هو الله ، هو المرجع الذي يرجع إليه في كل أمر ، ودستوره هو الدستور الذي يستشار في كل لحظة . يستشار في داخل القلب وفي وعي العقل وفي واقع السلوك .

" وهذه هي العبادة في مفهوم الإسلام .

" ليس معناها أن يتزهد الإنسان ويتنسك ويترهبن .

" وليس معناها أن تستولي التقوى على قلبه في السجود والركوع ، فإذا ختم صلاته هبت في داخل نفسه نوازع الطمع والجشع والعدوان . أو تخاذل عن القيام بالأمانة . أو ضعف عن نصرة الحق . أو تواكل عن العمل المنتج في عالم الحس

" كلا ! فما هو إذن موصول القلب بالله . إنه " متسكع " في " محطة العبادة " لكنه لا يسير في الطريق .

" والعبادة هي السير في الطريق ، مع التزود بين الحين والحين ؛ السير في الطريق والقلب يحمل الشحنة الحية الواصلة ، التي تدفع للعمل . تدفع دائماً إلى الأمام .

" والإسلام صريح في اعتبار العمل هو العبادة ، ما دام القلب يتجه فيه إلى الله : (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٨)) .

" هذا هو منهج العبادة الذي يرسمه الإسلام ويقيم عليه أسسه التربوية ، ويشترط فيه الصدق مع الله ، والتقوى لله ، أي الصلة الدائمة بالله (٣٩) " .

* * *

وأدرك المسلمون أن الإسلام معناه الاستعلاء .

(وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (٤٠)

أنتم الأعلون .. إن كنتم مؤمنين . فالاستعلاء صفة المؤمنين . ولكن أداته محددة واضحة لا تحتمل لبسا ، ولا تختلط بغيرها من الأدوات : " إن كنتم مؤمنين " أداته هي الإيمان !

إن الاستعلاء ليس مصدره قوة مادية أو معنوية من قوى الأرض . ليس مصدره المال . ولا الإنتاج المادي . ولا العصبية القومية . ولا العصبية العنصرية . ولا أي معنى من هذه المعاني التي يستعلي بها الناس في جاهلياتهم المتكررة على مدار التاريخ .

إنما الاستعلاء مصدره الإيمان .. وحده .

ولم يكن هذا خداعا من الله سبحانه لعبادة المؤمنين !

وإنما كان تربية لهم على الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فالشخص المؤمن – المهتدي بهدي الله ، والمهتدي – من ثم – إلى ناموس الكون وناموس الحياة – هو فعلا شخص " أعلى " من بقية المخلوقات . " أعلى " لأنه يشرف على الكون من أفق أكبر وأضخم من آفاق البشر الذين لم يفتح الله عليهم بنعمة الإيمان . وفكرته عن الله والكون والحياة أكبر وأضخم من فكرتهم . وفكرته عن الإنسان خاصة ، وعن الحياة الإنسانية ، هي أوسع وأشمل فكرة يمكن أن تخطر على قلب إنسان .

ثم إن هذه الفكرة الواسعة الشاملة عن الإنسان والحياة والكون ، هي ذاتها التي تحقق لهذا الاستعلاء في عالم الواقع ، رصيده من القوة المادية والمعنوية ، فإذا هو استعلاء متحقق في عالم الواقع كتحققه في عالم النفوس .

وقد أدرك المسلمون الأوائل هذه الحقيقة على أوسع مجالاتها وأعمقها .

فقد كان كل فرد منهم يدخل الإيمان في قلبه يحس من فوره أنه إنسان جديد أعلى من كل ما حوله من جاهليات الأرض .

ولم يكن ذلك – كما يبدو لأول وهلة – لأن الاهتداء إلى فكرة التوحيد ، يكشف للنفس عن تفاهة الأوثان وتفاهة التعبد إليها فيبعث في النفس الاستعلاء عليها . لقد كان هذا حقيقة ، ولكنه لم يكن كل الحقيقة في أمر الاستعلاء .

فلم تكن الوثنية مجرد " عقيدة " يواجهها المسلم بفكره وضميره فيستعلي عليها .

وإنما كانت " قوة " مادية ومعنوية .. قوة تتمثل في الرجال والمال والسلاح .. كما تتمثل في النفوذ والسيطرة والقدرة على الأذى والقدرة على الحيلولة بين الهدى وبين الوصول إلى الناس .

وهذا كله هو الذي استعلى عليه المسلمون الأوائل وهم أفراد ضئيلو العدد ضئيلو القوة ، لا حول لهم ولا طول . وصمدوا للكيد كله حتى انتصروا عليه .

فلم يكن استعلاء الفكر والمشاعر وحده . ولكنه استعلاء له رصيد في عالم الواقع يواجه القوة المادية والمعنوية ، المتمثلة في باطل الجاهلية التي تقف في طريق المؤمنين وتحاول تحطيمهم بكل سبيل .

ومرة أخرى استعلى المسلمون على جاهلية تفوقهم في القوة المادية والمعنوية حين جابهوا الفرس والروم .

فحين واجه المسلمون الفرس والروم ولم يستعلوا بعددهم – فقد كانوا قلة بالنسبة لهؤلاء – ولا بالمال فقد كانوا – بعد – أمة فقيرة تعيش على الكفاف ، ولا بالسلاح فقد كان أعداؤهم يفوقونهم لا بنوع السلاح وحده ، ولكن كذلك بالتنظيم الحربي والتمرس بفنون القتال المنظم على نطاق واسع ، غير ما عهده العرب في غاراتهم الصغيرة قبل الإسلام . ولا بعربيتهم – فقد كانوا فخورين بها حقاً ، ولكنها لم تدفعهم من قبل أبداً إلى مواجهة تلكما الإمبراطوريتين العتيدتين ، بل كانت بعض القبائل العربية تخدم نفوذهما ، وتعمل أجيرة لهما لتصد عنهما هجمات الأعراب . ولا بحضارتهم ، فقد كانت الإمبراطوريتان دون شك أعلى حضارة بما لا يقاس من سكان شبه الجزيرة في جميع العصور !

وإنما استعلوا بشيء واحد : هو الإيمان . استعلوا بإحساسهم أنهم – وهم مؤمنون – أفضل من كل هذه الخلق ، مهما كان عددها وقوتها وعتادها وحضارتها ونظمها وقوانينها وتشريعاتها .. فكلها انحرافات جاهلية ما دامت لا تهتدي بهدي الله ولا تتبع شريعة الله .

ثم كانت العجيبة التي علم الله أنها لا بد أن تحدث حين يستعلي الناس بالإيمان على طريقة الإسلام !

فقد سعت هذه القوة المستعلية بالإيمان ، إلى تحقيق ذاتها في عالم الواقع – في كل ميدان من ميادين القوة – فتعلمت العلم ، وتعلمت فنون الحرب ، وتزودت بأنواع السلاح ، وتعلمت الحضارة . وتحقق لها في عالم الواقع أن كانت أكبر قوة في تاريخ الأرض ، فاندفعت شرقاً وغرباً بسرعة مذهلة لا مثيل لها في التاريخ ، واندفعت – مستعلية – تنشر الهدى وتدك الباطل دكا ، متغلبة على جميع العوائق المرصودة في الطريق .

وفي كل مرة انتصر فيها المسلمون ، لم يكن مصدر استعلائهم أنهم ذوو رجال أو مال أو جيوش أو علم أو حضارة . وإنما كان مصدر استعلائهم أنهم مؤمنون . أنهم على الحق . والجاهلية من حولهم على الباطل .. ثم بعد ذلك – بعد الانتصار – صارت لهم الرجال والمال والجيوش والعلم والحضارة .. وحققوا من استعلائهم الداخلي بالإيمان استعلاءهم الخارجي بكل أنواع القوة والسلطان .

* * *

وأدرك المسلمون كذلك من مفهوم الإسلام أن الإنسان قوة فاعلة في هذه الأرض . أدركوا ذلك من توجيهات القرآن وسنة الرسول ، كما أدركوه من " الواقع " الذي عاشوه بتوجيه الله والرسول .

فهموا من قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) (٤١) أن الإنسان هو خليفة الله في الأرض ، المكلف بعمارتها وتنمية الحياة فيها بجهده وكدحه : (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ) (٤٢) وأن الله قد سخر للإنسان – من أجل القيام بمهمة الخلافة هذه – كل ما في السماوات والأرض : (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ) (٤٣) ولكن عليه أن يسعى بكدحه الخاص لاستخلاص ما سخر له الله من أرزاق وطاقات : (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ) (٤٤) .

كما فهموا من قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (٤٥) أن أحداث الحياة لا تحدث جزافاً . صحيح أن كل شيء يحدث بإرادة الله ، وأن لله علم ما في السماوات والأرض ، وأن عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو .. ولكن إرادة الله العليا قد اقتضت تكريم الإنسان – خليفته على الأرض – بإعطائه هذا الدور الإيجابي في الحياة ، ويجعل إرادة الله ماضية عن طريق إرادة الإنسان . وهكذا تصبح إرادة الإنسان – وأعماله – هي التي تصنع التاريخ وتصنع الأحداث . لأن الله – مع قدرته المطلقة سبحانه – لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، ولا يحدث لهم غير ما يحدثونه هم بأنفسهم لأنفسهم .

كما فهموا كذلك من قوله تعالى : (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ) (٤٦) أن الفساد ليس قدراً غيبياً ينزل بالأرض وهي غافلة عن أسبابه ، وإنما ينزل بالأرض بما كسبت أيدي الناس . فالناس هم القوة الفاعلة في حياة الأرض ، وحسبما يعملوا تكن نتيجة عملهم في الخير أو الشر .

ومن هذه المفاهيم كلها التي استوحوها من القرآن ، واستوحوها من جهاد الرسول الواقعي في مكافحة الشر ونشر الهدى ، ومن واقعهم الذي عاشوه في مواجهة جاهليتهم الأولى في شبه الجزيرة وبقية الجاهليات في الأرض .. أدركوا أن عليهم هم

أن يعملوا بأنفسهم في واقع الأرض . وأن الدين الذي يؤمنون به ويؤمنون بأنه الخير كله ، لا يقوم بذاته ، ولا ينتشر من تلقاء نفسه – وإن كان الله قادراً على ذلك – إنما يقوم بمجهودهم هم ، وعلى قدر مجهودهم ، ويقوم بمحافظتهم هم عليه ، وعلى قدر محافظتهم . وأنهم إن وهنوا أو تهاونوا في صغيرة أو كبيرة من أمر هذا الدين ، فسيصاب الدين بقدر ما يهنون أو يتهاونون . وأن عليهم من أجل ذلك أن يظلوا في يقظة دائمة لذات أنفسهم وللمجتمع المسلم الذي يعيشون فيه وللعالم من حولهم . وإلا فلا نصر ولا قوة ولا استعلاء ولا سلطان . لأن هذا كله لا يتحقق إلا بالإيمان الصحيح .. وذلك هو معنى الإيمان . وهذا معنى قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (٤٧)

يقول ولفرد كانتول سميث الذي سبق أن أشرنا إليه ، في مقارنة طويلة معجِبة بين نظرة الهندوكي والمسيحي والمسلم والماركسي لفكرة التاريخ ، ص ٣٢ من كتابه " الإسلام في التاريخ المعاصر " :

" يرى المسلم ، مثل الماركسي ، وعلى غير ما يرى الهندوكي ، أن ما يحدث هنا في هذه الأرض ذو دلالة باقية ولا مفر منها . إن بناء حياة الجماعة في الأرض على أسس سليمة هو الأمر الحتمي الأسمى . ولا شك أن المحاولة الإسلامية بالنسبة لكل المحاولات التي بذلت لنشر العدالة بين الناس كانت وما تزال إلى هذه اللحظة أشدها جداً وأكثرها جهداً . وإلى ما قبل قيام الماركسية كانت كذلك أكبرها وأشدها طموحاً . ومع ذلك فهي تفترق عن الماركسية في أن الإسلام يرى أن كل حدث دنيوي له مرجعان ، ويُنظر إليه في ضوءين معاً . فكل حركة يتحركها إنسان تتوافق (مع غيرها) في عالم الخلد وفي العالم الموقوت معاً . وخط السير المستمر للأمور الدنيوية هو مسرحية جماعية تعرض ما تنجزه الجماعة من عمل .. وفي ذات الوقت هو مجموعة من الأعمال المفردة المتميزة بعضها عن بعض ، يُسأل كل فرد بمفرده يوم القيامة عن نصيبه الذاتي فيها . أي أن كل عمل له نتائج من نوع معين في هذه الدنيا ، ونتائج من نوع آخر في العالم الآخر . وبعبارة أخرى فإن كل عمل ينبغي أن يوزن في ذاته ، كما يوزن من حيث صلته بالتطور التاريخي .

" ويستطيع الميتافيزيقي أن يقول إن هذا اللون من الحكم (على الأعمال) أقرب إلى الحقيقة الموضوعية لهذا العالم الذي نعيش فيه ، ولهذا الكائن (البشري) الذي يتكون منه البشر ، وللحياة التي يتكون منها تاريخ معيشتنا ، من أية نظرة ذات جانب واحد تنكر وجود قيم خلقية أسمى من الواقع الأرضي المستمر في الجريان . فالتاريخ ذو دلالة ، ذو معنى مطلق ، ولكن معناه لا ينتهي في ذاته . بل الأحرى أن هناك معايير ومقاييس ، أعلى من موكب الحوادث التي يتكون منها التاريخ ، وبهذه المعايير والمقاييس يمكن ، وينبغي ، الحكم على هذه الأحداث التاريخية ، وهي تُحكم بمقتضاها بالفعل (في الفكرة الإسسلامية) " .

* * *

كذلك كان مفهوم الإسلام في نفوس المسلمين .

وكانت حصيلة هذا المفهوم بأصوله وتفريعاته سمات معينة اتسم بها المجتمع الإسلامي ، وسلوكا معينا اتخذه المسلمون ، تميزوا به عن المجتمعات الأخرى كلها من قبلهم ومن بعدهم ، كما سجل ذلك المؤرخون جميعاً ، يستوي في ذلك المسلمون منهم ، والمستشرقون .

تميز هذا المجتمع بالطاعة لله وللرسول . طاعة جادة لا تتلكأ ولا ترتاب ..

وتظل الفروق الفردية بين الناس في مدى طاعتهم قائمة . ويظل الضعف البشري الذي يقعد بالنفس عن بلوغ المستوى السامق والاستواء عليه قائماً كذلك . ولكن هذا وذلك لا يغيران شيئاً من الحقيقة الواقعة التي تبلغ أن تكون سمة للمجتمع كله ، يسجلها من يعيشون فيها ومن يطلعون عليها من الخارج ، كما يسجلها الباحثون في غضون التاريخ .. سمة الطاعة الجادة لله ولرسوله ، بلا تلكؤ ولا ارتياب .

لم يحدث – في غير المجتمع الإسلامي – أن قام مجتمع بأسره يحاول تنفيذ أوامر الله ، ويحاول إقامة المجتمع كله على أساس تعليماته ، نتيجة الإيمان الجاد بها ، الإيمان الذي يرسخ في أعماق النفس ، ويستقر في أعماق الضمير .

كل فرد في هذا المجتمع يحس – بطبيعة إسلامه – أنه مكلف . مكلف بتبعات معينة لا فكاك منها ، ولا محاولة للجدال فيها ، حتى حين تضعف عنها النفس ،

وتنزوي عن القيام بالأمانة ، فهو ضعف يقرّ به صاحبه ولا يتبجح ، ولا يقول إن حكمه هو في الأمر خير أو أصح من حكم الله ورسوله .

كل فرد يحس أنه مكلف بطاعة الله وتنفيذ أوامر الله .

مكلف أن يكون هو في ذات نفسه مسلماً ، منفذاً لتعاليم الإسلام .

مكلف أن يكون سلوكه الشخصي مطابقا للصورة التي يريدها الله ورسوله للفرد المسلم ، لا في الكليات فحسب ، بل في أدق التفصيلات ؛ حتى طريقة السلام ، حتى طريقة الجلوس والمشي ، حتى طريق تنظيف الفم والأسنان .

ويحس – في أعماق ضميره – أنه لا يوجد صغير وكبير في هذه التكاليف . لا يوجد مهم وتافه . لا يوجد ضروري وغير ضروري .. إلا ما أباح الله ورسوله الخيار فيه بين الرخصة والعزيمة ، فهو عندئذ وما يستطيع . أما التكاليف المنصوص عليها فهي للطاعة والتنفيذ . التنفيذ الجاد المقترن بالإيمان بالله . والإيمان بأن الإنسان لا يكون مسلما إذا لم ينفذها بحذافيرها ، وبالصورة التي عينها الله ورسوله . يستوي في ذلك سواك الأسنان والجهاد في المعركة . حتى ليربط المسلمون بين هذه وتلك ، ويفسرون إبطاء النصر عليهم في إحدى المعارك بأنهم قد أهملوا السواك ! فينبه بعضهم بعضاً إلى الواجب المتروك ليستحقوا نصر الله !

ذلك أن مصدر السواك واحد في الأمرين : الطاعة لله وللرسول .

ويحس كل فرد مسلم أن عليه واجبا في ذات نفسه وواجبا في المجتمع الذي يعيش فيه .

واجبه في ذات نفسه – كما أسلفنا – أن يصنع من نفسه : من شعوره وتفكيره وسلوكه العملي جميعاً صورة مسلمة ، مطابقة – بقدر ما تطيق طبيعته – للصورة الإسلامية الصحيحة التي بينها القرآن وسنة الرسول . فيحب الناس ، ولا يحقد عليهم ، ولا يغتابهم ولا يلمزهم ، ولا يؤذيهم في كرامتهم ، كما لا تمتد يده بالأذى إلى أموالهم وأعراضهم ودمائهم ، ويخلص لهم النصيحة والمودة والإخاء . ويرعى الله في عمله فلا يغش ولا يخدع ولا يسلب ولا يغتصب . ولا يتقاعد عن العمل وهو قادر عليه . ويؤدي أماناته لله ، وهي أمانات شتى تبدأ بأمانة الإيمان بالله والاعتقاد بربوبيته والطاعة له ، وتتفرع عنها كل الأمانات الأخرى من عبادات ومعاملات .

وواجبه في المجتمع الذي يعيش فيه أن يعينه ويشترك معه ويحمل نصيبه من التبعة في إقامة هذا المجتمع على الأسس الإسلامية النظيفة القويمة . فلا يكفي أن يكون هو ذاته في سلوكه صورة من الفرد المسلم . وإنما ينبغي – لكي يتم إسلامه ويصح – أن يسعى لأن يكون المجتمع كله هو الصورة الإسلامية . وأن يحتمل في سبيل ذلك ما يكلفه إياه من الجهد والمشقة والجهاد .

أحس كل فرد مسلم وكل مسلمة أن هذا واجبهما في ذات نفسهما وفي مجتمعهما . لا فكاك ولا نكوص ولا تلكؤ ولا ارتياب .

ومن هنا كان المجتمع الأول – في مجموعه – هو تلك الصورة الوضيئة النظيفة .. النظيفة في الخلق وفي السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والنشاط الفكري والروحي والعملي والحربي .. وكل منحى من مناحي الحياة .

لم يحس المسلم أنه سيعبد ربه – فيما بينه وبين نفسه – ثم يكون سلوكه العملي كيف شاء أو كيف شاء أي مجتمع آخر غير مسلم . كما لم يحس أنه يستطيع أن يترك مجتمعه ينحرف عن سلوك الإسلام .

ولم تحس المسلمة أنه ستعبد ربها – فيما بينها وبين نفسها – ثم يكون سلوكها في ملبسها وزينتها وطريقة تعاملها مع الرجل وطريقة تفكيرها وشعورها كيف شاءت ، أو كيف شاء أي مجتمع آخر غير مسلم . كما لم تحس أنها تستطيع أن تترك مجتمعها ينحرف عن سلوك الإسلام .

إنما أحس كلاهما أن واجب إسلامه يلقي عليه تبعة ضخمة في ذات نفسه وفي ذات مجتمعه . تلزمه أن يكون في يقظة دائمة لكل صغيرة وكبيرة يأتيها هو أو مجتمعه . يقظة يحس فيها أنه في كل أمر من هذه الأمور محاسب أمام الله ، وأن عليه أن يحاسب فيها نفسه قبل أن يحاسبه الله .. وبذلك كانوا مسلمين !

* * *

ثم كانت حصيلة هذا الإدراك لمفهوم الإسلام ، أن أحست تلك الجماعة المسلمة أنها – بطاعتها لله واتباعها لشريعته وأوامره – هي القوة العليا في هذه الأرض . هي القوة المسيطرة المهيمنة ، التي ينبغي أن تأخذ بزمام البشرية كلها وتقودها إلى الطريق القويم .

لم يدخل في هذا الإحساس أي تقدير أو مقارنة للقوى المادية أو المعنوية بين هذه الجماعة وجماعات الأرض الأخرى التي لا تهتدي بهدي الله .

ولو دخل في حسابهم أي تقدير أو مقارنة بين عدد الرجال وقوة السلاح وقوة العلم وقوة الحضارة وقوة التنظيم . إلى آخر تلك القوى المادية والمعنوية ، لنكص المسلمون على أعقابهم ، بل لما فكروا قط في التحرك ، بل لا نزووا في داخل أنفسهم مدحورين مهزومين .. يحسون بالضآلة ويحسون بالهوان !

وإنما دخل في حسابهم شيء واحد . هو الحقيقة التي تنبع منها جميع الحقائق . أنهم هم المؤمنون . هم الطائعون لله ورسوله . وإذن فهم الأعلون . وكل قوى الأرض إزاءهم ضئيلة ضئيلة لا يقام لها حساب .

ثم كان هذا حقاً ...

فبطاعتهم لله ورسوله أصبحوا حقاً هم القوة العليا في هذه الأرض . القوة المسيطرة المهيمنة ، التي أخذت بزمام البشرية كلها وقادتها إلى الطريق القويم .

ولم يكن الفتح الحربي وحده هو حصيلة هذا الإحساس . وإن كان في ذاته ظاهرة مذهلة في التاريخ البشري .

وإنما كان الإسلام " حركة " قوية مندفعة بكامل حيويتها في كل اتجاه .

فالنظم والحضارات التي وجدها الإسلام في طريقه ، سرعان ما استوعبها ، وأعطاها روحه ، فصارت نظماً وحضارة إسلامية ، ثم بسطها الإسلام – بصورتها الإسلامية – في كل مكان وطئته أقدام المسلمين .

و " العلم " الذي وجده الإسلام في البلاد المفتوحة ، سرعان ما تبناه ، وتوفر عليه ، دراسة وبحثاً وتعميقاً وتوسعة ؛ ثم أعطاه طابعه الخاص فصار علماً إسلامياً ، ثم بسطه الإسلام – بصورته الإسلامية – في كل مكان وطئته أقدام المسلمين ، واستنار به لا المسلمون فحسب ، بل كل متعلم على ظهر الأرض .

يقول " جب " في كتابه " الاتجاهات المعاصرة في الإسلام " :

" أعتقد أنه من المتفق عليه أن الملاحظة التفصيلية الدقيقة التي قام بها الباحثون المسلمون قد ساعدت على تقدم المعرفة العلمية مساعدة مادية ملموسة ، وأنه عن طريق هذه الملاحظات وصل المنهج التجريبي إلى أوربا في العصور الوسطى :

ويقول " بريفولت في كتابه " بناء الإنسانية Making of Humanity " :

" لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ... ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد إلى أوربا الحياة ، بل مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية . ولكن على الرغم من أنه ليس ثمت ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون ، وأهم ما تكون ، في نشأة تلك الطاقة التي تكوّن ما للعالم الحديث من قوة متميزة ثابتة ، وفي المصدر القوي لازدهاره : أي في العلوم الطبيعية وروح البحث العلمي " .

وغير هذا وذلك من تقاليد الحياة وأساليبها ، وقيمها ومبادئها ، نشرته هذه الجماعة المسلمة المؤمنة بالله ، الطائعة لأوامره ، وظل راسخاً في بنية البشرية حتى بعد أن انحسر العالم الإسلامي وتخلى عن مهمته الأصيلة في الهيمنة على البشرية وقيادتها في الطريق القويم ، مما قرره مؤرخو الغرب المنصفون أنفسهم حتى وهم يكرهون الإسلام ، ويكيدون للإسلام !

ولكن الصورة الكاملة للمفهوم الإسلامي عن المسلمين الأوائل ، لن تتم في أذهاننا ، ولن نتصورها على حقيقتها ، حتى نرى إلى جانب هذه الصورة العامة ، صورة واقعية من الحياة الإسلامية كما تتبين في نماذج من المجتمع المسلم .

نماذج من المجتمع المسلم

قلنا في الفصل السابق إن المفاهيم العامة للإسلام لا يتم تصورها حتى نراها في صورة واقعية من حياة المجتمع المسلم الذي عاش هذه المفاهيم بالفعل ، وأخذها أخذاً جاداً ، فانفعلت بها نفسه ، وحققها في واقع سلوكه .

والمعتاد – وهو أمر طبيعي – حين تؤخذ نماذج للمجتمع المسلم ، أن تؤخذ هذه النماذج من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والصحابة البارزين الذين حققوا في ذوات أنفسهم بطولات فذة ، خالدة في تاريخ الإنسان وفي ضمير الكون .

وهو أمر طبيعي كما قلت . فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الأسوة والقدوة . وقد كانت كل دقيقة من دقائق حياته مبسوطة أمام المسلمين لتكون لهم النموذج الكامل

الدائم الذي يرجعون إليه في كل تصرفاتهم ، ويحاولون – بقدر ما يطيقون – أن يقبسوا منها ويقتدوا بها ، ويتأسوا بها في الشدائد والصعاب .

والصحابة رضوان الله عليهم هم نماذج " بشرية " .. صحيح أنها نماذج ممتازة ، نادرة في التاريخ البشري ، ولكنهم ولا شك بشر تشربت أرواحهم النور العلوي فارتفعت به ، وصارت إلى تلك النماذج العالية التي تشرف بها البشرية في جميع أعصارها وجميع أحوالها . والتأسي بهم والاقتداء بأعمالهم وأفكارهم ومشاعرهم محاولة مفتوحة أمام المسلمين في كل جيل ، يصلون منها إلى ما تقدر نفوسهم عليه .

فأخذ النماذج من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم ، أمر طبيعي حين يراد إعطاء صورة بارزة مكتملة للمجتمع المسلم ، خالدة على مدار التاريخ .

ولكنا هنا في هذا الكتاب خاصة ، الذي نتحدث فيه عن الإسلام " الشعبي " إن صح التعبير ، الإسلام المطلوب من كل فرد ، والمفروض فيه أن يقدر عليه كل فرد ، مع عمل حساب للفروق الفردية بين الناس في الطاقات والاستعدادات ، وعمل حساب للضعف البشري " الطبيعي " الذي يقعد بالإنسان عن بلوغِ القمة التي تقدر عليها طاقاته واستعداداته ، أو يقعد به عن الاستواء على هذه القمة حتى إذا وصل إليها أحياناً ...

هنا في هذا الكتاب خاصة لا نريد أن نقصر نماذجنا على حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وإن كان قدوة المسلمين في كل وقت وكل جيل ، ولا على الصحابة رضوان الله عليهم وإن كانوا دون شك من عمل الإسلام ، ونتيجة من نتائجه . بل لا نريد أن نقصر هذه النماذج على فترات البطولة الصاعدة في حياة الأفراد العاديين ، التي ترتفع بهم على ذواتهم ، وتجعل منهم أبطالا خالدين في ضمير الكون ، ولو لم يسجل التاريخ العادي منهم إلا مجرد أسماء .. أو أشخاصاً بلا أسماء !

إنما نريد أن نعرض – إلى جانب هذا كله – نماذج من حالات " الضعف البشري " في المجتمع المسلم ، حالات الهبوط عن القمة السامقة المطلوبة أو المرغوبة ، لنعطي صورة واقعية لهذا المجتمع في جميع صوره وحالاته من جهة ، وليعرف

الناس من جهة أخرى أن الإسلام نظام واقعي في مواجهته للنفس البشرية والواقع البشري ، وأنه لا يحملهم فوق طاقاتهم ، ولا يفترض فيهم الرفعة الدائمة التي لا تسقط أبداً ولا تهبط أبداً ، ولا يطلب منهم أن يلغوا بشريتهم ليكونوا مسلمين ، وإنما يعاملهم على أنهم بشر ، ويتطلب منهم ما يقدر عليه البشر . ثم ليرى الناس من جهة ثالثة كيف كان الإسلام في المجتمع المسلم يواجه لحظات الضعف العارضة ، التي تعرض للناس في حياتهم بسبب ثقلة الأرض وجواذبها ، وكيف كان يسعى إلى علاجها لترتفع النفوس من جديد ، وتصل إلى المستوى المطلوب ثم إلى المستوى المرغوب .

والآن نعرض هذه النماذج كما تعرض لنا بغير ترتيب معين مقصود :

* * *

" جاء أعرابي يوماً يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم شيئاً فأعطاه . ثم قال له : أحسنت إليك ؟ قال الأعرابي : لا . ولا أجملت ! فغضب المسلمون ، وقاموا إليه ؛ فأشار إليهم أن كُفُّوا . ثم دخل منزله ، وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئاً ، ثم قال : أحسنت إليك ؟ قال : نعم . فجزاك الله من أهل ومن عشيرة خيراً . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي شيء من ذلك ، فإذا أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي ، حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك . قال : نعم . فلما كان الغداة جاء ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن هذا الأعرابي قال ما قال ، فزدناه ، فزعم أنه رضي . أكذلك ؟ فقال الأعرابي : نعم . فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً . فقال صلى الله عليه وسلم : إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه ، فتبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفورا ؛ فناداهم صاحب الناقة : خلوا بيني وبين ناقتي ، فإني أرفق بها وأعلم . فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض ، فردها هوناً هونا ، حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها ، واستوى عليها . وإني لو تركتكم حيق قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار " .

* * *

أخرج أحمد والبخاري ومسلم من طريق الزهري ، قال أخبرني عبد الرحمن ابن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمي – قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غوة تبوك ، قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك ... وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ؛ والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يريد غزوة إلا ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز ، واستقبل عدداً كثيراً ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم بوجههم الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير لا يجمعهم كتاب حافظ (أي سجل تسجل فيه أسماؤهم) .

" قال كعب رضي الله عنه : فقلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه (من كثرة عددهم) ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل . وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وأنا إليها أصغو ، فتجهز إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولا أقضي شيئاً ، فأقول لنفسي : أنا قادر على ذلك إن أردت . فلم يزل ذلك يتهادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فأدركهم ، وليت أني فعلت ؛ ثم لم يقدر لي ذلك فطفقت إذا خرجت في النس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق ، أو رجلا ممن عذر الله ، ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : " ما فعل كعب بن مالك ؟ " فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عطفيه (أي الكسل والترف) فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عنه إلا خيراً ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

" قال كعب بن مالك : فلما بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توجه قافلا من تبوك حضرني بثي فطفقت أتذكر الكذب ، وأقول : بماذا أخرج من سخطه غداً ؟ وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي . فلما قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادماً زاح عني الباطل حتى عرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً ، فأجمعت صدقه ؛ وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادماً ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع ركعتين ثم جلس للناس . فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له . وكانوا بضعا وثمانين رجلا . فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم . ووكل سرائرهم إلى الله ، حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال لي : تعال . فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي : ما خلّفك ؟ ألم تكن قد اشتريت ظهرك (أي راحلتك) فقلت : يا رسول الله والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر . لقد أعطيت جدلا . ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى عني به ليوشكن الله أن يسخطك عليّ . ولئن حدثتك بحديث صدق تجد فيه علي (تسخط علي) وإني لأرجو فيه عقبى من الله . والله ما كان لي عذر . والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك . فقال صلى الله عليه وسلم : " أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك " فقمت . وبادرني رجال من بني سلمة وأتبعوني فقالوا لي : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ؛ لقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به المتخلفون . فلقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فو الله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذب نفسي . ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا : نعم . لقيه معك رجلان قالا ما قلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك . فقلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع وهلال بن أمية الواقفي ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدوا بدرا ، لي فيهما أسوة ، فمضيت حين ذكروهما لي .

" قال : ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس – أو قال : تغيّروا لنا – حتى تنكرت لي في نفسي

الأرض فما هي الأرض التي كنت أعرف . فلبثنا على ذلك خمسين ليلة . فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما . وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد . وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة وأقول في نفسي : هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ فإذا التفتّ نحوه أعرض عني . حتى إذا طال ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة – وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ – فسلمت عليه . فو الله ما رد عليّ السلام . فقلت له يا أبا قتادة أنشدك الله تعالى : هلى تعلم أني أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت . فعدت فنشدته فسكت . فعدت فنشدته . قال : الله ورسوله أعلم . ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار .

" وبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له إليّ حتى جاء فدفع إليّ كتابا من ملك غسان وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه : " أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ؛ ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة . فالحق بنا نواسك " . فقلت حين قرأتها : وهذه أيضاً من البلاء . فتيممت بها التنور فسجرتها . حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذ برسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : بل اعتزلها ولا تقربنها . وأرسل إلى صاحبيّ مثل ذلك . فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر . فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إن هلالاً شيخ ضائع وليس له خادم فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : " لا . ولكن لا يقربنك " . فقالت : إنه والله ما به من حركة إلى شيء ، ووالله ما زال يبكي من لدن أن كان من أمرك ما كان إلى يومه هذا . فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه . فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أدري ما يقول إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب .

" قال : فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا . قال : ثم صليت الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله منا : قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت ، سمعت صارخا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر . فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء الفرج . فآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى الفجر . فذهب الناس يبشروننا وذهب قِبل صاحبي مبشرون ، وركض إليّ رجل فرسا وسعى ساع من أسلم قبلي وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاء الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ فكسوتهما إياه ببشارته ، والله ما أملك غيرهما يومئذ . فاستعرت ثوبين فلبستهما فانطلقت أؤم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلقاني الناس فوجا بعد فوج يهنئونني بالتوبة ويقولون : ليهنك توبة الله عليك . حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحوله الناس ، فقام إليّ طلحة بن عبيد يهرول حتى صافحني وهنأني . والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره . قال : فكان كعب رضي الله عنه لا ينساها لطلحة .

" قال كعب رضي الله عنه : فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور : " أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك " . قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : " لا بل من عند الله " . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه . فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله : إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم . قال : " أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك " . فقلت : إني أمسك سهمي الذي بخيبر . وقلت : " يا رسول الله إنما أنجاني الله بالصدق . وإن من توبتي أن لا أحدّث إلا صدقا ما بقيت " . والله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مما أبلاني الله تعالى . والله ما تعمدت كلمة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا كذبا . وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي " .

* * *

قال ابن اسحق في حديثه عن غزوة بني المصطلق سنة ست على المريسيع (ماء لهم) : " فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك الماء بعد الغزو ، وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له جهجاه بن مسعود يقود فرسه ، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عون ابن الخزرج على الماء ، فاقتتلا ، فصرخ الجهني ، يا معشر الأنصار ، وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين . فغضب عبد الله بن أبيّ بن سلول ، وعنده رهط من قومه ، فيهم زيد بن أرقم وهو غلام حدث . فقال : أو قد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا . والله ما أعدّنا وجلابيب قريش (الجلابيب اسم كان المنافقون يلقبون به المهاجرين) إلا كما قال الأول : سَمِّنْ كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم : أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم . فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوه فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب . فقال : مُرْ به عباد بن بشر فليقتله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؟ لا . ولكن أذن بالرحيل " . وذلك في ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها . فارتحل الناس ؛ وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه ، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به . وكان في قومه شريفا عظيما . فقال من حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل – حدبا على ابن أبي بن سلول ودفعا عنه

قال ابن إسحق : فلما استقل رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار لقيه أسيد بن حضير فحياه بتحية النبوة وسلم عليه . ثم قال : يا نبي الله والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ " قال : وأي صاحب يا رسول الله ؟ قال : " عبد الله بن أبي

" . قال : وما قال ؟ قال : " زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل " . قال : فأنت يا رسول الله والله لتخرجنه منها إن شئت . هو والله الذليل وأنت العزيز . ثم قال : يا رسول الله ارفق به . فو الله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه . فإنه ليرى أنك استلبته ملكا !

" ثم مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس . ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما ، وإنما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشغل الناس عن الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبيّ .

قال ابن اسحق : ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين ، في ابن أبيّ ومن كان على مثل أمره ، فلما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذن زيد بن أرقم ثم قال : " هذا الذي أوفى إلى الله بإذنه " .. وبلغ عبد الله بن أبيّ الذي كان من أمر أبيه .

قال ابن اسحق : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبيّ فيما بلغك عنه . فإن كنت لا بد فاعلا فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه . فو الله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده مني . وإني أخشى أن تأمر غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبيّ يمشي في الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمنا بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا " .

" وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم " كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته " قال : قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمري " .

وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله بن أبيّ على باب المدينة واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما

جاء أبوه عبد الله بن أبيّ قال له ابنه : وراءك ! فقال : ما بك ؟ ويلك ! فقال : والله لا تجور من ها هنا حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه العزيز وأنت الذليل ! فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان إنما يسير ساقة (أي في مؤخرة الجيش ينظر المتخلف والضال والمحتاج إلى معونة) فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه . فقال ابنه عبد الله : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له . فإذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أما إذ أذن لك رسول الله صلى الله عليه سولم فَجُز الآن !" ...

" وهذا عبد الله (ابن عبد الله بن أبيّ) رضي الله عنه وأرضاه نموذج رفيع للمسلم المتجرد الطائع : يشقى بأبيه ويضيق بأفاعيله ويخجل من مواقفه ، ولكنه يكن له ما يكنه الولد البار العطوف . ويسمع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يقتل أباه هذا . فيختلج قلبه بعواطف ومشاعر متباينة ، يواجهها هو في صراحة وفي قوة وفي نصاعة . إنه يحب الإسلام ويحب طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحب أن ينفذ أمره ولو في أبيه . ولكنه لا يطيق أن يتقدم أحد فيضرب عنق أبيه ويظل يمشي على الأرض بعده أمام ناظريه . وهو يخشى أن تخونه نفسه ، وألا يقدر على مغالبة شيطان العصبية ، وهتاف الثأر . وهنا يلجأ إلى نبيه وقائده ليعينه على خلجات قلبه ، ويرفع عنه هذا العنت الذي يلاقيه . فيطلب منه إن كان لا بد فاعلا أن يأمره هو بقتل أبيه . وهو لا بد مطيع . وهو يأتيه برأسه . كي لا يتولى ذلك غيره ، فلا يطيق أن يرى قاتل أبيه يمشي على الأرض ، فيقتله ، فيقتل مؤمناً بكافر .. فيدخل النار ..

" وإنها لروعة تواجه القلب أينما اتجه وأينما قلّب في هذا الموقف الكريم . روعة الإيمان في قلب إنسان وهو يعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكل إليه أشق عمل على النفس البشرية – أن يقتل أباه – وهو صادق النية فيما يعرض . يتقي به ما هو أكبر في نظره وأشق .. وهو أن تضطره نوازعه البشرية إلى قتل مؤمن بكافر ، فيدخل النار .. وروعة الصدق والصراحة وهو يواجه ضعفه البشري تجاه أبيه وهو يقول : " فو الله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده مني . وهو يطلب من نبيه وقائده أن يعينه على هذا الضعف ويخرجه من هذا الحرج

، لا بأن يرد أمره أو يغيره – فالأمر مطاع والإشارة نافذة – ولكن بأن يكل إليه هو أن يأتيه برأسه !

" والرسول الكريم يرى هذه النفس المؤمنة المتحرجة ، فيمسح عنها الحرج في سماحة وكرامة : " بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا " .. ومن قبل هذا يكف عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رأيه : " فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه " ؟

" ثم تصرف الرسول صلى الله عليه وسلم في الحادث تصرف القائد الحكيم .. وأمره بالسير في غير أوان ، ومتابعة السير حتى الإعياء ، ليصرف الناس عن العصبية المنتنة التي أثارها صياح الرجلين المتقاتلين : يا للأنصار ! يا للمهاجرين ! وليصرفهم كذلك عن الفتنة التي أطلقها المنافق عبد الله بن أبي بن سلول ، وأرادها أن تحرق ما بين الأنصار والمهاجرين من مودة وإخاء فريدين في تاريخ العقائد وفي تاريخ الإنسان ..

" وأخيراً نقف أمام المشهد الرائع الأخير : مشهد الرجل المؤمن عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ، وهو يأخذ بسيفه مدخل المدينة على أبيه فلا يدعه يدخل ، تصديقاً لمقاله هو : " ليخرجن الأعز منها الأذل " ليعلم أن رسول الله هو الأعز ، وأنه هو الأذل . ويظل يقفه حتى يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأذن له . فيدخلها بإذنه . ويتقرر بالتجربة الواقعة من هو الأعز ومن هو الأذل . في نفس الواقعة . وفي ذات الأوان .

" ألا إنها لقمة سامقة تلك التي رفع الإيمان إليها أولئك الرجال . رفعهم إلى هذه القمة وهم بعد بشر بهم ضعف البشر ، وخوالج البشر . وهذا هو أجمل وأصدق ما في هذه العقيدة ، حين يدركها الناس على حقيقتها ، وحين يصبحون هم حقيقتها التي تدب على الأرض في صورة أناسي تأكل الطعام وتمشي في الأسواق " (٤٨)

* * *

قال أنس بن مالك : " بينما أنا أدير الكأس على أبي طلحة وأبي عبيدة بن الجراح وأبي دجانة ومعاذ بن جبل وسهيل ابن بيضاء حتى مالت رءوسهم من الخمر ، إذ سمعت مناديا ينادي : ألا إن الخمر قد حرّمت . قال : فما دخل علينا داخل ولا

خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب وكسرنا القلال . وتوضأ بعضنا ، واغتسل بعضنا ، وأصبنا من طيب أم سليم ثم خرجنا إلى المسجد " (٤٩) .

وعن أبي بريدة عن أبيه قال : " بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر ، إذ قمت حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه ، وقد نزل تحريم الخمر ، فجئت أصحابي فقرأت الآية عليهم إلى قوله : " فهل أنتم منتهون ؟ " قال : وبعض القوم شربته في يده شرب بعضاً وبقي بعض في الإناء ، فأراقوا ما في كئوسهم ، ثم صبوا ما في باطيتهم وقالوا : انتهينا ربنا . انتهينا ربنا " (٥٠)

" وما تكونت عصابات للتهريب ، ولا لجأت الدولة إلى أحكام الإعدام والسجن ومصادرة الأموال والأملاك ، ولكنها المبادرة إلى التنفيذ في يسر وطاعة امتثالا لأمر القرآن (٥١) " .

وعن صفية بنت شيبة قالت :

" بينما نحن عند عائشة ، قالت : فذكرن نساء قريش وفضلهن ، فقالت عائشة : إن لنساء قريش لفضلا ، وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار ولا أشد تصديقا لكتاب الله ، ولا إيمانا بالتنزيل . لما نزلت في سورة النور : (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم منها ، يتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابته ، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرجّل فاعتجرت به (٥٢) تصديقا وإيمانا بما أنزل الله من كتاب " (٥٣) .

* * *

" كان المشركون في مكة قد منعوا عددا من المؤمنين من الهجرة وحبسوهم بها وقيدوهم بالأغلال وعذبوهم ليفتنوهم عن دينهم ، فلما كان عهد الحديبية ، نص فيه على أن من يهرب منهم ويأتي المدينة يرده الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكة . وقد استطاع أبو بصير " عتبة بن أسيد " أن ينفلت من محبسه ، وسار على قدميه سبع ليال حتى وصل المدينة ، فبعث المشركون في إثره برجلين ليتسلماه وفاء بعهد الحديبية ، وكان موقفا عنيفا على المؤمنين أن يردوا شابا مؤمنا إلى المشركين ليعذبوه بعد ما لقي منهم من عذاب وما بذل من جهد ومشقة حتى بلغ المدينة ، وظن أبو بصير أنه قد أمن واستراح من الفتنة والعذاب ، ولم يتصور أن يسلمه

الرسول صلى الله عليه وسلم لأعدائه . فلما أمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يرجع ، ودفعه إلى سفيري قريش ، قال : يا رسول الله تردني إلى المشركين يفتنوني في ديني ؟ فقال له : " يا أبا بصير : إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجا ومخرجا " . فقال أبو بصير متعجبا : يا رسول الله ! تردني إلى المشركين ؟! فقال له : " انطلق يا أبا بصير ، فإن الله سيجعل لك مخرجا " . ودفعه إلى الرجلين ليعودا به إلى مكة " (٥٤) .

* * *

" قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان : يا أبا عبد الله . أرأيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبتموه ؟ قال : نعم يا ابن أخي قال : فكيف كنتم تصنعون ؟ قال والله لقد كنا نجهد . فقال : والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا . قال ، فقال حذيفة : يا ابن أخي ، والله لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق ، وصلى رسول الله صلى عليه وسلم هوياً من الليل ثم التفت إلينا فقال : " من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع – يشرط له رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجعة – أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة ؟ " فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد ، فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني . فقال : " يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يصنعون ، ولا تحدث شيئاً حتى تأتينا " قال : فذهبت ، فدخلت في القوم ، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل ، ولا تقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء . فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش لينظر امرؤ من جليسه ... ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام . لقد هلك الكراع والخف (يعني الخيل والجمال) وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون . ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء . فارتحلوا إني مرتحل ... قال حذيفة : فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم يصلي في مرط (أي كساء) لبعض نسائه مرجل (من وشي اليمن) فلما رآني أدخلني إلى رجليه ، وطرح على طرف المرط ، ثم ركع وسجد وإني لفيه

. فلما سلم أخبرته الخبر .. وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم " .

" ... لقد كان الهول الذي واجهه المسلمون في هذا الحادث من الضخامة ، وكان الكرب الذي واجهوه من الشدة ، وكان الفزع الذي لقوه من العنف ، بحيث زلزلهم زلزالا شديدا ، كما قال عنهم أصدق القائلين : (هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً) ..

" لقد كانوا ناسا من البشر . وللبشر طاقة . لا يكلفهم الله ما فوقها . وعلى الرغم من ثقتهم بنصر الله في النهاية ، وبشارة الرسول صلى الله عليه وسلم لهم ، تلك البشارة التي تتجاوز الموقف كله إلى فتوح اليمن والشام والمغرب والمشرق . على الرغم من هذا كله ، فإن الهول الذي كان حاضرا يواجههم كان يزلزلهم ويزعجهم ويكرب أنفاسهم .

" ومما يصور هذه الحالة أبلغ تصوير خبر حذيفة . والرسول صلى الله عليه وسلم يحس حالة أصحابه ، ويرى نفوسهم من داخلها ، فيقول : " من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ؟ " – يشرط له الرسول صلى الله عليه وسلم الرجعة – ومع الدعاء المضمون بالرفقة مع رسول الله في الجنة فإن أحدا لا يلبي النداء . فإذا عين بالاسم حذيفة قال : فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني ! .. ألا إن هذا لا يقع إلا في أقصى درجات الزلزلة ..

" ولكن إلى جانب الزلزلة ، وزوغان الأبصار ، وكرب الأنفاس .. كان إلى جانب هذا كله الصلة التي لا تنقطع بالله ، والإدراك الذي لا يضل عن سنن الله ، والثقة التي لا تتزعزع بثبات هذه السنن ، وتحقق أواخرها متى تحققت أوائلها . ومن ثم اتخذ المؤمنون من شعورهم بالزلزلة سببا في انتظار النصر . ذلك أنهم صدقوا قول الله سبحانه من قبل : (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) .. وها هم أولاء يزلزلون : فنصر الله إذن منهم قريب ! ومن ثم قالوا : (هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) .. (وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً) .

(هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ) .. هذ الهول وهذا الكرب وهذه الزلزلة وهذا الضيق ، وعدنا عليه النصر . فلا بد أن يجيء النصر : (وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) صدق الله ورسوله في الأمارة وصدق الله ورسوله في دلالتها . ومن ثم اطمأنت قلوبهم لنصر الله ووعد الله : (وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً) .

" لقد كانوا ناسا من البشر ، لا يملكون أن يتخلصوا من مشاعر البشر وضعف البشر . وليس مطلوبا منهم أن يتجاوزوا حدود جنسهم البشري ، ولا أن يخرجوا من إطار هذا الجنس ، ويفقدوا خصائصه وميزاته . فلهذا خلقهم الله . خلقهم ليبقوا بشرا ، ولا يتحولوا جنسا آخر . لا ملائكة ولا شياطين ، ولا بهيمة ولا حجرا .. كانوا ناسا من البشر يفزعون ويضيقون بالشدة . ويزلزلون للخطر الذي يتجاوز الطاقة . ولكنهم كانوا – مع هذا – مرتبطين بالعروة الوثقى التي تشدهم إلى الله ؛ وتمنعهم من السقوط ؛ وتجدد فيهم الأمل وتحرسهم من القنوط . وكانوا بهذا وذاك نموذجا فريدا في تاريخ البشرية لم يعرف له نظير .

" وعلينا أن ندرك هذا لندرك ذلك النموذج الفريد في تاريخ العصور . علينا أن ندرك أنهم كانوا بشرا لم يتخلوا عن طبيعة البشر ، بما فيها من قوة وضعف . وأن منشأ امتيازهم أنهم بلغوا في بشريتهم هذه أعلى قمة مهيئة لبني الإنسان في الاحتفاظ بخصائص البشر في الأرض مع الاستمساك بعروة السماء " (٥٥) .

* * *

عن بريدة قال : " جاء ماعز بن مالك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله طهرني ، فقال . ويحك ! ارجع فاستغفر الله وتب إليه . قال فرجع غير بعيد ثم جاء فقال : يا رسول الله طهرني . فقال النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك ، حتى إذا كانت الرابعة قال رسول الله : مم أطهرك ؟ قال : من الزنا . فسأل رسول الله : أبه جنون ؟ فأخبر رسول الله أنه ليس بمجنون . فقال أشرب خمرا ؟ فقام الرجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر فقال : أزنيت ؟ قال : نعم ! فأمر به فرجم . فلبثوا يومين أو ثلاثة ثم جاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : استغفر الماعز بن مالك ، لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم . ثم جاءته امرأة من غامد من الأزد ، فقالت : يا رسول الله طهرني . فقال : ويحك ! ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه .

فقالت : تريد أن تردني كما رددت ماعز بن مالك ؟ إنها حبلى من الزنا ! فقال : أنت ؟ قالت : نعم ! قال لها : حتى تضعي ما في بطنك . قال : فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : قد وضعت الغامدية . فقال : إذن لا نرجمها وندع ولدها صغيرا ليس له من ترضعه . فقام رجل من الأنصار فقال : إليّ رضاعه يا نبي الله . قال فرجمها . ويروى أنه قال لها : اذهبي حتى تلدي . فلما ولدت قال : اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه ، فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز ، فقالت : هذا يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام . فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها ، وأمر الناس فرجموها ، فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد ، فسبها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مهلا يا خالد ، فو الذي نفسي بيده ، لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ، ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت " .

* * *

" يروى أنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان ضرب قيمة كل حلة منه أربعمائة ، وضرب كل حلة قيمتها مئتان . فمر إلى الصلاة وخلف ابن أخيه في الدكان ، فجاء أعرابي وطلب حلة بأربعمائة ، فعرض عليه من حلل المئتين ، فاستحسنها ورضيها واشتراها ، فمضى بها ، وهي على يديه ، فاستقبله يونس ، فعرف حلته ، فقال للأعرابي : بكم اشتريت ؟ فقال : بأربعمائة . فقال : لا تساوي أكثر من مائتين ، فارجع حتى تردها ! فقال : هذه تساوي في بلدنا خمسمائة وأنا ارتضيتها . فقال يونس : انصرف ، فإن النصح في الدين خير من الدنيا بما فيها . ثم رده إلى الدكان ، ورد عليه مائتي درهم وخاصم ابن أخيه في ذلك ، وقال له أما استحييت ! أما اتقيت الله ! تربح مثل الثمن وتترك النصح للمسلمين ! فقال : والله ما أخذها إلا وهو راض بها . قال : فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك ؟ " (٥٦) .

* * *

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً) .

" لقد اختار النبي صلى الله عليه وسلمل لنفسه ولأهل بيته معيشة الكفاف ، لا عجزاً عن حياة المتاع ، فقد عاش حتى فتحت له الأرض ، وكثرت غنائمها ، وعم فيؤها ، واغتنى من لم يكن له من قبل مال ولا زاد ! ومع هذا فقد كان الشهر يمضي ولا توقد في بيوته نار . مع جوده بالصدقات الهبات والهدايا . ولكن ذلك كان اختياراً للاستعلاء على متاع الحياة الدنيا ورغبة خالصة فيما عند الله . رغبة الذي يملك ولكنه يعف و يستعلي ويختار .. ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكلفا من عقيدته ولا من شريعته أن يعيش مثل هذه المعيشة التي أخذ بها نفسه وأهل بيته ، فلم تكن الطيبات محرمة في عقيدته وشريعته ؛ ولم يحرمها على نفسه حين كانت تقدم إليه عفوا بلا تكلف ، وتحصل بين يديه مصادفة واتفاقا ، لا جريا وراءها ولا تشهيا لها ، ولا انغماساً فيها ، ولا انشغالا بها .. ولم يكلف أمته كذلك أن تعيش معيشته التي اختارها لنفسه ، إلا أن يختارها من يريد ، استعلاء على اللذائذ والمتاع ، وانطلاقاً من ثقلتها إلى حيث الحرية التامة من رغبات النفس وميولها .

" ولكن نساء النبي صلى الله عليه وسلم كن نساء ، من البشر ، لهن مشاعر البشر . وعلى فضلهن وكرامتهن وقربهن من ينابيع النبوة الكريمة ، فإن الرغبة الطبيعية في متاع الحياة ظلت حية في نفوسهن . فلما أن رأين السعة والرخاء بعدما أفاض الله على رسوله وعلى المؤمنين راجعن النبي صلى الله عليه وسلم في أمر النفقة . فلم يستقبل هذه المراجعة بالترحيب ، إنما استقبلها بالأسى وعدم الرضا ، إذ كانت نفسه صلى الله عليه وسلم ترغب في أن تعيش فيما اختاره لها من طلاقة وارتفاع ورضى ، متجردة من الانشغال بمثل ذلك الأمر والاحتفال به أدنى احتفال ، وأن تظل حياته وحياة من يلوذون به على ذلك الأفق السامي الوضيء المبرأ من كل ظل لهذه الدنيا وأوشابها . لا بوصفه حلالا وحراما – فقد تبين الحلال والحرام – ولكن من ناحية التحرر والانطلاق والفكاك من هواتف هذه الأرض الرخيصة .

" ولقد بلغ الأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم من مطالبة نسائه له بالنفقة أن احتجب عن أصحابه . وكان احتجابه عنهم أمراً صعباً عليهم يهون كل شيء دونه . وجاءوا فلم يؤذن لهم . روى الإمام أحمد – بإسناده – عن جابر رضي الله عنه قال : أقبل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس ببابه جلوس ، والنبي صلى الله عليه وسلم جالس فلم يؤذن له . ثم أقبل عمر رضي الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له . ثم أذن لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فدخلا والنبي صلى الله عليه وسلم جالس وحوله نساؤه وهو صلى الله عليه وسلم ساكت . فقال عمر رضي الله عنه لأكلمن النبي صلى الله عليه وسلم لعله يضحك . فقال عمر رضي الله عنه يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد – امرأة عمر – سألتني النفقة آنفاً فوجأت عنقها ! فضحك النبي صلى الله عليه والسلام حتى بدت نواجذه ، وقال : ' هن حولي يسألنني النفقة " ! فقام أبو بكر رضي الله عنه إلى عائشة ليضربها وقام عمر رضي الله عنه إلى حفصة كلاهما يقولان : تسألان النبي صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده ؟! فنهاهما الرسول صلى الله عليه وسلم فقلن : والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا المجلس ما ليس عنده .. قال : فأنزل الله عز وجل الخيار ، فبدأ بعائشة رضي الله عنها فقال : " إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك " قالت : ما هو ؟ قال فتلا عليها (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ .. الآية) قالت عائشة رضي الله عنها : أفيك أستأمر أبويّ ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله . وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت ! فقال صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى لم يبعثني معنفاً ، ولكن بعثني معلما ميسراً . لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها ""

" ونحب أن نقف لحظات أمام هذا الحادث نتدبره من بعض زواياه .

" إنه يحدد التصور الإسلامي الواضح للقيم ، ويرسم الطريق الشعوري للإحساس بالدنيا والآخرة ، ويحسم في القلب المسلم كل أرجحة وكل لجلجة بين قيم الدنيا وقيم الآخرة ؛ بين الاتجاه إلى الأرض والاتجاه إلى السماء . ويخلص هذا القلب من كل وشيجة غريبة تحول بينه وبين التجرد لله والخلوص له وحده دون سواه .

" هذا من جانب . ومن الجانب الآخر يصور لنا الحادث حقيقة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم والذين عاشوا معه واتصلوا به . وأجمل ما في هذه الحقيقة أن تلك الحياة كانت حياة إنسان وحياة ناس من البشر ، لم يتجردوا من بشريتهم ومشاعرهم وسماتهم الإنسانية . مع كل تلك العظمة الفريدة البالغة التي ارتفعوا إليها ، ومع كل هذا الخلوص لله والتجرد مما عداه . فالمشاعر الإنسانية والعواطف البشرية لم تمت في تلك النفوس ولكنها ارتفعت ، وصفت من الأوشاب . ثم بقيت لها طبيعتها البشرية الحلوة ، ولم تعوق هذه النفوس عن الارتفاع إلى أقصى درجات الكمال المقدر للإنسان " (٥٧) .

* * *

من هذه النماذج المتفرقة التي تجمع بين البطولات النادرة ولحظات الضعف العارض .. تتبين لنا صورة من المجتمع المسلم الذي عاش فيه المسلمون الأوائل ، في ظل إدراكهم الصحيح لمفهوم الإسلام ، وأخذهم الأمور أخذاً جاداً كما ينبغي للمؤمنين بهذا الدين ، الذين يقدرون معنى الإيمان ، ويقدرون التبعات التي يلقيها على عاتقهم وجودهم الإنساني الصحيح .

نعم .. ليست المسألة فرائض يفرضها هذا الدين على الناس بلا موجب . إلا رغبة التحكم في العباد !

إنما هو الوجود الإنساني الصحيح .. إذا رغب الإنسان أن يكون إنسانا حقاً .. لا مجرد كائن يأكل ويشرب ، ويقضي أيامه على هذه الأرض كيفما اتفق ، وكيفما شاءت له نزوة اللحظة التي يعيش فيها .. بلا تقدير لنواميس الكون ، ولا لموضع الإنسان المتميز في هذا الكون كله .. بوصفه خليفة الله .

وقد كان هذا هو التقدير الصحيح " للإنسان " في نفوس المسلمين الأوائل الذين عاشوا في ظل الإسلام . استمدوه من كلام الله وسنة رسوله . وعاشوه في واقع حياتهم . فكان حقاً لهم أن يسودوا الأرض ، وأن يكونوا فيها القوة العليا ، التي تهيمن على البشرية وتقودها في الطريق الصحيح .

فالإسلام في حقيقته هو وضع الإنسان في وضعه الصحيح . هو تعريف الإنسان بما يشتمل عليه من طاقات واستعدادت ، ووضع هذه الطاقات والاستعدادات في

وضعها الصحيح بعضها من بعض ، ثم إطلاقها للعمل ، في تناسقها وتكاملها ، المتسق مع ناموس الكون ، فتأخذ صورتها الحقيقية : لا قوة أرضية صغيرة محدودة ، ولكن قوة كونية ، متفاعلة مع الكون مهتدية بناموسه الأكبر الذي خلقه الله .

ومن ثم تقع منها تلك المعجزات التي وقعت في هذا المجتمع المسلم ، والتي اقتطفنا منها هذه النماذج المفردة ، والتي سجل لها التاريخ أنها كانت أكبر محاولة جادة لإقامة الحياة بين الناس في الأرض على أسس من العدالة ، وأكبر محاولة جادة لتنمية الحياة في جميع مرافقها ، المادية والروحية ، الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والعملية .. على مستوى " إنساني " نظيف ، لا يقصر الخير على فئة معينة من الناس بدافع من الأنانية البغيضة ، وإنما يبذل الخير للناس كلهم ، حتى أولئك الذين لا يؤمنون بهذا الدين ، بل حتى أولئك الذين كانوا يحاربونه من الصليبيين !

* * *

هذه الصورة العالية من الإيمان .. هذه الصورة العالية من تقويم " الإنسان " ووضعه في الوضع الصحيح بالنسبة " للوجود الإنساني " .. هذا الانطلاق العالي بالطاقة البشرية في جميع ميادين العمل والفكر والشعور .. هذه الصورة النظيفة للكيان البشري ، التي لا تخرج به مع ذلك عن بشريته ، وإنما تأخذ منه أفضل ما يعطيه مع المحافظة على كل خصائص الإنسان .. هذه الصورة العالية كيف انحرفت عن السبيل ؟!

كيف صار المسلمون إلى ما صاروا إليه اليوم من انحراف عن الإسلام ، وكيف انحسر مفهوم الإسلام في نفوسهم إلى هذه الصورة الهزيلة ، التي صارت – في أحسن حالاتها – مجموعة من الشعائر التعبدية " المخلصة " ، وفي معظم حالاتها عبادة لله " بالنية الحسنة ! " ، وفي أسوأ حالاتها خروجاً صريحاً على الدين ، ونفوراً منه وانسلاخا من كل رابط يربطهم بتعاليمه ؟

لا شك أن انحرافاً عظيما وقع في نفوس المسلمين .

فمجرد المقارنة بين صورة المجتمع المسلم والمجتمع الذي نعيش فيه ، تبين لنا الفرق المذهل بين المجتمعين ، وتكاد تفصل بين المجتمع الذي نعيش فيه وبين الإسلام !

لولا هذه الصيحات المتكررة في أنحاء العالم الإسلامي ، الداعية إلى العودة للإسلام

، ولولا أولئك الأفراد ، المتفرقون في العالم الإسلامي ، الذين يدركون المفهوم الصحيح للإسلام ، ويعيشونه في واقع حياتهم – بقدر ما يطيقون في مجتمع غير مسلم – ثم يدعون الناس أن يدركوا هذا المفهوم معهم ، ويعيشوا معهم فيه .

ولا شك كذلك أن عوامل عنيفة جداً هي التي أثرت على المجتمع المسلم وأثرت على المفهوم الإسلامي حتى صار إلى ما صار إليه .. فليس من الطبيعي أن تذهب هذه القوة كلها بددا بدون مؤثرات عنيفة ، وليس من الطبيعي أن ينحدر تقدير الإنسان لنفسه ، ولطاقاته واستعداداته ، فينزل من موقف الرفعة والقوة والاستعلاء إلى موقف الهبوط والضعف والهوان .. إلا أن تكون قد عملت في نفسه عوامل فظيعة مدمرة أفسدت كيانه .

والآن فلننظر كيف بدأ وكيف امتد خط الانحراف .

خط الانحراف

كيف بدأ خط الانحراف وكيف امتد ؟

هل كان من الممكن أن يحتفظ المجتمع الإسلامي بصورته الرفيعة العالية إلى فترة طويلة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذهاب التأثير المباشر الذي كان لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم على نفوس الناس ؟

لا نكون واقعيين إذا أجبنا على هذا السؤال بالإيجاب !

ولكنا لا نكون واقعيين كذلك إذا قلنا إن وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذهاب تأثير شخصيته المباشر على نفوس الناس ، معناه تحطيم المجتمع الإسلامي وتدمير قواعده من الأساس .

لا نكون واقعيين .. ولا نكون مؤمنين !

لا نكون واقعيين ، لأننا نبخس الكيان البشري قدره إذا قررنا أن إيمان الإنسان بالمثل والمبادئ والقيم شذوذ في حياته ، يحتاج إلى قوى خارقة لتثبيته ، فإذا احتجبت تلك القوى الخارقة ذهب الإيمان !

نبخسه قدره ونغفل الواقع الذي عاشه الإنسان بالفعل على مدار التاريخ ، مؤمناً بالمثل والقيم والمبادئ ، وعاملا على نشرها وتثبيتها ، وكادحاً من أجلها في واقع الحياة .

ونغفل الواقع الإسلامي كذلك ، الذي عاشه الإسلام أكثر من ألف عام !!

ولا نكون مؤمنين ، إذا تصورنا إن الله سبحانه يصنع للناس هذا الصنيع كله ، فينزل عليهم كتابه ، ويرسل إليهم رسوله ، ويكلفه ما كلفه من إقامة أمة على هدى الكتاب ، وتربيتها على تشريعاته وتوجيهاته ، ويفصّل لهم في كتابه ما فصل من التشريع والتوجيه .. ليكون ذلك كله موقوتا ببضع سنين .. أو بضع عشرات من السنين !

إنه عبث يتنزه عنه بعض الفانين من أهل هذه الأرض .. فضلا عن أن يصدر عن الله خالق الكون والحياة !

كلا ! لم يكن الأمر الطبيعي أن تتقوض أركان المجتمع المسلم وتنحرف أصوله لمجرد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذهاب تأثيره المباشر على نفوس الناس .

ولم يكن طبيعياً كذلك أن تظل على مستواها السامق الرفيع !

كان طبيعياً أن تهبط بعض الشيء !

فقد ارتفع الناس كلهم على ذواتهم بالتأثير المباشر لشخصية الرسول .

فحين يذهب هذا التأثير المباشر ، فمن الطبيعي أن يرجعوا إلى ذواتهم ويعيشوا في هذه الحدود . نعم . ولكن ما هذه الحدود ؟

إنها الحدود التي يصنعها الإسلام .. وفرق بين الإسلام وبين شخصيته الرسول !

" يا أيها الناس : من كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات .. ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ! "

تلك الكلمة الصادقة التي قالها أبو بكر رضي الله عنه عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

والإسلام كلمة الله .. فهي كلمة حية لا تموت !

وتأثير الإسلام في نفوس الناس دائم ، لأنه يعقد الصلة المباشرة بين قلوب الناس وبين الله .. الحي الذي لا يموت .. فيتبعون كلماته ، ويربون أنفسهم على ما يريد .

ثم إن تاثير شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ليس مقصوراً على فترة حياته ، فالقدوة فيه والأسوة قائمة كا فتح الناس لها القلوب ..

ومن هنا ظل الناس مسلمين بعد وفاة الرسول !

وإذا كانت الفترة " المثالية " من حياة الإسلام لم تدم ، ولم يكن مقدراً لها في علم الله وفي طبائع الأشياء أن تدوم ، فقد كان ينبغي أن توجد ، لتظل صورة باهرة معروضة للأنظار ، تحاول الأجيال المتعاقبة منها ما تستطيع ، ويصل إلى مستواها الرفيع أفراد متعاقبون على مدار الأجيال ، يعيدون للإسلام قوته وحيويته كلما بعد العهد ، وطالت الشقة ، وتهاوى الناس في الطريق !

وتلك – فيما نحسب – حكمة وجود تلك الفترة النادرة بكل مثاليتها ، كما قدرها الله في عليائه ، وكما تحققت في واقع المسلمين في أربعة عشر قرنا توالت فيها الظلمات والنور !

* * *

كان من المروض إذن أن يستمر المجتمع الإسلامي مسلماً ، ويمتد في أرجاء الأرض ، ويقيم قواعد الإسلام ، ويعيش في مفهومه .. إلى ما يشاء الله بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقد حدث شيء كبير من ذلك الأمر المفروض ، ولفترة طويلة جداً من التاريخ .

لم تستو الحياة – في كل جوانبها – على الأفق الأعلى الذي كان وقت حياة الرسول وخلفائه الراشدين ، ولكنها ظلت مع ذلك عالية .. عالية جداً بالنسبة لكل ما عرفته الأرض من نظم وقيم وحضارات .

وقد مر بنا من قول المستشرق ولفرد كانتول سميث أن المحاولة الإسلامية لنشر العدالة بين الناس كانت وما تزال أشد المحاولات جداً وأكثرها جهداً . كما مر بنا من أقوال غيره من المستشرقين ما يبين كيف امتد المد الإسلامي في مختلف مرافق الحياة حتى شمل الأرض المعروفة كلها في ذلك الحين ، واستضاءت به أوربا في كل مرفق من مرافق نهضتها الأخيرة في العصر الحديث .

والمعاني " الإنسانية " التي رسخها المسلمون في الضمير البشري ، والتي التقطتها أوربا في الحروب الصليبية مرة ، وفي الجامعات الإسلامية في الأندلس والشمال الأفريقي مرة .. داخلة كما مر بنا من قول بروبفولت في كل الأسس الحضارية التي يقوم عليها العالم المتحضر اليوم .

فليس صحيحاً إذن ما اندس في أوهام بعض المسلمين أنفسهم ، من أن الإسلام قد انتهى بعد فترة الرسول والخلفاء الراشدين !

الصحيح فقط أن الفترة المثالية قد انتهت ، وبدأت فترة " عادية " من تاريخ الإسلام ، وإن كانت – وهي عادية بالنسبة للإسلام – أعلى فترة في تاريخ الأرض .

* * *

ولكن خط الانحراف بدأت منذ ذلك الحين .

بدأ منذ العصر الأموي أول كسر في المبداىء الإسلامية في سياسة الحكم وسياسة المال ، إذ بدأ " الملك العضوض " بنظامه الوراثي ومظالمه ، وبدأ ما يشبه الإقطاع في محيط الأمراء وأتباع السلطان .

ومع ذلك فقد ظل المجتمع إسلامياً في مجموعه . كانت العاصمة وحدها هي التي فسدت . فسدت فساداً جزئيا في سياسة الحكم والمال بالنسبة للملوك والأمراء . ولكن ما زال أولئك الحكام أنفسهم – رغم انحرافهم – يقرون بمبادئ الإسلام ويحكمون شريعة الله في شئون الناس ، كبيرها وصغيرها ، مع التحايل عليها أحياناً فيما يختص بأشخاصهم وأقربائهم قي شئون الحكم والمال .

وهو فساد ما في ذلك شك . ولكنه كما قلنا فساد جزئي لم يتعد العاصمة إلى بقية المجتمع الإسلامي . ولم يتأثر به المسلمون – إلا قليلا – في حياتهم اليومية ، فظلوا يعيشون في مفهوم الإسلام ويكيفون به حياتهم ، ويعملون – في عالم الواقع – على نشر المد الإسلامي في بقاع الأرض ، شاعرين بالعزة التي قررها الله لذاته – سبحانه – ولرسوله وللمؤمنين . شاعرين بالاستعلاء الذي يصنعه الإيمان في نفوس المؤمنين . شاعرين بالتبعة الكبرى التي يفرضها الإيمانا عليهم في ذوات أنفسهم وفي مجتمعهم . شاعرين بالإخاء الحقيقي الذي يجمع المؤمنين بعضهم إلى بعض . شاعرين بالمودة والتعاون . شاعرين أنهم أمة واحدة : يدخل المسلم إلى أي قطر من أقطار الأرض المسلمة ، فإذا هو – بصرف النظر عن الحكومات وخلافاتها – أخ لكل من فيه من المسلمين ، يتلقى منهم المودة والمعونة والأخوة ، ويمنحهم من نفسه ما يمنحونه من نفوسهم . شاعرين أن المال مال الله ، والناس كلهم شركاء فيه ، لا الغني مستأثر ولا الفقير محروم . شاعرين أن سلوكهم الشخصي ينبغي أن يكون

مطابقا لما يريده الله ورسوله . بقدر ما وسعهم من جهد – وهو جهد كبير في واقع الأمر – وأن شريعة الله هي المصدر الدائم للحياة ، والدستور الذي لا دستور غيره لحكم حياتهم وتنظيم العلاقات بين الناس . وأن عليهم أن يعملوا في عالم الواقع بالعلم والعمل والجهد الجاد لتحقيق الاستعلاء والقوة ، وهداية البشرية كلها إلى النور .

وفي ذلك كانت الفتوح التي يعرفها التاريخ في كل مناحي الحياة .

* * *

ثم جاء العصر العباسي .. ودخل الفرس في توجيه سياسة الدولة وتشكيل صورتها . ودخل في " الفكر الإسلامي " بعض المفاهيم الغريبة عليه – وأبرزها الصوفية والفلسفة النظرية التجريدية الغريبة على التصور الإسلامي في واقعيته المثالية – كما دخل العاصمة كثير من ألوان الفساد الخلقي ، وانتشر في قصور الخلفاء والأمراء والأتباع جو من اللهو والفسوق والتفاهة والانصراف عن الكدح والجد .. لا يعرفه الإسلام ولا يمكن أن يسيغه . من جوارٍ ومطربين وملهين ، وألوان من البذخ الفاحش ، والترف الفاجر ، و " أدباء " يُمِدُّون لهذا كله ليرتزقوا .. ويقدمون المادة المتعفنة التي تستهلكها هات القصور ، ويبعدون " بالفن " عما يمكن أن يكون فناً إسلامياً حقيقياً ، ينبع من الحقيقة الإسلامية الكونية ويترجم عنها ، ويجعلون منه أداة للزلفى حيناً ، وللتلهية والتطريب حيناً آخر .. وقلما يعبرون فيه عن معاني الحياة .

وانعكس شيء من هذا كله على المجتمع الإسلامي ولا شك . ولكنا نأخذ صورة غير صحيحة عن هذا المجتمع إذا تصورناه كله على صورة العاصمة الفاسدة المنحلة ، وقصور الخلفاء والأمراء والأتباع التي تزخر بالترف والفجور .

ولئن كانت كتب التاريخ – والغربي منها خاصة – قد عنيت عناية كبيرة بإبراز هذه الصورة للإسلام في تلك الفترة ، فالذي يعرف – إلى ما قبل جيل واحد – كيف كانت تعيش العاصمة وكيف كان يعيش الريف في كل البلاد الإسلامية ، يدرك من فوره ذلك الفارق الكبير بين الحياتين ، ويدرك أن فساد العاصمة وتبذّلها لا يعني شيئاً كثيراً بالنسبة لبقية المجتمع ، المحافظ على تقاليده ، بعيداً عن العاصمة وترفها المجنون .

ونحن هنا لا نؤرخ – كما تصنع كتب التاريخ – لملوك المسلمين و " خلفائهم " .. وإنما نستعرض تاريخ المجتمع الإسلامي ، تاريخ الأفراد العاديين الذين يكوّنون مجموع الأمة ، ويمثلون حقيقة الفكرة التي يعتنقونها .

وقد قلنا إن " شيئاً " من هذا الفساد المستشري في العاصمة قد انعكس على المجتمع .. ولكنه شيء ضئيل بالقياس إلى هذا الفساد . فلئن كانت الخمر والجواري واللهو والطرب هي " المودة " في قصور العاصمة ، التي تنفق فيها الأموال وينفق فيها الجهد البشري ، فقد كان في تلك العاصمة ذاتها علماء يعكفون على عملهم بعيداً عن ضوضاء القصور وزخارفها ، يترجمون ويؤلفون ويتابعون أبحاثهم في مراصدهم ومعاملهم ومكتباتهم الخاصة .. وكان فقهاء يعكفون على دراسة الفقه ويتبحرون فيه ويضيفون إلى تراثه بروح إسلامية خالصة .. وكان جغرافيين يجوبون الأرض ليكتشفوا أرض الله الواسعة ويكتبوا عنها كتابة علمية جادة مخلصة تتميز بالأمانة العلمية والدقة في التحصيل والتسجيل . وكان دعاة يجوبون الأرض ليدعوا الناس إلى الإسلام في " الصين " و " أندونيسيا " وغيرهما من أقاصي آسيا ، وفي السودان شرقه وغربه من المحيط إلى المحيط .. وكان مجاهدون يدخلون المعارك ضد أعداء الإسلام في كل مكان .. ثم كان " الفرد العادي " في المجتمع ، في المدن والريف والبيداء مسلماً يعيش بروح الإسلام ويحكّمها في حياته ، يتجنب الحرام ويسعى إلى الحلال ، مسترشداً بهدي الله ورسوله ، ومحافظاً على تقاليد المجتمع المستمدة من تقاليد الإسلام .

وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن هذا المجتمع كان مثالياً وفاضلا في جميع تصرفاته .. فذلك لم يحدث في أي مجتمع في الأرض في أية فترة من فترات التاريخ .. ولا المجتمع الذي رباه على عينه رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولكن معناه أن الخير فيه يغلب على الشر .. ونوازع الرفعة تغلب على نوازع الهبوط .. والتقاليد الفاضلة تغلب على التقاليد المنحلة .

كان هذا المجتمع في مجموعه أدنى درجة من مجتمع العصر الأموي .. ولكنه بعد مجتمع " مسلم " يعيش على مفاهيم الإسلام ، مع درجات من الانحراف في هذه المفاهيم هنا أو هناك .

* * *

وجاء العصر التركي .. حين استولى الأتراك العثمانيون على مقاليد الإسلام .

وقد حقق الأتراك للإسلام أمجاداً حربية رائعة ما في ذلك شك . ولكن لا شك كذلك في أن مفاهيم الإسلام قد عانت انحساراً كبيراً على يد الأتراك . أو الأحرى أن نقول إنها جمدت وتحجرت على أيديهم وتوقفت عن النماء .

لقد كان أبرز ما في الإسلام منذ مولده أنه " حركة " .. حركة فاعلة في كل اتجاه ، في ميدان الفتح ، كما هو في ميدان العلم ، وميدان الفقه ، وميدان الاقتصاد والاجتماع والفكر والسياسة .. وكل منحى من مناحي الحياة .

فلما تولاه العثمانيون امتدوا به في ميدان الفتح ما شاءت لهم عبقريتهم الحربية وقوتهم العسكرية . ولكنهم جمدوا به جمودا معيباً في بقية الميادين .

لم يكن لهم كبير اهتمام بالعلم .. ومن ثم توقف المد العلمي الإسلامي في ذات الوقت الذي بدأت فيه أوربا تنهل من المنابع الإسلامية لتستمد منها كل أسس النهضة الحديثة ، كما هو مسجل ومعروف لدى المؤرخين .

ولم يكونوا أصلاء في الفقه .. فكل ما دفعتهم إليه تقواهم هو الحرص على التراث الفقهي القائم بالفعل ، وتجميده على ما هو عليه .

والفقه هو التعبير الدائم عن نمو المجتمع في ظل الفكرة الإسلامية . ومن ثم تلاقي تجميد الفقه وتجميد المجتمع الإسلامي في وقفة هائلة منكرة لم يصب الإسلام بأسوأ منها في تاريخه الطويل .

حافظ المجتمع على تقاليده الموروثة ولكن هذه التقاليد ذاتها فقدت معناها . صارت مظهراً بغير روح . مظهراً مقدسا في ذاته ولو لم يؤد إلى المعنى المقصود به . ومن ثم كان الحجاب التركي – مثلا – مظهرا مقدسا من مظاهر المجتمع ، ولو كان الفسق والفجور في أيام الدولة الأخيرة يجري داخل القصور .. المحجبة التي لا تصل إليها عين إنسان !

ومن هذه الوقفة المنكرة بدأ الخطر الحقيقي على الإسلام ... فليس أخطر على أية فكرة أو نظام من أن يقف نموه ويتجمد على صورة من الصور .. لأنه يأخذ بعد ذلك حتما في الاضمحلال والضمور .

وفي أثناء ذلك كله كان الإسلام قد تعرض لأحداث عنيفة أليمة من الداخل والخارج على السواء . من صراعات الأسر الحاكمة ، ومن هجمات المغول والتتار ، وهجمات الصليبيين حينا بعد حين .. فلما جاءت هذه الوقفة المتحجرة على يد الحكم العثماني ، كان ذلك إرهاصا بضربة قاصمة تصيب الإسلام .

ولم يفت ذلك العالَمَ الصليبي المتحفز الواقف بالمرصاد ، فقد كانت هذه فرصته السانحة المرتقبة من أزمان .

وانقض الصليبيون انقضاضتهم الهائلة على العالم الإسلامي ليدمروه ويقضوا عليه

ومع ذلك .. مع ذلك كله الذي أصاب الإسلام من داخله وخارجه .. فهل كان الإسلام قد مات وكتب عليه الفناء ؟!

كلا !

فقد اقتضى الأمر من الصليبيين قرنا كاملا ليتغلبوا على العالم الإسلامي بكل ما يملكون من قوة وعتاد .

واقتضاهم قرنا آخر ليحاولوا تدميره والقضاء عليه بعد أن حكموه . مع كل ما يملكون من كيد ومكر وتدبير .

* * *

وقد حدث تحول هائل في العالم الإسلامي بعد هذا الغزو الصليبي الأخير .

هو أكبر تحول في تاريخه كله .. وأكبر انحراف .

لقد كان المجتمع الإسلامي قد ضعف وتجمد . نعم . ولكنه لم يكن في طريقه إلى الزوال .

فالحيوية العجيبة التي تتمثل في هذه العقيدة .. الحيوية التي احتملت الهزات السابقة كلها ، من صراع الأسر الحاكمة ، وغارات التتار والصليبيين ، وأفاقت منها بعد فترة وتغلبت عليها .. هذه الحيوية العجيبة كانت قد بدأت تتحرك من الوقفة العثمانية المنكرة ، وبدأت تتحرر من ثقلة القيد التركي ، لتعاود الانطلاق من جديد .. تلك الحركات التي تمثلت فيما بعد في الحركة الوهابية في الحجاز ، والحركة المهدية التي قام بها المهدي الكبير في السودان .. وكانت تلك الحركات قمينة أن تعيد

للإسلام حيويته وانطلاقه ليكتب فصلا جديدا في حياة البشر يضاف إلى ما مضى من الفصول .

ولكن الاستعمار الصليبي كان قد عاجل العالم الإسلامي قبل تلك اليقظة الحية .. ليقضي على عدوه القديم .

وصنع الاستعمار الصليبي كل ما وسعه وما وسعته شياطين الأرض .. لتكون هذه الضربة هي القاضية ، وليقتلع الإسلام من الجذور .

في هذه المرة لم تكن وسيلتهم هي الجيوش وحدها كما كان الأمر في الغزوات السابقة . ولكن كان إلى جانب الجيوش كل ما يملكون من علم وكيد وتدبير ومكر ، يشوهون به تعاليم الإسلام ذاتها ، وينشرون هذه الصورة المشوهة في قلوب المسلمين أنفسهم ، ليصرفوهم عن الإسلام في الواقع بعد أن فشلوا في تنصيرهم على يد المبشرين ! (٥٨)

وحين جال الاستعمار الصليبي جولة في العالم الإسلامي ، كان الانحراف في المجتمع المسلم قد أخذ مداه ، وكانت قد وجدت تلك الأفكار الغريبة – التي لم توجد قط من قبل في أي عصر من عصور الإسلام في رفعته او هبوطه – الأفكار التي تقول : ما للدين ونظام المجتمع ؟ ما للدين والاقتصاد ؟ ما للدين وعلاقات الفرد بالمجتمع وبالدولة ؟ ما للدين والسلوك العملي في واقع الحياة ؟ ما للدين والتقاليد ؟ ما للدين والملبس – وخاصة ملابس المرأة ؟ ما للدين والفن ؟ ما للدين والصحافة والإذاعة ، والسينما والتليفزيون ؟ وباختصار : ما للدين والحياة ؟ ما للدين والواقع الذي يعيشه البشر على الأرض ؟!

وكان قد وجد المسلم الذي يقول : أنا مسلم ما دمت أصلي وأصوم ، ولكن لا عليّ أن آخذ نظامي الاقتصادي من أية فكرة على الأرض غير إسلامية ، وآخذ أفكاري وتقاليدي من أي نظام على الأرض غير مسلم .

وكانت قد وجدت المسلمة التي تقول : أنا مسلمة ما دامت نيتي حسنة .. ولكن لا عليّ أن أخالط الشبان وأخرج معهم ، ولا عليّ أن ألبس أحدث أزياء الموضة ولو كانت عارية الصدر أو الظهر أو الذراعين أو الساقين .. أو عارية البدن كله إلا

قليلا على شاطئ البحر .. ولا عليّ أن أتزين بكل أنواع الزينة .. ولا عليّ أن أرقص في الحفلات إذا اقتضى الأمر .

وفوق هذا وذلك كان قد وجد " المسلم " " والمسلمة " اللذان ينسلخان من دينهما علانية ، ويعلنان أن الدين رجعية وجمود وانحطاط وتأخر .. ينبغي تحطيمها " لتنهض ! " الأمة وتخطو إلى الأمام !

وكان ذلك هو حصيلة الجهد الجبار الذي بذله الاستعمار الصليبي في العالم الإسلامي خلال قرنين كاملين من الزمان ، ولكنه لم يكن يعمل وحده .. فقد كانت إلى جانبه – في العالم كله – تيارات مادية منحلة ، تنسلخ من الدين وتندد به وتدعو إلى حيوانية بشعة لا مثيل لها من قبل بهذه الضراوة ، تسند هذا الانحلال الشنيع بنظريات " علمية ! " سيكلوجية واجتماعية ، وتضيف إليها أسطورة ضخمة اسمها " التطور " !

من هذه وتلك حدث أكبر انحراف في تاريخ الإسلام .

وفي الفصلين القادمين بيان لكيد الاستعمار الصليبي من ناحية ، والتيارات العالمية من ناحية . ونبدأ بالكيد الصليبي في داخل العالم الإسلامي ، وهو ما سميناه " عوامل محلية " .

عوامل الانحراف المحَلية

بدأت بالحملة الفرنسية على مصر صفحة جديدة في التاريخ الإسلامي .. صفحة سيئة .

لقد هجمت الجيوش الصليبية من قبل على العالم الإسلامي هجمات متكررة .. ثم ردت مدحورة في كل مرة ، مهما كان مدى لبثها في بعض الأراضي الإسلامية ، ومهما كانت الخسائر التي تكبدتها الجيوش الإسلامية في صد العدوان وطرد المعتدين .

وفي هذه المرة جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر .. ثم في النهاية ثار عليها الشعب واضطرتها الظروف إلى الرحيل .. ولكن شيئاً ما كان قد تغير ما بين هذه الحملة وسابقاتها .. في الأسباب والنتائج سواء .

إن الهزيمة الحربية النكراء التي أوقعها نابليون بجيوش المماليك شمالي القاهرة لم تكن في الحقيقة هزيمة جيوش فحسب ، ولكنها كانت هزيمة عهد من العهود الإسلامية ؛ وهزيمة للفكرة التي يمثلها ذلك العهد . هزيمة عميقة موغلة في النفوس . لقد صدمت الهزيمة نفوس المسلمين وهزتها هزة عنيفة .. مع أنها لم تكن أول هزيمة حربية في التاريخ . فمن قبل ارتدت الجيوش الإسلامية مرات أمام هجمات الصليبيين . ولكن المسلمين في كل مرة كانوا يحسون أنها هزيمة مؤقتة ، سببتها كثرة الجيوش الغازية أو مفاجأتها للمسلمين على غرة . وكان في حس المسلمين دائماً أنها فترة قصيرة ريثما تستعد الجيوش الإسلامية وتتدفق على خطوط القتال .. ثم يأتي النصر من عند الله بعد أن تتهيأ النفوس للمعركة والفداء .

وكان ذلك يحدث بالفعل في كل مرة ..

يهب المسلمون وتتدفق الجيوش في حمية فائرة دفاعاً عن العقيدة .. ويأتي نصر الله كسابق وعده للمؤمنين .

ومن ثم كان المسلمون يحافظون دائماً على استعلائهم ، حتى والهزيمة حائقة بهم ، فما كان يخالجهم الشك في أنهم الأعلون . وأنهم في النهاية هم المنتصرون .

وكان تكرار النصر بعد كل هزيمة مؤقتة يؤكد هذا المعنى في نفوسهم توكيداً ، ويرسخ في شعورهم الاستعلاء بالإيمان ، والاعتزاز بأنهم مسلمون . وكانوا ينظرون إلى الجيوش الغازية – مهما كانت قوتها وعدتها وعتادها – على أنها مجموعة من البرابرة المتأخرين ، الذين لا يعرفون الله حق معرفته ، ومن ثم فهم مخلوقات أدنى منهم ، ولو خدمتهم ظروف المعركة فترة من الوقت وغلّبتهم على المسلمين .

وكانوا ينددون تنديداً عنيفاً بتقاليدهم المنحلة وأخلاقهم الفاسدة ، وكان من أشد ما ذكره المقريزي في التنديد بهم أنهم قوم فاقدو الرجولة ، فتجد الواحد منهم يصحب امرأته في الطريق حاسرة الوجه والصدر والذراعين فيقابلهما صديق لزوجته ، فيتنحى الزوج ليترك امرأته وصديقها يتبادلان الحديث ، حتى إذا انتهيا عاد فتأبط ذراعها وسار في الطريق !

وكان هذا بطبيعة الحال دنسا وانحلالا خلقياً في نظر المسلمين ، وفقداناً لمعاني الشرف في ذلك المجتمع الغربي ، لا يسيغونه هم ، ولا يكادون يتصورون أنه ممكن الحدوث (٥٩) .

وكذلك ظلت العقيدة مستعلية في نفوس المسلمين ، وظلوا يحسون بالعزة التي قررها الله لذاته – سبحانه – ولرسوله وللمؤمنين ، حتى في ساعات الحرج والكرب حين كانت جيوش الصليبيين تتدفق كالسيل من الجرف المنهار . وكانوا يحسون أن كل تقاليد غير تقاليدهم لوثة لا ينبغي أن تصيبهم ، ورجس لا ينبغي أن يدنس أرض الإسلام .

* * *

ولكن الأمر لم يكن كذلك بعد الحملة الفرنسية ..

كانت العقيدة راسخة في نفوس المسلمين . نعم . ولكنها كانت – تحت الحكم التركي – قد جمدت وتحجرت كما قلنا في الفصل السابق . ولم تعد لها مرونتها الحياة التي كانت تتسم بها في جميع العصور . وتحولت إلى مجموعة من التقاليد – المقدسة المظهر – التي لا تحمل في طياتها رصيداً حقيقياً كبيراً من الحركة الحية الفاعلة في عالم الواقع .

ثم كانت الهزيمة الحربية التي وقعت بالمماليك على يد نابليون في امبابة ، إيذانا بالهزيمة الداخلية .. هزيمة العقيدة في داخل النفوس .

لقد رُوّع المسلمون بمدافع نابليون .. وبدت لهم سيوف المماليك هذراً فارغاً إزاء تلك المدافع الجديدة التي لم يكونوا يعرفونها ، أو يتصورون وجودها في يد الأعداء .

وانقلب ميزان القوى انقلاباً عنيفاً في نفوسهم .

فتلك هي المرة الأولى التي تنهزم فيها جيوش المسلمين " عن جدارة " وتتغلب جيوش الصليبيين لأنها تملك " قوة " حقيقية من العتاد والفن الحربي و " المعرفة " لا يملكها المسلمون .

ولقد كان ممكناً مع كل ذلك ألا يتغير الميزان في داخل النفوس .

كان ممكناً أن تصمد النفوس للهزيمة ، ريثما تتجمع للانقضاض من جديد .. كما حدث مرات كثيرة من قبل . ولكن " الرصيد الداخلي " للعقيدة في تلك الفترة لم يكن من القوة بحيث يصمد للصدمة ويتجمع من جديد .

حقاً .. لقد قام الشعب بمقاومة باسلة للحملة الفرنسية . وثارت القاهرة بزعامة " رجال الدين " وتأثيرهم الروحي .. وحدثت بطولات عجيبة أروعها بطولة " الفتى الصغير " في الصعيد ، الذي ظل بمفرده يدلف كل ليلة إلى معسكر الأعداء ، فيدخل مخزن الأسلحة ، ويستولي على بنادق الفرنسيين ، ويعود سابحاً في الترعة إلى أهله ليتسلحوا بها في مقاومة المحتلين . حتى إذا بان النقص في الأسلحة ترصد الحراس للمتسللين وهم يظنونهم عصابة هائلة ، فإذا بهم يفاجأون بهذا الصبي وحده يصنع هذا الصنيع ! وانقضوا عليه يحاولون القبض عليه فقاوم حتى انكسرت ذراعه ، وحملوه إلى قائد الحملة (ديزيه) فلما رآه أخذ بشجاعته وبطولته ، وعرض عليه أن يتبناه فرفض لأنه كافر . فعرض عليه أن يتكره على ألا يعود إلى سرقة السلاح فرفض أن يعده بذلك ما دام الكفار باقين في البلاد ! وأخيراً أطلق سراحه على أن تشدد الحراسة على السلاح !

حقا .. لقد حدث كل ذلك . ولكنه كان أشبه بالأعمال " الفردية " الفدائية . أما " الكيان " الحقيقي للدولة المسلمة المقاتلة ، التي تنظم القتال وتجيش الجيوش ، وتقف للغزاة بوصفها " دولة الإسلام " .. أما ذلك كله فكان قد ذاب في معركة إمبابة ، ولم يعد له وجود .

وأحس المسلمون بالهزيمة حتى وهم يرون الغزاة ينسحبون .

* * *

لم تكن الهزيمة الحقيقية هي هزيمة الحرب .

فقد وضع نابليون في فترة إقامته في مصر " قانونا " جديداً يُحكم به المسلمون غير شريعة الله . قانونا مستمداً من التشريع الفرنسي . وحصر تشريع الله في أمور " الأحوال الشخصية " من زواج وطلاق وميراث ...

وكانت تلك هي المرة الأولى في تاريخ المسلمين .

المرة الأولى التي يحكمهم فيها قانون غير قانون الله ، يضعه وينفذه قوم غير مسلمين !

لقد كان الصليبيون يدخلون الأراضي الإسلامية أحيانا ، ويبقون فيها في بعض الأحيان سنوات ، بل وصل بهم الأمر قبيل صلاح الدين أن يقيموا لهم دويلات على شاطئ البحر الأبيض في بلاد الشام . ولكنهم لم يجرؤوا قط في أية مرة أن يضعوا قانونا من عندهم يحكمون به المسلمين . فقد كانوا في كل مرة غزاة انتهبوا قطعة من الأرض ، ولم يكونوا قط " دولة " حاكمة مسيطرة في الأرض .

وفي هذه المرة كانوا – لأول مرة – دولة حاكمة في أرض الإسلام ، بعد أن أطاحوا بالدولة المسلمة ، وذوبوها في ميدان القتال .

وكان هذا بدء الهزيمة الحقيقية .. هزيمة العقيدة .. وبدء انحسارها في عالم الواقع ، وانحسارها – من ثم – في داخل النفوس .

* * *

وفي ظل هذه الهزيمة وتلك كان " الانبهار " الذي أحدثته الحملة الفرنسية في نفوس المصريين . انبهار بقوة السلاح أولا ، وانبهار " بالعلم الغربي " الذي حمله رجال البعثة المرافقة للحملة ، وانبهار بالمطبعة التي جاء بها نابليون إلى مصر ، وانبهار بالتنظيمات التي أحدثها .. وفي كلمة واحدة انبهار بكل ما جاء من " الغرب " وكل ما ليس بإسلام !!

وكانت هذه هي الهزيمة الحقيقية الكاملة ، التي مهدت لكل ما أحدثه الاستعمار الصليبي بعد ذلك من تدمير مخرب في حياة المسلمين وعقيدتهم ، وأفكارهم ومشاعرهم ، وسلوكهم في واقع الحياة .

لذلك لم يكن طرد الفرنسيين من مصر أو انسحابهم حدثا حقيقيا في عالم الواقع ، بعد هذه الهزيمة الداخلية التي خلفتها الحملة في نفوس المسلمين !

* * *

وهنا يجدر بنا أن نقف وقفتين قصيرتين قبل أن نمضي في استعراض التاريخ :

فقد حرص الاستعمار الصليبي أولا – وجاراه في ذلم المؤرخون المسلمون – على إخفاء العنصر الصليبي إخفاء كاملا من الحملة الفرنسية على مصر ، وما تلاها

من الاستعمار الغربي على نطاق واسع في بلاد المسلمين . بل لقد وصل الأمر – في سبيل إخفاء القصد الصليبي من الاستعمار الحديث كله – إلى حد الزعم بأن الحروب الصليبية ذاتها لم تكن صليبية (!!) وإنما كان الدين فيها ستاراً يخفي المطامع الاقتصادية ! وتلوك هذا الزعم من ورائهم أفواه " مسلمة ! " يدور أصحابها في طاحونة الاستعمار مغمضي العينين في بلاهة ، أو .. لقاء أجر معلوم !!

وحرص الاستعمار الصليبي ثانياً – وجاراه في ذلك المؤرخون المسلمون – على القول بأن الحملة الفرنسية على مصر كانت هي الخير والبركة ، لأنها أيقظت المسلمين من سباتهم ، فأفاقوا يتطلعون إلى " النهضة " . إلى " القوة " . إلى " التقدم " .. إلى " الأخذ بوسائل الحضارة الحديثة " .. وباختصار : أيقظتهم إلى الخير في كل اتجاه .

فأما الزعم الأول فلسنا نحن الذين نرد عليه ! فنحن متهمون كيفما كان الرد !

وإنما يرد عليه الكتّاب المسيحيون أنفسهم ، في كتبهم التي يؤلفونها لتقرأ هناك .. ويطّلع عليها من يريد الاطلاع .

" روم لاندو Rom Landow " مؤلف مسيحي معاصر ؛ يعيش في أحداث القرن العشرين ، بعقلية القرن العشرين – تلك العقلية التي يقال لنا هنا في الشرق إنها قد تحررت من سخافات الدين والتعصب الديني ، وليست مثلنا متأخرة جامدة رجعية – وهو يكتب عن هذه الأحداث في الشمال الأفريقي خاصة . وله كتاب سماه " مأساة مراكش The Moroccan Drama " جاء فيه في ص ٣١٠ :

" ويقول كلوسترمان وريتزر من رجال البرلمان الفرنسي إن مسيو بيدو وزير خارجية فرنسا كان ينظر إلى الحوادث الجارية في مراكش على أنها معركة بين قوى المسيحية والإسلام ولما حاولا إقناعه بوضع حد للحركة الهدامة في مراكش ، أجاب قائلا : " هذه معركة بين الهلال والصليب ! "

فهل صدق الذين يدورون في طاحونة الاستعمار الصليبي مغمضي العينين في بلاهة ، كيف تنظر فرنسا إلى علاقتها بالمغرب .. الآن .. في القرن العشرين .. المتحرر من خرافة الدين والتعصب الديني ؟! وهل يستكثرون بعد ذلك أن تكون

الروح الصليبية قائمة في نفوس الفرنسيين في القرن الثامن عشر ، القرن الذي لم يكن بعد قد " تحرر ! " من عصبية الدين ؟!

هذا عن فرنسا ..

أما بقية أوربا الصليبية ، فهذا ولفرد كانتول سميث يقول عنها في كتاب " الإسلام في التاريخ المعاصر " الذي سبقت الإشارة إليه ، في ص ١٠٩ – ١١٠ :

" إلى أن قام كارل ماركس وقامت الشيوعية ، كان النبي (صلى الله عليه وسلم) (يقصد الإسلام بطبيعة الحال) هو التحدي الحقيقي الوحيد للحضارة الغربية الذي واجهته في تاريخها كله . وإنه لمما يستحق التذكر : أن نتذكر كم كان هذا التحدي حقيقياً ، وكم كان يبدو في وقت من الأوقات تهديداً خطيراً حقا .

" لقد كان الهجوم مباشراً ، في كلا الميدانين الحربي والعقيدي . وكان قوياً جداً . ولا شك أنه بالنسبة للمسلمين يبدو أنه الحق والصواب ، وأنه الأمر الطبيعي والمحتوم ، أن يمتد الإسلام كما امتد . ولكن الأمر يختلف بالنسبة لمن يقع خارج نطاق الإسلام ، الذي لم يكن يرى فيه شيئاً من ذلك كله ، والذي كان التوسع الإسلامي يقع على حسابه . وقد كان هذا التوسع إلى حد كبير على حساب الغرب . فقد فقدت المسيحية دفعة واحدة " أجمل مقاطعات الإمبراطورية الرومانية " لنتسلمها منها القوة الجديدة ، وكانت في خطر من ضياع الإمبراطورية بكاملها . وعلى الرغم من أن القسطنطينية لم تقع – تماما – في يد الجيوش العربية كما وقعت مصر وسوريا ، فقد استمر الضغط عليها فترة طويلة . وفي موجة التوسع الإسلامي الثانية وقعت القسطنطينية بالفعل سنة ١٤٥٣ ، وفي قلب أوربا المفزعة ذاتها أحاط الحصار بفينا سنة ١٥٢٩ بينما ظل الزحف الذي بدا عنيدا لا يلين ، مستمراً في طريقه . وحدث ذلك مرة أخرى في وقت قريب لم يتطاول عليه العهد في سنة ١٦٨٣ ، وإن وقوع تشيكوسلوفاكيا في قبضة الشيوعية عام ١٩٤٨ لم يكن له قط في العصر الحديث ذلك الفزع في نفوس الغرب المتهيب ، كما كان لذلك الزحف المستمر قرنا بعد قرن ، من تلك القوة الضخمة المهدِّدة التي لا تكف ولا تهدأ ، ويتكرر انتصارها مرة بعد مرة .

" وكما هو الأمر مع الشيوعية ، كذلك كان التهديد والانتصارات (الإسلامية) قائمين في عالم القيم والأفكار أيضاً . فقد كان الهجوم الإسلامي موجها إلى عالم النظريات كما هو موجه إلى عالم الواقع . وقد عملت العقيدة الجديدة بإصرار على إنكار المبدأ الرئيسي للعقيدة المسيحية ، التي كانت بالنسبة لأوربا الاعتقاد السامي الذي أخذت تبني حوله – في بطء – حضارتها . وكان التهديد الإسلامي موجها بقوة وعنف ، وكان ناجحاً نجاحاً مكتسحاً في نصف العالم المسيحي تقريباً . والإسلام هو القوة الإيجابية الوحيدة التي انتزعت من بين المسيحيين أناساً دخلوا في الدين الجديد وآمنوا به .. بعشرات الملايين .

" وإنه لمن المشكوك فيه أن يكون الغربيون – حتى أولئك الذين لا يدركون إطلاقا أنهم اشتبكوا في مثل هذه الأمور – قد تغلبوا قط على آثار ذلك الصراع الرئيسي المتطاول الأمد ... أو على آثار الحروب الصليبية التي استغرقت قرنين من الحرب " العقيدية " العدوانية المريرة " .

فهل صدق الذين يدورون في طاحونة الاستعمار الصليبي مغمضي العينين في بلاهة ، كيف تنظر أوربا إلى العالم الإسلامي حتى هذه اللحظة ، وما هي الدوافع الحقيقية الأصيلة وراء هذا الاستعمار ؟!

حقيقة إن الاستعمار الأوربي – المدفوع قطعا بدوافع اقتصادية – لم يقتصر على العالم الإسلامي ، وإنما استعمر كل أرض استطاع أن يغتصبها من أصحابها في الشرق أو الغرب . ولكن هذه الحقيقة لا يجوز أن تلهينا عن الحقيقة الأخرى وهي أن الدافع الصليبي كان راسخا وأصيلا في اتجاه الاستعمار الأوربي إلى العالم الإسلامي ، وأن الدافع الاقتصادي لم يكن وحده هو المسيطر على مشاعر المستعمرين تجاه المسلمين ، بدليل كافٍ واضح – سنبينه في هذا الفصل – هو أنهم لم يكتفوا في العالم الإسلامي بالاستغلال الاقتصادي ، وإنما عملوا عملا جاداً متواصلا مصراً على تحطيم قواعد الإسلام ، وتوهين عراه في النفوس ، بينما لم يتعرضوا أي تعرض للهندوكية في الهند – مثلا – ولا للبوذية في الصين ، وهما من الوجهة العددية أضعاف المسلمين !

* * *

هذا بالنسبة للنقطة الأولى ، الخاصة بالهدف الصليبي في الحملة الفرنسية على مصر ، الذي ينبغي أن يكون قد اتضح – فيما أحسب – في نفوس القراء ، والذي يفسر لهم – فيما أحسب كذلك – سر وضع القوانين " المدنية " ليحكم بها المسلمون في مصر .. بمعزل عن شريعة الله .. وحصر هذه الشريعة في " الأحوال الشخصية " للمسلمين !

أما النقطة الثانية ، الخاصة بالخير والبركة العميقة التي حلت بمصر والعالم الإسلامي نتيجة هذه الحملة .. فتدور حولها كذلك في نفوس المسلمين أوهام وأساطير ! بما في ذلك " المؤرخون " المسلمون المحدثون !

حقيقة إن الحركة " العلمية " استيقظت على " الصدمة " التي أصابت المصريين نتيجة الهزيمة .. ولكن هذا لا يُرجع " الفضل " إلى الحملة الفرنسية المستعمرة الغاصبة ! ومفهوم جداً أن يقول الأوربيون ذلك . أما واجبنا نحن حين نؤرح فهو أن نضع " النوايا " في الحساب . فهل كان غرض فرنسا أن " تحضر " مصر وتعلمها ؟ أم كان غرضها أن تقتل شخصيتها " و " تفرنسها " كما حاولت أن تصنع في تونس والجزائر ومراكش ، وكل بلد دنسته أقدامها بالاستعمار ؟

ومن جهة أخرى .. ماذا كانت النتيجة العملية للحملة الفرنسية بالنسبة لمصر الإسلامية ؟ هل كانت هذه " القيظة " التي حلت بمصر ، قائمة على مقوماتها الطبيعية ، وجذورها الحقيقية ، وموروثاتها ومقدساتها ، أم قامت على أنقاض هذا كله ، لتخلق من مصر بلداً أخر بعيداً عن الإسلام ، أو .. منسلخا من الإسلام ؟

ومن جهة ثالثة .. يغفل أولئك " المؤرخون " حقائق التاريخ التي وقعت بالفعل ، لا التي كانت محتملة الوقوع !

فمن قال إن الحملة الفرنسية على مصر هي المفتاح " الوحيد " للبركة والخير ، الذي كان يمكن أن يقع في يد المسلمين فيوقظهم إلى ما هم فيه من جهالة وجمود وتأخر ، ويدفعهم إلى الحركة الحية من جديد ، حتى توضع حولها كل هذه الهالات التي تدرس للتلاميذ في المدارس والطلاب في الجامعات ؟!

ومتى حدث في تاريخ الإسلام أن تركه الله يذوي ويموت ، دون أن يبعث فيه من يوقظه من سباته ويعيده للحركة الحية من جديد ؟

وما نظرة أولئك المؤرخين إلى الحركة الوهابية التي قامت تهدف إلى تنقية الإسلام من الخرافة المتعفنة التي شاعت في أفكار المسلمين باسم الإسلام ، والحركة المهدية التي قامت تهدف إلى تخليص المسلمين من النير الإنجليزي الذي أحاط بعنق مصر في شمال الوادي مع خضوعها اسميا للخليفة العثماني ، ثم تخليص العالم الإسلامي من النير التركي . وغيرهما من الحركات الإسلامية التي تهدف كلها إلى تصفية الإسلام ورفع الظلم الاجتماعي والسياسي والفكري والروحي الواقع على المسلمين ، وبعث الإسلام من غفوته ليؤدي دوره في الواقع الحي للبشرية ؟

أم البعث لا يكون بعثا حتى يجيء على أيدي المستعمرين من فرنسيين وغير فرنسيين ؟

تلك – على أي حال – من آثار السموم التي وضعها الاستعمار الصليبي في نفوس المسلمين !!

* * *

وما نريد أن ننكر دلالة التاريخ ..

فقد كانت الهزيمة قائمة بالفعل في نفوس المسلمين يوم جاءت الهزيمة الحربية في الميدان .

ولكن ذلك – كما قلنا – لم يكن معناه أن الإسلام كان قد انتهى وآذن بالزوال .

فقد احتاج الاستعمار إلى جهود مضنية للاستيلاء على العالم الإسلامي استغرقت قرنا من الزمان ، واحتاج إلى قرن آخر لمحاولة تقويض الإسلام من الداخل .. من مكمن العقيدة في داخل النفوس .

وهذا وذاك بجانب الانتفاضات الحية للإسلام في شتى بقاع المسلمين قبل الاستعمار وفي أثناء الاستعمار .

وذلك كله دليل على مدى قوة هذه العقيدة ، ومدى مقاومتها للأحداث رغم كل ما أصابها من هزات مدمرة على مدار التاريخ .

ونريد في الصفحات التالية أن نتتبع ذلك الجهد الذي قام به الاستعمار الصليبي في أناة وتدبر ، وكيد منظم مدروس ، ليحاول تقويض الإسلام من الداخل ، مستشهدين

في هذا العرض بأقوال المبشرين والمستعمرين أنفسهم ، الذين هم فوق مستوى الشبهات في هذا المجال !

* * *

جاء محمد علي إلى مصر واليا من قبل الأتراك .. يُسرّ في نفسه الاستقلال عن " الخلافة " التركية في الآستانة ، ولكنه لا يصحو – أو لا يهتم – بالنفوذ الفرنسي الذي يتغلغل معه في البلاد !

لا يصحو – أو لا يهتم – بأن فرنسا تحتضنه ، وتشير عليه ، وتضع له مشروعات عمرانية ، وتساعده في تنفيذها ، لأهداف بعيدة .. أبعد من أهدافه هو البعيدة .. التي ظن نفسه بارعا أشد البراعة وهو يعمل لها من وراء " الخلافة " !

كانت فرنسا تحتضن محمد علي ، وتشجعه على الاستقلال عن الخلافة ، لأن ذلك مثل " طيب ! " يحتذى في بقية العالم الإسلامي ، فيتفكك هذا العالم إلى دويلات صغيرة ، يشرف عليها النفوذ الغربي ، ويتبنى " حركة الإصلاح " فيها .. الإصلاح المقترن بهدم المقومات الإسلامية ، وسَلْخِ المسلمين من عقيدتهم ، وإخضاعهم للنفوذ الصليبي الواقف بالمرصاد ، يتحين الفرصة لإرواء أحقاده الصليبية المسمومة .

وهنا نقطة تلتبس على أفكار المسلمين وهم يستعرضون التاريخ ..

تكن تلك " الخلافة " في أواخر أيامها – فاسدة ظالمة متجبرة ؟ ألم تكن مظهراً خاويا لا يخفى وراءه سوى الخرافة والجهالة والظلم ؟ ألم تكن قد بعدت عن روح الإسلام ؟ فكيف لا يكون الخروج عليها إذن عملا طيبا يستحق التشجيع ويستحق الإشادة والتسجيل !

هل كان يطلب من المسلمين في أقطار الأرض أن يُبْقُوا على الخلافة بعد ما صارت إليه لمجرد كونها رمزاً للإسلام ، وهم يذوقون منها الذل والهوان ، والرجعية والتحجر ، والوقوف في وجه كل إصلاح ؟

ولنفرض أن للاستعمار هدفاً خبيثاً من هدم الخلافة وتقطيع أوصال العالم الإسلامي ، فهل نسكت نحن على مظالم الخلافة ونقتل أنفسنا بالتحجر والرجعية من أجل أن خروجنا على الخلافة سيحقق للاستعمار هذا الهدف الخبيث ؟!

هنا تلتبس المسألة على أفكار المسلمين .. وهي لا تلتبس عليهم إلا بسبب ما دسه الاستعمار الصليبي في أفكارهم ، وألح في تثبيته ، من أنه لم يكن هناك إلا أحد أمرين : إما الاستمرار في الخضوع المذل لمظالم الخلافة .. وإما الانفصال عنها في حركات استقلالية .. وليكن بعد ذلك ما يكون .. بل ليكن دخول النفوذ الغربي في البلاد " المستقلة " هو الثمن الذي تدفعه تلك البلاد للتخلص من ظلم الخلافة وتجبر الأتراك الحاكمين .. ثم تزيد الدعاية الاستعمارية الأمر لبسا في أذهان المسلمين ، حين تقول لهم إن النفوذ الغربي كان معناه الإصلاح والعمران ونشر الحضارة والتعليم .. وكلها خير وبركة كان يقف في طريقها استمرار الخلافة في حكم المسلمين .

وهنا مغالطة مركبة ..

فليس صحيحا أولا أن الأمر كان على هذا النحو : إما الرضى بالمظالم وإما تقطيع أوصال العالم الإسلامي على هذا النحو المدمر للإسلام والمسلمين .

وليس صحيحا ثانيا أن الطريق الوحيد للإصلاح كان دخول النفوذ الصليبي في بلاد المسلمين .

ونعود إلى الحركة الوهابية والحركة المهدية اللتين حرص الاستعمار الصليبي حرصا شديداً على كبتهما وقتلهما قبل أن يمتد نفوذهما إلى العالم الإسلامي ، وشغّل في ذلك محمد علي وأبناءه ، بطريق مباشر أو غير مباشر .

لقد كانت كلتاهما حركة إصلاح شاملة ؛ كانت أولاهما تبتغي إصلاح العالم الإسلامي كله من الظلم والخرافة ، وتحرير المسلمين من النير التركي بكل ما يحمل في طياته من جمود وتحجر ، وكانت الثانية تهدف إلى تخليص شمال الوادي من الاحتلال الإنجليزي ، ثم تخليص العالم الإسلامي من النير التركي . كانت كلتاهما تحاول أن يعيش المسلمون في جو إسلامي نظيف ويستعيدوا كيانهم التاريخي المجيد ، مع المحافظة على أوصال العالم الإسلامي من التقطيع ، والمحافظة على كيانه من النفوذ الغربي الصليبي أن يعيث فساداً فيه .

ولذلك أسرعت أوربا الصليبية توغر عليهما صدر الحكام الأتراك الذين كان الكثير منهم عملاء للصليبية ، وتستغل محمد علي وأبناءه في إخماد الحركتين الواحدة في

أثر الأخرى .. بينما راحت في الوقت ذاته تشجع كل حركة " استقلالية " تقوم على أساس العصبية الإقليمية ، ولا تقوم على أساس الإسلام !

وهذا ما ينبغي أن يكون مفرق الطريق في تفكير المسلمين بين الإبقاء على الظلم وبين القضاء على هذا الظلم مع الإبقاء على وحدة العالم الإسلامي وقوة العقيدة الإسلامية .. وهو حل كان يأباه الاستعمار الصليبي من قبل ، وما زال حتى اليوم يأباه !

* * *

واستمر النفوذ الفرنسي يتوسع في مصر – ويتوسع في سوريا ولبنان – حتى صارت له " مدرسة " فكرية ، تربى فيها في مصر وفي غيرها من كانوا يقولون إن فرنسا هي وطنهم الثاني وأمهم الرءوم ! ومن كانوا يقولون إن مصر لم تكن قط جزءاً من الشرق ! وإنما كانت دائما جزءاً من حوض البحر الأبيض المتوسط (أي الذي تقع عليه فرنسا !) وأن روابطها الفكرية والروحية والثقافية كانت دائما مع أمم البحر الأبيض وليست مع أمم الشرق (أي ليست مع الإسلام الذي جاء من قلب الجزيرة العربية ولم يجيء من شواطئ البحر الأبيض !!) .

وارتفع هؤلاء وهؤلاء إلى مراكز التوجيه – بدفع الاستعمار الصليبي الفرنسي المستمر – ليحوّلوا الأجيال الجديدة إلى فرنسا ، أو يحولوها على أي حال بعيداً عن الإسلام !

ولكن فرنسا – مع ذلك – لم تستطع أن تحقق كل أحلامها القديمة التي دفعت بها إلى احتلال مصر أيام حملة نابليون ، والتي ظلت تخايل لها بعد ذلك فترة طويلة من الزمان .. فقد كانت المطامع الإنجليزية أسرع وأجسر ، وجاء الاحتلال البريطاني إلى مصر عام ١٨٨٢ ليبقى فيها نيفاً وسبعين من الأعوام .

وهنا تبدأ الفترة العظمى للنشاط الصليبي في مصر ، تعاصرها فترة النشاط الصليبي الفرنسي في سوريا ولبنان والشمال الأفريقي في تونس والجزائر ومراكش ، كما يعاصر الفترة الأخيرة منها امتداد النشاط الصليبي البرتغالي والدنمركي والهولندي والإيطالي ... إلخ . في بقية بلاد الإسلام .

وفي تلك الفترة وضعت السياسة المرسومة المدبرة المنظمة للقضاء على العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين .

* * *

لم يكن الأمر سهلا بالنسبة للاستعمار

فهذه العقيدة من الرسوخ والقوة وتعمق الجذور بحيث تحتاج إلى جهد مضنٍ لاقتلاعها من جذورها ، أو لتوهين عراها في النفوس . وقد صبر الاستعمار الصليبي على الجهد .. وأفلح في نهاية المطاف .

أفلح .. حين استطاع أن يربي على سمومه أجيالا لا تعرف من الإسلام إلا اسمه .. وإلا أنه علاقة " بين العبد والرب " لا علاقة لها بالسلوك العملي ، ولا علاقة لها بشئون المجتمع وشئون الحياة .

أو لا تعرف عنه إلا أنه رجعية وجمود وتأخر .. ينبغي الانسلاخ منها للّحاق بركب الحياة !!

وهنا نمضي في العرض الذي بدأناه معتمدين على وقائع التاريخ ، وعلى أقوال مبشرين والمستعمرين .

* * *

في سنة ١٨٨٢ وقف المستر جلادستون رئيس الوزارة البريطانية في مجلس العموم البريطاني يمسك بيده نسخة من المصحف ويقول لأعضاء المجلس : " إنه ما دام هذا الكتاب باقياً في أيدي المصريين ، فلن يستقر لنا قرار في تلك البلاد " !!

وهو كلام لا تحتاج دلالته إلى تعليق !

فالرجل يحس أن مبعث القوة في هذا الشعب هو القرآن . هو الإسلام . وهو صخرة المقاومة التي يرتطم بها الاستعمار ويعانيها .. فيجب أن تتحطم .. يجب أن تزول .

وجاء دنلوب .. المتخرج في كلية اللاهوت البريطانية ليرسم لمصر سياسة التعليم

يا عجبا ! سياسة التعليم في بلد مسلم .. يضعها قسيس ؟!

نعم ! لينزع " هذا الكتاب " من أيدي المصريين .. وليستطيع الاستعمار أن يستقر في هذه البلاد !

ووضع دنلوب سياسته المرسومة .. التي آتت في النهاية ثمارها المرجوة منها ، على مهل وبطء ، كما هو شأن السياسة البريطانية في كل مكان .

كان الأزهر هو مصدر العلم في مصر ؛ كان الجامع والجامعة ، يؤمه المتعلمون من شتى الأنحاء – لا في مصر وحدها ، بل في العالم الإسلامي كله – لينالوا بركة الوجود إلى " جواره " . وليتلقوا فيه العلم والعرفان : " مجاورين " .

ولم يكن الأزهر في ذلك الحين كائنا حياً صالحاً لتعليم الإسلام . فقد كان ككل شيء في أواخر العهد التركي مجموعة من الجمود والتحجر لا تصلح للحياة ..

ولكن محاولات قوية كانت قد بدأت تبذل لإصلاح الأزهر وإحيائه ومعاونته على " التنوّر " من إظلامه الشديد .

وبصرف النظر عن النتائج التي يمكن أن ترجى من حركة الإصلاح هذه – بزعامة محمد عبده وأتباعه – فقد كان همّ الاستعمار الصليبي هو القضاء على الأزهر ، لأنه – في نظر المسلمين على الأقل ، إن لم يكن كذلك في الواقع – معقل العقيدة الإسلامية ، والمتّجه الذي تتجه إليه أنظار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وهو – من ثم – مصدر من مصادر " الوحدة " الإسلامية ، الفكرية والروحية والواقعية ، " ينبغي " أن يزول .

وكان هدم الأزهر بطريقة مباشرة أمراً لا يفكر فيه الاستعمار البريطاني بطريقته الملتوية البطيئة الماكرة ، فقد رأى كيف كانت حماقة الفرنسيين من قبل أيام الحملة الفرنسية ، حين استباحوا الأزهر لخيولهم ، سبباً مباشراً من أسباب ثورة الشعب ، ورأوا كذلك كيف كانت حملات التبشير التي تهاجم العقيدة الإسلامية مهاجمة مباشرة تؤدي إلى عكس المطلوب منها ، إذ تنبه المسلمين للخطر ، وتزيدهم استمساكا بالإسلام !

كلا ! لا يرتكب الاستعمار الإنجليزي هذه الحماقة ..

إنما يعمد إلى كيد بطيء الفعل ولكنه مضمون المفعول (٦٠)

فتح دنلوب مدارس " حكومية " ابتدائية تدرس العلوم " المدنية " وتعلم اللغة الإنجليزية – لغة الاستعمار – وتخرج موظفين كتبة في الدواوين التي يحتلها ويديرها الإنجليز .. يقبضون رواتب تعد بالجنيهات لا بالقروش !

ولم يكن الأمر في حاجة إلى مزيد من الإغراء . فمن ذا الذي يبعث بابنه بعد اليوم إلى الأزهر – إلا الفقراء العاجزون عن دفع المصروفات – وهو يرى له المستقبل المضمون في وظيفة الحكومة ، حيث " يرطن " بلغة السادة المستعمرين ؟

وانصرف الناس – القادرون – من ذوات أنفسهم عن الأزهر ، واتجهوا إلى مدارس الحكومة بعد الثورة الأولى التي ثارها الحس الباطني المسلم على هذه المدارس " الكافرة " التي لا تعلم القرآن ولا تعلم الدين .. وأصبح هؤلاء المتعلمون " طبقة " جديدة ، تستمد طبقيتها من أنها من أبناء الأسر أولا ، ومن مركزها الاجتماعي في وظيفة الحكومة ثانيا .. ومن التشجيع الظاهر والخفي الذي تلقاه من سلطات الاستعمار بعد هذا وذاك .

ولم يكن أولئك المتخرجون في تلك المدارس " متعلمين " في الحقيقة . إنما كانوا كما قلنا مجموعة من " الكتبة " لا يصلحون لغير هذه الوظيفة . لا يصلحون إلا لتلقي الأوامر من المدير الإنجليزي ، وتنفيذها في عبودية كاملة ورعب وتقديس !

وما كان الإنجليز في ذلك الحين يجهلون أصول " التربية " الصحيحة ولا وسائل التعليم الحقة . ولا كانت مدارسهم في إنجلترا تدار بأساليب العبودية التي كانوا يديرون بها مدارس الحكومة في مصر . ولكن السياسة التي رسمها دنلوب لم تكن تهدف إلى تخريج متعلمين ، وإنما تهدف إلى تخريج عدد من العبيد يؤمرون فيطيعون ، ويشار إليهم فينفذون .. بجانب الهدف الآخر الخفي الذي يتحقق في ذات الوقت ، في بطء أكيد العاقبة ، وهو تحويل الناس عن الأزهر ليذوي ويتضاءل ، ويموت في نهاية المطاف .

في تلك المدارس كان يدرس المقرر في صورة واحدة ، من كتاب واحد مقرر . وما كان الإنجليز يجهلون أن الصورة الواحدة المحدودة تحدد تفكير الدارس وتقتل ملكة الابتكار فيه ، لأن الابتكار ينشأ من رؤية الشيء الواحد في صور متعددة ومن زوايا مختلفة ، فيتعود الذهن على التحوير والتبديل ، وينشأ عن ذلك الابتكار والتطوير . وقد كانت مدارسهم في إنجلترا – في ذلك الوقت ذاته – تربي تلاميذها على أن يطلعوا على الموضوع الواحد في مصادر مختلفة فيتربى فيهم حب الاطلاع من ناحية ، والقدرة على الابتكار والاختراع من ناحية . ثم يمتحنون فيما استفادوه من

دراستهم لا فيما حفظوه عن ظهر قلب . ولكنهم – في مصر – كانوا يحددون الأفهام والعقول ، خوفا من أن تنشأ فيها القدرة على التفكير !

وفي تلك المدارس كان الناظر الإنجليزي يحيط نفسه بجو من القداسة والرهبة ، كأنه إله يعبد ، يسري في النفوس منه الرعب ، وتتوجه إليه القلوب بالتوقير والتقديس ، وكانت تلك خير وسيلة – لا للتربية – وإنما لزرع العبودية في النفوس

وفي تلك المدارس كان يلقن التلاميذ أن مصر بلد متأخر لأنه زراعي ، لا يمكن أن تنشأ فيه الصناعة – عنوان التقدم – لأنه ليس فيه فحم ولا حديد . وأن أوربا على وجه العموم وإنجلترا بصفة خاصة ، بلاد متقدمة لأنها بلاد صناعية ، لأن فيها الفحم والحديد .

وفي تلك المدارس لم يكن يدرس القرآن ولا الدين .. إلا نتفا متناثرة تضر أكثر مما تنفع ..

فبينما كانت المدارس التبشيرية التي يحميها الاستعمار ويمكّن لها في الأرض ، تبدأ نشاطها اليومي بالصلاة في كنيسة المدرسة ، والتوجه إلى الله بالدعاء المسيحي – بما في ذلك التلاميذ المسلمون قسرا عنهم – فيرتبط الدين في وجدان التلاميذ بالنشاط والتطلع ، والحياة الباكرة القوية المستشرفة ، كانت حصص القرآن والدين في مدارس الحكومة توضع في نهاية اليوم المدرسي ، وقد كلّ التلاميذ وملوا ، وحنوا إلى الانفلات من سجن المدرسة البغيض إلى فسحة الشارع أو رحب البيت ، وكانت هذه الحصص توكل إلى أسن مدرس في المدرسة ، يسعل ويتفل ، ويمثل أمام التلاميذ ضعف الحياة الفانية المنهارة .. فيرتبط الدين في وجدانهم بالعجز والفناء والشيخوخة ، كما يرتبط بالملل والضجر والنفور .

* * *

وتوسعت سياسة دنلوب ، فأنشأ بضع مدارس ثانوية تمد الموجة الصليبية خطوات إلى الأمام ..

مدارس تسيرعلى النهج ذاته في كل شيء .. ولا تدرس شيئاً عن حقيقة الإسلام !

فما التاريخ الإسلامي الذي يدرسه التلاميذ ؟

نزل الإسلام :

١ – في قوم وثنيين يعبدون الأصنام فدعاهم إلى عبادة الله الواحد .

٢ – وكانوا يئدون البنات فنهاهم عن ذلك .

٣ – ثم دعاهم لنشر الدعوة فكانت الغزوات والفتوح التي انتهت بانتشار الإسلام في البقاع التي يوجد فيها اليوم !

ومن ثم يكون الإسلام " منتهيا " قد فرغت مهمته ، ولم يعد له مهمة يؤديها في وقع الحياة !

فأولا : لم يعد هناك أولئك الوثنيون عباد الأصنام الذين يدعوهم الإسلام إلى عبادة الله الواحد (وقد حجب الاستعمار أفريقيا !)

وثانياً : لم يعد أحد يئد البنات حتى يحتاج إلى دعوة الإسلام للقضاء على هذه الفعلة الشنيعة .

وثالثا : نشر الدعوة – أو الجهاد – قد توقف بحكم الظروف الدولية الحديثة ، ولم يعد له محل في العالم الحديث .

أما الإسلام كقوة كونية انبعثت في الأرض لتهدي الناس إلى النور ..

أما الإسلام كنظام يحكم الحياة البشرية من جميع أطرافها ويوجهها إلى الفلاح والخير ..

أما الإسلام كقوة فاعلة في واقع الأرض ..

أما الإسلام كحضارة امتدت في أقطار الأرض وأقطار الزمن أكثر من ألف من السنين ..

أما الإسلام كحركة علمية أضاءت وجه الأرض كله واستقت منها أوربا ذاتها لتكوّن نهضتها الحديثة ..

أما الإسلام كتنظيم اقتصادي وعدالة اجتماعية ..

أما الإسلام كحركة تحريرية ، حررت ضمير الفرد من الخرافة كما حررته من العبودية لغير الله ، وحررت جموع الناس من الظلم الذي يقع عليهم من فساد النظم أو فساد الأشخاص ..

أما الإسلام كشريعة أنزلها الله ليحكم بها الناس في الأرض ، ولتنفذ وتطاع ..

أما هذا كله ، فلا شيء منه يدرس للطلاب في المدارس .. وإنما يدرس الإسلام – على أكثر تقدير – كمجموعة من العبادات يؤديها الإنسان فيكون قد أدى كل ما عليه من " إسلام " !

أو يدرسونه مجموعة من الشبهات ! مجموعة من المظالم الفكرية والروحية والاجتماعية والسياسية ، تبيّنه في نظر الناس شيئاً ضئيلا هزيلا من ناحية ، ومن ناحية أخرى تبيّنه رجعية وجموداً وتأخراً ينبغي الانسلاخ منها في قوة ، والتخلص من هذه السبة التي تسمى الدين .

وفي مكان هذا كله يدرسون لهم أوربا !

أوربا هي القوة . وهي الحضارة . وهي العلم . وهي العدالة الاجتماعية . وهي الحرية والإخاء والمساواة . وهي التقدم الصاعد أبداً في كل ميدان .

النظم الاجتماعية الحقة هي التي قامت في أوربا . والنظم الاقتصادية الحقة هي التي ابتدعها الفكر الأوربي . والنظم الدستورية الصالحة هي التي صقلتها تجارب الأوربيين . حقوق الإنسان قررتها الثورة الفرنسية . والديمقراطية قررها الشعب الإنجليزي . والحضارة وضعت أسسها الإمبراطورية الرومانية .

وباختصار : أوربا هي العملاق الضخم الذي لا يقهر . والإسلام هو القزم الضئيل الذي عليه أن يتعبد هذا العملاق .. ليعيش !

* * *

ولم يكن ذلك كل شيء في سياسة دنلوب القسيس .

لقد كانت اللغة العربية – وما تزال – مرتبطة بالإسلام في نفوس المسلمين ، العرب منهم وغير العرب سواء .

فلا بد إذن من تحقيرها والزراية بها ، حتى تنتقل الزراية والتحقير – بالطبيعة – إلى ما يرتبط بها من معاني الدين .

وليكن شخص معلم اللغة العربية هو موضع الزراية والتحقير ..

فبينما يقبض مدرس اللغة الإنجليزية أو الجغرافيا والتاريخ أو الرياضة اثني عشر جنيها كاملة في الشهر ، تساوي في ذلك الزمان الحياة الرغيدة والوفر الذي تتكون منه ثروات وأراض وبيوت .. يقبض زميله مدرس اللغة العربية الذي يقوم بالعمل

معه في نفس المدرسة ، ويأخذ جدولا مماثلا من الحصص أو أكثر .. أربعة جنيهات !

وفي الحال تتميز الطبقتان تميزاً شنيعا لا يقف عند حد .

فهذا موضع الاحترام في المدرسة والمجتمع ، ينال مكانته الاجتماعية والاقتصادية .. ويتزوج من " البيوتات " ويربي أبناءه في جو من الاستعلاء والترفع ..

وذلك يتأخر ويتواضع وينطوي على نفسه ، وتنزل مكانته الاجتماعية والاقتصادية .. ولا يتسنى له أن يتزوج من أسرة كريمة .. ويربي أبناءه في جو من القهر والمذلة والهوان .. ويلقاه الناس في كل مكان بالازدراء والنفور ..

أف ! هذا مدرس لغة عربية !

ولا تصيبه الضربة وحده في واقع الأمر .. وإنما تصيب معه اللغة العربية والدين !

* * *

ولم يكن هذا كل شيء ...

فمع الاستعمار الصليبي في العالم الإسلامي كان التبشير يعمل على أوسع نطاق ممكن ، وفي قوة وإصرار وعنف ، لتقويض المفهوم الإسلامي في النفوس ، وزرع المفهوم المسيحي أو الأوربي بصفة عامة في قلوب الناس بدلا من مفهوم الإسلام .

وأمامي كتاب " الغارة على العالم الإسلامي La Conquete du Monde Musulman " (٦١) يشتمل على حقائق مذهلة .. يذهل الإنسان إذ يراها تنشر بهذه الصراحة ، ويذهل إذ يرى الخطوط التي وضعها التبشير والاستعمار معاً ما زالت عاملة في العالم الإسلامي ، والسموم التي وضعاها معاً ما زالت سارية في نفوس المسلمين !

إنها مأساة شنيعة .. أن يكون هذا الكيد كله قد دبر للمسلمين وهم في غفلة من أمرهم ، أو وهم يضحكون في بلاهة ، أو وهم يخبطون كفاً على كف في تواكل بليد !

ثم مأساة شنيعة .. أن نرى آثار هذا الكيد كله عاملة في جسم العالم الإسلامي اليوم ، في أفكاره وسلوكه ، وأخلاقه وتقاليده ... فيفرح بعضنا " بالتقدم " الذي أحرزناه ، ويغتمّ بعضنا للفساد الذي فسدناه .. ويظن هؤلاء وهؤلاء أنه " التطور " " الحتمي "

قد أخذ طريقه إلى العالم الإسلامي ، وأنه لا يمكن وقفه ، ولم يكن وقفه مستطاعا في أي وقت من الأوقات ..

ويغفلان معاً – هؤلاء وهؤلاء – عما صنعه الاستعمار والتبشير في عقول الناس ونفوسهم في قرنين من الزمان !

حقاً إن " التطور " العالمي قوة ضخمة ، سواء اعتبرناه انحداراً أو رفعة ؛ وكان لا بد أن تصيب دفعته العالم الإسلامي رضي أم أبى ، وسنتكلم بالتفصيل عن آثاره في الفصل القادم " تيارات عالمية " ؛ ولكنا نقول هنا إن الاستعمار الصليبي قد عمل ولا شك كثيراً " لإخضاع " العالم الإسلامي للموجة الكاسرة ، دون أن تتاح له القدرة على مقاومتها ، أو الوقوف منها موقفاً آخر غير موقف الخنوع والاستسلام .

ولو كان العالم الإسلامي في قوته كما كان ، وفي استعلائه كما كان ، لكان له ولا شك موقف آخر من هذا " التطور " غير الخنوع له والاستسلام ، وغير الفرحة البلهاء " بالتقدم " ، والمسارعة إلى أخذ كل شيء يأتي من الغرب على أنه الشفاء من كل داء ، ولو كان هذا السم وهو مبعث الداء ! .. ولكان له من البشرية كلها موقف آخر غير هذا الموقف الخانع المستسلم : موقف المنقذ من الهاوية التي تفغر فاها اليوم لتبتلع كل خير حصلته البشرية في تاريخها الطويل !

سنعود إلى هذا فيما بعد ..

أما الآن فنقتطف من هذا الكتاب المذهل فقرات ذات دلالة .. وإن كان الكتاب كله في الحقيقة يستحق القراءة كلمة كلمة ، لأنه لا توجد فيه كلمة واحدة بغير دلالة عجيبة شنيعة بشأن ما نحن فيه !!

هذا الكتاب هو في حقيقته عدد خاص من " مجلة العالم الإسلامي La Rrevue du Monde Musulman " التي تصدر في فرنسا ، أصدرته قبل خمسين عاماً ، لعرض نشاط التبشير البروتستانتي في البلاد الإسلامية ، وكتب مقدمته مسيو أ. لو شاتلييه A . Le Chatelier رئيس تحرير تلك المجلة عندئذ ، ليحمس الكاثوليك في فرنسا ، ويستنهض همتهم ، لينشطوا في التبشير من جانبهم ، مثيراً غيرتهم بالنجاح الباهر الذي أحرزه البروتستانت في هذا الميدان . وجعلت المجلة عنوان هذا البحث La Conquete du Monde Musulman أي غزو العالم الإسلامي . وقد

ترجمه السيدان مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب عند صدوره مباشرة ، ونشراه في جريدة المؤيد ، مقالات متتابعة ، ثم جمعاه بعد ذلك في كتاب صدر في القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ أي منذ ثلاثين عاماً .

وهذا الكتاب – الذي صدر في ذلك التاريخ البعيد – يعرض نشاط التبشير فيما يقرب من قرن – قبل تأليفه – ويعرض بالذات أعمال المؤتمرات التبشيرية الكبرى التي قامت في القاهرة سنة ١٩٠٦ وفي أدنبره بإنجلترا سنة ١٩١٠ وفي لكنو بالهند ١٩١١ ، ويعطي فكرة واضحة جداً عن اتجاه التبشير في العالم الإسلامي ووسائله وأهدافه . والزمن الطويل الذي مضى منذ تأليفه لا يفقده قيمته ، بل إنه على العكس هو الذي يعطيه أهمية زائدة ، لأنه يبين الخطوط الأساسية التي وضعت في الماضي ، وتركت تعمل على مهل لتبلغ أهدافها ، وقد بلغتها فعلا ، وما تزال حتى اليوم سارية المفعول .. ويبين للمسلمين أن تاريخ الاستعمار الصليبي معهم طويل من قبل ، وأن الحاضر كله ليس إلا جولة من جولات الصراع ، يفصح عنها رجل مثل بيدو في فرنسا حين يشير إلى معركة " الهلال والصليب " في المغرب .. ويخفيها آخرون .

* * *

يقول شاتلييه في مقدمته (والأقوال الشارحة من عندنا وكذلك الخطوط الموضوعة تحت بعض الكلمات لإبراز أهميتها) :

" قلنا في سنة ١٩١٠ عندما كنا نخوض على صفحات هذه المجلة (مجلة العالم الإسلامي الفرنسية) في موضوع السياسة الإسلامية (أي السياسة التي ينبغي أن تتبع تجاه الإسلام والبلاد الإسلامية) : ينبغي لفرنسا أن يكون عملها في الشرق مبنياً قبل كل شيء على قواعد التربية العقلية ليتسنى لها توسيع نطاق هذا العمل والتثبت من فائدته . ويجدر بنا لتحقيق ذلك بالفعل أن لا نقتصر على المشروعات الخاصة التي يقوم الرهبان المبشرون وغيرهم بها (!) ... فتبقى مجهوداتهم ضئيلة بالنسبة إلى الغرض العام الذي نتوخاه ، وهو غرض لا يمكن الوصول إليه إلا بالتعليم الذي يكون تحت الجامعات الفرنساوية ، نظراً لما اختص به هذا التعليم من الوسائل العقلية والعلمية المبنية على قوة الإرادة (!) . وأنا أرجو أن يخرج هذا

التعليم إلى حيز الفعل ليبث في دين الإسلام التعليم المستمدة من المدرسة الجامعة الفرنساوية " !

هكذا يبين شاتلييه في صراحة " الغرض العام الذي يتوخاه " ! وهو أن تُبَثّ في دين الإسلام التعليم المستمدة من المدرسة الجامعة الفرنساوية .. أي تدس في الإسلام التعاليم المسيحية الفرنسية ، لا عن طريق الرهبان المبشرين – فهؤلاء عملهم محدود ، لا يفي بالغرض الواسع المدى – وإنما عن طريق التعليم ، عن طريق فتح مدارس فرنسية في العالم الإسلامي تبث هذه التعاليم ، وتدرس هذه الأفكار .. وهذه المدارس – لكي لا ننسى – هي المدارس العلمانية !! وهي غير مدارس الرهبان والراهبات ، ذات الصبغة الدينية الصريحة !

ثم يقول في نفس المقدمة :

" نعم ، إن غاية المدرسة اليسوعية (في بيروت وهي من مدارس الرهبان) وطريقة التعليم فيها تختلفان عن غاية وطريقة المدرسة الكلية الفرنساوية في الأستانة (وهي من المدارس العلمانية) إلا أن النتائج كانت متقاربة من حيث تعميم التعاليم والأفكار التي تنشرها اللغة الفرنسية . ومن هذا يتبين لنا أن إرساليات التبشير الدينية التي لديها أموال جسيمة وتدار أعمالها بتدبير وحكمة ، تأتي بالنفع الكثير في البلاد الإسلامية ، من حيث إنها تبث الأفكار الأوربية " .

ثم يمضي في المقدمة فيستشهد بهذه الفقرة من كلام الأب زويمر (وهو مبشر بروتستانتي كان له نشاط في نهاية القرن الماضي وأوائل هذا القرن في الشرق الإسلامي ومصر خاصة ، وهو منشئ مجلة العالم الإسلامي الإنجليزية) :

" إن لنتيجة إرساليات التبشير في البلاد الإسلامية مزيتين : مزية تشييد ومزية هدم . أو بالحرى مزيتي تحليل وتركيب . والأمر الذي لا مرية فيه هو أن حظ المبشرين من التغيير الذي أخذ يدخل على عقائد الإسلام ومبادئه الخلقية في البلاد العثمانية والقطر المصري وجهات أخرى هو أكثر بكثير من حظ الحضارة الغربية منه " .

وهو كلام له خطورته بصفة خاصة . فهو يقرر صراحة أن التغيير الذي دخل على عقائد الإسلام ومبادئه الخلقية يرجع إلى نشاط التبشير – الذي يحميه الاستعمار ويمكّن له – أكثر مما يرجع إلى الحضارة الغربية بذاتها . وهذا يؤيد ما قدمنا به لهذه

المقتطفات ، من أن موجة " التطور " العالمية – أي الغربية في الحقيقة – لم تكن بذاتها مستطيعة أن تصنع هذا الصنيع كله في العالم الإسلامي ، فتدمر عقائده وأخلاقه ، لولا الاستعمار الصليبي الذي مهد لها ، ومكنها من تسديد الضربات القاصمة لصرح الإسلام .. وهو قول يعترف به المبشرون الغربيون أنفسهم ، ثم ينكره كثير من " المسلمين " ! مؤرخين وغير مؤرخين !

ونمضي في المقتطفات .. يقول شاتلييه بعد ذلك في المقدمة :

" ولا شك في أن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية من نفوس منتحليها ، ولا يتم لها ذلك إلا ببث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوربية . فبنشرها اللغات الإنجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية يحتك الإسلام بصحف أوربا وتتمهد السبل لتقدم (!) إسلامي مادي ، وتقضي إرساليات التبشير لبناتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية التي لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها " .

وهو كلام كذلك له خطورته . فهو يبين لنا – فيما أحسب – هدف الاستعمار الصليبي من نشر اللغات الأوربية في البلاد الإسلامية التي يستعمرها . إنه أولا وقبل كل شيء هدم الفكرة الدينية الإسلامية .. ثم إنشاء أي شيء بعد ذلك ، أو عدم إنشاء شيء على الإطلاق ! فالمهم هو الهدم وليس هو الإنشاء .. باعتراف شاتلييه نفسه إذ يقول في الفقرة التالية :

" ولا ينبغي لنا أن نتوقع من جمهور العالم الإسلامي أن يتخذ له أوضاعا وخصائص أخرى إذا هو تنازل عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية (المستمدة من الفكرة الإسلامية) إذ الضعف التدريجي في الاعتقاد بالفكرة الإسلامية وما يتبع هذا الضعف من الانتقاض والاضمحلال الملازم له ، سوف يفضي بعد انتشاره في كل الجهات إلى انحلال الروح الدينية من أساسها لا إلى نشأتها بشكل آخر " :

كلام صريح لا يحتاج إلى تعليق .. فتعليم اللغات الأوربية هدفه إضعاف الاعتقاد بالفكرة الإسلامية . وهذا الضعف مقدر له – في علم الاستعمار الصيبي وتدبيره – أن يتبعه انتقاض واضمحلال ملازم له .. وهذا هو المطلوب !

وهنا نقف لحظة لنرد على هذا السؤال : هل كنا نمتنع إذن عن تعلم اللغات الأوربية – وهي الوسيلة الكبرى أو الوحيدة للمعرفة في الوقت الحاضر – بسبب أن الاستعمار يستخدمها لإضعاف العقيدة الإسلامية ؟

كلا ! فالامتناع عن تعلم اللغات وإقفال باب المعرفة حماقة لا يطلبها لنفسه عاقل ! وإنما السبيل هو أن نتعلمها بوعينا وإرادتنا ، لا على النحو الذي يريده لنا الاستعمار . نتعلمها كما تعلم المسلمون الأوائل اليونانية والفارسية والهندية – لغات العلم يومئذ والمعرفة – دون أن تتأثر بذلك عقيدتهم ، بل تعلموها لخدمة هذه العقيدة ومد نشاطها إلى كل فروع المعرفة .. ويومها أصبح المسلمون هم علماء الأرض .. مع بقائهم مسلمين !

ووقفة أخرى – لا يملك الإنسان نفسه إزاءها – ليقارن بين هذا الصنيع الصليبي في العام الإسلامي ، وبين ما صنعه الإسلام في البلاد المفتوحة ، ليتبين لنا الفرق بين اتجاه واتجاه !

فما لا شك فيه أن المسلمين نشروا لغتهم العربية في البلاد التي فتحوها ، وأنهم فتحوا هذه البلاد لينشروا فيها الإسلام .. ولكن أي فرق .. !

لم يحفظ التاريخ قط أن المسلمين سعوا بأية وسيلة ملتوية إلى " استلاب " الناس من عقيدتهم وأفكارهم ليدخلوا الإسلام ! وإنما كانت الدعوة صريحة مكشوفة لا تحايل فيها ، ولا ضغط كذلك ولا إكراه .

يقول ت. و. أرنولد – وهو كاتب مسيحي ، فوق مستوى الشبهات فيما نحن بصدده ! – في كتابه " الدعوة إلى الإسلام The Preaching of Islam " ص ٤٨ من الترجمة العربية لحسن إبراهيم حسن وآخرين :

" ويمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب ، بأن القوة لم تكن عاملا حاسما في تحويل الناس إلى الإسلام . فمحمد نفسه قد عقد حلفا مع بعض القبائل المسيحية ، وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية ، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم في أمن وطمأنينة "

ويقول في ص ٥١ : " ومن الأمثلة التي قدمناها آنفاً عن ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون على العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة ، واستمر في الأجيال المتعاقبة ، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام ، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة . وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح " .

ثم إن نشر اللغة العربية في البلاد المفتوحة ، الذي كان مقصودا به ولا شك فتح الباب السلمي لاطّلاع الناس على العقيدة الجديدة ، حتى يعتنقوها – إذا أعجبتهم – دون إكراه ، (٦٢) لم يكن مقصودا به ، ولا هو أدى قط إلى الاضمحلال والانتقاض ، ولا إلى انحلال الروح الدينية من أساسها بحيث لا تنشأ بشكل آخر ، مما يصرح شاتلييه أنه هدف الاستعمار الصليبي ، وإنما كان مقصودا به ، وأدى بالفعل إلى إنشاء الروح الدينية الصحيحة بصورة قوية بناءة في واقع الحياة .

ويكفي هذا التفريق .. ونمضي في الطريق ، نسجل المقتطفات .. أو في الحقيقة الاعترافات !

يستمر شاتلييه في المقدمة فيقول :

" ولكننا نعود فنقول : إنه مهما اختلفت الآراء في نتائج أعمال المبشرين من حيث الشطر الثاني من خطتهم وهو الهدم ، فإن نزع الاعتقادات الإسلامية ملازم دائما للمجهودات التي تبذل في سبيل التربية النصرانية . والتقسيم السياسي الذي طرأ على الإسلام سيمهد السبل لأعمال المدنية الأوربية ، إذ من المحقق أن الإسلام يضمحل من الوجهة السياسية ، وسوف لا يمضي غير زمن قصير حتى يكون الإسلام في حكم مدنية محاطة (محاصرة) بالأسلاك الأوربية " .

وهذه الفقرة القصيرة تشتمل وحدها على حقيقيتين خطيرتين :

الأولى سبق الإشارة إليها ولكنها هن تصاغ بصورة أوضح وأصرح ، وهي أن الجهود التي تبذل ، هي في سبيل التربية النصرانية ، لا في سبيل نشر الحضارة من حيث هي تراث إنساني لا يعرف الدين ولا الوطن ، وتشترك فيه البشرية بكاملها ، كما كان يخيل للمستغفلين من المسلمين في الشرق ، إزاء أعمال " التمدين " التي يقوم بها

الاستعمار في البلاد الإسلامية ، وكما كان يزعم المأجورون من دعاة هذا الاستعمار أو المتسممون بسمومه .

إنها في صراحة ووضوح جهود تبذل في سبيل التربية النصرانية ، ويصاحبها ويلازمها نزع الاعتقادات الإسلامية من النفوس .

والثانية أن التقسيم السياسي الذي طرأ على الإسلام سيمهد السبل لأعمال المدنية " الأوربية " أي – كما شرحها شاتلييه – المدنية النصرانية ..

وهذا التقسيم السياسي الذي يشير إليه الكاتب هو تفتت العالم الإسلامي إلى دويلات شبه مستقلة ، يقوم بالحكم فيها حاكم شبه مستقل ، أو طامع في الاستقلال ، يتبناه الاستعمار الصليبي وينفخ فيه من روح الشيطان .

هذا التفتيت كان عملية مقصودة ولا شك ، ليتم الغزو ، الديني والحربي ، بصورة أسرع وأيسر مما لو كان العالم الإسلامي وحدة – مهما يبلغ من ضعفها فهي صعبة التفتيت ، وتجزئتها تزيدها ضعفا على أي حال .

ثم إن هذا يؤيد يؤكد ما سبق أن ذكرناه ، وكررناه ، من أن المدنية الأوربية بذاتها – أو " التطور " كما يلذ " للمثقفين " أن يسموه – لم يكن مستطيعاً وحده أن يفسد من العالم الإسلامي ما أفسد ، لولا هذا الدك المستمر في قلاعه على أيدي الاستعمار الصليبي ، بنزع العقيدة الإسلامية من النفوس بكل وسيلة يملكها المبشرون والمستعمرون .

* * *

وقد كانت هذه المقدمة في الحقيقة كافية لتوضيح ما نقصد إليه من هذه المقتطفات . كافية لبيان الكيد الذي دبر للإسلام للقضاء عليه منذ قرن مضى ، ولبيان أن هذا الكيد ذاته هو الذي ما يزال يجري عليه العالم الصليبي في علاقاته مع العالم الإسلامي ، مع فارق واحد ، أنه لم يعد – دائماً – يعلن عن أهدافه – فيما عدا صراحات رجل كالمسيو بيدو في فرنسا – وإنما صار أميل إلى إخفائها والتستر عليها ، بل نفيها أحياناً بكل وسيلة ممكنة .. وذلك لسببين :

الأول : أن هذا الكيد قد فعل فعله في حقيقة الواقع ، وما تزال دفعته سارية ، فيحسن التستر عليها حتى تؤدي عملها في هدوء ، ويحسن عدم التشويش عليها بما يوقظ الناس إلى حقيقة أهدافها .

والثاني : أن الاستعمار الصليبي قد وجد أسناده الداخليين – من بين المسلمين الذين استُعمرت أرواحهم وتسممت نفوسهم – الذين يكل إليهم المهمة الكبرى في تحطيم العقيدة الإسلامية ، دون أن يتدخل تدخلا سافراً كما كان مضطراً قبل نصف قرن ، ودون أن ينكشف للناظرين .. وجد أسناده الداخليين في كل مكان في العالم الإسلامي ، من " الكتّاب " و " المفكرين " و " الموجهين " و " المثقفين " و " التحرريين " و " التقدميين " و " التطوريين " .. وغيرهم ممن يملكون التوجيه والتأثير .. يسند إليهم المهمة ويستريح ، ويقف ساخراً يفرك يديه من غفلة المستغفَلين وسهولة الكيد على الكائدين !

كانت المقدمة التي كتبها شاتلييه واقتطفنا منها هذه الفقرات كافية لبيان هذا كله ، بحيث نستغني عن مزيد من المقتطفات من البحث نفسه المسمى " غزو العالم الإسلامي " أو " الغارة " عليه . لولا أن في بقية الكتاب تفصيلات نافعة في الخطوات التي اتخذها الاستعمار الصليبي لقتل العقيدة في نفوس المسلمين وتحويلهم عنها . تفصيلات قد تزيد علمنا بالوسائل ، إن لم تزد علمنا بالأهداف .

* * *

ينقسم الكتاب إلى فصول مختلفة عن " تاريخ التبشير" و " مؤتمر القاهرة التبشيري سنة ١٩٠٦ " و " مؤتمر أدنبره التبشيري سنة ١٩١٠ " و " المؤتمر الاستعماري الألماني " و " مؤتمر لكنو التبشيري سنة ١٩١١ " و " التنظيم المادي لإرساليات التبشير " و " مقاصد المبشرين وآمالهم في المستقبل " . وفي كل فصل من هذه الفصول تفصيلات مختلفة . ولا يهمنا هنا أن نسير مع هذه التفصيلات ولا أن نقتطف من كل الفصول . وإنما نكتفي فقط بالعبارات ذات الدلالة ، كما صنعنا من قبل في مقدمة شاتلييه .

* * *

جاء في ص ٣٣ من الكتاب (في فصل " مؤتمر القاهرة سنة ١٩٠٦ ") .

" أما الذين تعلموا على الطريقة الشرقية في الأزهر وما يماثله ، فلم يتكلم أعضاء المؤتمر عنهم إلا بعض اقتراحات ونظريات : من ذلك أن أحد أعضاء المؤتمرأفاض في وصف ما للجامع الأزهر القديم من النفوذ ، وإقبال الألوف عليه من الشبان المسلمين في كل أقطار العالم . وتساءل عن سر نفوذ هذا الجامع منذ ألف سنة إلى الآن . ثم قال : إن السنيين من المسلمين رسخ في أذهانهم أن تعليم العربية في الجامع الأزهر متقن ومتين أكثر منه في غيره ، والمتخرجون في الأزهر معروفون بسعة الاطلاع على علوم الدين ، وباب التعليم مفتوح في الأزهر لكل مشايخ الدنيا خصوصا وأن أوقاف الأزهر الكثيرة تساعد على التعليم فيه مجانا ، لأن في استطاعته أن ينفق على ٢٥٠ أستاذاً . ثم تساءل عما إذا كان الأزهر يتهدد كنيسة المسيح بالخطر . وعرض اقتراحا يريد به إنشاء مدسة جامعة نصرانية تقوم الكنيسة بنفقاتها ، وتكون مشتركة بين كل الكنائس المسيحية في الدنيا على اختلاف مذاهبها لتتمكن من مزاحمة الأزهر بسهولة ، وتتكفل هذه المدرسة الجامعة بإتقان تعليم اللغة العربية ." .....

" وختم كلامه قائلا : ربما كانت العزة الإلهية قد دعتنا إلى اختيار مصر مركز عمل . لنسرع بإنشاء هذا المعهد المسيحي لتنصير الممالك الإسلامية " (!!) .

الأزهر إذن يتهدد كنيسة المسيح بالخطر ! وينبغي لذلك إزالته من الطريق ! ولكن كيف وهو راسخ القدم منذ ألف سنة أو تزيد ؟! الطريق هو إزالة " تفرده " الذي تفرد به هذه الألف من السنين ! فإذا أصبح له شبيه من أي نوع ، فقد ذهبت قيمته وانصرف الناس عنه إلى شيء جديد !

* * *

وجاء في ص ٣٦ من نفس الفصل :

" خاض المؤتمر بعد ذلك في مسألة إرساليات التبشير الطبية ، فقام المستر هاربر وأبان وجوب الإكثار من الإرساليات الطبية ، لأن رجالها يحتكون دائما بالجمهور ، ويكون لهم تأثير على المسلمين أكثر مما للمبشرين الآخرين " .

وفي ص ٣٧ : " يجب على طبيب إرساليات التبشير أن لا ينسى ولا في لحظة واحدة أنه مبشر قبل كل شيء ثم هو طبيب بعد ذلك " .

ولا يهمنا من هذه الفقرات أكثر من التذكير ببعض وسائل التبشير ، وكيف كانت " الخدمات الإنسانية ! " تتخذ وسيلة لتحطيم الدين !

* * *

وجاء في ص ٤٨ :

" والنتيجة الأولى لمساعي هؤلاء (المبشرين) هي تنصير قليل من الشبان والفتيات ، والثانية تعويد كل طبقات المسلمين أن يقتبسوا بالتدريج الأفكار المسيحية " .

ومن قبل في ص ٤٧ :

" ينبغي للمبشرين أن لايقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة ، إذ من المحقق أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين وتحرير النساء " .

وسنعود إلى موضوع تحرير النساء مرة أخرى فنتحدث عنه بشيء من التفصيل . أما هنا فنلفت النظر إلى أن المبشرين في ذلك الوقت (سنة ١٩٠٦) كانوا قد كفّوا عن التطلع إلى تنصير المسلمين بمعنى تحويلهم إلى اعتناق المسيحية ، واكتفوا بما يغني – في نظرهم وفي الحقيقة – عن هذا التنصير ، وهو " تعويد كل طبقات المسلمين أن يقتبسوا بالتدريج الأفكار المسيحية " أو " الميل الشديد إلى علوم الأوربيين " .

والفقرتان من كلام القس زويمر ، وقد مر بنا أنه كان من أخطر المبشرين في مصر وما حولها من البلاد الإسلامية . وهو يعني ما يقول في هاتين الفقرتين . فليس المهم أن يتنصر المسلمون رسمياً ، وإنما المهم أن يتنصروا فكرياً وروحياً .. وهو ما نجح فيه الاستعمار الصليبي نجاحا لا شك فيه .

* * *

وجاء في ص ٥٢ :

" ومؤتمر المبشرين الذي عقد في القاهرة لم يفته البحث في حركة الإصلاح (!) التي دخلت في مسلمي الهند ، والإشارة إلى " السير سيد أحمد خان " زعيم تلك النهضة ، وما تبذله مدرسته الإسلامية في " عليكره " ومؤتمر التربية الإسلامية . ولقد خطب القسيس ويتبرتشت في مؤتمر القاهرة بموضوع " الإسلام الجديد " (!) فذكر أن تعاليم أوربا تقرب المسلمين من النصرانية " .

وهنا تتبدى لنا عناية الاستعمار الصليبي في " التقاط " كل شخص أو مذهب منحرف من بين المسلمين ، وتكبيره والإشادة به والنفخ فيه ، لأنه كما جاء في صفحة ٤٦ من الكتاب : " تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم ، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها " .

كما تلفت النظر تلك الإشارة إلى " الإسلام الجديد " .. الإسلام المتطور الذي يبشر به المبشرون المسيحيون .. ويتبنونه وينفخون فيه لأنه يقرب المسلمين من النصرانية !

* * *

في ص ٦٠ ." وقد قال أحد المبشرين : المدارس هي من أحسن الوسائل لترويج أغراض المبشرين " .

وفي ص ٨٢ .

" إن الحكومة (يقصد الحكومة الألمانية التي تحكم مستعمرات ألمانيا الإسلامية في أفريقيا) لا بد لها من القيام بتربية الوطنيين المسلمين في المدارس العلمانية ما دام هؤلاء المسلمون ينفرون من المدارس المسيحية "

وفي ص ٧٢ :

" اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى في عاصمة السلطنة العثمانية على أن معاهد التعليم الثانوية التي أسسها الأوربيون كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية يرجح على تأثير العمل المشترك الذي قامت به دول أوربا كلها " .

وهذه الفقرات – والأخيرة منها خاصة – لا تحتاج في خطورتها إلى تعليق . فالقوم يعترفون أن هذه المدارس – العلمانية !! – كان لها تأثير في حل المسألة الشرقية يزيد على كل ما قامت به دول أوربا من قرارات سياسية للقضاء على العالم الإسلامي وتفتيته إلى دويلات خاضعة للنفوذ الغربي .

و " المسألة الشرقية " تعبير جرت به الكتب الغربية في تأريخها للفترة الأخيرة من الخلافة العثمانية . ويقصدون " بحلها " من وجهة نظرهم القضاء على تلك الخلافة التي كانت – رغم كل شيء – رمزاً لوحدة العالم الإسلامي ، وقوة تخشاها أوربا رغم ما أصابها من وهن وضعف حتى كانوا يطلقون عليها اسم : الرجل المريض ! ..

لقد ظل هذا الرجل المريض يزعجهم ويرعبهم ويقلق أعصابهم – وهو مريض – حتى قضوا عليه نهائيا في الحرب الكبرى الأولى بمساعدة حليفهم الخفي أتاتورك ، الذي أضفوا عليه ألقاب البطولة والعظمة لقاء الخدمة الكبرى التي قدمها للعالم الصليبي ، بإزالة رمز الوحدة الإسلامية ، وإقامة دولة هزيلة في تركيا على أساس لا ديني ، قرت بها عيون الصليبيين وقلوبهم ، وما زالوا يذكرونها بالخير العميم (٦٣) .

وفي هذه الفقرات يعترف الكاتب أن المدارس العلمانية قد فعلت في حل المسألة الشرقية .. أي في تحطيم الإسلام .. أكثر مما فعلته السياسة والحرب والجيوش ! وتلك هي المدارس التي كنا نفتح لها قلوبنا وأفكارنا ، ونربي فيها أبناءنا وبناتنا مفاخرين !!

* * *

جاء في ص ٦٤ في فصل " مؤتمر إدنبرج – سنة ١٩١٠ " .

" وأعمال مؤتمر إدنبرج لم تكن حبراً على ورق بدليل أن المؤتمر الاستعماري الألماني الذي عقد عقب مؤتمر إدنبرج التبشيري اهتم بأمر إرساليات التبشير الجرمانية ، حتى خيل إلى الناس أن هذا المؤتمر الاستعماري السياسي تحول إلى مؤتمر تبشير ديني " !

وفي ص ٨٠ من نفس الفصل :

" نشرت المجلة السويسرية التي نقلنا عنها المقالة الماضية مقالة ذات شأن عن موقف إرساليات التبشير في المؤتمر الاستعماري الألماني . ومما يزيد في أهمية هذه المقالة أنها مكتوبة بقلم " ا. ك. اكسنفلد " صاحب التقرير عن الفرع المختص بالإسلام في المؤتمر الاستعماري وهو أيضاً سكرتير جمعية التبشير في برلين . قال صاحب المقالة : إن المؤتمر الاستعماري امتاز بميزتين : الأولى أنه بحث في الشئون الصناعية والاقتصادية ، والثانية إجماعه على وجوب ضم المقاصد السياسية والاقتصادية إلى الأعمال الأخلاقية والدينية في سياسة الاستعمار الألماني . واستشهد بقول " شنكال " رئيس غرفة التجارة في همبورج : إن نمو ثروة الاستعمار متوقف على أهمية الرجال الذين يذهبون إلى المستعمرات . وأهم وسيلة للحصول على هذه الأمنية إدخال الدين المسيحي في البلاد المستعمرة ، لأن هذا هو الشرط

الجوهري للحصول على الأمنية المنشودة حتى من الوجهة الاقتصادية .. ثم حدث خلاف بين المبشرين وأعضاء المؤتمر في وجهة النظر إلى الإسلام . فقام اكسنفلد كاتب هذه المقالة في المجلة السويسرية ولفت الأنظار إلى الخطر الإسلامي في المستعمرات الألمانية بأفريقية ، واقترح على المؤتمر الاهتمام من كل الأوجه بعاقبة الحال الحاضرة ، سواء في ذلك الوجهة التبشيرية والوجهة الفكرية ووجهة السلطة السياسية " .

وهذا يكفي في بيان الصلة العميقة بين الاستعمار والتبشير ، وفي أهمية قتل العقيدة الإسلامية في نظر المستعمرين " حتى من الوجهة الاقتصادية " البحتة ، التي يزعم الاستعمار الصليبي أنها كانت دافعه الأوحد لاستعمار العالم الإسلامي ! ويجاريه في ذلك مستغفلون من المسلمين !

* * *

وجاء في ص ٩٤ في فصل " مؤتمر لكنو سنة ١٩١١ " .

" والآن لم يبق غير ٣٧,١٢٨,٨٠٠ مسلم تحت سلطة حكومات إسلامية . وانتقلت السلطة السياسية على أكثرية المسلمين من يد الخلافة الإسلامية إلى يد انجلترا وفرنسا وروسيا وهولاندة . وعدد المسلمين الذين تحت سلطة كل واحدة من هذه الدول يفوق عدد المسلمين الموجودين في كل أرجاء السلطة العثمانية . وإن عدد المسلمين الذين تحت سلطة الدول النصرانية سيزداد كثيراً عقب انقلابات قريبة الحصول ، وبذلك تزداد مسئولية الملوك النصارى في مهمة تنصير العالم الإسلامي ... "

* * *

وأخيراً موضوع المرأة !

سبق أن أثبتنا الفقرة التي اقتطفناها من ص ٤٦ من الكتاب ، والتي تقول :

" ينبغي للمبشرين ألا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة . إذ من المحقق أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين وتحرير النساء " .

وفي صفحتي ٨٨ ، ٨٩ وردت الفقرتان الآتيتان بشأن قرارات مؤتمر لكنو ومؤتمر القاهرة :

" كل هذه الحوادث (بوادر قيام نهضة في العالم الإسلامي) تحتم على الكنيسة أن تعمل بحزم وجد ، وتنظر في أمر التبشير والمبشرين بكل عناية . وعل ذلك فيشمل برنامج مؤتمر لكنو الأمور الآتية :

" أولها : درس الحالة الحاضرة .

" ثانيها : استنهاض الهمم لتوسيع نطاق تعليم المبشرين والتعليم النسائي .

" ثالثهما : إعداد القوات اللازمة ورفع شأنها .

" هذا ما نشرته مجلة الرئيس عن مواد تضمنها برنامج المؤتمر . أما البرنامج نفسه فقد عرض على المؤتمرين بعد قراءة الخطب الافتتاحية وانتخاب اللجنة وتلاوة تقارير لجنة مواصلة أعمال مؤتمر القاهرة ، وهذه مواده :

" الأولى ...." ......

" السابعة : الارتقاء الاجتماعي والنفسي بين النساء المسلمات .

" الثامنة : الأعمال النسائية "

ما هذه العناية الشديدة " بتحرير " المرأة المسلمة و " تعليم " المرأة المسلمة و " الارتقاء الاجتماعي والنفسي " للمرأة المسلمة ؟! وممن ؟! من المبشرين ومؤتمرات التبشير ؟! ومتى !؟ عندما يكون هناك " خطر " من قيام نهضة في العالم الإسلامي ! وعندما يكون المطلوب اتخاذ قرارات ضد هذه النهضة ؟!

ما هذه العناية الشديدة بهذا كله ، وما علاقة تحرير المرأة وتعليمها وترقيتها اجتماعياً ونفسياً ، بالقرارات التي تتخذ لقتل الإسلام والإجهاز عليه قبل أن يحاول النهوض من جديد ؟!

أليس هذا كلاماً يلفت النظر ؟ أليس كلاماً له خبئ ؟!

نعم .. لقد كانت حركة " تحرير المرأة المسلمة " من أخبث ما قام به الاستعمار الصليبي من حركات ، لتفتيت كيان الإسلام ومحاولة اقتلاعه من الجذور . فقد كانت كفيلة – وحدها – ببث الانحلال الخلقي والفكري والديني في الشعوب المسلمة ، بما تعجز عنه الوسائل الباقية كلها مجتمعات ..

حين تخرج المرأة عارية في الطريق ، تعرض فتنتها لكا راغب ، وتثير في الرجل شهوة الحيوان .. عندئذ لا إسلام ولا دين ولا عقيدة .. ولا تماسك في أخلاق الشعب

ولا صمود .. ويجد الاستعمار الصليبي فرصته السانحة لتسديد الضربة الأخيرة .. ضربة الإجهاز ...

ويتراءى للنفوس ذلك السؤال : أو لم تكن المرأة المسلمة في حالة من الجهالة والتأخر والانحطاط والجمود والعبودية تحتاج معها إلى " تحريرها " وتعليمها ، وترقيتها اجتماعياً ونفسياً ؟!

بلى . من غير شك ..

ولكن الاستعمار الصليبي حين أقدم على ذلك لم يكن بطبيعة الحال يعمل لصالح المرأة المسلمة ولا المجتمع المسلم ، وقد سبق من كلام المبشرين أنهم يعملون على تفتيت هذا المجتمع وإفساد أخلاقه وتذويب عوامل القوة فيه وتحويلها إلى عوامل ضعف ..

فحين " حرر " المرأة لم يحررها للنهوض بالمجتمع وترقيته والارتفاع به كما زعم ، وكما زعم أجراؤه من بعده ، وإنما " حررها " ليفسدها هي أولا ويفسد معها بقية المجتمع .

وحين " علمها " ، كان يعلمها لتعرف الفساد وتتقنه ، وتجعله فساداً قائماً " على أصول " ! أصول تربوية مرة ، وسيكلوجية مرة ، واجتماعية وفكرية مرة ... وهو في كل مرة فساد .

وحين " ارتقى بها اجتماعياً ونفسياً " ، كان يقصد إلى الانحدار بها في هوة الفتنة والغواية ، حيث تبقى هناك إلى ما شاء الله .. ترتكس على الدوام .

وكان له بالفعل ما أراد ...

والتحرر .. والتعليم .. والارتقاء الاجتماعي والنفسي .. كله من أهداف الإسلام بالنسبة للمرأة المسلمة . ولكنه لا يقوم على أساس الانحلال الخلقي والديني كما أراده الاستعمار الصليبي للقضاء على الإسلام . وإنما يقوم على أسسه الرفيعة التي تحقق للفرد البشري أعلى ما في طوقه من الرفعة والتكريم ، مع المحافظة على نظافة المجتمع ونظافة الأخلاق (٦٤) .

وقد تحدثت في كتب أخرى عن وضع المرأة كله في الإسلام ، وما أريد أن أعيد هنا ما قلته هناك . ولكني أشير فقط ، بصدد الحديث عن الاستعمار الصليبي في العالم

الإسلامي ، إلى أن قضية المرأة و " تحريرها " كانت أكبر فتنة اجتماعية وضعها ذلك الاستعمار لتفتت المجتمع الإسلامي كله ، كما يفتت البارود أصلب الصخور .

* * *

وبجانب هذا الكيد كله كانت الجهود التبشيرية " العلمية ! " التي يقوم بها المستشرقون !

ولقد أدى المستشرقون دورهم " بإخلاص " فأحدثوا أكبر فتنة فكرية كان في طوقهم أن يحدثوها في العالم الإسلامي .. بين " المثقفين " من أبنائه . وقد مهدت لهذه الفتنة طريقة الدراسة ذاتها في المدرسة الابتدائية والثانوية ، ثم في " المدارس العليا " .. وفي الجامعة بعد ذلك ، حين حلت الجامعة مكان تلك المدارس بالتدريج

ولئن كان " التبشير " كان مقصودا به العوام من الناس ، حسب ما جاء في كتبهم ، وحسب ما كان واقعاً بالفعل ، من اندساسهم بين الجهلة والعوام في المدن والأرياف ، فقد كان الجهد الاستشراقي موجها إلى " المثقفين " ، فهم الذين يدركون " القضايا " التي يثيرها المستشرقون ضد الإسلام ، من فكرية وفلسفية وتشريعية واجتماعية واقتصادية ، ويتأثرون بها وقد حُقِنُوا من قبل " بمبادئ " هذه السموم في المدارس والجامعات ، وصاروا مستهدفين لها ، سريعي الاستجابة إليها .. ثم هم الذين يمكن أن يوكل إليهم بعد ذلك أن ينشروا هذه السموم ذاتها في الأجيال التالية : في كتبهم وصحفهم ، ومدارسهم وجامعاتهم ، وبيوتهم نواديهم ، بحيث يجيء على مرور الأيام جيل " مثقف " لا يعرف عن الإسلام إلا الشبهات !

وقد ناقشت في كتاب " شبهات حول الإسلام " كثيرا من الشبهات التي يلقيها المستشرقون حول الإسلام ، والتي ورثها من بعدهم الشيوعيون وأضافوا إليها في الجانب الاقتصادي ما لم يكن المستشرقون الغربيون يعنون به كثيرا من قبل ، في مسائل الملكية الفردية والإقطاع والرأسمالية .. إلخ . ولم أناقش في ذلك الكتاب شبهات العقيدة ، والوحي ، وصحة النبوة .. إلى آخر تلك السخافات التي يمعن المستشرقون في إثارتها بلجاج وسخف والتواء ، لأنني – في ذلك الكتاب خاصة – كنت مشغولاً بالإسلام كواقع حيّ يعيش في المجتمع وينظم علاقات أفراده بعضهم ببعض ، لا من حيث هو " نظرية عقيدية " تشغل الذهن أكثر مما تشغل الحياة .

ولأنني أحس – دائما – أن مجادلات المستشرقين في " العقيدة " و " الوحي " و " النبوة " أسخف من أن يتصدى لها أحد بالجدال ، ويكفي – مثلا – أن رجلا كمرجليوث ، يعتبر من أئمة المستشرقين ، وله هنا في بلادنا تلاميذ " عظام ! " يدعون له ولأفكاره بشأن الشعر الجاهلي والقرآن ، يقول في بحثه عن الإسلام في موسوعة تاريخ العالم Universal History of the World إن محمدا صلى الله عليه وسلم مجهول النسب ، لأنه محمد " ابن عبد الله " .. وقد كان العرب يطلقون على من لا يعرفون نسبه اسم عبد الله !!!

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم .. بن قصي .. محمد رسول الله ، مجهول النسب في بيئة لا تعرف شيئاً كما تعرف الأنساب ، ولا تعتز بشيء كم تعتز بالأنساب ، وهو يتحدى آلهتها وتقاليدها وعبادتها وعاداتها وأوضاعها كلها بنسبه المجهول !!!

فأي سخف وأي تفاهة في التفكير والتعبير ؟!

وعلى أي حال فلست بصدد الرد على التواءات المستشرقين ومجادلاتهم بشأن الإَسلام ، وإنما أنا أسجل فقط خطوات التاريخ .

وأقتطف هنا سطورا موحية من كتاب " الإسلام على مفترق الطرق " تأليف ليوبولد فايس (محمد أسد) وترجمة عمر فروخ . يقول في ص ٥٨ – ٥٩

" وبعد بضعة عقود جاء زمن أخذ فيه علماء الغرب يدرسون الثقافات الأجنبية ويواجهونها بشيء من العطف ، أما فيما يتعلق بالإسلام فإن الاحتقار التقليدي أخذ يتسلل في شكل تحزب غير معقول إلى بحوثهم العلمية . وبقي هذا الخليج الذي حفره التاريخ بين أوربة والعالم الإسلامي غير معقود فوقه بجسر . ثم أصبح احتقار الإسلام جزءا أساسياً من التفكير الأوربي . والواقع أن المستشرقين الأولين في الأعصر الحديثة كانوا مبشرين نصارى يعملون في البلاد الإسلامية ، وكانت الصورة المشوهة التي اصطنعوها من تعاليم الإسلام وتاريخه مدبرة على أساس يضمن التأثير في موقف الأوربيين من " الوثنيين " (أي المسلمين !) غير أن هذا الالتواء العقلي قد استمر ، مع أن علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير ، ولم يبق لعلوم الاستشراق هذه عذر من حمية دينية جاهلية تسيء توجيهها . أما تحامل

المستشرقين على الإسلام فغريزة موروثة وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التي خلقتها الحروب الصليبية ، بكل ما لها من ذيول ، في عقول الأوربيين الأولين " .

ولقد أدى المستشرقون خدمات جليلة للمباحث الإسلامية دون شك ... فطريقتهم المنظمة ، وصبرهم العجيب على استخلاص النصوص وتحريرها – وإن كانت لهم أخطاء كثيرة في فهم النصوص وتفسير الأحداث – وجلدهم المثالي على الغوص في بطون الكتب العربية القديمة التي لا رابط في تأليفها ولا نظام ، والتي لا يصبر عليها العرب أنفسهم أصحاب هذه اللغة وحماتها والقائمون عليها ، ولا يتجهون إلى البحث فيها وهي تراثهم الذي ينبغي عليهم حفظه ونشره والاستفادة به

كل هذه الصفات النادرة ، والجهود الضخمة التي بذلوها في بعث النصوص القديمة ونشرها ، على الرغم من الأخطاء الكثيرة – المضحكة أحياناً – في الفهم والتأويل .. ينبغي أن تسجل لهم بالحق . ولكن العبرة – مع ذلك – ليست بالجهد الذي بذل ، إنما العبرة بالهدف الذي بذل هذا الجهد من أجله وعمل في سبيله . هل كان هذا الهدف هو " خدمة " الإسلام ، أم تشويه الإسلام وتلويث صورته في النفوس ؟

وهل كان " ضمير العالِم " هو الذي يسيطر على المستشرقين في هذا الجهد المضني الذي بذلوه ، أم كان المبشر المختفي في إهاب المستشرق ، هو الذي يدفع هذا الجهد ويغذيه ؟!

وأين هو ضمير العالم في مرجليوث الذي يحاول التشكيك في نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم .. في الجزيرة العربية التي كان حفظ الأنساب عندها " فريضة " مقدسة تفرضها البيئة والتقاليد ؟

وأين هو في جرونيباوم الذي يقول في كتابه " الإسلام " إن العلم كان مطلوبا منه في نظر الإسلام أن يخدم الدين .. أي أمور الآخرة (!) في حين يقرر في نفس الكتاب أن الإسلام بالذات نظام دنيوي أخروي في آن واحد ، لا ينفصل فيه الدين عن الدنيا ، ولا المجتمع عن الشريعة !

وأين هو في فلهوزن في كتابه " الدولة العربية " حيث يقول إن أبا بكر وعمر اغتصبا الخلافة من المسلمين اغتصابا (ولو قال من عليّ كرم الله وجهه لكانت هناك وجهة نظر على الأقل ! ولكنه يقول من المسلمين !) وإن محمدا صلى الله عليه وسلم

هادن اليهود وحالفهم وهو ضعيف القوة ، فلما قوي " انقلب " عليهم ، وطردهم بدافع من القومية !! ولا يذكر ما يسجله التاريخ من أن اليهود هم الذين نقضوا عهدهم مع المسلمين ، وفعلوا كل ما يفعله المحارب من تأليب المشركين عليهم في مكة ، والتآمر مع المنافقين في المدينة ، ونشر الأراجيف .. وأخيراً الاعتداء الشائن على امرأة من المسلمين .

وأين هو في جولدتسيهر في كتابه " العقيدة والشريعة في الإسلام " الذي يقول فيه إن الإسلام ليس فيه شيء جديد " لا في الأفكار ولا فيما يتصل بعلاقة الإنسان بما هو فوق حسه وشعوره وباللانهاية " إذ هو في نموه مصطبغ بالأفكار والآراء الهلينستية ، ونظامه الفقهي الدقيق مستمد من القانون الروماني ، ونظامه السياسي متأثر بالنظريات السياسية الفارسية وتصوفه يمثل تيارات الآراء الهندية والأفلاطونية الجديدة !!!

وأين هو في " قايين رابن " تلميذ مرجيليوث في كتاب : " اللغات القديمة في غربي بلاد العرب " الذي يقول فيه إن القرآن قد احتوى على أخطاء لغوية ونحوية (!!) وإن المسلمين على مر الأجيال قد صححوا كثيراً منها ولكن ما زال بعضها باقيا حتى اليوم !

إلى آخر هذا اللغو الذي لا يحترمه عقل ولا علم ولا ضمير ..

ومع ذلك كله فللمستشرقين في الشرق الإسلامي معجبون كثيرون .. وتلاميذ !

وتصل الفتنة إلى حد أن بعض المسلمين أنفسهم ، ممن لا يشك الإنسان في ضمائرهم ، يخدعون في كتاباتهم فيجعلونها مراجع لهم لا في البحث عن الحوادث التاريخية ، ولا في تحرير النصوص ؛ بل في البحث عن أصل التصور الإسلامي ، وفي تفسير أحداث التاريخ الإسلامية ، حتى شخصيات العصر الأول .. دون فطنة إلى أن الهدف الأول للاستشراق – سواء أكان ظاهرا أم خفيا – كان تلبيس هذه العقيدة ، وإلقاء الغبش في التصور الإسلامي ، والتشكيك في الشخصيات موضع القدوة ، وفي دوافع الرجال الكرام الذين أسسوا هذا الدين .

فإذا كانت الفتنة تصل إلى هذا الحد عند هؤلاء " المسلمين " ضميراً وثقافة .. فكيف هي عند " رعاع " المثقفين الذين لا يعرفون عن الإسلام إلا ما يقوله لهم هؤلاء

المستشرقون ، وكيف هي عند المتحللين المنسلخين من هذا الدين ، الذين تتفتح نفوسهم وتشرق لهذا الطعن والتشويه ، بقدر ما تنقبض من كل كلام يصحح الأفهام ويذكر الحقائق كما أنزلها الله وعرفها المسلمون ؟! (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) (٦٥) .

نعم . لقد كان جهد المستشرقين جزءاً من الكيد المنظم لهذا الدين .

وهو جهد خبيث ...

فقد تعلموا من بدء المعركة أن المهاجمة الصريحة للمسلمين في عقيدتهم ليس لها نتيجة سوى استفزاز مشاعرهم وإيقاظهم إلى الكيد المرصود لهم ، فيزيدهم ذلك تمسكا بالدين !

لذلك لجأوا إلى طريق أخبث .. هو دس السم في العسل كما يقولون ... فهم يبدأون بتمجيد الإسلام ورسوله ، والإشادة بالفضائل الجمة العالية التي يشتمل عليها هذا الدين ... فإذا اطمأن المسلم إلى أنه في جوٍ صديق لا يضمر له السوء ، وألقى سلاح الانتباه واليقظة ... فهنالك يُدَسّ له السم وهو غافل ، وتوضع – في وسط التمجيد – تلك الغمزات والتشويهات ، التي تصل في النهاية إلى تشكيك الناس في حقائق عقيدتهم ، ونمو الشبهات خفية في داخل النفس أو علانية في وضح الذهن !

وهذه هي الخدعة الماكرة .. فمن ذا الذي يشك – وهو يرى كاتبا مسيحيا لا يؤمن بالإسلام يكيل له هذا المديح كله – من ذا الذي يشك بعد ذلك في صدق كل حرف يقوله ، وفي أن هذه المطاعن موجودة حقيقة في الدين ، وإنما كان يخفيها عن بصيرته التسليم الأعمى الموروث ، حتى قيض الله له ذلك " العالم النزيه " ليكشف له عن الأباطيل ، ويريه الحقائق في وضح النور .. وفي ضوء " العلم " الذي لا يتحيز ولا يميل ؟!!

فإذا هززت أحدهم من غفوته وغفلته .. وقلت له كيف تنتظر من غير مسلم أن يقول لك الحق في أمر الإسلام ؟! وكيف تتخذ منه مصدر المعرفة في أمر دينك وهو لا يؤمن بهذا الدين ؟ قال – بلسانه ، وهو ما يزال في غفلة المبهور – حقاً إنه لا يؤمن بالإسلام .. ولكنه يبحث بحثاً " علمياً " حراً لا علاقة له بالدين !!!

وجميل أن نأخذ عن المستشرقين طريقة البحث المستأنية الصابرة المنقبة في بطون الكتب وحواشيها ، ونحن أقدر منهم بعد ذلك على فهم النصوص وتأويلها ، وتفسير الحوادث ووزنها ، وتقويم الشخصيات ووضعها في مكانها الصحيح .. أما أن نأخذ " حقائق " الدين عنهم .. ؟!

ألا إنها الفتنة الصليبية التي تحيق بالمسلمين !

* * *

وأمامي الآن كتاب أَعُده أخبث ما قرأت من كتب المستشرقين ! ذلك هو كتاب " الإسلام في التاريخ المعاصر " الذي أشرت إليه أكثر من مرة في فصول هذا الكتاب .

إنه يسير على الطريقة ذاتها .. طريقة التمجيد .. ثم دس ما يريد من الأفكار في ظل هذا التمجيد .

ولكن عنصر الخبث الزائد فيه أنه يقرّ لك بحقائق لا تتصور أن كاتبا غربيا مسيحيا يمكن أن يقرّ لك بها بحال من الأحوال . وذلك ليعطيك جو " الثقة " المطلقة ، والنزاهة العلمية الكاملة التي لا تحتمل أي شك ولا تأويل !

فهو – كما أثبتنا من قبل – يقر لك بأن أوربا لا تستطيع أن تنسى الحروب الصليبية ، ولا أن تخرج من ذاكرتها أن الإسلام ظل يهددها في عقر دارها بضعة قرون .

وهو يقر في ص ١١١ بأن الغرب وقف في صف الصهيونية ضد العرب المسلمين ، متاثراً بتلك العداوة القديمة بين المسيحية والإسلام .

ويقر في صفحات ١٠٤ – ١١٣ أن الغرب يوجه كل أسلحته : الحربية والعلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية ... إلخ . إلى العالم الإسلامي بغرض إذلاله وتحقيره وإشعاره بالضآلة والخنوع .

بل يقر – فيما يختص بالعقيدة المسيحية ذاتها ، في مقارنة بين " التضحية " الإسلامية والتضحية المسيحية ، في الفصل الأول من الكتاب – يقر بأن في العقيدة المسيحية لوناً من السلبية إزاء أحداث التاريخ ، بينما الإسلام إيجابي حتى في تضحيته . فبينما يضحي المسيحي بنفسه ، بوقوفه في وجه عجلة التاريخ المنحرفة حتى تدوسه وتقتله ، وحسبه أنه لم يسمح لها بالسير المنحرف وهو حيّ ، دون أن

يحاول تصحيح العجلة أو تغيير اتجاهها ، فإن المسلم يضحي بنفسه وفي حسه أن هذه التضحية ستدفع عجلة التاريخ إلى الأمام في اتجاهها الصحيح .

ماذا تريد من رجل غربي مسيحي أن يقول لك خيراً من ذلك وأنزه ؟!

فهل تشك بعد ذلك في شيء مما يقول ؟!

هل تشك مثلا في إخلاصه وحسن نيته حين يقول لك في الفصل الرابع إن تركيا التي أقامت دولتها على أساس غير ديني (secular) هي والله العظيم مسلمة لم تخرج عن إسلامها ! وإنما هي فقط فسرت الإسلام تفسيرا جديدا ، يفصل بين الدين والدولة وبين الدين والمجتمع وبين الدين والتقاليد وبين الدين والاقتصاد وبين الدين والتشريع .. وبين الدين وواقع الحياة !!

وحين يقول لك إن تركيا هذه هي المثل الأعلى الذي ينبغي للمسلمين في كل بلاد الأرض أن يحتذوه ، ليحصلوا على " القوة " التي حصلت عليها تركيا ، وعلى العلم .. والحضارة . والتقدم .. ورفعة الشأن ؟! (على أن واقع تركيا الذي يعرفه الناس جميعاً يصرخ في وجهه ، ويشهد بمأساة الضعف والفقر والذلة ، والفوضى التي انتهت إليها في العصر الحديث) .

وحين يقول لك في الفصل الخامس إن باكستان دولة فاشلة لأنها أقامت نظامها على أساس الدين ، وإنها مثل سيئ لا ينبغي للمسلمين أن يحتذوه ؟! (مع أن هو نفسه ينسى – في مكان آخر من نفس الفصل ص ٢٢٥ فيقول إن سبب الفشل في باكستان هو أن الحزب الذي تولى الحكم عند نشأتها لم يكن مؤسساً على روح إسلامية ، ولا معرفة حقيقية بالإسلام ، وإنما هو الحزب الذي كان الاستعمار البريطاني قد رباه واحتضنه ودربه وقربه إليه !!)

أو حين يقول لك في نهاية الكتاب بعد لف طويل ودوران مرهق : إن على المسلمين اليوم – لكي يعيشوا في العالم الحديث – أن يتنازلوا عن الفكرة الرئيسية في عقيدتهم ، وهي أن الإسلام لا يمكن أن يقوم إلا في مجتمع مسلم . ويستبدلوا بها أن يعيشوا مسلمين (عقيدةً !) في مجتمع لا يقوم على أسس الإسلام !!! (وهي الغاية الأولى لأعمال الاستشراق كما هي الغاية الأولى لرجال التبشير .. وهي هي الغاية التي يهدف إليها الاستعمار والمستعمرون !) .

هل عندك شك في إخلاصه أيها القارئ العزيز ؟!!

* * *

تلك هي الحرب الصليبية التي وجهت إلى الإسلام في عصره الحديث ..

وقد قال ولفرد كانتول سميث في كتاب " الإسلام في التاريخ المعاصر " بعد أن استعرض تاريخ العداء الصليبي بين المسيحية والإسلام في ص ١١١ :

" ونحن لا نستعيد هنا هذا التاريخ الطويل من الصراع لنشعله من جديد بطبيعة الحال ، أو لنبرر المهاترات بأية صورة ، وإنما لنقول فقط إنه لا يجوز أن نتوقع النجاح السريع لمن يرجون أو يعملون على التراضي والتفاهم (بين الكتلتين) " .

ونحن هنا نستعير الجزء الأول من عبارته .. فما سردنا هذا التاريخ كله لنثير الأحقاد الصليبية في النفوس ، وإنما لنعرف فقط من أين أُتِي الإسلام وبأي الوسائل .. والنتائج التي وصل إليها الغرب من هذا الصراع .

لقد كانت نتيجة تلك الحرب هي تلك الأجيال " المسلمة ! " التي لا تعرف من الإسلام إلا اسمه ، وإلا أنه مجموعة من العبادات يؤديها الإنسان فيكون قد أدى كل ما عليه من " إسلام " .

أو .. لا تعرف من الإسلام إلا الشبهات ..

وكان نتيجتها ذلك " المسلم " الذي يقول : أنا مسلم ما دمت أصلي وأصوم .. ولكن لا عليّ أن آخذ أفكاري وتقاليدي ونظام اقتصادي ونظام مجتمعي من أية فكرة على الأرض غير مسلمة أو أي نظام غير مسلم .

وتلك " المسلمة " التي تقول : أنا مسلمة ما دامت نيتي حسنة .. ولكن لا عليّ أن ألبس كما أشاء ، وأخالط الشبان كما أشاء ، وأكوّن معهم من العلاقات ما أشاء .

وفوق هذا وذلك المسلم والمسلمة اللذان ينسلخان من دينهما علانية ، ويعلنان أنه رجعية وتأخر وجمود ....

ومع ذلك كله فلم تكن الحرب الصليبية وحدها هي التي تعمل لتفتيت العقيدة الإسلامية وتشويهها ، والعمل على سلخ الناس منها بكل وسيلة ممكنة . وإنما كانت تعمل إلى جانبها – وإن كان عن طريقها – تيارات أخرى ، تقتلع العقيدة من جذورها

، وتجتثها من أساسها .. تيارات لا تعمل في داخل العالم الإسلامي وحده .. وإنما هي تيارات عالمية !

تيارات عالميّة

حين جاءت هذه التيارات العالمية وأخذت تؤثر في الإسلام ، كان العالم الإسلامي مغزُواً لها من قبل ، مفتوحاً لتأثيراتها ، لا يملك المقاومة ولا الصمود .

وهذه التيارات لا تعمل ضد الإسلام وحده ، بل تعمل ضد " العقيدة " الدينية ذاتها أياً كانت هذه العقيدة .. ولكنها جاءت في أوربا نتيجة طبيعية ومنطقية للأحوال كلها هناك . وجاءت تدريجية .. لا مفاجئة .

أما بالنسبة للعالم الإسلامي فهي تيارات غريبة .. غير نابعة من البيئة أو الظروف ، ولا منسجمة معها أي انسجام .. إنها مقحمة عليها إقحاماً غير منطقي وغير طبيعي .

ولو كان العالم الإسلامي حراً .. وقوياً كما كان .. ومتماسك القواعد والأركان .. فقد كان من المشكوك فيه كثيراً أن تزلزل هذه التيارات شيئاً من بنيانه ، أو تغيّر تغييراً أساسياً في مفاهيمه .. وإن تأثرت بها نوعاً من التأثر بطبيعة الحال ..

أما وهو مكتوف بقيود الاستعمار وأغلاله .. أما وهو ضعيف واهن القوى ، من عوامل الضعف الكامنة فيه من قبل ، والسموم التي تجرعها من بعد .. فلم يكن بد من أن يتلقى هذه التيارات تلقي العاجز الموهون ، الذي لا يملك المقاومة ولا الصمود .

وهذا " التطور " كما تسميه أوربا لم يكن – على هذا النحو – " حتمياً " كما يتوهم القوم هناك . وإنما خيّل إليهم هناك أنه حتمي ، لأنه – كما قلنا – جاء نتيجة طبيعية ومنطقية لأحوالهم وظروفهم . ومع ذلك فلم يكن حتمياً حتى في أوربا ، وحتى في تلكم الظروف .. لو شاءت أوربا أن تؤمن بمثل أخرى وقيم أخرى تصد بها تلك التيارات وتوقفها عن السريان .

ولكن أوربا لم تشأ .. فكانت الحتمية هناك : (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (٦٦)) .

وعلى أي حال فلم يكن هذا التطور – على هذا النحو – حتمياً بالنسبة لجميع الأرض .. وبالنسبة للإسلام على وجه الخصوص .

وليست هذه أول مرة في التاريخ يواجه الإسلام فيها الدنيا كلها بغير ما تعتقد وما تألف ، فيتخذ هو طريقه ، بمفاهيمه الخاصة وقيمه ومبادئه ، تاركا للدنيا إلفها واعتقادها ، ثم .. يؤثر في هذه الدنيا بمفاهيمه وقيمه ومبادئه ، فيصرفها عن طريقها المعوج ، ويوجهها إلى السبيل الصحيح .

جاء الإسلام والدنيا كلها تقدس ملوكها وأباطرتها وحكامها .. وتعبدها من دون الله .. فهل كان هذا المفهوم السياسي " حتماً " على الإسلام لأن الدنيا كلها تدين به ؟ أم جاء الإسلام ليعلّم الحكام أن يقولوا : " اسمعوا وأطيعوا ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم " أو يقولوا : " إن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني " فيجعلوا من الأمة المهتدية بهدي الله رقيبة على أعمالهم ويطالبوها بالرقابة عليهم ؟!

وجاء الإسلام والفساد الخلقي يملأ الأرض .. فهل كان هذا المفهوم الخلقي (الذي لعله كان متطوراً !) ذا قوة حتمية على المجتمع الإسلامي تفسد أخلاقه وتهبط به إلى الحيوانية التي ارتفع عنها ؟ أم ظل هذا المجتمع – رغم كل ما أصابه من فساد – أنظف مجتمع عرفه التاريخ ، حتى جاء المستعمرون والمبشرون " يجاهدون " لإفساده مدى قرنين من الزمان ؟!

وجاء الإسلام وشريعة الغاب هي الحاكمة : القوي يأكل الضعيف .. فهل كان هذا المفهوم الإنساني الهابط (الذي " ارتفعت " إليه أوربا في نهضتها الحديثة !) ذا قوة حتمية على الإسلام .. أم جاء الإسلام يقرر مبدأ التعاون بين القادرين وغير القادرين في المجتمع ، ويظل يطبقه أكثر من ألف عام ؟!

إن التطورات ليست حتمية إلا حين يلغي الإنسان كيانه الإيجابي ويترك نفسه للأحداث . فعندئذ تقوده الأحداث بطبيعة الحال إلى حيث ينتهي بها التيار ، ما دامت لا تجد تعديلا ولا مقاومة من جانب الإنسان .

وهي حتمية كذلك حين يكون الإنسان أضعف من أن يقاوم التيار .. وكذلك كان العالم الإسلامي بعد أن حكمه الاستعمار الصليبي في كل مكان .

* * *

وقد أوحى الاستعمار الصليبي بلا شك إلى العالم الإسلامي المستعبَد ، أن هذا التطور حتمي أولا وخيّر كذلك . حتى لا تجنح البقية الباقية فيه من عقيدة إلى مقاومة التيار المفسد المدمر . وأخذ يقوي هذا الإيحاء الخبيث ، بأن يبث في الأذهان أن كل مقاومة لهذا التطور العالمي الخيّر هي رجعية لا ينبغي للإنسان أن يتصف بها ، وجمود وانحطاط وتأخر ، ينبغي الإقلاع عنه والتخلص من كل آثاره . فمن ذا الذي يزج بنفسه في هذا المنحدر ، ويلصق بنفسه تهمة الجمود والانحطاط ؟! أو ليس الأسلم والأمثل أن يسير الإنسان " مع التيار " فيضمن السمعة " الحسنة ! " سمعة الرقي والتقدم والرفعة ، وينجو من تهمة الرجعية والجمود ؟!

يذكرني ذلك بمنظر حدث على الشاطئ .. قبل سنوات !

فتاة (كان) بها بقية ضئيلة من حياء .. حياء الأنثى الطبيعي الفطري .. ولو أنها تلبس " المايوه " وتسير به على الشاطئ ! جلست على الرمال ليلتقط لها المصور صورة ، جلست بهذه البقية الضئيلة من الحياء مضمومة الرجلين .. فقام المصور يفسح ما بين رجليها ليلتقط لها صورة " تقدمية ! " ولكنها راحت – في حياء ضئيل – تتأبى عليه . عندئذ قال لها بلهجة ذات معنى " الله ! هوّه أنت فلاحة والا إيه ؟! " .

وفي الحال كانت البقية الضئيلة من الحياء قد تلاشت من نفس الفتاة ووجهها ، وجسدها جميعاً .. وجلست منفرجة الرجلين في " طلاقة ! " تسجل نفسها في " بوز " تقدمي جميل !!

وهكذا كان حال الاستعمار الصليبي مع المسلمين المستضعفين : " هل أنتم رجعيون ؟ .. أم ماذا ؟! " فتتلاشى المقاومة ويحل محلها الاستسلام !

وكذلك سرت " المدنية " الأوربية في طريقها " الحتمي ! " في بلاد العالم الإسلامي المسلوب العقل والإرادة والتدبير !

وقد كان " التصنيع " مثلا ، تطورا عالميا خيّرا في كثير من جوانبه .. فهل سمح له الاستعمار الصليبي أن يلج باب العالم الإسلامي ويستقر في أرجائه ؟ أم منعه بكل

شدة وحسم ، واحتفظ بالبلاد الإسلامية في حالة ذريعة من التأخر الصناعي والاقتصادي ليخدم أغراضه الخاصة ؟

وإنما فتح الباب على مصراعيه للفساد الخلقي والديني باسم التطور ، لأن ذلك يخدم أغراضه في حل أخلاق الأمة الإسلامية وتفتيت قوتها ، ومنع عنها في ذات الوقت كل وسائل القوة والفلاح ، ولو كانت تطوراً عالمياً " حتمي " الانتشار .

وهذا مثل واحد ، لعله يوضح الكثير من القضايا التائهة في أذهان المسلمين وهم يفكرون في " التطور " وفي " الحتمية " وما أشبه ذلك من أضاليل الاستعمار .

بقي أن نعرف ما هذه " التيارات العالمية " التي فتح الاستعمار أبواب العالم الإسلامي لاستقبالها ، ومنع وسائل مقاومتها وحطّمها ، ونفّر منها باسم الرجعية والجمود والتأخر والانحطاط ...

* * *

ليس من السهل تلخيص قرنين من " التطور " في بضعة سطور .

وقد بينت في كتاب " معركة التقاليد " في فصل " جولة مع التاريخ " كيف سارت الأمور في أوربا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . وكيف انتقلت أوربا من شعوب متدينة ذات تقاليد مبنية على الدين – أياً كان هذا الدين ، وأياً كانت درجة هذا التدين ومتانة تلك التقاليد – إلى أمم لا عقيدة لها ولا أخلاق ولا تقاليد .. تعيش في جو مادي ملحد ، منفلتة من كل قيد ، غارقة في المتاع الحيواني الغليظ .

وقلت هناك إن دارون يمثل خطأً بارزاً في ذلك التطور .. فقد ولد دارون سنة ١٨٠٩ وفي سنة ١٨٥٩ نشر كتابه " أصل الأنواع " ، وفي سنة ١٨٧١ نشر كتاب " أصل الإنسان " .

وحدثت يومئذ زلزلة عنيفة في عقائد الناس .

فقد كان المفهوم المستمد من الدين أن الإنسان كائن متميز . كائن له روح تميزه عن سائر الحيوان .

وقد ترتبت على هذه الحقيقة قيم روحية ومعنوية ودينية وفكرية .. لا توجد في عالم الحيوان .

وبغض النظر عن درجة تمسك الناس هناك بهذه القيم ، فقد كانت " موجودة " على أي حال .. موجودة ولو في الحس الباطن .. تضبط قليلا من انطلاق الحيوان الكامن في الإنسان .

ولكن دارون جاء يعلن أن الإنسان حيوان متطور .. ولا زيادة !

حيوان بحت .. لم ينفخ الله فيه من روحه ولم تتدخل قوة عليا في تكوينه .. إنما هو نهاية التطور الحيواني ، لا يزيد على الحيوان سوى ما اكتسبه في أثناء تطوره البطيء في ملايين من السنين !

وقام بين دارون وبين الكنيسة صراع شديد في أمر الإنسان : هي ترميه بالإلحاد والكفر ، وهو يرميها بالجهل والتخريف .

ووقفت الجماهير في أول الأمر في صف الكنيسة . فقد عزّ عليها أن يحقّر دارون الإنسان ويشوه صورته ، برده إلى أصل مادي حيواني ، ونفي النفخة العلوية عنه ، وسلبه مكانه الرفيع في الكائنات .

ولكنها عادت فأيدت دارون ضد الكنيسة !

لقد كانت الكنيسة في العصور الوسطى قد تحولت من معنى الرحمة والروحانية التي توحي بها طبيعة المسيحية ، إلى سلطان دنيوي قاهر مذل . وراحت تفرض على الناس ألوانا من الإتاوات ، إتاوات مالية وروحية وفكرية . تفرض عليهم الضرائب المرهقة والعشور والعمل المجاني في أرض الكنيسة ، وتفرض عليهم الخضوع المذل لرجال الدين ، وتفرض عليهم أفكارا معينة بوصفها كلمة السماء ، من خالفها فهو ملحد وخارج على الدين ..

لذلك وجدت الجماهير المكبوتة المحقورة فرصة سانحة للانتقام من الإذلال الذي كانت تفرضه الكنيسة عليهم ، وقاموا يناصرون دارون رغم تحقيره " للإنسان " !

ولم يقف الأمر – في فورة الغضب والحماسة – عند تحطيم الكنيسة ذاتها ، بوصفها كيانا " بشريا " مهما تكن قداسته .. وإنما انتهى الأمر بتحطيم الدين ذاته والخروج من كل معانيه ..

وارتدت أوربا منذئذ رومانية خالصة .. مادية وثنية ملحدة ، لا تؤمن بغير المادة المحسوسة والواقع الذي تدركه الحواس .. ولا تستجيب إلا للنفع المادي القريب !

وانساحت تلك الموجة المادية تشمل كل وجه من وجوه الحياة ..

الاقتصاد .. والسياسة .. والدين .. والأخلاق .. والتقاليد .. وعلاقات الناس بعضهم ببعض .

وظهر التفسير المادي للتاريخ . والتفسير الجنسي للسلوك البشري ..

وكلاهما امتداد للمفهوم الداروني للإنسان (٦٧) .

التفسير المادي للتاريخ يفسر الحياة كلها تفسيرا ماديا : تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام . القوى المادية هي التي تكيّف حياة البشرية وتنشئ لها أفكارها وعقائدها . الأفكار والمشاعر والعقائد ليست قيما ذاتية ، وليست هي التي تحرك الناس أو ترسم لهم سلوكهم العلمي في واقع الحياة . وإنما هي لاحقة " للتطور " الاقتصادي والمادي ، ومرتبطة به .

ليست هناك قيم ثابتة اسمها الدين . أو اسمها الأخلاق . أو اسمها التقاليد .. لا شيء ثابت على الإطلاق .

إنما كل عصر له مفاهيمه وقيمه التي تناسبه . والتي لا تناسب غيره من العصور الدين والأخلاق والتقاليد كانت من مفاهيم العصر الإقطاعي ومن مستلزماته . أما العصر الصناعي فلا دين له ولا أخلاق ولا تقاليد . إنه عصر متحرر ! عصر منطلق كالآلة التي تسيطر عليه . ينشئ مفاهيم جديدة و " أخلاقا " جديدة . وليس الدين من بين هذه المفاهيم ، لأن البشرية في عصر العلوم والصناعة قد شبت عن الطوق . لم تعد في حاجة إلى أساطير الدين وخرافاته . إنها تعيش في الواقع الملموس . الواقع الذي تدركه الحواس . والدين .. وكل الأفكار " الميتافيزيقية " التي لا يمكن للحواس أن تدركها لم تعد تتناسب مع " نمو " البشرية وتطورها .. إنها من مخلفات العصر البائد التي لا يمكن أن تعود !

والتفسير الجنسي للسلوك البشري يرد كل نشاط يقوم به البشر إلى الجنس ..

الطفل يرضع بلذة جنسية . ويتبول ويتبرز بلذة جنسية . ويمص إبهامه بلذة جنسية . ويشعر نحو أمه بميل جنسي . فإذا وقف " الوالد " حائلا دون هذا العشق الجنسي نبتت عقدة أوديب التي تكبت مشاعر الطفل الجنسية نحو أمه . ومن هذا الكبت تنشأ " القيم " .. ينشأ الدين والأخلاق والتقاليد والضمير .. ولكن الدافع الجنسي يظل

هو الدافع الحقيقي المحرك وراء كل هؤلاء ! ثم إن هذا " الكبت " الذي ينشئ الدين والأخلاق والتقاليد ، هو عملية نفسية ضارة تنشأ عنها الاضطرابات النفسية والعصبية ، والعقد ، وتبدد النشاط البشري في الصراعات النفسية الداخلية بلا طائل .. والأَوْلَى رفع هذا الكبت لتنطلق البشرية بلا قيود !

ومن هذين المفهومين سرى " التطور " الحديث في أوربا !

سرى على أساس حيواني بحت ..

ولا جرم فقد كان " الإنسان " كما فسره دارون حيواناً متطورا ولا زيادة .. وهذه المفاهيم المادية الحيوانية هي اللائقة بهذا الإنسان الحيواني ، الذي أطلقه دارون في التاريخ .

وانحدرت أوربا في منحدرها بلا ضابط ..

انحدرت تحطم القيم الروحية والدينية والأخلاقية في كل منحىً من مناحي الحياة .

الحياة كلها هي المادة ، وهي متاع الحيوان ..

وإذ كان الدين والأخلاق والتقاليد كلها " حواجز " ضد النظرة المادية وضد متاع الحيوان ، فلتحطم بلا هوادة ، ولتستخدم في تحطيمها كل نظريات " العلم " وأبحاثه وتجاربه ... ولْتُنْشَأْ نظريات " علمية ! " تقول إن الدين خرافة . والأخلاق قيد ضار بالبشرية . والتقاليد خرقة بالية يمزقها الجيل الصاعد الجريء . ونظريات تقول إن الجنس عملية " بيولوجية " لا شأن لها بالأخلاق . وإن كل شاب وشابة " ينبغي " لهما أن يفرغا طاقة الجنس كما ينبغي لهما أن يتناولا الطعام سواء بسواء ، حتى تقر نفساهما وتهدأ أعصابهما وينطلقا إلى الإنتاج المفيد !

وسرت تلك المفاهيم في المجتمع الغربي سريانا ذريعاً لا يقف عند حد .. وقالت أوربا لنفسها إن هذا هو " التطور " وإنه " حتمي " لا يمكن لقوة أن تقف في طريقه ، وإن الذي يقف في طريقه هم الرجعيون المتأخرون الجامدون .. الذين لا يفهمون !

وقالت الببغاوات في الشرق مثل ذلك .

قالت دون أن تسأل نفسها : أصحيح هو ؟

ودون أن تسأل نفسها : أمناسب هو لحياة الشرق حتى إن كان مناسبا لحياة الغرب ؟ وهل هو نبات طبيعي بالنسبة لهذه البيئة وظروفها حتى إن كان طبيعياً بالنسبة للبيئة هناك ؟

لم تسأل نفسها لأنها مستعبدة في داخل ضمائرها ، وأنّى للعبيد أن يسألوا السادة ويناقشوهم فيما يقولون ؟ .. وهل يمكن أن تخطىء أوربا ؟ هل يخطئ السادة ؟ وهل يعرف أكثر منهم العبيد ؟!

كلا ! كلا ! ما هكذا تكون الأمور !

كل شيء إلا مناقشة ما يستورد من الغرب من الأفكار والمفاهيم ..

أليس هذا الغرب هو الذي يملك الآلة ونحن لا نملك ؟ ويملك العلم ونحن لا نملك ؟ ويملك القوة ونحن لا نملك ؟ ويملكنا نحن ولا نملك أنفسنا ؟

كلا ! كلا !

إذا كان الغرب قد قال لا دين فلا دين . ولا أخلاق فلا أخلاق . ولا تقاليد فلا تقاليد !

أأنتم رجعيون أم ماذا ؟!

ألا تتقدمون وتتحضرون وتتطورون ؟!

فلتنبذوا تلك الخرافة البالية التي اسمها الدين . وتلك القيود العتيقة التي اسمها الأخلاق . وذلك التحجر المشين الذي اسمه التقاليد .

انطلقوا .. تحرروا .. حطموا الأغلال !

اخرجوا أيها الفتيان والفتيات على التقاليد البالية التي يقيدكم بها أهلوكم .. فهم رجعيون . وأنتم الجيل الصاعد المتحضر الذي لا يؤمن بالخرافة .

اصنعوا كما يصنع الغرب .. صداقات . نعم . قبلات وأحضان . نعم . علاقات جنسية " خفيفة " تريحون بها أعصابكم بدل إنفاق الطاقة في الجنس المكبوت .. !

ووقف الاستعمار الصليبي يفرك يديه ساخراً من الببغاوات ، مسرورا في ذات الوقت من صنيع العبيد .

نعم . لقد كانت أوربا في غشيتها الحيوانية تؤمن بهذا الهبوط الحيواني البشع على أنه تطور وتقدم وارتفاع . ولكن أوربا مع ذلك لم تكن قد فسدت كل جوانبها بعد .

كانت ما تزال فيها " فضائل " حقيقية . من أبرزها فضيلة " العمل " و " الإنتاج " و " التنظيم " والصبر الشديد على الجهد ، والجلد الطويل على الصراع .. كل تلك فضائل حقيقية لم تكن قد فسدت بعد بموجة الفساد الخلقي الهابط ، وموجة الحيوانية الفظيعة (وإن كانت قد وصلت إلى نتيجتها " الحتمية " فيما بعد في فرنسا وغيرها من البلاد فدمرت كيانها) .. أما هذا الشرق المستعبد فماذا كان فيه من تلك الفضائل حتى يتحمل هذا " التطور " كله ولا يضعف ولا ينحل من قريب ؟!

لقد كان الضعف السابق في ظل الحكم التركي ، والضعف اللاحق في ظل الاستعمار الصليبي قد دمرا كل فضائله الذاتية القديمة ، التي استمدها من الإسلام يوم كان قوة حية فاعلة ، ممتدة في الأرض في كل فروع الحياة من علم وعمل وإنتاج وفتح واتساع ..

وكان في حاجة إلى " تطور " من نوع آخر .. تطور يعيد إليه إنسانيته المسلوبة وقوته المحطمة .. يعيد إليه أخلاقه وتقاليده على أصولها الحقيقية : قوة حية في داخل النفس ، متحققة في واقع الحياة .

وقد كان هذا هدف الحركات الإسلامية التي حرص على تحطيمها الاستعمار .

أما هذا " التطور " الأوربي الحيواني ، فقد أسرع الاستعمار يفتح له الأبواب ، ويؤجر له الأبواق من المستعبدين الذين رباهم من قبل و " ثقفهم " وأطلقهم ينشرون سمومه في الآفاق .

* * *

ونعود إلى أوربا .. نساير " التطور " هناك .

لقد نشأ من المفاهيم الداروينية للإنسان رغبة زائدة في " المتاع " .

وحب المتاع رغبة طبيعية في البشرية من قديم : (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (٦٨) .

نعم . لا شيء جديد في حب المتاع .. ولكن الأديان والقيم الروحية التي تحملها كانت تعمل دائما على موازنة تلك الرغبة الفطرية في المتاع ، بأن تضع في الكفة الأخرى قيما أعلى من متاع الأرض وأخلد : (ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ

حُسْنُ الْمَآبِ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ) (٦٩) .

والحياة في نطاق الدين .. في نطاق الفكرة الإسلامية خاصة .. تحقق أكبر قسط من المتاع النظيف ، دون أن تفسد النفس بهذا المتاع فتترهل أو تتميع أو تهبط إلى مستوى الحيوان ..

ولكن أوربا في " تطورها " خرجت من نطاق الدين . وخرجت من " الضوابط " التي كانت تضبط رغبة المتاع .. ومن ثم غرقت في المتاع بلا ضابط ولا حدود .

بدأت بالمتاع الجنسي . ولكنها لم تقف عنده . وكان طبيعيا ألا تقف عنده . فتلك سنة الله في كل الأرض على مدار التاريخ . كل حضارة من حضارات التاريخ تسربت إليها الرغبة الزائدة في المتاع ، بدأت بالمتاع الجنسي ، وتلاه وسار معه متاع في كل فروع الحياة . متاع يصل في النهاية إلى الترف والاسترخاء .

وكذلك كانت تلك الموجة " المتطورة " في أوربا ..

وساعدتها الصناعة والتقدم االفني في عالم الإنتاج .

وامتلأت الحياة " بالمباهج " التي تنتجها الصناعة الحديثة : السينما والإذاعة والتليفزيون ، والسيارة الفاخرة . والأثاث الوثير والفراش المريح .. وسعت الصناعة بكل وسيلة إلى " تجميل " الحياة وتزيينها ، وعرضها في صورة براقة مغرية جذابة ..

ولا عيب في هذا في ذاته !

ولكن العيب في " القيم " التي تحكم الحياة ..

فما هدف الحياة في نظر المشرفين على هذا النوع من الإنتاج ، وما هدفها عند المتلقين لهذا الإنتاج ؟

ولن ندخل في جدل مذهبي عن " الرأسمالية " وطريقة إنتاجها وأهدافها الاستغلالية ، لتضمن أكبر قسط من الربح يدخل سهلا إلى جيوب أصحاب رأس المال .

المسألة في نظرنا أعمق من ذلك ..

فلو لم تجد الرأسمالية الإقبال الشديد على هذا النوع من الإنتاج ، لسعت إلى الربح عن طريق غيره ، ما دام الربح هو هدفها الوحيد كما تقول الشيوعية .

المسألة هي الرغبة في المتاع الزائد ، التي ولدت في أوربا في ظل المفهوم المادي الحيواني للإنسان ، وسعى الصهيونية العالمية إلى إفساد العالم غير اليهودي (الأميين أو الأمميين كما يدعونهم) لتكون لهم السيطرة الكاملة عليهم ، يوم يقودونهم من مقود الشهوات !

وأياً كانت الأمور فقد امتدت تلك الرغبة في المتاع الزائد حتى أصبحت " سمة " من سمات الحضارة الحديثة تنشرها في الآفاق ..

وأياً كانت نتائجها الحاضرة والمستقبلة في حياة الأمم – كما صنعت في فرنسا في الحرب الأخيرة ، وما تزال تصنع في غيرها من البلدان – فإن الجانب الذي يهمنا منها هنا هو تأثيرها على المفاهيم الروحية والدينية والخلقية في كل مكان تحل فيه

إن التعارض واضح بين الاتجاه الديني ، والرغبة الزائدة في المتاع .. لا لأن الدين – الإسلامي بصفة خاصة – يحرم المتاع أو يحاربه ، وهو الذي يقول : (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) ولكن لأن المتاع الزائد عن الحد يفسد النفس ويرهلها ، ويحبب إليها الحياة الدنيا فتنسى الآخرة وتنسى " التكاليف " المرتبطة بالآخرة .. وتنفر من الضوابط التي تحرمها من ذلك المتاع .

وهذا ما حدث بالفعل .. فكلما غرقت النفوس في المتاع بعدت عن محيط الدين ، ونفرت من قيوده وضوابطه ، وتمنت من صميمها أن يخفت إلى الأبد أو يزول .

ومع " المدنية " التي أغرقت العالم الإسلامي في ظل الاستعمار ، سرت تلك الرغبة الزائدة في المتاع ، باسم التحضر والرقي .. أو بأي اسم من الأسماء .

وكانت كالحمض الأكّال يأكل العقيدة من النفوس .

ولم يكن الإسلام ليحرم وسائل الراحة التي توفر الوقت والجهد .. من سيارة وطائرة وقطار سريع ، وثلاجة كهربائية وغسالة كهربائية وفرن وما إلى هذه الأشياء ..

ولم يكن ليحرم السينما في ذاتها ولا الإذاعة في ذاتها ولا التلفزيون (٧٠) .

ولكنه ولا شك يحارب روح الترف والترهل ، ويحارب الفجور الخلقي الذي تنشره السينما الحالية والإذاعة الحالية .. التي تعرض الحياة كلها كأنها لحظة جنس هابط مسعور .

وأياً كان الأمر فقد امتد ذلك الحمض الأكال من الغرب إلى الشرق ، وسمي " تطوراً " وحضارة ومدنية .. وأضيف إلى عوامل الهدم السابقة كلها ، التي توجّه لهدم الإسلام !

* * *

وأخيراً .. موضوع المرأة !

حركات التحرر .. وحركات المساواة .. وحركات الإغراء !

وهي قصة طويلة ما بنا من حاجة إلى سردها بتفاصيلها في هذا المقام .

وقد تحدثت عنها في كتاب " معركة التقاليد " بصفة خاصة وفي كتاب الشبهات .

وإنما يكفي هنا أن نقول إن الحركة النسائية في أوربا كانت حركة " منطقية " مع الظروف الاجتماعية والاقتصادية هناك . ولكن لم يكن " حتما " أن تأخذ صورتها تلك في أوربا ذاتها لو آمن القوم بغير ما آمنوا به هناك ، ثم لم يكن حتما أن تأخذ نفس الصورة في العالم الإسلامي حيث لم تكن توجد تلك الظروف على الإطلاق .

وفرق – كما قلنا من قبل هنا وفي الكتب الأخرى – بين إزالة الظلم الذي كان واقعاً ولا شك بالمرأة المسلمة ، من جهالة وعبودية وحيوانية تخالف الإسلام مخالفة صريحة ، وبين اتخاذ تلك الصورة المزرية التي لا تفسد المجتمع فحسب ، بل ترد المرأة ذاتها متاعاً جسدياً مباحاً لكل راغب تتهيأ له الظروف .

بدأت القصة حين نكل الرجل عن إعالة المرأة في المجتمع الصناعي " المتطور ! " فاضطرت إلى العمل بنفسها لتعول نفسها ، وأحياناً لتعول أسرتها كذلك . فاستغلها أصحاب المصانع وأعطوها نصف الأجر الذي يعطونه للرجل مع أنها تعمل معه في نفس المصنع وتعمل نفس العدد من الساعات !

وهي " عدالة " لا يطيقها إلا الضمير الأوربي المترفع المتطور النبيل !

وكان لا بد للمرأة أن تطالب بحقها الطبيعي المنطقي .. واستعملت كل وسائل المطالبة : الإضراب والتظاهر والدعاية والإعلان .. ثم بدا لها أنها لا بد أن تشارك في مصدر التشريع لتستخرج تشريعات في صالحها ، لأن التشريعات هناك يضعها أصحاب المصالح لاستغلال الآخرين ، ولا يضعها الله لعباده كلهم كما هو الحال في

الإسلام ، فطالبت بحق الانتخاب ، ثم حق دخول البرلمان .. ثم طالبت بالمساواة في الوظائف والمساواة في التعليم ..

وفي الطريق .. طالبت بأنواع أخرى من المساواة !

ورغم أنه هو كان قد ألقى الدين والتقاليد جانباً .. فقد رأى أن يستخدمهما لزجر المرأة عن مزاحمته في الميدان .. !

وكان " طبيعياً " ومنطقياً في مثل هذا الجو الذي تعيش فيه أوربا ، والمفاهيم الهابطة المنحرفة المسيطرة عليها ، أن تطالب المرأة بحق المساواة مع الرجل في نزع الدين والتقاليد ! وفي حق الفساد الخلقي الذي يمارسه الرجل بلا رادع ، ثم يمنع عنه المرأة باسم التقاليد !

ونالت المرأة الأوربية " حقوقها " واحداً إثر واحد .. بما في ذلك حق الفساد والفجور !

بل نالت هذا الحق الأخير بمساعدة الرجل وتشجيعه .. فقد وجد الرجل أن ذلك ييسر له المتاع الدنس ، فلا يكلفه أكثر من تهيئة الظروف !

وخرجت المرأة إلى المتجر والمصنع والطريق .

خرجت للكسب وللفتنة في آن ...

وفي ظل تعاليم فرويد الجنسية ، وفي ظل الرغبة في المتاع الزائد عن الحد ، وفي ظل التوجيه الصهيوني الخفي لإفساد " الأميين " (أو الأمميين) والاستحواذ عليهم من طريق الشهوات .. في ظل هذا كله تعلمت المرأة فنون " الإغراء " .

والمسألة ليست في حاجة إلى تعليم .. ففي فطرة المرأة أن ترغب في " الإعجاب " وأن تسعى لكسبه بكل سبيل (٧١) ولكن الوسائل تختلف من مجتمع إلى مجتمع ، ومن فكرة إلى فكرة .. ثم إن الإعجاب يختلف عن الفتنة . فأولهما مباح ونظيف . والآخر لا مباح ولا نظيف ..

ولكن المد الأوربي " المتحضر " لم يكن ليختار الوسائل النظيفة وهو يتلقن على يد فرويد أنه لا نظافة في طبع الإنسان ! وأن النظافة هي الكبت المدمر للكيان !

فلتنزل المرأة إلى الميدان بأقذر أسلحتها .. أسلحة الإغراء .. وليكن الإغراء هدفا في ذاته ولو لم يكن هناك هدف آخر من ورائه .. كالحصول على الزوج أو الحصول حتى على العشيق !

الإغراء من أجل الإغراء !

من أجل أن تحس المرأة أنها ذات جاذبية .. ثم ذات سلطان !

وكان لها فعلا ذلك السلطان !

فما دام الرجل هو ذلك الإنسان الدارويني الشبيه بالحيوان ..

وما دام هو الرجل الواقع تحت سطوة الجنس الذي أطلقه فرويد من عقاله ..

وما دام هو الرجل الراغب في المتا ع الزائد عن الحد ..

ما دام الرجل هو ذلك .. فالسلطان الأكبر عليه هو سلطان الشهوة . سلطان الجسد .. وكل مثير لشهوة الجسد فهو في حياته صاحب سلطان .

ومن ثم فالمرأة " المغرية " في حسه ذات سلطان .

وأحست المرأة – بالفطرة – أنها كلما زادت إغراء زاد سلطانها على الرجل الغارق في الشهوات .

ومن هنا أصبح الإغراء هدفا في ذاته عند المرأة ، ليس من الضروري أن تستخدمه للحصول على الزوج أو حتى على العشيق .. وإنما هو سلاح تستخدمه مع الرجل عامة ، ولغير هدف سوى أن تحس أنها " موجودة " في كيان هذا الرجل أو ذاك .

فهي في حياتها الراهنة أصبحت تعمل وتكدح ، وتشقى في عملها وكدحها .. ولكنها تعوض هذا الشقاء " بالسلطان " الذي تكسبه عن طريق الإغراء ، وبإحساسها أنها " موجودة " في قلوب الرجال !

وفتنها سلطانها الإغرائي على الرجل فتمادت فيه ..

وراحت من ورائها – تنفخ فيها – أبواق الشيطان .

السينما العارية والإذاعة العارية والمسرح العاري والقصة العارية والصحافة العارية .. وكل وسيلة من وسائل الإثارة والإغراء ...

وصار كل مكان ميدانا للفتنة .. وتحول العالم إلى ماخور ...

وكان هذا " تطورا " أوربيا تزجيه إلى البشرية باسم الحضارة والارتقاء ! وتحطم به ما بقي – إن كان قد بقي شيء – من الدين والأخلاق والتقاليد .

وكان " طبيعيا " أن يمتد هذا " التطور " إلى العالم الإسلامي المغلوب على أمره ، المغزوّ من قبل بكل لون من ألوان الفساد .

ومع حركة " التحرر " النسوية ، المنقولة من أوربا نقل التقليد بلا تبصر ولا دراسة ، والتي ينفخ فيها الاستعمار ويغذيها لتهدم كيان الأمة الإسلامية – كما سبق من كلام المبشرين – مع هذه الحركة التحررية سرت فنون الإغراء القادمة من الغرب ، فقد كان كل شيء مهيأ لوصولها في الموعد المرقوب !

تعلمت المرأة " المسلمة ! " فنون الإغراء ..

ووجدت في بلدها – وبلغتها – السينما العارية والصحافة العارية والإذاعة العارية والقصة العارية .. تعلمها كها فنون الإغراء ، وتغريها بها وتحضها عليها ..

ووجدت محررين ومحررات في باب " المرأة " في الصحافة يشرحون لها كيف تكون " جذابة ! " أو في حقيقة الأمر " مغرية " .. وكيف يكون لها على الرجل سلطان !

إغراء في البيت وفي الشارع ..

إغراء في اللفظ وفي الحركة ..

إغراء في الملبس والزينة ..

إغراء في المشية والجلسة والنظرة ..

وصار الإغراء عند المرأة " المسلمة ! " هدفا في ذاته .. ليس من الضروري أن تستخدمه في الحصول على الزوج ، ولا حتى في الحصول على العشيق .. وقد صار من " حقها " بتوجيه " الكتاب " المتحررين أن تتخذ العشيق !

وإنما صارت مهمة الإغراء في حياتها أن تشعر بأنها " موجودة " بقدر ما تمارس من فنون الإغراء إزاء كل رجل تلقاه في المكتب أو في الطريق .

بل صارت المرأة " المسلمة ! " أشد رقاعة من زميلتها الغربية ، بحكم " تميع " المجتمع الشرقي في هذه الفترة .. وانفلات الضوابط كلها .. وتميع الأهداف كذلك في داخل النفوس .

وتمت الحلقة لهدم كل بقية متبقية من هذا الدين !

* * *

والآن .. بعد هذا العرض المذهل في أرض الإسلام وفي كل الأرض ..

هل كان المتوقع بعد هذا الجهد الفظيع كله الذي بذل لهدم هذه العقيدة بكل وسائل الهدم .. واشتركت فيه من قريب أو بعيد كل قوى الأرض .. هل كان المتوقع أن يظل على ظهر الأرض إسلام ومسلمون ؟!

وكيف يتأتى أن يوجد مسلم أو مسلمة .. وقد كان الهدف الذي سعت إليه قوى التدمير كلها أن تجعل الحياة لهما مستحيلة في أية بقعة من الأرض ، وأن يكون مجرد الوجود بالنسبة لهما كأنه قطعة من الجحيم ؟

جحيم الاضطهاد . وجحيم التضييق . وجحيم الغربة النفسية والفكرية والروحية والاجتماعية التي يلقيانها في مجتمع غير مسلم .. وجحيم المطاردة والملاحقة بالسخرية والأذى والتحقير والتنفير ..

والمسلمة بصفة خاصة .. بزيها المتميز تميزا حادا في المجتمع العاري المنفلت من القيود ..

إنه لمن العجب أن يظل إنسان – بعد هذا كله – يقول : لا إله إلا الله . محمد رسول الله .

ومع ذلك ..

هل تعجب .. أو تفزع .. إذا قلت لك ..

إن المستقبل للإسلام ؟!

المستقبل للإسلام !

المستقبل للإسلام ؟

هل يصدق أحد هذا الكلام ؟ بعد هذه الجهود المدمرة التي بذلت لتحطيمه ، وبعد أن عملت في القضاء عليه كل العوامل المحلية والتيارات العالمية التي وصفناها في هذا الكتاب ؟

نعم ..

لقد بذل الاستعمار الصليبي كل ما في وسعه للقضاء عليه ..

فتت العالم الإسلامي إلى دويلات ..

وأمسك بكل دويلة على حدة يعزلها عن أخواتها ويثير بينها الأحقاد والمنازعات ..

وفي كل منها عزل الدين عن المجتمع وعزل الشريعة عن الحياة ..

وحارب كل حركة تقوم فيها لإحياء الدين وإعادته إلى الواقع الحي المتحرك البنّاء

ورسم سياسة تعليمية تبعد الشباب النابت عن منابع دينه ، ولا تبقي في نفسه منه غير الشبهات ..

وحرص على إخراج جيل من " المثقفين " في كل بلد إسلامي ، ينفر من الدين وينسلخ منه ، ويرى فيه أنه جمود وتأخر ورجعية وانحطاط ..

وحرص على أن يمزق شر ممزق كل حركة تقوم بين المثقفين خاصة تنادي بالعودة إلى الإسلام .. لأن ذلك معناه إضاعة الجهد كله الذي بذله الاستعمار الصليبي في قرنين من الزمان ..

ونجح في ذلك كله ..

نجح في إبعاد المسلمين عن دينهم ..

ونجح في تعويق أية حركة إسلامية في الشرق الإسلامي .. لجيل أو أجيال ..

ثم .. ؟!

ثم تقوم في أمريكا ذاتها ، التي أنفقت ألوف الملايين من الدولارات على الحركة التبشيرية لمحاربة الإِسلام .. تقوم حركة إسلامية بين الزنوج هناك يصل أتباعها إلى نصف مليون في ثلاث سنوات !

وتعتقل أمريكا الزنوج وتعاملهم في سجونها بالعنف والقسوة – كما تقول مجلة تايم Time الأمريكية في أحد أعدادها – فإذا الدعوة تنتشر في داخل السجون ! وإذا هؤلاء المسلمون – كما تقول المجلة – لا يبالون بشيء في سبيل الوصول إلى أهدافهم ، لا تصدهم القسوة ولا يرهبهم العنف .. لأنهم صاروا مسلمين !!

ثم .. ؟!

ثم تكتشف أمريكا ذاتها ، التي أنفقت ما أنفقت لوقف المد الإسلامي في أفريقيا ، أنها في حاجة إلى مهادنة الإسلام في أفريقيا بالذات ، وإلا اكتسحت الشيوعية القارة السوداء !!

فماذا يصنع " الإنسان " إزاء هذه الإرادة الإلهية التي تأبى أن ينطفئ نور الله في الأرض : (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) (٧٢) .

* * *

ونترك العالم الإسلامي كله والمسلمين فيه ، وننظر إلى الغرب ذاته الذي اجتاحته تلك التيارات .

إن الإفلاس الروحي الذريع الذي يعانيه الغرب لا يمكن أن يدوم .. إلا إذا كان مقدوراً أن تنتهي البشرية في هذا الجيل ..

أما إذا كان في تقدير الله أن تستمر هذه البشرية أيّ مدىً من الزمان ، فلا بد لها أن تفيق من غفوتها ، وتصحو على الهاوية التي تنحدر إلى أعماقها ..

وقد بدأت تصحو بالفعل ..

بدأت تحس أن هناك جوعة لا يغذيها شيء . لا تغذيها النظم الاقتصادية . ولا نظم الحكم . ولا التنظيمات الاجتماعية . ولا متاع الأرض كله المتاح للناس كما لم يتح قط من قبل : متاع الجنس والمباهج المهيأة للترويح عن الناس والترفيه ..

جوعة الروح .. جوعة العقيدة ..

وتتبدى هذه الجوعة في القلق الدائم الذي يسيطر على النفوس .. والاضطرابات النفسية والعصبية وضغط الدم والانتحار والجنون .. رغم كل هذا التيسير الذي تهيئه الصناعة الحديثة ، ورغم كل الفرص المتاحة للبهجة والمتاع ..

بل كلما أغرق الناس في المتاع الدنس زادت حدة الجنون .. وزاد الشعور بالجوعة الكامنة في أعماق الضمير ..

ولا بد أن تصحو هذه الجوعة ذات يوم قريب إلى أنها تربد العقيدة .. العقيدة في الله .. فهي العنصر الواحد الذي لا يحل محله سواه ..

ولن تكون هذه العقيدة المطلوبة تهاويل وتسابيح .. ولا إغراقا في عالم الروح على حساب بقية " الإنسان " .

وإنما تكون – بعد تجارب البشرية الطويلة هذه – عقيدة تشمل الإنسان كله : عقله وجسمه وروحه .

وليس في الأرض عقيدة تشمل ذلك كله سوى الإسلام ..

وليس من الضروري – الآن – أن يصبح الناس اسمهم محمد وأحمد وعلي .. ولكنهم سيهتدون – بفطرتهم وتجاربهم الطويلة المريرة – إلى أن هذه العقيدة هي العقيدة المطلوبة التي تشمل الإنسان كله وتوحد اتجاهه ، فلا يتمزق .. كل بضعة منه في اتجاه .

* * *

و " الموانع " التي تبدو اليوم حاجزا ضخما أمام العقيدة .. أمام العودة إلى الدين .. لن تلبث أن تزول .

ليس هذا أول " انقلاب " في تاريخ البشرية ..

وما أسهل ما تنقلب الأفكار والمشاعر بعد إذ يبدو أن ذلك مستحيل !

حين تتيقظ البشرية على الخطر المحدق بها من إفلاس الروح ، ستقبل راضية كل " تنظيم " يقوم على أساس العقيدة ، مهما بدا لها مقيدا لانفلاتها الذي تعيش عليه اليوم .. لأن الانفلات هو العلة التي تحدث اليوم الاضطراب ..

والمتاع الدنس ستعدل عنه النفوس إلى المتاع المعقول .. وستجد راحتها الطبيعية الفطرية في هذا المتاع .

والنشاط الإغرائي الذي تقوم به المرأة اليوم ، والذي يلذ لها أن تجد فيه ذاتها ، ويعز عليها أن تتنازل عنه بعد أن لجت فيه إلى هذا المدى .. هذا النشاط الإغرائي ذاته قد بدأت المرأة – الأمريكية والأوربية – تفزع منه !

إنه يحقق لها ذاتها على نطاق واسع ، نعم . ولكنه كذلك يحقق ذوات الأخريات !

ومن ثم تسطو الأخريات على زوجها وخطيبها ومن تهواه ..

وتتهدم الأسرة ، وتتفكك الروابط ، وتملأ النفوسَ الجراح ..

وستكتشف المرأة عما قليل ، أنها غير حريصة عليه .. وأن خيرا منه أن تحصل على الإعجاب النظيف الذي يحقق الفطرة ويلبيها ، لا على الفتنة التي تورث الشقاء .

* * *

في ذلك اليوم سيعود الناس إلى الدين .. سيعودون إلى الإسلام .

وتلك قوة أكبر من إرادة البشر ! لأنها مبنية على السنة التي أودعها الله في الفطرة وتركها تعمل في النفوس ..

وحين يجيء ذلك اليوم .. فماذا يعني في حساب العقائد عمر جيل من البشر أو أجيال .. ؟

ليس المهم : متى يحدث ذلك ..

إنما المهم أنه سيحدث .. سيحدث بمشيئة الله ما لم يقدر الله للبشرية الفناء .

وحين يجيء ذلك اليوم .. وهو آت إن شاء الله .. فماذا تساوي كل التضحيات والآلام التي تحملتها أجيال من المسلمين ليعقدوا الجسر فوق الهوة الحالية بين الكفر الملحد وبين الإسلام ؟

لا شيء ...

تضحيات مضمونة في السماء والأرض : (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) .

صدق الله العظيم

====================

فضل الحضارة الإسلامية على العلوم الطبية

الاثنين :١٣/٠٢/٢٠٠٦

(الشبكة الإسلامية) د . هناء إسماعيل (مجلة الحج والعمرة)

كتاب النجاة لابن سينا

عندما جاء الإسلام اهتم العرب منذ فجره بشتى ضروب المعرفة والعلوم، وصاحب الانتصارات الحربية الرائعة، تقدم الثقافة وازدهار الفكر على صعيد جميع العلوم والمعارف النظرية التطبيقية بالإضافة إلى مختلف الفنون والصناعات.

وكان الاهتمام الكبير الذي أولته الدولة الإسلامية بالعلم والعلماء عاملاً هيأ الظروف الملائمة لانتشار التعليم، فما لبثت العلوم والطب أن اكتسيا ثوبًا جديدًا، بل نفخت فيهما الروح من جديد. فلقد شجع نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم نفسه دراسة الطب وقال: "تداووا فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد: الهِرَم"[رواه أبو داود].

حافظ العلماء المسلمون على تراث المعرفة الإغريقية فاحترموه وقدروه ونهضوا به وطوروه، وكان ذلك إسهامًا عظيمًا في تقدم الطب، فقد ترجم المسلمون إلى العربية مؤلفات جالين وغيره، ووزعوها على المراكز العلمية في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية، فكان لهذا العمل العظيم والجليل فوائده العلمية الكبيرة والجمة.

وقد أسهم ولاة المسلمين كذلك في نهضة علم المعالجة بالعقاقير، بل يعتقد الكثيرون أن الكلمة الإنجليزية Drug المرادفة للعقار الطبي، مشتقة من أصل عربي، كما هو الحال في آلاف المصطلحات الأخرى.

كذلك أنشأ الولاة المسلمون المستشفيات التعليمية الكبيرة والمستوصفات العامة في سائر أنحاء الدولة الإسلامية.

ومن حسن حظ العلوم الطبية أنها حظيت بالنصيب الأوفى بفضل هذا التشجيع المعنوي والمادي من الخلفاء وأولي الأمر والثراء، لاسيما خلال الحقبة الواقعة بين الأعوام ٨٠٠ – ١٢٠٠م.

وهذا الازدهار شمل جميع الدول الإسلامية من الشرق في الشام إلى الغرب في الأندلس، وكان لمصر الإسلامية النصيب الأكبر في هذا التقدم الحضاري، فقد أعطت لدنيا العلوم الطبية الكثير، واعتبرت أحد ينابيع الفكر العربي.. فقد أعطت ما لم تعطه الولايات الإسلامية الأخرى حضارة وعلمًا وفنًّا وفكرًا وابتكارًا، فبعد أن من الله عليها بالفتح الإسلامي سنة ٢١هـ في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، التقت حضارة العرب القادمين من شبه الجزيرة العربية بحضارة الفراعنة التي تسلمها أبناء النيل، وقد عكس المسلمون ضوء الشمس الغاربة للحضارات الفرعونية واليونانية، وكان لهم فضل الحفاظ على العلوم الطبية؛ لأن الرومان لم يحسنوا القيام على هذا التراث، بينما العرب المسلمون تسلموه وأتقنوه وأبدعوا فيه وأضافوا إليه.

كان هذا الالتقاء الحضاري نتيجة مباشرة في دفع عجلة التقدم في شتى ميادين العلوم والمعرفة والصناعات والنظم الإدارية، كما صاحب الفتوح الإسلامية إنشاء المدارس، ومن أروع مظاهر الحضارة الإسلامية مدارس الطب، فمنذ قيام الدولة الإسلامية كانت المساجد معاهد عامة لتعليم الشريعة فضلاً عن أنها دور للعبادة، وكان أول

معهد هو الذي أنشأه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في مسجد المدينة، بعد هجرته في السنة الأولى.

وبمرور الزمن أصبحت المساجد كلها جامعات إسلامية، وصار اسم المسجد "جامع"، واليوم نحن نسمي مؤسستنا العلمية الكبيرة الشاملة بمؤنث "جامع" أي "جامعة"، وأصبح يدرس فيها مختلف علوم الدنيا والدين .

واشتهر عمر بن منصور البهابري، ومحمد بن عبد الله المصري، بتدريس الطب في الجامع الطولوني الذي أنشاه أحمد بن طولون، مؤسس الدولة الطولونية في مصر في خلال القرن الثالث الهجري، كما اشتهر عبد اللطيف البغدادي الذي كان يدرس الطب في الجامع الأزهر (وقد أنشأ في زمن المعز لدين الله الفاطمي، مؤسس الدولة الفاطمية في مصر، خلال القرن الرابع الهجري).

كما أُنشئت بيوت الحكمة (أي خزائن الكتب) لجمع الكتب من مختلف العلوم لحفظها وترجمتها، وكانت أول دار حكمة هي دار الحكمة القياسية، التي أنشئت في زمن هارون الرشيد (القرن الثاني الهجري)، وجمع له البرامكة كتب الهند القيمة، وكتب فارس، واليونان، ونشطت حركة الترجمة، وفي عصر المأمون في أول القرن الثالث الهجري، فأصبحت دار الحكمة أكاديمية للبحث العلمي في مختلف العلوم، وخصوصًا العلوم الطبية، وأضاف العرب علومهم إلى ما ترجموه من علوم الأمم الأخرى.

ولما انتشرت العلوم وازدادت المؤلفات، وبلغ شغف الناس بالعلوم مبلغًا كبيرًا لم تعد دور الحكمة تفي بالغرض، فأنشئت دور العلوم لتلقى فيها المحاضرات، وأولها دار علم الموصلي (في القرن الثالث الهجري).

ثم ظهرت المدارس التي أنشئت عن طريق الأساتذة والأثرياء، وابتدأت بدار يجتمع فيها الأستاذ مع طلابه، وأقدم مدرسة هي مدرسة أبي بكر بن فورك الأصبهاني (القرن الخامس الهجري) في نيسابور، وكانت تدرس فيها مختلف العلوم، ثم أصبحت تلك المدارس "حكومية"، وأول مدرسة حكومية هي المدرسة النظامية التي أنشأها نظام الملك (في القرن الخامس في بغداد وخراسان).

وهنا تجدر الإشارة إلى أن العرب المسلمين هم أول من جعل التدريس من واجبات الدولة، وأول من عرفوا تأميم الطب والعلاج.

ويعد الرازي واحدًا من أشهر الأطباء المسلمين، فقد ألف في القرن العاشر الهجري أكثر من ثلاثمائة كتاب في الطب، كما وضع موسوعة طبية كاملة، واشتهر كذلك الطبيب المسلم ابن سينا، حتى أصبح كتابه "القانون في الطب" واحدًا من أهم المراجع الدراسية في المدارس الطبية خلال العصور الوسطى، واشتهر طبيب مسلم آخر في قرطبة وهو الزهراوي، الذي كتب في القرن العاشر كتابًا يستعرض فيه بالتفصيل كل المعارف الطبية في زمنه، كما ألف كتابًا مصورًا في الجراحة يعتبر الأول من نوعه في تاريخ الطب، وضمنه صورًا للأدوات التي تستخدم في علوم الجراحة.

ومن أمثلة دور العلم الطبية (دار ابن سينا)، فكان يجتمع فيها طلبة العلم، منهم من يقرأ في كتاب القانون، وآخر يقرأ في طرق الشفاء، وكان التدريس يتم ليلاً لعدم وجود فراغ خلال النهار بسبب خدمة السلطان والأمراء، ومن أهم المدارس الطبية أيضًا المدرسة الدخوارية بالشام، التي أنشأها أبو محمد بن علي بن حامد المعروف بالدخوار، وكان كحالاً (أي طبيبًا للعيون)، وتتلمذ على يديه كثير من أطباء دمشق، وكان أستاذًا ببيمارستان النوري الكبير، ثم بعد وفاته أوقفت داره وجعلت مدرسة للطب، وكذلك المدرسة الدينسرية التي أنشأها عماد الدين الدينسري، ولكن دور العلم والمدارس الطبية لم تف بالغرض المطلوب؛ لأن الطب من العلوم التجريبية التي لا تصلح لها هذه المعاهد، فكان لابد من الدراسة العملية، ولذلك ظلت البيمارستانات هي كليات الطب المفضلة لتدريس المقررات للطالب، حيث إنها مكان تتوافر فيه الحالات المرضية وطرق العلاج.

والبيمارستان هي كلمة فارسية تتكون من شقين "بيمار" بمعنى المرض، و"ستان" بمعنى مكان، أي أن معناها مجتمعة "مكان المرض" ثم حورت في العصور الحديثة إلى كلمة مارستان، أصبحت لفترة طويلة تطلق على دور العلاج العقلي، حتى صارت التعبير العامي لهذا النوع من المستشفيات.

بذلك أنشئت المدارس الطبية العلمية، أو البيمارستانات التعليمية، وأهمها البيمارستان المقتدري في القرن الرابع الهجري في بغداد، وقد هدمه المغول، والبيمارستان النوري الكبير في دمشق (في القرن السادس الهجري) ، والبيمارستان العضدي في بغداد، والمنصوري بالقاهرة، الذي أنشأه المنصور سيف الدين قلاوون، (في القرن السابع الهجري)، وكان يشرف على البيمارستان ويدرس الطب فيه علماء شهد لهم التاريخ؛ ففي البيمارستان العضدي كان ابن بطلان، وابن التلميذ، وسنان بن قرة ، وفي المقتدري كان الواسطي. وفي النوري: ابن الدخوار، وابن النفيس، وابن أبي أصيبعة.

أما بيمارستان قلاوون في القاهرة فكان أعظم مستشفى، وكلية طبية في تاريخ مصر خلال العصور الوسطى، وكان يشرف على رئاسته كبير أطباء، وهو ما يقابل اليوم عندنا "عميد كلية الطب"، وكان يتم اختياره من كبار الأطباء، وأحسنهم سمعة وعلمًا، وكان الإشراف على البيمارستان يعتبر من وظائف الدولة المهمة ولرئيسه حق مقابلة السلطان في أي وقت، كما كان للبيمارستان قسمان: قسم للرجال، وآخر للنساء، وكل قسم من الأقسام الداخلية يشمل تخصصات عدة مثل: طب العيون – الجراحة – الإسهال والحمى – الأمراض العقلية والنفسية...إلخ.

كما كان قسم خارجي يتردد عليه حوالي ٤٠٠٠ مريض يوميًا يصرف لهم أصناف جيدة من العلاج، وكان كل قسم يشرف عليه رئيس، وكان لرئيس الأطباء ورؤساء الفروع فقط الإذن بمزاولة فنون الطب لمن يرونه صالحًا من الطلاب الدارسين بالبيمارستان، وكان يعاون المدرسين أو الأساتذة طوائف المعيدين، فنظام المعيدين هو أصلاً من ابتكار التعليم الإسلامي، وكان للمعبد واجبات منها ما ذكره القلقشندي (إذا ألقى المدرس الدرس وانصرف أعاد الطلبة ما ألقاه المدرس ليفهموه ويحسنوه).

كان الالتحاق بالمدرسة الطبية أو البيمارستان سهلاً، إذ يذهب الطالب إلى حيث يجلس الأستاذ، ويستمع إليه، والطالب حر في اختيار مقررات الدراسة، بل ودراسة ما يرغب فيه وحرية التنقل من أستاذ إلى آخر، حتى تكون الدراسة على هواه، ولا تفرض عليه في هيئة برامج أو مقررات إجبارية، ولم يكن الأمر فوضى كما قد يتبادر إلى الذهن، ولكن كانت هناك كتب أساسية يجب أن يدرسها الطالب، ولا يمكنه الحصول على إجازته إذا لم يتقن هذه الكتب.

ولعل الكثيرين يعلمون أن هذا النظام انتهى من عندنا نحن مبدعيه، وانتقل إلى الدول المتقدمة على رأسها الولايات المتحدة وأوروبا، ومازال قائمًا ويطبق لديهم حتى اليوم، فالطالب الذي يدرس دراسات عليا أو عادية يختار أستاذه والمقررات أو البرامج التي سيدرسها بنفسه وبحرية كاملة، ولا تفرض عليه أو يفرض عليه أستاذه أو مشرفيه. ولكن من يعترف اليوم بهذا الإبداع العظيم للعرب، وفضل الحضارة الإسلامية على العلوم وطرق المناهج والتدريس؟

وتمر ستة قرون كاملة بعد هذا الإبداع الإسلامي، ونجد في عام ١٥٣٧م طبيبًا بلجيكيًا، بل عالمًا من علماء جامعة لوفان، هو أندريه فيزالوس، يترجم الكتاب التاسع من كتب الرازي إلى اللغات الأوروبية، وما لبث فيزالوس أن عين أستاذًا للتشريح في جامعة بادوا، وفي عهده أدخلت كلية الطب في جامعة بادوا الأساليب الإسلامية الجديدة في ممارسة الطب، التي ما لبثت أن انتشرت في سائر أوروبا وأسهمت إسهامًا كبيرًا في تقدم الطب في أوروبا.

==============

هل الحضارة الغربية مستمرة؟

الخميس :١٥/١٢/٢٠٠٥

(الشبكة الإسلامية)

رحلات الفضاء

البعض يتصورون مثلاً أنَّنا حين نتحدثُ عن سقوطِ الغربِ أو أمريكا أو الحضارةِ الغربيّة ، يعنون معنىً عامًّا شاملاً يترتَّبُ عليه تدميرُ جميعِ المنجَزَاتِ الحضاريَّةِ ، وعودةَ الإنسانِ كما يقولونَ إلى العصورِ البدائيَّةِ بعيداً عن كلِّ ما تمتَّع به في هذا العصر !

هناك مثلاً طرحٌ .. عبارةٌ عن فيلم اسمُهُ (مقاتلٌ على الطريق) لجورج ميلر ، هذا الروائيُّ يتنبَّأ بهذه النهايةِ المرعبَةِ للعالَمِ الغرْبِيّ ، والبؤسِ الذي سوف يلفُّ العالَمَ هناك ، ويقضي على كلِّ المنجزاتِ الحضاريَّةِ التي يتمتَّع بها الناسُ اليومَ سواءً من الاتصالاتِ المختلفةِ أو المتعةِ أو الرفاهيةِ أو النَّقلِ أو الكهرباءِ أو غيرِ ذلك .

وهكذا رواياتُ الخيالِ العلميَّ كما يسمونها ، التي تصوِّرُ تدميرَ الحضارةِ التكنولوجيَّة الحديثة والعودةَ المفاجئةَ للعصورِ البدائيَّة .

ولذلك فإن البعضَ يُبدون انزعاجاً من الحديثِ عن سقوطِ الغرب، لأنهم يظنون أنَّ سقوطَ الغربِ سوف يترتَّبُ عليه زوالُ هذه الفُرَصِ والامكانياتِ التي يتمتَّعون بها.

و هذا في الواقع ليس مقصوداً لنا حينما نتحدثُ عن سقوطِ الغرب أو سقوطِ أمريكا، و إن كان هذا مطروحاً لدى بعض الغربيين، فهناك جماعاتٌ من العلماءِ المتخصِّصين يتوقعون أحوالَ سيئةً سوف تكون إليها البشريةُ حتى وإن كان هناك نظرةٌ متفائلةٌ ومثاليُّةٌ للمستقبل قبل عشراتِ السنوات، كانت هي السائدة .

حينذاك كتَبَ فيلسوفٌ ألمانيّ اسمُهُ سبيكر، كتاباً عن تدهورِ الحضارةِ الغربيَّةِ و توقَّعَ مستقبلاً مظلِماً للغرب و للعالَمِ كلّه من وراء الغرب .

ثم جاء العالِمُ الانجليزي جورج اروين وكتب كتاباً اسمُهُ (العالَم عام ٨٤)، وكان كاتباً متشائماً وتوقَّعَ أوضاعاً سيئةً لكنَّ الواقعَ كان أكثرَ تشاؤماً منه، فإنَّ الأوضاعَ التي مرَّ بها العالَمُ عام ٨٤ وما بعدَه كانت أكثرَ سوءاً وسوداويةً وقتامةً مما تصوَّرَه أو ظنَّهُ ذلك العالِمُ الانجليزي .

ثم كتب الفيلسوفُ الإنجليزي الآخرُ أيضاً هولن ويلسون سقوطَ الحضارةِ الغربيةِ ضمنَ منظومةٍ متسلسِلَةٍ من البحوثِ و الكُتُبِ والدراساتِ القديمةِ ،التي كانت تتحدَّثُ عن سقوطٍ وشيكٍ للعالَمِ الغربيّ .

هناك أيضاً علماءُ الفَلَكِ في هذا الزمان، الذين يكتبون نهاياتٍ مفزِعَةٍ عن الكونِ بسببِ زيادةِ طاقةِ الشمسِ و حرارتِها مثلاً ، وتمزُّقِ أو وجود ثقبٍ ضخمٍ لطبقةٍ عُليَا معروفةٍ يسمونها (طبقةَ الأوزون) ويقولون : إنَّ هذا الثقب ، إذا ظلَّ يكبرُ بالمعدَّلاتِ التي تحدُثُ الآن فإنه سوفَ يترتَّبُ عليه أخطارٌ تهدِّدُ الحياةَ البشريَّةَ كلَّها، منها مثلاً زحفُ الماءِ على الكرةِ الأرضيَّةِ و تغطيةِ مُدُنٍ بأكملِها وغمرِها بالمياه، وابتلاعُ هذه المدن بسكانِها وإمكانياتِها ، وتلوثُ البيئةِ والجوِّ وانتشارُ أمراضٍ منها سرطانُ الجلدِ، إلى أشياءَ أخرى كثيرةٍ مترتِّبةٍ على هذا الخطرِ الذي يُسمَّى ثقبُ الأوزون .

علماءُ الطبِّ أيضاً يتحدَّثُون بنفسِ النظرةِ ويتكلَّمون عن الأخطارِ و الأمراضِ التي سوف تحدُثُ للبشريَّةِ من جرَّاءِ هذا الثقبِ الذي أصبَحَ مرئيَّاً وملاحظاً الآن وهو يتزايدُ بسببِ كثافةِ الاستهلاكِ التصنيعيّ خاصَّةً في الدولِ الغربيَّة .

إضافةً إلى ذلك فعلماءُ الطبِّ يدقُّون نواقيسَ الخَطَرِ من الأمراضِ التي أصبحَتْ تفتِكُ بالبشريَّة، لم يَعُد مَرَضُ السَّرَطَانُ هو أخطرُها، بل أصبحَ مرضُ الإيدز الذي ضحاياه يعدَّون بعشراتِ الملايين ، وحاملو الجراثيمِ مئاتُ الملايين، ويُتوقَّعُ أن تزدادَ النسبةُ بكثرةٍ في السنواتِ القادمة ، ويقفُ الطبُّ عاجزاً عن إيقافها ، وهذا يهدِّدُ السلالاتِ البشريَّةَ ويهدِّدُ الحياةَ على وجهِ الأرض .

أما علماءُ البيئةِ فهم يرسمون صورةً مكبَّرةً لما حدث في المعمل النوويِّ في الاتِّحادِ السوفييتي (تشرنوبل) وقد تسرَّبَ من هذا المعمل بعضُ الإشعاعات النوويَّةِ فدمَّرتِ الحياةَ هناك وأثَّرَتْ وقَتَلَتْ وغيَّرَتْ أشياءَ كثيرةً وانتقلتْ آثارُها عبرَ مأكولاتٍ وفواكه وخضروات وغيرِها إلى العالَمِ العربيِّ والإسلاميّ، بل إلى العالَمِ كلِّه .

فهم يقولون مثلاً : ماذا لو حدث زلزالٌ في أَحَد المواقع التي تُقامُ عليها مفاعلاتٌ أو معاملُ نوويَّة ؟ وترتَّبَ على ذلك تسرُّبٌ خطيرٌ في هذه المواد والإشعاعات القاتلةِ للناس ؟

بل ماذا لو حدث حربٌ نوويَّة أو حربٌ جرثوميَّة بين دولتين من دول العالم ؟

إذن لكان ذلك يمتدُّ أثَرُهُ و ضرُرُه إلى مواقعَ كثيرة !

بل ماذا لو تملَّكتْ بعضُ ما يسمونها بالجماعاتِ الارهابيةِ أو عصاباتِ المافيا ، أو المجموعاتِ التخريبيَّةِ في العالَم ، و بطبيعةِ الحالِ أنا لا أقصدُ بهذا المسلمينَ إنَّما يُقصد بشكلٍ عامٍّ تلك الجماعاتُ التي تتاجرُ بكلِّ شيءٍ في الشرقِ والغربِ ، وهي جماعاتٌ إرهابيَّةٌ همُّها تحصيلُ المالِ والثراءِ والكسب ، ماذا لو تملَّكتْ بعضُ هذه العصابات السلاحَ النوويَّ ؟!

فضلاً عن أن المصانعَ والنفاياتِ والإشعاعات النوويَّةَ التي تُدفنُ غالباً في بلادِ المسلمين أوتُصدَّرُ بطريقةٍ أو أخرى، حتى أنَّ آخرَ ذلك أنَّ الصومالَ وُضِعَ في مياهها بعضُ النِّفايات النوويَّة، وهذا يهدِّدُ الحياةَ البشريَّةَ على وجهٍ آَخَر .

إذن هؤلاء يتوقعون نهايةً حادَّةً وحاسِمةً للحياةِ البشريَّةِ ، وأن سقوطَ الحضارةِ لا يعني فقط تأخُّراً أو تراجُعاً بقدرِ ما يعني تهديداً للحياةِ البشريَّةِ على وجه الأرض أو على الأقل تهديداً للمنجزاتِ الحضاريَّةِ التي يتمتَّعُ بها الإنسانُ في العالَمِ كلِّه .

و هؤلاء العلماءُ يتَّفقُونَ على أنَّ العالَمَ يسيرُ إلى كارثةٍ محقَّقَةٍ لا مهرَبَ منها .

يقول مثلاً كاتبٌ رومانيٌّ شهير : " إنَّ محاولةَ إنقاذِ العالَمِ حينئذٍ هي مثلُ محاولةِ الفئرانِ أن تهربَ من سفينةٍ على وشكِ الغرق ، تهرب نعم من السفينةِ لكن لتغرقَ في البحر ، فهي بين حرق أو غرق! ".

هذه التوقعاتُ أو الظنونُ مع أنها الآن لا تؤخذُ بعينِ الجديَّةِ إلا أنَّه يُنظرُ إليها على أنَّها من الطرائفِ العلميَّة، و مع ذلك يجبُ ونحن نتحدثُ عنها ،أن نتنبَّهَ إلى خمسةِ نقاط :

أولاً : هذه الأشياءُ هي احتمالاتٌ قائمةٌ وواردةٌ ، وليست أموراً في دائرةِ المستحيلِ وغيرِ المُمكِن ، والمعتادُ أن مراكزَ التَّحليلِ الغربيَّةِ تضعُ لكلِّ احتمالٍ حساباً ، فينبغي أن توضعَ هذه الأشياءُ في الاعتبارِ و ألا تُستبعدَ استبعاداً كليَّاً أو نهائيَّاً .

ثانياً : من المعلومِ أن ثمَّةَ حضاراتٍ كثيرةٍ سادت ثم بادت.

ثالثاً : ثمة نصوصٍ شرعيَّةٍ و أحاديثَ عن النبي صلى الله عليه و على آله وسلم توحي وتدلُّ على أنَّ العالم سوفَ يعودُ إلى العصورِ البدائيَّةِ في آخرِ الزمان ، و سوف يُستخدمُ السلاحُ الأبيضُ.

رابعاً : أنَّ المسلمين يؤمنون، بل وغيرِ المسلمين من أهلِ الديانات السماويَّة ، يؤمنون بالساعةِ وهي تدميرُ الحياةِ الدنيويَّةِ والقضاءِ على البشرِ و موتِهم عن آخرِهم .. حتى مَلَكُ الموتِ يموت .

خامساً : أمريكا برزَت بسرعة فلا غرابة أن يكون انهيارُها سريعاً أيضاً كما تتوقَّع بعضُ الدِّراساتِ وبعض التحَّاليل.

ـــ

المصدر /نهاية التاريخ : سلمان العودة، بتصرف

=============

الوحدة والتوحيد أساس بناء الحضارة الإسلامية

الاحد :١١/١٢/٢٠٠٥

(الشبكة الإسلامية) د. عبد الحليم عويس

الجزائر

نموذج التلاحم بين العرب والبربر

تثور في كثير من بلاد المسلمين نعرات عنصرية، تحاول تهميش الأخوة الإسلامية، وتذويب التلاحم الجنسي الذي صهره الإسلام في بوتقة "الأخوة"، وفتح به العالم من خلال كل الأجناس الإسلامية صانعة الحضارة الإسلامية، عربية أو تركية، أو كردية أو بربرية!!

وفي بلاد الشمال الإفريقي (والأندلسي سابقًا) وجدت ومازالت محاولات تدميرية للإيقاع بين عنصري العرب والبربر الذين يرجعان في الحقيقة إلى أصل عربي واحد، وقد التحما معًا في فتح الأندلس ونشر الإسلام في العالم.

ومن البديهي أن العنصر البربري بكل خلفيته الثقافية يمثل واحدًا من أبرز المكونات الثقافية للمغرب العربي الإسلامي – ومن العبث بل من الأنانية القومية – إنكار دوره الحضاري الأساسي عبر عدد متطاول من القرون!!

على أنه لا يمكن – مع وجود هذا العنصر – إهمال المكونات الثقافية العربية التي استقرت على امتداد المغرب منذ الفتح الإسلامي، ولا سيما تأثير الدولتين الكبيرتين: بني رستم في تيهارت، والفاطميين في المهدية، وهما دولتان قامتا على التوحيد بين البربر والعرب في سياق واحد!!

وهذا لا يعني إهمال شأن الجهد الذي بذله البربر أنفسهم في تعلم العربية وعلوم الإسلام، حتى إننا لنجد القرن الرابع الهجري لم يكد يبزغ حتى صار كثير من البرابرة يزاحمون العرب في علوم لغة "الضاد" وأصبح علماء البربر يناظرون فقهاء العرب في القواعد الأصولية والفروع الفقهية وقضايا علم الكلام.

لقد استطاع الطابع العربي أن يغلب على الثقافة منذ مطلع القرن الرابع الهجري، وقد ساعد على ذلك أن الثقافة العربية جزء من الإسلام الذي هو عقيدة الأمة، وأن تاريخ الأمة منذ ثلاثة قرون هو تاريخ هذه الثقافة، وأن المغرب العربي محاط من كل أطرافه بثقافات عربية، سواء من ناحية الشمال حيث (الأندلس الإسلامية)، أو من

الشرق حيث منابع الثقافة الإسلامية.. مما يجعلنا نطمئن إلى القول بأن الثقافة العربية الإسلامية قد نجحت في أن تكون الثقافة "الأم" والأولى.. منذ القرن الرابع الهجري، ونجحت في أن تكون مناط عناية الدول البربرية، على اختلاف منازعها واتجاهاتها السياسية الرسمية.

ولقد حظيت العربية باحترام البربر – أيما احترام – على وجه العموم، وقد اعتبروها لسان الأدب ولغة العلم وعنوان الثقافة، فانبلج بالتالي في القرنين الخامس والسادس الهجريين "عصر جديد أصبحت فيه اللغة العربية ربة المنزل، وصاحبة الأمر والنهي على القرائح والعقول".

وعند منتصف القرن الخامس الهجري حدث ما هو معروف من زحف القبائل العربية على المغرب العربي، ومهما يكن من الآثار السلبية التي خلفتها هذه القبائل في الحياة السياسية والاقتصادية والعمرانية (بخاصة) في المغرب العربي، فإنها كانت من الناحية الثقافية أكبر العوامل المؤثرة في تعريب الثقافة المغربية.

فقد أثرت لغة التخاطب لقبائل بني هلال وبني سليم في اللسان البربري، الذي كان طاغيًا على اللسان العربي في الأرياف، وفي المدن أيضًا، وسارت عملية الاستعراب تبعًا لعملية المزج والاحتكاك في الحياة العملية اليومية.

وقد برز بهذا المظهر الحضاري دور جديد في الآداب المغربية يسميه أحد المؤرخين المعاصرين بـ(الدور المدرسي)، وهو دور تم وضع حجره الأساس في القرن الخامس الهجري، وقد ظل هذا الاتجاه يختمر في القرن السادس الهجري، وهو دور يمتاز بأنه آخر الأدوار المدرسية الأخرى، التي اختمرت في الذهنية المغربية، ولهذا فقد جاء "خلاصة للأدب العربي وزبدة للعقول".

ويبدو أنه بعد هذا الدور بدأت (الجزائر) تدخل في عداد الدول المعربة فعلاً، وقد سبقتها بقليل من السنوات (تونس)، أما المغرب الأقصى فقد تأخر عنهما تأخرًا نسبيًا يمثل خلافًا في الدرجة، لا في المظهر الحضاري العام!!

ومن عناصر التكوين الثقافي التي لا يمكن تجاهل تأثيرها في هذا الطور، زحف مذهب "مالك بن أنس" بدءًا من التأثير الذي أحدثته "مدرسة القيروان" التونسية، ومرورًا بالقسم الغربي في العالم الإسلامي كله، وهو القسم الذي انتظم فيه الأندلس

وبلدان المغرب العربي، وعبورًا إلى القارة الإفريقية حيث لا يزال مذهب مالك هو المذهب الغالب في هذه البلاد.

والجدير بالذكر أن احتكاك المغرب بالأندلس وهجرة بعض الأندلسيين والأفارقة والصقليين وغيرهم إليه، وإسهام هؤلاء في الحركة الثقافية المغربية، بما حملوه من علوم وآداب.

كل هذه العناصر وربما غيرها، قد كونت الملامح الأساسية للشخصية الثقافية المغربية، وساعدت على إبرازها في صورة حضارية خاصة ذات إطار خاص، كما أن هذه العناصر في الوقت نفسه قد ساعدت على رقي الثقافة المغربية وازدهارها عامة.

وقد انتشرت في هذا العصر ظاهرة التنافس الثقافي، وكان السباق قائمًا بين بلدان المشرق والمغرب والأندلس وعواصمها المختلفة المهدية وبجاية وفاس، وتلمسان، وسبتة ، وبغداد والقاهرة والمدينة المنورة، ومكة، وغيرها.

وقد برزت كل مدينة من هذه المدن بلون خاص من العلوم أو الآداب غلب عليها، واشتهرت به.

فالمهدية عاصمة البحوث الكيماوية، وصقلية عاصمة الترجمة والنقل للعلوم العربية إلى اللاتينية، وبجاية عاصمة الرياضيات (ومن بجاية الجزائرية هذه أخذ الأوروبيون الأرقام العربية والجبر والمقابلة وهندسة أوقليدس)، وهكذا الأمر في كل عاصمة إسلامية عربية.

وقد ساعد على هذا التنافس وعطائه الحضاري، ما كان يلتزم به الحكام من رعاية للملتصقين بهم من العلماء والأدباء والشعراء.

وعلى سبيل المثال، فإن حكام المغرب الأوسط (الجزائر) خلال القرن الخامس والسادس للهجرة كانوا يرعون العلماء والشعراء، ويغرونهم بالقدوم عليهم، ويجودون عليهم بالعطاء جودًا حاتميًا، وكان أبرز حكام الجزائر على الإطلاق خلال القرن الخامس الهجري "الناصر بن علناس الحمادي" أطول الملوك باعًا في هذا المضمار، فقد كان يؤمه الأدباء، ويقصده الشعراء، فيغدق صلاته عليهم.

وكان الأمير "المنصور بن الناصر بن علناس" الذي خلف أباه الناصر على حكم الجزائر، يكتب ويقول الشعر، ويشجع الأدباء والشعراء.

وكانت حركة الانتقال المتاحة بين العواصم الإسلامية (دون جوازات سفر أو تأشيرات دخول وخروج)، كانت هذه الحركة الانتقالية التي غلب عليها طابع البعثات والرحلات العلمية، من أبرز العوامل في إذكاء روح النشاط الثقافي.

وهي ظاهرة عامة في العالم الإسلامي كله خلال هذه العصور بدرجات متفاوتة بين شعوب وحكومات هذا العالم، ولربما كانت هذه الظاهرة أقوى في عالمي المغرب والأندلس عنها في المشرق، نظرًا لشعور أبناء المشرق بأنهم المصدر والأصل الذي يجب أن تشد إليه الرحال ويسعى إليه، وأيضًا لشعور المغاربة بمكانة إخوانهم (المشارقة) في الحضارة الإسلامية.

لقد كانت حدود الأقاليم غير ذات أهمية وهي لم تمثل حاجزًا أو فاصلاً بين العلماء والأدباء والكتاب والشعراء، بل كانت الأفكار في العالم الإسلامي متصلة كما تعكس تقاربًا ثقافيا يعتبر خصيصة كبرى من خصائص الحضارة الإسلامية في عصور الازدهار.

وفي الموسوعات العلمية الكبرى لهذه القرون تأكيد واضح لبروز هذه الظاهرة ودورها الإيجابي في خلق وحدة فكرية في العالم الإسلامي كله، فابن بسام يفرد القسم الرابع من موسوعته "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"(القسم الرابع من المجلد الأول)، لمن هاجر إلى الجزيرة "أي الأندلس" من الآفاق وطرأ عليها من شعراء الشام والعراق، ويشتمل هذا القسم على تراجم لهؤلاء الرحالة الشعراء في القرن الخامس الهجري، وحتى وفاة ابن بسام سنة ٥٤٢هـ قريبًا من منتصف القرن السادس الهجري.

والمقري صاحب موسوعة "نفح الطيب" يورد لنا نحوًا من مائتين وخمسين ترجمة لمن رحلوا عن الأندلس إلى المشرق من العلماء والأدباء والفقهاء، ويورد لنا أيضًا قريبًا من خمس وسبعين ترجمة لمن رحلوا من المشرق إلى الأندلس.

وفي كتاب "الصلة" لأبي القاسم خلف بن عبد الملك الشهير بـ" ابن بشكوال" المتوفى سنة ٥٧٨هـ، نلحظ الظاهرة نفسها، فأغلبية المترجم لهم رحلوا إلى المشرق، وكثير

من المشارقة زاروا الأندلس، وقد ألحقهم ابن بشكوال بقائمته التي أطلق عليها اسم "الغرباء"!!

وفي "التكملة" لابن الأبار، وفي "وفيات الأعيان" لابن خلكان، و"فوات الوفيات" للصفدي، وفي "جذوة المقتبس" للحميدي، وفي غيرها من المصادر، نستطيع التأكد من هذه الظاهرة على نحو واضح.

ويذكر "ناصر خسرو" أنه رأى سنة ٤٤١هـ ١٠٤٩م، وهو بمصر، بعثة للبحث عن الآثار الفرعونية (جماعات من المطالبين)، قادته من الشام والمغرب.

كما أن المشاهير كانوا يتبوأون مركزهم الثقافي على امتداد العالم الإسلامي كله، و"ناصر خسرو" يذكر لنا أن أفاضل الشام والمغرب والعراق يقرون بأن "أبا العلاء المعري" أديب عصرهم بلا منازع.

وحين يورد لنا "المقري التلمساني" حياة الأزدي الحميدي صاحب "جذوة المقتبس" المذكور آنفًا، يخيل إلينا أننا أمام مواطن عالمي منوع غريب؛ فقد عاش وطلب العلم في كل من الأندلس ومصر ودمشق ومكة المكرمة وواسط وبغداد، وغيرها!!

فنحن بإيجاز شديد أمام ظاهرة يمكن أن نسميها بـ(الوحدة الحضارية) حتى وإن كان ثمة تفكك سياسي منتشر.

وهذه الوحدة الحضارية صهرت المغرب العربي في بوتقتها ولم تلبث أن جعلت انتماءه للحضارة الإسلامية انتماء وجود وكيان ومصير.

وفي ضوء هذا الذي ذكرناه بإيجاز تبدو محاولات الفصل بين العربي والبربر، وهي كذلك بين كل الأجناس الإسلامية في الحقيقة. عملية فصل بين أجزاء جسد واحد، وحضارة إسلامية تقوم في بنيتها الأساسية على الوحدة والتوحيد.

============

استانبول حاضرة الدولة العثمانية

الاثنين :٢٠٠٣/١٢/٢٢

(الشبكة الإسلامية) موسوعة الحضارة الإسلامية

مسجد أيا صوفيا تقع مدينة "استانبول" فى الجزء الأوربى من تركيا، فوق مدينة "القسطنطينية" الرومانية القديمة، وهى ذات طابع جغرافى فريد، إذ يحدها من الشمال

البحر الأسود ومن الشرق بحر مرمرة ومن الجنوب بحر إيجة ومن الغرب شريط ضيق من الأرض متصل بقارة أوروبا. وترجع أهمية هذا الموقع فى أنه يجعل استانبول أحد أهم نقاط الاتصال بين قارة آسيا وقارة أوربا، وأنها تعد من أحصن المواقع الاستراتيجية فى العالم، كما أنها تعد مفتاح أوربا من الشرق.

استانبول عبر التاريخ:*

دخلت مدينة "إسلام بول" التاريخ الإسلامى والعالمى لتحل محل مدينة "القسطنطينية" الرومانية القديمة منذ أن فتحها السلطان محمد الفاتح سنة (٨٥٧هـ) فغير اسمها إلى "إسلام بول" ثم حرفت إلى "استانبول" بعد ذلك، وقام السلطان محمد الفاتح بتغيير الكثير من معالم المدينة الرومانية القديمة فحول كنيسة "آيا صوفيا" إلى مسجد كبير، وقام بناء مسجد عند ضريح أبى أيوب الأنصارى مع أن هذا مخالف لنهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن بناء المسجد عند الأضرحة أو عليها ، وبعد ذلك أصبح تنصيب السلاطين يتم عند هذا المسجد.

وبعد وفاة بايزيد الثانى ابن محمد الفاتح، تسلم السلطة سليم الأول الذى ضم المشرق الإسلامى وشمال إفريقيا إلى الدولة العثمانية وانتقلت الخلافة الإسلامية من القاهرة إلى أستانبول.

واستمرت استانبول فى دورها التاريخى كحاضرة لدولة الخلافة العثمانية إلى أن انتقلت العاصمة من أستانبول إلى أنقرة وسط الأناضول عام (١٩٢٣م)، ورغم ذلك فمازالت تعيش المدينة ماضيها المتألق وذكريات مجدها الغابر وظلت قلب تركيا الثقافى والإقتصادى.

استانبول.. معالم وآثار *

١- قلعة روميلى حصار:*

وهى القلعة التى بناها السلطان محمد الفاتح تمهيدًا لفتح القسطنطينية ولإحكام الحصار حولها، وتعد قلعة روميلي حصارمن أهم معالم مدينة أستانبول التاريخية، وتتميز القلعة التى تطل على مضيق البوسفور بأسوارها وأبراجها العالية.

٢- مسجد آيا صوفيا:*

بعد أن تم فتح القسطنطينية عام (٨٥٧هـ) وقام السلطان محمد الفاتح بتحويل كنيسة "آيا صوفيا" إلى مسجد بعد أن أقام لها أربع مآذن، وظل مسجد آيا صوفيا من أبرز معالم أستانبول. إلى أن جاء أتاتورك وحول المسجد إلى متحف فى محاولة منه للتقرب إلى أوربا!!

** ٣- قصر طوبقابى:***

بناه السلطان محمد الفاتح بعد فتح القسطنطينية، وكان قصر طوبقابى مقر حكم آل عثمان لفترة طويلة، وحوله بيوت الوزراء والأصدقاء والعسكر، وتحول قصر طوبقابى الآن إلى متحف يضم مجموعة من أهم الآثار الإسلامية، وبه مقتنيات من كافة أنحاء العالم الإسلامى، وفى هذا المتحف يوجد "مصحف عثمان" وهو أول مصحف مدون بالخط الكوفى، وبردة النبى صلى الله عليه وسلم التى أهداها للشاعر كعب بن زهير، ومجموعة كبيرة من اللوحات والنقوش والزخارف والسيوف واللآلئ المحلى بها الخناجر والعروش والتى تظهر جميعًا روعة الفن الإسلامى.

٤- جسر البوسفور:*

وهو أشهر جسر فى العالم؛ فهو الوحيد الذى يربط بين قارتين، وهو رابع أطول جسر فى العالم، وهو عمل هندسى كبير يرتفع فوق سطح الماء (٦٤) مترًا ليسمح بمرور أعلى البواخر وأكبر الناقلات.

٥- جامع السليمانية: *

يقع فى منطقة السليمانية وهو من روائع فن العمارة الإسلامية، ولقد تفوق المسجد فى بنائه وتصميمه على "آيا صوفيا" رائعة العمارة البيزنطية، حيث يمتاز بسعته وارتفاعه، وتفرده بالمآذن الأربع، وقد صمم المبنى المهندس المعمارى الشهير "سنان" الذى يعتبر من رواد فن العمارة الإسلامية.

٦**- المكتبة السليمانية: ***

وهى واحدة من أكبر المكتبات فى العالم الإسلامى، أنشأها السلطان العثمانى سليمان القانونى عام (٩٥٧هـ/١٥٥٠م)، وصمم مبنى المكتبة المعمارى الشهير سنان، ويتبع المكتبة السليمانية الرئيسية المنسوبة إلى السلطان سليمان عدد من المكتبات الخاصة التى أنشأها أفراد.

ويبلغ عدد ماتحتويه المكتبة السليمانية من كتب مخطوطة ومطبوعة (٩٨٩٥٥)، منها (٦٤٢٦٧) مخطوطة معظمها باللغة العربية، (٨٩٩٢) والباقى بالفارسية والتركية. هذا مع العلم أن نظام حصر المخطوطات وإحصائها لا يذكر النسخ المكررة للكتاب الواحد.

وقسم الفهارس فى المكتبة أنشئ فى نهاية عام (١٩٧٩م) ومقره السليمانية وهو يضم ثلاثة فروع، فرع لفهرسة المخطوطات العربية، والثانى للتركية والثالث للفارسية.

==============

من أعلام الحضارة الإسلامية " ابن النفيس "

الاثنين :١٨/٠٨/٢٠٠٣

(الشبكة الإسلامية) إعداد : ربيع محمود

العرب والمسلمين ليسوا عالة على الحضارة الإنسانية كما يزعم أعداؤهم ، وإنما هم فاعلون ومبدعون فيها ، وعلى الأجيال العربية والإسلامية الشابة أن تعمق ثقتها بحضارتها ، وأن تستعد لاستعادة مكانتها عبر المشاركة الأوسع في البحث العلمي وفي الإبداع والابتكار والاختراع .

ابن النفيس عالم موسوعي فهو طبيب عام وطبيب كحال " عيون " وعالم بالمنطق والفقه والحديث وبعلم الأصول وباللغة العربية نحوها وصرفها ، وقد اشتهر بلقب ابن النفيس لنفاسة عقله وعمله .

وقد قيل فيه: (لم يوجد على وجه الأرض قاطبة مثيل له في الطب، ولا جاء بعد ابن سينا مثله. قالوا، وكان في العلاج أعظم من ابن سينا).

إن أول من تنبه إلى أخطاء جالينوس، ونقدها، ثم اكتشف الدورة الدموية الصغرى لم يكن سرفيتوس الأسباني، ولا هارفي الإنجليزي، بل كان رجلا عربيا من علماء الطب في القرن السابع الهجري الموافق للقرن الثالث عشر الميلادي، وهو ابن النفيس الذي وصل الى هذا الاكتشاف العظيم قبل هارفي بأربعمائة عام، وقبل سرفيتوس بثلاثمائة عام.

اسمه ونشأته

هو أبو الحسن علاء الدين علي بن أبي الحزم المعروف بابن النفيس ، وهو طبيب وعالم ولد بدمشق سنة ٦٠٧ هـ.

نشأ ابن النفيس بدمشق واخذ علوم الطب علي أيدي أطبائها وبخاصة علي يد كبير الأطباء مهذب الدين والدخوار صاحب مدرسة الدخوارية الطبية بدمشق ثم رحل ابن النفيس إلى مصر واستوطن بها في مدينة القاهرة وأصبح عميد البيمارستان أو المستشفى الناصري "مستشفى قلاوون حاليًا" الذي أنشأه السلطان قلاوون عام ٥٨٠ الهجري ، كما صار طبيبا خاصا للسلطان بيبرس البندقدارى ملك مصر والشام ، طوال السنوات الاثنتين والعشرين الأخيرة من عمر الظاهر بيبرس وفي القاهرة حظي ابن النفيس باحترام الأطباء والحكام والأمراء.

إنجازاته

لقد بقي العلم قروناً مصراً على تعاليم جالينوس وابن سينا ، وفجأة ظهر ثلاثة من العلماء الأوربيين يصفون الدورة الدموية في القرن السادس عشر بذات الألفاظ التي استخدمها ابن النفيس قبلهم بثلاثة قرون ، وهم ميشيل سرفتوس الإسباني الذي حكم عليه بالإعدام حرقاً بسبب مؤلفه اللاهوتي، وكولومبو في بادوا ، وأخيراً هارفي الإنجليزي الذي درس في بادوا وادعى أنه صاحب الاكتشاف .

ولكن الحقيقة هي "ابن النفيس" هو مكتشف الدورة الدموية الصغرى ، وقال : "إن الدم ينقي في الرئتين " قبل "سرفيتوس" بثلاثة قرون .

كان "ابن النفيس" مستقلاً في التفكير والرأي ويعارض الآراء وينقدها حتى ولو كانت من جالنيوس أو ابن سينا ، فخرج من ملاحظاته وخبراته إلى أن الدم ينساب من البطين الأيمن إلى الرئة ، حيث يمتزج بالهواء ثم إلى البطين الأيسر وهي الدورة التي نسميها اليوم بالدورة الدموية الصغرى . وكانت تلك خطوة كبرى اعتمد عليها الطبيب البريطاني هارفي الذي كشف سنة ١٦٢٨ م الدورة الدموية الكبرى

وقد سجل ابن النفيس اكتشافه هذا في كتابه :" شرح تشريح القانون لابن سينا" حيث يقول (والذي نقوله نحن والله أعلم ، أن القلب لما كان من أفعاله توليد الروح ، وهي إنما تتكون من دم رقيق جداً شديد المخالطة لجرم هوائي ، فلابد أن يحصل في

القلب دم رقيق جداً وهواء ليمكن أن يحدث الروح من الجرم المختلط منهما ، وذلك حيث تولد الروح وهو التجويف الأيسر)

وكان ابن سينا قد ذكر في كتابه القانون أن القلب به بطينان وأن أحدهما مملوء بالدم وهو البطين الأيمن وان الآخر مملوء بالروح وهو البطين الأيسر ، وأنه لا منفذ بين هذين البطينين البتة , وعارض ابن النفيس هذا الرأي ، حين أثبت بالتشريح أن الدم يذهب من البطين الأيمن ، عبر الوريد الشرياني إلى الرئة لينقي بها ويلطف جرمه ثم يعود من الرئة إلى البطين الأيسر وقد لطف جرمه وخالطة الهواء

وبالطبع لم تكن العدسات المكبرة قد اخترعت في عصر ابن النفيس ولم يتم الكشف عن الأوعية الشعيرية إلا بعد قرون ، وبذلك يكون ابن النفيس قد سبق عصره بقرون في اكتشافه للدورة الدموية

مؤلفاته

وكان ابن النفيس معتدًا بمصنفاته إذ نقل المؤرخون أنه قال : لولم أعلم أن تصانيفي تبقى بعدي عشرة آلاف سنة ما وضعتها .

ترك ابن النفيس عدداُ من المؤلفات، منها :

١ - "شرح تشريح القانون" وقد شرح فيه باب التشريح من كتاب القانون لابن سينا، وانتقد عدداً من أقواله في هذا الباب. وقد ظل هذا الكتاب مغموراً في المكتبات إلى أن عثر عليه الطبيب المصري الدكتور محي الدين التطاوي سنة ١٩٢٤ في مكتبة برلين، وقام بدراسته في رسالة لنيل دكتوراه من جامعة فريبورج بألمانيا.

ولهذا الكتاب عناوين مختلفة وفيه شرح غاية في الدقة ، للدورة الدموية الصغرى ، اى الدورة الدموية الرئوية وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية الطبيب الإيطالي " الباجو" لاول مرة في مدينة البندقية عام(٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م) وهي الترجمة التي رجع إليها الطبيب الإنجليزي " وليم هارفي " الذي يعزى إليه اكتشاف الدورة الدموية الكبرى وقد رجع إليها من قبله الطبيب البلجيكي : " فيزال".

يقول ميرهوف في هذا الصدد: (عندما قرأت المقطع الأول من هذا الموضوع . أي موضوع دوران الدم الرئوي، في شرح ابن النفيس، فوجئت بشبهه العظيم ببعض

عبارات سرفيتوس الأساسية، فكأن المقطع العربي قد ترجم ببعض التصرف إلى اللاتينية).

٢ ـ "الكتاب الشامل في الطب"، وهو موسوعة علمية هائلة سماها : "الشامل في الصناعة الطبية" وكان ينوي فيها أن تصل إلى ٣٠٠ مجلد ، كل مجلد يتناول موضوعًا بذاته وخلال ثلاثين سنة قام بإتمام ثمانين مجلدًا من موسوعته "الشامل" وتوفى قبل تبييض بقية كتب الموسوعة ،

٣ ـ "المهذب في الكحل"، وهو مؤلف عن الرمد وطب العيون .

٤ ـ "المختار في الأغذية "، وهو كتاب عن الغذاء والحمية.

٥ ـ "شرح فصول أبقراط"، توجد نسخة منه في المكتبة الوطنية بباريس والأسكوريال. وقد تم طبعه في إيران عام ١٢٩٨هـ/١٨٨١م.

٦ ـ "موجز القانون"، وهو موجز لقانون ابن سينا، يقع في خمسة أجزاء. وتوجد نسخ منه في كل من باريس وأكسفورد، وفلورنسا، وميونيخ، والأسكوريال. وطبع بالإنجليزية لأول مرة سنة ١٨٣٨م في مدينة كالكوتا بالهند تحت عنوان "المغني في شرح الموجز" .

ولم يكن هذا الكتاب مجرد تلخيص لكتاب الشيخ الرئيس ابن سينا الشهير (القانون في الطب) وإنما كان مراجعة نقدية علمية تجريبية ، وهذا ما يجعلنا نجد فيه النموذج الراقي لاسلوب الحضارة العربية الإسلامية في تأمل التجربة الإنسانية واستقرائها وإخضاعها للنقد فحصاً وتدقيقاً ، دون استسلام أو إذعان .

وله من المؤلفات أيضاً (شرح تقدمة المعرفة) لابقراط ، و(شرح مسائل حنين بن اسحاق) ، و(شرح الهداية في الطب) لابن سينا، و(بغية الفطن في علم البدن)

ومن مؤلفاته في غير المواضيع الطبية (الرسالة الكاملية في السيرة النبوية)، (وكتاب فاضل بن ناطق)، وهو مجاراة لكتاب (حي بن يقظان) لا بن طفيل، ولكن بطريقة دينية لا فلسفية

وفاته

عاش ابن النفيس طوال حياته مطيعا لربه أمينا لدينه، لا يشغله غير العلم والتعبد، حتى مرض ستة أيام نصحه فيها أصحابه من الأطباء في علته أن يتناول شيئا من

الخمر لتسكين الآلام، فأبى أن يتناول شيئا منه، وقال: "لا ألقى الله تعالى وفي بطني شيء من الخمر".

و توفي بمدينة القاهرة . التي أقام بها معظم حياته . في ٢١ ذو القعدة ٦٨٧ هـ عن عمر قارب الثمانين عاماً.

ولم يكن متزوجاً ، و ترك وصية وهب فيها داره ومكتبته إلى البيمارستان الناصري الذي قضى فيه معظم حياته.

=============

المساواة معلم من معالم الحضارة الإسلامية

الخميس :٢٠٠٣/٠٨/١٤

(الشبكة الإسلامية)

تقرير المساواة حقاً بين الناس من غير نظر إلى ألوانهم هذا جانب من جوانب الدعوة في حضارتنا الإسلامية.

فبعد أن أعلن القرآن مبدأ المساواة في قوله: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) [الحجرات:١٣]، وقف الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ليعلن في خطابه الخالد: "الناس من آدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى" ، ولم تكن هذه المساواة لتقف عند حدود المبادئ التي تعلن في مناسبات متعددة – كما يقع من زعماء الحضارة الحديثة اليوم – بل كانت مساواة مطبقة تنفذ كأمر عادي لا يلفت نظراً، ولا يحتاج إلى تصنع أو عناء، فقد نفذت في المساجد حيث كان يلتقي فيها الأبيض والأسود على صعيد واحد من العبودية لله عز وجل والخشوع بين يديه، ولم يكن الأبيض ليجد غضاضة أو حرجاً في وقوف الأسود بجانبه. ونفذت في الحج حيث تلتقي العناصر البشرية كلها من بيضاء وملونة على صعيد واحد وبثياب واحدة من غير تمييز بين أبيض وأسود واستعلاء من البيض على السود.

بل إننا لنجد ما هو أسمى من هذا، فقد أمر سول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً الحبشي يوم فتح مكة أن يصعد فوق الكعبة ليؤذن من فوقها ويعلن كلمة الحق، والكعبة هي الحرم المقدس عند العرب في الجاهلية، وهي القبلة المعظمة في

الإسلام، فكيف يصعد عليها عبد ملوّن كبلال ؟ كيف يطؤها بقدميه ؟ إن مثل هذا أو قريباً منه لا يتصور في الحضارة الحديثة في أمريكا إلى عهد قريب ، ولكن حضارتنا فعلته قبل أربعة عشر قرناً، فما كان صعود بلال على سطح الكعبة إلا إعلاناً لكرامة الإنسان على كل شيء وأن الإنسان يستحق هذه الكرامة لعلمه وعقله وأخلاقه وإيمانه لا لبشرته وبياضه، فما يقدم الإنسان بياضه إذا أخَّره عمله، ولا يؤخره سواده إذا قدمه ذكاؤه واجتهاده.

ولذلك لم يرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر رضي الله عنه وهو من أكرم صحابته أن يسب آخر فيقول له: يا ابن السوداء، لم يرض منه ذلك بل قرَّعه وقال له: "أعيَّرته بسواد أمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية" وهذا حدّ فاصل بين العلم والجهل بين الحضارة الإنسانية والحضارة الجاهلية.

إن الحضارة التي لا يستعلي فيها عرق على عرق ولا لون على لون هي الحضارة التي يصنعها الإنسان العاقل الكريم وتسعد بها الإنسانية الواعية الكريمة ، والحضارة التي يعلو فيها الأبيض ويمتهن فيها الأسود ، ويسعد بها ذوو البشرة البيضاء ، ويشقى بها الملونون هي الحضارة الجاهلية التي ترتد بها الإنسانية إلى الوراء مئات القرون عمياء متكبرة جاهلة حمقاء.

"إنك امرؤ فيك جاهلية" هذا وصف للحضارة الجاهلية التي تنادي بالتمييز العنصري، وهو ما كافحته حضارتنا في كل ميادين الحياة، في المسجد والمدرسة والمحكمة والقيادة ، مع الأصدقاء والأعداء على السواء .

لمَّا جاء المسلمون لفتح مصر وتوغلوا فيها حتى وقفوا أمام حصن بابليون رغب المقوقس في المفاوضة مع المسلمين، فأرسل إليهم وفدًا ليعلم ما يريدون، ثم طلب منهم أن يرسلوا إليه وفداً، فأرسل إليه عمرو بن العاص عشرة نفر فيهم عبادة بن الصامت، وكان عبادة أسود شديد السواد، طويلاً حتى قالوا إن طوله عشرة أشبار، وأمره عمرو أن يكون هو الذي يتولى الكلام ، فلما دخلوا على المقوقس تقدمهم عبادة بن الصامت فهابه المقوقس لسواده وقال لهم: نحّوا عني هذا الأسود وقدموا غيره يكلمني، فقال رجال الوفد جميعاً: إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا، وإنما نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه، وقد أمره الأمير دوننا بما

أمره، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله، فقال لهم: وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم وإنما ينبغي أن يكون هو دونكم؟ قالوا: كلا وإن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعاً وأفضلنا سابقة وعقلاً ورأيًا، وليس ينكر السواد فينا، فقال المقوقس لعبادة: تقدم يا أسود وكلمني برفق فإني أهاب سوادك، وإن اشتد كلامك علي ازددت لك هيبة، فقال عبادة – وقد رأى فزع المقوقس من السواد – : إن في جيشنا ألف أسود هم أشد سواداً مني.

ألا ترى إلى هذه الحضارة ما أروعها وأسمى إنسانيتها؟ لقد كان الناس جميعاً – حتى المتحضرون في القرن العشرين – يرون السواد منقصة، وكانوا لا يرون الأسود أهلاً لأن يكون في عداد البيض، فكيف يتقدمهم ويقودهم ويفضلهم في الرأي والعلم؟ فجاءت حضارتنا تحطم هذه المقاييس، وتسفه هذه الآراء، وتقدم الأسود على الأبيض حين يقدمه علمه ورأيه وشجاعته.

وليس عبادة بن الصامت إلا واحداً من هؤلاء السود الذين رفعتهم حضارتنا إلى مرتبة القيادة والزعامة.

وكان عبد الملك بن مروان يأمر المنادي في موسم الحج أن لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح إمام أهل مكة وعالمها وفقيهها، أتدرون كيف كان عطاء هذا؟ لقد كان أسود، أعور، أفطس، أشل، أعرج، مفلفل الشعر.. وكان إذا جلس في حلقته العلمية بين الآلاف من تلاميذه بدا كأنه غراب أسود في حقل من القطن! هذا الأسود الأعور الأفطس الأعرج جعلته حضارتنا إماماً يرجع إليه الناس في الفتوى، ومدرسة يتخرج على يده الألوف من البيض، وهو عندهم محل الإكبار والحب والتقدير.

ولقد كان في حضارتنا المجلون في كل ميادين العلم والأدب، وهم سود البشرة لم يمنعهم سوادهم أن يكونوا أدباء ينادمون الخلفاء كنصيب الشاعر، ولا فقهاء يؤلفون المراجع المعتبرة في الفقه الإسلامي كعثمان بن علي الزيلعي شارح الكنز في الفقه الحنفي، والحافظ جمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف الزيلعي (٧٦٢هـ) مؤلف الراية، وكلاهما أسودان من زيلع من بلاد الحبشة.

وليس من أبناء العربية من يجهل كافوراً الأخشيدي العبد الأسود وقد حكم مصر في القرن الرابع الهجري، وهو الذي خلده المتنبي في مدحه وهجائه.

وقصارى القول إن حضارتنا لم تعرف هذا التمييز العنصري بين البيض والسود، ولم يكن فيها مجتمعات خاصة للسود لا يساكنهم فيها أبيض، ولا اضطهاد خاص بهم يجعلهم محل نقمة البيض وازدرائهم، وإنما كانت حضارتنا إنسانية تنظر إلى الناس جميعاً بمنظار الحق والخير، ولا ترى البياض والسواد إلا بياض الأعمال وسوادها (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ) [الزلزلة:٧، ٨].

ولقد كان مثل هذا القول يبدو غريباً منذ خمسين سنة، فمن بدهيات الأمور أن الفريق بين البيض والسود عمل همجي لا تلجأ إليه حضارة راقية، وأن حضارتنا لم يكن منها أن تفعل ذلك وهي أشهر حضارة عرفت بنشر الإخاء والمساواة بين الناس، ولكننا منذ قيام هيئة الأمم وإعلان ميثاق حقوق الإنسان، نجد أنفسنا في حاجة إلى مثل هذا الحديث بعد أن رأينا وسمعنا الأحاديث المفجعة عن التمييز العنصري في جنوب أفريقيا وعن حالة الزنوج والملونين في أمريكا إلى عهد قريب.

ومن العجيب أن الذين ينادون بالتمييز العنصري وينزلون أشد المحن والبلايا بزنوج أمريكا ليسوا شرقيين حتى يتهموا بالرجعية والتأخر والهمجية كما هو شأن الغربيين في اتهام الشرقيين دائماً، وإنما هم دول راقية من أكبر الدول في هيئة الأمم! فأمريكا أكبر دولة تسيطر على هيئة الأمم، وانجلترا أكبر دولة في أوروبا تباهي بديمقراطيتها، وجنوب إفريقيا كانت إلى عهد قريب ممثلة في هيئة الأمم بطبقة من الحكام الأوروبيين البيض الذين استعمروا تلك المنطقة وأخذوا يتكلمون باسمها، ودول أمريكا الجنوبية لها مقام مرموق ورأي مسموع في أوساط هيئة الأمم. وهذه الدول هي التي تقوم في القرن العشرين بأبشع جريمة إنسانية عرفها التاريخ، جريمة اضطهاد الإنسان لأخيه الإنسان، لا لضعفه ولا لجهله بل للون بشرته!

وعلى مرمى النظر من البيت الأبيض في واشنطن وفي ظل نصب لنكولن التذكاري ينبسط حي بشع يعيش فيه مئتان وخمسون ألف زنجي ، كان إلى عهد قريب يحظر عليهم أن يدخلوا الفنادق والمطاعم والمسارح والمدارس والمستشفيات الخاصة بالبيض، حتى الكنائس، فقد دخل زنجي من جمهورية بناما كنيسة كاثوليكية في واشنطن، وفيما هو مستغرق في صلاته سعى إليه أحد القسس وقدم له قصاصة من ورق قد كتب فيها عنوان كنيسة زنجية كاثوليكية، وحين سئل القس عن سر هذا

التصرف أجاب: إن في المدينة كنائس خاصة بالكاثوليك الزنوج يستطيع هذا المرء الأسود أن يقف فيها بين يدي ربه!

وفي عام ١٠٠ من الهجرة أي منذ ثلاثة عشر قرناً شكت جارية سوداء تسمى فرتونة إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بأن لها حائطاً قصيراً يُقتحم منه عليها فيُسرق دجاجها، فأرسل عمر فوراً إليها يخبرها أنه أرسل إلى والي مصر يطلب إليه أن يصلح لها حائطها ويحصن لها بيتها، وكتب إلى واليه في مصر أيوب بن شرحبيل: إن فرتونة مولاة ذي أصبح قد كتبت إليَّ تذكر قصر حائطها وأنه يسرق منه دجاجها وتسأل تحصينه لها. فإذا جاءك كتابي هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصنه لها! فلما وصله الكتاب ركب بنفسه إلى الجيزة ليسأل عن فرتونة حتى عثر على محلها، فإذا هي سوداء مسكينة، فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين وحصن لها بيتها.

هذا ما فعلناه قبل أكثر من ثلاثة عشر قرناً.. وهذا مثل من حضارتنا.

"كتاب "من روائع حضارتنا " بتصرف كبير"

============

من خصائص الحضارة الإسلامية (٢/١)

الاربعاء:٠٢/٠٧/٢٠٠٣

(الشبكة الإسلامية) مصطفى السباعي (بتصرف)

يعرِّف الحضارة بعض الكاتبين في تاريخها بأنها " نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي " وتتألف الحضارة من العناصر الأربعة الرئيسية : الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون.

ولاطراد الحضارة وتقدمها عوامل متعددة من جغرافية واقتصادية ونفسية كالدين واللغة والتربية، ولانهيارها عوامل هي عكس تلك العوامل التي تؤدي إلى قيامها وتطورها، ومن أهمها الانحلال الخلقي والفكري، واضطراب القوانين والأنظمة، وشيوع الظلم والفقر، وانتشار التشاؤم أو اللامبالاة، وفقدان الموجهين الأكفاء والزعماء المخلصين.

وقصة الحضارة تبدأ منذ عُرف الإنسان، وهي حلقة متصلة تسلِّمها الأمة المتحضرة إلى من بعدها، ولا تختص بأرض ولا عرق، وإنما تنشأ من العوامل السابقة التي ذكرناها.

وتكاد لا تخلو أمة من تسجيل بعض الصفحات في تاريخ الحضارة ، غير أن ما تمتاز به حضارة عن حضارة إنما هو قوة الأسس التي تقوم عليها، والتأثير الكبير الذي يكون لها، والخير العميم الذي يصيب الإنسانية من قيامها ، وكلما كانت الحضارة عالمية في رسالتها ، إنسانية في نزعتها ، خلقية في اتجاهاتها ، واقعية في مبادئها ، كانت أخلد في التاريخ وأبقى على الزمن وأجدر بالتكريم.

وحضارتنا حلقة من سلسلة الحضارات الإنسانية، سبقتها حضارات وستتبعها حضارات. وقد كان لقيام حضارتنا عوامل، ولانهيارها أسباب

أبرز ما يلفت نظر الدارس لحضارتنا أنها تميزت بالخصائص التالية:

١ – الوحدانية المطلقة في العقيدة

– أنها قامت على أساس الوحدانية المطلقة في العقيدة ، فهي أول حضارة تنادي بالإله الواحد الذي لا شريك له في حكمه وملكه، هو وحده الذي يُعيد، وهو وحده الذي يُقصد (إياك نعبد وإياك نستعين) وهو الذي يعز ويذل، ويعطي ويمنح، وما من شيء في السموات والأرض إلا وهو تحت قدرته وفي متناول قبضته.

هذا السمو في فهم الواحدانية كان له أثر كبير في رفع مستوى الإنسان وتحرير الجماهير من طغيان الملوك والأشراف والأقوياء ورجال الدين، وتصحيح العلاقة بين الحاكمين والمحكومين، وتوجيه الأنظار إلى الله وحده وهو خالق الخلق ورب العالمين.

كما كان لهذه العقيدة أثر كبير في الحضارة الإسلامية تكاد تتميز به عن كل الحضارات السابقة واللاحقة، وهي خلوها من كل مظاهر الوثنية وآدابها وفلسفتها في العقيدة والحكم والفن والشعر والأدب، وهذا هو سر إعراض الحضارة الإسلامية عن ترجمة الالياذة وروائع الأدب اليوناني الوثني، وهو سر تقصير الحضارة الإسلامية في فنون النحت والتصوير مع تبريزها في فنون النقش والحفر وزخرفة البناء.

إن الإسلام الذي أعلن الحرب على الوثنية ومظاهرها لم يسمح لحضارته أن تقوم فيها مظاهر الوثنية وبقاياها المستمرة من أقدم عصور التاريخ، كتماثيل العظماء والصالحين والأنبياء والفاتحين.

وقد كانت التماثيل من أبرز مظاهر الحضارات القديمة والحضارة الحديثة؛ لأن واحدة منها لم تذهب في عقيدة الوحدانية إلى المدى الذي وصلت إليه الحضارة الإسلامية.

٢ – إنسانية النزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة

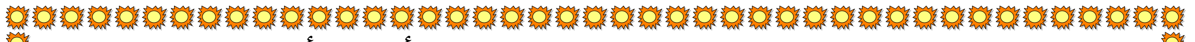
– وثاني خصائص حضارتنا أنها إنسانية النزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة، فالقرآن الذي أعلن وحدة النوع الإنساني رغم تنوع أعراقه ومنابته ومواطنه، في قوله تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)[الحجرات: ١٣].

إن القرآن حين أعلن هذه الوحدة الإنسانية العالمية على صعيد الحق والخير والكرامة جعل حضارته عقدًا تنتظم فيه جميع العبقريات للشعوب والأمم التي خفقت فوقها راية الفتوحات الإسلامية، ولذلك كانت كل حضارة تستطيع أن تفاخر بالعباقرة الذين أقاموا صرحها من جميع الأمم والشعوب، فأبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والخليل وسيبويه والكندي والغزالي والفارابي وابن رشد وأمثالهم ممن اختلفت أصولهم وتباينت أوطانهم، ليسوا إلا عباقرة قدمت فيهم الحضارة الإسلامية إلى الإنسانية أروع نتاج الفكر الإنساني السليم.

٣ – مراعاة المبادئ الأخلاقية تشريعًا وتطبيقًا

– وثالث خصائص حضارتنا أنها جعلت للمبادئ الأخلاقية المحل الأول في كل نظمها ومختلف ميادين نشاطها ، وهي لم تتخل عن هذه المبادئ قط ، ولم تجعل وسيلة لمنفعة دولة أو جماعة أو أفراد، ففي الحكم وفي العلم وفي التشريع وفي الحرب وفي السلم وفي الاقتصاد وفي الأسرة، روعيت المبادئ الأخلاقية تشريعًا وتطبيقًا، وبلغت في ذلك شأوًا ساميًّا بعيدًا لم تبلغه حضارة في القديم والحديث، ولقد تركت الحضارة الإسلامية في ذلك آثارًا تستحق الإعجاب وتجعلها وحدها من بين الحضارات التي كفلت سعادة الإنسانية سعادة خالصة لا يشوبها شقاء.

ها



٤ – الحضارة الإسلامية حضارة تؤمن بالعلم في أصدق أصوله ، وترتكز على العقيدة في أصفى مبادئها

– ورابع هذه الخصائص أنها تؤمن بالعلم في أصدق أصوله، وترتكز على العقيدة في أصفى مبادئها، فهي خاطبت العقل والقلب معًا ، وأثارت العاطفة والفكر في وقت واحد ، وهي ميزة لم تشاركها فيها حضارة في التاريخ.

وسر العجب في هذه الخاصة من خصائص حضارتنا أنها استطاعت أن تنشئ نظامًا للدولة قائمًا على مبادئ الحق والعدالة، مرتكزًا إلى الدين والعقدية دون أن يقيم الدين عائقًا ما دون رقي الدولة واطراد الحضارة، بل كان الدين من أكبر عوامل الرقي فيها، فمن بين جدران المساجد في بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغرناطة انطلقت أشعة العلم إلى أنحاء الدنيا قاطبة.

إن الحضارة الإسلامية هي الوحيدة التي لم يُفصل فيها الدين عن الدولة مع نجاتها من كل مآسي المزج بينهما كما عرفته أوروبا في القرون الوسطى.

لقد كان رئيس الدولة خليفة وأميرًا للمؤمنين، لكن الحكم عنده للحق والتشريع للمختصين فيه، ولكل فئة من العلماء اختصاصهم والجميع يتساوون أمام القانون، والتفاضل بالتقوى والخدمة العامة للناس " والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها " (رواه البخاري ومسلم)، " الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله "(رواه البزار). هذا هو الدين الذي قامت عليه حضارتنا، ليس فيه امتياز لرئيس ولا لرجل دين ولا لشريف ولا لغني (قل إنما أنا بشرٌ مِثْلُكم)[الكهف: ١١٠].

٥ – التسامح الديني العجيب

– وآخر ما نذكره من خصائص حضارتنا هذا التسامح الديني العجيب الذي لم تعرفه حضارة مثلها قامت على الدين. إن الذي لا يؤمن بدين ولا بإله لا يبدو عجيبًا إذا نظر إلى الأديان كلها على حد سواء، وإذا عامل أتباعها بالقسطاس المستقيم، ولكن صاحب الدين الذي يؤمن بأن دينه حق وأن عقيدته أقوم العقائد وأصحها، ثم يتاح له أن يحمل السيف، ويفتح المدن، ويستولي على الحكم، ويجلس على منصة القضاء، ثم لا يحمله إيمانه بدينه، واعتزازه بعقيدته، على أن يجور في الحكم، أو ينحرف عن سنن العدالة، أو يحمل الناس على اتباع دينه. إن رجلاً مثل هذا لعجيب أن يكون

في التاريخ، فكيف إذا وجد في التاريخ حضارة قامت على الدين وشادت قواعدها على مبادئه ثم هي من أشد ما عرف التاريخ تسامحًا وعدالة ورحمة وإنسانية ! وحسبنا أن نعرف أن حضارتنا تنفرد في التاريخ بأن الذي أقامها دين واحد ولكنها كانت للأديان جميعًا.

خاتمة

هذه هي بعض خصائص حضارتنا وميزاتها في تاريخ الحضارات، ولقد كانت بذلك محل إعجاب العالم، ومهوى أفئدة الأحرار والأذكياء من كل جنس ودين، يوم كانت قوية تحكم وتوجه وتهذب وتعلم، فلما انهارت وقامت من بعدها حضارة أخرى، اختلفت الأنظار في تقدير قيمة حضارتنا، فمن مزرٍ بها ومن معجب، ومن متحدث عن فضائلها، ومن مبالغ في الانتقاص منها، هكذا تختلف أنظار الباحثين الغربيين اليوم في حضارتنا، وما كانوا ليفعلوا ذلك لولا أنهم وهم الذين بيدهم مقاييس الحكم وعنهم تؤخذ الآراء، هم الأقوياء الذين يمسكون بدفة الحضارة اليوم، وإن الذين يُحكم عليهم وعلى حضارتهم هم الضعفاء الذين تتطلع أبصار الأقوياء إلى استلاب خيراتهم وحكم بلادهم بشره وجشع، ولعله هو موقف القوي من الضعيف يزري به وينتقص قدره. كذلك فعل الأقوياء في كل عصور التاريخ، إلا نحن يوم كنا أقوياء فقد أنصفنا الناس قويهم وضعيفهم، وعرفنا الفضل لأهله شرقيهم وغربيهم، ومن مثلنا في التاريخ، عدالة حكم، ونزاهة قصد، واستقامة ضمير ؟

ومن المؤسف أننا لم ننتبه تمامًا لعصبية الأقوياء ضدنا وجورهم في الحكم على حضارتنا، وكثير منهم إما متعصب لدين أعمت العصبية بصره عن رؤية الحق، أو متعصب لقومية حمله كبرياء القومية على أن لا يعترف لغير أمته بالفضل، ولكن ما عذرنا نحن في تأثرنا بآرائهم في حضارتنا ؟ فيم يزري بعض الناس من أبناء أمتنا بهذه الحضارة التي ركعت الدنيا أمام قدميها بضعة قرون ؟

لعل حجة المستخفين من قومنا بقيمة حضارتنا أنها ليست شيئًا إذا قيست بروائع هذه الحضارة الحديثة واختراعاتها وفتوحاتها في آفاق العلم الحديث، وهذا لو صح لا يبرر الاستخفاف بحضارتنا لسببين:

الأول: أن كل حضارة فيها عنصران: عنصر روحي أخلاقي، وعنصر مادي. أما العنصر المادي فلا شك في أن كل حضارة متأخرة تفوق ما سبقها، تلك هي سنة الله في تطور الحياة ووسائلها، ومن العبث أن تطالب الحضارة السابقة بما وصلت إليه الحضارة اللاحقة، ولو جاز هذه لجاز لنا أن نزري بكل الحضارات التي سبقت حضارتنا، لما ابتدعته حضارتنا من وسائل الحياة ومظاهر الحضارة ما لم تعرفه الحضارات السابقة قط، فالعنصر المادي في الحضارات ليس هو أساس التفاضل بينها دائمًا وأبدًا.

أما العنصر الأخلاقي والروحي فهو الذي تخلد به الحضارات، وتؤدي به رسالتها من إسعاد الإنسانية وإبعادها عن المخاوف والآلام، ولقد سبقت حضارتنا كل الحضارات السابقة واللاحقة في هذا الميدان، وبلغت فيه شأوًا لا نظير له في أي عصر من عصور التاريخ، وحسب حضارتنا بهذا خلودًا.

إن الغاية من الحضارة هي أن تقرب الإنسان من ذروة السعادة، وقد عملت لذلك حضارتنا ما لم تعمله حضارة في الشرق والغرب.

الثاني: أن الحضارات لا يقارن بينها بالمقياس المادي، ولا بالكمية في الأعداد والمساحات، ولا بالترف المادي في المعيشة والمأكل والملبس، وإنما يقارن بينها بالآثار التي تتركها في تاريخ الإنسانية، شأنها في ذلك شأن المعارك والممالك، فهي لا تقارن بينها بسعة الرقعة ولا بحساب العدد، والمعارك الفاصلة في التاريخ القديم والوسيط لو قيست بمعارك الحرب العالمية الثانية من حيث أعداد الجيوش ووسائل القتال لكانت شيئًا تافهًا، ولكنها لا تزال تعتبر معارك لها قيمتها البالغة في التاريخ لما كان لها من الآثار البعيدة.

إن معركة " كاني" التي هزم فيها القائد القرطاجي الشهير " هنيبال " الرومانيين هزيمة منكرة لا تزال من المعارك التي تدرّس في المدارس العسكرية في أوروبا حتى الآن. وإن معارك خالد بن الوليد في فتوح العراق والشام لا تزال محل دراسة العسكريين الغربيين وإعجابهم، وهي عندنا من الصفحات الذهبية في تاريخ الفتوحات العسكرية في حضارتنا. ومع هذا فما كان قدم معركة كاني أو معركة بدر أو معركة القادسية أو حطين ليحول دون النظر إليها على أنها معارك فاصلة في التاريخ.

=================

بغداد مدينة الحضارة والخلافة هدف للمدفعية الأميركية

الاربعاء:١٩/٠٣/٢٠٠٣

(الشبكة الإسلامية) – رويترز

بدأت القوات الأميركية والبريطانية التي يبلغ قوامها نحو ٣٠٠ ألف جندي بالاستعداد لشن هجوم على بغداد مدينة الحضارة الرابضة على ضفاف نهر دجلة باعتبارها الآن هدفا حربيا.

وتمتعت مدينة الخلفاء التي كانت عاصمة العالم الإسلامي لمئات السنين بنفوذ قوي لدى ملايين العرب وتاريخ عريق كحاضرة للثقافة والعلم. فقد كانت بغداد مركزًا مزدهرًا للعلم والفلسفة والأدب في القرن التاسع الميلادي وتربعت على الذروة عندما كانت أوروبا تعيش في ظلمة القرون الوسطى وقبل قيام الولايات المتحدة بنحو ١٠٠٠ عام.

وأحدث تدمير بغداد على أيدي المغول عام ١٢٥٨ فاجعة في العالم الإسلامي وقت اضمحلال الثقافة والعسكرية العربية التي امتد نفوذها إلى مختلف أرجاء المعمورة. ولكن العراقيين يعتقدون الآن أن المدينة لا تزال عزيزة على قلوب العرب في كل مكان. وقال رئيس قسم التاريخ بجامعة بغداد صادق الحلو: "تنظر الأمتان العربية والإسلامية إلى بغداد كعاصمة سابقة للدولة الإسلامية.. إنها ليست مدينة بسيطة ولكنها تراث دينهم وحضارتهم وثقافتهم".

ولا تزال بغداد تفخر بأنها قدمت بعض أفضل الشعراء والكتاب والفنانين في الشرق الأوسط. وقد وصفها وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل في مقابلة صحفية بأنها "زهرة الحضارة العربية والإسلامية".

اضمحلت قوة بغداد ولكنها استمرت مقر الخلافة الإسلامية إلى أن دمرها هولاكو حفيد زعيم المغول جنكيز خان عام ١٢٥٨ في هجوم قال الرئيس العراقي صدام حسين إن الولايات المتحدة تدبر مثله "هولاكو العصر الحديث يهاجم أمكم.. الحضارة العراقية". وأضاف أن سكان بغداد مصممون على إجبار الأميركيين على الانتحار على أسوارها.

وتبقى القليل من بقايا الماضي التليد في بغداد الحديثة التي تضم خمسة ملايين نسمة. وتعبر طرق علوية شيدت وقت الطفرة النفطية في السبعينيات فوق بيوت مبنية بالطوب. وحالت حرب باهظة التكاليف مع إيران استمرت ثماني سنوات وهزيمة في حرب الخليج عام ١٩٩١ وعقوبات دولية منذ ١٢ عاما دون تطوير العراق. ولكن تشمخ في أفق المدينة نصب تذكارية هائلة ومساجد ضخمة وقصور رئاسية فخمة. وغادر المدينة عدد كبير من السكان في الأيام الأخيرة إلى أماكن بعيدة مثل سوريا المجاورة في حين بقي آخرون رغم أن الحرب على الأبواب.

ومن جهته قال رئيس مركز الوثائق ببغداد ظفر عبد القادر الذي يضم سجلات تاريخية عن المدينة: "نحن فخورون بالمدينة.. أمضي أغلب الوقت في الخارج.. ولكن أشعر دائما بالحنين إليها.. كانت مركزا للحضارة عندما كان طالبو العلم يحضرون إلى هنا للدراسة، وحاليا يسافرون إلى الولايات المتحدة. ورغم الحديث عن الحرب والهجوم فإننا لا نزال هنا".

================

الحضارة الإسلامية الأعظم تأثيرًا في أسبانيا

السبت :٢٠٠٢/٠٦/٢٢

(الشبكة الإسلامية) لندن . حافظ الكرمي

أكدت المستشرقة الأسبانية "مانويلا كوريتز جارسيا" أن الحضارة الإسلامية والعربية كانت أكثر الحضارات تأثيرًا في أسبانيا ، حيث عاش المسلمون هناك ثمانية قرون – من القرن الثامن الهجري حتى القرن الخامس عشر – تركوا خلالها تراثا ثقافيّا وحضاريّا ضخمًا جعل من أسبانيا الجسر الذي يصل بين العرب والمسلمين من ناحية وأوروبا من ناحية أخرى ، واشتهر من العلماء المسلمين في الأندلس ابن سينا وابن رشد وابن فرناس وابن زهير الذي مازالت عائلته موجودة حتى الآن .

وأضافت الدكتورة مانويلا، الحاصلة على الدكتوراة في فقه اللغات السامية والمتخصصة في التراث العربي: أن تأثير العرب والمسلمين في أسبانيا امتد إلى الحياة التجارية في أسبانيا ، حيث أسسوا الموانئ البحرية والبرية ، وبنوا المنارات

والخانات التي تشبه الفنادق حاليا ، كما وضعوا القوانين التي تنظم العمل التجاري ، وعملوا – أيضا – على تنشيط التبادل التجاري بين الشرق وأوروبا .

وأشارت مانويلا جارسيا في حوار مع مجلة " المرأة اليوم " الإماراتية إلى أن الأسبان ينظرون إلى التراث العربي والإسلامي أيام الأندلس كجزء من تاريخ أسبانيا ، وهناك ٦ آلاف كلمة ذات أصول عربية في اللغة الأسبانية ، وتوجد مدن وعشائر وعائلات ذات أصول عربية ، كما أنه بعد ٢٠ عاما من الآن سيكون للمسلمين حضورًا قويّا في أسبانيا خاصة في غرناطة والعديد من المدن مثل مدريد التي أصبحت مليئة بالمساجد والمدارس العربية والمقابر الخاصة بالمسلمين

وأوضحت جارسيا: أنه يوجد في أسبانيا حتى الآن الكثير من التراث العربي الإسلامي ، خاصة في مدينة قرطبة ، ومن أبرز معالم هذا التراث قصر الحمراء في غرناطة ، كما توجد آثار أخرى مختلفة وتراث فكري وعلمي وموسيقي ، إضافة إلى أن الحضارة العربية والإسلامية تدرس في المدارس ، ويوجد ٢٥ قسمًا للدراسات العربية والإسلامية في جامعات أسبانيا .

وكشفت عن أن العديد من المثقفين الأسبان يشاركون نظرائهم العرب في النظر إلى الأندلس على أنها الفردوس المفقود، نظرًا لما تحقق من إنجازات في مختلف المجالات خلال فترة حكم المسلمين والعرب.

===============

من معالم الحضارة الإسلامية في فلسطين

الاثنين :١٥/٠٤/٢٠٠٢

(الشبكة الإسلامية) الدكتور مروان خلف – الإيسيسكو

أصدرت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) كتابا جديدا بعنوان (من معالم الحضارة الإسلامية في فلسطين) لمؤلفه الدكتور مروان خلف الأستاذ بالمعهد العالي للآثار الإسلامية في جامعة القدس.

ويبرز الكتاب المكانة السامية لفلسطين عند المسلمين ، ويستعرض الأطوار التاريخية التي تعاقبت عليها منذ الفتح العُمَرِي لها في السنة الخامسة عشرة للهجرة (٦٣٦م) ، مرورا بعهود الأموين والعباسيين والفاطميين والأيوبيين والمماليك فالعثمانيين ، حيث

كانت فلسطين من سنة ٩٢٢هـ (١٥١٦م) إلى سنة ١٣٣٧هـ(١٩١٨م) جزءا من الدولة العثمانية إلى أن أخضعت بموجب قرار عصبة الأمم للإنتداب البريطاني في عام ١٩١٨م ، وإنتهاء بالاحتلال الصهيوني لها ، وقيام إسرائيل على أرضها في عام ١٩٤٨م ، ثم احتلال القدس والضفة الغربية من طرف سلطات الاحتلال الإسرائيلية في عام ١٩٦٧م .

ويعرض المؤلف للعمارة الإسلامية في فلسطين في استفاضة ، فيعرف بها في نسق دقيق ، وتتمثل العمارة الإسلامية في المساجد والجوامع والخانات والزوايا والتكايا والأربطة والقلاع والأسوار والجسور والحمامات ، إضافة إلى الخوانق والأسبلة والمنشآت المائية .

ويبدأ المؤلف بمسجد القبة المشرفة التي يصفها بأنها إحدى أهم المعالم المعمارية الإسلامية في العالم ثم المسجد الأقصى المبارك ، الذي هو القبلة الأولى للمسلمين وثاني مسجد بني لعبادة الله وحده وثالث الحرمين الشريفين ، ثم مسجد عمر بن الخطاب الذي أقيم على المكان الذي صلى فيه الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه عندما فتح القدس فالمسجد الإبراهيمي في الخليل .

ثم يعرض المؤلف لمساجد وجوامع كثيرة في فلسطين ، منها مسجد الشيخ علي البكاء في الخليل والجامع الأبيض في الرملة وجامع الجزار في عكا والجامع الكبير في جنين والجامع الأحمر في صفد وجامع البحر في عكا والمسجد الكبير في طبريا والجامع العمري الكبير وجامع السيد هاشم في غزة ومسجد النصر في حيفا والجامع الكبير في يافا .

فيعرف بها من الناحيتين التاريخية والمعمارية الفنية ، وينشر صورا وتصاميم هندسية لها على النحو الذي يقدم صورة شاملة للمظاهر العمرانية الشاهدة على ازدهار الحضارة الإسلامية في فلسطين.

===============

في بريطانيا : أسبوع الإسلام والحضارة الإسلامية

السبت :٢٠٠١/٠٨/١٨

(الشبكة الإسلامية) لندن – الشبكة الإسلامية

في سابقة تعكس زيادة اهتمام المجتمع البريطاني بالإسلام ، وفي ظل توتر عرقي شديد كان نتاجه اضطرابات عمت شمالي بريطانيا بين البريطانيين من أصول انجلوساكسونية وبريطانيين مسلمين من أصول هندية بدأت هيئة الإذاعة البريطانية "بي بي سي" عبر قناتها التلفزيونية الثانية اعتبارًا من السبت ١١-٨-٢٠٠١م أسبوعًا للتعريف بالإسلام في عدد من البرامج الوثائقية، ويحمل أول برنامج تعرضه القناة الثانية ذات الصبغة التعليمية اسم "الحج" ويعرض قصة ٣ بريطانيين مسلمين يؤدون فريضة الحج بمكة المكرمة، ويشمل الأسبوع التثقيفي ٩ برامج هدفها رسم صورة إيجابية عن حياة المسلمين في بريطانيا اليوم.

وتلقي سلسلة هيئة الإذاعة البريطانية الجديدة الضوء على تاريخ الإسلام، لكنها تركِّز أكثر على المسلمين البريطانيين؛ لتعكس صورة مشرقة لواقع الجالية الآخذة في النمو والتي تتبوأ مواقع أكثر في الحياة العامة بعد عقود طويلة من العزلة ، وتسهم السلسلة في إزالة الكثير من الشكوك والمخاوف إزاء المسلمين ، في ظل الحملة الإعلامية المستعرة ضدهم منذ اندلاع انتفاضة الأقصى في فلسطين إذ تعرض السلسلة التلفزيونية لشخصيات بريطانية مسلمة من الجيل الثاني والثالث، وهم الذين يتقنون الإنجليزية كلغتهم الأم، ولا يعرف كثير منهم وطنًا غير بريطانيا.

ومن البرامج المعروضة خلال هذا الأسبوع :الإسلام إمبراطوريات الإيمان ، الذي عرض على ثلاث حلقات بدأت مساء الإثنين ١٣-٨-٢٠٠١م، ويعرض قصة انتشار الإسلام والعقيدة خلال السنوات الألف الأولى من تاريخ الإسلام، ومن خلال برنامج بعنوان "اسمي أحمد" وعرض مساء الثلاثاء ١٤-٨-٢٠٠١م، ويسعى القائمون على السلسلة إلى التعريف بالإسلام، وكيفية اندماج المسلمين في مجتمعهم البريطاني، من خلال أشخاص يحملون اسم أحمد، أحد أكثر الأسماء انتشارًا في العالم الإسلامي.

أما برنامج "المسجد" الذي عرض مساء الثلاثاء أيضًا فيعطي البريطانيين فرصة للدخول من خلال العدسة إلى حياة المسلمين البريطانيين والتعرف أكثر على دينهم وهويتهم، وأسلوب عيشهم، ويركِّز بشكل رئيسي على المسجد المركزي في مدينة بيرمنجهام، التي تضم واحدًا من أكبر تجمعات الجالية المسلمة في المملكة المتحدة.

ويوم الأربعاء ١٥-٨-٢٠٠١م عرض القناة الثانية برنامج دليل البرنس نسيم إلى الإسلام، ويقدم هذا البرنامج الشائق بطل الملاكمة البريطانية المسلم نسيم حميد – اليمني الأصل – المشهور بلقب "برنس" (الأمير)؛ إذ تستغل السلسلة شهرة نسيم وشعبيته الواسعة في عرض دليل مبسط لغير المسلمين؛ من أجل فهم أفضل للعقيدة الإسلامية، ولدحض بعض المفاهيم المغلوطة عن الإسلام والمسلمين.

وفي برنامج "واجهة المنزل.. خاص بالإسلام " يعرض مقدما برنامج "واجهة المنزل" الشهير على تلفزيون "بي بي سي" " لورنس ليويلين بووين" و" ديزمود غافين " اللذان يقدمان عادة برنامجًا يعيدان فيه تصميم بيوت أشخاص مختارين أمام عدسات الكاميرا مهمة خاصة لإعادة تصميم منزل زوجين بريطانيين مسلمين وحديقة المنزل، ولكن بما يناسب حياتهما كمسلمين، ويحاولان الاستفادة من الفن الإسلامي في العمارة.

ويعرض أحد البرامج لظاهرة الخوف من الإسلام (الإسلاموفوبيا) من خلال قصص أشخاص تعرضوا للتمييز؛ لأنهم مسلمون، ويناقش قضايا الدين، والمجتمع، والحرية، والمسؤولية في هذا الإطار،

وفي برنامج آخر تعرض السلسلة لدور الرياضة في حياة الشبان المسلمين البريطانيين، واعتقادهم بأن ممارسة الرياضة جزء من عقيدتهم، وترصد نشاط نادٍ رياضي في لندن معظم أعضائه من المسلمين الآسيويين الذين شاركوا في منافسات رياضية بكرة القدم.

ومن ناحية ثانية قالت مصادر في "جمعية الروم" في المملكة المتحدة : إن منظمات إسلامية وهيئات عدة، مسلمة وغير مسلمة في بريطانيا تنظم على هامش هذا الأسبوع أنشطة مستقلة عن أنشطة هيئة الإذاعة البريطانية، في سبيل مواكبة التعريف بالإسلام والمسلمين في البلاد، وتستمر هذه الأنشطة حتى نهاية شهر سبتمبر ٢٠٠١ م.

وأوضحت مصادر الجمعية المعنية بالنشاطات الثقافية والتي تضم في عضويتها مسلمين وغير مسلمين أن الأنشطة تشمل: منتديات، ومحاضرات، وأنشطة ثقافية، ومعارض، وورش عمل، وبرامج ترفيهية، وبيع كتب وأشرطة،وتتناول قضايا

وموضوعات إسلامية معاصرة، أهمها: التعريف بالإسلام والإيمان بالله تعالى والإسلام والعلوم والمرأة في الإسلام، وتاريخ الإسلام في بريطانيا، وردّ الإسلام على العنصرية، ومشكلة المخدرات في الجالية المسلمة، والفهم الخاطئ لدين الإسلام، وتحديات الألفية الجديدة، والشباب المسلم، والتراث الإسلامي (الفن والثقافة)، وحياة الأسرة المسلمة في بريطانيا، والتوعية الصحية، وإنجازات الكفاءات المسلمة في بريطانيا.

وتشارك في تنظيم هذه الأنشطة مؤسسات عديدة تضم: منتدى الشابات المسلمات، والجمعية الإسلامية في بريطانيا، والبعثة الإسلامية في بريطانيا، والرابطة الإسلامية في بريطانيا، ومنتدى الدراسات الاجتماعية، واتحاد جمعيات الطلبة المسلمين في الجامعات البريطانية "فوسيس"، والجمعية السكنية الإسلامية في شمال لندن، ومنتدى لندن المدني، ومنتدى المسلمين النيجيريين، والندوة العالمية للشباب الإسلامي، وجمعية العالم الإسلامي، والمركز الإسلامي في غرب لندن، والمعهد الإسلامي، ومنظمة "الشبان المسلمون"، ومجلس تعزيز التفاهم العربي البريطاني "كابو"، واتحاد المنظمات الإسلامية في بريطانيا، والمركز الثقافي الإسلامي، وجمعية المحامين المسلمين، ومؤسسة الخوئي، ومعهد الفكر السياسي الإسلامي، والصندوق الفلسطيني للإغاثة والتنمية، ومؤسسة الأمير (تشارلز) للفنون الإسلامية والتقليدية، والمنتدى ضد الإسلاموفوبيا والعنصرية "فير"، فضلاً عن بعض المساجد ومكتبات عامة بريطانية.

وتقدَّر بعض الإحصاءات غير الرسمية عدد المسلمين في بريطانيا بثلاثة ملايين نسمة، من أصل عدد سكان البلاد البالغ ٥٨,٣ مليون نسمة، بينما تشير الإحصاءات شبه الرسمية التي يلجأ إليها قادة الأحزاب السياسية البريطانية إلى أن عدد المسلمين البريطانيين هو ١,٥ مليون نسمة، أي أنهم يشكلون بمفردهم ٢,٦%.

ومن المتوقع أن يكشف الإحصاء الرسمي للسكان لعام ٢٠٠١م، الذي أُجري مؤخرًا عن أرقام أدقّ بالنسبة لأتباع الديانات في بريطانيا، بعد إضافة بند في التعداد السكاني يخص الدين، في كل الأقاليم ما عدا إقليم إسكتلندا، وحسب الإحصاءات الرسمية فإن سكان بريطانيا يتوزعون على ستة أديان رئيسة، هي البروتستانتية

٥٥%، والكاثوليكية ١٠%، ويشكِّل المسلمون واليهود والهندوس والسيخ مجتمعين نسبة ٢%.

ومعروف أن في بريطانيا اليوم نحو ١٠ لغات رئيسة ينطق بها السكان ذوو الأعراق المختلفة، تشمل الإنجليزية والويلزية والغايلية (الإسكتلندية)، وبينها العربية والأردية والبنجابية (الهندية) ولغات أوروبية، غير أن بريطانيا لا تعترف رسميًّا بغير الديانة الإنجليكانية، وهي دين الكنيسة الإنجليزية الرسمية.

==============

#دراسة التاريخ الإسلامي

تاريخ الإستشارة : ...

الموضوع : ... استشارات ثقافية وفكرية

السائل : ... محمد الخالدي

السؤال

بسم الله الرحمن الرحيم

أنا شاب لدي ثقافة إسلامية لا بأس بها في الفقه والحديث والسيرة، إلا أنني أطمح في المزيد ، فأريد أن تدلوني – مشكورين– على مرجع أفهم من خلاله التاريخ الإسلامي ابتداءً من عصر الفتنة بعد مقتل الصحابي الجليل عثمان إلى سقوط الدولة العثمانية، ويكون هذا المرجع مبسط ومختصر، كما أنني أحب أن أطلع على التاريخ الأوربي القديم والحديث، وأريد أن تدلوني على مراجع لهما، وإذا كانت المراجع متوفرة على الإنترنت فهذا سوف يكون أسهل علي ؛ وذلك بسبب صعوبة الحصول على الكتب العربية الجيدة في البلد الذي أعيش فيه ، ولكم جزيل الشكر والثواب.

الجواب

بسم الله الرحمن الرحيم

الابن الفاضل/ محمد الخالدي حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد،،

نسأل الله العظيم أن يرزقك العلم النافع، والعمل الصالح، ونسأله تبارك وتعالى أن يرزقنا جمعياً الإخلاص في القول والعمل، وأن يلهمنا رشدنا ويعيذنا من شرور أنفسنا وبعد،،

فإن طلب العلم أفضل من كل نافلة، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، ولا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم، فإن ظن أنه علم فقد جهل، والعلم عميق بحره، والسعيد يأخذ من كل فن بطرق شريطة أن يبدأ بتحصيل العلوم الواجبة على كل مسلم، وهي ما تصح به العقيدة والعبادة، وما يتمكن به من التعامل مع الخلق بما يرضي الخالق، وفقه الضوابط الشرعية للعمل الذي يتكسب من ورائه رزقه.

ولا بأس بعد ذلك بالتوسع في دراسة العلوم، والأفضل أن تؤخر دراسة التاريخ الأوربي وتجعله في مرحلة لاحقه حتى لا يصادف قلباً خالياً فيتمكن منه، وهذا خطأ يقع فيه كثير من المبهورين بحضارة الغرب، ثم يسارع بعد ذلك بانتقاص التاريخ والحضارة الإسلامية التي يجب أن نتذكر أنها هي التي أضاءت أوروبا وغيرها من بلاد الدنيا.

كانت أوروبا ظلاماً ضل سالكه **** وشمس أندلس بالعلم تهديه

كنا أساتذة الدنيا وقادتها **** والغرب يخضع إن قمنا نناجيه

واليوم تفنا لعز فرَّ من يدنا **** فهل يعود لنا ماضٍ نناجيه؟

في العلم والأخلاق مجدكم **** هذا البناء الذي يعلو ببانيه

وعندما نقلب صفحات التاريخ الإسلامي يجب أن نصطحب معاني هذا الدين ونحسن الظن بسلفنا الأبرار، فمن الخطأ قراءة التاريخ الإسلامي بنظرة مادية مجردة، لأن في ذلك تفريغ لهذه الحضارة العظيمة في معانيها الإنسانية والإيمانية، وهذا ما قصده كثير من أعدائنا الذين تناولوا تاريخنا، وما أكثر المظلومين في التاريخ الإسلامي، والإنصاف يقتضي أن نذكر المحاسن إلى جوار المساوئ، وإذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبيث.

ومن الكتب المهمة جداً لمن يرغب في دراسة التاريخ الإسلامي، كتاب العواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي، وكذلك ما كتبه ابن تيمية في هذا الجانب بالإضافة لمؤلفات الدكتور/ عبد العظيم الديب، ومؤلفات د/عماد الدين خليل ، والأستاذ/ عبد

العظيم علي شعوة، وأشرطة الدكتور/ الدعيج، وكتابات الدكتور/ عبد العزيز الحميدي وغيرهم من الفضلاء.

وإذا درس الإنسان التاريخ فكأنما أضاف أعماراً إلى عمره، والمطلوب هو الحرص على التحقق من صحة المعلومات التاريخية، والتأكد من خلو مؤلفاتها من الأغراض السيئة، فقد كان للفرق الضالة تشويه للتاريخ وظلم للعظماء.

وقد انتبه لهذا أهل الاختصاص في الجامعات الإسلامية، وهناك مشاريع علمية ضخمة لتحقيق التاريخ الإسلامي، وبيان الروايات الواهية والموضوعة التي ضخمها ورددها أهل الشر في كل زمان ومكان.

وبالله التوفيق.

المجيب : ... د. أحمد الفرجابي

==============

كيف نعالج أسباب ضعف الأمة الإسلامية

تاريخ الإستشارة : ... ٢٠٠٦-٠٢-١٤ ١٠:٤١:٥٤

الموضوع : ... استشارات الأسرة والمجتمع

السائل : ... ****

السؤال

ما هي أسباب ضعف الأمة الإسلامية؟ وكيف يمكن أن نعالج هذه الأسباب؟

وشكرا.

الجواب

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ الفاضل/ حفظه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد،،،

فنحن أمة تنتصر بطاعتها لله واتباعها لرسولها، وتنكسر بعصيانها لله وبعدها عن شرعه وهداه، ولعل في هذا اختصارٌ لأسباب السقوط، وما أحوجنا إلى قراءة تاريخ أمتنا بتأنٍ وروية لاستخلاص العبر، وأرجو أن نعرف أن أعداءنا اليهود درسوا تاريخنا وحضارتنا ووقفوا على أسباب نهضتنا فحالوا بيننا وبينها، ولا يستطيع رجلٌ

منهم أن يصل إلى مواضع القرار إلا إذا تعمق في دراسة الحضارة الإسلامية، وقد أيقنوا أنهم لن يتمكنوا من هزيمة المسلمين إلا إذا أسقطوا الخلافة الإسلامية التي كانت رمزاً لوحدتنا، وأبعدوا الشريعة الإسلامية التي أخرجت للدنيا خالداً والقعقاع والمثنى.

وعندما صدق سلفنا مع الله مشوا على سطح الماء، وكانت الدنيا في خدمتهم ومطر السماء، وقد صدق سلمان عندما قال لسعد بن أبي وقاص: (إن هؤلاء صادقون مع الله ولذلك أيدهم وسخر لهم البحر كما سخر لهم البر، وأخشى أن يأتي يوم يتخلى فيه المسلمون عن طاعة الله فيتأخر عنهم نصر الله)، وقد بكى أبو الدرداء عند فتح قبرص، فقيل له: (تبكي في يوم نصر الله فيه دينه وأعز فيه جنده. فقال رضي الله عنه: أبكي على حال هؤلاء الذين عصوا الله فسلطنا عليهم، وأخشى أن يأتي يوم يقصر فيه المسلمون في طاعة الله فيسلط عليهم عدوهم) ولا شك أن الحالة التي خاف منها سلمان واليوم الذي أشفق منه أبو الدرداء هو ما وصلنا إليه.

وإذا تتبع المسلم أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وقبل ذلك آيات القرآن وقف على جملةٍ من عوامل الضعف والهزيمة، فقد جاء في سياق الحديث عن غزوة أحد قوله تعالى: {ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة}.

ومن هنا يتضح لنا أن الاختلاف وعصيان الرسول، ومخالفة الأوامر، وحب الدنيا، من أسباب الضعف والانكسار.

وإذا نظر الإنسان في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: أومن قلةٍ نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت).

وإذا تأمل الإنسان غثاء السيل فإنه يلاحظ فيه جملةً من أسباب الضعف والخور، فغثاء السيل ليس له قبلة ولا وجهة ولا هوية، وغثاء السيل يفتقر إلى النظام، وفيه معنى الخلاف، فليس بين أجزائه رابط، وغثاء السيل تبعٌ لحركة الماء، وهل أضاعنا

إلا الدخول في حجر الضب خلف أمم الغرب مع شدة ظلام حجر الضب وشدة ضيقه ونتن رائحته.

وللضعف أسبابٌ أخرى عديدة، منها ما يلي:

١- الغزو الفكري والمتمثل في سبيل الشبهات.

٢- حرب المخدرات والشهوات.

٣- التنعم وعباد الله ليسوا بالمتنعمين.

٤- ضعف مناهج التعليم، وضعف طرق تدريسها.

٥- الغزو الإعلامي مع غياب دور الأبوين في التوجيه والرعاية.

٦- غياب الشريعة، والقعود عن الجهاد.

٧- الدعوات القومية والوطنية التي فصلتنا عن تاريخنا المجيد وفرقت جمعنا.

٨- الجهل والبدع.

وإذا أراد الإنسان أن يختصر أسباب النصر فإنه يستطيع أن يقول: إن الله أعزنا بالإسلام فمتى ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله، وإذا تركت الأمة الجهاد كتب الله عليها ذلاً لا ينزعه حتى يراجعوا دينهم، فالعودة إلى الله سببٌ لكل خير، والبعد عن الله سببٌ لكل شرٍ وهوان.

ولا بد من تربية جيل النصر المنشود على كتاب الله ومائدة السنة النبوية الشريعة، وإعادة النظر في مناهجنا، وخاصةً الجوانب الحضارية المشرقة التي تعهد الأعداء إخفائها وتشويهها، والخير باقٍ في أمة النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فإن أمتنا لا تموت، ونحن نحتاج إلى لحظة صدق مع الله، وأحسن الشاعر حين قال:

ولو صدقوا وما في الأرض نهرٌ ** لأجرينا السماء لهم عيوناً

ولأخضعنا لملكهم الثريا ** وصيرنا النجوم لهم حصوناً

وقال تعالى: {وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقا}.

والله ولي الهداية والتوفيق.

المجيب : ... د. أحمد الفرجابي

=============

#سرُّ تخلف المسلمين في العلوم المعاصرة

تاريخ الفتوى : ... ٢٧ ذو القعدة ١٤٢٣ / ٣٠-٠١-٢٠٠٣

السؤال

لماذا تأخر المسلمون في التكنولوجيا المعاصرة ؟

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أما بعد:

فهناك أسباب كثيرة أدت إلى تخلف المسلمين في التكنولوجيا الحديثة، ويأتي على رأسها وفي طليعتها الإعراض عن الكتاب والسنة، وليس أدل على ذلك من واقع المسلمين المشرق يوم كانوا متمسكين بكتاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم حين دانت لهم الدنيا، وفتحوا البلاد وقلوب العباد، فأخذوا بمفاتيح العلوم وسنن الله في الكون، وعملوا بالأسباب، ولذا تنوعت الكشوفات والاختراعات العلمية في شتى الفنون تلك التي كانت مرتكزاً بنى على أساسه الغرب صرح حضارتهم المدنية الحديثة، وإن أدَّعَوا كذباً وزوراً عكس ذلك.

ثم تخلف المسلمون حين تركوا تعاليم دينهم، ولم يأخذوا بعامل التقدم التي أخذ بها غيرهم، وهي سنن من سار عليها وصل، ورحم الله من قال:

إني تذكرت والذكرى مؤرقة === مجداً تليداً بأيدينا أضعناه

أنَّى اتجهت إلى الإسلام في بلد === تجده كالطير مقصوصاً جناحاه

كم صرفتنا يد كنا نصرفها === وبات يملكنا شعب ملكناه

وللدكتور ناصر بن سليمان العمر محاضرة قيمة مطبوعة بعنوان أسباب تخلف المسلمين ذكر فيها جملة أسباب أدت إلى تخلف المسلمين عن ركب الحضارة المعاصرة منها:

- سقوط الخلافة الإسلامية.
- فصل الدين عن الدولة.
- الهزيمة النفسية أمام الأعداء.
- الجهل والإفساد باسم الإصلاح والتطور.
- نشوء العصبيات والقبليات.

وذكر فيها بعض الآثار التي ترتبت على ذلك؛ ومنها: الانحراف الفكري، وفساد بعض مناهج التعليم، والخلل الاجتماعي، وقد ذكر كذلك عدة أمور لعلاج ذلك التخلف؛ ومنها: العودة الصادقة للإسلام، ومنها: العزة والاستقلال، والتخلص من الهزيمة النفسية، ومنها: عودة دور العلماء في المجتمع وتسلمهم دور القيادة.

ولمزيد من الفائدة نوصي بالرجوع إلى تلك المحاضرة على موقع المنبر www.alminbar.net وغيره من المواقع التي نشرت تلك المحاضرة.

والله أعلم.

المفتي: ... مركز الفتوى

=================

أمة الإسلام بين الماضي والحاضر والمستقبل

تاريخ الفتوى : ... ٠٣ ربيع الثاني ١٤٢٤ / ٠٤-٠٦-٢٠٠٣

السؤال

أين هي أمة محمد صلى الله عليه وسلم؟

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أما بعد:

فقد بعث الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم في أمة أمية ضعيفة مستذلة جاهلة متناحرة تعبد الأصنام وتأكلها، وتئد البنات أحياء، وتتقاتل السنين لأتفه الأسباب، وتتعاطى الربا والزنا والخمر، وكثيرا من رذائل الأخلاق، ثم إن هذه الأمة لما دخلت في هذا الدين انقلب حالها، فبعد ما كانوا رعاة الغنم صاروا سادة الأمم، وبعد ما كان يستذلهم كسرى وقيصر، كسروا كسرى وقيصر، وبلغت الفتوحات من الحضارة الإسلامية مشرق أرض الله ومغربها، حتى وصلت إلى الصين شرقا وفرنسا غربا.

فلما ابتعدت هذه الأمة عن دينها واتبعت شهواتها واستجاب كثير من أبنائها لشبهات ألقاها الكفار عليهم، أصابها الذل والهوان، وعادت إلى ما كانت إليه قبل الإسلام من الضعف والمسكنة والتناحر والأخلاق المشينة.

أما عن المخرج مما هي فيه، فإنه يكمن في قول الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمِ [الرعد:١١].

وفي قوله صلى الله عليه وسلم: إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم. رواه أحمد وأبو داود.

فكل واحد من أمة الإسلام مسؤول أن يصلح نفسه وذويه وما استطاع من الأمة، حتى نكون أهلا لنصر الله وفتحه.

قال تعالى: وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ [الحج:٤٠].

وراجع الفتاوى التالية:

١١٦١٦، ٢١١٣، ١٤١١، ١٦٢٨٦، ١٨٩٤٥.

نسأل الله أن يعزنا بالإسلام، وأن يعز الإسلام بنا، وأن ينصرنا على عدوه وعدونا، وقبل ذلك على أنفسنا الأمارة بالسوء. آمين.

والله أعلم.

المفتي: ... مركز الفتوى

==============

"لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"

تاريخ الفتوى : ... ١٨ رجب ١٤٢٤ / ١٥-٠٩-٢٠٠٣

السؤال

أين الخلل ألسنا بحاجة إلى ثورة فكرية تخلصنا من رواسب عصور الانحطاط وتعيد عرض الإسلام خاليا من الشوائب ليحتوي الحضارة الغربية ويهذبها

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أما بعد: فإن الله تعالى مَنَّ على هذه الأمة بهذا الدين الذي جمعها من شتات وأحياها من موات، فصارت به شيئا مذكورا بين الأمم ليهابها القاصي والداني، بل تنصر بالرعب مسيرة شهر. قال تعالى: وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا [آل عمران: ١٠٣]. وقال: لَقَدْ

أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ [الانبياء:١٠]. ثم إنه أتى على هذه الأمة حين من الدهر دب إليها الفساد في عقائدها ومعاملاتها، فوهنت وضعفت حتى وطئها الخف والحافر، واستخف بها أعداؤها، وصار دمها أرخص الدماء وعرضها مباحا لكل غاصب. ولن يعود لها مجدها وعزها حتى تراجع دينها، كما جاء به رسولها صلى الله عليه وسلم صافيا من كل ما علق به من البدع التي شوهته وحالت دون تقدم المسلمين، ورحم الله الإمام مالكا يوم قال: ^لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها^^. نسأل الله أن يعز الإسلام وأهله. والله أعلم.

المفتي: ... مركز الفتوى

================

الأمة الإسلامية ذات منهج تربوي متميز

تاريخ الفتوى : ... ٢٦ شوال ١٤٢٤ / ٢١-١٢-٢٠٠٣

السؤال

السلام عليكم ورحمة الله أنا طالب في علوم تربية الأطفال، كيف كان تعامل الرسول صلي الله عليه وسلم مع الأطفال، وما المنهج التربوي النبوي؟ أرشدوني بالتفصيل؟

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أما بعد: فإذا كانت الحضارة الإنسانية قد ازدهرت وعرفت ألوانا متعددة من التربية، فإن الأمة الإسلامية قد انفردت عن غيرها من الأمم بنظام تربوي متميز، قادر على تكوين أجيال مسلمة متوازنة قادرة على تحمل المسؤولية الكاملة في تحقيق سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة. ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم هو المربي الأول الذي أسس هذا المنهج، فرسم مناهج للطفولة لم يسبق إليها، ولم تكن تربيته قاصرة على من يعيش في كنفه أو تحت سقف بيته، بل كان منهجاً تربوياً ينتهجه لأمته عامة ويرسخه لكل الأجيال. ويبدأ المنهج التربوي النبوي بما قبل تكوين الأسرة، فيوصي باختيار الزوجة الصالحة ذات الدين، كما يوصيها هي بقبول الزوج ذي الدين والخلق، لينشأ الطفل على الفضائل. ثم قبل مباشرة الزوج لزوجته يردد ما أرشده إليه قائد التربية –صلى الله عليه وسلم– يقول: ~اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا.~~ متفق

عليه. ثم في مرحلة الحمل يوصي الإسلام بالعناية بالحامل عناية كاملة، فيأمرها بالأخذ بالأسباب العلاجية والوقائية والنفسية والروحية، لدرجة أنه يعفيها من الصيام أثناء الحمل إذا خافت على نفسها أو جنينها من الضرر، ويحثها على قراءة القرآن والدعاء المستمر، وقد أثبتت التجربة العلمية والعملية أن المرأة المطمئنة المتزنة نفسياً يتصف وليدها بطبيعة هادئه ومتزنة. ثم بعد الولادة سن الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم- أن يبدأ للطفل بالأذان في أذنه اليمنى، ليبدأ بغرس العقيدة الصحيحة في أول وجوده، ثم يكرم يوم سابع الولادة بالتسمية وبالعقيقة التي يأكل منها الفقير والقريب، ويزداد بها الفرح والمودة بين المجتمع. وهكذا تتدرج التربية للطفل والعناية به من خلال توجيهاته -صلى الله عليه وسلم- حسب كل مرحلة من مراحل نموه، نفسياً وجسدياً، بدءا بالعقيدة السليمة، ومروراً بالتربية الاجتماعية والخلقية والعاطفية. وخلاصة كل ذلك، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان نموذجاً فريداً للأبوة الكريمة، يفرح بقدوم الأطفال، ويشارك في اختيار أسمائهم ويحنو عليهم فيمازحهم ويلاعبهم، ويضمهم إلى صدره الكريم ويقبلهم بفمه رحمة وحبا وإخاء، وبذلك نشأ الجيل الذي تربى على يديه -صلى الله عليه وسلم- فريداً مثالياً في إيمانه وعبادته وتفكيره وأخلاقه ومعاملاته. وتمكنك معرفة أكثر من ذلك بمطالعة سيرته -صلى الله عليه وسلم-، فإن عجالة كهذه لا يمكن أن تفي بالمقصود. والله أعلم.

المفتي: ... مركز الفتوى

================

#معنى الحضارة

تاريخ الفتوى : ... ٢٩ محرم ١٤٢٥ / ٢١-٠٣-٢٠٠٤

السؤال

تعريف الثقافة وما الفرق بينها وبين الحضارة؟

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فقد سبق التعريف بماهية الثقافة، وذلك في الفتوى رقم: ٣٢٣٧٦، وأما الحضارة فهي من الحاضر ضد البادي، والحضارة ضد البادية وهي المدن والقرى والريف والبادية،

كذا ذكر صاحب مختار الصحاح، هذا اشتقاقها من حيث اللغة، وأما تعريفها كمصطلح فقد عرفها مالك بن نبي بأنها كل ما يوفره المجتمع لأبنائه من وسائل تثقيفية وضمانات أمنية، وحقوق ضرورية، تمثل جميعها أشكالاً مختلفة للمساعدة التي يريد، ويقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه.

فتبين بذلك أن مفهوم الحضارة عنده شديد الارتباط بحركة المجتمع، وأن الثقافة تمثل جزءاً من الحضارة، فالحضارة على هذا أشمل جهة من حيث المعنى من الثقافة.

والله أعلم.

المفتي: ... مركز الفتوى

==============

الإسلام هو دين العدالة والمساواة

تاريخ الفتوى : ... ١٣ صفر ١٤٢٥ / ٠٤-٠٤-٢٠٠٤

السؤال

سؤالي هو ..كيف ترد على من يقول بأنه لا توجد عدالة ولا مساواة في بعض الأحكام الشرعية، مثل حكم قتل الحر بالعبد، حيث إن هناك قولا للجمهور بأن الحر إذا قتل العبد لا يقتل به، واستدلوا بأدلة كثيرة ومع ذلك كيف تقنع من يقول بأن هذا ليس من تمام العدل، فجميع الناس متساوون وتتكافأ دماؤهم ولا فرق بين حر وعبد ولا ذكر وأنثى.. فأين المساواة في ذلك ؟

وجزاكم الله خيرا

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فالحر لا يقتل بالعبد كما قال جمهور العلماء، وراجع في ذلك الفتوى رقم: ١٩٩٧١، والإسلام هو دين الحضارة والعدالة والمساواة، فقد نظم المعاملات بين الناس وبيّن أحكام العقود والجنايات والعقوبات وغيرها مما يقصد به تنظيم علاقات الناس بعضهم مع بعض، ثم إن هذه الحياة الدنيا هي دار ابتلاء واختبار وليست دار تكريم وجزاء، والعبد قد خصه الله بمضاعفة الثواب إذا أحسن القيام بواجباته، ففي الصحيحين من حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن العبد إذا

نصح لسيده وأحسن عبادة الله فله أجره مرتين، والمساواة والعدالة ليس معناهما أن يستوي الناس في كل شيء، الرئيس والمرؤوس والشريف والوضيع، والغني والفقير، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، فتلك فروق جعلها الله بين البشرية ولا بد أن يبقى لها أثر في الوجود كيفما كان التنظيم المتبع.

ورغم أن مسألة منع القصاص للعبد من الحر، والاقتصار في جنايته عليه على القيمة عادلة عقلا، فإن المسلم لا يحكم عقله في الأحكام الصادرة عن الله تعالى إلا بقدر ما يفهمها، وواجبه الخضوع والإذعان لها استجابة لقوله تعالى: فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (النساء:٦٥)، فالله تعالى هو أحكم الحاكمين، وهو أدرى بحقيقة العباد وبمصالحهم، وإن يكفر بشيء من ذلك ناس فقد وكل الله به قوما ليسوا به كافرين، فلا تلتفت إلى إلحاد أولئك الفساق والكفرة الذين همهم الوحيد هو أن يبدلوا دين الله، ويحكموا بغير ما أنزل الله.

والله أعلم.

المفتي: ... مركز الفتوى

=============

#القرآن صالح لكل العصور

تاريخ الفتوى : ... ١٩ ذو الحجة ١٤٢٥ / ٣٠-٠١-٢٠٠٥

السؤال

شبهة كيف ترد عليها، إن القرآن لا يقدر على إقامة المجتمع الراقي ولا يستطيع مواكبة التطورات في كل عصر وخاصة في العصر الحاضر، لأن القرآن نزل على مجتمع بدائي لا يعرف الحضارة ولا التطور ولا القراءة والكتابة؟

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فالقرآن كتاب الله الذي خاطب به البشرية جميعاً إلى يوم القيامة بلا تقيد بزمان دون زمان أو مكان دون مكان، لقد جاء القرآن حين بلغت البشرية سن الرشد العقلى فجاء كتابا مفتوحا يخاطب جميع العقول لا في عصر النزول فقط، بل ممتداً لجميع

العصور، وهذه حقيقة لا يختلف فيها عاقلان، فالقرآن لم يأت بشيء يخالف العقل السليم، ولم يأت بشيء يؤخر الإنسان، وإنما أتى بما يرقى بعقل الإنسان في كل مجال من مجالات الحياة في حدود ما أحله الله.

قال الأستاذ سيد قطب: إنه نظام متكامل لحياة شاملة، نظام يوجه ويضبط كل النشاط الإنساني في شتى جوانب الحياة. اهـ بتصرف من مقومات التصور الإسلامي.

وقد شهد بذلك علماء النصارى أنفسهم: يقول إيفور إليويس -كان قساً نصرانياً ثم أعلن إسلامه-: ولعل ما لفت نظري وجذبني لهذا الدين أنه دين شامل وكامل يعالج جوانب كثيرة من حياة الفرد والمجتمع، ويوازن بين الدنيا والآخرة، ويقدم للبشرية مشاريع إصلاح اقتصادية واجتماعية ونفسية. انتهى.

فمن يطبق القرآن ويعمل به ينل خير الدنيا والآخرة، وقد صرح بذلك البروفسير (إيرفنج) الأستاذ بجامعة (تنسي) الأمريكية حينما وقف مخاطباً للمسلمين قال: ... تعلموا الإسلام وطبقوه واحملوه لغيركم من البشر تنفتح أمامكم الدنيا، ويدن لكم كل ذي سلطان، أعطوني أربعين شاباً ممن يفهمون هذا الدين فهماً عميقاً ويطبقونه على حياتهم تطبيقاً دقيقاً، ويحسنون عرضه على الناس بلغة العصر وأسلوبه، وأنا أفتح بهم الأمريكتين. انتهى، نقلاً عن (قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي) للدكتور زغلول النجار.

أما من قال إن القرآن لا يستطيع مواكبة التطورات في كل عصر لأنه نزل على مجتمع بدائي، فيرد عليه الأستاذ سيد قطب قائلاً: إن شريعة ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن هي شريعة كل زمان، لأنها بشهادة الله شريعة الدين الذي جاء للإنسان في كل زمان وفي كل مكان لا لجماعة من بني الإنسان... والله الذي خلق الإنسان وعلم من خلق هو الذي رضي له هذا الدين المحتوي على هذه الشريعة، فلا يقول إن شريعة الأمس ليست شريعة اليوم إلا رجل يزعم لنفسه أنه أعلم من الله بحاجات الإنسان وبأطوار الإنسان. انتهى (في ظلال القرآن).

فليس هناك إلا منهج واحد رابح وطريق واحد ناجح ألا وهو ذلك المنهج المستنبط من القرآن، وننصح الأخ السائل بعدم الالتفات لهذه الشبهات، لأن أعداء الإسلام

يحاولون تشويه الإسلام وإثارة الشبهات حول القرآن، وذلك لإضعاف الإسلام والمسلمين ونزع ثقتهم بالقرآن.

والله أعلم.

المفتي: ... مركز الفتوى

================

الصواب أن تقوم نهضتنا على الحضارة الإسلامية

تاريخ الفتوى : ... ١٣ صفر ١٤٢٦ / ٢٤-٠٣-٢٠٠٥

السؤال

ما رأيكم في مشروع صناع الحياة للأستاذ عمرو خالد، بعد إذنكم أنا أرى أنه جميل، لكن لما قرأت الهدف لم يعجبني وهو أنه قيام حضارة عربية، ولم يذكر إسلامية، وفي التعريف قال نحن لا ننتمي إلى أي مؤسسة دينية، فما المقصود، أيضا ونحن نعلم أن النبي لم يقم بدعوة العربية ولا الحيادية ولا الأخلاقية بل جمعها كلها في راية لا إله إلا الله، فهل هذا خطأ من الأستاذ يجب أن يعدله وإلا لن يجنى شيء من الحضارة والتقدم مع أنه الصواب، أتمنى الرد؟ وجزاكم الله خيراً.

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فإننا نوافقك على أن الدعوة إلى قيام حضارة عربية ليست من منهج الإسلام في شيء، فإن العرب قبل الإسلام لم تكن لهم قيمة ولا اعتبار، فلم يكونوا سوى رعاة إبل في صحراء جرداء لا يؤبه لهم ولا يعيرهم أحد اهتماماً، يقطعون السبيل ويأكل القوي منهم الضعيف ويفشو فيهم الزنا والربا.

فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه صاغهم صياغة جديدة، فأصبح منهم العباد والزهاد والمجاهدون وسادوا بالإسلام الدنيا، وعلموا الناس كيف يكون العدل مع القوة، قال الله تعالى: كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ {آل عمران:١١٠}.

وعلى ذلك فإن من الرشد أن تقوم نهضتنا على الحضارة الإسلامية، وأن يكون ابتعاثنا منبثقاً من العقيدة الصحيحة ومفاهيم الإسلام التي ربى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابة.

أما أن نجعل همنا قيام حضارة عربية –فإن ذلك يدل على عدم الفهم، بل على الجهل بخصائص الرسالة المحمدية، قال عمر بن الخطاب: كنا أذل أمة فأعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله.

ولمزيد من التفصيل راجع مقدمة تفسير سورة الأنعام من كتاب (في ظلال القرآن) وفصل (طبيعة المنهج القرآني) من كتاب (معالم في الطريق)، وانظر (إخراج الأمة المسلمة) لماجد عرسان كيلاني، (والغرباء الأولون) لسلمان العودة.

ولمعرفة بعض ما يؤخذ وما يرد من أقوال الأستاذ عمرو خالد راجع الفتاوى ذات الأرقام التالية: ٢٤١٥٩، ٥٥٤٣٢، ٥٩٢٤٣.

والله أعلم.

المفتي: ... مركز الفتوى

=============

#عقليتنا الإسلامية ومنهج التعاطي مع الحضارة

(عقل استنباطي أم قياسي أم انبهار المغلوب بالغالب ؟)

سيد يوسف

تمهيد:

هل عجز العقل المسلم والعربي عن استيعاب عالم الحضارة إن كان ثمة حضارة فيما يتعاطاه الآن من أحداث وأمور ومنجزات حضارية وعلمية وفلسفية؟ وهل ظل العقل المسلم مكبلا بمنهج الاستنباط دون إعمال أو انتقال جماعي منظم لمنهج الاستقراء الذي اعتمد عليه الغرب؟ فما هو المنهج الاستنباطي هذا؟ وما مجالاته؟ ومن ثم ما المنهج الاستقرائي هذا؟ وما مجالاته؟ وما علاقة المناهج العقلية هذى بالحضارة والتقدم؟ هل يمكننا أن نقول: إننا إلى الآن لا نمتلك الرصيد الفكري المأمول في التعرف على قضية المنهج الذي نتعاطى من خلاله حاضرنا وأن جهود بعض الأفراد من هنا أو من هناك لا تعدو كونها محاولات فردية وإن كنا نرجو لها التعميم لكنها- لا تصب في تأصيل قضية التعريف العام بمنهج تفكيرنا كعرب وكمسلمين، ولم تتسع لتشكل مجرى ثقافيا عاما في الأمة؟ وهل يمكننا القول بأن العقل العربي والمسلم ذو تشكيلة خاصة لم تتجاوز بعد مرحلة الاستنباط حتى في

تعاطيها في السنن الكونية والاجتماعية؟ حول هذى المفردات تدور هذى المقالة. يرى د/ عمر عبيد حسنة أن هناك قوانين وسننا، تحكم حركة التاريخ والاجتماع البشري، لا تتخلف ولا تحابي أحدا، ونحن –المسلمين – نخضع للقوانين نفسها، حيث لا يكفي النظر في النتائج بل لابد من النظر في المقدمات والأسباب التي أنتجتها، حتى يتمكن المسلمون من التحكم بها، وأخذ الحذر من الوقوع فيها، وحتى لا ينتهوا النهاية نفسها.. فالمقدمات نملكها، والنتائج تملكنا. وقد تكون إحدى آفات العقل المسلم اليوم، أننا ندع ما نملكه إلى ما يملكنا. ونذكر أن القاعدة القرآنية والتي لها دقة القوانين الرياضية تقول: (وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) محمد ٣٨ ولعل هذي صرخة تحذير لأمتنا حتى تستيقظ قبل فوات الأوان, فلقد قاد الركب المجرمون الذين يعيثون في الأرض فسادا, وما فعل الأمريكان بأفغانستان, والعراق وببعض عالمنا العربي عنا ببعيد. نقصد بالمنهج الاستنباطي (بشكل مبسط): تلك الطريقة من التفكير التي بموجبها يحكم العقل في قضية ما بناء على قانون سابق فهو عقل محكوم ومكبل دائما بأصل يقيس عليه أو بنص ما فهو دائما فرع لأصل، يدور في إطار سابق، وهو ينتقل من القاعدة السابقة إلى إثبات المشاهدة أو التجربة. ومن المجالات التي يصلح لها هذا المنهج: قضايا الفقه التشريعي، في إطار الحلال والحرام، وذلك عند إعمال العقل في النص الديني الموحى به لإدراك أبعاده ومقاصده وتحديد علته، ويتعدى الأمر إلى الأدوات الأخرى مثل القياس (الاجتهاد الفردي)، والاستحسان، والاستصلاح، والاستصحاب، والخلاصة ههنا أن العقل إنما يتحرك في إطار سابق محكوم ببعض الضوابط التي جاء بها الوحي. نقصد بالمنهج الاستقرائي (بشكل مبسط): تلك الطريقة من التفكير التي بموجبها يحكم العقل في قضية ما بناء على التجربة والمشاهدة ومن ثم ينتقل من التجربة إلى صياغة القاعدة، فهو منهج يحرر العقل من القيود المسبقة أو المثال. ومن المجالات التي يصلح لها هذا المنهج: قوانين السير في الأرض، واكتشاف السنن الحاكمة لحركة الحياة أوفقه الحياة من علوم مادية وكشف حضاري سواء في مجال العلوم الاجتماعية أو التربوية أو العلمية.

ملاحظات مهمة عرض بعضها د/عمر عبيد حسنة ومنها:

١/ في كلا المنهجين إبداع وإنتاج جميل ولكن لكل مجال وميدان يحقق السبق.

٢/ فالفقه التشريعي في الإسلام يخضع للمنهج الاستنباطي القياسي بيد أن الفقه الاجتماعي والحضاري يخضع للمنهج الاستقرائي.. وقد يكون من بعض عيوب العقل المسلم المعاصر، الخلط بين المنهجين وعدم القدرة على استخدام كل في مجاله.

٣/ إن سنن التداول الحضاري، استيحاء من قوله – تعالى –: (وتلك الأيام نداولها بين الناس) آل عمران: ١٤٠ لا تتأتي إلا من السير في الأرض، الذي فرضه الله على المسلم بقوله: (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) الروم٣٠ فلنتعرف على القوانين التي حكمت حركه البشر للإفادة منها للحاضر والمستقبل فقد يكون الحاضر نتيجة لمقدمه في الماضي, وقد يكون مقدمه لنتيجة لا تظهر إلا في المستقبل.

٤/ لقد كان جيل القرون الأولى يتعامل مع السنن بشكل عملي وتلقائي؛ لأنهم فقهوا الوحي, أما نحن فلم نزل نبحث فيها وننظر في مدى أهميتها في إعادة تشكيل العقل وتصميم الذهنية الإسلامية، التي لا نزال تعاني من التخلف، بسبب الغفلة عن السير في الأرض والكشف عن سنن الله في الأنفس والآفاق، وأهمية ذلك في معرفة قيام المجتمعات، وسقوط ونهوض الأمم.

٥/ لاشك أن معطيات الوحي، في الكتاب والسنة، تضمنت خلاصة السنن التي تحكم الحياة والأحياء، بما عرضت له من القصص القرآني، عن نهوض الأمم والحضارات وسقوطها، وربط الأسباب بالمسببات، والمقدمات بالنتائج، بشكل أشبه ما يكون بالمعادلات الرياضية التي تحكم عالم المادة، ليعتبر أولوا الأبصار.

٦/ اكتشاف السنن والتوصل إلى الدليل الذي يبين الحق إنما يتأتى من استقراء التاريخ والواقع وآيات الأنفس والآفاق؛ لكن المشكلة جاءت من الامتداد بأحد المنهجين وتعطيل الآخر خاصة عندما توقف العقل المسلم عن السير في الأرض وتعطل عن النظر في الأنفس والآفاق، في العصور المتأخرة، الأمر الذي أدى به إلى الانحسار الحضاري. تطبيق عملي وجميل أن نسوق ههنا فكرة عملية نرجو لها أن تتسع لها عقول الناشطين وإسهاماتهم في خدمة قضايا أمتنا.. هذه الفكرة عرضها

د/عمر عبيد بشكل عام ونركز الضوء عليها بعرض التساؤل الآتي: ما قيمة القصص القرآني الخالد، إذا لم يشكل عقلا مدركا للقوانين والسنن، التي تحكم التجمع الإنساني، وتتحكم بقيام وسقوط الحضارات، هل هي حكايات لتزجية الوقت، أسقطها الزمن، وطواها التاريخ؟! المطلوب اليوم، أكثر من أي وقت مضى، في مجال الدراسات الإنسانية التي بلغت عند غيرنا شأوا بعيدا، أن نتوجه صوب فقه القصص القرآني، بالقدر نفسه الذي توجهنا به نحو آيات الأحكام، واستنبطنا منها هذه الكنوز العظيمة في مجال التشريع، لنكتشف فقها حضاريا في إطار علوم الإنسان، والقوانين الاجتماعية، التي تحكم مسيرة الحياة والأحياء، والتي تخلفنا فيها إلى درجة لا نحسد عليها. في النهاية هذى بداية نرجو لها الدراسة وإعمال العقل لعل وعسى..سيد يوسف.

sayidyusuf@yahoo.com

المصدر : http://www.islamselect.com

==============

#سراييفو .. حضارة أخيرة ! ؟

د. سعد عطية الغامدي

لك الله يا أخت أشبيلية *** وتوأم كاديز والمرسيه

حضارتنا.. شادها الأولون *** وأرسوا مناراتها.. عالية

وضيعها صبية مترفون *** تديرهم الكأس والجارية

فعادت مساجدها بيعاً *** وآثارها.. دمناً خاوية

لك الله يا وهجاً في الصدور *** ريا كوكباً في سما بوسنية

تعانين وحدك – يا ويحنا *** وتلقين أسرابهم عارية

وتستنجدين صباح مساء *** وآذاننا – وقرت – واعية

ونبصر قصفهمُ جائراً *** يذيبك.. ناحية.. ناحية

يجرعك الصرب سوء العذاب *** وتستعر البطشة الطاغية

تساق العجوز إلى حتفها *** وتغتصب الحرة الزاكية

ويسقى الرضيع دماء الأسى *** ويطعم من جثة ذاوية

وتسمعى يد للجريح القتيل *** لتذبحه ذبحة الماشية
خذلناك.. إذ يثب الآخرون *** لأشياعهم.. وثبة ماضية
وخضنا على رسلنا في اجتماع *** ومؤتمر أمه هاوية
وقلنا: لينصرهم مجلس ال *** أمن في هيئة الأمم البالية
وننسى بأنهمُ يرقصو *** ن على لهب الهجمة الضارية
لك الله.. يا لهباً عارماً *** ويا صخرة لم تزل عاتية
نسوق إليك وعتوداً عرا *** ضاً وبالوهم نلبسك العافية
ونختال تيهاً بتلك الوعو *** د كما جرجرت ذيلها غانية
بأنّا..وأنّا..ولم ندر أنّا *** أضعناك في ليلة شاتية
وقد نذرف الدمع للزائرين *** إذا أزهقت روحك الغالية

المصدر: http://www.albayan-magazine.com

================

#عندما تتحول أجهزة الإعلام إلى مدفعية ثقيلة: الكاتب جلال أمين يناقش الاعتداء الأميركي المعنوي على الحضارة الإسلامية

يبدو أن الاعتداء المادي لم يعد كافيا في عصر ما بعد سبتمبر، إذ لجأت الدول المتقدمة إلى استخدام السلاح القديم الذي ثبتت فاعليته، وهو الاعتداء المعنوي، والذي تزيد به فرص الانتصار على الخصم، فالاعتداء المعنوي يضعف ثقة الخصم بنفسه ويثبط همته، كما انه يقلل من انتصاره، فيصبح ضحية أسهل مما كان.

ويذكر الدكتور جلال أمين في كتابه «عصر التشهير بالعرب والمسلمين، نحن والعالم بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١» والصادر حديثا عن مكتبة الأسرة بالقاهرة أن العرب والمسلمين تعرضوا لحملات من التحقير والاعتداء المعنوي، وأضيفت إلى ذلك في الخمسين عاما الماضية، حملات التشهير المستمرة من جانب الصهاينة وأبواق الدعاية الإسرائيلية والعاملين في خدمتها، واستمر ذلك من دون انقطاع منذ إعلان الدولة الإسرائيلية منذ نحو نصف قرن، ثم حدث في السنوات الأخيرة ما ضاعف هذا التشهير، وزاد هذه الحملات قسوة وضراوة خاصة في أعقاب أحداث ١١ سبتمبر، فأصبح العرب والمسلمون أكثر شعوب العالم تعرضا لحملات تشويه السمعة

والاعتداء المعنوي، وهى حملات في رأي المؤلف لا تستهدف إلا تسهيل أهداف اقتصادية وسياسية منبتة الصلة بما تدور حوله حملات التشهير، كانعدام الصلة مثلا بين مضاعفة الأرباح من استغلال النفط العربي وبين وجود الديمقراطية أو عدمها في البلاد العربية، فضلا عن أهداف المشروع الصهيوني، وهى بدورها أهداف منبتة الصلة بما يقال في الإساءة إلى سمعة العرب كانعدام الصلة مثلا بين الرغبة في طرد المزيد من الفلسطينيين من أراضيهم وبين ما إذا كان مركز المرأة في الإسلام أفضل أو أسوأ منه في الأديان الأخرى.

يلاحظ أمين انه منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وكثير من الناس يقبلون الكثير مما تردده وسائل الإعلام عن الحادث وعن المتهمين بارتكابه وأهدافهم من ورائه، على الرغم من أن جزءا كبيرا مما تقوله وسائل الإعلام يتعارض تعارضا صارخا مع المنطق السليم، بل ومع بعض البديهيات، فيلاحظ أن هذا الاستعداد للتسليم بما يتعارض مع البديهيات لا يستثنى منه حتى عقلاء الناس ومثقفوهم، مشيرا إلى انه رأى من بين هؤلاء مثلا من يقبل كثيرا مما يقال عن أسامة بن لادن مما يصعب أن يقبله العقل في رأيه، وكذلك عن هوية الأشخاص الذين تنسب إليهم عملية تفجير البرجين في نيويورك ووزارة الدفاع في واشنطن وما يقال عن أهدافهم من هذه العملية، مع الفارق الشاسع بين ما يتطلبه هذا الحادث من قدرات وبين القدرات المتاحة لهؤلاء الأشخاص.

كما يلاحظ أمين أشياء مماثلة في موقف كثير من الناس من الأحداث في العراق، حيث وجدهم يصدقون الكثير مما يقال ويصعب تصديقه، عن موقف صدام حسين ودوره، وعن علاقته بالولايات المتحدة، وعن أهداف الإدارة الأميركية من الاعتداء.

وفي الحالتين كان هؤلاء الذين يصدقون ممن يجلسون أمام شاشة التليفزيون ساعات طويلة ويستمعون إلى مختلف القنوات الفضائية وغير الفضائية ولا يفوتهم تعليق أو تصريح نشرته الصحف ولا أي تفاصيل مهما كانت صغيرة، تتعلق بما يدور من أحداث، هذا الموقف يوضح لجلال أمين أننا لا زلنا نتعامل مع ما يرد إلينا من معلومات كأنها في الأساس محايدة خالية من التحيز، ونميل إلى التمييز بأكثر مما ينبغي، بين التعليق الذي نعرف انه قد يكون متحيزا وبين المعلومة التي نعاملها

وكأنها محايدة والخطر هنا من استخدام وسائل الإعلام كما يتصوره أمين ليس هو مجرد أن يؤدي بالناس إلى اعتناق أفكار خاطئة ولكنه يصل إلى حد تشكيل عواطف الناس وتوجه هذه العواطف في الاتجاه الذي يحقق مصالح المسيطرين على هذه الوسائل، فإذا أضفنا إلى هذا ما أصبحت تتسم به وسائل الإعلام من درجة لا يستهان بها من احتكار وان هناك تداخلا بين هذه الشبكات التلفزيونية، على قلتها يجعلها تكاد تعبر عن نفس الاتجاه وتصب في نفس المصالح فان الخطر الذي يتعرض له مشاهدو التليفزيون، بل وقراء الصحف والمجلات بدرجة متزايدة مع تزايد درجة الاحتكار في ملكيتها أصبح خطرا في رأيه شديدا إذا أصبح هؤلاء المشاهدون والقراء (محكومين) في تحديد اتجاه عواطفهم ودرجة التهاب هذه العواطف بما يناسب المسيطرين على هذه المصالح ويحقق أهدافهم.

أن ما حدث، والكلام هنا لامين، من اعتداء على العراق لم يحدث فقط بالمدافع والبنادق والدبابات بل حدث أيضاً بأجهزة التصوير ووسائل مندوبي التليفزيون والصحف ووكالات الأنباء والقتل المادي الذي جرى لآلاف العراقيين لا يقل عنه ظلما وقسوة القتل النفس الذي جرى لملايين من العرب والمسلمين في العراق وخارج العراق، وقد اصطلح على تسمية الوسائل التي تم بها هذا النوع الثاني من القتل بوسائل الإعلام وهى تسمية لا تقل في درجة تضليلها عما تبثه من سموم.

لكن يبدو أن عملية التغيير التي تحدث لا تتوقف عند أجهزة الإعلام، حيث يشير أمين إلى انه لم تمض أكثر من أيام معدودة على احتلال الأميركيين للعراق حتى أعلن مسؤولون في الإدارة الأميركية عزمهم على تغيير مناهج التعليم في العراق ومراجعة الكتب المقررة على الطلاب كتابا كتابا لحذف منها ما لا يجوز ووضع أشياء أخرى محلها، بل وقيل أن الولايات المتحدة ستقوم بنفسها بإعداد وطبع بعض الكتب وتوزيعها على التلاميذ العراقيين هدية منها إليهم.

ولم يكن غريبا في اعتقاد أمين أن ينهض في بلادنا من الكتاب والمعلقين من يقول بان هذه الأهداف الأميركية من إصلاح نظام التعليم في العراق والبلاد العربية الأخرى هي نفسها أهداف للمصلحين العرب ولا يهم في الحقيقة ما إذا كانت الدعوة إلى الإصلاح تأتي من هنا أو هناك طالما أن الهدف واحد مشيرا إلى أنه كان هناك

بعض المحتجين الذين رفعوا أشعار «بيدي لا بيد عمرو» قاصدين بهذا انه إذا فرض أن كان التغيير ضروريا فدعنا نقوم نحن به لا غيرنا فهذا شأننا ولا يجب أن يكون شأن أحد سوانا.

ويقول المؤلف أن إصلاح التعليم شأن داخلي لكن الأخطر من هذا أن التغيرات المزمع تنفيذها لا علاقة لها بالإصلاح أصلاً بل هي في حقيقتها اقرب إلى الإفساد منها إلى الإصلاح وهو بالطبع ما يجب أن نتوقعه ولا نتوقع شيئا غيره والزعم بغير ذلك في رأيه خداع كريه كان المفروض أن يكون واضحا كالشمس.

ويعتقد أمين انه ليس هناك عاقل يمكن أن يصدق الزعم بان من بين الأهداف التي تهتم الإدارة الأميركية بها إزالة الإشارات التي تنطوي على تقديس حاكم بعينه أو المبالغة في تمجيده فالعالم الثالث مليء منذ ما يقرب من نصف قرن بالأمثلة على نظم وحكومات موالية للولايات المتحدة وتتمتع برضائها ومباركتها وغارقة حتى قمة رأسها في مختلف أساليب تقديس الحاكم، وأي بادرة لإصلاح هذا الخلل أو تنبيه إلى ضرورة التخلي عنه أو الزعم بان طريقة التعليم تشجع على التعصب وتخلقان من التلميذ شخصا سهل القيادة ويجعله فريسة سهلة للحركات الدينية المتطرفة مما يجعل هذه المنطقة معمل تفريخ للإرهاب فانه يثير في رأي أمين كثيرا من المشكلات المنطقية فالمهم في نظر الأميركيين ليس هو الانقياد أو عدمه ولكن موضوع الانقياد ووجهته، فإذا استطاعوا أن يضعوا نظاما للتعليم يجعل العرب أكثر استعدادا للانقياد للسياسة والإدارة الأميركية وأكثر قبولا للتصالح مع إسرائيل ونسيان محنة الفلسطينيين والسكوت على طريقة إسرائيل في إرهابهم فلابد أنهم سوف يفضلون هذا النظام من نظم التعليم على نظام آخر يجعل العرب أكثر استقلالا في الرأي وأكثر حرية في الفكر وأكثر ممارسة لمكلة النقد.

ويقول أمين أن كل الدلائل تشير إلى أن الإدارة الأميركية كان لديها ولا يزال مخطط لإحكام سيطرتها على أماكن متعددة من العالم وعلى موارد اقتصادية أساسية خارج حدودها، من أهمها النفط وان أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١ ساعدت الإدارة الأميركية في السير سيرا حثيثا نحو تنفيذ هذا المخطط مشيرا إلى أن كان من المفيد جدا للإدارة الأميركية وكذلك المشروع الإسرائيلي أن تستغل أحداث ١١ سبتمبر إلى

أقصى درجة لتشويه سمعة الإسلام والمسلمين، فسواء كان المخططون والمنفذون لهذا الحادث هم بالفعل عربا ومسلمين وان الهدف من تنفيذ هذه التفجيرات شيء له علاقة بالخلاف بين المسلمين أو العرب وبين السياسة الأميركية أم لا، فقد كان ولا يزال في رأيه من المفيد جدا للإدارة الأميركية الزعم بان هذه هي الحقيقة ذلك أنه من الصعب أن تتصور أن تستطيع الإدارة الأميركية السير في تحقيق مخططها العسكري والاقتصادي من دون وجود عدو بل عدو خطير يبرر كل هذا الخلاف على الحرب وكل هذه التضحيات التي لابد أن يتحملها الشعب الأميركي اقتصادية وبشرية وقد وجد أن الإسلام والمسلمين عدو مناسب جدا لوجوده وانتشاره في معظم المناطق التي يراد تنفيذ المخطط العسكري والاقتصادي فيها ولسهولة الربط بين العنف والخطر المراد تخويف الناس منهما وبين الدين، إذ أن التطرف أو التعصب الديني يمكن قبوله بسهولة كتفسير للعنف والقتل والاعتداء، ويعتقد أمين أن من الأرجح أن هذا المنحى من التفكير نشأ وبدأ وضعه موضع التنفيذ قبل أحداث ١١ سبتمبر بل وحتى قبل سقوط الاتحاد السوفياتي وانتهاء الحرب الباردة ذلك أن التفكير الاستراتيجي لا ينتظر حتى آخر لحظة لتفجير حملة دعائية مفيدة بل لابد من التمهيد لها شيئا فشيئا حتى يبدو التطور طبيعيا للغاية، لافتا إلى أن إسرائيل لابد أنها استفادت من أي تشويه لسمعة الإسلام والمسلمين منذ خمسين عاما على الأقل، كما أن تضخيم حجم ما سمى بالإرهاب الإسلامي بل وربما خلقه خلقا في بعض الأحوال كان مفيدا لتحقيق أهداف أميركية مهمة حتى قبل ١١ سبتمبر بكثير كتخويف بعض الحكومات العربية وإجباره على الاعتماد على الدعم الأميركيي لمواجهة هذا الإرهاب وفي الوقت نفسه إعطاء هذه الحكومات مبررا للاستمرار في الحكم واستخدام أساليب القمع بحجة التصدي للإرهاب الإسلامي.

ويذكر أمين انه في أمر كهذا كان لابد من الاستعانة بمؤرخ بريطاني شهير اكتسب شهرته كمؤرخ خبير بأي شيء يتعلق بالإسلام ولكن لا رغبة عنده البتة في ذكر الحقيقة كاملة عن الإسلام، بل لديه دافع قوي للغاية بسبب ولائه للصهيونية لذكر ما يسئ إلى الإسلام والمسلمين وهو برنارد لويس، الذي اصدر عقب أحداث ١١ سبتمبر كتاب «أين مكمن الخطأ» ويقصد بهذا العنوان ما هو بالضبط الذي جعل

المسلمين يرتكبون أحداث ١١ سبتمبر وطبعا اتبعت أميركا كل الأساليب لضمان نجاح الكتاب وتسويقه على أوسع نطاق ممكن فالرسالة التي يحملها من المهم أن تصل في هذا الوقت إلى اكبر عدد ممكن من الناس وهذا كله من دون أن يحقق من صحة القول بان الخاطئين كلهم مسلمون.

ثم اصدر كتابه الثاني «أزمة الإسلام» الذي يشترك مع الكتاب السابق في أنهما يحملان الإسلام أسباب ما حدث، وفي حديثه عن محاولات تحسين صورة العرب والمسلمين يرى أمين أن من الاستراتيجيات التي يلجأ إليها البعض لذلك محاولة التبرؤ من هؤلاء المسلمين الذين يكرههم الغرب فيقولوا «إنهم ليسوا مسلمين حقيقيين أو ينتمون للإسلام وان الإسلام الحقيقي لا يقول هذا بالمرة ومن ثم فنحن نتبرأ منهم ونعتبرهم مجرمين مارقين مثلما يعتبرهم الغرب بالضبط» وهذا الاتجاه بالتمييز بين ما يسمى بالإسلام الحقيقي وغير الحقيقي هو اتجاه بغيض في رأيه كما انه اتجاه خطير قد يؤدي بالسائر فيه إلى التهلكة أما انه بغيض فلما يتضمنه من ادعاء وغرور إذ يزعم قائله إن هناك إسلاماً «حقيقيا» لا يفهمه إلا هو وكل ما عداه إسلام «غير حقيقي» وكذلك لا يشعر أمين بأي ارتياح عندما يحاول «المحسنون» أن يبينوا فضل المسلمين على الحضارة الغربية، وكل هذا صحيح ولكن الإسلام لا ينحصر فضله في القيام بدور الوسيط بين جزء من الغرب وجزء آخر منه والمسلمون لديهم أكثر من سبب يبرر استحقاقهم للحياة غير قيامهم بهذه الخدمة للغرب في يوم ما من الماضي.

ويخلص أمين إلى أن لهجة الغربيين اليوم في كلامهم عن الإسلام والمسلمين ليست من النوع الذي يثير الرغبة في محاولة تحسين صورة الإسلام والمسلمين في أعينهم بل من النوع الذي يثير الغضب والحنق فقد أساءوا الأدب في الكلام عن شيء نبيل وعزيز لدينا مما لا يترك مجالا لتبادل الحديث معهم ومحاولة تبرئة النفس في مواجهة ظلم صارخ من هذا النوع هو من قبيل الإمعان في إذلال النفس واحتقارها ويزيد الغضب والحنق عندما تجئ هذه الاتهامات والاهانات من سياسيين في الغرب لا يعرف عنهم في رأيه الكثير من صفات التحضير إلا في أتفه الشكليات كنوع ما يرتدونه من ثيات مثلا أو طريقة تناولهم للطعام فلا يعرف عنهم سمو الأخلاق في

معاملتهم لغيرهم من الشعوب أو الترفع عن الصغائر عندما يتعاملون مع خصومهم أو الحلم والصبر وضبط النفس عند الشدائد أو الاستعداد للعفو عندما يكونون قادرين عليه وكلها صفات اظهر العرب والمسلمون في تاريخهم قدرا وافرا منها.

المصدر: عصر التشهير بالعرب والمسلمين، نحن والعالم بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١

المؤلف: الدكتور جلال امين الناشر: دار الشروق . القاهرة..

١١/١٠/١٤٢٥ الموافق ٠١/٠١/١٩٧٠

المصدر: http://www.almokhtsar.com

============

#حضارة الوفاق بين العلم والدين

أ. د. عماد الدين خليل

جاء الإسلام.. وبضربة من يد الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأيدي أصحابه رضوان الله عليهم.. تهاوت جدران الوثنية.. تساقط الأرباب.. حجارتها الصماء تحت الأقدام المتحركة صوب أهدافها الكبرى.. وفتح العرب المسلمون أعينهم يوماً فإذا بالسد الذي حجب عنهم الرؤية والحركة قد انزاح، وامتد الطريق أمامهم مستقيماً واضحاً متجهاً كالسهم إلى أقصى تخوم الأرض.. وإذا بالسماء التي غيبتها غشاوة أعينهم طويلاً، تبدو الآن واضحة للعيان، نقية زرقاء، تنساح باطمئنان عجيب إلى ما لا نهاية.. وكيف لا يبدو الطريق مستقيماً، والسماء منفتحة، وقد أُزيح الركام، ورُفعت هامة العربي لكي لا تنحني من بعد إلا لله؟

وفي عقود من السنين محدودة استطاع الإسلام أن يحول أهل الجاهلية إلى أمة متحضرة خرجت إلى أطراف الأرض تحمل علمها الجديد، وحضارتها المتوحدة، لكي ترسم للعالمين مصيراً جديداً.. من إلغاء الوثنية وكسر الحصار وفتح مجال الرؤية ومنح حرية الحركة، تمكن الإسلام أن يصنع إنسانه المتحضر العالم الذي انطلق إلى تخوم حضارات شاخت وعلوم وهنت، وأفكار طغى عليها ركام الرؤى المشوهة والأضاليل.. خرج المسلم من الصحراء وهو يحمل قيمه الجديدة الحية، وتعاليمه الواضحة البينة، ومعتقداته المتفردة الفذة، وتصوراته الكلية الشاملة، وتوحده الذاتي العجيب، وطموحه الإيماني الذي لا يقف عند حد إلا ليتجاوزه إلى حدود أبعد،

وسلوكه الأخلاقي الذي شد أنظار المتخبطين في عبودية كسرى وقيصر.. خرج المسلم من الصحراء لكي يصوغ بهذا كله حضارته الجديدة، وعلمه (الحركي) الذي أشعلته في ذهنه فتيلة الإيمان التي ما لها من نفاد.

انطلق المسلم إلى العالم مع إخوانه يحمل تعاليم الله ورسوله: تثبيتاً لمفاهيم التوحيد في كل مكان، ونشراً للعدل والمساواة في كل أرض.. وتفجيراً للطاقات الحضارية والعلم الصحيح في فؤاد كل إنسان.. وانفتاحاً إنسانياً نادراً على كل ما يمكن أن تقدمه الحضارات القديمة من قيم ومعطيات تساعد الإنسان في تأكيد وتعميق هذه القيم جميعاً، ابتداءً من التوحيد المطلق لله – سبحانه – وانتهاءً بصياغة حضارة تضم جناحيها على منجزات البشرية منذ أن قدح الإنسان الحجر بالحجر فتطايرت الشرارة الأولى.. وإلى أن يشاء الله فيبتكر المسلمون من بعد ويكتشفوا ويخترعوا ويقدموا للبشرية معطيات حضارة متوحدة فذة لم تعرف يوماً تفريقاً وثنائية وازدواجاً بين العلم والدين..

فها نحن قد عرفنا كيف أن الدين هو الذي بّصر الإنسان وحركه، وهيأ له الأرضية الصالحة لبناء حضارة من أكثر حضارات التاريخ غنى وعطاء.. تلك التي أمدّت عالم الغرب فيما بعد عن طريق الجسور التي أقامتها الأحداث بين العالمين، بطرائق لا حصر لها في ميادين البحث والتجربة والتعلم والتحضر، وأتاحت له أن يصل بما أضافه إليها من مبتكرات إلى العصر التكنولوجي الحاضر.. ولكن شتان!! شتان بين علم وحضارة صنعهما دين عرف كيف يوحد الإنسان ويضم أرضه إلى سمائه بانسجام وتوافق معجزين، وبين علم وحضارة يصنعهما اليوم (روافض) لم يعرفوا عن الدين شيئاً، ولا استذوقوا طعم السعي في ظلاله يوماً، ولا أدركوا أبعاد آفاقه التي لم تنغلق يوماً بوجه إنسان يبحث عن (طريقة) تضع طاقات الكون بين يديه وترمي بكنوزها عند قدميه..

شتان بين علم هيأ للإنسان (فعلاً) وحدته البشرية مع ذاته، ومع إخوته من بني الإنسان، وأتاح له (فعلاً) أن يكون سيد للعالمين وخليفة في الأرض.. وبين علم سحق وحدة الإنسان الباطنية والجماعية، ودمر على بني آدم قدرتهم على تحويل الإنجاز العلمي إلى وسيلة لسعادة حقيقية شاملة في الأرض والسماء.. علم أحدث

تناقضاً مخيفاً بين كدح الإنسان المادي الملموس وبين مطامحه الروحية والأخلاقية النائية البعيدة.. شتان بين علم أخضع أعناق القوى المادية للإنسان، وبين علم أخضع أعناق بني آدم للقوى المادية.. واليوم تنصب طاقات البحث والتجريب من أجل ابتكار أشد الأسلحة مضاء في قتل الإنسان ودماره.. ويمد العلماء أبصارهم إلى اليوم الذي يتمكنون فيه من إلغاء العالم إلغاءً بحفنة من جراثيم مكتلة، أو سموم مصنعة، أو قنابل لا تعرف شفقة ولا رحمة..

تلك تجربة التاريخ تعلمنا ماذا يمكن أن نجنيه من العلم في كلتا الحالتين..وأي معلم أكثر تمرساً وخبرات من التاريخ؟

المصدر: http://www.almujtamaa-mag.com

==============

#الإساءة إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إساءة إلى حضارة الإسلام والمسلمين

د. منجية السوايحي

لكل حضارة رموزها الشخصية وكتبها المقدّسة ومخزونها الثقافي الّذي تعتزّ به، وتعدّه جزءا مهمّا من كيانها الحاضر التي يصلها بالماضي، وترفض القطيعة معه، ولا تقبل الاستهزاء به والسخرية منه. وقد أجمعت الإتفاقيات الدّولية ومواثيق حقوق الإنسان على رفض التمييز بين أفراد الإنسانية، وعلى ضرورة احترام عقيدة الإنسان، وحضارته وثقافته. إلا أن هذه القاعدة وقع اختراقها في عديد المناسبات خاصّة بالنسبة للإسلام ولنبيّه محمد – صلى الله عليه وسلم – اخترقها من لا يحترمون دينهم ولا إنسانيتهم بالدرجة الأولى لأن من يحترم دينه وثقافته يستنكف عن أن يلحق الأذى بمن يخالفه في الدّين والمذهب.

وإذا عدنا إلى أوائل القرن التاسع عشر والقرن العشرين فإننا نجد فريقا من المستشرقين أساءوا إلى الرّسول محمّد – صلى الله عليه وسلم –، فمنهم من اتّهمه بسرقة ما جاء في التوراة والإنجيل كأبراهام جيجر في كتابه "ماذا استفاد محمد من اليهودية" (بون ١٨٣٣)، وهير شفيلد في "العنصر اليهودي في القرآن" (برلين

١٨٧٨)، وسيدرسكي في "أصول الأساطير الإسلامية في القرآن" (باريس ١٩٣٣)، وريتشاربل في "أصل الإسلام في بيئته الإسلامية" (لندن ١٩٢٦).

هؤلاء وأشباههم يزعمون أن محمّدا باعتباره مؤلّفا للقرآن اقتبس أغلب القصص، وعددا من الصور البيانية، والحكم والأمثال من التوراة والإنجيل، وهو زعم باطل وافتراء لأنه يلزم الرّسول محمد مكتبة عظيمة تحتوي الكتب المقدّسة وشبه المقدّسة، ويلزمه إتقان اللّغة العبرية والسريانية واليونانية، وقرارات المجامع الكنسية، وبعض أعمال الآباء اليونانيين...هل هذا معقول في ذلك الزمن، كما أنّه لا توجد وثيقة تاريخية مكتوبة أو مروية تؤكّد هذه المزاعم الوهمية، ومن مزاعمهم أيضا أنّ أكثر القرآن ضاع، وأنه لم يجمع، وأنّ الرّسول مصاب بالهستيريا، وهي تُهم لا أدلّة عليها.والسبب الوحيد لتلك التهم كرههم للإسلام وللمسلمين ونظرتهم الفوقية، فهم الشعوب المختارة التي خصّها الله بالكتاب المقدّس الوحي فكيف يكون نبيّ من العرب، وكتاب للعرب.

ويمكن أن تصدر مثل تلك التهم في ذلك الزمن من المتعصّبين والمتطرّفين والإرهابيين، فالعدوان منتشر والحروب متتالية، والتطاحن على اقتسام خيرات الضعفاء على أشدّه، وقد اكتوى الكلّ بنار الحرب العالمية الأولى والثانية، ثم استفاقت البشرية لتنظّم العلاقات بينها وقف بنود حقوق الإنسان التي تضمن حرّية المعتقد والمساواة بين أفراد البشرية بغضّ النظر عن الدّين والعرق والجنس، كما ناضل أحرار الفكر في كلّ الحضارات للحدّ من الصّدام بين الأديان والحضارات والثقافات، والدّعوة إلى احترام الإنسان ورغم هذا الجهد وجدت بعض الأصوات التي تؤسس للصّدام، والتناحر وغرضها تحقيق مصالح استعمارية في الألفية الثالثة، ألفية العلم والتحاور والتكنولوجيا، والحرّية.

ومن تلك الأصوات هذه المجموعة التي تشنّ حاليا وانطلاقا من الدانمارك حملة تسيء إلى المسلمين وإلى الرسول – عليه الصلاة والسلام –، وتشوّه صورتهم، وتحثّ على الكراهية، والتمييز من خلال تصوير كاريكاتور للرسول محمد مع بعض النساء، وعبر بعض الفضائيات الدّينية التي تسخر علنا من شخصية الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم –، والمستهدف هم العرب المسلمون.

إنه لعجيب حقّا أن تصدر مثل هذه التصرّفات من الإعلام الغربي بدعوى حرّية الصحافة، وأن السلطة لا تحكّم لها في الإعلام وهذه مغالطة كبيرة، حيث لا تصعد إلى السطح حرية الإعلام إلا إذا أساءت إلى الإسلام ورموزه، في حين تغيب حرّية الإعلام، وتتدخّل السلطة الحاكمة إذا تعلّق الأمر بالمسيحيين أو اليهود، إن الدّول الأوروبية لا تتجرّأ على الخوض في بعض الموضوعات، ولا يمكن التعلّل بالديمقراطية وحرّية الصحافة في ملفّ الهلكوست، ومعاداة السامية، وهنا يبدو جليّا الكيل بالمكيالين، ألا يدفع مثل هذا الموقف المسلمين والعرب إلى إعادة النظر في مواقفهم المتسامحة التي تجلب لهم السخرية من دينهم ومن نبيّهم ومن حضارتهم؟؟؟

ألا يعي الغرب مخاطر العنصرية والتمييز؟

وإنّه من المستغرب حقّا أن نسمع ونشاهد آراء ومواقف لا تزال تدعو إلى صدام الحضارات، وإلى التمييز في معالمة الإنسان مما يذكّي جذوة العصبيّة والكراهية بين الشعوب، ويولّد الإرهاب والإرهاب المضادّ. فكيف ندعو إلى محاربة الإرهاب من جهة، ونترك مسالك تغذيته تترعرع من جديد عبر الصّحف وبعض الفضائيات بدعوى حرّية الصحافة.

ألم يدرك من يسخر من شخصية الرّسول، ومن الإسلام أنّه يحضّ المسلمين على ردّ الفعل، أم أن هؤلاء يبحثون عن حروب دائمة لأنهم يستفيدون منها مادّيا، ولا يهمّهم الإنسان في شيء.

هل يسمح هؤلاء أن يسخر غيرهم من أنبيائهم ورسلهم ودينهم حتى يسمحوا لأنفسهم بالسخرية من دين قائم وله أكثر من مليار تابع، وهم الّذين تلحقهم الإساءة وليس نبيّهم لأنّه مات منذ خمسة عشر قرنا بعد أن خلّد الزمن ذكراه، ولا يمكن لبعض المزاعم أن تمحو ذاك التاريخ.

ما هو موقف الّذين يجتمعون وينظّمون لمقاومة الإرهاب في العالم من هذا النّوع من الإرهاب النفسي البشع الّذي يلحق الضرر بالمسلمين وخاصة المعتدلين منهم؟

نقول لهذه الفئة الحاقدة على الإسلام وعلى نبيّه إن ما تقوله وما تصوّره لا ينقص شيئا من عظمة الرّسول محمد ولا من عظمة غيره من الأنبياء الّذين نجلّهم كلّهم ونؤمن برسالاتهم التوحيدية، بل على العكس من ذلك، فإن مزاعمهم تلك دليل على

قيمة محمد – صلى الله عليه وسلم – الّذي لا يزال مثار جدل ونقاش بعد مضيّ قرون على بعثته.

ونقول لهم إن الدّيانات والحضارات والثقافات تزخر بزاد من المحبّة والاحترام، والسماحة والتفاهم مما يسهّل عليها مواصلة درب الحوار والتعايش لتحقيق السلام والسلم، "لأن السلم العالمي لا يمكن أن يبنى إلا بالحوار والتسامح والتفاهم، كما أنّ مصير العالم لا يمكن أن يقرّر إلا بالبشر جميعا، ومعهم جميعا ولصالحهم جميعا".

ونقول لهم أخيرا إن العالم العربي والإسلامي والعالم الغربي مليء بأحرار الفكر، وبالباحثين عن مسالك الحوار، والساعين لخير الإنسان مهما كان دينه أو لونه أو عرقه أو جنسه، وهم الّذين تعوّل عليهم الإنسانية للحدّ من الصّدام، ومن ويلات الحروب، والبقاء للأصلح.

المصدر: http://al-shaab.org

==============

#الإنسان بين العبادة والحضارة

د. نعمان عبد الرزاق السامرائي

حضرت ندوة حول (المشاكل التربوية) في عالمنا المعاصر، وقد وجدت الانقسام واضحاً، فهذا يركز على الفرد، وذاك على المدرسة، وثالث على الإعلام، ورابع على الوضع السياسي، وخامس على الاستعمار، وسادس على الشيطان...

كما وجدت البعض يقول بأن الحل معرفة العلوم الشرعية، وينادي آخر بتعلم العلوم كافة وهكذا.

وأريد أن أطرح سؤالاً ثم أنطلق منه؛ إذ من المعروف أن الإنسان (مخلوق ثقافي غائي)، فهو منذ نعومة أظفاره يتساءل لماذا نفضل كذا؟ لماذا نترك كذا؟.

والسؤال: لماذا خُلق الإنسان؟

١- هل صحيح ما قاله (ماركس) إن المبدأ الذي يحكم جميع العلاقات بين البشر هو إنتاج الوسائل التي يحددون حياتهم، وبعد ذلك يأتي تبادل ما أنتجوا، وأن الإنسان يعيش أولاً ثم يفكر بعد ذلك.

والذي أريده (تحديداً) هل هذه النظرية كاشفة لواقع أم مقررة لحقيقة ابتداءً؟ ؟ بمعنى آخر: هل نظر ماركس للإنسان في الغرب فوجده كذلك، أم هي حقيقة توصِّل إليها عن طريق البحث والاستقصاء؟ والأمر الآخر: لنفرض أن الإنسان إذا جاع أو عطش استبد به ذلك بحيث صار كل همه أن يصل إلى الطعام أو الشراب، ولكن بعد أن يأكل أو يشرب ماذا يفعل؟ هل يبحث عن قضايا واهتمامات جديدة أم يبقى محصوراً في دائرة (الإنتاج وتبادل ما أنتج)؟ في العالم الرأسمالي الذي رآه - (ماركس) وعايشه - كان الإنسان والدولة والمجتمع إلى حد كبير مشغولاً بالإنتاج وتوزيعه، حتى قال نيتشه: (اجمع اجمع ذلكم هو الشريعة والقانون) أي اجمع المال فذلكم هو الهدف، من هنا صار (رأس المال) ديناً جديداً، حتى قال برنارد شو الفيلسوف الساخر: (إن الشعب البريطاني يعبد الله يوماً في الأسبوع) ويعبد (بنك باركليز) ستة أيام!.

ومن هنا جاءت قناعة (ماركس)، فهي مأخوذة من الواقع متأثرة به، ولكن تلاميذ (بني التلمود) ينكرون ذلك ويعطون أفكار الرجل الشمولية، علماً بأن ماركس يرى أن الواقع ينطبع في ذهن الإنسان فتتحول الفكرة إلى مجرد صدى للواقع ليس إلا، وهكذا كانت أفكار ماركس صدى لما رآه وعاشه من تكالب استعماري وتطاحن حول ثروات الشعوب ونهبها.

٢- هل نذهب مع سارتر فيلسوف الوجودية في عبثيته إذ يقول: (إنهم يكتشفون في وقت واحد، أن كل الأفعال الإنسانية سواء - وأنها بحتمية مبدئية - محكوم عليها بالفشل...

وهكذا يستوي آخر الأمر أن أثمل بالشراب في وحدتي أو أن أقود الشعوب).

أما صاحبته (سيمون دوبوفوار) فتشرح هذه الفكرة بقولها: افعلْ ما ينبغي لك وليكن ما يكون!.

فهل الحياة مسرح لتمثيلية (عبثية) لا يعرف الكاتب ولا المشاهد الهدف منها؟.

٣- هل نقول بأن الإنسان حيوان قد سبق (إخوانه) وهو لم يبتعد كثيراً عن الحيوانية في أهدافه وغاياته، فهو يأكل ويتناسل ثم يموت ولا شيء بعد ذلك ولا فوق ذلك؟ إن الإنسان مخلوق غائي، خُلق لتحقيق أهداف كبرى يمكن ردها إلى: ١- عبادة الله -

تعالى – كما أمر دون شرك، والعبادة – كما هو معلوم – تطلق بإطلاقين: فمَن يشتغل في بحث علمي أو رياضي أو أي عمل دنيوي يقصد به وجه الله فهو في سبيل الله.

٢– العبادة بمعناها الخاص من صلاة وصيام وزكاة، وهذه أساسها النص الصريح، وهي غير قابلة للتصرف بالزيادة أو النقص، أو التوجه لغير وجه الله (تعالى).

– عمارة الأرض: فقد ذكر الله – تعالى – في سورة هود (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ واسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) [هود: ٦١]؛ فعمارة الأرض – كما يسميها ابن خلدون – هي إقامة الحضارة، وهي من مهمات الإنسان الأساسية الكبرى، وقد قام بها الإنسان جيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، وكلما تعبت أمة تلقت الراية أمة فتية، وتجد تضافرت جهود الأمم، وراح اللاحق يبني على جهود سلفه ويزيد ويطور.

فمَن أراد العمران فعليه أن يتعلم علوم عصره كلها، حتى قال علماؤنا في (فروض الكفاية) أن الأمة كلها تصير آثمة إذا وجدت صنعة أو علم وليس في الأمة من يعرفه أو يمارسه.

أما العبادة – بالمعنى الخاص – فعلى صاحبها تحري النص الصحيح والاتباع والبعد عن الغلو والابتداع، فإن فعل ذلك فقد حقق الأهداف التي من أجلها خلق وفاز في الدنيا والآخرة وذلك هو الفوز العظيم.

وللشهيد سيد قطب كلمة يقول فيها [١] (...

لقد غابت الأمة المسلمة عن الوجود وعن الشهود دهراً طويلاً، وقد تولت قيادة البشرية أفكار وأمم أخرى وتصورات أخرى، وأوضاع أخرى فترة طويلة، وقد أبدعت العبقرية الأوربية في هذه الفترة رصيداً ضخماً من العلم والثقافة والأنظمة والإنتاج المادي، وهو رصيد ضخم تقف البشرية على، ولا تفرط فيه ولا فيمن يمثله بسهولة، وبخاصة أن العالم الإسلامي يكاد يكون عاطلاً من كل هذه الزينة...

إن هذه الأمة لا تملك الآن وليس مطلوباً منها – أن تقدم للبشرية تفوقاً خارقاً في الإبداع المادي، تحني له الرقاب، ويفرض قيادتها العالمية من هذه الزاوية فالعبقرية الأوربية سبقته في هذا المضمار سبقاً واسعاً، وليس من المنتظر – خلال قرون على الأقل–التفوق المادي عليها، فلابد من مؤهل آخر، المؤهل الذي تفقده هذه الحضارة.

إن هذا لا يعني أن نهمل الإبداع المادي، فمن واجبنا أن نحاول فيه جهدنا ولكن لا بوصفه المؤهل الذي نتقدم به لقيادة البشرية في المرحلة الراهنة، وإنما بوصفه (ضرورة ذاتية) لوجودنا كذلك بوصفه واجباً يفرضه علينا (التصور الإسلامي) الذي ينوط بالإنسان خلافة الأرض ويجعلها تحت شروط خاصة عبادة لله وتحقيقاً لغاية الوجود الإنساني، لابد إذن من مؤهل آخر لقيادة البشرية غير الإبداع المادي ولن يكون هذا المؤهل سوى (العقيدة) والمنهج الذي يسمح للبشرية أن تحتفظ بنتاج العبقرية المادية، تحت إشراف العقيدة والمنهج في تجمع إنساني، أي في مجتمع مسلم).

ربما كان هذا الطرح المتوازن للقضية هو خير الطروحات، فلا نأخذ الحضارة الغربية ومفرزاتها كلها كما دعا بعض الأتراك وطه حسين ولا نرفضها كلها ونستغني عنها ولكن نأخذ بقدر ونطرح بقدر عارفين ما نحتاج وما لا نحتاج.

نحن وهذه الأهداف:

لقد مررنا بعدة مواقف من هذين الهدفين (العبادة والعمارة) يمكن تفصيلها على الوجه التالي: ١- في الجاهلية لم نكن نعبد الله ولا نساهم في الحضارة باستثناء ما قدمه أهل اليمن ومصر والعراق، من مساهمات معمارية.

٢- في الإسلام عبدنا الله حق العبادة ثم رحنا نساهم في بناء الحضارة حتى حملنا الراية بجد وجدارة، وراح العالم يقتبس منا وينقل عنا وقد شكا قسس ورهبان مر الشكوى من تعلُّم أبنائهم في الغرب لغتنا وعلومنا.

٣- بعد قرون اكتفينا بالعبادة وأهملنا الحضارة، وساهم التصوف والنكبات السياسية وغيرها في هذا التوجه، ثم مع الأيام دخل العبادة الكثير من الدَّخَن، حتى لا نجد مسجداً كبيراً يخلو من قبور، وشاعت زيارة القبور والتبرك بها ودعوة أصحابها وطلب شفاعتهم، وهكذا صرنا مبتدعين في العبادة مقلدين في الحضارة، وكان المطلوب العكس (الاتباع في العبادة والإبداع في الحضارة).

٤- لقد أهملنا الحضارة حتى لم تعد من بين همومنا ولا من تطلعاتنا.

وضاقت دائرة العلم وراحت معاهدنا تضيق يوماً بعد يوم من العلوم المفيدة، والتي خلت من الإبداع، تخلو من الجدة وتبعد عن الحياة.

٥- أعقب ذلك مرحلة أهملنا حتى العبادة، فصار الفرد منا بعيداً عن معانيها (الواسعة والضيقة) ويكتفي أن يقال عنه إنه مسلم دون أن يتكلف شيئاً، وساعد على ذلك رواج فكر (المرجئة) حتى صار جمهور الأمة منها دون أن يدعوه أحد، فكل مسلم يدَّعي أنه عامر القلب بالإيمان، وهذا في نظره يكفي، وقد يفلسف الأمر فيدعي طهارة القلب وعفة اللسان، وإنه أفضل من كثير ممن يمارس العبادة.

إن الأمة إذا كانت قوية تطلعت إلى الأمور الكبيرة، فإذا ضعفت تحاول فلسفة ضعفها وهزائمها؛ لذا كانت أفكار (المرجئة) والمتصوفة أفضل فلسفة تناسب هذه المرحلة.

٦- أخيراً وبعد الصحوة الإسلامية رجعنا للعبادة مرة ثانية، ولكن مازال جمهور الأمة غائباً عن الاهتمام بأمر الحضارة.

فليس من الحضارة أن تركب سيارة لا تعرف عنها سوى القيادة، وليس من الحضارة أن تأكل فواكه أمريكا وأوربا، ولكن أن تساهم في علوم العالم وصناعته، وعلى رأس كل ذلك أن تساهم في تقديم فكر متميز، لا يكون عالة على أحد ولا تبعاً لأحد.

يرى الكاتب مالك بن نبي - رحمه الله - [٢] أن لكل حضارة منتجاتها، فهي متولدة عنها، ولكن لا يمكن صنع حضارة بمجرد تبني منتجاتها، فشراء ما تنتجه الحضارة الغربية من كل دول العالم لم يجعلها تكسب حضارة، فشراء المنتجات هو كسب وتحصيل للهيكل والجسد وليس للروح، والحضارة ليست تكديس منتجات بل هي فكر ومُثُل وقيم لابد من كسبها أو إنتاجها.

والأنكى من ذلك أن أمراض الحضارة يمكن أن تضرب أولئك الذين يتعاملون معها في الأخذ والاقتباس، فتطحنهم أمراضها قبل أن تصلهم خيراتها.

ومن لا يصدق ذلك فما عليه الا أن يزور إفريقية ليرى مصداق ذلك في أمراض الجنس وتعاطي الخمور والمخدرات، وعدم وصول شيء من حضارة الغرب إليهم.

٧- قد يقول البعض إنه يريد الآخرة، ويكفيه في ذلك العقيدة الصحيحة والعبادة السليمة..

والجواب: نعم، قد يصل المسلم الجنة عن هذا الطريق، لكنه لن يكون له نصيب في الدنيا ولا في الحضارة، أو نصيب هامشي لا قيمة له وبالمثل فإن الإنسان في الغرب

يشكل الوجه الثاني (للعملة) فهو لا يعرف الله – تعالى – وإن عرفه فهو يفصل بينه وبين الحياة فالإنسان في الغرب جعل دينه (الحضارة) كما جعلها كل شيء في حياته، وقد قفز بها قفزات كبيرة، ولن يستطيع أحد تجاوز ذلك، أو جحوده، ولن تفرط البشرية في منجزاتها الحضارية، وأن حضارة اليوم تطلق قوى كالذرة قد تكون سبباً في دمار الحضارة والقضاء عليها، وما تلوث البيئة، والخراب الذي لحق بمفاعل (تشرنوبيل) وانتشار الأمراض إلا ثمرة من ثمار هذه الحضارة إلى جانب المنجزات الكثيرة.

٨- تبقى ألوف الملايين من البشر تدب على هذه الأرض لا تعرف الله – تعالى – ولا تعبده، ولا تساهم في الحضارة من قريب أو من بعيد، وفيهم وفي أمثالهم يصدق قول الله – تعالى – (أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ) [الأعراف: ١٧٩] وأقبح من الكل تلك الملايين من البشر التي تعجز حتى عن إطعام نفسها، وتطالب الآخرين أن يطعموها ويداووها ويبنوا لها المساكن.

في العالم اليوم ملايين من الكسالى ليس لديهم الاستعداد لعمل شيء، حتى الخبز تريده مبلولاً وربما مدهوناً وعليه سكر.

والأمة الإسلامية مدعوة بكل جد وقوة لعبادة الله كما أمر، وعدم الشرك مهما صغر، وكذلك المساهمة في الحضارة دون أن تفلسف كسلها وعجزها وتخلفها.

إن العالم يموج بالأقوياء، ومَن لا يكون قوياً بفكره واستقلاله فإنه يعيش على الهامش، كما تعيش بعض القوارض، وستظل الدنيا محكومة بالأقوى فكراً وإنتاجاً وتحضراً، ولن يكون فيه مكان للكسالى المتواكلين، ولن يجدوا (خبزاً مبلولاً) ولا سكناً جاهزاً ولا قبراً جاهزاً.

---

(١) معالم في الطريق، ص٨، طبعة١٠.

(٢) شروط النهضة، ص٤٢.

المصدر: http://www.albayan-magazine.com

=============

#العراق .. قلب الحضارة الإسلامية النابض

تعاقبت على أرض العراق الكثير من الحضارات منذ فجر التاريخ وكان أول هذه الحضارات هي حضارة سومر والتي نشأت تقريباً قبل الميلاد بأربعة آلاف عام ثم تبعتها الحضارة البابلية ثم الآشورية ثم استولى الفرس على البلاد لفترة من الزمن ثم السلوقيين ثم الفرس مرة أخرى حتى فتحها العرب المسلمون عام ٦٣٧ ميلادية.وقد أدى ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي إلى تمكين المسلمين من هزيمة الساسانيين عام ٦٣٧م وقد نشر العرب اللغة العربية والدين الإسلامي في بلاد ما وراء النهرين وفي عام ٧٥٢م أنشأت الخلافة العباسية بالقرب من بغداد وفي عام ١٢٢٨م غزا المغول – من آسيا الصغرى – بلاد ما وراء النهرين وانهارت الخلافة العباسية ثم جاء الحكم العثماني للبلاد وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تدهورت قوة الدولة العثمانية واستولت القوات البريطانية على بلاد ما وراء النهرين وتحت ضغط حركة الاستقلال العراقي نال العراق استقلاله وذلك في عام ١٩٣٢م وأصبح العراق عضوا في جامعة الدول العربية بل وشارك في إنشائها.وقد قامت الملكية في العراق في يونيو بعد قيام ثورة في الحجاز عام ١٩١٦ بقيادة فيصل بن الحسين والذي سمي بعد ذلك فيصل الأول وهو أول ملوك العراق، واستمرت الملكية في العراق حتى سقطت في ١٤ يوليو ١٩٥٨ حينما قام قائد الجيش عبد الكريم قاسم بقيادة انقلاب عسكري وتم إعلان الجمهورية وتم قتل الملك فيصل ونوري السعيد. وهكذا فإن المجتمع العراقي مجتمع حضاري بالسليقة ومشارك عبر تاريخه في صنع هذه الحضارة، وهذا يجعل الشخصية العراقية بطبعها شخصية ديناميكية عميقة. ومنذ الفتح الإسلامي للعراق أصبحت بغداد مركزاً هاماً من مراكز صنع التاريخ العربي الإسلامي. ويكفي أن بغداد كانت مصراً شديد الأهمية من أمصار الدولة الإسلامية الأولى في عهود الخلفاء الراشدين، وعلى أرضه حدثت وقعتي الجمل وصفين. ورغم أن الدولة الأموية كانت عاصمتها ومركزها دمشق إلا أن بغداد ظلت على نفس أهمية دمشق بل تزيد. ثم ظل العراق لقرون طويلة قائد حضارة المسلمين خلال عمر الدولة العباسية. ولم يكن التميز العراقي تميزاً في السياسة فقط بل كانت المدارس اللغوية والفقهية في الكوفة والبصرة وبغداد والموصل شاهداً على التميز والريادة الثقافية والفكرية والدينية. فسيبويه والخليل بن أحمد في اللغة، وأبو حنيفة وأحمد بن

حنبل والشافعي في الفقه وعلوم الدين، كل ذلك كان في العراق. وهذه الخلفية التاريخية تؤكد استحالة تطويع الشخصية العراقية والسيطرة عليها لأنها بطبيعتها التاريخية تعودت على القيادة وصناعة الأحداث وليس الانفعال بها. وقد ظل العراق دائماً جبهة متقدمة في مقاومة الكيان الصهيوني منحازاً إلى أمته ورافضاً هذا الخطر الحقيقي الذي يهدد وحدتها، ولعل هذا يفسر لنا استهداف الدوائر الغربية بقيادة الولايات المتحدة وكذلك الدوائر الصهيونية لهذا البلد العربي المهم. فبعد إعلان قيام دولة الكيان الصهيوني ١٩٤٨ قامت الجيوش العراقية والأردنية بمهاجمة الصهاينة. وفي ١١ مايو ١٩٤٩ تم عقد هدنة بين الكيان الصهيوني والأردن إلا أن العراق ظل يحاربها. وبعد تأميم مصر لقناة السويس أيدتها العراق تأييداً تاماً وبعد أن قام الصهاينة وبريطانيا وفرنسا بالعدوان الثلاثي على مصر ردت العراق وسوريا. خلال الحرب بين العرب والدولة العبرية عام ١٩٦٧ أرسلت العراق وحشوداً عسكرية وطائرات حربية على الحدود الأردنية الصهيونية ثم أعلنت الحرب على الصهاينة وأغلقت خطوط الأنابيب المتجهة للدول الغربية وفي ذلك الحين ساءت العلاقات العراقية الأمريكية. في يونيو ١٩٨١دمر هجوم جوي صهيوني مفاجئ المفاعل النووي العراقي ثم أعلن الصهاينة تبريراً لهذا الهجوم أن هذا المفاعل كان يقوم بتصنيع أسلحة نووية موجهة إليهم. ولعل العراق حاول الخروج من حالة الحصار التقني والعلمي الذي يفرضه الغرب علينا ويفعل مثلما فعلت باكستان ويصبح قوة نووية، ولكن الأعين الغربية والصهيونية كانت مفتوحة، وكما اغتالت إسرائيل الدكتور يحيي المشد المشرف على البرنامج النووي العراقي، ضربت نفس المفاعل. بعد الغزو العراقي للكويت عام ١٩٩٠ م ونتيجة لتداعيات الأزمة، استغلت أمريكا المشكلة لتحقيق أهدافها وحشدت العالم كله خلفها بما فيه غالبية الدول العربية، وشنت أعنف هجوم في العصر الحديث عام ١٩٩١ م ضد بلد وأعادته إلى العصور الوسطى ودمرت بنيته الأساسية. وفور انتهاء الحرب بدأ حصار شامل على العراق قادته أمريكا وبريطانيا واستخدمت فيه الأمم المتحدة لتمرير إطالة أمد الحصار، وتجويع الشعب العراقي. كما بدأ الأطفال والشيوخ رحلة معاناة نتيجة لندرة الدواء مع التزايد المخيف في انتشار السرطان نتيجة استخدام قنابل اليورانيوم المنضب

والأسلحة المحرمة دولياً. واستمرت الطائرات الأمريكية والبريطانية في ضرب الأهداف المدنية والعسكرية بصفة يومية وبدون قرار من الأمم المتحدة. ومع ذلك كله استطاع العراق – بشخصيته الحضارية– أن يصمد في وقفة أسطورية ويعيد بناء ما دمرته الحرب. الانقلابات العسكرية وقد عاش العراق فترة من حياته تسيطر عليه حالة الانقلابات العسكرية إلا أنه استطاع التغلب عليها والانفلات منها، ففي ٨ فبراير عام ١٩٦٣ قامت مجموعة من ضباط الجيش بعزل قاسم ثم تم اغتياله في اليوم التالي وقد كان معظم هؤلاء الضباط من حزب البعث، وتولى عبد السلام عارف رئاسة البلاد وعمل على تحسين العلاقات مع الغرب وفي ١٣ إبريل ١٩٦٦ قتل عارف في حادث تصادم طائرته المروحية وتولى بعده أخوه عبد الرحمن عارف. في ١٧ يوليو ١٩٦٨ تم خلع عارف وتولى رئاسة الوزراء أحمد حسن البكر، الذي أصبح رئيساً لمجلس قيادة الثورة بعد ذلك. وفي عام ١٩٧٩ تنازل البكر عن السلطة لصدام حسين. ومنذ ١٩٦٨ حتى الآن عاش العراق في حالة استقرار سياسي داخلي في مجال الحكم وتخلص من الانقلابات العسكرية. المشكلة الكردية والمشكلة الكردية قلق حقيقي يؤرق العراق كما يؤرق الدول المجاورة التي توجد بها أقلية كردية مثل تركيا وإيران، ففي عام ١٩٥٨ قام انقلاب يطالب بإقامة الجمهورية على أساس المشاركة الحرة من العرب والأكراد وتمت عودة القائد العسكري الكردي ورئيس الحزب الكردي الديمقراطي مصطفى برزاني من منفاه في روسيا بعد قيادته لثورات ١٩٤٣ و ١٩٤٥. في عام ١٩٦٠ و ١٩٦١ قامت عدة محاولات غير ناجحة لامتصاص الأكراد إلا أن العصيان الكردي المسلح استمر. وفي بدايات ١٩٧٠ وقعت حكومة البكر اتفاقية تقضي بأن يكون نائب الرئيس كردياً وكذلك عدد من الوزراء وكانت الأربعة سنوات التي تم تطبيق هذه الاتفاقية خلالها ليست فترة حرب ولا سلام. في أوائل ١٩٧٤ اندلع قتال عنيف في شمال العراق مع الأكراد وكان حزب برزاني يتلقى مساعدات عسكرية إيرانية ولكن بعد أن وافق العراق على بعض التنازلات بخصوص الحدود العراقية الإيرانية توقفت إيران عن مساعدة الأكراد في يوليو ١٩٧٩ تولى صدام حسين الرئاسة بعد البكر. ورغم ذلك فإن الحكم الذاتي الذي حصل عليه الأكراد العراقيين هو أفضل ما تحقق لهم في دول الجوار

التي بها أكراد. مشكلات الجغرافيا السياسية تبعاً لقواعد علم الجغرافيا السياسية فإن العراق يتمتع بعوامل قوة كثيرة ابتداء من مساحة أرض شاسعة وتعدد مناخي مما نتج عنه تعدد في المحاصيل الزراعية، بالإضافة لوجود مياه دجلة والفرات، وكميات الاحتياطي الهائلة من النفط. يكفي أن نشير إلى

أن الجبال في شمال العراق خضراء ويتم زراعة القمح على سفوحها على مياه الأمطار، لدرجة أن الخبراء يعدون شمال العراق هو مخزن القمح الذي يكفي دول الخليج كلها دون الحاجة للاستيراد من الخارج. والعراق بتعداد سكانه البالغ أكثر من ٢٢مليوناً، بلد متماسك ولا يعاني من التخلخل السكاني كما في دول الخليج المجاورة. ولكن نقاط القوة هذه تخفي نقاط ضعف أخرى ربما سببت مشكلات كثيرة للعراق عبر تاريخه، فالعراق تجاوره ست دول وهذا عيب في الجغرافيا السياسية، فكلما كانت الحدود بحر ثم دولة أو اثنتين كان أفضل. والأخطر من ذلك أن معظم هذه الدول في قوة العراق الاستراتيجية إن لم تزد، فإيران وتركيا أكبر مساحة وعدداً والسعودية أكثر مساحة ومقاربة في العدد. يكفي أن نعلم أن حدود العراق مع إيران يبلغ ١٣٠٠ كيلو متر، ومع السعودية ٨١٢ كيلو متر، ومع سوريا ٦٠٠ كيلو متر ومع تركيا ٣٧٧ كيلو متر، ومع الكويت ١٩٥ كيلو متر. ولا يغيب عنا هنا التركيبة الإثنية حيث يشكل الأكراد قطاعا لا يستهان به وخرج في كثير من الأحيان على الدولة العراقية ودخل معها في حرب. والتركيبة المذهبية خطر مماثل حيث الفجوة ماثلة هنا بين السنة والشيعة. وأخطر ما في الأمرين ألاثني والمذهبي أن الأقلية الإثنية (الكردية) منفصلة وموجودة في مكان خاص بها ويمكن فصله وهو شمال البلاد، ويتكرر هذا الأمر جنوباً مع الأقلية المذهبية (الشيعة). كان العراق جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، ثم نال استقلاله، وأصبح مملكة مستقلة، في عام ١٩٣٢. أعلن العراق تحوله إلى النظام الجمهوري، في عام ١٩٥٨؛ ولكنه، ظل، على أرض الواقع، خاضعاً لحكم مجموعة من العسكريين، الأقوياء، منذ ذلك الحين، آخر هم، صدام حسين. أدت خلافاته الإقليمية مع إيران إلى اندلاع حرب مريرة، بين الدولتين، دامت ثماني سنوات (١٩٨٠ . ١٩٨٨). وفي أغسطس عام ١٩٩٠، غزا العراق دولة الكويت، ولكن قوات التحالف، الذي قادته الولايات المتحدة الأمريكية، تمكنت من

طرده، خلال شهري يناير وفبراير من عام ١٩٩١. لم تحتل القوات المنتصرة العراق، ومن ثم سمحت ببقاء النظام الحاكم في العراق. وعقب تحرير الكويت، طالب مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة العراق بتدمير كافة ما يمتلكه من أسلحة دمار شامل، وصواريخ طويلة المدى، وأن يسمح للأمم المتحدة بالتفتيش، للتحقق من تنفيذه هذه المطالب. ولا تزال العقوبات التجارية، التي فرضتها الأمم المتحدة على العراق، سارية المفعول، بسبب عدم التزامه التزاماً كاملاً بقرارات مجلس الأمن.

المصدر: http://jeel.info

===============

#بر الوالدين بين تعاليم الإسلام وحضارة الغرب المادية

محمد حامد الناصر

الأسرة هي اللبنة الأولى في المجتمع الإسلامي، فهي المحضن الدافئ للأطفال، والمرتع الهاديء للشباب، والمأوى الأمين للمسنين والمسنات.

وإذا كان الإسلام يحرص على صون كرامة الإنسان في كل مراحل عمره، فقد عني عناية خاصة بتوقير الكبار واحترامهم، وخاصة الوالدين.

قال – تعالى –: "واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى" والمساكين(٣٦) {النساء: ٣٦}.

اهتم الإسلام بالوالدين اهتماماً كبيراً، وحض على البر بهما، في كثير من توجيهات الكتاب والسنة، واعتبر أن البر بهما فريضة وعقوقهما من أكبر الكبائر.

بر الوالدين في الكتاب والسنة:

بر الوالدين واجب شرعي، من أجل تلبية حاجاتهما الملحة، وخاصة في سن الشيخوخة، فهما يحتاجان إلى المحبة والعون والنفقة، والاحترام والتقدير.

ولذلك حفلت آيات القرآن الكريم، وتعاليم السنة المطهرة بالنصوص التي تحض على رعاية الوالدين والعناية بهما، لأن الأسرة هي الخلية الأولى في المجتمع المسلم، وهي الدعامة المتينة في بناء المجتمعات الإسلامية، والوالدان هما الركن الأساسي في استقرار الأسرة المتوازنة.

قال – تعالى –: " وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ١٣ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير ١٤ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا ١٥ " {لقمان: ١٣ – ١٥}.

فهذه الآيات الكريمة، تعد مثالاً لتلك التعاليم التي زخر بها القرآن الكريم، والتي تدعو إلى تكريم الوالدين ورعايتهما.

وقد قرن – سبحانه وتعالى –، الإحسان إلى الوالدين بتوحيده وخالص عبادته.

" وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ٢٣ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ٢٤ " {الإسراء: ٢٣، ٢٤}.

فقد نهى الإسلام عن الإساءة إلى الوالدين، ولو بالكلمة، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما، وأمر الابن أن يقول قولاً كريماً، وأن يعاملهما بالاشفاق عليهما، والذّل أمامهما.

" بهذه العبارات الندية والصور الموحية، يستجيش القرآن الكريم وجدان البر والرحمة في قلوب الأبناء، ليذكروا واجب الجيل الذي أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف.

ويجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في صورة قضاء من الله، يحمل معنى الأمر المؤكد، بعد الأمر بعبادة الله".

"فكبر السن له جلال، وضعف الكبر له إيحاؤه، وأول مرتبة من مراتب الرعاية والأدب مع الوالدين، ألا يصدر من الولد ما يدل على الضجر والضيق، وما يشي بالإهانة وسوء الأدب: " فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما، وقل لهما قولا كريما"، وهي مرتبة أعلى إيجابية، عندما يكون كلامه لهما يشي بالإكرام والاحترام".

وفي قوله – تعالى –: " واخفض لهما جناح الذل من الرحمة " يشف التعبير ويلطف ويبلغ شفاف القلب وحنايا الوجدان، فهي الرحمة ترق وتلطف، حتى لكأنها الذل الذي لا يرفع عيناً ولا يرفض أمراً".

وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا، هي الذكرى الحانية، ذكرى الطفولة الضعيفة، يرعاها الوالدان، وهما اليوم في مثلها من الضعف والحاجة إلى الرعاية والحنان، والله أقدر على جزائهما بما بذلا من دمهما وقلبيهما، مما لا يقدر على جزائه الأبناء "(١).

وفي السنة النبوية الزاد الوفير لمن أراد بر والديه:

إذ يعتبر الإسلام أن الإحسان إلى الوالدين من الأعمال الجليلة، التي لا يضاهيها عمل إلا الفرائض المكتوبة.

فعن عبد الله بن مسعود قال: سألت النبي: "أي العمل أحب إلى الله؟! قال: الصلاة على وقتها، قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين، قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله"(٢).

وإدراك الأبوين المسنين أو أحدهما، نعمة من الله – تعالى – على الابن البار؛ لأن جزاء البر هو الجنة.

فعن أبي هريرة – رضي الله عنه –، عن النبي، أنه قال: "رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه، قيل: من يا رسول الله؟! قال: من أدرك والدين عند الكبر، أو أحدهما ولم يدخل الجنة"(٣).

فبر الوالدين والإحسان إليهما، من آكد الطاعات، ففي الحديث الصحيح، عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما –، قال: "جاء رجل إلى نبي الله، فاستأذنه في الجهاد فقال: أحيّ والداك؟! قال: نعم. قال: ففيهما جاهد".

وعن ابن عمرو أيضاً، قال: "جاء رجل إلى رسول الله فقال: جئت أبايعك على الهجرة، وتركت أبوي يبكيان، فقال: ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما"(٤).

فبر الوالدين نعمة لا تعوض، لأنهما من أسباب دخول الجنة، كما أن برهما مقدم شرعاً على كل الطاعات، حتى الجهاد في سبيل الله.

وقدر الإسلام ما تعانيه الأم في الحمل والولادة والرضاعة والتربية، ونظر إلى عاطفتها تجاه أبنائها ولو قسوا عليها فدعا إلى البر بها ثلاثاً.

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: "جاء رجل إلى رسول الله فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟! قال: أمك. قال ثم من؟ قال: أمك، قال ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك"(٥).

فللأم الحق الأوفر من البر، كما جاء في الحديث الشريف، وقد يتعدى هذا التعامل الرفيق الوالدين المسلمين، ليشمل الوالدين غير المسلمين.

"عن أسماء بنت أبي بكر – رضي الله عنهما –، قالت: قدمت عليّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله {فاستفتيت رسول الله، وقلت: قدمت عليّ أمي وهي راغبة، أفأصل أمي؟! قال: نعم، صلي أمك"(٦).

هذه هي مكانة الوالدين في ديننا، وهي الأواصر الطيبة التي تؤكدها نصوص الكتاب والسنة، وقد ترجمت إلى واقع حيّ في سيرة سلفنا الصالح، والأجيال التالية على مر التاريخ، إلا ما أفسدته الحضارة الوافدة عند الذين ينعقون بمبادئها.

وفي سيرة سلفنا الصالح أمثلة رائعة:

تعبر عن التطبيق العملي لتوجيهات الشريعة الغراء، وهي محل للقدوة والاتباع.

فمن روائع البر ما روته السيدة عائشة – رضي الله عنها – قالت: " كان رجلان من أصحاب رسول الله أبر من كان في هذه الأمة بأمهما (عثمان بن عفان، وحارثة بن النعمان) – رضي الله عنهما –.

أما عثمان فإنه قال: ما قدرت أن أتأمل وجه أمي منذ أسلمت، وأما حارثه، فكان يطعمها، بيده، ولم يستفهمها كلاماً قط تأمر به، حتى يسأل من عندها بعد أن يخرج، ماذا قالت أمي؟! "(٧).

وقال أبو هريرة لرجل وهو يعظه في بر أبيه: "لا تمش أمام أبيك، ولا تجلس قبله ولا تدعه باسمه"(٨).

فأكرم به من أدب سام، وأنعم به من احترام يليق لمكانة من ضحى وربى وتعب وعلم، وبذلك يبقى الشيخ المسلم عزيزاً مكرماً بين أبنائه وذريته، العاملين بتعاليم دينهم الحنيف.

وسئل الحسن – رضي الله عنه –، ما بر الوالدين؟ "قال: أن تبذل لهما ما ملكت، وتطيعهما فيما أمراك ما لم يكن معصية، ثم قال: أما علمت أن نظرك في وجوه والديك عبادة، فكيف بالبر بهما"(٩).

وحدث أبو بردة بن أبي موسى الأشعري: "أن ابن عمر شهد رجلاً يمانياً يطوف بالبيت، حمل أمه وراء ظهره يقول:

إني لها بعيرها المذلّل

إن أُذعرتْ ركابُها لم أُذعرْ

الله ربي ذو الجلال الأكبر

حملتها أكثر مما حملت

فهل ترى جازيتها يا ابن عمرْ

ثم قال: يا ابن عمر! أتراني جزيتها؟! قال: لا ولا بزفرة واحدة"(١٠).

والصور الناصعة في البر، أكثر من أن يضمها كتاب، لأنها من ثمرات الإيمان الذي ترسخ في النفوس، ونكتفي هنا ببعض النماذج النيرة: فهذا ذر بن عمر بن ذر: كان مثالاً للبر بوالده، قال والده رداً على سؤال وجه إليه: كيف كان ولدك في عشرته معك؟! قال: "ما مشى معي قط في ليل إلا كان أمامي، ولا مشى معي في نهار إلا كان ورائي، ولا ارتقى قط سقفاً كنت تحته".

وهذا حيوة بن شريح: وهو أحد أئمة المسلمين كان يترك الدرس طاعة لأمه، كان يقعد في الدرس يعلم الناس، فتقول له أمه: قم يا حيوة فألق الشعير للدجاج، فيقوم ويترك التعليم"(١١).

فليت شبابنا وبناتنا، يستوحون هذه المعاني السامية، في تعاملهم مع والديهم.

وقد شاعت قصص البر في المجتمعات الإسلامية قديماً وحديثاً، حتى صارت مضرب الأمثال.

الإحسان وصلة الرحم:

دعا الإسلام إلى صلة الأرحام، وتوثيق الروابط الأسرية، والإحسان إلى الأهل عموماً، مصداقاً لقوله – تعالى –: "واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ١ " {النساء: ١}.

وقال – تعالى – محذراً من قطيعة الأرحام: " فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ٢٢ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى" أبصارهم ٢٣ ' {محمد: ٢٢، ٢٣}.

وقال – عليه الصلاة والسلام –: "من أحب أن يبسط له في رزقه وينشأ له في أثره فليصل رحمه"(١٢).

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: "قال رسول الله : الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله"(١٣).

فبعد الوالدين، لبقية الأقارب منزلة رفيعة، كالإخوة والأخوات والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، والآباء والأمهات، بالرضاعة قال – تعالى –: " واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ٣٦ " {النساء: ٣٦}.

وللجيران وأهل الحي، وأصدقاء الوالدين مكانة يحث الإسلام على رعايتها. فقد جاء في الحديث الشريف قوله : "ما زال جبريل يوصني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"(١٤).

وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: سمعت رسول الله يقول: " إن من أبرّ البر، صلة الرجل أهل ود أبيه، بعد أن يولي"(١٥).

ويعتبر العقوق من الكبائر المحرمة في شرع الله:

وقد وردت الأحاديث الكثيرة، مؤكدة حرمة العقوق وقطيعة الرحم.

روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – عن النبي قال: "الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس"(١٦).

وعن أبي بكرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر (ثلاثاً)..قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس فقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور، فما زال يكررها، حتى قلنا ليته سكت"(١٧).

والعقوق من الذنوب التي يعجل الله فيها العقوبة في الحياة قبل الممات.

فقد روى الحاكم حديثاً وصححه، عن أبي بكرة، عن النبي قال: "كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلاعقوق الوالدين، فإن الله يعجّله لصاحبه في الحياة قبل الممات".

وفي حياتنا المعاصرة أمثلة كثيرة تحكي آثار العقوق الأليمة على أصحابها، يلمسونها في ضيق معاشهم، وفي الكوارث والآلام، وعذاب الآخرة أشد وأبقى.

الآباء والمسنون في حضارة الغرب المادية:

عرفنا فيما سبق اهتمام الإسلام بالمسنين عموماً وبالوالدين خصوصاً، فكان من أهم ما تباهي به الأسرة المسلمة، هو استقرارها وتوازنها، وتعاطفها وتعاونها.

أما حضارة الغرب المادية فلها شأن مخالف، ففي زمن طغيان المادة، تحتاج البشرية إلى من يذكرها بالمعاني الإنسانية السامية، والقيم الإسلامية الرفيعة.

لقد أصبحت الحيوانات في تلك الحضارة تتفوق أحياناً على رعاية المسنين، ولاسيما المرضى والعجزة، فقد انتهت صلاحياتهم، ولم يعدلهم ما يقدمونه لبلادهم، ولذلك أهملوا ورمي بهم في زوايا قديمة بانتظار أن يأخذهم الموت.

وهذا ما جعل النائب الديمقراطي الأمريكي "كلودبير".

يقول: "إن وضع المسنين في أمريكا عارٌ وطني مرعب".

وذلك في معرض تعليقه على تقرير أعدته لجنة في مجلس النواب الأمريكي، بعد دراسة استمرت ست سنوات جاء فيها: "إن أكثر من مليون مسن ومسنة، تجاوزت أعمارهم (٦٥عاماً) يتعرضون لإساءات خطيرة، فيضربون ويعذبون عذاباً جسدياً ونفسياً، وتسرق أموالهم من قبل ذويهم.

كما أن هذه الإساءات، ليست مقتصرة على طبقة اجتماعية معينة، بل إنها تحدث في كل طبقات المجتمع على حد سواء، في المدن والقرى والأرياف.

ومن أبشع ما ورد في هذا التقرير:

أن امرأة قامت بتقييد أبيها البالغ من العمر(٨١عاماً) بسلسلة وربطته أمام الحمام، وأخذت تعذبه لعدة أيام!!

وقد أكد التقرير أن الإساءة للمسنين، تأخذ عدة أشكال، منها الضرب والإهمال والحرمان من الطعام والشراب وقد يصل الأمر إلى القتل أحياناً.

ويعلق النائب: "كلودبير" قائلاً: "لا أحد يدرك حتى الآن أبعاد هذه المشكلة المرعبة، ولا يرى أحد أن يعترف بما يجري، لقد تجاهلنا المشكلة لأنها مخيفة، لدرجة تمنعنا من الاعتراف بوجودها، ولا نريد أن نصدق أن مثل هذه الأشياء، يمكن أن تحدث في دولة متحضرة.

وتضيف الدكتورة "سوزان ستايتمتر" أستاذة الدراسات العائلية في جامعة "ملاوير" تقول: "لقد تعودنا طوال تاريخنا على الإساءة للمسنين، إننا نميل إلى العنف البدني، وقد أصبح هذا جزءاً ثابتاً من طبيعة عائلات كثيرة تسيء للمسنين، بالعنف والاضطهاد، وأصبح إهمالهم وعدم الرفق بهم، أو حتى نجدتهم من الأمور الشائعة في المجتمعات الأوربية"(١٨).

أما في الإسلام: فقد نصت الآيات والأحاديث على ضرورة احترام المسنين وحسن رعايتهم.

قال – عليه الصلاة والسلام –: "ليس منا من لا يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا"(١٩).

صور من مآسي المسنين في الدول الصناعية:

يعيش الوالدان في تلك الديار في حالة بائسة، فلا يسأل الولد عن أمه ولا أبيه، ولا ينفق عليهما، ولو كانت حاجتهما شديدة.

فكم من رجل مسن وامرأة مسنة يموتان في أوربا وأمريكا في كل عام من البرد والجوع!!

نعم، هنالك آلاف الأشخاص من الطاعنين في السن، يموتون بسبب البرد والجوع في بلاد الحضارة المزعومة!!

وقد تبقى الجثة في الشقة أياماً دون أن يحس بها أحد، إذ يعيش معظم هؤلاء الشيوخ بمفردهم، فلا يزورهم أحد إلا نادراً، وقد لا يرون إلا مندوب الضمان الاجتماعي في كل شهر مرة(٢٠).

حدثني أخ أثق بدينه "كان يدرس الطب في بريطانيا" أن صديقاً له، كان يعمل مناوباً في أحد المستشفيات هنالك، وكان قد توفي رجل مسن في تلك الليلة عنده، فأحب أن

يعزي أسرة المتوفى، واتصل بولده في الساعة الثانية عشرة ليلاً، وعزاه بوفاة والده على وجل.

فما كان من الابن العاق إلا أن امتعض من هذا الاتصال وقال: أتتصل بي في هذه الساعة المتأخرة من الليل، لتخبرني بوفاة والدي؟! وماذا تنتظر مني أن أفعل؟!

أنا مسافر صباحاً لمدة ثلاثة أيام، ضعوه في الثلاجة، وسأراجعكم حين عودتي، من أجل استلام الجثة(٢١).

فظاهرة العقوق ظاهرة عامة في المجتمعات الغربية، وفي الدول الشيوعية، لقد تجمدت العواطف، ونضبت معاني الإنسانية، وفسدت الفطرة لديهم.

وهذه المعاني من الجحود والنكران، غريبة على تقاليد العرب حتى في جاهليتهم، ممقوتة بغيضة ومحرمة في شريعتنا الحنيفة، ولكن كثيراً من المفتونين بحضارة التيه والضياع لا يعلمون حقائق الأمور.

وإذا كان الأبناء عاقين، فهم يردون الصاع صاعين لذويهم؛ لأنهم أهملوهم صغاراً، انظر إلى الخبر التالي: "نشرت جريدة الشرق الأوسط خبراً مفاده أن امرأة مطلقة من بريطانيا تدعى "مانيس جاكسون"، عرضت ابنها الوحيد للبيع بمبلغ ألف جنيه، والمبلغ يشمل ملابس الطفل وألعابه، وقالت: إنها تبيع ابنها؛ لأنها لا تستطيع الإنفاق عليه، وليس لديها دخل لإعاشته"(٢٢).

وقد نشرت الصحف قريباً، قصة الشاب الذي رضي أن يؤوي أمه العجوز في بيته، مقابل أن تقوم بخدمته وخدمة زوجته وأولاده، وتنظف بيته، ويعتبر هذا كرماً من هذا الولد البار بأمه"(٢٣).

وقصص القوم ببؤسها وشقائها، تكاد لا تنتهي، وهذا هو الجحيم المعاصر في حضارة الشقاء والضياع، إلا أن المفتونين بتلك الحضارة ما زالوا يزينون الشقاء لمن لا يعرفه.

ومن غرائب الجاهلية المعاصرة: "أن شرطة الاحتلال الصهيوني، اعتقلت شاباً، قتل والده بمساعدة الطبيب الذي كان يتولى علاجه.

وبينت التحقيقات أن الشاب "يوسف زوهر" طمع في أموال والده، ومن ثم فقد وعد الطبيب المشرف على علاج والده بحصة معتبرة إن ساعده على قتل والده.

فقام طبيب الموت بفصل جهاز التنفس عن المريض، ووقف يرقب المغدور، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، دون تقديم أية مساعدة له.

وقد وجهت الشرطة للابن تهمة القتل مع سبق الإصرار والترصد"(٢٤).

ودولة إسرائيل تعتبر امتداداً لحضارة الغرب بكل شرورها ونكدها.

فمعاني الإنسانية نضبت في نفوس القوم، وصار تقديم القليل الزهيد، يعتبر شيئاً ضخماً وعظيماً.

يقول أحد الأطباء العاملين في بريطانيا: "كنت أعجب من أحد الشيوخ المرضى، الذين كنت أقوم بعلاجهم في أحد المستشفيات التي كنت أعمل فيها، في إحدى ضواحي مدينة لندن، فقد كان الرجل لا يمل من الكلام عن ابنه البار الذي ليس له نظير في عالم اليوم.

ولم أر ابنه يزوره أبداً، فسألته عن ولده، أمسافر هو؟! فأجاب لا، إنه موجود، ولكنه لا يأتي لزيارتي إلا يوم الأحد، فقد عودني ذلك منذ سنين عديدة.

تصور يا دكتور! كان يأتيني كل يوم أحد حاملاً معه باقة من الورود، ونذهب سوياً لنضعها على قبر أمه.

ولما سألته: هل ينفق عليه؟! قال: لا أحد ينفق على أحد في هذه البلاد.

إنني أستلم كذا من الجنيهات، من الضمان الاجتماعي، وهي لا تكاد تكفيني للقوت والتدفئة، ولكن هل هناك أحد في الدنيا مثل ولدي، الذي يزورني كل يوم أحد منذ سنوات؟!

يقول الدكتور: وما أحببت أن أصدم الأب المسكين، وأقول له: إن الإسلام يعتبر ولده عاقاً، إلا أن المستوى الأخلاقي الهابط، وشيوع العقوق، وغلبة الغدر بدلاً من الوفاء، كل ذلك يجعل مجرد زيارة الولد لأبيه مرة في الأسبوع قمة في البر والصلة(٢٥).

هذه الحضارة الوافدة من ديار الغرب، أو من ديار الشرق الشيوعي "أو البوذي والهندوسي" ربما جعل بعض المفتونين بها، ينعقون بمعطياتها، ويتناسون التعاليم السامية في ديننا وتراثنا وقيمنا العريقة، ويقعون في عقوق أثيم، وجحود قبيح.

فالحمد لله الذي أنعم علينا بهذا الدين، الذي يجعل مجرد التأفف من الوالدين عقوقاً وجحوداً:

" فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ٢٣ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ٢٤ " {الإسراء: ٢٣، ٢٤}

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

—————————————

الهوامش:

١- في ظلال القرآن: المجلد الرابع ص: (٢٢١-٢٢٢) بتصرف يسير.

٢- رواه الإمام البخاري في صحيحه.

٣- رواه الإمام مسلم في صحيحه.

٣- "ورغم أنفه: أي لصق بالرغام وهو التراب"، ينظر: الترغيب والترهيب ج٣، ص: (٣١٨).

٤- رواه أبو داود ينظر: الترغيب والترهيب: ج٣، ص: (٣١٥).

٥- رواه البخاري ومسلم.

٦- متفق على صحة الحديث "أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود"، "ينظر شرح السنة: ج٣، ص: (١٣)"، والترغيب والترهيب: ج٣، ص: (٣٢٢)، "ومعنى راغبة: أي طامعة فيما عندي، تسألني الإحسان إليها".

٧- صلاح الأمة في علو الهمة: د. سيد العفاني، ج(٥/٦٤٦).

٨-٩- شرح السنة للإمام البغوي، ج١٣، ص: (٢٧).

١٠- رواه الإمام البخاري في الأدب المفرد، وابن المبارك في البر والصلة.

١١- صلاح الأمة في علو الهمة: د. سيد ابن حسين العفاني، ج(٥/٦٥٣).

١٢-١٣- الحديثان رواهما الإمام البخاري – رحمه الله –.

١٤- متفق عليه، عن السيدة عائشة – رضي الله عنها –، ينظر صحيح الجامع الصغير: ج(٢/٩٨٤).

١٥- صحيح مسلم رقم: (٢٥٥٢)، وينظر شرح السنة للبغوي: ج(١٣)، ص: (٣٣٠).

١٦- الترغيب والترهيب للمنذري، ج(٣/٣٢٦). "واليمين الغموس: الكاذبة الفاجرة، التي يقتطع بها الحالف مال غيره، سميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار".

١٧- رواه البخاري ومسلم والترمذي "ينظر: الترغيب والترهيب، ج(٣/٣٢٦)".

١٨- مجلة الأسرة، العدد (١٠٥) بعنوان: المسنون في ديننا وحضارتهم"، من مقال لخالد ابن ناجم الشريف.

١٩- ينظر: صحيح الجامع الصغير، ج٢، ص: (٩٥٨)، رواه الترمذي وأحمد والطبراني، وقال الألباني: "حديث صحيح".

٢٠- عمل المرأة في الميزان: د. محمد علي البار، ص: (٣٧)، الطبعة الثالثة.

٢١- ينظر كتابنا: المرأة بين الجاهلية والإسلام ص: (٣٢٨-٣٢٩).

٢٢- جريدة الشرق الأوسط، العدد الصادر في ١٥/٩/١٤٠٠هـ.

٢٣- عمل المرأة في الميزان: د. محمد علي البار ص: (٣٨).

٢٤- مجلة الجندي المسلم، العدد (١١١) سنة ١٤٢٤هـ.

٢٥- عمل المرأة في الميزان ص:(٣٧).

المصدر: http://jmuslim.naseej.com

=============

#قيم الانطلاق لبناء الحضارة

د. عماد الدين خليل

إن الكلمة الأولى التي تنزلت على رسول الله في غار حراء لم تكن نفياً أو سلباً، لم تقل: لا تقتل، لا تسرق، لا تزن الخ وإنما كانت تأكيداً وإيجاباً وأمراً بفعل معرفي هو القراءة: اقرأ باسم ربك الذي خلق (١) خلق الإنسان من علق (٢) اقرأ وربك الأكرم (٣) الذي علم بالقلم (٤) علم الإنسان ما لم يعلم (٥) (العلق).

القراءة والعلم والقلم، تلك هي المفردات التي تضمنتها الآيات الأولى في السورة الأولى من التنزيل، والتي وضعت المسلم في قلب العالم وليس بعيداً عنه أو منفياً منه.

ليس هذا فحسب، بل إن الدلالة المعرفية تمتد إلى عمق زمني أبعد، إلى لحظة خلق آدم – عليه السلام – الذي علم الأسماء كلها ومنح آدم وذريته من بعده، الاستعداد العقلي والجسدي لممارسة دورهم العمراني في العالم " وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ٣١ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ٣٢ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ٣٣ " (البقرة).

ولقد تضمن القرآن الكريم دعوة واضحة مؤكدة إلى أن ننظر إلى الأمام، وألا نلتفت للوراء. إن هذا الالتفات له ضرورات محددة في حالة التلقي عن الآباء والأجداد معطيات تشريعية أو تراثاً معرفياً، قد تستهدي به الأمم لتبين مواقع الخطأ والصواب، أما أن يكون عملاً لا وعيياً يقوم على التقليد الأعمى فسيجعلنا في حالة تعارض مع ما يريده القرآن الذي نعى على المشركين والمتخلفين أنهم كانوا يتشبثون بما فعله الآباء والأجداد بغض النظر عن مدى سلامة هذا الفعل ومنطقيته: " قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا (يونس: ٧٨)، إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ٢٣ "(الزخرف).

وهي هداية معكوسة يرفضها الإسلام أشد الرفض.

إن توينبي، المؤرخ البريطاني المعروف، يشير إلى نمطين من التعامل مع معطيات الآباء، نمط التقليد الأعمى في مرحلة السقوط الحضاري، ونمط الاقتداء بالنخبة المبدعة وخبراتها الحيوية في مرحلة النهوض الحضاري، والقرآن الكريم يرفض الأولى لأنها تقود إلى التخلف والسكون.

إن القرآن الكريم يضعنا في مساحات واسعة منه في قلب التاريخ بحثاً عن المغزى..عن صيغ العمل في الحاضر والمستقبل: " لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى" ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ١١١ " (يوسف).

ولكنه في الوقت نفسه يحررنا من التاريخ لكي نتمحض للحاضر ونتحرك صوب المستقبل، دون أن تعيقنا وتنقل كواهلنا أعمال الأجيال الماضية: " تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون " ١٤١ (البقرة).

وطالما أكدت المعطيات القرآنية والنبوية رفضها لهدر الطاقة التي تعمل أحياناً في غير مجالاتها المرسومة. إن الرسول يقول: "تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله". إنه ها هنا يدعونا للتفكير في الخلق الذي يقود إلى العلم والتكنولوجيا، بموازاة تأكيد إبداعية الله في العالم، والإيمان بوحدانيته – سبحانه –، ويحذرنا من التفكير في الذات الإلهية التي تعلو على الأفهام، وتستعصي على القدرات البشرية، وهو التفكير الذي يقود إلى ال "ما ورائيات" والتعامل التجريدي مع "واجب الوجود" و"متناهي الأول" والميتافيزيقا، وما يتمخض عن هذا كله من هدر للطاقة العقلية.

إنه يريدنا أن نتعامل مع الكتلة الكونية وأن نكشف عن قوانينها لتنمية الحياة التي سخرت إمكاناتها للإنسان من أجل التحقق باستخلافه العمراني في العالم، بدلاً من هدر الطاقة فيما هو خارج عن حدودها وإمكاناتها وضرورات صيرورتها الحضارية في الأرض.

إن القرآن بتأكيده الملحوظ على قيم المعرفة والتقدم والاكتشاف وضع المسلم في البداية الصحيحة والضرورية للفعل الحضاري ودفعه إلى الانطلاق لصياغة حضارة كان لها دورها المؤكد في تاريخ الحضارات البشرية. ولا تزال.

المصدر : http://www.almujtamaa-mag.com

===============

#حضارة الإيمان والتوحيد

عماد الدين خليل

إن من أهم ما تميّزت به حضارتنا الإسلامية زمن تألقّها وعطائها أنها قامت في أساسها وجوهرها على الإيمان والتوحيد؛ بمعنى أنها انبثقت عن أصول عقدية مستمدة من منهج عمل الهي..وحي قادم من السماء..وهي بهذا تجاوزت اعتبار (الوجود) المصدر الوحيد للمعرفة، وتميزت عن الأنشطة المعرفية الأخرى باعتماد هذا الأصل الخطير جنباً إلى جنب مع الوجود. ومن ثم تغدو الحضارة الإسلامية

بشكل من الأشكال تعبيراً متفرداً عن ذلك اللقاء المرسوم بين السماء والأرض. وهي مهما تضمنت من أخطاء وانحرافات، متعمدة أو غير متعمدة، ومهما شذت أو بعدت أحياناً عن مسارها الأصيل، عن كونها التعبير الصادق للمنطلق المستمد من الجذور، المتوجه صوب الهدف، فإنها تظل في نسيجها العام.. في إيقاعها وصيرورتها وتوجهاتها ونبضها، حضارة إيمانية تعتمد (الوحي) جنبا إلى جنب مع (الوجود).

وهي من أجل ذلك تلتزم العمل في إطار منظومة القيم التي تحددها العقيدة، وليس خارج هذه المنظومة.. ويعبر هذا الالتزام عن نفسه في مفردات سلوكية النشاط الحضاري وفي صيغ التعامل مع نتائجه، كما أنه يعبر عن نفسه في توظيف هذه النتائج لخدمة الأهداف الإيمانية العليا للإنسان، وليس جعلها هدفاً بحد ذاته، أو أداة منفعية صرفة.

تتمحور إيمانية هذه الحضارة، كما هو شأن كل ممارسة إسلامية، عند (التوحيد) وتنطلق منه، منداحة دائرتها باستمرار لكي تغطي كل مفردة في حياة المسلمين المعرفية والسلوكية على السواء.. إنه نقطة الجذب والإشعاع معاً.. القلب الذي يعطي ويأخذ، يضخ ويتلقى.

بما أن التوحيد الذي ينبثق عن الشهادة التأسيسية الكبرى (لا إله إلا الله) هو المرتكز والهدف، فإنه سيدخل منذ اللحظة الأولى، في الزمن، وسيمتد في المكان إلى كل جزئية من جزئيات النشاط الحضاري لكي يطبعه بهذا التقابل المؤثر الفعال مع الله الواحد جل في علاه، ويصبغه بكلمة الله التي يأخذ عنها المسلم منهاج العمل، ويتوجه إليها في الصيرورة والمصير.

ولسوف تتأكد هذه الخصيصة المحورية لدى مقارنة الحضارة الإسلامية بأية حضارة أخرى، دينية محرفة أو وضعية. إننا هنا بإزاء عودة إلى الجذور.. إلى الحقيقة الكبرى في أقصى درجات وضوحها وفاعليتها وتألقها.. إن الحضارة الإسلامية سيقدر لها أن تمنح الفعل البشري، وهو يعمل، فرصته في أن يستعيد وظيفته الأصيلة خليفة عن الله وحده في هذا العالم، مستعمراً له وحده فيها: في التاريخ، في الجغرافيا، في النفس، في المجتمع، في الفلك، في الطب، في الهندسة، يعبر التوحيد

الإسلامي عن نفسه.. في المعادلات الكيمياوية والجيوب واللوغارِتمات.. في المنائر الواثقة المتفردة الصاعدة إلى السماء، وفي القباب المتكورة على الخشوع والتسليم.. في كلمات الشعراء ولمسات المعماريين.. يتجلى التوحيد كما لم يتجل في أية حضارة أخرى.

لقد منح التوحيد نشاطنا الحضاري عبر التاريخ وحدته المتماثلة وشخصيته المتفردة.. شد جزئياته وتفاريقه في أنساق واحدة تتجه خيوطها جميعاً صوب الهدف الواحد، وتنبثق عنه، لكي ما يلبث النسيج في نهاية الأمر أن يجيء معبراً بلسان الحال عن صنع يدي نساج واحد.

على مستوى الدافع يضع التوحيد العالم المسلم قبالة الله – سبحانه – مسؤولاً عن قدراته التي أودعه الله إياها، ساعياً لأن يستثمرها حتى حدودها القصوى. على مستوى الهدف تصاغ معطيات هذا السعي المعرفي لكي تكون متوافقة مع كلمة الله، متجاوزة ما وسعها الجهد أيما قدر من الثنائية أو الازدواج.

وفي كل الأحوال فإن التوحيد يصير دافعاً لمزيد من العطاء، ومعاملاً لوحدة هذا العطاء ومنحه سماته الأصيلة المتفردة.

في التوحيد يغدو الكون والعالم والطبيعة من صنع الله القادر المهيمن المبدي المعيد، ويتحرر العالم المسلم من سائر الخرافات والصنميات التي تلبستها الطبيعة والعالم في المذاهب والأديان الأخرى، فعرقلت انطلاقه الحر للكشف عن السنن والطاقات والنواميس.. إن التوحيد يضع العالم المسلم حراً في مواجهة الكتلة الكونية، فاعلاً مريداً.. يضعه فوق هذه الكتلة سيداً على الخلائق، ومن ثم يصير التوحيد فرصة كبرى للتحقق بالمعرفة، للاستزادة منها، من أجل الإمساك بتلابيب العالم والطبيعة والحياة.. والتقرب أكثر إلى الله. ودائماً كان التوحيد هو صمام الأمان عبر تعامل الحضارة الإسلامية مع الحضارات الأخرى، فلا تأخذ، في الأعم الأغلب، إلا ما ينسجم وإياه، ولا تمرر إلا ما يسمح هو بتمريره إلى شبكة الحضارة الإسلامية. وها هنا أيضاً أعطى التوحيد الفرصة لهذه الحضارة بأن تتحقق أكثر بوحدتها وخصوصيتها، سيما إذا تذكرنا أن الحضارات الأخرى، كانت تنبض في إيقاعها، في كثير من الأحيان، أصوات الآلهة والصنميات والثنائيات والأضداد.

بإيجاز، حيث لا يسمح المجال بالاستفاضة في موضوع يحتمل المزيد، فإن التوحيد كما يقول الدكتور إسماعيل الفاروقي – رحمه الله – في كتابه (جوهر الحضارة الإسلامية) "هو الذي يعطي الحضارة الإسلامية هويتها، هو الذي يربط بين أجزائها، هو الذي يطبع كل ما يدخل إليها من عناصر فيؤسلمها ويطهرها فتخرج من عبورها في التوحيد متجانسة مع كل ما حولها. قديماً وحديثاً كتب مفكرونا آراءهم في جميع الميادين تحت عنوان التوحيد، وذلك لأنهم رأوا فيه المبدأ الأكبر الذي يشمل جميع المبادئ الأخرى، ورأوا فيه القوة الكبرى التي تفجرت عنها جميع المظاهر المكونة للحضارة الإسلامية" التوحيد هو الشهادة عن إيمان بأن (لا إله إلا الله) هذه الشهادة السلبية في مظهرها، والمختصرة اختصاراً لا اختصار بعده، تحمل أسمى المعاني وأجلها. فإذا أمكن التعبير عن حضارة برمتها بكلمة واحدة، إن أمكن صب كل الثراء والتنوع والتاريخ في أبلغ الكلام وهو أقصره طولاً وأكثره دلالة كان هذا في (لا إله إلا الله) عنوانا للتوحيد وبالتالي للحضارة الإسلامية.

المصدر : http://www.almujtamaa-mag.com

================

#أسس الحضارة الإسلامية ومقوماتها

سهيلة العابدين

بعدما تحدثت المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة عن معجزة العرب الحضارية في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب) تساءلت عن المقومات التي احتاجها العرب ليبعثوا مثل هذا البعث، كما تساءلت عن العوامل التاريخية والاجتماعية والروحية والفكرية التي كان لا بد لها أن تجتمع لتخلق هذه المعجزة التي حققها العرب.

وأقول جواباً عن تساؤلات المستشرقة الألمانية:

إن الإسلام وحده هو الذي كان وراء هذه البعث العربي والإعجاز الحضاري الذي حققه العرب، فلقد كان العرب في حاجة إلى عقيدة إلهية واحدة تكون مصدر التجمع والتصور، ومنبع الفكر ومنهج الحياة..مؤثرة في المبادئ والشرائع والأنظمة والأوضاع التي تنظم المجتمع أفراداً أو جماعات مع نظام مؤثر في الأخلاق

والآداب والتقاليد والعادات والقيم والموازين التي تسود المجتمع وتؤلف ملامحه مع سيادة القيم الإنسانية واستملاء الإنسان في العقيدة الإسلامية والنظام الاجتماعي الإسلامي.

أولاً: العقيدة:

تقوم العقيدة في الإسلام على تنظيم صلة الإنسان بالله وتعطيه قيماً معينة وشريعة تنظم الحياة الاجتماعية حسب هداية الله – سبحانه وتعالى – أن ترتكز هذه العقيدة على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.وهي تعني الإفراد بالعبودية لله وحده دون سواه والاعتراف بالخلق والسلطان له – سبحانه وتعالى – وتنزيهه عن الشريك. ويتمثل ذلك في التصور والإدراك البشري من تلقي الإنسان لحقائق العقيدة من مصدرها الرباني الذي يتكيف به الإنسان في إدراكه لحقيقة ربه ولجلاله ولحقيقة الكون الذي يعيش فيه، ولحقيقة الحياة التي يعيشها، ولحقيقة الإنسان نفسه، ومن ثم تصبح عقيدة (أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها، فأركان الإسلام من مقتضياتها، صلاة، وزكاة، وصيام، وحج، وحدود، وتعازير، وحلال وحرام، وسلوك وأخلاق، والاعتراف بالعقيدة لله رب العالمين يقتضي الطاعة لله وحده والتسليم لحكمه دون سواه: (قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {١٦٢} لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ {١٦٣}.

هذه العقيدة القائمة على التوحيد لها معطيات كانت وراء ما حققته الحضارة الإسلامية من سمو وإعجاز أدهش العالم وأثار تساؤلات علمائه عن هذه المعطيات ومن هذه المعطيات.

١- السمو الإنساني:

إذ أعطت هذه العقيدة لحامليها ومعتنقيها الطهارة في أسمى معانيها وأجمل صورها، الطهارة من الشهوات، فلا تستخذله شهوة، ولا تطوعه غريزة شر، بل تعطيه عقيدته قوة يستعصي بها على أي هوى أو نزوة، فلا يضعف، ولا يستكين لعواصف الشهوات، وإغراءات العادة، وقد يضعف أمام ذلك الكثير، رغم ما أوتوا من علم وما

بلغوا من حضارة (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ {٢٣}.

وتعطيه كذلك كرامة يجالد بها عبودية الإنسان للإنسان وتسلط الطواغيت على حياته ودنياه فلا يتخذ رباً إلا الله (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ {٦٤}.

كما تعطيه سمواً في التفكير فلا يكون أسيراً لرواسب ماضية ونحل متحرفة، وقد كان هذا دأب الجاهلين قبل (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ {١٧٠}.

٢- النمو الحقيقي للأشياء:

أن تبعث العقيدة الإسلامية في نفوس أصحابها التصور الحقيقي لقيم الأشياء فلا ينطلي عليها غبش الدعايات وبهرج الشبهات، فمن يعرف ربه يعرف شيمة نفسه ويعرف قيمة إيمانه ويعلم تسخير العوالم له، ويعلم كذلك أن الناس كلهم عبيد لله وكلهم من خيره يرزقون، فلا تزلف لأحد إذاً، لأن الكل مخلوق، والكل محتاج إلى عطف الله ورضاه، وإذا استعان صاحب العقيدة فإنما يستعين بالله، وإذا طلب فليطلب من الله.

ويعلم كذلك أن الضر والنفع من الله، وصدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في تعليم ذلك لابن عباس: (إذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لا ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك).

٣- الرجاء وطمأنينة القلب:

أن تبعث هذه العقيدة في نفوس أصحابها الرجاء في الله وطمأنينة القلب؛ إذ يربي الإيمان القلب على نفسية قائمة على الثقة بالله والرجاء فيه، فهو في كل حال يتغلب على اليأس والقنوط والجلد والثقة حتى يأتيه نصر الله وهو مطلع عليه: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ {١٨٦}.

٤- الجراءة والشجاعة في مواجهة الشدائد:

فهذه العقيدة تعطي صاحبها صفات نفسية عامرة كريمة بغير حدود من هذه الصفات الجراءة والشجاعة والبسالة النادرة، الشجاعة في كل ميدان من ميادين الحياة، الشجاعة في مواجهة النفس والتغلب على ثقل الحيوانية، ولهذا ترى كثيرين من أصحاب العقائد ضربوا أروع الأمثلة في الاستقامة والقدوة بعد تاريخ طويل في الجهالة وحب العرض وأتباع الشهوات، واستطاعوا أن يفرضوا الاستقامة وأن يعلموا الشعوب الهداية والرجولة ونبذ الانحراف ومداواة النفوس (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً {٤٦}.

٥- الإحاطة والشمول:

مما تتميز به العقيدة الإسلامية الإحاطة والشمول حيث تعترف بالكتب السماوية كلها، حيث يأمر الإسلام الإيمان بكل كتاب أنزله الله على أحد من رسله (والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ {٤} أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {٥}.

ومن مظاهر الإحاطة والشمول: الدعوة العامة لجميع البشر وعدم التمييز بين جنس وجنس، ولون ولون، وفقير وغني، بل الكل أمام الله سواء، والدين لهؤلاء جميعاً. والرسول – صلى الله عليه وسلم – بعض الناس جميعاً (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ {٢٨}.

ومن إحاطة الإسلام وشموله: بيانه لجوانب الحياة صغيرها وكبيرها، ما صلح منها وما فسد من طعام وشراب فأحل الطيب وحرم الخبيث (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ).

وقد بين الإسلام أن الأعمال هي قوام المسلم وهي ميزان بها يصعد وبها يهوي، وبها يسود في الأرض، وبها يضيع من قدمه الطريق (وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً {١٢٤}.

ثانياً: النظام الاجتماعي:

الأساس الثاني للحضارة الإسلامية هو النظام الاجتماعي المتكامل الذي جاء به الإسلام، وصبغ به الحياة الإسلامية، وهو نظام رباني اختاره الله للبشرية لينظموا حياتهم عليه، ويحييهم به حياة طيبة، ويسعدهم به في الدنيا والآخرة، ولا تتداخل معه

أهواء البشر الشاردة أو أنظارهم القاصرة وإنما هو وعي إلهي رائق ينظم حياة الناس وينسقها، كما ينظم حركة العوالم ويهذبها ويسعد حياة البشر ويهنيها، ومن أهم أسس النظام.

١- المساواة بين البشر:

يقيم الإسلام المجتمعات الإسلامية على قاعدة مهمة مستقيمة هي المساواة التامة بين البشر، ويقرر المساواة على إطلاقها فلا قيود ولا استثناء، وإنما مساواة تامة بين الأفراد ومساواة تامة بين الجماعات، ومساواة تامة بين الأجناس، ومساواة كاملة بين الحاكمين والمحكومين لا فضل لرجل على رجل ولا لأبيض على أسود، ولا لعربي على أعجمي، وذلك لقوله - تعالى -: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ).

فهذه قومية عالمية ووحدة إنسانية متكاملة تكون جماعة دولية، تحمي فيها الامتيازات القائمة على الاختلاف في الألوان والأجناس واللغات والحدود الجغرافية، ومن المحال أن تكون حضارة إنسانية عالمية إلا بتحقيق ذلك لأنها من جانب تحافظ على فردية الفرد، ومن جانب آخر تطهرها من كل ما قد يكون فيها من الميول المتناقضة، والنظام الإسلامي بهذا يقطع الطريق على النظام الطبقي وما يصاحبه من نظام اجتماعي، وقد أحدثت، هذه المبادئ ثورة اجتماعية هائلة بدلت الأوضاع الاجتماعية فالكل أمام الله سواء، ومن هذا المنطلق سار الناس بطاقاتهم إلى المجد لا يعترضهم جهل أو غرور أو تسلط، ويسعى الكل يعليه عمله ويرفعه جهده أو يوبقه كسله ويقصره ضرره، ولهذا نرى أن المجتمع الإسلامي برزت فيه طاقات جبارة ولولاه بعد الله، ما كان لها في الحياة شأن أو ذكر.

٢- العدالة المطلقة:

لقد جاء الإسلام بالعدل الذي يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل لا تميل مع الهوى ولا تتأثر بالوأد أو البغض ولا تتبدل مجاراة للصهر أو النسب، والغني والفقر، والقوة والضعف (وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً {٥٨}.

وعن أنس عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: (لا تزال هذه الأمة بخير ما إذا قالت صدقت، وإذا حكمت عدلت، وإذا استرحمت رحمت).

وقد ربى الإسلام الإنسان المسلم على العدالة بحيث تكون نابعة من ذاته، لذا قال – صلى الله عليه وسلم –: (أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه) وقوله – عليه السلام –: (عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به).

ومن العدالة في الإسلام المساواة أمام القانون فلا يكون هناك قانون للأشراف وآخر لغيرهم أو يكون قانون للبيض وآخر للملونين، فعندما اهتمت قريش بأمر المرأة المخزومية التي سرقت وقد اعتزم النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يقطع يدها لتكرار السرقة منها، ولأن حد الله يجب أن يقام ولا يحابي أحد لجاهه فوسطوا أسامة بن زيد يشفع في ذلك لمكانته عند الرسول – عليه السلام – قال لائماً: (أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة) ثم وقف خطيباً وقال: (ما بال قوم يشفعون في حد من حدود الله، إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)، هذا هو العدل في الإسلام الذي حض الله وأمر به، جل شأنه، من ذلك قوله – تعالى –: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ).

ومن العدالة في الإسلام العدالة الاجتماعية التي تراعي المواهب وتهيأ لها الفرص بغض النظر عن فقرها أو غناها؛ ولذا برزت في الإسلام مواهب وقدرات وطاقات أذهلت الجميع، فالمهم في الإسلام أن يفسح المجال للمواهب، ويوضع كل في مكانه الصحيح حتى إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – اعتبر من لم يفسح المجال لذوي المواهب مضيعاً لنعمة الله وخائناً للإنسانية، إذ يقول – عليه أفضل الصلاة والسلام –: (ومن استعمل رجلاً من عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين).

ومن العدالة الاجتماعية إعانة الضعيف بقوله جل شأنه: (وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ {١٩}، (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ {٩} وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ {١٠}، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: (المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، من كان

في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة).

٣- الحرية:

تتجلى الحرية في المجتمع الإسلامي في أجل معانيها وأسمى مقاصدها وأروع مظاهرها، ومن هذه الحريات:

حرية الاعتقاد:

لقد قرر الإسلام حرية الاعتقاد وجعل لكل إنسان الحق في أن يعتنق من العقائد ما يشاء، وليس لأحد أن يجبره على ترك دينه واعتناق آخر ولو كان الإسلام، يوضح هذا قوله – تعالى –: (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) وقوله جل شأنه: (ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ).

أي بدون إكراه، ولا يخفى على كل منصف أن ما يقرره الإسلام في هذا المبدأ الذي يتجلى فيه تكريم الإنسان واحترام إراداته ومشاعره، وترك حريته لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد وتحميله تبعية عمله وحساب نفسه، وهذا هو أخص خصائص التحرر الإنساني.

حرية التفكير:

كما يقرر الإسلام حرية الفكر والتفكير ويحض الناس على التأمل والبحث واستجلاء الحقائق والنظر إلى ما وراء الأشياء إلى غايتها. ولهذا نرى دعوة القرآن إلى التفكر في خلق السموات والأرض وفي خلق أنفسهم وفيما حولهم مما تقع عليه أبصارهم، أو تسمعه آذانهم، ليصلوا من رواء ذلك كله إلى معرفة الخالق وليستطيعوا التمييز بين الحق والباطل والهدى والضلال، والأدلة في القرآن الكريم كثيرة التي تحث على التأمل والتدبر والتفكر، من ذلك قوله جل شأنه (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ {٢٠} وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ {٢١}، وقوله – تعالى –: (قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا).

حرية القول:

لقد جعل الإسلام حرية القول حقاً لكل إنسان على أن يستعمل الإنسان حرية القول في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {١٠٤})، كما يحتم الإسلام على المسلم أن ينطق بالحق إذا سكت الناس ويجهر به إذا توارت الأصوات وخفتت الألفاظ وكممت الأفواه، ويبين هذا قوله – صلى الله عليه وسلم –: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطيع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)، وقوله – صلى الله عليه وسلم –: (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر).

كما نهى الإسلام المسلم عن تحقير نفسه بأسره لرأيه وكتمه لفكره، فعن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: (لا يحقرن أحدكم نفسه) قالوا: يا رسول الله وكيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال (يرى أن لله عليه فعالاً ثم لا يقول فيه: فيقول الله – عز وجل – يوم القيامة: (ما منعك أن تقول فيّ كذا وكذا؟) فيقول: (خشية الناس) فيقول: (فإياي كنت أحق أن تخشى).

فهاهي شرائع الإسلام تحض على إبداء رأيه وإظهار فكره ولا يخشى في قول الحق لومة لائم.

هذا وقد وضع الإسلام ضوابط للحرية حتى لا تخرج عن إطار القيم والفضائل والأخلاق وحقوق الآخرين والصالح العام، فالإنسان حر في أن يمارس حريته بشرط أن يكون سيد نفسه فلا تستبد به آراؤه أو تستعبد شهواته، وهو حر أيضاً في أن يمارس حريته على ألا تتعارض هذه الحرية مع الصالح العام أي لا تعارض حرية الفرد مع حق المجتمع كله، فالإنسان حر ولكنه في الوقت ذاته مسؤول عن خير المجتمع والصالح العام.

وعلى هذا ترتكز الحرية الإسلامية على قاعدتين أساسيتين هما: شخصيته فلا يخضع الفرد لأهوائه ولا يكون عبداً لشهواته، والقاعدة الثانية: اجتماعية: وهي تقوم على مراعاة حقوق ومصالح المجتمع.

وهكذا نجد أن الإسلام في تصوره للحرية فاق جميع المذاهب والأديان والفلسفات فلم يطلقها كالوجودية الملحدة والشيوعية، ولم يكبتها وإنما أطلقها في حدود لا تتعارض مع خير الفرد والمجتمع، وكان من ثمار هذه الحرية اعتقاداً وفكراً وقولاً الإنجازات

العلمية الكبرى في جميع ميادين المعرفة التي تحققت على أيدي المسلمين منذ بزوغ فجر الإسلام.

٤- الأخوة:

أن يقوم المجتمع الإسلامي على أساس متين من الأخوة الإنسانية المتمثلة في قوله - تعالى -: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً) {١}.

وكذلك من الأخوة الإيمانية المتمثلة في قوله جل شأنه: (إنما المؤمنون إخوة)، ولقد قام الإسلام الأخوة على أساس التعاون والالتفاف حول راية القرآن (وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)، (وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)، (فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً {٥٩}.

٥- الأخلاق والفضائل:

إن الأخلاق في التصور الإسلامي هي أصل الحياة الإسلامية وشعبها التي تكون صرح المجتمع الإسلامي.

يقول جل شأنه: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)، وقال جل شأنه: (غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ {١٥٩}.

ويقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً)، وقد جعل حسن الخلق أكثر مما يدخل الجنة، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: (سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟، قال: (تقوى الله وحسن الخلق)، وحَسَن الخلق يكون من أحب الناس إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأكثرهم قرباً منه يوم القيامة، فعن جابر - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: (إن من أحبّكم إلى الله وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن من أبغضكم إليّ وأبعدكم مني يوم القيامة

الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون، قال المتكبرون).

وهكذا نجد أن الحضارة الإسلامية وصلت إلى ما وصلت إليه من إعجاز فاق جميع الحضارات لأنها قامت على أسس متينة إذ نظر الإسلام إلى الإنسان نظرتين:

- نظرة تكريم أعطاه فيها كل ما حفظ به كرامته، حفظه من كل ظلم وبغي وعنت، وتولى رزقه وعطاء توجيهه وإرشاده، وأطلق حريته واحترم إرادته وأجاب دعوته.

- نظرة تقييم: إن نظر إليه بمعيار خلقه ونفعه وعطائه وإيمانه.

أما المجتمعات فقد نظر إليها

بمنظار ما فيها من قيم، من مساواة وعدالة وحرية وأخوة واتحاد وتعاون وفضائل، فإذا كملت هذه الأوصاف ووجدت هذه النماذج كان الإنسان متحضراً وكان المجتمع كذلك، وإذا فقدت كان المجتمع غير متحضر وكان الإنسان فيه غير حضاري وإن رفل في النعيم ووصل إلى الفضاء لأن الإسلام يبحث عن حضارة الإنسان ورقيه، لا عن زخرفة البناء وعلوه، يبحث أولاً سعادة المكرم لا زخرفة المسخر، لأنه منطقي في نظرته، واقعي في حكمه.

فالحضارة التي تقوم على هذه الأسس هي بلا ريب سيدة الحضارات.

المصدر: http://altareekh.com

================

#دور المسجد في بناء الحضارة

د.وليد فتيحي*

إننا في أمس الحاجة إلى أن نعيد استقراء تاريخنا، وأن ندرس عوامل نجاح أمتنا في قيادة الإنسانية قرابة ألف عام، وبناء حضارة يشهد لها أعداؤها قبل أبنائها.

أي مدرسة وجامعة فكرية وعلمية واجتماعية تلك التي استمرت في إخراج أساتذة للإنسانية في العلوم النقلية والعقلية على حد سواء قرابة ألف عام، من فقهاء ومحدثين، وعلماء في الطب والهندسة، والرياضيات والفلسفة، والفلك والأدب وغيرها من علوم الدين والدنيا، قلما يجتمع مثل هذا الرقم الهائل منهم في حضارة واحدة، دع عنك أن يكونوا جميعاً نتاج مدرسة واحدة.

أما المدرسة التي أقصدها فهي المسجد بمفهومه الشامل المتعمق، وهو مفهوم غائب عن كثير من أبناء أمتنا، المسجد الذي يمثل نقطة التقاء الأمة وتوحيدها، والمظهر العملي لوحدتها، ولذلك كان أول أعمال أستاذ الإنسانية سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – هو بناء مسجد للمسلمين في قباء في أيامه الأولى التي أمضاها في المدينة، وبعد انتقاله من قباء إلى المدينة كان أول أعماله كذلك بناء مسجده – صلى الله عليه وسلم –، وحمل أحجاره بيديه الكريمتين فكان المسجد النبوي مدرسة الدعوة الإسلامية الأولى، ودار الدولة الإسلامية الكبرى، وكان المدرسة والجامعة، ومقر مجلس الشورى، وعقد الرايات، وتجهيز الجيوش، وإدارة شؤون الأمة صغيرها وكبيرها.

إن المسجد في المفهوم الإسلامي الخالص هو مقر إعلان العبودية الخالصة لخالقنا ((وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً))، وبما أن العبادة في المفهوم الإسلامي شاملة جامعة لحياة الإنسان العابد لله – تعالى–: ((قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين))(الأنعام ١٦٢–١٦٣)، وبما أن العلم في الإسلام شرط أساسي في أداء العبادة الصحيحة بمفهومها الشامل؛ فلابد إذن من أن يقوم المسجد بدور نشر العلوم، بل وأن يصبح منارة ومقصداً علمياً.

وقد قام المسجد بدوره التعليمي منذ أيامه الأولى، وحث رسول الله على هذا الدور العلمي بقوله – صلى الله عليه وسلم –: (من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً أو يعلمه كان كأجر حاج تاماً حجه) أخرجه الطبراني، وهذا المقصد التعليمي أوضحه وبينه – صلى الله عليه وسلم – في حديثه ليفرق بينه وبين البعد الشعائري من إقامة الصلوات في المساجد.

ولم يقتصر الدور التعليمي للمسجد على الرجال بل نافست عليه النساء لما أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: قالت النساء للنبي: (غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن)، وفتح المسجد صدره للمرأة تشهد دروس العلم ليتأكد حق المرأة في تحصيل العلم، ومشاركة الرجل في الحياة، وقد أعجبت السيدة عائشة أم المؤمنين

بإقبال الانصاريات على العلم فقالت: (نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء من أن يتفقهن في الدين).

وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يشرف على حلقات العلم التي كانت تنتشر في أرجاء المسجد النبوي الشريف خاصة في بواكير الصباح، حيث حدث عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مر بمجلسين أحدهما فيه دعاء وإقبال على الله، والآخر فيه علم، فأقرهما وقعد في مجلس العلم، وشجع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – استخدام الوسائل المتاحة آنذاك لتوضيح المعاني والدروس سواء كانت بصرية أو سمعية، ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن مسعود بقوله: خط لنا رسول الله خطا بيده ثم قال: (هذا سبيل الله مستقيماً)، وخط عن يمينه وشماله ثم قال: (هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه) ثم قرأ: ((وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله))(الأنعام ١٥٣).

ولو أن الوسائل التعليمية المتاحة لنا في عصرنا هذا وجدت في عصر رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – لحثَّ على استعمالها، وكان أول من يستعملها – صلى الله عليه وسلم –.

واستمر المسجد في التطور والنمو جيلاً بعد جيل، ليؤدي مهامه في صناعة الحياة، ليصبح جامعات ومنارات علمية وفكرية رائدة، والأمثلة كثيرة نذكر بعضها مثل: جوامع الألف – وسميت كذلك لأنه مضى على تأسيسها أكثر من ألف عام – مثل: جامع عمرو بن العاص قلب الفسطاط الفكري، ومهد الحركة العلمية في مصر، والذي كان يشهد مئات الزوايا العلمية، والجامع الأموي في دمشق، وجامع المنصور ببغداد، وجامع القرويين في فاس بالمغرب الذي امتاز بالنظام التعليمي الجامعي، وطرق التدريس فيه، فكان له شروط دقيقة للتعيين، ووظائف التدريس، وتخصيص كراسي الأستاذية، والإجازات الفخرية، وكان له مساكن جامعية خاصة للطلبة والأساتذة، ومكتبات متخصصة للدارسين الجامعيين، فقصدها المسلمون وغير المسلمين من شتى أرجاء العالم، أما جامع الزيتونة بتونس فقد أبدع في شتى مجالات العلوم النقلية والعقلية، وضمت مكتبته العامرة ما يزيد عن مائتي ألف مجلد،

وكذلك كان حال الجامع الأزهر الذي بدأ كغيره كمسجد لإقامة الشعائر التعبدية وسرعان ما أصبح جامعة يدرس فيها العلوم المختلفة، وتخرج فيها علماء عمالقة في كل مجالات الحياة.

واشتركت كل هذه الجامعات العظيمة في تشجيعها لطلبتها على مبدأ المناقشة والمناظرة والتمرس عليها، فأصبح من المألوف أن يخالف الطالب أستاذه في الرأي في إطار الأدب المتعارف عليه، وبهذا أوجدت المدرسة العظيمة التي يطلق عليها بالمسجد – بمفهومه الشامل – أجيالاً ستظل معجزة العالم ومفخرته، ولها فضل على كل علوم الدنيا شرعية أو كونية أو إنسانية، حيث كوَّنت أساس النهضة العلمية والصناعية في الغرب.

وحظي القرنان الخامس والسادس الهجريان بالتوسع في بناء المدارس المنفصلة عن المساجد، مما أدى تدريجياً إلى فقد شمولية التعليم في حلقات المسجد ليقتصر على العلوم الشرعية، وبدأ الضعف العلمي يدب في الأمة، ومما زاد في تسارع الضعف والانهيار حدوث كوارث ثلاث في تاريخ أمة الإسلام على مدى ثلاثة قرون:

أما الأولى فهي حرق مدينة الفسطاط عام ٥٦٤هـ، وأما الثانية فهي تخريب وحرق التتار لبغداد مركز الحضارة الإسلامية آنذاك في عام ٦٥٦هـ، أما الكارثة الثالثة فهي سقوط الأندلس عام ٨٩٧هـ.

وبفقد المسلمين للزعامة العلمية تم فقد قيادة الإسلام للبشرية، وورثت أوروبا التراث العلمي، فحمله أبناؤها وقدروه حق قدره، فرفع قدرهم ليتسلموا من المسلمين الزعامة العلمية وقيادة البشرية، وأصبح المسلمون يتخبطون في الجهل، وضاعت هويتهم الإسلامية، فبدأوا يفصلون بين التعليم الديني والتعليم الدنيوي وهو مفهوم غريب عند جيل عمالقة المسلمين، وانفصل بذلك البعد الروحي والخلقي والتربوي للمسجد عن العلوم الدنيوية، فضعف التحصيل في علوم الدنيا التي فيها قوام الحياة، وعمل الاستعمار على تقليص التعليم الإسلامي الشامل، فعملت بريطانيا على الأزهر، وفرنسا على جامع القرويين في فاس، وكذلك الحال بالنسبة للزيتونة بتونس، ومن وسائل تحجيم وتحييد هذه المساجد الجامعية إضعاف أوقافها، وتخرجت أجيال ممن صبغت بغير صبغة الله وبغير صبغة مدرسة الإسلام، وابتعد المسلمون أكثر فأكثر

عن مفهوم الشمولية العلمية، وعمارة الأرض، والأخذ بأسباب كل ما يقيم الحياة ويبنيها، بل وعندما فقدت صبغة المسجد فقد الإخلاص في تلقي العلوم، وسخرت أمم أخرى العلوم بمعزل عن القيم الروحية وما يصلح النفس البشرية.

إن ضعف دور المسجد هو انعكاس لضعف الأمة الإسلامية، ولن تكون الصحوة الإسلامية إلا عندما يقوم المسجد بدوره الشامل، ويرتقي بأساليبه ووسائله التربوية والتعليمية بما يتناسب مع احتياجات العصر ومقتضياته، ليصبح قلب الحياة الإسلامية من جديد، وهو واجب عصري حيث لا يتم واجب تعليم الجيل إلا به.

إن هناك جهوداً حثيثة لإعادة دور المسجد في بناء الحضارة وصناعة الحياة، ومن هذه الجهود ما تقوم به الجمعية الإسلامية في بوسطن من إقامة أضخم مركز حضاري في أمريكا يشمل مسجداً جامعاً ومدرسة ومكتبة تكون مرجعاً للباحثين ومركزاً لدعوة غير المسلمين وقاعات للمحاضرات.

وسيبنى المسجد – إن شاء الله – في موقع متميز بجوار المدينة الطبية والجامعات الكبرى مثل هارفرد وجامعة بوسطن على أرض قدمت للمسلمين بسعر رمزي لأول مرة في تاريخ أمريكا، وسيكون هذا موضوعنا القادم إن شاء الله.

(ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها).

المرجع: المسجد ودوره التعليمي عبر العصور من خلال الحلق العلمية لعبدالله الوشلي.

* استشاري غدد صماء وسكر، ورئيس برنامج في مركز جوزلن للسكر، وعضو هيئة تدريس كلية طب جامعة هارفرد – بوسطن، وعضو مجلس أمناء الجمعية الإسلامية في بوسطن.

المصدر http://saaid.net :

===============

#العمران والحضارة عند ابن خلدون

ناجي بن الحاج الطاهر

لم يعد الحديث عن أزمة العالم محور جدل اليوم، بل صار محور تلاقٍ لمختلف التيارات الفكرية في كل البلاد. كما أن تلك الأزمة بحد ذاتها أصبحت إشكالاً يُمثلُ – للمفارقة – عاملَ توحيد بين مختلف الأمم المتواجدة على الساحة العالمية في هذا العصر.

وفي هذه اللحظة الخانقة من تاريخ البشرية، تُطرح "العالمية" أو "العَولمة" على أنها مشروع لحل أزمة العالم اليوم بمختلف أجناسه وشعوبه. ويتجسد طرح العولمة في صورٍ مختلفة، فهي مرةً "نهاية التاريخ"، وهي مرة أخرى "توحيد الأسعار وفتح الحدود"، ومرة ثالثة هي "الإنترنت"، مرورا بـ "كوكلة" العالم (حيث يشرب العالم كله الكوكاكولا) على حد تعبير الدكتور المسيري. ويغيب عن بال البعض أن تلك العولمة هي في حقيقة الأمر – بشكلها الحالي – تعبيرٌ عن الأزمة أكثر من أن تكون حلاً لها.

إلا أن الشكل الذي تُطرح به العولمة لا يجب أن يحجب عنا المظاهر العديدة التي تجعل منها واقعا مُعاشا. فهناك تداخل العلاقات الدولية إلى حدٍ يستحيل معه أي قرار داخلي دون اعتبار الآخر الخارجي، وهناك سرعة انتقال المعلومات وتجاوزها الطبيعي للحدود الدولية، وهناك عالميةُ مشكلة البيئة، وعالميةُ مسألة الهجرة، وعالمية التجارة كمُعطى وليس كخيار.. والوعي المشترك والمتزايد للبشرية بوحدة مصيرها، ومدى التأثير العالمي على الأحداث الداخلية (راوندا، البوسنة، أفغانستان...). كل هذا وغيره يجعل من الضروري لمن يريد أن يفكر في مصير البشرية اليوم من موقع المسؤولية أن يتفكر في شأن مفهوم العالمية في شكل من الأشكال.

وفوق ذلك، فالعولمة أو العالمية عند المسلمين فكرة ذات مستوى معرفي، وذات بعد ديني في الوقت نفسه، وذلك لارتباطها عندهم بفكرة الخاتمية. الأمر الذي يجعل مسؤولية المسلمين في هذا المجال مزدوجة، ويدعوهم لجعل فكرة الخاتمية تلك ممكنة على صعيد الواقع والنظرية على حد سواء.

من هنا، وسواء طُرح الإسلام كبديلٍ أو كشريكٍ حضاري، فإن من غير الممكن الاستغناء عنه في بناء حضارة عالمية تُمكِّنُ العالم من تجاوز أزمته. إلا أن أي محاولة للإسهام في هذا الأمر من قبل المسلمين كطرفٍ عالمي تتطلب فهما وبحثا

معرفيا عميقا لمفهومين أساسيين هما: العمران والحضارة. ذلك أن الموجود إلى الآن في تاريخ المسلمين المعاصر لا يمثل سوى محاولاتٍ لترجمة ما عند (الآخر) من عطاء ثقافي يتعلق بهذين المفهومين.

وقد قصدنا الحديث عن التاريخ المعاصر، لأننا نجد في تاريخ المسلمين ما قبل المعاصر أن عبد الرحمن بن خلدون طرح مسألتي العمران والحضارة كظاهرتين بشريتين بشكل متكامل. فابن خلدون الذي ولد في تونس سنة ١٣٣٢ للميلاد عاش لحظة أزمة عالمية تتطلب التفكير العميق في التحول الحاصل من جرائها، فهاهو يقول "وإذا تبدلت الأحوال جملةً فكأنما تبدّلَ الخلقُ من أصله وتحول العالم بأسره وكأنه خلقٌ جديد ونشأةٌ مستأنفةٌ وعالَمٌ مُحدَث"١. ولذا تبرز مسؤوليته في إعادة كتابة التاريخ كضرورة، يقول "فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق والأجيال والعوائد والنِّحل التي تبدلت لأهلها ويقفو مسلك المسعودي لعصره"٢.

ومن هنا، يتبين السبب الكامن وراء إعادة قراءتنا للفكر الخلدوني متمثلا في استقلاله عن غيره من المسلمين عند تحديد مفهومي العمران والحضارة من وجهة نظر معرفية إسلامية، وذلك من واقع وعيه بالأزمة من داخلها، وشعوره بالمسؤولية للخروج منها. وربما تُساعد مشاركة ابن خلدون على إقامة حوار تعارف مع الحضارات الأخرى من منطلق انتمائها الحضاري الأصيل، بعكس كثيرٍ من المساهمات التي لا تُمثّلُ سوى الآخر مترجما، ذلك لأن الشريك غير المترجم دائما في حوار الحضارات...

العمران عند ابن خلدون

يقدم ابن خلدون الإنسان على أنه كائن اجتماعي لا تصح حياته بدون مجتمع "فالاجتماع ضروري للنوع الإنساني وإلا لم يُتخيل وجودهم وما أراد الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه إياهم"٣، كما أن الإنسان نفسه مهيأٌ خَلقيا للعيش مع الآخر، وهو يحتاج يده "المهيأة للصنائع"٤ وذلك لجعل حياته ممكنة. والملاحظ هنا أن العمران يكتسب معنا معرفيا عميقا حيث يصبح مرتبطا بغاية خلق الإنسان، وتصبح خلافة الإنسان في الأرض مسؤولية كل فرد على تحقيقها في ذاته أولا، بحيث تكون من هذا الوجه مسؤولية فردية، ثم على تحقيقها اجتماعيا داخل العمران الإنساني كمسؤولية جماعية.

وكذلك فإن ابن خلدون يؤكد على أن الإنسان هو صاحب مصيره، وهو المسؤول عنه، على عكس الحيوانات الأخرى، وذلك "لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة على سائرها"١. وربما كان من المناسب أن نقف هنا وقفة صغيرة عند إشارة ابن خلدون للحيوانات بـ "التكوين" وإشارته المقابلة للنوع البشري بـ "العمران"، وعلاقة تلك الإشارات بمسألة "الاختيار" و "الحرية" فيما يتعلق بالمصير البشري. فوجود الحيوانات على هذه الأرض ومصيرها فيها إنما هو وجودُ "تكوين" محدد المصير والوجهة والهدف والغاية، ولذلك تضع بعض الحيوانات بيضها في مكان ما ثم تمضي بعيدا في عمق الحياة دون عودة إلى ذلك المكان ودون قلق على مصير الذرية. بينما يبلغ الولد العشرين من العمر في التجربة البشرية وهموم مصيره ومآله ومستقبله تلاحق الأب وتؤرق الأم. لأن الأمرَ أمرُ اختيارٍ للمصير، لا يطمئن الوالدان إلا بعد استيقان صوابه ورشاده وفق مقاييسهما أياً كانت.

أما الخلافة في كلام ابن خلدون فإنها تأخذ شكل الهيمنة، التي وإن كانت تتربع على أعلى موقعٍ في سُلَّم المخلوقات، إلا أنها هيمنةٌ مسؤولةٌ دورها الأساسي هو المحافظة على الحياة أولاً، ثم الوصول إلى أكمل صورة ممكنة لها في هذه الدنيا. ذلك أن من الممكن أن يصل الإنسان إلى نوع من السيادة المطلقة في هذا العالم، ولكن هذه السيادة تكون سيادةَ شرٍ وعدوان واستغلال كما هي الأمثلةُ صارخةٌ على ذلك في هذا العصر.

والأمر الآخر الهام في الطرح الخلدوني هو تأكيده على ضرورة وجود "الوجهة" كأمرٍ لابد منه لكي يوجد العمران ويتحرك ويتكامل. وكلما ارتقى الإنسان في تحديد وتمييز تلك الوجهة، بحيث تكون وجهةً إلى الحق، ازداد تكامل العمران البشري على هذه الأرض. وحيث أنه يقسم العمران إلى درجات، تبدأ بالعمران البدوي الحاجي الأولي، وتنتهي بالعمران الحضاري الكمالي التكاملي، فإن شرط التحول والانتقال من العمران البدوي إلى ما بعده إنما هو وجود تلك "الوجهة" التي تعني الغاية والهدف والطريق الذي يحرك الإنسان في هذه الحياة.

إلا أن ابن خلدون يلفت انتباهنا إلى تأثير نمط الحياة المعين على المآلات المستقبلية "فاختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو اختلافُ نحلتهم من المعاش... فمن كان معاشه في الزراعة مثلا كان المقامُ به أَولى، وهؤلاء سكان القرى والمدن والجبال وهم عامة البربر والأعاجم، ومن كان معاشه من السائحة مثل الغنم والبقر فهم ظُعَّنٌ في الأغلب... وهؤلاء مثل البربر والترك وإخوانهم من التركمان والصقالبة، وأما من كان معاشهم من الإبل فهم أكثر ظعنا وأبعد في القفر مجالا... وهؤلاء هم العرب وفي معناهم ظعون البربر وزنانة بالمغرب والأكراد والتركمان والترك بالمشرق، إلا أن العرب أبعد نجعة وأشد بداوة لأنهم مختصون على القيام بالإبل فقط، وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشياه والبقر معها.. "١ وهنا نجد كيف يتحول العمران عند ابن خلدون إلى مصطلح متحرك، يرتبط لزوما بنمط حياة المجموعة البشرية ونمط حركتها على الأرض. فالقيام برعي الإبل – على سبيل المثال – يتطلب التوغل في الصحراء عند العرب، وهذا بدوره يجعل الاجتماع مغلقا غير قابلٍ للاتساع، أي يجعل العمران راكدا حاجيا بسيطا في الإجمال.

ولكي يكتمل الحديث عن الاجتماع والعمران فإن من الضروري الإشارة إلى تعريف ابن خلدون للعصبية. ذلك أن هذه "العصبية" هي ما يجعل الاجتماع البشري ممكنا، بحيث يقود ذلك الاجتماع فيما بعد إلى إمكانية قيام العمران. فالتسلسل عند ابن خلدون يصبح كالتالي:

عصبية ===> اجتماع بشري ===> عمران

ولقد تعددت الأقوال في تحديد رؤية ابن خلدون للعصبية وتعريفه لها عند الباحثين العرب والمسلمين من جهة والغربيين من جهة أخرى، الأمر الذي لا يتسع بحثه في هذا المقام. إلا أن ما لا يمكن تجاوزه هو الإشارة إلى المنهجية التي يجب اتباعها عند محاولتنا تحديد ماهية ذلك المفهوم عند ابن خلدون. والخطوة الأولى في هذا المجال تتمثل في ربط مجمل الأمثلة التي يطرحها بعضها بالبعض الآخر لاستخراج فهمٍ أوليٍ لها، ثم ربط ذلك الفهم الأولي ببقية المصطلحات التي يطرحها مثل العمران والاجتماع الإنساني والغاية والوجهة بقصد تعديل ذلك الفهم الأولي واستخراج فهم أكثر تحديدا للمراد من مفهوم "العصبية".

وباتباع تلك المنهجية نجد أن رؤية ابن خلدون للعصبية تجعله مفهوما متساميا على النسب والولاء والحلف والقرابة، ولكنه في نفس الوقت ليس مستقلا عنها. والمسؤولية الإنسانية المنبثقة من الخلافة هي التي تعطي للعصبية طابعها المعين في زمان معين ومكان معين. فإذا تحققت تلك المسؤولية عند المجموعة البشرية ساهمت العصبية في إقامة العمران، أما إذا غابت فإن دورها لا يصبح محايدا فقط، بل إنها يمكن أن تتحول إلى عامل تدمير وتخريب للعمران.

ويلاحظ ابن خلدون أن العصبية البالغة القوة عند القبائل المتوغلة في الصحراء كانت قاتلةً لكل انفتاح اجتماعي ممكن، بحيث أصبح أصحابها أبعد الناس عن العمران والحضارة. فالقضية هنا ليست قضية غياب العصبية، وإنما في عدم قدرتها على الإبصار. بمعنى أن الاجتماع البشري يصبح خاضعاً لها مُستلَباً أمامها، فاقداً للقدرة على وضعها في موضعها. وفي مثل هذه الحالة بالضبط تبرز بكل وضوح رؤية ابن خلدون لدور الدين من ناحية قدرته على توظيف "العصبية" وإعطائها قوة "الإبصار" بحيث تعود الحركة لتتوجه نحو تكامل العمران. والأمر الذي ينبغي الانتباه إليه أن الدين بهذه الرؤية إنما هو عاملٌ مؤثرٌ في العصبية وموجهٌ لها، وليس أصلا لها كما يُفهم في بعض الأحوال.

أما تحليل ابن خلدون لدور الدين بذلك الشكل فإنه يشرحه بقوله عن العرب "... وأنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض، والأنفة وبُعد الهمة والمنافسة في الرئاسة، فقلَّ ما تجتمع أهواؤهم. فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خُلُق الكبر والمنافسة منهم، فسهُل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المُذهب للغلظة والأنفة الوازع عن التحاسد والتنافس"[١]. وواضحٌ أن المسألة هنا لا تتعلق برفض الهوى ابتداءً، وإنما بالقدرة على التحكم فيه وتوجيهه إلى الحق، أي في وجود "الوجهة" المطلوبة.

ولذلك يلاحظ ابن خلدون أن الدعوة الدينية تزيدُ الدولة قوة فوق قوة العصبية التي كانت لها، والسبب في ذلك "أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتفرّدِ الوجهة إلى الحق، فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساوٍ عندهم، وهم مستميتون عليه، وأهل

الدولة التي هم طالبوها [أي الدولة التي يواجهونها] وإن كانوا أضعافهم فأغراضهم متباينة بالباطل، وتخاذلهم لتقية الموت حاصل، فلا يقاومونهم وإن كانوا أكثر منهم بل يغلبون عليهم ويعالجهم الفناء بما فيهم من الترف والذل"٢.

والعصبية التي تلعب ذلك الدور الهائل، والتي تشكل عصب المجموع، تتمثل في ميدان الواقع من خلال التنافس في الخلال الحميدة "وخلال الخير شاهدة بوجود الملك لمن وُجدت له العصبية. فإذا نظرنا في أهل العصبية ومن حصل لهم من الغلب على كثير من النواحي والأمم، فوجدناهم يتنافسون في الخير وخلاله، من الكرم والعفو عن الزلات والاحتمال من غير القادر والقري للضيوف وحملِ الكلِّ وكسب المعدم والصبر على المكاره والوفاء بالعهد وبذل الأموال في صون الأعراض وتعظيم الشريعة وإجلال العلماء والعاملين لها.. والانقياد إلى الحق مع الداعي إليه.. والتدين بالشرائع والعبادات والقيام عليها وعلى أسبابها والتجافي عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد"١.

وظاهرٌ ما في تلك الصورة من تحقيقٍ للمسؤولية الإنسانية المنبثقة من الخلافة. فالاستخلاف يضع البشر على أعلى رتبة في سلم المخلوقات، بشرط أن يصاحبَ البقاءَ في ذلك الموقع الشعور الدائم بالمسؤولية التي تتطلبها أمانة الاستخلاف.

ثم تأتي عند ابن خلدون مرحلة الدولة كغايةٍ للعصبية، وكضرورةٍ لدخول العمران البشري مرحلة الكمال "فالدولة دون العمران لا تُتصور والعمران دون الدولة والمُلك متعذر"٢. وطريق العصبية إلى الدولة سالكٌ عند ابن خلدون ما لم تعترض العصبية في طريقها إلى المُلكِ عوائق مثل: حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم، أو المذلة للقبيل والانقياد إلى سواهم.

وكما ينتقل العمران من العمران البدوي إلى العمران الحضري فإن الدولة هي الأخرى تنتقل من البداوة إلى الحضارة "فطور الدولة من أولها بداوة ثم إذا حصل المُلكُ تبعه الرَّفهُ واتساع الأحوال. والحضارة إنما هي تفننٌ في الترف وأحكام الصنائع المستعملة.. "٣. وفي هذه المرحلة يلوح خطر طغيان عالم الأشياء. لأن قوة الدولة تزداد وحصول الاستيلاء يتمُّ وعِظَمَ واستفحال المُلكِ يتفاقم "فيدعو إلى الترف ويكثر الإنفاق بسببه، فتعظم نفقات السلطان وأهل الدولة على العموم بل يتعدى ذلك إلى

أهل المصر، ويدعو ذلك إلى الزيادة في أعطيات الجند وأرزاق أهل الدولة، ثم يُعظِّم الترف فيكثر الإسراف في النفقات وينتشر ذلك في الرعية"١. ويبدأ الاجتماع البشري في التوجه إلى لحظات أزمةٍ خانقة، لا يحلها على الإطلاق زيادة الإنتاج، بل إن تلك الزيادة تساهم في تعفين الأجواء وتعميق الأزمة.

إن هذه اللحظة هي لحظة الاكتمال الطاغي للعمران الناتج عن لحظة سيادة عالم الأشياء (أي المنتجات والماديات)، وذلك عبر مثلث جهنمي متناقض يتمثل في طغيان توفر الأشياء من جهة، وشدة البحث عنها من جهة أخرى، والضعف المتناهي للتحكم فيها والقدرة على وضعها موضعها من جهة ثالثة. وبدلاً من أن يمتلك الإنسان الأشياء في هذه اللحظة، يصبح هو – عملياً – مُلكاً لها، لأن امتلاكها صار محور حياته وحركته، وصار هو "الوجهة" و"الغاية".

ولذلك تصبح المفارقة في مثل هذا العالم أن موت الإنسان من الجوع – وهو ما يحصل كثيرا، وبشكلٍ يشينُ كل حضارة إنسانية معاصرة – لا يعود مرتبطا بفقدان عالم الأشياء.. وإنما من تحقق عالم الأشياء وتكدسها، وما ينتج عن ذلك التكدس من مناهج في الحياة والتفكير والتعامل بين الإنسان وأخيه الإنسان.

وفي هذه اللحظة تستحيل "الوجهة" التي أنتجت الحضارة عبر تحرك العمران نحو تحقق عالم الأشياء، ثم تفقد "العصبية" القدرة على توحيد الأهواء باتجاه تلك الوجهة وتبدأ هي أيضا في التلاشي، ليكون تلاشي العصبية أخيرا مُفضياً إلى تلاشي الدولة كليا "إلى أن تضمحل كالذبال في السراج إذا فني زيته وطفيء والله مالك الملك ومدبر الأكوان لا إله إلا هو"١.

وهنا ينتهي تجوالنا مع ابن خلدون في تتبّعهِ لرحلة قيام العمران البشري وسقوطه، لننتقل في ختام هذا البحث إلى تحديد واستخلاص بعض المعالم الأساسية التي يمكن أن تُستفاد من هذه التجربة الخلدونية.

وأول ما نلاحظه في هذا الصدد أن ابن خلدون كان – وهو يحاول أن يفهم أزمة حضارته – مضطرا خلال عمليته التنظيرية إلى تأصيل مفاهيم جديدة تتجمع وتتكامل داخل النسق المعرفي الإسلامي، فهو لم يخرج على الدوائر العامة الكبرى للتصور الإسلامي للإنسان والحياة والكون، ولكنه – في الوقت نفسه – لم يجد نفسه

مُلزما باستعمال نفس الأدوات والمصطلحات والتعابير، ولا حتى المنهجية الفكرية التي كانت شائعة في العالم الإسلامي في عصره أو ما قبل عصره، حين رأى أن تلك المصطلحات أو المنهجية لن تمكنه من القيام بواجبه، ومن أداء دوره الخاص والمتميز. بل إن هذا الأمر بالذات هو ما مكّنهُ من تقديم عطائه المبدع بشكل جعله بحق أول من حاول بشكل متكامل إيجاد تصورٍ إسلاميٍ معرفيٍ للحضارات وللاجتماع الإنساني وحركته على وجه الإجمال. وفي هذا عبرةٌ بالغة لكل من يحاول اليوم قسر مسيرة الإنتاج العلمي والفكري والبحثي على سلوك المنهجية الفكرية التقليدية، أو على استخدام نفس مصطلحاتها وأدواتها ومواضيع بحثها في كل زمان ومكان...

أما الأمر الآخر الذي يمكن استخلاصه فإنه يتمثل في قيمة العطاء الخلدوني في عملية الحوار والتعارف الحضاري المطلوبة. والجدير بالذكر هنا أننا لم نعمد – قاصدين – في هذا البحث إلى مقارنة المفاهيم الخلدونية كالعمران والحضارة بمفاهيم civilization أو culture الشائعة ليس خوفاً من عدم معاصرة ابن خلدون، وإنما لرأينا بأن قيمة التصور الخلدوني إنما تكمن ابتداءً في أصالته واستقلاله وتكامله. فقيمةُ طرحهِ ليست في اختلافه أو توافقه مع الآخر، وإنما في تحركه كوجودٍ أصلي وفعلي يستطيع أن يقيم علاقة حوار وتعارف مع الآخر. وهذا يختلف جذريا عن الحوار المبني على ترجمة ما عند الآخر، أو بتعبير ثانٍ "الآخر محرَّفاً". حيث لا يمكن لمثل هذه المشاركة أن تقيم تعارفاً، وإنما تعطي – في أحسن حالاتها – تسامحا. وهو تسامحٌ يكون مُلكا للآخر وهو يتعامل مع من يريد مشاركته عبر ترجمته.

هذا فضلا عن أن أسلوب المقارنات الذي يبحث عن الاتحاد في الآخر وربما الفناء فيه، أو عن نفيه وإلغائه وتغييبه، هو أسلوب قاتلٌ للتعارف، لأن التعارف يستلزم أولا وقبل كل شيء إيمانا بحقيقة التعلم من الآخر، حتى في حالة تعليمه.

والأمر الثالث الذي يجب الانتباه إليه هو أن مفهومي civilization و culture، تماما مثل مفهومي العمران والحضارة، وسواها من المفاهيم، ليست مفصولة بحال عن التجربة التاريخية والرؤية الكونية للأمة التي تُبحث هذه المفاهيم فيها. بحيث

تصبح عملية المقارنة عبر الترجمات مدعاةً للتشويه والتشويش، أكثر من كونها مجالَ حوار وتعارف.

وأخيرا، فإن المشاركة الخلدونية تستمد قيمتها البالغة اليوم من واقع قدرتها على المساهمة في تحليل الأزمة العالمية المعاصرة، التي تتمثل أيضا أكثر ما تتمثل في طغيان وسيادة عالم الأشياء، الذي انبثق من وصول الحضارة الغربية الغالبة اليوم إلى ما يمكن أن يكون لحظة اكتمالها كتجربةِ اجتماعٍ بشريٍ راهن، شكَّلَ البحثُ عن تَحقُّقِ عالم الأشياء محورَ وجهتها، حيث ارتبط خلاص الإنسان بمفهوم الرفه المادي. وبهذه الرؤية فإن ابن خلدون – الذي تحدث عن هذا الواقع وتنبأ بحدوثه كلما توافرت شروطه – يمكن أن يكون معاصرا أكثر بكثير من بعض مفكري اليوم في الشرق والغرب سواء، ممن لا يمتلكون النفاذ إلى أعماق الأزمة البشرية، وإنما ينحصر عملهم في بحث الظواهر والأعراض الخارجية ومحاولة علاجها...

إن خلاص البشرية عند ابن خلدون لا يمكن أن يكون عبر مزيدٍ من الإنتاج، أو عبر مزيدٍ من التأكيد على الرفه المادي الناتج عن الثورة في عالم الأشياء. وبالتأكيد فإنه لا يمكن أن يتم عبر مزيد من الاستهلاك. والمفارقة أن عدم القدرة على مقاومة الاستهلاك كانت هي ابتداءً – بقدر الله – سبب خروج الإنسان من الجنة، حين ضعف عن مقاومة "مُنتَجٍ" وحيد فقط من كل "المنتجات" الموجودة في الجنة والمُحلَّلةِ له. فكيف يمكن له أن يعود إلى الجنة عبر عملية الاستهلاك نفسها تلك؟؟...

إن أهمية الطرح الخلدوني في هذا الباب تكمن في رؤيته الدقيقة وتمييزه المحدد للعلاقة الحساسة بين العمران والحضارة. ومن المهم أن يركز الإنسان في فهمه لهذه المسألة. فالعمران عنده "يتحرك" دائما، وهو يتحرك وفق "وجهة" معينة. وحين تأخذ "حركة" العمران "وجهة" تحقق عالم الأشياء والرفه المادي كغايةٍ تُمكنُ الإنسان من الخلاص تتحقق لحظة الحضارة. ولذلك يربط ابن خلدون نهاية العمران وخروجه إلى الفساد بلحظة تحقق الحضارة عبر غياب "الوجهة" التي تحرك الاجتماع البشري نحو الحق. وذلك حين تنحصر تلك "الوجهة" منذ اللحظة الأولى وتتحدد في بحثها عن النجاة عبر تحقيق عالم الأشياء، وحين ينسى الإنسان خطورة الاستلاب أمام ذلك العالم، ويغفل عن ضرورة بناء المنظومة الاجتماعية بشكل يتم فيه تنمية الرفض

الاجتماعي المتوازن لعالم الأشياء، رغم العمل – في الوقت نفسه – على توفير ذلك العالم وإيجاده. وفي هذا المعنى بالذات يأتي القول العظيم المأثور: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبد، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا.

إن التصور المعرفي الإسلامي لا يحمل عداوةً أساسية وأصيلة لعالم الأشياء. فالدلالات على "الحياة الطيبة" وعلى تسخير الكون لراحة الإنسان في هذه الدنيا، ومعالم الحض على العمل والسعي والإنتاج في الأرض، أكثر من أن تُحصى أو تُعدّ في مصادر التصور الإسلامي. وإنما يتمثل التحدي في كيفية التمكن من تكاملٍ متوازن للعمران، يتحكّمُ في عالم الأشياء ويستعمله لخير الإنسان، دون أن يجعله هو المتحكم في مصير الإنسان من ناحية، ودون أن يلغيه بشكل كامل من ناحية ثانية. ولا يكون ذلك التكامل إلا عبر الوسطية التي تمثل البديل الوحيد من طرفي النقيض الآخرين أمام الاجتماع البشري، المتمثلين في الرهبانية المطلقة أو المادية المطلقة. وهو ما سنتحدث عنه في مقال قادم بعون الله.

وأخيرا، تتضح من هنا عَظَمَةُ وأهمية فكرة "الخاتمية"، من حيث كونها مصدر تلك الوسطية، ومن حيث كونها القادرة – في المستوى الاجتماعي – على تحويل الحضارة إلى شهادةٍ على البشرية، تتحقق عبرها كل المعاني الممكنة في الآية الكريمة {إني أعلم ما لا تعلمون}.

---

١ مقدمة ابن خلدون، ص ,٣٦

٢ المقدمة، ص ,٣٦

٣ "وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعا لهذا العلم". المقدمة، ص ,٤٧

٤ المقدمة، ص ,٤٧

١ المقدمة، ص ,٤٥

١ المقدمة، ص ,١٣٤

١ المقدمة، ص ١٦٦، ,١٦٧

٢ المقدمة، ص ,١٧٤

١ المقدمة، ص ,١٥٧

٢ المقدمة، ص ٤١٦ - ٤١٧,

١ المقدمة، ص ١٩٠,

٢ المقدمة، ص ٣٢٨,

١ المقدمة، ص ٣٢٩.

المصدر: http://www.alrashad.org

===============

#الحضارة الإسلامية بين أسباب التدهور وعوامل النهوض

الدكتور إبراهيم غانم

حتى وقت قريب ساد الظن لدى كثيرين من المعنيين بشؤون الفكر والإصلاح الاجتماعي العام أنه قد تم التغلب على مشكلة الاحتلال العسكري الذي جثم على أغلبية البلدان العربية والإسلامية (ولم يبق إلا الاحتلال الاستيطاني الصهيوني)، وأن عبء التحرر من الاستعمار المباشر قد زال إلى غير رجعة، وأن ما تملكه الأمة من طاقات يمكن أن يستثمر من أجل التصدي للمشكلات، وحتى وقت قريب أيضاً ساد الظن بأننا ماضون على طريق التخلص من المشكلات الأخرى التي أعاقت التقدم وعطلت نهضة الأمة منذ قرنين من الزمان تقريباً، ومن ذلك القضايا المتعلقة بالاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي، والحريات العامة، وأوضاع المرأة، والانحطاط الأخلاقي.

ولكن بدلاً من التقدم إلى الأمام إذا بمجتمعاتنا العربية والإسلامية تجد نفسها تتقهقر إلى الخلف، وإذا بالقضية التي ظننا أنها حُلت تعود بشكل أكثر شراسة، ألا وهي قضية الاستعمار في شكله العسكري المباشر، إلى جانب أشكاله الفكرية والثقافية والاقتصادية والتشريعية غير المباشرة الأخرى التي لا تزال تراوح مكانها. إن الأحداث الجارية في الآونة الأخيرة، كلها تشير إلى عودة الشعور بالتبرم بشكل مضاعف مع عودة مشكلة الاحتلال العسكري التي غلب على الظن أنها قد حسمت، وأن حزمة المشكلات قد أعيد إليها ما نقص منها في وقت سابق، بما تحمله هذه العودة غير الحميدة من ضرورة إعادة ترتيب أولويات التصدي لهذه المشكلات؛ وكأنه لم تمر مائتا سنة أو يزيد عندما نهضت قوى الأمة الحية لمواجهة الغزو الغربي ورفعت في

وجهه راية الجهاد. ومن ثم فإن من المنطقي أن يعاد طرح السؤال الأكبر الذي تدخل تلك المشكلات كلها تحت عباءته ألا وهو: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم(١)؟

لقد طرح هذا التساؤل، وبهذه الصيغة التي تقارن بين المسلمين وغير المسلمين، لدى رواد الفكر والإصلاح الإسلامي في العصر الحديث؛ أي منذ ما يقرب من مائتي عام، ولم تختلف الإجابات التي قدموها إلا في بعض التفاصيل، أما جوهر الأسباب كلها فقد كان واحداً لديهم وهو أن البعد عن جوهر الإسلام هو سبب الأسباب التي أدت إلى التدهور، وأن التمسك بهذا الجوهر هو سبب الأسباب التي تقود إلى النهضة.

وأياً ما كان الأمر فمثل هذا التساؤل يعدُ تساؤلاً أساسياً وحساساً في آن واحد؛ فهو أساسي لأن الإجابة عنه سوف تعبر عن مدى وكيفية فهم صاحب الإجابة للواقع الذي صار إليه حال المسلمين، ومثل هذا الفهم بدوره أمر ضروري، كمقدمة ومدخل للتعامل مع هذا الواقع ووضع خطة لتغييره إلى ما هو أصلح. وهو تساؤل "حساس" بالنسبة للمسلمين خاصة لأنه في صيغته المقارنة يفتح الباب للمناقشة حول "الإسلام ذاته" وما إذا كان سبباً في انحطاط المسلمين؛ حسبما يزعم البعض.

ويبدو لنا أن من اللازم بداية بيان: لماذا نهض المسلمون وازدهرت حضارتهم وسادت الدنيا أول مرة؟ وذلك قبل المضي في بيان أسباب انحطاطهم وأفول نجم حضارتهم، فثمة علاقة وثيقة بين الأمرين كما تقضي بذلك شهادة التاريخ، فقد شهد أنهم يوم تمسكوا بتعاليم الإسلام سادوا وشادوا وعمروا الأرض وأناروا للإنسانية طريق التقدم والرقي، وقدموا حضارة امتدت منافعها إلى كل المجالات. بعد ذلك ابتعدوا عن التعاليم السامية لهذا الدين، وجهلوه وأهملوه، ولبسوه كما يُلبَس الفرو مقلوباً... فوصلوا إلى ما هم فيه، وسيظلون كذلك حتى يعودوا إلى دينهم مرة أخرى عودة صادقة وصحيحة.

وإذا كانت "العلة" في تنكر المسلمين لدينهم كما يرى كثيرون من رواد الإصلاح فإن ما يوقع في الحيرة هو: لماذا إذن تخلى المسلمون عن تعاليم دينهم وأهملوها بعد أن رأوا أنها كانت سبب عزهم ومجدهم؟ ليس ثمة بد من طرح القضية ضمن إطار

أشمل يفسر حركة التاريخ والسنن الكونية لصعود وهبوط الحضارات في مسيرة التقدم الإنساني بصفة عامة.

إن قضية النهضة لا تخرج عن كونها سنة من سنن الله في حياة الأمم "فكل أمة بين حالين لا ثالث لهما، يخلف كل منهما الآخر متى توافرت دواعيه وأسبابه، هذان الحالان هما حال القوة وحال الضعف.. فالأمة تقوى إذا حددت غايتها، وعرفت مثلها الأعلى، ورسمت منهاجاً عملياً ينظم حركتها، وصممت على الوصول إلى الغاية وتنفيذ المنهاج ومحاكاة المثل الأعلى مهما كلفها ذلك من تضحيات، وعندما تنسى الغاية وتجهل المثل وتضل المنهاج وتؤثر المنفعة والمتعة على الجهاد، وتنحل الأخلاق، ويكون مظهر ذلك الإغراق في الترف والقعود عن الواجب، حينئذ تأخذ الأمة في الضعف ويدب إليها دبيب السقم الاجتماعي، ولا تزال تضعف حتى تهيئ لنفسها عوامل التجدد فتتجدد أو لا تهيئ لنفسها هذه العوامل فتبيد. فالبشرية تسير قدماً نحو الكمال الذي كتبه الله لها يوم شاء أن يستخلف الإنسان في الكون وسخر له ما في السموات والأرض، وهي في محاولتها هذه أحياناً تستوحي الشعر والخيال وإن كانت بين الخطأ والصواب في استلهامها هذا..

وأحياناً تستوحي الفكر والعقل فيرشدها إلى تجارب في تكوين الأمم وتربية الشعوب كثيراً ما تكون طويلة المدى، وكثيراً ما تنزع بها المعاكسات العاطفية إلى جهة الخطأ فتصبح عقيمة النتائج فاسدة الآثار، لهذا اقتضت حكمة الله ورحمته بالناس أن يشد أزر العقل والقلب بنواميس ونظم إلهية تقرب على الإنسان المدى وترشد البشرية إلى مدارج الكمال الذي كتب لها"(٢).

وفي التاريخ شواهد تؤكد ما ذكرنا: فقيادة الدنيا كانت في وقت ما شرقية بحتة، ثم صارت بعد ظهور اليونان والرومان غربية، ثم نقلتها نبوات موسى وعيسى ومحمد عليهم جميعاً الصلاة والسلام إلى الشرق مرة ثانية، ثم غفا الشرق غفوته الكبرى ونهض الغرب نهضته الحديثة، فكانت سنة الله التي لا تتخلف، وورث الغرب القيادة العالمية، وها هو ذا الغرب يظلم ويجور ويطغى ويحار ويتخبط، فلم يبق إلا أن تمتد يد "شرقية" قوية يظلها لواء العدل والمساواة والحرية والرحمة، فإذا بالدنيا تنعم مرة أخرى بالسلام الإسلامي.

الهوامش :

١ – صيغة هذا السؤال هي عنوان كتاب للأمير شكيب أرسلان، والكتاب عبارة عن جوابه، الذي يشرح فيه أسباب ارتقاء المسلمين في الماضي، ثم أسباب انحطاطهم مع بيان أسباب تقدم الأوروبيين.

٢ – انظر: حسن البنا، دعوتنا في كتاب الله: من وظائف القائد جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية ١٩ربيع الأول ١٣٥٥هـ –٩ يونية ١٩٣٦م.

نقلا عن : مجلة المجتمع الكويتية ، http://altareekh.com/doc/article.php?sid=٦٩٩

================

#صانع الحضارة

رقية المحارب

حسن الظن بالناس من أهم صفات صانع الحضارة، ذلك الذي يصغي له الناس، ويجدون في تصرفاته مثلاً حياً لقيم ومبادئ لطالما قرؤا تمجيداً لها وسمعوا حثاً للتخلق بها. صانع الحضارة هو ذلك الإنسان الذي يتبع منهج الإسلام في العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملة وفي كل شؤون حياته . صانع الحضارة هو ذلك الذي تتمثل في أقواله وأعماله مقومات التميز والإبداع، وتصور معي لو أن كل إنسان يعيش على هذه الأرض حاول التمثل بهذه المبادئ كيف سيكون حال العالم؟ بل كيف سيكون طعم الحياة؟ لا شك سيكون عالماً خالياً من الحروب والقلق والظلم والفقر والقهر والجوع، وستكون حياة مليئة بمعالي الأمور، لأن قيم العدالة والتعاون والتكافل والرحمة والتواضع والأمانة وحسن المعاملة وحسن العشرة وحسن الظن وغيرها من منظومة طويلة من هذه الأخلاقيات سوف تكون أنهار عطاء يجد فيها المجتمع سبباً لحياته ومدداً لسعادته.

أعود لحسن الظن بالناس كواحد من هذه القيم الذي أود أن تسود بيننا، فنعيش وقلوبنا نقية تجاه من نجاورهم ونصاحبهم أو من تربطنا بيننا وبينهم روابط القربى. أسمع أحياناً كلمات باعثها حب الخير ولكنها متسرعة في تقديم الشك على اليقين،

ومتخذة منهجاً دائماً في اتهام الناس أحياناً بلا بينة واضحة. ليس المقصود هو أن نعيش كالدراويش أو أن ننخدع بحلو الكلام أو أن نبرئ من ثبت انحرافه ولكن الهدف هو أن نقدم حسن الظن بالناس ونعاملهم على ظاهرهم إلا من ظهر فسقه أو أعلن فجوره فهنا نتعبد الله بالبراءة من تصرفه وأيضاً وفق منهج وسط لا إفراط فيه ولا تفريط كما هو منهج العلماء الربانيين، فلا نساوي بين من ظاهره العادلة ومن هو غير ذلك. قد أختلف معك في مسألة معينة ولكن هذا الاختلاف يجب أن يكون في إطاره ولا ينتهي إلى أن تخالفني في كل شئ كما هو الحال عند البعض. ومهما اختلفت معك في مسألة اجتهادية فإن حسن الظن يجب أن يكون حاضراً دائماً سلامةً للقلب وحمايةً للسان من الشطط.

وفي مجتمع النساء تبرز الحاجة ماسة إلى حسن الظن، فالزوجة ينبغي أن تحسن الظن بزوجها باعثة أجواء الثقة في بيتها والرجل كذلك، كما تحسن المرأة الظن بجارتها وزميلتها في العمل والدراسة، بل إن حسن الظن بين المصلحات في المجتمع لهو أشد حاجة لما في ذلك من جمع كلمتهن وقوة صفهن. ولا بد من وقوع الأخطاء بين الزميلات من تصرف متسرع أو كلمات غير مقصودة أو غير ذلك ولكن شيوع الثقة بين أفراد المجتمع من أهم أسباب تماسكه وقلة المنكرات والأخطاء فيه.

أظن أننا بحاجة ماسة إلى تعلم فقه الظن والتأمل في أحكامه ومعرفة متى نحسن الظن ومتى يكون سوء الظن هو المتعين، ومتى يكون حسن الظن واجباً، وأعتقد أننا بحاجة إلى فهم أن سوء الظن أحياناً يوقع في الإثم فلينتبه من همه صلاح قلبه

موقع الإسلام اليوم

=================

#كتاب عبقرية الحضارة الإسلامية

بقلم أحمد محمد عوف

[تحرير] مقدمة

ماجعلني أكتب هذاالبحث أن الكاتب البريطاني (فيدهارد نيبول) الذي مؤخرا جائزة نوبل في الآداب علي رواياته التي هاجم فيها الإسلام وأدعي أنه يجلب التخلف وأنه فصل كل الشعوب الغير عربية عن جذورها الحضارية والثقافية وقال: إن الإسلام

وضع حضارة الهند القديمة في منطقة مظلمة . و بعد الكارثة الأمريكية الكبري في سبتمبر نجد أن الإرهاصات الإعلامية قد تدافعت وتلاحقت للنيل من الإسلام ووصمه بالتخلف. لكن هذه الكارثة كانت إحياء للإسلام وتكالبت شعوب أهل الإرض للتعرف عليه . فقرأت عن تعاليمه وتعرفت علي حضارات شعوبه وطالعت عن قيمه الحضارية والإنسانية مما جعل الآلاف يؤمنون به. وهذه الصحوة الإسلامية جعلت المستضعفين والمغلوبين علي أمرهم والضالين والتائهين يجدون في الإسلام ضالتهم المنشودة بين ركام عالم قوضته أحداث سبتمبر وسقوط الشيوعية العقد الماضي .فآمن الآلاف منهم علانية وأعلنوا إسلامهم طواعية وعن يقين بعظمة هذا الدين . فاكتشفوا فيما إكتشفوه أن الإسلام يدعو إلي الحق والعدل والمساواة والإخوة الإسلامية بنظرة إيمانية ثابتة . ولايقر الظلم أو القهرويدعو لنصرة الضعفاء ونجدة المحتاجين وغوث الملهوفين . لأن كلمة الإسلام أن يسلم المرء أمره لله سبحانه وأنه يضفي السلام علي البشر جميعا ، فلا إكراه في دينه . فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. ففيه أن كل نفس بما كسبت رهين . والإسلام نجده ينتشر تلقائيا بدون صخب إعلامي وكلما إستضعف أهله كلما إنتشر . فلقد غزا التتاراللادينيون بغداد وحطموا صروح الحضارة بها وأسقطوا الخلافة العباسية وأقاموا المذابح للمسلمين في كل المشرقين الإسلامي والعربي . ورغم الهوان الذي كان فيه المسلمون وقتها . عاد التتار لبلادهم مسلمين وأقاموا أكبر حضارة في تاريخ الهند وهي الحضارة المغولية الإسلامية في ظلال إمبراطورياتهم التي إمتدت في فارس وأفغانستان وبنجالاديش وباكستان وكانت دلهي العاصمة . وظلت هذه الإمبراطورية قائمة لعدة قرون وآثارها ثبت لم يمح هناك حتي الآن. وقامت حضارات الغزنويين والدارونيين وحضارات ما وراء النهرين. وهذه حضارات أقامت مدن بخاري وسمرقند وغيرها من مدن الهند وكشمير وباكستان وأفغانستان و بلدان آسيا الوسطي حيث ظهرت إمبراطورية تيمور لنك وعاصمتها سمرقند وكانت هذه الإمبراطورية قد حكمت موسكو التي كانت تدفع لها الجزية . وكانت الخلافة الإسلامية العثمانية وعاصمتها الآستانة (إستانبول) في أوجها ولاسيما في القرنين الخامس والسادس عشر وكانت تضم مصر والشام وإيران والعراق والحجاز وتونس وليبيا والجزائر. وفي شرق أوروبا كانت تضم أجزاء من

رومانيا واليونان والصرب ومقدونيا وألبانيا والبوسنة والهرسك والمجر وبلغاريا حتي بلغت فيينا بالنمسا .وكانت القوة الأعظم بلا منازع في العالم وقتها . وقامت الخلافة الأموية الثانية بالأندلس لتضم جنوب غربي أوروبا وفيها بلغت وسط فرنسا وكانت تضم جنوب إيطاليا وجزر صقلية وسردينيا وكورسيكا حتي بلغت القوات البرية والبحرية روما عام ٨٠٩ م . وكان البحر الأبيض بحيرة إسلامية بما فيها كريت ومالطة ورودس وكورسيكا وجزر البليارد وصقاية وسردينيا وجزر بحر إيجه ولم يبق سوي طرفا الهلال عند القسطنطينية والطرف الآخر عند روما ومابينهما كان يخضع للحكم الإسلامي العادل. والإسلام في كل البلدان التي دالت له وفي كل الشعوب التي دانت به قد أقام حضاراته التي ظلت توابعها تتري علي العالمين بأصالتها وقيمها . ومازالت بصماتها تتري لنا بما لايدعو للتشكيك في عظمتها . لأنها أوابد راسخة في وجدان وثبت التاريخ الإنساني كحضارة متفردة فاقت كل الحضارات . لأنها قامت علي أسس إسلامية لاجدال فيها أو حولها . لأنها أم الحضارات وباعثة نهضة وحاملة مشاعل الفكر والتنوير لهذه الشعوب التي عانت من الفقر والجهل والظلم والعبودية . فكان الإسلام هاديا ومبشرا ومنقذا للعالمين من وهدات التخلف وإرهاصات الفكر السلفي الذي ران فوق العالم قبل ظهور الإسلام. أحمد محمد عوف

[تحرير] في الجاهلية

الألفية الثامنة ق.م. تحولت المناطق الرعوية في شيه الجزيرة العربية لمناطق صحراوية. كان البشر الأوائل قد إرتادوها ودخلوها منذ ٥ آلاف سنة من ناحية الغرب . وظهرت المستوطنات في قطر بالشرق حيث عثر علي آلات صوانية وفخار من جنوب بلاد الرافدين . وفي حوالي سنة ٣١٠٠ ق.م. ظهرت الحبوب والبلح في أبو ظبي وظهرت ثقافات أم النار في في شبه جزيرة عُمان وفي النصف الثاني من الألفية الثالثة ق.م. ظهرت صناعة النحاس علي نطاق واسع . وبنهاية الألفية الثالثة كان الخليج (مادة) علي إتصال بحضارات بلاد الرفدين ووادي الهند وس . ومنذ ينة ٨٠٠٠ ق.م. وحتي سنة ٦٠٠٠ ق.م. كانت الآلات الصوانية التي وجدت شمال ووسط شبه الجزيرة العربية لمجتمعات صيادين وجامعي ثمار. وكانت رؤوس سهام . وكانت الزراعة تمارس أيضا . ومنذ سنة ٦٠٠٠ ق.م. حتي سنة

٤٥٠٠ ق.م. كان الساحل الشرقي قد إسنوطن لأول مرة وكان ينتج به الفخار . وفي هذه الفترة كان قبائل البدو يخيمون حول منطقة الرياض وأكبرها كانت تمامة حبث كانت تعيش قرب وادي نهر موسمي ووجد به كميلت من أشكال الحجر المستدير. وكان فخار من طراز عبيد من بلاد الرافدين مرسوم ، وقد ظهر بطول الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية حتي عُمان بالجنوب .وكان قد جلبه صائدو الأسماك بالقوارب من جنوب العراق . وكانوا يدهنون القوارب القصبية قرب الظهران بالقار. و كانت تصنع من الغاب (البوص أو القصب) . وفي شرق شبه الجزيرة كانت تربية المواشي والغنم والماعز مابين سنتي ٤٠٠٠ق.م. و٣٠٠٠ ق.م. وكان العراقيون يطلقون علي هذه المنطقة الدلمون . وعثر علي شاطيء الخليج أوان من الخزف مصنوعة محليا وتماثيل صغيرة من الحجر الجيري تشبه ماكان يصنع في بلاد الرافدين ورأس ثور من النحاس وفازات منقوشة في موقع تاروتومصنوعة من مادة الكلوريت. وفي البحرين أكتشفت مواقع دفن بالمئات ترجع لسنتي ٢٤٠٠ق.م. و١٧٠٠ ق.م. بالعصر البرونزي . وكان الرجال والنساء والأطفال يوسدون فرادي ومعهم أوان خزفية وزيناتهم واسلحة وأكواب نحاسية وأوان حجرية . وخلال سنتي ٢٢٠٠ق.م. ١٨٠٠ ق.م. إزدهرت التجارة بين بلاد الرافدين والهند عبر الخليج . وكان أهم التجارات أختام العلامات الدائرية ،التي عرفت بالأختام الفارسية الممهرة بالحيوانات وتتسم بالتجريدية. بعضها كان عليه الثور المحدب وكتابات هندية. وكانت مصنوعة من الحجر الناعم وكان لها نتوء مثقوب لتعليقها . ومنذ حوالي سنة ٢٠٠٠ ق.م. إستبدلت الأختام الخليجية الفارسية بأختام دلمون وكان نتوؤها أقل ، ومحززة بثلاثة خطوط متوازية.

[تحرير] أمة كبيرة

يشير سفر التكوين بالعهد القديم نصا إلي أمة إسماعيل حيث جاء به: وقال إبراهيم ليت إسماعيل يعيش أمامك . فقال الله بل سارة تلد لك ابنا وتدعوإسمه إسحق .). وجاء أيضا: وأما إسماعيل قد سمعت لك فيه .ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا . إثني عشر رئيسا يلد . واجعله أمة كبيرة .). ومن هذه البشارة نجد أن الله قد وعد نبيه إبراهيم الخليل بأن ابنه إسماعيل الابن البكر لأمه هاجر سيكون من أعقابه أمة

كبيرة في أرض مكة التي هاجرإليها معه ومع أمه هاجر .ولقد بينت سيرة الخليل بلغوا بئر سبع صلي علي ابنه الأكبر إسماعيل وأمته من العرب .و لقد إستجاب الله لإبراهيم عندما دعا ربه قائلا (لقد أسنت من ريتي بأرض غير ذي زرع عند بيتك المحرم إلي آخره.......(من المصحف) . ويعرف أن عبادة الأصنام كانت شائعة في بلدة إبراهيم (أور) بالعراقوتفشت هذه العبادة الوثنية في عصره وكيف دعا قومه لينصرف أهله عنها . وأيا كان تاريخ إبراهيم وقصته معهم وهجرته وذريته من بعده . فإن هذا التاريخ المروي يشوبه التحريف والتخمين . لكن مانعرفه نصا قرآنيا أن الذبيح كان إسماعيل ابنه الأكبر وقد فداه الله بذبح عظيم . لكن اليهود والنصاري حرفوا هذا الحدث واعتبروا أن الذبيح كان إسحق وليس إسماعيل . . لكن الهدي(الفدي) كان شائعا بمكة وبقية العرب في الجاهلية منذ إسماعيل عندما توارثوه كسنة عنه بعدما فداه ربه بهدي عظيم . فكيف اليهود والنصاري في الهدي والفداء لإسماعيل ينكرون . فإسماعيل الابن البكر وكان وقتها صبيا يعي ما قاله إبوه في رؤياه بأنه يذبحه . وكان رده : يا أبتي إفعل ماتؤمر به .). وهذه التضحية لاتأتي من طفل رضيع لايعي من أمره شيئا . لكنه كان علي بينة من أمره ومن أمر الله سبحانه لأبيه . فكان يعي أن هذا الأمر متبع فعليه ألا يكابر فيه أو ينكص عنه مرضاة لله أولا ولأبيه ثانية . وما يؤكد وقوع هذا الحدث العظيم أن العرب إعتادوا في جاهليتم المجيء للكعبة لإحياء هذه السنة خشية وتقربا لله . ولما وثنوا ظلوا علي عادتهم في ذبح القرابين للأصنام تحت أرجلها ويأكلون منها ويطعمون . وأصل العرب هم بنو إسماعيل بن الخليل الذي عاشوا حول مة وبأجزاء من شمال الجزيرة العربية وفلسطين ومكة والحجاز . والقحطانيون كانو قد عاشوا باليمن حيث أقاموا مملكة سبأ ودولة حمير. وكان الإسماعيليون رعاة وأهل تجارة وكانوا يسعون وراء الماء والكلأ. وظهر من بينهم الهكسوس الرعاة الذين نزحوا من شمال الجزيرة العربية وإستولوا علي الدلتا بشمال مصر عام٢٠٠٠ق.م. وقد تفرع منهم بنو كنعان (العمالقة) والعمونينون وأهل مدين بسيناء أصهار سيدنا موسي والأدميون . وكان وقتها يطلق علي الحجاز وفلسطين أرض كنعان . وكان الكنعانيون قد منعوا العبرانيين أتباع موسي من دخول أرضهم إبان خروج موسي معهم عندما كان فرعون يطاردهم .

فظل معهم في أرض الشتات بسيناء ولم يدخل موسي فلسطين أرض الكنعانيين . وكانت اللغة السائدة في هذه البقعة اللغة الكنعانية وهي لغة العرب والعبرية والفينيقية والسريانية والكلدانية وكلها تنبع من أصل واحد وهو اللغة السامية. وهذه اللغات كانت سائدة بين هذه القبائل البدو الرحل . وفي اليمن نزح عرب اليمن القحطانيين عام ١٩٥ م إلي ضفاف نهلر الفرات وأقاموا دولتهم وعاصمتها مدينة الحيرة قرب الكوفة حاليا. وكان ملوكها يقلدون إمبراطوريتي الفرس والروم في عظمتيهما وأبهة الملك . وظلت هذه المملكة قائمة لأكثر من أربعة قرون حتي غزاها الفرس الساسانيين وضموها لهم وظلت تحت حكمهم منذ عام ٦٠٥م حتي فتحها العرب بعد ظهور الإسلام . وكانت طبوغرافية الجزيرة العربية قد شكلت منعة من أي غزو خارجي .لهذا لم يستطع الفرس غزوها إى بعض المناوشات الإغاراتية التي لاتشل خطرا علي كلا الطرفين . وكانت قبائل الحيرة تفصل الجزيرة عن بلاد فارس ولم تشل خطرا عليها ولاسيما وأن القيائل الغربية علي تخوم العراق كان ولاؤها للفرس . وكانت التجارة تسلك من العراق للشام . وكان في شمال الجزيرة توجد مملكة الغساسنة بجنوب الشام وفلسطين وكان ولاؤها للروم . وكانت تؤمن طرق القوافل التي تعبر ديارهم سواء القوافل اليمنية أو التي تعبر بيثرب. لكن بلاد العراق وفارس والشام ومصر وليبيا وبقية شمال أفريقيا كانت القوافل تغدو يها وتروح خلال رحلات موسمية وهذه الرحلات كان يكتنفها المخاطرولاسيما وأنها تمر بأراض مضر أو حضر . وكنت القبائل الرعوية بالجزيرة ترحل بقطعانها وراء الماء والكلأ ليستقروا. ولم يكونوا يسكنون المدن أو القري التي يصلون . فكانوأ يضربون خيامهم حولها. وهذه الرحلات كانت أشبه بالهجرات الموسمية. لهذا لأن نزوح هذه القبائل كانت بالشمال وبسيناء وكانت القوفل تتجه لمصر عبرها من الشام . لهذا لم تصل موجات هجراتهم للوجه القبلي . لهذا نجد أن القبائل البدوية في صحراء المغرب البري جبلت بنفس ما جبلت عليه القبائل المشرقية من أعراف قبلية وكانت الجزيرة العربية مقسمة إلي ثلاثة أقاليم رئيسية وهي : – بلاد الحجر العربية وتقع بشمال شرق الجزيرة وتقع بين فلسطين و شرق البحر الأحمر وكان يطلق عليها البتراء وهي تقع حاليا في الأردن. – وكانت بلاد العرب السعيدة . ومن قلبها وشرقها تمتد الصحراء العربية

الكبري وان بعبش في مفازاتها القبائل العربية . لهذا نجد هذه البلاد السعيدة تضم البادية الكبري بالشام علي حدود سوريا الجنوبية وحتي أعالي الفرات بالعراق شمالا وجنوبا حتي الخليج العربي . – نهم كانوا كثيرا ما يغدرون بهذوالأقليم الثالث يضم بقية شبه الجزبرة العربية حبث الحجاز وبلاد اليمن التي تقع علي البر الأحمر وباب المندب والمحيط الهندي . و ويضم حضرموت وعمان وكلاهما يقع علي المحيط الهندي . في هذا الإقليم نجد أن بلاد الحجاز تضم المناطق الجبليةوالرملية الوعرة وساحل شرق البحر الأحمر إبتداء من جنوب العقبة حتي جدة كما تضم مكة والمدينة . وفي جنوب الحجاز تقع بلاد اليمن وهي أغني مناطق شبه الجزيرة العربية . ويمتد هذا الإقليم إلي سواحل حضرموت والأحساء وعمان علي المحيط الهندي من خليج عدن حتي مخل الخليج الفارسي (العربي(. وفي وسط الجزيرة العربية تقع هضبة نجد الخصبة . وكان العرب سكان شبه الجزيرة العربية قبائل إنتشرت في العصر الجاهلي. وكانت كل قبيلة تتمتع بالحكم الذاتي والإستقلال التام . وكانت غيرموحدة في كيان سياسي أو وجودي جامع . لهذا كان الإسلام هدفه الأول جمع هذه القبائل معا لتكوين أمة الإسلام . وكانت مكة أرض المبعث المحمدي وكان دعوة الإسلام أن جعلت القبلية قد تهاوت واندمجت هذه القبائل المتبدية في الإخوة الإسلامية حيث ذابن هذه القبائل في إطار ديني وهو الجماعة وكانت مكة أرضا بغير ذي زرع عند البيت المحرم . وانت امساه تصلها من ينابيع جبل عرفات . ولم يكن للعرب في الجاهلية تارسخا سياسيا أو ثقافيا أو دينيا سوي عبادتهم للأصنام ، وكانت قريش إبانها أهل تجارة قد أوسر سادتها من ورائها . فكانت عيرهم تنطلق صيفا للشام وفلسطين ومصر . وشتاء كانت هذه القوافل تتجه جنوبا لليمن . وكانت القوافل التجارية الكبري تتجه غادية رائحة . فكانت تمر بأطراف شبه الجزيرة العربية علي ثلاثة محاور رئيسية . فكان هناك طريق القوافل الجنوبي الشمالي حيث كانت تقطعها من جدة بالحجاز إلي الشام وسيناء ومصر . والطريق الثاني يقع في أطراف شرق الجزيرة العربية متجها من الخليج العربي جنوب العراق ليصل لبلاد الرافدين شمالا

ليعرج منها للشام الي دمشق لتصل هذه القوافل لبلاد الشام وفلسطين . والطريق الثالث كان يقع بغرب الجزيرة العربية ويمر بحذاء ساحل البحر الأحمر . ويبدأ من اليمن عبر جدةفالمدبنة ليتجه شمالا للشام والبتراء بالأردن . وهذه الرحلات الموسمية صيفل وشتاء ظل عليها العرب مبقيين لأن فيها رزق لهم ولاسيما ون أرضهم لم تكن خصبة لتغنيهم عن غوائل الجوع أو تسد أرماقهم . وكانوا يعتمدون علي المطر ليصيبوا منه نبت الكلأ فيرعون عليه إبلهم وقطعان أغنامهم . وكان بالجزيرة وديان متفرقة لاتشكل عائدا اقتصاديا يمكن أن يثريهم أو يكفيهم مئونتهم عند الحاجة . وكانت ثرواتهم لاتتعدي أعداد أغنامهم أوحجم إبلهم .لهذا كان لهم في تجاراتهم ثروات يحققونها . وكانت السيادة والمكانة تقيم بعدد عيرالشخص بالقافلة المتجهة شرقا أو غربا أو شمالا أو جنوبا . وكانت توجد أحلاف لحماية هذه القوافل أثناء مرورها بمضارب القبائل التي تمر عليها . وقد تغير عليها وتسبي نساءها وتنهب ماتحمله . لهذا ظهرت بين القباءل التي كانت تمر بها القوافل الحروب والمشاحنات وكانت الغلبة للأقوي.فقامت الحروب والثارات بين قبائل الجزيرة العربية الكبيرة . وكانت هذه الحروب مدعاة لفخرها أو معايرتها.فاحتدمت هذه الصراعات القبلية وجعلت القبائل في فرقة فيما بينها . وأوغلت فيها الثارات التي أودت بوحدتهم . وكانت هذه القبائل تعيش في وهم مفاخرها وأيامها . وكان الشعراء في كل قبيلة ينشدون مفاخر قبائلهم . وهذا ماجعلهم يحظون بالمكانة والرفعة ويختلقون الإنتصارات . وكانت أشعارهم يحفطها العرب ويرونها في منتدياتهم . والعرب قبل الإسلام لم يكونوا يعرفون أصول الحكم أو الدستور شأنهم كشأن الروم والفرس وهما القوي الأعظم عند ظهور الإسلام . لأن العرب كانوا بمضاربهم لايعرفون سوي أعرافهم وتقاليدهم التي ألفوا عليها . فلكل قبيلة لها شيخها المطاع والمهاب وكان يتبع أعرافا تسيره وتدبر أمر القبيل ة . وكانت الأحلاف بين العرب إما لرد عدوان أو للمسالمة أو للحفاظ علي الجيرة . إلا أم، هذه العهود كانت كثيرا ما تنتهك . فكانت القبائل تغير علي بعضها وتحرق خيام أعدائها وتسبي نساءهموأطفالهم وشيوخهم ببربرية ووحشية . وكانت هذه القبائل تخلط في أنسابها وتدع لها مفاخر زائفة . ومما روج لهذا الشعراء الذين كانوا يطلقون أشعارهم وينسبون لقبائلهم مفاخر وبطولات

زائفة . فالعرب في جاهليتهم كانوا يعيشون في مضاربهم وأحيائهم. فلايشعرون بالأمن أو بل كانو يعيشون في وهم وقائعهم وأيامهم . فزين شعراؤهم لهم البطولات التي خلطوها بأوهامهم . وهذه القبائل العربية في الجاهلية كانت تمارس السطو والسبي مما شغلها عن السلم المفتقد . مما جعلها قبائل شتيمنازلها وضروبها .ولم تكن تتطلع إلي الوحدة السياسية. وكان يصعب تجميعها في نظام الدولة . وكان لوجود البيت الحرام بمكة له قدسية أضفي علي هذه المدينة المقدسة هالات وحرمة . لهذا السبب كان القرشيون محافظين علي هذه المسحة القدسية والمكانة المرموقة لمدينتهم . فكانت تهوي إليهم القبائل في حجهم الجاهلي . فكانوا يطوفون حول إصنامهم . وكانت مكة تشهد موسم حجيجهم . وكان القرشيون وسادتهم يكرمون وفادتهم. وكان هذا فيهم شرفا لايدانيه شرف وقد أصيحت الكعبة فيهم .وكان في موسم الحج يعقدون أسواقهم ومنتدياتهم ويلقي فيها الشعراء بأشعاره التي علقوها فوق ستر الكعبة . وهذه المعلقات كتبوها بماء الذهب. وهي تعتبر وعاء للشعر الجاهلي ينشدها القبائل وتحفظها.وهذه الأشعار تعتبر ثبتا ورثوه وورثوه وهذا كل ماخلفوه من بعدهم من فكر جاهلي . لهذا لما هدمت مكة السيول كان أهلها حريصين علي إعادة بناء البيت وكان شرفا متميزا لايدانيه شرف . وهو أي القبائل تضع الحجر الأسود في مكانه بجدار الكعبة التي كانت مشرفة بينهم ومعظمة عندهم . فأختلفوا فيما اختلفوا فيه حول من ينال هذا الشرف . وقد كادت أن تقوم فتنة لايعرف لها أوار . وظلوا علي جدلهم حتي دخل عليهم الرسول وهم متنازعون . فاحتكم سراتهم إليه . ففرد ثوبه ووضع فوقه الحجر الأسود زطلب منهم مجتمعين لحمله . ولما دنا إلي مكانه حمله ووضعه فيه . وارتضوا هذا الحكم ولم يعارضوه لما كان لمحمد فيهم من مكانة . فأقروه وقبلوه .لأن اغلرسول كان فيهم أرجح عقلا وأكثرهم منطقا وصدقا . فلم ينشقوا عن حكمه ولم يعارضه فيه معارض . فمحمد لم يكن فيهم أيسرهم مالا أو أكثرهم نفوذا ولكنه كان أكثرهم محتدا وأشرفهم نسبا . من هنا نجد أن محمدا قد ظهرت عليه بوادر القيادة وقوة الإقناع وهذه سمات النبوة والزعامة . فقد ولد بينهم يتيما فآواه ربه . ووجدوه عائلا فأغناه ربه . وكان عليه السعي وراء رزقه شأنه كأهل مكة الذين كانوا تجارا . فاشتهر بينهم بالأمانة والصدق ورجاحة العقل وقوة

الشخصية . مما أهله لأن يكون فيهم شخصا متميزا بينهم . وهذا ماجعل السيدة خديجة وهي من أغنياء قريش تلقي إليه بأموالها ليتاجر لها فيها . وكانت علي يقين أنها أودعتها لدي الصادق الأمين . فأصاب من تجارتها الربح الوفير وكان خير التاجر الأمين .

[تحرير] عصر نزول القرآن

القرآن هو كتاب العربية الأول والأكبر لأنه دستور واساس وجود الأمة الإسلامية سياسيا واجتماعيا ولغويا في كل زمان ومكان . دعا الناس لطاعة الله والخضوع لسلطانه والتفكير في آلائه. وقرر حقوقهم المقدرة فأخذوا بأوامره وحدد واجباتهم المقررة فاجتنبوا نواهيه . ولقد جعل البشر سواسية مهما إختلفت أروماتهم ومشاربهم بلا تفرقة عنصرية أو لغوية أو اجتماعية. وسمي الله القرآن بالذكرالحكيم متوعدا المعرضين عنه او النافرين منه . لأن أفضل عبادة هي قراءة القرآن وتلاوته . وكان القرآن قد نزل علي الرسول بسبعة أحرف (لهجات قريش) ليسهل للقبائل فهمه واستيعابه . وفي سنة ٢٥ هجرية أيام خلافة عثمان وجد أن بعد الفتوحات الإسلامية قد تنازع أهل الشام وأهل العراق بالمدائن بالعراق حول قراءة آيات القرآن لأنه بعدة لهجات وحدث هذا في بعض الأمصار . فكان يكفر بعضهم بعضا .فشكل لجنة من كتبة الوحي أيام الرسول لتجمع القرآن ، وأمرها بنسخ نسخ منه موحدة ومدققة وحسب القراءات الثابتة والمتواترة عن الرسول بعد تثبيت رسم حروف وكلمات المصحف . وكتبت ست نسخ . وأرسل الخليفة عثمان نسخة لأهل البصرة والكوفة والشام والمدية ومكة وأمسك عنده نسخة تخصه . وأطلق علي هذه المنسوخ مصحف عثمان أو المصحف الإمام. وهو المصحف الموحد والمعتمد . بعدها أمرعثمان بحرق كل النسخ السابقة عليه. ولم يبق سوي المصحف الإمام منذ عهده . وهي النسخة التي تطبع حاليا بالرسم العثماني في كل أنحاء العالم الإسلامي حاليا . وحفظ ولو أجزاء من القرآن واجب علي كل مسلم . لأن تلاوة آيات من القرآن واجبة تلاوتها لأداء الصلاة . وكتابة المصحف حتي الآن تخضع للتدقيق كما تخضع لأصول علم رسم المصحف الذي يعني بهجاء الكلمات القرآنية حسب الرسم العثماني وتخضع لعلم ضبط القرآن لتشكيله أو مايعرف بمصطلحات الضبط كالفتح والضم والكسر

والسكون والشد والمد لضبط نطق الكلمات مما جعل قراءة القرآن ليس بالسماع والمشافهة كما كانت من قبل . وكانت كتابة المصحف الإمام تخلو من التنقيط االفاء أو القاف أو النون أو الباء أو الياء ..إلخ . ويوجد علم الفواصل للتقيد بعدد آيات القرآن وعدد سوره وأوائل أجزائه الثلاثين وأحزابه الستين وأرباعه وأثمانه .كما أن قراءة القرآن تخضع لعلم التجويد لضمان سلامة النطق للكلمات والتعرف علي مخارج الحروف وأحكام النطق ، وعلم القراءات والتفسير لبيان الوقف والعلامات والسجدات ومواضعها والسكتات الواجبة . وضبط القرآن له مصطلحاته كالصفر المستدير فوق حرف العلة وغيره . وأول هذه السور سورة الفاتحة و تتلي في كل صلاة . والسورة تنقسم لعدة آيات . وكل سورة تفتتح بآية (بسم الله الرحمن الرحيم) ماعدا سورة(براءة).والقر ' ن الخط الأول للتصدي لأي فكر ديني محرف أو الفلسفات التي لاتنزه الله عن الشرك به أو ال'لحاد في وجوده أو لايتوافق مع الشريعة الإسلامية . ففي العصر العباسي ترجمت فلسفات الإغريق والهنود والفرس والسريان للعربية ودار جدل حولها لكن القلاسقة العرب وأهل الكلام أخضعوا هذا الفكر للمفهوم القرآني لها وطوعوها لنصوصه ولاسيما في الميتافيزيقيا(ماوراء الطبيعة) والإلهيات فظهر علم الكلام الإسلامي كفلسفة إسلامية خالصة لايشوبها شائبة زيغ أو ضلال . لأن القرآن هو الكتاب المنزل من عند الله . لهذا ما ورد به من قصة الإسراء والمعراج المحمدي جعل لهذه المسيرة الخالدة مصداقية لايماري فيها . كما أن تناول القرآن علوم الكونيات في آياته حيث ذكرها من خلال التعرض للثوابت الفلكية والعلمية و الكونية ومن خلال ذكره لنواميس الكون الثابتة والمؤكدة للتدليل علي الإعجاز العلمي للقرآن وعلي عظمة الخلق والخالق مما يؤكد علي أن القرآن إلهي و من عند الله . فالقرآن هو الكتاب المنزل الذي مازالت نصوصه لم تتبدل ولم تتغير. ولايمكن لبشر الإتيان بمثله في آياته ولغته المتفردة وسياق كلماته والمعاني السامية التي أوردها نصا . وعلوم القرآن هي دراسات لمعاني وكلمات القرآن بما فيها التفسير لها ودراستها لغويا وفقهيا .لأنه المرجع الثابت لدراسة علوم الإلهيات حتي لانزيغ في إيماننا ولا نحيد عن الصراط المستقيم ،ولاسيما بعد إنقطاع الوحي من السماء . فهو آخر رسالاتها للبشر أجمعين .فعظمة القرآن أن لغته العربية حية وسياق آياته لها وقع وجرس فريد

،ويتميز بدقة كلماته التي لها وقعها الذي يبعث في النفس الخضوع لله والخشوع له . مما يجعله يتوافق مع فكر كل زمان ومكان .

[تحرير] إنتشار الإسلام

يقول المؤرخ العالمي (جيبون) في حديثه عن قصة البشارة المؤكدة لمجيء محمد صلي الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل من أن ثمة نبيا سيأتي كما تقول البشارة المقدسة التي عرفت بوعد الروح القدس.. ففرح بها موسي وعيسي . وهذه البشارة كما يقول : قد تحققت في شخص محمد نبي الإسلام وأعظم الرسل وخاتمهم . أتي بالإسلام كدعوة عالمية لكل البشر. لهذا كان المسلمون الأوائل منذ أيام الرسول ينشرونه ويحملون لواءه . ففي حياة الرسول (من سنة ٥٧٠م –٦٣٢م) كانت محاولات نشره في تخوم الإمبراطرية البيزنطية بإقليم الشام عن طريق الدعاة بين القبائل العربية المتاخمة لبلاد الشام . وبعد عشر سنوات من وفاته صلي الله عليه وسلم فتح المسلمون بلاد الروم البيزنطيين والفرس الساسانيين . ففتحوا الشام ومصر والعراق وفارس . بعدها إزدهرت الحضارة الإسلامية في الدول التي دانت بالإسلام ودالت له طواعية تحت ظلال الخلائف الراشدية والأموية والعباسية .و لقد ظلت الخلافة الراشدية ثلاثين عاما (من سنة ٦٣٢م – ٦٦١م). وكان الخليفة عمر أول من أقيمت المدن الإسلامية في عهده كالكوفة والبصرة بالعراق والفسطاط بمصر . وظلت المدينة المنورة عاصمة الخلافة حتي نقلها الخليفة الرابع علي بن أبي طالب للكوفة، بسبب القلاقل التي نشبت في عهد عثمان .وأدت لإستشهاده. وبعد إستشهاد سيدنا علي تأسست الدولة الأموية(٦٦١ م– ٧٥٠ م)بدمشق .وحكمت حوالي قرن. وكانت تمتد من غربي الصين لجنوب فرنسا حيث كانت الفتوحات الإسلامية وقتها تمتد من شمال أفريقيا لأسبانيا وجنوب فرنسا بغرب أوروبا ، وبالسند في وسط آسيا وفيما وراء نهري جيحون وسيحون. واقيمت المؤسسات الإسلامية والمساجد والمكتبات هـ و كان الأمويون بدمشق قد حاولوا فتح القسطنطينية عام ٧١٧م . وإبان حكمهم غتحوا شمال أفريقيا . وكان أول نزول لقوات الفتح الإسلامي بأرض الأندلس بشبه جزيرة إيبريا (أسبانيا والبرتغال).. فكان أول إنتصار للمسلمين هناك ،عام ٢٩هجرية(٧١١ميلادية) في معركة وادي البرباط ،لتبدأ مسيرة الفتوحات

الإسلامية بغرب أوروبا بفرنسا وإيطاليا وسويسرا . وخضعت روما للحكم الإسلامي فعلا منذ عام ٨٠٩ م .ولولا أن البابا ليو الثاني قد أقر بدفع الجزية وبإنتظام لمدة عشرين عاما لأصبح الآذان يرتفع من فوق أبراج الفاتيكان الآن . فلقد بلغ الفتح الإسلامي برنديزي والبندقية بإيطاليا علي بحرالأدرياتيك .مما جعله مع البحر الأبيض المتوسط بحيرتين إسلاميتين تموج فيهما الأساطيل الإسلامية . وخضعت كل جزر البحر الأبيض المتوسط من كريت شرقا حتي كورسيكا غربا للحكم الإسلامي . وكانت الخلافة الأموية الثانية بالأندلس ٧٥٦م – ١٠٣١م عاصمتها قرطبة التي شيدها الأمويون .وكانت أكبر مدينة في أوروبا . وحكمواالأندلس زهاء قرنين . وكانت هذه الخلافة منارة للحضارة في الغرب حتي قسمها الطوائف والبربر والموحدون لدويلات أدت لسقوط الحكم الإسلامي تماما .ولاسيما بعد سقوط مملكة غرناطة آخر معاقل المسلمين عام ١٤٩٢م علي يد الملك فريناندو والملكة إيزابيلا..و عندما كانت الحضارة الأندلسية في عنفوانها، كانت موقعة بواتييه قرب تولوز بوسط فرنسا قدأوقفت المد الإسلامي الكاسح لشمالها . حيث إنتصر الفرنجة علي عبد الرحمن الغافقي عام ١١٤ هجرية (٧٣٢م) عندما إستشهد بها في معركة بلاط الشهداء . ويعلق المؤرخ الشهير جيبون علي معركة (بواتييه) قائلا : لو كان العرب قد إنتصروا في بواتييه لأصبحت المساجد في باريس ولندن بدلا من الكاتدرائيات حاليا. ولكان القرآن يتلي في جامعة إكسفورد وبقية الجامعات هناك . ويعلق ديورانت عليها قائلا : لو إنتصر العرب في هذه المعركة الكبري لأصبحت أوروبا الآن جزءا من العالم الإسلامي .لكنهم رغم هذه الهزيمة ، واصلوا فتوحاتهم حتي أصبحت تولوز وليون ونهر اللوار تحت السيادة الإسلامية .وكان الفاتحون قد بلغوا نهر السين وبوردو وجنوب إيطاليا (أطلقوا عليه البر الطويل) حتي بلغوا في فتوحاتهم سويسرا،.وأقاموا هناك ممالك إسلامية .وحرروا الشعوب من العبودية والإقطاع . وظلوا قرنين يحكمون هذه المناطق . ولم يوقف الزحف الإسلامي بأوروبا سوي جبال الألب .ولو إستطاع الفاتحون تخطيتها لعم الإسلام شمال أوروبا. وللتاريخ كانت الخلافة العباسية (٧٥٠ م – ١٢٥٨م) ببغداد تتآمر ضد الأمويين بالأندلس بتحالفها مع شارلمان ملك الفرنجة. وهذا سبب ثان لتوقف الفتوحات

الإسلامية بغرب أوروبا . . وما بين سنتي ٩١٠م و١١٧١م كان ظهور السلاجقة في المشرق والفاطميين بالقاهرة والأيوبيين والمماليك في مصروالشام.وكانت الحملات الصليبية علي الشام وفلسطين ومصر والإستيلاء علي القدس .وفي عام ١١٨٧ م استعاد صلاح الدين بيت المقدس من الصليبيين .وكان احراق المغول التتار لبغداد عام ١٢٥٨م بعدما كانت عاصمة الخلافة العباسية خمسة قرون. بعدها رجعوا لديارهم وكانوا وثنيين. لكنهم أسلموا عند عودتهم.. فكانوا للإسلام داعين ومبشرين له بين قبائلهم . وأقاموا تحت ظلاله الإمبراطوريات والممالك الإسلامية بأفغانستان وباكستان وشبه القارة الهندية وبالملتان والبنغال وآسيا الوسطي وأذربيجان والقوقاز والشيشان وفارس وغيرها من بلدان المشرق الإسلامي. حيث أقاموا الحضارة الإسلامية المغولية والتركية التي مازال أوابدها ماثلة حتي اليوم . وكان تيمورلنك حفيد هولاكو قد أقام الإمبراطورية التيمورية عام(١٣٧٩م –١٤٠١م) وكانت العاصمة سمرقند بوسط آسيا . وقد حكم إيران والعراق والشام وحتي الهند. وكانت وقتها طرق القوافل التجارية العالمية تحت سيطرة المسلمين .سواء طريق الحرير الشهير أو تجارة المحيط الهندي بين الشرق الأقصي وشرق أفريقيا .و كان السقوط الأخير للقسطنطينية(عام ١٤٥٣م)، عاصمةالإمبراطورية البيزنطية(الروم).وكان هذا السقوط علي يد محمد الفاتح العثماني. وأطلق عليها إسلام بول (إستانبول) بعدما جعلها عاصمة للخلافة العثمانية(الإمبراطورية العثمانية)(حكمت من ١٣٥٠م–١٩٢٤ م). وكان لسقوط القسطنطينية صداه في العالم الإسلامي كله حيث أقيمت الزينات بالقاهرة والشام وشمال أفريقيا لأن هذا النصر كان نهاية للكنيسة الشرقية ولاسيما بعد تحويل مقرها إلي جامع أيا صوفيا . وهذا الإنتصار كان بداية الرد الإسلامي علي البابوية بالفاتيكان في أعقاب الحملات الصليبية التي شنتهاعلي فلسطين والشام . و داهمت فيها المشرق العربي . وذبحت أكثر من مليون مسلم و نصراني في فلسطين وبيت المقدس. وكلن الفتح العثماني ردا علي الحرب الإستردادية بالأندلس . حيث كان التنصير القسري للمسلمين وإحراقهم هناك.فبينما كان الهلال ينحسر من الأندلس بغرب أوروبا كان يزحف لأول مرة في التاريخ فوق شرق أوروبا عندما إجتاحه العثمانيون بما فيه رومانيا والصرب والبوسنة والهرسك

واليونان والمجر .حتي بلغوا أبواب فيينا بالنمسا .وحشد البابا في الفاتيكان قوات أوروبا لوقف هذا الزحف الإسلامي الكاسح . ولولا توقف العثمانيين عند أبواب فيينا بمؤامرة من الدولة الصفوية بإيران ،لأصبح الآذان يؤذن من فوق أبراج كاتدرائية القديس بطرس كما يقول المعلقون . ومن بعدها كان خبز (الكرواسون) ومعناه الصليب يصنع علي هيئة الهلال ليأكله الأوربيون في أعيادهم. و الإسلام دخل شرقا وغربا وجنوبا وشمالا عن طريق التجار والقولفل التجارية العربية عبر آسيا الوسطي وشمال وشرق ووسط وجنوب وغرب أفريقياعن طريق الطرق الصوفية في أواسط آسيا وجنوب الصين وإندونيسيا

وأفريقيا . وعن طريق الرحلات البحرية التجارية دخل الإسلام الصين وسيلان وبروناي وجزر الفلبين وإندونيسيا وماليزيا ومدغشقر وزنجبار.وللتاريخ كان إحتلال العثمانيين للشام ومصر والعراق والحجاز وليبيا واليمن وتونس لحماية هذه الكيانات الإسلامية السنية من الأخطار التي كانت محدقة ومتربصة بها . فسواحل مصر والشام وشمال أفريقيا كانت مهددة بالأساطيل الفرنسية والأسبانية التي اتت تغير عليها . كما أرادت السلطنة العثمانية حماية الشام ومصر من خطر البرتغاليين المسيحيين بالبحر الأحمر والخليج العربي . وكانت إثيوبيا تعاون البرتغاليين لهذا السبب . و قد نزلوا عام ١٤٩٦م جدة بالحجاز لينهبوا الأماكن المقدسة بمكة والمدينة . وينقلوا رفات الرسول للبرتغال لتكون زيارة قبره صلي الله عليه وسلم نظير إتاوات. مما دفع المصريين أن يهاجموا الأسطول البرتغالي في معركة (ديو) الشهيرة قرب سواحل غرب شبه القارة الهندية .وكانت السلطنة المملوكية بمصر والشام تتآمر ضد السلطان سليم مع الدولة الصفوية الشيعية بفارس. مما جعل سليم الأول يتحرك وينسحب بجيوشه من النمسا . لإنقاذ هذه الكتلة السنيةبما فيها مصر والشام والحجاز من الخطر الشيعي الصفوي بإيران والبرتغالي بالبحر الأحمر والمحيط الهندي . ولم يتعاون السلطان الغوري بمصر معه لإنقاذ المسلمين السنة من مذابح الصفويين في فارس والقوقاز وأذربيجان. فأسقط حكم الصفويين واستولي علي العاصمة تبريز . ولو كان الغوري قد أظهر مرونة لما إحتل سليم مصرولا الشام ولا أسقط سلطنته المملوكية عامك ١٥١٧م. فالإسلام حكم الأندلس ٧قرون . وحكم الهند ١٠ قرون

حتي مجيء الإستعمار البريطاني . وفي ظلال الحكم الإسلامي ظهرت مدن تاريخية كالكوفة والبصرة وبغداد والقاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع والقيروان وفاس ومراكش والمهدية والجزائر ودلهي وقرطلة وغيرها . كما خلفت الحضارة الإسلامية مدنا متحفية تعبر عن العمارة الإسلامية كإستانبول بمساجدها والقاهرة بعمائرها الإسلامية وبخاري وسمرقند ودلهي وحيدر أباد وقندهار وبلخ وترمذ وغزنة وبوزجان وطليطلة وقرطبة وإشبيلية ومرسية وسراييفووأصفهان وتبريز ونيقيا وغيرها من المدن الإسلامية . وفي القارة الأفريقية نجد أن ٨٥%من سكانها مسلمون. وفي العالم نجد المسلمين يشكلون حاليا خمس سكان أهل الأرض .

[تحرير] عبقرية الحضارة الإسلامية

قال تعالي:كنتم خير أمة أخرجت للناس. وقوله سبحانه حق. إلا أنه في الآونة الأخيرة أخذ الإعلام الغربي يكيل إفكا للإسلام والمسلمين ويصفهم بأنهم يعانون من عقدة الصراع بين الحضارات . وهذا القول المعلن لا يتصف بالمصداقية أو حسن النوايا. وبعيدا عن الأسباب والمسببات الإستعمارية التي آل إليها العالم الإسلامي المعاصر نجد أن هذا العالم المترامي فوق خريطة الدنيا قد حقق المعجزة الحضارية المتفردة في تاريخ العالم القديم . عندا بزغت هذه الحضارة وسط دياجير الظلام الفكري والعقائدي الذي كان يسود العالم القديم عندما أتي الرسول برسالته السماوية التي حررت البشر من الظلم والقهر والعبودية وحققت العدل والمساواة والحرية . وجعل للإنسان حقوقه المكفولة تحت ظلال الإسلام لأول مرة في التاريخ الإنساني كله.لهذا حقق المسلمون حضارتهم التي أصبحت ثبتا مثبتا في سفر الحضارة الإنسانية .فخمسة قرون من عمر الزمن زهت فيها هذه الحضارة كان المسلمون خلالها القوة الأعظم في العالم القديم بلا منازع. بينما كانت شعوبه قبائل شتي تتسم بالعبودية والقهر والظلم بل والجهل أيضا. . وكان قد عرض كاتبنا المرموق عبد اللطيف فايد كتابا لي بعنوان (صناع الحضارة العلمية في الإسلام) في صفحة كاملة بملحق (الجمهورية) الإسبوعي . وكان هذا العرض التحليلي ردا غير مباشر علي الزخم الإعلامي ضد الإسلام وحضارته وتنويرا لأجيالنا بعظمة هذا الدين وإنجازات علمائه الضخمة في شتي العلوم التجريبية والإنسانية .فأصّل في عرضه الحضارة

الإسلامية وجردها من الزيغ والتضليل الإعلامي المغرض. فكان عرضه أمينا ومنزها بل ومنصفا لها. فالحضارة الإسلامية كان علماؤها يتمتعون بالحرية الفكرية التي أثرَت وأثُرت في الفكر الإنساني كله بعد ثمانية قرون من أفول الحضارة الإغريقية آخر الحضارات التقليدية القديمة .فلقد ظهر تحت ظلال حضارتنا الإسلامية عباقرة الفكر الإسلامي الثقاة كابن خلدون والبيروني والأدريسي والقزويني وابن ماجد والبتاني والطوسي والخوارزمي وابن الخيام والرازي والدميري والمقدسي وابن ماجه وابن النفيس والفارابي والكندي وابن سينا وابن طفيل وابن العوام وغيرهم من العلماء الذين أصبحوا نجوما زاهرة وزاخرة في سماء المعرفة الإنسانية إبان عصرهم والعصور التي لحقت بهم . وهذه حقيقة لا ننكرها بل يقرها كل مؤرخي العلم ومن بينهم سارتون . فوضعوهم في مصاف كبار الفلاسفة والعلماء الذين حققوا الإنجازات الضخمة في تاريخ مسيرة العلم والحضارات . وإبان مطلع عصر النهضة كان علماء وفلاسفة الغرب ينظرون لهؤلاء نظرة الإجلال بل والتقديس. لأنهم أثروا علي الفكر الغربي وغيروا من نظرتهم للفكر الإغريقي الذي تواري خلف الفكر الإسلامي . لهذا ظلت كتبهم تترجم و تدرس بالعربية زهاء أربعة قرون . وكان كتاب (القانون)في الطب لابن سينا إنجيلا يدرس في الغرب بالعربية و لاسيما بكليات فرنسا ولاسيما في جامعة (مونبلييه) العريقة . وكانت نظريات ابن رشد قد غيرت الفكر والفلسفة المسيحية واليهودية بأوروبا مما جعل مارتن لوثر يعلن تمرده علي البابوية معلنا البروتستانتية بعدما أسقط مقولة صكوك الغفران . وقد إستقي أفكارها من فلسفة ابن رشد التي شاعت بين الأوساط والجمعيات الفلسفية الأوربية وقتها. من هنا كان ظهور حركة الإستشراق الذي تبنته الكنيسة الغربية لتشويه صورة الإسلام وبث المطاعن فيه وكتابة المثالب الإفكية حول رسوله. فالصليبيون لما جاءوا للمشرق العربي وشاهدوا حضارته أصيبوا بالدونية الحضارية . ونقلوا هذه الحضارة لبلدانهم . فأنبهر الغرب بها وحاكاها ونقل تراثها العلمي والفكري. وعكف علماؤه و مفكروه وفلاسفته علي تمحيصه وتحقيقه .فظهرت أعمالهم كصدي فكري لعلوم المسلمين بعدما حررهم الفكر الإسلامي من هيمنة الكنيسة والكهنوت الكنسي وإرهاصاته كما حررهم من أساطير الإغريق.

بينما كان العالم الإسلامي يموج حضارة وتمدن خلال عصور الخلائف الراشدية والأموية والعباسية والعثمانية كانت أوروبا تعيش في أتون الجهل والهمجية والبربرية والرق والعبودية . وهذه حقيقة لاننكرها بل نقرها ولا نتغافلها وسط إرهاصات الغرب المفتئت والمفتري عليها . فعلماء المسلمين في كل مشاربهم إبان عصور حضارتنا الإسلامية التي غبرت وغربت عنا . لم يخلفوا لنا سوي أمجادهم وكتبهم وتراثهم الذي نهلت منه كل الروافد المعرفية العالمية . لأنه كان ثبتا لايماري فيه . لأنه اتسم بالمصداقية البحثية مما جعلهم مشاعل التنوير ودعاة الإستنارة ومجددين ومبدعين للعلم . فبنوا حضارة الحضارات وظلت تترى للإنسانية بتوابعها عبر القرون الوسطي حيث كانت الهمجية تسود أوروبا . ومن أعمال عباقرة هذه الحضارة الإسلامية نجد الجاحظ وقد ظهر كعالم للحيوان عندما حدثنا لأول مرة عن هجرات الطيور في رحلتي الصيف والشتاء . ولم يكتشف العلماء هذا إلا القرن ١٩ .ويعتبر الجاحظ مؤسسا لعلم الجغرافيا البشرية و علم الأجناس حيث قسم البشر وصنفهم لأمم وشعوب وأجناس وأعراق مختلفة وأوعز ألوانهم ولغاتهم وطبائعهم إلي تأثير العوامل الوراثية والبيئة الطبيعية والاجتماعية . وفي الفلك نجد أن البيروني قاس محيط الأرض بواسطة معادلة رياضية وضعها وأكد علي كروية الأرض وبين أن الأجسام تنجذب نحو مركزها. وبين أن توالي الليل والنهار سببه دوران الأرض وليس الشمس أو النجوم والكواكب معها . وبين بدقة إختلافات المواقيت والغروب والشروق حسب مواقع البلدان فوق خريطة الدنيا وبهذا نجده قد سبق كوبرنيق ونيوتن وجالليو .وبين البيروني أن الإنسان أصله قرد وتناول نظرية التطور كما قاله دارون فيما بعد . (حذار من هذا النص، بجب أن يعاد فيه النظر، البيروني يقول هذا الكلام الغريب، إنه لأمر عجيب إن صح. والراجح أنه غير صحيح..إنه دس السم في العسل) وفي الرياضيات نجد الخوارزمي التي مازالت شهرته حتي الآن ولاسيما كمؤسس لعلوم الجبر ولاسيما وهو واضع حساب اللوغريتمات التي يقوم عليها علي الرياضيات الحديثة . وكان أول من إكتشف الصفر ووضعه ضمن الأعداد وفي الحساب .كما جعل الحساب ميسرا بأن جعله طرحا وجمعا وقسمة وضربا . فبهذا علم الناس

الطرق الحسابية المبسطة .وهذا ماكتب للخوارزمي الخلود . ويعتبر عمر الخيام عالما في الفلك والرياضيات ويعتبر ثاني إثنين بعد الخوارزمي في علم الجبر فأسس علم الترجمة الرياضية المزدوجة .حيث ترجم مسائل الهندسة للغة الجير وترجم مسائل الجبر للغة الهندسة كما ترجم مسائل من الهندسة الفراغية للغة الجبر . وهي المسائل التي لايمكن رسمها بالمسطرة والفرجار كمسألة تثبيث الزوايا ومسألة الوسطين الجسابين ومسألة المسبع المنتظم .وقد إبتكر حل المعادلات من الدرجة الثانية عن طريق الأقواس المخروطية . وفي الطب نجد أن ابن النفيس قد إكتشف الدورة الدموية قبل هارفي بعدة قرون وابن زهر بالأندلس كان يمارس الجراحة والتخدير . وكان الكندي أبا الحضارة الإسلامية وفيلسوفها الأول .والدميري أول من وضع معجما للحيوانات وصنفها فيه من حيث الشكل والطباع ومرادفات أسمائها والطوسي الفلكي الشهير وابن سينا والرازي وابن رشد . وغيرهم من أساطين العلوم الإسلامية . فخلدت أعمالهم وتصدرت أبحائهم سجل التاريخ المعرفي والعلمي والحضاري للإنسانية بلا منازع . مما أكسبهم تقدير العلماء الذين خلفوهم . فصانوا لهم تراثهم من بعدهم ووعوه في عقولهم وأشادوا به وبهم وظلوا قرونا له حافظين .

[تحرير] ابن طفيل ومنظومة الكون

نظرتنا للكون قديما وحديثا نجدها في فكر عالم سلفي قد حدثنا عن نشوئه وإرتقائه وتحيزه وتقوسه وبدايته ووحدته . و هوالعالم الأندلسي أبوبكر بن طفيل الذي ولد عام ١١٠٦م/٥٠٠هجرية قرب غرناطة بالأندلس.وكان من أ قطاب رموز الحكمة المغربية الأندلسية حيث كان معلما لابن رشد.ويعتبر عالما من العلماء اللواحق في عصر الحضارة الإسلامية . وكان ابن طفيل قد إشتهر بقصته الفلسفية (حي بن يقظان)التي سبق ظهورها عصر النهضة بأوروبا وعصور كوبرنيق وجاليليو ونيوتن وإينشتين وديراك وهبل وغيرهم من أقطاب الفلك الحديث. والقصة رغم دلا ئها الإيمانية التأملية في منظومة الخلق والكون من خلال فكر إنسان كان يعيش متفردا في جزيرة نائية منذ أن ألقي به في اليم وهو رضيع . فاهتدي بفطرته إلي مكنونات الخلق وعظمة الخالق من خلال عقله وبصره وسمعه . كما اهتدي ببصيرته إلي الإيمان. لهذا نجد ابن طفيل يحدثنا في سياق قصته عن(البعد الثالث) بالكون

وسماه الأقطار الثلاثة بالسماء وحددها بالطول والعرض والعمق. وكيف يعتقد أنها ممتدة إلي مالانهاية . إلا أنه أكد علي تحيز الكون قائلا: جسما لانهاية له باطل لأن الفلك (الكون) علي شكل كرة .وهذا ما أطلق عليه إينشتين فيما بعد التقوس الكوني وتحيزه حيث إعتبر الكون كتلة متقوسة(سماها ابن طفيل كرة)في فضاء متسع يتمدد فيه وكل مايقاس فيه يتم من داخل وجودنا به ورغم هذا لانري حافته أو حدوده . والعلماء حتي الآن لايعرفون مركز تمدده .إلا أن ابن طفيل نراه يتساءل قائلا: هل السماء ممتدة إلي غير نهاية ؟.أو هي متناهية محدودة بحدود تتقطع عندها ولايمكن أن يكون وراءها شيء من الإمتداد ؟.وكانت نظرية التمدد الكوني ثورة فلكية عندما طالعنا إدوين هبل عام ١٩٢٠ بها . لأنها قلبت مفهوم العلم عن الكون إلا أن ابن طفيل سبقه فيها منذ ثمانية قرون عندما أشار إليها .فلقد حدثنا عن (التمدد الكوني) وإنتفاخ الكون قائلا: الأجسام السماوية تتحرك حول الوسط بالمكان(الفضاء)ولو تحركت في الوضع (المركز) علي نفسها أصبحت كروية الشكل .وحدثنا ابن طفيل فيما حدثنا به عن منظومة (وحدة الكون) قائلا: إن الفلك (الكون) بجملته وما يحتوي عليه من ضروب الأفلاك شيء واحد متصل ببعضه بعض كشخص واحد . كما حدثنا عن(نشوء الكون) قائلا : أن العالم (الكون) لايمكن أن يخرج إلي الوجود بنفسه ولابد له من فاعل (محدث) يخرجه إليه. وكان العدم والوجود من الأمور المثارة في علم الكلام ولاسيما لدي المعتزلة بالعصر العباسي حيث كانوا يبحثون في مسألة الخلق والقدم والحداثة للكون .وفي حديثه عن التناسق الكوني نراه يقول: الكواكب والأفلاك كلها منتظمة الحركات جارية علي تسق. كما حدثنا عن المادة المضادة بمواد الكون قائلا: وأن أكثر هذه الأجسام مختلطة ومركبة من أشياء متضادة ولذلك تؤول إلي الفساد .كما جدثنا عن الجاذبية الكونية والإنتفاخ الكوني والجينات والإنكسار الضوئي والمادة المظلمة بالكون وتكوير الأرض والشمس والقمر بإستفاضة . وإذا كان إينشتين وغيره من العلماء قد ظلوا في (حيص بيص)حول تعريفهم للزمان ككل وقصروه علي زمن عمر الكون منذ الإنفجار الكبير . لكن ابن طفيل نجده يقول عنه : هل هو شيء حدث بعد إن لم يكن وخرج إلي الوجود بعد العدم ؟. أ و كان موجودا فيما سلف ولم يسبقه العدم. وأخيرا .. إذا كان الكون حادثا

كما يقول ابن طفيل فلابد له من محدث . والكون في جملته شيء واحد يتصل ببعضه ببعض من خلال منظومة قائمة وماثلة لنا . وهذه النظرة تجعلنا نعيد قراءة فكر علمائنا الأوائل من خلال منظور عصري لتأصيل ما كتبوه أو قروه مما يؤصل تفوق الحضارة الإسلامية ويجعل لها السبق العلمي المتميز . فمقولة أن العالم الإسلامي يعاني حاليا من الصدام بين الحضارات إفتئات طاغ علي الفكر الإنساني كله .

[تحرير] سمات الحضارة الإسلامية

[تحرير] مقدمة

الإسلام كدين عالمي يحض علي العلم ويعتبره فريضة علي كل مسلم . لتنهض أممه وشعوبه . ولم يكن في أي وقت مدعاة للتخلف كما يأفك الغرب .فأي علم مقبول إلا لوكان علما يخالف قواعد الإسلام ونواهيه .فالرسول دعا لطلب العلم ولو كان بالصين . والإسلام يكرم العلماء ويحعلهم ورثة الأنبياء ويحضهم علي طلبه من المهد إلي اللحد. وتتميز الحضارة الإسلامية بالتوحيد والتنوع العرقي في الفنون والعلوم والعمارة طالما لاتخرج عن نطاق القواعد الإسلامية . لأن الإسلام لايعرف الكهنوت كما كانت تعرفه أوروبا . لأن الحرية الفكرية كانت مقبولة تحت ظلال الإسلام . وكانت الفلسفة يخضعها الفلاسفة المسلمون للقواعد الأصولية مما أظهر علم الكلام الذي يعتبر علما في الإ لهيات . فترجمت أعمالها في أوروبا وكان له تأثيره في ظهور الفلسفة الحديثة وتحرير العلم من الهنوت الكنسي فيما بعد . مما حقق لأوروبا ظهور عصر النهضة بها . فالنهضة الإسلامية جعلت من العرب والشعوب الإسلامية المتبدية يحملون المشاعل التنويرية للعالم في العصور الوسطي حتي أصبحوا فيها سادة العالم ومعلميه . فلقد حقق الفرس والمصريون والهنود والأتراك المسلمين حضارات لهم في ظلال الإسلام لم يسبق لهم تحقيقها خلال حضاراتهم التي سبقت الإسلام . فأثروا بعلومهم التي إكتسبوها الحضارة الإسلامية التي إزدهرت وتنوعت وتنامت. لهذا لما دخل الإسلام هذه الشعوب لم يضعها في بيات حضاري ولكنه أخذ بها ووضعها علي المضمار الحضاري لتركض فيه بلا جامح بها أو كابح لها .وكانت مشاعل هذه الحضارة الفتية تبدد ظلمات الجهل وتنير

للبشرية طريقها من خلال التمدن الإسلامي . فبينما كانت الحضارة الإسلامية تموج بديار الإسلام من الأندلس غربا لتخوم الصين شرقا ز كانت أوروبا وبقية أنحاء المعمورة تعيش في إظلام حضاري وجهل مطبق . وامتدت هذه الحضارة القائمة بعدما أصبح لها مصارفها وروافدها لتشع علي الغرب ونطرق أبوابه .فنهل منها معارفه وبهر بها لأصالتها المعرفية والعلمية . مما جعله يشعر بالدونية الحضارية . فثار علي الكهنوت الديني ووصاية الكنيسة وهيمنتها علي الفكر الإسلامي حتي لايشيع . لكن رغم هذا التعتيم زهت الحضارة الإسلامية وشاعت . وانبهر فلاسفة وعلماء أوروبا من هذا الغيث الحضاري الذي فاض عليهم . فثاروا علي الكنيسة وتمردوا عليها وقبضوا علي العلوم الإسلامية من يقبض علي الجمر خشية هيمنة الكنيسة التي عقدت لهم محاكم التفتيش والإحراق .ولكن الفكر الإسلامي قد تمل منهم وأصبحت الكتب الإسلامية التراثية والتي خلفها عباقرة الحضارة الإسلامية فكرا شائعا ومبهرا . فتغيرت أفكار الغرب وغيرت الكنيسة من فكرها مبادئها المسيحية لتسايرالتأثير الإسلامي علي الفكر الأوربي وللتصدي للعلمانيين الذين تخلوا عن الفكر الكنسي وعارضوه وانتقدوه علا نية . وظهرت المدارس الفلسفية الحديثة في عصر النهضة أو التنوير بأوروبا كصدي لأفكار الفلاسفة العرب . ظهرت مدن تاريخية في ظلال الحكم الإسلامي كالكوفة والبصرة وبغداد و دمشق والقاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع والقيروان وفاس ومراكش والمهدية والجزائر وغيرها . كما خلفت الحضارة الإسلامية مدنا متحفية تعبر عن العمارة الإسلامية كإستانبول بمساجدها والقاهرة بعمائرها الإسلامية وبخاري وسمرقند ودلهي وحيدر أباد وقندهار وبلخ وترمذ وغزنة وبوزجان وطليطلة وقرطبة وإشبيلية ومرسية وسراييفو وأصفهان وتبريز ونيقيا وغيرها من المدن الإسلامية.

[تحرير] العلم و الفنون في الحضارة الإسلامية

خلال قرني من وفاة الرسول كانت صناعة الكتب منتشرة في كل أنحاء العالم الإسلامي وكانت الحضارة الإسلامبة تدور حول الكتب .فقد كانت توجد المكتبات الملكية والعامة والخاصة في كل مكان حيث كانت تجارة الكتب ومهنة النساخة رائجة وكان يقتنيها كل طبقات المجتمع الإسلامي الذين كانوا يقبلون عليها إقبالا

منقطع النظير .وكان سبب هذا الرواج صناعة الورق ببغداد وسمرقند .وكانت المكتبات تتيح فرص الإستعارة الخارجية .وكانت منتشرة في كل الولايات والمدن الإسلامية بالقاهرة وحلب وإيران ووسط آسيا وبلاد الرافدين والأندلس وشمال أفريقيا .وكانت شبكات المكتبات قد وصلت في كل مكان بالعالم الإسلامي . وكان الكتاب الذي يصدر في يغداد أو دمشق تحمله القوافل التجارية فوق الجمال ليصل لقرطبة بأسبانيا في غضون شهر . وهذا الرواج قد حقق الوحدة الثقافية وإنتشار اللغة العربية . وكانت هي اللغة العلمية والثقافية في شتي الديار الإسلامية. كما كان يعني بالنسخ والورق والتجليد . مما ماجعل صناعة الكتب صناعة مزدهرة في العالم الإسلامي لإقبال القراء والدارسين عليها وإقتنائها .وكانت هذه الكتب تتناول شتي فروع المعرفة والخط وعلوم القرآن وتفاسيره واللغة العربية والشعروالرحلات والسير والتراث والمصاحف وغيرها من آلاف عناوين الكتب . وهذه النهضة الثقافية كانت كافية لإزدهار الفكر العربي وتميزه وتطوره .وفي غرب أفريقيا في مملكتي مالي وتمبكتو أثناء إزدهارهما في عصريهما الذهبي ، كانت الكتب العربية لها قيمتها . وكان من بينها الكتب النادرة التي كانت تنسخ بالعربية ، وكانت المملكتان قد أقامتا المكتبات العامة مع المكتبات الخاصة.

[تحرير] الترجمة

وبدأت في الخلافة العباسية أكبر حركة ترجمة في التاريخ الإنساني كله من شتي لغات أهل الأرض لأمهات الكتب العلمية والفلسفية المعاصرة . ولم يصادر الخلفاء العباسيون أي فكر. وهذه الحرية الفكرية قد أثرت العلوم العربية ونهضت بها . لهذا إعتبر مؤرخو العلم الثقاة أن مرحلة الترجمةالعربية إحدى مفاخر الحضارة الإسلامية لأن الشعوب الأخرى كانت لا تحترم الحضارات السابقة لها ولا تستفيد منها. حيث كان الغزاة والغالبون يدمرون حضارة المغلوب ويحرقون الكتب ويقتلون العلماء ،كما فعل التتار في بغداد وما فعله الأسبان المسيحيون في قرطبة ، عندما أحرقوا التراث الإسلامي ودمروا المكتبات . ويذكر المستشرق الاسباني كونده Conde ، أن الاسبان عندما استولوا على قرطبة أحرقوا في يوم واحد نحو سبعين خزانة (مكتبة عامة) للكتب فيها اكثر من مليون وخمسين ألف مجلد. وعندما استولي التتار على

بغداد ألقوا بالكتب في نهر دجلة ، وتحولت مياه النهر إلى السواد من الحبر ثلاثة أيام متتالية. ورغم كل هذه الظروف المؤسفة التي تعرضت لها المخطوطات الإسلامية فما يزال في أنحاء العالم اليوم فيض منها في متاحف أوروبا ومتاحف العالم الإسلامي . والكثير منها لم يخرج إلى النور ولم يتم تحقيقه أو تدارس ما فيه من كنوز المعرفة .ويرجع بداية عصر الترجمة الإسلامية للخليفتين العباسيين المنصور العباسي(ت ٧٧٥م.) الذي شيد مدينة بغداد ،ومن بعده هارون الرشيد (ت٨٠٧.) ، فقد شجعا المترجمين علي ترجمة علوم الإغريق والنبش عنها في بلاد الروم والشام وفارس والهند ومصر . فمعظمها كانت مندثرة ومعرضة للضياع والإنقراض . وكانت الكتب الإغريقية قد دفنت مع علمائها في مقابرهم . وكان قادة الفتوحات الإسلامية يبادلون الأسري بالكتب . وكانوا يضعون في بنود المعاهدات والصلح بندا ينص علي رفع الجزية في نظيرهدية من الكتب و السماح للمسلمين بالتنقيب عن الكتب الإغريقية. وكانوا يطلبون من البيزنطيين البحث عن كتاب معين جاء ذكره في المخطوطات، ويسألونهم البحث عنه في مقبرة صاحبه . وأنشأالخليفة العباسي المأمون داراً خاصة بالترجمة. وكان المترجمون يؤجرون بسخاء.. وقد يعطى المترجم مثقال وزن الكتاب المترجم ذهباً . وبعد مرحلة الترجمة عكف المسلمون على تلك المخطوطات الثمينة يدرسونها وينقونها مما شابها من الهرطقة والكفر والخرافات . واخضعوها للمفاهيم القرآنية والعقيدة الإسلامية . ويعتبر القرن التاسع م له أهميته في ثبت الحضارة الإسلامية المتنامية . لأن أعمال العلماء المسلمين كانت رائعة وكانوا رجال علم متميزين وكان المأمون الخليفة العباسي العالم المستنير(ت ٨٣٣) يحثهم علي طلب العلم . وقد أنشأ لهم بيت الحكمة لتكون أكاديمية البحث العلمي ببغداد تحت رعايته الشخصية .وأقام به مرصدا ومكتبة ضخمة . كما أقام مرصدا ثانيا في سهل تدمر بالشام . وجمع المخطوطات من كل الدنيا لتترجم علومها . وكان يشجع الدارسين مهما تنوعت دراستهم . وحقق بهذا التوجه قفزة حضارية غير مسبوقة رغم وجود النهضة العلمية وقتها. وهذا ما لم يحدث بعد إنشاء جامعة ومكتبة الإسكندرية في القرن الثالث ق.م. وقام الفلكيون في تدمر في عهده بتحديد ميل خسوف القمر ووضعوا جداول لحركات الكواكب . وطلب

منهم تحديد حجم الأرض ، وقاسوا محيطها ، فوجدوه ٢٠٤٠٠ ميل ،وقطرها ٦٥٠٠ ميل. وهذا يدل علي أن العرب كانوا علي علم وقتها ،بأن الأرض كروية قبل كويرنيق بخمسة قرون . كما طلب المأمون منهم وضع خريطة للأرض . وفي علم الفلك أثبتوا دورانها. وقياساتهم تقريبا لها تطابق ما قاسه علماء الفلك بالأقمار الصناعية ، وأنهم كانوا يعتقدون خطأ أنها مركز الكون، يدورحولها القمر والشمس والكواكب . وهذا الإعتقاد توارد إليهم من فكر الإغريق . واكتشفوا الكثير من النجوم والمجرات السماوية وسموها بأسمائها العربية التي مازالت تطلق عليها حتي الآن. وكانت كل الأبحاث في الفلك والرياضيات في العصر العباسي قد إنفرد بها العلماء المسلمون وقد نقلوها عن الهنود الذين قد ترجموها عن الصينيين للعربية وقاموا بتطويرها بشكل ملحوظ .

الاسطرلاب

الاسطرلاب

[تحرير] الفلك

كان إبراهيم الفزاري أول من إخترع الإسطرب في الفلك.كما ظهرت عبقرية الخوارزمي في الزيج (جدول فلكي) الذي صنعه وأطلق عليه اسم "السند هند الصغير،،وقد جمع فيه بين مذهب الهند، ومذهب الفرس، ومذهب بطليموس الإغريقي في الفلك .وصار لهذا الزيج أثر كبير في الشرق والغرب. و ابتكر المسلمون علوماً جديدة لم تكن معروفة قبلهم وسموها بأسمائها العربية كعلم الكيمياء وعلم الجبر وعلم المثلثات . و من مطالعاتنا للتراث العلمي الإسلامي نجد أن علماء المسلمين قد إبتكروا المنهج العلمي في البحث والكتابة.وكان يعتمد علي التجربة والمشاهدة والاستنتاج. و أدخل العلماء المسلمون الرسوم التوضيحية في الكتب العلمية و رسوم الآلات والعمليات الجراحية. و رسم الخرائط الجغرافية والفلكية المفصلة. وقد ابتدع المسلمون الموسوعات و القواميس العلمية حسب الحروف الأبجدية . وكان لاكتشاف صناعة الورق وانتشار حرفة (الوراقة) في العالم الإسلامي فضل في انتشار تأليف المخطوطات ونسخها . وقد تنوعت المخطوطات العربية بين مترجم ومؤلف. أما المترجم فكان منها الهندي والفارسي والإغريقي والمصري (من مكتبات الاسكندرية).

ولم تكن المكتبات الإسلامية كما هي في عصرنا مجرد أماكن لحفظ الكتب، بل كان في المكتبة الرئيسية جهاز خاص بالترجمة وآخر خاص بالنسخ والنقل وجهاز بالحفظ والتوزيع. وكان المترجمون من جميع الأجناس الذين كانوا يعرفون العربية مع لغة بلادهم.ثم كلن يراجع عليهم ترجماتهم، علماء العرب لإصلاح الأخطاء اللغوية. أما النقلة والنساخون فكانت مهمتهم إصدار نسخ جديدة من كل كتاب علمي عربي حديث أو قديم. وكانت أضخم المكتبات هي الملحقة بالجامعات والمساجد الكبري . ففي بيت الحكمة ببغداد وفي دار الحكمة في القاهرة وفي جامعة القيروان وقرطبة كانت المخطوطات بهم بالآلاف في كل علم وفرع من فروع العلم . وكانت كلها ميسرة للاطلاع أو الاستعارة. فكان يحق للقارىء أن يستعيرأي كتاب مهما كانتً قيمته وبدون رهن . لهذا كانت نسبة الأمية في هذا الوقت ، تكاد تكون معدومة. وكان تعلم القرآن كتابة وقراءة إلزامياً. بينما كانت نسبة الأمية في أوروبا فيما بين القرن التاسع وحتي القرن ١٢م أكثر من ٩٥% .و يقول المستشرق آدم متز في كتابه (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري)،أن أوروبا وقتها لم يكن بها أكثرمن عدد محدود من المكتبات التابعة للأديرة . ولا يعرف التاريخ أمة اهتمت باقتناء الكتب والاعتزاز بها كما فعل المسلمون في عصور نهضتهم وازدهارهم. فقد كان في كل بيت مكتبة. وكانت الأسر الغنية تتباهي بما لديها من مخطوطات نادرة وثمينة. وكان بعض التجار يسافرون إلى أقصى بقاع الأرض لكي يحصلوا على نسخة من مخطوط نادر أو حديث. وكان الخلفاء والأثرياء يدفعون بسخاء من أجل أي مخطوط جديد.

[تحرير] نهضة علمية

مع هذه النهضة العلمية ظهرت الجامعات الإسلامية لأول مرة بالعالم الإسلامي قبل أوروبا بقرنين .وكانت أول جامعة بيت الحكمة أنشئت في بغداد سنة ٨٣٠ م، ثم تلاها جامعة القرويين سنة ٨٥٩ م في فاس ثم جامعة الأزهر سنة ٩٧٠ م في القاهرة. وكانت أول جامعة في أوروبا أنشئت في سالرنو بصقلية سنة ١٠٩٠ م على عهد ملك صقلية روجر الثاني. وقد أخذ فكرتها عن العرب هناك . ثم تلاها جامعة بادوا بإيطاليا سنة ١٢٢٢ م. وكانت الكتب العربية تدرس بها وقتها . وكان

للجامعات الإسلامية تقاليد متبعة وتنظيم .فكان للطلاب زي موحد خاص بهم وللأساتذة زي خاص. وربما اختلف الزي من بلد إلي بلد ومن عصر إلي عصر. وقد أخذ الأوربيون عن الزي الجامعي الإسلامي الروب الجامعي المعمول به الآن في جامعاتهم . وكان الخلفاء والوزراء إذا أرادوا زيارة الجامعة الإسلامية يخلعون زي الإمارة والوزراة ويلبسون زي الجامعة قبل دخولها .وكانت اعتمادات الجامعات من ايرادات الأوقاف. فكان يصرف للطالب المستجد زي جديد وجراية لطعامه. وأغلبهم كان يتلقى منحة مالية بشكل راتب وهو ما يسمى في عصرنا بالمنحة الدراسيةScholarship .فكان التعليم للجميع بالمجان يستوي فيه العربي والأعجمي والأبيض والأسود. وبالجامعات كان يوجد المدن الجامعية المجانية لسكني الغرباء وكان يطلق عليها الأروقة. والطلبة كان يطلق عليهم المجاورون لسكناهم بجوارها . وكان بالجامعة الواحدة أجناس عديدة من الأمم والشعوب الإسلامية يعيشون في إخاء ومساواة تحت مظلة الإسلام والعلم. فكان من بينهم المغاربة والشوام والأكراد والأتراك وأهل الصين وبخارى وسمرقند. وحتى من مجاهل افريقيا وآسيا وأوروبا . وكان نظام التدريس في حلقات بعضها يعقد داخل الفصول. وأكثرها كان في الخلاء بالساحات أو بجوار النافورات بالمساجد الكبري. وكان لكل حلقة أستاذها يسجل طلابها والحضور والغياب.ولم يكن هناك سن للدارسين بهذه الجامعات المفتوحة . وكان بعض الخلفاء والحكام يحضرون هذه الحلقات.وكانوا يتنافسون في استجلاب العلماء المشهو رين من أنحاء العالم الإسلامي ،ويغرونهم بالرواتب والمناصب، ويقدمون لهم أقصى التسهيلات لأبحاثهم. وكان هذا يساعد على سرعة انتشار العلم وانتقال الحضارة الإسلامية بديار الإسلام . كانت الدولة الإسلامية تعني بالمرافق الخدماتية والعامة بشكل ملحوظ. فكانت تقيم المساجد ويلحق بها المكتبات العامة المزودة بأحدث الإصدارات في عصرها ودواوبن الحكومة والحمامات العامة ومطاعم الفقراء وخانات المسافرين علي الطرق العامة ولاسيما طرق القوافل التجارية العالمية ، وطرق الحج التراثية وإنشاء المدن والخانقاهات والتكايا المجانية للصوفية واليتامي والأرامل والفقراء وأبناء السبيل . واقيمت الأسبلة لتقدم المياه للشرب بالشوارع . وكان إنشاء البيمارستنات (المستشفيات الإسلامية) سمة متبعة في كل مكان بالدولة

الإسلامية يقدم بها الخدمة المجانية من العلاج والدواء والغذاء ومساعدة أسر المرضي الموعزين .وكلمة باريمستان بالفارسيةهو مكان تجمع المرضي ،وكلمة مستشفي معناها بالعربية مكان طلب الشفاء .لهذا كان الهدف من إنشاء هذه المستشفيات غرضا طبيا وعلاجيا . عكس المستشفيات في أوروبا وقتها ،كانت عبارة عن غرف للضيافة ملحقة بالكنائس والأديرة لتقدم الطعام لعابري السبيل أو ملاجيء للعجزة والعميان والمقعدين ولم تكن للتطبيب . وكان يطلقون علي هذه الغرف كلمة مضيفة Hospital ، وهي مشتقة من كلمة ضيافة Hospitality .وأول مستشفي بني بإنجلترا في القرن ١٤م. بعد إنحسار الحروب الصليبية علي المشرق العربي، بعدما أخذ الصليبيون نظام المستشفيات الإسلامية و الطب العربي عن العرب . وكان أول مستشفي في الإسلام بناه الوليد بن عبد الملك سنة٧٠٦ م (٨٨ هـ) في دمشق. وكان الخلفاء المسلمون يتابعون إنشاء المستشفيات الإسلامية الخيرية بإهتمام بالغ. ويختارون مواقعها المناسبة من حيث الموقع والبيئة الصالحة للإستشفاء والإتساع المكاني بعيدا عن المناطق السكنية . وأول مستشفى للجذام بناه المسلمون في التاريخ سنة ٧٠٧ م بدمشق. في حين أن أوروبا كانت تنظر إلى الجذام على إنه غضب من الله يستحق الإنسان عليه العقاب حتى أصدر الملك فيليب أمره سنة ١٣١٣ م بحرق جميع المجذومين في النار. وكانت المستشفيات العامة بها أقسام طب المسنين ، بها أجنحة لكبار السن وأمراض الشيخوخة . وكانت توجد المستشفيلت الخاصة. والمستوصفات لكبار الأطباء بالمستشفيلت العامة .. ومن المعروف أن الدولة الإسلامية في عصور ازدهارها كانت تعطي أهمية قصوى لمرافق الخدمات العامة مثل المساجد ودواوين الحكومة والحمامات والمطاعم الشعبية واستراحات المسافرين والحجاج. وبديهي أن تكون أهم هذه المرافق المستشفيات.. فقد كانت تتميز بالاتساع والفخامة والجمال مع البساطة. ومن بين هذه المستشفيات التراثية اليوم مستشفي السلطان قلاوون ومستشفي أحمد بن طولون بالقاهرة والمستشفي السلجوقي بتركيا . وكانت مزودة بالحمامات والصيدايات لتقديم الدواء والأعشاب. والمطابخ الكبيرة لتقديم الطعام الطبي الذي يصفه الأطباء للمرضي حسب مرضهم . لأن الغذاء المناسب للمرض كانوا يعتبرنه جزءا من العلاج . ،

ويشتمل المستشفى الكبير(الجامعي) على قاعة كبيرة للمحاضرات والدرس وامتحان الأطباء الجدد وملحق بها مكتبة طبية ضخمة تشمل على المخطوطات الطبية. والمشاهد لهذه المستشفيات سيجدها أشبه بالقصورالضخمة و المتسعة، بل والمنيفة. وحول المبني الحدائق ومن بينها حديقة تزرع فيها الأعشاب الطبية.ولم يأت منتصف القرن العاشر م. حتى كان في قرطبة بالأندلس وحدها خمسون مستشفي وأكثر منها في دمشق وبغداد والقاهرة والقيروان علاوة المستشفيات المتنقلة والمستشفيات الميدانية لجرحي الحرب ، والمستشفيات التخصصية كمستشفيات الحميات التي كان بها معزل طبي لعزل الأمراض المعدية . وفيها كان يبرد الجو وتلطف الحرارة بنوافير المياه أو بالملاقف الهوائية . ومستشفيات للجراحةالتي كان يشترط فيها الجو الجاف ليساعد على التئام الجروح. لكثرة حروب المسلمين فقد طوروا أساليب معالجة الجروح فابتكروا أسلوب الغيار الجاف المغلق وهو اسلوب نقله عنهم الأسبان وطبقوه لأول مرة في الحرب الاهلية الأسبانية ثم عمم في الحرب العالمية الأولى بنتائج ممتازة. وهم أول من استعمل فتيلة الجرح لمنع التقيح الداخلي وأول من استعمل خيوطا من مصارين الحيوان في الجراحة الداخلية.. ومن أهم وسائل الغيار على الجروح التى أدخلها المسلمون استعمال عسل النحل الذي ثبت حديثا أن له خصائص واسعة في تطهير الجرح ومنع نمو البكتريا فيه..

[تحرير] الطب

ولقد طور الأطباء المسلمون أساليب معالجة الجروح فابتكروا أسلوب الغيار الجاف المغلق . وفتائل الجراحة المغموسة في عسل النحل لمنع التقيح الداخلي وهو اسلوب نقله عنهم الأسبان وطبقه الأوربيون في حروبهم . وكان الجراحون المسلمون قد قفزوا بالجراحة قفزة هائلة ونقلوها من مرحلة نزع السهام كما كان عند الإغريق إلي مرحة الجراحة الدقيقة ومما سهل هذا إكتشافهم للتخدير قبل الجراحة، فتوصلوا إلى ما سموه المرقد (البنج عبارة عن اسفنجة تنقع فى محلول من الأعشاب المركبة القنب(الحشيش) والزؤبان والخشخاش (الأفيون) وست الحسن . وتترك لتجف وقبل العملية توضع الاسفنجة في فم المريض فإذا امتصت الأغشية المخاطية تلك العصارة استسلم للرقاد العميق لا يشعر معه بألم الجراحة .ولم يقتصر أطباء

المسلمين على طريقة الاسفنجةالمخدرة فقط ،بل كانوا يستعملونه لبوساً من الشرج أو شراباً من الفم .و عرف المسلمون التخدير بالاستنشاق. وبين ابن سينا أثره بقوله : من استنشق رائحته عرض له سبات عميق من ساعته . وللإفاقة من البنج كان الأطباء العرب يستخدمون أسفنجة أطلقوا عليها الإسفنجة المنبهة المشبعة بالخل لإزالة تأثير المخدر وإفاقة المريض بعد الجراحة .وحدثنا ابن سينا في كتابه(القانون (عن التخديربالتبريد قائلا: ومن جملة ما يخدر ،إلما ء المبرد بالثلج تبريداً بالغاً. ووصف كيفية استعمال التبريد كمخدر موضعيى كما في جراحة الأسنان.. ولقد كان الجراحون قبل ذلك يتهيبون من الجراجة الداخلية، ويكتفون بعمليات البتر. ثم الكي بالنار لإيقاف النزيف الداخلي. لكنهم باكتشاف واختراعالرازي لخيوط الجراحة من أمعاء الحيوان جعل بإمكانهم خياطة أي عضوداخلي بأمان دون الحاجة إلى فتحه من جديد لاخراج أسلاك الجراحة. وكان الجراحون يستعملون في خياطة جراحاتهم الإبر والخيوط من الحريرأو من أمعاء الحيوانات لربط الجروح الداخلية والخارجية أو من خيوط من الذهب لتقويم الأسنان . ومع تطور الجراحة عند المسلمين بعد اكتشافهم للتخدير ،ابتكروا الكثير من آلات الجراحة التى لم تكن معروفة قبلهم ،فمنها آلات من الفضة أو الصلب أوالنحاس. وكانت أسماء الآلات تدل علي مدي توسع الجراحة وتنوعها فهناك المشارط بأنواعها للجراحة الخارجية والداخلية ومنها ذو الحد وذو الحدين و المناشير الكبيرة للبتر والصغيرة لقص العظام الداخلية. و المباضع المختلفة الأشكال فمنها المباضع الشوكية والمعقوفة لقص اللوزتين. والمجادع والمجادر والمبادر والكلاليب. ودست المباضع والمقصات الخاصة بعمليات العيون والجفوت بأحجامها وأشكالها المختلفة، كالجفوت الكبيرة المستعملة في أمراض النساء لاستخراج الجنين أو تسهيل ولادته. أو الجفوت المستعملة في جراحة العظام لاستخراج بقايا العظم أو السلاح داخل الجسم ، أو المستعملة في جراحة الأذن والأنف والعيون. و الصنانير التى تدخل بين الأوعية والعروق والأعصاب و في جراحة الأوعية الداخلية وخياطتها. وفي كسور العظام كان الأطباء يستعملون أنواعا من الجبائر من البوص أو جريد النخل أو من الخشب. وكان المجبرون يعالجون خلع المفاصل وكسر العظام بالطرق اليدوية في خبرة ومهارة دون حاجة إلى الشق

بالجراحة وفي كثير من الأحيان يستعملون الشد على المفصل لمنع تكرار الخلع، كما أنهم ابتكروا طريقة الرد الفجائي للخلع . وكان الكي بالمكاوي المختلفة ،قد توارثه العرب عن البدو . . وقد استعمله المعالجون المسلمون لقتل مواطن الألم pain killer للأمراض المزمنة والمستعصية كعرق النساء واللمباجو و الصداع النصفي . وحددوا خرائط لجسم الإنسان حددوا فيها مواضع الكي بالنسبة لكل مرض .وقد يكون الكي في أكثر من موضع للمرض الواحد. وابتكر الأطباء المسلمون أنواعا من المكاوي المحماة ،من بينها الإبر الدقيقة ذات السن الواحد أو شعبتين أو ثلاثة. وصنعوها من الحديد أو النحاس أو الذهب أو الفضة وحددوا درجة الحرارة المناسبة لعلاج كل مرض وحدد العالم ابن سينا في كتابه (القانون (القواعد الرئيسية لجراحة السرطانات. في مراحل ثلاث هي : الاكتشاف المبكر،ثم الجراحة المبكرة، فالاستئصال التام. و ذكر الزهراوي علاج السرطان في كتابه(التصريف (قائلا: متى كان السرطان في موضع يمكن استئصاله كله كالسرطان الذي يكون في الثدي أو في الفخد ونحوهما من الأعضاء المتمكنة لإخراجه بجملته ،إذا كان مبتدءاً صغيراً فافعل. أما متى تقدم فلا ينبغى أن تقربه فاني ما استطعت أن أبرىء منه أحدا. ولا رأيت قبلى غيري وصل إلى ذلك " .ووصف العملية قائلا : ثم تلقى في السرطان الصنانير التى تصلح له ثم تقوره من كل جهة مع الجلد على استقصاء حتى لا يبقى شيء من أصوله واترك الدم يجري ولا تقطعه سريعا بل اعصر المواضع ما أمكنك. وكان الزهراوي يجري عملية إستئصال الغدة الدرقية Thyroid . وهي عملية لم يجرؤ أي جراح في أوروبا على إجرائها إلا في القرن التاسع عشربعد ه بتسعة قرون وقد بين هذه العملية بقوله : هذا الورم يسمى فيلة الحلقوم ويكون ورما عظيما على لون البدن وهو في النساء كثير. وهو على نوعين إما يكون طبيعيا وإما يكون عرضيا. فأما الطبيعي فلا حيلة فيه. وأما العرضي فيكون على ضربين أحدهما شبيه بالسلع الشحمية والنوع الآخر شبيه بالورم الذي يكون من تعقد الشريان وفي شقة خطر فلا تعرض لها بالحديد البتة " كما بين الزهراوي أوضاع المريض في جراحة الأمعاء بوضعه على سرير مائل الزاوية فاذا كانت الجراحة في الجزء السفلي من الأمعاء وجب أن يكون الميل ناحية الرأس. والعكس صحيح والهدف من ذلك الإقلال

من النزيف أثناء العملية والتوسعة ليد الجراح (.و نبه علي أهمية تدفئة الامعاء عند خروجها من البطن إذا تعسر ردها بسرعة، وذلك بإلماء الدافىء حتى لا تصاب بالشلل.كما إبتكر (الزراقة) لغسيل المثانة وإدخال الأدوية لعلاجها من الداخل .كما عملية تفتيت حصاة المثانة قبل إخراجها فقال : فإن كانت الحصاة عظيمة جدا فإنه من الجهل أن تشق عليها شقا عظيما لأنه يعرض للمريض أحد أمرين: إما أن يموت أو يحدث له تقطيرفي البول والأفضل أن يتحايل في كسرها بالكلاليب ثم تخرجها قطعا). وفي سنة ٨٣٦ م أمر الخليفة المعتصم ببناء مشرحة كبيرة على شاطىء نهر دجلة في بغداد وان تزود هذه المشرحة بأنواع من القرود الشبيهة في تركيبها بجسم الإنسان وذلك لكى يتدرب طلبةالطب على تشريحها. ولم يخل كتاب من مؤلفات المسلمين في الطب من باب مستقل عن التشريح توصف فيه الأعضاء المختلفة بالتفصيل وكل عضلة وعرق وعصب باسمه وكان الرازي يقول في كتابه: "يمتحن المتقدم للإجازة الطبية في التشريح أولا.، فإذا لم يعرفه فلا حاجة بك أن تمتحنه على المرضى". وكان المسلمون يعتمدون أول أمرهم على ما كتبه الإغريق في تشريح جسم الإنسان وذلك تجنبا للحرج الدينى.. ولكنهم اكتشفوا عن طريق التشريح المقارن (أي تشريح الحيوانات) الكثير من الأخطاء في معلومات الإغريق فابتدأوا الاعتماد على أنفسهم ". زمن خلال دراستهم للتشريع تعرف ابن النفيس علي الدورة الدموية . واكتشفوا أن الكبد يتكون من فصين وليس من خمسة فصوص كما كان يعتقد الإغريق . واكتشف عبد اللطيف البغدادي المتوفي سنة ١٢٣١ م أن الفك السفلي للإنسان يتكون من عظمة واحدة وليس من عظمتين كما ذكر جالينوس بعد أن فحص (٢٠٠٠) جمجمة بشرية . واكتشف أن عظمة العجز sacrum تتكون من قطعة واحدة وليس من ست قطع كما ذكر جالينوس الإغريقي. وكان ابن الهيثم المتوفي سنة

١٠٣٧م قداكتشف تشريح طبقات العين ووظائف كل طبقة؛ كالعدسة والحدقة والشبكية وتر كيب الاعصاب المتصلة من العين إلي المخ. كما اكتشف ابن رشد وظائف شبكية العين . وكان المسلمون يطلقون على طب العيون اسم الكحالة وقد اشتهر عدد من أطبائهم بلقب الكحال.. لبروزهم في هذا الفن.. ولا تقتصر الكحالة

على العلاج بالكحل والقطور فحسب "فدرج الكحل " كان يشمل إلى جانب هذه الادوية على الآلات الجراحية المتخصصة، وقد تطورت جراحة العيون فى البلاد التي تكثر فيها هذه الأمراض مثل مصر والأندلس. وفي علم طب الأعشاب اكتشفوا ألوف النباتات التي لم تكن معروفة وبينوا فوائدها. وكانت معظم الأعشاب تجرب على الحيوانات كالقرود أولا. وكان الطبيب المعالج هو الصيدلي أو العشاب في آن واحد. ثم انفصلت التخصصات وأصبح الطبيب يكتب الوصفات وتسمى (الأنعات). وكان يسلمها المريض إلى العشاب أو العطار الذي يركبها له. . وكان العلماء المسلمون يتحايلون على الأدوية المرة التى تعافها نفس المريض بطرق مختلفة. فابن سينا أول من أوصى بتغليف الدواء بأملاح الذهب أو الفضة لهذا السبب. فكان ابن البيطار (شيخ العطارين) يجوب العالم ومعه رسام يرسم له في كتبه النبات بالألوان في شتى أحواله واطواره ونموه. وقد اكتشف وحده ٣٠٠ نبات طبي جديد شرحها في كتبه واستجلبها معه .وقد ألف كبار العشابين العديد من الكتب والموسوعات العلمية في هذا العلم ومن أهم هؤلاء البيروني صاحب كتاب (الصيدلة (وابن البيطار مؤلف كتاب "مفردات الأدوية. وكان الطب العربي قد عني بطب المسنين Geriatrics وعرف الطب النفسي العضوي Psycho - somatic Diseases كطب المجانين والمسجونين وكان ابن سينا أول من أشار إلى أثر الأحوال النفسية على الجهاز الهضمي وقرحة المعدة وعلى الدورة الدموية وسرعة النبض. وكان الأطباء العرب يتبعون الطب الوقائي و الأمراض المعدية. حبث كانوا يعرفوم العدوى ودورها في نقل الأمراض قبل اكتشاف الميكروسكوب والميكروبات بمئات السنين.. فبينوا أضرارمخالطة المريض بمرض معد أو استعمال آنيته أو ملابسه، ودور البصاق والإفرازات في نقل العدوي . وكان ابن ابن رشد قد إكتشف المناعة التي تتولد لدى المريض بعد إصابته بمرض معد مثل الجدري. وبين أنه لايصاب به مرة أخرى. وكانوا يصنعون نوعا من التطعيم ضد الجدري(إذ يأخذون بعض البثور من مريض ناقه ويطعم به الشخص السليم بأن توضع على راحة اليد وتفرك جيدا أو يحدثون خدشا في مكانها وهي نفس فكرة التطعيم التي نسبت فيما بعد إلي أوروباوغيرها. وكان يوجد قانون تشريعي ينظم مزاولة مهنة الطب) ففي عهد الخليفة المقتدرالعباسي

صدر أول قانون في التاريخ للرخص الطبية وبموجبه لا يجوز ممارسة الطب إلا بعد امتحان وشهادة . ووضعت آداب وأخلاقيات للمهنة .وكان كل من يقوم بممارسة مهنة الطب، يؤخذ عليه قسم الطبيب المسلم والذي كان يعتمد على المحافظة على سر المريض وعلاجه دون تمييز وأن يحفظ كرامة المهنة وأسرارها. وكان في سنة ٨٣٣ م- ٨ ١ ٢ هـ (٤ ١) في عهد الخليفة المأمون قد صدر أول قانون للرخص الصيدلية وبموجبه يجري امتحان للصيدلاني ثم يعطي بموجبه مرسوم يجيز له العمل.وأخضع القانون الصيدليات للحسبة (التفتيش). وكان الخليفة قد كلف الرازي شيخ الأطباء بتأليف كتاب بعنوان "أخلاق الطبيب " ليدرس للطلبة.. وقد شرح فيه العلاقة الانسانية بين الأطباء والمرضى وبينهم وبين بعضهم كما ضمنه نصائح للمرضى في تعاملهم مع الطبيب...ووضع أيضا كتاب "طب الفقراء" يصف لهم فيه الأدوية الرخيصة للعلاج المنزلي.

[تحرير] البيطرة

وكانت البيطرة قد أصبحت علما له قواعده وأصوله لأن الإسلام عني بالرفق بالحيوان وعلاجه وتغذيته ونهانا عن عدم تحميله ما لاطاقة له به أو تعذيبه ، ومنع قتله إلا لضرورة .وحرم وشمه أو جدع أنفه أو وخزه بآلة حادة . ولكي نعطي القارىء فكرة عن المدى الذي وصل إليه المسلمون من التطور العلمي في ميدان الطب البيطري حيث عني بأمراض الخيل،و المظهر الخارجي والصفات العامة المميزة للفرس والحمار والبغل ووظائف الأعضاء الخارجية و العيوب الوراثية في الخيل . وكانت الخلافة العباسية قداتسعت في مشارق الأرض ومغاربها، وزادت حاجة المسلمين إلى علم جديد من علوم الحساب يساعدهم في معاملات البيع والشراءبين الشعوب مع اختلاف العملات والموازين ونظام العقود. وهذا ما جعل الخليفة إلمأمون يكلف الخوارزمي عالم الرياضيات ببغداد ،بالتفرغ لوضع وسيلة جديدة لحل المعادلات الصعبة التي تواجه المشتغلين بالحساب.فوضع كتابه (الجبر والمقابلة) وبين أغراضه قائلا عند تقديمه: يلزم الناس من الحاجة إليه في مواريثهم ووصاياهم وفي مقاسمتهم وأحكامهم وتجارتهم وفي جميع ما يتعاملون به بينهم من مساحة الأرضين وكرى الأنهار والهندسة وغير ذلك من وجوهه وفنونه .). وتناول الكتاب الحسابات وطرقها

ابتداء من حساب محيط فى الكرة الأرضية وقطرها وخطوط الطول والعرض في البلدان إلى مساحات البلدان والمدن والمسافات بينها. ثم مساحات الشوارع والأنهار إلى مساحات الضياع والبيوت .. وحساب الوصايا والمواريث وتقسيم التركات المعقدة. والحسابات الفلكية ، وحساب المعمار . وكلها كانت تواجه مشاكل وصعوبة في حسابها بطرق الأولين. وكان علماء الرياضيات المسلمين قد بحثوا في مختلف جوانب علوم الحساب والهندسة والأعداد جمعا وتفريقا وتضعيفا وضربا وقسمة وتوصلوا لكيفية إخراج الجذور في الأعداد الصحيحة وغير الصحيحة .و بينوا الكسور و صورها وطرق جمعها وتفريقها وضربها وقسمتها واستخراج جذور الكسور التربيعية والتكعيبية والضرب والقسمة باستخدام الهندسة وحلوا مسائل العدد ولبنوا خصائصه وتطبيقاته في المعاملات والصرف وتحويل الدراهم والدنانير والأجرة والربح والخسارة والزكاة والجزية والخراج وحساب الأرزاق والبريد والأعداد المضمرة وغيرها من علوم الحساب.

[تحرير] الرياضيات

العرب كانوا قد ابتكروا الرقم (صفر) وهذا بحد ذاته فتح الآفاق الواسعة أمام علم الأرقام والعدد والرياضيات ، كما و الأرقام العربية المستخدمة الآن هي بالأصل أرقام هندية ، بينما الأرقام الإنجليزية المستخدمة دوليا عي أصلا الأرقام العربية التي اكتشفها المسلمون بناء على طريقة الزوايا ، إذ يمثل كل رقم رسما توضيحيا يعتمد على زوايا تقابل ذلك الرقم ، فالعدد (١) يمثل زاوية واحدة ، والعدد (٢) يمثل زاويتين ورسمه الأصلي يشبه الحرف Z إلا أنه حرّف إلى شكله الحالي ، والعدد (٣) إلى أن نصل إلى العدد تسعة وهو مكون من تسع زوايا كما هو مبين بشكل مواقع الزوايا لكل رقم غباري عربي ، ولم يُستعمل نظام الزوايا بالنسبة للصفر بل استعملت الدائرة لأنها ليست رقما أو عددا وإنما هي مكونة من لا شيء ، والقصد من استعمالها هو للدلالة على موقع الفراغ بالنسبة للأرقام ووضعها في الخانات الصحيحة ، لتفرق بين الخانة الآحادية والعشرية والمئوية. وقد ظهرت الترجمة العربية في عهد أبي جعفر المنصور لكتاب "السند هند" ومن خلاله دخل علم الحساب الهندي بأرقامه المعروفة في العربية بالأرقام الهندية فقد تطور على أثرها علم العدد عند العرب، وأضاف إليها

المسلمون نظام الصفر، والذي لولاه لما استطعنا أيضاً أن نحل كثيراً من المعادلات الرياضية من مختلف الدرجات، فقد سهل استعماله جميع أعمال الحساب، وخلص نظام الترقيم من التعقيد، ولقد أدى استعمال الصفر في العمليات الحسابية إلى اكتشاف الكسر العشري الذي إكتشفه العالم الرياضى جمشيد بن محمود غياث الدين الكاشي(ت ٨٤٠ هـ١٤٣٦ م)، كما ورد في كتابه (مفتاح الحساب للعالم). وكان هذا مقدمة ا للدراسات والعمليات الحسابية المتناهية في الصغر. لقد كانت الأرقام العربية بصفرها وكسورها العشرية بحق هدية الإسلام إلى أوروبا. هذا الكتاب تضمن الزيج وهو عبارة عن جداول حسابيةً فلكياة تبين مواقع النجوم وحساب حركاتها. ويعتبر إبراهيم الفزاري أول من صنع الاصطرلاب . وهو الآلة الفلكية التي تستخدم لرصد الكواكب. وكان علماء المسلمين يصدرون كتاباًدورياً بإسم المناخ،وهي موسوعات تنبؤية حولية أو فصلية تبين أحوال الجو في كل عام، ومواسمالزراعة للنباتات و الطقس والمطر حسب التوقعات الفلكية. مما كان يساعد الزراع والمسافرين علي التعرف علي الأرصاد الجوية . وقد نقلت أوروبا فكرته . وحاليا مازالت الموسوعة السنوية من المناخ (Al) manac تصدر سنويا في معظم بلدان العالم على الرغم

[تحرير] الميكانيكا

وعرف العرب علم الميكانيكا وكانوا يطلقون عليه علم الحيل وقد نقلوه عن الإغريق والرومان والفرس والصينيين وجعلوه علما تطبيقيا بعدما كان علما للتسلية والسحر.لهذا أطلق العلماء العرب عليه علم الحيل النافعة وكان قدماء المصريين قد إستخدموا الميكانيكا في تشييد الأهرامات والمعابد الضخمة من حيث نقل الحجارة ورفعها . والإغريق أخذوها عنهم وجعلوها علما قائما بذاته أطلقوا عليه علم الميكانيكا .ونقل العرب تقنيته عن الإغريق فترجموا كتبه . وطوروه وابتكروا فيه تقنيات جديدة . وكان الهدف من هذا، الإستفادة منه وتوفير القوة البشرية والتوسع في القوة الميكانيكية والإستفادة من المجهود البسيط للحصول علي حهد أكبر من جهد الإنسانوالحيوان . فاعتبره العلماء طاقة بسيطة تعطي جهدا أكبر . فأرادوا من خلاله تحقيق منفعة الإنسان واستعمال الحيلة مكان القوة والعقل مكان العضلات والآلة بدل البدن .والإستغناء عن سخرة العبيد ومجهودهم الجسماني . فلجأوا للطاقة الميكانبكة

للإستغناء عن الطاقة الحيوية التي تعتمد على العبيد والحيوانات ، ولاسيما وأن الإسلام منع نظام السخرة في قضاء الأمورالمعيشية التي تحتاج لمجهود جسماني كبير . كما حرم إرهاق الخدم والعبيد والمشقة على الحيوان بعدم تحميلهم فوق ما لا يطيقونه ، لذلك اتجه المسلمون إلى تطوير الآلات لتقومعوضا عنهم بهذه الأعمال الشاقة . و علم الحركة حاليا ، يقوم على ثلاثة قوانين رئيسية ، كان قد وضعها العالم الإنجليزي إسحق نيوتن في أوائل القرن ١٨،عندما نشرها في كتابه الشهير (الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية. (وكان نيوتن في هذه القوانين قد قام بتجميع المعلومات العربية القديمة مما كتبه العلماء العرب عن الحركة للأشياء قبل عصره بسبعة قرون . إلا أنه صاغها في قالب معادلات رياضية. وأخذ تعريفاتهم لهذه القوانين الثلاثة ونسبها إليه . ففي القانون الأول عن الحركة قال :أن الجسم يبقى في حالة سكون أو في حالة حركة منتظمة في خط مستقيم مالم تجبره قوى خارجية على تغييرهذه الحالة . ويقول هذا إخوان الصفا، في رسائلهم الشهيرة :الأجسام الكليات كل واحد له موضع مخصوص ويكون واقفاً فيها لا يخرج إلا بقسر قاسر". ويقول ابن سينا المتوفي سنة ١٠٣٧م. في كتابه (الإشارات وا لتنبيهات) :إنك لتعلم أن الجسم إذا خلى وطباعه ولم يعرض له من الخارج تأثير غريب لم يكن له بد من موضع معين وشكل معين .فإن من طباعه مبدأ استيجاب ذلك .إذا كان شيء ما يحرك جسما ولا ممانعة في ذلك الجسم كان قبوله الأكبر للتحريك مثل قبوله الأصغر، ولا يكون أحدهما أعصى والآخر أطوع حيث لا معاوقة أصلاً". ثم يأتي بعد ابن سينا علماء مسلمون على مر العصور يشرحون قانونه ويجرون عليه التجارب العملية، وفي ذلك يقول فخر الدين الرازي المتوفي سنة ١٢٠٩م بكتابه (المباخث المشرقية): "إنكم تقولون طبيعة كل عنصر تقتضي الحركة بشرط الخروج عن الحيز الطبيعي. والسكون بشرط الحصول على الحيز الطبيعي .(وفي كتابه (المباحث الشرقية في علم الإلهيات والطبيعيات) يقول ابن سينا :"وقد بينا أن تجدد مراتب السرعة والبطء بحسب تجدد مراتب المعوقات الخارجية والداخلية" .أما قانون نيوتن الثاني في الحركة ينص:أن تسارع جسم ما أثناء حركته، يتناسب مع القوة التي تؤثر عليه، وفي تطبيق هذا القانون على تساقط الأجسام تحت تأثير جاذبية الأرض تكون النتيجة أنه

إذا سقط جسمان من نفس الارتفاع فإنهما يصلان إلي سطح الأرض في نفس اللحظة بصرف النظر عن وزنهما ولو كان أحدهما كتلة حديد والآخر ريشة، ولكن الذي يحدث من اختلاف السرعة مرده إلى اختلاف مقاومة الهواء لهما في حين أن قوة تسارعهما واحدة. ويقول الإمام فخر الدين الرازي في كتابه (المباحث المشرقية) : فإن الجسمين لو اختلفا في قبول الحركة لم يكن ذلك الاختلاف بسبب المتحرك، بل بسبب اختلاف حال القوة المحركة، فإن القوة في الجسم الأكبر ،أكثرمما في الأصغر الذي هو جزؤه لأن ما في الأصغر فهو موجود في الأكبرمع زيادة"، ثم يفسر اختلاف مقاومة الوسط الخارجي كالهواء للأجسام الساقطة فيقول: وأما القوة القسرية فإنها يختلف تحريكها للجسم العظيم والصغير. لا لاختلاف المحرك بل لاختلاف حال المتحرك ، فإن المعاوق في الكبير أكثر منه في الصغير. القانون الثالث لنيوتن ينص على أن لكل فعل رد فعل مساوي له في المقدار ومضاد له في الاتجاه). وأبو البركات هبة الله البغدادي المتوفي سنة ١١٦٥ م.في كتابه (المعبر في الحكمة) قال بما يفيد بهذا المعني : إن الحلقة المتجاذبة بين المصارعين لكل واحد من المتجاذبين في جذبها قوة مقاومة لقوة الآخر. وليس إذا غلب أحدهما فجذبها نحوه تكون قد خلت من قوة جذب الآخر،بل تلك القوة موجودة مقهورة، ولولاها لما احتاج الآخر إلى كل ذلك الجذب "، ويقول الإمام فخر الدين الرازي في كتابه (المباحث المشرقية): " الحلقة التي يجذبها جاذبان متساويان حتى وقفت في الوسط لا شك أن كل واحد منهما فعل فيها فعلاً معوقاً بفعل الآخر". هذه القوانين الثلاثة للاستقرار والحركة ورد الفعل هي القوانين الأساسية التي ترتكز عليها حاليا كل علوم الآلات والأشياء المتحركة.

[تحرير] الزراعة

وفي الدول الإسلامية اتبعوا تقنيات الميكنة الزراعية المتوارثة كالمحراث والساقية والشادوف والنورج. وكان الأندلسيون يسخرون الرياح في إدارة الطواحين ورفع المياه بالسواقي.وأخذت أوروبا عنهم هذه التقمية وغيرها من الأندلس. وهذه التقنيتية أخذها الغرب عن العرب إبان حكم الأندلس وفي بغداد ايام العباسين كانت تدار طواحين بالميله أو الهواء لرفع المياه وإدارة مصنع الورق هناك . وكانت طوتحين الهواء ورفع

المياه ومصانع الورق تدار بتروس معشقة وعجلات ضخمة متداخلة . لنظرية الأنابيب المستطرقة في توصيل المياه في شبكة من المواسير إلى البيوت، أو في بناء النوافير داخل وقد أبدع المسلمون في استغلال علم الحيل في صناعة السلاح. فطوروا المنجنيق والدبابات الخشبية وكانوا أول من صنع المدافع والبندقية و مضخة المكبس Piston Cylinder، اللتي اخترعها بديع الزمان الرزاز الجزري (ت سنة ١٨٤ ام) . ومضخة، الجزرى عبارة عن آلة من المعدن تدار بقوة الريح أو بواسطة حيوان يدور بحركة دائرية، وكان الهدف منها أن ترفع المياه من الآبار. العميقة إلى اسطح الأرض، وكذلك كانت تستعمل في رفع المياه من منسوب النهر إذا كان منخفضاً إلى الأماكن العليا مثل جبل المقطم في مصر وقد جاء في المراجع أنها تستطيع ضخ إلي ء إلى أن يبلغ ثلاثة وثلاثين قدماً، أي حوالي عشرة أمتار وهو ما يعادل ارتفاع مبنى يتألف من ثلاثة أو أربعة طوابق، وتنصب المضخة فوق سطح إلي ء مباشرة بحيث يكون عمود الشفط مغموراً فيه، وهي تتكون من ماسورتين متقابلتين في كل منهما ذراع يحمل مكبساً اسطوانياً، فإذا كانت إحدى إلي سورتين في حالة كبس (اليسرى) فإن الثانية تكون في حالة شفط، ولتأمين هذه الحركة المتقابلة المضادة في نفس الوقت يوجد قرص دائري مسنن قد ثبت فيه كل من الذراعين بعيداً عن المركز، ويدار هذا القرص بوساطة تروس متصلة بعامود الحركة المركزي وهناك ثلاثة صمامات على كل مضخة تسمح باتجاه المياه من أسفل إلى أعلى ولا تسمح بعودتها في الطريق العكسي. هذا التصميم العبقري لم يكن معروفاً لدى الرومان والاغريق، ولا يزال مبدأ مضخة المكبس مستعملاً حتى الوقت الحاضر في جميع مضخات المكبس التي تعمل باليد لرفع المياه . وهي منتشرة في كثير من القرى في العالم أجمع. وهذه المضخة هي الفكرة الرئيسية التي بنيت عليها جميع المضخات المتطورة في عصرنا الحاضر والمحركات الآلية كلها ابتداء من المحرك البخاري الذي في القطار أو البواخر إلى محرك الاحتراق الداخلي الذي يعمل بالبنزين كما في السيارة ،والطائرة ،والفكرة الرائدة التي أدخلها الجزرى هي استعماله مكبسين واسطوانتين يعملان بشكل متقابل وبصورة متوازية، ثم نقل الحركة الناتجة

وتحويلها من حركة خطية إلى حركة دائرية بواسطة نظام يعتمد استعماله التروس المسننة وهو ما يطبق حالياً في جميع المحركات العصرية

[تحرير] الحيل

وفي علم الحيل إشتهر أولاد موسى بن شاكرفي القرن التاسع م ، وقد ألفوا كتاب "الحيل النافعة" وكتاب(القرطسون)(القرطسون ميزان الذهب) وكتاب(وصف الآلة التى تزمر بنفسها صنعة بني موسى بن شاكر) .ومن مختراعاتهم آلة رصد فلكي ضخمة و كانت تعمل في مرصدهم وتدار بقوة دفع الماء وكانت تبين كل النجوم في السماء وتعكسها على مرآة كبيرة واذا ظهر نجم رصد في الآلة وإذا اختفى نجم أو شهاب رصد في الحال وسجل.

[تحرير] الكيمياء

في علوم الكيمياء نجد العالم جابر بن حيان الأزدي. قد عاش بعد النصف الثاني من القرن الثامن م حيث له كتابات كثيرة سواء في المركبات الكيميائية التي لم تكن معروفة في ذلك الوقت مثل نترات الفضة المتبلورة وحامض الأزوتيك وحامض الكبريتيك (زيت الزاج) ولاحظ ما يرسب من كلوروز الفضة عند إضافة ملح الطعام ،أو في وصف العمليات الكيميائية كالتقطير والتبخير والترشيح والتبلور والتذويب والتصعيد والتكليس ونحوها. وفي كتبه بين نظرية تكوين المعادن جيولوجيا وبين المعادن الكبريتية الزئبقية ونسب تكوين ستة منها .وبين كيفية تحضير المواد الكيميائية المختلفة ككربونات الرصاص القاعدي وتحضير الزرنيخ والأنتيمون من أملاح الكبريتيدات sulphides . وكيفية تنقية المعادن من الشوائب وتحضير الصلب الذي حضرته أوروبا يعده بحوالي عشرة قرون . وحضر أصباغ الملابس والجلد و الطلاء لطلاء الجديد ووقايته من الصدلأ وملدة تدهن بها المبس للوقاية من الماء وأدخل ثاني أكسيد المنجنيز في صناعة الزجاج . وقام بتقطير الخل للحصول علي حامض الخليك المركز. وبين أن الجاذبية لاوزن لها . . وكان الكيميائيون العرب يحضرون ملح البارود كيميائياً في المعمل ولاسيما وأن أول من اخترع حامض النيتريك هو جابر بن حيان القلوذى سنة ٧٢٢ م . وأجري الرازي (ولد سنة ٨٥٠ م) فأجرى عليه التجارب وصنع منه الأملاح أثناء محاولته لإذابة الذهب

وأطلق علي حامض النيتريك الزاج الأخضر.و كان العرب يطلقون على الأملاح المأخوذة من الطبيعة الحجارة و الأملاح المحضرة كيميائيا في المعمل المستنبطات. وتحضير الكيماويات المستنبطة لم يكن معروفا من قبل عصري ابن حيان والرازي. حتي الصينيون الذين إكتشفوا ملح البارود كانوا يستعملونه من خامات الأملاح الطبيعية وكان يطلق عليه الملح الصيني. وقام الكيميائيون العرب بتنقية ملحه الخام من الشوائب. وكان العمال الزنوج يقومون سنة ٨٦٩ م بتنقيته بالبصرة . مما جعله يستعمل كبارود للمدافع وكقوة دافعة للقذائف لإشتعاله السريع . وهذه الخاصية موجودة في مادة الكبريت . لهذا كانا يخلطان معا .وكان العرب يصنعون بارود المدفع Gun powder من نترات البوتاسيوم بنسبة ٧٥% والكبريت بنسبة ١٠% والفحم بنسبة ١٥%. وكان المدفعجي يحشي هذا المسحوق في فوهة المدفع ثم يضع بها القذيفة (كرة من الحجر أو الحديد) ثم يشعل في المسحوق النار. فيشتعل المسحوق بسرعة مكونا غازات لها قوة ضغط عالية فلتنطلق عليها دفع القديفة للخارج لتنطلق للهدف المراد تدميره . فالعرب أول من صنع بارود المدافع واستعملوه كقوة دافعة تدميرية في الحروب . بينما كان الصينيون يستخدمونالملح الصيني من ملح البارود الخام لخاصية الاشتعال في الألعاب النارية في أعيادهم . وقد نقل العالم بيكون لأوروبا تقنية صناعة البارود بعد ٣قرون من إستعمال العرب وإختراعهم له . وفي مخطوط عربي يرجع للقرن العاشر الميلادي تجده يصف هذه التقنية قائلا: تؤخذ عشرة دراهم من ملح البارود ودرهمان من الفحم ودرهم ونصف من الكبريت، وتسحق حتى تصبح كالغبار ويملأ منها ثلث المدفع فقط خوفاً من انفجاره ويصنع الخراط من أجل ذلك مدفعاً من خشب تتناسب فتحته مع جسامة فوهته وتدك الذخيرة بشدة ويضاف إليها البندق (الحجارة او كرات الحديد (. ثم يشعل ويكون قياس المدفع مناسباً لثقله وكانت المناجيق تطلق قذائف النيران الحارقة . وكانت القذيفة تتكون من خليط من الكبريت والنفط والحجارة ملفوفة في الكتان، وفي الحروب الصليبية ابتكر المسلمون آلة جديدة أطلقوا عليها الزيار لرمي أعدادا كبيرة من السهام الثقيلة دفعة واحدة . وفي الإسطول العربي كانت الكلاليب التي استعملها المسلمون في ذات الصواري لربط سفنهم بسفن الروم .وكان الأسطول يستخدم النفاطة (مزيج

من السوائل الحارقة تطلق من اسطوانة في مقدمة السفينة وتسمى النار الإغريقية وهي خليط من الكبريت والمواد السهلة الاشتعال ومادة الجير الحي التي تتفاعل مع إلما ء فتنتج الحرارة. وكان صلاح الدين الأيوبي في حربه ضد الصليبيين قد إستخدم القنبرة كسلاح الغازات التخديرية الذي كان الحشاشون الإسماعيليون قد إخترعوه في معقلهم بقلعة آلاموت (وكر النسر) حيث كانوا يحرقون الحشيش (القنب) كبخورفيشمون أتباعهم دخانه فيصابون بحالة من التخدير.فكان قوات صلاح الدين تحرق الحشيش في موضع قريب من جيش العدو بحيث يكون اتجاه الريح نحوه . فكان تنتابه حالة من التخدير والنعاس . وهذا التكتيك من أسلوب الحرب الكيماوية مكن صلاح الدين من مباغتة الصليبيين وهزيمتهم . وطور المسلمون هذا الأسلوب فصنعوا قنبلةالغازات المخدرة وأطلقوا عليها القنبرة. وكانت تحتوي على مزيج من البنج الأزرق والأفيون والزرنيخ والكبريت فإذا تفاعل الكبريت والزرنيخ تولدت عنه غازات حارقة وخانقة. وكانوا يقذفونها بالمنجنيق على معسكر العدو وهي مشتعلة. وفي علم السبائك كان صناعة الصلب العربي الذي تصنع منه الأسلحة فقد بلغت هذه الصناعة أوجها في دمشق والقاهرة، وأصبح السيف العربي لا يدانيه سيف، آخر من حيث حدة شفرته وعدم قابليته للصدأ أو الاعوجاج .وكان المسلمون قد طوروا في أسلحتهم فكانوا يستخدمون الأسلحة الثقيلة كالدبابة والمنجنيق لمهاجمةالبيزنطيين [[ملف: == [""""[[=== العمارة ===]]"""""] ==]]وكان المعمار الإسلامي بعتمد علي النواحي التطبيقية لعلم الحيل وهذا يتضح في إقامة المساجد والمآذن والقباب والقناطر والسدود فلقد برع المسلمون في تشييد القباب الضخمة ونجحوا في حساباتها المعقدة التي تقوم علي طرق تحليل الإنشاءات القشرية (SHELLS). فهذه الإنشاءات المعقدة والمتطورة من القباب مثل قبة الصخرة في بيت المقدس وقباب مساجد الأستانة والقاهرة والأندلس والتي تختلف اختلافا جذرياً عن القباب الرومانيةوتعتمد إعتمادا كليا علي الرياضيات المعقدة. فلقد شيد البناؤن المسلمون المآذن العالية والطويلة والتي تختلف عن الأبراج الرومانية . لأن المئذنة قد يصل إرتفاعها لسبغين مترا فوق سطح المسجد .وأقاموا السدود الضخمة أيام العباسيين والفاطنيين والندلسيين فوق الأنهار كسد النهروان وسد الرستن وسد الفرات .كما أقاموا

سور مجري العيون بالقاهرة أيام صلاح الدين الأيوبيوكان ينقل الماء من فم الخليج علي النيل إلي القلعة فوق جبل المقطم . وكانت ساقية تدار بالحيوانات ترفع المياه لعشرة أمتار ليتدفق في القناة فوق السور وتسير بطريقة الأواني المستطرقة لتصل القلعة . تتميز الحضارة الإسلامية بالتوحيد والتنوع العرقي في الفنون والعلوم والعمارة طالما لاتخرج عن نطاق القواعد الإسلامية . ففي العمارة بنى أبو جعفر المنصورالخليفة العباسي، على نهر دجلة عاصمته بغداد سنة (١٤٥- ١٤٩ هـ) على شكل دائري، وهو اتجاه جديد في بناء المدن الإسلامية، لأن معظم المدن الإسلامية، كانت إما مستطيلة كالفسطاط، أو مربعة كالقاهرة، أو بيضاوية كصنعاء. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن هذه المدن نشأت بجوار مرتفعات حالت دون استدارتها . ويعتبر تخطيط المدينة المدورة (بغداد)، ظاهرة جديدة في الفن المعماري الإسلامي ولاسيما في المدن الأخرى التي شيدها العباسيون مثل مدينة سامراء وما حوته من مساجد وقصور خلافية فخمة. وظهرت مدن تاريخية في ظلال الحكم الإسلامي كالكوفة والبصرة وبغداد والقاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع والقيروان وفاس ومراكش والمهدية والجزائروغيرها . كما خلفت الحضارة الإسلامية مدنا متحفية تعبر عن العمارة الإسلامية كإستانبول بمساجدها والقاهرة بعمائرها الإسلامية وبخاري وسمرقند ودلهي وحيدر أباد وقندهار وبلخ وترمذ وغزنة وبوزجان وطليطلة وقرطبة وإشبيلية ومرسية وسراييفووأصفهان وتبريز ونيقيا والقيروان والحمراء وغيرها من المدن الإسلامية . وكان تخطيط المدن سمة العمران في ظلال الخلافة الإسلامية التي إمتدت من جتوب الصين حتي تخوم جنوب فرنسا عند جبال البرانس. وكانت المدن التاريخية متاحف عمرانية تتسم بالطابع الإسلاني . فكانت المدينة المنورة قد وضع النبي أساسها العمراني والتخطيط حيث جعل مسجده في وسط المدينة ،وألحق به بيته وجعلها قطائع حددلها إتساع شوارعها الرئيسية. وكلها تتحلق حول مسجده. وجعل سوقها قي قلب مدينته . لتكون بلد جنده. وعلي نمط مدينة الرسول أقيمت مد ن الموصل و الكوفة وواسط بالعراق والفسطاط بمصر لتكون اول بلدة إسلامية بأفؤيقيا . وقد أقامها عمرو بن العاص كمدينة جند فجعل مسجده في قلبها وبجواره دووابن الجند ودار الإمارة ، وحولها قطائع سكنية تتحلق بمسجده . وكل قطعة كانت

تضم جنود كل قبيلة . وكذلك كانت مدينة القيروان بشمال أفريقيا .وكان التخطيط العمراني له سماته الشرعية حيث تشق الشوارع بالمدينة الإسلامية تحت الريح لمنع التلوث وتقام الورش تحت خارج المدينة لمنع الإقلاق . وكان تمنح تراخيص للبناء بحيث يكون المبني من طابق أو طابقين . والأسواق كانت مسقوفة لمنع تأثير الشمس. وكان يعين لكل سوق محتسب لمراقبة البيع والأسعار وجودة البضائع والتفتيش علي المصانع للتأكد من عدم الغش السلعي والإنتاجي.وبكل مدينة أو بلدة كانت تقام الحمامات العامةلتكون مجانا .وكان لها مواصفات وشروط متقفط متبعة .وكان يتم التفتيش علي النظافة بها واتباع الصحة العامة. حقيقة كانت الحمامات معروفة لدي الإغريق والرومان . لكنها كانت للموسرين. والعرب أدخلوا فيها التدليك كنوع من العلاج الطبيعي. واقاموا بها غرف البخار (السونا).والمسلمون أول من أدخلوا شبكات المياه في مواسير الرصاص أو الزنك إلى البيوت والحمامات والمساجد.. وقد أورد كتاب "صناعات العرب " رسما وخرائط لشبكات المياه في بعض العواصم الإسلامية. ومعروف أن الكيميائيين العرب قد اخترعوا الصابون. وصنعوا منه الملون والمعطر. وكان في كل حمام مدلك مختص. وآخر للعناية باليدين.. والقدمين وبه حلاق للشعر كما كان يلحق به مطعم شعبي. وقد قدر عدد الحمامات في بغداد وحدها في القرن الثالث الهجري (٩٥٥ م) حوالي عشرة آلاف حمام وفي مدن الأندلس أضعاف هذا العدد.

ويعتبر المسجد بيتا من بيوت الله حيث يؤدي به شعائر الخمس صلوات وصلاة الحمعة التي فرضت علي المسلمين ويقام فيه تحفيظ القرآن . وبكل مسجد قبلة يتوجه كل مسلم في صلاته لشطر الكعبة بيت الله الحرام . وأول مسجد أقيم في الإسلام مسجد الرسول بالمدينة المنورة . وكان ملحقا به بيته . وإنتشرت إقامة المساجد كبيوت لله في كل أنحاء العالم ليرفع من فوق مآذنها الآذان للصلاة . وقد تنوعت في عمارتها حسب طرز العمارة في الدول التي دخلت في الإسلام . لكنها كلها موحدة في الإطار العام ولاسيما في إتجاه محاريب niches القبلة بها لتكون تجاه الكعبة المشرفة . وبكل مسجد يوجد المنبر pulpitلإلقاء خطبة الجمعة من فوقه . وفي بعض المساجد توجد اماكن معزولة مخصصة للسيدات للصلاة بها . وللمسجد مئذنة

minaret واحدة أو أكثر ليرفع المؤذن من فوقها الآذان للصلاة وتنوعت طرزها.
وبعض المساجد يعلو سقفها قبة Dome متنوعة في طرزها المعمارية .

وفي المساجد نجد المحراب علامة دلالية لتعيين اتجاه القبلة(الكعبة) . وهذه العلامة على هيئة مسطح أو غائر(مجوف) أو بارز .والمسلمون استعملوا المحاريب المجوفة ذات المسقط المتعامد الأضلاع. أو المسقط النصف دائري . وقداختيرت الهيئة المجوفة للمحراب لغرضين رئيسين هما ، تعيين اتجاه القبلة، وتوظيف التجويف لتضخيم صوت الإمام في الصلاة ليبلغ المصلين خلفه في الصفوف .وكانت تجاويف المحاريب تبطن وتكسي بمواد شديدة التنوع كالجص والرخام والشرائط المزخرفة بالفسيفساء أو المرمر المزخرف.ونري المحاريب التي شيدها المماليك في مصر والشام من أبدع المحاريب الرخامية ، حيث تنتهي تجويفة المحراب بطاقية على شكل نصف قبة مكسوة بأشرطة رخامية متعددة الألوان. و أبرع الفنانون المسلمون في استخدام مختلف أنواع البلاطات الخزفية لتغشية المحاريب أما الخزافون في الشرق، فقد إساخدموا استخداموا بلاطات الخزف ذات البريق المعدني والخزف الملون باللون الأزرق الفيروزي . وقد حفلت المحاريب بالكتابات النسخية التي تضم آيات من القرآن الكريم، بجانب الزخارف النباتية المميزة بالتوريق و الأرابيسك . كما إستخدمت فيها المقرنصات الخزفية لتزيين طواقي المحاريب. وجرت العادة وضع المحراب في منتصف جدار القبلة بالضبط ليكون محوراً لتوزيع فتحات النوافذ على جانبيه بالتوازن.

و المئذنة (المنارة) الملحقة ببنايات المساجد لها سماتها المعمارية .و تتكون من كتلة معمارية مرتفعة كالبرج و قد تكون مربعة أو مستديرة أو بها جزء مربع و أعلاها مستدير. و بداخلها سلم حلزوني (دوار) يؤدي إلي شرفة تحيط بالمئذنة ليؤذن من عليها المؤذن و ليصل صوته أبعد مدى ممكن. و المآذن المملوكية تتكون من جزء مربع ثم جزء مثمن ثم جزء مستدير بينهم الدروات و يعلوها جوسق ينتهى بخوذة يثبت بها صوارى تعلق بها ثرايات أو فوانيس. و مئذنة مدرسة لغورى بالقاهرة، أقيم فى طرفها الغربى منار مربع يشتمل على ثلاثة أدوار يعلو الدور الثالث منها أربع

خوذ كل خوذة منها فى دور مستقل، و محمولة على أربعة دعائم و بكل خوذة ثلاث صوارى لتعليق القتاديل أو الثريات.

[تحرير] الزخرفة

وتعتبر الزخرفة لغة الفن الإسلامي، حبث تقوم على زخرفة المساجد والقصور والقباب بأشكال هندسية أو نباتية جميلة تبعث في النفس الراحة والهدوء والانشراح. وسمي هذا الفن الزخرفي الإسلامي في أوروبا باسم أرابسك بالفرنسية ARABESQUEوبالأسبانية أتوريك ATAURIQUE) أي التوريق(.وقد إشتهر الفنان المسلم فيه بالفن السريالي التجريدي SURREALISM ABSTRACT من حيث الوحدة الزخرفية النباتية كالورقة أو الزهرة، وكان يجردها من شكلها الطبيعي حتى لا تعطى إحساسا بالذبول والفناء، ويحورها في أشكال هندسية حتى تعطي الشعور بالدوام والبقاء والخلود .و وجد الفنانون المسلمون فى الحروف العربية أساسا لزخارف جميلة. فصار الخط العربي فناً رائعاً، على يد خطاطين مشهورين. فظهر الخط الكوفي الذي يستعمل في الشئون الهامة مثل كتابة المصاحف والنقش على العملة، وعلى المساجد، وشواهد القبور. ومن أبرز من اشتهر بكتابة الخط الكوفي، مبارك المكي في القرن الثالث الهجري، و خط النسخ الذي استخدم في الرسائل والتدوين و نسخ الكتب، لهذا سمي بخط النسخ. وكان الخطاطون والنساخ يهتمون بمظهر الكتاب، ويزينونه بالزخرف الإسلامية. كما كانت تزين المصاحف وتحلى المخطوطات بالآيات القرآنية والأحاديث المناسبة التي كانت تكتب بماء الذهب.

[تحرير] التصوير

وفن التصوير، أي رسم الإنسان والحيوان. فبالرغم من أن بعض علماء المسلمين الأولين، اعتبروه مكروهاً، إلا أنهم لم يفتوا بتحريمه أيام خلفاء بني أمية وبني العباس. فقد ترخصوا في ذلك حيث خلفوا صورا آدمية متقنة على جدران قصورهم التي اكتشفت آثارها في شرق الأردن وسامراء ، أو في الكتب العربية الموضحة بالصور الجميلة التي رسمها المصورون المسلمون كالواسطي وغيره ، في مقامات "الحريري " وكتاب "كليلة ودمنةالتصوير في الفن الإسلاميوفن التصوير إقتصر أول

الأمر على رسوم زخرفية لمناظر آدمية وحيوانية رسمت بالألوان على جدران بعض قصور الخلفاء والأمراء كما يري في إطلال قصور قصير عمرو والطوبة وسامراء ونيسابور والحمام الفاطمي بالفسطاط غير أن التصوير في الفنون الإسلامية اكتشف مجاله الحقيقي في تصوير المخطوطات منذ القرن الثالث الهجري – التاسع الميلادي – ومن اقدم المخطوطات المصورة مخطوطة في علم الطب محفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة وأخرى لكتاب مقامات الحريري ومحفوظة بالمكتبة الأهلية في باريس وهما مزدانتان بالرسوم والصور وتمت كتابتها وتصويرها في بغداد سنة ٦١٩ – ١٢٢٢– وكانت فارس قد تولت ريادة فن التصوير الإسلامي إبان العصر السلجوقي ونهض نهضة كبيرة في عصر المغول في أواخر القرن السابع حتى منتصف القرن الثامن – الثالث عشر والرابع عشر الميلادي – وكان أشهر المخطوطات المصورة (جامع التواريخ) للوزير رشيد الدين في أوائل القرن السابع الهجري والشاهنامة للفردوسي التي ضمت تاريخ ملوك الفرس والأساطير الفارسية والمخطوطات المصورة في بغداد لكتاب كليلة ودمنة .وكان الأسلوب الفني في صور هذه المخطوطات المغولية متأثرا إلى حد كبير بالأسلوب الصيني سواء من حيث واقعية المناظر أو استطالة رسوم الأجسام أو اقتضاب الألوان .وأخذ فن التصوير الإيراني ينال شهرة عالمية في العصر التيموري وبخاصة في القرن التاسع الهجري – الخامس عشر الميلادي – وقد ظهرت فيه نخبة من كبار الفنانين الذين اختصوا بتصوير المخطوطات مثل خليل وأمير شاهي وبهزادويتميز التصوير الإيراني بصياغة المناظر في مجموعات زخرفية كاملة تبدو فيها الأشكال كعناصر تنبت من وحدة زخرفية وتتجمع حولها أو تمتد وتتفرع مع حرص المصورين على ملاحظة الطبيعة ومحاولاتهم محاكاتها والتعبير عن مظاهر الجمال والحركة فيها بسمائها ونجومها وأقمارها وبما تحتويه من جبال ووديان وأشجار وأزهار وبما فيها من رجال ونساء وأطفال وطيور وحيوان . وكانت العلاقة قوية بين الشعر والتصوير حيث كان التصوير نوعا من الموسيقى والمصور أشبه بالملحن لكتاب الشاعر . فكان يضع الشعر المكتوب في أشكال محسوسة ليطبع التفكير والخيال بنوع من الحقيقة والحركات المتنوعة . مما يجعله يعبر في ألوانه عن هذه الروح الموسيقية وتلك

الحساسية الشاعرية. فكانت الألوان تمتزج في صوره امتزاجا عجيبا بين الزهاء والهدوء وتنسجم انسجام الألحان في المقطوعة الموسيقية بحيث تختلف الألوان في الصورة الواحدة وتتعدد. كما تختلف فيها درجات اللون الواحد الذي ينبثق من صفاء السماء وينعكس فيه أشعة الشمس الذهبية الصافية . فالتصوير الإيراني كان فنا تعبيريا عن الشاعرية والعاطفة من خلال تسجيل ما في الطبيعة من حقائق جذابة وما في القلوب من خيال أخاذ ونغمات دفينة ..

[تحرير] الملاحة و صناعة السفن

وكانت صناعة السفن في كل أنحاء العالم الاسلامي في ظلال الخلافة الإسلامية الأموية والعباسية .فلقد ظهرت صناعة السفن والأساطيل في موانيء الشام بعكا وصور وطربلس وبيروت وحيفا . وفي المغرب كانت هناك طرابلس وتونس وسوسة وطنجة ووهران والرباط. وفي الأندلس اشتهرت إشبيلية ومالقة ومرسية وفي مصر اشتهرت المقس والاسكندرية ودمياط وعيذاب(علي ساحل البحر الأحمر (.وكانت المراكب النيلية تصنع بالقاهرة .وكانت ترسانات البحرية لصناعة السفن يطلق عليها دور الصناعة . وكان الأسطول يتكون من عدة أنواع من السفن مختلفة الحجم ولكل نوع وظيفة. فالشونة كانت حاملات للجنود ، والأسلحة الثقيلة

وفي علوم الملاحة وعلوم البحار كتب الجغرافيون المسلمون كتبهم . فضمنوها وصفا دقيقا لخطوط الملاحة البحرية، كماوضعوا فيها سرودا تفصيلية لكل المعارك الإسلاميةالبحرية، ثم وصفوا فيها البحار والتيارات إلما ئية والهوائية، ومن أشهر الجغرافيين العرب المسعودي والمقدسي وياقوت الحموي والبكري والشريف الادريسي ومن الرحالة ابن جبير وابن بطوطة. وهناك كتب ابن ماجد في علوم البحار مثل كتاب "الفوائد في أصول علم البحر والقواعد" وأرجوزته بعنوان "حاوية الاختصار في اصول علم البحار" وهناك مخطوط باسم سليمان المهري عنوانه "المنهاج الفاخر في العلم البحري الزاخر: و "العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية .

=============

هل الحضارة ... إسلامية أم عربية أم ماذا ؟ قيّم

التقييم :

(من قبل ٨ أعضاء)

زياد

١ – فبراير – ٢٠٠٧

السلام عليكم ...

تساؤل يحيرني منذ فترة طويلة، ماذا نسمي الحضارة التي بناها أجدادنا ووصلت إلى ذروة مجدها في القرن الرابع الهجري؟ هل نسميها حضارة عربية؟ أم حضارة إسلامية؟ أم حضارة عربية إسلامية؟

لو قلنا حضارة عربية، سنجد أن الكثير من أعمدة هذه الحضارة ليسوا من العرب، مثل ابن سينا وسيبويه.

ولو قلنا أنها حضارة عربية كون اللغة التي دُوِّنت بها هذه العلوم هي اللغة العربية، لوجدنا أن الكثير من العلماء قد أفرغوا بنات أفكارهم بلغاتهم الأصلية دون العربية، مثل الفارسية والتركية.

ولو قلنا حضارة إسلامية، سنجد الكثير من العلماء غير المسلمين، مثل ثابت بن قرة الصابئ و ابن ميمون.

ولو قلنا ... هي حضارة عربية إسلامية ... فيحق لي أن أتساءل: لماذا قدّمنا العروبة على الإسلام، مع أن الكثير العلماء هم مسلمون وليسوا عرباً؟

وانتهى بي الرأي لتسمية الحضارة بـ ... الحضارة الإسلامية العربية ...

فالإسلام يشمل العرب وغير العرب، والمسلمون هم الأغلبية بين علماء ذلك العصر، وأصلاً الإسلام هو محرك قيام هذه الحضارة كلها. ونسمي الحضارة عربية بعد كلمة إسلامية لأن اللغة العربية هي اللغة الرسمية للعلم وهي الأكثر رواجاً بين مختلف العلماء، هذا فضلاً عن شرف اللغة العربية على غيرها كونها اللغة التي اختارها الله في رسالته إلى عباده.

في ظل الثقافة الإسلامية (من قبل ٢ أعضاء) قيّم

هي حضارة إسلامية بالتأكيد , أما بعض الذين ساهموا فيها من غير المسلمين فهم ينتمون رغم ذلك للحضارة الإسلامية وثقافتها , لا فرق في انتماءاتهم الدينية , فهم في ظل الثقافة الإسلامية العامة

*محمد هشام

١ – فبراير – ٢٠٠٧

... الحضارة الاسلامية (من قبل ٣ أعضاء) قيّم

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

وبعد:

إن ما توصل إليه العرب من حضارة لم يكن ليتوصل إليه لولا الاسلام. فالاسلام هو الذي أخرج العرب من الظلمات إلى النور

وجعلهم يهتمون بالعلوم.

وأهم شيء تحقق للعرب بفضل الاسلام الانفتلح على الأمم الآخرى والاستفادة مما توصلت إليه من علوم. لأن الاسلام لم يكن دينا للعرب فقط، بل دين الناس كافة. وإلى جانب ضرورة الانفتاح فقد حث (الإسلام) أيضا على طلب العلم والأحاديث والآيات التي تدخل في هذا الباب لا تحصر. وبصفة عامة ومع ضرورة الانفتاح على الحضارات الأخرى. فقد حث الاسلام على ضرورة الخروج من حالة الأمية والجهل إلى حالة العلم والنور. وبالتالي فقد عرف العرب حضارة حقيقية بفضل الاسلام. ومما يؤكد على أن هذه الحضارة لم تكن عربية بل هي إسلامية .كون العديد من العلماء اللذين ساهموا في ازدهار الحضارة الاسلامية لم يكونوا عرب (ابن سينا.سبويه...) فمنهم من كان عربيا ومنهم من كان فارسيا ومنهم من كان أمازغيا...كل هذا وذاك يجعل الحضارة التي تربع على عرشها العرب .لم تكن حضارة عربية بل هي حضارة إسلامية استفاد منها العرب والغرب بعد سقوط الأندلس. لكن العصبية الجاهلية التي تدعو للتعصب للجنس العربي وتلغي قول الله تعالى "كلكم لآدم وآدم من تراب" وقوله أيضا" "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير .' (سورة الحجرات ٤٩ الآية ١٣) . ويرجع سبب التعصب للجنس العربي وإعادة هذه العادة الجاهلية لبني أمية أو الأمويين.

إنها إذن حضارة إسلامية ولا يمكن أن تكون إلا إسلامية.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

هل هناك حضارة في هذه الأرض تولدت من عدم ؟ (من قبل ٢ أعضاء) قيّم الحضارة ليست حكرا على ديانة أو طائفة أو مذهب أو بلد أو قارة أو غير ذلك، وإنما هي امتداد لحضارات سابقة، فالكل يسير ضمن سلسلة متتابعة ومترابطة الجوانب، والإلغاء للآخر سببه التطرف والتعصب والجمود على إرث الآباء من غير نظر إلى ما قدمه من سبق.

فالحضارة الإسلامية هي امتداد للحضارات السابقة، والحضارة الغربية اليوم هي امتداد للحضارة الإسلامية، وإنما يخضع الكل لقانون إلهي ثابت وهو: (حق على الله أنه ما ارتفع شيء إلا وضعه).

وهل هناك حضارة في هذه الأرض تولدت من عدم ؟

فالأصح أن يقال الحضارة الإنسانية من حيث الجملة بناء على هذه المقدمة.

وإنما جرت العادة بنسبة الحضارة لشيء ما مثل أن يقال: الحضارة الفرعونية، أو الحضارة الرومانية، أو الحضارة الإسلامية، أو الحضارة الغربية، لأن الغلبة في ذلك كان لتلك الحضارة بعينها، فنُسبت إليها على سبيل التغلب وما عداها تابع، كما هو الحال اليوم.

ونسأل الله أن تعود هذه الأمة إلى سابق مجدها حتى تكون متبوعة لا تابعة.

انا أرى الحضارة التي امتدت أركانها لتشمل مشارق الأرض ومغاربها يجب أن تسمى باسم الحضارة الإسلامية ,, وذلك نسبة للدولة التي رعت العلماء والعلم وبنت بنيانه وأعلت صروحه.... إنها الدولة التي شعر فيها المبدع بالأمن على نفسه وعلى إبداعه– وإن تخللتها بعض الخروقات–فأنشد فيها أبداعه على رؤوس الأعلام... إنها الدولة التي هيأت أدوات العلم وأسبابه وجعلت من احترام العالم والمؤدب أحياناً مقدما على كل برتوكولات الخلافة..إنها الدولة التي لم يكن فيها العلم والإبداع حكراً على فئة دون أخرى ...بل كان أبرز قادتها من عظماء العلماء والمفكرين...إنها الدولة التي لم تهضم حق مبدع على أساس الجنس أو الديانة أو الإقليم ..فكما كان فيها العالم الزهراوي العربي المسلم نجد فيها ابن سينا وحنين بن إسحاق ... وكما وُجد العلماء وُجدت العالمات التي تزاحم في مجالسهن الطلبة...

فهل بقي لنا موضع نتساءل فيه عن هوية هذه الحضارة...؟!

نعم ... إنها حضارة إسلامية حقاً

حتى قيادات الجيوش الإسلامية لم تكن حكراً على العرب،

ابتداء من فاتح الأندلس طارق بن زياد البربري،

مروراً بمحرر القدس صلاح الدين الأيوبي الكردي،

وكذلك فاتح القسطنطينية محمد الفاتح التركي ... إلخ والقائمة تطول.

===============

عبقرية الحضارة الاسلامية

بينما كان العالم الإسلامي يموج حضارة وتمدن خلال عصور الخلائف الراشدية والأموية والعباسية والعثمانية كانت أوربا تعيش في أتون الجهل والهمجية والبربرية والرق والعبودية . وهذه حقيقة لاننكرها بل نقرها ولا نتغافلها وسط إرهاصات الغرب المفتئت والمفتري عليها . فعلماء المسلمين في كل مشاربهم إبان عصور حضارتنا الإسلامية التي غبرت وغربت عنا . لم يخلفوا لنا سوي أمجادهم وكتبهم وتراثهم الذي نهلت منه كل الروافد المعرفية العالمية .....

ونستطيع أن ندلل على ذلك بالكثير من الأمثلة الجاحظ وقد ظهر كعالم للحيوان عندما حدثنا لأول مرة عن هجرات الطيور في رحلتي الصيف والشتاء . ولم يكتشف العلماء هذا إلا القرن ١٩ .ويعتبر الجاحظ مؤسسا لعلم الجغرافيا البشرية و علم الأجناس حيث قسم البشر وصنفهم لأمم وشعوب وأجناس وأعراق مختلفة وأوعز ألوانهم ولغاتهم وطبائعهم إلي تأثير العوامل الوراثية والبيئة الطبيعية والإجتماعية ...... وكانت نظريات إبن رشد قد غيرت الفكر والفلسفة المسيحية واليهودية بأوربا مما جعل مارتن لوثر يعلن تمرده علي البابوية معلنا البروتستانتية بعدما أسقط مقولة صكوك الغفران

وفي الفلك نجد أن البيروني قاس محيط الأرض بواسطة معادلة رياضية وضعها وأكد علي كروية الأرض وبين أن الأجسام تنجذب نحو مركزها. وبين أن توالي الليل والنهار سببه دوران الأرض وليس الشمس أو النجوم والكواكب معها . وبين بدقة

إختلافات المواقيت والغروب والشروق حسب مواقع البلدان فوق خريطة الدنيا وبهذا نجده قد سبق كوبرنيق ونيوتن وجالليو .

وفي الرياضيات نجد الخوارزمي التي مازالت شهرته حتي الآن ولاسيما كمؤسس لعلوم الجبر ولاسيما وهو واضع حساب اللوغريتمات التي يقوم عليها علي الرياضيات الحديثة . وكان أول من إكتشف الصفر ووضعه ضمن الأعداد وفي الحساب .كما جعل الحساب ميسرا بأن جعله طرحا وجمعا وقسمة وضربا . فبهذا علم الناس الطرق الحسابية المبسطة .وهذا ماكتب للخوارزمي الخلود . ويعتبر عمر الخيام عالما في الفلك والرياضيات ويعتبر ثاني إثنين بعد الخوارزمي في علم الجبر فأسس علم الترجمة الرياضية المزدوجة .حيث ترجم مسائل الهندسة للغة الجير وترجم مسائل الجبر للغة الهندسة كما ترجم مسائل من الهندسة الفراغية للغة الجبر . وهي المسائل التي لايمكن رسمها بالمسطرة والفرجار كمسألة تثبيث الزوايا ومسألة الوسطين الجسابين ومسألة المسبع المنتظم .وقد إبتكر حل المعادلات من الدرجة الثانية عن طريق الأقواس المخروطية .

وفي الطب نجد أن إبن النفيس قد إكتشف الدورة الدموية قبل هارفي بعدة قرون وإبن زهر بالأندلس كان يمارس الجراحة والتخدير . وكان الكندي أبا الحضارة الإسلامية وفيلسوفها الأول .والدميري أول من وضع معجما للحيوانات وصنفها فيه من حيث الشكل والطباع ومرادفات أسمائها والطوسي الفلكي الشهير......وكان كتاب (القانون)في الطب لإبن سينا إنجيلا يدرس في الغرب بالعربية و لاسيما بكليات فرنسا ولاسيما في جامعة (مونبلييه) العريقة .

وأول مستشفي بني بإنجلترا في القرن ١٤م. بعد إنحسار الحروب الصليبية علي المشرق العربي, بعدما أخذ الصليبيون نظام المستشفيات الإسلامية و الطب العربي عن العرب . وكان أول مستشفي في الإسلام بناه الوليد بن عبد الملك سنة٧٠٦ م (٨٨ هـ) في دمشق. وكان الخلفاء المسلمون يتابعون إنشاء المستشفيات الإسلامية الخيرية بإهتمام بالغ. ويختارون مواقعها المناسبة من حيث الموقع والبيئة الصالحة للإستشفاء والإتساع المكاني بعيدا عن المناطق السكنية . وأول مستشفى للجذام بناه المسلمون في التاريخ سنة ٧٠٧ م بدمشق. في حين أن أوربا كانت تنظر إلى الجذام

على إنه غضب من الله يستحق الإنسان عليه العقاب حتى أصدر الملك فيليب أمره سنة ١٣١٣ م بحرق جميع المجذومين في النار

كما أن المسلمون قد ابتكروا علوماً جديدة لم تكن معروفة قبلهم وسموها بأسمائها العربية كعلم الكيمياء وعلم الجبر وعلم المثلثات . و من مطالعاتنا للتراث العلمي الإسلامي نجد أن علماء المسلمين قد إبتكروا المنهج العلمي في البحث والكتابة. وكان يعتمد علي التجربة والمشاهدة والاستنتاج. و أدخل العلماء المسلمون الرسوم التوضيحية في الكتب العلمية و رسوم الآلات والعمليات الجراحية. و رسم الخرائط الجغرافية والفلكية المفصلة. وقد ابتدع المسلمون الموسوعات و القواميس العلمية حسب الحروف الأبجدية.

ومع هذه النهضة العلمية ظهرت الجامعات الإسلامية لأول مرة بالعالم الإسلامي قبل أوربا بقرنين . وكانت أول جامعة هي بيت الحكمة والتي أنشئت في بغداد(وأين هي بغداد الآن) سنة ٨٣٠ م, ثم تلاها جامعة القرويين سنة ٨٥٩ م في فاس ثم جامعة الأزهر سنة ٩٧٠ م في القاهرة. وكانت أول جامعة في أوربا أنشئت في سالرنو بصقلية سنة ١٠٩٠ م على عهد ملك صقلية روجر الثاني. وقد أخذ فكرتها عن العرب هناك . ثم تلاها جامعة بادوا بايطاليا سنة ١٢٢٢ م. وكانت الكتب العربية تدرس بها وقتها . وكان للجامعات الإسلامية تقاليد متبعة وتنظيم .فكان للطلاب زي موحد خاص بهم وللأساتذة زي خاص. وربما اختلف الزي من بلد إلي بلد ومن عصر إلي عصر. وقد أخذ الأوربيون عن الزي الجامعي الإسلامي الروب الجامعي المعمول به الآن في جامعاتهم

وفي مجال الرياضيات أيضا ...كان العرب كانوا قد ابتكروا الرقم (صفر) وهذا بحد ذاته فتح الآفاق الواسعة أمام علم الأرقام والعدد والرياضيات ، كما و الأرقام العربية المستخدمة الآن هي بالأصل أرقام هندية ، بينما الأرقام الإنجليزية المستخدمة دوليا عي أصلا الأرقام العربية التي اكتشفها المسلمون بناء على طريقة الزوايا ، إذ يمثل كل رقم رسما توضيحيا يعتمد على زوايا تقابل ذلك الرقم ، فالعدد (١) يمثل زاوية واحدة ، والعدد (٢) يمثل زاويتين ورسمه الأصلي يشبه الحرف Z إلا أنه حرّف إلى شكله الحالي ، والعدد (٣) إلى أن نصل إلى العدد تسعة وهو مكون من تسع زوايا

كما هو مبين بشكل مواقع الزوايا لكل رقم غباري عربي ، ولم يُستعمل نظام الزوايا بالنسبة للصفر بل استعملت الدائرة لأنها ليست رقما أو عددا وإنما هي مكونة من لا شيء ، والقصد من استعمالها هو للدلالة على موقع الفراغ بالنسبة للأرقام ووضعها في الخانات الصحيحة ، لتفرق بين الخانة الآحادية والعشرية والمئوية. وقد ظهرت الترجمة العربية في عهد أبي جعفر المنصور لكتاب "السند هند" ومن خلاله دخل علم الحساب الهندي بأرقامه المعروفة في العربية بالأرقام الهندية فقد تطور على أثرها علم العدد عند العرب، وأضاف إليها المسلمون نظام الصفر، والذي لولاه لما استطعنا أيضاً أن نحل كثيراً من المعادلات الرياضية من مختلف الدرجات، فقد سهل استعماله جميع أعمال الحساب، وخلص نظام الترقيم من التعقيد، ولقد أدى استعمال الصفر في العمليات الحسابية إلى اكتشاف الكسر العشري الذي إكتشفه العالم الرياضى جمشيد بن محمود غياث الدين الكاشي، كما ورد في كتابه (مفتاح الحساب للعالم). وكان هذا مقدمة ا للدراسات والعمليات الحسابية المتناهية في الصغر..

وفي الميكانيكا عرف العرب علم الميكانيكا وكانوا يطلقون عليه علم الحيل وقد نقلوه عن الإغريق والرومان والفرس والصينيين وجعلوه علما تطبيقيا بعدما كان علما للتسلية والسحر (انظر بتوسع موضوع سير أعلام المهندسين)..

وفي مجال الزراعة اتبعوا تقنيات الميكنة الزراعية المتوارثة كالمحراث والساقية والشادوف والنورج. وكان الأندلسيون يسخرون الرياح في إدارة الطواحين ورفع المياه بالسواقي. وأخذت أوربا عنهم هذه التقنية وغيرها من الأندلس. وهذه التقنية أخذها الغرب عن العرب إبان حكم الأندلس وفي بغداد ايام العباسين كانت تدارالطواحين بالمياه أو الهواء لرفع المياه وإدارة مصنع الورق هناك . وكانت طواحين الهواء ورفع المياه ومصانع الورق تدار بتروس معشقة وعجلات ضخمة متداخلة .

وكانوا أول من صنع المدافع والبندقية و مضخة المكبس Piston Cylinder، اللتي اخترعها بديع الزمان الرزاز الجزري (ت سنة ١٨٤ ام) . ومضخة الجزرى عبارة عن آلة من المعدن تدار بقوة الريح أو بواسطة حيوان يدور بحركة دائرية، وكان الهدف منها أن ترفع المياه من الآبار. العميقة إلى اسطح الأرض، وكذلك كانت تستعمل في رفع المياه من منسوب النهر إذا كان منخفضاً إلى الأماكن العليا مثل جبل

المقطم في مصر وقد جاء في المراجع أنها تستطيع ضخ إلي ء إلى أن يبلغ ثلاثة وثلاثين قدماً، أي حوالي عشرة أمتار وهو ما يعادل ارتفاع مبنى يتألف من ثلاثة أو أربعة طوابق، وتنصب المضخة فوق سطح إلي ء مباشرة بحيث يكون عمود الشفط مغموراً فيه، وهي تتكون من ماسورتين متقابلتين في كل منهما ذراع يحمل مكبساً اسطوانياً، فإذا كانت إحدى إلي سورتين في حالة كبس (اليسرى) فإن الثانية تكون في حالة شفط، ولتأمين هذه الحركة المتقابلة المضادة في نفس الوقت يوجد قرص دائري مسنن قد ثبت فيه كل من الذراعين بعيداً عن المركز، ويدار هذا القرص بوساطة تروس متصلة بعامود الحركة المركزي وهناك ثلاثة صمامات على كل مضخة تسمح باتجاه المياه من أسفل إلى أعلى ولا تسمح بعودتها في الطريق العكسي. هذا التصميم العبقري لم يكن معروفاً لدى الرومان والاغريق، ولا يزال مبدأ مضخة المكبس مستعملاً حتى الوقت الحاضر في جميع مضخات المكبس التي تعمل باليد لرفع المياه . وهي منتشرة في كثير من القرى في العالم أجمع. وهذه المضخة هي الفكرة الرئيسية التي بنيت عليها جميع المضخات المتطورة في عصرنا الحاضر والمحركات الآلية كلها ابتداء من المحرك البخاري الذي في القطار أو البواخر إلى محرك الاحتراق الداخلي الذي يعمل بالبنزين كما في السيارة ،والطائرة ،والفكرة الرائدة التي أدخلها الجزرى هي استعماله مكبسين واسطوانتين يعملان بشكل متقابل وبصورة متوازية، ثم نقل الحركة الناتجة وتحويلها من حركة خطية إلى حركة دائرية بواسطة نظام يعتمد استعماله التروس المسننة وهو ما يطبق حالياً في جميع المحركات العصرية.

وفي علوم الكيمياء نجد العالم جابر بن حيان الأزدي. قد عاش بعد النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي حيث له كتابات كثيرة سواء في المركبات الكيميائية التي لم تكن معروفة في ذلك الوقت مثل نترات الفضة المتبلورة وحامض الأزوتيك وحامض الكبريتيك (زيت الزاج) ولاحظ ما يرسب من كلوروز الفضة عند إضافة ملح الطعام ,أو في وصف العمليات الكيميائية كالتقطير والتبخير والترشيح والتبلور والتذويب والتصعيد والتكليس ونحوها. وفي كتبه بين نظرية تكوين المعادن جيولوجيا وبين المعادن الكبريتية الزئبقية ونسب تكوين ستة منها .وبين كيفية تحضير المواد

الكيميائية المختلفة ككربونات الرصاص القاعدي وتحضير الزرنيخ والأنتيمون من أملاح الكبريتيدات sulphides . وكيفية تنقية المعادن من الشوائب وتحضير الصلب الذي حضرته أوربا يعده بحوالي عشرة قرون . وحضر أصباغ الملابس والجلد و الطلاء لطلاء الجديد ووقايته من الصدلأ وملدة تدهن بها المبس للوقاية من الماء وأدخل ثاني أكسيد المنجنيز في صناعة الزجاج . وقام بتقطير الخل للحصول علي حامض الخليك المركز. وبين أن الجاذبية لاوزن لها . . وكان الكيميائيون العرب يحضرون ملح البارود كيميائياً في المعمل ولاسيما وأن أول من اخترع حامض النيتريك هو جابر بن حيان القلوذى سنة ٧٢٢ م . وجاء الرازي (ولد سنة ٨٥٠ م) فأجرى عليه التجارب وصنع منه الأملاح أثناء محاولته لإذابة الذهب وأطلق علي حامض النيتريك الزاج الأخضر. و كان العرب يطلقون على الأملاح المأ خوذة من الطبيعة الحجارة و الأملاح المحضرة كيميائيا في المعمل المستنبطات. وتحضير الكيماويات المستنبطة لم يكن معروفا من قبل عصري إبن حيان والرازي. حتي الصينيون الذين إكتشفوا ملح البارود كانوا يستعملونه من خامات الأملاح الطبيعية وكان يطلق عليه الملح الصيني. وقام الكيميائيون العرب بتنقية ملحه الخام من الشوائب. وكان العمال الزنوج يقومون سنة ٨٦٩ م بتنقيته بالبصرة ... مما جعله يستعمل كبارود للمدافع وكقوة دافعة للقذائف لإشتعاله السريع . وهذه الخاصية موجودة في مادة الكبريت . لهذا كانا يخلطان معا . وكان العرب يصنعون بارود المدفع Gun powder من نترات البوتاسيوم بنسبة ٧٥% والكبريت بنسبة ١٠% والفحم بنسبة ١٥%. وكان المدفعجي يحشي هذا المسحوق في فوهة المدفع ثم يضع بها القذيفة (كرة من الحجر أو الحديد) ثم يشعل في المسحوق النار. فيشتغل المسحوق بسرعة مكونا غازات لها قوة ضغط عالية فلتنطلق عليها دفع القديفة للخارج لتنطلق للهدف المراد تدميره . فالعرب أول من صنع بارود المدافع واستعملوه كقوة دافعة تدميرية في الحروب . بينما كان الصينيون يستخدمونالملح الصيني من ملح البارود الخام لخاصية الاشتعال في الألعاب النارية في أعيادهم . وقد نقل العالم بيكون لأوربا تقنية صناعة البارود بعد ٣قرون من إستعمال العرب وإختراعهم له . وفي مخطوط عربي يرجع للقرن العاشر الميلادي تجده يصف هذه

التقنية قائلا: تؤخذ عشرة دراهم من ملح البارود ودرهمان من الفحم ودرهم ونصف من الكبريت، وتسحق حتى تصبح كالغبار ويملأ منها ثلث المدفع فقط خوفاً من انفجاره ويصنع الخراط من أجل ذلك مدفعاً من خشب تتناسب فتحته مع جسامة فوهته وتدك الذخيرة بشدة ويضاف إليها البندق (الحجارة او كرات الحديد (. ثم يشعل ويكون قياس المدفع مناسباً لثقله وكانت المناجيق تطلق قذائف النيران الحارقة . وكانت القذيقة تتكون من خليط من الكبريت والنفط والحجارة ملفوفة في الكتان، وفي الحروب الصليبية ابتكر المسلمون آلة جديدة أطلقوا عليها الزيار لرمي أعدادا كبيرة من السهام الثقيلة دفعة واحدة .

وكان المعمار الإسلامي بعتمد علي النواحي التطبيقية لعلم الحيل وهذا يتضح في إقامة المساجد والمآذن والقباب والقناطر والسدود فلقد برع المسلمون في تشييد القباب الضخمة ونجحوا في حساباتها المعقدة التي تقوم علي طرق تحليل الإنشاءات القشرية (SHELLS). فهذه الإنشاءات المعقدة والمتطورة من القباب مثل قبة الصخرة في بيت المقدس وقباب مساجد الأستانة والقاهرة والأندلس والتي تختلف اختلافا جذرياً عن القباب الرومانيةوتعتمد إعتمادا كليا علي الرياضيات المعقدة. فلقد شيد البناؤن المسلمون المآذن العالية والطويلة والتي تختلف عن الأبراج الرومانية . لأن المئذنة قد يصل إرتفاعها لسبغين مترا فوق سطح المسجد .وأقاموا السدود الضخمة أيام العباسيين والفاطنيين والندلسيين فوق الأنهار كسد النهروان وسد الرستن وسد الفرات .كما أقاموا سور مجري العيون بالقاهرة أيام صلاح الدين الأيوبيوكان ينقل الماء من فم الخليج علي النيل إلي القلعة فوق جبل المقطم . وكانت ساقية تدار بالحيوانات ترفع المياه لعشرة أمتار ليتدفق في القناة فوق السور وتسير بطريقة الأواني المستطرقة لتصل القلعة . تتميز الحضارة الإسلامية بالتوحيد والتنوع العرقي في الفنون والعلوم والعمارة طالما لاتخرج عن نطاق القواعد الإسلامية . ففي العمارة بنى أبو جعفر المنصورالخليفة العباسي, على نهر دجلة عاصمته بغداد سنة (١٤٥-١٤٩ هـ) على شكل دائري، وهو اتجاه جديد في بناء المدن الإسلامية، لأن معظم المدن الإسلامية، كانت إما مستطيلة كالفسطاط، أو مربعة كالقاهرة، أو بيضاوية كصنعاء. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن هذه المدن نشأت بجوار مرتفعات

حالت دون استدارتها . ويعتبر تخطيط المدينة المدورة (بغداد)، ظاهرة جديدة في الفن المعماري الإسلامي ولاسيما في المدن الأخرى التي شيدها العباسيون مثل مدينة سامراء وما حوته من مساجد وقصور خلافية فخمة. وظهرت مدن تاريخية في ظلال الحكم الإسلامي كالكوفة والبصرة وبغداد والقاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع والقيروان وفاس ومراكش والمهدية والجزائروغيرها . كما خلفت الحضارة الإسلامية مدنا متحفية تعبر عن العمارة الإسلامية كإستانبول بمساجدها والقاهرة بعمائرها الإسلامية وبخاري وسمرقند ودلهي وحيدر أباد وقندهار وبلخ وترمذ وغزنة وبوزجان وطليطلة وقرطبة وإشبيلية ومرسية وسراييفووأصفهان وتبريز ونيقيا والقيروان والحمراء وغيرها من المدن الإسلامية . وكان تخطيط المدن سمة العمران في ظلال الخلافة الإسلامية التي إمتدت من جتوب الصين حتي تخوم جنوب فرنسا عند جبال البرانس. وكانت المدن التاريخية متاحف عمرانية تتسم بالطابع الإسلاني . فكانت المدينة المنورة قد وضع النبي أساسها العمراني والتخطيط حيث جعل مسجده في وسط المدينة ,وألحق به بيته وجعلها قطائع حددلها إتساع شوارعها الرئيسية. وكلها تتحلق حول مسجده. وجعل سوقها قي قلب مدينته . لتكون بلد جنده. وعلي نمط مدينة الرسول أقيمت مد ن الموصل و الكوفة وواسط بالعراق والفسطاط بمصر لتكون اول بلدة إسلامية بأفريقيا..

وفي مجال الملاحة وصناعة السفن

كانت صناعة السفن في كل أنحاء العالم الاسلامي في ظلال الخلافة الإسلامية الأموية والعباسية .فلقد ظهرت صناعة السفن والأساطيل في موانيء الشام بعكا وصور وطربلس وبيروت وحيفا . وفي المغرب كانت هناك طرابلس وتونس وسوسة وطنجة ووهران والرباط. وفي الأندلس اشتهرت إشبيلية ومالقة ومرسية وفي مصر اشتهرت المقس والاسكندرية ودمياط وعيذاب(علي ساحل البحر الأحمر (.وكانت المراكب النيلية تصنع بالقاهرة .وكانت ترسانات البحرية لصناعة السفن يطلق عليها دور الصناعة . وكان الأسطول يتكون من عدة أنواع من السفن مختلفة الحجم ولكل نوع وظيفة. فالشونة كانت حاملات للجنود ، والأسلحة الثقيلة

وفي علوم الملاحة وعلوم البحار كتب الجغرافيون المسلمون كتبهم . فضمنوها وصفا دقيقا لخطوط الملاحة البحرية، كماوضعوا فيها سرودا تفصيلية لكل المعارك الإسلاميةالبحرية، ثم وصفوا فيها البحار والتيارات إلما ئية والهوائية, ومن أشهر الجغرافيين العرب المسعودي والمقدسي وياقوت الحموي والبكري والشريف الادريسي ومن الرحالة ابن جبير وابن بطوطة. وهناك كتب ابن ماجد في علوم البحار مثل كتاب "الفوائد في أصول علم البحر والقواعد" وأرجوزته بعنوان "حاوية الاختصار في اصول علم البحار" وهناك مخطوط باسم سليمان المهري عنوانه "المنهاج الفاخر في العلم البحري الزاخر: و "العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية .

=================

#روح الحضارة الإسلامية

العدد: ٤ (يوليو – سبتمبر) ٢٠٠٦

أ.د. محمد عمارة / قضايا فكرية

... مقالات أخرى للكاتب ... إلى صديق ... طباعة

تمت قراءة هذه المقالة ١٣٠٠ مرة

لقد كانت الصناعة الثقيلة التي بدأت الدعوة الإسلامية فأقامتها، منذ المرحلة المكية، هي صناعة الصياغة الإسلامية للإنسان الذي تدين بدين الإسلام..

وكانت "دار الأرقم بن أبي الأرقم" في مرحلة سِرّية الدعوة الإسلامية، أي منذ فجر تلك الدعوة هي أولى المؤسسات التربوية التي أقامها رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام.

وقبل فتح المسلمين للمدائن والأمصار والأقطار، وقبل إقامة الدولة، وتغيير الواقع وتطبيق القانون وبلورة العلاقات الدولية كان الفتح الإسلامي للقلوب والعقول بهدي القرآن الكريم. ذلك الذي أصبح خُلق سلوك وممارسات، وسجية للحياة التي يحياها المسلمون، بل إن أولى المدن التي فتحها المسلمون قبل الهجرة النبوية وقبل الدولة الإسلامية –وهي المدينة المنورة– قد فتحها المسلمون بالقرآن الكريم.

وبعد إنجاز الصياغة الإسلامية –بالتربية– للإنسان، جاءت كل الإنجازات والفتوحات، في ميادين الحضارة وعلومها والثقافة وآدابها وفنونها، فكانت تجسيداً لهذا

الذي سبق وتم إنجازه في نفس الإنسان.. جاءت جميعها مصاغة بمعايير الإسلام، التي سبق وصاغت نفوس وعقول وقلوب الذين اهتدوا بهدْي الإسلام.

إن الدعوة الدينية في الإسلام لم تقف عند حدود تدين الإنسان، وتحقيق عبوديته لله بالشعائر المعبِّرة عن الإيمان القلبي، والمفصحة عن علاقته بالسماء.. وإنما امتدت هذه الدعوة لتحقق ائتلاف هذا الإنسان بالأمة والمجتمع والكون، فتوحدت في نفس هذا الإنسان عوالم الغيب والشهادة، وائتلفت فيها وتوازنت علاقات الفرد بالمجموع، والخاص بالعام؛ فتدينت الدنيا، مع بقائها دنيا، عندما صاغ الإسلام نفس الإنسان المسلم ووجدانه وعقله تلك الصياغة التي ائتلفت فيها وتوازنت آيات الله في الوحي السماوي بآياته في الأنفس والآفاق.

إن دين الإسلام لا يقوم ولا يقام بالتبتل الفردي والخلاص الذاتي، وإنما لا بد لإقامته وتحقيق كامل فرائضه من أمة ووطن واجتماع ومجتمع، وفروض اجتماعية، يتوجه الخطاب فيها والتكليف بها للأمة. وهذه الفروض الاجتماعية أهم وآكد من الفروض الفردية، بدليل أن إثم التخلف عن الفريضة الفردية يقع على الفرد وحده، بينما إثم التخلف عن الفريضة الاجتماعية يقع على الأمة جمعاء.

وفي دين الإسلام، اقترنت الهجرة في سبيل الله بتأسيس الدولة، وإقامة المجتمع، وتطبيق القانون، وإقامة نسيج اجتماعي بين الرعية يحقق المؤاخاة، لا في الحقوق الدينية المجردة فقط، وإنما في أمور المعاش الدنيوية أيضاً؛ بل لقد امتد هذا النسيج بمعايير المواطنة، وحق الاختلاف حتى في الدين، إلى حيث ضم هذا النسيج غير المسلمين مع المسلمين.

فالهجرة إلى الله ليست رهبانية، تخلص فيها وبها الذات، بمعزل عن الحياة والناس.. بل إن رهبانية الأمة الإسلامية هي الجهاد، الذي هو فريضة اجتماعية تستلزم وجود الأمة والوطن والاجتماع.

لقد أحدثت الدعوة الدينية الإسلامية أثراً تكوينياً تربوياً في شخصية الفرد المسلم، أصبح عاملاً نفسانياً، حقق ائتلاف العناصر الفردية في المجتمع الإسلامي، الطبييعي منها والشرعي، المدني منها والديني، العقلي منها والنقلي، المادي منها والمجرد.. فكان ذلك الائتلاف حضارة إسلامية، أبدعها الإنسان الذي صاغته الدعوة

الإسلامية. وتلك خصيصة من خصائص الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية؛ فالرسالات الدينية التي سبقت رسالة الإسلام الخاتمة، إما أنها تزامنت مع حضارات غير متدينة، فتعايشت معها، دون أن تغيرها وتصبغها بصبغتها؛ بسبب وقوف تلك الرسالات عند حدود خالص الدين، وإما أن تلك الحضارات السابقة على الحضارة الإسلامية قد عاشت في أزمنة الفترة التي خلت من رسالات الدين..

بينما تميز الإسلام بكونه ديناً فجّر حضارة، وصاغ مدنية، وأثمر اجتماعاً إنسانياً، وألّف في نفس الإنسان –بالمنهاج التربوي الشامل– ذلك الائتلاف المتوازن، الذي جعل هذا الإنسان يبدع الحضارة المصطبغة بصبغة الدين. لقد حقق الدين الإسلامي الائتلاف والتوازن والأمن في نفس الإنسان المسلم، فجاء الإبداع المدني لهذا الإنسان –أي الحضارة الإسلامية– ثمرة مجسدة لهذا الذي أحدثه الدين في نفس هذا الإنسان.. فلما حدث وبعدت هذه الحضارة وثقافتها عن هذه الصبغة كان هذا الخلل الذي نشكو منه، والذي حدث منذ قرون، والذي تطبّ لدائه كل دعوات وحركات الإصلاح في أمة الإسلام.

وإذا كان الإسلام هو سبب تقدم المسلمين، ونهوضهم الحضاري، وازدهارهم الثقافي.. فما سبب التخلف الذي أصاب المسلمين، مع بقاء الإسلام كما هو، على حاله الذي كان عليه عندما فجر ينابيع التقدم في الحياة الإسلامية؟!

إن السبب هو غيبة "الروح" (روح الدين الإسلامي) عن الحضارة (الحضارة الإسلامية)، هو انقطاع الاتصال بين الإسلام وحضارة المسلمين.. هذه الروح التي جعلت الحضارة إسلامية، بل والتي فجرتها وصبغتها بصبغة الإسلام..

لقد جلس الحسن البصري إلى واعظ من الوعاظ، فلم يتأثر قلبه بموعظته، فسأل الحسنُ الواعظ: "يا أخي، أبقلبك مرض أم بقلبي؟". إن انقطاع الاتصال، لغيبة الروح، هو سبب المرض والمأزق الحضاري، الذي تطب له وتبحث عن علاجه مختلف مدارس الإصلاح.

فما هذه الروح التي جعلت الإسلام –دون الديانات الأخرى– يصنع حضارة وثقافة، ولايقف عند مجرد الدين؟! وأين موطن الخلل الذي عطل الفعل الإسلامي في

الحضارة والثقافة؛ فتراجعت الحضارة الإسلامية، وضمرت الثقافة الإسلامية، مع بقاء الإسلام "الدين" كما هو، وبقاء الإيمان به والاستمساك بعراه؟!

لقد عرض الشيخ محمد الفاضل بن عاشور لهذه القضية المحورية عندما تحدث عن الأمور التالية:

بناء الحضارة والثقافة

تميز الإسلام "الدين" بإفراز الحضارة، وبناء الثقافة: "فإذا كان الإسلام، باعتباره ديناً، يشترك مع غيره من الأديان في القضايا التي هي موضوع الديانات عامة، فإن للإسلام نواحي ينفرد بها عن تلك الديانات، التي اشترك معها في القضايا الدينية بصفة عامة، إذ تكون له جهات اتصال بالثقافات والحضارات ليست لغيره من الأديان الأخرى.. فهذه التي نسميها الحضارة الإسلامية، أو تلك التي نسميها الثقافة الإسلامية، إنما هي سلاسل من الأحداث والأوضاع والكيفيات الاجتماعية والذهنية، كان الإسلام مبدأ نشأتها وسبب تكوينها. فلم يقف الإسلام عند التعايش مع العلم، وإنما أصبح كل موضوع علمي ذا صلة بالعقيدة الدينية، وصار الارتباط بين الدين والمعرفة العقلية، أو بين علم الطبيعة وعلم ما وراءها ارتباط التفاعل والتمازج. ونشأ من ذلك اتجاه نحو الحياة والسلوك فيها، يدفع به العامل الديني الاعتقادي في كل وجه من وجوهه، وسبيل من سبله؛ فصار الداعي الديني يتجلى فيما يصنع العالم، وما ينتج الأديب، وما يصوغ صاحب الفن. وصارت المعرفة العلمية سنداً لكلام المتكلم، وفقه الفقيه، وتصوف الصوفي، على الصورة التي ربطت عناصر المعرفة، وأخرجت كتب العقيدة الإسلامية جامعة للمعارف الطبيعية والرياضية والإنسانية، مع الحقائق الاعتقادية؛ يتجانس فيها العلم مع الدين، ويتساند العقلي والنقلي. لقد تكوّن المجتمع الإسلامي بإثر دعوة دينية، إنه مجتمع ديني بالمعنى الأخص، كان الدين فيه العامل الأول المباشر. ومن دعوة الدين، والإيمان بها، اكتسب الشعب الذي استجاب لتلك الدعوة وامتاز بذلك الإيمان خلالاً نفسية جديدة. لم يستفد علماً ولا صناعة ولا قوة مادية، ولكن الذين اكتسبه من الخلال طوّع العلم والصناعة والقوة المادية؛ فكانت المدارك الدينية وحدها هي التي فتحت أمام نظر المسلم آفاق الكون للتأمل والاعتبار، والمعرفة والإيمان. فالحقيقة الاعتقادية الإلهية، هي الأساس لكل

ما بنت الحضارة الإسلامية من هياكل حسية ومعنوية. وإنسان هذه الحضارة، بالدين فكّر، وبالدين تحضّر، وبالدين أنتج آثار حضارته، وبالدين أقام الدولة الصائنة للمجتمع وحضارته. وكذلك استمرت مظاهر الحضارة متصلة في نفسه بالدين، وعوامل الدين فعالة في مظاهر الحضارة."

التوازن والانسجام

كذلك امتازت هذه الحضارة الإسلامية وثقافتها بالتوازن والانسجام؛ لأنها ثمرة لامتياز الإسلام بتحقيق التكامل والتوازن والانسجام في مصادر المعرفة الإنسانية: "فكل الحقائق، المتصلة بالمادة والمتصلة بما وراءها، هي في متناول الإنسان، يستطيع أن يتوصل إليها بمداركه العديدة المدرّجة، المستند بعضها إلى بعض، في غير تنافر ولا تدابر ولا تناشز. فالمدركات الغريزية، وراءها المدركات الحسية. ثم المدركات الحسية، وراءها المدركات العقلية. ثم المدركات العقلية، تؤدي إلى المقدمات المفضية إلى تلقي المدركات الغيبية، الآتية من طريق الوحي، وإلى التسليم بها، والإذعان لها. وتبقى هذه المدركات كذلك متعاونة متساندة، لا يمكن أن يحصل بطريق واحد منها ما يتناقض مع الحاصل من طريق مدرك آخر، إلا أن بعض ما يقصر عن الإحاطة به أحد هاتيك الطريق، يمكن أن يتصل به طريق آخر منها، حتى تنتهي إلى الإذعان للمدركات الحاصلة بالطريق الخارق للعادة، وهو طريق الوحي. فعقل الإنسان وعقيدته، وحسه المادي، وعواطفه الغريزية، كلها متجانسة متعاونة، لا يخشى بعضها بعضا، ولا يقطع أحد سبيل الآخر. لقد كانت الحضارة الإسلامية من أثر إنسان اكتسب وضعاً منسجماً في ذاته، آمنا إلى نفسه، فصنع على مثال نفسه حضارة أكسبها مما اكتسب، وأفاء عليها مما أفاء الله عليه، حتى فاقت بما فيها من انسجام غيرها من الحضارات."

ما أسباب التخلف؟

لكن ما الذي حدث حتى تخلفت الحضارة الإسلامية وتهلهلت ثقافتها، مع بقاء الإسلام –الذي صنعهما وحقق لهما الازدهار الذي دام لعدة قرون، كانا فيه منارة للعالمين– على ما هو عليه؟! "لم يكن المصاب العزيز هو الإسلام، وإنما كان الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية. وكانتا تتطلعان إلى الإسلام بذاته، تحنان

إليه، وترجوان شفاءهما عنده. وكان القريب والبعيد يدركون أن ما نزل بالمجتمع الإسلامي، في حضارته وثقافته، ليس إلا أمراً آتيا من انحراف عن الأصل، وانقلاب في الوضع، وانفلات عن العامل التربوي الأصلي الذي لزم الأصول، وأحكم الأوضاع؛ فلقد أصاب الحضارة والثقافة ما عزلها عن صدق الاستمداد من الإسلام، ومتين الاعتماد عليه، حتى مال عمادها، واضطربت أوتادها.."

فالخلل لم يحدث في ذات الإسلام؛ وإنما في توقف عقيدة الإسلام عن أن تكون روح الحضارة، وانكماش الإرادة الاعتقادية البناءة للحضارة، وغربة الحضاري عن الديني، وتفكيك الدين عن الدنيا: "وإن تبيّن الناحية التي أصابتها العلة من العقيدة، هو الذي يكشف عن الأسباب التي قضت بضعف الحضارة وتهلهلها. إن الذي حدث في العقيدة الدينية، وقضى بتضعضع الحضارة، إنما هو انكماش صدّها عن أن تخلع من روحها على الحضارة، فأصبحت الحضارة خائرة جامدة، لا تتقدم. وما كان ذلك الانكماش إلا أثراً من آثار الضعف، الذي أصاب العقيدة في جوهرها. إن الإرادة الاعتقادية البناءة هي التي خارت وضعفت؛ فأصبحت الأوضاع الاجتماعية، والآثار المدنية تصدر عن غير ما كانت تصدر عنه، فصارت هي في واد والعقيدة الدينية في واد. وبقي المسلم وفيّاً لعقيدته الدينية، غيوراً عليها، من جهة، متقبلاً لحياته العملية، مطمئنّاً إلى واقعها من جهة أخرى. حتى أصبح المبدأ النظري والواقع العملي عنده متباينين، وتولدت من ذلك نظرية تفكيك الدين عن الدنيا، باعتبار أن الدين خيرٌ غير واقع، والدنيا شر واقع، وأن العبد المسلم يحمل بين جنبيه دِيناً لا يؤثر فيه إلا لماماً، ويعيش في دنيا لا يعرف فيها إلا كل ما يبعد به عن الدين. ثم هجمت عليه في حياته العملية مدنيات أجنبية عنه، فيها العلم، وفيها الصناعة، وفيها القوة، وفيها الحكمة؛ فلم يجد من إرادته الدينية ما يتناول به هذه المدنية، كما تناول المدنيات التي احتك بها من قبل، يوم كانت إرادته الدينية قوية سليمة، فوقف أمامها جامداً، واعتبرها من جملة صور الحياة التي كان من قبل آمن بانفكاكها عن الدين..".

ذلك هو موطن الخلل الذي كان ابن خلدون من أفضل من أدركه، وحلله.. "لقد حلل ابن خلدون المشكلة تحليلاً دقيقاً، عندما جعل شؤون السياسة والعمران والصناعة

والعلم في الدولة الإسلامية، تبعاً لشأن الدين. وجعل الحقيقة الأولى للدين، التي هي العقيدة الفردية أصلاً وأساساً لذلك كله، فأخذ يدرس مشكلة فساد الدولة، وركود العمران –في عصور الإسلام اللاحقة عن عصوره السابقة– وانتقاص الصنائع، وتلاشى ملكات العلوم، واختلال طرائق التعليم في الأمصار الإسلامية لعهده، جاعلاً ذلك كله راجعاً إلى اختلال الحقيقة الأولى للدين، التي هي أساس العمران الناشئ به، والدولة القائمة عليه، أعني العقيدة الدينية، فردّ ذلك كله إلى صورة تكوّن الفرد تكوّناً إيمانياً، يرتبط من جهة بالدين الإسلامي في عقيدته، ويسري منه إلى كل ما انبثق عن تلك العقيدة من مظاهر عمرانية وصناعية وفكرية. وإذا كان الناس يكتفون بأن يمثلوا ما بدا في حياة المجتمع الإسلامي وحضارته من إخلال، بما يرجع إلى نظم الحكم، وصور الدول، وما شاع من فساد الخلق، وتفكك الروابط الاجتماعية، فإن ابن خلدون يطلب لهذه العلل عللاً، ويرد هذه الأسباب إلى أسباب وراءها. فانقلاب الخلافة إلى ملك ليس العلة، وإنما هو عَرض لعلة تغيّر الوازع الديني إلى مقاصد التغلّب والقهر، والتقلّب في الشهوات والملاذ، وحلول عصبية الدولة محل عصبية الدين. لقد أرجع ابن خلدون الحضارة الإسلامية إلى أصلها وأساسها، أو بالأوضح روحها، وهو العقيدة الدينية".

حجم المشكلة

وإذا كانت هذه هي المشكلة، فما هو حجمها؟ وما هو عمرها؟ إن حجم هذه المشكلة ليس بالهين، وعمرها ليس بالقصير. "وإذا كنا لا ننكر أن الحضارة الإسلامية قد تقاصرت وتراجعت وتخلخلت، وأن الثقافة قد ذوتْ وانكمشت واصفرت، وأوشكت أن تصير حطاماً، فإن ذلك ليس وليد الأمس، ولا أمسه. ولكنه الأدواء التي استفحلت في القرون الأخيرة، حتى أعضلت، وعز دواؤها، ثم لم تزل تنمو وتشتد وتتفاقم آلامها وأخطارها حتى انتهت إلى الوضع المفزع، الذي ضج قرننا الحاضر منه بالشكوى.."

ما هو الحل؟

وأخيراً وبعد تحديد روح الحضارة الإسلامية، وتشخيص موطن الخلل الذي أصاب حضارتنا وثقافتنا؛ فما هو الحل الحقيقي لهذه المشكلة؟ والمخرج من هذا المأزق الذي يأخذ بخناق الأمة؟

إن الحل هو في العودة إلى الروح التي صنعت الحضارة المزدهرة والثقافة المتألقة. إنه عودة الروح الدينية لتصوغ النهضة الحضارية المتميزة والمستقلة. وهذا هو المعنى الحقيقي لمقولة: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. "فلولا التكوّن الفردي المكّي، والتكوّن الاجتماعي المدني، لما كانت آثار الحضارة التي تبدت في عواصم الإسلام. فإذا كان الناس اليوم يحنّون إلى عهود ذهبية، ازدهرت بها تلك العواصم، ويتحرقون إلى إحيائها وتجديدها، فأجدر بهم أن يعودوا إلى العامل الأصلي الذي ولّد تلك العصور الذهبية، والذي بدونه لن تعود زهرة تلك العصور وينعتها، ألا وهو العامل التربوي الإسلامي، الذي كوّن الفرد قبل أن يكوّن المجتمع، ومهد للثقافة طريقها قبل أن يتناول عناصر المعرفة التي ألّفت كيانها".

أما إذا وقفنا عند "استقلال العَلَم والنشيد"، دون حقيقة "الاستقلال الحضاري"، الذي هو ثمرة للصبغة الإسلامية المتميزة، فلن نخرج من هذا المأزق الذي نعيش فيه. "لقد خرج العالم الإسلامي من تحت حكم الغير، واسترجع سيادته الذاتية، لكن هل هو مستطيع أن يعاود حضارته، ليضطلع بأعبائها من جديد، وليمثل للناس صورة جديدة من الثقافة والحضارة، منطبعة بطابع شخصيته الإسلامية، ومنبثقة عن المبادئ الاعتقادية الإسلامية، التي انبثقت عنها الصورة الماضية التي عرفها التاريخ من ثقافة الإسلام وحضارته؟ إن نهضة اليابان ليست بوذية، ولا نهضة الصين نهضة كونفوشية، ولا نهضة اليونان نهضة بيزنطية، ولا أفلاطونية، ولا أرسطوطاليسية، بل ولا هي يونانية على الحقيقة بأي حال من الأحوال. فهل سيكون شأن الإسلام مقصوراً على هذا الوضع؟ أو أن حضارة إسلامية الروح، وثقافة إسلامية الطابع، ستبدوان من بين ذلك القدر المشترك المؤلف بين شعوب الأمة الإسلامية، الناهضة المستقلة؟ إن روح تلك الحضارة هي الموقع الرئيسي للمشكلة".

تلك بعض من قضايا وأفكار ومحاور المعضلة التي حار ويحار فيها المصلحون، روح الحضارة الإسلامية، التي صنعت وميزت الحضارة والثقافة في عصور النشأة والازدهار، وموطن الخلل الذي جعل الحضارة تتراجع، والثقافة تتهلهل. والحل والمخرج من هذا المأزق الحضاري الذي تعيشه أمة الإسلام.

---

* كاتب ومفكر إسلامي – مصر

=============

#الحضارة الإسلامية بين الحضارات

* د. محمد ظفر الله خان

تهيمن الحضارة العالمية الحديثة بخيرها و شرها على الأفكار والثقافة والحياة والواقع الاجتماعي حتى كاد الانسان لا يفكر بغيرها أو ينتظر بديلاً عنها أو يتطلع إلى مصحح لعيوبها وانحرافاتها مع أن الإخلاص للإنسانية وللحضارة ذاتها يقتضي معرفة محاسنها ومساوئها، وبما يمكن أن تقوم به حضارة أخرى من دور بناء إيجابي يتسم بمقومات الخلود والثبات والأمن والاستقرار.

ونحن بدورنا كجزء كبير من هذا العالم نستطيع المساهمة في توجيه الحضارة وجهة أسلم وأقوم أو على الأقل محاولة إقامة حضارة ذاتية تتطلبها أمتنا في العصر الحاضر لتتمكن من إثبات ذاتها وتوفير البرهان العملي على مدى صلاح هذه الحضارة وجدارتها بالوجود والتنافس الشريف.

وفي معرض هذا الحديث يمكننا إلقاء الأضواء الكاشفة عن مقومات الحضارة الاسلامية المتميزة بسماتها البارزة وخصائصها الواضحة التي تخلق منها وحدة شخصية تامة ذات معالم مستقلة عن غيرها في أساس الحضارة وغايتها ومبادئها مع التنويه لما يوجد بينها وبين غيرها من قدر مشترك يحتمه الواقع وتدفع إليه الحاجة ويمليه المنطق وتقتضيه المصلحة.

إن أساس حضارة الاسلام ليس هو تمجيد العقل كما هو الشأن عند الإغريق، ولا تمجيد القوة وبسط النفوذ والسلطان كما كان عند الرومان، ولا الاهتمام بالملذات الجسدية والقوة الحربية والسطوة السياسية كما هو الأمر عند الفرس، ولا الاعتداد بالقوة الروحانية كما عند الهنود وبعض الصينيين، ولا الافتتان بالعلوم المادية والاستفادة من ذخائر الكون وبالمادية الطاغية كما هو منهج الحضارة الحديثة المتوارثة عند اليونان والرومان . وإنما أساس حضارتنا هو فكري . علمي . نفسي يشمل جميع شعب الحياة الانسانية وبهذا كانت حضارة الاسلام مستقلة كاملة ذات دستور محدد شامل تختلف به اختلافاً جذرياً عن مبادئ الحضارة الغربية وتصطرع

معها كما تصارعت مع الحضارات القديمة فصرعتها بسبب سيطرة الدين على القوى الفكرية والعملية ولقوة روح الجهاد والاجتهاد لأن الاسلام لا يمنع العلم . طريق الحضارة . وإنما يضع له المنهج الملائم لمبادئه.

وإذا كان التقدم الحضاري الصادق بوسائله المدنية المختلفة ليس مقصوداً لذاته ولا غاية في نفسه، فإن غاية الحضارة الصحيحة تحقيق السعادة النفسية والطمأنينة القلبية والتوصل إلى ما هو خير ونافع والبعد عما هو شر وضار.

لكن الحضارة الحديثة لم تحقق الغاية المنشودة وإنما أدت إلى القلق والاضطراب وطحن الانسان في حمى المادية الطاغية والبعد عن الخلق والفضيلة والدين ونحوها من القيم الانسانية.

وأما الحضارة في تقدير الاسلام فغايتها الأولى تحقيق الطمأنينة والسلام والأمن وإقامة المجتمع الفاضل وإسعاد البشرية بما هو خير ومحاربة كل عوامل الشر.

وبما أن الانسان هو خليفة الله في أرضه فلا يصح أن يتخذ المرء في حياته غاية سوى ابتغاء مرضاة الله مصدر الأمن وهي الغاية السامية التي تتخطى مجرد طلب الملذات الحسية أو الغايات المادية الدنيئة وتحقق الانسجام والتوافق بين الفطرة الانسانية والغاية العقلية كما أنها تهيئ التجاوب والانسجام الشامل في أفكار الانسان وخيالاته وإراداته ونياته وعقائده وأعماله وحركاته... وهذا يعني أن غاية حضارتنا إعداد الانسان للسعادة الأخروية المتوقفة على العمل الصالح في الحياة الحاضرة في نطاق الدين والدنيا معاً. إذ ليس الاسلام ديناً روحانياً بحتاً يعزل أتباعه عن الحياة ولا مادياً صرفاً يوقع الناس في أوحال الدنيا، وإنما هو يعتبر وسيلة ومزرعة للآخرة، ولا تعني الوسيلة أنه دين تقشف فلا يكون دين حضارة، فالتقشف والزهد في الاسلام هدف أخلاقي رفيع يتفاعل مع الحياة ويصرف المرء عن التكالب على متطلبات العيش ويوحي بضرورة التزام مبدأ القناعة الشريف الذي لا يؤدي إلى مصادمة الآخرين وإيقاد نار المنازعات والشرور.

إذن، فالاسلام في حقيقته مصدر الحضارة الانسانية التي شعّ نورها بامتداد الدعوة الاسلامية بعد الاستقرار في المدينة وبناء الدولة فيها عقب اكتمال بناء الفرد في مكة، وذلك لأن الاسلام هو دستور التقدم الانساني بالقرآن العظيم والسنة النبوية

الشريفة. فكل ما يعد تقدماً وعمراناً هو من الاسلام، وكل تخلف مضاد للتقدم ليس من الاسلام في شيء. لذا يخطئ الكاتبون سهواً الذين يريدون التوفيق بين الاسلام والحضارة كأنهما أمران متغايران أو ضدان، إذ لا خلاف مطلقاً بين الاسلام والحضارة، فالحضارة نتيجة من نتائج النظام الاسلامي والفلسفة الاسلامية التجريبية العملية.

والاسلام أب الحضارة وراعيها يتقبل منها قديماً وحديثاً كل ما ينفع ويرفض كل ما يضر لأن ((الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها)) ولأن الانتفاء والاصطفاء عن عقل وتمييز هو من صلب تعاليم الاسلام التي تقر الأعراف الصالحة وتنبذ العادات والتقاليد الفاسدة أو المعارضة لمبادئ التشريع ونصوصه . وليس أجل على ذلك من أن الاسلام تبنى ما كان صالحاً من حضارات البلاد التي فتحها في الشام ومصر وبلاد الروم والفرس وضم المسلمون إلى ساحتهم كل مخلفات الحركة العلمية لدى اليونان في مجال العلوم الطبيعية والطبية والرياضية، ثم أضافوا إليها معارف ومكتشفات جديدة صبوها في أبهى قالب في بلاد الأندلس التي كانت مصدر الحضارة الحديثة.

فليس دور المسلمين مجرد تلقي لما عند الآخرين كما زعم المغرضون، وإنما كان لهم مشاركة إيجابية بناءة حققت لهم أرفع معاني العزة والسيادة والسبق الحضاري وهكذا كان المسلمون في كل عصر مصدر إشعاع لكل تقدم وخير وكانوا سباقين للمعالي والقدوة الطيبة للفضائل والمكارم ((كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)) . وقادة العلم والتثقيف والتوجيه ((طلب العلم فريضة على كل مسلم))، وفي توجيه آخر للرسول عليه الصلاة والسلام ((مَن خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع)).

والآن، مع الأسف حيث صرنا في حالة ضعف وكلمة الضعيف لا تسمع ولو كانت حقاً وعدلاً وشوهت حضارتنا وزيفت معالمها وسرق محتواها وتشكك الناس في مبادئها فلم يعد أمامنا إلا محاولة استعادة قوتنا المادية، ولكن على أساس صحيح من هدى الاسلام.

ولا شك أن المبادئ هي القيم الخالدة التي توقظ الغافلين وتهدي إلى الطريق المستقيم دون أن تحجبها مظاهر الضعف والتخلف وأحوال الانحطاط التي تتعرض لها الأمم في بعض الأدوار التاريخية وميادييننا الحضارية ما تزال هي المشعل الوضاء التي تدفعنا نحو متابعة الخطى ودوام العمل والكفاح وأعمال الإرادة والفكر.

وأهم مبادئ أو خصائص الحضارة السلامية ما يأتي:

١ . مبدأ التوحيد (الألوهية والربوبية): إن أبرز صفة حضارية للاسلام أنه دين توحيد الألوهية والربوبية أي أن الإله المعبود بحق هو الله سبحانه لا شريك له، والناس جميعاً متساوون في الانتماء إليه والاتجاه إلى عظمته من دون واسطة بشرية. وهذا الإله هو الحاكم المطلق الذي يسن للناس التشريعات والقوانين، وما على المسلم إلا أن يتبع أوامر الله وينفذ التشريع المنزل. وفي هذا يشعر الانسان بكرامته الشخصية وأنه لا يستذل لأحد من خلق الله فيعمل ويفكر بحرية ويتجه في عمله وفكره لإرضاء مولاه بفعل الخير وتجنب الشر والتخلص من كل مظاهر الوثنية سواء في صورتها القديمة التي تعني بالتماثيل والأصنام، أم في صورتها الحديثة الموجهة نحو تقديس الدولة الحاكمة وعبادة الأشخاص في أحوال الظلم.

٢ . الصبغة الانسانية العامة: ليست حضارة الاسلام محدودة المكان أو وطنية النزعة أو قومية مغلقة على أهلها أو طبقية محصورة في أسرة معينة، وإنما هي إنسانية عالمية واسعة الأفق تخاطب أي إنسان في أي مكان وتصلح للانتشار في أي بقعة أرضية وتقيم أخوة إنسانية عالمية ((يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم. إن الله عليم خبير)) يعم خيرها الجميع وتفيد كل امرئ بما تقدمه من علم نافع وعمل صالح لأن ((الخلق كلهم عيال الله، وأحب الخلق أنفعهم لعياله)) وهذا المعنى من عظمة الله بدليل أنه يرزق الكافر والمؤمن ويمنح المواهب مَن يشاء وحينئذ تتفتح العبقريات في كل شعب وفي كل زمان ومكان.

وإذا كان العطاء الإلهي عاماً وجب أن يكون النتاج الحضاري عاماً لا حكراً على أناس دون غيرهم لأن رائد الحضارة الأصيل هو إسعاد البشرية جمعاء وصعيدها العدل والحق والخير والكرامة. وهذه هي حقيقة تعاليم الاسلام التي تنفر من كل فكرة

استعمارية أو نظرة إقليمية أو قومية ضيقة أو عصبية أو طائفية، باعتبار أن روح الاسلام عالمية لا تعرف متعصب إلا للخير العام وفي سبيل الصالح العام ومن أجل إقرار الحق ((هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله...)) ((ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون)).

٣ . النظرة الشاملة للانسان والحياة: لقد تبين من تاريخ الحضارة أن كلا من الروحية البحتة أو المادية البحتة وحدها لا تصلح أن تكون سبيلاً لسعادة الانسان، فليس في مسلك الروحية البحت سوى التخلف وتعطيل الإرادة والتفكير وطاقات العمل وقتل آدمية الانسان وخسارة منافع الكون، وكذلك ليس في مسلك المادية البحت سوى الطغيان والظلم والاستعباد والذل والتحكم الغاشم بالأرواح والأموال والأعراض.

أما حضارة الاسلام الخالدة فقامت على أساس الجمع أو التوازن بين المادية والروحية الانسانية فتصبح الروحية المهذبة أساس المادية المهذبة، وعندها ينعم الانسان بالإرادة والحرية والتفكير وثمرة الجهود والعمل في إطار من الإيمان والأخلاق القائمة على العدل والأمن والاستقرار والرحمة والمحبة. وبهذا العنصر الانساني تميزت حضارة الاسلام التي سبقت كل الحضارات القديمة والحديثة كما أنها تميزت بامتداد جذورها إلى جميع نواحي الحياة الجديرة بالإعزاز والمحققة لسعادة الانسانية. قال الله تعالى واضعاً جوهر رسالة النبي (ص): ((وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)) وأما المرتكزات الحضارية المادية من تفكير وإرادة وتضحية وعمل فقد حوتها آية أخرى وهي ((وأتبع فيما أتاك الله الدارة الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض. إن الله لا يحب المفسدين)).

٤ . رسالة الأخلاق: إن سياج الحضارة الاسلامية هو الدين والأخلاق، فمبادئ الأخلاق تتدخل في كل نظم الحياة وفي مختلف أوجه نشاطها سواء في السلوك الشخصي أم في السلوك الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي. ومن المحال إقامة النظام الصالح أو المجتمع الفاضل من دون أخلاق وقيم شريفة، وهذه القيم ونحوها هي صمام أمان يكفل دوام الحضارة ويمنع انحرافاتها وتعثرها بدليل قيام الحضارة الحديثة عليها في مبدأ الأمر وتعرضها للإفلاس والانهيار في شرخ قوتها عندما طغت عليها الصفة المادية.

٥ . دور العلم: أقام الاسلام حضارته الرفيعة على منهج العلم والمعرفة والعقل والبحث والتجربة والاستنباط تقديراً منه لحيوية العلوم في بناء الدولة والمجتمع فابتدأ بالقضاء على الجهل والأمية والتنديد بالتقليد الأعمى ثم أشاد بالعلم والعلماء في مختلف الاختصاصات الشاملة لكل إدراك يفيد الانسان في القيام برسالته في الحياة وهي تعمير الأرض والاستفادة من خيراتها وكنوزها كما يرشد إليه إطلاق النصوص القرآنية: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) (وقل ربي زدني علماً) (إنما يخشى الله من عباده العلماء).. وكان حب العلم لذاته هو خلق العلماء القدامى دون التفات لمكسب مادي أو مغنم أدبي رخيص أو بقصد الشهرة وإذاعة الصيت ولم يجعل العلم وسيلة للمعاش إلا في عصور التخلف، وفي أوقات الحاجة المهيمنة الآن إلى كسب الرزق. وما أجدرنا أن يكون الدافع ذاتياً إلى تعلم العلوم الحديثة وأن تهيئ الدولة كل المناخ الملائم لتطبيق النظريات العلمية الحديثة ليطلع فجر الحضارة الاسلامية من جديد وتمتلئ الحياة بالمجالس والمناقشات والأبحاث العلمية والتطبيقية، قال النبي (ص): ((ومَن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً... سهل الله له طريقاً إلى الجنة)).

٦ . الحفاظ على الشخصية الذاتية: إن الأخذ بأسباب الحضارة الغربية لا يعني ضياع الشخصية الاسلامية وإهدار المقومات الذاتية، فلقد استفاد المسلمون في الماضي من حضارة غيرهم مع طبها بطابعهم الشخصي والمحافظة على القيم الاسلامية أما الإصرار على جعل المدنية الغربية طريقاً وحيداً لإحياء الحضارة الاسلامية فهو تشكيك للنفوس وقتل للمعنويات وإهدار للجهود، ودعم الزعم القائل بعدم كفايتنا وإبقائنا عالة على غيرنا دون أن نستطيع مواجهة الغرب فضلاً عن مناهضته ومغالبته.

٧ . الاعتصام بالحق والخير: الاسلام دين الحق كما عرفنا وطريق الدعوة إلى الخير وحضارته تقوم على مبدأ مناصرة الحق والعدل ومكافحة الباطل وعمل الخير وقمع الشر.. فلا ظلم ولا هضم للحقوق ولا إنتاج إلا للخير ولا ابتكار لما يضر ولا ينفع. وإحقاق الحق وتثبيته يتطلب تخطيطاً وثباتاً وقوة وتفانياً. والخير الذي يشمل كل أنواع

الرقي المادي والمعنوي لا يتوفر بدون تعاون الفرد والجماعة والحاكم والمحكومين، وأما الشر فيمثل كل مظاهر الانحراف والشذوذ والتخلف.

٨ . الإيمان صمام الأمان: الإيمان في مفهوم الحضارة الاسلامية هو الذي يقيم قواعدها ويميز عناصرها الصالحة من الرديئة، وليس الإيمان مجرد عقيدة قلبية أو ديانة شخصية وإنما معناه الاسلام بكامله.

والاسلام نظام متكامل للأخلاق والمدنية والاجتماع والاقتصاد والسياسة، فهو الذي يوحد الأمة ويحفظ جهودها ويحافظ على وجودها وحضاراتها، وكلما قوي الإيمان قويت الحضارة، وكلما ضعف الإيمان ضعفت الحضارة وبقدر سيطرة تعاليم الاسلام على المجتمع بقدر ما يكون ازدهارها في المجال الحضاري.

وإذا كنا نجد الآن خلاف كل هذا في مجتمعنا تبين لنا بحق سبب تأخر المسلمين وما أصابهم من تقهقر اقتصادي وتمزق سياسي، وإمعاناً في بقاء هذه الحال مع أشد الأسف نرى الاتجاه العام يسير نحو عزل الاسلام عن الحياة والعلم والثقافة سيراً وراء النواعق التي تنعق بأن الاسلام لا يستوعب الحضارة المعاصرة أو جهلاً بحقيقة الاسلام أو مشاركة في الخيانة المفضوحة أو المقنعة لإبقاء حالة الضعف القائمة وتأمين مصالح الرؤوس الكبيرة والدول العظيمة!!

ولكنا ما زلنا نؤمن بأن النصر والمستقبل سيكون لدولة الحق والاسلام المشرق بحضارته الوضاءة، لما نجده في النفوس من بقية طيبة من الإيمان والألفة والعزة والحمية والغيرة ولما نعيشه من واقع مؤلم تتوالى فيه الضربات والطعنات وتدمى منها القلوب والحناجر والصدور وتهتز الأرض من تحت الأرجل وتتهدد العروش والكراسي باحتلال الغاصب وظلم المستعبد ونار المستغل.

ولن يعود مجد الاسلام وحضارته إلا بالثقة بالنفس ودفن العجز واليأس والقنوط وتغيير ما في الصدور (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).

==============

العدالة البيئية نظرة مقارنة بين الحضارة العربية الإسلامية و الحضارة الغربية

للأستاذة الدكتورة : مشكاة المؤمن

أستاذ زائر مؤسسة القانون البيئي واشنطن

ماجستير إدارة عامة – تخصص قانون بيئي جامعة هارفارد

وزير البيئة السابق – العراق

مقدمة

يقصد بالعدالة البيئية؛ أتخاذ الاجراءات القانونية للحيلولة دون نشوء بؤر للثلوث البيئي في المناطق التي تسكنها الطبقات الفقيرة او المسحوقة في المجتمع. بحيث تكون المؤسسة البيئية مسؤولة عن ضمان المحورين الآتيين :

– محاربة بؤر التلوث و الحيلولة دون نشوءها من خلال منع تركز النشاطات الملوثة للبيئة في مناطق سكن الطبقات المسحوقة. ذلك ان تركيز النشاطات الملوثة في اماكن عيش الطبقات الفقيرة، او في اماكن عيش شريحة عريقة معينة، بشكل يبدو معه المجتمع– ممثلا بالمؤسسة البيئية– وكأنه يعاقب مجموعة من ابناءه على فقرهم، او انتماءهم لشريحة معينة، او حتى ايمانه بثقافة معينة، من خلال الموافقة على اقامة النشاطات الملوثة للبيئة في هذه المناطق تحديدا، بدلا عن اختيار مواقع بديلة بعيدا عن المناطق السكنية و بغض النظر عن العرق او مستوى دخل السكان. مما يحقق ركن الاستهداف و هو الركن الاول من اركان انعدام العدالة البيئية . بمعنى ان المجتمع – بشكل مباشر او غير مباشر– يستهدف ابناء طبقة معينة او شريحة معنية داخله؛ لتكون النتيجة ان المجتمع لا يبالِ بصحة وسلامة ابناء هذه الشريحة و بشكل يمكن اعتباره تمييزا ضدها[١].

– اعتماد مفهوم الاثر المضاعف للتلوثCumulative Impact Assessment اساسا قانونيا و بيئيا لعملية قياس الاثر البيئي للمشاريع المزمع اقامتها في هذه المناطق. فعندما تعمد المؤسسة البيئية الى منح شهادة تقييم الاثر البيئي لمشروع معين فلا يجب – استنادا لمفهوم العدالة البيئية– قياس الاثر البيئي لهذا المشروع منفردا، بمعنى النظر الى حجم ما يلقيه المشروع لوحده من عوادم وانبعاثات للبيئة، و التي بكل تاكيد سيسعى اصحاب المشروع الى التاكد من تحققها. و لكن يجب النظر الى الاثر المضاعف للتلوث الحاصل من خلال زيادة حجم عوادم و غازات التي تلقى الى بيئة هذه الشرائح. فاذا كانت هذه البيئة هي في الاصل تشكو من ارتفاع نسبة التلوث فيها، مما يضاعف اثر الملوثات و يجعلها اخطر على صحة

سكاني هذه المناطق من ابناء الشرائح المستهدفة. مما ينجم عنه انحدار كبير نوعية الهواء مثلا او نوعية المصدر المائي الذي تعتمد المنطقة كليا عليه.

ورغم إن فلسفة العدالة البيئية تبدو منطقية بل بديهية؛ فهي تقوم على حق افراد المجتمع على اختلاف اعراقه أو اجناسه أو دخله بالتمتع بـ بيئة نظفية و صحية. و الحقيقة، ان هذا المفهوم ساهم و الى حد كبير في اعتبار الحق في بيئة نظفية الجيل الثالث لحقوق الانسان بعد الحقوق المدنية والسياسة باعتبارها الجيل الاول لتكون الحقوق الاجتماعية ، الاقتصادية و الثقافية الجيل الثاني.[٢]

نشأة مفهوم العدالة البيئية

بدأت نشاة مفهوم العدالة البيئية – بشكلها الحديث– في الولايات المتحدة الامريكية في مطلع الثمانيات [٣]. حيث بدأت الجمعيات البيئة تلاحظ ان المصافي و المعامل و غيرها من المنشات التي ينجم عنها القاء عوادم خطرة على صحة الانسان يتم بناءها في المناطق الفقيرة و التي يسكنها اغلبية ساحقة من الافارقة الامريكين. بحيث تنفث هذه المعامل والمحارقها سمومها و تطرح فضلات التصنيع في هذه المناطق بشكل ازدادت معه الاصابات بالتدرن الرئوي والربو و غيرها من الامراض بين افراد هذه الشريحة. لتتكرر هذه المحاولات في المناطق التي تقطنها شريحة المهاجرين ذوي الاصول الاسبانية .

تجدر الاشارة الى بناء و تشيد هذه المعامل كان يتم بشكل اصولي؛ بمعنى، ان المعمل المزمع تشيده ينجح في اجتياز اختبار تقييم الاثر البيئي. ذلك ان قياس الاثر البيئي، كان يتم من خلال اعتماد مبدأ الاثر الفردي للمشروع، بحيث تنظر هئية حماية البيئة الامريكية، الى مقدار العوادم التي يلقها هذا المشروع منفردا الى بيئة هذه المناطق دون ملاحظة الاثر المضاعف للتلوث. مما دفع الجمعيات البيئية الى تحدي اجازة هذه المشاريع امام القضاء، الا ان القليل من هذه القضايا حالفه النجاح. ويرجع السبب في ذلك الى نقص التشريع البيئي الامريكي عن معالجة هذه الحالة. فطبقا للقانون البيئي و التعليمات البيئية المعتمدة تم اجازة هذه المشاريع و حصولها على شهادة تقييم الاثر البيئي التي تتضمن ان انشاءها لا يؤثر سلبا على البيئة لان ما تلقيه من عوادم هو ضمن النطاق السموح به. مما دفع ادارة الرئيس كلتتون عام

١٩٩٤ الى اصدار مرسوم برقم ١٢٨٩٨ يخول هئية حماية البيئة الامريكية اتخاذ الاجراءات القانونية لضمان معاملة عادلة و منصفة لجميع افراد المجتمع بدون تمييز بسبب عرق او لون او جنس للتمتع بـ بيئة صحية و نظفية. و الزامها التاكد من عدم اتخاذ اي اجراء من شانه تاصيل عمل ذو طبيعة تمييزية يحمل افراد المجتمع عبء العيش في مناطق ملوثة بسبب لون او عرق او جنس او ثقافة دون تحول المناطق الى بؤر للتلوث.

ألا ان المشاركين في ورشة عمل العدالة البيئية في ديسمبرعام ٢٠٠٣ في وسط وشرق اوربا في بودابست اضافوا محورين اخرين لمفهوم العدالة البيئية

– التوزيع العادل للموارد الطبيعية بين ابناء المجتمع. بحيث تم التوسع بنطاق الموارد الطبيعية ليشمل عناصر البيئة من ماء وهواء وتربة. وبالتالي؛ يصبح لكل مواطن وبدون تمييز الحق في الحصول على مورد مائي نقي فضلا عن العيش في منطقة هوائها نقي وتربتها صالحة.[٤]

– اشراك المواطنين كافة و بدون تمييز في اتخاذ القرار البيئي و اتاحة المعلومات اللازمة امامهم لاتخاذ القرار السليم. ذلك ان كثير من الفقهاء يعزو مشاكل انعدام العدالة البيئية الى عدم مشاركة هذه الطبقات في القرار السياسي مما يسهل استهدافهم.[٥]

الجذور التاريخية التي ادت الى انعدام العدالة البيئية في امريكا : نظرة مقارنة مع الحضارة العربية الاسلامية.

تعود جذور تحديات العدالة البيئية في الولايات المتحدة الى نشأة الولايات المتحدة الامريكية ذاتها. حيث جرى استيراد الافارقة الامركيين كـ" عبيد" من القارة الافريقية. ليكون شكل المجتمع طبقيا. و يتم تجذير فكرة التمييز بين طبقات المجتمع فلم يكن يسمح قانونا للعبيد العيش في ذات المناطق التي يعيش فيها مخدومهم.[٦] و بالنظر لقلة دخلهم فلم يستطيع العبيد الحصول على الخدمات الصحية و التعليمية مما جعل المناطق التي يعيشون فيها تفتقد للخدمات الاساسية و شروط ادارة الموارد البيئية فيها بشكل سليم. حيث تم تطبيق قوانين الفصل العنصري المعروفة باسم قوانين Jim Crow في الولايات المتحدة الامريكية وتحديدا الولايات الجنوبية من عام

١٨٧٦ و حتى عام١٩٦٤[٧]. و كانت هذه القوانين تمنع الافارقة الامريكين من الوصول الى الموارد الطبيعية و تفرض عليهم العيش في مناطق محددة بعيدا عن مناطق التي يقطنها السكان البيض و كانت مناطقهم تخلو بحكم هذه القوانين من شروط الادارة البيئية السليمة مما ادى الى تحولها الى بؤر تلوث لاحقا ليدفع في النهاية المجتمع ككل في الثمن. لقد ساهمت هذه القوانين في اضعاف البنية الصحية للافارقة الامريكين، لانها كانت تحول بينهم و بين الوصول الى الخدمات الصحية و البيئية السليمة، مما خلق شعورا بينهم بعدم اهمية البيئة، فهم لم يعرفوها يوما فكيف يمكن لهم تقدير أهميتها، فضلا عن ندرة فرص التعليم المتاحة لهم . لقد كانت هذه القوانين تفرض على الافارقة الامريكين الشرب من اماكن مخصصة لهم تفتقر الى ابسط المقومات و الشروط الصحية، ليشرب البيض من اماكن تتميز بتوافر الشروط الصحية و حتى الماء البارد صيفا. بل وصل الامر الى تخصيص مرافق صحية للبيض و اخرى للافارقة، و غني عن البيان ان الاخيرة كانت تفتقر لكل المقومات الصحية . لقد كانت هذه القوانين تتعامل مع الافارقة على انهم عبيد او مواطنون من درجة ثانية، و بالتالي فهم لا يستحقون التمتع ببيئة صحية وسليمة؛ فلانهم مواطنون من الدرجة الثانية فلا يحق لهم شرب مياه صحية و لايحق لهم استعمال مرافق صحية نظيفة.

لاحظ الفرق بين مستوى الخدمات و بالتالي فقد كانت الموارد المالية والطبيعية من حق البيض فقط

لتستمر معاناتهم حتى بعد الحرب العالمية الثانية؛ حيث كان الجنود الافارقة يأكلون في مطبخ القاعدة العسكرية ليجلس الاسرى الالمان في القاعة المخصصة للطعام. بل كانت الحافلات الخاصة بنقل الركاب لا تسمح بجلوس الافارقة و كانوا ملزميين بترك اماكنهم للركاب البيض. استمر ذلك حتى عام١٩٥٥ عندما رفضت سيدة افريقية تدعى Rosa Parks مغادرة مكانها في الحافلة لصالح مواطن من عرق ابيض. لتشتعل ثورة المطالبة بالحقوق المدنية والسياسية للافارقة وككان على اثرها قيام مجموعة من المحاميين بالعمل على الغاء قوانين Jim Crow و لم يتحقق ذلك حتى عام ١٩٦٤ الآ أن حرماننا دام ٨٨ عاما – اي زهاء قرنٍ من الزمن– لابد ان

ترك اثار سلبية على صحة الافارقة الامريكين كما رسخ شعورا عاما انهم مواطون من الدرجة الثانية . لتبدء بعدها معاناة من نوع اخر حيث تم بناء كافة المشاريع الصناعية الملوثة للبيئة في مناطقهم حيث استمر الافارقة بالعيش في مناطق خاصة بيهم؛ ذلك انهم لايمتلكون المكنة الاقتصادية اللازمة للعيش في مناطق سكنية تتميز بتوافرالخدمات الصحية و البيئية ذلك ان قوانين Jim Crow كانت تفرض قيودا على تشغيل الافارقة مما جعل دخلهم محدودا للغاية.

ليسود شعور عام لدى المستمرين ان الافارقة "معتادون" على العيش في هذه المناطق. بعبارة اخرى ؛ معتادون على التلوث. و هكذا، اصبحت مناطقهم بؤرا للتلوث البيئي الناجمة عن بناء مشاريع صناعية اكثرمما تستطيع عناصر البيئة- من ماء وهواء وتربة – في تلك المناطق اسيتعاب ما يلقى اليها من ملوثات دون الاضرار بها. مما انعكس سلبا على صحة السكان لتظهر بينهم اصابات بامراض مزمنة كالربو والتدرن الريؤي و الامراض التي تنتقل عن طريق المياه ايضا.

حجم تلوث الهواء في مناطق الافارقة و الاقليات

مصنع اطارت يلقي بفضلاته الى المياه مباشرة في ذات المناطق

ان هذا التلوث لم يترك اثره فقط على تلك المناطق؛ بل ساهم في خلق بؤر للتلوث في الولايات الامريكية و بالتالي الاضرار بفرص التنمية المستدامة بمعنى اذا لوثت الاجيال الحالية كل او معظم المياه فلن تتبقى مياه صالحة للاجيال القادمة.

و كان ان تصدت المنظمات البيئية و النشاطيين البيئين لهذه الظاهرة مطالبين بتطبيق العدالة البيئية . ليضاف الى العدالة البيئية محورا اخر الا وهو التمييز العنصري البيئي Environmental Racism[٨] سواء ان تم عن وعي كامل بالسلوك العنصري؛ حيث يسعى المستثمرون متعمدين الى بناء انشطتهم الملوثة في مناطق الافارقة والاقليات، لان السكان بنظر المستثمرين هم مواطنون من الدرجة الثانية. أو ان المستمرين يعتقدون ان سكان هذه المناطق معتادون على التلوث، فيعمدون الى بناء مشاريعم الملوثة فيها عن غير عمد فهم مواطنون من الدرجة الاولى لكنهم معتادون على التلوث.

بمعنى انه في الحالة الاولى فان المستثمرين يؤمن بقوانين Jim Crow ويسعون لتطبيقها رغم الغاءها اما في الحالة الثانية فان المستثمرين يطبيقونها بدون قصد وا نما اهمالا . الآ انه في كلا الحالتيتن فان هذه القوانين طبقت.

تظهر النقط الصفراء بؤر التلوث في الولايات المتحدة و التي تنتشر في مناطق الافارقة و الاقليات العرقية الاخرى.

ان انعدام الوعي وضعف تمثيل الطبقات المسحوقة، ساهم بشكل كبير في حرمانها من الوصول الى الموارد الطبيعية، و توفير ادارة بيئية سليمة في مناطق سكنهم، حيث كان الظن السائد لدى مجلس المحلي لادارة هذه المناطق، ان المشاريع الصناعية ستجلب الرخاء الاقتصادي الى هذه المناطق. الآ ان الواقع ان حجم التلوث الذي تلقيه الى البيئة، ساهم في خفض قيمية العقارات و هروب الاستثمار فضلا عن تفشي الامراض بين السكان.

بمعنى ان جذور المشكلة، ترجع الى تأصل فكرة التمييز بين افراد المجتمع، و ضرورة ان يعيش افراد معينين من ابناء المجتمع في امكان خاصة بهم. فكل طبقة او شريحة عريقة تستقر وتستوطن في مدنية معينة لتنعكس الاحوال المعيشية و الثقافية و الاقتصادية على ادارة موارد المدنية بيئيا. ليصدر بعد ذلك مرسوم العدالة البيئة المذكور اعلاه ليبدء المجتمع بمعالجة هذه الازمة.

و لعل هذا الاستنتاج، يمثل اساس المقارنة بين الحضارة العربية الاسلامية وتوجه هذه الحضارة في احتواء مفهوم العدالة البيئية. ذلك ان المجتمع العربي قبل الحضارة العربية الاسلامية و تحديدا قبل ظهور الاسلام باعتباره مؤسس تلك الحضارة كان مجتمعا طبقيا؛ يقوم على التمييز بين السادة و العبيد، و كان العبيد يعاملون معاملة سيئة و يعيشون ظروفا مزرية. فالعبيد الذين يرعون الغنم يعيشون في اماكن خاصة بيهم مما يعني احتمال تحولها الى بؤر تلوث، اما عبيد الخدمة المنزلية فهم يعيشون مع السادة الا انهم لا يصلون الى الموارد الطبيعية و لا يتمتعون بها. فلا ياكلون مما ياكل السادة و لا يشربون مما يشرب السادة و هم يعملون حتى ياذن لهم السادة بالراحة. فاذا اخذنا بنظر الاعتبار قسوة البيئة الصحراوية فان المجتمع العربي قبل الاسلام كان سيواجه كوارث بيئية ناجمة عن ظهور بؤر التلوث داخله. لقد حاول

المجتمع العربي عند ظهور الاسلام قطع الموارد عن المسلمين بهدف القضاء عليهم مما يعدّ تطبيقا قاسيا لحالة من حالات انعدام العدالة البيئية ذلك عندما حوصر الرسول محمد (صلعم) في شعاب مكة حيث حرم المسلمون من الوصول الى الموارد الطبيعية من ماء وغذاء وكان استهدافهم بناءً على ايمانهم بعقيدة معينة. و بالتالي ممارسة اعمال التمييز ضد كل من اتمنى لهذه العقيدة، مما يدل على استعداد المجتمع لممارسة التمييز و الاضطهاد البيئي الذي وصل الى حد حرمانهم من الوصول الى الموارد الطبيعية.

أما توجه الحضارة العربية الاسلامية فكان على النقيض تماما بحيث ارتكزت هذه الحضارة على المساواة في الحقوق والواجبات بين السادة و العبيد مما اتاح الفرصة امام العبيد الى الوصول الى الموارد الطبيعية و بالتالي الحيلولة دون نشوء بور التلوث في بيئة صحراوية قاسية . و هكذا كان الاسلام و تبعا له الحضارة العربية الاسلام مستوعبا لبيئته او ان جاز التعبير ابن بيئته .[٩] و لهذا كان الرسول الكريم(صلعم) يقول عن العبيد" انزلوهم حيث نزلتم و اطعموهم مما اكلتم " لقد كان ذلك جحر الزاوية لانقاذ المجتمع العربي من نشوء بؤر للتلوث داخله حيث ان الوصول الى الموارد الطبيعية وبشكل متساوي ومتاح امام الجميع و بدون تمييز هو الاساس في عدم نشوء بؤر التلوث. وهكذا تطورت فكرة العدالة البيئية مع الحضارة الاسلامية ليشهد المجتمع العربي الاسلامي انشار مفهوم الصحة و البيئة العامة واتاحتها امام الجميع، بما في ذلك انشار المرافق الصحية العامة المتاحة للجميع و انتشار طرق وقنوات تصريف المياه في المدن العربية و بعكسه فقد كان مصير المجتمع العربي الى الزوال لانهم كان قائما على حرمان فئة من المجتمع من الوصول الى الموارد الطبيعية . و انعكس ذلك في الفتوحات الاسلامية فلم يعامل المسلمون سكان البلاد الاصلية على انهم عبيد او سبايا بل سعوا الى تعليمهم و تثقيفهم و قبل كل شيئ تسهيل وصولهم الى الموارد الطبيعية و جعل هذه البلاد حواضر اسلامية لا تقل شانا عن مركز الخلافة. في حين ان دول نظام الانتداب او الاستعمار في اعقاب كلا الحربين العالميتين الاولى والثانية، لم تعمل على ذلك لانها اصلا تؤمن بفكرة طبقية المجتمع سواء اكان طبقة نبلاء او برجوازية. فقد تركت الحضارة العربية

الاسلامية خلفها الاف المفكرين و المبدعين ممن هم قادرون على ادارة الموارد البيئة ادارة بيئية سليمة. في حين ان فرنسا مثلا عندما غادرت الكونغو لم تترك فيه غير خمسة فقط ممن يحملون شهادة عليا!

كانت الدولة الإسلامية تعني بالمرافق الخدماتية والعامة بشكل ملحوظ. فكانت تقيم المساجد ويلحق بها المكتبات العامة المزودة بأحدث الإصدارات في عصرها بمعنى ان المسجد لم يكن مكانا للعبادة فقط بل كان اصبح مكانا للعلم و الثقافة المجانية و زيادة الوعي لدى المواطنين. بحيث يسهل على الفقراء وذوي الدخل المحدود الوصول الى العلم و الوعي اللازم لمعالجة مشاكلهم، والارتقاء بحالهم الى حال افضل. فالكثير من علماء المسلمين في مجال الطب ،الفلك ،الرضيات، الكيمياء ، الفيزياء و غيرها كانوا فقراء او من اعراق اخرى غير عربية و لم يحل ذلك دون وصولهم الى الموارد الطبيعية، و من ثم مراكز صنع القرار. في حين ان غياب الوعي لدى الكثير من الافارقة الامريكين حال دون وصولهم الى الموارد الطبيعية، و دون تقديرهم لحجم المخاطر البيئية. كما حال دون حصولهم على فرص عمل افضل، تمكنهم من تحسين دخلهم، و بالتالي امكانية انتقالهم للعيش مناطق تتمتع بادراة بيئية سليمة.

كما اهتمت الحضارة الاسلامية بتوفير المرافق الصحية العامة، و التي كانت متاحة امام الجميع و بدون تمييز. فضلا عن مطاعم الفقراء، حيث كانت تتميز بكل الشروط الصحية و البيئية من حيث الموقع و الخدمات، بمعنى؛ ان ذوي الدخل المحدود كانوا يعاملون معاملة افضل، تتمثل بتسهيل حصولهم على احتياجاتهم الاساسية من ماء و طعام وخدمات صحية، و لم يكن المجتمع يمارس اعمال التمييز ضدهم لان دخلهم محدود، بل كان يساعدهم وصولا لتحسين و ضعهم، و الاستفادة منهم كموارد بشرية قادرة على اغناء الحضارة العربية الاسلامية. كما اقيمت الأسبلة لتقدم المياه للشرب بالشوارع، اي ان المياه الصحية الصالحة للشرب كانت متاحة امام الجميع ودون تمييز . وكان إنشاء (المستشفيات الإسلامية) سمة متبعة في كل مكان بالدولة الإسلامية يقدم بها الخدمة المجانية من العلاج والدواء والغذاء ومساعدة أسر المرضي الموعزين .و كان الهدف من إنشاء هذه المستشفيات غرضا طبيا وعلاجيا بمعنى ان المجتمع لم يكن يمييز ضد ابناءه لانهم من ذوي الدخول

المحدودة، أو لانهم ضعاف البنية، من خلال معاملتهم معاملة ادنى، بل كان يدعمهم و يسهل امامهم فرص الوصول الموارد الطبيعية و العيش في بيئة سلمية تسهل امامهم سبل الارتقاء [١٠]. ان عدم تمييز الحضارة الاسلامية بين الاعراق و الجنسيات التي انظوت تحتها ادى الى عدم خلق بؤر للتلوث تنخرها من الداخل، و تضعف بنية ابناءها و تؤدي بالتالي الى نضوب مواردها[١١]. كما اهل هذه الحضارة الى الاستفادة من كل الموارد البشرية المتاحة لها من مفكرين وعلماء و ادباء لاغناء هذه الحضارة.[١٢]

. وكان الهواء يبرد في المستشفيات بتوفير المياه او بالملاقف الهوائية، بمعنى؛ ان الحضارة الاسلامية كانت تعي اهمية نوعية الهواء، وبالذات للمرضى، لانهم في حالة صحية اضعف من غيرهم، و بالتالي لابد من حصولهم على عناية اكبر. ذلك ان المجتمع العربي الاسلامي، كان يساند الفئات الضعيفة داخله، بتسهيل وصولهم الى الموارد الطبيعية، و تهئية بيئة سلمية امامهم للاستفادة من مواردهم البشرية .

مقتضيات تطبيق العدالة البيئية

تفرض العدالة البيئية جملة من التطبيقات العملية التي تجعل من هذا المفهوم قاعدة قانونية تطبقها المؤسسة البيئية في عملها

– معادلة التمييز : فكما ان هذه الشريحة من المجتمع تحملت عبء التلوث لوحدها و حرمت من الموارد الطبيعية، فان العدالة البيئية؛ تقتضي توفير اقصى درجات العناية ممثلة باتخاذ كل ما من شانه وقف التدهور الحاصل في بيئة هذه المناطق. سواء ان تمثلت هذه الاجراءات بمنع و ايقاف التلوث الحاصل في بيئة هذه المناطق؛ وهذا ما يعرف بالنطاق السلبي لمفهوم العدالة البيئية، حيث يسند هذا النطاق في جوهره الى المنع. اما النطاق الايجابي؛ لمفهوم العدالة البيئية فهو اتخاذ كل اجراء يقوم على تحسين حالة البيئة في هذه المناطق سواء اكان اجراء معنويا، كالقيام بحملات توعية وارشاد بيئي تساعد السكان على التعامل مع البيئة المتضررة التي يعشون فيهاز او اجراء ماديا؛ كان تقوم المؤسسة البيئية بترحيل المشاريع الملوثة أ و اغلاقها.

- ضمان التمثيل : فكما ان هذه الشريحة حرمت من المساهمة في صنع القرار البيئي، الذي ادى الى اضطهدهاز فيجب على المؤسسة البيئية،ضمان حسن تمثيل هذه الشريحة عند اتخاذ القرار البيئي الخاص بمناطق عيشها. حيث يجب ات تكون هذه الشريحة ممثلة عند اتخاذ القرار، كما يجب ان تكون ممثلة عند تطبيقه، لتكون اعلى مراحل التمثيل، هي مساهمة هذه الشريحة في تنفيذ القرار البيئي مما ينجم عنه خلق قاعدة شعبية للمؤسسة البيئية تمكنها من تحقيق افضل حماية بيئية ممكنة . ذلك ان حماية البيئة، لا يمكن ان تحقق بدون مساهمة فاعلة من المجتمع، تتمثل في استعاب القرار البيئي و صولا لسلامة تطبيقه. حيث يتمييز القرار البيئي عن غيره من القرار بكونه يخاطب المجتمع – على اختلاف طبقاته– فلو افترضنا مثلا ان المؤسسة قررت عدم السماح باقامة مشروع معين لكونه مخالفا للشروط البيئية، فان المؤسسة البيئية تخاطب المجتمع بان هذه المشروع يؤثر سلبا على صحة المواطنين ككل في حين ان اي قرار اخر لا يتضمن مثل هذا المعنى او المضمون [١٣] .

و هكذا؛ فكلما تمكن افراد المجتمع من فهم القرار البيئي والتفاعل معه، كلما تمكنت المؤسسة البيئية من تحقيق ادارة افضل للموارد البيئية. ليتوصل المجتمع بعد ذلك الى تنمية موارده بشكل يمكن معه للاجيال القادمة الاستفادة من هذه الموارد و هذا ما يعرف بالتنمية المستدامة.

نتائج و توصيات لاعادة تبني مفهوم العدالة البيئية عربيا

اعتبار مفهوم العدالة البيئية اساسا للنهوض بالمناطق التي تقطنها الغالبية الفقيرة والمسحوقة : من الغني عن البيان ان المجتمع العربي يخلو من اي نظرة تمييزية تجاه ابناءه. الا ان التحدي الاكبر الذي تواجهه الكثير من المؤسسات البيئية العربية هو كيفية ايصال الخطاب البيئي و من ثم النهوض بالبيئية في المناطق التي تقطنها غالبية عظمى ممن يعيشون تحت خط الفقر. حيث يعاني هذه الشريحة من مشاكل مركبة تتمثل في قلة وعيها بالمخاطر البيئية، فضلا عن ضعف ان لم يكن انعدام مواردها المالية التي تمكنها من الارتقاء بوضعها.

في حين ان بقية شرائح المجتمع قادرة على مواجهة مشاكلها البيئية بشكل افضل، لكونها تمتلك المعرفة اللازمة، فضلا عن امتلاكها للمقدرة المالية اللازمة – و ان كان ذلك يتفاوت من شحص لاخر–

الا ان الشريحة التي تعيش تحت خط الفقر، تبدو بموقف ومركز الضعيف تجاه اية مشكلة بيئية خاصة مشاكل تغيير المناخ [١٤] . فهذه الشريحة لا يملك المعرفة و المكنة اللازمة لمواجهة المشاكل البيئية. ليقع على عاتق المؤسسة البيئية و باعتماد مفهوم العدالة البيئية تقدم اقصى درجات العناية و الدعم لهذه الشريحة؛ بدءا من برامج التوعية والتثقيف البيئي، بشكل يساعد هذه الشريحة على مواجهة مشاكلها البيئية وايجاد حلول لها. حيث تحول المعرفة والتثقيف البيئي دون " توريث " الجهل او عدم الوعي البيئي الى جيل اخر، فاذا كانت الاسرة لا تعِ اهمية و ضرورة الحفاظ على البيئة، فان هذا السلوك سنقل الى الجيل الثاني في هذه العائلة، لينشئ و على المدى الطويل جيلا غير واعي بضرورة وجود مياه صحية و ضرورة اتخاذ الاجراءات اللازمة للحفاظ على مصادر المياه .

لتبدء المؤسسة البيئية بعد ذلك ببرامج النهوض بهذه المدن و و الحيلولة دون تحولها الى بؤر للتلوث تستهلك موارد الدولة الطبيعية من خلال اعتماد المعايير البيئية التي تحدد من الاثر المضاعف للتلوث . فضلا عن جعل هذه المدن في مقدمة خطط التنمية و التحديث .

حيث لا يمكن المباشر بخطط التنمية بمعزل عن تعاون هذه الشريحة و اشراكها في عملية صنع القرار البيئي ووصلا للنهوض ببيئتها وألا فان بؤر التلوث ستغزو البيئة العربية.

[١] Kathryn M Mutz, Gary C Bryner, Douglas S Kenney , Justice and Natrual Resources ; Concepts , Strategies, and Applications, Island Press, ٢٠٠١, P٣٢

[٢] لا يقصد من اعتبار الحق في بيئة نظفية الجيل الثالث لحقوق الانسان ان هذا الخق ادنى منزلة من الحقوق المدنية والسياسية بل يقصد منها ان الحق في بيئة نظفية هو الاكثر حداثة من بين حقوق الانسان ككل. انظر:

Christopher. H. Foreman, The Premise and Peril of Environmental Justice, Brookings Institute Press, Washington .٣٠, P.١٩٩٨DC,

Rich Anand, International Environmental Justice; A North – [٣]
٩, P.٢٠٠٤South Dimension, Ashgate Publishing, Ltd,

http://en.wikipedia.org/wiki/Environmental_justice[٤]

V H Dale, M R English, Tools to Aid Environmental [٥]
٣٤٢, P.١٩٩٨Decision Making, Springer,

Luke Cole, Sheila Foster, From the Ground Up: [٦]
Environmental Racism and the Rise of the Environmental
١١, P.٢٠٠٠Justice Movement, NYC Press,

http://en.wikipedia.org/wiki/Jim_Crow_laws[٧]

انظر ايضا

Michael. J. Klarman, From Jim Crow to Civil Rights: The Supreme Court and the Struggle for Racial equality, Oxford ٥٩, P.٢٠٠٣University Press US,

Bunyan I Bryant, Environmental Justice, issues, policies, and [٨]
٥, P.١٩٩٥solutions ,Island Press, Washington ,

[٩] كان نشوء بؤر التلوث في روما –على عظمتها سببا من اسباب انهيارها حيث كان الاسياد يضطرون الى حمل الازهار و الرياحين و تقريبها من انوفهم هربا من الروائح العفنة التي كانت تنجم عن سؤء الادارة البيئية لروما و من بينها اضطهاد العبيد و لعل ثورة العبيد من اشهر الحوادث التاريخية في تاريخ روما

[١٠] كان أول مستشفي في الإسلام بناه الوليد بن عبد الملك سنة٧٠٦ م (٨٨ هـ) في دمشق. وكان الخلفاء المسلمون يتابعون إنشاء المستشفيات الإسلامية الخيرية بإهتمام بالغ. ويختارون مواقعها المناسبة من حيث الموقع والبيئة الصالحة للإستشفاء والإتساع المكاني بعيدا عن المناطق السكنية . وأول مستشفى للجذام بناه المسلمون في التاريخ سنة ٧٠٧ م بدمشق.

[١١] لم تستطع روما على عظمتها ان تصمم نظاما جيدا للتخلص من مياه المجاري مما ادى الى انتشار الملاريا بين السكان في العهد الجمهوري و اللامبرطوري و الحديث. حيث كانت قنوات المجاري تحمل الفضلات و مياه الامطار معا و تخترق المدنية بحيث تمر المجاري الملوثة من بين الاحياء السكنية ليكون السكان على تماس معها لتصب مباشرة في نهر Tiber الذي لم يكن يستعمل للسباحة و الاغتسال فقط بل لاغراض مياه الشرب ايضا. بل كانت مياه نهر Tiber تحتوي على نفايات صلبة و معادن ثقيلة حيث تظهر تقارير رسمية انظر http://penelope.uchicago.edu/Thayer/E/Gazetteer/Places/Europe/ *.html٣Italy/Lazio/Roma/Rome/_Texts/Lanciani/LANARD/

[١٢] كانت أوربا تنظر إلى الجذام مثلا ليس على انه مرض ناجم من عدم توافر الشروط الصحية البيئية بل على إنه غضب من الله يستحق الإنسان عليه العقاب حتى أصدر الملك فيليب أمره سنة ١٣١٣ م بحرق جميع المجذومين في النار بمعنى ان الفئة الضعيفة كانت "تعاقب" بممارسة اعمال التمييز ضدها بدلا من ان تقدم لها الخدمات اللازمة و الرعاية المطلوبة لتجاوز سبب ضعفها و بالتالي الاستفادة من قدراتها و الحيلولة دون هدر الموارد البشرية و ضياعها. انظر ٨D%٧A%٨D%٦B%٨AD%D%٨http://ar.wikipedia.org/wiki/%D %٩D%٧A%٨D%٨٤%٩D%٣B%٨D%٥A%٨_%D٩A%٨D%١B% ٩A%٨A%D٨%٩D%٨٥

[١٣] رغم ان القاعدة القانونية عامة مطلقة و بالتالي القرار المستند لها عاما مطلقا الا ان القاعدة التي تفرض التجنيد الالزامي مثلا فهي على عموميتها الا انها تنطبق على كل من اكمل الثامنة عشر من الذكور ليستثنى من دائرة الخطاب الطفل ، الحدث ، المرأة ، المسن والمعاق في حين ان لا يمكن استثناء احد من القرار البيئي لان ذلك يعني ترك المستثنى دون حماية من اخطار التلوث او الحيلولة دون وصوله الى الموارد الطبيعية.

[١٤] انظرالتقرير الرسمي للحكومة البريطانية منشور في .stm٤٨٣٩٨٣٤/hi/sci/tech/١http://news.bbc.co.uk/

انظر ايضا =http://www.peopleandplanet.net/doc.php?id٢٥٥٣

كما يمكن الاطلاع على برامج المنظمات غير الحكومية الناشطة في هذا المجال منها

============

#الحضارة الإسلامية

كانت أول خطوة خطاها الإنسان في اتجاه الحضارة هي اكتشاف الزراعة ، وتدجين الحيوانات وكان ذلك من أسباب الاستقرار مما أدى إلى التطور .

بدأت الحضارة الإسلامية مع بزوغ فجر الإسلام في القرن السابع الميلادي ، وبدأت في الانتشار فامتدت من حدود الصين شرقاً إلى بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) وغرباً حتى أسبانيا وصقلية .

قامت الحضارة الإسلامية على (الشريعة) ، وتعني الشريعة لغة الطريق المستقيم ، ويقصد بها ما شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده من الأحكام التي جاء بها أنبياء الله عليهم السلام ، وتتناول جوانب العقيدة والعمل – يقول تعالى : { ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها.. }.

أما الفقه الإسلامي فيقصد به مجموعة الأحكام العملية التي شرعها الإسلام مستمدة من المصادر النقلية والعقلية المعتمدة وفق قواعد الاستنباط ومبينه له . ويعني في اللغة الفهم ، والفقيه هو الذي يعلم الأحكام الشرعية القادر على استنباطها من الأدلة التفصيلية .

الشريعة الإسلامية كغيرها من الرسالات السماوية إلهية المنشأ والمصدر وهي خاتمة الرسالات ، ومصدرها القرآن الكريم الذي هو كلام الله و وحيه المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم وقد حفظه الصحابة ، وهو محفوظ بحفظ الله ، والقرآن قطعي الثبوت .

تأتي بعد ذلك السنة النبوية المطهرة ، وهي المصدر البياني للقرآن ، تبين ما أجمله القرآن من أحكام فتقيد المطلق وتخصص العام ، ويؤكد صاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام بقوله وفعله جميع الأحكام التي شرعها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ، يقول عز وجل: { والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن

الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى }.

مقومات الحضارة الإسلامية

قامت الحضارة الإسلامية على هدي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، ويترتب على هذا أنها تتميز بالثبات ولا تتأثر بالعوامل أو الظروف والمؤثرات الاجتماعية والثقافية .

تخاطب الشريعة الإسلامية المكلفين في كل مكان وزمان وتنظم كافة جوانب الحياة البشرية ، ومن هنا كانت حضارة لها ملامحها المميزة ولها خصوصيتها وطابعها .

لم تكن حياة البشرية قبل الإسلام تختلف كثيراً رغم الفرق الهائل في مستوى الرقي الذي بلغته الإنسانية اليوم ، فقد كانت حياة العرب في الفترة التي سبقت ظهور الإسلام والتي عرفت بالجاهلية تتسم بالغلو في الحريات وغلبت عليها الماديات فكان الإنسان سلعة رخيصة يسفك دمه ويهدر عرضه من أجل نزوة عابرة وها نحن اليوم نعيش ذات العصر ولكن بأسلوب علمي متقدم .

جاء الإسلام وهو الخبير بعلل النفس البشرية المدرك لنزعاتها ، البصير بكيفية إعادتها إلى الاتزان والعقلانية فقادها إلى شاطئ الأمان بإحياء الجانب الروحي الذي كان كامناً في أعماقها محاصراً بنوازع الشر ودوافع الغرائز الجامحة .

كما أن الإسلام وازن بين المادة والروح ، فهذب الطباع القاسية ، وطهر القلوب الدنسة ، وارتفع بفكر الإنسان وعقله ، داعياً إلى القيم الفاضلة والمبادئ الراقية العظيمة ، لا إفراط في الحريات وإشباع الرغبات ، ولا رهبانية وانقطاع للعبادة وإهمال للدنيا . يقول تعالى { وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس } { كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله } { ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا } .

كان الإسلام دعوة إلى وحدة العقيدة ووحدة الأمة { إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون } وكان دعوة إلى السلام النفسي والاجتماعي فكان المجتمع المسلم المترابط المتعاون على البر والتقوى ..... { وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان } . { وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون } ، المتحاب

المتآلف { مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسم إذا أشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى }.

الدين الإسلامي ليس مجرد عقيدة وإن كانت هي الأساس الراسخ القوي الذي قام عليه بناء الأمة المسلمة لكنه جوهر الوجود الإنساني الذي يدعو إلى الاعتقاد بوجود الإله الواحد الأحد الذي أبدع كل شيء وخلقه { قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار } ، { ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه }. { لو كان فيهما ءالهة إلا الله لفسدتا } .

جاء الدين الإسلامي دستوراً لحياة المسلم فهو يدعو إلى الحياة الاجتماعية الفاضلة القائمة على الأخوة المطلقة فلا فضل لمسلم على آخر إلا بالتقوى ... { إن ربكم واحد ،وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى }.

حث الإسلام على احترام حياة الإنسان حياً وميتاً وحرم دمه وماله وعرضه ... { إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ألا هل بلغت }.

أبان الدين الإسلامي الحلال من الحرام { قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون } . ونظم شئون حياة الفرد وعلاقته بالجماعة وحث على التعليم .

وكان الإسلام بداية تحول حضاري ، وأصبح العرب بفضله أسبق حضارة ، فقد عرفوا النظام الاجتماعي الراقي ، ونظام الحكم الديمقراطي العادل ، فأمنوا واستقروا في وقت كان فيه العالم يعيش في عصور الظلم والإقطاع بكل قسوتها وغلظتها وبشاعتها واستغلالها.

إذا كانت الحضارات هي خلاصة جهود بشرية وتجارب إنسانية واجتهادات فردية فقد نتج عنها تراث روحي وعقلي وخلقي ، وكان هدفها سعادة الإنسان ورفاهيته ، وقد ارتبطت معظم الحضارات بالعنصر الروحي ، ومن أبرز خصائص الحضارة الإسلامية أنها لا ترتبط بالعنصر الروحي فحسب ، بل هي نتيجة له .

أمد الإسلام العالم بالحضارة ومهد له الطريق إلى الوصول إلى ما هو عليه اليوم فما هي مقومات هذه الحضارة الإنسانية الرائدة ؟

١- نظام الحكم :

يقوم نظام الحكم في الحضارة الغربية على الديمقراطية ورغم التطور الهائل الذي طرأ على هذه الممارسة ، فلا زالت تعيش أزمة ،لأن تطبيقها ومفهومها يختلف باختلاف المبدأ الذي يعتنقه صانعوا السياسة – وقد غدا الخروج عن الديمقراطية كأسلوب في الحكم مثار استنكار لأن الديمقراطية أصبحت سمة من سمات الحضارة والرقي .

وإذا كانت الديمقراطية كنظام حكم يخضع للمعتقد السياسي – فإن الإسلام قد ابتدع نظاماً للحكم يرتبط بالعقيدة الإسلامية وهذا ما يميزه بالثبات والاستقرار ويكتب له البقاء ، هذا النظام هو نظام الشورى ، وهو الذي يعطي الفرد حق المشاركة في صناعة القرارات المهمة وهي ليست حقاً فحسب بل فريضة ....

{ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين } .

ويقول تعالى :{ وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون } ويقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: "إن أمتي لا تجتمع على ضلال" ، بل جعل الإسلام الشورى فلسفة وسياسة المجتمع المسلم ... { إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه } ، { ومن استشاره أخوه المسلم فأشار عليه بغير رشد فقد خانه }.

٢- العدل :

العدل أسم من أسماء الله عز وجل، والعدل هو مقصد الشريعة الإسلامية الأول – والعدل هو الحق وتجاوزه هو الظلم – والعدل فريضة { وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل} { وقل ءامنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم } والعدل فريضة على الكافة حكاماً ومحكومين ، فبه تستقيم الأمور ، وأمر به الإنسان في أهل بيته ، يقول تعالى { يا أيها الذين ءامنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلو هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون } .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى هو العدل المطلق فقد حرم على نفسه الظلم ونهى عنه – يقول تعالى في الحديث القدسي { إني حرمت الظلم على نفسي وعلى عبادي ألا فلا تظالموا } ولقد جاء القرآن الكريم حافلاً بالآيات الناهية عن الظلم .

العدل الإسلامي يشمل الحياة السياسية والاجتماعية والعدل هو العاصم من كل شر وهو ضرورة إنسانية ، وفريضة قرآنية وسنة نبوية ومعيار حضارة اجتماعية ، فأي حضارة قدسته وأي حضارة أعلته ووضعته في هذه المكانة إنها الحضارة الإسلامية . يقول تعالى : { إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون }.

٣- العلم :

العلم ضروري لأي حضارة أو نهضة – وقد أدت الحضارة الإسلامية بفتوحاتها العلمية إلى الازدهار الذي بلغته الإنسانية ، فقد كان للإنجازات العلمية في مختلف فروع العلم والمعرفة أثرها في إضفاء الصبغة العقلانية التي تميزت بها الحضارة الإسلامية .

وأول آية نزلت على نبي هذه الأمة عليه أفضل الصلاة والسلام { اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم }.

كانت هذه الآيات مثابة إعلان عن تاريخ ميلاد مرحلة من مراحل تطور الإنسان وبداية فتح في مجال العلم وتدل دلالة لا تقبل الشك على وجوب العلم وضرورته للإنسان لما فيه من صلاح حال الدنيا والدين ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم { مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء ، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة } ، ويقول عبدالله بن عمر رضي الله عنه: مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلسين في مسجده ، فقال { كلاهما خير ، وأحدهما أفضل من صاحبه ، أما هؤلاء (أهل مجلس العبادة و الذكر) فيدعون الله ويرغبون إليه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما هؤلاء (أهل مجلس العلم) فيتعلمون الفقه والعلم ، ويعلمون الجاهل فهم أفضل وإنما بعثت معلماً' ثم جلس بينهم.

جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تدل على فضل العلم والعلماء ...

{ كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون } ، { قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب } والعلم هو سبب الإيمان وسبيل التصديق بالدين ، { إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور } ، قال صلى الله عليه وسلم { من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله له طريقاً من طرق الجنة فإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن طالب العلم ليستغفر له من في السماء والأرض حتى الحيتان في الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ، وإن العلماء هم ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر }.

العلم في نظر الإسلام ليس فقط علوم الشرع والدين بل يشمل العلوم الدنيوية التي ترقى بالإنسان ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم { ما كان من أمر دينكم فالي ، وما كان من أمر دنياكم فأنتم أعلم به }.

برع المسلمون في شتى أنواع العلوم وتجلت عبقريتهم في علوم الطب والفلك والرياضيات ، والكيمياء والبصريات ، ومن علماء المسلمين الشيخ الرئيس أبو علي ابن سيناء ، وجابر بن حيان ، وأبو بكر محمد الرازي ، وأبو الوليد محمد بن رشد ، وأبو بكر محمد بن الصائغ (إبن باجة) ، وعبدالله بن أحمد بن البيطار ، وأبو مروان عبدالله بن زهر وغيرهم .

كان المسلمون رواداً في علم الفلك وكانوا أول من انشأ المراصد الفلكية لمعرفة حركة النجوم ، وقد بنوا في العصور الوسطى عدداً هائلاً من المراصد الفلكية كبيت الحكمة الذي بناه الخليفة المأمون في ٢١٨هـ الموافق ٨٣٣ م ، كما وضعوا معظم المصطلحات الحديثة المستخدمة اليوم في علم الفلك ، ويحتوي متحف تاريخ العلوم في إكسفورد على المعدات الفلكية التي صنعها المسلمون وهي تكشف مدى ما وصلت إليه الخبرة الإسلامية الرفيعة في هذا المجال كما كانوا أول من وضع جداولاً دقيقة عن حركة النجوم – ومن العلماء المشهورين في هذا المجال أبو عبدالله البتاني ولا زالت تحمل أسمه حتى اليوم (Albategnius).

تطورت العلوم بفضل علماء المسلمين ، وقد ازدهرت العلوم اليوم وبلغ الإنسان مرحلة من العلم في مختلف المجالات حتى وصل الفضاء ، بفضل من الله ووحيه ، ورغم كل ذلك يظل حظه من العلم قليلاً يقول تعالى { ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أتيتم العلم إلا قليلا }.............. وسيفتح الله على الإنسان آفاق العلم والمعرفة حتى يرث الله الأرض ومن عليها يقول تعالى : { سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ، ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط }.

ملامح للحضارة: الإسلامية

للحضارة الإسلامية ركائز ودعامات كثيرة ساهمت في بلوغها هذه المرتبة العظيمة ، من بين هذه العوامل حق الفرد في المجتمع المسلم في المساواة ، فلا طبقية في الإسلام كلهم لآدم وآدم من تراب ، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والناس سواسية كأسنان المشط – كما أعلى الإسلام من شأن الحرية .

بهذه المبادئ والمثل صنع الإسلام أمة جديدة من العرب وصب أوضاعها الاجتماعية المتردية في قالب سماوي فتحول التفكك ترابطاً ، والغلظة وسوء الخلق رقة وأدبا ، وحلت الفضيلة مكان الرذيلة ، فكانت أمة الخير .... { كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله } ، بهذه القيم ساد العرب، وبها حرروا العالم وأدخلوه في دين الله الحق وأخرجوه من ظلام الكفر وظلام الجهل .

اهتم الإسلام بالاقتصاد فحرره من الاستغلال وجعله وسيلة تآلف وتوادد وتراحم ، حرم المعاملات الربوية ، والاحتكار وفرض للفقراء نصيباً في أموال الأغنياء وحث على الصدقة والبر وفعل الخيرات . { خذ من أموالهم صدقة تتطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم } ، { وفي أموالهم حق للسائل والمحروم } .

قوم الإسلام الأخلاق وأعطاها حيزاً كبيراً وخصها بقدر كبير من التنظيم حين خلَّق رسول الهدى صلى الله عليه وسلم بالخلق العظيم ....{ ن ، والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجراً غير ممنون ، وإنك لعلى خلق عظيم} ، { ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك }. قال النبي صلى الله عليه وسلم : (

إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق }، ويقول صلى الله عليه وسلم { أحب عباد الله إلى الله أحسنهم خلقاً }.

ومما يدخل في صياغة المجتمع المسلم تربية النشء ، وتنظيم معاملات الأفراد من حق الجار ، وحق المريض ، وحق الطريق، وخروج المرأة وزيها ، وغيرها من قواعد السلوك القويم ، كل هذه القيم وغيرها كانت أساس الحضارة الإسلامية الرائدة .

الصناعات والفنون :

ازدهر الفن الإسلامي كأثر من آثار الحضارة الإسلامية وقد ظهرت عدة صناعات أخذت حظها من الشهرة لروعتها ، وكان الخزف الإسلامي من تلك الفنون التي كانت أساساً للصناعات الغربية في هذا المجال كما برزت صناعة الزجاج في العصر الفاطمي وتقدمت تقدماً كبيراً ، ولا زالت بعض الصناعات موجودة حتى الآن في أوروبا .

ظهرت أيضاً صناعة الحديد وقد أبدع المسلمون في زخرفته ، هذا بالإضافة إلى صناعة النسيج الذي غطت شهرته أوربا في العصور الوسطى حتى أصبحت للمنسوجات أسماء شرقية وأخذت بعضها إسم المدينة التي صنعت فيها ، كما ظهر إبداع المسلمين في صناعة السجاد وقد تعلمه الغرب من المسلمين .

امتدت رقعة الدولة الإسلامية إثر الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين ، فقد دخل المسلمون الشام والعراق وبلاد الأندلس وامتد نفوذ الدولة الإسلامية إلى السند وسمرقند وبخارى وشمال أفريقيا وكان لهذا الفتح أثره فقد تلاحقت الحضارة الإسلامية مع بعض الحضارات التي كانت قائمة ، وبرز أثر ذلك في مجال الفن المعماري .

أزدهر الفن الإسلامي وغدا له طابعاً مميزاً ولا يقتصر الفن على المعمار فقط بل يعتبر الخط العربي فناً رفيعاً ، وقد تنوعت أشكاله وطرق رسمه فمنه الكوفي ، والنسخ ، والرقعة والثلث ، والمغربي ... وتجلى هذا الفن الإسلامي الرفيع في كتابة المصاحف وزان المساجد .

نأى الفن الإسلامي عن التجسيم لحرمته ولهذا اتجه إلى الإبداع في الزخرفة مستفيداً من أشكال الحروف العربية ، وعمد الأشكال الهندسية فخرج للعالم بفن حمل مقومات البقاء واستحق الإعجاب واكتسب شهرة عالمية بروعته وسحره .

العمارة الإسلامية والمسجد :

برزت العمارة الإسلامية باعتبارها فناً متميزاً له طابعه الذي يعبر عن خصوصيته ، وهو يبعث في النفس هدوءاً وسكينة فترتاح العين لرؤيته ويأخذ النفس بعيداً لتسبح في الأجواء الروحية لارتباطه بالعقيدة الإسلامية السمحة .

ويعتبر المسجد محور العمارة الإسلامية وتشهد بذلك معظم المساجد، ومن أروع النماذج قبة الصخرة في بيت المقدس التي ظلت وستظل مصدر إعجاب ورمزاً لروعة الفن المعماري الإسلامي.

مما سبق نجد أن الحضارة الإسلامية هي حضارة روحية مادية متوازية مصدرها إلهي تمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة ، وحضارة هذا شأنها كان لا بد وأن تترعرع في كنف المسجد الذي يعتبر مصدر إشعاع علمي ومدرسة أخلاقية تربوية ومكان عبادة .

أدى المسجد دوراً مهماً في حياة المسلمين وهو الذي بعث هذه الأمة وانتشلها من وهدة التخلف والجهل لم يكن للدولة الإسلامية برلمان إلا المسجد فيه تؤدى الصلاة وفيه تدرس العلوم وفي تربى النفوس وتهذب وفيه يقضى بين الناس في حوائجهم وفيه تنظر مظالمهم ، وفيه تتم البيعة للخلفاء وحكام المسلمين ، وفيه تتخذ كل القرارات الخطيرة ، ولهذا فالحضارة الإسلامية هي حضارة المسجد ، ومن هنا نجد أن المسلمين يسارعون في بناء المساجد وإعمارها ، يتسابقون في تزيينها والاهتمام بها لارتباطها بحياة المسلم .

في إطار الاهتمام بتلك الأماكن المقدسة لجأت بعض الدول إلى توثيقها وأصدرت المؤلفات التي توضح أعدادها ، وتبرز الفن الرائع لزخارفها ، ذلك لأن المسجد رمز لحضارة المسلم القائمة على المعتقد المبنية على التوحيد .

لقد كان الإسلام ثورة على المفاهيم والمعتقدات الفاسدة ، حرباً على الهبوط الأخلاقي والاجتماعي تنظيماً للحياة الاقتصادية وتحريراً لها من الاستغلال وتطهيراً من الجشع

والطمع ، ضبطاً لشهوات ونزوات الأفراد فكان حضارة رفعت من قدر الإنسان وأعلت من شأن القيم الفاضلة ، كانت شعاعاً في عصور الظلمة والإقطاع ، ونوراً أضاء ظلمات الجهل والضلالة ، وأبعدت الغلو ونبذته ونهت عنه ودعت إلى الوسطية كسلوك ومنهج حياة .

انبثق ذلك النور الإلهي في القرن السابع الميلادي فصان الحقوق ونهى عن الظلم وعن أخذ الناس بالشبهات وساوى بين الطبقات وأمر بالعدل في كل تصرف حتى بين الزوج وزوجه والولد وأبيه – فمتى كانت أول وثيقة عالمية لحقوق الإنسان ، كانت في ديسمبر سنة ١٩٤٨م ، فمن أسبق حضارة ؟

هذه هي حضارتنا ..

{ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا}.

بقلم الطالب / إسماعيل الخضراوي

=============

#خصائص الحضارة الإسلامية

اعتمدت الدولة العباسية– كما أسلفنا– علي شعوب البلاد المفتوحة. وكانت هذه الشعوب عريقة في حضارتها، فهناك الحضارة الساسانية التي سادت العراق وفارس، وكانت تحتفظ بتراث أسيوي خاص ساهمت في تكوينه الحضارتان الصينية والهندية بنصيب وافر. وهناك الحضارة البيزنطية التي سادت في الأقطار المطلة على حوض البحر المتوسط، وهي حضارة ذات أصول يونانية شرقية، لأن البيزنطيين والرومان من قبلهم، كانوا تلاميذ لليونان، وكانت الإسكندرية وحران والرها ونصيبين وإنطاكية من أهم مراكز الثقافة اليونانية الرومانية.

فالعرب، رغم تراثهم العريق القديم الذي تمثل، في حضارات معين وسبأ وحمير في بلاد اليمن، وحضارة الحجاز التي اشتهرت بنشاطها التجاري والديني، إلا أنهم وجدوا في البلاد التي فتحوها حضارات متطورة راقية، لها إدارات حكومية منظمة، ونظم اقتصادية متفوقة في الزراعة وأعمال الري والصناعة، وفي ميادين العلوم العقلية والتجريبية كالرياضيات والفلك والفيزياء، فاغترفوا منها بما يتفق مع تقاليدهم وعقيدتهم.

وهكذا نرى أن الدولة العباسية باعتمادها على هذه الشعوب، عملت على مزجها وصهرها في البوتقة الإسلامية. وهذا الاتحاد هو السر في تلك النهضة العلمية العجيبة التي امتدت من، قيام الدولة العباسية إلى نهاية القرن الرابع الهجري. فان كان للدولة العربية الإسلامية في صدر الإسلام، فضل الفتوح والانتشار والاتصال بالحضارات القديمة مما أدى إلى ظهور المنابت الأولى للحضارة الإسلامية في أواخر عهدها، فإن للدولة العباسية فضل رعاية هذه المنابت الحضارية والعمل على تنميتها وازدهارها. فالمسلمون نقلوا وترجموا وعربوا هذا التراث القديم إلى لغتهم العربية حتى إذا ما استوعبوا ما نقلوه، أخذوا ينتجون ويبدعون ويضيفون، حتى قدموا للعالم ما عرف بالحضارة العربية الإسلامية، وهي الحضارة التي توفرت لها تلك المزايا الثلاث التي لا تتوفر إلا في الحضارات الكبرى وهي: ا لامتياز، والأصالة، والإسهام في تطور البشرية.

لهذا أجمع العلماء علي أن الحضارة الإسلامية تحتل مكانة رفيعة بين الحضارات الكبرى التي ظهرت في تاريخ البشرية، كما أنها من أطول الحضارات العالمية عمراً، وأعظمها أثراً في الحضارة العالمية.

وتبدأ هذه النهضة الحضارية في العراق بعد أن أسس الخليفة العباسي "أبو جعفر المنصور" مدينة بغداد

(١٤٥- ١٤٩ هـ) وجعلها عاصمة لدولته، ومقراً للخلافة العباسية صاحبة السلطان الشرعي على جميع الأقطار الإسلامية. فهي لم تكن مثل الفسطاط أو دمشق أو قرطبة، عاصمة قطر بعينه، بل كانت عاصمة العالم الإسلامي كله. ولهذا صارت مدينة دولية COSMOPOLITE واكتسبت صفة عالمية، وسكنتها عناصر من مختلف الأجناس، والملل والنحل، إسلامية وغير إسلامية، فهناك الفرس والهنود والسريان والروم والصينيون وغيرهم. وكل هذه العناصر لم تسكن بغداد بأشخاصها فقط، بل بثقافاتها وتجارتها وعلمها وفنها، فعربت ألفاظ يونانية وفارسية وهندية كثيرة. وترجمت عن اليونانية "حكم سقراط وأفلاطون وأرسطو، وظهرت كتب الأدب العربي مثل عيون الأخبار لابن قتيبة، والبيان والتبيين للجاحظ.

وفي خلافة أبي جعفر المنصور (١٣٦- ١٥٨ هـ) ترجمت بعض أعمال العالم السكندري القديم بطليموس القلوذي CLAUDIUS PTOLOMY (ت. ١٧ م)، ومن أهمها كتابه المعروف، باسم "المجسطي ". واسم هذا الكتاب في اليونانية ' EMEGAL MATHEMATIKE) ، " أي الكتاب الأعظم في الحساب. ويبدو أن المسلمين حولوا لفظ MEGALE في مجال إلى" مجسطي ". والكتاب عبارة عن دائرة معارف في علم الفلك والرياضيات. وقد أفاد منه علماء المسلمين وصححوا بعض معلوماته وأضافوا إليه.

وعن الهندية، ترجمت أعمال كثيرة مثل الكتاب الهندي المشهور في علم الفلك والرياضيات، "براهمسبهطسدهانت " وتختصر بسد هانتاSiddhanta أي " المعرفة والعلم والمذهب ". وقد ظهرت الترجمة العربية في عهد أبي جعفر المنصور بعنوان "السند هند" وهو تحريف للعنوان الأصلي. ومع كتاب "السند هند" دخل علم الحساب الهندي بأرقامه المعروفة في العربية بالأرقام الهندية فقد تطور على أثرها علم العدد عند العرب، وأضاف إليها المسلمون نظام الصفر، والذي لولاه لما فاقت الأرقام العربية غيرها من الأرقام،ولما كان لها أية ميزة، ولما استطعنا أيضاً أن نحل كثيراً من المعادلات الرياضية من مختلف الدرجات، فقد سهل استعماله لجميع أعمال الحساب، وخلص نظام الترقيم من التعقيد، ولقد أدى استعمال الصفر في العمليات الحسابية إلى اكتشاف الكسر العشري الذي ورد في كتاب مفتاح الحساب للعالم الرياضى؟ المسلم، جمشيد بن محمود غياث الدين الكاشي(ت ٨٤٠ هـ١٤٣٦ م)، وكان هذا الكشف المقدمة الحقيقية للدراسات والعمليات الحسابية المتناهية في الصغر، لقد كانت الأرقام العربية بصفرها وكسورها العشرية بحق هدية الإسلام إلى أوروبا. ومن هذا الكتاب أيضاً استخرج العالم "إبراهيم الفزاري "- الذي أشرف على ترجمته- جدولاً حسابياً فلكياً يبين مواقع النجوم ويحسب حركاتها وهو ما يعرف باسم "الزيج ". أما الآلة الفلكية التي تستخدم لرصد الكواكب، فكانت تسمى "بالاصطرلاب ". ويعتبر إبراهيم الفزاري أول من صنع الاصطرلاب من المسلمين.

وعن الفارسية، ترجم كتاب "كليلة ودمنة" الذي كان هندياً في الأصل ثم ترجم إلى الفارسية وعنها نقله "عبد الله بن المقفع " إلى العربية في خلافة المنصور أيضاً. هذا

إلى جانب ترجمته لعدة كتب أخرى في تاريخ وأدب الفرس ونظمهم وتقاليدهم. ومن المعروف أن الخليفة العباسي المأمون قد أوكل إلى سهل بن هارون، ترجمة الكتب الفارسية. كذلك نذكر كتاب "هزار افسانه " ومعناه ألف خرافة، إذ أن الخرافة بالفارسية يقال لها افسانه، والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتيها وهما شيرازاد ودينازاد، ويبدو أن هذه القصص وصلت إلى المسلمين عن طريق الفرس، ويظهر في بعضها أثر أفكار الهنود في الأرواح وتناسخها، وقد وضعت هذه القصص في قالب عربي إسلامي في العصر العباسي الأول ثم زيد فيها في العصر الفاطمي بحيث لم يتبق من التأثير الفارسي سوى بعض الأسماء الفارسية. والشاهنامة للفردوس التي ترجمها نثرا الفتح بن علي البنداري سنة

٦٩٧ هـ/١٢٩٧ م، وهناك أيضا لعبة الشطرنج الهندية الأصل والتي انتقلت عن طريق الفرس إلى المسلمين، وألفت فيها كتب بالعربية وصار لها انتشار كبير في عالم الإسلام.

وفي خلافة المهدي بن المنصور (١٥٨– ١٦٩ هـ) برز عالم عربي في الكيمياء يدعى جابر بن حيان الأزدي " الذي نسبت إليه كتابات كثيرة في الكيمياء تضم ما وصل إليه هذا العلم من تقدم في هذا الوقت سواء في المركبات الكيميائية التي لم تكن معروفة في ذلك الوقت مثل نترات الفضة المتبلورة وحامض الأزوتيك وحامض الكبريتيك (زيت الزاج) ولاحظ ما يرسب من كلوروز الفضة عند إضافة ملح الطعام أو في وصف العمليات الكيميائية كالتقطير والتبخير والترشيح والتبلور والتذويب والتصعيد والتكليس ونحوها.

وفي خلافة هارون الرشيد (١٧٠ هـ/ ٧٨٦، ١٩٣هـ / ٨٠٨ م) أسس في بغداد في بيت الحكمة" لأعمال النقل والترجمة، الذي ازدهر في عهد ولده عبد الله المأمون (١٩٨ هـ/٨١٣ م– ٢١٨ هـ/٨٣٣ م)، فترجمت فيه أمهات الكتب اليونانية القديمة، وأقيمت فيه المراصد، ورسمت فيه الرسوم (الخرائط) الجغرافية على أحدث ما توصل إليه العلم في الأرصاد وأعمال المساحة. كما تخرج منه مشاهير العلماء أمثال ' محمد بن موسى الخوارزمي (ت ٢٣٢ هـ٨٤٦ م) " الذي عهد إليه المأمون بوضع

كتاب في علم الجبر، فوضع كتابه " المختصر في حساب الجبر والمقابلة"، وهذا الكتاب هو الذي أدى إلى وضع لفظ الجبر وإعطائه مدلوله الحالي. قال ابن خلدون: "علم الجبر والمقابلة (أي المعادلة) من فروع علوم العدد، وهو صناعة يستخرج بها العدد المجهول من العدد المعلوم إذا كان بينهما صلة تقتضي ذلك فيقابل بعضها بعضاً، ويجبر ما فيها من الكسر حتى يصير صحيحاً". فالجبر إذن، علم عربي سماه العرب بلفظ من لغتهم، والخوارزمي هو الذي خلع عليه هذا الاسم الذي انتقل إلى اللغات الأوروبية بلفظه العربي ALGEBRAولقد ترجم كتاب الخوارزمي إلى اللغة اللاتينية في سنة ١١٣٥ م بواسطة مستعرب إنجليزي اسمه " رو برت أوف تشستر" ROBERT OF CHESTER " درس وعاش في أسبانيا حيث كان أسقف بامبلونه ، ومن هناك انتقلت ترجمته إلى أوربا حيث ظلت تدرس في جامعاتها حتى القرن السادس عشر الميلادي. كما انتقلت الأرقام العربية إلى أوربا عن طريق مؤلفات "الخوارزمي ". ومن الملاحظ أن اسم "الخوارزمي " استعمل في اللغة اللاتينية على شكل "الجور تمي "ALGORISMO ثم حور في قالب "الجورزمو ' ALGORISMO "للدلالة على نظام الأعداد وعلم الحساب والجبر وطريقة حل المسائل الحسابية .

هذا، وتظهر عبقرية "الخوارزمي " في " الزيج " أو الجدول الفلكي الذي صنعه وأطلق عليه اسم "السند هند الصغير،،وقد جامع فيه بين مذهب الهند، ومذهب الفرس، ومذهب بطليموس (اليونان)، فاستحسن أهل زمانه ذلك وانتفعوا به مدة طويلة فذاعت شهرته وصار لهذا الزيج أثر كبير في الشرق والغرب.

وللخوارزمي مأثرة أخرى، وهي أنه رسم أ للمأمون خريطة كبيرة للعالم المعمور على أيامه، كما وضع كتاباً جغرافياً بعنوان "صورة الأرض " اعتمد فيه على كتاب المجسطي لبطليموس مع إضافات وشروح وتعليقات. وقد نشر هذا الكتاب وترجم إلى الألمانية سنة ١٩٢٦ م.

وفي مجال الطب والعناية بالمرضى أنشأ العباسيون عدداً كبيراً من البيمارستانات (المستشفيات)، ومخازن الأدوية، واستأثرت العاصمة بغداد بالعديد منها، فنسمع عن البيمارستان الذي أنشأه الرشيد في الجانب الغربي من بغداد على يد الطبيب "جبرائيل

بن بختيشوع "، والبيمارستان الصاعدي أيام المعتضد في الجانب، الشرقي من بغداد، والبيمارستان المقتدري الذي بناه المقتدر سنة ٣٠٦ هـ ٩١٨م، وبيمارستان السيدة الذي أنشأته أمه في الأعظمية، وبيمارستان ابن الفرات الذي أنشأه وزيره أبو الحسن علي بن الفرات، والبيمارستان العضدي... الخ. وكانت هذه محاولة لإيجاد أماكن تعالج فيها المرضى ويخضعون للملاحظة والتسجيل، وهي أساس المستشفيات الحديثة.

وقد توصل الأطباء المسلمون إلى أراء جديدة في الطب تخالف أراء القدماء في معالجة كثير من الأمراض، واستخدموا في مستشفياتهم الكاويات في الجراحة، ووصفوا صب الماء البارد لقطع النزف أو معالجة الحميات، وعالجوا الأورام الأنفية وخياطة الجروح، وقطع اللوزتين، وشق أوراق الحلق، وقطع الأثداء السرطانية، وإخراج الحصاة من المثانة، وجراحة الفتق وجراحة العيون، وإخراج الجنين بالآلة، وإخراج العظام المكسورة، واستخدام المرقد (البنج) (ويدخل في تركيبه الأفيون والحشيش وست الحسن) كما فرقوا بين الحصبة والجدري... الخ.

وكانت الدولة تراقب الممارسات الطبية والأطباء، فكانوا يمتحنون الأطباء والصيادلة فقد امتحن الصيادلة زمن المأمون والمعتصم، وأمر الخليفة المقتدر الطبيب الكبير سنان بن ثابت بن قرة سنة ٣١٦ هـ بمنع سائر المتطببين من التصرف وممارسة مهنتهم إلا بعد إجراء امتحان لهم، فامتحن يومئذ أكثر من ثمانمائة طبيب. وكان كل من يقوم بممارسة مهنة الطب، يؤخذ عليه قسم الطبيب المسلم والذي كان يعتمد على المحافظة على سر المريض وعلاجه دون تمييز وأن يحفظ كرامة المهنة وأسرارها.

وكان المحتسب هو الذي يأخذ عليه هذا القسم، لأن من عمله مراقبة هذه المهنة ونصه " برئت من قابض أنفس الحكماء، ورافع أوج السماء، فاطر الحركات العلوية، إن خبأت نصحا وبدأت ضرا، أو قدمت ما يقل عمله. إذا ما عرفت ما يعظم نفعه، وعليك بحسن الخلق بحيث تسمع الناس واستفرغ لمن ألقى، إليك زمامه ما في وسعك فإن ضيعته، فأنت الضائع والله الشاهد على وعليك والسامع لما تقول، فمن نكث عهده فقد استهدف لقضائه، إلا أن يخرج من أرضه وسمائه ".

ومن مشاهير الأطباء الذين برزوا في العصر العباسي الأول نذكر الطبيب "جورجيوس (جرجس) ابن بختيشوع " الذي استدعاه الخليفة المنصور من "جنديسابور" (شرقي البصرة) لعلاج معدته التي كان يشكو منها. وبعد معالجة قصيرة شفي على يديه، فجعله طبيبه الخاص فكان ذلك أول صلة بين بلاط بغداد وبين أسرة "بختيشوع " التي لعبت بعد ذلك دوراً هاماً في البلاط العباسي وفي الحضارة الإسلامية.

وفي أيام المعتصم وولديه الواثق والمتوكل، برز الطبيب "يحيى بن ماسويه(ت ٢٤٣ هـ) " الذي تنسب إليه مؤلفات طبية عديدة من أهمها: "كتاب دغل العين) أي ما يضر العين ويؤذيها، وهو أول كتاب عربي في علم الرمد. كذلك يؤثر عن هذا الطبيب أنه كان يدرس التشريح عن طريق تقطيع أجسام القردة، وكان الخليفة المعتصم يعتمد على مشورته، ولهذا كان يحتفظ ببنية قوية. ويعرف " ابن ماسويه " في الغرب باسم "ماسو الكبير" MESUE MAIOR . كذلك نذكر الطبيب اللامع "حنين بن إسحاق (ت ٢٦٠ هـ) الذي عرف عند علماء الغرب باسم يوهانيتس YOHANTUS درس "حنين " الطب على أستاذه "يحيى بن ماسويه" ثم واصل دراسته في بلاد الروم والإسكندرية وفارس، والف كتباً كثيرة أهمها كتاب في الرمد باسم "العشر مقالات في العين "، وكتاب " السموم والترياق "، وكتاب في أوجاع المعدة، وكتاب في الحميات، وكتاب في الفم والأسنان. وهذا الكتاب الأخير أعجب به الخليفة الواثق لأنه يصف الفم والأسنان وصفاً دقيقاً. وقد نقل المسعودى في كتابه "مروج الذهب (ج ٤ ص ٨٠– ٨١) " قسماً منه، ذكر فيه أن عدد الأسنان في الفم اثنتان وثلاثون سناً، منها في اللحى (الفك) الأعلى " ستة عشر سناً، وفي اللحى الأسفل كذلك.

وهكذا ازدهرت العلوم العقلية والتجريبية الإسلامية نتيجة لهذه الاستراتيجية العباسية التي قدمت كل تشجيع .

لحركة النقل والترجمة، مما أدى إلى ذيوع الكتب العلمية المنقولة إلى العربية، ومن ثم صارت اللغة العربية لغة علمية بعد أن كانت لغة شعر وأدب فقط.

ومما يجب ملاحظته بهذا الصدد ما تميز به علماء الإسلام من الجمع بين العلوم الفقهية والعلوم الطبيعية، فالكندي مثلاً ت ٢٦٠ هـ/٨٧٣ م جمع بين الفلسفة والمنطق والحساب والفلك والهندسة والسياسة والطب والفقه وأصول العقيدة، وابن سينا ت ٤٢٨ هـ ١٠٣٦ م جمع بين الطب والفلسفة والرياضيات والعلوم الطبيعية والموسيقى والفلك والحدود والشعر واثبات التنبؤات والقدر، ومثلهما الفارابي والرازي وعمر الخيام وابن النفيس وعبد اللطيف البغدادي وابن رشد وابن الطفيل والسمعاني وغيرهم.

لقد عرض هؤلاء العلماء لكبريات المشكلات المنطقية فعالجوها بأصالة المنهج في الملاحظة والتشخيص والكشف عن الأسباب والعلامات، فإن الشيء لا يعلم العلم اليقين إلا من جهة أسباب، ولذلك كان علم الأسباب واجباً، لم يقع العلماء المسلمون فريسة التفريق بين الإلهام الإلهي والنظر الاستنباطي، وإنما جعلوهما يلتقيان على نحو من التكامل، فغاية العلوم الفقهية، تعليم الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورسم نهج الحياة، وغرض العلوم الطبيعية، الوقوف على الحقيقة والتوجه إلى الخير والتحويل عن الشر، فالدرس والتفحص مقرون بالقياس واستخراج الحكمة هي السبل الصحيحة للوصول إلى الحقيقة العلمية، قال الله تعالى:

" أو لم ينظروا في ملكوت السموت والأرض وما خلق الله من شيء " سورة الأعراف– آية ١٨٥)، وقال تعالى: " فاعتبروا يأولى الأبصر"، (الحشر– أية ٢) .فكانت محصلة كل ذلك دراسة العلوم الدنيوية دون أن تؤثر على العقيدة الإسلامية، إذ عملوا على سد الثغرات التي يمكن أن تؤثر على علمهم وذلك بالبحث والدرس. وهذا ما جعلهم يربطون بين ما تلقوه من تعاليم القرآن وتصوراتهم وآرائهم الفلسفية والعلمية بتوازن تام ونسق منهجي باهر، إن أعظم نشاط فكري قام به العلماء المسلمون، يبدو جليا في حقل المعرفة التجريبية ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم، فإنهم كانوا يبدون نشاطاً واجتهاداً عجيبين حين يلاحظون ويمحصون، وحين يجمعون ويرتبون ما تعلموه من التجربة أو أخذوه من الرواية والتقليد، لقد كانت الشمولية المدعمة بالبحث والتفحص أهم ظاهرة تميز بها العلماء المسلمون، حيث أن العالم هو العالم الشامل ولا خطر على العلم من الدين ولا خوف من تأثير العلوم

الدنيوية على تعاليم الدين. فجاءت مصنفاتهم وثيقة العرى بالشريعة، موصولة بالعلوم الفقهية.

وإلى جانب هذا الازدهار العلمي التجريبي والعقلاني، اشتهرت بغداد أيضاً بالعلوم النقلية أو الشرعية التي تتصل بالقرآن الكريم والسنة النبوية مثل التفسير. والقراءات والحديث والفقه واللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا... الخ. وقد حرص خلفاء بني العباس منذ بداية دولتهم على الاهتمام بهذه العلوم الإسلامية وتشجيع العلماء المشتغلين بها ولا سيما علماء أهل الحجاز الذين كانوا على دراية واختصاص بعلوم القرآن والحديث والسنة. ومثال ذلك الخليفة "أبو جعفر المنصور" الذي حض علماء أهل المدينة على القدوم إلى بغداد ويسر لهدم مكانة مرموقة. وتابعه في هذا الاهتمام ابنه "المهدي " الذي أكرم وفادة القادمين من أهل المدينة وقربهم إليه وأجزل لهم العطاء وأطلق عليهم اسم الأنصار، وصارت لهم في بغداد قطيعة وقنطرة ومسجد ومقابر خاصة بهم، كما كان لهم نقيب خاص. لهذا كان من أوائل قضاة بغداد عدد من أهل الحجاز مثل "يحيى بن سعيد الأنصاري "، و، " سعيد بن عبدا لرحمن الجمحي" . هذا إلى جانب المحدث، "والإخباري المعروف "محمد بن إسحاق بن يسار (ت١٠٢ هـ) " الذي رحب المنصور بمقدمه. ويقال أنه لما دخل على الخليفة المنصور وكان بين يديه ابنه المهدي، قال له المنصور: "أتعرف من هذا يا ابن إسحاق؟ "، فقال نعم، هذا ابن أمير المؤمنين. قال. " اذهب وصنف " كتاباً منذ خلق الله تعالى أدم عليه السلام إلى يومك هذا".. فصنف ابن إسحاق كتابه "المغازي والسير وأخبار المبتدأ ". على أن هذا الكتاب للأسف لم يصل إلينا إلا في رواية مختصرة له كتبها"عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨ هـ) " وتعرف باسم سيرة رسول الله وتعرف عموما بسيرة ابن هشام. غير أنه يلاحظ من الحوار الذي دار بين المنصور وابن إسحاق " أن الكتاب الذي طلبه المنصور لا يقتصر على السيرة النبوية فقط، بل يشمل تاريخاً منذ خلق الله آدم إلى اليوم الذي يعيشه ابن إسحاق، أي أنه يجمع بين ماضي الأمة الإسلامية وحاضرها، وهذا يدل على أن كتاب المغازي لابن إسحاق كان أشمل وأوسع بكثير مما وصل إلينا عن طريق ابن هشام ، وقد يؤيد ذلك أن ابن إسحاق كان موضع مديح العلماء الذين جاءوا بعده، إذ وصفوه بأنه لم ينزع

في كتابه إلى تدوين تاريخ النبي فحسب، بل إلى تاريخ النبوة بذاتها. وقال فيه "الإمام الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) "من أراد التبحر في المغازي، فهو عيال على ابن إسحاق".

وعلى أية حال، فإن هذه النقلة التي أقدم، عليها ابن إسحاق من رواية الحديث إلى الاشتغال برواية الأخبار، تعتبر بداية انفصال التاريخ عن الحديث، على اعتبار أن التاريخ كان نوعاً من أنواع الحديث.

وهكذا صار التاريخ علماً مستقلاً، وأخذ يتطور تدريجياً حتى أخذ مظهره الرائع كعلم من أجل علوم المسلمين، وأخذ المؤرخون مكانتهم بين علماء الدولة الإسلامية كرجال لهم خطرهم في الحياة العامة، سياسية كانت أو علمية، بينما تضاءل مدلول لفظ إخباري حتى صار يطلق فقط على من يروي الحكايات والقصص.

ولقد كانت بغداد مركزا لتطور الدراسات التاريخية والحضارية على مستوى عالمي، فلم يعد إنتاجها في هذا الصدد قاصراً على العراق فحسب، بل شمل العالم الإسلامي والحياة الإسلامية. ومثال ذلك تاريخ الرسل والأمم والملوك للطبري (ت ٣١٠ هـ)، وكتابا "مروج الذهب "– "والتنبيه والأشراف " للمسعودى (ت ٣٤٦ هـ)، وكتب المسالك والممالك، وكتاب " الأغاني"لأبي الفرج الأصفهاني(ت ٣٥٥هـ) "، وقصص "،ألف ليلة وليلة"، كلها صور عامة للحياة الإسلامية بمختلف مظاهرها التاريخية والحضارية.

وما يقال عن التاريخ يقال أيضاً عن علم الفقه الذي يقوم على البحث في الأحكام الشرعية، ومعرفة حكم الدين في القضايا التي تحدث للمسلمين سواء في قضايا دينهم (العبادات) أو في قضايا دنياهم (المعاملات). ومع قيام الدولة العباسية كان المسلمون قد بدأوا في تدوين فقههم واستنبطوا الأحكام والشرائع في القرون الأولى للهجرة، وهو ما لم يتفق لدولة من الدول السابقة، فالقانون الروماني مثلاً لم يستقر أمره إلا زمن الإمبراطور "جستنيان " أي بعد تأسيس الدولة الرومانية بأكثر من عشرة قرون.

وهكذا ظهرت المذاهب الفقهية في عصر الدولة العباسية، واحتلت بغداد مكان الصدارة لهذه الدراسات الفقهية، إذ ظهر فيها الإمام " أبو حنيفة النعمان (ت ١٥٠ هـ) " في "خلافة أبي جعفر المنصور، وكان مذهبه يعتمد على الرأي والقياس

والاجتهاد، بسبب تعقد الحياة وتطور المدنية في البيئة العراقية لكونها مجمعاً لمختلف الأجناس والملل والنحل مما أدى إلى ظهور قضايا ومشاكل جديدة لا تنطبق عليها نصوص القرآن والسنة، وتحتاج إلى وضعها محل الاجتهاد، والحكم فيها عن طريق الاستنباط العقلي القائم على المنطق الدقيق وهو القياس أو الرأي.

وقد عاصر الإمام أبو حنيفة كلاً من الأئمة "مالك بن أنس في المدينة (ت ١٧٩ هـ) "، و "الليث بن سعد في الفسطاط (ت ١٧٥ هـ) "، وهم جميعاً من أهل الحديث، أي أنهم يتمسكون عند إصدار أحكامهم بنصوص القرآن والحديث، ولا يرضون عما استحدثه الأحناف من أقيسه ذات طابع فلسفي.

وفي السنة التي توفى فيها الإمام أبو حنيفة (١٥٠ هـ)، ولد الإمام "محمد بن إدريس الشافعي " في غزة، وعاش في الحجاز حيث حفظ موطأ الإمام مالك بن أنس ' بالمدينة المنورة وقرأه عليه وهو صبي في العاشرة من عمره، ثم رحل إلى العراق حيث تعلم في بغداد فقه "أبي حنيفة" قبل رحيله واستقراره قي مصر. ومن ثم جاء مذهبه وسطاً بين مذهب " أبي حنيفة" المتوسع في الرأي، ومذهب "مالك بن أنس ' المعتمد على الحديث. وتوفي "الشافعي " قي الفسطاط سنة (٢٠٤ هـ) ومقامه معروف هناك، ومن أشهر مؤلفاته "كتاب الأم " في الفقه، و "رسالة في أصول الفقه "، تعتبر الأولى من نوعها، إذ وضع فيها لأول مرة قواعد الاستنباط في الأحكام الشرعية وهو ما يسمى بأصول الفقه.

وجاء بعده تلميذه الإمام "أحمد بن حنبل الشيباني "، الذي ولد وعاش ومات في بغداد (١٦٤- ٢٤١ هـ) وكان يرى أن يقوم الفقه على النص من الكتاب أو الحديث، وأنكر على أستاذه " الشافعي " أخذه بالرأي، واعتبر الحديث أفضل من الرأي، فعاد بذلك إلى رأي الإمام مالك. ومن أشهر كتبه "المسند" الذي يعتبر موسوعة لأحاديث الرسول (r) .

وأخيراً يعتبر الشيعة "الإمامة" ضرورية ومن أساس الدين، والإمام عندهم هو الذي يسير بالأمة إلى الهدف الأعلى ويدفعها إلى السير في الطريق المستقيم، والفقه من اختصاص الإمام وحده فهو المجتهد المطلق، ومن كتبهم كتاب الكافي للكليبي ت ٣٢٨ هـ/٩٣٩ م والنهاية في الفقه لمحمد بن الحسن الطوسي ت ٤٦٠ هـ/١٠٦٧ م.

وهكذا نرى أن بغداد عرفت من الفقهاء الذين أقاموا أو درسوا فيها، عدة اتجاهات فقهية، فهناك المتمسك بالرأي، كأبي حنيفة"، وهناك المتمسك بالنصوص "كابن حنبل "، وهناك من لاءم بينهما واتخذ مذهباً وسطاً "كالشافعي. والواقع أن كل المذاهب الفقهية الإسلامية تتفق معاً في العمل بكتاب الله وسنة رسوله وأقوال الصحابة والتابعين، ولكنها تختلف في فهم واستنباط الأحكام الشرعية وتطبيقها.

أما دراسات العلوم اللغوية والنحوية، فقد شهدت العراق فيها ثورة واسعة ضخمة على أيدي علماء البصرة والكوفة الذين حققوا إنجازات وابتكارات علمية في هذا المجال للحفاظ على كلام العرب وتقويم اللسان العربي، بعد أن فشا اللحن في كلام المسلمين، نتيجة لاختلاطهم بالأعاجم في البلاد المفتوحة. لهذا قام هؤلاء العلماء بجمع وتدوين ألفاظ اللغة العربية وأشعارها من منابعها الصافية في نجد بقلب الجزيرة العربية. كذلك وضعوا قواعد نحوية للغة العربية، وابتكروا النقط والشكل على الحروف لمعرفة نطق الكلمات نطقاً سليماً، ولا سيما القرآن الكريم، حتى لا يتعرض للتحريف. هذا إلى جانب تصنيف المعاجم اللغوية، ووضع علم العروض لمعرفة أوزان الشعر وأحكامه وبحوره. ومن أشهر الرواد الذين حققوا هذه الابتكارات العلمية مع بداية العصر العباسي العالم البصري العربي، الخليل بن أحمد الفراهيدي

(ت ١٧٥ هـ/١ ٧٩ م) "، وتلميذه وشيخ البصريين بعده العالم الفارسي "أبو بشر عمرو بن عثمان الملقب بسيبويه

(ت ١٧٧ هـ/٧٩٣ م) ". ولم تلبث العاصمة بغداد أن شاركت في هذه النهضة العلمية، حيث انتقل إليها عدد من علماء الكوفة والبصرة أمثال " أبي حنيفة" و"، المفضل الضبي " و "الكسائي "الفراء "، و "ابن السكيت "، بحيث صارت بغداد مسرحاً لمناظرات علمية حامية الوطيس بين أشهر علماء العصر.

أما الأدب، فقد تطور هو الآخر في العصر العباسي تطوراً كبيراً، ونهج الشعراء فيه مناهج جديدة في المعاني والموضوعات والأساليب والأخيلة، وغير ذلك من فنون الشعر المختلفة التي تناسب ما انتشر في العصر العباسي من حضارة وترف ولا سيما في رصافة بغداد أو بغداد الشرقية. ومن أشهر هؤلاء الشعراء،، أبو نواس ' الذي ذاعت قصائده في الخمر والغزل والصيد.. الخ، و" أبو تمام الطائي " المشهور

بنزعته العقلية والفلسفية في الشعر، وتلميذه "أبو عبادة البحتري " صاحب المدائح الخالدة، و "ابن الرومي " المعروف بطول نفسه وغزارة شعره، و" أبو العتاهية" الذي اشتهر بالحكمة والغزل الرقيق، والمتنبي، الذي اشتهر بالفخر ، وأبو العلاء المعري، شاعر الحكمة، وغيرهم كثيرون. ويكفي أن نشير إلى ما قاله الخليفة الشاعر، "عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) " في كتابه "طبقات الشعراء" من أن عدد شعراء الدولة العباسية في أواخر القرن الثالث الهجري فقط بلغ أكثر من مائة وثلاثين شاعراً. هذا إلى جانب الشاعرات والأديبات من النساء اللائى لعبن دوراً هاماً في الحياة الأدبية وفي الأحداث المهمة في المجتمع الإسلامي مثل "رابعة بنت إسماعيل العدوية" التي سلكت طريق الزهد والتصوف والأميرة، علية بنت المهدي " التي وصفها "الحصري " بأنها "تعدل الكثير من أفاضل الرجال في فضل العقل وحسن المقال، ولها شعر رائق وغناء رائع ". ومثل الأميرة "العباسة بنت المهدي " التي لعب الخيال دوراً كبيراً في القصص التي أحاطت بها، إذ تروى لها أشعار تدل على ذكاء وحسن تأت للموضوع الذي تقصد إليه. ومثل "عابدة الجهنية" التي قال "السيوطي " عنها أنها"أديبة شاعرة فصيحة فاضلة كاتبة".

هذا، ويروي "ابن الفوطي " أن الخليفة العباسي "الناصر لدين الله (ت ٦٢٢ هـ) كانت لديه جارية تركية تسمى "شجرة الدر"، مقربة إليه، وكانت تكتب خطاً جيداً ، وتقرأ له المطالعات الواردة عليه لما تغير نظره، ويملي عليها الأجوبة. وتوفيت سنة ٦٣٤ هـ ١٢٣٦ م) ودفنت في تربة الخلاطية ببغداد.

ومن الطريف أن هذه الأديبة العراقية "شجرة الدر"، عاصرت ملكتين مسلمتين في العالم الإسلامي: أولاهما، الملكة ، رضية الدين " سلطانة دلهي بالهند الإسلامية، وهي تعتبر أول ملكة مسلمة جلست على عرش مملكة إسلامية (٦٣٤- ٦٣٨ هـ - ١٢٣٦- ١٢٤٠ م). والملكة الثانية هي سميتها في الإسم، سلطانة مصر المعروفة "شجرة الدر"، صاحبة الفضل الأول في إخفاق الحملة الصليبية السابعة التي قادها ملك فرنسا لويس ، التاسع عن مصر سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م).

وإذا انتقلنا إلى عالم الفنون والعمارة، نجد أن، العباسيين لم يكونوا أقل اهتماما من الأمويين في مجال التشييد والتعمير، ففي العمارة بنى (أبو جعفر المنصور" على

نهر دجلة عاصمته" بغداد (١٤٥– ١٤٩ هـ) على شكل دائري، وهو اتجاه جديد في بناء المدن الإسلامية، لأن معظم المدن الإسلامية، كانت إما مستطيلة كالفسطاط، أو مربعة كالقاهرة، أو بيضاوية كصنعاء. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن هذه المدن نشأت بجوار مرتفعات حالت دون استدارتها، ولعل الخليفة "المنصور" تأثر بهندسة بعض العواصم القديمة مثل مدينة الحضر جنوب غرب الموصل ومثل مدينة همذان مثلاً. المهم هنا أن خطة المدينة المدورة بغداد، تعتبر ظاهرة جديدة في الفن المعماري الإسلامي. هذا إلى جانب المدن الأخرى التي شيدها العباسيون مثل مدينة سامراء وما حوته من مساجد وقصور خلافية فخمة.

وإلى جانب العمارة وجدت الزخرفة التي وصفت بأنهما لغة الفن الإسلامي، وتقوم على زخرفة المساجد والقصور والقباب بأشكال هندسية أو نباتية جميلة تبعث في النفس الراحة والهدوء والانشراح. وسمي هذا الفن الزخرفي الإسلامي في أوروبا باسم أرابسك بالفرنسية " ARABESQUEوبالأسبانية (ATAURIQUE) أي التوريق. وقد عرف الفنان المسلم ما يسمى الآن بالفن التجريدي (SURREALISM ABSTRACT) لأنه كثيراً ما كان يأخذ الوحدة الزخرفية النباتية كالورقة أو الزهرة، ويجردها من شكلها الطبيعي حتى لا تعطى إحساسا بالذبول والفناء، فيجردها ويحورها في أشكال هندسية حتى تعطي الشعور بالدوام والبقاء والخلود .

كذلك وجد الفنانون المسلمون فى الحروف العربية أساسا لزخارف جميلة، ومن ثم صار الخط العربي فناً رائعاً، على يد خطاطين مشهورين. فهناك الخط الكوفي الذي يستعمل في الشئون الهامة مثل كتابة المصاحف والنقش على العملة، وعلى المساجد، وشواهد القبور. ومن أبرز من اشتهر بكتابة الخط الكوفي، مبارك المكي ' في القرن الثالث الهجري في خلافة "المتوكل على الله العباسي "، وهناك خط النسخ الذي استعمله الناس في التراسل والتدوين وفي نسخ الكتب، ولهذا عرف بهذا الاسم، وقد نبغ في كتابته عدد من الخطاطين أمثال "ابن مقلة (ت ٣٢٨ هـ) " ولابن البواب (ت ٤١٣ هـ) " وياقوت المستعصمي في القرن السابع الهجري ".

أما فن التصوير، أي رسم الإنسان والحيوان، فبالرغم من أن بعض علماء المسلمين الأولين، اعتبروه مكروهاً، إلا أنهم لم يفتوا بتحريمه. والظاهر أن خلفاء بني أمية وبني العباس قد ترخصوا في ذلك إذ توجد صور آدمية متقنة على جدران قصورهم التي اكتشفت آثارها منذ عهد قريب في شرق الأردن وسامراء،كذلك ورد في كلام المؤرخين أن الخليفة "الأمين " كان لديه قوارب لنزهته في دجلة على هيئة الأسد والنسر والدلفين، وأن قصر "(المقتدر بالله " اشتمل على تماثيل متحركة لفرسان بخيلها تتقدم وتتأخر كما في الحرب. هذا إلى جانب قبة القصر الخلافي في بغداد التي أقيم في أعلاها على عهد "المنصور" تمثال لفارس بيده رمح يتحرك في اتجاه الريح. كذلك وصلت إلينا كتب عربية موضحة بالصور الجميلة التي رسمها المصورون المسلمون مثل " الو اسطي " وغيره في مقامات "الحريري " وكتاب "كليلة ودمنة".

كذلك ازدهرت الموسيقى وتطورت آلاتها ولا سيما في مدينة بغداد التي صار لها مركز الصدارة والشهرة في هذا الفن. ومن أشهر المغنين والمغنيات في العصر العباسي الأول: قمر البغدادية" و" إبراهيم الموصلي "، وابنه "إسحاق " وتلميذه "أبو الحسن علي بن نافع " الملقب "بزرياب " الذي هاجر إلى المغرب والأندلس وحمل معه إلى هناك الموسيقى الشرقية التي ما زال تأثيرها باقيا في الموسيقى التي تعرف إلى اليوم في المغرب والجزائر وتونس باسم "الموسيقى الأندلسية". كذلك برع في دراسة الموسيقى من الناحيتين النظرية والعملية عدد من كبار العلماء وعلية القوم أمثال "الكندي " و!الفارابي " والخليفة "الواثق العباسي ". وكل هذا يدل على أن الحضارة المزدهرة التي اختصت بها بغداد، قد غذت الروح الإسلامية في مختلف الأقطار غذاء تاماً.

ولقد واكب هذه النهضة العلمية نشاط صناعة الورق، ونسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها مما ساعد على انتشار الفكر الجديد في مختلف الأمصار،فأصبحت بغداد بذلك المدينة الممتازة في العالم الإسلامي،(CITY PAREXCELLENCE) وهذه الصفة العالمية التي تميزت بها بغداد جعلتها كعبة يحج إليها المسلمون من

جميع أنحاء العالم الإسلامي، كما جعلت حضارتها تطغى على جميع الحضارات الإسلامية الأخرى

================

#حضارة عربية إسلامية

من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

اذهب إلى: تصفح, ابحث

جزء من سلسلة

الإسلام

تاريخ الإسلام

العقائد و العبادات

توحيد • الشهادتين

الصلاة • الصوم

الحج • الزكاة

قائمة الشخصيات الإسلامية

محمد بن عبد الله

• صحابة • أنبياء الإسلام

أهل البيت

نصوص و تشريعات

القرآن الكريم • حديث نبوي • الشريعة

فقه إسلامي

فرق إسلامية

السنة • الشيعة

مذاهب إسلامية

الحنفية • المالكية • الشافعية • الحنابلة

علم الكلام و الفلسفة

المعتزلة• الأشاعرة

حضارة الإسلام

الفن • العمارة

التقويم الإسلامي

العلوم • الفلسفة

أئمة السنة • أئمة الشيعة

الإسلام السياسي

مساجد

المسجد الحرام • المسجد النبوي

المسجد الأقصى

مدن إسلامية

مكة المكرمة • المدينة المنورة • القدس

انظر أيضا

مصطلحات إسلامية

قائمة مقالات الإسلام

الإسلام حسب البلد

ع•ن•ت

أهتمت الدولة الإسلامية التي انشأها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم واستمرت تحت مسمى الخلافة في الفترات الأموية والعباسية بالعلوم والمدنية كما اهتمت بالنواحي الدينية فكانت الحضارة الإسلامية حضارة تمزج بين العقل والروح فامتازت عن غيرها من الحضارات السابقة والتي كانت عبارة عن مجرد أمبراطوريات ليس لها أساس من علم ودين. الإسلام كدين عالمي يحض على العلم ويعتبره فريضة علي كل مسلم. لتنهض أممه وشعوبه. ولم يكن في أي وقت مدعاة للتخلف كما يأفك الغرب. فأي علم مقبول إلا لوكان علما يخالف قواعد الإسلام ونواهيه .والإسلام يكرم العلماء ويجعلهم ورثة الأنبياء. وتتميز الحضارة الإسلامية بالتوحيد والتنوع العرقي في الفنون والعلوم والعمارة طالما لاتخرج عن نطاق القواعد الإسلامية . لأن الإسلام لايعرف الكهنوت كما كانت تعرفه أوروبا. لأن الحرية الفكرية كانت مقبولة تحت

ظلال الإسلام. وكانت الفلسفة يخضعها الفلاسفة المسلمون للقواعد الأصولية مما أظهر علم الكلام الذي يعتبر علما في الإ لهيات. فترجمت أعمالها في أوربا وكان له تأثيره في ظهور الفلسفة الحديثة وتحرير العلم من الهنوت الكنسي فيما بعد. مما حقق لأوربا ظهور عصر النهضة بها. لهذا لما دخل الإسلام هذه الشعوب لم يضعها في بيات حضاري ولكنه أخذ بها ووضعها علي المضمار الحضاري لتركض فيه بلا جامح بها أو كابح لها .وكانت مشاعل هذه الحضارة الفتية تبدد ظلمات الجهل وتنير للبشرية طريقها من خلال التمدن الإسلامي. فبينما كانت الحضارة الإسلامية تموج بديار الإسلام من الأندلس غربا لتخوم الصين شرقا وكانت أوربا وبقية أنحاء المعمورة تعيش في إظلام حضاري وجهل وامتدت هذه الحضارة القائمة بعدما أصبح لها مصارفها وروافدها لتشع علي الغرب ونطرق أبوابه .فنهل منها معارفه وبهر بها لأصالتها المعرفية والعلمية. مما جعله يشعر بالدونية الحضارية. فثار علي الكهنوت الديني ووصاية الكنيسة وهيمنتها علي الفكر الإسلامي حتي لايشيع . لكن رغم هذا التعتيم زهت الحضارة الإسلامية وشاعت . وانبهر فلاسفة وعلماء أوربا من هذا الغيث الحضاري الذي فاض عليهم . فثاروا علي الكنيسة وتمردوا عليها وقبضوا علي العلوم الإسلامية من يقبض علي الجمر خشية هيمنة الكنيسة التي عقدت لهم محاكم التفتيش والإحراق .ولكن الفكر الإسلامي قد تمل منهم وأصبحت الكتب الإسلامية التراثية والتي خلفها عباقرة الحضارة الإسلامية فكرا شائعا ومبهرا.

فتغيرت أفكار الغرب وغيرت الكنيسة من فكرها مبادئها المسيحية لتسايرالتأثير الإسلامي علي الفكر الأوربي وللتصدي للعلمانيين الذين تخلوا عن الفكر الكنسي وعارضوه وانتقدوه علانية. وظهرت المدارس الفلسفية الحديثة في عصر النهضة أو التنوير بأوربا كصدي لأفكار الفلاسفة العرب . ظهرت مدن تاريخية في ظلال الحكم الإسلامي كالكوفة والبصرة وبغداد ودمشق والقاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع والقيروان وفاس ومراكش والمهدية والجزائر وغيرها . كما خلفت الحضارة الإسلامية مدنا متحفية تعبر عن العمارة الإسلامية كإستانبول بمساجدها والقاهرة بعمائرها الإسلامية وبخارى وسمرقند ودلهي وحيدر أباد وقندهار وبلخ وترمذ وغزنة وبوزجان

وطليطلة وقرطبة وإشبيلية ومرسية وسراييفو وأصفهان وتبريز ونيقيا وغيرها من المدن الإسلامية.

فهرست

[إخفاء]

[تحرير] الدولة الإسلامية

[تحرير] العلوم

المقال الرئيسي: علوم إسلامية

ابن رشد

ابن رشد

خلال قرني من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت صناعة الكتب منتشرة في كل أنحاء العالم الإسلامي وكانت الحضارة الإسلامية تدور حول الكتب. فقد كانت توجد المكتبات الملكية والعامة والخاصة في كل مكان حيث كانت تجارة الكتب ومهنة النساخة رائجة وكان يقتنيها كل طبقات المجتمع الإسلامي الذين كانوا يقبلون عليها إقبالا منقطع النظير. وكان سبب هذا الرواج صناعة الورق ببغداد وسمرقند .وكانت المكتبات تتيح فرص الإستعارة الخارجية. وكانت منتشرة في كل الولايات والمدن الإسلامية بالقاهرة وحلب وإيران ووسط آسيا وبلاد الرافدين والأندلس وشمال أفريقيا. وكانت شبكات المكتبات قد وصلت في كل مكان بالعالم الإسلامي. وكان الكتاب الذي يصدر في يغداد أو دمشق تحمله القوافل التجارية فوق الجمال ليصل لقرطبة بأسبانيا في غضون شهر. وهذا الرواج قد حقق الوحدة الثقافية وإنتشار اللغة

العربية . وكانت هي اللغة العلمية والثقافية في شتي الديار الإسلامية. كما كان يعني بالنسخ والورق والتجليد. مما ماجعل صناعة الكتب صناعة مزدهرة في العالم الإسلامي لإقبال القراء والدارسين عليها وإقتنائها. وكانت هذه الكتب تتناول شتي فروع المعرفة والخط وعلوم القرآن وتفاسيره واللغة العربية والشعر والرحلات والسير والتراث والمصاحف وغيرها من آلاف عناوين الكتب. وهذه النهضة الثقافية كانت كافية لإزدهار الفكر العربي وتميزه وتطوره .وفي غرب أفريقيا في مملكتي مالي وتمبكتو أثناء إزدهارهما في عصريهما الذهبي ، كانت الكتب العربية لها قيمتها. وكان من بينها الكتب النادرة التي كانت تنسخ بالعربية، وكانت المملكتان قد أقامتا المكتبات العامة مع المكتبات الخاصة. يعتبر القرن التاسع الميلادي له أهميته في ثبت الحضارة الإسلامية المتنامية. لأن أعمال العلماء المسلمين كانت رائعة وكانوا رجال علم متميزين وكان المأمون الخليفة العباسي العالم المستنير (ت ٨٣٣) يحثهم علي طلب العلم. وقد أنشأ لهم بيت الحكمة لتكون أكاديمية البحث العلمي ببغداد تحت رعايته الشخصية. وأقام به مرصدا ومكتبة ضخمة. كما أقام مرصدا ثانيا في سهل تدمر بالشام. وجمع المخطوطات من كل الدنيا لتترجم علومها. وكان يشجع الدارسين مهما تنوعت دراستهم. وحقق يهذا التوجه قفزة حضارية غير مسبوقة رغم وجود النهضة العلمية وقتها. وهذا ما لم يحدث بعد إنشاء جامعة ومكتبة الإسكندرية في القرن الثالث ق.م. وقام الفلكيون في تدمر في عهده بتحديد ميل خسوف القمر ووضعوا جداول لحركات الكواكب . وطلب منهم تحديد حجم الأرض ، وقاسوا محيطها ، فوجدوه ٢٠٤٠٠ ميل ،وقطرها ٦٥٠٠ ميل. وهذا يدل علي أن العرب كانوا علي علم وقتها ،بأن الأرض كروية قبل كويرنيق بخمسة قرون . كما طلب المأمون منهم وضع خريطة للأرض . وفي علم الفلك أثبتوا دورانها. وقياساتهم تقريبا لها تطابق ما قاسه علماء الفلك بالأقمار الصناعية ، وأنهم كانوا يعتقدون خطأ أنها مركز الكون، يدورحولها القمر والشمس والكواكب. وهذا الإعتقاد توارد إليهم من فكر الإغريق . واكتشفوا الكثير من النجوم والمجرات السماوية وسموها بأسمائها العربية التي مازالت تطلق عليها حتي الآن. وكانت كل الأبحاث في الفلك والرياضيات في

العصر العباسي قد إنفرد بها العلماء المسلمون وقد نقلوها عن الهنود الذين قد ترجموها عن الصينيين للعربية وقاموا بتطويرها بشكل ملحوظ.

نهضة علمية مع هذه النهضة العلمية ظهرت الجامعات الإسلامية لأول مرة بالعالم الإسلامي قبل أوربا بقرنين .وكانت أول جامعة بيت الحكمة أنشئت في بغداد سنة ٨٣٠ م، ثم تلاها جامعة القرويين سنة ٨٥٩ م في فاس ثم جامعة الأزهر سنة ٩٧٠ م في القاهرة. وكانت أول جامعة في أوربا أنشئت في "سالرنو" بصقلية سنة ١٠٩٠ م على عهد ملك صقلية روجر الثاني. وقد أخذ فكرتها عن العرب هناك. ثم تلاها جامعة بادوا بايطاليا سنة ١٢٢٢ م. وكانت الكتب العربية تدرس بها وقتها. وكان للجامعات الإسلامية تقاليد متبعة وتنظيم .فكان للطلاب زي موحد خاص بهم وللأساتذة زي خاص. وربما اختلف الزي من بلد إلي بلد ومن عصر إلي عصر. وقد أخذ الأوربيون عن الزي الجامعي الإسلامي الروب الجامعي المعمول به الآن في جامعاتهم. وكان الخلفاء والوزراء إذا أرادوا زيارة الجامعة الإسلامية يخلعون زي الإمارة والوزراة ويلبسون زي الجامعة قبل دخولها .وكانت اعتمادات الجامعات من ايرادات الأوقاف. فكان يصرف للطالب المستجد زي جديد وجراية لطعامه. وأغلبهم كان يتلقى منحة مالية بشكل راتب وهو ما يسمى في عصرنا بالمنحة الدراسية. فكان التعليم للجميع بالمجان يستوي فيه العربي والأعجمي والأبيض والأسود.

وبالجامعات كان يوجد المدن الجامعية المجانية لسكني الغرباء وكان يطلق عليها الأروقة. والطلبة كان يطلق عليهم المجاورون لسكناهم بجوارها. وكان بالجامعة الواحدة أجناس عديدة من الأمم والشعوب الإسلامية يعيشون في إخاء ومساواة تحت مظلة الإسلام والعلم. فكان من بينهم المغاربة والشوام والأكراد والأتراك وأهل الصين وبخارى وسمرقند. وحتى من مجاهل افريقيا وآسيا وأوروبا . وكان نظام التدريس في حلقات بعضها يعقد داخل الفصول. وأكثرها كان في الخلاء بالساحات أو بجوار النافورات بالمساجد الكبري. وكان لكل حلقة أستاذها يسجل طلابها والحضور والغياب.ولم يكن هناك سن للدارسين بهذه الجامعات المفتوحة . وكان بعض الخلفاء والحكام يحضرون هذه الحلقات.وكانوا يتنافسون في استجلاب العلماء المشهو رين من أنحاء العالم الإسلامي ،ويغرونهم بالرواتب والمناصب، ويقدمون لهم أقصى

التسهيلات لأبحاثهم. وكان هذا يساعد على سرعة انتشار العلم وانتقال الحضارة الإسلامية بديار الإسلام.

كانت الدولة الإسلامية تعني بالمرافق الخدماتية والعامة بشكل ملحوظ. فكانت تقيم المساجد ويلحق بها المكتبات العامة المزودة بأحدث الإصدارات في عصرها ودواوين الحكومة والحمامات العامة ومطاعم الفقراء وخانات المسافرين علي الطرق العامة ولاسيما طرق القوافل التجارية العالمية، وطرق الحج التراثية وإنشاء المدن والخانقاهات والتكايا المجانية للصوفية واليتامي والأرامل والفقراء وأبناء السبيل. واقيمت الأسبلة لتقدم المياه للشرب بالشوارع . وكان إنشاء البيمارستنات (المستشفيات الإسلامية) سمة متبعة في كل مكان بالدولة الإسلامية يقدم بها الخدمة المجانية من العلاج والدواء والغذاء ومساعدة أسر المرضي الموعزين .وكلمة باريمستان بالفارسيةهو مكان تجمع المرضي ،وكلمة مستشفي معناها بالعربية مكان طلب الشفاء .لهذا كان الهدف من إنشاء هذه المستشفيات غرضا طبيا وعلاجيا. عكس المستشفيات في أوربا وقتها ،كانت عبارة عن غرف للضيافة ملحقة بالكنائس والأديرة لتقدم الطعام لعابري السبيل أو ملاجيء للعجزة والعميان والمقعدين ولم تكن للتطبيب. وكان يطلقون على هذه الغرف كلمة مضيفة، وهي مشتقة من كلمة ضيافة. وأول مستشفي بني بإنجلترا في القرن ١٤م. بعد إنحسار الحروب الصليبية علي المشرق العربي، بعدما أخذ الصليبيون نظام المستشفيات الإسلامية والطب العربي عن العرب . وكان أول مستشفي في الإسلام بناه الوليد بن عبد الملك سنة ٧٠٦ م (٨٨ هـ) في دمشق. وكان الخلفاء المسلمون يتابعون إنشاء المستشفيات الإسلامية الخيرية بإهتمام بالغ. ويختارون مواقعها المناسبة من حيث الموقع والبيئة الصالحة للإستشفاء والإتساع المكاني بعيدا عن المناطق السكنية. وأول مستشفى للجذام بناه المسلمون في التاريخ سنة ٧٠٧ م بدمشق.

في حين أن أوربا كانت تنظر إلى الجذام على إنه غضب من الله يستحق الإنسان عليه العقاب حتى أصدر الملك فيليب أمره سنة ١٣١٣ م بحرق جميع المجذومين في النار. وكانت المستشفيات العامة بها أقسام طب المسنين ، بها أجنحة لكبار

السن وأمراض الشيخوخة . وكانت توجد المستشفيلت الخاصة. والمستوصفات لكبار الأطباء بالمستشفيلت العامة ..

ومن المعروف أن الدولة الإسلامية في عصور ازدهارها كانت تعطي أهمية قصوى لمرافق الخدمات العامة مثل المساجد ودواوين الحكومة والحمامات والمطاعم الشعبية واستراحات المسافرين والحجاج. وبديهي أن تكون أهم هذه المرافق المستشفيات.. فقد كانت تتميز بالاتساع والفخامة والجمال مع البساطة. ومن بين هذه المستشفيات التراثية اليوم مستشفي السلطان قلاوون ومستشفي أحمد بن طولون بالقاهرة والمستشفي السلجوقي بتركيا . وكانت مزودة بالحمامات والصيدايات لتقديم الدواء والأعشاب. والمطابخ الكبيرة لتقديم الطعام الطبي الذي يصفه الأطباء للمرضي حسب مرضهم . لأن الغذاء المناسب للمرض كانوا يعتبرنه جزءا من العلاج .

ويشتمل المستشفى الكبير (الجامعي) على قاعة كبيرة للمحاضرات والدرس وامتحان الأطباء الجدد وملحق بها مكتبة طبية ضخمة تشمل على المخطوطات الطبية. والمشاهد لهذه المستشفيات سيجدها أشبه بالقصورالضخمة والمتسعة، بل والمنيفة. وحول المبني الحدائق ومن بينها حديقة تزرع فيها الأعشاب الطبية.ولم يأت منتصف القرن العاشر م. حتى كان في قرطبة بالأندلس وحدها خمسون مستشفي وأكثر منها في دمشق وبغداد والقاهرة والقيروان علاوة المستشفيات المتنقلة والمستشفيات الميدانية لجرحي الحرب، والمستشفيات التخصصية كمستشفيات الحميات التي كان بها معزل طبي لعزل الأمراض المعدية.

وفيها كان يبرد الجو وتلطف الحرارة بنوافير المياه أو بالملاقف الهوائية. ومستشفيات للجراحةالتي كان يشترط فيها الجو الجاف ليساعد على التئام الجروح. لكثرة حروب المسلمين فقد طوروا أساليب معالجة الجروح فابتكروا أسلوب الغيار الجاف المغلق وهو اسلوب نقله عنهم الأسبان وطبقوه لأول مرة في الحرب الاهلية الأسبانية ثم عمم في الحرب العالمية الأولى بنتائج ممتازة. وهم أول من استعمل فتيلة الجرح لمنع التقيح الداخلي وأول من استعمل خيوطا من مصارين الحيوان في الجراحة الداخلية.. ومن أهم وسائل الغيار على الجروح التى أدخلها المسلمون استعمال عسل النحل الذي ثبت حديثا أن له خصائص واسعة في تطهير الجرح ومنع نمو البكتريا فيه..

[تحرير] العمارة

المقال الرئيسي: عمارة إسلامية

قصر الحمراء بغرناطة

قصر الحمراء بغرناطة

وكان المعمار الإسلامي يعتمد علي النواحي التطبيقية لعلم الحيل وهذا يتضح في إقامة المساجد والمآذن والقباب والقناطر والسدود فلقد برع المسلمون في تشييد القباب الضخمة ونجحوا في حساباتها المعقدة التي تقوم علي طرق تحليل الإنشاءات القشرية. فهذه الإنشاءات المعقدة والمتطورة من القباب مثل قبة الصخرة في بيت المقدس وقباب مساجد الأستانة والقاهرة والأندلس والتي تختلف اختلافا جذرياً عن القباب الرومانيةوتعتمد إعتمادا كليا علي الرياضيات المعقدة. فلقد شيد البناؤن المسلمون المآذن العالية والطويلة والتي تختلف عن الأبراج الرومانية . لأن المئذنة قد يصل إرتفاعها لسبغين مترا فوق سطح المسجد .وأقاموا السدود الضخمة أيام العباسيين والفاطميين والأندلسيين فوق الأنهار كسد النهروان وسد الرستن وسد الفرات. كما أقاموا سور مجري العيون بالقاهرة أيام صلاح الدين الأيوبيوكان ينقل الماء من فم الخليج علي النيل إلي القلعة فوق جبل المقطم. وكانت ساقية تدار بالحيوانات ترفع المياه لعشرة أمتار ليتدفق في القناة فوق السور وتسير بطريقة الأواني المستطرقة لتصل القلعة . تتميز الحضارة الإسلامية بالتوحيد والتنوع العرقي في الفنون والعلوم والعمارة طالما لاتخرج عن نطاق القواعد الإسلامية . ففي العمارة بنى أبو جعفر المنصورالخليفة العباسي، على نهر دجلة عاصمته بغداد سنة (١٤٥- ١٤٩ هـ) على شكل دائري، وهو اتجاه جديد في بناء المدن الإسلامية، لأن معظم المدن الإسلامية، كانت إما مستطيلة كالفسطاط، أو مربعة كالقاهرة، أو بيضاوية كصنعاء. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن هذه المدن نشأت بجوار مرتفعات حالت دون استدارتها. ويعتبر تخطيط المدينة المدورة (بغداد)، ظاهرة جديدة في الفن المعماري الإسلامي ولاسيما في المدن الأخرى التي شيدها العباسيون مثل مدينة سامراء وما حوته من مساجد وقصور خلافية فخمة. وظهرت مدن تاريخية في ظلال الحكم الإسلامي كالكوفة والبصرة وبغداد والقاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع

والقيروان وفاس ومراكش والمهدية والجزائروغيرها. كما خلفت الحضارة الإسلامية مدنا متحفية تعبر عن العمارة الإسلامية كإستانبول بمساجدها والقاهرة بعمائرها الإسلامية وبخاري وسمرقند ودلهي وحيدر أباد وقندهار وبلخ وترمذ وغزنة وبوزجان وطليطلة وقرطبة وإشبيلية ومرسية وسراييفووأصفهان وتبريز ونيقيا والقيروان والحمراء وغيرها من المدن الإسلامية . وكان تخطيط المدن سمة العمران في ظلال الخلافة الإسلامية التي إمتدت من جتوب الصين حتي تخوم جنوب فرنسا عند جبال البرانس. وكانت المدن التاريخية متاحف عمرانية تتسم بالطابع الإسلاني . فكانت المدينة المنورة قد وضع النبي أساسها العمراني والتخطيط حيث جعل مسجده في وسط المدينة ،وألحق به بيته وجعلها قطائع حددلها إتساع شوارعها الرئيسية. وكلها تتحلق حول مسجده. وجعل سوقها قي قلب مدينته. لتكون بلد جنده. وعلى نمط مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم أقيمت مد ن الموصل والكوفة وواسط بالعراق والفسطاط بمصر لتكون أول بلدة إسلامية بأفريقيا . وقد أقامها عمرو بن العاص كمدينة جند فجعل مسجده في قلبها وبجواره دووابن الجند ودار الإمارة ، وحولها قطائع سكنية تتحلق بمسجده . وكل قطعة كانت تضم جنود كل قبيلة . وكذلك كانت مدينة القيروان بشمال أفريقيا .وكان التخطيط العمراني له سماته الشرعية حيث تشق الشوارع بالمدينة الإسلامية تحت الريح لمنع التلوث وتقام الورش تحت خارج المدينة لمنع الإقلاق . وكان تمنح تراخيص للبناء بحيث يكون المبني من طابق أو طابقين . والأسواق كانت مسقوفة لمنع تأثير الشمس. وكان يعين لكل سوق محتسب لمراقبة البيع والأسعار وجودة البضائع والتفتيش علي المصانع للتأكد من عدم الغش السلعي والإنتاجي.وبكل مدينة أو بلدة كانت تقام الحمامات العامةلتكون مجانا. وكان لها مواصفات وشروط متفقط متبعة .وكان يتم التفتيش علي النظافة بها واتباع الصحة العامة. حقيقة كانت الحمامات معروفة لدي الإغريق والرومان. لكنها كانت للموسرين. والعرب أدخلوا فيها التدليك كنوع من العلاج الطبيعي. واقاموا بها غرف البخار (السونا).والمسلمون أول من أدخلوا شبكات المياه في مواسير الرصاص أو الزنك إلى البيوت والحمامات والمساجد.. وقد أورد كتاب "صناعات العرب" رسما وخرائط لشبكات المياه في بعض العواصم الإسلامية. ومعروف أن الكيميائيين العرب

قد اخترعوا الصابون. وصنعوا منه الملون والمعطر. وكان في كل حمام مدلك مختص. وآخر للعناية باليدين.. والقدمين وبه حلاق للشعر كما كان يلحق به مطعم شعبي. وقد قدر عدد الحمامات في بغداد وحدها في القرن الثالث الهجري (٩٥٥ م) حوالي عشرة آلاف حمام وفي مدن الأندلس أضعاف هذا العدد.

ويعتبر المسجد بيتا من بيوت الله حيث يؤدي به شعائر الخمس صلوات وصلاة الحمعة التي فرضت علي المسلمين ويقام فيه تحفيظ القرآن . وبكل مسجد قبلة يتوجه كل مسلم في صلاته لشطر الكعبة بيت الله الحرام . وأول مسجد أقيم في الإسلام مسجد الرسول بالمدينة المنورة. وكان ملحقا به بيته. وإنتشرت إقامة المساجد كبيوت لله في كل أنحاء العالم ليرفع من فوق مآذنها الآذان للصلاة. وقد تنوعت في عمارتها حسب طرز العمارة في الدول التي دخلت في الإسلام . لكنها كلها موحدة في الإطار العام ولاسيما في إتجاه محاريب القبلة بها لتكون تجاه الكعبة المشرفة . وبكل مسجد يوجد المنبر لإلقاء خطبة الجمعة من فوقه . وفي بعض المساجد توجد اماكن معزولة مخصصة للسيدات للصلاة بها . وللمسجد مئذنة واحدة أو أكثر ليرفع المؤذن من فوقها الآذان للصلاة وتنوعت طرزها. وبعض المساجد يعلو سقفها قبة متنوعة في طرزها المعمارية .

وفي المساجد نجد المحراب علامة دلالية لتعيين اتجاه القبلة (الكعبة). وهذه العلامة على هيئة مسطح أو غائر(مجوف) أو بارز .والمسلمون استعملوا المحاريب المجوفة ذات المسقط المتعامد الأضلاع. أو المسقط النصف دائري . وقداختيرت الهيئة المجوفة للمحراب لغرضين رئيسين هما، تعيين اتجاه القبلة، وتوظيف التجويف لتضخيم صوت الإمام في الصلاة ليبلغ المصلين خلفه في الصفوف. وكانت تجاويف المحاريب تبطن وتكسى بمواد شديدة التنوع كالجص والرخام والشرائط المزخرفة بالفسيفساء أو المرمر المزخرف.ونري المحاريب التي شيدها المماليك في مصر والشام من أبدع المحاريب الرخامية ، حيث تنتهي تجويفة المحراب بطاقية على شكل نصف قبة مكسوة بأشرطة رخامية متعددة الألوان. وأبرع الفنانون المسلمون في استخدام مختلف أنواع البلاطات الخزفية لتغشية المحاريب أما الخزافون في الشرق، فقد إساخدموا استخداموا بلاطات الخزف ذات البريق المعدني والخزف

الملون باللون الأزرق الفيروزي. وقد حفلت المحاريب بالكتابات النسخية التي تضم آيات من القرآن الكريم، بجانب الزخارف النباتية المميزة بالتوريق والأرابيسك . كما إستخدمت فيها المقرنصات الخزفية لتزيين طواقي المحاريب. وجرت العادة وضع المحراب في منتصف جدار القبلة بالضبط ليكون محوراً لتوزيع فتحات النوافذ على جانبيه بالتوازن.

و المئذنة (المنارة) الملحقة ببنايات المساجد لها سماتها المعمارية .و تتكون من كتلة معمارية مرتفعة كالبرج وقد تكون مربعة أو مستديرة أو بها جزء مربع وأعلاها مستدير. وبداخلها سلم حلزوني (دوار) يؤدي إلي شرفة تحيط بالمئذنة ليؤذن من عليها المؤذن وليصل صوته أبعد مدى ممكن. والمآذن المملوكية تتكون من جزء مربع ثم جزء مثمن ثم جزء مستدير بينهم الدروات ويعلوها جوسق ينتهى بخوذة يثبت بها صوارى تعلق بها ثرايات أو فوانيس. ومئذنة مدرسة لغورى بالقاهرة، أقيم في طرفها الغربى منار مربع يشتمل على ثلاثة أدوار يعلو الدور الثالث منها أربع خوذ كل خوذة منها في دور مستقل، ومحمولة على أربعة دعائم وبكل خوذة ثلاث صوارى لتعليق القتاديل أو الثريات.

[تحرير] الفنون

المقال الرئيسي: فن إسلامي

مخطوط أندلسي للقرآن من القرن الثاني عشر.

مخطوط أندلسي للقرآن من القرن الثاني عشر.

فن التصوير، أي رسم الإنسان والحيوان. فبالرغم من أن بعض علماء المسلمين الأولين، اعتبروه مكروهاً، إلا أنهم لم يفتوا بتحريمه أيام خلفاء بني أمية وبني العباس. فقد ترخصوا في ذلك حيث خلفوا صورا آدمية متقنة على جدران قصورهم التي اكتشفت آثارها في شرق الأردن وسامراء ، أو في الكتب العربية الموضحة بالصور الجميلة التي رسمها المصورون المسلمون كالواسطي وغيره، في مقامات "الحريري " وكتاب "كليلة ودمنةالتصوير في الفن الإسلاميوفن التصوير إقتصر أول الأمر على رسوم زخرفية لمناظر آدمية وحيوانية رسمت بالألوان على جدران بعض قصور الخلفاء والأمراء كما يري في إطلال قصور قصير عمرو والطوبة وسامراء

ونيسابور والحمام الفاطمي بالفسطاط غير أن التصوير في الفنون الإسلامية اكتشف مجاله الحقيقي في تصوير المخطوطات منذ القرن الثالث الهجري – التاسع الميلادي – ومن اقدم المخطوطات المصورة مخطوطة في علم الطب محفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة وأخرى لكتاب مقامات الحريري ومحفوظة بالمكتبة الأهلية في باريس وهما مزدانتان بالرسوم والصور وتمت كتابتها وتصويرها في بغداد سنة ٦١٩ – ١٢٢٢– وكانت فارس قد تولت ريادة فن التصوير الإسلامي إبان العصر السلجوقي ونهض نهضة كبيرة في عصر المغول في أواخر القرن السابع حتى منتصف القرن الثامن –الثالث عشر والرابع عشر الميلادي – وكان أشهر المخطوطات المصورة (جامع التواريخ) للوزير رشيد الدين في أوائل القرن السابع الهجري والشاهنامة للفردوسي التي ضمت تاريخ ملوك الفرس والأساطير الفارسية والمخطوطات المصورة في بغداد لكتاب كليلة ودمنة .وكان الأسلوب الفني في صور هذه المخطوطات المغولية متأثرا إلى حد كبير بالأسلوب الصيني سواء من حيث واقعية المناظر أو استطالة رسوم الأجسام أو اقتضاب الألوان .وأخذ فن التصوير الإيراني ينال شهرة عالمية في العصر التيموري وبخاصة في القرن التاسع الهجري – الخامس عشر الميلادي – وقد ظهرت فيه نخبة من كبار الفنانين الذين اختصوا بتصوير المخطوطات مثل خليل وأمير شاهي وبهزاد ويتميز التصوير الإيراني بصياغة المناظر في مجموعات زخرفية كاملة تبدو فيها الأشكال كعناصر تنبت من وحدة زخرفية وتتجمع حولها أو تمتد وتتفرع مع حرص المصورين على ملاحظة الطبيعة ومحاولاتهم محاكاتها والتعبير عن مظاهر الجمال والحركة فيها بسمائها ونجومها وأقمارها وبما تحتويه من جبال ووديان وأشجار وأزهار وبما فيها من رجال ونساء وأطفال وطيور وحيوان. وكانت العلاقة قوية بين الشعر والتصوير حيث كان التصوير نوعا من الموسيقى والمصور أشبه بالملحن لكتاب الشاعر . فكان يضع الشعر المكتوب في أشكال محسوسة ليطبع التفكير والخيال بنوع من الحقيقة والحركات المتنوعة. مما يجعله يعبر في ألوانه عن هذه الروح الموسيقية وتلك الحساسية الشاعرية. فكانت الألوان تمتزج في صوره امتزاجا عجيبا بين الزهاء والهدوء وتنسجم انسجام الألحان في المقطوعة الموسيقية بحيث تختلف الألوان في

الصورة الواحدة وتتعدد. كما تختلف فيها درجات اللون الواحد الذي ينبثق من صفاء السماء وينعكس فيه أشعة الشمس الذهبية الصافية. فالتصوير الإيراني كان فنا تعبيريا عن الشاعرية والعاطفة من خلال تسجيل ما في الطبيعة من حقائق جذابة وما في القلوب من خيال أخاذ ونغمات دفينة ..

الزخرفة

وتعتبر الزخرفة لغة الفن الإسلامي، حيث تقوم على زخرفة المساجد والقصور والقباب بأشكال هندسية أو نباتية جميلة تبعث في النفس الراحة والهدوء والانشراح. وسمي هذا الفن الزخرفي الإسلامي في أوروبا باسم "أرابسك" بالفرنسية وبالأسبانية "أتوريك" أي التوريق. وقد إشتهر الفنان المسلم فيه بالفن السريالي التجريدي من حيث الوحدة الزخرفية النباتية كالورقة أو الزهرة،

توقيع طغرة السلطان عبد الحميد الأول

توقيع طغرة السلطان عبد الحميد الأول

وكان يجردها من شكلها الطبيعي حتى لا تعطى إحساسا بالذبول والفناء، ويحورها في أشكال هندسية حتى تعطي الشعور بالدوام والبقاء والخلود. و وجد الفنانون المسلمون في الحروف العربية أساسا لزخارف جميلة. فصار الخط العربي فناً رائعاً، على يد خطاطين مشهورين. فظهر الخط الكوفي الذي يستعمل في الشئون الهامة مثل كتابة المصاحف والنقش على العملة، وعلى المساجد، وشواهد القبور. ومن أبرز من اشتهر بكتابة الخط الكوفي، مبارك المكي في القرن الثالث الهجري، وخط النسخ الذي استخدم في الرسائل والتدوين ونسخ الكتب، لهذا سمي بخط النسخ. وكان الخطاطون والنساخ يهتمون بمظهر الكتاب، ويزينونه بالزخرف الإسلامية. كما كانت تزين المصاحف وتحلى المخطوطات بالآيات القرآنية والأحاديث المناسبة التي كانت تكتب بماء الذهب.

[تحرير] الصناعة

[تحرير] صناعة السفن والملاحة

وكانت صناعة السفن في كل أنحاء العالم الاسلامي في ظلال الخلافة الإسلامية الأموية والعباسية .فلقد ظهرت صناعة السفن والأساطيل في موانيء الشام بعكا

وصور وطربلس وبيروت وحيفا . وفي المغرب كانت هناك طرابلس وتونس وسوسة وطنجة ووهران والرباط. وفي الأندلس اشتهرت إشبيلية ومالقة ومرسية وفي مصر اشتهرت المقس والاسكندرية ودمياط وعيذاب (على ساحل البحر الأحمر).وكانت المراكب النيلية تصنع بالقاهرة .وكانت ترسانات البحرية لصناعة السفن يطلق عليها دور الصناعة . وكان الأسطول يتكون من عدة أنواع من السفن مختلفة الحجم ولكل نوع وظيفة. فالشونة كانت حاملات للجنود، والأسلحة الثقيلة

وفي علوم الملاحة وعلوم البحار كتب الجغرافيون المسلمون كتبهم. فضمنوها وصفا دقيقا لخطوط الملاحة البحرية، كماوضعوا فيها سرودا تفصيلية لكل المعارك الإسلاميةالبحرية، ثم وصفوا فيها البحار والتيارات إلما ئية والهوائية، ومن أشهر الجغرافيين العرب المسعودي والمقدسي وياقوت الحموي والبكري والشريف الادريسي ومن الرحالة ابن جبير وابن بطوطة. وهناك كتب ابن ماجد في علوم البحار مثل كتاب "الفوائد في أصول علم البحر والقواعد" وأرجوزته بعنوان "حاوية الاختصار في اصول علم البحار" وهناك مخطوط باسم سليمان المهري عنوانه "المنهاج الفاخر في العلم البحري الزاخر: و"العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية".

[تحرير] المصادر

... هناك كتاب ، عبقرية الحضارة الإسلامية، في ويكي الكتب.

* الموسوعة العربية
* عبقرية الحضارة الإسلامية لأحمد محمد عوف.
* موسوعة حضارة العالم لأحمد محمد عوف.

================

الحضارة التائهة

صورة للسلطان عبد الحميد الثاني

راودتني فكرة هذا المقال منذ عشرين عاماً، فكرت فيها طويلاً، وقرأت عنها كثيراً إلى أن بلورتها وأوجزتها في عنوان هذا المقال.

كنت أعرض فكرتي وأوضحها للناس فيعجبون بها ويؤيدونها ولكنهم لم يحفزونني بالقدر الذي يدفعني للكتابة عنها في مقال مستقل رغم أنني بثثتها في العديد من

مقالاتي وبرامجي التي أعدها، إلى أن دعيت إلى لقاء للاستماع إلى المؤرخ الكبير الأستاذ محمد حرب حفظه الله ، مترجم مذكرات السلطات عبد الحميد الثاني رحمه الله، تلك المذكرات التي كانت المحرك الأول لفكرتي والدافع لي لتعرف تاريخ الدولة العلية العثمانية، فقد تعلمت من هذه المذكرات عظمة السلطان العظيم عبد الحميد الثاني رحمه الله، ومن ثم تعرفت تاريخ الدولة العلية العثمانية، وجمعت عنها مئات الكتب، وكتبت عنها عشرات المقالات ولم أترك مناسبة إلا وتكلمت فيها عن الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية، ولهذا السبب دعيت الليلة ١٤/٦/٢٠٠٤م للقاء المؤرخ الحبيب الذي أحببته دون أن أراه، وتعلمت منه دون أن أجلس إليه، راودتني فكرة المقال بقوة وعندما عرضتها على الدكتور محمد حرب حفظه الله قال: هذه فكرة متميزة، وهذا الذي جعلني اكتب هذا المقال وأنا مطمئن تماماً لصحة فكرتي وجدواها .

تبدأ قصة هذا المقال بالدولة النبوية الإسلامية الأولى في المدينة المنورة التي أسسها المصطفى صلى الله عليه وسلم ومعه الصحابة رضي الله عنهم بوحي من الله، وبالعمل المخلص الجاد من الصحابة، فكانت تلك الدولة هي الجزيء الوراثي العجيب الذي يحمل في خارطته الوراثية كل خصائص الحضارة الإسلامية القوية موثقة بالوحي وجهود المؤمنين على خيطي الجزيء الوراثي الإسلامي ، القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، بدأت تلك الدولة ضعيفة مهاجرة من مكة إلى المدينة، وبلغت ذروتها وكملت وحصلت على الوسام الإلهي المعجز { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً } [المائدة : ٣] . وتوفي النبي صلى الله عليه وسلم ، وبدأ المرتدون يهدمون في الدولة الإسلامية، فقام الصحابة رضوان الله عليهم بحمايتها من أعدائها بقتال الصديق للمرتدين ، وبلغ التطبيق العملي ذروته في عهد الفاروق، وبدأت الخلافات في عهد ذي النورين ، ثم وصلت الدولة الراشدة إلى الفتنة الكبرى في عهد أبي الحسن رضي الله عنهم أجمعين، وبدأ الأعداء يتربصون للقضاء على الدولة الإسلامية والحضارة الإسلامية .

وهنا تلقف الأمويون (٤٠ – ١٣٢ هـ ٦٦١ – ٧٥٠ م) الحضارة الإسلامية وأنشئوا الدولة الأموية التي ظلت تقوى إلى بلغت قمتها في عهد عمر بن عبد العزيز (

٧١٨ – ٧٢٠ م) ثم بدأ الضعف يدب في الدولة إلى أن انهارت الدولة الأموية في عهد مروان بن محمد بن مروان بن الحكم (٧٤٤ – ٧٥٠م) .

وهنا تلقف العباسيون في بغداد (٧٥٠م – ١٢٥٨م) الدولة الإسلامية والحضارة الإسلامية ثم قويت الدولة إلى بلغت ذروتها في عهد هارون الرشيد (٧٨٦ – ٨٠٩م). والمأمون بن هارون الرشيد (٨١٣ – ٨٣٣م) ثم ضعفت ووصلت إلى عهد المستعصم بالله في بغداد (١٢٤٢ – ١٢٥٨م)، والمتوكل على الله في مصر (١٥١٥ – ١٥١٦م).

وهنا تلقف المماليك البحرية (١٢٥٠ – ١٢٧٩) ، والمماليك البرجية (١٢٧٩ – ١٣٨١م) ، والمماليك الشراكسة (١٣٨٢ – ١٥١٧م) ، تلقفوا ، الحضارة الإسلامية ليعيدوها من طور الضعف إلى طور القوة والذروة ثم بدأ الضعف يدب في الدولة رويداً رويداً إلى أن ضعفت كما سبق .

وهنا تلقفت الدولة العلية العثمانية (١٢٩٩ – ١٩٢٤م) الحضارة الإسلامية والدولة الإسلامية من حالة الضعف لتصل إلى أوج قوتها في عهد سليمان القانوني (١٥٢٠ – ١٥٦٦م) وبدأ الضعف يدب في الدولة العثمانية رويدا رويدا إلى أن ضعفت كما ضعفت الدولة الأموية والدولة العباسية ودولة المماليك.

وهنا تطلعت الحضارة الإسلامية إلى من تعودت منهم إنقاذها بضعف الدولة التي تحميها وتحمل رسالتها ، فنادها المسلمون العرب لكي يقيموا دولة الخلافة الإسلامية العربية ، وجاءت الحضارة الإسلامية كعادتها إلى أبنائها في البلاد العربية ، وخاصة في الجزيرة العربية ومكة والمدينة ، ولكن للأسف ولأول مرة في حياتها لم تجد أبناءها في انتظارها، وجدتهم قد تخلوا عنها وخانوها، لم تجدهم كأبنائها من الخلفاء الراشدين، والأمويين، والعباسيين، والمماليك، والعثمانيين، بل وجدتهم قبليين جهلاء طامعين مخدوعين جرفهم الاستعمار إلى أحضانه، وضحك عليهم لورانس العرب بعقاله وشماغه، وضللهم مكماهون وقسمهم سايكس – بيكو، وألهوهم بسراب حكمهم للدولة الإسلامية ومصالحهم الشخصية.

توماس إدوارد لورنس.

جاءت إليهم الحضارة الإسلامية فلم تجدهم في استقبالها ، فتاهت في محطة الوصول العربية وبلد الوصول المفتنة بالفتن والمطامع الجاهلية فتاهت ولم تزل تائهة.

أنها حضارة لن تموت لأن جزيئاتها الوراثية ربانية ، ولكنها تائهة فقط وسيقيض الله لها من أحفادها من بعيدون لها دورتها ، لتصل إلى ذروتها بإذن الله (يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ [التوبة : ٣٢] وهكذا أخوة الإسلام تاهت الحضارة الإسلامية ، فمن منا ينادي عليها ، وينادي على المخلصين من أحفادها ليعيدوها إلى ديارها الإسلامية ، ويعيدوها إلى سابق عهدها وإلى تكملة رسالتها الإنسانية؟ فبغيابها طغت الحضارة المادية اللا أخلاقية التي انتهكت حرمات المسلمين في فلسطين، والبوسنة، والهرسك، والشيشان، والصومال، والسودان، وأفغانستان، والعراق و . . . و . . .

لا تفقدوا الأمل أخوة الإسلام فالمستقبل لهذا الدين، والحقبة التالية من التاريخ هي حقبة المسلمين بإذن الله .

الدكتور : نظمي خليل أبو العطا

مع الصائمين العدد (٩٧١٥) الخميس ١٤ رمضان ١٤٢٥ هـ - ٢٨ أكتوبر ٢٠٠٤ م

===============

#ملامح الوحدة في حضارة العالم الإسلامي

حضارات ما قبل الإسلام

الحضارة الإسلامية، مثل غيرها من الحضارات، لم تنشأ من فراغ ، ولم تظهر من العدم أو من تلقاء نفسها، بل سبقتها حضارات عريقة أخرى في هذه المنطقة من العالم، تواصلت معها وأثرت فيها.

ففي القرن الرابع قبل الميلاد، قام الاسكندر المقدوني (٣٥٦- ٣٢٣ ق. م) بأول محاولة لإقامة دولة واحدة تشمل أقاليم من أوروبا وأسيا وأفريقيا، وتمتد من مقدونيا إلى الهند. ولم يكتف الاسكندر بهذا التوحيد السياسي، بل اتخذ وسائل أخرى لتوحيد العناصر البشرية في هذه المنطقة من العالم، مثل احترام جميع أديانها، والصلاة ني

مختلف معابدها، وتأسيس عدد كبير من المدن الجديدة التي عرفت باسم "الإسكندريات " نسبة لاسمه، ويقدر عددها بنحو ٢٧ مدينة، بعضها في بلخ وصغديانا ، وفي أسفل القوقاز، وفي مصر... الخ. وكان هدفه من وراء ذلك أن تختلط في هذه المدن عناصر بشرية من السكان الأصليين مع الجاليات اليونانية ، لينشأ من هذا الاختلاط ثقافة جديدة، تستمد أصولها من الحضارات السابقة.

وهكذا صارت "الإسكندريات " بمثابة بوتقات علمية، تنصهر فيها هذه الثقافة الجديدة.

وقد حرص الاسكندر الأكبر على تطبيق هذه المبادرة على نفسه، ليكون قدوة لغيره حين تزوج الأميرة روكسانا الفارسية ، وأمر قواده ان يفعلوا مثله.

وعلى الرغم من أن دولة الاسكندر لم تلق نجاحاً بعد وفاته، إذ تفككت إلى ممالك متفرقة بين قواده ، إلا أن الحركة العلمية التي كان ينشدها استمرت وازدهرت من بعده، وهي التي اشتهرت باسم "العصر الهلنستي " ، تمييزاً لها عن العصر الهليني الذي ساد اليونان قبل عصر الاسكندر. ومن أشهر المراكز الهلنستية الجديدة، مدينة الإسكندرية المصرية بمكتبتها ومدرستها العلمية التي كانت مزيجا من كل الحضارات السابقة، وخصوصا الحضارة المصرية القديمة.

وفي شمال الهند في حوض نهر السند ، حاول الملك الهندي أشوكا Ashoka في القرن الثالث قبل الميلاد، أن يجعل من البوذية دينا عالميا، وبشر به ملوك الأرض ولا سيما في بلاد الإغريق والدول الهلنستية ، لإقامة وحدة عالمية. وعلى الرغم من أن عدداً كبيراً من اليونانيين اعتنقوا البوذية، إلا أن محاولته لم تلق الاستمرار والنجاح، وبقيت البوذية قاصرة على أقاليمها في الهند والشرق الآسيوي .

ومحاولة الملك أشوكا في الهند تذكرنا بمحاولة شبيهة رائدة ، سبقتها بوقت طويل على يد فرعون مصر الملك أخناتون في القرن الرابع عشر قبل الميلاد (الأسرة ١٨)، عندما بشر في نشيده المشهور بإله العالم "أتون " الذي يهتم بكل مظاهر الطبيعة ، إنسانها وحيوانها ونباتها، وكأنما أراد بذلك إقامة وحدة عالمية روحية، تربط على الأقل بين أجزاء مملكته الممتدة من الشام شمالاً إلى النوبة جنوباً .

وما يقال عن مصر والهند واليونان ، يقال أيضاً عن الحضارة الفارسية ذات التراث الآسيوي العريق ، والتقاليد الملكية القديمة ، والنظم الإدارية المتطورة، إلى جانب المراكز الهلينية المنتشرة في أنحائها مثل بلخ ، ومرو ، وجنديسابور... وغيرها. لقد بد أ الإيرانيون حياتهم الدينية مثل كثير من شعوب العالم ، بعبادة قوى الطبيعة ، ثم ظهرت "الزرادشتية" على يد مؤسسها زرادشت zoroustre في القرن السابع قبل الميلاد ، منادية بأن الوجود قائم على مبدأين أساسيين هما: الخير (أهورا ويسمى يزدان) ، والشر (أهرمن) ، أو النور والظلام. وبما أن النور مصدره الشمس، والشمس من نار، لهذا لعبت النار دوراً هاماً في هذه العقيدة ، باعتبارها مصدر الإشراق والنور والضياء، فقدسوها وعبدوها، وصار لهم كتاب مقدس يعرف "بالأفستا" أي المعرفة. غير أن الزرادشتية لم تلبث مع مرور الزمن بسبب سيطرتها وتعصبها، أن ووجهت بحركات دينية مضادة مثل "المانوية، على يد "ماني Manes" في القرن الثالث الميلاري، وأتباعها لهم نزعة صوفية هدامة، تحض الناس على التقشف وعدم الزواج والإنتاج، ويرون ان الخير في العدم المطلق. ولهذا حوربت وبقيت دعوة سر ية.

وإذا كانت "المانوية" ٣ دعت إلى الزهد والبعد عن النساء، فإن ديناً آخر لم يلبث أن ظهر في ايران وهو "المزدكية" على يد صاحبه "مزدك " الذي دعا الناس إلى حل مشكلاتهم ونبذ خلافاتهم بجعل الحق في الأموال والنساء مشاعاً بينهم. وقد نجح سعيه بين العوام والمحرومين، ولكنه مات قتيلاً في منتصف القرن السادس الميلادي ، وبقيت دعوته سرية مثل "المانوية" وكل هذا يدل على حالة الاضطراب والفوضى الدينية فى إيران قبيل الإسلام.

وهكذا نرى مما تقدم، أنه كانت هناك في هذه المنطقة من العالم، حضارات عريقة نشأت قبل الإسلام، وسادتها روابط وصلات مختلفة، بل كانت هناك محاولات لتوحيد بعض مكوناتها لم يكتب لها النجاح، ولكنها مع ذلك صبغت هذه المنطقة بروح جديدة وهي الروح الشرقية التي أخضعت الفلسفة اليونانية لما دخلت بلادها، فأسبغت عليها ثوباً من روحانياتها وإلهامها ، وهي الروح التي جعلت علماء التاريخ والاجتماع يدركون خصائص مشتركة بين الشرق، تخالف تلك التي للغرب، روح

ورثها الشرقي من أجيال ، وساعدت على تكوينها بيئاتهم الطبيعية والاجتماعية، وجعلتهم يتذوقون غير ما يتذوقه الغربي، ويدركون الأشياء على غير النمط الغربي، كما جعلت لهم مدنيات تحالف من وجوه كثيرة المدنيات الغربية . جاءت الأديان المختلفة من: بوذية وزرادشتية ويهودية ونصرانية، فصبغت هذه الروح صبغة خاصة، صبغة لا مادية، تؤمن بإله فوق العالم، وترجو جنة، وتخاف ناراً، وترى أن وراء هذه السعادة الدنيوية، والشهوات الجسمية، سعادة أخرى روحية.

جاء الإسلام كمنهج حياة ، يرسم الطريق وينير سبل الهداية. منه انبثق الحل العلمي والدائم لمشاكل الإنسانية التي كانت تشكو من الفراغ الديني والفكري والسياسي والثقافي ، فالفكر اليوناني- الإغريقي لم يؤمن إلا بالمحسوس وافتتن بلذائذ الدنيا ومغريات الحياة وغلبت عليه النزعة الإقليمية الضيقة باعتماده على المنهج الاستنباطي أو القياس القائم أساساً على النظر الفلسفي والفكري المادي دون الالتفات لمنهج التجربة فكأن الفكر اليوناني اقتصر على المادية ثقافة وعلماً وفلسفةً وشعراً ودنيا.

والفكر الروماني مجد القوة العسكرية إلى حد العبادة والتقديس، وتميز بالنظرة المادية المحضة إلى الحياة، فكانت محصلته ، غلوا في تقدير الحياة وشكاً في الدين وضعفاً في اليقين واضطراباً في العقيدة ، فتعددت الآلهة، وترتب على ذلك أحداث البغضاء بين الله والإنسان، وما الحياة عندهم إلا فرصة للتمتع، ترف في العيش وانتهاب للذات. والفكر الفارسي قبل الإسلام اعتمد تقوية السلطان والقوة الجسدية وقال بجريان الدم الآلهي في عروق أكاسرته وأشاع بين الناس نظرية التفاوت الطبقي.

وعلى الجانب الآخر من العالم، في الصين والهند، كان الاختلال يبدو واضحا فيما يتصل بالجوانب النظرية أو الجوانب العملية من حياة الإنسان فيطغى أحدهما على الآخر، إذ يغرق أحياناً في الروحانيات أو يطغى في الماديات، فلا توازن ولا انسجام. وبنزول الإسلام اتضحت معالم الحياة الدنيوية والأخروية تمام الوضوح فبالألوهية والربوبية ، تحققت العدالة والمساواة والكرامة والحرية للإنسانية، فالله سبحانه وتعالى وحده هو المعبود، والمسلم ينقاد ويخضع لأوامر الله سبحانه وتعالى وحده، والله جل جلاله هو مالك كل شيء، ولم يكن الإسلام محدود المكان ولا وطني النزعة ولا

مغلقاً على أهله ولا طبقياً، وإنما كان إنسانياً عاماً، واسع الأفق، يخاطب أي إنسان في أي مكان ويقيم أخوة إنسانية عامة .{ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم } (الحجرات . آية ١٣) .

وكانت نظرة الإسلام للإنسان والحياة شاملة، فقد أقر الإنسان كجسم وعقل وروح، في الجسم، النوازع والغرائز ، والعقل وسيلة لتحقيق الرغبات والنوازع وتذليل العقبات التي تعترض ذلك، والروح، مركز الأمل والألم والعواطف والشعور، وكان التهذيب هو عامل التوازن بين الروحانية والمادية ، فالروحانية المهذبة هي أساس المادية المهذبة " وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا " (القصص- أية ٧٧) وفي الأثر، إن لربك عليك حقاً ، إن لجسمك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه.

وفي الإسلام، تظل علاقة الإنسان بخالقه ، علاقة قوامها التنظيم والهيمنة ، فالإنسان المسلم يسلم نفسه لبارئه وخالقه، بلا واسطة، وإنما برقابة ذاتية تنبىء عن شخصية قوية مستقلة للإنسان المسلم عبدت الله سبحانه وتعالى حق عبادته وانكبت إلى دنياها فتمتعت بحقها في الحياة كما أمر الله جل جلاله.

فلما جاء الإسلام ونشر نوره عن هذه الممالك الشرقية، زاد هذه الروح وقواها، وعمل على توحيدها بين أفراد الدولة الإسلامية مهما اختلفت أجناسهم وأنواعهم. وهكذا نجح الإسلام بوصفه عقيدة دينية ومنهجاً للحياة وقوة موحدة، في إقامة وحدة بشرية في رحاب الخالق، تقوم على الحرية والمساواة والتسامح، وتعمل على إزالة الحواجز السياسية بين البلاد المختلفة الممتدة في القارات الثلاث، وتعطيها شكلاً موحداً . فكان المسلم يجد نفسه في كل هذه الأماكن: نفس الدين ونفس الصلوات والقوانين، حتى أنه كان يشعر دائماً بأنه في وطنه خلال رحلاته البعيدة أو أثناء عملياته التجارية خارج بلاده. فالإسلام، كما يقول البعض ، كان بمثابة جواز سفر فوق العادة، يضمن لصاحبه حرية التنقل والمرور، بل وحسن الاستقبال في كل مكان يحل فيه.

ويلاحظ في هذا الصدد أن المجتمع الإسلامي في العصر الوسيط ، لم يكن- كما هو الحال اليوم- ينقسم إلى قوميات، بل كانت هناك طبقات أفقية على طول امتداد عالم الإسلام، فهناك طبقات العلماء والتجار والمتصوفة والجنود... الخ. وكان أفراد

كل طبقة يتعاطفون فيما بينهم مهما بعدت المسافات واختلفت الجنسيات. فالرحالة المغربي "ابن بطوطة " يصرح بأنه استطاع بخرقة التصوف أن يجوب بلاد العالم الإسلامي، وأن يجد كل ترحيب ومساعدة في الأماكن التي مر بها. ود هذا يدل على وجود ما يصح أن يسمى أمة واحدة ، لها أدب واحد ، وثقافة واحدة ، وعلم مشترك. فالعالم الإسلامي إذن يمثل وحدة تاريخية فريدة من نوعها مهما باعدت بين أجزاء هذا العالم المسافات، وفرقت بين أطرافه المذاهب والسياسات، فالفرقة السياسية بين دوله وحكوماته لم تحل دون لقائها على الصعيدين الشعبي والحضاري. ذلكم بأن الإيمان بالإسلام كنظام متكامل للأخلاق والمدنية والاجتماع والاقتصاد والسياسة يظل صمام ا لأمان بين المسلمين أينما كانوا، فهو الذي يقيم قواعد حضارة الإسلام ويميز عناصر الحضارة الصالحة عن عناصرها الرديئة، يدافع عن نظامه ويجذر أصوله، وعلي هذا الإيمان تتوقف أخلاق الأفراد ووحدة الأمة، وحفظ الوجود الحضاري للامة الإسلامية، فالمبادىء التي طرحها الإسلام قادرة على فرز عناصر قوية تتصدى لجميع الأنظمة السياسية والأفكار الفلسفية التي تحاول النيل من الإسلام. ويصمد أمام زحف النظريات المادية والرأسمالية والشيوعية في حين أن الديانات الأخرى لم تصمد أمام زحف تلك النظريات فشاعت النظريات وانتشرت بين أممها وشعوبها.

================

#ملامح الوحدة في حضارة العالم الإسلامي

ظهور الإسلام وانتشاره

تبدأ قصة الحضارة الإسلامية على يد أشرف المرسلين محمد بن عبد الله (r) حينما أنزل الله على قلبه القرآن الكريم ، الدستور الخالد للإسلام والمسلمين، ليهتدي به البشر في كل زمان ومكان . { الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد } (سورة ابراهيم- أية ١) وقد تكفل الله بحفظه باعتباره المصدر الأول للتشريع في قوله تعالى :" إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له حافظون " (سورة الحجر – أية ٩).

وبعد القرآن الكريم تأتي سنة الرسول (r) التي منها نستكمل أحكام الدين ونستوضح بعض أركان تعاليمه. فعلى أساس هاتين الدعامتين: القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، تقوم تعاليم الإسلام في الأمور الدينية والدنيوية.

فالإسلام على هذا الأساس: دين أولاً ، ودولة ثانياً ، إلى جانب كونه حضارة وثقافة ورسالة إصلاحية تتمثل فيها ذرى العلوم والمعارف. ومحمد صلوات الله عليه، ما هو إلا رسول كريم، ومصلح كنير له رسالة سامية يراد له تنفيذها. وبطبيعة الحال لقيت هذه الرسالة معارضة كبيرة لأنها تريد من الإنسان ترك عاداته ومعتقداته التي يعتز بها والتي ورثها عن آبائه وأجداده. وحررت رسالة الإسلام الإنسان من عبادة غير الله سبحانه وتعالى، لأن في عبادة الإنسان غيره إلغاء لعقله وكيانه وتعطيلاً لطاقاته المادية والمعنوية، ورفعته على جميع المعتقدات بربطه بجسر روحي ومادى مع خالق الإنسان دون وسيط أو دخيل، في الوقت الذى كانت جميع الأديان السابقة تفصل بين الفرد وخالقه بوساطات وهياكل وطقوس كهنوتية قال تعالى: { اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله } (التوبة . آية ٣١) ، وقال تعالى : { أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً} (الفرقان– آية ٤٣، ٤٤)، ومن هنا كانت معارضة أصحاب الهوى والمصالح لرسالة الإسلام. والإنسان محافظ بطبعه، ولا يندفع إلى التجديد إلا إذا دفع إلى ذلك دفعاً . فالحضارات لم تأت عفواً، وإنما جاءت بعد تضحيات كثيرة. ومن هنا كانت المعارضة لرسالة النبي من جميع نواحيها الدينية والأخلاقية والاجتماعية أمراً طبيعياً.

وقد لجأ أصحاب هذه المعارضة إلى تحدي الرسول(r) والاستهزاء به، واتهامه بشتى الاتهامات، كالجنون، أو السحر والشعوذة، أو حب الرياسة والسلطان، ثم تطورت المسألة إلى الرغبة في التخلص منه.

وهنا يضطر الرسول (r) أن يغادر موطنه العزيز على قلبه، مكة المكرمة، وهو كاره حزين، متجهاً إلى "يثرب ". وفي خلال الطريق في مكان يسمى "الجحفة"، واساه الحق سبحانه وتعالى مبشراً إياه بعود حميد في قوه، تعالى : {إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد } (سورة القصص– أية ٨٥).

وبعد مسيرة ثمانية أيام، استقر الرسول في، يثرب " في ١٦ ربيع الأول (٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ م) وهذا ما نسميه بالهجرة، وهو حدث عظيم في تاريخ الإسلام لأنه يعتبر بدء رسوخ الإسلام وتدعيمه، ولهذا جعله عمر بن الخطاب بداية التاريخ عند المسلمين.

وجد الرسول (r) مدينة "يثرب " منقسمة على نفسها انقساماً شديداً، فهناك اليهود من جهة، وعرب الأوس والخزرج من جهة أخرى. واستطاع اليهود أن يوقعوا بين قبيلتي الأوس والخزرج، فقامت بينهما حروب طاحنة أهمها الموقعة المعروفة "بيوم بعاث " قبيل الهجرة بنحو خمس سنوات. وفيها هلك من الفريقين عدد كبير من أكابرهم وأشرافهم، مما أدى إلى ظهور اليهود وسيطرتهم على أراضي ا، يثرب "واقتصادياتها، ورأى المنتصر والمهزوم من عرب، يثرب)، سوء ما صنعوا، وتطلعوا إلى فترة يسودها السلام والهدوء، والدليل على ذلك تلك الأعمال الأولى التي قام بها الرسول هناك في سبيل توحيد الصفوف وتأليف القلوب.

وهنا يبدأ طور جديد من أطوار حياة الرسول لم يسبقه إليه أحد من الأنبياء والرسل، وهو طور سياسي أبدى فيه الرسول من الحنكة والمهارة ما مكنه من أن يصل "بيثرب " وبمجتمع أهل المدينة إلى وحدة سياسية منظمة لم تكن معروفة من قبل في سائر أنحاء الحجاز.

وفيما يلي بيان الأسس التي قامت عليها هذه الجماعة الإسلامية الأولى في المدينة المنورة:

(١) بناء المسجد الجامع ليكون مركزا للعبادة، وقاعدة للدراسة والتشاور في الشئون العامة.

(٢) المؤاخاة بين "المهاجرين " من أهل مكة و "الأنصار" من أهل يثرب، أخوة روحية تنص على وجوب التناصر والتعاون والتكافل.

(٣) وضع دستور عرف باسم "الكتاب أو الصحيفة"، لتنظيم هذه الجماعة الإسلامية الأولى كأمة واحدة، تسودها الوحدة والترابط، وكذلك تنظيم العلاقة بين المسلمين ويهود يثرب الذين أقرتهم الصحيفة على دينهم وأموالهم ما داموا مع المسلمين .

وهكذا استطاع الرسول (r) بقدرته السياسية الفائقة، أن يوحد صفوف هذه الأمة المعقدة بأحزابها وفرقها المختلفة، وأن يحدد شكل الدولة الإسلامية أو المدينة الإسلامية، كدولة ومدينة في أن واحدCity- State . تسكنها جماعة متجانسة من الناس، وتنظم أمورها بنفسها وفق دستور مكتوب.

ثم اتسع نطاق هذه الجماعة الإسلامية أو دولة الرسول بالمدينة على صورة دولة عربية إسلامية، شمل نفوذها الحجاز وتهامة ثم الجزيرة العربية كلها، وتلك كانت حدودها عند وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام في (١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ) (يونيو ٦٣٣ م).

ولم تلبث هذه الدولة العربية الإسلامية الفتية أن قامت بإنجازات عسكرية وحضارية والسعة النطاق في عهد الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية (١١- ١٣٢ هـ/٦٣٣-٧٤٩ م) ومن أهمها حركة الفتوحات الكبرى التي زادت في مساحتها.

==============

#ملامح الوحدة في حضارة العالم الإسلامي

الفتوحات الكبرى وانتشار ا لإسلام

انتشر الإسلام وازدادت الدولة اتساعاً في طورين أساسيين:

العهد الراشدي: (١١ هـ/٦٣٢ م- ٠ ٤ هـ/١ ٦٦ م):

في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر وصدر خلافة عثمان، وشمل فتح الشام والعراق ومصر وفارس، وقد حمل العرب إلى تلك الأقطار مبادىء دينهم الحنيف، الذي انتشر فيها، وأقبل أهلها على اعتناقه لسمو مبادئه وذلك طواعية واختيارا ودون إكراه من جانب العرب الفاتحين عملاً بقول القرآن :{ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي } . (سورة البقرة: ٢٥٦) وقوله تعالى : { ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين } (سورة النحل: ١٣٥).

فلما أقبل كثير من أهل البلاد المفتوحة على الإسلام، نشأت الطبقة المعروفة "بطبقة الموالي " في تلك البلاد. ولا شك أن نجاح العرب في فتوحاتهم في هذا الطور الأول يرجع إلى قوة إيمانهم واتحادهم، وإلى نظرتهم العادلة إلى أهل البلاد المفتوحة، فكانوا

يكتفون بالجزية من أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وحتى عندما فتحوا فارس ، أنزلوا المجوس (الزرادشتية) منزلة أهل الكتاب واكتفوا منهم بالجزية.

العهد الأموي: (٤١ هـ/٦٦١ م-١٣٢ هـ/٧٥١ م):

في عصر الدولة الأموية في أواخر القرن الأول الهجري. ويمتاز هذا الطور عن سابقه، بأن العناصر المحلية أو الموالي الذين دخلوا في الإسلام، وقفوا جنباً إلى جنب مع العرب في فتوحاتهم الجديدة التي شملت أقاليم "خراسان"، "وما وراء النهر (نهرجيحون) "، و"حوض السند"، وبلاد "المغرب والأندلس ". ومن المعروف كذلك أن موالي القبط اشتركوا مع العرب في قتال الروم في البحر في موقعة ذات الصواري سنة ٣٤ هـ/هـ ٦٥ م- كما أصبح البربر بعد اعتناقهم الإسلام يشكلون الكثرة الغالبة في الجيوش الإسلامية التي فتحت الأندلس وجنوب فرنسا.

وكان هذا التعاون الوثيق بين العرب وبين العناصر المسلمة الجديدة في ظل الدولة الإسلامية، من أقوى الأسباب في مد نطاق الفتوح الإسلامية في هذا الطور الثاني الذي تضاعفت فيه رقعة الدولة الإسلامية التي امتدت من أواسط آسيا شرقاً، إلى المحيط الأطلسي غرباً، فالوحدة التي شملت جميع العناصر الإسلامية من عرب وفرس ومصريين وبربر وهنود هي السر في امتداد الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً ويعزى لبني أمية الفضل في توحيد الثقافة في العالم الإسلامي، إذ كانوا قد نجحوا في نشر الإسلام في رقعة واسعة من الأرض تضم شعوباً مختلفة وثقافات متنوعة. تعرضت لتأثيرات يونانية ورومانية، وسريانية وآشورية، كان من الممكن أن تسيطر على الثقافة العربية الإسلامية لولا ما اتصف به خلفاء بني أمية من إحساس عميق بالقيم الفكرية والخلقية للتراث العربي القديم والمعرفة الواسعة بالدين الإسلامي الجديد، والرغبة العارمة في أداء الواجبات الرئيسية لأمير المؤمنين والتي تتمثل في حماية الدين الإسلامي والعمل على نشره، إضافة لصفة التفتح العقلي التي اتصفوا بها، واستعدادهم الطبيعي للإفادة من خبرات الآخرين، ولذا فقد عمل الأمويون على طرح أساليب العمل، وأنشأوا المؤسسات لتتولى عملية تثبيت الإسلام ونشر اللغة العربية بين المجتمعات الإسلامية الجديدة، فأكثر الأمويون من فتح الكتاتيب العربية لتعلم الكتابة، واستدعي أعلام الفكر والأدب لعقد ندواتهم

ومناظراتهم بحضور الخلفاء ومن ثم الاهتمام بالمكتبات وتنميتها، والإبقاء على المدارس الأجنبية في نصيبين وحران وعدم التعرض لنشاطها، مما ساعد تلك المدارس على الاستمرار في أعمال الترجمة، والاستعانة بأهل البلاد المفتوحة من عرب وغيرهم للمساهمة في المجالات الحياتية الجديدة، وأعطى بنو أمية للعلوم النظرية والتطبيقية عناية متميزة، فظهرت علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والسير والمغازي ، وكانت العناية بتلك العلوم ملحة لتسهم في استقرار البلاد الإسلامية وذلك بغرض تعميق تمسكها بالدين الإسلامي، وإتقانها العربية، لغة القرآن الكريم.

ومن الجدير بالذكر أنه توفرت في الدولة الأموية كل العوامل التي تساعد على قيام مراكز ثقافية تعنى بالنشاط العلمي ، فكانت البصرة والكوفة علاوة على دمشق ، العاصمة، نقاط التقاء الثقافات وتقاطر أهل العلم والمعرفة من مختلف البلدان والأمصار عليها للدراسة.

لقد كانت جهود بني أمية واضحة في انكفائهم لتشجيع العلوم ورعايتهم لحركة الترجمة،- وتمثل ذلك- بجهود خالد بن يزيد، حكيم بني أمية/ الذي اشتغل والراهب ماريانوس في ترجمة العديد من الكتب اليونانية، ومثله فعل ماسرجويه في عهد مروان بن الحكم، ٦٤ هـ/٦٨٣ م الذي ترجم كتاب أهرن بن أعين الطبي، وسرجون بن منصور، وطبيب الحجاج ثاوذون.

لقد كان للأمويين فضل الريادة في الاتجاه نحو ثقافات الشعوب التي انتشر بينها الإسلام، وعملوا على استيعاب تلك الثقافات، وتعاملوا بمهارة مع المشكلات والعقبات التي اعترضت عملية النقل والتفسير من تلك الثقافات ووضعوا الحلول المناسبة لها ، فما كان على بني العباس، إلا الاستمرار على المنهج والنسق الذي ابتداه الأمويون.

العهد العباسي: ٣٢ ١ هـ/٠ ٧٥ م-٦٥٦ هـ/٢٥٨ أم:

وقامت بعد ذلك الدولة العباسية على ٢ نقاض الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م)، وامتد حكمها خمسة قرون إلى أن سقطت على أيدي المغول أو التتار بزعامة!هولاكو) حفيد جنكيزخان " سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) . وعلى الرغم من أن الأسرة العباسية الحاكمة كانت أسرة عربية هاشمية، تنحدر من سلالة العباس بن عبد المطلب عم النبي (r) إلا أنها اعتمدت على "الموالي)" أي على الشعوب التي دخلت

في الإسلام. ولذلك لهم ينظر العباسيون إلى جنس معين من رعاياهم يتعصبون له على نحو تعصب الأمويين للعرب، بل نظروا إلى الشعوب التي تتألف منها الأمة الإسلامية نظرة واحدة مع اختلاف أجناسهم وألوانهم ، عملاً بمبدأ المساواة الذي ينص عليه ا لإسلام في قوله تعالى " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم " (سورة الحجرات ١٣). وبهذه السياسة وهذه النظرة إلى الشعوب الإسلامية، تقاربت الأعراق الإسلامية، وتداخلت بالزواج المختلط أو التوليد، ونشأ عن هذا الاختلاط جيل جديد من المولدين، وأصبحت الدولة الإسلامية وكأنها وطن لأمة واحدة لا لشعوب مختلفة، تدين بدين واحد، وتتكلم لغة واحدة .

وقد اتجهت سياسة الدولة العباسية- منذ البداية- إلى المشرق، وكان هذا سر نجاحها، فاتخذت من بغداد عاصمة لها بدلا من دمشق، رغم أن هذا التوجه قد أسفر عن ضعف نفوذها في الأطراف الغربية التي أخذت تنسلخ تباعاً، فاستقلت الأندلس على يد "صقر قريش،" عبد الرحمن الداخل الأموي سنة ١٣٧ هـ/ ٧٥٥ م، كما استقل المغرب الأقصى على يد الأدارسة العلويين " سنة ٧٢ ١ هـ ٧٨٨ م، والمغرب الأوسط على يد "بني رستم الخوارج الأباضية" سنة ٣٨ ١ هـ/هـ ٧٥ م، و اكتفى العباسيون- إزاء هذا- بإقامة دولة حاجزة موالية لههم في المغرب الأدنى هي "دولة الأغالبة". والتي امتد حكمها من سنة ٨٤ اهـ/٠ ٨٠ م- ٢٩٦ هـ/٩٠٩ ٩ م وقد استطاعت هذه الدولة الأغلبية المجاهدة أن تحقق إنجازاً حربياً كبيراً ، بفتح جزيرة صقلية على يد القائد المسلم الفارسي "أسد بن الفرات "في عهد زيادة الله الأول الأغلبي سنة ٣ ٣١ هـ (٨٣٨ م)، ثم فتح جزيرة مالطة التي تقع بين صقلية وأفريقيا فى عهد!محمد الأغلبي " المدعو بأبي الغرانيق وذلك سنة ٣٥٦ هـ (٨٧٠ م).

غير أن نفوذ العباسيين وإن كان قد ضعف وزال في المغرب والأندلس، إلا أنه قوي في المشرق- فابن الأثير فى كتابه الكامل في التاريخ يشير في حوادث سنة ١٣٣ هـ إلى أن جيوش أبي مسلم الخراساني ، استطاعت أن تهزم في موقعة نهر طراز الجيوش الصينية التي أخذت تتدخل في بلاد تركستان بأواسط أسيا. ويبدو أن هذا هو أول ذكر للاحتكاك الحربي بين المسلمين والصين في المراجع ا لإسلامية.

ومنذ ذلك الوقت نلاحظ أن الحضارة الإسلامية أخذت تسود بلاد أواسط أسيا بعد أن أزاحت عنها الوجود الصيني. كذلك قامت في الأطراف الشرقية للدولة العباسية، دول إسلامية عريقة عملت على نشر الإسلام هناك باسم الخلافة العباسية

================

#الكيانات الحضارية الإسلامية في آسيا

الدولة السامانية

كانت الدولة السامانية التي حكمت خراسان. وبلاد ما وراء النهر (نهر جيحون) في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وعاصمتها "بخاري" من أهم المراكز الحضارية في العالم الإسلامي. إضافة إلى سمرقند وبلخ حيث كان الطلبة يفدون إلى تلك الأماكن لدراسة العلوم، ولقد اشتهرت الدولة " السامانية " بجهادها ضد الترك الوثنيين في وسط أسيا، وحملتهم على الانخراط في جيوشها عن طريق نظام تربوي إسلامي عسكري، طبقته عليهم منذ الصغر. وقد أعطانا الوزير السلجوقي " نظام الملك الطوسي (ت ٤٨٥ م) " في كتابه "سياسة نامه "، وصفاً دقيقاً باللغة الفارسية لهذا النظام التربوي الذي وضعه السامانيون لمماليكهم الأتراك، ومن ذلك قوله: "إن مماليك السامانيين يرقون تدريجياً بناء على خدماتهم وشجاعتهم وليس اعتماداً على المحسوبية أو الجاه ".

وتمتد فترة تدريب المملوك إلى سبعة أعوام يستحق في نهايتها لقب عريف الدار حيث يرتدي قباء من الحرير، ويضع على رأسه طاقية من الجوخ الأسود ثم يأخذ المملوك في الترقي عاماً بعد عام.

وتزداد حاشيته تدريجياً إلى أن يصل إلى مرتبة صاحب الخيل ثم حاجب الحجاب. ولا يأخذ المملوك لقب أمير ولا يتولى عملاً كبيراً مثل القيام على ولاية من الولايات أو فرقة من الفرق العسكرية إلا بعد أن ينضج. وسن النضوج في العادة هو سن الخامسة والثلاثين ".

الدولة الغزنوية

٢- الدولة الغزنوية التركيبة : وهي وليدة الدولة السامانية في منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وكان مؤسسيها الأول مملوكاً تركياً من مماليك السامانيين في بخاري، وهو الأميرة "البتكين " الذي ولاه "السامانيون" على "غزنة، بالقرب من " كابل " في أفغانستان شمالي الهند. وهناك استطاع "البتكين " أن يقيم دولة مستقلة عن السامانيين- إلا من ناحية التبعية الاسمية- هي الدولة الغزنوية.

وبعد وفاة البتكين آلت الأمور إلى مملوكه وزوج ابنته "ناصر الدين سبكتكين "، الذي حارب باسم السامانيين في بلاد الهند الشمالية، فاستولى على "بست " ويقصدار" سنة ٣٦٨ هـ، وهزم جيوش "جيبال " راجا لاهور على حدود البنجاب.

وجاء بعد سبكتكين ابنه "محمود الغزنوي " (٣٨٨- ٤٢١ هـ- ٩٩٨- ٣٠ ١٠ م) الذي بلغت الدولة الغزنوية في عهده ذروة ازدهارها، فألغى اسم السامانيين من الخطبة في مملكته، وخطب للخليفة العباسي القادر بالله، الذي أنعم عليه بلقب يمين الدولة وأمين الملة، وهو بمثابة تقليد رسمي من الخلافة، كما حصل أيضا على لقب "الغازي " وهو من أوائل الألقاب في الإسلام. هذا إلى جانب لقب سلطان الذي يعتبر "محمود الغزنوي " أول من تلقب به من الغزنويين بعد أن كانوا يتلقبون بلقب أمير.

ويؤثر عن "السلطان محمود الغزنوي " أنه غزا بلاد الهند أكثر من اثني عشرة مرة مدفوعا، في ذلك بعامل الجهاد الديني والرغبة في نشر الإسلام بين الهنود الوثنيين. واستطاع بذلك أن يبسط نفوذه إلى ما وراء كشمير والبنجاب ويحطم أصنامهم، وأن يجعل من إقليم البنجاب ولاية إسلامية قاعدتها مدينة لاهور، ويحكمها ولاة مسلمون من قبل الغزنوية، وهكذا تعتبر الدولة الغزنوية أول دولة إسلامية في الهند.

وتجدر الإشارة إلى أن المسلمين الأوائل في أواخر القرن الأول الهجري، كانوا قد فتحوا إقليم السند في شمال غرب الهند على يد"محمد بن القاسم الثقفي " . وها هو ذا " محمود الغزنوي " في أواخر القرن الرابع الهجري يضيف إلى السند أقاليم البنجاب، والملتان، والبنغال، وهي الأقاليم التي تكون في مجموعها ما يسمى الآن بدولتي باكستان وبنغلاديش الإسلاميتين.

كذلك ظهرت في الهند على عهد "محمود الغزنوي " لغة الأردو (أي المعسكر) وهي مزيج من عدة لغات منها الفارسية والتركية والعربية والسنسكريتية الهندية القديمة. ولم تلبث هذه اللغة الأردية أن صارت لغة الهند وباكستان وبخط عربي.

ولقد عاش في كنف الغزنويين عدد من كبار العلماء والشعراء، نذكر منهم الشاعر الإيراني المشهور " أبا القاسم الفردوسي " الذي أهدى السلطان "محمود الغزنوى" ملحمته الشعرية الفارسية "الشاهنامة" التي يعتبرها الإيرانيون من مفاخرهم الأدبية، لأنها تقص أخبار ملوك الفرس القدماء. وقد منحه السلطان "محمود الغزنوي " ستين ألف مثقال من الفضة على عدد أبياتها. كذلك نذكر المؤرخ " أبا نصر محمد بن عبد الجبار العتبى " الذي كتب تاريخا عن حياة "محمود الغزنوي " وجهاده إلى سنة ٤٠٩ هـ، وسماه " تاريخ اليميني " نسبة إلى لقبه يمين الدولة. وقد ألف هذا الكتاب باللغة العربية لكي يقرأه أهل العراق. وهناك العالم المؤرخ "أبو الريحان البيروني الخوارزمي (ت ٤٤٠ هـ) " الذي صحب محمود الغزنوي في بعض غزواته بالهند ثم استقر معه في غزنة متمتعاً بمكانة سامية. وقد ألف "البيروني " عدة كتب بالفارسية والعربية نذكر منها كتاب "القانون المسعودى " الذي أهداه إلى السلطان "مودود بن مسعود"، هذا إلى جانب تاريخه المشهور باسم "الآثار الباقية عن القرون الخالية"، الذي تحدث فيه بالعربية عن الجماعات والطوائف والشعوب القديمة، مع ذكر أعيادها واحتفالاتها الدينية والقومية. وقد نشر هذا الكتاب وترجمه إلى الإنجليزية "أدوار سخاو" في القرن الماضي. وأخيرا نشير إلى المؤرخ الفارسي "أبي الفضل محمد بن حسين البيهقي (ت ٤٧٠ هـ) " الذي كتب بالفارسية تاريخا " للسلطان مسعود ووالده محمود الغزنوي " عرف "بتاريخ البيهقي ". وقد نقل د. يحيى الخشاب ما تبقى من هذا الكتاب إلي اللغة العربية سنة ١٩٥٦.

وانتهت الدولة الغزنوية في القرن السادس الهجري (١٢ م) على أيدي قوتين كبيرتين هما: قوة الغوريين الأفغان، وقوة السلاجقة الأتراك.

الغوريون

وهم الذين قضوا على ملك الغزنويين في الهند، واستولوا على قاعدتهم في لاهور، وأقاموا هناك ثاني دولة إسلامية في الهند، وهي الدولة الغورية (٥٤٣- ٦١٢ هـ= ١١٤٨- ١٢١٥ م) التي سميت باسم مكان نشأتها، وهي جبال الغور بأفغانستان بين هراة وغزنة وتسمى حاليا هزارستان. غير أن سلاطين هذه الدولة الغورية لم يقيموا في الهند دائماً، وإنما كانوا يقيمون في مدينة غزنة عاصمة ملكهم، وصاروا يحكمون الهند عن طريق مماليكهم الأتراك.

وقد أكثر السلطان "محمد الغوري " من شراء المماليك واعتنى بتربيتهم واعدادهم لمهمة الغزو والجهاد. ويؤثر عنه أنه كان كلما ناقشه أحد عن ضرورة الحاجة إلى ابن ذكر يحافظ على ملك أسرته من بعده، أجابه بأن لديه ألوفاً من الأبناء، ألا وهم مماليكه الأتراك.

وقد ارتفع بعض هؤلاء المماليك إلى مناصب الحكم والقيادة، نذكر منهم،" يلدز" حاكم كرمان، و " ناصر الدين قباجة " في السند، و" قطب الدين أيبك " في دلهي وهو أقوى الجميع نفوذاً، وقد زوجه السلطان إحدى بناته. وهكذا استطاع محمد الغوري بفضل جهود مماليكه وعلى رأسهم " أيبك "، أن يملك جميع الأراضي الهندية في شمال جبال فنديا vindha حتى مصبات نهر الكنج، فعم بها الإسلام، وتحولت معابدها الهندوسية إلى مساجد ويدفع راجاتها الجزية.

وفي سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) اغتيل السلطان "محمد الغوري"، على ضفاف السند بيد أحد غلاة الإسماعيلية، وبموته اختفت غزنة والغور من التاريخ، وظهرت مدينة دلهي كعاصمة إسلامية لدولة سلاطين المماليك في الهند.

____

دولة المماليك في دلهي

وكان أول سلاطينها " قطب الدين أيبك " بعد موت سيده. وقد اشتهر عنه تمسكه بتعاليم الإسلام، ويظهر ذلك بوضوح في عدائه الشديد لنظام الطبقات الذي كان سائداً في الهند، ومعاملته للناس على أساس المساواة التي ينص عليها الإسلام. وينسب لأيبك في دلهي مسجد عظيم أسماه " قوة إسلام "، ويبلغ ارتفاع مئذنته ٢٥٠

قدم، وهي تعد أطول منارة في العالم، ولا تزال قائمة إلى اليوم وتعرف باسم " قطب مينار" أي منارة قطب " وتمتاز بنقوشها وزخارفها ذات الطابع العربي والهندي.

وانتهى حكم أيبك على هندستان في سنة ٦٠٨ هـ (١٢١٠م) وذلك على أثر سقوطه من على فرسه. أثناء لعبة الكرة أو البولو- جوكان- فتوفي على الأثر. وخلفه أحد مماليكة البارزين وزوج ابنته " شمس الدين التتم"الذي سار سيرة حسنة في رعيته، واشتد في رد المظالم وأنصاف المظلومين. فيؤثر عنه أنه أمر أن يلبس كل مظلوم ثوباً مصبوغاً. وأهل الهند جميعا يلبسون البياض، فكان إذا قعد للناس أو ركب، فرأى أحداً عليه ثوب مصبوغ نظر في قضيته وأنصفه ممن ظلمه.

وبلغ فوز السلطان، " التتمش " أقصى مداه حينما اعترف به خليفة بغداد المستنصر بالله العباسي، سلطان على الهند، وبعث له بالتقليد والخلع والألوية في سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م)، فأصبح (التتمش " بذلك أول ملك في الهند تسلم مثل هذا التقليد. ومنذ ذلك التاريخ ضرب "التتمش "نقودا فضية نقش عليها اسم الخليفة العباسي بجوار اسمه. ويعتبر هذا العمل شيئا جديداً على نظام العملة الهندية، إذ كان الحكام المسلمون قيل ذلك يضربون نقوداً معدنية صغيرة على غرار النقود الوطنية، تنقش عليها أشكال مألوفة لدى الهنود، "كثور سيفا" مثلاً، كما كانت أسماء الفاتحين تكتب بحروف هندية في غالب الأحيان. "فالتتمش " يعتبر إذن أول من ضرب نقودا فضية خالصة في الهند.

وتوفي السلطان "التتمنثى"سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) ولم تكن هناك شخصية صالحة للملك من بعده سوى شخصية ابنته "رضية الدين " التي فضلها أبوها على أخوتها الذكور لذكائها وحسن إسلامها، وقد سماها مؤرخو الهند باسم "ملكة دوران بلقيس جهان " أي فتنة العالم. وقد بذلت هذه السلطانة جهوداً عظيمة في إدارة شئون الدولة، ولكنها اصطدمت في النهاية بمجلس أمراء المماليك الذين حقدوا عليها بسبب زواجها من فارس حبشي، فثاروا ضدها، وانتهى الأمر بقتلها سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) بعد حكم دام أربع سنوات، فكانت نهايتها تشبه نهاية السلطانة "شجرة الدر" التي حكمت مصر بعدها بعشر سنوات، وانتهى أمرها بالقتل أيضا سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م).

الأتراك السلاجقة

الأتراك السلاجقة: ويمثلون القوة الإسلامية الجديدة التي حلت محل الغزنويين في خراسان والمشرق الإسلامي، والتي غذت الإسلام، بدماء فتية جديدة، ساعدته على الصمود والانتصار، والانتشار في بلاد الروم. ذلك لأن الخلافة العباسية قبل ذلك الوقت كانت عاجزة عن حماية حدودها بسبب عداوتها مع الخلافة الفاطمية في القاهرة. وقد انتهزت الدولة البيزنطية هذه الفرصة، وأخذت تغير على الحدود الإسلامية المتاخمة لها، وتتوغل في شمال الشام والجزيرة. ولكن من حسن حظ الخلافة العباسية في ذلك الوقت، أن جاءتها من المشرق تلك القوة التركية الفتية المليئة بفتوة البداوة وعنفوانها، فأنقذتها من انهيار محقق. ففي سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) استطاعت جيوش السلاجقة بقيادة سلطانها "ألب أرسلان "، وباسم الخلافة العباسية، أن تحرز انتصاراً حاسماً على الإمبراطور البيزنطي "رومانوس ديوجينيس' " ROMANOS DIOGENES وأن تأخذه أسيراً في موقعة " ملا ذكرد " أو "منزكرد " من أعمال "خلاط " على الفرات الأعلى، شمال بحيرة فانVAN عند أرمينية.

لقد جاء السلاجقة في فترة انحطاط القوى الإسلامية الأخرى من عباسية وفاطمية ونجحوا في توحيد المشرق الإسلامي من جديد، فأعطوا المسلمين الحيوية والنشاط في الجهاد ضد الصليبيين، ويذكر بأن طغرل سلطان السملاجقة كتب إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله مظهراً ولاءه له، مؤكداً حبه لرفع راية الإسلام وإعلاء كلمة الله في نشر الإسلام غرباً، وقد أقره الخليفة العباسي سنة ٤٣٢ هـ/١٠٤٠ م سلطاناً على السلاجقة، مما أكسب دولة السلاجقة الفتية صفة الشرعية وأثار حميتها الدينية لمنا جزة البيزنطيين واسترداد البقاع التي كانوا قد احتلوها في أرمينية والأناضول وقد أعطت نتائج هذه الموقعة سمعة إسلامية ضخمة للسلاجقة باعتبارهم المجاهدين والمدافعين عن الإسلام، والعاملين على نشر الدعوة، وإزاء ذلك مهدت الطريق أمام السلاجقة لنشر الدعوة في آسيا الصغر- حيث وجه "ألب أرسلان " ابن عمه ' سليمان قتلمش "، إلى الأناضول، وأقام هناك دولة سلاجقة الروم، نسبة إلى بلاد

الروم التي قامت فيها. ومنذ ذلك الوقت، عم الإسلام بلاد آسيا الصغرى التي صارت تعرف إلى الآن باسم بلاد الأناضول الإسلامية.

واستحدث السلاجقة- أيضا- بعض الأنظمة والعادات الفارسية والتركية التي جلبوها معهم من المشرق، ولم تكن معروفة من قبل أيام الأمويين والعباسيين والفاطميين. ومن أمثلة ذلك، استخدام "الجاليش " في مقدمة الجيش. و،" الجاليش " عبارة عن خصلة وشعر ذيل الحصان، كانت ترفع في أعلا سنان الراية أمام الجيش. ثم صارت تطلق مجازاً على مقدمة الجيش أو طلائعه باسم " الجاليشية " .

ومن "أمثلة ذلك أيضاً حمل "الغاشية " بين يدي السلطان في الأماكن والمناسبات الحافلة كالميادين والأعياد والمواكب ونحوها كشعار للسلطنة. و "الغاشية" عبارة عن سرج من الجلد مخروزة بالذهب حتى يخالها الناظر كلها مصنوعة من الذهب. يحملها ركاب الدار بين يدي السلطان، ويلفتها يميناً وشمالاً. وقد انتقلت هذه العادة إلى مصر والشام على يد صلاح الدين الأيوبي وخلفائه، واستمرت بعد ذلك في أيام سلاطين المماليك كرمز للطاقة والإخلاص للسلطان: "حمل الغاشية بين يديه ".

كذلك استحدث السلاجقة نظام المدارس الدينية، وهي منشآت علمية هدفها بث روح الجهاد بين المسلمين والتصدي للطائفية، مثل المدرسة النظامية التي أسسها الوزير السلجوقي "نظام الملك " في بغداد. وسار على هذه السياسة "نور الدين محمود زنكي " في الشام ثم "صلاح الدين الأيوبي " في مصر. على أنه يلاحظ في هذا الصدد أن مدينة الإسكندرية عرفت نظام المدارس الدينية في أواخر أيام الفاطميين وقبل مجيء صلاح الدين الأيوبي، فأول مدرسة أنشئت فيها هي المدرسة الحافظية التي أسسها "رضوان بن ولخشي " وزير الخليفة "الحافظ الفاطمي سنة ٥٣٣ هـ "، وأسند التدريس فيها إلى "الفقيه المالكي أبي الطاهر بن عوف "، الذي سبق أن قرأ المذهب المالكي على زوج خالته أبي بكر الطرطوشي المشهور بكتابيه " سراج الملوك"، و "الحوادث والبدع ".

وبعد عشر سنوات أي في سنة ٥٤٤ هـ بنى "العادل بن السلار"، وزير الخليفة الظافر الفاطمي، مدرسة دينية أخري بالإسكندرية، وأسند التدريس بها إلى "الفقيه الشافي أبي الطاهر أحمد السلفي " صاحب كتاب "معجم السفر". ويمكن القول بأن

به الأيوبيين هم الذين اهتموا في الواقع ببناء المدارس في أنحاء مصر والشام متأثرين في ذلك بسياسة السلاجقة.

وقد سار السلاجقة– أيضا– على سنة أسلافهم هم السامانيين المتمثلة في الإكثار من المماليك الأتراك، وتربيتهم منذ الصغر تربية عسكرية إسلامية لاستخدامهم في الجيش والإدارة. وقد شرح هذا النظام وزير السلجوق "نظام الملك الطوسي " في كتابها، سياسة نامة " إرشادا للحكام السلجوقيين. وعلى هذا الأساس غلب الطابع العسكري على الدولة السلجوقية، فصار ولاتها وقادتها من هؤلاء " المماليك كما أصبحت معظم أراضيها في فارس، والجزيرة، والشام، مقسمة إلى إقطاعيات عسكرية يحكمها القادة من هؤلاء المماليك، في مقابل الخدمات العسكرية التي يؤدونها للدولة في وقت الحرب. وسمي هؤلاء المماليك الكبار باسم "الأتابكة". و "الأتابك" لفظ تركي مركب معناه الأب الأمير، ومعناه المربي لابن السلطان، ثم أصبح لقبا تشريفيا يمنح للكبار من القواد بمعنى أبو الجيش أو قائد الجيش أو نائب السلطنة.

وهكذا نرى مما تقدم أن السلاجقة في أيام قوتهم اتخذوا أشخاصاً من كبار مماليكهم أطلقوا عليهم "الأتابكة" ليكونوا مربين لأولادهم القصر، ومنحوهم إقطاعيات كبيرة مقابل قيامهم على شئون هؤلاء الأبناء، وتأديتهم الخدمة العسكرية وقت الحرب. ولكن سرعان ما صار هؤلاء "الأتابكة" أصحاب النفوذ والسلطان في تلك الولايات. ومن مشاهير الأتابكة في أوائل القرن السادس الهجري(١٣ م)، الأمير "عماد الدين زنكى" مؤسس أتابكية الموصل وحلب، وهو ابن قسيم الدولة اق سنقر الحاجب الذي بدأ حياته مملوكا" للسلطان "ملكشاه المسلجوقي "، وعن طريق "زنكي وابنه نور الدين محمود" كان ظهور قواده "نجم الدين أيوب " وولده"صلاح الدين " الذي تأثر بالنظم السلجوقية، واليه يرجع الفضل في انتقال تلك النظم إلى مصر والشام، حيث بقيت زمان الأيوبيين، ثم بعد ذلك دولة المماليك الأتراك، التي تبلور فيها هذا النظام التربوي العسكري الإسلامي، وصار راسخاً متيناً، ومكنها من صد الزحف المغولي شرقاً، وطرد المستعمر الصليبي من مصر والشمام غرباً. وفي ذلك يقول " القلقشندي " (صبح الأعشى ج ٤ ص ٦): "ود أبت سلطنة المماليك في مصر على أن تنقل عن كل مملكة سبقتها أحسن ما فيها، فسلكت سبيله، ونسجت على منواله، حتى

تهذبت وترتبت أحسن ترتيب، وفاقت سائر الممالك، وفخر ملكها على سائر الممالك
. "

الأيوبيين والمماليك

الأيوبيون والمماليك: وهؤلاء لم يقتصر دورهم، على حماية الإسلام في مصر والشام، والذود عنه ضد المعتدين من الصليبيين والمغول، بل كان لهم فضل كبير أيضاً في العمل على نشره بين أهل النوبة في السودان جنوبا، وبين مغول القفجاق حول البحر الأسود شمالاً.

لقد اهتمت السياسة المصرية بوجه عام بمملكة النوبة في أعالي النيل، وكان النوبيون يدينون بالمسيحية على مذهب الكنيسة المصرية الأرثوذكسية، كما كانوا يدينون بالولاء والطاعة لسلطان مصر منذ اتفاقية البقط pactum التي عقدها معهم القائد العربي"عبد الله بن سعد بن أبي السرح " سنة ٣٠ هـ (٦٥٠ م). إلا أنهم لم يحافظوا دائماً على هذا العهد، فكثيراً ما شنوا الغارات علي بلاد الصعيد أي جنوب مصر، بالبر والبحر (النيل) وكثر إيذاؤهم. ولذلك اضطر ولاة مصر إلى توجيه الحملات إلى بلاد النوبة تمسكاً منهم بشرط هذا "البقط " أو العقد. وقد شجعت هذه الحملات بعض القبائل العربية على الهجرة إلى النوبة والاستقرار فيها، والاختلاط بأهلها، وخاصة في بمنطقة المريس " شمالي النوبة. ونذكر على سبيل المثال عرب ربيعة الذين تزوجوا بنات رؤساء النوبيين، وأصبحت لهم مصالح مادية لانتفاعهم بنظام الوراثة المعروف هناك، وهو توريث ابن البنت أو ابن الأخت، ونتيجة لذلك، صار لبني ربيعة نفوذ كبير في منطقة أسوان وما يليها جنوباً في أرض المريس .

وتوطدت علاقات حسنة بين "بني ربيعة"و (الدولة الفاطمية)، في مصر، واستعان بهم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في القبض على الثائر المغربي أبي ركوة عندما لاذ بالفرار من مصر إلى النوبة. ونجح "أبو المكارم أمير ربيعة" في القبض عليه وتسليمه للفاطميين، وقد كافأه الفاطميون على ذلك بمنحه لقب، "كنز الدولة"، وتوارث أبناؤه هذا اللقب وعرف بنو ربيعة ببني كنز، وهم الكنوز الحاليون الذين كانوا يعيشون بين أسوان وكروسكو، قبل أن تغرق أرضهم بمياه بحيرة السد العالي.

ومنذ بداية عصر صلاح الدين الأيوبي، تجددت اعتداءات النوبيين على الأراضي المصرية، واستمرت في أيام دولة المماليك الأولى أو البحرية. وكان الرد على ذلك إرسال حملات تأديبية في عهد كل من "صلاح الدين " و، " الظاهر بيبرس "، و "سيف الدين قلاووق ".

وكانت النتيجة اصطباغ مملكة النوبة بالصبغة العربية الإسلامية، وفقد أنها لطابعها المسيحي تدريجياً نتيجة لاختلاطها بالعرب المهاجرين مع تلك الحملات. ولم يكد ينتصف القرن الثامن الهجري أو الرابع عشر الميلادي، حتى كان النوبيون قد اعتنقوا الإسلام، وانتقل الملك إلى بني كنز، فسقطت عنهم الجزية، لأن بني كنز عرب مسلمون من ربيعة.

المغول

مغول القفجاق أو القبشاق في شمال البحر الأسود "الأوزبك "، فكانوا أيضا موضع اهتمام وعناية سلاطين دولة المماليك البحرية الذين كان معظمهم في الأصل من أجلاب بلاد القفجاني من الأتراك. وكان يحكم هذه البلاد الممتدة من تركستان شرقاً إلى شمال البحر الأسود غرباً، دولة مغولية إسلامية حديثة تعرف باسم، القبيلة الذهبية" Golden Horde (نسبة إلى لون مخيماتها) أو " مغول القبشاق ". وقد سماها القلقشندي "مملكة توران خوارزم والقبشاق ". وكان اسم زعيمها "بركة خان "، وهو أول من اعتنق الإسلام من أولاد جنكيز خان. وكانت عاصمته مدينة "صراي " أو "سراي " في شمال غرب بحر قزوين، وهي فرضة عظيمة للتجار ورقيق الترك،.وكانت مقصد العلماء والأدباء أمثال، " قطب الدين محمد الرازي "، و " سعد الدين التفتازاني " وغيرهما فيما بعد.

ولقد حرض سلطان مصر الظاهر بيبرس على محالفة هذه الدولة الإسلامية المغولية، فتبادل مع عاهلها "بركة خان" البعوث والهدايا (٦٦٠ هـ/١٢٦ أم– ٦٦٢ هـ/١٢٦٣ م)، كما تزوج ابنته، وأمر بالدعاء له على منابر القاهرة والقدس ومكة والمدينة. ولا شك أن هذا الحلف كان موجهاً بطبيعة الحال ضد عدوهما المشترك الممثل في " دولة ايلخانات فارس المغولية" التي كان يحكمها "هولاكو" وأولاده،

وكانت تشمل فارس والعراق، وعاصمتها " تبريز" أو "مرا غة" أو"بغداد ". فيروي المقريزي أن " بيبرس " أخذ يحرض "بركة خان، على قتال قريبه "هولاكو" ويرغبه في ذلك. يضاف إلى ذلك أن السلطان بيبرس استفاد من هذا التحالف في تقوية جيشه، إذ أنه أكثر من شراء المماليك من بنى جنسه القفجاق إذ مالت الجنسية إلى الجنسية، على قول القلقشندي، ووقعت الرغبة في الاستكثار من "القفجاق " على عهد" بيبرس "، حتى أصبحت مصر بهم أهلة المعالم، محمية الجوانب، منهم زعماء جيوشها، وعظماء أرضها، وحمد الإسلام مواقفهم في حماية الدين حتى أنهم جاهدوا قي الله أهليهم ".

وهكذا نرى أن انتشار الإسلام في دولة مغول القفجاق في القرن السابع الهجري (١٣م)، قد أدى إلى اتساع رقعة الإسلام في أواسط أسيا (جنوب روسيا والقوقاز) من جهة، وإلى تطعيم الجيوش الإسلامية في مصر والشام بدماء فتية من شعوب تلك المنطقة من جهة أخرى.

على أن موضع الأهمية هنا، هو أن هذا التعاون العسكري بين هاتين الدولتين الإسلاميتين (مصر والقبيلة الذهبية)، ضد دولة مغول فارس والعراق، قد أدى في النهاية إلى غلبة الإسلام على تلك الدولة الوثنية أيضاً، وإلى انتشاره بين أفرادها، ومن ثم أخذت العلاقات تتحسن بين الجانبين منذ أوائل القرن الثامن الهجري (١٤ م). وانتهت المشكلة بأن عقد سلطان مصر والشام والناصر محمد بن قلاوون ' صلحا مع " ايلخان " مغول فارس والعراق أبي سعيد، وانضم إلى هذا الصلح أيضاً زعيم القبيلة الذهبية أو مغول القفجاق الذي كان يدعى في ذلك الوقت "أوزبك خان ".

================

#الكيانات السياسية في الجناح الغربي للعالم الإسلامي

من ناحية أخرى قامت في الجناح الغربي للعالم الإسلامي، منذ القرن الخامس الهجري، حركة إصلاحية وانتفاضة دينية مالكية بين قبائل صنهاجة اللثام في صحراء شنقيط (موريتانيا) في أقصى المغرب، تمخض عنها قيام دولة مجاهدة موالية للعباسيين في بغداد، وهي دولة المرابطين الملثمين الذين استطاعوا القضاء على المارقين والمتنبئين في الجبال المغربية، وقهر مملكة غانة الوثنية في السودان

الغربي جنوباً، ونشر الإسلام في تلك الأماكن النائية على يد " الأمير" أبي بكر بن عمر اللمتوني "، كما استطاعوا الانتصار على الأسبان في موقعة الزلاقة بالأندلس شمالاً، على يد "الأمير يوسف بن تاشفين سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) " فأنقذوا الأندلس من سقوط محقق. هذا إلى جانب استيلائهم على مراكز تجارة الذهب في أقصى جنوب المغرب مثل سجلماسة (تافيلالت الحالية) وأود اغشت، فسيطروا بذلك على المسالك الغربية التي تربط بين بلاد المغرب والأندلس من جهة، وبين السودان الغربي من جهة أخرى. ولعل هذا هو السبب الذي جعل للدينار الذهبي المرابطي marabstin تلك الشهرة العالمية والسمعة الاقتصادية الممتازة حتى غدت دول العالم المسيحي والإسلامي أيضاً تتنازع عليه.

وإلى جانب هذه الأعمال الجهادية الكبرى سالفة الذكر، واصل الإسلام مسيرته وانتشاره بقوته الذاتية إلى كثير من الأقطار الأسيوية شرقاً، مثل إندونيسيا والفليبين والملايو والمالديف.. الخ، إلى جانب انتشاره في الأقطار الأفريقية السودانية غرباً، فضلاً عن الأقطار الأوربية والأمريكية كما هو واضح حتى اليوم، وقد لعبت التجارة والتجار في هذا الصدد دوراً إيجابياً هاماً في توحيد عالم الإسلام ونشر دينه ولغته وحضارته فيما وراء حدوده. عن طريق القدوة الحسنة وحسن المعاملة. فإلى هؤلاء التجار وغيرهم من جنود الله المجهولين من الرحالة والصوفية والعلماء يرجع الفضل في امتداد الإسلام إلى كل بقاع العالم، وانتشار جماعاته في كل بلد من بلاد الدنيا.

ومن ناحية أخرى فإن الدولة العثمانية، وخلال قرنين من الزمان مدت جناحها شرقاً وغرباً وجنوباً لتدق أبواب فيينا واليونان وجزر البحر الأبيض المتوسط وأجزاء من إيطاليا والنمسا، لقد كانت الدولة العثمانية الأكثر استقراراً في محيطها الواسع، وكانت إحدى مظاهر التاريخ العالمي، حيث وفرت الاستقرار للمدن الأوروبية التي انتشر الإسلام فيها، فغدت بلغراد مثلاً نموذجاً حضارياً متقدماً لوسط أوروبا باعتبارها بوابة الشرق.

عمل سلاطين بني عثمان على نشر الإسلام والدفاع عن حياضه، وقد برز ذلك واضحاً في استشهاد بايزيد الصاعقة وهو يدافع عن دمشق ضد غزاة المغول بعد نشر الإسلام في ربوع بلغاريا وإيطاليا وهزم التحالف الأوروبي في جهات نيكوبلي

على الدانوب، سنة ٥ ٧٩ه/١٣٩٢ م. وعلى أثر فتح القسطنطينية ٨٥٧ ه/٥٣ ٤ ١ م غدا الطريق ممهدا لانتشار الإسلام في أوروبا الشرقية، ومنطقة البحر المتوسط، فانتشر الإسلام في شبه جزيرة المورة (اليونان)، وصربيا، والبوسنة والهرسك (يوغسلافيا)، وفي مناطق الأفلاق والبغدان (القسم الأعظم من رومانيا) ومنطقة بحر ايجة وبلغراد " ورو دس والمجر، وكان للحملات التي قادها سليمان القانوني ٩٢٧ ه/١٥٢٠- ٩٧٤ ه ١٥٦٦ م أبلغ الأثر في استقرار قاعدة الإسلام في أوروبا الشرقية ومنطقة البحر المتوسط، فقد وصل إلى قلعة كونش " koszeg سنة ٣٩ ٩ ه / ١٥٣٢م، ودخلت قواته إلى، نمجة، أو شريا (النمسا الحالية)، وغدت مدينة كراس"graz " المدينة الكبيرة الثانية في النمسا مدينة إسلامية، ولم رأت تاريخ ١ ٢/١/١٥٣٢ م، حتى كانت النمسا بكاملها إسلامية، وكان للسلطان حملات إلى إيطاليا (كورفو وبوليا) وإلى مولدا فيا (رومانيا) وبودين (المجر)، واستركون (المجر)،غربي بودين.

ويسجل التاريخ للسلطان سليمان القانوني قيادته للجيش العثماني حتى وهو في أشد حالات مرضه، فقد امتطى صهوة جواده صباح يوم ٢٩ حزيران ١٥٦٦ م وتفقد القوات العثمانية في صحراء زملن، في الساحل المقابل لبلغراد، وأعطى أوامره بفتح قلعة سيجفوار "sigervar ،، الألمانية، إحدى حصون ولاية بودين وما هي إلا أيام حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى ويتم الجنود فتح القلعة بعد خمس ساعات من وفاته.

لقد نجحت الدولة العثمانية في تثبيت الإسلام في المناطق التي وصلها الإسلام، وأقامت عشرات المؤسسات والمنشآت الاجتماعية والثقافية مثل المساجد والجوامع والكليات والمدارس والتكيات والملاجئ والخانات والحمامات، ولا تكاد تخلو مدينة أوروبية من أثر إسلامي ديني ينبئ بالدور الحضاري الذي مثلته الدولة العثمانية المسلمة في تلك البقاع.

==============

#اللقاء الحضاري بين الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي

لم يقتصر اللقاء الحضاري بين الشرق والغرب على العصر الوسيط فقط، بل كان مستمرأ على ممر العصور والأجيال. ومن أهم مظاهره تلك الهجرات الفينيقية القديمة

التي خرجت من سواحل الشام عبر البحر المتوسط إلى سواحل المغرب وأسبانيا حيث أسست مدناً تجارية لا زالت باقية إلى الآن، مثل "طنجة" و "قرطاجة" و "مالقة" و"قادس " و" قرطبة" وغيرها. ومثل حروب طروادة في آسيا الصغرى التي حاصرها اليونان عشر سنوات (١١٩٣– ١١٨٤ ق. م) وتغنى بمواقعها الشاعر "هوميروس " في الالياذة. ومثل الحروب الفارسية اليونانية التي كانت فتوحات "الاسكندر" وانجازاته الحضارية من أهم مراحلها. وفي العصر الوسيط تمثل هذا اللقاء في الحروب التي نشبت بين أقوى أمبراطوريتين في ذلك الوقت: الفارسية والبيزنطية. وبعد ظهور الإسلام اتخذ هذا الصراع شكلاً دينياً في مظهره، فصار صراعاً بين المسيحية والإسلام. ثم استمر هذا اللقاء في عصورنا الحديثة وإن كان قد اتخذ أشكالاً وألواناً مختلفة كالاستعمار والإمبريالية والصهيونية..

والذي يهمنا في هذا الموضوع هو ذلك اللقاء بين الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي المسيحي في العصر الوسيط، وما نجم عنه من إسهام حضاري متبادل بينهما.

لقد اصطلح المؤرخون على تحديد مراكز هذا اللقاء بالجسور أو المعابر الجغرافية الثلاثة التالية باعتبارها كانت أقوى المناطق التحاماً بين الجانبين، وهى على حسب ترتيب أهميتها: الأندلس، ثم صقلية، ثم الشام.

———————

الأندلس

المراد بالأندلس هو أسبانيا الإسلامية بشبه جزيرة "أيبيريا" التي فتحت في خلافة "الوليد بن عبد الملك " وعلى يد "موسى بن نصير" ومطارق بن زياد سنة ٩٢ هـ/ ا ٧١ م،). واستمر الحكم الإسلامي فيها حتى سقوط مملكة "غرناطة" آخر مملكة إسلامية في أسبانيا سنة ٨٩٧ هـ/١٤٩٣ ا م.

لم يكن الفتح الإسلامي لأسبانيا مجرد احتلال عسكري صعدت فيه الجيوش الإسلامية إلى أقصى الشمال ثم هبطت إلى الجنوب، بل كان حدثاً حضارياً هاماً امتزجت فيه حضارة سابقة!كالرومانية" و "القوطية" مع حضارة جديدة لاحقة وهي الحضارة الإسلامية، ونتج عن هذا المزيج حضارة أندلسية مزدهرة وصلت إلى الفكر الأوروبي المجاور، و أثرت فيه، كما تغلغلت في الحياة الأسبانية وتركت فيها آثارا

عميقة ما زالت معالمها واضحة إلى اليوم. ولا شك أن المسلمين حينما دخلوا أسبانيا وجدوا فيها سكاناً مثل "القوط " و "بقايا الرومان "، فاختلطوا بهم، ولم تلبث أن نشأت طبقة اجتماعية جديدة، وهي طبقة المولدين التي هي خليط من دم أهل البلاد الأصليين ودم العرب والبربر الفاتحين. هذا إلى جانب طبقة المستعربينMozarabes) (وهم الأسبان المسيحيون الذين ظلوا على ديانتهم المسيحية ولكنهم تعربوا بدراسة اللغة العربية وآدابها وثقافتها، واتخاذ الأسماء والأزياء العربية.

وهكذا كانت أسبانيا بعد الفتح الإسلامي مزدحمة بالأجناس المختلفة، وكان من الطبيعي أن تتصل هذه العناصر بعضها ببعض، سواء بالمصاهرة أو الجوار أو الحرب، وأن يأخذ كل منها عن الآخر ويعطيه، مما كان له أثره في مزج هذه العقليات المختلفة والعناصر المتباينة. وما يقال عن تنوع هذه العناصر البشرية التي سكنت الأندلس، يقال أيضاً عن التيارات الثقافية المتنوعة التي تكونت منها حضارتها.

فمن المعروف أن الحضارة الأندلسية- مثل كل الحضارات- لم تنشأ فجأة، بل مرت في أدوار مختلفة وخضعت لمؤثرات حضارية مشرقية – شامية وحجازية ومصرية وعراقية – تربطها بالوطن الإسلامي الأم باعتبارها جزءاً منه. كما خضعت لمؤثرات أفريقية بحكم ارتباطها ببلاد المغرب والسودان الملاصقة لها من الجنوب. هذا إلى جانب المؤثرات المحلية الأوروبية بحكم البيئة التي نشأت فيها.

ولا شك أن وضع الأندلس الجغرافي في الأطراف الغربية البعيدة للعالم الإسلامي، وبجوار الغرب المسيحي في قلب أوروبا، جعلها في مواجهة مستمرة دائمة مع الدول اللاتينية هناك، وهذا جعلها بالتالي من أكثر الدول الإسلامية معرفة وتأثيراً بها. ذلك لأن الحياة الإسلامية في الأندلس لم تعرف الانفصال الجغرافي أو العنصري أو الحضاري بين المسلمين والمسيحيين، بل كانت حياة مشتركة اختلط فيها الفاتحون مع أهالي البلاد الأصليين.

وعلى الرغم من أن ما أخذته الأندلس من أوروبا كان أقل مما أعطته لها من ثقافتها، إلا أن هذا الوضع الجغرافي الأوروبي الذي تميزت به الأندلس، وهذا التداخل

المستمر بين الإسلام والمسيحية في شبه جزيرة " أيبيريا"، قد أعطى الأندلس– رغم تعلقها بالوطن الأم– طابعاً فريداً ، وشخصية مستقلة مميزة. فالحضارة الأندلسية على هذا الأساس حضارة إسلامية عربية أسبانية، ولا يمكن أن نسميها إلا بهذه التسميات الثلاث. وعلى هذا النحو يمكن القول بأن حركة الفتح الإسلامية لأسبانيا ، كانت استمراراً لدور سابق، بمعنى أنه لم تعقبها حركة ركود أو توقف حضاري، بل استمرت القافلة تسير بسبب تواصلها مع الحضارة الأسبانية الأوروبية.

____

التقسيم الإداري في الأندلس

إن من يدرس جغرافية شبه وجزيرة "أيبيريا"، يجد أن حدودها الطبيعية تصلح تماماً لأن تكون حدوداً سياسية إدارية،فسلاسل الجبال ووديان الأنهار التي تقطعها في خطوط مستعرضة من الشرق إلى الغرب أو العكس، قد قسمتها إلى أقسام طبيعية يمكن تحويلها إلى وحدات إدارية وعسكرية واضحة المعالم. فما كان على المنظم أو الإداري إلا أن يثبت حدود هذه الوحدات ويعين قواعدها، فلا يجد صعوبة في إدارتها وجباية خراجها. وهذا ما فعله الرومان والقوط. ثم جاء المسلمون فاحتفظوا بهذه التقسيمات الإدارية ولكنهم سموها مدناً بدلا من كيفتاس Civtasا ، " وكورا " بمعنى ولايات– بدلاً من بروفنكياس Provingias، وأضافوا إليها عدداً من المنشآت التي تعطيها الطابع الإسلامي المميز لها كالمسجد الجامع، وقصر الإمارة أو الخلافة، والأسواق والقيساريات إلى غير ذلك مما يناسب طبيعة دولتهم الإسلامية. هذا إلى جانب ما أضافوه من مدن جديدة لأن البناء والعمران من مستلزمات التحضر ومثال ذلك:

(١) الجزيرة الخضراءAlceciras التي بناها "طارق بن زياد " بجوار جبل طارق، وكانت تعرف بجزيرة أم حكيم محلى اسم زوجته التي تركها هناك أثناء قيامه بفتح الأندلس.

(٢) طريفTarifa، غربي الجزيرة الخضراء، وهي على اسم "طريف بن مالك " أحد قوادا، موسى بن نصير" الذي أغار على هذه المنطقة فسميت البلدة باسمه.

(٣) قلعة أيوب Calayud في شمال أسبانيا. بناها "أيوب بن حبيب اللحنمي) الذي ولي الأندلس بعد مقتل ابن عمته "عبد العزيز بن موسى بن نصير".

(٤) مدينة سالم Medinaceli في شمال أسبانيا. بناها "سالم بن ورعمال المصمودي " أحد قواد البربر الذين شاركوا في فتح الأندلس.

(٥) تطيلة TUDELA على وادي الأبرو في شمال أسبانيا، بناها الأمير !الحكم بن هشام المعروف بالربضي ، وينسب إليها الشاعر "أبو العباس القيسي المعروف بالأعمى التطيلي (ت ٥٣٢ هـ١١٢٧ م) ".

(٦) مرسيةMURCIA في شرق الأندلس وقد تعني المرساة التي أرسيت قواعدها. بناها الأمير "عبد الرحمن الأوسط الأموي سنة ٢١٦ هـ/١ ٨٣ م) " وينسب إليها علماء كثيرون متنل "ابن سيده اللغوي الصنوير (ت ٠٨ ٤ هـ/٠٦٥ ام) "صاحب المخصص في اللغة، والعالم "ابن سبعين (ت ٦٦٩ هـ أ" صاحب الرد العلمي المشهور على الإمبراطور "أفريدريك الثاني "، والفيلسوف الصوفي "محيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨ هـ)،ا صاحب كتاب الفتوحات الملكية.

(٧) مجريط MADRID عاصمة أسبانيا الحالية، بناها "الأمير محمد بن عبدا لرحمن الأوسط (٣٣٨- ٣٧٣ هـ) "، وينسب إليها

الرياضي الفلكي " مسلمة المجريطي (ت ٣٩٤ هـ) ".

(٨) المريةALMERIA قاعدة الأسطول الأندلسي في شرق أسبانيا، بناها المسلمون الأوائل وازدهرت في عهد الخليفة "عبد الرحمن الناصر،"، وينسب إليها "بنو ميمون " قادة ا لأسطول الأندلسي والمغربي على عهد، المرابطين " و ' الموحدين ، والعالم الزاهد "أبو العباس بن العريف (ت ٥٣٥ هـ) " صاحب كتاب محاسن المجالسة. وقد يكون اسم المرية يعذي المرئية أي التي ترى من بعيد في البحر عن طريق مناراتها.

(٩) سهلة بني رزينALBARRACIN في شمال شرق مدريد، نسبة إلى أمراء بني رزين المغاربة الذين حكموا تلك المنطقة. ولا يفوتنا أن نشير إلى اسم البرانس الذي أطلق على بعض جبال أسبانيا الشمالية، وهو اسم قديم لكتلة البربر !البرانس ' في المغرب التي تنتمي إليها قبيلة "صنهاجة". هذا إلى جانب المنيات والحصون

والقصور والقرى التي ما زالت أسماؤها العربية والمغربية تزخر بها الأراضي الأسبانية.

هذا، ويلاحظ أن كلا من الكور والمدن في الأندلس، كان لها استقلالها الإداري عن العاصمة قرطبة، وهت ا يدل على أن الأندلسيين لم يحرصوا على نظام المركزية في جهازهم الإداري، لأن طبيعة البلاد الجبلية تتنافى مع هذا التركيز سواء في الكور أو المدن. فولاة الكور وقواد المدن كان لهم قسط كبير من النفوذ المحلي وحرية التصرف دون الرجوع إلى الخليفة في "قرطبة". ولكن القول بأن هذه اللامركزية كانت صفة عامة في تاريخ أسبانيا الإسلامية والمسيحية بوجه عام حتى اليوم.

نظام الحكم والإدارة أو ما يسمى بالخطط

حظيت الأندلس بنظام حكم إداري متطور إلى حد كبير عن مثيله في الشرق الإسلامي أو الغرب المسيحي.

فإذا تناولنا خطة الوزارة فني قرطبة عاصمة الأندلس في عهد الدولة الأموية، وجدنا أنها كانت متعددة المناصب ولها رئيس وزراء يسمى الحاجب، وهو الذي يتصل بالخليفة. وهذا التعدد في مناصب الوزراء لا نجده في نظام الوزارة بالشرق الإسلامي أو الغرب الأوروبي، حيث كانت السلطة مركزة في يد وزير واحد، وقلما وجد وزيران،. أما في الأندلس فكل ناحية من نواحي الإدارة العامة مثل المال والترسيل والمظالم والثغور، لها وزير مختص بها، ثم هناك الرئاسة العامة للوزارة وهي الحجابة التي تختلف عن الشرق، حيث كان الحاجب هو الشخص الذي يقف بباب الخليفة أو السلطان. كذلك وجد في القصر الخلافي بالأندلس بيت خاص لانعقاد مجلس الوزراء فيه. فالوزارة في الأندلس كانت قريبة الشبه بنظم الوزارات الحديثة CABINET OF MINSTERS وهي في هذا تختلف عن نظام الوزارة المعروف في الشرق أو الغرب في العصر الوسيط. ومن الطريف أن وزير المالية في الأندلس كان يسمى في بعض الأحيان بصاحب الأشغال وهي نفس التسمية المستعملة اليوم في أسبانيا، حيث يسمى وزير الماليةMINISTRO DE HACIENDA أي وزير الأشغال وتعني وزير المالية.

وما يقال عن الوزارة يقال أيضا عن خطة القضاء في الأندلس، إذ نلاحظ فرقاً جوهرياً بين منصب قاضي القضاة في الشرق وقاضي الجماعة في الأندلس. فقاضي القضاة في بغداد أو القاهرة هو قاضي الدولة كلها، ومن سواه من القضاة في الأقاليم والأمصار نواب عنه، فهو المتصرف فيهم تعييناً وعزلاً ، ولهذا يلقب بقاضي القضاة فقط أو قاضي بلد كذا. أما قاضي الجماعة في الأندلس فهو قاضي العاصمة قرطبة. والجماعة هنا تفسر بالجماعة الإسلامية التي استقرت في العاصمة الجديدة قرطبة. ولهذا فإن سلطته كانت قاصرة على قرطبة ونواحيها فقط، بمعنى أنه لم يكن له سلطان على بقية القضاة في الكور والمدن الأندلسية الأخرى، فهم مستقلون بأنفسهم وليسوا نواباً عنه، وهو لا يمتاز عنهم إلا من الناحية الأدبية فقط، بحكم كونه قاضياً للعاصمة، ومستشاراً للخليفة، وإماماً للصلاة في أيام الجمعة والأعياد. وهكذا نجد أن نظام القضاء في الشرق اتسم بطابع المركزية بينما اتبع في الأندلس نظام اللامركزية.

هذا وقد كان يوجد في الأندلس حق الاستئناف، فالخصم الذي لا يرضيه حكم القاضي، يستطيع أن يتظلم أمام قاض أخر يسمى صاحب الرد، الذي كان ينظر في القضية مرة ثانية، فإذا وجد فيها مظلمة ردها للقاضي، أو رفعها للسلطان كي يصدر فيها حكمه بعد استشارة مجلس المشورة الذي كان يضم قضاة الفتيا.

ويبدو أن ولاية الرد لم تكن موجودة إلا في المغرب والأندلس إذ أن فقهاء الشرق ولا سيما أبا الحسن الماوردي لم يذكرها في كتابه "الأحكام السلطانية". ويبدو أن صاحب الرد كان يشبه وزير الشكايات الذي ظل يقوم بدور الاستئناف في المغرب إلى عهد قريب. ولقد وجد في المشرق ديوان المظالم، ولكن لم تكن له صفة الثبات والديمومة مثل ولاية الرد. هذا، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الغرب الإسلامي بصفة عامة، سار على سياسة تشريعية هامة وهي التمسك بالمذهب الواحد في قضاياه الدينية والدنيوية، ألا وهو المذهب المالكى ، حتى قيل أن أهل المغرب والأندلس لا يعرفون سو ى كتاب الله وموطأ مالك بن أنس " عالم دار الهجرة ت (١٧٩ هـ)، ولا شك أن هذه السياسة التي تتفق مع وضع المغرب والأندلس الجغرافي والحربي كثغور إسلامية ، قد جنبت تلك البلاد شرور الفتن والخلافات المذهبية، وحفظت لها

سلامتها ووحدتها الروحية، فكانت لذلك درعاً واقياً للإسلام في أقصى الغرب، وهذه الظاهرة لا نجدها في المشرق مثل القاهرة ودمشق وبغداد التي تعددت فيها المذاهب والفرق، واشتدت الخلافات بينها، ومع ذللت كان لا يخشى عليها من هذا التعدد والخلاف المذهبي لأنها تقع في قلب العالم الإسلامي. ومن الطريف أن الممالك المسيحية الأسبانية المتاخمة للمسلمين في الأندلس، قد اتبعت هي الأخرى سياسة المذهب الديني الواحد باعتبارها هي الأخرى ثغراً للمسيحية في هذه المنطقة. فاقتصرت على المذهب الكاثوليكي، وتعصبت له حتى ضرب بها المثل بأنها أكثر تعصباً للكاثوليكية من البابا نفسه MASPAPISTAOUE EL PAPA وهذا الموقف المتشابه بين الجبهتين يدل على التداخل الحضاري بينهما.

بقي أن نشير إلى نقطة هامة وهي أن دخول المذهب المالكي في الأندلس، لم يلبث أن تأثر بعوامل البيئة المحلية، وأصبح له مظهر فقهي أندلسي مالكي مستقل. مثال ذلك أن الأندلسيين رغم اعتناقهم المذهب المالكي، أخذوا ببعض تعاليم إمام أهل الشام ودفين بيروت "أبي عمرو الأوزاعي (ت ١٥٧ هـ) "، والإمام المصر ي !الليث بن سعد (ت ١٧٥هـ) " وفي ذلك يقول الفقيه "أبو الحسن النباهي المالقي (القرن ٨ هـ) " في كتابه "المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا" ص ١٤٩: "ومن المسائل التي خالف أهل الأندلس فيها مذهب مالك بن أنس هي أنهم أجازوا كراء الأرض بالجزء مما يخرج منها (أي الإيجار على الجزء المزروع منها فقط) وهو مذهب "الليث بن سعد "، وأجازوا غرس الأشجار في صحون المساجد وهو مذهب "الأوزاعي ."

وقد تابع حكام الأندلس هذا التقليد في مساجد الأندلس ابتداء من "عبدالرحمن الأول " (الداخل) الذي أمر الفقيه "صعصعة بن سلام " صاحب الصلاة بالجامع (ت ١٩٣ هـ) بغرس صحن جامع قرطبة بالأشجار البديعة. واستمرت هذه العادة الجميلة منتشرة في مساجد الأندلس إلى يومنا هذا حيث نجد أشجار الليمون والنارنج (أحد أشجار الموالح المزهرة! في صحن المسجد الأموي بقرطبة بل وفي الكنائس أيضاً .

وإلى جانب القاضي في الأندلس، كان يوجد صاحب الشرطة الذي ينظر ويفصل في الجرائم السياسية والمدنية وكل ما يتعلق بحفظ الأمن في البلاد، فهو بمثابة قاضي

الجنايات والمخالفات التي لا تدخل في اختصاص القاضي لأنها لا تتقيد أحكامها بأحكام الشرع تماماً، وفي هذا يقول "ابن خلدون ": وقد رؤى من باب السياسة تنزيه القاضي عن هذه السلطة المدنية، ووضعها في يد شخص أخر يكون عادة من كبار القادة وعظماء الخاصة وهو صاحب الشرطة". ويضيف "ابن خلدون " أن خطة الشرطة في الأندلس كانت تنقسم إلى شرطة عليا تنظر في الجرائم التي يرتكبها علية القوم، وشرطة صغرى تنظر إلى الجرائم التي يرتكبها عامة الناس. ولا شك أن هذا النظام الطبقي في المحاكمات يتنافى مع روح الإسلام. إلا أنه يعتبر من الأنظمة التي انفردت بها الأندلس.

وكان يعاون صاحب الشرطة رجال من العسس الذين يطوفون بالليل للحراسة ويعرفون بالدابين، لأن المدينة الأندلسية كانت لها دروب أو أبواب تغلق في أول الليل بواسطة هؤلاء الدابين، وكان كل واحد منهم معه كلب وسلاح وسراج. ومن الطريف أن عادة غلق الأبواب ليلاً بواسطة دابين ما زالت متبعة في أسبانيا منذ السماعة العاشرة ليلاً، وبواسطة درابين يعرفون باسم سيرينوس SERENOS (أي الساهرون)، فكل من يريد الخروج من المنزل أو الدخول فيه أثناء الليل عليه أن ينادي على هذا الحارس الليلي بطريقة التصفيق. وهذا الاستمرار في وظيفة الحراسة الليلية على الطريقة الأندلسية يعتبر إسهاماً حضارياً في هذا المجال.

وإلى جانب الشرطة، كانت هناك خطة الحسبة للإشراف على المعاملات الجارية في الأسواق، ومحاربة المنكرات فيها، إلى جانب الإشراف على الآداب العامة وأخلاق المجتمع في المساجد والمدارس والحمامات والأزقة والطرقات. ويلاحظ أن ولاية المحتسب في بلاد المغرب والأندلس، كانت أكثر تحديداً وضرورة لمقتضيات، الحياة منها في المشرق، ولهذا استمرت فيها بدون انقطاع. ولعل أحسن دليل على أهمية المحتسب من الناحية العملية في الأندلس، أن ملوك أسبانيا المحتسيين كانوا كلما استردوا إقليماً من المسلمين، ابقوا فيه المحتسب. ولهذا دخل لفظ المحتسب في اللغة الأسبانية تحت اسمALMOTACEN، ويطلق على الوالي المكلف بضبط الموازين والمكاييل. أما في المغرب فالأدلة على أهمية وظيفة المحتسب وشدة الحاجة إليها أنها باقية مستمرة حتى اليوم في المدن والبوادي المغربية، بينما زالت من المشرق.

ويلاحظ أن اختصاصات المحتسب حالياً في المغرب لا تختلف كثيراً عما كانت عليه في العصر الوسيط.

الدور الاقتصادي للأندلس

حظيت الأندلس بشهرة اقتصادية كبيرة في ميادين الصناعة والتجارة والزراعة: فالصناعة ازدهرت في المدن المختلفة، وتكونت معها طوائف حرفية عرفت باسم الأصناف وأرباب الصناع. وصار لكل صنف أو حرفة رئيس أو شيخ منتخب من أصحابها عرف باسم الأمين أو العريف، وكان هذا الأمين مسؤولاً ومدافعاً عن طائفته وأهل حرفته أمام ممثل الحكومة في سوق المدينة وهو المحتسب. فكان يبلغه رأي طائفته حول تكاليف السلعة التي يصنعونها وتحديد ثمن بيعها، . كما يقوم بدور الخبير الفني في الخلافات التي تقع بين أهل حرفته وعملائهم حول سلعة من السلع، ورأيه كان مقبولاً لدى القاضي أو المحتسب. وقد انتقل لفظ الأمين إلى اللغة الأسبانية على شكلAL - ALamin كما استمرت مهمة الأمين موجودة في بعض المدن المغربية وإن كان وجود النقابات العمالية الحديثة قد قللت من قيمة منصبه وأدرجته ضمن أعمالها.

ولقد شبهت الأصناف أو الطوائف الصناعية الإسلامية بنظام نقابات الصناع أو اتحادات العمال التي كانت تسمى في أوروبا Gulids أوCorporations، ولكنها في الواقع كانت تختلف عنها لأنها لم تشارك في إدارة المصالح العامة في المدينة أو تقوم بدور غير دور التحكيم في المشكلات المهنية، في حياة المدينة الاقتصادية، أو تنتزع بعض الامتيازات البلدية تدريجياً ، أو تتخذ لنفسها حامياً أو راعياً دينياً من الأولياء والقديسين كما حدث في العالم المسيحي. ثم أن الأصناف أو النقابات الإسلامية لم تعرف الانقسام الذي ظهر في أوروبا الغربية بين أصحاب العمل والعمال، والذي انتهى إلى نشأة جماعات أصحاب العمل، وجماعات العمال.

وكيفما كان الأمر فإن موضوع التشابه والاختلاف بين الأصناف الإسلامية والنقابات الأوروبية، ما زال موضع نقاش بين ا لمؤرخين.

على أن موضع الأهمية هنا، هو أن هؤلاء الحرفيين والصناع بحكم كونهم من طبقة العامة في المدينة الإسلامية، قد لعبوا دوراً هاماً في حياتها العامة، إذ شاركوا في ثوراتها الشعبية، وفرقها الدينية، واحتفالاتها ومواكبها العامة في المواسم والأعياد، وذلك في وقت لم يكن يوجد فيه على نطاق شعبي ذلك الترويح أو التنفيس الرياضي أو الاجتماعي الموجود حالياً.

ولقد كفلت المدينة الإسلامية لعمالها حرية واسعة في ممارسة أعمالهم، ولم تتدخل إلا في بعض الصناعات المحدودة التي كان يتطلب ممارستها الحصول على إذن خاص، مثل إنشاء الحمامات، وصنع الأسلحة، وسك النقود، وتركيب الأدوية، والعمل في دور الطراز. وهذا راجع بطبيعة الحال إلى أسباب تتعلق بالمصلحة العامة أو أمن الدولة. أما موارد الدولة الاقتصادية فكانت تقوم على ضرائب مشروعة وغير مشروعة تمول بها بيت المال. ومن أمثلة الضرائب المشروعة : الأموال الخارجية التي تجبى من الأراضي الزراعية، وأموال الزكاة والجزية والمواريث الحشرية (أي مال من يموت بدون وريث)، والعشور أو الأعشار وهي المال الذي يجبى من تجار الفرنج الذين يفدون ببضاعتهم إلى الموانيء الأندلسية فيدفعون عشر قيمتها. وقد انتقلت هذه التسمية إلى اللغة الأسبانية على شكل Alixases. ثم ضريبة التعتيب وهي ضريبة جديدة فرضت في الأندلس في عهد المرابطين وكان الغرض منها ترميم الحصون والأسوار التي حول المدن الرئيسية ويقوم بسدادها أهل هذه المدن المنتفعة بها.

وأما الضرائب غير المشروعة والتي كانت تسمى بالمكوس أو المغارم ، فهي ضرائب إضافية نشأت عن حاجات وظروف معينة، اضطرت الدولة إلى فرضها. وكان بعضها يعطى التزاماً ، ويسمى الملتزم في الأندلس بالمستقبل بينما يسمى الالتزام قبالة، ومنه دخل في الأسبانية لفظ Alcabala.

ومن حصيلة هذا الدخل المالي في بيت المال كانت الدولة تقوم بأوجه النفقات المختلفة على الجيوش والشرطة والقصر الخلافي والموظفين والدواوين والمنشآت

العامة كالمساجد والمستشفيات والسجون، والعناية بمياه الشرب وإزالة الأوساخ من المسالك والأنابيب . ... الخ.

غير أن هذه الخدمات الحكومية لم تكن لها صفة الدوام في كثير من الأحيان، مما اضطر بعض المدن الكبيرة إلى الاعتماد على نفسها في سد حاجاتها. ومن هنا ظهر لها مورد مالي آخر لعب دوراً هاماً في اقتصادها، وهو نظام الحبوس الذي يسمى في المشرق بالوقف. وهو نظام إسلامي المراد به هو الأراضي والمؤسسات التي تكون ملكا لشخص حر التصرف في ماله، ثم يتنازل عن حقه في عائدها أو دخلها، ويجعله وقفاً محبساً وبصفة دائمة على المؤسسات الدينية والعلمية والصحية..، إلى غير ذلك من المنافع العامة التي تشبه حالياً خدمات البلديات.

ولقد ارتقت الصناعة في الأندلس بتوالي الأجيال واتصال العمران ووفرة المواد الخام النباتية والمعدنية التي اشتهرت بها أسبانيا. على أنها ظلت مع ذلك في مستوى الصانع اليدوي، كما هو سائد في تلك العصور، وبقيت السلع تصنع في البيوت أو المحال وا لحوانيت.

ولا يتسع المجال لحصر الصناعات التي أنتجتها الأندلس، فهي كثيرة ومتنوعة، ولذا نكتفي بذكر أهمها وهي:

(١) صناعة المنسوجات: كالحرير بأنواعه المختلفة مثل الخز ويصنع من الحرير والصوف أو الوبر، ومثل الإبريسم وهو حرير خالص، والديباج وهو نسيج حريري موشى بخيوط من الذهب أو الفضة. وكان هذا بفضل عناية أهلها بتربية دودة القز ووفرة أشجار التوت التي تتغذى القز على أوراقها. ويشير المؤرخ الأندلسي ، عريب بن سعد (ت ٣٧٠ هـ) " إلى دور النساء في انتقاء الشرانق ورعاية بيض دودة القز من (شهر فبراير) إلى أن يفقس في (شهر مارس) من كل سنة.

ومن أهم مراكز تربية دودة القز : "غرناطة" و "مالقة" Jaenالتي كان يقال لها جيان الحرير لكثرة اعتنائها بدودة الحرير. وكانت مدينة" المرية"، في شرق الأندلس، من أهم مراكز صناعة المنسوجات الحريرية، ويقدر عدد الأنوال فيها بحوالي ٥٨٠٠ نول. كذلك اشتهرت "أشبيلية" بالحلل الموشاة النفيسة ذات الصور العجيبة والمنتجة برسم الخلفاء فمن دونهم. وبالمثل يقال بالنسبة للثياب الحريرية السرقسطية في شمال

أسبانيا. وقد حظيت المنسوجات الأندلسية بشهرة كبيرة في الأوساط الأوروبية الراقية، ونجد ذلك واضحاً في سير الملوك والبابوات والقادة وغيرهم الذين حرصوا على اقتناء هذه الملابس الثمينة. وما زالت هناك قطع عديدة من المنسوجات الأندلسية تحتفظ بها المتاحف الدولية.

كذلك اشتهرت الأندلس بصناعة الأنسجة الصوفية، خصوصاً وان قسوة المناخ في أسبانيا تحتم اهتمامها بمثل هذه الملابس، ولهذا استخدموا فراء السمور ، وفراء القنلية Conejo (الأرنب الجبلي)، والمرعزي المصنوع من شاعر الماعز، إلى جانب الملابس الصوفية. وقد اشتهرت كل من "سرقسطة"، وقونقة Cuenca "وجنجالة"Chinchilla" بعمل ذلك.

أما صناعة السجاد والبسط والحصير، فأهم مراكزها تقع في شرق الأندلس مثل !موسية" و"بسطة Baza ". ولعل كلمة الفومبراALFOMBRA الأسبانية التي تعني سجادة أو بساط جاءت من الكلمة العربية الخمرة أي الحصيرة، أو لعلها من الحمرة، لأن اللون الأحمر كان يلعب دوراً رئيسياً في ألوانها على غرار البسط الفارسية والمصرية في المشرق.

(٢) صناعة السكر: لعبت الأندلس دوراً كبيراً في زراعة قصب السكر وعصره وتصنيعه ثم تصديره إلى العالم الخارجي، ومن أهم مراكز إنتاجه وتصنيعه "غرناطة" و "مالقة" و "المنكب " ALMUNECAR" واستمر إنتاج السكر في الأندلس حتى سقوط الحكم الإسلامي بها سنة ١٤٩٣ م ، لدرجة أن الأسبان سمحوا لعدد كبير من المورسكيين (المسلمين المعاهدين) المشتغلين بزراعة السكر، بالبقاء في أسبانيا، ولكنهم رفضوا، وقد ترتب على رحيلهم تضاؤل كمية إنتاجه.

(٣) ساهمت الأندلس بدور فعال في صناعة الورق الجيد (الكاغد) منذ وقت مبكر سبقت به أوروبا قروناً عديدة، واشتهرت بصناعته كل من "شاطبةJATIBA " و "بلنسيةVALECIA " في شرق الأندلس. كذلك انتشرت الصناعات الجلدية ودبغها على ضفاف الأنهار، واختصت "قرطبة" بشهرة عالمية في هذه الصناعة، حتى نسبت إليها مصطلحات فرنسية بهذا المعنى، فأطلقوا على صانعي الأحذية كلمة "Cordonniero " وعلى الجلد نفسه كلمةCordouan ". أما المصنوعات الزجاجية

والخزفية فاشتهرت بها "مالقة" و "المرية" كما اشتهرت !قيجاطة QUESADA ' بمصنوعاتها الخشبية. هذا إلى جانب المصنوعات العاجية التي تميزت بدقتها وجمال زخارفها على شكل أشخاص أو حيوانات كانت تطعم بها العلب الصغيرة والأدوات المنزلية. ويقال أن كلمة مارفيل " MARFIL" الأسبانية أي العاج مشتقة من الأصل العربي "ناب فيل ".

التجارة: وما يقال عن شهرة الأندلس في الصناعة يقال أيضاً عن مجال التجارة، ولا سيما أن الأندلس تميزت بسواحلها الطويلة وموانيها العامرة، التي تطل على مياه البحر المتوسط والمحيط الأطلسي شرقاً وغرباً وجنوباً. ولهذا أطلقوا عليها اسم جزيرة الأندلس، لأن العرب لم يستخدموا مصطلح شبه الجزيرة في كتاباتهم.

وتعتبر منطقة شرق الأندلس LEVANTE المطلة على البحر المتوسط، أكثر الأقاليم الأسبانية تعرباً، لأن الإسلام أثر فيها تأثيراً عميقاً ، بدليل أن معظم أسماء الأماكن فيها عربية الأصل، ويرجع ذلك إلى نشاط اليمنيين القضاعيين، الذين أسند إليهم الأمويون حراسة هذه المنطقة وعمارتها، بما لديهم من خبرة ملاحية قديمة في المشرق، ولذا سميت بأرض اليمن أي عطيتهم واقطاعهم. وتعتبر مدينة "المرية" هي القاعدة التجارية الرئيسية لهذا الإقليم، وامتلك تجارها ثروات ضخمة حتى يروى على سبيل المثال أن تاجراً استضاف الحاجب، المنصور بن أبي عامر" وجيشه الذي يقدر بالآلاف مدة أربعة عشر يوماً.

ولقد أفاض الجغرافيون والرحالة في ذكر أهم المنتجات الأندلسية التي كانت تصدر إلى الخارج مثل الملابس المطرزة، والأصواف والأصباغ والحرير واللبود الفاخرة، والورق السميك، والتين الفاخر الجاف، والخزف المذهب، والزعفران، وعصير الكروم، الحلال منه والحرام.

أما الزراعة فتتمثل في المزارع والحدائق والبساتين التي اشتهرت بها الأندلس، والتي كانت تربطها شبكة من القنوات المائية التي ما زالت محتفظة بأسمائها العربية في اللغة الأسبانية، مثل الساقيةACEQUIA بمعنى الجدول الصغير، والناعورةNORIA، والبقاع VEGA ومنها انتقلت إلى أمريكا ٥LAS VEGAS كما أطلقوا على القصور الملكية الخلوية ذات الحدائق والرياض اسم المنيات جمع

منيةHUERTA، وقد انتشرت هذه المنيات حول "قرطبة" وعلى ضفاف الوادي الكبير، وأشهرها منية الرصافة التي بناها "عبد الرحمن الداخل " وشمال قرطبة' ومنية الزهراء والتي بناها الخليفة" عبد الرحمن الناصر في شمال غرب "قرطبة"، ومنية الزاهرة التي بناها الحاجب "المنصور بن أبي عامر" في شمال شرق وقرطبة". وفي مدينة "بلنسية" بنى الأمير "عبد الله بن عبد الرحمن الداخل)، منية من هذا النوع، أطلق عليها اسم الرصافة ، محاكياً بذلك قصر والده. وقد اشتهرت ضواحي "بلنسية" بأزهارها وورودها، وأشجار البرتقال التي تعطر جوها بأريجها ذكي الرائحة، ولذا عرفت، بلنسية" باسم "مطيب الأندلس " أي معطرها.

ومن الطريف أن مدينة " بلنسية" ما زالت تحتفظ إلى اليوم ببعض مظاهر ما تبقى من نظم المسلمين المتعلقة بسقاية هذه البساتين، ألا وهي محكمة المياه TRIBUNAL DELASAGUAS، التي تعقد عند باب الكاتدرائية في الساعة العاشرة ظهراً من كل يوم خميس. وتتألف هيئة المحكمة من خبراء بشئون الري يمثلون نواحي كورة "بلنسية" ويرأسها مندوب من الحكومة. فإذا دقت الساعة الثانية عشرة، قام الحاجب ليعلن افتتاح الجلسة وينادي أصحاب الظلامات. وبعد المناقشة والمداولة يصدر الرئيس الحكم وهو حكم ملزم لا يقبل المناقشة أو الاستئناف . وهذا ما كان يحدث قديماً أيام المسلمين عند باب المسجد الجامع في لنفس موضع الكاتدرائية. ولا يفوتنا أن نشير إلى جنة العريفEL GENERALIFE وهو اسم الحديقة الجميلة التابعة لقصر الحمراء في لغرناطة "LA ALHAMBRA"، ذلك القصر الذي صار نموذجاً يحتذى به في بناء القصور الملكية وغيرها في أنحاء العالم.

وقد حافظ الأسبان على القصر وحدائقه الغناء التي لا نسمع فيها إلا خرير المياه في كل مكان. وقد عبر عن ذلك الشاعر الأسباني جاريثا لوركا بقوله، غرناطة التي تبكيGRANADAQUE ELORAE كناية عن كثرة مياهها.

كذلك اشتهرت الأندلس بزراعة أنواع مختلفة من الخضراوات والفواكه لدرجة أن كثيراً من أسمائها دخلت في اللغة الأسبانية مثل: الباذ نجان BERENJENAS الخرشوف ، ALCARCHOFA١السلق ACELGA١ لزيتون ACEITUNA

الزعفرانAZAFRAN، ١الأرز ARROZ السكر AZUCAR النارنج (البرتقال) NARANJA البطيخ السندي SANDIA.. الخ.

بقي أن ننوه بالجهود المثمرة التي بذلها علماء الأندلس في تقدم العلوم الزراعية، فقد صنفوا فيها كتباً علمية وأجروا عليها تجارب تطبيقية أفادت العالم: فمنهم من اعتبر أسماء النباتات والأشجار جزءا من اللغة العربية فدونوها في معاجمهم، كما فعل العالم الأندلسي الضرير "أبو الحسن بن سيده " (ت ٤٥٨ هـ) في كتابه المخصص. ومنهم من اهتم بالنباتات الطبية التي يستخرج منها الأدوية والعقاقير لفوائدها الصحية، مثل "ضياء الدين بن البيطار المالقي " (ت ٦٤٦ هـ) صاحب كتاب (الجامع لمفردات الأغذية والأدوية"، ومنهم من كتب عن النبات من حيث زرعه ونموه وتسميده وحصاده أي ما يسمى بالفلاحة، ومن أشهرهم العالم الاشبيلي "أبو زكريا يحيى بن العوام " في كتابه (الفلاحة في الأرضين ".

مما تقدم نرى أن الأندلس قد تميزت بنزعتها الجمالية نحو حب الورود والأزهار والأشجار، نلمسها في أحواش. بيوتها PATIOS المزينة بالنافورات والأزهار، وفي صحون مساجدها المليئة بأشجار الليمون والبرتقال، وفي قصائد شعرائها في وصف جمال الطبيعة، وفي مؤلفات علمائها عن الفلاحة والأعشاب الطبية، بل وحتى في أصول أحكامها التشريعية والفقهية التي تتمشى مع ميولها الطبيعية ونزعتها الجمالية.

الدور العلمي للأندلس

حديثه طويل ومتشعب ومادته غزيرة نجدها فيما تبقى لدينا من تراث أندلسي، ولا سيما كتب التراجم والفهارس والرسائل التي تناولت موضع فضائل أهل الأندلس، مثل رسالة "أبي محمد بن حزم " (ت ٤٥٦ هـ) إلى "الحسن بن الربيب القيرواني "، ورسالة " أبي الوليد الشقندي"(ت ٦٣٩هـ) إلى "يحيى بن المعلم الطنجي " ورسالة "لسان الدين بن الخطيب " (ت ٧٧٦ هـ) في مفاخرات " مالقة "وسلا "، ورسائل علي بن سعيد المغربي " (ت ٦٨٥ هـ) التي أوردها "أحمد المقري " (ت ١٠٤١ هـ) في موسوعته نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب.

ولقد أنجبت الأندلس عدد أ كبيراً من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والمؤرخين والأطباء وغيرهم، ممن أثروا الحركة الفكرية بمؤلفاتهم، ووصلوا إلى العقل الأوروبي وأثروا فيه.

وما أسرده هنا من أسماء إن هو إلا قليل من كثير وحصاة من ثبير كما يقولون : فهناك الفقيه " أبو محمد على بن حزم القرطبي " (ت ٤٥٦ هـ/١٠٦٣ م) الذي تظهر أصالته واعتزازه بنفسه ووطنه في كتاباته التي سبقت عصرنا. نذكر منها كتاب تطوق الحمامة في الألفة والآلاف " الذي يتناول فيه صفة الحب ومعانيه وأسابه وأعراضه. فنجده يعرض عن ذكر ما كتبه الأقدمون من أشعار الغزل وبكاء الأطلال والدمن ويسلك طريقاً مستقلاً يبين نضجه وأصالته.

وقد اهتم الأوروبيون بهذا الكتاب واعتبروه أول دراسة نفسية تحليلية لعاطفة الحب والمحبين، وترجموه إلى لغات عديدة. أما كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل "، فهو عبارة عن دراسة نقدية للأديان والمذاهب والفرق الدينية المختلفة، ومقارنة بعضها بالبعض الآخر ويلاحظ أن هذا النوع من الدراسة، وهو التاريخ المقارن للأديان، لم يوجد في أوروبا إلا في القرن الماضي، وهذا يرينا أصالة هذا الكتاب واسهامه في الحضارة الإنسانية.

وما يقال عن "ابن بحزم " يقال أيضاً عن معاصره وصديقه "أبي مروان بن حيان القرطبي " (ت ٤٦٩ هـ١٠٧٧ م) الذي يعتبر أعظم مؤرخ أنجبته أسبانيا الإسلامية والمسيحية في العصر الوسيط. فلقد ثبت من الأخبار التي أوردها في كتابيه "المقتبس " والمتين "، أنه ، على دراية واسعة ومعرفة دقيقة بكل ما يتعلق بتاريخ الأندلس وتاريخ الممالك الأسبانية المسيحية، بل وأيضا بعض جوانب من التاريخ الفرنسي فيما وراء جبال البرتات.

والواقع أن كتابات " ابن حيان " بالنسبة للباحثين الحديثين هي بمثابة خزانة علمية لهذا التراث الأسباني العربي بمختلف صوره وأشكاله، ولا يمكن لأي باحث أن يستغني عن قراءتها والرجوع إليها.

ومن أبناء" قرطبة "أيضاً الجراح الشهر"أبو القاسم خلف الزهراوي ،(ت ٤٠٣ هـ/١٠١٣م) الذي ينسب إلى منية الزهراء في ضواحي غرب "قرطبة" وقد اشتهر في

أوروبا بأسم (ABULCASIS) " ويعتبر كتابه "التصريف لمن عجز عن التأليف "، موسوعة طبية مزودة برسوم الآلات الجراحية. ويعتبر "الزهراوي " بهذا العمل أول من جعل الجراحة علماً مستقلاً بذاته، وقائماً على أساس من العلم بالتشريح. وقد ترجم هذا الكتاب من قديم إلى اللاتينية والعبرية، كما نشر في " حيدر أباد" بالهند. كذلك أنجبت "اشبيلية" أسرة " بني زهر" التي كانت لها شهرة وزعامة ومؤلفات في عالم الطب على عهد المرابطين والموحدين، حتى صار اسم "ابن زهر" علماً معروفاً في الأوساط العلمية الأوروبية باسم AVENZOA .

أما في ميدان الفلسفة فحسبنا أن نذكر "أبا الوليد محمد بن رشد القرطبي"(ت ٥٩٥ هـ/ ١١٩٨ م) الذي اشتهر بشروحه لكتب أرسطو وصارت فلسفته تدرس في جامعات أوروبا مثل جامعة " باريس "، وجامعة " بادوا " PADOVA " في إيطاليا. وقد بلغ من حب الأوروبيين لشروحه أن تخيلوا أرسطو بعمامة كما يقولون، وذلك لأن كتاباته امتازت بالعمق في التحليل والقوة في الشرح والأمانة في الترجمة. وقد أطلقوا عليه اسم المعلم الأكبر ويسمونه AVERROES وقد وضعه الشاعر الإيطالي دانتي في ملحمته الشعرية"الكوميديا الإلهية" في منطقة اللمبو LIMBOبين الفردوس والجحيم أي ما يقابل الأعراف في الإسلام، ووضع معه "ابن سينا" و "صلاح الدين " من المشرق، لأنهم من فضلاء الناس وتقديراً لأعمالهم. ولقد ترجم "ميخائيل سكوت " أعمال "ابن رشد" إلى اللاتينية في مدرسة "، طليطلة سنة ١٣٣٠ م " فكان أول من أدخل فلسفة " ابن رشد" إلى أوروبا.

وفى مجال الشعر الشعبي نذكر الشاعر الضرير "مقدم بن معافى القبري "(ت ٣٩٩ هـ/٩١٢ م) نسبة إلى بلدة "قبرة" من أعمال "قرطبة". وهو الذي ابتكر فن الموشحات الذي يعتبر ثورة في الشعر العربي وحركة من حركات التجديد التي حررته من قواعد العروض. وبالمثل يقال بالنسبة للشاعر "أبي بكر محمد بن قزمان القرطبي " (ت ٥٠٧ هـ/١١١٤ م) الذي ابتكر فن الأزجال، وصار يتغنى به في الأسواق بمساعدة بعض الآلات وجوقة من المنشدين. ويلاحظ أن الموشحة والزجل فن شعري واحد مع فارق أساسي هو أن الموشحة عربية صميمه ما عدا الجزء الأخير منها وهو الخرجة باللغة الأسبانية أو العامية الأندلسية. أما لغة الأزجال فهي كلها باللغة العامية

الدارجة الجارية على ألسنة عامة الناس تتخللها كلمات وعبارات من عجمية أهل الأندلس. ويلاحظ أن هذه الأغنية الشعبية الأندلسية ذات الخرجة الأوروبية وما تطور عنها من زجل بعد ذلك، لم تؤثر في الشعر العربي فحسب بل أثرت أيضاً في الشعر الأوربي الذي أخذ في الظهور في جنوب أوروبا في أواخر القرن الخامس الهجري (١١م)، وكان ينشده المغنون الجوالون المعروفون باسم التروبادور TROUBADURES في جنوب فرنسا، والخوجلارس JUGLARESفي شمال أسبانيا. كذلك يقال أن الأغاني التي كان ينشدها الأسبان في أعياد الميلاد باسم (VILLANCICO) هي زجل أندلسي.

ونختم هذه النخبة القليلة من العلماء الأندلسيين باسم الوزير العالم الغرناطي "لسان الدين بن الخطيب "(ت ٧٧٦ هـ/١٣٧٤ م) الذي امتدت كتاباته ومواعظه ونصائحه إلى ملوك عصره من المسلمين والمسيحيين فكان لها تأثير كبير عليهم، وكثيراً ما استجابوا لها، فنجحت بذلك معظم أهدافه السياسية. وحسبنا أن نشير إلى النصائح التي أرسلها إلى ملك " قشتالة " بدرو الأول، والتي أوردها باللغة الإسبانية المؤرخ الإسباني المعاصر، " لويت دي أيالا " في مدونته عن تاريخ ملوك "قشتالة".

ويضيف المؤرخ الإسباني القديم "استبان جاريباي)، في مدونته مختصر تاريخ ممالك أسبانيا "أن القيم الأخلاقية التي اتسمت بها مواعظ هذا المسلم ابن الخطيب تفوق في قيمتها ما كتبه سينكا وغيره من فلاسفة الرواقيين الأقدمين ".

============

حركة النقل والترجمة في أسبانيا بين الأخذ والعطاء

إن التاريخ الأندلسي تاريخ عربي إسلامي يعتد بعروبته وعقيدته، وله شخصيته التي لم تلبث أن فرضت نفسها على المدونات والحوليات و. الملاحم الأسبانية المسيحية المعاصرة، وأثرت فيه بشكل واضح. على أن هذا العطاء الثقافي الأندلسي، كان يقابله أخذ أيضاً من الثقافة المسيحية اللاتينية واليونانية.

وقدت عرف عن الأندلسيين ولعهم الشديد بعلم التاريخ، إلى درجة أنهم كانوا يعتبرونه أنبل علم عندهم على حد قول "ابن سعيد المغربي ". لهذا أقبلوا بدافع الحاسة التاريخية إلى تلمس الأخبار وتقصي الحقائق من مختلف مظانها اللاتينية واليونانية

القديمة، لمعرفة تاريخ وحضارة بلدهم الأندلس والأمم المجاورة لهم منذ أقدم العصور. ولهذا يلاحظ بشكل واضح أن الأخبار الدقيقة المفصلة التي أوردها المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون عن الممالك المسيحية في شمال أسبانيا وما ورائها، تدل على أنهم أطلعوا على مدونات لاتينية مسيحية قديمة فقد معظمها اليوم، أو أنهم استمدوا هذه الأخبار من أهل الذمة من النصارى واليهود المقيمين في الأندلس، والعارفين بأخبار هذه الممالك المسيحية، وهو في كلتا الحالتين أمر يدل على تأثر مؤرخينا بالثقافة اللاتينية المسيحية، فضلا عن إمكانية معرفتهم باللغة الإسبانية التي كانت شائعة بين معاصريهم من مسلمي الأندلس، كما نص على ذلك صراحة الفقيه "ابن حزم القرطبي ".

ولعل المصدر اللاتيني الأساسي الذي استمد منه المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون معلوماتهم عن تاريخ الرومان والأمم التي حكمت أسبانيا قبل الإسلام وعن صفة شبه جزيرة ليبيريا، هو كتاب "التواريخ السبعة في الرد على الوثنيين " للراهب الروماني الأسباني " المولد والنشأة "بولس هروشيش PAULS HOROSIUS الذي عاش في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس الميلادي. ونظراً لأهمية تاريخ "هروشيش "، فقد قام بترجمته إلى العربية في عهد الخليفة، " عبد الرحمن الناصر" (٣٠٠- ٣٥٠ هـ)، الفقيه الأندلسي قاسم بهن إصبع البياني "، . نسبة إلى بيانه من أعمال "قرطبة"- بالاشتراك مع قاضي النصارى ومترجمهم "الوليد بن الخيزران "، المعروف "بابن مغيث ". وقد استفاد المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون من هذه الترجمة العربية.

أما عن أخبار الممالك المسيحية الأسبانية والأوروبية التي عاصرت الحكم الإسلامي في الأندلس، فهي كثيرة ومتعددة في كتابات المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين، والتأثير الأسباني واللاتيني واضح فيها، ونجد ذلك بوضوح في روايات "العذري " و ' البكري و"الأدريسي " و،" ابن حزم " و "ابن القوطية،" و "ابن حبان " و "ابن الخطيب " وغيرهم. وكل هذا يعبر عن التأثير والتأثر بين هاتين الثقافتين المتجاورتين.

ولم يقتصر الأمر على الثقافة اللاتينية، بل تأثر الأندلسيون أيضاً بالثقافة اليونانية التي كانت معروفة ومألوفة لديهم، فالشاعر الزجال "سعد بن عبد ربه " (ت ٣٤١

هـ)، ابن عم صاحب العقد الفريد، كان معنياً بكتابات الإغريق وعلوم الأوائل ويشير " ابن الخطيب " إلى أن حكم اليونان كانت تدرس في الأندلس ولاسيما لأبناء الطبقة الراقية من الملوك والأمراء، وضرب أمثلة على ذلك ببعض أمراء بني الأحمر في مملكة "غرناطة". على أن أهم إنجاز علمي قامت به الأندلس في هذا المجال، هو ترجمة الكتاب اليوناني المشهور "الأدوية المفردة" الملقب بكتاب الحشائش للطبيب اليوناني "ديوسقوريدس DIOSCORIDES الذي عاش في القرن الأول الميلادي. فيروي المؤرخون أن الخليفة الأندلسي "عبد الرحمن الناصر"، عندما تسلم نسخة من هذا الكتاب كهدية من الإمبراطور البيزنطي "قسطنطين السابع "، سنة ٣٣٧هـ ، شكل لجنة علمية لترجمته إلى العربية. وقد أثار ظهور هذه الترجمة العربية موجة من الحماس بين الأندلسيين الذين أقبلوا على دراسة الطب والنباتات الطبية، متخذين من كتاب " ديوسقوريدس " مصدراً رئيسياً لهم، وكل هذا يدل على تأثير الثقافة الإغريقية في حضارة الأندلس.

على أن الأندلس وإن كانت قد استفادت من الثقافة اللاتينية والإغريقية، إلا أنها في نفس الوقت، أعطت وأثرت في المدونات والحوليات والملاحم الإسبانية منذ وقت مبكر عقب الفتح الإسلامي، مما يدل على أن مؤلفيها أخذوا مادتهم العلمية من مصادر عربية ولا سيما من ص دينة "طليطلة" الإسلامية المجاورة لحدودهم في شمال أسبانيا.

ولما سقطت "طليطلة" TOLEDO في يد الأسبان سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٥م لم تفقد طابعها العربي قروناً طويلة، إذ استمر العلماء المسلمون، والمستعربون المسيحيون، واليهود يجتمعون في بلاط ملوكها المسيحيين، ويعكفون على ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية. وكانت هذه الكتب إما ترجمات عربية لأصول يونانية وفارسية وهندية، وإما من تأليف علماء المسلمين أنفسهم بما تضمنته من إضافات جديدة إلى الفكر الإنساني. وكلا النوعين كان جديداً بالنسبة لأوروبا التي كان التعليم فيها قاصراً على الأناشيد الكنسية. ولهذا صارت مدرسة المترجمين في "طليطلة" مركزاً ثقافياً كبيراً جذب إليه العلماء والدارسين من مختلف أنحاء أوروبا ولقد برز من كبار العلماء الذين أشرفوا على هذه الحركة العلمية، أسقف مدينة طليطلة "خيمينث دي رادا"، DE

RADA " الذي يعرف أيضاً بالطليطلي (١١٧٠ . ١٢٤٧ م). وكان يتقن عدة لغات من بينها العربية التي ساعدته كثيراً على الإفادة من المصادر العربية، وكتابة القسم الإسلامي من مدونته الكبيرة التي شملت تاريخ الرومان والقوط والعرب، وتسمى بحولية الطليطلي CRONICA DEL TOLEDANO " ولما ولي عرش أسبانيا الملك " ألفونسو العاشر" الملقب بالعالم أو الحكيم EL SABIO في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي (٧ هـ)، دفع بمدرسة "طليطلة" إلى الأمام، وعمل على حمايتها ورعاية علمائها، وتشجيعهم على الاستمرار في أعمال النقل والترجمة. بل إنه شارك بنفسه في وضع الخطط التي يسيرون عليها ولقد اتسمت هذه النهضة بظاهرة جديدة تقوم على استخدام اللغة القشتالية (الأسبانية) مكان اللغة اللاتينية في تدوين المصنفات الأدبية والتاريخية والفلسفية. وبهذا الأسلوب استطاعت هذه المدرسة أن تصب كل هذه الأصول العربية واللاتينية واليونانية في قالب قشتالي. ولم يقتصر اهتمام هذا الملك العالم على مدينة "طليطلة" كمركز ثقافي، بل أنشأ إلى جانبها مراكز أخرى في مدينة "مرسية" وفي مدينة "اشبيلية" التي اتخذها قاعدة لملكه.

وتحدثنا كتب التاريخ والتراجم أن عدداً كبيراً من علماء المسلمين كانوا يجيدون اللغة الإسبانية، ويناقشون علماء المسيحية في مختلف المسائل الدينية والدنيوية. ومثال ذلك العالم الغرناطي، "محمد الرقوطي " الذي عهد إليه الملك " الفونسو العالم " تعليم المسيحيين واليهود في مدرسة "مرسية". وهناك العالم الغرناطي "عبد الله بن سهل "، في القرن السابع الهجري أيضاً، الذي كانت له شهرة كبيرة في، العلوم الرياضية لدرجة أن المسيحيين في شتى نواحي أسبانيا، كانوا يرحلون إلى داره في مدينة "بياسة" –BAEZE لمجادلته والاستفادة من علمه. ولا يتسع المجال لحصر الأعمال العلمية التي ترجمت تحت إشراف الملك "ألفونسو العالم "، ولكن يكفي أن نشير إلى شروح أعلام الفكر الإسلامي وآرائهم الفلسفية مثل شروح "ابن رشد" على مؤلفات ' أرسطو" وبثروح "ابن باجة" وآراء "محيي الدين بن عربي " الصوفي المرسى، ورسالة "حي بن يقظان " لابن طفيل " والمقامات العربية الأدبية التي خلفت نوعاً من القصص الأسباني المعروف بالقصة البيكارسكية، NOVELA PICARESCA

أو أنشودة الجوع EPOPEYA DEL HAMBRE. كذلك ثبت تاريخياً أن إحدى صور المعراج النبوي قد ترجمت من العربية إلى القشتالية والفرنسية واللاتينية بأمر من الملك "ألفونسو العالم " سنة ١٢٦٤ م . لهذا كانت الفرصة سانحة أمام الشاعر الفلورنسي الإيطالي دانتي اليجييري (١٢٦٥- ١٣٢١ م) لكي يصل إلى إحدى هذه الترجمات للمعراج الإسلامي. وهناك احتمال أن يكون أستاذه برونيتو لاتيني أو غيره ممن كانوا يترددون بين فلورنسا وبلاط ملك قشتالة، قد ساعد دانتي على ذلك بأن حمل له مسودة من الترجمة.

على أن العمل العلمي الكبير الذي أنجز تحت أشراف هذا الملك العالم، هو في الواقع مدونته التاريخية الكبرى المعروفة باسم التاريخ الأول لأسبانيا، primera cronica generalde espana. فهذه المدونة اعتمدت على العديد من المصادر العربية المفقودة مثل تاريخ "أحمد الرازي غازي القرطبي"(ت ٣٤٤ هـ)، وتاريخ (ابن علقمة البلنسي"(ت ٥٠٩ هـ)، فحفظت لنا معلومات هامة من هذا التراث الضائع. كذلك تضمنت هذه المدونة عددا من الملاحم الإسبانية التي تتصل أحداثها بتاريخ المسلمين في الأندلس ومن أهمها: ملحمة أبناء لارا السبعه ، Los Infantes de Lara التي تتصل أحداثها بعصر الحاجب "المنصور بن أبي عامر"، وملحمة زايدة المسلمة، Lamora zaidaزوجة المأمون بن المعتمد بن عباد" الذي قتله المرابطون في "قرطبة"، وملحمة الفارس الأسباني المغامر السيد "القمبيطور" أي المبارز El cid campeador الذي أستولي على " بلنسية" في أواخر القرن الخامس الهجري (١١ م). وقد لاحظ المؤرخون أن هذه الملاحم Epicas،" تنبض بالعناصر العربية، وأن أحداثها، وإن كانت تتسم بطابع قصصي، إلا أنها تتصل اتصالا وثيقا بحياة المسلمين في الأندلس، كذلك لاحظوا أنها كانت في الأصل تتردد على ألسنة الناس على شكل أشعار باللغة الرومانية أو اللاتينية العامية، فجاء الملك " ألفونسو العالم "ودونها في حوليته في قالب نثري باللغة القنتشالية.

وهكذا نري مما تقدم أن الحولية التاريخية الكبرى للملك "ألفونسو العالم " هي مثل رائع لذلك الدور الذي قامت به الأندلس، كجسر حضاري، امتزجت فيه حضارتا الشرق والغرب.

-----------.

جزيرة صقلية

تعتبر جزيرة صقلية نقطة لقاء ثانية بين الشرق والغرب، ومعبراً آخر امتزجت فيه الحضارة الإسلامية بالحضارة الأوروبية، وذلك بفضل موقعها الجغرافي بين ساحل إيطاليا الجنوبي الذي لا يفصلها عنه سوى مضيق مسيني شمالاً، وبين الساحل التونسي القريب منها جنوباً. لهذا كانت صقلية حلقة اتصال سياسي وحضاري بين أفريقيا وأوروبا.

وتشاء الأقدار أن يتم فتح هذا المركز الحضاري الهام في عهد خليفة عالم وهو "عبد الله المأمون " حكيم بني العباس، وعلى يد قائد عالم وهو قاضي القيروان "أسد بن الفرات بن سنان " الذي أسند إليه الأمير زيادة الله الأول الأغلبي ، حاكم أفريقيا، قيادة الحملة إلى صقلية.

أبحرت(حملة من ميناء سوسة التونسية في أسطول من مائة مركب(سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م)، واتجهت نحو الساحل الغربي لجزيرة صقلية حيث استولت على مدينة ' مازرة" Mazara وغيرها من النواحي المواجهة للساحل التونسي جنوباًَ، ثم اتجه أسد بن الفرات نحو شرق الجزيرة حيث قاتل البيزنطيين قتالاً شديداً حتى هزمهم، واستشهد هناك عند أسوار مدينة "سرقوسة" (Syra cuse٢١٣ هـ / ٨٢٨ م)، بعد أن وطد الحكم الإسلامي في بعض نواحي الجزيرة.

ولقد واصل الأغالبة جهودهم في فتح صقلية بجميع مدنها وقلاعها، واستغرق منهم ذلك وقتاً طويلاً يقرب من ثمانين سنة (٢٩٣ هـ/٣. لم) وهي مدة طويلة إذا قورنت بفتح الأندلس الذي لم يستغرق أكثر من ثلاث سنوات. والسبب في ذلك يرجع إلى أن المسلمين لم يجدوا في أسبانيا سوى جيش محلي مفر، بينما كان وراء صقلية الإمبراطورية البيزنطية، تمدها بالمال والرجال. فضلاً عن قوة حصون الجزيرة ومناعتها. ولما قضى الفاطميون على دولة الأغالبة في المغرب (٢٩٧ هـ/ ٩٠٩ م)، ورثوا أسطولها وممتلكاتها. ومن ثم دخلت صقلية في فلك الدولة الفاطمية، وصار يحكمها ولاة من قبل الخلفاء الفاطميين سواء في المهدية أو في القاهرة بعد

ذلك. إلا أن هذه التبعية كانت اسمية في غالب الأحيان خصوصاً في عهد أسرة الكلبيين (٩٤٨- ١٠٥٢ م) التي تمتعت باستقلال ذاتي في حكم الجزيرة.

وكيفما كان الأمر، فإن صقلية حظيت خلال هذين العهدين الأغلبي والفاطمي، بحكم إسلامي مزدهر، وانتشر المسلمون فيها، وانتشرت معهم الحضارة الإسلامية في مدنها المختلفة. وقد أشاد الرحالة والجغرافيون المسلمون بما كان في هذه المدن من مساجد وقصور وحمامات وبيمارستانات وأسواق وأسوار وقلاع ومراسي... الخ. إلى جانب الصناعات التي أدخلوها كصناعة الورق والحرير والسفن والفسيفساء ذات الرخام الملون. كما استخرجوا المعادن المختلفة كالكبريت والنفط والنشادر والرصاص والحديد... الخ وشاركوا في ضروب الزراعة والتجارة، ونشروا لغتهم العربية وعاد اتهم وثقافتهم بين الخاصة والعامة.

غير أن صقلية لم تنعم بالهدوء والاستقرار مدة طويلة خصوصاً بعد انقراض دولة الكلبيين (١٠٥٢)، إذ دبت فيها النزاعات الداخلية مما أدي إلى قيام فترة شبيهة بفترة ملوك الطوائف بالأندلس ومن ثم كان من السهل على أي فاتح أن بغزو الجزيرة من الشمال أو الجنوب.

وفشل بنوزيري أمراء أفريقيا في تحقيق ذلك من الجنوب، بينما نجح النور مانديون حكام جنوب إيطاليا في الاستيلاء على صقلية من الشمال لخلى يد الكونت "روجار" الأول حاكم قلورية (كلابريا) الذي انتهز فرصة النزاع الذي دب بين أمراء المسلمين في صقلية، وأخذ يتدخل في شئونهم مظهراً تأييده للأمير القادر بالله بن الثمنة صاحب "طرابنش Trapni(شمال غرب الجزيرة) ضد منافسه علي بن الحواس صاحب " اقطانية"، أ+ Catania (شرق الجزيرة). وبعد حروب د امت تسع سنوات، تمكن روجار الأول من بسط نفوذه على الجزيرة كلها (٤٨٥ هـ/١٠٩٢ م). ولقد ترتب على هذه الأوضاع السياسية السيئة في صقلية، أن غادرها عدد من كبار علمائها وأدبائها الذين ما لبثوا أن أثبتوا تفوقهم العلمي في البلاد التي استقروا فيها. ومثال ذلك الشاعر الصقلي المعروف "أبو محمد عبد الجبار بن حمديس " (ت ٥٢٧ هـ / ١١٣٢ م) الذي هاجر إلى بلاط الملك المعتمد بن عباد في " أشبيلية" بالأندلس، ورثى وطنه بأروع ما قيل من شعر في هذا الفن من المراثي.

كذلك نذكر الفقيه والعالم النحوي "أبا القاسم علي بن جعفر المعروف بابن القطاع الصقلي " الذي هاجر إلى مصر في خلافة الآمر الفاطمي واختاره الوزير " الأفضل بن بدر الجمالي " مؤدباً لأولاده. و "لابن القطاع " مؤلفات عديدة في اللغة والنحو والعروض وفي تاريخ صقلية، بعضها مفقود والبعض الآخر موجود. ويذكر الوزير الغرناطي "ابن الخطيب " أن بعض المهاجرين من صقلية إلى المغرب، غيروا انتسابهم إلى صقلية بالقلب (أي بقلب الياء قبل الصاد) فصاروا يعرفون بالصياقلة.

على أن، الملك روجار الأول (١٠٩٢- ١١٠١ م) وإن كان قد قضى على الحكم الإسلامي في صقلية، إلا أنه لم يتعرض للمسلمين من أهلها بأذ ى، يل عمل على حمايتهم وأقرهم على ديانتهم وشريعتهم، وترك لهم قضاتهم يتحاكمون إليهم، وجند فرقة منهم في جيوشه، كما أباح لهم حرية الاحتفال بأعيادهم علناً.

هذا فضلاً عن أنه امتنع عن الاشتراك في الحروب الصليبية رغم إلحاح البابا عليه في ذلك.

وهكذا كانت صقلية في أيامه مملكة نصف إسلامية في دينها وفي نظامها الإداري والعسكري.

وبعد وفاة روجار الأول خلفه ابنه روجار الثاني (١١٠١- ١١٥٤ م) الذي أجمع المؤرخون على أنه قد بالغ في حماية رعاياه المسلمين بنفوذه وقوانينه، فأحبوه ومدحوه في شعرهم لدرجة أن بعضهم كان يعتقد خط أنه كان مسلماً في السر. وقد بلغ من تسامح هذا الملك وحبه للعدل والمساواة أنه كان يضرب نقوده بكل اللغات التي يستعملها رعاياه. فكانت نقود صقلية في عهده منقوشة بالعربية واللاتينية واليونانية. كذلك يؤثر عنه أنه كان يحاكي ملوك المسلمين في أزيائهم الفضفاضة على قدر ما حاكى أزياء قياصرة الروم، وأباطرة الفرنج، كأنما أراد بذلك أن يبين للناس بأن سياسته غير مرتكزة على ترجيح عنصر على آخر. وامتلأ بلاطه في مدينة بلرمو' Palermo" بعدد من، شعراء المسلمين وعلمائهم نذكر على رأسهم الجغرافي المغربي الكبير الشريف "أبا عبد الله محمد السبتي " المعروف بـ"الشريف الإدريسي " لأنه من سلالة الأدارسة، ملوك المغرب، وأحفاد الرسول ((r) عن طريق "الحسن بن علي بن أبي طالب ". وكان هذا الرحالة الإدريسي (٤٩٣ هـ- ٥٤٨ هـ/ ١١٠٠- ١١٥٤

م) ولوعاً بالأسفار والاطلاع على أحوال البلاد وعادات أهلها. فلما زار بعض أقاربه في جزيرة صقلية، استدعاه الملك روجار الثاني إلى بلاطه في بلرمو وبالغ في إكرامه والاحتفال به لكونه من أبناء الملوك، ثم طلب منه وضع رسم جامع للأرض، فلبى الشريف طلبه ورسم له خريطة للعالم المعروف في عصره على دائرة فضية مسطحة planisphere طولها ثلاثة أمتار وعرضها متر ونصف. كذلك ألف له كتاب" نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " لوصف هذه الخريطة، ويعرف هذا الكتاب أيضاً بالكتاب الروجاري أو كتاب روجار لأنه هو الذي طلبه منه.

وقد اهتم العلماء والمستشرقين بهذا الكتاب العظيم وعملوا على نشر أجزائه وترجمتها إلى اللغات المختلفة. وحسبنا أن نشير إلى الطبعة العلمية الحديثة التي أخرجها المستشرقون الإيطاليون لهذا الكتاب في سبعة أجزاء.

وهكذا نري، أن الملك روجار الثاني كان، على حد قول العالم الإيطالي ميشيل أماري، سلطاناً عربياً يحمل تاجاً كملوك الإفرنج،وأن تسامحه الديني أدى إلى امتزاج الثقافات العربية واليونانية واللاتينية، فصارت صقلية معبراً من المعابر الأساسية التي عن طريقها انتقل تر اث الحضارة الإسلامية إلى أوربا مما كان له أثره في قيام حركة النهضة المعروفة باسم حركة الرنيسانس " Renaissance" في أواخر العصور الوسطى.

تم خلف روجار الثاني ابنه وليام الأول (١١٥٤- ١١٦٦ م) الذي سار على سياسة أبيه وجده في حماية المسلمين وتشجيع الدراسات العربية الإسلامية، وكانت علامته مثل علامة أبيه "الحمد لله وشكراً لنعمته ".

ثم خلفه ابنه وليام الثا ني (١١٦٦ . ١١٨٩ م) الذي على الرغم من مساهمته في الحروب الصليبية حينما أرسل حملته البحرية الفاشلة على مدينة " الإسكندرية (٥٦٩ هـ/١١٧٢ م)، في أوائل عهد صلاح الدين الأيوبي، إلا أنه – كما يقول الرحالة الأندلسي المعاصر " ابن جبير"– تشبه بملوك المسلمين، وأتقن اللغة العربية قراءة وكتابة، واختار من رعاياه المسلمين وزراءه وحراسه وجواريه تاركاً لهم حريتهم الدينية، وكانت علامته "الحمد لله حق حمد ه ".

وبعد وفاة "وليام الثاني " بدون عقب له، حدثت منازعات داخلية حول العرش، أسفرت في النهاية عن تولية،" فردريك الثاني " ابن "هنري السادس " إمبراطور ألمانيا وكونستانسا بنت روجار الثاني. وبهذا صار "فردريك الثاني " إمبراطوراً " .

على ألمانيا وعلى مملكة الصقليتين التي تشمل بلاد نابولي وجزيرة صقلية. وبذلك انتقل الحكم في صقلية من الأسرة المالكة النورماندية إلى أسرة الهوهنشتاوفن الألمانية.

الإمبراطور فرد يك الثاني (١١٩٤- ١٢٥٥ م)

تولى الملك وهو صبي، وهذا أتاح له ترك الحكم في يد مستشاريه والتفرغ للدراسة والاستفادة من الثقافات السائدة في عصره وهي العربية واليونانية واللاتينية. ولا شك أن التراث الحضاري الضخم الذي تركه العرب والنورمان في صقلية وجنوب إيطاليا، كان أثر قوي في تكوين شخصية هذا الملك. وقد تجلى ذلك بوضوح في اهتمامه بالثقافة العربية، وترجمة مآثرها العلمية، وجنوحه إلى السلم في حل مشاكله السياسية، واقامة علاقات ودية مع ملوك مصر والشام من الأيوبيين.

ونتيجة لهذه السياسة السلمية تعرض فردريك لغضب البابا جريجوري التاسع الذي اعتبره عاصياً ومحروماً من رحمة الكنيسة. واضطر الإمبراطور فردريك- لعلاج هذه المشكلة- أن يخرج بتلك الحملة الصليبية العجيبة- المعروفة بالسادسة- التي كان قوامها ستمائة، جندي، ولم ترق فيها قطرة دماء واحدة، وذلك لأن الإمبراطور فردريك توصل إلى عقد معاهدة مع ملك مصر الأيوبي "محمد الكامل بن العادل " سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩م) استولى بمقتضاها على بيت المقدس بدون قتال.

وفي خلال هذه الزيارة توطدت أواصر الصداقة بين الإمبراطور فردريك وبين الملك الكامل وعدد من الأمراء وكبار رجال الدولة وعلمائها مثل الملك الأشراف موسى أخي الملك الكامل، والأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ قائد الجيش الأيوبي، والقاضي شمس الدين قاضي العسكر الذي صاحب الإمبراطور أثناء إقامته قي الشام.

وبعد عودة الإمبراطور إلى بلاده، أهدى إلى الملك الأشراف موسى (دبا أبيض)، فأرسل له السلطان الكامل جملة من الحيوانات الغريبة من بينها فيل أثار إعجاب الناس. أما الأمير "فخر الدين بن شيخ الشيوخ "، فقد سافر إلى الإمبراطور كرسول للملك الكامل وتوطدت بينهما صداقة متينة. وقد حفظ لنا المؤرخ الحموي "محمد بن نظيف " في كتابه "التاريخ المنصوري " (نشر في موسكو سنة (١٩٦٠) عدداً من الرسائل التي تتضمن معلومات هامة عن أخبار الإمبراطور وأخبار دولته.

وكان فردريك الثاني شغوفاً بالعلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية، وكثيرا ما كانت تعترضه فيها مشكلات علمية ولايجد من العلماء المحيطين به من يقدم له حلاً شافياً لها. فكان يرسلها إلى أصدقائه من ملوك المسلمين لعرضها على علماء بلادهم والإجابة عنها. من ذلك مثلاً، المسائل الرياضية والفلكية التي أرسلها إلى الملك الكامل والتي أجاب عنها العالم الرياضي المصري علم الدين قيصر الأسفونى (نسبة إلى قرية أسفون بالصعيد) فبعث بها الملك الكامل إليه مع كتاب في علم الفلك على سبيل الهدية. كذلك أرسل فردريك مجموعة من الأسئلة الفلسفية إلى الفيلسوف الصوفي الأندلسي "ابن سبعين "، وهي مسائل عن الكون والنفس والعلم الإلهي.. الخ، أجاب عنها "ابن سبعين "، وقد عرفت باسم "المسائل الصقلية".

ولما ولي الملك الصالح نجم الدين أيوب عرش مصر، سار على سياسة الود والصداقة التي اتبعها والده الكامل نحو صقلية. وتبادل مع الإمبراطور فردريك الثاني السفارات والهدايا، نذكر منها السفارة المصرية التي رأسها الشيخ " سراج الدين الأرموي "، الذي أقام مدة في صقلية، وألف كتاباً في المنطق للإمبراطور فردريك. ويقال أن هذا الإمبراطور أرسل إلى الملك الصالح أيوب رسولاً متنكراً في زي تاجر لينذره بحملة لويس التاسع على مصر.

ثم خلف الإمبراطور فردريك ولده مانفرد " Manfred" الذي لم يكن أقل عناية من أبيه بالثقافة العربية ولا سيما العلوم الرياضية والطبيعية.وقد عاصر هذا الإمبراطور دولة المماليك الأولى في مصر والشام على عهد السلطان الظاهر بيبرس، وتوطدت بينهما أواصر الصداقة والمودة كما كان الحال في عصر الأيوبيين. فيروي المؤرخ"جمال الدين بن واصل " أن السلطان " بيبرس " اختاره على رأس سفارة إلى

الإمبراطور مانفرد سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م)، وأرسل معه هدية من جملتها عدد من الزراف، وجماعة من أسرى عين جالوت من التتار بخيولهم وعدتهم، فأعجب الإمبراطور بالهدية وأحسن إلى الرسل وأكرمهم. ويصف "ابن واصل " مقابلته للإمبراطور بقوله "فأقمت عنده مكرماً بمدينة من مدائن أبوليا (جنوب إيطاليا) يقال لها برلت " Barletta" واجتمعت ، به، فوجدته متميزاً، محباً للعلوم العقلية، يحفظ من عشر مقالات من كتاب اقليدس في الهندسة.

وبالقرب من البلد التي كنت نازلاً بها مدينة تسمى لو جارة Lucera، أهلها كلهم مسلمون من أصل جزيرة صقلية، وتقام الجمعة فيها، ويعلن فيها بشعائر الإسلام، وهي على هذه الصفة من عهد أبيه الأنبرور (أي الإمبراطور). وكان قد شرع في بناء دار علم بها ليشغل فيها بجميع أنواع العلوم النظرية. وأكثر أصحابه الذين يتولون أموره الخاصة مسلمون، ويعلن في معسكره بالأذان والصلاة". ويضيف الصفدي في ترجمته "لابن واصل "، أن ما نفرد قال "لجمال الدين بن واصل " في مجلسه: "يا قاضي، أنا ما عندي ما أسألك عنه في الفقه والعربية. ثم سأله ثلاثين سؤالا في علم المناظر، فبات تلك الليلة وصبحه بالجواب عنها، فصلب الأنبرور على وجهه وقال" هكذا يكون قسيس المسلمين ". لأن القاضي لم يكن معه كتب في تلك السفرة، وإنما أجابه عن ظهر قلب ". كذلك ألف "ابن واصل" أثناء إقامته في إيطاليا رسالة في المنطق أسماها "الرسالة الأنبرورية" وأهداها إلى مانفرد.

____

مدرسة بالرمو للترجمة

كانت، مدينة بلرمو عاصمة صقلية وقاعدة ملوكها أيام حكام المسلمين والنورمان والجرمان وتقع على ساحل الجزيرة الشمالي.

ويفهم من كلام الإدريسي أنه كان يوجد بوسط بلرمو مدينة إسلامية قديمة تعرف بالخالصة، كانت مقر السلطان وجنوده أبان الحكم الإسلامي،وكان المسلمون يعرفونها باسم المدينة، والنصارى يعرفونها باسم بلرمو، ثم غلب الاسم القديم بلرمو على المدينة كلها بعد ذلك.

ولقد زارها ووصفها الرحالة والجغرافيون المسلمون أمثال "ابن حوقل البغدادي " (ت ٣٨٠ هـ)، و "الشريف الإدريس السبتي" (ت حوالي ٥٤٨ هـ)، ولابن جبير البلنسي الأندلسي " (ت ٦١٤ هـ).

وهكذا كانت بلرمو حاضرة صقلية في العصر الوسيط، وقد قامت فيها في القرن الثالث عشر الميلادي (٧ هـ) مدرسة للترجمة عن العربية عر، غرار مدرسة طليطلة في شمال أسبانيا. وتوطدت بين المدرستين علاقات ثقافية تبودل فيها الكتب والترجمات فضلاً عن العلماء.

وممن تردد على مدرسة بلرمو العالم الاسكتلندي "مايكل سكوت " M . Scott" أحد تلاميذ مدرسة طليطلة الذي ترجم أعمال أرسطو وشروح ابن رشد عليها. ومن المحتمل أنه تعرف على الإمبراطور فردريك الثاني الذي ازدهرت مدرسة بلرمو في عهده.

هذا، ومن المعروف أن معاني القرآن الكريم ترجمت إلى اللاتينية في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي أو السادس الهجري. كذلك، ترجمت قصة الإسراء والمعراج، بأمر من الملك الإسباني الفونسو العالم، إلى اللغات القشتالية والفرنسية واللاتينية، وانتشرت في أسبانيا وإيطاليا منذ القرن الثالث عشر الميلادي (٧ هـ) واستفاد منها الشاعر الإيطالي دانتي كما سبق أن أسلفنا، ولم تلبث هذه الترجمات أن انتقلت إلى جامعات باريس ونابولي وبولونيا.

على أنه يلاحظ أن حركة الترجمة في مدرسة بلرمو، اتجهت في معظمها- على غرار مدرسة طليطلة- إلى العلوم الرياضية والفلسفية والطبيعية. وكان من أهم ما ترجم فيها على سبيل المثال كتب ابن سيناء " Avicenne" (ت١٠٣٧م)(مثل كتاب القانون في الطب، وكتاب الشفاء في الفلسفة، وكتب أبي بكر محمد الرازي ' Razes " (ت ٩٣٢ م) مثل كتاب الحاوي في الطب... الخ.

وكان من، أعلام المترجمين فيها أوجين البلرمي " Eugeniusوليوناردو البيزاني ' Leonardo pisano". ولعل من مظاهر هذه النهضة العلمية ، آلاف المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة الفاتيكان بروما إلى الآن.

وهذا كانت جزيرة صقلية في العصر الوسيط، هي المعبر الثاني الذي عن طريقه انتقلت الحضارة الإسلامية إلى الفكر"الأوروبي. وينبغي أن نكرر ما قلناه دائماً من أن الباحثين ورجال العلم المسلمين لم يكونوا مجرد نقلة أو مترجمين، ولكنهم عدلوا التراث الكلاسيكي، وأعادوا خلقه وأخرجوا منه ثقافة جديدة عليها طابع الإسلام. وعلى هذه الصورة نقلوها إلى عقول أوروبا التي جاءت تطلب العلم في أسبانيا وصقلية.

الشام

كانت بلاد الشام هي منطقة اللقاء الثالث بين الشرق والغرب في العصر الوسيط إبان الحروب الصليبية وإذا ذكرنا الحروب الصلبية، فينبغي أن نذكر في الوقت نفسه أن الرسالات السماوية هي في الأساس رسالات محبة وأخاء وسلام بين البشر جميعاً .

لقد كانت التحولات الدينية في أوروبا سببا رئيسيا لقيام الحروب الصليبية، ذلك أن كنيسة روما بعد اعتناق الفرنجة للنصرانية غدت ندا للكرسي البطريركي في القسطنطينية، واختصت كنيسة روما دون غيرها بلقب البابا، ولعبت البابوية دورا مهما في إقامة دولة الفرنجة الكارو لنجية كمنافسة لإمبراطورية بيزنطة، ومن ثم أخذت البابوية تطمح إلى توحيد كنيستي الشرق والغرب تحت نفوذها،ولا حت الفرصة حين استنجد ميخائيل السابع بارابنيسز " Michael vll parapinaces" ملك بيزنطة ١٠٧١ –١٠٧٨ م، بالبابا جريجوري السابع " Gregory vll" ١٠٧٣ - ١٠٨٥ م، يدعوه لإرسال حملة لإنقاذ آسيا الصغرى من الترك، فأسرع جريجوري السابع لتأليب ملوك الكاثوليك وأمرائهم، غير أن عجلة الصراع بين المسلمين والفرنجة قد توقفت بسبب النزاع بين الكنيسة وملوك أوروبا، حتى إذا ما عادت للبابوية قوتها بعد موت هنري الرابع " Henri iv"، تطلعت البابوية إلى تأسيس حكومة في الشرق تجمع بين السلطتين الزمنية والدينية، ولذا كانت الحروب الصليبية من تدبير البابوية، حيث اتخذ البابا أربانوس الثاني " urbanus ll. ١٠٨٨ م . ١٠٩٩ م ، المعروف بتعصبه ضد المسلمين، عندما كان راهبا لدير كلوني، والذي غذى حرب المسلمين في الأندلس، من شكوى الحجاج إلى بيت المقدس، ذريعة لحرب المسلمين، وكان هذا البابا يرى بأن وظيفة البابوية الأساسية هي القيادة

العليا للحرب المقدسة، ثم أن الحروب الصليبية هي بمثابة سياسة البابوية الخارجية، فهي التي تديرها وتتحرك وفقها، والبابوات هم الذين نظموا الحرب ووجهوها.

ولا شك أن هناك عوامل أخرى سياسية واجتماعية واقتصادية، أقوى من العامل الديني، وراء هذه الحركة الصليبية، ولكن الزعماء والقادة عمدوا إخفاءها وراء هذا الستار الديني البراق لإثارة الشعوب وجذب الأنصار.

ثم توالت الحملات الصليبية الأوروبية على الشام ومصر منذ أواخر القرن الخامس الهجري (١١ م)، واستطاعت الحملة الأولى أن تنشب أظفارها في الشرق العربي، وتؤسس أربع إمارات صليبية: الأولى في إنطاكية التي تتحكم في شمال الشام، والثانية في الرها التي فصلت العراق عن الشام وهددت بغداد قاعدة الخلافة العباسية، والثالثة في طرابلس المنفذ الاستراتيجي الهام على ساحل البحر المتوسط، والرابعة في مدينة القدس حيث قامت مملكة بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ/١٠٩٩ م أقوى الإمارات نفوذاً.

- الشام

كانت بلاد الشام هي منطقة اللقاء الثالث بين الشرق والغرب في العصر الوسيط إبان الحروب الصليبية وإذا ذكرنا الحروب الصلبية، فينبغي أن نذكر في الوقت نفسه أن الرسالات السماوية هي في الأساس رسالات محبة وأخاء وسلام بين البشر جميعاً .

لقد كانت التحولات الدينية في أوروبا سببا رئيسيا لقيام الحروب الصليبية، ذلك أن كنيسة روما بعد اعتناق الفرنجة للنصرانية غدت ندا للكرسي البطريركي في القسطنطينية، واختصت كنيسة روما دون غيرها بلقب البابا، ولعبت البابوية دورا مهما في إقامة دولة الفرنجة الكارو لنجية كمنافسة لإمبراطورية بيزنطة، ومن ثم أخذت البابوية تطمح إلى توحيد كنيستي الشرق والغرب تحت نفوذها،ولا حت الفرصة حين استنجد ميخائيل السابع بارابنيسز " Michael vll parapinaces" ملك بيزنطة ١ ٧ ٠ ١– ٧٨ ٠ ١ م، بالبابا جريجوري السابع " Gregory vll"٧٣ ٠ ١ -٨٥ ٠ ١ م، يدعوه لإرسال حملة لإنقاذ آسيا الصغرى من الترك، فأسرع

جريجوري السابع لتأليب ملوك الكاثوليك وأمرائهم، غير أن عجلة الصراع بين المسلمين والفرنجة قد توقفت بسبب النزاع بين الكنيسة وملوك أوروبا، حتى إذا ما عادت للبابوية قوتها بعد موت هنري الرابع " Henri iv"، تطلعت البابوية إلى تأسيس حكومة في الشرق تجمع بين السلطتين الزمنية والدينية، ولذا كانت الحروب الصليبية من تدبير البابوية، حيث اتخذ البابا أربانوس الثاني " urbanus ll. ١٠٨٨ م . ١٠٩٩ م ، المعروف بتعصبه ضد المسلمين، عندما كان راهبا لدير كلوني، والذي غذى حرب المسلمين في الأندلس، من شكوى الحجاج إلى بيت المقدس، ذريعة لحرب المسلمين، وكان هذا البابا يرى بأن وظيفة البابوية الأساسية هي القيادة العليا للحرب المقدسة، ثم أن الحروب الصليبية هي بمثابة سياسة البابوية الخارجية، فهي التي تديرها وتتحرك وفقها، والبابوات هم الذين نظموا الحرب ووجهوها.

ولا شك أن هناك عوامل أخرى سياسية واجتماعية واقتصادية، أقوى من العامل الديني، وراء هذه الحركة الصليبية، ولكن الزعماء والقادة عمدوا إخفاءها وراء هذا الستار الديني البراق لإثارة الشعوب وجذب الأنصار.

ثم توالت الحملات الصليبية الأوروبية على الشام ومصر منذ أواخر القرن الخامس الهجري (١١ م)، واستطاعت الحملة الأولى أن تنشب أظفارها في الشرق العربي، وتؤسس أربع إمارات صليبية: الأولى في إنطاكية التي تتحكم في شمال الشام، والثانية في الرها التي فصلت العراق عن الشام وهددت بغداد قاعدة الخلافة العباسية، والثالثة في طرابلس المنفذ الاستراتيجي الهام على ساحل البحر المتوسط، والرابعة في مدينة القدس حيث قامت مملكة بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ/١٠٩٩ م أقوى الإمارات نفوذاً.

ولقد اثار هذا الاستعمار الصليبي البغيض غضب المسلمين وأيقظهم من غفوتهم ، فقاموا بزعامة قادة مخلصين منهم لرد هذا العدوان ودخلوا مع الصليبين فى صراع طويل استغرق مايزيد على المائتي عام حتى تمكنوا من طردهم من ديارهم .

كانت بداية الصحوة الاسلامية على يد القائد التركي عماد الدين زنكي صاحب الموصل وحلب الذى حرر الرها من براثنهم سنة ٥٣٨ ÷ت / ١١٤٤ م وفتح الطريق بين شمال العراق والشام ثم جاء ابنه نور الدين محمود صاحب حلب (ت

٥٩٦ هـ /١١٧٤ م) فعمل على توحيد الجبهة الاسلامية بضم دمشق ومصر فى وحدة شامية – مصرية ، أحاطت بمملكة بيت المقدس من الشمال والجنوب تمهيدا للقضاء عليها . وأخيرا يأتي القائد ومتم الرسالة الملك الناصر يوسف صلاح الدين (٥٦٥ هـ / ٥٨٩ هـ / = ١١٦٩ – ١١٩٣ م) فيحقق هذا الهدف المنشود بالانتصار على الصليبين فى حطين (٥٨٣ هـ /١١٨٧ م) ودخول بيت المقدس فى ليلة الاسراء والمعراج ٢٧ رجب من نفس السنة ولم يحاول صلاح الدين التمثيل باعدائه كما فعلوا هم من قبل بالمسلمين وقت دخلوهم المدينة ، بل اكتفى باعادة المساجد التى حولت الى كنائس ولا سيما المسجد الاقصى كما سمح لهم بمغادرة المدينة بأموالهم وأمتعتهم ، وسمح لنصاري المشرق بالبقاء مع المسلمين ، وكل هذا يدل على ان صلاح الدين لم يحارب الديانة المسيحية بل حارب السياسة الأوربية الاستعمارية لقد كان صلاح الدين ينشد تحقيق السلام الذى عبر عنه فى احدى رسائلة لأخيه تورانشاه باليمن بقوله : " إن بلاد الشام ، لاتسمع فيها لغوا ولا تأثيما الا قيلا سلاما سلاما " ولكن الاستعمار الاوربي لم يشأ أن يحقق السلام الذى ينشده بسبب الانتصارات الى أحرزها على الصليبين ، فجاؤوها هذه المرة بقضهم وقضيضهم بجيوشهم وأساطيلهم يقودهم كبار ملوكهم أمثال فردريك بربروسا أمبراطور المانيا ، وريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا ، وفيليب أوجست ملك فرنسا ، فاستولوا على سواحل الشام بغيه الوصول منها الى بيت المقدس .

لقد دامت هذه الحملة المعروفة بالصليبية الثالثة مدة ثلاث سنوات (٥٨٥ – ٥٨٨ هـ /١١٩٨–١١٩٢ م) ولكنها انتهت بالفشل الذريع بعد غرق الامبراطور الالماني ، وعودة الملك الفرنسي ، وفشل الملك الانجليزي فى استعادة بيت المقدس وعودته الى بلاده خائب السعي بعد عقد صلح الرملة مع صلاح الدين .

ثم رأي المستعمر الصليبي ، بعد فشل خطوط سير حملاته عن طريق أسيا الصغري والشام ضرورة تغيير اتجاهها نحو مصر أولا ثم الوصول منها الى بيت المقدس ، اعتقاده منه بأن مصر بقوتها ومواردها هى السبب فى فشل مشاريعة الصليبية ، وانه لابد من حرمان الجبهه الاسلامية من هذه القاعدة الهامة ، فمن يريد قتل الثعبان فليحطم راسه أولا "

وهكذا تحولت الحملات الصليبية الى مصر بقيادة جان دي بريين (سنة ٦١٥ هـ /١٢١٨م) ملك بيت المقدس ثم بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا (٦٤٧ هـ /١٢٤٦ م) ولكن الحملتين منيتا بالفشل الذريع بفضل المقاومة الاسلامية من ناحية وبسبب جهل الصليبين بجغرافية البلاد المصرية من ناحية أخرى اذا كان عليهم عبور النيل بفروعة وقنواته المتعددة وقت فيضانه فحاصرتهم مياهه وعاقتهم أوحاله ، فتساقطوا صرعي وأسرى وفى مقدمتهم ملكهم القديس لويس الذى وقع فى الاسر ايضا فكان النيل مقبرة للغزاه . –

وبعد انتهاء دولة الايوبيين ، واصل خلفاؤهم سلاطين المماليك جهاد الصليبين فالسالطان الظاهر بيبرس (٦٥٨ – ٦٧٦هـ / ١٢٦– ١٢٧٧م) استولى على عدد كبير من قلاعهم ومدنهم مثل يافا وقيسارية فى الجنوب ، وانطاكية فى الشمال وتبعه السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨ – ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ –١٢٩٠ م) فاستولى على اللاذقية وطرابلس ثم جاء بعده ابنه الاشراف خليل (٦٨٩ – ٦٩٣ هـ / ١٩٠ – ١٢٩٣ م) ليقضي على الامارة الباقية من دولتهم فى الشام وهى عكا (سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م) .

ولم يكتف المسلمون بطرد الصليبين من الشام بل تعقبوا فلولهم فى جزر البحر المتوسط ، فاستولى السلطان الناصر محمد بن قلاوون على جزيرة أوراد (سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م) . كما استولى السلطان الاشراف برسباي على جزيرة قبرص (سنة ٨٢٩ هـ / ١٤٢٦ م) هذا الى جانب الحملات البحرية التى شنها السلطان سيف الدين جقمق على جزيرة ردوس وغيرها فى شرق حوض البحر المتوسط (٨٤٣ – ٨٤٧ هـ / ١٤٤٠–١٤٤٤ م)

=================

اللقاء الحضاري في الشام خلال الحروب الصليبية

لم يكن الامتزاج الحضاري بين المسيحية والإسلام في الشام من حيث العمق والاستمرار على نفس المستوى الذي كان عليه في الأندلس وصقلية. وقد يرجع ذلك إلى أن المملكة اللاتينية في القدس كانت تفتقر إلى مركز علمي كبير للمعارف الإسلامية التي يستطيع المسيحيون أن يستمدوها منه على غرار طليطلة وبلرمو.

ولكن على الرغم من ذلك فإن بعض العلماء والتجار ومحاربي الحروب الصليبية ، استطاعوا عن طريق المشاهدة العينية والتفاهم والاندماج، أن ينقلوا بعض المعارف عن الزراعة والملاحة والصناعة.. الخ من شرق البحر المتوسط إلى أوروبا.

وأهم ما نلاحظه في هذا الصدد هو أن العلاقات التي سادت عصر الحروب الصليبية لم تكن كلها علاقات عدائية قائمة على الحرب والقتال بين المسلمين والصليبيين، بل قامت بينهم أيضاً علاقات ود وصداقة، ولا سيما في فترات الهدنة والسلام. ومما ساعد على توثيق هذه العلاقات، أن المستعمرات الصليبية في الشام كانت تعيش وسط إمارات إسلامية داخل الشام مثل حلب ودمشق وحمص وحماة إلى جانب القلاع والحصون مثل حصن شيزر الذي ما زالت أطلاله باقية على نهر العاصي في شمال الشام.

لهذا، كان لزاماً، على الصليبيين، لكي يحتفظوا بمستعمراتهم في الشرق العربي، أن يعتمدوا على سكان البلاد الأصليين من المسلمين والمسيحيين في الأعمال المحلية مثل زراعة الأرض وبناء الحصون والكنائس وترميمها، إلى غير ذلك من الأعمال الصناعية والمعاملات التجارية المختلفة.

حقيقة أن هذه الإمارات الصليبية كانت تتلقى من الغرب أموالا ومساعدات مختلفة، إلا أن هذه المساعدات كانت غير كافية ولا تفيدهم كثيراً على مر السنين. لهذا كان يتحتم على الصليبيين الاعتماد على أهالي المنطقة من الصناع والفلاحين وغيرهم. ومن هنا نشأت علاقات سلمية بين المسلمين والمسيحيين وأخذ كل فريق يعمل على فهم الفريق الآخر والتعرف عليه.

وإذا تتبعنا بحض المؤشرات الحضارية التي تأثر بها الفرنج خلال الحروب الصليبية، نجد أنها كثيرة ومتنوعة:-

فمن الناحية الاجتماعية، نجد أن الصليبيين، نظراً لقلة عدد النساء الفرنجيات اللاتي صحبن المقاتلين، أقبلوا على الزواج من المواطنات المسيحيات من الموارنة والأرمن وبعض الأسيرات المسلمات. وقد نشأ عن هذه الزيجات جيل من المولدين عرفوا باسم بولاني Pullani وقد غلب على هؤلاء في طبائعهم وعاداتهم الطابع الشرقي. ولم يتردد الصليبيون مع مرور الزمن في الاستعانة بهؤلاء المولدين في تشكيل فرق

من الخيالة الخفيفة عرفت باسم التركبوليTurcopoles. كذلك أخذ الصليبيون يكيفون حياتهم في الشرق حسب مقتضيات الحال والمناخ، فارتدوا الملابس الشرقية الفضفاضة واسعة الأكمام، وأطلقوا لحاهم، وجلسوا: على الزرابي ، وأكلوا الأطعمة الشرقية، وسكنوا القصور والبيوت ذات الطراز الشرقي حيث الأحواش أو الأفنية الداخلية التي تتوسطها النافورات والورود والأزهار، وتحيط بها الغرف والقاعات ذات المشربيات المحلاة بالزخارف المخرمة المفرغة المنوعة. كذلك استخدموا في ولائمهم وحفلاتهم الراقصات والمهرجين كما يفعل المسلمون.

أما من الناحية الاقتصادية، فنجد أن الصليبيين، استفادوا من المشرق الإسلامي استفادة كبيرة لدرجة أن بعض المؤرخين اعتبر الحركة الصليبية حروبا اقتصادية. ففي ميدان الزراعة نقل الصليبيون عن المسلمين إلى أوروبا، زراعة بعض أنواع النباتات والثمار والفواكه الني لم يعرفوها من قبل وسموها بأسمائها العربية مثل السكر والأزر والليمون والقطن و لسمسم.. الخ.

وفي ميدان الصناعة، عرفوا كثيرا من المصنوعات الإسلامية ونقلوها إلى بلادهم مثل المنسوجات الحريرية الموشاة التي اشتهرت بها الشام وتعرف باسم البروكار Brocare ، والأقمشة القطنية التي كانت تصنع بدمشق سيميت باسمها "الدمشقيات Damask " وأقمشة الموصل، Musilin ومنسوجات العتابية في بغداد "Taois"، هذا إلى جانب صناعة الورق والصابون والخزف والزجاج والحلي والعقاقير... الخ.

أما التحارة ، فقد انتعشت بين الشرق والغرب بشكل لم يعرف من قبل. فكانت قوافل المسلمين ترد إلى الموانىء الصليبية على ساحل الشام نحمل سلع الشرق كاللؤلؤ والأحجار الكريمة والعاج والعطور والبهار (SPICES)، وكان على تجار المسلمين عند دخولهم ولقد أثار هذا الاستعمار الصليبي البغيض غضب المسلمين وأيقظهم من غفوتهم، فقاموا بزعامة قادة مخلصين منهم لرد هذا العدوان، ودخلوا مع الصليبيين في صراع طويل استغرق ما يزيد على المائتي عام حتى تمكنوا من طردهم من ديارهم.

كانت بداية الصحوة الإسلامية على يد القائد التركي عماد الدين زنكي صاحب الموصل وحلب الذي حرر الرها من براثنهم سنة ٥٣٨ هـ/ ١١٤٤م وفتح الطريق

بين شمال العراق والشام. ثم جاء ابنه نور الدين محمود صاحب حلب (ت ٥٦٩ هـ/١١٧٤ م) فعمل على توحيد الجبهة الإسلامية بضم دمشق ومصر في وحدة شامية- مصرية، أحاطت بمملكة بيت المقدس من الشمال والجنوب تمهيدا للقضاء عليها. وأخيرا يأتي القائد ومتمم الرسالة الملك الناصر يوسف صلاح الدين (٥٦٥ هـ/٥٨٩ هـ/- ١٦٩ ١- ١١٩٣ م) فيحقق هذا الهدف المنشود بالانتصار على الصليبيين في حطين (٥٨٣ هـ/١٨٧ ١ م) ودخول ، بيت المقدس في ليلة الإسراء والمعراج ٢٧ (-جب من نفس السنة. ولم يحاول صلاح الدين التمثيل بأعدائه كما فعلو (هم من قبل بالمسلمين وقت دخلوهم المدينة، بل اكتفى بإعادة المساجد التي حولت إلى كنائس ولا سيما المسجد الأقصى، كما سمح لهم بمغادرة المدينة بأموالهم وأمتعتهم ، وسمح لنصارى المشرق بالبقاء مع المسلمين. وكل هذا يدل على أن صلاح الدين لم يحارب الديانة المسيحية بل حارب السياسة الأوروبية الاستعمارية. لقد كان صلاح الدين ينشد تحقيق السلام الذي عبر عنه في إحدى رسائله لأخيه تورا نشاه باليمن بقوله: "إن بلاد الشام، لا تسمع فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما". ولكن الاستعمار الأوروبي لم يشأ أن يحقق له هذا السلام الذي ينشده بسبب الانتصارات ، التي أحرزها على الصليبيين، فجاؤوه هذه المرة بقضهم وقضيضهم، بجيوشهم وأساطيلهم. يقودهم كبار ملوكهم أمثال فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وفيليب أوجست ملك فرنسا، فاستولوا على سواحل الشام بغية الوصول منها إلى بيت المقدس.

لقد دامت هذه الحملة المعروفة بالصليبية الثالثة مدة ثلاث سنوات (٥٨٥- ٥٨٨ هـ/١٨٩ ١- ١١٩٣ م)، ولكنها انتهت بالفشل الذريع بعد غم سق الامبراطور الألماني، وعودة الملك الفرنسي، وفشل الملك الإنجليزي في استعادة بيت المقدس وعودته إلى بلاده خائب السعي بعد عقد صلح الرملة مع صلاح الدين.

ثم رأى المستعمر الصليبي ، بعد فشل خطوط سير حملاته عن طريق آسيا الصغرى والشام ، ضرورة تغيير اتجاهها نحو مصر أولا ثم الوصول منها إلى بيت المقدس، اعتقادا منه بأن مصربقوتها ومواردها هي السبب في فشل مشار يعه الصليبية وأنه لا

بد من حرمان الجبهة الإسلامية من هذه القاعدة الهامة، "فمن يريد قتل الثعبان فليحطم رأسه أولاً".

وهكذا تحولت الحملات الصليبية إلى مصر بقيادة جان دي بريين Jean de Brienne (سنة ٦١٥ هـ بر ١٣١٨ م)، ملك بيت المقدس،ثم بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا (٦٤٧ هـ/١٢٤٦ م). ولكن الحملتين منيتا بالفشل الذريع بفضل المقاومة الإسلامية من ناحية، وبسبب جهل الصليبيين بجغرافية البلاد المصرية من ناحية أخرى ، إذ كان عليهم عبور النيل بفروعه وقنواته المتعددة وقت فيضانه فحاصرتهم مياهه، وعاقتهم أوحاله، فتساقطوا صرعى وأسرى، وفي مقدمتهم ملكهم القديس لويس الذي وقع في الأسر أيضا، فكان النيل مقبرة للغزاة.

وبعد انتهاء دولة الأيوبيين، واصل خلفاؤهم سلاطين المماليك جهاد الصليبيين: فالسلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨- ٦٧٦ هـ/ ٠ ٢٦ ١- ٢٧٧ ١ م) استولى على عدد كبير من قلاعهم ومدنهم مثل يافا وقيسارية في الجنوب، وأنطاكية في الشمال وتبعه السلطان المنصور قلاوون ٦٧٨١- ٦٨٩ هـ/ !٣٧ ١- ٠ ٢٩ ١ م) فاستولى على اللاذقية وطرابلس. ثم جاء بعده ابنه الأشرف خليل (٦٨٩- ٦٩٣ هـ/ ٠ ١٣٩- ١٢٩٣ م) ليقضي على الإمارة الباقية من دولتهم في الشام وهي عكا (سنة ٠ ٦٩ هـ/١٢٩١ م).

ولم يكتف المسلمون بطرد الصليبيين من الشام بل تعقبوا فلولهم في جزر البحر المتوسط، فاستولى، السلطان الناصرمحمد بن قلاوون على!جزيرة أرواد (سنة ٣ ٠ ٧ هـ/٢ ١٣٠ م)، كما استولى السلطان الأشرف برسباي على جزيرة قبرص (سنة ٨٣٩ هـ/ ١٤٣٦ م). هذا إلى جانب الحملات البحرية التي شنها السلطان سيف الدين جقمق على جزيرة رودس وغيرها في شرق حوض البحر المتوسط (٨٤٣-٨٤٧ هـ/١٤٤٠-١٤٤٤ م).

تلك الموانىء أن يدفعوا ضريبة على بضائعهم مقدارها قيراط على كل سلعة ثمنها دينار واحد (الدينار ٣٤ قيراطاً). وكانوا يعاملون في تلك الموانىء معاملة طيبة، ولهم فيها خانات أو فنادق ينزلون فيها ببضائعهم ودوابهم. ومن الطريف في هذا الصدد، أن حركة التجارة بين الجانبين ظلت مستمرة ولم تتوقف حتى في أوقات

الحروب بينهم، وقد نص على ذلك الرحالة المعاصر. ابن جبير عند قوله "ختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع، وأهل الحرب مشتغلون في حربهم، أما الرعايا والتجار فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحول سلماً أو حرباً".

وكان من نتائج ازدياد النشاط التجاري بين الشرق والغرب، أن ظهرت المدن التجارية في أنحاء أوروبا ، وهي ظاهرة جديدة أدت إلى اجتذاب الفلاحين إلى المدن وانهيار النظام الإقطاعي.. كذلك ظهر نظام المصارف في تلك المدن التجارية، وكثيراً ما عاونت هذه البنوك الطبقات الحاكمة بالقروض المالية وتحالفت معها ضد رجال الإقطاع. وقد نتج عن هذه المعاملات المالية إصدار صرف يعرف بالصك أو الشيك وكذلك ، السفاتج جمع بستاجة بمعنى الحوالة، وهي أنظمة مشرقية الأصل.

ومن الناحية المعمارية العسكرية، نلاحظ أن العمارة الإسلامية أضافت إلى التراث الفني العالمي نظماً لم تكن معروفة من قبل مما جعل لها في العصور الإسلامية طابعا مميزا. ومن أمثلة ذلك أشكال العقود، وأنظمة المساجد والمدارس والقصور والحمامات والأضرحة. كذلك ابتكر المسلمون المداخل ذات المرافق أو المنعطفات المتعددة في المدن والحصون الإسلامية. والغرض من ذلك التحكم في العدو المهاجم من باب الحصن عبر هذه الممرات الضيقة الطويلة الملتوية. ويلاحظ أن الرومان والبيزنطيين لم يستخدموا هذا الأسلوب في حصونهم، بل استخدموا المدخل المستقيم الذي يؤدي مباشرة إلى فناء الحصن. ومن أمثلة هذه المداخل عند المسلمين مدينة بغداد التي كانت أبواب أسوارها الخارجية لا تقع في سمت واحد مع أبواب أسوارها الداخلية، بل مزورة عنها ويفصل بينهما دهاليز ومنعطفات ملتوية لأغراض دفاعية، ولذا أطلق على بغداد اسم "الزوراء".

وقد طبق هذا الأسلوب الحربي بشكل أفضل في قلعة الجبل (المقطم) بالقاهرة في عهد صلاح الدين الأيوبي، في القرن السادس الهجري، وفي قلعة حلب في القرن السابع الهجري، وفي قلاع المرابطين والموحدين بالمغرب.

ولقد انعكس هذا الأسلوب المعماري العسكري على الحصون والقلاع التي شيدها الصليبيون في الشام أو في أوروبا بعد ذلك. مثال ذلك حصن الأكراد Crac de chevalliero في شمال شرق طرابلس الذي أعاد فرسان الاسبتارية شييد قلعته على

مثل هذا النظام الرائع الذي مازالت أثاره باقية إلى اليوم. كذلك ابتكر المسلمون نظام "السقاطة" التي انتقلت إلى الغرب باسم ماتشيكولي Machicoli وهي عبارة عن شرفة صغيرة من الحجارة أو الخشب تبرز من الحائط ولها فتحات من أسفل، وتقام ف حق أسوار الحصن، فيستطيع المدافعون ه ن خلال هذه الفتحات إلقاء المقذوفات أو السائل الحار أو العذرة على المهاجمين، وقد استعار الصليبيون نظام هذه السقاطات، وطبقوه في قلاعهم في شمال الشام وفي أوروبا. ومن أمثلة ذلك قلعة جابار التي شيدها ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، على نهر الخشن عقب عودته من الأراضي المقدسة.

أما من ناحية التأثير الثقافي، فإنه يبدأ منذ أن أخذ كل فريق يتعرف على الفريق الآخر–، ويحاول أن يكتب عنه حاضره وماضيه. و(قد أنجب عصر الحروب الصليبية نخبة من المؤرخين المعاصرين شرقيين وغربيين، كل يمثل وجهة نظره في تلك الحروب، فتوفرت من هذه الحقبة الصليبية مادة خصبة لم يتوفر مثلها من قبل. وقد عكف المؤرخون الأوروبيون في العصر الحديث على جمع هذه المادة الوفيرة في موسوعة علمية باسم "مجموعة مؤزخي الحروب الصليبية" RECUEIL DES HISTORIRNS CROISADES (PARIS ١٨٤١ -١٩٠٦) (١٨٤١ ١٩٠٦) ، وهي تضم ما كتبه المؤرخون المشارقة في خمسة مجلدات تحت عنوان:Historiens Orientaux وما كتبه المؤرخون الغربيون في خمسة مجلدات أيضاً تحت عنوان: Historiens Orientaux ومن بين كتاب المسلمين الذين أمدونا بمعلومات قيمة عن العلاقات بين المسلمين والصليبيين نذكر الرحالة الأندلسي السالف الذكر محمد بن جبير الذي زار الشام في أواخر القرن السادس الهجري (١٢ م) ووصف التعاون المشترك بين المسلمين والمسيحيين في الامارات الصليبية، وقال. ان حالة المسلمين هناك كانت أحسن من. حالة اخوانهم الذين يعملون قي الإقطاعات الإسلامية، وأن الصليبيين تعمدوا اصطناع المسلمين بحسن المعاملة كي يحببوا لهم العمل معهم. ولا شك أن ابن جرو صادق في كلامه، لأن الصليبيين أدركوا أن استمرار بقائهم في إماراتهم يتوقف على التعاون مع أهالي

المنطقة والذوبان فيها وقد مات ابن جبير في مدينة الإسكندرية ودفن بها (٦١٣ هـ). ويذهب البعض أن موضع دفنه مقام سيدي جابر الحالي .

وهناك كاتب آخر عاصر ابن جبير وأمدنا بمعلومات هامة عن علاقات المسلمين بالصليبيين بالشام، وهو الأمير الشاعر أسامة بن منقذ (ت ٥٨٣ هـ/١١٨٨م) أحد فرسان بني منقذ أصحاب حصن شيزر الذي لازالت أطلاله باقية باسم سيجر على بعد خمسة عشر أميال إلى الشمال من حماة على الضفة الغربية لنهر العاصي. وبحكم جواره للصليبيين، كان لأسامة معهم مشاكل وحروب وصداقات ونوادر أوردها في كتابه على شكل مذكرات خاصة تحت عنوان "كتاب الاعتبار" وتتضمن صورا مقارنة بين عادات المسلمين والفرنجة، شاهدها أو عاينها بنفسه. لقد كان أسامة موضع إطراء معاصريه وعلى رأسهم صلاح الدين الأيوبي الذي كان معجبا بشجاعته وشعره ويحتفظ بديوان من شعره.

أما المؤرخ الحموي جمال الديون بن واصل (ت ٦٩١ هـ/١٣٩٧ م)، فقد أورد في كتابه "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب " بعض المعلومات الهامة عن لويس التاسع ملك فرنسا أثناء حملته على مصر، وعن الامبراطور منفرد بن فردريك الثاني حينما قابله كسفير للسلطان الظاهر بيبرس في مدينة بولتا الإيطالية.

وهناك مؤرخ حموي آخر اسمه محمد بن علي بن نظيف قدم لنا في كتابه "التاريخ المنصوري ، صوراً لبعض الخطابات المرسلة من الامبراطور فردريك الثاني إلى الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ قائد جيوش الدولة الأيوبية يروي له فيها بعض أخبار دولته وما جرى فيها من أحداث عقب رجوعه من حملته في فلسطين (٦٣٦ هـ/١٢٣٩ م).

أما المؤرخون الأوروبيون الذين وصفوا حروبهم ني المشرق وكتبوا عن المسلمين وبلادهم فهم عديدون أيضاً نذكر منهم وليم الصوري (William of thyre ١١٣٠ - ١١٨٤ م) الذي ولد في بيت المقدس من أبوين فرنسيين وتعلم في فلسطين العربية واليونانية ثم اتصل بالملك عموري الأول وصار مربيا لأولاده، وظل يتدرج في المناصب حتى صار كبيرا لأساقفة صورة. ومن أهم مؤلفاته كتاب قي تاريخ الحروب الصليبية منذ قيامها سنة ١٠٩٦ م حتى أخر أيامه ١١٨٤م بعنوان "تاريخ الأعمال

التي تمت في بلاد ما وراء البحر" Histonia reum in partibus transmarinis gestarum، والكتاب يتضمن معلومات مفيدة عن مصر وأحوالها الداخلية في أواخر العصر الفاطمي، وكذلك ط عن تجارتها في البحر الأحمر مع بلاد الهند".

ولا يفوتنا أخيرا أن نشير إلى المؤرخ الفرنسي دي جوانفيلDe joinville (القرن ٧ ه/١٣ م)، الذي، صحب الملك لويس التاسع في حملته على مصر. وأسر معه فيها ، وكتب عنه كتابا بعنوان، القديس لويس " وأورد فيه معلومات هامة عن مصر والمماليك.

وهكذا نر ى مما تقدم أن الحروب الصليبية، وإن كانت قد سفكت فيها دماء غزيرة، إلا أن هذه التضحيات قد قابلها تعويض في هذا اللقاء الحضاري بين الشرق والغرب، إذ انمحت الصورة القديمة التي كانت في مخيلة الصليبيين عن المسلمين، فلم يعودوا يرونهم جنودا جبناء، أو قساة غلاظ القلوب أو كفرة عباد أوثان، بل شهدوا من حضارتهم الراقية وشجاعتهم في القتال وورعهم في الصلاة، وسماحتهم في معاملة أهل الأديان الأخرى، ما أطلق ألسنتهم بالإعجاب والتقدير. وقد صدق المؤرخ الإنجليزي هرنشو Heamshaw حينما عبر عن هذا الإعجاب بقوله: "فكما أن بلعام خرج ليدعو على بني إسرائيل، فإذا به يدعو لهم، فكذلك الصليبيون خرجوا من ديارهم لقتال السلمين، فإذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة. لقد بهت أشباه، الهمج من مقاتلة الصليبيين عندما رأوا المسلمين على حضارة دنيوية ترجح وحضارتهم رجحانا لا تصح معه المقارنة بينهما".

وعلى الجانب الآخر من العالم الإسلامي مشرقا، فقد ربطت العلاقات الثقافية والتجارية بين المسلمين وأوروبا، انعكست على التواصل الحضاري بين الحضارتين الإسلامية والغربية، إذ كانت القسطنطينية نقطة الالتقاء والمعبر لذ اك التواصل والتفاعل، فحين كان المسلمون يواصلون ضغطهم على القسطنطينية باعتبارها مفتاح الطريق إلى أوروبا الشرقية، هجر قسم من علماء بيزنطة، المدينة مزودين بكتابهم الكلاسيكية وبحصيلتهم الثقافية نتيجة الاتصالات الثقافية مع العالم الإسلامي، وخاصة" مع الأندلس وبلاد الشام وانساحوا في أوروبا، وعلى الأخص منطقة البحر

المتوسط، فأسهموا في التعجيل بالنهضة الأوروبية، وعلى سبيل المثال لا الحصر أن العالم البيزنطيGemston pletton أسس الأكاديمية الأفلاطونية في مدينة فلورنس على النسق الإسلامي، وصنفه كتابي القانون، وفلسفة أفلاطون وأرسطو.

والعالم البيزنطي مانويل خرايسولوراس M. Chreysolaras حاضر في جامعتي فلورنس وملان و بافيا واعتبر أمير الفصاحة والفلسفة اليونا نية، والعالم البيزنطي بيصاريون النيقي وميلانBessarion of Nicaea ، ساهم في النهضة الإيطالية بشعره وبما جمعه من مخطوطات الشرق، شكلت أول مكتبة لمدينة البندقية ثم تحولت فيما بعد نواة لمكتبة القديس مارك.

وحين نجح المسلمون العثمانيون في فتح القسطنطينية، وغدت إسلامبول بؤرة الإسلام انتقل العديد من الصناع والنجارين والبنائين ومهرة عمال البناء والزخرف وخبراء صناعة السجاد والجلود بأنواعها إضافة إلى العديد من العلماء والأدباء والشعراء والتجار إلى المدينة الجديدة، وأبدعوا في العاصمة زخرفة وتنميقا، وأقيمت فيها عشرات المؤسسات العلمية، كالمد ارس والمساجد والجوامع والزوايا والتكايا والبيمارستانات، ومن ثم وفد إليها أبناء الشعوب الأوروبية للدراسة أو الزيارة أو التجارة، فأفادوا مما تعلموه وما شاهدوه. ونقلوه إلى بلدانهم. ويبدو أن العلاقات التجارية قد أصابها بعض الارتباك بعد سنة ٨٥٧ هـ/٤٥٣ ام، على أثر فتح القسطنطينية، وانهارت بعض الطرق البرية والبحرية في آسيا وأوروبا عبر البحر الأسود والمضائق ، ويلاحظ بأن هذا الارتباك كان مقرونا بمدى نجاح العثمانيين في تثبيت الإسلام في مناطقه لجديدة، إذ أن بواعث الفتح واستمرار الأعمال الحربية حالت دون استمرار التجارة ولكن بصورة ؤقتة، غير أن أوروبا عوضت ذلك بزيادة وتقوية اتصالاتها التجارية مع الموانىء المملوكية في مصر النشام، فشهدت علاقات الجمهورية الإيطالية ، جنوة وبيزا والبندقية تقدما ملحوظا، حتى إذا ما استقرت أوضاع الدولة العثمانية عاودت التجارة إلى نشاطها عبر الخط الواصل من الصين والهند والخليج شمالا وغربا إلى حلب وآسيا الصغرى ليلتقي مع القوافل القادمة بر أ من وسط آسيا، ويتحد معها بالقسطنطيتية ثم إلى أوروبا، وكان هذا الطريق يعتبر الطريق الاحتياطي للتجارة الشرقية.

وثمة طريق بري من وسط آسيا والهند عبر جبالها وممراتها إلى نهر الأثيل ، حيث يتقابل مع القوافل الوافدة من الصين، !". ويسيران معا حتى بخاري إلى موانىء البحر الأسود وأوروبا، ومنه فروع جانبية إلى حلب وساحل البحر المتوسط.

لقد حمل تجار الشرق إلى أوروبا الشرقية عبر القسطنطينية وأدرنة ، الأنسجة المطرزة والسجاد والجلود والفراء والحنطة والشموع والأحجار الكريمة والصابون وغيرها، ولما كانت المراكز التجارية هي بالضرورة مراكز حضارية " يتم منها التبادل الثقافي إلى جانب التبادل التجاري، وكانت "اسلامبول " بوابة أوروبا الشرقية على العالم الإسلامي، عملت على نقل العناصر الحضارية تواصلا وتفاعلا وتمازجا وتلاحقا، فأثرت بصورة ملموسة ني تكوين الفكر الأوروبي، ومهدت الطريق لعوامل النهضة الأوروبية.

===============

#فضل الحضارة الإسلامية على العلوم الطبية

د . هناء إسماعيل (مجلة الحج والعمرة)

عندما جاء الإسلام اهتم العرب منذ فجره بشتى ضروب المعرفة والعلوم، وصاحب الانتصارات الحربية الرائعة، تقدم الثقافة وازدهار الفكر على صعيد جميع العلوم والمعارف النظرية التطبيقية بالإضافة إلى مختلف الفنون والصناعات.

وكان الاهتمام الكبير الذي أولته الدولة الإسلامية بالعلم والعلماء عاملاً هيأ الظروف الملائمة لانتشار التعليم، فما لبثت العلوم والطب أن اكتسيا ثوبًا جديدًا، بل نفخت فيهما الروح من جديد. فلقد شجع نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم نفسه دراسة الطب وقال: "تداووا فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد: الهِرَم"[رواه أبو داود].

حافظ العلماء المسلمون على تراث المعرفة الإغريقية فاحترموه وقدروه ونهضوا به وطوروه، وكان ذلك إسهامًا عظيمًا في تقدم الطب، فقد ترجم المسلمون إلى العربية مؤلفات جالين وغيره، ووزعوها على المراكز العلمية في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية، فكان لهذا العمل العظيم والجليل فوائده العلمية الكبيرة والجمة.

وقد أسهم ولاة المسلمين كذلك في نهضة علم المعالجة بالعقاقير، بل يعتقد الكثيرون أن الكلمة الإنجليزية Drug المرادفة للعقار الطبي، مشتقة من أصل عربي، كما هو الحال في آلاف المصطلحات الأخرى.

كذلك أنشأ الولاة المسلمون المستشفيات التعليمية الكبيرة والمستوصفات العامة في سائر أنحاء الدولة الإسلامية.

ومن حسن حظ العلوم الطبية أنها حظيت بالنصيب الأوفى بفضل هذا التشجيع المعنوي والمادي من الخلفاء وأولي الأمر والثراء، لاسيما خلال الحقبة الواقعة بين الأعوام ٨٠٠ – ١٢٠٠م.

وهذا الازدهار شمل جميع الدول الإسلامية من الشرق في الشام إلى الغرب في الأندلس، وكان لمصر الإسلامية النصيب الأكبر في هذا التقدم الحضاري، فقد أعطت لدنيا العلوم الطبية الكثير، واعتبرت أحد ينابيع الفكر العربي.. فقد أعطت ما لم تعطه الولايات الإسلامية الأخرى حضارة وعلمًا وفنًّا وفكرًا وابتكارًا، فبعد أن من الله عليها بالفتح الإسلامي سنة ٢١هـ في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، التقت حضارة العرب القادمين من شبه الجزيرة العربية بحضارة الفراعنة التي تسلمها أبناء النيل، وقد عكس المسلمون ضوء الشمس الغاربة للحضارات الفرعونية واليونانية، وكان لهم فضل الحفاظ على العلوم الطبية؛ لأن الرومان لم يحسنوا القيام على هذا التراث، بينما العرب المسلمون تسلموه وأتقنوه وأبدعوا فيه وأضافوا إليه.

كان هذا الالتقاء الحضاري نتيجة مباشرة في دفع عجلة التقدم في شتى ميادين العلوم والمعرفة والصناعات والنظم الإدارية، كما صاحب الفتوح الإسلامية إنشاء المدارس، ومن أروع مظاهر الحضارة الإسلامية مدارس الطب، فمنذ قيام الدولة الإسلامية كانت المساجد معاهد عامة لتعليم الشريعة فضلاً عن أنها دور للعبادة، وكان أول معهد هو الذي أنشأه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في مسجد المدينة، بعد هجرته في السنة الأولى.

وبمرور الزمن أصبحت المساجد كلها جامعات إسلامية، وصار اسم المسجد "جامع"، واليوم نحن نسمي مؤسستنا العلمية الكبيرة الشاملة بمؤنث "جامع" أي "جامعة"، وأصبح يدرس فيها مختلف علوم الدنيا والدين .

واشتهر عمر بن منصور البهابري، ومحمد بن عبد الله المصري، بتدريس الطب في الجامع الطولوني الذي أنشاه أحمد بن طولون، مؤسس الدولة الطولونية في مصر في خلال القرن الثالث الهجري، كما اشتهر عبد اللطيف البغدادي الذي كان يدرس الطب في الجامع الأزهر (وقد أنشأ في زمن المعز لدين الله الفاطمي، مؤسس الدولة الفاطمية في مصر، خلال القرن الرابع الهجري).

كما أُنشئت بيوت الحكمة (أي خزائن الكتب) لجمع الكتب من مختلف العلوم لحفظها وترجمتها، وكانت أول دار حكمة هي دار الحكمة القياسية، التي أنشئت في زمن هارون الرشيد (القرن الثاني الهجري)، وجمع له البرامكة كتب الهند القيمة، وكتب فارس، واليونان، ونشطت حركة الترجمة، وفي عصر المأمون في أول القرن الثالث الهجري، فأصبحت دار الحكمة أكاديمية للبحث العلمي في مختلف العلوم، وخصوصًا العلوم الطبية، وأضاف العرب علومهم إلى ما ترجموه من علوم الأمم الأخرى.

ولما انتشرت العلوم وازدادت المؤلفات، وبلغ شغف الناس بالعلوم مبلغًا كبيرًا لم تعد دور الحكمة تفي بالغرض، فأنشئت دور العلوم لتلقى فيها المحاضرات، وأولها دار علم الموصلي (في القرن الثالث الهجري).

ثم ظهرت المدارس التي أنشئت عن طريق الأساتذة والأثرياء، وابتدأت بدار يجتمع فيها الأستاذ مع طلابه، وأقدم مدرسة هي مدرسة أبي بكر بن فورك الأصبهاني (القرن الخامس الهجري) في نيسابور، وكانت تدرس فيها مختلف العلوم، ثم أصبحت تلك المدارس "حكومية"، وأول مدرسة حكومية هي المدرسة النظامية التي أنشأها نظام الملك (في القرن الخامس في بغداد وخراسان).

وهنا تجدر الإشارة إلى أن العرب المسلمين هم أول من جعل التدريس من واجبات الدولة، وأول من عرفوا تأميم الطب والعلاج.

ويعد الرازي واحدًا من أشهر الأطباء المسلمين، فقد ألف في القرن العاشر الهجري أكثر من ثلاثمائة كتاب في الطب، كما وضع موسوعة طبية كاملة، واشتهر كذلك الطبيب المسلم ابن سينا، حتى أصبح كتابه "القانون في الطب" واحدًا من أهم المراجع الدراسية في المدارس الطبية خلال العصور الوسطى، واشتهر طبيب مسلم

آخر في قرطبة وهو الزهراوي، الذي كتب في القرن العاشر كتابًا يستعرض فيه بالتفصيل كل المعارف الطبية في زمنه، كما ألف كتابًا مصورًا في الجراحة يعتبر الأول من نوعه في تاريخ الطب، وضمنه صورًا للأدوات التي تستخدم في علوم الجراحة.

ومن أمثلة دور العلم الطبية (دار ابن سينا)، فكان يجتمع فيها طلبة العلم، منهم من يقرأ في كتاب القانون، وآخر يقرأ في طرق الشفاء، وكان التدريس يتم ليلاً لعدم وجود فراغ خلال النهار بسبب خدمة السلطان والأمراء، ومن أهم المدارس الطبية أيضًا المدرسة الدخوارية بالشام، التي أنشأها أبو محمد بن علي بن حامد المعروف بالدخوار، وكان كحالاً (أي طبيبًا للعيون)، وتتلمذ على يديه كثير من أطباء دمشق، وكان أستاذًا ببيمارستان النوري الكبير، ثم بعد وفاته أوقفت داره وجعلت مدرسة للطب، وكذلك المدرسة الدينسرية التي أنشأها عماد الدين الدينسري، ولكن دور العلم والمدارس الطبية لم تف بالغرض المطلوب؛ لأن الطب من العلوم التجريبية التي لا تصلح لها هذه المعاهد، فكان لابد من الدراسة العملية، ولذلك ظلت البيمارستانات هي كليات الطب المفضلة لتدريس المقررات للطالب، حيث إنها مكان تتوافر فيه الحالات المرضية وطرق العلاج.

والبيمارستان هي كلمة فارسية تتكون من شقين "بيمار" بمعنى المرض، و"ستان" بمعنى مكان، أي أن معناها مجتمعة "مكان المرض" ثم حورت في العصور الحديثة إلى كلمة مارستان، أصبحت لفترة طويلة تطلق على دور العلاج العقلي، حتى صارت التعبير العامي لهذا النوع من المستشفيات.

بذلك أنشئت المدارس الطبية العلمية، أو البيمارستانات التعليمية، وأهمها البيمارستان المقتدري في القرن الرابع الهجري في بغداد، وقد هدمه المغول، والبيمارستان النوري الكبير في دمشق (في القرن السادس الهجري) ، والبيمارستان العضدي في بغداد، والمنصوري بالقاهرة، الذي أنشأه المنصور سيف الدين قلاوون، (في القرن السابع الهجري)، وكان يشرف على البيمارستان ويدرس الطب فيه علماء شهد لهم التاريخ؛

ففي البيمارستان العضدي كان ابن بطلان، وابن التلميذ، وسنان بن قرة ، وفي المقتدري كان الواسطي. وفي النوري: ابن الدخوار، وابن النفيس، وابن أبي أصيبعة. أما بيمارستان قلاوون في القاهرة فكان أعظم مستشفى، وكلية طبية في تاريخ مصر خلال العصور الوسطى، وكان يشرف على رئاسته كبير أطباء، وهو ما يقابل اليوم عندنا "عميد كلية الطب"، وكان يتم اختياره من كبار الأطباء، وأحسنهم سمعة وعلمًا، وكان الإشراف على البيمارستان يعتبر من وظائف الدولة المهمة ولرئيسه حق مقابلة السلطان في أي وقت، كما كان للبيمارستان قسمان: قسم للرجال، وآخر للنساء، وكل قسم من الأقسام الداخلية يشمل تخصصات عدة مثل: طب العيون – الجراحة – الإسهال والحمى – الأمراض العقلية والنفسية...إلخ.

كما كان قسم خارجي يتردد عليه حوالي ٤٠٠٠ مريض يوميًا يصرف لهم أصناف جيدة من العلاج، وكان كل قسم يشرف عليه رئيس، وكان لرئيس الأطباء ورؤساء الفروع فقط الإذن بمزاولة فنون الطب لمن يرونه صالحًا من الطلاب الدارسين بالبيمارستان، وكان يعاون المدرسين أو الأساتذة طوائف المعيدين، فنظام المعيدين هو أصلاً من ابتكار التعليم الإسلامي، وكان للمعيد واجبات منها ما ذكره القلقشندي (إذا ألقى المدرس الدرس وانصرف أعاد الطلبة ما ألقاه المدرس ليفهموه ويحسنوه).

كان الالتحاق بالمدرسة الطبية أو البيمارستان سهلاً، إذ يذهب الطالب إلى حيث يجلس الأستاذ، ويستمع إليه، والطالب حر في اختيار مقررات الدراسة، بل ودراسة ما يرغب فيه وحرية التنقل من أستاذ إلى آخر، حتى تكون الدراسة على هواه، ولا تفرض عليه في هيئة برامج أو مقررات إجبارية، ولم يكن الأمر فوضى كما قد يتبادر إلى الذهن، ولكن كانت هناك كتب أساسية يجب أن يدرسها الطالب، ولا يمكنه الحصول على إجازته إذا لم يتقن هذه الكتب.

ولعل الكثيرين يعلمون أن هذا النظام انتهى من عندنا نحن مبدعيه، وانتقل إلى الدول المتقدمة على رأسها الولايات المتحدة وأوروبا، ومازال قائمًا ويطبق لديهم حتى اليوم، فالطالب الذي يدرس دراسات عليا أو عادية يختار أستاذه والمقررات أو البرامج التي سيدرسها بنفسه وبحرية كاملة، ولا تفرض عليه أو يفرض عليه أستاذه أو مشرفيه.

ولكن من يعترف اليوم بهذا الإبداع العظيم للعرب، وفضل الحضارة الإسلامية على العلوم وطرق المناهج والتدريس؟

وتمر ستة قرون كاملة بعد هذا الإبداع الإسلامي، ونجد في عام ١٥٣٧م طبيبًا بلجيكيًا، بل عالمًا من علماء جامعة لوفان، هو أندريه فيزالوس، يترجم الكتاب التاسع من كتب الرازي إلى اللغات الأوروبية، وما لبث فيزالوس أن عين أستاذًا للتشريح في جامعة بادوا، وفي عهده أدخلت كلية الطب في جامعة بادوا الأساليب الإسلامية الجديدة في ممارسة الطب، التي ما لبثت أن انتشرت في سائر أوروبا وأسهمت إسهامًا كبيرًا في تقدم الطب في أوروبا.

===============

#من تطبيقات الهندسة في الحضارة الإسلامية ...

بقلم الدكتور راغب السرجانى ... تاريخ الإضافة : ٠٦/٠١/٠٧

مقدمة

النهضة الصناعية

الهندسة المعمارية

الهندسة الهيدروليكية!!

وختامًا

مقدمة

لم يكن غريبًا على العقل المسلم الذي ربَّاه دينه على إعلاء شأن التفكير والتدبُّر والقياس والتجريب العلمي... لم يكن غريبًا على ذلك العقل الذي تربَّى تلك التربية أن يُعلي شأن النظر إلى علوم الهندسة في عصور حضارته، وأن يبلغ بفروعها ومبادئها آفاقًا لم يُسبق إليها من أرباب الحضارات السابقة.

فنلاحظ أن ابن خلدون – رحمه الله – قد تحدَّث بحفاوة بالغة عن علم الهندسة.. تلك الحفاوة التي إن صدرت عن عالم في وزنه فهي – ولا شكَّ – تعكس نظرة إسلامية أصيلة لهذا الفرع من العلوم.. لقد بدأ حديثه عن الهندسة (جريًا على العادة المنهجية الإسلامية) بتعريف لهذا العلم قائلاً: "هذا العلم هو النظر في المقادير، إما المتصلة: كالخط والسطح والجسم، وإما المنفصلة: كالأعداد... وفيما يعرض لها من العوارض

الذاتية.."، وبعد أن يتحدَّث عن أنواعها المختلفة.. نراه يعلِّق – رحمه الله – على منزلة هذا العلم قائلاً: "واعلم أن الهندسة تُفيد صاحبها إضاءةً في عقله، واستقامة في فكره؛ لأن براهينها كلها بَيِّنَةُ الانْتِظَام، جَلِيَّةُ الترتيب، لا يكاد الغلط يدخل أقيستها؛ لترتيبها وانتظامها؛ فيبعد الفكر بممارستها على الخطأ، وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهْيَع (أي: الطريق أو النسق)..." إلى أن يقول: "وكان شيوخنا – رحمهم الله – يقولون: (ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للثوب الذي يغسل منه الأقذار وينقِّيه من الأوضار والأدران)؛ وإنما ذلك لما أشرنا إليه من ترتيبه وانتظامه".

فلا عجب – إذًا – في حق الأمة التي ينظر علماؤها إلى الهندسة كنورٍ للعقل، ومُطَهِّر للفكر من أدران العشوائية والفوضى.. أن تبرع في شتَّى التطبيقات الهندسية؛ فلا تقتصر تلك البراعة على ما رأيناه في المقال السابق من روعة علم الحيل النافعة (أو: الهندسة الميكانيكية)، بل تتعدَّى ذلك إلى سائر فروع الهندسة سواء منها ما يتعلَّق بالصناعة أو العمارة أو المياه والريِّ وغيرها...

النهضة الصناعية

فعلى صعيد النهضة الصناعية (والتي لا تخفى صلتها الوثيقة بالتقدُّم الهندسي) تطالعنا شهادات غربية منصفة.. منها ما يؤكده المستشرق الفرنسي "سيديليو" (١٧٧٧– ١٨٣٣م) في شأن روَّاد الحضارة الإسلامية من: "أنهم برعوا في جميع الفنون الصناعية، واشتهروا عند الأمم بأنهم دبَّاغون سباكون، جلاَّءون للأسلحة، نساجون أصناف الثياب، ماهرون في أشغال المنقاش والمقراض.. ويؤيد عُلُوَّ كَعْبِهِم في هذه الفنون سيوفُهُم الباترة، ودروعُهُم الخفيفة الصلبة، وبُسُطُهُم ذاتُ الوبر، ومنسوجاتهم من الصوف والحرير والكتان"..

بل إن باحثًا غربيًّا آخر هو (رينو) يقول: "إن العرب لما أغاروا من الأندلس على جنوبي فرنسا، وافتتحوا بقيادة السمح الخولاني وعنبسة الكلبي والحُرِّ الثقفي مدائن أربونة وقرقشونة وأفنيون وليون.. كانوا مُجَهَّزِين بأسلحةٍ لم يكن للإفرنج مثلها!!".

لقد كان المهندسون والتقنيون في الحضارة الإسلامية يتَّبعون المنهج العلمي في كل أعمالهم، ويبدءون – في الحالات الصعبة – برسم مخططات، ثم يصنعون نموذجًا

مصغرًا لما ينوون تنفيذه.. وقد أعاد الفنيون المحدثون بناء العديد من التركيبات والآلات تبعا للشروح التي قدمها التقنيون الإسلاميون في مؤلفاتهم.

الهندسة المعمارية

إذا نظرنا إلى جانب الهندسة المعمارية فسنجد أن المسلمين قد برعوا (إبان الفتوحات الإسلامية، وانتشار الإسلام في أرجاء المعمورة) في الاهتمام ببناء المدن الجديدة، وإعمار الأرض، وقد تجلى ذلك في النهضة المعمارية العظيمة التي شهدتها عدد من حواضر العالم الإسلامي، كما تجلى في العديد من المساجد والمباني والقصور والجسور والمستشفيات (البيمارستانات)..

وتُحدِّثنا كتب التاريخ عن بدايات قديمة للنهضة المعمارية الإسلامية.. فها هو الإدريسي في (نزهة المشتاق) يتحدث عن عظمة "قنطرة قرطبة" التي بُنِيت في عهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله (بين عامي: ٩٩هـ و ١٠١هـ) أي في أواخر القرن الأول الهجري!! يقول الإدريسي: "ولقرطبة القنطرة التي علت القناطر فخراً في بنائها وإتقانها.. وعدد قِسِيّها سبع عشرة قوساً.. بين القوس والقوس خمسون شبراً، وسعة القوس مثل ذلك: خمسون شبراً، وسعة ظهرها المعبور عليه: ثلاثون شبراً، ولها ستائر من كل جهة تستر القامة، وارتفاع القنطرة من موضع المشي إلى وجه الماء في أيام جفوف الماء وقلته ثلاثون ذراعاً..."

هذا وقد أضافت العمارة الإسلامية تقنيات لم تكن معروفة من قبل في أنظمة المساجد والمدارس، كما ابتكرت تلك العمارة عناصر فنية كثيرة منها: أشكال العقود والتيجان والقباب والمحاريب والمنارات والمآذن وغيرها...

ولا تكاد رقعة من تاريخ المسلمين أو ديارهم.. تخلو من آيات بينات تدل على تلك العظمة المعمارية.. ويكفينا هنا مثالان من حقبتين تاريخيتين مختلفتين: المثال الأول (جامع قرطبة) الذي بُني في العهد الأموي في الأندلس، والذي يُعَدُّ – عبر العصور – معجزة معمارية بامتياز.. حتى ليصفه صاحب الروض المعطار بقوله: "الجامع المشهور أمره الشائع ذكره من أجل مساجد الدنيا كِبَرَ مساحةٍ وإحكامَ صنعةٍ وجمالَ هيئةٍ وإتقانَ بنيةٍ..."

أما المثال الثاني فهو (جامع السليمانية) بإسطنبول.. وهو ممثل صادق للإبداع المعماري العثماني الذي صبغ الحقبة العثمانية الزاهرة والمجهولة من تاريخ المسلمين، وقد كان من أبرز سمات ذلك الإبداع تلك القباب العالية البديعة.. وقد شُيِّد (جامع السليمانية) عام (٩٦٤هـ / ١٥٥٧م).

ويدين علم الصوتيات المعمارية (إكوستيك) بالفضل لعلماء المسلمين في إنشائه وإرساء أصوله المنهجية العلمية؛ إذ أفادوا من تطبيقاته في مجالات حيوية مختلفة؛ فاستفادوا من معرفتهم بأن الصوت ينعكس عن السطوح المقعرة، ويتجمع في بؤرة محددة – كالضوء تمامًا – وأنه إذا أجري حساب دقيق لهندسة السطوح المقعرة فإنه يصبح بالإمكان تسليط الأمواج الصوتية المنعكسة، وتركيزها في اتجاهات معينة بحيث تزيد من وضوح الصوت وشِدَّته.. أما إذا لم تُرَاعَ تلك الحسابات الدقيقة فإن ذلك يؤدي إلى خلخلة في الصوت، وبلبلة في تلقِّيه لدي السامع.

وقد استخدم التقنيون المسلمون خاصية تركيز الصوت في أغراض البناء والعمارة، وخاصةً في المساجد الكبيرة الجامعة؛ لنقل وتقوية صوت الخطيب والإمام أيام الجُمَعِ والأعياد، مثل ما نجده في مسجد "أصفهان" القديم، ومسجد "العادلية" في حلب، وبعض مساجد بغداد القديمة.. حيث كان سقفُ المسجد وجدرانُه تُصَمَّم جميعًا على شكل سطوح مقعرة موزعة في زوايا المسجد وأركانه بطريقة دقيقة، تضمن توزيع الصوت بانتظام على جميع الأرجاء.

ولا شَكَّ أن هذه المآثر الإسلامية الباقية حتى اليوم لهي خير شاهد على ريادة علماء المسلمين في تقنية الصوتيات الهندسية المعمارية، وذلك قبل أن يبدأ العالم الأمريكي المعروف "والاس ك. سابين" في دراسة أسباب سوء الصِفَات الصوتية لقاعة المحاضرات بجامعة "هارفارد" الأمريكية في أوائل القرن العشرين.

الهندسة الهيدروليكية!!

ولم يقتصر إبداع المهندس المسلم على الجانب المعماري وحسب.. بل إن آيات الإبداع تتجلى في فروع هندسية أخرى كثيرة ومنها (الهندسة الهيدروليكية) التي تُعنى بأنظمة الري، وإمداد المياه..

ومع أن المهندسين المسلمين لم يكونوا أول من ابتكر علم الهندسة الهيدروليكية (فقد وجدت أنظمة الري حول الموارد المائية – والأنهار خاصة – منذ سكن الإنسان هذه المناطق) إلا أن التاريخ ودراسة الحضارة الإسلامية يؤكدان لنا أن قَدَمَ السَّبْقِ كان للمسلمين في اختراع العديد من الوسائل والطرق المختلفة للإمداد بالمياه، وقد ظهر ذلك جليًا في العديد من حواضر العالم الإسلامي لا سيَّما بغداد والكوفة، وغيرهما من المدن التي انتشرت من حولها الأنهار. بل إن بعض المصادر التاريخية تذكر أن نظم الري قد بلغت ذروة تطورها في الأراضي الشرقية للخلافة الإسلامية في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين (الرابع والخامس الهجريين)، وظهر وسط العراق واحد من أهم هذه الأنظمة، حيث سجل التاريخ تحولات رئيسية لمجرى كل من "دجلة" و"الفرات"، بالإضافة إلى تغييرات في منطقة المستنقعات والبحيرات الضحلة الواقعة شمالي غرب البصرة.

وبالرغم من وضوح الاهتمام الكبير الذي أولتْهُ الهندسة الإسلامية لنظم الري وإمداد المياه؛ نظرًا لضرورات الزراعة والعمران المتجددة، والتي صاحبت النمو الكَمِّي والكيفي المُطَّرِد للمجتمع الإسلامي.. إلا أن إمداد المياه لأغراض غير زراعية كان أيضًا من القسمات المهمة للحياة الإسلامية؛ فإتاحة المياه لم تكن أمرًا مُسَلَّمًا به في مناطق عديدة من العالم الإسلامي، مقارنةً بوفرتها في مناطق المناخ الممطر.. إلى جانب ما كان للمسلمين من إحساس خاص (نابع من دينهم) بإلحاح الحاجة إلى الماء النظيف.. فضلاً عن الاحتياج الإنساني الفطري للماء العذب الذي تُعَدُّ مصادره ثروة لا تُقَدَّر بثمن في أي مجتمع.

ولم تقتصر تطبيقات هندسة الإمداد بالمياه في الحضارة الإسلامية على جانب الاحتياجات الأساسية الملحَّة.. فقد برع مهندسو المياه المسلمون في توظيف الماء لخدمة مجالات حضارية غير الري والشرب.. لم يكن أغلبها معروفًا قبل الحضارة الإسلامية..

ومن أهم هذه المجالات: الحمامات العامة التي عرفتها المدن الإسلامية بكثافة استرعت انتباه الرحالة والتجار الغربيين الذين ما كانوا يألفون مثل ذلك الاحتفال بالنظافة في بلادهم!!.. بينما كانت أعداد الحمامات في الحواضر الإسلامية (التي

كان سكانها يتقرَّبون إلى الله بالطهارة) تزيد أحيانًا على عشرة آلافٍ في المدينة الواحدة!!..

وكانت الحمامات تُصَمَّم هندسيًّا بحيث تتيح للمستحم أن ينتقل تدريجيًّا من الجو الحار إلى الجو البارد حتى لا يصاب بأذى، وكان الحمَّام يُسَخَّن عن طريق إيقاد نار تحت أرضيته، كما كان يشتمل على أنابيب للماء الساخن والبارد داخل جدرانه!!

وإذا كانت الحمَّامات منتشرة لغرض الطهارة المهم دينيًّا وفطريًّا فإن هذا لا يجعلنا ننسى الاستخدامات الجمالية لهندسة المياه (أو الهندسة الهيدروليكية).. فقد عرفت المنشآت المعماريَّة الإسلامية وجود النافورات المائية الجميلة وانتشارها بكثرة في أفنية القصور والمساجد الكبرى؛ لتضفي على المكان جمالاً وبهجة، إلى جانب استخدام بعضها (في المساجد خاصَّةً) لأغراض الوضوء..

كما كانت الهندسة الهيدروليكية تضع بصماتها في الجانب الشكلي والجمالي للحدائق والبساتين؛ فكان يُراعَى شقُّ الجداول والنهيرات الصغيرة.. لا لإنجاز مهمَّة الري وحسب.. بل لتُبهِج النفوس بجمال تدفُّقها.. في مشهد تربَّى الذوق الجمالي الإسلامي على التعلق به من تكرار الوصف القرآني لنعيم (جناتٍ تجري من تحتها الأنهار!).

لا عجب – إذًا – وقد رأينا من تطبيقات الهندسة الهيدروليكية ما سبق.. أن نجد عند الجغرافيين المسلمين (في وصفهم لأي مدينة) اهتمامًا خاصًا ببيان مصادر إمداد المياه للسكان في هذه المدينة.. سواء أكانت ينابيع أو آبارًا أو أنهارًا.. وهنا يتبدى جهد المهندسين المسلمين في الاجتهاد لإمداد المدن بالمياه؛ حيث كانوا يحرصون على التوفيق بين شتى المصالح؛ حتى يتمكنوا من توصيل المياه لكل السكان...

وختامًا

ها هي الحضارة الإسلامية – وكما عوَّدتنا في شتَّى المجالات – لم تدع فرعًا من العلوم إلا وأحسنت الإبداع في سبيل تطويره.. وقد وقفنا في هذه الرحلة الموجزة على أن علم الهندسة لم يتخلَّف في هذا السياق عن غيره من العلوم؛ فقد تناوله عباقرة المسلمين تناولهم الفذ الذي يبرع – كما رأينا – في الجمع بين متطلبات الضرورة وجمال الأداء.. هذا الجمع الذي طبع الحضارة الإسلامية عبر مسيرتها الخالدة بطابعها الإنساني الجميل.

ولا بدَّ أن هذا السبق الحضاري الإسلامي (في ميدان الهندسة الذي نحن بصدده) لم ينشَأ من تلقاء نفسه.. بل دفعه إلى تلك الآفاق علماء أفذاذ.. نسأل الله أن يعيننا – في مقال قادم – على استشراف بعض معالم عظمتهم..

كما نسأله سبحانه أن يُعِزَّ الإسلام والمسلمين

================

#الحضارة الإسلامية ٠٠٠ إلى أين ؟ !

ألقيت هذه المحاضرة في مجمع النقابات المهنية

يوم الأربعاء ٢٩ من محرم ١٤٢١ هـ

الموافق ٣ أيار ٢٠٠٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

((رَبِّ اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي))

وإذ تجمد المجتمع المكي عن أنْ يفتح عقله وقلبه للدعوة الإسلامية ، فإنَّ رسول الله صلوات الله عليه وسلامه ، والصلاة والسلام على أهل الكساء ، وعلى الطيبين من أهله ، ورضي الله عن الأبرار من صحابته ، وعلى التابعين السائرين الثابتين على الإيمان والشريعة والنهج إلى يومنا هذا وإذ رأى الرسول ذلك سار إلى الطائف ، حيث القبيلة الثانية من مراكز التأثير في العرب بعد قريش فردوه أقبح رد ، فتوجه إلى ربه داعيا ومتألما ، بدعاء الطائف المشهور ، وحال أمتنا اليوم ، وقد أصبح الترويج للأعداء استراتيجية ، فلا بد من الدعاء الذي يشحذ العزيمة ، ويؤكد الإصرار ، ويبلور النية ، على محاولة الوقوف في وجه خطط الأعداء ٠ وقد أعيد تشكيل دعاء الطائف باسم الأمة : اللهم إنَّا نشكو إليك ضعف قوتنا ، بسبب تخاذلنا أدَّى إلى هوان أمتنا على نفسها ، وعلى عدوها : الأمريكان ، والغرب ، واليهود ، وقلة حيلتنا لادعائنا عجزا ليس فينا ، يا أرحم الراحمين ! أنت رب المستضعفين ، فارحمنا من تسلط أهل الجبروت علينا ، وأمددنا بعون من عندك على أنفسنا ، لنعود إلى الاستقامة ، لا تكلنا يا الله إلى عدو يملك علينا أمرنا ، وإلى من هم منا من القرابة ، لكنهم قطعوا الوشائج معنا ، أن لم تكن غاضباً علينا فلن نبالي ، نعوذ بنور

هدايتك ، الذي يصلح به أمر الإنسان في دنياه وآخرته ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم ٠

الشكر للقائمين على هذا النشاط الثقافي السياسي أعضاء اللجنة الثقافية ورئيسها في مجمع النقابات ، ولكل الحضور والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ولا سلام لعدونا بل الحرب الحرب وبعد

أسئلة ؟

تمهيداً لاشتراك الجميع في البحث ، لا بد من الانتباه الشديد للأسئلة التالية :

١. هل الحضارة الإسلامية هي التنزيل، بشقيه : البلاغ والبيان { أي القرآن والسنة } ؟

٢. هل الحضارة الإسلامية هي التدين { أي العبادات والهيئات والأخلاق } ؟

٣. هل الحضارة الإسلامية هي التشريع خاصة الحدود والعقوبات ؟

٤. هل الحضارة هي الدولة الإسلامية { أي تسمية خليفة للمسلمين } ؟

٥. هل الحضارة الإسلامية هي المذهب ، الذي تسير عليه الدولة ، أو منهج الفهم المذهبي الذي تتبناه الدولة ؟

٦. هل الحضارة الإسلامية هي مجرد ادعاء أنْ الدولة دولة إسلامية ؟ كالترابية مثلاً ٠

٧. هل العودة للإسلام حسب النموذج التاريخي الإسلامي : مثل الراشدي ، أو الأموي ، أو العباسي : الأول ، والثاني ، والثالث ، أو العثماني / مع إلغاء حركة التفكير على أساس الإسلام فيه ، من شأنه أنْ يحدث النهضة ؟ { على اعتبار وجود نهضات وجوداً واقعياً ، قامت على المادية كالشيوعية ، وقامت على الحل الوسط كالرأسمالية الغربية ، أو الرأسمالية مع البقاء وجدانياً على الخصوصية الوثنية كاليابان الحديثة } ٠

الإجابات

من الضروري إدراك أنَّ الإجابات تشير ولا تفصل ٠

قبل الإجابة على هذه الأسئلة لابد من التسليم بالملاحظات المهمة التالية :

١. أنَّ الأمة تعيش الحضيض الأحط في الهبوط الحضاري ، وهي سائرة في التخلف المادي يوما بعد يوم ، أما التأخر الفكري ، والانحطاط السياسي ، فالحديث عنهما يدمي الفؤاد ، ويبكي العين ، ويثير في الحلق غصةً وشجىً ، وأصبح خطر انقراض هذه الأمة الخيرة ماثلا ، لا ينكره إلاَّ من عميت باصرته وبصيرته معا ٠

٢. أنَّ التعبير عن هذه الأفكار يتم عبر النظام اللغوي ، والنظام اللغوي هو عبارة عن علاقة تربط بين الدال أي اللغة [الرمز] ، وبين المدلول أي المعنى ، والرمز يدل على معناه على سبيل المطابقة ، أو التضمن ، أو الالتزام ، وهذا في حالة الكلمات مفردة ، ويدخل المجاز دخولاً ضرورياً في حالة الجمل ، والمعاني في الفقرات ، وما لم تدرك العلاقة بين الدال والمدلول والأبعاد الثاوية بالنص أو وراءه ، فسيبقى الحديث حديث طرشان ، أو مجرد حالة سجالية في أحسن الأحوال ٠

٣. يترتب على الملاحظتين السابقتين ، ضرورة الانتباه والعناية بمدلولات الجمل ، من خلال السبر والتقسيم والتحليل ، وإعادة التركيب ، والتركيز على المفهوم من الجمل ، والمسكوت عنه أيضا ، للوصول إلى تصور صحيح للموضوع في حالتيه : حالة وجوده ، وحالة إمكانه ٠

• الإجابة عن السؤال الأول : القرآن الكريم ، والمعلوم من الدين بالضرورة أي [العمل المتواتر] ، فإنهما محفوظان ، الأول بحفظ الله له مبنى ومعنى ، وحفريات المعرفة أي البحث بالمخطوطات والآثار تؤكد ذلك ، والثاني محفوظ بتواتر العمل به وهو أمرٌ مشاهد ، أمَّا غيرهما فيجد الباحث نصاً ظنياً ، وتراثاً غنياً ، يستخرج منهما موضوعه بغلبة الظن ، ومع هذا فالإجماع منعقد على أنَّ الأمة الإسلامية قعيدةٌ كسيحةٌ ، يفرض عليها عدوها هيمنته ، مما يعني أنَّ الحضارة الإسلامية ليست هي التنزيل ، بل حركة التنزيل في الحياة هي الحضارة، والحضارة الآن غائبة ، رغم حضور التنزيل بكلياته مع التراث ، ومع العناية الفائقة به ، من طباعة للقرآن ، وتعدد مسابقات حفظه وتلاوته ، ومع تلاوته اليومية في إذاعات خاصة به ، وما ينطبق على القرآن ينطبق على السنة بشقيها وعلى التراث ٠

• الإجابة عن السؤال الثاني : منذ النكسة سنة ١٩٦٧ م ، تصاعدت أعداد المحافظين على أداء العبادات ، والملتزمين بالهيئات . خاصة في ملابس الرجال

والنساء . وتشكلت أنماط أخلاقية جديدة ، تمتنع عن الجدل ، وتعظ بالحسنى ، ومع كل ذلك هان أمر الأمة على العدو ومرَّ على الأمة حدثان مهمان : الاجتياح اليهودي الوقح للبنان لتبلغ الذروة في مجزرة صبرا وشاتيلا صيف عام ١٩٨٢ م ، ليتبعها عام ١٩٩١ م اشتراك أكثرية العرب والمسلمين مع عدو الأمة الرئيسي الغرب ، وعلى رأسه الولايات المتحدة ، في إعلان الحرب ضد العراق وأباحتْ الدول المجاورة الأرض والأجواء والمال والرجال ، لإمداد الغرب في عدوانه ، ولا تزال تواصل محاصرته ٠

• الإجابة على السؤال الثالث : التشريع مجرد تنظيم للعلاقات ، والحدود والعقوبات هي مجرد ردع للمخالفين ، وليس هناك دولة بدائية أو متقدمة أو مبدأية ، إلا ولها نظام تشريعي ينظم العلاقات ويحدد العقوبات ٠ لقد شهد التاريخ الإسلامي القديم والحديث نشوء العديد من الإمارات والدويلات الإسلامية ، مثل دولة الشيخ شامل في الشيشان ، ومثل الدولة السعودية الأولى ، والثانية ، ومثل دولة طالبان الآن ، وغير ذلك ، فلم تكن النتيجة في صالح الإسلام والمسلمين والمواطنين من غير المسلمين ٠

• الإجابة على السؤال الرابع : في عام (١٥١٧) م انتصر سليم الأول العثماني على آخر سلطان مملوكي وهو طومان باي الثاني ، وتنازل له عن الخلافة آخر الخلفاء العباسيين في مصر وهو محمد المتوكل على الله بن يعقوب أبو الصبر ، مسلماً الآثار النبوية الشريفة للسلطان سليم السيف والبيرق والبردة ، وتسلَّم مفتاحي الحرمين الشريفين أيضا ، وبقيت الخلافة في العثمانيين إلى ٣ آذار ١٩٢٤ م ، ولكنها كانت فاقدة للقوة الحضارية ، وقد ازداد التخلف الحضاري في تلك الدولة رغم قوتها العسكرية . وخاصة في القرنين الأولين من عمرها ، رغم أنَّ قلب العالم الإسلامي مصر وبلاد الشام والعراق والجزيرة العربية من ولاياتها ٠

• الإجابة على السؤال الخامس : قامت دولتان على المذهب الإباضي : في المغرب الدولة الرستمية ، وفي المشرق إمامة عمان ومسقط ، وقد انقرضتا ، وقامت الدولة الفاطمية على الإسماعيلية أصولاً ومذهبا ، فانقرضت ، وقامت دولة الموحدين على المذهب المالكي فانقرضت وتحولت الدولتان الزيديتان في الديلم وطبرستان وفي

اليمن من المنهج إلى المذهب فانقرضتا ، وها هي الدولة الشيعية الإمامية في إيران على المذهب ، وظاهرٌ عجزُها عن أي إمكان لإحداث النهضة ، فالمذهب لا يقيم دولةً لها صفة الاستمرار ولا يُنهض أمة ٠

• الإجابة على السؤال السادس : الحضارة الإسلامية حركة حياة : في الأمة ، والمجتمع ، والدولة ، والعالم ، في شقين ، نشئا عن حقيقة الاستخلاف والتكليف : الشق الأول التفكير والثاني التسخير ترتب على الأول التنظيم ، وترتب على الثاني العلم والاختراع والصناعة والتقانة [التكنولوجيا] ، وبهما معا تسير الحياة صُعداً ، في طريق الرقي المستمر ، ومن هنا فإنَّ ما يسمى بالتجارب الإسلامية كالترابية ، لنْ تكون التعبير الحقيقي للسير في مسار حضاري ٠

• الإجابة على السؤال السابع : السؤال تضمن الإجابة بالدعوة إلي ضرورة التفكير لإحداث النهضة ، أي إنتاج حركة حضارية تواجه المشاكل والمتغيرات ، وتواكب التقدم ، وإذ مُنع التفكير منذ بداية القرن الخامس الهجري ، عاشت الأمة والدولة والمجتمع مرحلة الهبوط ، التي طال زمنها بأسباب موضوعية ، وها هي اقتباسات ووقائع تؤكد ذلك ٠

اقتباسات

الاقتباس الأول

منقول من كتاب التفكير للمرحوم الشيخ النبهاني

ص {١٧٣ – ١٧٥ }

فهذه لمحة موجزة عن موضوع التفكير ، من حيث هو تفكير، نقدمها للأمة الإسلامية ، لعل دراستها توجد التفكير في هذه الأمة ، حتَّى ينقلها هذا التفكير إلى أنْ تعود خير أمة أخرجت للناس ٠ لا سيما بعد أنْ مضى على هذه الأمة عشرة قرونٍ وهي بعيدةٌ عن التفكير ، وإنْ حاولت هذا التفكير عدة مرات ٠ إنَّ الأمة الإسلامية قد بليت في القرن الرابع الهجري بعلماء عملوا على تعطيل التفكير في الأمة ، ونادوا بخطر التفكير على الأمة ، وضرره على الإسلام والمسلمين ، وذلك حين قام رهط من العلماء مثل العالِم المشهور باسم القفال ، ونادوا بإقفال باب الاجتهاد ، وعملوا على منع الاجتهاد ، وأقنعوا الناس بخطر الاجتهاد ، فَصدَّق

المسلمون هذه الدعوة ۰ وعملوا بها ، وتحرَّج العلماء من الاجتهاد ، وخاف المفكرون من الاجتهاد ، وكره الناس أنْ يكون هناك مجتهدون ۰ وقد تبنى الرأي العام في جميع أقطار الإسلام هذا الرأي ، وبذلك تعطَّل التفكير ۰ ووقف الناس عند حد التقليد ، وألغوا عقولهم ، ولم يعودوا يجرؤن على الاجتهاد ، فكان هذا المنع للاجتهاد ، والتفكير أعلاه إنما يكون في الإسلام ۰ فأدى ذلك إلى وقف التفكير لدى الناس ، واستمرءوا هذا التعطيل للتفكير ، والإنسان بطبعه حيوان كسول ، لذلك وقفت الأمة عن التفكير حتَّى هذا القرن ، القرن الرابع عشر الهجري ، فسلخت عشرة قرون وهي معطَّلة التفكير ، ولذلك ليس من السهل على أمةٍ سلخت عشرة قرون من عمرها وهي معطَّلة التفكير ، أنْ يتحرك فيها التفكير وأنْ تفهم عن وعي قيمة التفكير ، وقيمة المفكرين ۰ ولذلك فإنَّ ملايين الكتب مثل هذا الكتاب ، لا تضمن أنْ تحرك الأمة للتفكير ، وأنْ تسوقها لأنْ تجعل التفكير سجية من سجاياها ۰ ولكن الأحداث الموجعة التي تسحق الأمة سحقاً ، وتمعسها معساً ، فإنها صارت تبعث الأمل في أنْ يجد التفكير سبيله للأمة ۰ لا سيَّما بعد أنْ وُجد فيها جماعات تفكر ، وجماعات تحاول التفكير ، بعد أنْ تحقق فيها آلاف تجسد لديهم حب التفكير وصاروا مفكرين لا يستمرئون غير التفكير ، حتَّى غدوا تفكيراً يحيا ويتحرك وينموا ۰ لذلك فإنَّ ضخامة الأحداث وفظاعتها ، وكون التفكير تجسّد في أشخاص حتَّى غدا تفكيراً يمشي في الأسواق بين الناس ، فإنَّ هذين الأمرين : يوجدان أملاً مشرقاً ، في أنْ ينتقل التفكير من الأفراد إلى الجماعات ، وأنْ يصبحَ تفكيراً جماعياً لا تفكيراً فردياً ، وأنْ يكون تفكير الأمة لا تفكير الأفراد ، فتصبح الأمة الإسلامية أمة مفكرة ، وتعود كما كانت خير أمة أخرجت للناس ۰

جرى تحرير كتاب التفكير وهذا النص المقتبس هو نهايته في ٨ من صفر سنة ١٣٩٣ هـ الموافق ١٢ من آذار (مايس) سنة ١٩٧٣ م

ملاحظات على هذا الاقتباس

• الاقتباس وصفي واستطلاعي ، الوصفي يصف موضوعين : الأول في التأريخ فترة أول القرن الخامس الهجري وما نتج عن ذلك من إغلاق باب التفكير والاجتهاد

، نتج عن ذلك تركز التقليد وإلغاء العقول ٠الثاني وصف معاصر وهو دعوى تحقق تجسيد التفكير في آلاف ٠

• أما الاستطلاعي : فهو وجود أمل مشرق في عودة التفكير إلى الأمة ، فتتسنم المكان اللائق بها تحت الشمس ٠

• كتب المرحوم تقي الدين النبهاني الكتاب ، وختامه هذا الاستطلاع سنة ١٩٧٣ م ، حملت الأعوام التي تلت الاستطلاع ، زيارة السادات لدولة العدو ن وصلح مصر مع العدو ، وإعلان الحرب من قبل العراق على إيران ، واستمرارها ثمانية أعوام ، واجتياح اليهود الوقح لبنان صيف ١٩٨٢ م ، إلى زلزال حرب الخليج وقد كشف عن وقاحة الأنظمة القائمة في العالم الإسلامي ، بمشاركتها الغرب في حربه ضد العراق ، ثم حدثت مسارات الصلح المشينة ، إلى الدعوة العلنية للسير مع العولمة ، ظهر من ذلك كله تبلد حس الأمة ، وليس وجود الأمل المشرق ٠

• لقد حدث خطأ في تسجيل التأريخ ، إذ لم يتناد العلماء لإقفال باب التفكير والاجتهاد ، وإنما ألغي التفكير والاجتهاد بوثيقة الخليفة القادر ، وقد قُرأت على المفكرين والقضاة والعلماء والفقهاء عام ٤٠٨ هـ ، وطلب إليهم توقيعها ، وأفهم من يخالفها بإلحاق التنكيل به ، والمقصود بها كما دل منطوقها : المعتزلة بالدرجة الأولى ، والشيعة بفرقها المختلفة بالدرجة الثانية ، وقد كانت الأهمية عند واضعي الوثيقة تصفية المعتزلة ، وواقعياً تحقق لهم ذلك ٠ أعيدت قراءة الوثيقة سنة ٤٠٩ هـ ، وسنة ٤٢٠ هـ ، ثم في سنة ٤٣٣هـ ، أي في عهد القائم بعد موت القادر بأحد عشر عاماً ، فخرجت المعتزلة من التاريخ ، وبقيت مع تشويه صورتها في التأريخ ٠

الاقتباس الثاني

منقول من كتاب نهاية التاريخ وخاتم البشر

مؤلف الكتاب هو الأمريكي من أصل ياباني فرنسيس فوكوياما

صدر الكتاب بالإنجليزية وترجم للعربية بعد سنة ١٩٩١ م

النص منقول من ص [٥٦– ٥٧]

صحيح أنَّ الإسلام يُشَكِّلُ أيدلوجيا مُتَّسِقَةً ومتماسكةً ، مثل الليبرالية والشيوعية ، وأنَّ له معاييره الأخلاقية الخاصة به ، ونظريته المتصلة بالعدالة السياسية والاجتماعية ،

كذلك فإنَّ للإسلام جاذبية يمكن أنْ تكون عالميةً ، داعيا إليه البشر كافة باعتبارهم بشراً ، لا مجرد أعضاء في جماعة عرقية أو قومية معينة ، وقد تمكن الإسلام في الواقع من الانتصار على الديمقراطية الليبرالية في أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي ، وشَكَّلَ بذلك خطراً كبيراً على الممارسات الليبرالية حتَّى في الدول التي لم يصل فيها إلى السلطة السياسية بصورة مباشرة ، وقد تلا نهاية الحرب الباردة في أوروبا على الفور تحدي العراق للغرب وهو ما قيل { عن حق أو عن غير حق } أنَّ الإسلام كان أحد عناصره ٠

ويستمر فوكوياما قائلاً : غير أنه بالرغم من القوة التي أبداها الإسلام في صحوته الحالية ، فبالإمكان القول أنَّ هذا الدين لا يكاد يكون له جاذبية خارج المناطق التي كانت في الأصل إسلامية الحضارة ٠ وقد أنَّ زمن المزيد من التوسع الحضاري الإسلامي قد ولَّى، فإنْ كان بوسع الإسلام أنْ يكسب من جديد ولاء المرتدين عنه ٠ فهو لنْ يصادف هوىً في قلوب شباب برلين أو طوكيو أو موسكو أو السويد ، ورغم أنَّ نحو بليون نسمة تدين بالإسلام { أي خمس تعداد سكان العالم } فليس بوسعهم تحدي الديمقراطية الليبرالية في أرضها على المستوى الفكري ، بل قد يبدو أنَّ العالم الإسلامي أشدَّ عرضة للتأثر بالأفكار الليبرالية على المدى الطويل من احتمال أنْ يحدث العكس ، حيث أنَّ مثل هذه الليبرالية قد اجتذبت إلى نفسها أنصاراً . عديدين وأقوياء . لها من بين المسلمين على مدى القرن ونصف القرن الأخيرين ، والواقع أنَّ أحد أسباب الصحوة الأصولية الراهنة هو قوة الخطر الملموس من جانب القيم الغربية الليبرالية على المجتمعات الإسلامية التقليدية ٠

ملاحظات على هذا الاقتباس

• يؤكد فوكوياما من عنوان كتابه ومن موضوعه أنْ لا مكان تحت الشمس لحضارة غير الحضارة الليبرالية فالعولمة هي أعلى مراحل الرأسمالية وما يظهر في الواقع الإسلامي . والعربي جزء منه . عدم وجود مقاومة جدية لها ، فدعاتها العلنيون ، وقابلوها على استحياء ومقاوموها يسيرون بلا رشد ولا دليل ٠

• يصف الإسلام بأنه أيديولوجيا متسقة ومتماسكة ، وهو بهذا يضع الإسلام في النسق الحضاري ، خلافا لرؤى التغريبيين في كل تشكلاتهم : الليبرالية ، والمادية

الماركسية ، والعلمانية القومية ملحدة أو غير ملحدة ، وفي محل المخالفة لرؤية الإسلاميين ، الذين فصلوا عن الإسلام الحياة ، وجعلوه مجرد تدين وهيئات نُسكٍ ٠

• يرى أنَّ الإسلام يتعامل مع الناس باعتبارهم بشراً ، وليسوا بصفتهم عرقاً أو قوماً معينين ولهذا فله جاذبية عالمية ، ويرى أنه رغم ذلك لا يستهوي قلوب شباب الغرب ، ويرى أنَّ المستقبل في الليبرالية الغربية ٠

• يفطن إلى ما لا يفطن إليه أحد ، بأن الإسلام هو العامل المحرك للعراق ، وهو هنا يرى البعد الكامن في هذه الأمة ، وهو البعد الحضاري للإسلام ٠

• إنَّ السؤال المشروع في هذا المقام هو : كيف يدرك الغرب ببصيرة ثاقبة المعطيات الديناميكية في الحضارة الإسلامية ؟ ولهذا يرسم الخطط ، للحيلولة دون عودة الإسلام للتأثير الحضاري ٠

الاقتباس الثالث

من كتاب الفرصة السانحة

للرئيس الجمهوري الأسبق للولايات المتحدة نيكسون

صدر الكتاب بعد انهيار الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٩٠ م

يقول نيكسون في كتابه : لقد سبق العالم الإسلامي العالم المسيحي ، على مدى خمسة قرون من { ٧٠٠ – ١٢٠٠ م } ، وتفوق عليه في مستوى المعيشة والتسامح الديني والفلسفة والثقافة والعلوم ، وقد أدت الحروب المتتالية إلى عكس الآية ، فلقد قال أحد المؤرخين : لقد خسر الغرب الحروب الصليبية ، لكنه كسب حرب المعتقدات ، لقد تم طرد كل محارب مسيحي من الأرض المقدسة للمسيحية واليهودية ، ولكن الإسلام وقد أسكره النصر ومزق أوصاله المغول ، سقط في غياهب العصور المظلمة ، من الفقر والنسيان ، بينما الغرب المنهزم ، وقد أنضجته الأهوال نسي هزيمته وتعلم من عدوه وبنى كنائس تصل إلى عنان السماء ، وقاد سفينته في بحار المعرفة وخرج منه الفلاسفة أمثال دانتي وشوسير وفيلون وسر بروح عالية في عصر النهضة ٠

ويقول في مكان ثان من كتابه حول إمكانية العودة الإسلامية لقيادة الحياة السياسية :

إنَّ المسلمين منقسمون من ناحية إسلامية إلى ثلاثة فرق كبرى هي : السنة ، والصوفية ، والشيعة ، ويتكلمون بأكثر من [١٥٠] لغة ، ولهذا لا يشكلون أي خطر محتملٍ على الغرب والحضارة الغربية ٠ { الكلام الثاني منقول بتصرف مع المحافظة الكاملة على المعنى } ٠

ملاحظات على الاقتباس الثالث بشقيه

• كاتب الكتاب أحد رؤساء الولايات المتحدة الجمهوريين ، فالكتاب رؤية سياسي عرك السياسة وعركته ، فهي ليست رؤية باحث في السياسة ، ولا هي كتابه أكاديمية ، وقد تولى الحكم في الولايات المتحدة فترة ١٩٦٨ – ١٩٧٢ م ٠ شهدت هذه الفترة ظهور الصحوة الإسلامية ، ورغم التباين في تعليل ظهورها ، إلاَّ أنَّ الغرب انتفع فيها أيما انتفاع ، ولكنها أثارت مخاوف الغرب خاصة على المستوى الإعلامي والشعبي ، فهو إذن يكتب خطابا ليطمئنَّ الغربيون ويخبرهم أنَّ الصحوة في محل الاحتواء ٠

• يؤكد الاقتباس فكرة سبق الحضارة الإسلامية في قرونها الخمس الأولى لتحدث الغفوة وتنعكس الآية فيتقدم الغرب ، ويرى الغرب نفسه من زاوية المسيحية اليهودية ، كما أعادت تشكيلها روما ، ولذلك يقول وهو يتكلم عن الحروب الصليبية بحملاتها المتعددة ، التي حدثت من ١٠٨٩ – ١٢٩١ بخروج الصليبين من آخر معقل لهم في عكا : لقد تم طرد كل محارب مسيحي من الأرض المقدسة للمسيحية واليهودية ٠ مع أنَّ أمريكا لم تكن مكتشفة في فترة الحروب الصليبية ولم تكن الولايات المتحدة ناشئة إذ لم تنشأ إلاَّ بعد عام ١٧٨٩ م ٠

• يكشف الاقتباس أنَّ الأمريكيين ينتمون من حيث العمق التاريخي للغرب والعجب ممن يريد لهذه أنْ تترك عمقها التاريخي ! ٠

حقيقة قضية الأمة

• قضية الأمة ليست صراعا بين الدين الإسلامي والحضارة الغربية ، من حيث هو تدين ، وإنما الصراع صراع حضاري بين وجهتي نظرٍ مختلفتين ، في تفسير معنى الوجود ، وفي مهمة الإنسان على سطح هذا الكوكب ، أي صراع بين الإسلام كحضارة عدلية ، والليبرالية الديمقراطية كمشروع استلاب للإنسان ، تحوله إلى مسخ

يصل الليل بالنهار للحصول على سلع استهلاكية ، فيتحول أخيرا هو نفسه إلى مادة استهلاكية .

• يروج الآن لدخول المعركة الحضارية ، باستعمال نفس أدواتها في السياسة والاقتصاد والثقافة والاجتماع ، ومثل هذه الأدوات لنْ تتيح لهذه الأمة أن تتحرر من عدوها ، بل ستكون عامل من عوامل تركيز الربط .

• القائلون بالدخول إلى عالم العولمة ، مع المحافظة على الهوية والذات ، يقولون بالأمر ونقيضه وهي بالتالي ستوصل إلى ضياع الأمرين معا .

• ويأتي السؤال الأخير ! هل من درب يوصل لحماية هذه الأمة من كيد عدوها ؟ ويجعلها تستأنف طريقها كرحمة للعالمين . هنا من الضروري ملاحظة الذين يجردون الأمة من أي صفة حضارية سابقاً ولاحقاً ، ويرونها حالة تخلف حضاري منذ بدء الإسلام ، يسلطون الأضواء على الزوايا السوداء في حياتها ، لا للاتعاظ بها ، بل لإدانتها ، وعندما ينقلون إلى التاريخ الأسود في حياة الغرب داخليا وخارجيا ، يسوغون له ذلك بدعوى أنه يعمل لذاته ، ويتعامون عمَّا يجري في داخله من مظالم .

• ويرد عليهم الإسلاميون ، بالدعوة للإيمان التسليمي ، والتوقف عند النموذج التاريخي ، أو الإقتداء بالسلف ، أو قراءة مدونات العلماء ، دون أية قراءة نقدية لها ، وهكذا تتوقف حركة التاريخ عند التأريخ ، ويضيع بينهما الوعي ، وتفقد الأمة إرادتها ، وتعيش مستلبةً بلا سيادة وتسعى إلى مزيد من الاستلاب ! .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

================

#المنهج الإسلامي في علاج الهزيمة النفسية ...

بقلم الدكتور راغب السرجانى ... تاريخ الإضافة : ٠٤/١٠/٠٦ ...

مقدمة

تمر النفس الإنسانية بحالات شديدة التباين خلال مسيرتها في الحياة.. فبينما تشرق أحيانًا، ويملؤها الطموح، ويدفعها الأمل لتحقيق لمعجزات.. تدهمها أمواج البأس . في أحيان أخرى . فتنهزم أمام المصائب والصعوبات والمخاوف..

ولعل من أخطر ما يهدد سلام النفس الإنسانية، ويقضي على مقدراتها ويشل إمكانياتها استسلامها للإحباط والهزيمة الداخلية.. واستشعارها ألا فائدة، وأن شيئًا مما فسد لا يمكن إصلاحه، وأن الأجدى . وقد انسكب اللبن . أن نعكف عليه باكين نادمين بدلاً من القيام والبحث عن حل.

ومن خطورة الشعور بالإحباط والهزيمة النفسية أنه يقضي على أي أمل للإصلاح مع أن الأمل لا ينقطع ما بقيت هناك حياة.. إلى جانب أنه ينطوي على راحة لا تخفى.. فبدلاً من الكدّ في سبيل الخروج من الأزمة يكتفي المحبط بالعويل واعتبار نفسه شهيد المصيبة! ومن ثم يعزو كل فشل لاحق إلى مصيبته التي وقع فيها . أو أوقع نفسه . ومن ثم أيضًا تُسلمه كل مصيبة وهزيمة إلى أختها أو أكبر منها!.

براعة المنهج الإسلامي في علاج انكسار النفس

للإسلام منهج فريد في علاج انكسار النفس أمام متاعب الحياة ومصائبه، وينبع هذا التفرّد من كون الإسلام منهجًا ربّانيًا.. شرعه من سوَّى النفس الإنسانية وأبدع أسراره، وعلم . وحده سبحانه . مداخلها ومخارجها..

ولا تقتصر روعة المنهج الإسلامي على إحكام تفاصيله ودقة توجيهاته.. بل تتعدى ذلك إلى القالب الذي سيق فيه الدرس؛ فلا يعرض الإسلام أفكارًا نظرية جافة قد يراها البعض صالحة، ويظنها آخرون ضربًا من الخيال.. وإنما يساق الدرس ضمن تجربة عملية واقعية حدثت على الأرض، وخاضها ناس من البشر . في عصر الوحي أو فيما قبله . أصاب بعضهم في هذه التجربة وأخفق آخرون.. ومن ثنايا سياق التجربة الواقعية يُستخرج الدرس وتستنبط العبرة، فتلصق بوعي الإنسان ويقتنع الناس بإمكانية النسج على منوالها..

ومع أن الله يحب عباده المؤمنين وينصرهم ويدافع عنهم.. إلا أنه يقدّر عليهم البلاء ويمتحنهم بالآلام ليقوّي عودهم؛ فيثبتوا في مواجهة الإحباطات، ويأخذ بأيديهم (من خلال هديه) ليدربهم على فن مواجهة الهزيمة النفسية والخروج مها بسلام.. بل بغنائم!!

ظهر هذا الأمر جليًا في يوم أُحُد الذي سماه الله تبارك وتعالى في كتابه:(مصيبة) حين قال: [أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا] {آل عمران: ١٦٥}

وقد كان يوم أحد مصيبة بحق حين خالف المؤمنون من الرماة – متعمدين – صريح الأمر النبوي بعدم مغادرة أماكنهم خلف المسلمين مهما تكن الظروف، وفقد الجيش من جرّاء هذه المخالفة سبعين من خيار أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.. وانكسرت النفوس التي استكانت – منذ عام – للذة النصر يوم بدر، وغزا اليأس القلوب.. وخاصة عندما أشيع مقتل الرسول صلى الله عليه وسلم فقعد الناس عن القتال.. بل ولّى بعضهم الأدبار فرارًا!!.

إننا . بالفعل . أمام مصيبة حقيقية أصابت المجتمع المسلم بأكمله ولم تكن الخسائر مادية فقط بل تعدتها إلى الخسارة النفسية بهذا الانكسار ووقوع بعض العيوب التي كشفتها المصيبة.

عناصر المنهج الإسلامي في علاج الهزيمة النفسية

ما نريد في هذه الأسطر هو تحليل أحداث المعركة تاريخيًا أو عسكريًا، فليس المقام بمتسع لذلك.. وإنما لابد لنا أن نخرج من هذا الحدث الذي عالجه القرآن في ستين آية متواصلة (من سورة آل عمران) بمنهج واضح للخروج من الأزمات وللتغلب على الهزيمة النفسية؛ فما أكثر ما تتكرر بعض مصائب أحد . أو معظمها . في حياتنا.. ما أكثر ما نحبط لأزمات تمر بنا أو بأمتنا.. وما أكثر ما يعطلنا حب الدنيا عن كمال الطاعة لله ورسوله فنقصر أو نسوّف الطاعة.. وربما نتورط في بعض ما يغضب الله..

فنحن . إذًا . محاجون كأفراد وجماعات لتعرّف هذا المهج الرباني للخروج من الأزمات وعلاج الانكسار النفسي..

لهذا المنهج عناصر تستخلصها إذا أحسست تدبر آيات الله التي عالجت (مصيبة أحد)..

١. أول هذه العناصر: رفع الروح المعنوية بلفت النظر إلى الجوانب الإيجابية في الفرد والأمة.. خاطب الله عباده المنكسرين نفسيًا فقال لهم: [وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] {آل عمران: ١٣٩}

وكان خطابًا واقعيًا ولم يكن تحذيرًا لنفوسهم أو تسكينًا مؤقتًا لآلامهم (تعالى الله عن ذلك)؛ فليس هناك شخص مركب من شر محض.. أو فشل محض أو ضعف

محض.. إن بكل إنسان جوانب قوة وجوانب ضعف.. ولابد من لفت نظر الإنسان المنكسر نفسيًا إلى جوانب القوة الحقيقية فيه ليحسن توظيفها في التغلب على جوانب ضعفه..

يخاطب بهذا المعنى كل إنسان فقد مقومًا من مقوّمات نجاحه في الحياة..

كمن فقد مالاً أو صحة أو حاسّة.. بل حتى لمن فقد عزيزًا لديه كان يحسبه سنده الوحيد في الحياة ويرى الحياة صفرًا يدونه..

ويخاطب أيضًا بهذا المعنى المجتمع المنكسر لضعفه وقوة عدوه أو غلبة العوائق على طريق تقدمه..

ولسنا في حاجة إلى التأكيد أن هذا العلاج لا يعني أن ينتشي المنكسر والمهزوم نفسيًا فيقعد عن علاج أزماته طالما أنه يحوز إيجابيات عديدة وألا لما شرط الله علوّ المؤمنين في الآية السابقة بالإيمان الذي يقتضي منطقيًا العمل والبذل وعدم القعود دون المنازل العالية..

٢. من تلك العناصر أيضًا إبراز الجوانب الإيجابية في المصيبة نفسها فالله عز وجل يلفت نظر المؤمنين في أكثر من موطن من كتابه الكريم إلى أن أي مصيبة لابد أن تنطوي على نقاط مضيئة وجوانب إيجابية.. انظر إلى قوله عز وجل: [وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ]{البقرة: ٢١٦} وقوله تعلى: [فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا] {النساء: ١٩}

ولا تخفي عليك دلالات تحملها كلمة (كثيرًا) فالإيجابيات داخل قد تكون متعددة!

ربَّي الله المؤمنين على ذلك من خلال سياق علاجه لمصيبة "أحد" عندما وضعت الآيات أيديهم وأبصارهم على فوائد حصّلوها من الحدث المؤلم ومن الجراح والآلام التي أصابتهم..

ظهر هذا واضحًا في آيات من مثل قله تعالى: [وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ . وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا] {آل عمران: ١٦٦ – ١٦٧} فتميز الصادق من المنفق ثمرة إيجابية تفيد أي مجتمع يكافح من أجل البقاء والنهوض

ولولا المصيبة التي وقعت لبقى المنافق جرثومة مستترة جاهزة لنفث سمومها في جسد المجتمع في أي وقت..

. وليس معنى هذا أن نسعى في طلب المصائب وتمنيها بل نحن مأمورون بسؤال الله العافية..

إنما المقصود أن المصيبة أو الانكسار والألم كلها ليست نهاية الدنيا.. وليست شرًا محضًا بل في باطنها . دومًا . خير كثير لا يراه إلا أهل التوفيق..

ورضي اله عن الفاروق إذ يقول: "ما أصبت بمصيبة إلا كان لله عليّ فيها أربع نعم: أنها لم تكن في ديني، وأنها لم تكن اكبر منها، وأنني لم أُحرم الرضا عند نزولها، وأنني أرجو ثواب الله عليها".. فقد رزق من نفاذ البصيرة وإيجابية النفس ما جعله يرى في المصيبة الواحدة أكثر من فائدة..

٣. من عناصر معالجة الانكسار النفسي أيضًا التي يربينا عليها الإسلام أن المصائب أمر مقدّر.. كتب الله لكل مخلوق حظه منه من قبل أن يوجد بالتأكيد هناك أسباب مادية واقعية تقود إلى المصيبة ولكن هذا لا ينفي ارتباط الأمر . من قبل ومن بعد . بقضاء الله وقدره.. وإنما يتحرك الإنسان سعيًا لجلب نفع أو دفع ضر لأن الله أمره بالأخذ بالأسباب وهو مأجور على العمل والسعي ما دام موافقًا للشرع.. كما أنه يتحرك لذلك وهو موقن أن الله قادر على تعطيل الأسباب وقادر كذلك على إنفاذها..

فالإنسان وأهل الأرض جميعًا إن اجتمعوا على دفع مصيبة قدّرها الله لن يستطيعوا مهما أوتوا من أسباب.

بهذه الفلسفة لحركة القدر في الحياة يتحرك المؤمن إيجابيًا فاعلاً قويًا أمام المصائب.. سريع القدرة على القيام بعدها وعلاج آثارها..

وهو بذلك عصى على الهزيمة النفسية والانكسار تحت وطأة الحدث مهما كان مريرًا.. لا يعرف معنى للإحباط وتمنّي المستحيل ولا تطول به الأيام والليالي في انتظار معجزة متوهمة تردّ عجلة الزمان إلى الوراء وإلى هذا المعنى أشار النبي صلى الله عليه وسلم في رسالته التربوية المعجزة التي وجهها لقلب المنكسر وعقله حين قال: احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا

تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا.. ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان

وما عمل الشيطان المقصود هنا سوى ذلك الإحباط الذي يسيطر على النفس أمام فرصة فائتة أو خطب نازل..

٤ . اتخذ القرآن الكريم . إلى جانب ما سبق . وسيلة أخرى هامة لعلاج المنهزم نفسيًا حين وجّه المسلمين بعد مصيبة أحد إلى إمكانية استئناف المسير وفتح صفحات ناصعة إذا هم أحسنوا التوبة مما وقعوا فيه من أخطاء مهما كانت (وإن كانت ضخمة كالفرار من الزحف أو مخالفة أمر النبي صلى الله عليه وسلم) نعم.. قد يخطئ الإنسان أخطاء كبيرة أو صغيرة ولكن الحياة لن تنتهي عند حدود الأخطاء التي وقعت طالما أن باب الإصلاح والتوبة مفتوح.. المهم أن يسارع المخطئ إلى تدارك الأمر.. وانظر [وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ]...{آل عمران: ١٣٣ – ١٣٥}

فلا شك أن الصفحة البيضاء بل الجنات الواسعة التي يوعد بها المخطئ إن نجح في تعديل المسار.. كل ذلك كفيل أن يفتح أمامه الباب للنهوض والعمل من جديد..

٥. يجد المحبط المنكسر نفسيًا دواءً جديدًا في هدى رب العالمين إذ يعده . ولا أصدق من الله . بالقيام من جديد ويغذيه بالأمل في نصر قادم إن أحسن الاستدراك لما فات..

في أوساط خطاب الله تعليقًا على أحداث أحد يقول لعباده المنكسرين نفسيًا: [إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ]{آل عمران: ١٦٠}

إن فرص النجاح قائمة حتمًا لمن أتوكل على الله حق التوكل وأحكم الأخذ بالأسباب..

٦. كما أن القرآن لكريم يسلك سبيلاً آخر حكيمًا إلى النفوس المنكسرة يمسح عنها الأسى حين يلفت أنظارها دائمًا إلى عبرة الماضي المتكررة وهي أن السقوط يعقبه

قيام ونصر لمن سار على الدرب يقول الله تبارك وتعالى: [وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا] {آل عمران: ١٤٦}

وهذا منهج قرآني تكرر في غير هذا الموضع في مواجهة أزمات مرت بالمسلمين واقتربت بهم من دائرة الإحباط.. فتجد أن الله ينزل سورتين متواليتين في العام العاشر من البعثة في أواخر العهد المكي حين ضاق الحال تمامًا برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في مكة تكذيبًا وإيذاءً وصدوداً عن لحق فتتنزل القرآن بسورة هود وما حوته من قصص لرسل سابقين وكيف صبروا وثبتوا حتى جاءهم نصر الله.. ثم يختتمها الله تعالى بقوله: [وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ]{هود: ١٢٠}

فتعرّف أخبار السابقين المشابهة يثبت القلب ويزيل اليأس ويلقي في روع المهموم أن ما أصابك من همّ لم يكن جديدًا اختصصت به دون غيرك بل سبقك إلى ساحة الامتحان آخرون مثلك فنجحوا وعبروا الأحزان..

كما تنزلت بعدها سورة (يوسف).. وليس بخافٍ ما تحفل به من سلوى للمصابين وآمال لليائسين من خلال العديد من المآزق التي تعرض لها يوسف عليه السلام فصبر وثبت حتى نجاه الله منها جميعًا.. إلى جانب الأزمة العنيفة المتصاعدة التي مرت بيعقوب عليه السلام والمتجسد في فقد أحد بنية ثم تزيد بفقد التالي له في المنزلة بعد سنوات من الصبر..

إلا أنه . عليه السلام . لما وجّه بنية للبحث عن يوسف وأخيه ذيّل كلامه لهم قائلاً: [وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ] {يوسف: ٨٧} فتتجسد العبرة وينضح الدرس الذي من اجله يسوق الله هذا القصص فكما قال عز وجل في نهاية نفس السورة: [لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى]{يوسف: ١١١}

إنه منهج قرآني معجز نستطيع، نسميه (التربية بالتاريخ)، فأحداث الزمان تتكرر، وسنن الله في الأرض ثابتة لا تتبدل والعاقل من اتعظ بتجارب من سبقوه..

٧. ويلفت القرآن الكريم أنظار المسلمين تعقيبًا على أحد إلى أن الألم الذي أصابهم قد أصاب عدوّهم مثله، فلم يخرج عدوّهم من المعركة (وإن بدا منتصرًا) سالمًا من الجراح والآلام.. قال لهم الله تعالى: [إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ]{آل عمران: ١٤٠} فلم يذهب كفاحكم ضد عدوكم سدى، بل إن جهادكم قد آذاهم مثل ما أصابكم منهم من أذى (قرح مثله) وهي سنة ماضية معركة الحق مع الباطل فصّلها الله في موضع آخر من كتابه حين قال:[إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ]{النساء: ١٠٤} ولا ريب أن فرقًا كبيرًا بين من هزم وهو يرى عدوه مكتمل الفوز والانتصار ومن هزم وهو يشعر انه هو أيضًا قد نجح في النيل من عدوه مكتمل الفوز والانتصار ومن هزم وهو يشعر أنه هو أيضًا قد نجح في النيل من عدوه ولو بعض النيل.. شتان بين النفسيتين!! وهو درس بليغ لأمة المسلمين في صراعها مع الباطل في الأرض.. فمهما انتعش الأعداء بغرور قوّتهم إلا أن عين المتأمل لا تخطئ جراحًا تؤلمهم وخسائر بين الحين والآخر تستنزف مواردهم..

٨. وكما يربي القرآن الكريم المنهزمين نفسيًا على أن الجراح والآلام ليست حكرًا عليهم دون أعدائهم يوجه أبصارهم نحو سنة كونية ثابتة متى استقرت في النفس المحبطة عاودها الأمل من جديد.. تلك السنة هي المتمثلة في قوله تعالى: [وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ] {آل عمران: ١٤٠} فليس من شأن الأحوال أن تثبت على هيئة واحدة بل من شأن المقاعد أن يتبادلها الجالسون كل حين فلا المهزوم يظل مهزومًا ولا المنتصر يظل منتصرًا..

وكذلك الغني والفقر والصحيح والسقيم..

وإذا فهم المحبط ذلك أيقن بلا شك أن بالإمكان حتمًا أن يتجوز دائرة إحباطه التي تسيطر عليه لأن الأحوال حتمًا تمضي إلى تبدّل، وخير له أن يستثمر هذا التحول لصالح النهوض من كبوته..

٩. كما أن الإنسان يوم القيامة يحاسب على عمله الذي كسبته يداه ولا يحاسب على النتائج المترتبة على فعله هذا..

والإسلام يرسخ هذا المعنى في نفوس المؤمنين، لأن العامل قد يحسن العمل ثم لا تأتي النتيجة على المستوى المطلوب فيحبط ويشعر بالفشل..

فيربط الإسلام جهودك وخططك بما تستطيع تحقيقه لا بما يتعلق بالغيب والقدر المحض..

ومن ثم يربط القرآن المؤمنين . في كفاحهم عبر الحياة . بثواب الآخرة المستقر اليقيني المترتب مباشرة على عملهم، فترى الله عز وجل يقول عن المؤمنين المجاهدين في سبيله: [فَآَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآَخِرَةِ]{آل عمران: ١٤٨} فالثواب الحسن حقًّا هو ثواب الآخرة.

أما الذين كفروا فحتى لو حققوا انتصارًا (أي: نتيجة حسنة) فيهم من الخاسرين في الآخرة (لسوء عملهم) يقول تعالى: [لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ]..{آل عمران: ١٩٦، ١٩٧} ويقول تعالى: [وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا]{آل عمران: ١٧٦}

١٠. وأخيرًا يلفت الإسلام نظر المنكسر إلى أن طول القعود عقب الهزيمة يوجب العقاب من رب العالمين.. وذلك حتى يعلم الإنسان أن واجبه عقب الانكسار أن يبادر بالنهوض وإصلاح ما فات، فالعمر ضيق لا مجال فيه لطول القعود يأسًا وإحباطًا، والفرص المتاحة قد لا تظل متاحة إلى الأبد يقول تعالى معالجًا أشد ساعات الهزيمة النفسية لدى المؤمنين يوم أحد: [وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا]{آل عمران: ١٤٤}

فقه هذا المعنى رجلان من الأنصار . قبل أن تنزل الآية الكريمة . فهذا أنس بن النضر يصيح بأولئك الذين أحبطوا وقعدوا عن القتال لما سمعوا بمقتل النبي صلى الله عليه وسلم: "ما تصنعون بالحياة بعده؟! قوموا فموتوا على ما مات عليه".. ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل..

أما الآخر فكان ثابت بن الدحداح (أو الدحداحة) رضي الله عنه..

يصيح بأصحابه الأنصار يوم أحد بعد الانكسار والهزيمة: "إن كان محمد قد قتل فإن الله حتى لا يموت، فقاتلوا عن دينكم، فإن الله مظهركم وناصركم".. فربط السعي بالله الباقي.. ومن كانت هذه جهة سعيه فلن ييئس لأنها جهة مفتوحة على الدوام..

بهذا المنهج الإسلامي الفريد قاد النبي صلى الله عليه وسلم أصحبه إلى الخروج من أزماتهم كلها ومنها ازمة أحد.. فها هو صلى الله عليه وسلم بعد أحد بيوم واحد .. يتخذ القرار لمطاردة المشركين العائدين إلى مكة بما يشبه الانتصار.. وأصر صلى الله عليه وسلم ألا يأخذ معه في هذا الخروج إلا من اشترك في أحد، وقال: "لا يخرج معنا إلى من شهد القتال"..

برغم أن أولئك الذين شهدوا القتال بالأمس سيخرجون اليوم والجراح تملأ أجسادهم ونفوسهم جميعًا.. إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يداوي هذه النفوس الكسيرة بعمل من شأنه أن يرفع معنوياتهم ويرد إليهم هيبتهم ويضعف من حلاوة النصر لدى قريش إذا اختتم المشهد بمطاردتهم إلى مكة!!

وقد كان هذا القرار النبوي العظيم قرارًا تربويًا من الدرجة الأولى..

فقد تعمد صلى الله عليه وسلم أن يأخذ الذين شاركوا في (أحد) فقد، مع ما بهم من جراح وآلام ونفسية سيئة مهزومة، وإنما أراد رسول الله صلى الله عليه ولم ذلك ليقول لهم: إنه يثق بهم تمامًا، وبقدراتهم وكفاءاتهم.. بل وبإيمانهم وعقيدتهم..

وأن ما حدث في (أحد) لم يكن إلى حدثًا عابرًا يندر تكراره، وأن الأمل فيهم كبير، والنصر لهم حليف إن شاء الله.. لقد كان هذا التكليف من رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثابة عودة لأجساد الصحابة وعزائمهم، فقاموا مسرعين ملبين برغم أزماتهم الجسدية والنفسية، وبرغم أحزانهم لفقد سبعين من إخوانهم وأحبابهم.. لقد قاموا جميعًا ولم يتخلف واحد.. لقد نجح الجميع في الاختبار وقامت الأمة من كبوتها في أقلا من أربع وعشرين ساعة!!

وخرج المسلمون للقتال في إصرار، وعسكروا في (حمراء الأسد) وهو مكان علي بعد ثمانية أميال من المدينة.. وكان جيش قريش معسكرًا على بعد ستة وثلاثين ميلاً.. فلما سمعوا بمقدم المسلمين ترددوا في قتالهم وأرسلوا إليهم من يخوّفهم من أعداد المشركين وقوّتهم.. ولكن هذا التهديد الآن صادف نفوسًا عادت إليها قوتها وعافيتها، فما تأثرت نفوس المؤمنين قيد أنملة بل على العكس ازداد إصرارهم على القتال، وازدادوا رغبة في الخروج من الأزمة، وإعادة الكرة على الكافرين...

وإزاء هذا الإصرار من قبل المؤمنين فر المشركون وتجنبوا القتال مع كثرة عددهم وقوة عدتهم.. وخرج المسلمون من أزمتهم بنجاح..

وهكذا يصنع الإصرار في نفوس أصحابه وفي نفوس خصومهم..

ومجد الله . في آيات بينات . أصحاب حمراء الأسد.. مع أنهم هم أهل أُحد الذين وقعوا في أخطاء الأمس، ولكنهم أحسنوا الخروج من آثار أخطائهم..

يقول تعالى: [الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ . الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ] {آل عمران ١٧٢ – ١٧٤}

ولابد أن نتأمل . في الختام . المقابلة بين سرعة استجابتهم لله والرسول وبين شدة القرح التي أصابتهم لنعلم أن المنهج الإسلامي تنزيل من رب العالمين العليم بأدواء النفوس وبما يعالجها.. ولنتأكد أن أفضل درجات السم النفسي يبلغها الناس بسلاسة ويسر متى عمل هذا المنهج القويم في هذه النفوس....

===============

#المسلمون وابتكار المستشفيات ...

بقلم الدكتور راغب السرجانى ... تاريخ الإضافة : ٢٦/٠١/٠٦

مقدمة

لم تبدأ الحضارة الإسلامية الاهتمام بالطب في القرن الثاني أو الثالث الهجري –كما يعتقد البعض – وإنما بدأ الاهتمام حقيقةً منذ البدايات الأولى لهذا الدين العظيم، وما أكثر الأحاديث والمواقف التي حث فيها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – المسلمين على التداوي، وما أكثر الضوابط التي حواها شرعنا الحكيم؛ ليجعل الطب في النهاية علمًا مفيدًا نافعًا أخلاقيًا إنسانيًا، يهدف إلى نفع البشرية وخدمة الإنسانية. يقول رسولنا – صلى الله عليه وسلم – فيما رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه: ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً.

وإسهامات المسلمين في مجال الطب لا تُحصى.

المسلمون أول من أسس المستشفيات في العالم:

لعل من أجَلِّ هذه الإسهامات وأعظمها أن المسلمين هم أول من أسس المستشفيات في العالم، بل إنهم سبقوا غيرهم في ذلك الأمر بأكثر من تسعة قرون!! فأول مستشفى إسلامي أُسِّس في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، والذي حكم (من سنة ٨٦ هـ إلى سنة ٩٦ هـ)، وكان هذا المستشفى متخصصًا في الجذام، وأنشئت بعد ذلك المستشفيات العديدة في العالم الإسلامي، وبلغ بعضها شأوًا عظيمًا؛ حتى كانت هذه المستشفيات تُعدّ قلاعًا للعلم والطب، وتُعتبر من أوائل الكليات والجامعات في العالم. بينما أُنشِئ أول مستشفى أوروبي في باريس بعد ذلك بأكثر من تسعة قرون!!

وكانت المستشفيات تُعرف بـ (البيمارِسْتانات)، وكان منها الثابت ومنها المتنقّل، فالثابت هو الذي يُنشَأ في المدن، وقلَّما تجد مدينة إسلامية – ولو صغيرة – بغير مستشفى، أما المستشفى المتنقل فهو الذي يجوب القرى البعيدة والصحارى والجبال.. وكانت المستشفيات المتنقّلة تُحمَل على مجموعة كبيرة من الجِمال (وصلت في بعض الأحيان إلى أربعين جملاً!! وذلك في عهد السلطان محمود السلجوقي رحمه الله والذي حكم من سنة ٥١١ هـ إلى سنة ٥٢٥ هـ) وكانت هذه القوافل مُزوَّدة بالآلات العلاجية والأدوية، ويرافقها عدد من الأطباء، وكان بمقدورها الوصول إلى كل رقعة في الأمة الإسلامية.

وقد وصلت المستشفيات الثابتة في المدن الكبرى إلى درجة راقية جدًا في المستوى، وكان من أشهرها المستشفى العضُدي ببغداد (والذي أنشئ في سنة ٣٧١ هـ)، والمستشفى النوري بدمشق (والذي أنشئ في سنة ٥٤٩ هـ)، والمستشفى المنصوري الكبير بالقاهرة (والذي أنشئ سنة ٦٨٣ هـ)، وكان بقرطبة (وحدها) أكثر من خمسين مستشفى!!

وكانت هذه المستشفيات العملاقة تُقسّم إلى أقسام بحسب التخصص: فهناك أقسام للأمراض الباطنة، وأقسام للجراحة، وأقسام للأمراض الجلدية، وأقسام لأمراض العيون، وأقسام للأمراض النفسية، وأقسام للعظام والكسور...

ولم تكن هذه المستشفيات مجرد دور علاج، بل كانت كلّيات طب حقيقية على أرقى مستوى؛ فكان الطبيب المتخصص (الأستاذ) يمرُّ على الحالات في الصباح، ومعه

الأطباء الذين هم في أولى مراحلهم الطبية، فيعلمهم، ويدوّن ملاحظاته، ويصف العلاج، وهم يراقبون ويتعلمون، ثم ينتقل الأستاذ بعد ذلك إلى قاعة كبيرة ويجلس حوله الطلاب فيقرأ عليهم الكتب الطبية، ويشرح ويوضّح، ويجيب عن أسئلتهم.. بل إنه يعقد لهم امتحانًا في نهاية كل برنامج تعليمي معين ينتهون من دراسته، ومن ثم يعطيهم إجازة في الفرع الذي تخصصوا فيه.

ليست مستشفيات فحسب:

كانت المستشفيات الإسلامية تضم في داخلها مكتبات ضخمة تحوي عددًا هائلاً من الكتب المتخصصة في الطب والصيدلة وعلم التشريح ووظائف الأعضاء.. إلى جانب علوم الفقه المتعلقة بالطب، وغير ذلك من علوم تهم الطبيب..

ومما يذكر على سبيل المثال – لنعرف ضخامة هذه المكتبات – أن مكتبة مستشفى ابن طولون بالقاهرة كانت تضم بين جنباتها أكثر من مائة ألف كتاب!!

وكانت تُزرَع – إلى جوار المستشفيات – المزارع الضخمة التي تنمو فيها الأعشاب الطبية والنباتات العلاجية؛ وذلك لإمداد المستشفى بما يحتاجه من الأدوية.

أما الإجراءات التي كانت تُتخذ في المستشفيات لتجنب العدوى فكانت متميزة.. بل عجيبة!! فكان المريض إذا دخل المستشفى يُسلّم ملابسه التي دخل بها، ثم يُعطَى ملابس جديدة مجانية لمنع انتقال العدوى عن طريق ملابسه (التي مرض وهو لابس لها)، ثم يدخل كل مريض في عنبر مختص بمرضه، ولا يُسمح له بدخول العنابر الأخرى لمنع انتقال العدوى أيضًا، وينام كل مريض على سرير خاص به (بملاءات جديدة وأدوات خاصة)

قارن كل ذلك بالمستشفى الذي أنشئ في باريس بعد هذه المستشفيات الإسلامية بقرون، حيث كان يُسمح للمرضى بالإقامة في عنبر واحد (بصرف النظر عن نوعية مرضهم!) بل ويُسمح بنوم ثلاثة أو أربعة أو أحيانًا خمسة من المرضى على سرير واحد! فتجد مريض الجدري إلى جوار حالات الكسور إلى جوار السيدة التي تلد! كما كان الأطباء والممرضون لا يستطيعون دخول العنابر إلا بوضع كمّامات على الأنف من الرائحة شديدة العفونة في داخل هذه العنابر! بل كان الموتى لا

يُنقلون إلى خارج العنابر إلا بعد مرور أربعٍ وعشرين ساعةً على الأقل من الوفاة!! فتخيل مدى خطورة هذا الأمر على بقية المرضى! فالحمد لله الذي شرفنا بالإسلام..

ومن أعظم المستشفيات الإسلامية: المستشفى العضُدي، الذي أنشأه (عضد الدولة ابن بويه) عام ٣٧١ هـ في بغداد، وكان يقوم بالعلاج فيه عند إنشائه أربعة وعشرون طبيبًا تزايدوا بعد ذلك جدًا، كما كان يضم مكتبة علمية فخمة وصيدلية ومطابخ، وكان يخدم فيه عدد ضخم من الموظفين والفرَّاشين، وكان الأطباء يتناوبون على خدمة المرضى بحيث يكون هناك أطباء بالمستشفى أربعةً وعشرين ساعة يوميًا.

مستشفيات إسلامية عملاقة

من المستشفيات الإسلامية العظمى أيضا: المستشفى النوري الكبير بدمشق، والذي أنشأه السلطان العادل (نور الدين محمود الشهيد رحمه الله) وذلك في سنة ٥٤٩ هـ، وكان من أجَلّ المستشفيات وأعظمها، واستمر في العمل فترة طويلة جدًا من الزمان، حيث بقي يستقبل المرضى حتى سنة ١٣١٧ هـ (١٨٩٩ م) أي قرابة ثمانمائة سنة!!

كذلك من أعظم المستشفيات في تاريخ الإسلام: المستشفى المنصوري الكبير الذي أنشأه (الملك المنصور سيف الدين قلاوون رحمه الله) في القاهرة، وذلك سنة ٦٨٣ هـ وكان آية من آيات الدنيا في الدقة والنظام والنظافة، وكان من الضخامة بحيث إنه كان يعالج في اليوم الواحد أكثر من أربعة آلاف مريض!

ولا ننسى في هذا المضمار مستشفى مراكش الذي أنشأه (المنصور أبو يوسف يعقوب رحمه الله) ملك دولة الموحدين بالمغرب الذي حكم من ٥٨٠ هـ إلى ٥٩٥ هـ، وكان بناء هذا المستشفى آية من آيات والإتقان والروعة! فقد غُرست فيه جميع أنواع الأشجار والزروع، بل كانت في داخله أربع بحيرات صناعية صغيرة!! وكان على مستوىً عالٍ جدًا من حيث الإمكانيات الطبية والأدوية الحديثة والأطباء المهرة..

لقد كان – بحق – درّة في جبين الأمة الإسلامية...

ليس هذا فقط.. بل كانت هناك المستشفيات المتخصصة، التي لا تعالج إلا نوعًا معينًا من الأمراض: كمستشفيات العيون، ومستشفيات الجذام، ومستشفيات الأمراض العقلية، وغير ذلك...

وأعجب من ذلك وأغرب أنه كانت توجد في بعض المدن الإسلامية الكبرى أحياء طبية متكاملة؛ فقد حدَّث ابن جبير رحمه الله في رحلته (التي قام بها في سنة ٥٨٠ هـ تقريبًا) أنه رأى في بغداد – عاصمة الخلافة العباسية – حيًّا كاملاً من أحيائها يشبه المدينة الصغيرة، يتوسطه قصر فخم جميل، تحيط به الحدائق والبيوت المتعددة، وكان كل ذلك وقفًا على المرضى، وكان يؤمه الأطباء من مختلف التخصصات (فضلا عن الصيادلة وطلبة الطب) وكان النفقة جارية عليهم من الدولة ومن الأوقاف التي يجعلها الأغنياء من الأمة لعلاج الفقراء وغيرهم.

وبعد..

فهذا قليل من كثير، وما أغفلنا ذكره أكثر بكثير مما علّقنا عليه، وليس هذا إلا وجه بسيط من أوجه الحضارة الإسلامية العظيمة..

وللحديث بقية...

وأسأل الله أن يُعزّ الإسلام والمسلمين

===============

#البعد الإنساني للطب عند المسلمين ...

بقلم الدكتور راغب السرجانى ... تاريخ الإضافة : ٢٦/٠٤/٠٦

مقدمة

تحدثنا في المقالات السابقة عن عديد من الجوانب المشرقة للحضارة الإسلامية في مجال الطب سواء من ناحية ابتكار المستشفيات, أو الإسهام في تطوير علوم الطب وتخصصاته المختلفة, أو من ناحية الأسلوب الإسلامي الراقي في دراسة الطب.. وكيف أثر ذلك في دفع علم الطب وتطبيقاته خطوات هائلة نحو الأمام في زمن الحضارة الإسلامية.

وفي هذا المقال نلفت النظر إلى بعد رائع جديد تميز به الأداء الطبي عند المسلمين في زمن حضارتهم.. ذلكم هو البعد الإنساني, واحترام الإنسان بصفة عامة, والسعي الحثيث لرفع المعاناة والألم والحرج عنه أيًّا كان هذا الإنسان, وأيًّا كانت معاناته

اهتمام الإسلام بهذا الجانب

لم يكن غريباً على أطباء المسلمين أن يهتموا بالبعد الإنساني في تعاملهم مع المريض، لأن قوانين التشريع الإسلامي تنطق بهذا النهج الأخلاقي الفريد.. فالإسلام ينظر إلى المريض على أنه إنسان في أزمة، ومن ثم يحتاج إلى من يقف إلى جواره، ويأخذ بيده، ويرفع من معنوياته، ويهدّئ من روعه، ويخفف عن آلامه الجسدية، فضلاً عن المعنوية...

لذلك تجد أن التشريع الإسلامي يسعى لرفع الحرج عن المريض عند المرض بكل وسيلة، ويخفف عنه الأعباء إلى أقصى درجة.. فللمريض رخصة ألا يصوم، وإن عاقه اعتلال صحته عن الحج فلا حج عليه، وليس عليه إثم.. كما أن المريض الذي لا يستطيع الصلاة على صورتها الطبيعية يُعطى رخصة الصلاة في أوضاع تناسبه جالساً أو نائماً أو حتى بعينيه! والمريض الذي يضره الماء في الوضوء يتيمم، والذي لا يستطيع الوضوء ولا التيمم لسبب أو آخر يصلي دون أي منهما ويسمى فاقد الطهورين... حتى في أوقات الجهاد في سبيل الله رفع الحرج عن المريض فلا يجاهد ولا إثم عليه، والله يقول: [ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج]...

بل إن التشريع الإسلامي لا يكتفي برفع بعض التكليفات، والترخيص في بعض العبادات والفروض، وإنما يحض وبشدة على الوقوف إلى جوار المريض، ورفع روحه المعنوية إلى أقصى درجة، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم زيارة المريض وعيادته في بيته أو في المستشفى حقاً له على المسلمين، فقال فيما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: "حق المسلم على المسلم ست .... وذكر منها: "وإذا مرض فعده".. وجعل الجنة نصيباً لمن عاد مريضاً، فقال فيما رواه ابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه: "من عاد مريضاً نادى مناد من السماء: طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً".

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تذكر الخير عند المريض، وأن ترفع من روحه المعنوية، وتطمعه في الشفاء وفي طول العمر، فقد روى ابن ماجه في سننه من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم: "إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في الأجل – أي ارفعوا من إحساسه بطول أجله وشفائه من المرض – فإن ذلك لا يرد شيئًا، وهو يطيب نفس المريض"

بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتفع بروح المريض إلى السماء عندما يخبره أن هذا المرض هو كفارة لذنوبه، وهو مدعاة لنجاته في الآخرة إن صبر، فقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه"، ويقول فيما رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه: "إن الله تعالى قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه – أي بعينيه – فصبر، عوضته منهما الجنة"، وهكذا ترتفع معنويات المريض المؤمن إلى السماء، ولا يشعر بأنه أصبح كماً عاجزاً مهملاً في المجتمع، بل إن الجميع يهتم به ويرعاه

النظرة الإنسانية للمريض أيًا كانت ديانته

ولم تكن هذه النظرة الإسلامية الراقية للمرضى المسلمين فقط، بل كانت لأي إنسان مريض مهما كانت ديانته، وذلك انطلاقاً من الآية الكريمة: [ولقد كرمنا بني آدم] .....، فالإنسان بصفة عامة مكرم، ولذلك نهتم برعايته حين مرضه، وبعلاجه إذا اشتكى ولو لم يكن مسلماً.. فقد زار رسول الله صلى الله عليه وسلم غلاماً يهودياً عندما مرض، وأفرد البخاري لذلك باباً خاصاً في صحيحه فقال: باب عيادة المشرك. هذا البعد الإنساني العميق الذي زرعه فينا الشرع الإسلامي الحنيف جعل الأطباء المسلمين في كل عصور الحضارة الإسلامية يتعاملون مع المريض على أنه إنسان وليس على أنه "شيء لا إحساس له"، ولا على أساس أنه مصدر للرزق عن طريق أخذ الأجر منه، بل كان التعامل معه دائماً على أنه إنسان في أزمة، ويحتاج إلى من يقف إلى جواره، وليست المساعدة طبية فقط، ولكن تتعدى ذلك إلى المساعدة النفسية والاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك.

بهذه الروح النبيلة تعامل الأطباء المسلمون مع مرضاهم، فكانت الخدمة الطبية الراقية تقدم للمرضى في الدولة الإسلامية دون تفرقة بين غني أو فقير، ولا عربي أو غير عربي، ولا أبيض أو أسود، ولا حاكم ولا محكوم، ولا مسلم أو غير مسلم.. ففي كثير من الأحيان كان العلاج مجانيًا للجميع.. وكان المرضى ينعمون بنفس المستوى من الخدمة أيًّا كان مستواهم.

نماذج راقية في التعامل مع المرضى

لنطلع سوياً على طرف من نظام المستشفيات الإسلامية، والذي يعطي انطباعاً عن البعد الإنساني الذي نقصده، فبمجرد دخول المريض للمستشفى يُفحص أولاً بالقاعة الخارجية، فإن كان به مرض خفيف يُكتب له العلاج، ويُصرف من صيدلية المستشفى، وإن كانت حالته المرضية تستوجب دخوله المستشفى كان يقيد اسمه، ويُدخل إلى الحمام للاغتسال، وتُخلع عنه ثيابه التي دخل بها فتوضع في مخزن خاص، ثم يعطى ثياباً جديدة خاصة للمستشفى، ويُدخل إلى القاعة المخصصة لأمثاله من المرضى، ويخصَّص له سرير مفروش بأثاث جيد، ولا يسمح بوجود مريض آخر معه في نفس السرير مراعاة لنفسيته، وليس كما يحدث الآن في كثير من مستشفياتنا حيث يوضع المريضان – وأحياناً الثلاثة – على نفس السرير، بل إن هذا كان يحدث في أول مستشفى أوروبي – وكان في فرنسا – والذي أنشئ بعد أول مستشفى إسلامي بحوالي تسعة قرون كاملة! فقد كانوا يضعون على السرير الواحد ثلاثة أو أربعة أو خمسة مرضى! بل كان المرضى ينامون في دهاليز المستشفى، وفي أجواء صحية رديئة..

وبعد دخول المريض للمستشفى الإسلامي يُعطى الدواء الذي يعيّنه الطبيب، كما يوصف له الغذاء الموافق لصحته، وبالمقدار المفروض له.. ولم يكن يضيق أبداً على المرضى في نوع الطعام الذي يأكلونه، بل كان يقدم لهم أطايب الطعام، فقد كان غذاء المرضى يحتوي على لحوم الأغنام والأبقار والطيور والدجاج.. كذلك لا يضيق عليهم أبداً في كميات الطعام، بل كانت من علامات الشفاء أن يأكل المريض رغيفًا كاملاً ودجاجة كاملة في الوجبة الواحدة!

فإذا أصبح المريض في دَور النقاهة أدخل القاعة المخصصة للناقهين، حتى إذا تم شفاؤه أعطي بذلة من الثياب جديدة دون أجر، وليس هذا فقط بل كان يعطى مبلغًا من المال يكفيه إلى أن يصبح قادرا على العمل! وذلك حتى لا يضطر إلى العمل في فترة النقاهة فتحدث له انتكاسة، ولا تسل عن مدى الطمأنينة التي ينعم بها الفقير في المجتمع الإسلامي عندما يعلم أنه إذا مَرِض فسيجد مثل هذا المستوى من الرعاية المجانية دون أن يحتاج إلى إراقة ماء وجهه أو البحث عن وسلطات أو شفاعات لينال ما يستحق من الاهتمام والعلاج.. فضلاً عن مدّ يده متسولاً ليتم علاجه

الرازي يوجّه تلاميذه

ما أروع توجيه (أبي بكر الرازي) كبير أطباء المسلمين في عصره.. إذ كان يوصي تلاميذه أن يكون هدفهم الأول إبراء مرضاهم أكثر من نيل أجورهم منهم، وأن يعالجوا الفقراء بمثل الاهتمام والعناية التي يعالجون بها الأمراء والأغنياء، وأن يوهموا المرضى بالشفاء حتى لو كانوا أنفسهم لا يعتقدون بذلك: (.. فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس).

ولم يكن هذا المستوى العالي من الرعاية الصحية مقصورًا على المدن والحواضر الكبرى, بل حظيت كل بقاع الدولة الإسلامية بذات الاهتمام.. وذلك من خلال المستشفيات المتنقلة التي أشرنا إليها في مقال سابق.. والتي كانت تجوب القرى والنجوع والجبال والمناطق النائية بصفة عامة، والشاهد هنا أنه كان يُنظر إلى رعايا الدولة المسلمة – في مجال الرعاية الطبية – نظرة متساوية بغضّ النظر عن بيئاتهم ومستوياتهم الاجتماعية أو الاقتصادية.

بل إن النظرة الإسلامية الرحيمة للمريض تعدّت كل طبقات المجتمع السوية لتشمل نزلاء السجون ممن أساءوا لمجتمعهم! فهؤلاء أيضًا كانوا يجدون الرعاية الطبية الكافية؛ فهم بَشَرٌ, ومن أبناء المجتمع على أي حال.. وما ينزل بهم من الحبس والعقاب إنما هو لإعادة إصلاحهم لا للقضاء عليهم بالموت البطيء الذي يتعرض له نزلاء كثير من السجون في عالم اليوم.. كتب الوزير علي بن عيسى بن الجراح إلى سنان بن ثابت رئيس أطباء بغداد: ".. فكرت في أمر من في الحبوس

(السجون), وأنه لا يخلو مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض، فينبغي أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم كل يوم, وتُحمل إليهم الأدوية والأشربة, ويطوفون في سائر الحبوس.. ويعالجون فيها المرضى"..

وما كان لهذا الفيض الإنساني أن يستمر على مر عصور الحضارة الإسلامية لولا ينابيع العطاء المتدفقة من قلوب أبناء الأمة المسلمة والموازية لدعم الدولة نفسها.. وأقصد هنا نظام الأوقاف الخيرية, وما كان يقوم به من دور في حسن رعاية المرضى وإكرامهم.. فقد كانت مستشفيات راقية بأكملها تعتمد على ريع وقف يرصده أحد المسلمين – بمن فيهم الحاكم نفسه – لتغطية كل احتياجات المستشفى بمرضاه وأطبائه ومفروشاته وأغذيته ونباتاته الطبية وأدويته... إلى حد الإنفاق على طلاب الطب المتدربين في هذا المستشفى!.. ولعل من أشهر الأمثلة على ذلك المستشفى المنصوري الكبير الذي أسسه في القاهرة الملك المنصور سيف الدين قلاوون (عام ٦٨٣ هـ) وأوقف عليه ما يغطي نفقاته سنويًا...وقد أشرنا في مقال سابق إلى عظمة هذا المستشفى في زمانه وما كان يقدمه من خدمات.

صور غير مسبوقة في التعامل مع نفسية المرضى

وعلى ذكر الأوقاف الخيرية وأثرها في تغطية الجانب الإنساني في الطب عند المسلمين لابد أن نشير هنا إلى بعض الصور المبتكرة وغير المسبوقة في التعامل الإنساني مع نفسية المريض.. فقد كان ريع بعض الأوقاف يُخصص لتوظيف اثنين يمرّان بالمستشفيات يوميًا, فيتحدثان بجانب المرضى حديثًا خافتًا يسمعه المريض دون أن يراهما.. يوحيان إليه من خلال حديثهما بتحسُّن حاله! فيما كان يُعرف "بوقف خداع المريض".. وذلك لترتفع معنوياته، وبالتالي يتماثل للشفاء بصورة أسرع!!

ولم يكن ذلك البعد الإنساني الراقي في التعامل مع المرضى سلوكًا فرديًا يمارسه بعض الأطباء, ولا كان مجرد حب شعبي للخير والرحمة ينبع من قلوب العامة.. بل كان سلوكًا عامًا تتبناه سياسات الدولة, وينتهجه أفراد الأمة حكامًا ومحكومين؛ فكثيرًا ما كان الخليفة أو الأمير يتفقد بنفسه المرضى ويشرف على حسن معاملتهم.. ويُذكر هنا أن المنصور الموحدي (ملك دولة الموحدين بالمغرب) كانت له زيارة أسبوعية

للمستشفى (المنصوري) بمراكش بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع؛ يطمئن فيها بنفسه على أحوال المرضى.

ومن الجوانب الإنسانية في تعامل الطب الإسلامي مع المرضى ما اشتملت عليه شريعة الإسلام من آداب تحفظ كرامة المريض وتصون حياءه, وتضمن سير مراحل الفحص والعلاج دون انتهاك لخصوصياته؛ فلا يجوز – مثلاً – كشف عورة المريض إلا لضرورة, وبالقدر المطلوب فقط في الفحص أو الجراحة وما إلى ذلك... كما لا يجوز أن يشهد فحص المريض أو المريضة شخص غير ذي صفة – وخاصة إذا كان من جنس مختلف – إلى جانب عدم جواز خلوة الطبيب بمريضة من النساء إلا مع وجود ذي مَحْرم لها, أو وجود امرأة أخرى كالممرضة مثلاً.. كذلك راعت المستشفيات في الحضارة الإسلامية الفصل في أقسامها الداخلية بين الرجال والنساء..

كذلك من الجوانب الإنسانية في تعامل الطب الإسلامي مع المرضى أن راعى الشرع حقوق المريض في العلاج بأن سمح للطبيب الرجل أن يعالج المرأة، والعكس كذلك، وذلك إن لم يوجد البديل الكفء من نفس الجنس والذي يستطيع أن يقوم بالمهمة على الوجه الأكمل، وذلك حتى لا يفوت على المريض – رجلاً كان أو امرأة – فرصة العلاج الصحيح، بل إن الشرع أجاز كذلك أن يبحث المريض المسلم عن العلاج عند الأطباء غير المسلمين إن تعذر وجود من يستطيع علاجه من المسلمين، وذلك حفاظاً على صحة المريض وحياته..

كل هذه وغيرها ضوابط وآداب إسلامية تنقل مبدأ سماويًا كقوله تعالى: [ولقد كرمنا بني آدم] ... من حيز النظريات المجردة إلى التطبيق الواقعي؛ لترتقي حياة الإنسان عن أنماط أخرى للحياة عند سائر الكائنات.. وسبحان الذي أنزل شرعاً بهذا التكامل!

=============

#حقوق الحيوان فى الحضارة الإسلامية ...

بقلم الدكتور راغب السرجانى ... تاريخ الإضافة : ٠٦/٠٩/١٥

مقدمة

تفرَّد الإسلام – كما رأينا في المقال السابق – بنظرة بالغة الرُّقي للحيوان وحقوقه.. وتربَّى المسلمون منذ عهد النبوة على أن الإحسان للحيوان ورحمته والرفق به.. عبادة تُكفِّر الخطايا وترفع الدرجات, كما أن الإضرار بالحيوان وتعذيبه وتحميله فوق طاقته.. جريمة توجب غضب الله وعقاب الآخرة.

وفي هذه السطور نستعرض بعض الجوانب المشرقة من تاريخنا الإسلامي فيما يخصُّ تعامل المسلمين مع الحيوان؛ لنرى كيف كان الرفق والأناة ديدنهم دائمًا، مقتدين في ذلك بهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومقتفين أثره ..

وأول ما يلفت الانتباه في هذا الصدد أن كتب الفقه الإسلامي تزخر بالأحكام المتعلقة بالحفاظ على حقوق الحيوان وهي أحكام كثيرة قد لا يتسع المجال لتتبعها جميعًا.. ومن ثَّمَّ نكتفي ببعض الأمثلة..

من ذلك مثلاً ما قرره الفقهاء من وجوب القيام على سقي الدابة وإطعامها، وإذا قصر مالك الحيوان في ذلك أجبره القضاء عليه، فإن لم يقم للدابة بما يجب عليه من حسن تغذيتها وسقيها، باعها القاضي ولم يتركها تحت يد صاحبها تقاسي.

يقول القاضي أبو يعلى (شيخ الحنابلة.. من قضاة القرن الرابع الهجري) في كتابه (الأحكام السلطانية): "وإذا كان من أرباب المواشي من يستعملها فيما لا يطيق الدوام عليه أنكره المحتسب (وهو المُعَيَّن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالشرطي في زماننا) عليه ومنعه منه، فإن ادعى المالك احتمال البهيمة لما يستعملها فيه جاز للمحتسب أن ينظر فيه؛ لأنه – وإن افتقر إلى اجتهاد – عرفي يرجع فيه إلى عرف الناس وعاداتهم ، وليس باجتهاد شرعي والمحتسب لا يمنع من اجتهاد العرف إن امتنع من اجتهاد الشرع.

وفي الفتاوى البزازية (لابن البزاز فقيه الحنفية في القرن التاسع) (٣٧٠/٦) ما نصه: "المختار أن النملة إذا ابتدأت بالأذى لا بأس بقتلها وإلا يكره، وإلقاؤها في الماء يكره مطلقًا"، لأنه تعذيب لا مبرر له، "وقتل القملة لا يكره، وإحراقها وإحراق العقرب بالنار يكره"

فانظر كيف اهتم العلماء . رحمهم الله . بإيراد هذه التفاصيل الدقيقة الهامة في مصنفاتهم، مما يعكس مدى اهتمامهم بتعليم الناس الرفق بالحيوان ، ومراعاة حقوقه كل الرعاية ، وأن ذلك من الأمور التي يحاسب عليها الأمير ..

إنها روح خلقها الله عز وجل.. تسبح بحمده: "وإن من شيءٍ إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم". فيجب على المسلم مراعاة التعامل معها، والاهتمام بها في الحدود التي لا تضره..

وقال الصنعاني (من علماء اليمن ق ١٢ هـ) في سبل السلام (٢٣٢/١) بعد حديث المرأة التي دخلت النار في هرة حبستها: (والحديث دليل على تحريم قتل الهرة.. لأنه لا عذاب إلا على فعل محرّم).

ومثل هذه الأحكام في كتب الفقه الإسلامي لا حصر لها.

هذا وقد بلغ المسلمون في الرفق بالحيوان حدًا لا يكاد يُتصور، حتى إن عدي بن حاتم رضي الله عنه كان يفت الخبز للنمل ويقول: (إنهن جارات ولهن حق!!) كما رواه النووي في تهذيب الأسماء.

وكان الإمام أبو إسحاق الشيرازي (من أئمة الشافعية في القرن الخامس الهجري) يمشي في طريق يرافقه فيه بعض أصحابه، فعرض لهما كلب فزجره رفيق الإمام، فنهاه الإمام وقال: أما علمت أن الطريق بيني وبينه مشترك .

خلفاء المسلمين يوصون بالرفق بالحيوان

تذكر لنا كتب التاريخ أن خلفاء المسلمين كانوا ينشرون خطابات عامة على الشعب يوصونهم بالرفق بالحيوان، ومنع الأذى والإضرار به، يروي ابن عبد الحكم في سيرة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز أنه نهى عن ركض الفرس إلا لحاجة، وأنه كتب إلى صاحب السكك أن لا يحملوا أحدًا بلجام ثقيل، ولا ينخس بمقرعة في أسفلها حديدة، وكتب إلى واليه بمصر: أنه بلغني أن بمصر إبلاً نقالات يحمل علي البعير منها ألف رطل فإذا أتاك كتابي هذا فلا أعرفن أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل ...

وإنما سميت مدينة الفسطاط في مصر القديمة بذلك لأن فسطاط عمرو بن العاص حين الفتح اتخذت من أعلاه حمامة عشاً لها فلم يشأ عمرو أن يهيجها بتقويضه، فتركه، وتتابع العمران من حوله فكانت مدينة الفسطاط.

وقد كان للحيوان نصيب كبير في المؤسسات الاجتماعية الإسلامية، إذ عرفت الحضارة الإسلامية منذ ابن البيطار (من أطباء القرن السابع الهجري)، أوقافًا خاصة لتطبيب الحيوانات المريضة، وأوقافًا لرعي الحيوانات المسنة.. ومن أوقاف دمشق كان هناك وقف للقطط تأكل منه وترعى، وتنام فيه!.. حتى إنه كان يجتمع في دارها المخصصة لها مئات القطط السمينة التي كان يقدَّم لها الطعام، وهي مقيمة لا تتحرك!

وإذا كانت الشريعة الإسلامية تحرص على الحيوان في التعامل معه، وإعطائه حقوقه، إلا أنها جاءت أيضًا بقتل الضار منه، وتحريم ما يؤذي الإنسان أكله؛ فقد روى مسلم عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "خَمْسٌ مِنْ الدَّوَابِّ كُلُّهَا فَوَاسِقُ (أي مؤذية) .. تُقْتَلُ فِي الْحَرَمِ: الْغُرَابُ (خصَّ الفقهاء الغراب المؤذي بنعيبه أو غير ذلك), وَالْحِدَأَةُ, وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ, وَالْعَقْرَبُ, وَالْفَأْرَةُ"

وهذا هو التوازن الذي تسعد به البشرية حقًا .

التعامل مع الحيوان عند غير المسلمين

وبينما كانت الحضارة الإسلامية تنظر للحيوان تلك النظرة الراقية المتوازنة كانت عديد من الأمم غير الإسلامية في العصور القديمة والوسيطة تقرُّ مبدأ مسئولية الحيوان (أي أنه مسئول ومحاسب على تصرفاته!!). ولاحظ مؤرخو القانون أن انتشار هذا النظام في الأمم المتحضرة كان أوسع كثيراً من انتشاره في غيرها. بل إنهم لم يعثروا عليه في صورة مسئولية جنائية بالمعنى الكامل لهذه الكلمة إلا في مجتمعات تعد من أرقى الشعوب حضارة في عرف الناس!!: كقدماء العبريين واليونان والرومان والفرس والأمم الأوروبية الحديثة فيما بين القرن الثالث عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي.

فلا نجد في تعاليم هذه الحضارات غير الإسلامية.. ما يحمل على الرفق بالحيوان، أو وجوب الرحمة به، ومن ثم فلا نجد له حقوقًا على صاحبه من نفقة ورعاية..

وليس أدل على ذلك مما يرد في شرائع اليهود (المحرفة) من وجوب "رجم الثور!!" إذا نطح رجلاً فقتله. فقد أقرت أسفار اليهود المقدسة مسئولية الحيوان وعقابه في حالتين، تتعلق إحداهما بتسبب الحيوان في قتل إنسان، فقد نص سفر الخروج على أنه: "إذا نطح ثور رجلا أو امرأة، وأفضى ذلك إلى موت النطيح، وجب رجم الثور، وحرم أكل لحمه" (سفر الخروج إصحاح ٢١) وهذا النص صريح في اعتبار الثور أهلاً لاحتمال المسئولية الجنائية، وفي اعتبار رجمه جزاءً بالمعنى القانوني الدقيق لكلمة الجزاء، وقد تولدت مسئوليته تلك من جرم أحدثه ووقعت نتائجه عليه وحده .

بل وُجدت محاكمات خاصة للحيوانات في شرائع اليونان القديمة، ذكر فيها أفلاطون في (القوانين) أنه إذا قتل حيوان إنسانًا كان لأسرة القتيل الحق في إقامة دعوى على الحيوان أمام القضاء!!!، وفي حالة ثبوت الجريمة على الحيوان، يجب قتله قصاصًا!!، وبلغ الأمر عند قدماء الفرس غاية الحماقة والعجب!، إذ ورد في أسفار الأبستاق (أو الأفستا: وهي مجموعة الكتب المقدسة المنسوبة لزرادشت, والتي تقوم عليها الديانة الزرادشتية عند قدماء الفرس) أن الكلب المصاب بالكَلِب (داء الكلب) إذا عض خروفا فقتله، أو إنسانا فجرحه قطعت أذنه اليمنى!! فإن تكرر منه ذلك قطعت أذنه اليسرى، وفي المرة الثالثة تقطع رجله اليمنى، وفي الرابعة رجله اليسرى، وفي الخامسة يستأصل ذنبه؛ ويعاقب صاحبه كذلك إن كان قد أهمل في اتخاذ ما ينبغي اتخاذه حيال كلبه من احتياط ورقابة. ولا يخفى ما ينطوي عليه هذا القانون، وتلك العقوبات التي يقررها بصورة تراعى فيها سوابق الجاني.. من تسليم بأهلية الحيوان لاحتمال المسئولية الجنائية وما يترتب عليها من جزاء.

وفي القرون الوسطى كانت فرنسا أول أمة أوروبية نصرانية أخذت في القرن الثالث عشر بمبدأ مسئولية الحيوان ومعاقبته بجرمه أمام محاكم منظمة!!، ثم أخذت بذلك "سردينيا"، ثم بلجيكا في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، وفي هولندا وألمانيا وإيطاليا في منتصف القرن السادس عشر الميلادي!!، وظل العمل به قائمًا عند بعض الشعوب حتى القرن التاسع عشر الميلادي!!

كانت محاكم الحيوان عند الأوروبيين تقوم على ادعاء المجني عليه أو النيابة العامة، ثم يتقدم وكلاء الدفاع عن الحيوان المجرم!! وقد تقضي المحكمة بحبس

الحيوان احتياطيًا!، ثم يصدر الحكم بعد ذلك، وينفذ على ملأ من الجمهور، كما كان ينفذ على الإنسان. وقد يكون الحكم بإعدام الحيوان رجمًا، أو بقطع رأسه أو بحرقه، أو بقطع بعض أعضائه قبل إعدامه، ولا يظن أحد أن هذه المحاكمات كانت هزلية للتسلية، بل كانت جدية تمامًا، بدليل ما يرد للأسباب الموجبة للحكم على الحيوان من مثل قولهم: (يُحكم بإعدام الحيوان تحقيقًا للعدالة)، أو(يُقضى عليه بالشنق جزاء لما ارتكبه من جرم وحشي فظيع!!!). وقد أقرت شريعة الألواح الاثني عشر نفسها Lois des XII Tables (وهي أساس تشريع الرومان في عصورهم التاريخية) أقرَّت مسئولية الحيوان في حالتين: إحداهما: إذا تسبب في إتلاف أو ضرر؛ والثانية: إذا رعى عشبا غير مملوك لصاحبه!!. فقد أوجبت في هاتين الحالتين على المالك أن يسلم حيوانه إلى المجني عليه Abandon noxal، أو يدفع الغرم المقرر إن آثر الاحتفاظ بحيوانه. ولم يقصد المشرع من تسليم الحيوان إلى المجني عليه تحقيق عوض مالي له، وإنما قصد تمكينه من المتسبب في ضرره ليتخذ حياله ما يشاء أو يثأر لنفسه منه على الوجه الذي يراه. و يقرر هذا القانون أن ملكية الحيوان إذا انتقلت بعد ارتكاب الحادث بالبيع أو غيره من يد مالكه الأول فإن الدعوى تقام على مالكه الأخير، لا على المالك الذي وقع الحادث في أثناء ملكيته له. ففي هذا دليل قاطع على أن المسئولية تتجه أولا وبالذات إلى الحيوان نفسه وتتعقبه حيثما يكون!!..

وليست هذه الممارسات الجائرة مع الحيوانات في تاريخهم القديم والوسيط فقط، بل ما زالت مستمرة إلى الآن في بعض أقطارهم، وليس أدل على ذلك من استمرار المسابقات الوحشية ، المعروفة بـ(مصارعة الثيران) في أسبانيا و وموزمبيق، واليونان، وإيطاليا، وبولندا.. تلك المسابقات التي يجتهد فيها المصارع أن يقتل الثور تدريجيًا ليذيقه الموت البطيء، وذلك عن طريق رمي السهام في جسده، ورؤية دمائه تتفجر من كل مكان في جسده، لا لشيءٍ إلا لمجرد التسلية والاستمتاع!! و تقام هذه المصارعات في حلبات كبرى يشاهدها الجمهور بكل حماس، وهو سعيد بتعذيب الثور بهذه الطريقة... ويدعون ذلك ضربًا من الحضارة!!.. حتى إن الإحصائيات

تشير إلى أن ما يقرب من ٣٥ ألف ثور تُعذَّب وتموت سنويًا في أسبانيا وحدها، ونحو ١٠ آلاف ثور في حلبات أوروبا.

ومن هنا يبدو لنا كم كان . ولا يزال . الفرق شاسعًا بين الحضارة الإسلامية وغيرها من الحضارات، تلك الحضارة العظيمة التي حرصت على إعطاء الحيوان حقه، والاهتمام به، والرفق في التعامل معه، كما خلت من المحاكمات الجائرة، لأنها جاءت برفع المسئولية الجنائية عن الحيوان، بل حرَّمت مظاهر القسوة والعنف ضده. فسبحان الذي أنزل هذا الشرع المحكم.. والحمد لله رب العالمين.

===============

#لماذا أبدع المسلمون في علم الجغرافيا ...

بقلم الدكتور راغب السرجانى ... تاريخ الإضافة : ٠٦/٠٩/١٥

مقدمة

تتكوَّن كلمة (جغرافيا) يونانية الأصل من مقطعين هما: جيو (Geo) بمعنى: "أرض".. و: غرافيا (Grophia) التي تعني: "وصف".. ومن ثم جاء التعريف الاصطلاحي لعلم الجغرافيا معبرًا عن مقتضيات "وصف الأرض"؛ فهو: "علم يُتَعَرَّفُ منه أحوال الأقاليم (القارات) السبعة الواقعة في الربع المسكون من كرة الأرض، وعروض البلدان الواقعة فيها، وأطوالها وعدد مدنها وجبالها وبراريها وبحارها وأنهارها... إلى غير ذلك من أحوال الربع المعمور".

وتعتبر كلمة الجغرافيا حديثة بعض الشيء في الاستخدام العربي؛ حيث كان العرب والمسلمون يستعملون بدلاً منها مصطلحات مثل: صورة الأرض، أو قطع الأرض، أو خريطة العالم والأقاليم، أو علم المسالك والممالك، أو علم تقويم البلدان أو علم الطرق.

ومع أن المسلمين لم يكونوا أول من درس علم الجغرافيا إلا أنهم – بلا جدال – كانوا أول من أبدع فيه، وسنتعرض في مقالات قادمة إن شاء الله لحركة تطور علم الجغرافيا وإسهامات المسلمين فيه، كما سنتعرف أيضاً على بعض العلماء الأجلاء الذين أثروا ذلك العلم بما لا يتخيل من إبداعات، وبخاصة عند النظر إلى الإمكانيات

الضئيلة التي كانت متاحة لهم في أزمانهم... ولكننا نريد في هذا المقال أن نضع أيدينا على الأهداف التي من أجلها اهتم المسلمون بعلم الجغرافيا إلى هذه الدرجة.

ولم يكن ظهور علم الجغرافيا لدى المسلمين وليد صدفة، وإنما كان هناك عوامل وأسباب عدة أسهمت في ظهوره ونمائه...

انتشار الإسلام:

اقترن الفكر الجغرافي لدى المسلمين بانتشار الإسلام في أنحاء شتى من العالم القديم في قاراته الثلاث، وترتب على ذلك اختلاف خصائص البيئات التي سادها الدين الإسلامي؛ مما أوجد حاجة ماسة لمعرفة وجمع معلومات متخصصة عن تلك البيئات.

التدبر في خلق الله:

حيث جاء القرآن الكريم ببيان كثير من الظواهر التي أودعها الله في الأرض، قال تعالى: "وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ"، وقوله تعالى: "مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ.. بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ"، وقوله تعالى: "أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا" .. وهكذا. ولقد تدبر رواد الجغرافيا المسلمون هذه النصوص المحفزة على النظر في عظمة خلق الأرض ومكوِّناتها؛ مما كان له أكبر الأثر في إثراء الدراسات الجغرافية في الحضارة الإسلامية

المتطلبات الشرعية:

فقد اعتمدت جل أركان الإسلام في أدائها على مواقيت زمنية ومكانية، وبما أن بقاع الأرض تختلف في مواقيتها الزمنية والمكانية فقد كانت هناك ضرورة لأن يهتم علماء كل ولاية إسلامية بتوضيح هذه الأمور لعامة الناس؛ فالصلاة تقام في أوقات زمنية محددة؛ ولذلك وضع علماء المسلمين في كل قطر إسلامي حدودًا زمنية لإقامة الصلاة، وما تزال الأدوات التي تقاس بها مواعيد الصلاة موجودة في بعض المساجد القديمة، وتسمى بالساعات الشمسية، وكان الاعتناء بذلك ناتجًا عن أن دخول الوقت شرط لإقامة الصلاة، كما أن الصلاة تستقبل فيها جهة محددة وهي الكعبة في مكة، ولذلك وجب معرفة الاتجاهات الجغرافية لتحدد قبلة الصلاة في كل مدينة أو قرية..

ولم تختلف الحال كثيرًا في الصيام الذي حُدد أداؤه بحدود شهرية وحدود يومية.. وكذلك ارتبط الحج والعمرة بمواقيت مكانية للإحرام وهي مختلفة في أبعادها من مكة حسب الجهات التي يأتي منها المسلمون لأداء الفريضة، وكان ضروريًا معرفة تلك المواضع التي يتم إحرام الحجاج والمعتمرين منها حتى لا يترتب عند تجاوزها مخالفة شرعية تؤثر على صحة العبادة.. إلى جانب أن الحج يرتبط بميقات زمني محدد: "الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ" وهي التي تتركز حول شهر ذي الحجة؛ لأن الحج مرتبط بالوقوف بعرفة في يوم التاسع من شهر ذي الحجة، فمن فاته الوقوف بعرفة – كما هو معلوم – فقد فاته الحج، وهكذا..

تفسير ما ورد من نصوص شرعية:

أسهمت بعض النصوص الشرعية التي وردت في السنة في تنشيط المعرفة الجغرافية في محاولة لتفسير تلك النصوص، من ذلك ما رواه مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْمَالُ وَيَفِيضَ حَتَّى يَخْرُجَ الرَّجُلُ بِزَكَاةِ مَالِهِ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهَا مِنْهُ وَحَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا".. وقول الرسول صلى الله عليه وسلم الذي رواه مالك في الموطأ: "لا يجتمع في جزيرة العرب دينان"، وقوله الذي رواه البخاري عن ابن عباس: "أخرجوا المشركين من جزيرة العرب"... فتلك النصوص وما شابهها أظهرت حاجة ملحة في بيان المقصود من ذلك؛ لتحقيق ما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم، كما أوجدت وجهات نظر جغرافية في التحديد، فالنصوص السابقة مثلا جعلت من تحديد جزيرة العرب محل اختلاف بين العلماء الجغرافيين، حتى إنه ورد فيه أربعة آراء، منها ما هو متسع كتحديد ابن حوقل والإصطخري، ومنها ما هو ضيق كتحديد المقدسي والجيهاني، وظهرت مصنفات هامة مثل (صفة جزيرة العرب) للهمداني، و(بلاد العرب) للحسن بن عبد الله الأصفهاني

الدعوة إلى الله وتعلم أمور الدين:

بعد فتح البلاد الإسلامية أصبحت هناك حاجة ملحة لتعلم شرائع الدين، حيث قام عدد من التابعين بالسفر إلى البلاد المفتوحة لتعليم أبنائها أمور الدين والدعوة إليه، وفي الوقت نفسه قام أفراد من سكان تلك البلاد بطلب العلم من المنابع التي ظهر

فيها الإسلام سواءً في مكة أو المدينة؛ لما تتمتع به المدينتان من وجود كبار الصحابة والتابعين، وكانت تلك الرحلات الدعوية أو العلمية تستلزم المعرفة بالمسالك المؤدية للمناطق المقصودة، كما أن أساليب الدعوة في بيئة ما لا يمكن أن تصلح في كل بيئة، ومما أسهم في تيسير الاتصال الدعوي الموقع الجغرافي لموطن الرسالة، فقد أثبتت الدراسات الجغرافية الحضارية لمنطقة الشرق العربي أن موقعها الجغرافي كان وما يزال متوسطًا في العلاقات الإقليمية والعالمية، ولذا أسهم بدور الوساطة التجارية من جانب وبدور الدعوة والبلاغ من جانب آخر.

المتطلبات الإدارية والعسكرية:

نمت الدولة الإسلامية وبلغت حدودها من الصين شرقًا حتى الأندلس (أسبانيا) غربًّا في غضون سبعين سنة تقريبًا، وكان هذا النمو حصيلة فتوحات في ثلاث خلافات إسلامية (الخلافة الراشدة، والخلافة الأموية، والخلافة العباسية). ويتطلب التوسع في الدولة مراعاة أمور ترتبط بهذا التوسع.. منها:

الدوافع الاقتصادية:

حقق التبادل التجاري تنشيطًا للمعرفة الجغرافية عند المسلمين قدر ما حققه انتشار الإسلام في أرجاء واسعة من العالم؛ فالتجارة هي الحرفة الرئيسة للمجتمعات العربية حيث ارتبطت مدن الصحراء بالمناطق الزراعية، وكوَّن تجار المسلمين بعد انتشار الإسلام خلفية واسعة عن البلاد المحيطة بهم عبر علاقات تجارية، وجعلت التجارة المعطيات الجغرافية أعظم بكثير مما كانت لدى أسلافهم من الأمم الأخرى، ووضعتها تحت تصرفهم فوسعت أفق الجغرافيِّ؛ مما جعله يكتب عن مناطق لم يرها وإنما سمع عنها فقط من التجار، ولقد تعددت العلاقات التجارية التي كان من أبرزها تلك العلاقات مع الهند وجنوب شرق آسيا والصين وأفريقيا وأوربا، ولهذا العامل تأثير في بناء أساسيات الجغرافية التجارية لدى العلماء المختصين.

==============

#المسلمون وإنقاذ علم الجغرافيا ...

بقلم الدكتور راغب السرجانى ... تاريخ الإضافة : ٠٦/٠٩/١٥

مقدمة

لم يظهر علم الجغرافيا قديمًا كما هو اليوم، وهذا من طبائع كل العلوم؛ فلكل علم إرهاصات.. ثم تأتي البداية المشوشة التي يتداخل فيها مع غيره من العلوم.. إلى أن يأخذ بعد ذلك دوره في التشكل والتكوين، خاصة مع ظهور المتخصصين.

وفي معرض تناول انطلاق النهضة الجغرافية لدى المسلمين يجدر بنا في البداية ذكر الإسهامات التي سبقت الحضارة الإسلامية، والتي قدمها الرحَّالة الهنود أو علماء اليونان الذين استعان المسلمون بمجهوداتهم البحثية التي كانت شرارة لانطلاق ثورتهم الجغرافية المبدعة

استفادة المسلمين من إسهامات من سبقوهم

فقد كان اليونان – على سبيل المثال – يقطنون ضفاف بحر غنيّ بالملاجئ الطبيعية، فنشطوا من خلال تجارتهم وقربهم من البحر، وكان منهم المؤرخ (هيرودوت) الذي قام برحلات كبيرة في برقة ومصر وفينيقية وبلاد بابل، كما زار المستعمرات الإغريقية في ساحل آسيا الصغرى الشمالي، وجزر بحر إيجة وصقلية وجنوب إيطاليا.. ويعتبر كتاب "التاريخ" الذي ألفه مختصَرًا للمعارف الجغرافية لدى الإغريق في أواسط القرن الخامس (ق. م.).. كما قدَّمت مؤلفات "بطليموس" و"مارينوس" البدايات للمسلمين، حيث اعتمد المسلمون في القرن (الثالث الهجري – التاسع الميلادي) لإرساء قواعد علمهم الجغرافي على كتاب "الجغرافيا" لبطليموس، الذي كان اعتمادهم عليه أساسيًّا.. إلى جانب كتاب "مارينوس الصوري" الذي يأتي في درجة تالية من الأهمية.. وكانت تلك المؤلفات القديمة وصفية اهتم فيها هؤلاء العلماء بحساب درجات الطول والعرض وأسَّست لاستخدام الجغرافيا الرياضية في رسم الخرائط.فقد حدَّد بطليموس في كتابه العالَم المعروف لدى الأقدمين، فكان يمتد من جزر الخالدات غرباً إلى الصين شرقا، أما حدوده الشمالية فكانت الجزر الواقعة شمالي بريطانيا، في حين لا تتعدى حدوده الجنوبية منطقة السودان والبحيرات الكبرى، وكان كتاب بطليموس مزودا بـ ٢٧ خارطة، كانت إحداها تمد البحر المتوسط بحوالي ٢٠ درجة شرقا؛ مما أدى بالتالي إلى استطالة الأراضي بشكل مفرط باتجاه الشرق.

ولم تكن استفادة المسلمين في هذا المضمار من اليونانيين فقط، بل حرصوا على الإطلاع على كل الميراث الجغرافي لشعوب العالم..

فقد قام المصريون القدامى في عهد (سينفرو) فرعون مصر برحلات عديدة بغية الاستكشاف، كما أرسلت مصر البعثات لكشف حوض النيل وارتياد الصحراء الشرقية والليبية وشبه جزيرة سيناء، وتيسيرا لنقل التجارة من داخل البلاد إلى البحر الأحمر حفرت قناة سيزوستريس بين النيل وذلك البحر.

أما الكريتيون فهم شعب بحري ضاعت كل معالم تاريخه من الذاكرة، ويظهر أن نشاطهم في مضمار الملاحة كان سابقاً للفينيقيين وهم أقدم من ركب عرض البحر، ولم يتبق من تاريخهم سوى تجارتهم الواسعة مع مصر التي عَرفوا من خلالها سواحل الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط كما عرفوا غرباً سواحل صقلية وإيطاليا الجنوبية دون أن يتجشموا مخاطر الابتعاد أكثر من ذلك.

أما الفينيقيون فقد تمت أول حملة اكتشافية على أيديهم، وقد جهزها فرعون مصر (نيخاوس) الذي حكم في النصف الثاني من القرن السابع قبل الميلاد بالسفن والمؤن، واستطاعت هذه الحملة عام٦٦٥ ق.م أن تدور حول أفريقيا، بعد أن انطلقت من البحر الأحمر وعادت من طريق البحر الأبيض المتوسط واستغرقت هذه الرحلة مدة عامين.

وفي الفترة الواقعة قبل الميلاد بخمسة قرون قام القرطاجيون بإرسال القائد صفون لاكتشاف ساحل أفريقيا الغربية، فانطلق على رأس أسطول من ستين سفينة يركبها ثلاثمائة بحار بالإضافة إلى عدد من المهاجرين وفي الوقت نفسه كان القائد "هيميلكون" يكشف سواحل أوروبا الغربية ويتوغل في بحر الشمال.

كما اتسعت معارف الرومان الجغرافية، إذ إنهم توغلوا في الحبشة بعد دخولهم مصر، ووصلوا إلى مناطق المستنقعات الفسيحة في بحر الغزال، وقاموا ببعض الاستكشافات الجغرافية هناك، كما اكتشفوا جبل كينيا وجبل كليمنجارو أعلى قمم أفريقيا.

حتى جاء حين من الدهر أخذت فيه روح البحث العلمي في هذا المجال في الخمول حينما بدأ رجال الكنيسة من أمثال القديس (امبرواز ٣٣٠ - ٣٩٧م) يجهرون بأن

دراسة الكون ووضع الأرض لن يفيد الإنسانية في تحقيق أملها في الحياة الآخرة!!.. وأدى ذلك إلى أن بدأ الكثيرون يعزفون عن الرغبة في المعرفة، ويعتبرون هذه الأمور ضربًا من السحر، واستمر الحال هكذا في أوروبا حتى القرن الخامس عشر الميلادي؛ فقد عانى علماء مثل "كوبرنيك" (١٤٧٣. ١٥٤٣) و"جاليليو" (١٥٦٤ ١٦٤٢م) الكثير من المضايقات من رجال الكنيسة، والتي وصلت إلى حدِّ القتل والإحراق!!!.

المراحل التي مرت بها الجغرافيا عند المسلمين

لم يقف المسلمون في تناولهم لعلم الجغرافيا موقف المطلع والمشاهد فقط لمؤلفات "بطليموس" أو "مارينوس الصوري" أو غيرهما، وإنما تعاملوا مع الأمر بخطوات إيجابية، شأن الجغرافيا لديهم شأن باقي العلوم التي اطلعوا على إسهامات السابقين فيها، ومن ثم قدموا ما عندهم من إبداعات واختراعات.. فقد مرت الجغرافيا لدى المسلمين بالمراحل التالية:

١) ظهور الجغرافيا الأدبية:

كانت المحاولات الأولى في الجغرافيا عند المسلمين قد ظهرت بشكل متواضع جدًا في مطلع القرن (الثالث الهجري – التاسع الميلادي).. فقد تكوَّن بعدها بنصف قرن ما يُعرف بالجغرافيا الأدبية، وقبل القرن التاسع الميلادي لم تكن هناك مصنفات جغرافية قائمة بمعنى الكلمة، إنما كانت تظهر بين الحين والآخر معلومات جغرافية متفرقة ضمن كتب الأدب.

حتى نشطت الترجمة واطلع المسلمون على أفكار "بطليموس" و"مارينوس الصوري" بدأت سلسلة الجغرافيا العلمية التي سرعان ما تبعتها أنماط متعددة للجغرافيا الوصفية، وفي أواخر القرن الثالث الهجري بدأ ما يُعرَف بالوجيزات الجغرافية في الظهور لمساعدة كتّاب الدواوين، وكان من أهم ما يمثل ذلك الكتاب الذي تصدى لدراسة مشهد الأرض الطبيعي بشكل خاص ويحمل عنوان: "كتاب المسالك والممالك" لابن خردازبة (ت٢٧٢هـ/ ٨٨٥م).. وتلا ذلك وجيزات جغرافية أخرى حتى أصبحت في متناول رجال الأدب ومن ثم عامة الناس، وكان منها: "كتاب البلدان" للجاحظ (١٥٩هـ/٢٥٥هـ).

٢) ازدهار المؤلفات من النوع المبسط:

وكان التطور التالي في القرن (الرابع الهجري – العاشر الميلادي)، حيث بلغ الأدب الجغرافي ذروته وذلك على أثر ظهور مؤلفات من نوع (المسالك والممالك)، أي بظهور المدرسة التقليدية للجغرافيين العرب التي كانت على صلة وثيقة "بأطلس الإسلام" الذي يمثل قمة علم المصورات عند العرب، أو علم الخُرُط.. كما حظي التبسيط الجغرافي بترحيب الجمهور الذي أقبل عليه بشغف، وتعددت مناهج وصف الرحلات، و يمكن القول إجمالاً: إن القرن (الرابع الهجري – العاشر الميلادي) كان عصر تكامل الأنماط في المصنفات الجغرافية، حيث تعددت الأسفار الاستكشافية مما زاد من اتساع أفق الجغرافيين الوصفيين، وزادت مع ذلك معلوماتهم دقة ووضوحا.

ففي عام (٣٠٩هـ/٩٢١م) أرسل خليفة بغداد (المقتدر) بعثة إلى بلغار الفولغان وعهد إلى "ابن فضلان" بكتابة تقرير عن أخلاق شعوب تلك المنطقة.. وقد ظل هذا الكتيب حتى القرن الثاني عشر الميلادي أفضل مصدر وثائقي يملكه المسلمون عن الروس وعن سكان بحر الخزر (قزوين).

٣) التطور الختامي للأنماط الجغرافية:

وكان ذلك في نهاية القرن (السادس الهجري – الثاني عشر الميلادي) والقرون التالية، ففي هذه الفترة ظهرت المعاجم الجغرافية، والمؤلفات الكوزموغرافية (التي تهتم بالكوزموغرافيا أو الجغرافيا الكونية)، والمؤلفات الجغرافية العالمية، واحتلت الموسوعات التاريخية والجغرافية مكانة هامة أيام المماليك في مصر.. وكذلك كثرت أقاصيص الرحالة الجغرافيين.

٤) الحقبة العثمانية:

وفيها بدأ الاحتكاك بالجغرافيا الأوروبية الحديثة والاكتشافات الجغرافية الكبرى.

٥) النهضة الجغرافية الحديثة:

وقد ابتدأت في مصر مع مطلع العصر الحديث الذي اقترن برحيل الحملة الفرنسية وظهور أسرة محمد علي.. فقد ظهرت عدة مؤلفات في الجغرافيا الرياضية والرحلات، ولاسيما في الشطر الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ومطلع القرن العشرين.

لقد كانت رحلة علم الجغرافيا في الحضارة الإسلامية رحلة فريدة بكل المقاييس.. ابتدأت بإنقاذ ذلك العلم الهام من الاختناق بيد الكنيسة الأوروبية، والتي حرَّمت البحث فيه كما رأينا قبل قليل.. ثم لم تكتفِ بإنقاذه – وقد كان في طور طفولته – حتى تكفَّلت بتنميته وضخ دماء العافية العلمية في جسده من جديد.. وسنحاول في المقال القادم – بإذن الله – الوقوف أمام بعض الإنجازات الإسلامية المبهرة في علم الجغرافيا..

ونسأل الله عزَّ وجَلَّ أن يُعِزَّ الإسلام والمسلمين

لمراجع

تطور علم الجغرافيا وفضل العرب فيه.... محمد سيد نصر

أعلام الجغرافيين العرب... عبد الرحمن حميدة

====================

#الرازي معجزة الطب عند المسلمين ...

بقلم الدكتور راغب السرجانى ... تاريخ الإضافة : ٢٦/٠٤/٠٦

مقدمة

لعل من العجيب أن يُذكر إنسان ما على أنه صورة من صور الحضارة؛ فقد تعودنا على وصف الحضارة على أنها نتاج أعمال كثيرة وأعداد كثر من البشر برعوا سويًا في الإبداع في مجال من مجالات الحياة: كالطب أو الهندسة أو المعمار أو غير ذلك..

ولكن الواقع أن الحضارة الإسلامية صنعت رجالاً ونساءً كانوا بحق صورًا رائعة من صور الحضارة.. بحيث تلتصق بهم كلمة الحضارة.. فإذا ذكروا فهذه هي الحضارة، وإن درست حياتهم فهذه دراسة للحضارة!!

وهذه عظمة الإسلام ولا شك.. الذي نقل البشر نقلة هائلة، حتى جعل بعض أتباعه يمثلون الحضارة بكل أبعادها.. ومن هؤلاء كان الرازي رحمه الله.. فهو لم يكن طبيبًا فحسب، ولا معلمًا فقط.. ولكنه أبدع كذلك في مجالات الأخلاق والقيم والدين.. كما أبدع . ولا شك في ذلك . في مجال الإنسانية.. حتى أصبح علمًا من أعلام الفضيلة

كما كان علمًا من أعلام الطب.. لا شك أن هذا الرجل العظيم من أعظم صور الحضارة الإسلامية

من هو الرازي.. معجزة الطب عبر الأجيال؟!

إنه أبو بكر محمد بن زكريا الرازي.. وقد ولد في مدينة الري, وإليها نُسِب.. ومدينة الري تقع على بعد ستة كيلومترات جنوب شرقي طهران, وكان ميلاده في سنة ٢٥٠هـ (٨٦٤م)، وكان منذ طفولته محبًا للعلم والعلماء، فدرس في بلدته الري العلوم الشرعية والطبية والفلسفية، ولكن هذا لم يُشْبع نَهَمَه لطلب العلم؛ فلم تكن مدينة الري . على اتساعها وكثرة علمائها . بالمدينة التي تحوي علوم الأرض في ذلك الوقت.. ولذلك يمَّم الرازي وجهه شطر عاصمة العلم في العالم في ذلك الوقت, وهي بغداد عاصمة الخلافة العباسية، فذهب إليها في شبه بعثة علمية مكثفة، تعلم فيها علومًا كثيرة، ولكنه ركز اهتمامه في الأساس على الطب، وكان أستاذه الأول في هذا المجال هو علي بن زين الطبري، وهو صاحب أول موسوعة طبية عالمية (فردوس الحكمة)..

كما اهتمَّ أيضًا بالعلوم التي لها علاقة بالطب كعلم الكيمياء والأعشاب، وكذلك علم الفلسفة لكونه يحوي أراء الكثير من الفلاسفة اليونان والذين كانوا يتكلمون في الطب أيضًا.. وكان أستاذه الأول في الفلسفة هو البلخي وهكذا أنفق الرازي رحمه الله عدة سنوات من عمره في تعلم كل ما يقع تحت يديه من أمور الطب، حتى تفوق في هذا المجال تفوقًا ملموسًا.. ثم عاد الرازي رحمه الله بعد هذا التميز إلى الري, فتقلد منصب مدير مستشفى مدينة الري، وكان من المستشفيات المتقدمة في الإسلام، وذاعت شهرته، ونجح في علاج الكثير من الحالات المستعصية في زمانه، وسمع بأمره الكبير والصغير والقريب والبعيد.. حتى سمع به عضد الدولة بن بويه كبير الوزراء في الدولة العباسية, فاستقدمه إلى بغداد ليتولى منصب رئيس الأطباء في المستشفى العضدي، وهو أكبر مستشفى في العالم في ذلك الوقت، وكان يعمل به خمسون طبيبًا.. والحق أنه لم يكن مستشفىً فقط, بل كان جامعة علمية, وكليَّة للطب على أعلى مستوى.. وأصبح الرازي رحمه الله مرجعية علمية لا مثيل لها ليس

في بغداد فقط، وإنما في العالم كله.. وليس على مدى سنوات معدودة.. ولكن لقرون متتالية!!

إنه الرازي رحمه الله.. معجزة الطب عبر الأجيال!

كيف وصل إلى هذه الدرجة العالية

لعله من المهم جدًا أن نقف وقفة ونتساءل كيف وصل الرازي رحمه الله إلى هذا المجد.. وإلى هذه المكانة؟

لا بدَّ أن نعلم أن النجاح لا يأتي مصادفة، وأن التفوق لا يكون إلا بجهد وتعب وبذل وتضحية.. كما أن الإبداع لا يكون عشوائيًا أبدًا.. إنما يحتاج إلى تخطيط وتدريب ومهارة.. وهكذا كانت حياة الرازي رحمه الله..

لقد بحث الرازي رحمه الله عن العلم في كل مصادره، واجتهد قدر استطاعته في تحصيل كل ما يقع تحت يده من معلومات، ثم أتبع ذلك بتفكير عميق وتجارب متعددة ودراسة متأنية.. حتى بدأ يعدِّل في النظريات التي يقرؤها.. وأخذ ينقد ويحلل.. ثم وصل إلى الاختراع والإبداع..

لقد انتشر في زمان الرازي رحمه الله الطب اليوناني والفارسي والهندي والمصري نتيجة اجتهاد العلماء في ترجمة كتب تلك الأمم، فقرأها الرازي جميعًا، لكنه لم يكتف بالقراءة بل سلك مسلكًا رائعًا من أرقى مسالك العلم وهو لملاحظة والتجربة والاستنتاج..

لقد كان الطب اليوناني هو أهم طب في تلك الفترة، ولكنه كان يعتمد في الأساس على النظريات غير المجرَّبة.. وكان كل أطباء اليونان يعتمدون هذه الطريقة حتى عرفوا بفلاسفة الطب، فهم لم يُخضعوا نظرياتهم لواقع الحياة إلا قليلاً، ولا يُستثنى من ذلك كل أطباء اليونان حتى العمالقة منهم أمثال جالينوس وأبقراط!! ولكن الرازي رحمه الله قال كلمته المشهورة التي تعتبر الآن قانونًا من قوانين العلم بصفة عامة, والطب بصفة خاصة.. قال: عندما تكون الواقعة التي تواجهنا متعارضة والنظرية السائدة يجب قبول الواقعة، حتى وإن أخذ الجميع بالنظرية تأييدًا لمشاهير العلماء.., فهو يذكر أنه ليس لعالم مشهور أو غير مشهور أن يقرر نظرية تتعارض مع

المشاهدة الفعلية والتجربة الحقيقية والواقعة الحادثة، بل تُقَدَّم الملاحظة والتجربة؛ وبذلك يُبْنَى الاستنتاج على ضوء الحقائق لا الافتراضات الجدلية..

ما أروعه حقًّا من مبدأ، وما أبدعها من طريقة!!..

ولذلك نجد أن الرازي كثيرًا ما انتقد آراء العلماء السابقين نتيجة تجاربه المتكررة، بل إنه أَلَّف كتابًا خصِّيصًا للرد على جالينوس أعظم أطباء اليونان وسمَّى الكتاب الشكوك على جالينوس, وذكر في هذا الكتاب الأخطاء التي وقع فيها جالينوس، والتصويب الذي قام هو به لهذه الأخطاء، وكيف وصل إلى هذه النتائج.

الرازي مؤلفًا

من أعظم مؤلفات الرازي رحمه الله كتاب الحاوي في علم التداوي وهو موسوعة طبية شاملة لكافة المعلومات الطبية المعروفة حتى عصر الرازي، وقد جمع فيه رحمه الله كل الخبرات الإكلينيكية التي عرفها، وكل الحالات المستعصية التي عالجها، وتتجلى في هذا الكتاب مهارة الرازي رحمه الله ودقة ملاحظاته وغزارة علمه وقوة استنتاجه..

وقد ترجم هذا الكتاب إلى أكثر من لغة أوروبية، وطُبع لأول مرة في بريشيا بشمال إيطاليا سنة ٨٩١هـ (١٤٨٦م) وهو أضخم كتاب طُبع بعد اختراع المطبعة مباشرة، وكان مطبوعًا في ٢٥ مجلدًا، وقد أعيدت طباعته مرارًا في البندقية بإيطاليا في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي), ويذكر المؤرخ ماكس مايرهوف أنه في عام ١٥٠٠ ميلادية كان هناك خمس طبعات لكتاب الحاوي, مع عشرات الطبعات لأجزاء منه..

ومن كتبه أيضًا المنصوري قد سماه بهذا الاسم نسبة إلى المنصور بن إسحاق حاكم خراسان، وقد تناول فيه موضوعات طبية متعددة في الأمراض الباطنية والجراحة والعيون، وقد تعمَّد الرازي الاختصار في هذا الكتاب, فجاء في عشرة أجزاء!! لذلك رغب العلماء الأوروبيون في ترجمته عدة مرات إلى لغات مختلفة منها اللاتينية والإنجليزية والألمانية والعبرية! وقد تم نشره لأول مرة في ميلانو سنة ١٤٨١م ، وظل مرجعًا لأطباء أوروبا حتى القرن السابع عشر الميلادي.

ومن أروع كتبه كذلك كتاب الجدري والحصبة وفيه يتبين أن الرازي رحمه الله أول من فرق بين الجدري والحصبة، ودوَّن ملاحظات في غاية الأهمية والدقة للتفرقة بين

المرضين، وقد أعيدت طباعة هذا الكتاب في أوروبا أربع مرات بين عامي(٩٠٣ : ١٢٨٣هـ) (١٤٩٨ : ١٨٦٩م)..

ومن كتبه أيضًا كتاب الأسرار في الكيمياء والذي بقي مدة طويلة مرجعًا أساسيًّا في الكيمياء في مدارس الشرق والغرب.

ومن كتبه الهامة كذلك كتاب الطب الروحاني الذي ذكر فيه أن غايته من الكتاب هو إصلاح أخلاق النفس.. وحضَّ في كتابه هذا على تكريم العقل، وعلى قمع الهوى, ومخالفة الطباع السيئة, وتدريب النفس على ذلك..

وقد تميز الرازي رحمه الله بالأمانة العلمية التامة في كتاباته؛ فكان لا يذكر أمرًا من الأمور اكتشفه غيره إلا أشار إلى اسم المكتشف الأصلي، ولذلك حفلت كتبه بأسماء جالينوس وأبقراط وأرمانسوس وغيرهم، كما ذكر في كتبه المحدثين من الأطباء أمثال يحيى بن ماسويه وحنين بن إسحاق...

وكان الرازي رحمه الله يحض تلامذته على إتباع نهج الكتابة والتأليف، فكان يقول لهم: إذا جمع الطالب أكبر قدر من الكتب وفهم ما فيها، فإن عليه أن يجعل لنفسه كتابًا يضمنه ما غفلت عنه الكتب التي قرأه.. فهو ينصح كل طلبته أن يسجلوا المعلومات التي يلحظونها في أثناء دراستهم وعلاجهم للمرضى – والتي لم تُذكر في الكتب السابقة – , وبذلك يستفيد اللاحقون بعلمهم وتأليفهم.

الرازي الإنسان

ولم يكن الرازي رحمه الله عالمًا فقط، بل كان إنسانًا خلوقًا من الدرجة الأولى، فقد اشتهر بالكرم والسخاء وكان بارًا بأصدقائه ومعارفه، عطوفًا على الفقراء وبخاصة المرضى، فكان ينفق عليهم من ماله الخاص، ويجري لهم أحيانًا الرواتب الثابتة!!..

وكان يوصي تلامذته أن يكون هدفهم هو إبراء المرضى أكثر من نيل الأجور منهم، ويوصيهم كذلك بأن يكون اهتمامهم بعلاج الفقراء تمامًا كاهتمامهم بعلاج الأمراء والأغنياء.. بل إنه من شدَّة اهتمامه بالفقراء ألف لهم كتابًا خاصًا سماه طب الفقراء، وصف فيه الأمراض المختلفة وأعراضها ثم وصف طرق علاجها عن طريق الأغذية والأعشاب الرخيصة بدلاً من الأدوية مرتفعة الثمن أو التراكيب النادرة..

ومن شدة اهتمامه رحمه الله بالأخلاق الحميدة ألف كتابًا خاصًا بهذا الأمر سماه أخلاق الطبيب يشرح فيه العلاقة الإنسانية بين الطبيب والمريض، وبين الطبيب والطبيب، وضمَّنه كذلك بعض النصائح للمرض في تعاملهم مع الأطباء..

هذا.. وقد اعترف القاصي والداني لأبي بكر الرازي رحمه الله بالفضل والمجد والعظمة والعلم والسبق، ولا نقصد بذلك المسلمين فقط، بل اهتم غير المسلمين أيضًا بإنجازات الرازي وابتكاراته؛ فنجد فضلاً عن ترجمة كتبه إلى اللغات الأوروبية وطبعها أكثر من مرة.. نجد إشارات لطيفة وأحداثًا عظيمة تشير إلى أهمية ذلك العالم الجليل، ومن ذلك أن الملك الفرنسي الشهير لويس الحادي عشر (والذي حكم من عام ١٤٦١م إلى ١٤٨٣ م) قد دفع الذهب الغزير لينسخ له أطباؤه نسخة خاصة من كتاب الحاوي كي يكون مرجعًا لهم إذا أصابه مرض ما، ونجد أن الشاعر الإنجليزي القديم جوفري تشوسر قد ذكر الرازي بالمدح في إحدى قصائده المشهورة في كتابه أقاصيص كونتربري، ولعله من أوجه الفخار أيضًا أنه رغم تطور العلم وتعدد الفنون إلا أن جامعة بريستون الأمريكية ما زالت تطلق اسم الرازي على جناح من أكبر أجنحتها، كما تضع كلية الطب بجامعة باريس نصبًا تذكاريًا للرازي رحمه الله بالإضافة إلى صورته في شارع سان جيرمان بباريس..

لقد كان الرازي بحق صورة رائعة من صور الحضارة الإسلامية قلما تتكرر في التاريخ، لقد كان طبيبًا وعالمًا ومعلمًا وإنسانًا.. عاش حياته لخدمة الإسلام والعلم والبشرية، ومات عن عمر بلغ ستين عامًا، وكانت وفاته في شعبان ٣١١هـ / (نوفمبر ٩٢٣م)، ولكن يصعب أن نقول إنه مات، فالمرء يكتب له الخلود بقدر ما ينفع الناس، وصدق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم عندما ذكر في الحديث الذي رواه الترمذي (وقال: حسن صحيح) عن أبي هريرة رضي الله عنه: إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث... ذكر منها: ..وعلم ينتفع به..

والحمد لله الذي شرفنا بالإسلام

==============

#ما ظننتم أن يخرجوا..!! ...

بقلم الدكتور راغب السرجاني ... تاريخ الإضافة : ٠٦/٠٩/٠٨

ما كان أحد من المسلمين يظن أن تصمد لبنان (مقاومة وشعبًا وحكومة) أمام هذا العدوان الصهيوني غير المسبوق.. وما كان أحد يتوقع أن يطول هذا الصمود شهرًا حتى يتكشَّف الفشل والعجز اليهوديَّان عن تحقيق أي هدف كانوا قد أعلنوا عنه مع بداية العدوان، بدءًا من استرداد الجنديين الأسيرين.. وانتهاءً بسحق القدرة القتاليَّة لحزب الله، وتمهيد الأرض لشرق أوسط جديد (منزوع السلاح والكرامة!).. حتى يُضطر محرّكو السياسة الدوليَّة أن يستولدوا في لهاث وعجلة قرارًا دوليًّا (لا يعترضه الفيتو هذه المرة!!) لحفظ القطرات الباقية من ماء وجه الصهاينة، وليعيد ستر عورة الجبن اليهودي التي كشفتها صواريخ المقاومة الإسلاميَّة وصمودها.

نعم.. ما كان المسلمون – حتى الصادقون منهم – يظنُّون أن تندحر تلك الهجمة الصهيونية عن لبنان على هذا النحو الذي رفع رأس كل مؤمن شريف، وأعاد إليه نسمات أمل غائب منذ أزمان... بل ما كان اليهود أنفسهم يتوقَّعون مثل هذا الصمود من جنود "حزب الله" الذين لا يعْدون – في نظرهم – مجرد "ميليشيا مسلَّحة".. حتى تتواتر تصريحات الساسة والقادة العسكريين اليهود تُعرب عن هذه الدهشة وذلك الذهول الذي أصابهم إزاء صمود حزب الله!!.. فما يظن اليهود أن يصمد أحد أمام القنبلة الذكيَّة، أو أمام قصف طائرات ال(١٦F)، وانهمار القنابل العنقوديَّة والقذائف التي تتجاوز الأطنان!!.. وما كانوا يحتسبون أن تتساقط أحجار جدار الأمن المزعوم الذي أوهموا شعبهم الغازي أنه يُحصِّنهم ويحميهم انطلاقًا من التفوُّق العسكري والاستخباراتي الهائل، والذي يميِّز الدولة اليهوديَّة عن سائر دول الجوار على الأقل!..

ما كان أغلب طرفَي الصراع يظن أن يقع ما وقع.. تمامًا كما حكى الله تعالى عن معركة قديمة وقعت بين أهل الحق.. بقيادة سيِّد الخلق صلى الله عليه وسلم وبين أهل الباطل – ممثَّلين في يهود بني النضير –..

فلقد أفصح بنو النضير عن غدرهم في أوائل العام الرابع الهجري (شهر ربيع الأول)مستغلِّين ظروفًا حرجةً، أضعفت – إلى حدٍّ ما – قوة المسلمين وهيبتهم، فما كان منهم (اتباعًا لنهج الغدر الذي لا يتخلَّف عن سلوكهم) إلا أن عزموا على قتل رسول الله r رغم ما بينهم وبينه من العهد والأمان.. ولما أطْلع الله رسوله على

غدرهم.. نبذ إليهم عهدهم؛ فلا قيمة لعهد لا يحترمه أطرافه، ولا جدوى من سلام ينتهكه بعض من أبرموه كلما واتتهم الفرصة..

وأعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرب على بني النضير، وأمر المسلمين بحصارهم؛ حفظًا لكرامة الأمة من أن يجترئ عليها عدوُّها حين يظن منها الضعف.. مع أن الفجوة العسكرية والماديَّة بين المسلمين واليهود كانت هائلة لصالح اليهود، وما كانت حقائق هذه الفجوة غائبة عن المسلمين، بل إن الشكوك كانت تساورهم في أن يتمكَّنوا من إخراج بني النضير (وهو الهدف الذي أعلنه رسول الله r لحملته عليهم).. وقد وصفت الآيات الكريمة من أوائل سورة الحشر شكوك المؤمنين في إخراج اليهود.. قال تعالى: "ما ظننتم أن يخرجوا..!!".

على أن هذا الظن الذي ظنَّه المسلمون لم يمنعهم من حسن الأخذ بأسباب النصر، والتي يأتي على رأسها:

حسن الإيمان بالله، وعمق الصلة به.. اللذين تجسَّدا – مثلاً – في طاعة الأمر النبوي بالخروج إلى القتال برغم تفوُّق العدو..

وإلى جانب الإيمان بالله فقد ظهرت وحدة الصف التي تُعدُّ ثاني أدوات القوة بعد الإيمان.. والتي لم يشذَّ عنها إلا المنافقون الذين سنرى – في مقال قادم – كيف ارتموا مباشرة في أحضان العدو، وعاهدوهم على النصرة ضد المسلمين!!..

ويأتي بعد الإيمان ووحدة الصف حُسن الاستعداد والأخذ بالأسباب.. وقد ظهر ذلك في غزوة بني النضير حين استخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم سلاح الحرب النفسيَّة؛ فأمر بتقطيع النخيل الذي يمتلكه اليهود؛ إضعافًا لمعنويَّاتهم، وخزيًا لهم.. وقد وصف رب العالمين أثر ذلك على نفوسهم، وما لحقهم من خزي.. قال تعالى: "مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ".

وكما ظن المؤمنون ألَّن يخرج اليهود، فقد ظنَّ اليهود أيضًا أن قوَّتهم ستحميهم، وأن حصونهم مانعتهم من الله.. وهذا شأن أهل الباطل المنقطعين عن الله والإيمان به.. يحسبون قوَّتهم شيئًا، وما هي إلا كبيت العنكبوت "وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون!!".

اغترَّ اليهود – إذًا – بحصونهم، فجاءهم الله من جهة لم يُحصِّنوها، ولم يَحتسبوا أن يُهزَموا من قِبَلِها.. أتاهم الله من جهة قلوبهم الخربة.. "وقذف في قلوبهم الرعب!!" وانهار "جيش الدفاع اليهودي" في بني النضير!!.. وطلبوا التسليم لرسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يُؤَمِّن خروجهم من المدينة، وأخذوا "يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ..." تلك البيوت التي حصَّنوها طويلاً؛ حتى ظنُّوها مانعَتَهُم من الله!!..

إن الله ناصرٌ دينه بأسلحته هو – سبحانه –، وبجنوده الذين لا يعلمهم إلا هو.. ومن بين جنود الله "الرعب!!".. الذي نصَر الله به نبيَّه r في مواطن كثيرة، والذي ينصر الله به – وبغيره – كل من سار على نهج نبيِّه r في حسن الصلة بالله، وتوحيد الصفوف، واستكمال العُدَّة "قدر الاستطاعة".

ما شهدته ساحات الجهاد في لبنان وفلسطين في الأسابيع الماضية يؤكد هذا المعنى؛ فمنذ بدء المعارك والشهادات اليهوديَّة تتوالى مؤكِّدة براعة المقاومة الإسلامية، والدهشة البالغة من كفاءتها القتاليَّة.. يشهد بذلك (على سبيل المثال) الجنرال اليهودي "عامي إيالون" الرئيس السابق لجهاز الاستخبارات (الشاباك)، وقائد البحريَّة السابق، فيعترف بالتفوُّق الذي حققه المجاهدون في عمليَّتَي المقاومة في فلسطين ولبنان، واللتان أسفر عنهما أسر ثلاثة من جنود الصهاينة.. ويقول: إنها من نوع عمليَّات الكوماندوز الخطيرة، وأنه كعسكريٍّ مُخَضْرَم كان سيشعر (بالفخر!!) لو أنه هو الذي قادها!!!...

هذه شهادة مبكِّرة صدرت في أوائل المعارك الضارية، تُظْهِر انقلابًا هائلاً في موازين القوة.. حيث يشهد جنرال في الجيش الذي "لا يُقْهَر!!" بالتفوُّق لجنود جماعات مقاومة محدودة القوة جدًّا، بل ومُحاصرة من جميع الجهات... ولن يتَّسع المقال لعرض كل ما نقلته وسائل الإعلام بعد وقف المعارك في لبنان من هلع جنود اليهود وبكائهم، وتفجُّر الوضع الداخلي في دولة العدو سياسيًّا وعسكريًّا؛ كردِّ فعل للهزيمة التي مُنُوا بها، واعترف بها رؤساؤهم.

وعلى الرغم من حجم الدهشة مما أسفرت عنه الحرب الأخيرة إلا أن الله عزَّ وجَلَّ في كتابه – في سياق الحديث عن إجلاء بني النضير – يوضِّح ما تزول به الدهشة.. حين يقول سبحانه: "هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ

لِأَوَّلِ الْحَشْرِ.." فهو صاحب المعركة، ومُدَبِّر شأنها كلِّه.. وهو على كل شيء قدير.. وبيده قلوب العباد، وجنود السموات والأرض.. وما على المؤمنين الصادقين إلا أن يُحسنوا الإيمان بهذه الحقائق، ويتوكَّلوا على ربِّهم في جهاد عدُوِّهم؛ فقد أثبتت المعركة الأخيرة إمكانيَّة هزيمته.. حين سقط من جنوده وشعبه ١٥٦ قتيلاً، ولاذ مليونا شخص بالملاجئ شهرًا كاملاً.. بينما نزح أكثر من ثلاثمائة ألف آخرين من مدنهم الشماليَّة هلعًا من صواريخ حزب الله.. هذا فضلاً عن خسائر المعدَّات من طائرات حربيَّة، وعشرات الدبابات (الميركافا).. إلى جانب ملايين الدولارات التي كان الاقتصاد اليهودي ينزفها يومِيًّا من جرَّاء الحرب!!

وما أحوجنا – في الختام – إلى تدبُّر التعليق القرآني على قصَّة إجلاء بني النضير في ختام الآية التي عرضت هزيمتهم.. حيث يقول رب العالمين سبحانه: "يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ.."

============

#هم العدو.. فاحذرهم!! ...

بقلم الدكتور راغب السرجانى ... تاريخ الإضافة : ٠٦/٠٩/١٥

كما يزداد المعدن نقاءً من شوائبه كلما ازداد انصهارًا بلهب النار.. كذلك يزداد الصف المسلم المواجه لعدوِّه نقاءً من شوائب النفاق كلما اشتد لهيب الأزمات والمحن.. ولا تتوقف التنقية حينئذٍ عند حدِّ انكشاف الهلع وضعف اليقين في نفوس المنافقين.. بل يزداد التمايز وضوحًا عندما يُسارع المنافقون المذعورون – لا إلى الانزواء فقط – بل إلى الارتماء المشين في أحضان العدو صراحة!!.. وتبنِّي مواقفهم، والشفقة على خسائرهم.. فضلاً عن القيام بدور المتحدِّث باسمهم والناصح الأمين لهم...!!

ومع مرارة مواقف أهل النفاق هؤلاء، ومع ما ينتج عادة حيال الخيانة من قلق في الصف المسلم نتيجة فَقْد بعض القوة والنصرة التي كانت تُرجَى من أمثال هؤلاء.. مع كل ذلك إلا أن الخير يظل دائمًا في أن تتبدَّى هذه الخفايا قبل المواجهة الفاصلة، حتى لو فقد المسلمون الآن عدد هؤلاء وطاقاتهم.. فما كانت هذه الطاقات ولا تلك الأعداد بالتي تُغني عن المسلمين شيئًا؛ فما هم إلا كالطبل الأجوف الذي ربما يلفت

الأسماع والأبصار إلى صوته الصاخب، دون أن يكون منطويًا على كبير فائدة.. حتى إن الله ليصفهم في آية عجيبة من كتابه بقوله تعالى: [وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ...] فالشكل الخارجي قد يُعجِب، وقد يوحي بالجدوى والقوة.. [وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ!!] فلهم طريقة في الحديث قد تُغْرِي بالإنصات، وقد توهم أن وراءها حكمة وعقلاً.. وما ذاك إلا "لَحْنُ القَوْلِ" الذي يُميِّز حديثهم دائمًا، كما أخبر الله تعالى في آية أخرى..

أما الحقيقة.. أما الوزن وأما القيمة.. فلا شيء!!.. "كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ!!" لا تملك حتى أن تقف بنفسها.. والداخل هواءٌ وجُبْن وهلع: [يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ..] ويخشون في كل لحظة افتضاح كذبهم المستور بغشاء رقيق من النفاق..

ما كان الله ليدع نفوسًا خربة كهذه مستورة بالتظاهر بالإسلام مع كل ما تُشكِّله من مخاطر على سلامة الصف المسلم الذي لا يُرجى له أن يصمد أمام عُدوان الباطل فحسْب.. بل أن يهزم الباطل في عُقر داره ليرفع راية الحق..

إن الله عزَّ وجَلَّ حذَّر المؤمنين من بقاء المنافقين مستترين يوم قال: [لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ..] وكان من رحمته أن تُصِيب المحن الجزئية أمة الإسلام حتى تكون لحظات كاشفة لا يستغني عنها المؤمنون، ولذلك قال تعالى: [مَّا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ].

ولقد كانت محنة لبنان الأخيرة – والتي استعرضنا بعض جوانبها المضيئة في المقال السابق – إحدى هزَّات الزلزلة التي تتساقط معها أوراق النفاق الذابلة من شجرة الإيمان الراسخة.. لقد كانت لحظة كاشفة فعلاً – كعادة سنن الله دائمًا في المحن – رأينا فيها أمثلة كنا نقرأ أشباهها في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، أو في سياق علاج القرآن لأحداث تلك السيرة العطرة؛ فكان العجب يتملَّك القلوب والعقول.. حتى أراد الله أن يُري المؤمنين مِصداق ما حذَّرتهم منه آياته..

رأى المؤمنون ألسِنَةً وأقلامًا من الإعلاميين أو السياسيين أو علماء السلطة، لهم قدرة عجيبة على تجميل المنكر، وتبرير الخيانة، وتزيين الفضيحة.. ويمتلكون مهارات فريدة في التلاعب بالألفاظ؛ فيسمُّون الجبن حكمةً، والقعودَ عن الحق بُعْدَ نَظَرٍ،

والخيانةَ ذكاءً.. ويصبح كذلك عندهم الجهادُ تهورًا، والدفاع عن الحقوق إرهابًا، واسترداد الأراضي المحتلة والأسارى المعذَّبين مغامراتٍ غير محسوبة!!!..

وبما لهم من حلاوة لسان وحسن بيان (ولحنٍ في القول!!) يخدعون البسطاء من أبناء الأمة – وما أكثرهم! – فيحسبونهم حكماء عقلاء.. وأذكياء نجباء، وهم أبعد ما يكون عن هذه الصفات الجليلة.. روى أحمد عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.. أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ"..

وتعجَّب المؤمنون من رفض هذه الطائفة للجهاد والبذل برغم كل ما تعرض له لبنان وفلسطين.. والحق أن هؤلاء قد يعيشون في ذلة شديدة وخضوع لكل من هب ودب على وجه الأرض، ومع ذلك فهم لا يأخذون أبدًا قرار الجهاد، ولا قرار الانتقام للدين وللوطن، ولا قرار تحمل المسؤولية.. وقد يثير كل ذلك استغراب المؤمنين، فيقولون: كيف يتحمل هؤلاء هذه المهانة؟!!

والحق أن قرار الجهاد قرار شريف.. لا يأخذه إلا شريف!!

ما تخلَّفت هذه السنَّة قط عن أخلاق المنافقين أمام كل مواجهة مع الباطل، وما توقَّف لُهاثُهُم يومًا في سبيل المسارعة في موالاة الأعداء، وتبنِّي مواقفهم.. أكثر مما يتبنَّونها هم أنفسهم.. وها قد رأينا في أحداث لبنان الأخيرة دهشة قيادات العدو ووسائل إعلامه من ذلك الدعم الذي تلقَّوه ممن كان يُفْتَرَض فيهم نُصْرة لبنان وفلسطين؛ لكونهم من بني جلدتهم وقوميتهم.. فضلاً عن دينهم!!..

على ذات الدرب سار من قبل "عبد الله بن أبيٍّ" ورهط النفاق في عهد النبوَّة.. فقد رأيناهم يوم غزوة بني قينقاع (٢هـ) حين أراد الرسول صلى الله عليه وسلَّم إنزال العقاب باليهود جرَّاء خيانتهم للعهد.. فإذا برأس النفاق ينبري مدافعًا عن اليهود، وشافعًا لهم – بسوء أدبه!! – عند النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً: "إني امرؤٌ أخشى الدوائر" وسمَّى اليهود: (مواليه!!) أي: أنصاره.. حتى قال الله تعالى في شأنه وشأن من تبعه بإساءة: [فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ.. يَقُولُونَ: نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ!!..]

ويتكرَّر نفس الموقف في مواجهة أخرى بعد عامين، في غزوة بني النضير (٤هـ).. بعد أن هَمَّ اليهود بقتل النبي صلى الله عليه وسلم – وهي الغزوة التي ذكرنا طرفًا منها في المقال السابق – فحاصرهم حصارًا شديدًا، فما أوشكوا على التسليم حتى جاءتهم رسائل النفاق والخيانة من ابن أُبيٍّ وأصحابه: أن اثبتوا!!.. نحن معكم!!..
[لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ، وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ...]
إنها ذات المواقف!.. بل إن تكرارها يوحي إليك كأن بعض الألفاظ تتكرَّر.. وهي كذلك بالفعل!!.. ليظل التحذير الإلهي ماثلاً لكل أمة مؤمنة تحمل لواء الحق عبر التاريخ.. من أوبئة النفاق وشروره؛ حتى يطارد المؤمنون النفاق في نفوسهم وفي صفوفهم.. كما يجاهدون الباطل من حولهم.. بل أشد!!.. فليست مصادفة أن تتركَّز إشارة العداء في الآية الكريمة على المنافقين بأسلوب القصر، حيث يُعَقِّب ربنا بعد استعراض صفاتهم التي توقفنا أمامها آنفًا.. بقوله سبحانه:
[هُمُ الْعَدُوُّ.. فَاحْذَرْهُمْ!! قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ؟!]
==============

#بنو قينقاع وبيت حانون والبون الشاسع!! ...

بقلم الدكتور راغب السرجاني ... تاريخ الإضافة : ٠٦/١١/١٠
كلما رأيت تبجحًا من اليهود، وتطاولًا منهم عادت ذاكرتي بسرعة إلى سيرة الهادي لهذه الأمة، بل الهادي للعالمين رسول الله صلَّى الله عليه وسلم؛ فعند الحيرة في التحليل أو أخذ القرار نعود إلى المواقف المتشابهة في السيرة لنخرج بالرأي الأصوب, والقرار الأحكم...
والآن ونحن نستمع لأخبار العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة، وخاصةً بلدة بيت حانون؛ حيث تجتاح قوات الاحتلال الإسرائيلي البلدة ضمن مخطط لاجتياح أجزاء من قطاع غزة قد تشمل فيما بعد رفح وغيرها؛ وذلك – كما يرى المحللون – بهدف إخضاع الفلسطينيين بقوة السلاح، وإسقاط الحكومة الفلسطينية، إلى جانب الضغط على الفصائل التي تأسر الجندي الإسرائيلي (جلعاد شاليت) من أجل إطلاق سراحه.
أقول: ونحن نستمع لهذه الأخبار الدامية التي تؤذي أسماعنا بأنباء مقتل ما يقارب الثمانين شهيدًا, ومائتي جريحٍ، تعود بنا الذاكرة إلى حدثٍ من أحداث السيرة هو أقل

مما يحدث في بيت حانون بعشرات المرات, ولكن سنرى كيف تصرَّف الرسول صلى الله عليه وسلَّم معه، لندرك الفارق بين المفروض الذي يجب أن يحدث والواقع الذي نعيشه الآن، وندرك البون الشاسع الذي يفصلنا عن عصر الرجولة والنخوة.

قبيلة بني قينقاع كانت من القبائل اليهودية القاطنة في المدينة المنورة، والتي ارتبطت بمعاهدة مع الرسول (صلَّى الله عليه وسلم) والمسلمين. وبعد غزوة بدر، وانتصار المسلمين على قريش بفضل الله ومِنَّته، انفجرت براكين العداوة في صدور يهود بني قينقاع، وجاهروا الرسول بالعداوة، بل وأقدموا على جريمة نكراء حيث راود صائغ يهودي في سوق بني قينقاع امرأةً مسلمةً عن كشف وجهها، أثناء شرائها مصاغٍ منه، فلما أَبَتْ ربط بعضهم طرف ثوبها بخمارها– دون أن تشعر – فلما قامت انكشفت عورتها، فصرخت، فجاء مسلم وقتل التاجر اليهودي؛ فتعاون اليهود على قتل المسلم، وانتهى الأمر بحصار الرسول صلى الله عليه وسلم لهم.

وبدأ الحصار في يوم السبت نصف شوال سنة ٢ هـ، بعد أقل من شهر من غزوة بدر الكبرى، وظل صلى الله عليه وسلم محاصرًا لبني قينقاع أسبوعين كاملين، إلى أن ظهر هلال ذي القعدة، وقذف الله عز وجل الرعب في قلوب اليهود، فنزلوا على حكم الرسول صلى الله عليه وسلم وكان حكمه صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت هو قتلهم لهذه المخالفة الشنيعة التي فعلوها، ليس فقط لكشف وجه المرأة المسلمة، ولا لقتل المسلم، لكنها تراكمات طويلة؛ فهم منذ أن دخل الرسول صلى الله عليه وسلم وهم في مخالفات مستمرة وسب علنيٍّ لله ولرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم وللصحابة، وإثارة الفتن بين المسلمين، فكان لابد من وقفة معهم.

إن من طبائع اليهود الثابتة التي لا ينفكون عنها بحالٍ من الأحوال؛ التطاول الدائم، واتخاذ المواقف المعادية كلما زاد سكوت المسلمين عن تعدياتهم، وقد رأينا هذا من اليهود قديماً وحديثاً، وسنظل نراه منهم إلى يوم القيامة.

رأينا في العصر الحديث عندما خالف اليهود القوانين الإسلامية، وبدءوا بالهجرة إلى فلسطين مع أن هذا الأمر كان ممنوعاً عليهم، ولكن لأن المسلمين سكتوا عن هذا الأمر تملَّك اليهود الاقتصاد الفلسطيني في داخل فلسطين، ثم جلبوا السلاح الخفيف، ثم الثقيل، وبعدها أنشئوا إسرائيل سنة ١٩٤٨، ثم حرب ١٩٥٦، و١٩٦٧،

و١٩٨٢في لبنان، وأخيراً حرب لبنان٢٠٠٦ كما تابعنا جميعاً؛ فكلما سكت المسلمون–إذن– تعدَّى اليهود تعدِّيًا أكبر وأخطر .

كنا في الماضي نطالب بالعودة إلى حدود التقسيم، ثم بعد ذلك نطالب بالعودة إلى حدود ٦٧، ثم نطالب بالعودة إلى حدود انتفاضة٢٠٠٠، وإذا كان اليهود اليوم يقيمون جداراً عازلاً، فإننا ربما نطالب في المستقبل بالعودة إلى حدود الجدار العازل؛ فهذا التساهل مع اليهود هو الذي أَدَّى إلى ما آلت إليه أحوالنا اليوم، هو ما أدَّى إلى الاعتداءات المتكررة التي أصبحت لا تلفت أنظار أحد من المسلمين، هو ما أدى لتكرار الاجتياحات، وتدمير البنية التحتية الفلسطينية، وأهم من ذلك إراقة دماء آلاف الشهداء المسلمين في فلسطين.

إن أحداث بيت حانون دليل واضح على تخاذل المسلمين الذي بدأ منذ عقود، وهذا التخاذل هو الرابط العكسي بين أحداث بيت حانون، وغزوة بني قينقاع، إذ تجنب رسول الله صلى الله عليه وسلم كل هذه المآسي، وأخذ قراراً سريعاً وحاسماً بحصار بني قينقاع، ومعاقبتهم بالقتل جزاءً وفاقًا لولا ما حدث من تدخل رأس النفاق عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول الذي ألح على النبي صلَّى الله عليه وسلم في أن يهبهم له ويعفو عنهم؛ فوافق الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن أمرهم بالخروج؛ فخرجوا إلى الشام؛ وهلكوا هناك، بينما أدى بنا التخاذل إلى الصمت، بل والمشاركة من البعض بالموافقة وغض الطرف من أجل إسقاط الحكومة الفلسطينية الإسلامية غير المرغوب فيها من هذا البعض.

فأين تحرك المسلمين من هذه المأساة الدامية؟!

إن الإسلام يفرض علينا أن نهب لنصرة إخواننا ضد عدوان غاصب مدمر، يستقوى بأعداء آخرين أشد بطشاً، يمددونه بالسلاح والأموال والتأييد [وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا] {النساء:٧٥}

كيف لا نتحرك لوقف العدوان على إخواننا، ونحن نرى القنابل العنقودية وغيرها تدك بيوت الأبرياء العزل، فتحيلها حُطاماً، وتمزق أجسادهم، قد يتكاسل البعض أو يجبن،

ثم يعتذر بأن قوة اليهود طاغية وقوة المسلمين ضعيفة، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم هاجم اليهود وحاصرهم وأجلاهم بعدما كاد يقتلهم ويفنيهم, وقد كانوا في غاية القوة حتى أنهم قالوا له: "يَا مُحَمَّدُ لَا يَغُرَّنَّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ(يقصدون في بدر) كَانُوا أَغْمَارًا لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ، إِنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ، وَأَنَّكَ لَمْ تَلْقَ مِثْلَنَا". لقد جمع صلى الله عليه وسلم الصحابة بعدما بلغه غدر بني قينقاع، وجهَّز جيشًا وانتقل سريعًا إلى حصونهم ، وحاصر صلى الله عليه وسلم الحصون وفي داخلها بنو قينقاع وأصرَّ صلَّى الله عليه وسلم على استكمال الحصار حتى ينزل اليهود على أمره صلى الله عليه وسلم.

وقد حرَّك الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الجيش بكاملة من أجل أن امرأة واحدة كُشفت عورتها، وما يؤلمني كثيرًا ليس فقط ما أرى من كشف عورات المسلمات في بقاع الأرض، ولكن أن تُنتَهَك الحرماتُ إلى درجة القتل، وإلى درجة الاعتداء على المرأة المسلمة، وإلى أمور يستحي الإنسان من ذكرها، يحدث هذا كله وجيوش المسلمين تغط في نومها.

ونلاحظ في موقف النبي صلى الله عليه وسلم مدى عزة وكرامة الدولة الإسلامية، فقد حدث نوع من الامتهان لهذه الكرامة بهذه العملية الفاجرة من اليهود؛ فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم الأمر بمنتهى الجدّية، وانتقل بجيشه إلى حصار بني قينقاع مع احتمال إسالة دماء كثيرة، نتيجة القتال مع بني قينقاع وهم من أصحاب السلاح والقلاع والحصون والبأس الشديد في الحرب، وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن كل هذا-رغم قيمته- ثمن بسيط للغاية في مقابل حفظ كرامة الدولة الإسلامية.

أما في وقتنا الحاضر فما أكثر أبناء سلول الذين يضعون أيديهم في أيدي اليهود، ويريدون منع المسلمين من الثأر والقصاص! فهل نستجيب لهم؟ وهل قد ماتت النخوة فينا؟!!

==============

بعض خصائص الفنون الإسلامية

هيام السيد

الفرق بين فن وفن هو فرق الانتماء والتعبير عن حضارات مختلفة ..فالفن الروماني مثلاً به كل سمات الحضارة الرومانية التي تعتبر حضارة "الساعد" أو القوة الجسدية في المقام الأول.. وفي الفن الإغريقي نلمح الفكر الفلسفي الذي هو عصب تلك الحضارة.. وكذلك الفن الإسلامي يعد من أنقى وأدق صور التعبير عن الحضارة الإسلامية.. وكونه المعبر عن هذه الحضارة هو ما يعطيه هذه الصفة.. صفة "الإسلامية".

فالفن الإسلامي في مصر أو الهند أو العراق هو في النهاية "فن إسلامي" حتى وإن كان الفنان في بعض الأحيان غير مسلم.. لأنه بالإضافة إلى تعبيره عن ذاته وعن بيئته – وهذا ضروري وموجود– فإنه يعبر عن الأصيل والثابت والهام في الحضارة التي ينتمي إليها ..بصرف النظر عن انتمائه العرقي أو الديني أو الجنسي..

وفيما يلي نستعرض بعض أهم الخصائص التي تميز بها هذا الفن الأصيل.

التجريد والموسيقية

وهما من أبرز صفات الفن الإسلامي فالقيمة الجوهرية الكامنة في الفن الإسلامي هي إيقاعه وتجريده وما يصاحب ذلك من إحساس موسيقي رائع لا يجاريه فيه أي فن آخر، ولا شك أن هذا الاتجاه مرده إلى التصور الإسلامي للعالم والإنسان والله ومن أجل ذلك لم تكن وظيفة الفن الإسلامي نقل المرئي بل إظهار ما هو غير مرئي، ومحاولة الإحساس بالقوانين الرياضية التي تحكم هذا الوجود. وقد وصلت قمة الإيقاع الموسيقي في الفنون الإسلامية ذروتها في العمارة الأندلسية المغربية حيث تتجاوب أقواس العقود مع سائر العناصر المعمارية، وأحواض المياه والأشجار والمناظر التي تحيط بالمكان حيث يصبح المبنى وكأنه نبت من الأرض كما ينبت الشجر والنخيل.

كراهية تصوير الكائنات الحية

شاع رسم وتصوير الكائنات الحية في المنطقة العربية قبل الإسلام، ولكنه لم يهتم قط بالمحاكاة الحركية لهذه الكائنات، كما نرى في الفن الإغريقي والفنون التي سارت على هديه.وبالرغم من أن القرآن الكريم لم يرد فيه نص صريح يمنع ممارسة تصوير الكائنات الحية إلا أن البعض يجدون أن رسم الكائنات غير جائز.

ولقد جاء في القرآن الكريم في سورة المائدة – آية ٩٠- "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " صدق الله العظيم. وهذه الآية الكريمة تعني أن الدين يحرم اتخاذ التماثيل والصور أنصابًا تعبد من دون الله، والحقيقة أن الكثير من المفسرين استقروا على أن الإسلام ليس ضد الصورة ولكنه ضد الوثن ويقول الشيخ محمد عبده في هذا الصدد: "وبالجملة يغلب على ظني أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم بعد التحقق أنه لا خطر منه على الدين لا من جهة العقيدة ولا من جهة العمل".

وعلى ذلك فالعقيدة الإسلامية لم تحرم عمل الصور إذا كان الغرض منها الزينة المباحة أو إقرار حقيقة علمية أو شرعية، ويؤكد ذلك ما تركه المسلمون منذ فجر الإسلام إلى الآن من آثار تزخر برسوم الكائنات الحية التي بعدت عن المحاكاة بعدًا واضحًا.

مخالفة الطبيعة

ومخالفة الطبيعة تأكيد لاتجاه الفكر الإسلامي، والفنان المسلم يواجه الطبيعة لكي يتناول عناصرها ويفكها إلى عناصر أولية ويعيد تركيبها من جديد في صياغة عذبة طروب.

وهو لا يفكر في محاكاة الطبيعة لأن هذا هدف لا يسعى إليه ولا يعنيه. ويجمع اليوم الكثير من النقاد على أن الفن يبدأ من حيث يأخذ الفنان في الانصراف عن محاكاة الطبيعة ويفرض عليها وزنا وإيقاعًا من عنده.

تحويل الخسيس إلى نفيس

من المسلمات في العقيدة الإسلامية العزوف عن الإسراف في بهرج الحياة باعتبار ذلك عرضا زائلا وما عند الله خير وأبقى، وإلى جانب ذلك فقد وصل ازدهار الحضارة الإسلامية في كثير من العصور إلى درجة عظيمة كما وصل الثراء إلى حد يفوق كل تصور، وكان في استطاعة المسلمين لو أرادوا أن يزينوا الأجزاء المهمة في المساجد بالأحجار نصف الكريمة واستعمال الذهب والفضة في الحياة اليومية، وهنا نجد ظاهرة إجماعية اقتصادية تحتاج إلى حل يحقق المواءمة والتوافق بين روح

العقيدة وسلوك السلف الصالح، بين إمكانيات المجتمع وقدراته الاقتصادية العالية، وهكذا كان على الفنان أن يحقق هذه المواءمة، وأن يبتكر أسلوبا جديدا لحل هذه المعادلة الصعبة، وقد نجح الفنان المسلم في تحقيق هذه الغاية بابتكار الخزف ذي البريق المعدني (وهو نوع من الخزف لم يُعرف إلا في الفن الإسلامي في ذلك الوقت، ويتيح الحصول على أوانٍ خزفية تصلح بديلا لأواني الذهب والفضة) ويذخر المتحف الإسلامي بمصر بالكثير من نماذج ذلك الخزف ذي البريق المعدني، والذي يعتبر من أرقى أنواع الخزف في العالم، ومن الحلول الابتكارية التي كان للفنان المسلم الفضل في تحقيقها المواءمة بين استيفاء المسجد للعظمة والفخامة، وهو ما تتيحه الثروة المتزايدة في المجتمع وبين ما يتطلبه الفكر الإسلامي في الالتزام بأسلوب السلف الصالح في الحياة البسيطة التي تقوم على صدق الإنسان مع ربه.

فاستطاع الفنان المسلم باستعمال أرخص الخامات إطلاقا كالطين والخشب أن يصنع محاريب المساجد من الخزف أو الخشب أو الجص بعد أن أثراها بالزخرفة والنقش، مما جعل هذه المحاريب قمة في الجمال والجلال. ومن أمثلة المحاريب الإسلامية الرائعة محراب السيدة رقية بالمتحف المصري الإسلامي (العصر الفاطمي – القرن الثاني عشر).

وقد خلَّفت الحضارة الإسلامية نماذج عظيمة القيمة من التحف المعدنية والأثاث وبخاصة من البرونز المكفت والمشغول بالزخارف الدقيقة التي تبلغ حد الإعجاز وقيمة هذه التحف لا تعود إلى الخامات التي صنعت منها ولكن مردها إلى قدرات الفنان في الإنجاز ودقته البالغة في التنفيذ

=============

#متحف الفن الإسلامي يدافع عن الحضارة الإسلامية

أخبار أخرى

استطلاع: اغلبية تطالب بانسحاب امريكي من العراق

٣٣ حزبا مغربيا تتنافس في الانتخابات البرلمانية

إطلاق سراح ١٦ سعوديا من معتقل جوانتنامو

إبراهيم الجارحي

بي بي سي ارابيك دوتكوم – القاهرة

مخطوطة الأعشاب الطبية

في عصر أحد أيام عام ١٨٨١ جلس الخديوي إسماعيل إلى مجموعة من أصدقائه، ودار الحوار حول ضرورة إيجاد مكان خاص يضم بقايا العمائر الإسلامية، لحفظها وعرضها على الناس، وتحققت هذه الفكرة في عام ١٨٩٦، في عهد ابنه الخديوي توفيق.

وانتقل المتحف إلى المبنى الذي صممه وبناه علي باشا مبارك عام ١٩٠٣، تحت إسم "دار الآثار العربية"، ومع حلول عام ١٩٥٢ وجد أن المبنى يضم العديد من التحف التي تنتمي إلى دول إسلامية غير عربية، مثل تركيا وإيران وأوزبكستان وأفغانستان، فكان لا بد من إيجاد تسمية أكثر شمولية، وكان الإسم الجديد هو "متحف الفن الإسلامي".

مجسم من النحاس للقبة السماوية موزعة عليها مواقع الأفلاك

واليوم تغطي مبنى المتحف الستائر الخضراء من كل جانب، إيذانا بتطويره قبل احتفاله بمرور مائة عام على إنشائه.

يقول الدكتور رفعت عبد العظيم محمود، مدير متحف الفن الإسلامي: "وصل عدد التحف الموجودة بالمتحف اليوم إلى ١٠٢ ألف تحفة، لكنها جميعا قد تم تجميعها في صناديق في يوليو الماضي، للبدء في تطوي المتحف بالكامل، وإعداده للاحتفال بالعيد المئوي لإنشائه"

ويضيف الدكتور رفعت: "متحف الفن الإسلامي هو كنز الحضارة الإسلامية، وأكبر متحف للفن الإسلامي في العالم، لذلك فقد أتى تطويره بشكل يخدم الهدف الأساسي من إنشائه، خاصة في الفترة الحالية التي تواجه فيها الحضارة الإسلامية اتهامات بالتخلف ورعاية الإرهاب"

صورة للكسوف الشمسي

ويضم المتحف العديد من المخطوطات التي تعنى بعلوم كالطب والكيمياء والهندسة والفلك، بالإضافة إلى مئات الأدوات الجراحية والفلكية المعقدة.

"عندما تكلم العلم بالعربية"

وقد قام متحف الفن الإسلامي بتجميع كل هذه الآثار العلمية في ركن خاص يحمل عنوان، "عندما تكلم العلم بالعربية"، ويضم أجزاء الأسطرلاب ومجسمات للكرة الأرضية ورسوم لتشريح الجسم البشري، ورسوم أخرى لخرائط المجموعة الشمسية.

أدوات فلكية وخريطة لبرج الثور النجمي

يقول الدكتور رفعت: "هذا المتحف يدافع عن الحضارة الإسلامية في صورة أثر مادي ملموس لا يقبل الشك كالأدوات العلمية والعملية والمخطوطات، وهي إشارة للفترة التي كانت الحضارة الإسلامية هي التي تصنع الحضارة الإنسانية، وهو ما يدحض الاتهامات بأن الإسلام معاد للعلم والحضارة بطبيعته"

ويسعى المتحف إلى تطوير أساليب العرض لتناسب تقنيات العرض المتحفي الحديثة التي تضمن تقديم المعلومات الصحيحة التي يتأصل من خلالها الموروث الثقافي والحضاري لدى الزائر.

تطوير المتحف

تبدأ عملية التطوير بتحسين الإضاءة على التحف حفاظا على التحف العضوية التي قد تتلف إذا ما تعرضت لإضاءة غير مناسبة، كما سيتضمن التطوير معالجة التحف بأسلوب حديث يضمن حمايتها من العوامل الجوية والبيئية التي تغيرت بسبب الزيادة السكانية الكبيرة، وازدحام المنطقة المحيطة بالمتحف الذي يقع في قلب القاهرة الإسلامية.

وتشترك في عملية تطوير المتحف عدة جهات من بينها جامعة أوكسفورد والمركز الثقافي الفرنسي، إضافة إلى منظمة الأمم المتحدة للعلوم والفنون والثقافة (يونسكو)

مقتنيات المتحف

وعن مقتنيات المتحف يقول الدكتور رفعت عبد العظيم: "لدينا أنواع من الخزف الذي لم يتمكن أحد من التوصل إلى سر صناعته، وهو الخزف المعدني اللامع، كما أن لدينا تحف تمثل الحضارة الإسلامية منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان حتى عهد السلطان عبد الحميد"

جزء من آلة الأسطرلاب

يضم المتحف بين جنباته تحفا نادرة من بينها ٨٩ مشكاة لا مثيل لها في العالم، وإبريق مروان بن محمد المصمم بشكل هندسي نادر، إضافة إلى سيوف كل من السلطان سليمان القانوني والسلطان محمد الفاتح وقنصوة الغوري، ويوجد بالمتحف أيضا تابوت الإمام الشافعي ومحاريب مسجدي السيدة رقية والسيدة نفيسة والبورتريه الخاص بالشاه عباس الصفوي، كما يضم المتحف مجموعة هائلة من العملات من بينها دينار مروان بن محمد، الخليفة الأموي الذي كان أول من عرب العملة.

ومن المخطوطات النادرة يضم المتحف كتاب التشريح الذي وضعه المنصوري، ويضم فصلا كاملا لابن سينا وهو يلقي بتعاليمه على تلاميذه، إضافة إلى رسالة في الأعشاب الطبية.

يحميه الله

تم بناء المتحف على شكل ثلاثة أجنحة طويلة، أوسط وشرقي وغربي، وهذه الطريقة في البناء تتيح للمشاهد رؤية واسعة لكل القاعات في نفس الوقت، وتوكد عاملات النظافة بالمتحف أن رعاية الله تحفظ المكان من السرقة والتخريب، فتقول سعدية الإمام إحدى عاملات النظافة: "قطع كثيرة كتب عليها (فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين) وذلك يعني أن الله يحفظ المكان، ونحن كعاملات نظافة نشارك في الحفاظ على التحف، ونمنع الرواد من لمسها، فهذه التحف تستحق الحماية لأنها تحمل كلام الله"

ونظرا للوفرة الفائقة في عدد التحف التي يمتلكها، يقوم متحف الفن الإسلامي بعرض مقتنياته في متاحف مصر، مثل متحف الفنون في مكتبة الإسكندرية، كما يقوم المتحف أيضا بعرض هذه المقتنيات في متاحف العالم، مثل الجناح الخاص الذي ينتوي متحف اللوفر إقامته احتفاءا بالحضارة الإسلامية، وهو ما عده الرئيس شيراك في خطاب له ألقاه في أكتوبر/ تشرين الأول "تكريسا للاعتراف بالآخر الذي يعد احترام ثقافته سبيلا لمستقبل أفضل يسوده السلام".

==============

#التحولات الأساسية للحضارة الإسلامية

المقصد الأول: مثال قرآني لمفاهيم الحضارة

الله سبحانه وتعالى جعل في سيرة أحد الصالحين وهو (ذو القرنين) مثالا رائعا للسلوك الحضاري من جهة، ومفاهيم حضارية من جهة أخرى، وأعطانا في سيرته دروساَ وعبرة للحكام والناس عامة، ولفت نظر عباده إلى ركائز الحضارة الربانية التي تقوم على شرع الله وتحكيمه بين العباد، ومن هذه الركائز (الايمان والعدل والعمل الصالح).

تتميز الحضارة الربانية بتكاملها وتوازنها وتناسقها مع الحاجات الجسمية والعقلية والروحية، وتتطلع إلى التنافس الشريف واسعاد البشرية، وتكوين الشخصية الربانية التي تتحمل مسؤليتها الحضارية..

إنّ سيرة ذي القرنين في القرآن في قيادته الحضارية للبشرية وفي زمانه، تعطينا صورة مشرقة للانسان القوي المؤمن العالم، الذي يسخر كل امكانات دولته وجنوده واتباعه وعلومه ووسائله واسبابه لتعزيز شرع الله، وتمكين دينه وخدمة الانسانية وإعلاء كلمة الله.

إنّ ذا القرنين ابدع في صناعة الحياة البشرية على أسس عقيدة وأخلاق ربانية، وترك لنا معالم واضحة في التعامل مع نفسية الشعوب وتحريكها بالايمان والعلم والعمل والعدل والاصلاح والتعمير..(١)

[يَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا(٨٣)إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا(٨٤)فَأَتْبَعَ سَبَبًا](٢).

المقصد الثاني: التحولات الأساسية للحضارة الإسلامية

تأثير الحضارة الإسلامية كان في أعماق المجتمع وتركيبه العقلي والفكري، وبهذه التحولات شكلت المناخ الملائم للفعل الحضاري:

١- النقلة التصورية الاعتقادية: وهي النقلة المهمة، لأنها بمثابة القاعدة التي بنيت عليها التحولات الاخرى، حيث حررت العقل وكرمته، وحولت التوجه الانساني من أرباب متفرقون إلى رب واحد فرد صمد، ومن عشق الحجارة والاصنام إلى محبة الحق الذي لا تراه العيون ولا تلمسه الأيادي: [ألله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور...](٣) وقال تعالى: [ويضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم..](٤).

٢- النقلة المعرفية: وهو العمل والتأثير والتغيير في صميم العقل من أجل صياغته، بحيث يتعامل مع الكون والحياة والوجود بشكل صحيح [إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق، إقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علّم الانسان ما لم يعلم](٥)، [خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون](٦).

وينزل القرآن لحظة بلحظة ويوما بعد يوم يحرص على تربية المسلمين وإعدادهم فكريا وتصوريا "إقرأ، فكر، تعقل، تدبر، إبصر...".

٣- النقلة المنهجية: وهي مرتبط بالنقلتين السابقتين، يعلم الانسان أنّ الحياة لا تسير بدون منهج، التي أتاح للعقل المسلم آفاقا واسعا، أن يتشكل وفق مقولاتها ومعطياتها، وهذا يكون من خلال:

أ- الرؤية السببية للظواهر والأشياء من أجل الوصول إلى معجزة الخلق، وأن يجتاز بالعقل الانساني من النظرة التبسيطية المفككة إلى القدرة على الجمع والمقارنة والقياس..

ب- القانونية التاريخية، باعتبار أن التاريخ البشري لا يتحرك فوضى وعلى غير هدى، وانما تحكمه سنن وقوانين، وإنّ الوقائع والحضارات البشرية لم تخلق صدفة وإنما من خلال جملة من الشروط [قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم...](٧). [سنة من أرسلنا قبلك من رسلنا ولن تجد لسنتنا تبديلا..](٨).

ج- منهج البحث التجريبي: الكسب المعرفي للقيم الذي أحرزه العقل المسلم خصوصا والعقل البشري عموما، يعتبر بالضرورة أهمية لا يستغنى عنه، وهذا ما أكده كتاب الله .. لذلك أعطى للحواس مسؤوليتها الكبيرة، عن كل خطوة يخطوها الانسان المسلم في مجال البحث والنظر والتأمل..(٩).

[أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ..](١٠)، [قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق](١١).

خصائص الحضارة الإسلامية

المقصد الأول: خصائص الحضارة الإسلامية

للحضارة الإسلامية خصائص ومميزات، لا تجدها في الحضارات أخرى، وقد أشرنا إلى بعض منها ومن أبرز هذه الخصائص والمميزات:

١- الربانية: فالحضارة الإسلامية معجونة بالجانب الالهي، امتزجت فكرة الايمان عامة والتوحيد خاصة بالحضارة الإسلامية، جرت فيها مجرى الدم في شعرها ونثرها وأدبها وعلومها وفلسفتها وكافة وجهات الحضارة، وإن كان بها بعض الملاحدة وغير المسلمين فانهم يعتبرون شذوذا.

٢- الاخلاقية: للعنصر الاخلاقي مكان رحب، وأثر عميق في الحضارة العربية الإسلامية، فالاسلام عمق معاني الأخلاق وهذب نفوس حامليها، وربط بين الأخلاق والأهداف السامية في الحياة، وربطها بفكرة الالتزام والجزاء وثواب الدنيا والآخرة وحرر الأخلاق من غلو العادات والتقاليد الجاهلية، "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"(١٢)، فصل ووضح الآداب كلها، المعلم والمتعلم، القاريء والمستمع والباحث والناظر، بل آداب تعامل أفراد المجتمع مع ما حولها حتى آداب المائدة إلى أدب بناء الدولة..

كما أنّ هذه الحضارة لا تؤمن ولا تعترف بالقاعدة الشريرة: "الغاية تبرر الوسيلة"، بل يؤمن بالغايات السامية الجيدة، وتؤمن بالوسائل النبيلة النظيفة لبلوغ المرآم والغايات "إنّ الله طيب لا يقبل إلا طيبا"(١٣).

٣- الانسانية: فيها احترام لمشاعر الانسان ورعاية فطرتها وكرامتها وحقوق الانسان، بل اعتبر أنّ الانسان فوق كل شيء إذا اعرف قدر نفسه، فهو مخلوق مكرم [ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا](١٤).

إنّ الحضارة الإسلامية تقوم بتكريم الانسان من حيث هو الانسان، بغض النظر إلى لونه وجنسه وانتمائاته العرقية أو طبقته بل بغض النظر عن اعتقاده الديني فهو مكرم بإنسانيته قبل ديانته، وأحسن مثال في هذا المجال ما رواه البخاري عن النبي (صلى الله عليه وسلم): ((أنه قد مرت جنازة ميت وهو جالس، فقام لها، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال (صلى الله عليه وسلم): أليست نفساً؟ قالوا بلى، فقال (صلى الله عليه وسلم): ولكل نفس في الاسلام حرمة ومكان..).

٤- العالمية: وقد عملت الحضارة الإسلامية على التقارب بين بني الانسان، ولهذا اشترك في الحضارة الإسلامية عرب وعجم، بيض وسود، أغنياء وفقراء، ملوك وسوقه، مسلمون ونصارى ومجوس ويهود..

الحضارة الإسلامية وإنْ كتبت بالعربية ولكنها إنطلقت من الاسلام، فالاسلام عالمي الرسالة من أول يوم [ياأيها الناس..](١٥)، يدعوا إلى [رب العالمين..](١٦).

٥- التسامح: فما وجد الاختلاف، قامت بمشيئة الله وبحكمته [لو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم](١٧).

وهذا التسامح وفر فرصة للأديان والأجناس يعيشون تحت رعايته، مستمتعين بحقوقهم وكرامتهم غير خائفين في عقيدتهم وعباداتهم وشعائرهم، لهم ذمة الله ورسوله وذمة المؤمنين.

ولم يفرض الاسلام عليهم أحكامه وخاصة فيما يتعلق بالعقيدة أو عاداتهم الخاصة، مثل الزواج والطلاق .. شعار المسلمين (اتركوهم وما يدينون..).

الاسلام لا يطبق على غير المسلم، فيما يعتقد أنه حلال أو حرام، أي لم يكن واجبا في دينه، فلا يمنع غير المسلم من أكل لحم الخنزير أو شرب الخمر..

٦- التنوع: أنّ الحضارة الإسلامية ليست مكونة من مجرد ثقافة دينية لاهوتية، بل واسعة ومتسعة باتساع الانسانية وأفكارها، فيها الدين بفروعه المتشعبة واللغة والأدب والفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضية والعلوم الانسانية والفنون المختلفة..

فيها مدارس الرأي ومدرسة الأثر، وأصول الشافعي، وأدب الجاحظ، ومعجم الخليل ونحو سيبوية وبلاغة عبدالقادر الجرجاني وطب ابن سينا وشعر المتنبي ومقامات الحريري وبصيريات ابن الهيثم ورياضيات البيروني وتصوف الغزالي وفلسفة ابن رشد وتحليل ابن خلدون وخط ابن مقلة وألحان الموصلي، فيها علماء من عراق ومصر وأندلس وايران وخوارزم والهند وتركيا، فيها سلفية وصوفية، فيها ظاهرية ابن حزم ومقاصدية الشاطبي وعقلانية الفلاسفة والتزام الفقهاء فيها إجتهاد المجتهدين وتزمت المقلدين..

٧- الوسطية: من أهم مميزات حضارتنا الوسطية والتوازن بين الافراط والتفريط في الأفكار والمعتقدات والالتزامات، وإن كان بها المفرطين والمتشددين ولكن الصيغة

العامة، هي الوسطية والمرونة والتوازنية المأخوذة من الاسلام الحنيف [وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس..](١٨).

الموازنة والوسطية بين العقل والوحي وبين المادة والروح وبين الحقوق والواجبات وبين الفردية والجماعية وبين النص والاجتهاد، وبين المثالية والواقعية وبين الاستلهام من الماضي والتطلع إلى المستقبل..

٨- التكامل: الحضارة الإسلامية حضارة متكاملة فيما بين بعضها البعض، الجانب الثقافي تخدم الجانب الفكري والعلمي والتوجيهات الدينية والتربوية، تخدم الجوانب الأخلاقية والسلوكية، وكلها تصب في خدمة الغاية الأخيرة وهي الانسانية..

ومثل ذلك أن الحضارة الإسلامية لا تدعي أنها أنشأت كل شيء من عدم، بل بدأت رحلة الحضارة الإسلامية مكملة للحضارات الأخرى، مصممة للمسيرة التي بداخلها بعض التحريف أو الانحراف..

ومقتضى هذا التكامل الذي اتصفت به الحضارة الإسلامية، أنها لا تجد مانعا شرعيا يمنعها من اقتباس الحكمة، والتماس العلم النافع، والعمل الصالح من غيرها، ولو كان خصومها، كما في الحديث الشريف ما رواه الترمذي وابن ماجة "الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق الناس بها"(١٩).

المقصد الثاني: تراجع وتدهور الحضارة الإسلامية

هناك أسباب عديدة مباشرة وغير مباشرة أثرت في تراجع أو تدهور الحضارة الإسلامية، وهذا مما أدى إلى فقدان قيادتها للبشرية مع أنه يخوض مدافعته مع الحضارة الغربية وأهم هذه الاسباب:

١- انحسار الهوى وتضاؤل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢- غياب مفهوم العقيدة الصحيح في التوحيد وتسلل الشرك والخرافيات إلى عقيدة المسلمين.

٣- الاستبداد السياسي من قبل حكام المسلمين وامرائم.

٤- الفصام بين القيادة الفكرية والقيادة السياسية.

٥- طغيان السلطة القبلية والعرقية والاقليمية على مفهوم الأمة الإسلامية.

٦- طغت على حياة المسلمين عامة والأمراء خاصة حياة الترف والتكاثر.

٧- التحلل الخلقي وتراجع الأداء السلوكي للمسلمين.

٨- وجود فساد اداري واضح وعدم الظبط.

٩- التعقب الديني والتمزق المذهبي.

١٠- الغلو والتشدد في الدين عند البعض والبساطة والتواكل عند الآخرين.

١١- انتشار أفكار الصوفية المنحرفة وشطحاتهم وخلق البدع والخرافات.

١٢- غياب الاجتهاد والابتكارات وسيادة التقليد والاتباع والمكاة.

١٣-غياب العلم والتعليم وانتشار الجهل والكسل.

١٤- وهناك عوامل خارجية ومؤامرات يهودية وحملات صليبية وحركات لادينية في بلاد المسلمين(٢٠).

===============

الرياضيات الإسلامية والفلك بين الاهتمام العالمي والإهمال العربي

د. محمود السيد الدغيم

باحث أكاديمي سوري في كلية الدراسات الشرقية والإفريقية

جامعة لندن SOAS

لعل أغرب ما في العرب المعاصرين هو كثرة الكلام الشفوي، وتجنب التطبيق العملي، ومنذ قرون والعرب مستقيلون تماما، ومتكلون على الله الذي يرزقهم دون أن يبذلوا جهداً مثمرا، ولعل بؤساء الأمة هم العلماء والمثقفون والباحثون عن الحقائق، والغريبُ، الغريب !! هو إهمال العرب لتراثهم، وجهلهم به، واهتمام الآخرين بهذا التراث.

وسبب تناولي لهذا الأمر هو اطلاعي منذ ربع قرن على مسيرة تاريخ العلوم، وعندما أُدقِّقُ ببحث باحثٍ عن العلوم باللغة العربية أجده قد تُرجم من لغةٍ ما من اللغات الأجنبية، ولم يتورع المترجم عن نسبة البحث لنفسه مُتكلاً على جهل أبناء الأمة باللغات الأجنبية، وكسلهم عن البحث المقارن، وفي بعض الأحيان أجد الباحث قد اعتمد مصادر ومراجع من لغة يجهلها جهلاً تاماً، وجلّ اعتماده على فهارس الذين بحثوا في تلك اللغة التي يجهلها، ولكنه ينسب لنفسه جهود الآخرين.

والإهمال العربي العتيد واسع يشمل بلداننا من الخليج إلى المحيط إذ أن لدينا اتحادات كتاب، واتحادات صحفيين، وزارات ثقافة، ودوائر ودور ثقافة ومراكز ثقافية، ووزارات إعلام، وتربية وتعليم عالي وواطي، ومراكز بحوث علمية حكومية وخاصة، وهنالك مؤسسات داخل البلاد العربية وخارجها، ولها مجالس خبراء، ومافيات وميليشيات شعارها الدائم: نفعني لأنفعك، وذلك جرياً على قول المثل الشعبي: " حُكَّ لي لأحكَّ لك" والناظر في ميزانيات هذه المؤسسات والوزارات يجدها بمئات الملايين من الدولارات، وعندما يتصفح عناوين الكتب المنشورة الصادرة عنها يصاب بالغثيان والقرف لضحالتها، وقلة فائدتها، وعدم توفر أبسط شروط البحث العلمي فيها.

ولا أبالغ إذا قلت: إن مركزا أجنبيا واحدا يتفوق على كل المؤسسات والوزارات والجامعات العربية متحدة، ومثال على ما أقول معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، في إطار جامعة فرانكفورت في جمهورية ألمانيا الإتحادية الذي يشرف عليه البروفسور التركي الأصل فؤاد سزكين الذي أصدر أكثر من ألف مجلد تخصُّ العلوم العربية والإسلامية.

مشكلة منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، في إطار جامعة فرانكفورت، أنها محدوة الطبعات حيث يطبع من الكتاب عددا قليلاً جداً أقله خمسون نسخة، ومتوسطها مائة نسخة، وأكثرها خمسمائة، وبذلك تبقى هذه المطبوعات متداولة بين خاصة الخاصة، وأسعارها مرتفعة تعجز عن دفعها معظم الجامعات العربية، وبذلك لا يتمكن من شرائها إلا الذين لا يقرؤون، ورغم هذه المشكلات، فإن هذا المعهد قد أتاح لبعض المؤسسات الثرية مالياً، والفقيرة ثقافياً اقتناء هذه المجموعات الكثيرة من الكتب الخاصة بالعلوم العربية والإسلامية بعدد كبير من اللغات الإنسانية الحية من عربية وفارسية وعثمانية تركية، وفرنسية وإنكليزية وألمانية وإيطالية ولاتينية وإسبانية.

من خلال متابعتي لما يصدره معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، في إطار جامعة فرانكفورت من كتب لاحظت توزع أكثرية الكتب على ثلاثة محاور:

فكان أقدمها وأولها: طبع المخطوطات العلمية بالتصوير طبق الأصل عن المخطوط الأصلي مع مقدمة وفهارس مقتضبة، ومراعاة النواحي الفنية بحيث يشبه الكتابُ

المطبوعُ المخطوطةَ الأمّ من حيث الورق، وتجليد الكتب تجليدا تقليدياً، ونشرت تلك السلسة تحت عنوان: عيون التراث.

وجاء المحور الثاني على شكل تجميع لدراسات خاصة بعالم من العلماء الأعلام الذين اهتموا بالعلوم العربية والإسلامية، فتم تجميع مقالاتهم وبحوثهم في مجلد خاص، أو عدة مجلدات.

وجاء المحور الثالث على شكل سلاسل عديدة تختص كل سلسلة منها بعلم من العلوم، وتنشر ما كتب فيه من مقالات وبحوث، وما نُشر من كتبه، وقد تجاوزت كتب بعض هذه السلاسل المائة مجلد، وقد اكتمل بعضها، والبعض الآخر ما زال مستمراً، وتجاوز مجموعها الألف مجلد.

سوف استعرض في هذه العُجالة الموجزة بعضا مما نشر في موضوع الرياضيات والفلك، وسبب ذلك بعدما لاحظت أن هنالك عدداً من الدكاترة يسرقون منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، في إطار جامعة فرانكفورت، ويدعون أنهم يؤلفون، والغريب أنهم يترجمون من لغات يجهلونها، ويعتمدون على مترجمين مجهولين يبيعون بضاعتهم لمن يدفع لهم قوت يومهم، ثم تتصدر أسماء أصحاب المال مؤلفات ضخمة في الرياضيات وغيرها من العلوم لأشباه الكُتاب المتخلفين، وأنصاف المثقفين الذين مات ضميرهم، وقتلتهم الدعايات الفارغة، وثناء الجهلة على أعمالهم المسروقة.

نشر معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، في إطار جامعة فرانكفورت في صيف سنة ١٩٩٩م مجلداً ضخما يعرف بمنشورات المعهد من سنة ١٩٨٤ حتى سنة ١٩٩٩م، وشمل العلوم الدينية من أصول فقه وتصوف، وتاريخ، وشعر وفلسفة، وعلوم لغة، وموسوعات وفهرسة، ورياضيات وفلك، وموسيقا وطب وصيدلة وبيزرة وبيطرة، وفيزياء وكيمياء، وفنون وجغرافيا وخرائط وبلدانيات ورحلات، ثم أصدر المعهد فهرسا آخر، وتابع نشر الكتب حتى الآن.

الرياضيات الإسلامية والفلك الإسلامي

سلسلة عيون التراث: من المخطوطات التي نشرها معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، طبق الأصل مخطوطة كتاب في حل شكوك كتاب أقليدس في الأصول

ومعانيه، تأليف أبي علي الحسن بن الحسن، المشهور بابن الهيثم، المولود نحو سنة ٣٥٤ هـ/ ٩٦٥م، والمتوفى نحو سنة ٤٣٢ هـ/ ١٠٤١م، وتم نشر المخطوط سنة ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م، وأخذ رقم المجلد ١١ في السلسة: ج: عيون التراث، والكتاب المنشورة تصويراً عن مخطوطة مكتبة جامعة إسطنبول، القسم العربي رقم: ٨٠٠، وهي منسوخة في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وأكمل بقسم من مخطوطة مكتبة جامعة لايدن، رقم: شرقي ٥١٦.

ويعتبر هذا الكتاب من أضخم كتب ابن الهيثم المعروفة في علم الرياضيات، ولهذا الكتاب نسخة مخطوطة في مكتبة خراجي أوغلى في بورصة تحت الرقم: ١١٧٢، وتمتد من الورقة ٨٣ حتى الورقة ٢٢٦، وهي منسوخة سنة ٤٧٧ هـ/١٠٨٤م، وهنالك نسخة أخرى في مكتبة ملي ملك في طهران رقم: ٣٤٣٣، وتقع في ٢٠٠ ورقة، وتوجد نسخ في لندن وقازان وبيشاور.

ومن المخطوطات المصورة التي نشرها معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، مخطوطة كتاب الجبر والمقابلة، تأليف أبي كامل، شجاع بن أسلم، الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وقد أخذت النسخة المطبوعة رقم المجلد: ٢٤ من سلسلة عيون التراث، وطبعت بالتصوير عن مخطوطة مكتبة قره مصطفى باشا، رقم ٣٧٩، والمحفوظة في مكتبة السلطان أبا يزيد في إسطنبول. ويقع الكتاب في ثلاثة أجزاء، تتألف من ١١١ ورقة، وقد نسخت سنة ٦٥١ هـ/ ١٢٥٣م، في الجبر والمقابلة، والهندسة، ومعادلات سيالة من الدرجة الأولى والثانية وأنظمتها، وبذلك يمثل مدرسة عربية وإسلامية مبتكرة تفوق ما سبقها في علم الرياضيات بما في ذلك الخوارزمي وديوفانتوس، ولذلك تأثر به من جاء بعده مثل الكرجي (المتوفى بعد سنة ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م في كتابه الفخري الذي تُرجم إلى العبرية واللاتينية والألمانية، واقتبس منه كثيراً ليوناردو فيبوناتشي (١١٧٠-١٢٤٠م) واهتم به الأوربيون في العصر الحديث، ولكن الكتاب لم يحقق ولم ينشر منه باللغة العربية سوى طبعة المعهد المصورة غير المحققة.

المحور الثاني: سلسلة تجميع لدراسات الخاصة بعالم من العلماء الأعلام الذين اهتموا بالعلوم العربية والإسلامية، ونذكر منها سلسة:ب – إعادة طبع فرع

الرياضيات، ومنها مجلدان صدرا عن المعهد سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، وهما يتضمنان دراسات في الرياضيات العربية والإسلامية للمستشرق الألماني فرانتز فوبكه، الذي درس في ألمانيا، وقصد باريس سنة ١٨٥٠م، ومحتويات المجلدين هي إعادة طبع ما نُشِرَ من بحوثه ما بين سنة ١٨٤٢ وسنة ١٨٧٤م، عن الرياضيات العربية والإسلامية، وذلك بعد وفاته سنة ١٨٦٤م، ومما تضمنته دراساته ملاحظات حول نظرية في الحساب لثابت بن قرّة، وملخص كتاب الفخري في الجبر والمقابلة لأبي بكر محمد بن حسن الكرجي، ومقال حول التعبير الجبري عند العرب، وتلخيص لمجموعة من المسائل الهندسية لأبي الوفاء، وترجمة رسالة لأبي الحسن القلصادي، وترجمة قطعة من مخطوطة في المثلثات لأبي جعفر محمد بن الحسين الخازن، ومدخل إلى الحساب الغباري والهوائي، وثلاث رسائل عربية في البركار التام، وغير ذلك من البحوث والترجمات العلمية التي تجاوزت الأربعين عملاً.

وأصدر المعهد سنة ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م في أربع مجلدات أعمال المستشرق الألماني كارل شوي، ضمن سلسلة دراسات في تاريخ الرياضيات والفلك عند العرب والمسلمين، وتتضمن المجلدات إعادة طبع لأبحاث كارل شوي التي نشرت ما بين سنة ١٩١١ وسنة ١٩٢٦م، وقد ولد شوي سنة ١٨٧٧م، ودرس الجغرافيا الرياضية عند العرب والمسلمين، ومات سنة ١٩٢٥م، وكتب دراسات عن الساعات الشمسية عند العرب، ومعرفة أوقات العبادات عند المسلمين، ومقالة للحسن بن الهيثم في استخراج ارتفاع القطب على غاية التحقيق، ومقالة لابن الهيثم في استخراج سمت القبلة، ودراسات لنصوص القانون المسعودي للفلكي محمد بن أحمد أبي الريحان البيروني، وترجمة مقالة لابن الهيثم في ماهية الأثر الذي في وجه القمر من اللغة العربية إلى اللغة الألمانية استناداً على مخطوطة في مكتبة الإسكندرية. وغير ذلك كثير من الترجمات، ونقد أخطاء بعض المستشرقين.

وتمت إعادة طباعة مجموعة المقالات التي جمعتها السيدة دروتيا جيركه من مقالات وترجمات وبحوث المستشرق الألماني آيلهارد فيدمان في تاريخ العلوم العربية والإسلامية المنشورة من سنة ١٩١٢ حتى سنة ١٩٢٧م، وصدرت عن المعهد في ثلاثة مجلدات سنة ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م، وأرفق المجلدان بفهرس تحليلي لمقالات

فيدمان التي نشرت في المجلدات الثلاثة التي نشرها المعهد وعددها ١٥٣ ما بين دراسة وترجمة.

والمقالات الموجودة في المجلدين اللذين نشرا في إرلانجن سنة ١٩٧٠م. ووردت في المجلد الأول ٩ مقالات نشرت ما بين سنة ١٨٧٦ وسنة ١٨٨٢م، وهي في تاريخ العلوم الطبيعية عند العرب، وأولها حول الحجرة المظلمة عند ابن الهيثم، والثانية حول كتاب ميزان الحكمة للخازني، والثالثة حول رسالة ابن الهيثم في الضوء، والرابعة حول القوة المغناطيسية، والخامسة حول المرايا المحرقة عند ابن الهيثم وثابت بن قرة وغيرهما، والسادسة حول بعض مسائل البصريات عند ابن الهيثم إلخ.. وفي سنة ١٩٠٦م يتحدث حياة ونشاط ابن الهيثم في مجالات الرياضة والفيزياء، والميكانيكا، والفلك والفلسفة والطب، ويترجم ترجمة كاملة لما رواه ابن أصيبعة في كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء، كما يترجم رسالة لابن الهيثم في موضع المجرة في السماء، وفي سنة ١٩٠٩م يترجم مقالة ابن الهيثم في المرايا المحرقة في الدائرة، ويصف كتاب تنقيح المناظر لذوي الأبصار والبصائر لابن الهيثم اعتمادا على مخطوطة لايدن المتضمنة شرح كمال الدين الفارسي على المناظر، ويترجم الفصول الأولى من المناظر، وغير ذلك كثير مما يخص العلم والعلماء العرب والمسلمين.

وتضمنت مقالات المجلدين اللذين نشرا سنة ١٩٧٠ في إرلانجن ٧٩ مقالة، فقد وردت في المجلد الأول مقالة من سنة ١٩٠٢ في تاريخ الكيمياء عند العرب، وفي سنة ١٩٠٤ توجد دراسة حول تاريخ العلوم الطبيعية عند العرب والمسلمين، في المغناطسية والظواهر الكهربائية، والمشاهدات البصرية، والمرايا المحرقة عند ابن الهيثم، وفي سنة ١٩٠٩ ينشر قول ابن الهيثم في استخراج مسألة عددية، ويعتمد على مخطوطة في المكتب الهندي في المكتبة البريطانية في لندن، ويبحث في نظرية ابن الهيثم في تعليل قوس قزح في مقالتين سنة ١٩١٠م، ومقالة سنة ١٩١٤م، ويترجم رسالة ابن الهيثم في صورة الكسوف، وقد خصص دراسات للبيروني، والقزويني، وعبد الجبار الخرقي، وقطب الدين الشيرازي، وغيرهم من العلماء.

وتضمنت هذه السلسلة أيضا أبحاث ودراسات المستشرق السويسري هاينرش سوتر الذي ولد سنة ١٨٤٨م، ومات سنة ١٩٢٢م، وبدأ تعلم اللغة العربية عندما بلغ سنّ الأربعين، ثم استمر بالكتابة ثلاثين سنة في تاريخ الرياضيات والفلك عند العرب والمسلمين، ونشرت بحوثه ما بين سنة ١٨٩٢ وسنة ١٩٢٢م، وقد أعاد طباعتها المعهد في مجلدين سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ولهذا المستشرق كتاب بعنوان: الرياضيون والفلكيون العرب وكتبهم، ويتضمن معلومات عن ٥٠٠ عالم مع ذكر أماكن وجود مخطوطات كتبهم وأرقامها المعروفة، وبعد إصداره بسنتين أصدر له ملحقا، ومازالت كتبه مرجعا للدارسين، ومن ضمن أعماله ترجمة رسالة لابن الهيثم في تربيع الدائرة، وقد شر نصها العربي مع الترجمة الألمانية، مع الرسوم الهندسية، ويقع النص العربي في ٧ صفحات، وقد لطش تلك الرسالة أحد الدكاترة العرب، ولم يذكر المترجم الأصلي، وهكذا يفعلون.

المحور الثالث: سلسلة الكتب والدراسات في الرياضيات الإسلامية، والفلك الإسلامي، وتتكون من دراسات، وإعادة طباعة كتب عربية وأجنبية تخص العلوم العربية والإسلامية، ولقد شاهدت مما صدر من هذه السلسلة ١١٣ مجلداً، وكان المجلد الأخير إعادة طباعة طبعة مدريد سنة ١٨٦٧م، وهو القسم الخامس من كتب معرفة الفلك للملك ألفونصو العاشر القشتالي، الذي ولد في قلعة بورغوس الإسبانية سنة ١٢٢١ ومات سنة ١٢٤٨م في إشبيليا، وقد نشر كتبه وعلق على طبعتها الأصلية مانويل ريكو سِنوبَس، ونشرت مجلداتها ما بين سنتي ١٨٦٣ و ١٨٦٧م، وقد طبع المعهد من كل مجلد خمسين نسخة فقط لا غير، والكتب مزدانة بالرسوم، وهي معربة، ومقتبسة من علوم المسلمين التي كانت مزدهرة في ذلك الوقت.

أما المجلد الرقم: ١٠٧ من هذه السلسلة الرياضية فهو كتاب: التذكرة بأصول الحساب والفرائض، تأليف علي بن الخضر بن السن العثماني القرشي، الذي ولد سنة ٤١١ هـ/١٠٢٠م، ولما بلغ السابعة والثلاثين من العمر توفي سنة ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٧م، وكان من العلماء المحدثين الدمشقيين حسبما يذكر ابن عساكر في تاريخه، ومخطوطة الكتاب الأصلية موجودة في مكتبة عارف حكمت في المدينة المنورة تحت الرقم: ٢٥٩، فرائض/١٠، وتقع المخطوطة في ٢٩٨ صفحة، وتاريخ

نسخها يعود إلى سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م، وقد ترجم هذا الكتاب ونشره مع الأصل التصويري أولرش ربشتوك سنة ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠١م، ويتناول الكتاب عرض أصول الحساب، والعمليات الحسابية التي تفيد في الفقه، والفرائض، وأنظمة التقويم المتنوعة.

ويتضمن المجلد الذي يحمل الرقم: ١٠٠ من هذه السلسلة إعادة طباعة كتاب علم الفلك، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى، تأليف كَرلو نَلّينو، وقد صدرت طبعته المصورة في مائة نسخة سنة ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٩م، ويقع في ٣٧٠ صفحة، وهو باللغة العربية، ويتضمن ملخص المحاضرات التي ألقاها المؤلف بالجامعة المصرية، وبجامعة بلرم الإيطالية، وصدرت الطبعة الأولى في روما سنة ١٩١١م.

إن ما أنجزه معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، في إطار جامعة فرانكفورت في جمهورية ألمانيا الإتحادية يوضح لنا مدى اهتمام غير العرب بهذا التراث العربي الإسلامي اليتيم، ونظراً للنهضة التكنولوجية في مجالات النشر الإليكتروني، فإننا نتمنى أن تتولى إحدى المؤسسات المعنية نشر كافة المنشورات التي نشرها المعهد بواسطة الأقراص المدمجة (سي دي) وحتى توفيرها للباحثين عبر شبكة الإنترنت العالمية، ولا سيما أن النشرات التي صدرت عن المعهد محدودة الأعداد مما يجعلها نادرة، وفائدتها العظمى تسهيل إنتاجها إليكترونيا بعدما ما تم جمعها خلال العقود الماضية، وهنالك فائدة أخرى وهي كشف المؤلفين العرب الذين يسطون على هذه الأعمال، ويتظاهرون بالعبقرية الفريدة مستغلين عدم اطلاع الآخر

=============

#دور العقيدة الإسلامية في بناء الحضارة

د. علي محيي الدين القرة داغي

أستاذ ورئيس قسم الفقه والأصول . قطر

تكفل القرآن الكريم والسنة النبوية بشرح العقيدة وما يحتاج إليه المسلم من العلم بعالم الغيب بأدلة وبراهين مقنعة، ثم أمر الإسلام المسلم بأن لا يخوض في عالم ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) بل يشغل عقله وفكره بعالم المادة والطبيعة لإنتاج العمل الصالح وخدمة الإنسان وتعمير الكون في ضوء منهج الصلاح، ولذلك اهتدى

المسلمون إلى المنهج التجريبي الذي أخذه الغرب فيما بعد وبنى عليه حضارته القوية.

لذلك تمتاز العقيدة الإسلامية بهذه المميزات التالية:

١. وضوح الرؤية لكل ما يحتاج إليه الإنسان.

٢. الطمأنينة والسكينة والقناعة من خلال الإيمان بالقضاء والقدر.

٣. فهم الأشياء على حقيقتها.

٤. الصبر والجرأة والشجاعة في مواجهة الشدائد وعدم الانهيار أمام المصائب مهما كانت كبيرة وعدم الطغيان والتجبر والتكبر مهما أقبلت الدنيا على الإنسان كما قال تعالى: (لِكَيْلا تَأْسَوْاْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُواْ بِمَآ آتَاكُمْ) (الحديد ٢٣)، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير إن أصابته سراء فشكر فكان خيرا، وإن أصابته ضراء فصبر فكان خيرا له، وليس ذلك لغير المؤمن).

٥. الإيمان بالمساواة بين البشر وتحقيق العدل والتكافل الاجتماعي، لأن ربهم واحد فهو خلقهم، من أصل واحد، وأوجب عليهم ما يحقق العدل والخير للجميع.

التصور الشامل للكون

الكون مخلوق لله تعالى وبين القرآن بعض تفاصيل هذا الخلق حيث كان دخانا، ثم ماء، ثم كان شيئا واحداً ففتقه، فقال تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ) (فصلت ١١) ، وقال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوآ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيِّ) (الأنبياء ٣٠).

هذه المخلوقات خلقت لغاية وهدف دون عبث (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّار) (آل عمران ١٩١)، (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ) (الأنبياء ١٦) ، وقال تعالى: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النَّارِ) (ص ٢٧) ، وقال تعالى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ) (المؤمنون ١١٥).

وقد خلق الكون على تمام الإتقان والنظام ودقة التقدير وشدة الإحكام واهتداء كل شيء قال تعالى: (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) (النمل ٨٨)، وقال تعالى: (فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ) (الطارق ٥)، وقال: (وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) (الفرقان ٢)، وقال: (وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى) (الأعلى ٣)، وقوله: (أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) (طه ٥٠).

وأن المخلوقات خلقت لنفع الإنسان قال تعالى: (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا) (النحل ٣٠) فهذا التصور الشامل يساعد الإنسان على التعمير والإبداع والإنتاج، لأن العلم والمعرفة هما الأساس للإبداع، ومن جانب آخر فإن الإنسان المسلم لا يحتاج إلى أن يشغل عقله وتفكيره في عالم الغيب، لأن المعلومات حوله كافية، لذلك يسخر كل عقله وطاقاته للتعمير المادي في حين لو انشغل عقله بعالم الغيب لما استطاع أن يبدع في عالم المادة.

قانون السببية في الخلق واحترام السنن:

يقوم الخلق كله على قانون السببية فقال تعالى: (أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) (الطور ٣٥)، (فَأَتْبَعَ سَبَبًا) (الكهف ٨٥)، وقد أقر الإسلام هذا القانون في إطار متوازن مع الإيمان بقدرة الله تعالى وإرادته دون تعارض ولا تصادم، ولذلك فرق بين التوكل والمطلوب الذي يعني الاعتماد على الله والإيمان بقدرته، ثم الأخذ بجميع الأسباب المتاحة، وبين التواكل المنبوذ الذي يعني التكاسل وإهمال الاخذ بالأسباب وبالتالي الفشل والخسران.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع تصرفاته وحركاته وفتوحاته يعتمد على جميع الأسباب المتاحة بعد التوكل على الله تعالى حيث لم يهمل أي سبب متاح، ففي هجرته خرج بشكل اعتمد فيه على كل وسائل الإخفاء عن قريش بما لا يدع أي مجال للشك في أن الأخذ بالأسباب مطلوب حتى للأنبياء، وكذلك في غزوة بدر حتى استفاد من الشمس حيث جعلها خلفه حتى تطلع متجهة نحو عيون المشركين، وقد لبس في غزوة أحد درعين وتعويدا للاخذ بالأسباب، حيث كانت سيرته العطرة تجسيدًا لهذا التوازن الرائع بين الإيمان بالله والتوكل عليه وبين الأخذ بالأسباب المشروعة المتاحة.

بل إن القرآن الكريم إضافة إلى أمره الأخذ بالأسباب وإعداد القوة ما استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه، فإنه قد حدد النسبة في البداية بواحد من المسلمين إلى عشرة من المشركين، ثم خفف إلى واحد إلى اثنين فقال تعالى: (الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّأْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِأْئَتَيْنِ) (الأنفال ٦٦) ولم يكلف بأكثر من ذلك، مما يدل على أهمية الكثرة والعدد بجانب القوة المعنوية.

وهذه العقيدة القائمة على الأخذ بالأسباب جعلت المسلمين يبذلون كل جهودهم لتحقيق أسباب القوة والحضارة والتمكين غير معتمدين على الخيال والخرافات، وحتى الكرامات والمعجزات التي إن أتت فهي بفضل الله تعالى، فلم يدخل المسلمون على مر تاريخهم في أية معركة عسكرية أو حضارية معتمدين على المعجزات والكرامات فقط، بل اعتمدوا على الله تعالى ثم على جميع الأسباب الممكنة، ولذلك أراد الله تعالى أن يشهد صحب الرسول صلى الله عليه وسلم هزيمة عسكرية في معركة أحد، حينما خالفوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك الأمر الذي كان يتعلق أيضًا بالأخذ بالأسباب، حيث أمر الرماة أن لا ينزلوا من فوق جبل عينين، لكنهم نزلوا فحدثت المصيبة، فقال تعالى: (أَوَلَمَّآ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ) (آل عمران ١٦٥).

ومن هنا استطاع المسلمون أن يحققوا حضارة رائعة خلال أقل من قرنين شهد بتقدمها والابتكارات فيها المنصفون.

قيمة البقاء والفناء

ويعلم المؤمن أنه خالد بروحه وأعماله وإن بليت الأجساد، وأن الدنيا مزرعة الآخرة، وأنه يجب عليه أن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدًا، ولآخرته كأنه يموت غدًا، وبذلك يوازن بين دنياه وآخرته كما أنه يؤمن بأنه لن ينفعه في الآخرة إلا الأعمال الصالحات الباقيات والصدقات الجاريات، ولذلك لن يترك الدنيا إلا وقد ترك أثارًا طبية تبقى بعده من العلم والعمارة لتشهد له في الدنيا والآخرة اقتداء بإبراهيم عليه السلام قدوة الأنبياء حيث دعا ربه فقال: (وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ) (الشعراء ٨٤)، أي ذكرا حسناً، وفقني لأن أترك آثاراً نافعة طيبة يراها الناس من

بعدي فيذكروني بالخير حيث بنى الكعبة المشرفة، والمسجد الأقصى فيذكره جميع المؤمنين.

نظرة الإسلام إلى الحضارات

ينظر الإسلام إلى أن الحضارات جميعها تراث إنساني فيه عناصر الخير والشر، والبناء الهدم، والنفع والضرر، وفيه الحسنات والسيئات.

وأن الامة الإسلامية ليست مسؤولة عما جرى لهذه الحضارات الماضية: (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) (البقرة ١٣٤) وإنما الأمة الإسلامية مطالبة بأن تأخذ منها ما هو صالح ونافع وتضيف إليه ما تستطيع إضافته ليكون لها دور وريادة وقدرة على البناء والتمكين.

فالمسلمون مطالبون بأن يأخذوا كل ما هو أحسن من القول والفعل والتراث والعلم، والحضارة (فالحكمة ضالة المؤمن فهو أحق بها أنى وجدها).

وكرر القرآن الكريم (الحكمة) عشرين مرة، فجعل تعليم الحكمة من أهم وظائف الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: (هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُّبِينٍ) (الجمعة ٢)، وقال تعالى: (وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا) (البقرة ٢٦٩)، وجعل تعليم الحكمة من أكبر النعم على رسوله صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: (وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) (النساء ١١٣).

وأمر الله تعالى رسوله، والدعاة أن تكون دعوتهم قائمة على الحكمة فقال تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) (النحل ١٢٥) قد ربط الله تعالى بين الحكمة وبقاء الملك وشد احكامه وقوته وتطويره فقال تعالى في حق داود عليه السلام: (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ) (ص ٢٠)، بل إن الله تعالى جعل الحكيم من أسمائه وصفاته، وكرر القرآن الكريم هذا الاسم أكثر من مائة مرة.

ومن هذا المنطلق بذل المسلمون جهودًا كبيرة وأموالا طائلة في ترجمة التراث الإغريقي واليوناني والفارسي والهندي إلى اللغة العربية، حتى يحكي أن المأمون كان يوزن المخطوطة بالذهب، فيدفع في سبيلها ووزنها ذهبا، وكان الخلفاء والأمراء

يتباهون بكثرة الكتب في مكتباتهم، حتى إن خزانة الكتب بمصر كانت تحوي كتب يزدجرد (ملك الفرس) وأن مكتبة الخليفة عزيز (بمصر عام ٣٨٦هـ . ٩٩٦م) تحتوي على ستمائة ألف كتاب، وأن الحكم صاحب الأندلس يتكون فهرس مكتبته من أربعة وأربعين جزءا، وأن فهرس كتب الصاحب بن عباد (ت ٣٨٤ . ٩٩٤م) يقع في عشرة مجلدات ضخام؟، ولم يكن بها إلا أسماء الكتب فقط دون أي تعليق، ويقارن الأستاذ آدم متر هذه الكثرة بقلة الكتب في كنائس الغرب قائلاً: (ولنذكر ما كان في بعض خزائن الكتب في الغرب على سبيل المقارنة: كانت في مكتبة الكاندرائية بمدينة كنستانز في القرن التاسع الميلادي ثلاثمائة وستة وخمسون كتابا، وفي مكتبة دير البندكتيين عام ١٠٣٢م ما يزيد على المائة بقليل، وفي خزانة كتب الكاندرائية في مدينة بامبرج سنة ١١٣٠م ستة وتسعون كتابًا فقط).

وقد أمر الله تعالى المؤمنين أن يستفيدوا من حضارات الأمم السابقة، وتأريخهم، وما تركوه، وما آلوا إليه من نتائج، ولذلك ذكر الله تعالى في القرآن الكريم قصصا كثيرة للأمم والشعوب، ثم أمر المسلمين بالعبرة ولاتعاظ وأخذ الدروس والفوائد من كل ما فعلوه (لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِى الأَلْبَابِ) (يوسف١١١)، بل أمر الله تعالى بالسير في الأرض للنظر في آثار هؤلاء الأقوام فقال تعالى (قُلْ سِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَانظُرُواْ..)(النمل ٦٩).

هذا وقد سجل القرآن الكريم كلمات خالدة لأناس حتى ولو لم يكونوا مسلمين، أو مؤمنين بالله تعالى فسجل القرآن الكريم كلمة امرأة عزيز مصر: (إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّى) (يوسف ٥٣). وقول ملكة سبأ (إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوآ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) (النمل ٣٤).

والإسلام لا يكتفي بمجرد الأخذ وإنما بالاتقان والتطوير بناء على أن التوقف هو عين التأخر تنفيذًا لقوله تعالى: (لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ) (المدثر ٣٧) ولم يقل (أو يتوقف) لأن التوقف هو عين التأخر.

يضاف إلى ذلك أن الإسلام لا يكتفي بالحسن. بل لابد من الأحسن في كل شيء، الأخذ بأحسن ما يسمع (فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) (الزمر ١٧، ١٨)، والجدال بالأحسن (وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ) (النحل ١٢٥)، والعمل

الأحسن (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) (الملك ٢)، والجزاء بالأحسن (وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) (النحل ٩٧)، والقول الأحسن (وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ) (الإسراء ٥٣)، والدفع بالتي هي أحسن (ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ) (فصلت ٣٤)، ووجوب اتباع الأحسن (وَاتَّبِعُوآ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ) (الزمر ٥٥)، ووجوب الأخذ بالأحسن (وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا) (الأعراف ١٤٥).

ومن المعلوم في اللغة العربية أن (أحسن) صيغة تفضيل أي أفضل أنواعه، وأن هذه الصيغة لا تعني الوقف عند حد معين، فما هو الأحسن اليوم قد لا يكون كذلك غداً، لذلك يجب متابعة الأحسن دائمًا، بأن تكون هذه الأمة على أحسن حال في جميع الأمور وهذا يعني أن هذه الأمة لا ينبغي لها إلا أن تكون في مقدمة الأمم والأقوام في كل مجالات الحياة، والإنتاج والإبداع، والخدمات...

والإسلام يؤمن بسياسة التوريث بأن تقوم هذه الأمة بتوريث كل ما عندها إلى الأجيال اللاحقة، كما أنه يفرض على أتباعه أن يجعلوا العلوم بجميع أنواعها للجميع، وأن لا يمنعوه عن أحد كما ورد بذلك أحاديث كثيرة.

وفي الأخير فإن الإسلام ضد الإفساد، ومع الإصلاح فحرم كل العوامل التي تؤدي إلى هدم الحضارات وأوجب الإصلاح، وهذا شعار الأنبياء (إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ) (هود ٨٨).

دور الحضارة الإسلامية في الحضارات اللاحقة

لقد أوضح الفيلسوف المعروف جارودي دور الحضارة الإسلامية في الحضارات اللاحقة فذكر أنه عندما رحل الراهب الفرنسي (جربير) للدراسة في جامعة قرطبة قفل راجعًا وقد بلغ من العلم مبلغا صار يتهم بأنه قد فاق الشيطان، ثم أصبح بعدئذ البابا باسم (سلفستر الثاني) وان الحضارة الغربية تدين للعلوم الإسلامية في مجالات الطب والحساب والجبر، والبصريات، والفلسفة، والمنطق، وغيرها، فقد كانت الجامعات الأوروبية في فرنسا وبريطانيا تدرس كتب الرازي، وابن رشد، وابن الهيثم، وغيرهم في القرن السادس عشر في فرنسا، ومنتصف القرن التاسع عشر في انجلترا.

ولم تقف استفادة الغرب من المسلمين عند الجانب النظري بل استفاد من المراصد والخرائط، واكتشاف الأرقام العربية، والصفر والمواد الكيماوية والصيدلة والصناعية ونحوها.

وفي مجال العلوم الإنسانية يتحدث جارودي عن ابن خلدون بأنه مخترع مفهوم علمي عن التأريخ وعن علم الاجتماع، وأن هذه الشخصية لا يمكن أن تظهر من الفراغ، بل تدل على نمو الفكر الإسلامي في عصره في مجال العلوم الاجتماعية.

ويذكر جارودي أن العلوم تجمدت في أوروبا، لأن الكنسية أبدت ريبة تجاه الطبيعة زاعمة أنها تبعد عن الإله، وهكذا استمرت تجارب العلوم عبر تأريخها، بينما انطلق العلم في الإسلام من مبدأ الوحدانية حيث لا مجال للتفريق بين الطبيعة وعلم الكلام والفلسفة والفنون المختلفة، وبين رسالة المسجد والمدرسة، وكانت جامعات القرويين بفاس، والزيتونة بتونس، والأزهر بالقاهرة، وسمرقند، وقرطبة، معالم إشعاع ليست للعالم الإسلامي بل لأوروبا التي تأثرت بها وأسست كليات الطب في سالونيا بايطاليا، ومومباليه بفرنسا على غرار كليات الطب الإسلامية.

وفي مجال الرياضيات كانت مساهمة المسلمين عظيمة في نهضةأورووبا وساعدت على تطوير الحساب والجبر، ولا أدل على ذلك من الأعداد التالية (٤٤٤٤) تكتب على هذا النحو (F I L K S S S M M M M) وكان من الصعوبة بمكان إجراء أية عملية حسابية أو جبرية مع هذه الرموز.

ولم يكن حظ علم الاجتماع أقل شأنا من بقية العلوم، فكان لابن خلدون دور كبير في بلورة الأسس العلمية له، كما تفوق علماء المسلمين على علماء الفلك اليونانيين سواء في مجال الملاحظة أو القياسات. كما عملوا على تطوير الجغرافيا والرياضايات.

===============

#صراع الحضارات ومستقبل الدعوة الإسلامية

أ. د. جعفر شيخ إدريس

قُدم هذا البحث لمؤتمر عقدته مجلة البيان بقاعة الصداقة بالخرطوم يوم ١٧ رجب ١٤٢٣ هـ الموافق ٢٤سبتمبر سنة ٢٠٠٢

هيمنة الحضارة الغربية

إذا أردنا للحديث عن صراع الحضارات أن يكون حديثا تبنى عليه مواقف فكرية وعملية فيحسن أن لا يكون حديثا عاما، بل يحسن أن نشير فيه إلى وقائع وحالات محددة. لذلك نقول:

ما الحضارات التي يقال إنها تتصارع الآن؟

لكي نجيب عن هذا السؤال يحسن أن نتفق على ما نعنيه بكلمة الحضارة، في بحثنا هذا على الأقل. الحضارة كما نستعملها هنا هي الكلمة العربية المقابلة للكلمة الانجليزية civilization . فالحضارة بحسب ما نراه هنا مكونة من جوهر ومظهر. أما الجوهر فهو معتقداتها وقيمها وأنماط السلوك الشائعة فيها، وأما مظهرها فهو انجازاتها المادية من قوة عسكرية واقتصادية، ونظم سياسية وعمران.

الحضارة بهذا المعنى مفهوم محايد، أعني أنه لا يدل بنفسه على مدح أو ذم، شأنه في ذلك شأن عبارات الأمة، والأئمة، والخُلق والدين وغير ذلك. فالأمة قد توصف بالاستقامة أو الزيغ، والأئمة قد يكونون هداة إلى الحق أو موردين لمتبوعهم إلى النار، والخُلق قد يكون حسناً وقد يكون سيئاً، والدين قد يكون حقاً وقد يكون باطلاً. وكذلك الحضارة قد توصف بالمادية أو الإيمانية، وبالقوة أو الضعف.

فما الحضارات . بهذا المعنى . التي تتصارع في عصرنا؟

لا نستطيع . فيما أرى . أن نشير في واقعنا الراهن إلى حضارة ماثلة محددة المعالم إلا حضارة واحدة هي الحضارة الغربية. وذلك أننا حين نتحدث عن الحضارة الغربية نستطيع أن نشير إلى دولٍ قائمة تتمثل فيها هذه الحضارة: فهنالك دول أوربا الغربية، والولايات المتحدة، وكندا، واستراليا ونيوزيلاندا. يجمع بين هذه الدول كونها كلها ذات نظام سياسي واحد هو الديمقراطية الليبرالية العلمانية، وأن بينها علاقات وتعاون، وأن لها تاريخاً واحداً مشتركاً، وأن الديانة النصرانية هي أكثر الديانات انتشاراً بين شعوبها. بل إن هذه الدول لتشترك شعوبها حتى في أزياء رجالها ونسائها، وفي كثير من اذواقها الأدبية والفنية. هذه الدول في مجموعها هي أقوى دول العالم اقتصاداً، وسلاحاً، وتأثيراً إعلامياً. حضارتها هذه هي الحضارة الغالبة المهيمنة على العالم.

هل نستطيع أن نقول مثل هذا عن أية حضارة أخري في واقعنا الراهن؟ كلا. نستطيع أن نشير إلى أقطارٍ أخرى إشارات سلبية بأن نقول إن حضارتها ليست غربية بالمعنى الكامل. فاليابان تشبه دول الحضارة الغربية في نظامها السياسي وفي تقدمها الاقتصادي، وتخالفها في تاريخها، وفي الدين السائد بين أهلها. وهي صديقة للغرب ومتعاونة معه لا مصارعة. وقل مثل ذلك عن الهند.

أما الصين فإنها تشبه الدول الغربية من حيث نموها الاقتصادي، بيد أنها تخالفها في نظامها السياسي والاقتصادي. لكن حتى هذين النظامين ليسا بنابعين من ثقافة صينية أو تاريخ صيني وإنما هما مستوردان من فكر غربي هو الفكر الماركسي.

مجموعة الدول التي كانت تسمى بالاتحاد السوفيتي كانت متشابهة في نظامها السياسي والاقتصادي، وكانت لها قوة عسكرية ورسالة أيدُلوجية ومطامع توسعية، فكانت هي فعلاُ المنافسة للغرب، لكنها حتى في أوج عظمتها لم تكن تمثل حضارة متميزة. أما بعد تفكك اتحادها وسقوط نظامها السياسي والاقتصادي وذهاب بريقها الأيدلوجي، فقد صارت دولاُ ضعيفة تحاول أن تتأسى بدول الحضارة الغربية في أنظمتها، كما تحاول تحسين علاقاتها بتلك الدول، ولا سيما الولايات المتحدة، طمعاً في مالها وجاهها.

ماذا بقي؟ بقيت الدول الإسلامية. هل نستطيع أن نقول إنها تمثل اليوم حضارة بالمعنى الذي وصفنا به الحضارة الغربية؟ نقول آسفين: كلا. فإنه ليس لها نظام سياسي واحد إسلامياً كان أو غير إسلامي، وليست ملتزمة كلها بالإسلام في نظمها الاقتصادية أو التعليمية أو الإعلامية أو غيرها. وليس بينها تعاون حقيقي يذكر رغم انضمامها كلها إلى عضوية المؤتمر الإسلامي.

فليس هنالك إذن حضارة إسلامية قائمة قياماً مادياً يميزها تمييزاً كاملاً عن الحضارة الغربية، ودعك أن تكون في صراع معها. نعم كانت لنا في الماضي حضارة، بل كانت الحضارة الإسلامية هي الحضارة العالمية الوحيدة إلى بداية القرن السابع عشر الميلادي، حضارة اعترف بوجودها وقوتها معاصروها، ويعترف بوجودها المؤرخون والمختصون بالدراسات الإسلامية حتى من الغربيين المعادين.

وعليه فنستطيع أن نقول إنه ليس هنالك في واقع الأمر صراع بين حضارة غربية وأخرى إسلامية، لأنه لا توجد اليوم حضارة إسلامية بالمعنى الذي توجد به حضارة غربية، أو بالمعنى الذي كانت توجد به حضارة إسلامية. فما مشكلتنا مع الحضارة الغربية إذن؟ مشكلتنا أن الحضارة الغربية ليست راضية حتى بهذا القليل الذي تبقى لنا من الحضارة الإسلامية، بل تريد لنا ولغيرنا أن لا نكون عقبة في طريق مصالحها القيمية أو المادية، بل أن نكون تابعين في كل ذلك لها. ومع أنه لا توجد اليوم حضارة إسلامية، إلا أن الحضارة الغربية ذات حساسية بالغة من أية بادرة بعث لتلك الحضارة لسبب تاريخي. إن قادة الفكر الغربي لا ينسون، كما أن كثيرين منا لا ينسون، أن الحضارة الإسلامية كانت كما قلنا هي الحضارة العالمية حتى القرن السابع عشر الميلادي. استمع إلى المستشرق اليهودي برنارد لويس وهو يقول في شيء من شماتة:

ظل الإسلام لقرون طويلة أعظم حضارة على وجه الأرض ـ أغنى حضارة، وأقواها، وأكثرها إبداعا في كل حقل ذي بال من حقول الجهد البشري. عسكرها، أساتذتها وتجارها كانوا يتقدمون في موقع أمامي في آسيا وأفريقيا وأوروبا، ليحملوا ما رأوه الحضارة والدين للكفار البرابرة الذين كانوا يعيشون خارج حدود العالم الإسلامي.

ثم يمضي ليقول:

ثم تغير كل شيء. فالمسلمون بدلا من يغزو الدول المسيحية ويسيطروا عليها، صاروا هم الذين تغزوهم القوى المسيحية وتسيطر عليهم. مشاعر الإحباط والغضب لما عدوه مخالفا للقانون الطبيعي والشرعي ظلت تتنامى لمدة قرون، ووصلا قمتهما في أيامنا.[١]

فقادة الحضارة الغربية يخشون على حضارتهم من كل بادرة إحياء لتلك الحضارة التي كانت سائدة. ومما يزيد من خوفهم قول المختصين منهم في التاريخ الإسلامي، إن للإسلام مقدرة عجيبة على العودة كلما هُزم.

ما الإجراءات التي يجب أن تتخذ لضمان عدم عودته؟ اختلفت الإجراءات في تفاصيلها بحسب الظروف العالمية، وبحسب التكتيكات الوقتية، لكن أمرين استراتيجيين اثنين لم يتغيرا، هما ضمان عدم رجوع الأمة إلى فهم صحيح للقرآن

الكريم، وضمان استمرارها ضعيفة محتاجة إلى الغرب، أي ضمان عدم توفر الشرطين اللازمين لتمكين الأمة وبالتالى لحضارتها، وهما الكتاب الهادي والسيف الناصر[٢] قال تعالى:

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ [الحديد:٢٥]

في عهد الاحتلال المباشر لبلدان العالم الإسلامي، كان أول ما فعله المستعمرون اقصاء العلم الشرعي عن المدارس والجامعات، وحصره في دوائر ضيقة روعي أن لا يكون لها علاقة بالمجتمع ولا بالعصر. وفي هذا العهد استغلت ثروات البلاد لتغذي مصانع أوربا وتقوي اقتصادها.

بعد انتهاء عصر الاستعمار والدخول في الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتي، انشغل الغرب بعدو ماثلٍ أكبر، فلم ير بأساً من التعاون التكتيكي مع بعض حملة هذا الفهم الصحيح كما حدث في أفغانستان. لكن الهدف الاستراتيجي لم يُنس أبدا؛ فقد ظل الغرب الديمقراطي بقيادة الولايات المتحدة هو . إلى حد كبير. الذي يصنع الحكومات غير الديمقراطية ويدعمها، مراعاة لمصالحه، وخوفاً من أن تكون الديمقراطية ذريعة لوصول الإسلام إلى السلطة.

أمريكا والنظام العالمي الجديد

وبسقوط الاتحاد السوفيتي واستتباب الأمر للحضارة الغربية، دخل العالم مرحلة جديدة، مرحلة القوة العالمية الكبرى الواحدة، التي لا تدانيها من حيث إمكاناتها الاقتصادية والعسكرية والتقنية والإعلامية قوة أخرى. وبدأت تظهر تبعاً لذلك معالمُ نظامٍ عالميٍ جديد، ما تزال تفاصيله محل نقاش كبير في الولايات المتحدة. لكن يمكن تلخيص اتجاهات هذا النقاش في اتجاهين كبيرين: الدعوة إلى الانفرادية، وضرورة الاستمرار في العمل ضمن الأطر العالمية السائدة.

الاتجاه الانفرادي

يرى أصحاب الاتجاه الانفرادي الذي تقوده عصبة ممن يسمون بالمحافظين الجدد، أن تستبد الولايات المتحدة باتخاذ ما تراه من قرارات وسياسات تحقق مصالحها،

وتنشر قيمها من غير تقيد بأعراف ولا قوانين دولية، ولا بمؤسسات عالمية كالأمم المتحدة. وهم يعتمدون في تسويغهم لهذا الرأي وتسويقه على أمرين:

أولهما: القوة الاقتصادية والعسكرية الهائلة للولايات المتحدة التي لم تعد تدانيها فيها قوة أخرى، هذه القوة التي جعلت الجميع يعترفون بأنه لم تعد توجد الآن إلا قوة عالمية كبرى واحدة. لكن الأعراف الدولية والقوانين العالمية السائدة حتى الآن هي في رأي المحافظين الجدد . من مخلفات نظام عالمي قديم، اقتضتها ظروف لم يعد لها الآن وجود. ولذلك فلا جناح على الولايات المتحدة أن لا تلتزم بها مادام الأمر قد استتب لها. إن الولايات المتحدة قد بلغت من القوة شأواً لا تدانيها فيه دولة أخرى. فميزانية وزارة الدفاع هي أكبر من مجموع ميزانيات الدول الاثنتين والعشرين التي تأتي بعدها، ويقولون إنها ستكون بحلول عام خمسة بعد الألفين أكبر من مجموع ميزانيات الدفاع في كل أنحاء العالم! وإذا كانت عادٌ قد قالت فيما مضى "من أشد منا قوة؟" فإن أمريكا تقول اليوم لا أحد أشد منا قوة في الحاضر، ولم يكن أحد أشد منا قوة في الماضي. ولكن كما قال ربنا لعاد، نقول لمن أطغتهم القوة اليوم: "أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة؟"

يقول أصحاب هذا الرأي من المحافظين الجدد: إن على أمريكا أن تكون هي لا المنظمات العالمية، بل ولا حتى حُلفاؤها من الدول الغربية، التي تقرر ما هو حسن وما هو سيء بالنسبة للعالم، وأن تتصرف بحسب حكمها من غير التزام بقرارات يفرضها عليها غيرها. فلسان حالهم يقول "مَا أُرِيكُمْ إلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَشاد". هذا لا يعني . كما يقولون . أن لا تستشير الولايات المتحدة غيرها، وأن لا تتعاون مع من يريد التعاون معها، ولكنه يعنى يصورة حاسمة أنه لا أحد له الحق الآن في أن يلزمها بما لا تلزم به نفسها. ولئن لم تفعل هذا فسيكون مثلها كمثل جلفر Gulliver الذي تقيده أقزامُ لليبوت، كما قال أحدهم.

وثانيهما: أن عامة الأمريكان يعتقدون أنهم أصحاب رسالة عالمية. رسالتهم هي رسالة الحرية، فهم لا يرون أنفسهم بأقوى الدول فقط، وإنما هم أخيرها، بل هم خير أمة عرفها التاريخ البشري، فهم بزعمهم أكثر الناس تدينا، وأشدهم استمساكا بالأخلاق الفاضلة. نظامهم السياسي كما يرون أحسن نظام، ودستورهم أحسن وثيقة

كتبت في التاريخ، ونظامهم الاقتصادي أنجح نظام، وقضاؤهم أعدل قضاء، ونظامهم التعليمي أرشد نظام، ونظامهم الصحي أفيد نظام، بل وسجونهم أكثر السجون إنسانية. أمريكا هي بلد الأحرار وبلد الشجعان وبلد الفرص. وعليه فإن استبدادهم بالأمر سيكون لخير البشرية " لأن الأمريكان كما قال أحد مفكريهم هم "حداة البشرية في سيرها نحو الكمال" لا يملك المرء إلا أن يذكر مرة أخرى مقالة فرعون "مَا أُرِيكُمْ إلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَشاد".

ولهذا تجد زعماءهم السياسيين يستغلون فيهم هذه النزعة الرسالية وإن شئت فقل الحمية، حمية الجاهلية، فيحرضون شعبهم . ولا سيما العسكريين منهم . على التضحية من أجل هذه المُثل العليا، لا من أجل المصلحة الوطنية بالمعنى المحدود، لأنهم يعلمون أن الذي يحرك الإنسان هو الاعتقاد في مثل هذه المثل، لا مجرد الدفاع عن أرض أو مصلحة مادية.

وقد ظهر هذا جلياً في الخطاب الذي ألقاه الرئيس جورج بوش لخريجي كلية وست بوينت العسكرية. فمن العبارات التي جاءت في ذلك الخطاب، الذي أنصح بقراءته: أن أمريكا تدافع عن الحرية، وأن العَلَم الأمريكي حيثما رُفع فلن يكون رمزاً لقوتنا فحسب ولكن للحرية. لقد كانت أهدافنا دائماً أكبر من مجرد الدفاع عن أنفسنا. إننا كلما حاربنا فإنما نحارب من اجل سلام عادل، سلام يختار الحرية الإنسانية. سندافع عن السلام ضد تهديدات الإرهابيين والحكام المستبدين. إننا نريد لغيرنا ما نريد لأنفسنا ـ أمن من العنف، خيرات الحرية، والأمل في حياة أحسن. إن محاربة الإرهاب تحتاج إلى صبر، ولكنها تحتاج أيضا إلى هدف خُلقي. إن أعداءنا اليوم كما كانوا أيام الحرب الباردة شموليون، يؤمنون بمبدأ القوة التي لا مكان فيها للعزة الإنسانية. لقد كان الوضوح الخُلقي ضرورياً في انتصارنا في الحرب الباردة. يرى بعضهم أنه ليس من الدبلوماسية، وربما كان من سوء الأدب، أن نتحدث عن الحق والباطل. لكنني أختلف معهم. نعم إن الظروف المختلفة تقتضي وسائل مختلفة لكنها لا تقتضي أخلاقاً مختلفة. إن الحقيقة الخُلقية واحدة في كل ثقافة وفي كل زمان، وفي كل مكان. إن هنالك صراعاً بين الحق والشر، وستسمى أمريكا الشر باسمه.

لكن الذي يشكو منه كثير من الأمريكان أن هذا الشعور بقيمة أمريكا وتميزها بدأ يضعف جداً في أجيال الشباب الذين هم الآن في المدارس والجامعات. فقد انتشرت بينهم انتشاراً مخيفاً فواحش الإباحية، والشذوذ الجنسي وتعاطي المخدرات، وما استتبعه ذلك من غلبة للاتجاه الفردي والسخرية بالخلق والمثل.

دل استطلاع لبعض المدارس قبل جيل مضى بأن أكبر المشكلات التي يعاني منها الطلاب هي: عدم احترام الممتلكات، والكسل وعدم أداء الواجبات المنزلية، والحديث في الفصل وعدم الانتباه، التراشق بكور الورق المبلول بالبصاق، ترك المنافذ والأبواب مفتوحة. فلما أعيد ذلك الاستطلاع للمدارس نفسها قبل سنوات قليلة، كانت النتيجة أن أكبر المشكلات هي: الخوف من القتل العنيف بالبنادق أو السكاكين في المدرسة، الاغتصاب، المخدرات، الحمل، الإجهاض.[٣]

ولهذا صار كثير من الأمريكان لا يرسلون أولادهم إلى المدارس العامة، بل يفضلون لهم التعليم المنزلي

وكثيرا ما يحزن المرء حين يرى مسلما حاز على البطاقة الخضراء فطار بها فرحا إلى أمريكا ليقذف بالبنين والبنات من أطفاله في هذا المستنقع الآسن.

ومع انتشار الثقافة الغربية، وضعف الوازع الديني بدأ هذا الفساد ينتشر في بلدان العالم كله، بما في ذلك بلادنا الإسلامية.

الاتجاه الائتلافي

أما الاتجاه الائتلافي فلا يجادل أصحابه إخوانهم الانفراديين في كون الولايات المتحدة هي القوة العالمية الكبرى الوحيدة، ولا فيما يتميز به الشعب الأمريكي من صفات، لكنهم يرون أن الانفراد غير ممكن عملياً وإن أمكن فليس في مصلحة بلادهم. ومما يذكرونه في هذا الصدد:

• أن ما صار يوصف الآن بالنظام العالمي القديم كان إلى حد كبير من صنع الولايات المتحدة، وقد كان نظاماً ناجحاً حقق لها ما تريد فما الداعي الآن للانقلاب عليه وتقويضه؟

• أن القوة الحربية للولايات المتحدة ذات علاقة وثيقة باقتصادها، واقتصادها ليس أمراً محلياً تستطيع أن تصنع فيه ما تشاء، بل له ارتباط كبير بالأمم الأخرى. فالأسلحة لا ينتجها البنتاجون وإنما تنتجها شركات تجارية. لكن هذه الشركات تعتمد في استمرار حياتها على السوق العالمي، بل إن منتجاتها العالية التقانة لها الآن نصيب الأسد في ما يبيعه الاقتصاد الأمريكي في السوق العالمي. على سبيل المثال فإن مبيعات هذه الشركات من الحاسوبات الرفيعة في السوق العالمي تمثل نصف دخلها.

• أن هذا سيؤدي إلى فوضى عالمية. فإذا جاز لنا أن نبدأ بشن حرب وقائية على العراق، فلماذا لا تفعل الصين ذلك بالنسبة لتايوان، أو الهند بالنسبة لباكسان؟

• وإذا أعطينا أنفسنا حق تغيير النظم، فهل سنعطيها حق الإتيان بنظم نرضى عنها؟ ماذا إذا لم يختر الناس من نريد؟ هل نعود لعصر الاحتلال؟

كيف يكون التعامل مع المسلمين، ولا سيما العرب منهم؟

حوادث الحادي من سبتمبر أكدت للغرب، وللولايات المتحدة بالذات خطر الإسلام لأنه مهما قيل عن الخطأ الذي ارتكبه من قاموا بتلك العملية إلا أن الحقيقة تبقى أنهم شباب متدينون، وأنهم ابتغوا بعملهم الشهادة، وأنهم فعلوا ما فعلوا انتقاماً للمسلمين من ظلم الحضارة الغربية متمثلة في دولتها الكبرى وقائدتها. لذلك عاد الحديث جذعاً عن المواقف التي ينبغي أن تُتخذ لدرء الخطر الإسلامي. ومن المسائل التي ذكروها في ذلك

المسألة الأولى: محاربة ما أسموه بالفهم الحرفي للإسلام

ما أسموه بالفهم الحرفي للإسلام هو في رأيهم الذي يغذي عداوة المسلمين للحضارة الغربية. ومن هنا كثر الحديث عن الإسلام الراديكالي، وعن الوهابي وعن السلفية . يقولون إنه لا يمكن أن يقال للمسلمين تنكروا لدينكم، ولكن الذي يقال لهم هو أن يفهموه فهماً لا يجعله في صدام مع مقومات الحضارة الغربية. مشكلة المسلمين المتشددين، بحسب هذا الرأي، هي أنهم رافضون للحداثة modernity التي تتطلب فيما تتطلب . أن تكون الدولة دولة علمانية تعددية. فالمطلوب من المسلمين إذن أن

يفعلوا ما فعله الغرب ليكتمل لدينهم التصالح مع هذه الحداثة كما تم للمسيحية والنصرانية.

كيف يكون ذلك؟ يكون

أولاً: بأن لا يعتقد المسلمون أن نصوص دينهم صالحة لكل زمان ومكان بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة، بل عليهم أن يتذكروا كما فعل الليبراليون من النصارى واليهود، أن هذه النصوص ذكرت في ظروف تاريخية وثقافية معينة، فلا يمكن أن تكون بحرفيتها مناسبة مع ظروف تاريخية وثقافية مختلفة عنها. ما الحل إذن؟ الحل هو أن نعيد تفسير هذه النصوص لتتناسب مع العصر، بأن نقول حتى عما يبدو أنه وصف لواقع كقصة قوم لوط إن هذا إنما كان كلاماً مجازياً. فلم يحدث أن دمر الله تعالى قرى أو عاقب قوما لتوجههم الجنسي. (قال أوريلى مدللا على أن القصة كانت رمزية لا حقيقية: لماذا لم يدمر الله سان فرانسسكو إذن؟)

وثانياً: بأن يفهم المسلمون بأن الحقيقة الدينية حقيقة نسبية، لأنك إذا اعتقدت أن الحق كله معك . كما يعتقد المسلمون اليوم . فستعتقد أن مخالفيك على باطل ويستحقون لذلك أن يقتلوا، هكذا قال الرئيس السابق كلنتون في محاضرة ألقاها في جامعة جورج تاون بواشنطن بعد أحداث الحادي عشر. وهذا يعنى أن يكون الأفراد داخل الدين الواحد متسامحين مع مخالفيهم في فهم دينهم، لأن لكل إنسان الحق في أن يفهم دينه كيف شاء، وأن يرى الحقيقة من منظاره. وعلى المنتمين إلى الأديان المختلفة أن يكونوا أيضا متسامحين مع مخالفيهم معتقدين بأن كل دين يهدي إلى الحقيقة بطريقته .

وثالثاً: أن يُمنع بالقانون نشر مثل هذا الفكر وتغلق كل المؤسسات التعليمية التي تنشره، وأن يعاقب الذين يروجون له أو يمولون مؤسساته.

ومما يساعد الغرب على تحقيق هذه الأهداف أن الأفكار التي تعتمد عليها قد شاعت منذ زمان بين المثقفين المسلمين، بل بين بعض الإسلاميين منهم . فقد صار الكثيرون منا جزءاً من الحضارة الغربية في فكرهم وقيمهم وطموحاتهم السياسية وعاداتهم وتقاليدهم بل وأزيائهم الرجالية والنسائية، لأنهم صاروا يعتقدون أن الحضارة الغربية هي حضارة العصر التي لا يكون الناس متحضرين إلا بها.

المسألة الثانية: معالجة الأسباب الاجتماعية التي أدت إلى معاداة المسلمين للغرب

يرى بعض المفكرين السياسيين الغربيين أن هنالك أوضاعاً اجتماعية وسياسية بغيضة إلى الناس في العالم العربي بالذات، وأن الغرب . ولا سيما الولايات المتحدة هو . في نظرهم . الذي يقف وراء هذه الأوضاع الظالمة ويدعمها فمن الطبيعي أن يكرهوه. ماذا نفعل إذن؟

يقول بعضهم: إن الحل واضح هو أن نعمل على تحويل أنظمة العالم العربي إلى انظمة ديمقراطية حقيقية يكون الحكم فيها للأغلبية، وتصان فيها الحريات، ويحارب فيها الفساد المالي. يقول الرئيس بوش في خطابه الشهير في كلية وست بوينت:

عندما يأتي الأمر إلى حقوق الناس رجالا ونساء وحاجاتهم فليس هنالك صدام حضارات. إن متطلبات الحرية تصدق على أفريقيا وأمريكا اللاتينية والعالم الإسلامي كله. إن جماهير الناس في الأمم الإسلامية يريدون ويستحقون أن يعطوا كل الحريات والفرص التي للناس في كل أمة. وعلى حكامهم أن يستجيبوا لطموحاتهم.[٤]

يقول آخرون: لكن لا تنسوا أن أغلبية الناس في هذه البلاد كارهون لنا، وعليه فإن الحكومات التي يختارونها في النظام الديمقراطي ستكون معادية لنا.

يقول أصحاب الاقتراح أولاً إن هذا الامر ربما يكون كذلك في البداية، ولكن سيظهر لهذه الحكومات أن من مصلحتها ومصلحة شعوبها أن تتعاون مع الغرب وتكون صديقة له. وثانياً إنه ليس من الصعب علينا أن نأتي بحكومات أغلبية حقيقية تكون في الوقت نفسه صديقة لنا. هنالك وسائل كثيرة لتحقيق ذلك.

هذا ما يراه بعض الساسة الأمريكان أما نتنياهو . رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق . فله نصيحة أخرى للولايات المتحدة. فهو ينصحها بأن تغزو العراق وتغير نظامها من غير اعتبار للأمم المتحدة، وأما بالنسبة لإيران فإنه يقول فض الله فاه

إنه بإمكان الولايات المتحدة أن تُحرض على إحداث ثورة ضد النظام الإسلامي المحافظ في إيران بأن تستغل وجود الآلاف المؤلفة من الأطباق الفضائية فيها لتوجيه برامج أمريكية قذرة كتلك التي تذيعها قناة فوكس يظهر فيها شباب وشابات حسان في حالات مختلفة من حالات العري، يعيشون حياة مادية بهيجة ويمارسون

الجنس بطرق إباحية. "هذه مادة هدامة. إن الأولاد في إيران سيحبون أن تكون لهم مثل تلك الملابس الجميلة التي يرونها في تلك الأفلام. سيحبون أن تكون لهم أحواض سباحة وأساليب تلك الحياة الفاتنة[٥] [٦]

المسألة الثالثة: القضية الفلسطينية

قضية العلاقة مع إسرائيل قضية حساسة بالنسبة لغالبية السياسيين الأمريكيين، لكن هذا لم يمنع بعضهم من أن يقول إن موقف الولايات المتحدة المنحاز لإسرائيل هو من الأسباب الرئيسة لعداوة الشعوب الإسلامية ولا سيما العربية للولايات المتحدة. وأنه ما لم تحل هذه القضية حلا يراه العرب والمسلمون منصفا فإن هذه الكراهية ستستمر ، وسيستمر باستمرارها الإرهاب.

الفكر الأمريكي المعارض

ما ركزنا عليه حتى الآن هو الاتجاهات الشائعة او الغالبة في أمريكا، لكن أمريكا بلد شاسع لا يسود فيه اتجاه واحد سيادة كاملة، بل ما من رأي ديني أو سياسي أو اقتصادي شائع، إلا وله معارضون أشداء قلَّ عددهم أو كثر. وكثيراً ما تكون آراء الفئات المعارضة هذه أقرب إلى الهدي الإسلامي من غيرها. وإليك بعض الأمثلة

• فمنهم من يرى كما نرى أن ما يُسمى بالفهم الحرفي للنصوص الدينية هو الفهم الصحيح الأمين لها. فنحن نوافقهم في المنهج ونستطيع لذلك أن نناقشهم في نصوص كتبهم التي نراها مجانبة للصواب، لكننا لا نستطيع أن ندخل في حوار مثمر مع من كلما ناقشته في صحة نص قال إنه مجازي وأعطاه من المعاني ما يوافق هواه.

• بل إن من هؤلاء من يدعو كما ندعو إلى تطبيق الحدود المذكورة في العهد القديم كرجم الزاني المحصن، وقتل المرتد، حتى قال أحد الصحفيين المعارضين إذا طبقنا هذه القوانين فسنقتل الغالبية العظمى من الشعب الأمريكي!

• ومنهم من يرى أن العلمانية هي العدو الأكبر، ومادام المسلمون يوافقوننا على ذلك فيجب أن نعدهم أصدقاء لا أعداء في مواجهة هذا العدو.

• ومن غير المتدينين، بل من العلمانيين من يدرس عيوب المجتمع الأمريكي دراسة علمية ممتازة، ينبغي أن يتعلم منها المسلمون المبهورون بالحياة الغربية، فالعاقل من اتعظ بغيره. من هؤلاء فوكوياما في كتابه الانفراط العظيم.

• وهنالك من ينتقد الممارسة الواقعية للديمقراطية ويرى أنها قد حادت عن المفهوم الصحيح لها. إن الكتب والدراسات في هذا المجال تعد بالمئات إن لم نقل الألوف.

• وهنالك من ينتقد الرأسمالية إما أصلا أو ممارسة.

• وهنالك من لا يداهن في نقده للسياسة الأمريكية الخارجية ولا سيما فيما يتعلق بإسرائيل.

• ثم هنالك إخواننا الدعاة المسلمون الذين يهدي الله تعالى بهم ما يقدر بخمسين شخصا في كل يوم! فإذا كانت الحضارة الغربية قد غزت العالم الإسلامي، فإن الإسلام يدخل الآن قلوب الآلاف المؤلفة ممن هم في أرضها، لأن الناس يجدون فيه ما لا يجدون في حضارته رغم قوة سلطانها المادي ورغم سيطرتها وقوة تأثيرها على بقية بلدان العالم.

البعث الإسلامي الحضاري

إذا لم تكن في الأرض اليوم حضارة إسلامية قائمة فعلاً، فإن فرص بعثها ما زالت متوفرة ومشجعة. إن المسلمين ما زالوا بحمد الله تعالى قادرين على الأوبة إلى الكتاب الهادي، وقادرين على السعي لامتلاك السيف الناصر. وذلك:

أولاً: لأن انحراف الأمة عن دينها لم يكن . وما كان له أن يكون . ردة كاملة عامة عن الدين الحق. فهذا دين تكفل الله تعالى بحفظ كتابه كما تكفل بحفظ العاملين من علمائه. فإذا كان الله تعالى قد قال، وقوله الحق "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" فإن رسوله صلى الله عليه وسلم قد قال . غير ناطق عن هوى . لا تزالُ طائفة من أمتي ظَاهرين على الحقِ لا يَضُرُهم من خالَفهم ولا من خَذَلهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون.

ثانياً: لأنه إذا كان جوهر الحضارة . أو المدنية . وأساسها الذي يُشيَّدُ عليه بنيانها هو رسالتها، هو المعتقدات والقيم التي تستمسك وتعتز بها، فإن الجوهر والأساس الإسلامي ما يزال أقوى من منافسه العلماني الغربي. إن الإسلام يما يزال يبرهن عبر

تاريخه الطويل بأنه فعلاً فطرة الله التي فطر الناس عليها. فليس على وجه الأرض دين عبر الحواجز الجغرافية والثقافات المحلية ليبقى بين المستمسكين به . في جملته . الدين الذي أنزله الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم. فكتابه هو الكتاب الذي أنزل على رسوله، وصلوات الناس هي الصلوات كانت تقام في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وزكاته هي الزكاة، وحجه وصيامه هما كما كانا في أشكالهما ومواقيتهما. وبالرغم مما أضيف إلى هذا الدين من بدع إلا أنه يظل رغم ذلك أكثر الأديان احتفاظاً بحقيقته، وقد كان هذا وحده مما أغرى بعض الباحثين عن الحق بالدخول فيه.

ثالثاً: وما يزال هذا الدين يؤكد هذه الحقيقة بسرعة انتشاره المذهلة حتى في موطن الحضارة الغربية. فهم يقولون إن معدل سرعة انتشاره أكبر من معدل سرعة الزيادة في سكان العالم.

رابعاً: لأنه باعتباره دين الفطرة، ما يزال هو الدين الذي يجد الناس في آيات كتابه عِلماً بالإله الحق الموصوف بكل صفات الكمال المُنَزَّه عن كل صفات النقص من الولد والوالد التي تطفح بها بعض الأديان، وهدياً بأنه هو وحده المستحق للعبادة الهادي إلى أنواعها وكيفياتها. ويجدون في آيات كتابه وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم عِلماً بحقيقة أنبياء الله وما كانوا عليه من كمال بشري أَهَّلَهُم لأن يكونوا الأسوة التي يتأسى بها كل سالك طريق إلى الله. لكن الأديان المحرفة تجعل من بعضهم آلهة وأنى للبشر أن يتأسى بالإله؟ وتنسب إلى بعضهم جرائم يستنكف عن ارتكابها عامة عباد الله، فأنى يكونون أسوة لغيرهم؟

خامساً: ولأنه دين الفطرة فلا يجد الناس فيه تصادماً بين مقتضيات العقول التي فطرهم الله عليها، ولا مخالفة لحقائق الخلق التي يشاهدونها ويجربونها. فالعقل فيه نصير الدين لا خصيمه، كما هو حاله في بعض الأديان. والعلم التجريبي يشهد له ولا يشهد عليه كما يفعل مع بعض الأديان.

سادساً: ولأن الناس كما يجدون فيه حاجتهم إلى الإيمان الخالص والعبادة السليمة والأخلاق الحسنة فإنهم يجدون فيه هدياً لتنظيم الحياة الاجتماعية تنظيماً يتوافق مع

ذلك الإيمان وتلك العبادة وهاتيك الأخلاق، ويعبر عنها ويؤكدها ويحميها؛ فهو الدين الوحيد الذي لا يحتاج إلى علمانية تكمل نقصه، أو تتصالح معه.

سابعاً: وهو الدين الذي ما يزال يشهد لأحقيته سلوك المهتدين من أبنائه. فهؤلاء هم أكثر أهل الأرض ذكراً وعبادةً لله، وأبعدهم عن مساخط الله، وأكثرهم بذلاً لأنفسهم وأموالهم في سبيل الله، وأكثرهم رحمةً بصغير وتوقيراً لكبير وصلةً لرحم.

وقد اعترف بهذه الحقيقة حتى بعض علماءِ النصارى، ومن أعجبهم بيتر كريفت أستاذ الفلسفة بكلية بوستن، الذي يحث إخوانه النصارى على أن يعدوا المسلمين أصدقاء وأعوانا لهم في حربهم ضد العلمانية التي يرى فيها العدو اللدود للدين والخطر الأكبر على الحياة الاجتماعية. يقول هذا الرجل:

لماذا ينتشر الإسلام بهذه السرعة المذهلة؟ سيسارع علماء الاجتماع وعلماء النفس والمؤرخون والاقتصاديون والديمغرافيون والسياسيون إلى تفسير ذلك النمو تفسيرا دنيويا كل بحسب تخصصه. لكن الإجابة بدهية لكل مسيحي ذي صلة بالكتاب المقدس: إن الله تعالى يفي بوعده، ويبارك أولئك الذين يطيعون أوامره ويخشونه، ويعاقب الذين لا يفعلون ذلك. إن الأمر في غاية من البساطة التي يعسر على الأساتذة الأكاديميين رؤيتها: قارن بين كميات الإجهاض، وزنا المحصنين وغير المحصنين والشذوذ بين المسلمين والنصارى. ثم قارن بين كمية العبادة.[٧]

ثامناً: ولأن كثيراً من الناس في الغرب بدؤوا يشعرون بالخطر الذي تسوقهم إليه الحياة العلمانية المجردة عن الدين، خطر تمكينها للاتجاه الفردي في الناس، وإضعافها للوازع الخلقي، وعبادتها للجنس، وتحويلها الحياة إلى جهد لا معنى له ولا غاية. كل هذا يسبب للناس أنواعاً من الشقاء الروحي، فذهب الكثيرون منهم يبحثون عن دين ينقذهم فلم يجد كثير ممن عرف الإسلام منهم أكثر منه إجابة لمطالبهم الروحية والخلقية بالطريقة التي أشرنا إليها سابقاً.

وعليه فإذا كانت الحضارة الغربية قد غزت بلادنا فكرياً وخلقياً وجعلت جزءاً من الصراع بيننا وبينها صراعاً على أرضنا، وبيننا وبين أقوامنا، فإن الإسلام الآن يفعل الشيء نفسه، إنه يغزو أرض الحضارة الغربية ويجعل الصراع بينه وبينها صراعاً على أرضها وبينها وبين من كانوا بالأمس حماتها المدافعين عن حياضها.

تلك بعض فرص الدعوة إلى الإسلام وإلى بعث حضارته، وهنالك وسائل كثيرة لاستغلال هذه الفرص، لكنني لا أريد الآن الدخول في تفاصيلها، ولا في تفاصيل السعي لامتلاك السيف الناصر، فلتفاصيل كل ذلك مجال آخر. وإنما أريد أن أختم هذه المقالة بالتذكير بقواعد للعمل الإسلامي لما أرى من خطورتها ومن عدم الاهتمام الشديد بها. وهي

أولاً: أن أمر العودة للإسلام وحضارته ليس بالحمل الخفيف الذي يمكن أن ينهض به أفراد، أو تقوم به جماعة واحدة أو دولة واحدة، وإنما هو عبءٌ ثقيلٌ يجب أن تتضافر على حمله الجهود. لذلك لا بد أن يقنع كل فرد عامل للإسلام وكل جماعة وكل دولة بأن التعاون بين الساعين لتحقيق هذا الهدف أمر لازم، وأن التشاور فيما بينهم أول خطوات ذلك التعاون، ثم يأتي التنسيق وتوزيع المهام.

ثانياً: وإذا كان التعاون أمراً لازماً فيجب أن يكون السعي لبعث الحضارة الإسلامية أبعد شيء عن الحزبية. إن بعض الناس يخلط بين العمل الجماعي المنظم . وهو أمر لا بد منه . وبين الحزبية التي تحول التنظيم إلى غاية كثيراً ما يُضحى في سبيلها بالغاية التي أُنشئ من أجلها والتي كان في البداية مجرد وسيلة إليها. الحزبية أن تحصر علاقات الأخوة الإسلامية وواجباتها في من دخلوا ضمن إطار التنظيم، وأن لا يعان على عمل خير بل ولا يعترف به إلا إذا كان من منجزات الجماعة المنظمة.

ثالثاً: الالتزام الصارم الشديد بقيم العدل والصدق والأمانة والوفاء حتى في معاملة الأعداء. لأن هذه القيم قيم مطلقة لا تختص بحال دون حال. قال تعالى:

ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا. وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان.

قال المفسر الكبير ابن كثير: إن العدل واجب على كل أحد، مع كل أحد، في كل حال؟

لكن بعض العاملين للإسلام اليوم يحيدون عن هذه القيم لأوهي الأسباب، ويسلكون سلوك السياسيين الميكيافليين. ناسين أن هذه القيم قيم يحبها الله، وأن الالتزام بها حتى مع الأعداء . عبادة لله. وأنك لا يمكن أن تنصر دين الله بارتكاب مساخط الله.

رابعاً: على الأفراد وعلى الجماعات غير الحكومية أن تلتزم التزاماً معلناً وصارماً بالطرق السلمية. هذا هو الذي يدل عليه شرع الله، وهو الذي ينتهي إليه كل من اتعظ بالتجارب المريرة للجماعات التي دخلت في صراعات دموية لم تكن لها بكفء. إنك لا تحمل السلاح على من أنت تحت سلطانه، وإنما الذي يشرع لك هو الدعوة مع كف الايدي وإقامة الصلاة، فإذا كانت لك أرض مستقلة وقوة مادية فآنذاك:

أذن للدين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير.

اللَّهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

أستغفر الله، وأصلى وأسلم على خاتم رسل الله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

[١] For many centuries Islam was the greatest civilization on Earth -- the richest, the most powerful, the most creative in every significant field of human endeavor. Its armies, its teachers and its traders were advancing on every front in Asia, in Africa, in Europe, bringing, as they saw it, civilization and religion to the infidel barbarians who lived beyond the Muslim frontier.

And then everything changed, and Muslims, instead of invading and dominating Christendom, were invaded and dominated by Christian powers. The resulting frustration and anger at what seemed to them a reversal of both natural and divine law have been growing for centuries, and have reached a climax in our own times (The Washington Post, Tuesday, Sept. ١٠, ٢٠٠٢, p. ١٥A)

[٢] لكن هذا لا يعنى أن الحضارة الغربية هي السبب الوحيد لفقدان المسلمين لهذين الشرطين، فمن أسباب ذلك ما قد يكون محليا، بل ما لا بد أن يكون محليا، لأن ضعف الأمة الديني والمادي كان هو السب في هزيمتها. ولما عرف العدو ذلك حرص على استمرار أسباب الضعف وساعدته على ذلك عوامل محلية في الأمة نفسها.

[٣] Peter Kreeft, Ecumenical Jihad, Ignatius Press, San ١٩٦٦, Francisco, pp. ٦١-٢.

[٤]

http://www.whitehouse.gov/news/releases/٢٠٠٢/٠٦/٢٠٠٢٠٦٠١-٣.html

[٥] http://www.upi.com/view.cfm?StoryID=٢٠٠٢٠٩١٢-٠٣٤١٠٩-٦٣٧١r

[٦] يرى آخرون غيرنتنياهو أن الديمقراطية وجو الحرية الذي بدأ يسود في إيران سيؤدي إلى إنهاء الحكم الإسلامي بطريقة سلمية ديمقراطية.

[٧] تصرفت قليلا في بعض الكلمات التي لم أجد لها في العربية مقابلا يفى بغرض الكاتب. لذلك يحسن أن أضع نص حديثه بين يدي من يريدون الاطلاع عليه في لغته الانجليزية:

Why is Islam spreading so spectacularly? Sociologists and psychologists and historians and economists and demographers and politicians are quick to explain this growth with "expert" worldly wisdom from each of their specialties; but to any Christian familiar with the Bible, the answer is obvious: because God keeps His promises and blesses those who obey His laws and fear Him and punishes those who do not. Much too simple for scholars to see. Compare the amounts of abortion, adultery, fornication, and sodomy among Muslims and among Christians. Then compare the amounts of prayer. Ecumenical Jihad, ١٩٩٦, Ignatius Press, San Francisco, p. ٣٨.

================

#الدور الحضاري للمسلم المعاصر

على المسلم أن يضع أمام عينيه عدة حقائق، حتى يكون قد أدى دوره تجاه حضارته الإسلامية، ومن أهمها:

- أن الانتساب للإسلام شرف وعزة، لأن الإسلام هو الدين الذي اختاره الله لخلقه، قال تعالى: (إنَّ الدين عند الله الإسلام) [آل عمران: ١٩].

- أن العلم وحده ليس أساس الحضارة والتقدم، وإنما لابد من العقيدة الصحيحة والأخلاق القويمة مع الأخذ بأسباب العلم والحضارة، فلا حضارة بلا دين؛ لأن خلق الحضارة الفاسدة قد يكون سببًا في هلاكها وضياعها.

- أن الحكمة ضالة المؤمن إذا وجدها فهو أحق الناس بها، فعليه أن يقتبس من تقدم الغرب أو الشرق الأشياء المفيدة النافعة، التي لا تتعارض مع مبادئ الإسلام وقواعده.

- أن صلاح هذه الأمة يكون بالالتزام بتعاليم الإسلام، يقول عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: لقد كنا -نحن العرب- أذلَّ الناس، حتى أعزنا الله بالإسلام، فإن ابتغينا العزة في غيره؛ أذلنا الله.

وبعد أن يعلم المسلم هذه الأمور ويعيها، فإن أسئلة كثيرة تدور في ذهنه عن دوره تجاه حضارته، وتأتي الإجابة واضحة جلية، وهي أن دور المسلم يتحدد من ناحيتين:

الأولى: أن يهتم كل مسلم بحضارته ويتعرف عليها، فيعرف عوامل نجاحها وعوامل ضعفها، فيأخذ بعوامل النجاح، ويبتعد عن عوامل الضعف.

الثانية: أن يكون المسلم نفسه مبدعًا ومخترعًا وصانع حضارة، يساهم بما يستطيع في إعادة بناء هذه الحضارة، فالقرآن الكريم أمر المسلمين كثيرًا بالسير في الكون والتفكر في مخلوقات الله، ومعرفة سنن الله في هذا الكون.

دور المؤسسات الدولية في إحياء الحضارة الإسلامية

أولاً: الإعلام:

ينبغي أن تُستغل وسائل الإعلام استغلالاً يخدم مبادئ الحضارة الإسلامية وأهدافها، سواء المرئي منها أو المسموع أو المكتوب، فيعرض فيها جوانب عظمة هذه الحضارة وأسباب تفوقها، وإبداع المسلمين في كل المجالات، والتعريف بعلماء الحضارة الإسلامية في كل الميادين، ونشر أعمالهم، وأن تقدم البرامج التي تتحدث عن ذلك كله، وكيف أن الحضارة الإسلامية كانت هي المنبع الصافي الذي استقى منه الأوربيون، وتعلموا منه في عصور جهلهم، وكيف انتقلت هذه الحضارة إلى أوربا، فتقدمت هذا التقدم الذي تعيشه هذه الأيام.

كما أنه يجب عليه عرض التطورات العلمية العالمية في كل المجالات، حتى يستفيد من ذلك طلاب العلم، ويكون المسلمون على وعي بما وصل إليه العلم، فينطلقون إلى الإبداع والابتكار.

ثانيًا: التعليم:

ودور التعليم في إحياء وبعث الحضارة الإسلامية دور خطير ومهم، ولذلك ينبغي أن يتعاون الجميع لإصلاح مناهج التعليم؛ لأنه يجب أن يتعلم الطلاب في كافة مراحل التعليم مبادئ دينهم وحضارتهم، فيجب أن ينتهي الطالب مع انتهائه من مراحل التعليم من حفظ كتاب الله، وأن يدرس في كل مرحلة شيئًا مبسطًا عن قواعد الفقه الإسلامي وعلوم القرآن، والحديث النبوي الشريف، وأن تدرس مادة الحضارة الإسلامية في مرحلة التعليم العالي في الجامعات وفي كل الكليات، لتظهر كيف تفوق المسلمون في كل مجالات الحياة، وكيف أن المسلمين لما التزموا بإسلامهم سبقوا الأوربيين في كثير من الاكتشافات العلمية.

ولابد من العناية بتدريس اللغة العربية لغة الحضارة الإسلامية، تدريسًا ييسر فهمها، ويحببها إلى نفوس الطلاب، كما يجب الاهتمام بتدريس اللغات الأجنبية، وتعريب العلوم التي تدرس باللغات الأجنبية، ويجب متابعة التطورات العلمية في كل المجالات، وترجمتها لنكون على صلة بها، وهذا هو الأسلوب الذي اتبعه الأوربيون في بداية أمرهم، حيث قاموا بترجمة العلوم الإسلامية إلى لغاتهم ودرسوها بلغتهم، وبذلك استطاعوا أن يبدعوا ويبتكروا في كل المجالات.

وقد شهد الأوربيون أنفسهم بفضل علماء الحضارة الإسلامية على أوربا، ومن هؤلاء: الألمانية (سيجريد هونكه) في كتابها الرائع (شمس العرب تَسْطع على الغرب)، حيث قالت في مقدمته: إن هذا الكتاب يرغب في أن يرد للعرب ديْنًا لهم على البشرية استُحِقَّ منذ زمن بعيد، بالإضافة إلى دراسة التاريخ دراسة إسلامية تتفق مع مبادئ الإسلام، وتنقيته من الأخطاء التي علقت به، والاستفادة من عصور القوة التي عاشها المسلمون، ومعرفة أسباب هذه القوة والأخذ بها.

ولا يتحقق كل هذا إلا بالاهتمام بالمعلم الذي يدرِّس العلم لطلابه، فينبغي إعداده إعدادًا علميًّا جيدًا، وتكريمه ماديًّا ومعنويًّا واجتماعيًّا، وتوفير سبل الراحة له، حتى يقوم بالتعليم والتربية لأبناء المسلمين على مبادئ الإسلام وقيمه على أكمل وجه.

ثالثًا: الاقتصاد:

ينبغي إصلاح المؤسسات الاقتصادية في الدول الإسلامية بما يتلاءم مع مبادئ الإسلام وتعليمه، فينبغي أن يلغي نظام الربا، ويكون التعامل بنظام المضاربة الشرعية، وأن تستقي قوانين الاقتصاد من مبادئ الحضارة الإسلامية السامية، ومن مؤلفات علمائها في الاقتصاد، وينبغي أن يكوِّن المسلمون فيما بينهم ما يسمى بالسوق الإسلامية المشتركة لمواجهة تحديات السوق العالمية.

رابعًا: السياسة:

الأخذ بالنظم السياسية الإسلامية المختلفة، والاستفادة بما وضعه علماء الإسلام في هذا المجال من قوانين ومبادئ مستقاة من شريعة الإسلام.

خامسًا: الجانب العسكري:

على المسلمين أن يأخذوا بأسباب القوة العسكرية، وأن يسلحوا جيوشهم بأحدث الأسلحة التي توصَّل إليها العلم، وأن يكون تدريب قواتهم المسلحة على أرقى مستوى، ويدرسوا كيفية التخطيط للحروب الإسلامية، وعوامل انتصار الجيوش الإسلامية على غيرها من جيوش الدول الكبرى في ذلك الوقت، وكيف كان يعامل المسلمون أسراهم، وكيف كانوا يخوضون المعارك، والأحكام الخاصة بالحرب، وأن يربَّي في جنود المسلمين روح الجهاد للدفاع عن الإسلام ضد أي عدوان على الأرض أو العِرض، ومعرفة فضل الجهاد والشهادة في سبيل الله.

كما يجب أن تتحد الجيوش الإسلامية فيما بينها، وتكوِّن قوة عسكرية مشتركة، ويتم تبادل الخبرات في مجال التدريب والتسليح، والتخطيط للحروب، ولابد أن نصنع سلاحنا بأنفسنا ولا نعتمد على غيرنا في استيراد السلاح، ولو تم هذا واتحد المسلمون في مجال الإعداد العسكري بكل جوانبه؛ لأصبح المسلمون مهابين من أعدائهم.

================

الحضارة والثقافة الإسلاميّة(١).

الدكتور عبد العزيز الخياط *

في زحمة الصراع الحضاري العالمي تبرز كلّ أمة حضارتها، وتتمسك بها، وتعمل على نشرها وتثبيتها، وتتقدم بثقافتها المنبثقة عن حضارتها وإن كان لكل خصيصة متميزة لثقافته، تصطرع من أجلها، وتتزاحم بالمناكب في سبيل نشرها والمسلمون اليوم . وفي زحمة هذا الصراع الحضاري العالمي . لا ينشرون حضارتهم وثقافتهم إلاّ على استحياء، ولا يعملون على تثبيتها وبيانها إلاّ في المناسبات، وفي مؤتمرات قليلة تعقد هنا وهناك، وهو عمل تقوم به هيئات إسلامية أو أفراد، وقلما تشترك الحكومات، إلاّ في حدود ضيقة، أو حين تدعى من جهات غربية، ولا تتبنى في مؤتمراتها وسفاراتها بيان حضارة الإسلام ونشرها، ولعل مرجع ذلك إلى الخمول الذي أصابها، والتفرق على أساس العنصرية الضيقة أو الإقليمية المفرقة، والتعصب لهما على أساس التجزئة التي أصيب بها العالم الإسلامي، فاصبح ولاء كلّ دولة لقطرها، وانتماؤها لبلدها دون الانتماء للحضارة الإسلاميّة الواسعة وثقافتها.

فالحضارة لغة: الإقامة في الحضر، قال القطامي:

ومن تكن الحضارة أعجبته * * * فأي رجال بادية ترانا

وهي البداوة، وهي لغة كذلك: مرحلة من مراحل التطور الفعلي والانساني والاجتماعي ورقيها.

وقد تعدد معناها في الاصطلاح: فهي بمعناها العام: ثمرة التفاعل بين الإنسان والكون والحياة، أي: ثمرة الجهود المبذولة من قبل الفكر الإنساني للاستفادة من الأجهزة الكونية المتناثرة حولنا (٢). أو هي الجانب الآخر غير المادي في حياة الأمة، وهي العلم والتصورات والأفكار والسلوك والآداب، وكل المعاني التي تدخل في الجانب المادي.

وقد عرفها بعضهم بأنها: نمط من الحياة المستقرة ينشئ القرى والأمصار، ويضفي على حياة أصحابه فنوناً منتظمة من العيش، والعمل، والاجتماع، والعلم، والصناعة، وإدارة شؤون الحكم، وترتيب وسائل الراحة وأسباب الرفاهية (٣). وهذا تعريف للحضارة وآثارها العامة، وليس تعريفاً دقيقاً يحدد معناها.

ومن العلماء من عرفها بأنها: كلّ ما ينشئه الإنسان في كلّ ما يتصل بمختلف جوانب نشاطه ومعانيه، عقلاً وخلقاً، الفكري والمادي. أو باصطلاح آخر: الروحي والمادي.

وبعض الباحثين يرى: أن الحضارة الحقة هي التي تطلب من الإنسان في مظاهر الحياة كافة أن يتذكر الله، ويتذكر فطرته هو بحيث يستطيع أداء دور خليفة الله، وهو الدور الذي وجد فيه على هذه الأرض(٤).

والمودودي يرى: أن الحضارة: مجموعة المبادئ والأفكار والأصول والتربية التي تثمر لوناً من ألوان الحياة الاجتماعية بمقوماتها المختلفة.

وربما كان معناها العام أيضاً: طريقة الإنسان في الحياة، أو مجموعة أفكاره عنها، وأعني بالحياة: الأعمال اليومية التي يمارسها الإنسان في معيشته، ففكرته عنها ونظرته إليها يكيف سلوكه فيها ويحدد طريقة تصرفه في أعماله.

يظهر من هذه التعريفات: أن معنى الحضارة قائم عند المفكرين، لكنهم يختلفون في سعة معناه أو في ضيقه. وبعبارة أخرى: هو غامض عند البعض غير محدد، فمنهم من جعله يشمل الأفكار والعقائد وما ينتج عنها من نتائج مادية.

فالدكتور يوسف القرضاوي ـ مثلاً ـ يرى: أن الحضارة لها جسم وروح، وجسمها يتمثل في منجزاتها المادية: كالمخترعات والمصانع والطائرات والأسلحة والأبنية وغيرها، وروحها يتمثل في مجموعة العقائد والمفاهيم والقيم والآداب والتقاليد التي تتجسد في سلوك الأفراد والجماعات(٥).

وهو بهذا يتقارب في المفهوم مع "غوستاف لوبون" الذي يرى: أن الحضارة تشمل العقائد كما تشمل المنجزات العلمية والمادية، ولهذا نجده يعقد باباً ذا فصولٍ ثلاثةٍ يتحدث فيها عن مصادر قوة العرب من رسالة محمّد ـ صلى الله عليه وآله ـ، وفلسفة القرآن وأحكامه، وفتوح العرب وطبيعة هذه الفتوح ثم بعد ذلك يتحدث عن الدين والأخلاق، ويتناول حضارة العرب في شمولها للمعارف واللغة والفلسفة والآداب والتاريخ وعلوم الرياضيات والفلك والجغرافيا والطبيعيات والطب والفنون وغيرها(٦).

ويكاد يتفق معنا المستشرق الإنجليزي "أرنولد" الذي يرى: أن مفهوم الحضارة بمعناها المتخصص مقتصر على وجهة نظر الإنسان عن الحياة. وهذا هو الذي ينسجم مع

تعريف الحضارة الإسلاميّة التي يمكن ملاحظتها بأنها: (مجموع الأفكار والمفاهيم الإسلاميّة عن الإنسان والحياة والكون)، وهي بهذا تحدد سلوك الإنسان وطريقته في الحياة، ونمط معيشته وتعامله مع الكائنات المحيطة به. ولا تشمل بهذا التحديد ما نتج عنها من أشكال مادية، فهي ثمرة الحضارة إذا كانت غير متعارضة معها فتصوير الأشياء الجامدة وتجسيدها منسجم مع نظرة الإسلام في إباحة رسمها وتصويرها، أما تجسيد الأشياء الحية كالإنسان في تماثيل وأصنام فلا يجيزه الإسلام؛ لأن حضارته قائمة على تحريم التصوير بهذا المعنى.

وهذا يجرنا إلى أن نبين أن الأشكال المادية هي المدنية، وهي تنتج عن الحضارة أو العلم، فبناء البيوت والقصور شكل من أشكال المدنية الناتجة عن الحضارة، من حيث إنها مع مفهوم أي حضارة، وهو في الحضارة الإسلاميّة لا يتخذ فيه زخرفة الصليب، أو يوضع فيه مكان لشرب الخمر (بار) مثلاً، وقد راعى المسلمون في حضارتهم الإسلاميّة أن توجه البيوت نحو الكعبة التي هي قبلة المسلمين، بينما نجد أن صنع المنتجات الطبية والأثاث والسيارات والطائرات والآلآت وبناء المصانع للنسيج واستخراج المعادن وغيرها أشكال مدنية ناتجة عن العلم.

والتبرج . مثلاً . محرم في الإسلام، فكل شكل مدني من الملابس يظهر فيه التبرج لا يجوز شرعاً، والسينما والتلفاز شكل مدني ناشئ عن العلم، لكن مضمون الفلم الذي يعرض شكل مدني ناشئ عن حضارة فإذا تناقض مع حضارة الإسلام كالأفلام العارية فلا يجوز شرعاً.

والحضارة خاصة، والعلم عام، وقد كان العلم يطلق على كلّ معرفة أياً كان نوعها ولونها، ثم أصبح يفيد المعرفة التي تستفاد من الملاحظة والتجربة والاستنباط: كعلم الهندسة والطب والكيمياء، وهو التحديد الدقيق لكلمة العلم، لكنها قد تطلق على المعارف الشرعية والتاريخ والآداب والفلسفة، وغيرها من باب التجوز والتوسع في معناها.

معنى الثقافة:

وإذا عرفنا معنى الحضارة فلا بد من تحديد معنى الثقافة والثقافة الإسلاميّة.

فالثقافة من لفظة (ثقف) بمعنى: حذق وقوم، وهي بمعناها العام: مجرد المعرفة، أي: معرفة الآداب والفلسفة والتاريخ والفنون والمعارف النظرية، وهي بمعناها الخاص: النتائج التي تستخلص من مجموعة الآداب والفلسفة والتاريخ والمعارف النظرية من وجهة نظر خاصة عن الحياة.

ويقول تايلو: (إنّ الثقافة: هي الكل المركب الذي يتضمن المعارف والعقائد والفنون والأخلاق والقوانين والعادات).

والثقافة الإسلاميّة: هي الثقافة التي بنيت على العقيدة الإسلاميّة، أو كانت أثراً من آثارها أو اكتسبت صبغتها بموجبها.

والفرق يبين العلم والثقافة: أن العلم عام لكل أمة، فهو ليس حكراً على أمة من الأمم، أو مختصاً بأناس دون أناس، فهو للناس كافة، تأخذه أمة عن أمة فالاختراعات العلمية والاكتشافات في الصناعة والأسلحة، والأبحاث العلمية تنقل من بلد إلى آخر، ومن أمة إلى أخرى، فإذا أخضع هذا العلم لوجهة نظر معينة أو لمصلحة أمة أو دولة أصبح ثقافة خاصة لتلك الدولة أو الأمة، لكن الثقافة تبقى خاصة، فلكل أمة أو شعب ثقافته التي يعتزّ بها؛ لأنها متصلة بوجهة نظره في الحياة، ولهذا نرى: أن الجامعات تفتح أبوابها لدراسة العلوم لكل الناس، لكنها تحاول أن تعطيهم ثقافتها الخاصة، فللمسلم ثقافته الإسلاميّة، وللإنجليزي ثقافته، ومثلهما الفرنسي والألماني والروسي وغيرهم، ومن هنا نجد حرص الدول المختلفة على نشر ثقافتها وفتح المعاهد والمراكز الخاصة بها.

وعلى هذا، فالثقافة الإسلاميّة ثقافة خاصة، متميزة المعالم والاتجاهات،فهي المعرفة التي تتضمن العقيدة الإسلاميّة مثل: علم التوحيد، والمبنية على العقيدة مثل: الفقه والتفسير وعلم الحديث والسيرة وأصول الفقه، والمعرفة التي يوجبها الاجتهاد في الإسلام مثل: علوم اللغة العربية.

وقد أحدث عدم التفريق بين العلم والثقافة والحضارة بلبلة في عقول المسلمين، إذ تعددت ثقافاتهم كلّ بحسب ما تلقى في البلدان غير الإسلاميّة.

وكما أدى التباس فهم العلم والثقافة لدى المسلمين اليوم . فلم يعرفوا ما يأخذون وما يدعون . أدى عدم فهمهم للحضارة والمدنية الناشئة عنها. أو المدنية الناشئة عن

العلم والصناعة إلى اضطراب حياتهم، وفوضى مسالكهم إذا انطلقوا في تقليد الغرب وحضارته والاقتباس عنه دون تفريق بين غث ما عنده وسمينه، وبين ما يؤثمهم أو يؤجرهم؛ لأن الحضارة هي مجموع مفاهيم الإنسان عن الحياة، وهي التي تعين طريقته في الحياة؛ ولأن المدنية هي الأشكال المادية المحسوسة التي تستعمل في شؤون الحياة.

والحضارة والثقافة لا تكونان إلاّ خاصتين، والمدنية تكون خاصة وعامة، خاصة إذا كانت ناتجة عن حضارة، وعامة إذا كانت ناتجة عن علم وصناعة؛ لأن العلم والصناعة عالميان. وبحسب رقي الحضارة تكون المدنية الناتجة عنها راقية، وبحسب رقي العلم والصناعة تكون المدنية الناتجة عنهما راقية. أما إذا انحطت الحضارة وضعف العلم كانت المدنية الناتجة عنهما متأخرة.

والمدنية الناجمة عن العلم والصناعة تؤخذ من الغرب اليوم كما أخذها الغرب عن المسلمين فيما مضى، وكما أخذها المسلمون عمن سبقهم من الشعوب حين اتصلوا بهم، ونقلوا عنهم أشكال أبنيتهم وملابسهم وأوانيهم وغيرها، مما ليس فيه شارة الكفر وعلامات دياناتهم، ومما لا يتناقض مع عقيدة الإسلام ومفاهيمه عن الحياة، وأخضعوها لوجهة نظرهم في الحياة.

ذكر: أن خالد بن إبراهيم أحد قواد المسلمين غزا أهل "كثر" من بلاد الصين وأخذ منهم الأواني الصينية المنقوشة ما لم ير مثلها، ومن السروج ومتاع الصين شيئاً كثيراً، فحمل المغنم إلى أبي مسلم الخراساني وهو بسمرقند. كما أخذ المسلمون صناعة الورق من الصين، وزادوا عليها وعمموها حتّى انتشرت مصانع الورق في رقعة العالم الإسلامي: في "بورة" قرب دمياط، وسمرقند وبغداد والأندلس ودمشق وطرابلس وحماه وغيرها، وكان منه أنواع: الفرعوني، والسليماني والجعفري والطلحي والطاهري، وعن المسلمين انتقلت صناعة الورق إلى أوروبا عن طريق إسبانيا والرومانيين والصليبيين، واستقرت في ألمانيا.

وذكر البلاذري في كتابه "فتوح البلدان": (أن القراطيس كانت تدخل بلاد الروم من أرض مصر، وتدخل الدنانير إلى بلاد العرب، وكانت الأقباط تذكر المسيح في رؤوس الطوامير وتضع الصليب، فأمر عبد الملك بن مروان . (الخليفة الأموي) . أن

يكتب في رؤوس الطوامير "قل هو الله أحد" بدل المسيح، فكتب إليه ملك الروم في ذلك وهدده، وطلب إليه أن لا يوضع في الدنانير تعريف للنبي محمّد . صلى الله عليه وآله .، فكان من أثر ذلك ضرب عبد الملك للنقود.

والحضارة الإسلاميّة تختلف عن الحضارة الغربية اختلافاً بيناً، فالحضارة الغربية تقوم على ما يلي:

١ . النزعة المادية التي تؤمن بالمادة وحدها، وتفسر بها الكون والإنسان والحياة، وتنكر الغيبيات، ولا تؤمن إلاّ بالمحسوس المنظور.

٢ . فصل الدين عن الحياة، أي: أن الإيمان بالله والغيبيات شيء لا علاقة له بالممارسات العملية اليومية للإنسان. والعلاقات إنّما تقوم على أساس الفصل.

والذين يفصلون الدين يؤمنون بالتثليث والأقانيم الثلاثة ويتمسحون بالصليب، وولادة الإله وغيرها، فالدين في الحضارة الغربية عاطفة تظهر عندما تثار، وصلة بين الإنسان وربه تظهر في الصلاة والمعبد، ولذلك يقول "جون جنذر" الصحفي الأمريكي في كتابه "داخل أوروبا" حين صور حياة الإنجليز: (إنّ الإنجليز إنّما يعبدون بنك إنجلترا ستة أيام في الأسبوع، ويتوجهون في اليوم السابع إلى الكنيسة).

فالإيمان عندهم مهزوز؛ لأن الفكرة عن الألوهية تحيط بها الأوهام والخرافات، ويظهر هذا جلياً في تصورات الكتاب والمفكرين ورجال الدين الغربيين لله عز وجل.

٣ . النزعة العلمانية تابعة للنزعة المادية، ومنبثقة عنها؛ لأن نتيجة الإيمان بالمادة: إنكار لوجود الله، أو تحييد للذات الإلهية عن التشريع لحياة الإنسان وممارساته العلمية، وبالتالي يرضخ ذلك الإنسان إلى فصل الدين عن الحياة، وفصل الدين عن العلم، وفصل الدين عن الحكم فصلاً تاماً، والبحث العقلي التجريبي في مظاهر الكون. وظهرت نتيجة لذلك كلمة "العلمانية"، وتعني: إقامة الحياة على غير الدين (٧).

وتشعبث العلمانية إلى شعبتين: شعبة متطرفة تضاد الدين كلياً، وشعبة معتدلة لا تعادي الدين، وإنّما تتركه للإنسان في اعتقاده وعبادته، دون التدخل في شؤون الحياة، وأصبحت هذه العلمانية بشعبتيها من أسس الحضارة الغربية.

٤ . الصراع: وهو صراع البقاء، صراع الشعوب، صراع الإنسان مع الإنسان، وصراع الإنسان مع الطبيعة، ومن هنا كانت الحروب الدموية بين شعوب أوروبا من جهة، وصراع الاستعمار مع شعوب العالم وأممه(٨).

٥ . النزعة التحررية: وتعني: إعفاء الإنسان العادي من قيود الشعائر والطقوس الدينية، أي: التحلل من الالتزام بالتعاليم الدينية، وتصوير الملتزمين بها بـ"الرجعيين"، وسبب التحررية في الغربية هو : أنها طرحت الدين جانباً ، ولما ظهرت الاكتشافات الحديثة والأشكال الاقتصادية الجديدة وسيطرت التكنولوجيا أخذت الحرية معناها الواسع في الانطلاق في الحياة من غير قيود، فكانت التحررية، ولا سيما في الحرية الشخصية، وانتشرت الملذات والشهوات من غير قيدٍ ولا رقيب.

٦ . الديمقراطية: وتعني: السيادة للشعوب، أي أنها المصدر الحقيقي للتشريع والسلطة معاً، وإرادة الشعب هي إرادة الله الذي تركته الحضارة الغربية، وهو القوة.

ونحن لا ننكر ما للحضارة الغربية من إيجابيات في التقدم العلمي في مختلف الميادين، وتسيير الحياة وتسهيلها بالمخترعات والمكتشفات التي أعانت الإنسان على الحياة الرخية، غير أنها انحطت بإنسانية الإنسان، ونشرت القلق والنزاع والصراع وأفقدته معاني القيم المثلى والطمأنينة والروحانية، وأدارت حياته على المنفعة والمصلحة، وجعلت ثقافته ثقافة خالية من عنصر الأمن والسمو الخلقي والفكري، وأدت بالأسرة إلى الانهيار، وبالجنس إلى الدمار، ودفعت الشباب إلى نيل الشهوات، وتعاطي المخدرات، واكتساب الأمراض والعاهات.

إنّ من سلبيات الحضارة الغربية المادية: أن جعلت العالم مرتعاً للاستغلال:

ألم تناد فرنسا بالحرية والإخاء والمساواة في الوقت الذي كانت القوات الفرنسية تسحق الشعوب في أفريقيا وجنوب آسيا ؟!

ألم تناد أمريكا بالسلام وهي تسحق الشعب الصومالي باسم الإغاثة، وتؤيد الصهيونية في القضاء على الشعب الفلسطيني، وتسكت عن جرائم الصرب والكروات والهنود في البوسنة والهرسك وكشمير؟!

بل إنّ الحضارة الغربية المادية تعمل على طمس الحضارة الإسلاميّة والثقافة الإسلاميّة في العالم الإسلامي والعربي، وتقمع الإسلاميين، في الوقت الذي تنادي فيه بالتعددية والديمقراطية.

ألم تجعل العالم على فوهة بركان متوتر الأعصاب، مقلق النفسية، مرتكزاً على كبسولة القنبلة الذرية وواضعاً يده على مفتاح الصواريخ ؟! بل أدت الحضارة الغربية إلى أحادية الدولة القادرة في النظام العالمي الجديد.

أسس الحضارة الإسلاميّة:

إنّ أسس الحضارة الإسلاميّة هي التعاليم الإسلاميّة القائمة على ما يلي:

١ . توحيد الله، وهو الإيمان بأن الله هو الإله الواحد المتصرف في الكون والخلق، وهو الفرد الصمد الكامل القادر الخالق لكل الموجودات (لا إله إلاّ هو عالم الغيب والشهادة((٩) (هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً((١٠).

٢ . الإيمان بالمغيبات كلها: الملائكة، والرسل، والأنبياء، والكتب السماوية، والجنة والنار، والقضاء والقدر...

٣ . الإيمان بالعبادات والقيام بأدائها: من الصلاة وما يتعلق بها، والزكاة والصيام والحج والذبائح والمأكل والمشرب والملبس، والحلال والحرام في سلوك الإنسان وأخلاقه. وكل عمل يقوم به المسلم يبتغي به وجه الله فهو عبادة.

٤ . التشريع المتعلق بشؤون الحياة كلها: من المعاملات والأسرة والميراث والجهاد وأمثالها.

٥ . عالمية الإسلام (وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين((١١) (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون((١٢).

٦ . التعقل ورفض ما يخالف الحقيقة، ورفض الأوهام والخرافات.

٧ . السعة واليسر، ورفع الحرج سعة الفكر واليسر في الأحكام، ورفع الحرج عن الناس في التزمت والتعصب (ما جعل عليكم في الدين من حرج((١٣).

٨ . التناسق . لا الصراع . بين عناصر الكون بعضها مع بعض، وبينها وبين الإنسان.

وهي الحضارة التي توافق الفطرة، وتسمو بالإنسان، وترقى بفكره، وتحترم عقله، وتهذب سلوكه، وتنهض بمجتمعه، وترشد مسيرته، وتقود العالم إلى الخير والمحبة والسلام، والى التكامل بين العلم والإيمان، وتسخير الكون مع الإبداع والاختراع في ظل العقيدة الإسلاميّة.

وهي الحضارة التي فهمت المرأة والرجل والعلاقة السوية بينهما، وهي التي تؤمن للناس حقوقهم وكرامتهم وحريتهم وأخوتهم ومودتهم، وتوجب سيادة الشرع والحق والعدل، وتوجد العادات والأعراف الطيبة للأمة كلها، مع الحفاظ على خصوصية كلّ شعب وكل قوم في أي بقعة من البقاع التي تسودها حضارة الإسلام.

فحضارة الإسلام: هي الحضارة التي تتحكم بالأسلحة المدمرة، وتسيطر على التكنولوجيا (التقنية) وتوجه استعمالها لخير البشرية، وهي التي تمنع الإسراف، والمجون، والإنفاق على الملذات غير المشروعة. وهي التي توفر الراحة البدنية والنفسية والسعادة المادية والمعنوية للإنسان أيا كان في ظلالها، مسلماً أو غير مسلم.

الاختلاف بين الحضارتين:

والاختلاف البين بين أسس الحضارتين: الإسلاميّة والغربية واضح في رقي العالم الإسلامي يوم تمسك بحضارته، وانحدار الحضارة الغربية المعاصرة التي تمجد المادة، واللذة والجنس، وتسلب الإنسان إنسانيته، وتمرغه في الوحل، بل تسحق إنسانيته حين يعبد المادة، ويحيا في الفجور، ويرتفع في مجتمعه أصحاب الرذيلة، ويكثر فيه الفقر والبطالة والطغيان، والسيطرة على الشعوب الضعيفة واستغلال خيراتها، وسلب حرياتها وأموالها وبترولها وذهبها، وإغراقها بأدوات الترف والرفاهية؛ لاستعبادها بالديون من صندوق النقد الدولي، والمصارف التي تسيطر عليها اليهود الّذين تحكموا من خلال هذه الحضارة الغربية المادية بمقدرات العالم، وأقاموا كيانهم الصهيوني في قلب العالم الإسلاميّ، وسخروا دول الغرب . ولا سيما أمريكا لمصالحهم ومآربهم وسيطرتهم.

أهذه حضارة ترقى بالإنسان، أم تجعله عبد المطعم والمشرب، والخداع والغش واللهو والظلم والتحرر والانطلاق في الشهوات ؟ أهذه حضارة وهي التي تنحط بغرائز

الإنسان، فيصبح كالحيوان في المراقص والشواطئ والأندية والخمرة والميسر . (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام((١٤).(أفحسبتم إنّما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلاّ هو رب العرش الكريم((١٥).ولا هم للإنسان فيها إلاّ التفاخر بالأسلحة الفتاكة، والتنافس في البنيان والقصور (أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين((١٦). قال . صلى الله عليه وآله .: تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة (١٧).؟

إنّ ما يدعو إليه الإسلام هو: الحضارة الخيرة، والثقافة الموجهة، والمدنية المسعدة، والعلم المؤدي إلى رقي الإنسان وراحته وطمأنينته.

التصور المستقبلي للحضارة والثقافة الإسلاميتين:

يقف المسلمون اليوم أمام حضارة غربية طاغية بتقدمها المدني، أي: بأشكالها المادية وقوتها العسكرية، وسيطرتها المالية، لكنها . كما أسلفنا . حضارة تحمل في طياتها عوامل انهيارها؛ لأنها تشقي الإنسان ولا تسعده، وتضعه في حمأة الفساد والانحطاط في صورة من البهرجة المادية الزائفة.

فواجبنا: أن ندرك خطورة الاندفاع وراء الحضارة الغربية الحديثة وثقافتها، وأن نفهمها بعمق وتفهم، ولا نقف جامدين أمامها، بل نتعامل معها من خلال حضارتنا، فنأخذ منها ما ينفعنا من العلم والمخترعات، ونتعلم لغات الغرب، ونفهم عقلياتهم وتصوراتهم عن الحياة، ثم نحكم حضارتنا وثقافتنا وتعاليم ديننا فيما نأخذ.

وعلينا: أن نجهر . في قوة ووضوح . بسمو حضارتنا، وأنها هي المنقذة لما يتخبط فيه العالم، وأن نواجه التحديات الكبيرة، والمؤامرات المستمرة على حضارتنا وثقافتنا..، وقبل هذا وذاك: أن نفهم حضارتنا وثقافتنا، أي: نفهم ديننا وتعاليمه الحقة، وندرك سمو الإسلام وسمو تعاليمه وتشريعاته وأحكامه، وأن ننبذ الفرقة فيما بيننا، وأن نلتقي على مفاهيم الخير وإيجابيات الوفاق، وأن لا تؤثر فينا اختلافات الرأي والأحكام ما دمنا نلتقي على الأسس السليمة لحضارتنا وثقافتنا، وأن نتعاون بالمحبة والمودة في مجالات الأبحاث والعلوم ونشر الثقافة والحضارة، وأن نعمل على إنشاء الجيل المؤمن بربه ودينه وحضارته وثقافته.

وأمامنا مشوار طويل في جهادنا بالكلمة الصادقة الواضحة البينة، حتّى يتبين للعالم الحق من الباطل، والسيء من الحسن وحتى يعود ضعيف الإيمان ليوطد صلته بالله الخالق.

فنحن ما زلنا في صلابة الإيمان، مستعدين للتضحية والصبر والفهم والوحدة والتجمع، لا تخيفنا قوة المواجهة، ولا تحبطنا عوامل الضعف، ولا تبهرنا تقنيات الغرب.

وما زالت ثقافتنا بأصالتها، وحضارتنا بشمولها وقوتها هي الأقوى في ميزان الحجة والعرض والموازنة، ونحن نرى انهيار المجتمعات الغربية وتفسخها وتآكلها في داخلها، على الرغم من القشرة الصلبة التي تغلفها قوة السياسية والتقدم العلمي..

إنّ من واجبنا: أن نتعامل مع العلم والكون، وأن ندفع أبناءنا إلى العمل في بلادنا، وأن نحول دون هجرة الكفاءات العلمية والثقافية إلى الغرب. وأن نعمل على بناء ذاتنا في داخلنا، فأي محاولة لنشر حضارتنا وثقافتنا في العالم لا يمكن أن تؤتي ثمراتها مالم يكن العالم الإسلامي . حكومات وشعوباً . علماء ومفكرين، عاملين في داخلنا أوّلاً...

ومن هنا، إذ نبارك الخطوات الطيبة التي تقوم بها بعض الحكومات الإسلاميّة، وفي طليعتها الجمهورية الإسلاميّة في إيران، لتقوية الإيمان والتمسك بالحضارة الإسلاميّة، والثقافة الإسلاميّة وبناء الذات.

ويسرنا أن نقترح على هذا المؤتمر ما يلي:

أوّلاً: إيجاد هيئة دائمة لهذا المؤتمر، تستمر في نشر الحضارة والثقافة الإسلاميتين، وتزوده بالمال والكوادر اللازمة. وتتكون هذه الهيئة من شخصيات إسلامية من داخل إيران ومن العالم الإسلامي، تتابع تحقيق توصيات المؤتمر.

ثانياً: الاتصال المستمر مع الهيئات والمراكز الإسلاميّة للتنسيق فيما بينها والتعاون المستمر.

ثالثاً: تقوم هذه الهيئة بالاتصال بالحكومات في العالم الإسلامي؛ للعمل معها على نشر الحضارة والثقافة الإسلاميتين.

رابعاً: وضع برنامج عملي محدد لعمل هذه الهيئة.

وأخيراً: فنحن نؤمن بالمستقبل لحضارة الإسلام وثقافته أن تسود، ونؤمن بأن الأمة الإسلاميّة ستستعيد صدارة القيادة للعالم، وصدق الله تعالى: (إنّا نحن نزلنا الذكر و إنّا له لحافظون((١٨) (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبين لهم أنّه الحق أو لم يكف بربك أنّه على كلّ شيء شهيد((١٩).

---

١ . بحث ألقي في ندوة الحضارة والثقافة الإسلامية التي عقدت في طهران في الأول من شهر شعبان (١٤١٤ هـ).

(*) أستاذ في الفقه والأصول . الاردن.

٢ . الدكتور محمّد سعيد رمضان البوطي في "منهج الحضارة الإسلامية في القرآن": ١٩,

٣ . عبد الرحمان بن خلدون في المقدمة: ٢٢، وهو تعريف عام مستخلص من شرحه للحضارة.

٤ . الدكتور محمّد حسين في "الإسلام والحضارة العربية" ,٤

٥ . الدكتور سيد حسين نصر في بحث "تأملات حول الإنسان ومستقبل الحضارة": ٣٠,

٦ . كتاب حضارة العرب لغوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، طبع دار إحياء الكتب العربية سنة (١٩٥٤م).

٧ . سفر بن عبد الرحمان الحوالي في كتاب "العلمانية": ,٢٤

٨ . الدكتور يوسف القرضاوي في بحث "الإسلام حضارة الغد".

٩ . الحشر: ,٢٢

١٠ . الكهف: ,٣٨

١١ . الأنبياء: ,١٠٧

١٢ . التوبة: ,٣٣

١٣ . الحج: ,٧٨

١٤ . محمّد . صلى الله عليه وآله .: ,١٢

١٥ . المؤمنون: ,١١٥

١٦ . الشعراء: ,١٣٠

١٧ . سنن ابن ماجة: ,٤١٣٥

١٨ . الحجر: ,٩

١٩ . فصلت: ٥٣.

=============

المراصد الفلكية في الحضارة الإسلامية

التاريخ: ١٢-١٠-١٤٢٣ هـ

الموضوع: منوعات

إن الاهتمام بالأرصاد الفلكية له في الحضارة الإسلامية أسباب علمية وعملية عدة. لقد عرف العرب جهود علماء الحضارات القديمة في الفلك, وحاولوا تدقيقها وإعادة النظر فيها وتجاوزها إلى مزيد من المعرفة الدقيقة.

وكانت الاهتمامات العلمية ذات طابع ديني أيضا, وذلك لأن تحديد القبلة أمر ضروري لإقامة الصلاة في موعدها بدقة. وأدى هذا المتطلب الديني إلى اهتمام بصناعة المزاول لقياس الوقت, وإلى ظهور ما يسمى باسم علم الميقات.

ولكن بحوث العلماء في الحضارة الإسلامية تجاوزت هذه المتطلبات العملية إلى البحوث الفلكية الأساسية, وكان (المرصد) أو (بيت الرصد) أو (الرصدخانة) من أهم المؤسسات العلمية. العلماء المبكرون كانوا يقومون بأرصادهم الفردية, ثم بدأت المراصد تؤسس لتكون مؤسسات علمية للدراسات الفلكية العلمية. وهناك فرق بين علم الفلك Astronomy بوصفه علماً دقيقاً يقوم على الحقائق والقياسات العلمية من جانب, وعلم التنجيم Astrology وما يرتبط به من افتراضات وتصوّرات حول الإنسان ومصيره وعلاقة ذلك بالكواكب وحركتها من الجانب الآخر.

إن الاهتمام بالأرصاد في الحضارة الإسلامية قديم, هناك معلومات عن أرصاد مهمة قام بها علماء كبار في إطار الحضارة الإسلامية, ويبدو أن القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي عرف بداية هذه الجهود في مدينة جنديسابور, تلك المدينة التي كانت مركزاً قديماً مهماً لعلوم اليونان على مدى عدة قرون قبل الإسلام. ولكن الأرصاد التي وصلت إلينا نتائجها كانت في خلافة المأمون الخليفة العباسي على

مدى السنوات (٢٠٨-٢١٨هـ). لقد سجلت حركة الشمس والقمر تسجيلاً دقيقاً, والمقارنة كانت في البداية بين موقعين, مع مقارنة ذلك بالملاحظات الواردة في كتاب المجسطي لبطليموس.

وتنسب إلى عدد كبير من علماء القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي أرصاد متعددة, قام بها بنو موسى .

أما القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي فقد عرف عدة أرصاد في منطقة أكبر, استوعبت أيضاً مدن أصفهان والري في إيران والقاهرة في مصر, منها رصد القوهي وأبي الوفاء البوزجاني وعبدالرحمن الصوري والخجندي ثم ابن يونس الذي أنجز بالقاهرة (الزيج الحاكمي) في عهد الحاكم بأمر الله. أما في الأندلس فقد اهتم عدد من العلماء بالأرصاد, ومنهم مسلمة المجريطي . ويتضح أن عناية المشرق الإسلامي بالمراصد كانت كبيرة, كان مرصد أصفهان أول مرصد في وسط آسيا وفي عهد ملكشاه (١٠٧٢/٥٦٤-١٠٩٢/٤٨٥). وكان عمر الخيام الذي يعرفه العرب برباعياته ويذكره تاريخ العلم ببحوثه الفلكية أحد علمائه. وكان العمل في المرصد طبقاً لخطة محددة, على أساس علمي. لاحظ العلماء أن دورة كوكب زحل تستغرق ثلاثين عاماً, وأنه الأكثر بعداً عن الأرض, فوضعت خطة الأرصاد لمدة ثلاثين عاماً وبدأ العمل بقوة.

مرصد سمرقند هو مرصد (ألغ بك) بدأ تأسيسه سنة (٨٢٦هـ/١٤٢٠م-٨٣٢هـ/١٤٢٨م) بتمويل من ذلك الحاكم العظيم في وسط آسيا الذي حكم سمرقند (١٤٠٩-١٤٤٩م), وهو من أهم حكام الأسرة التيمورية.

ويبدو أن مرصد سمرقند استمر حتى سنة ١٥٠٠م وكشفت آثار هذا المرصد سنة ١٩٠٨م وتم ترميم القسم المتبقي منه.

إن التقدم في علم الفلك ارتبط بهذه المراصد في إطار الحضارة الإسلامية. وعندما زار رفاعة الطهطاوي (١٨٧٢/١٨٠١) باريس - انتبه, وهو المسلم الذي عرف أهمية (علم الميقات) , إلى المرصد الوطني الفرنسي بوصفه إحدى المؤسسات العلمية المهمة, وسمّاه (الرصد السلطاني).

================

#تجديد منهج العقيدة الإسلامية (٢/١)

د. بسطامي محمد خير *

تجديد منهج العقيدة الإسلامية مقدمة

يجد المسلمون أنفسهم في هذا العصر الحاضر أمام ثروة علمية ضخمة في ميدان العقائد موروثة من قرون طويلة ، وأبدعت الحضارة الإسلامية في حفظ أصولها ومقوماتها ، رغم التيارات المتلاحقة والأمواج المتلاطمة من الفتن والأزمات الفكرية والسياسية والاجتماعية التي مرت بها . ويواجه المسلمون المعاصرون أيضا الحضارة الغربية بسلطانها وسطوتها المادية والعلمية والفكرية ، وإلحادها ومذاهبها الفلسفية المناقضة للدين ووصمها له بالخرافة والأساطير ، وبما أثاره المنصرون والمستشرقون من شبه وشكوك حول أصول الإسلام وأسسه . وخلّف ذلك آثاره في العالم الإسلامي من انتشار ردة محدثة وإحياء لانحرافات قديمة وتيارات عقدية جديدة ، واحتدم الجدل واللغط وتشعبت المسائل وتعقدت . وبسبب ذلك كله برزت الحاجة للتساؤل عن كيف يمكن مواجهة هذا الواقع المعاصر ، وهل يمكن لأجيال المسلمين الحاضرة تجديد مناهج الخطاب العقدي الإسلامي بما يلائم ويناسب العصر . هذه الأسئلة وأشباهها هي ما يحاول هذا البحث الموجز النظر فيها والتأمل في الإجابة عليها وصولا للطريقة الأقوام والأمثل .

ومما ينبغي ذكره أن مشكلة المواجهة بين الحضارة الغربية والعالم الإسلامي ، لم تواجه الإسلام وحده ، بل هي قد واجهت الأديان الأخرى ، كما يقرر أحد أساتذة الأديان المعاصرين الذي قال :

"إن كل الأديان الكبرى قد واجهت أزمة منذ ميلاد الحضارة الحديثة ، وكل هذه الأديان قد بذلت بطريقتها الخاصة جهودا كبيرة لحل هذه الأزمة ، ولمواجهة الحياة العصرية والعلمانية المصاحبة لها . إن القرن التاسع عشر والقرن العشرين قد شهدا فترة إبداع عظيمة في هذه الأديان ، وكان ذلك ببساطة بسبب أن هذه الأديان ينبغي أن تتوافق مع العصر الحديث أو تموت."[١]

ولكن ينبغي التفريق بين هذا التوافق الذي حدث بين الدين والعصر الحديث ، في الغرب خاصة وفي بقية العالم تبعا للغرب ، وبين التجديد الذي ينادي به الإسلام ،

والذي جاء في البشارة النبوية المعروفة ، (إن الله يبعث لهذه الأمة علي رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)[٢] . فالتجديد الإسلامي في حقيقته ليس توفيقا ومواءمة ولا مزجا ولا لبسا بين الإسلام ومسلمات الحداثة الغربية المعاصرة ، أو استجابة وركونا إلى ضغوط واقعها وهيمنتها واستعمارها بأشكاله المختلفة. بل التجديد الإسلامي إبقاء وحفظ لأصول الإسلام وثوابته ، وإحياء وبعث لمبادئه السليمة ومناهجه الصحيحة ، ونقد وتنقية لما تلبس بالدين مما ليس منه ، سواء كان ذلك اللبس بسبب عوامل داخلية أو بتأثيرات خارجية[٣] . وبما أن أصوات عالية ترتفع اليوم من جهات عديدة تنادي بتجديد العلوم الإسلامية ومنها العقيدة ، فإن من الضروري أن يكون هذا التجديد عن إحاطة وعلم بثوابت هذه العلوم ومتغيراتها ، وعن دراية وبصيرة بالواقع المعاصر خيره وشره وحقه وباطله .

وفي هذا البحث المختصر عن تجديد منهج العقيدة الإسلامية ، تكفي الإشارة إلى ثلاثة معان لعله يتضح منها المقصود بهذا التجديد : الأول التجديد بمعنى التوفيق والمواءمة ، الثاني: التجديد بمعنى التأصيل والتأسيس ، الثالث: التجديد بمعنى النقد والتنقية .

تجديد التوفيق والمواءمة

هناك فئة من الناس ممن ينادي بالتجديد ، سواء كان ذلك عن حسن قصد أو عن سوء نية ، تفهم أن التجديد يعنى أي وجهة نظر في الدين مبنية علي الاعتقاد بأن التقدم العلمي والثقافة المعاصرة ، ستلزمان إعادة تأويل التعاليم الدينية التقليدية ، علي ضوء المفاهيم الفلسفية والعلمية السائدة في هذا العصر . ويطلق بعض الناس على هذه الفئة مصطلح العصرانية ، وهي حركة سعت في الغرب إلي تطويع مبادئ الدين لقيم الحداثة الغربية ومفاهيمها ، وإخضاعه لفلسفتها وتصوراتها ووجهة نظرها في شئون الحياة . يقول أحد الكتاب الغربيين ممن سجلوا هذه الظاهرة:

"إن الذين دعوا أنفسهم بالمتدينين الأحرار في كل فرقة دينية ، سواء بين البروتستانت أو اليهود أو حتى الكاثوليك قد ذهبوا إلي القول أنه إذ كان للدين أن يشكل حقيقة حية ، وإذا كان له أن يظل تعبيرا دائما عن الحاجات الدينية للجنس البشري ، فلا بد له أن يتمثل الحقيقة والمعرفة الجديدتين ، وأن يتآلف مع الظروف المتغيرة في

العصر الحديث من فكرية واجتماعية . ويقول هؤلاء إن تعديل العقائد في ضوء المعرفة السائدة يجب أن يتم المرة تلو المرة ما دامت معرفة الإنسان تنمو وحياته الاجتماعية تتغير."[٤]

وقد ظهر التجديد التوفيقي المعاصر في العالم الإسلامي قبل قرن ونصف من الزمان تقريبا ، وقدم تفسيرات وتأويلات للعقيدة الإسلامية ، "علي أساس اقتباس العلوم العصرية بحذافيرها وعلي علاتها ، وتفسير الإسلام والقرآن تفسيرا يطابقان ما وصلت إليه المدنية والمعلومات الحديثة ، ويطابقان هوي الغربيين وآرائهم وأذواقهم ، والاستهانة بما لا يثبته الحس والتجربة ، ولا تقرره علوم الطبيعة في بادئ النظر من الحقائق الغيبية "[٥] . ومن الأمثلة المشهورة المعروفة ، تأويلات سيد خان واقبال في كتابه "تجديد التفكير الدينى" ، وتأويلات محمد أسد في ترجمته وتفسيره للقرآن. ولكن هذه التفسيرات والتأويلات لم تتجاوز دائرة ضيقة من المفكرين ، وظلت حبيسة في بطون الكتب ، ولم تجد رواجا . ولعل هذا التوفيق بين عقائد الإسلام والحداثة الغربية المعاصرة يشابه موقف من أطلق عليهم لقب الفلاسفة المسلمين ، من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا ، الذين حاولوا التوفيق بين الفلسفة الاغريقية والدين ، فقد قبل هؤلاء مسلمات الفلسفة اليونانية في عمومها ، إن لم يكن في جزئياتها ، ثم أعملوا عقولهم لإعادة تأويل المعتقدات الإسلامية والنصوص القرآنية والنبوية التي تسندها ، في ضوء مقولات وقواعد زعموا أنها عقلية . ومن المعروف أن شيوع هذا الاتجاه التوفيقي الفلسفي عند المسلمين ، قد تصدى له اتجاه نقدي قوي ، كان من أشهر مفكريه الغزالي وابن تيمية ، مما جعله يتراجع وينزوي إلا عند قلة .

ولعل من صور التجديد التوفيقي الهام في أيامنا هذه ، ما يسعى إليه البعض من إصلاح التعليم الدينى من خلال اقتباس طرق تدريس الدين الرائجة في الغرب . فمن المعروف أن الغرب قد استحدث طرقا عديدة لتعليم العقائد في الجامعات والمدارس العامة ، تنبع من نظرياته وفلسفاته المختلفة لأصل الدين ونشأته[٦] . وتقوم نظرة كثير من الغربيين للدين وعقائده على أساس أن الدين نتاج بشري متأثر بالظروف التي نشأ فيها . ولهذا تسعى هذه الطرق لإخضاع الدين للنقد العقلي ، أو ما يسمى بالنقد التاريخي للمنقول ، الذي يقوم أكثر ما يقوم على إثارة الشكوك حول أصول

الدين ومسلماته . ومن هذه الطرق أيضا الاهتمام بطقوس الدين ومظاهره الاجتماعية ، دون عناية بلبابه وجوهره . ومنها التوسع في الدراسات الدينية المقارنة ، من يهودية ونصرانية وإسلام وإغريقية ومصرية وهندية وبدائية ، فتختلط المعتقدات وتتشابك ويحكم عليها إما بأنها كلها أساطير ، أو أنها حقائق نسبية لا تقوم على العقل بل على القبول الأعمى والتسليم المطلق .

وقد لا يتبنى التجديد التوفيقي كل هذه الأطروحات الغربية بمثل هذا الوضوح والتطرف ، ولكنه حتى في أخف صورة له ، يعتمد النقد في اتجاه واحد ، إذ أنه لا ينتقد الحداثة الغربية ونظرياتها ، إنما يوجه سهامه ضد عقائد الإسلام بصورة خفية ، بدعوى نقد التراث ، ويروج للنظرة الغربية العلمانية التي تري العقيدة والإيمان أمرا خاصا ، لا ينبغي أن يكون له تأثير في الحياة العامة .

ويقف في الطرف الآخر المخالف للتجديد التوفيقي ، اتجاه يرفض التجديد مطلقا ، باعتباره مشروعا غربيا يناقض الإسلام مناقضة تامة ، وهدفه الأساسي تجفيف منابع العقيدة التي يظن أنها تغذي ثقافة العنف والتطرف . وتتكفئ فئة الرفض هذه على الموروث وتقديسه ، وتتحامل على الحداثة الغربية باعتبارها شرا محضا . ولعل هذا تطرف يقابل تطرفا ، وكلا الطرفين مذموم . ولكن يبقى السؤال ما التجديد الوسط ؟

----

[١] Blau, Joseph, Modern Varieties in Judaism, p. ٢٦

[٢] سنن أبي داود – كتاب الملاحم ج / ٤ ص ١٠٩

[٣] انظر مفهوم تجديد الدين ، بسطامي محمد خير ،

[٤] تكوين العقل الحديث – جون راندال – ح/٢ ص ٢١٧ .

[٥] الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرية الغربية – أبو الحسن الندوي ص ٧١

[٦] انظر مثلا Carl Olson, Theory and Methods in the study of Religion, Wadsworth, Belmont, ٢٠٠٣.

===============

علم الثقافة الإسلامية

لفتت الكتاباتُ ذات المنهج الشمولي بعضَ العلماء والمفكرين؛ فبدأت الرؤية تتضح في الحاجة إلى تأسيس علم جديد؛ يقوم بتوعية الأجيال بهويتها الإسلامية، ويُحصِّنها ضد الغزو الفكري والثقافي.. وسمي هذا العلمُ (علم الثقافة الإسلامية)، ويذكر الأستاذ محمد المبارك – رحمه الله – هذه المرحلة وما رافقها من اجتهادات؛ فذكر أن عدة اقتراحات طُرِحت لتسمية هذا العلم الجديد، منها:

• اقْتُرِحَ بأن يسمى: (الإسلام في مقابل النصرانية واليهودية والشيوعية وغيرها من الأديان أو المذاهب الاجتماعية)! ولكنَّ هذا الاقتراحَ رُدّ لطول الاسم، ولأن مصطلح (الإسلام) مصطلح عامٌّ لا يشير إلى المقصود من العلم.

• واقتُرِحَ بأن يسمى (علم الحضارة الإسلامية)، ورُدَّ هذا الاقتراحُ بأن المسمى سيدخل في الدراساتِ التاريخيةِ، وعرضِ الجوانب العلمية والحضارية، وهذا غير مقصودٍ، ومخدومٌ في علومٍ أخرى.

• واقتُرِحَ بأن يسمى (النُّظُم الإسلامية)، ولكن هذا التعبير – بصيغة الجمع – يُفهَم منه الدلالةُ على الأنظمة المختلفة للإسلام؛ كالنظام السياسي، والاقتصادي، والأسري!

• ويرى الأستاذ محمد المبارك بأن يسمى العلم الجديد (نظام الإسلام)، ويبرّر هذه التسمية بقوله: (لأن كلمة "نظام" – بالإفراد – تفيد أن لكل دين أو مذهب طريقةً أو نظاماً يُنظِّم أجزاءَه وأقسامه ومبادئه النظرية والعملية)[٦].

• أُدخل هذا العلمُ إلى مناهج جامعة الرياض، التي سميت باسم (جامعة الملك سعود)، كان ذلك عام ١٩٦٤م، وسميت باسم مادة (الثقافة الإسلامية).

• في عام ١٣٩٧هـ أُنشئ قسمُ الثقافة الإسلامية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

وبذلك استقر مسمى (الثقافة الإسلامية) لهذا العلم الجديد، وقُرِّر تدريسُ هذه المادة في جميع الجامعات في المملكة العربية السعودية.

المراحل التي مرّت بها الثقافة الإسلامية:

يذكر الأستاذ محمد المبارك في كتابه (الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية) أن جيلَه شهدَ حمْلاتِ تشكيكٍ في المُثُلِ والقيم الإسلامية، وشهد انبهاراً

بالأفكار الغربية مثل (العلمانية) و(الديمقراطية)، ثم جاءت موجة (الاشتراكية)، ويشير إلى أن هذه (الأيدلوجيات) والأفكار جاءت إلى العالم الإسلامي، والظروفُ مهيّئة لانتشارها، والنفوسُ مستعدّة لقَبولها[٧].

ومنذ ذلك الحين أصبحت الثقافة الإسلامية تواجه تحدّياً كبيراً، وبدأت تتضح مراحل المواجهة مع الثقافة الغربية الغازية، ويمكن أن تقسم هذه المراحل إلى المراحل الآتية:

المرحلة الأولى (مرحلة: الإسلام في قفص الاتهام):

في هذه المرحلة كانت الثقافةُ الإسلاميةُ ومُثُلُها وقيمُها ونُظُمُها.. في قفص الاتهام! وأصبح الإسلام مُتَّهماً، وتُثارُ حولَه كثيرٌ من الشُبُهات، وانبرى العلماءُ والمفكرون يدفعون عن الإسلام هذه الاتهامات، ويفنّدون تلك الشبهات؛ فالإسلام ليس منافياً للرُّقيّ، ولا مانعاً من التطور، ولا معارضاً للعلم والعقل، وهذا ما يلاحَظ في مؤلفات الشيخ محمد عبده، وفريد وجدي، وأمثالهما[٨].

المرحلة الثانية (مرحلة: التوفيق بين الإسلام وغيره من المبادئ الغربية):

وفي هذه المرحلة خرج الإسلام من قفص الاتهام، وأصبح يُقاس بمقاييس غيره، فالإسلام صالح لأنه يتفق مع (الديمقراطية)، وهو متطور لأنه يتفق مع مبادئ الاشتراكية! وسببُ القياسِ على هذه المبادئ أن كثيراً من المثقفين كانوا منبهرين بتلك المبادئ والنظم..

وفي هذه المرحلة أُلبسَت الأفكارُ الغربية أحياناً لباسَ الإسلام؛ ليسهُل مرورُها واجتيازها إلى المجتمع الإسلامي! وأحياناً يُلبَس الإسلامُ لباسَ الأفكار الغربية؛ ليسهل على العقول التي ألفت التفكير الغربي أن تستسيغه وتقبله!! وظهرت كتبٌ في هذه المرحلة، مثل كتاب (ديمقراطية الإسلام!) للعقاد، وكتاب (اشتراكية الإسلام!) لمصطفى السباعي[٩].

وكان لهذه المرحلة إيجابياتها وسلبياتها، فكانت سبيلاً للكشف عن كثيرٍ من جوانب عظمة الإسلام، كما كانت – أحياناً – للانحراف والتعسف في تأويل نصوصه، وإلباسِه غيرَ ثوبه، وإقحامِ أفكارٍ غريبة عليه[١٠].

وكان لهذه المرحلة عدة خصائص، من أبرزها ما يلي:

١- أنها كانت تقوم على أساسٍ نفسي، من الإعجاب بالغرب وإكباره، واستشعارِ النقص والضعفِ الفكري والثقافي.

٢- أنها كانت تقوم على الأخذ بالمثل والقيم الغربية، واتخاذها مقاييس لتقويم مبادئ الإسلام ونظمه وقيمه.

٣- تأثرُ المسلمين وانخداعُهم ببعض الأفكار والاصطلاحات، مثل: التقدمية، والتطور، والتجديد..

٤- نقل المسلمين لمشكلات الغرب التي نشأت في ظروف تاريخية خاصة به، وإقحام تلك المشكلات في داخل المجتمع الإسلامي، على الرغم من اختلاف الظروف والملابسات!! مثل مشكلة الصراع بين الدين والعلم.

المرحلة الثالثة (مرحلة: ذاتية الإسلام وظهور تميزه على المبادئ الغربية):

وفي هذه المرحلة بدأت تتضح صورةُ الإسلام الخاصة به، ومقاييسه الذاتية، وبدأت مرحلة وعي الذات وأنَّ ما تملكه الأمةُ من مبادئَ سامية ونظمٍ صالحةٍ أفضلُ مما هو موجود لدى الغرب، فقد وجد المسلمون بين أيديهم رصيداً ثميناً من المثل والقيم والمبادئ والنظم، واكتشفوا أن ما جاء به الإسلام نظامٌ كامل وشامل للحياة.

وفي هذه المرحلة بدأت تتضح عيوبُ وسلبياتُ النظم الغربية، وأصبحت تُوجَّه الانتقاداتُ إليها، فبدأت تتضح عيوبُ (الاشتراكية) و(العلمانية) و(الديمقراطية)، وأن الشعوب لم تجد في تلك المذاهب والنظريات ما يحقق رُقِيَّها وسعادتَها[١١].

المطلب الثاني: تميز علم الثقافة الإسلامية، وأهمية تدريسها في الجامعات:

ويحوي هذا المطلب محورين:

المحور الأول: تميز علم الثقافة الإسلامية على غيره من العلوم:

من المؤسف أن ترى البعض يحمل تصوُّراً خاطئاً عن علم الثقافة الإسلامية، بل يذهب بعضُهم إلى أنه ليس هناك حاجة إلى هذا العلم، وأن العلوم الإسلامية الأخرى تغني عنه! ولذا نحاول أن نشير هنا إلى تميزه عن العلوم الإسلامية الأخرى:

- فمِمَّا يميز علم الثقافة الإسلامية أنه علم يبحث في كُليَّات الإسلام، في نظم الحياة كلها، وهذا يخرِج العلومَ الأخرى، كعلم العقيدة، وعلم الفقه..؛ لأنها علوم تبحث في فروع الإسلام وجزئياته، وليس في كليات الإسلام[١٢].

- إن علم الثقافة الإسلامية يتسم بالشمول، ويقصد به: التناول الكلي للموضوع باعتباره وحدةً مترابطة، سواء كان الموضوع قِيمةً أو نظاماً أو فكراً، فالإسلام يُتَنَاوَل بوصفه منهجاً للحياة مترابطاً من جميع الجوانب؛ العَقَدية، والعِبادية، ولخلُقية، والاجتماعية، والاقتصادية .. إلخ[١٣].

- ويتميز علم الثقافة الإسلامية بقيامه على منهجيةِ توجيهِ النقدِ إلى (الأيدلوجيات) والمذاهب الأخرى، ولا سيما في هذا العصر، الذي تتنافس فيه المذهبيات وتتصارع فيه الأفكار، فبواسطة النقد - بحديه الإيجابي والسلبي - يمكن بيانُ الجوانبِ الجيدةِ المتوافقةِ مع الإسلام في الفكر الإنساني، وكذلك بيانُ جوانبِ النقصِ والقُصورِ والانحراف التي تكشف عن حاجته إلى هداية الوحي[١٤].

- ويتميز علم الثقافة الإسلامية باعتماده على منهج المقارنة، وذلك من أجل كشف كمال الإسلام، وفضله، وحاجة البشرية إليه[١٥].

المحور الثاني: أهمية تدريس علم الثقافة الإسلامية في الجامعات:

تتجلى أهمية تدريس مادة الثقافة الإسلامية في الجامعات في معرفة أهدافِ تدريسها، وأبرزُ الأهداف لتدريسها ما يلي:

١- إبرازُ النظرةِ الشمولية للإسلام، بوصفه منهجاً شاملاً لجميع جوانب الحياة، أساسُه التوحيد، والتخلصُ من النظرة الجزئية للإسلام، التي تقصره على بعض جوانب الحياة.

٢- تعميقُ انتماء الطالب إلى الإسلام، وربطُه بكتاب الله - عز وجل - وسنّة نبيه - صلى الله عليه وسلم - وتبصيرُه بما في هذين المصدرين الرئيسين من أصول القيم الخلقية والحضارية، وذلك من أجل تحصينه - اعتقاداً وفكراً وسلوكاً - ضد التيارات الفكرية المعارضة للإسلام.

٣- تجليةُ مواقف الإسلام من قضايا العصر، خاصة في مجالات العلوم المختلفة، وحركات الفكر، ونظم الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية..، ونقدها من المنظور الإسلامي.

٤- بيانُ تفوقِ الإسلام وتميزه على المذاهب الفكرية و(الأيدلوجيات) في كافة شؤون الحياة، وإظهارُ قدرتِه على تحقيق السعادة الإنسانية؛ في مقابل إخفاق تلك المذاهب و(الأيدلوجيات).

٥- إعطاء الطالب صورة وافية عما صنعته رسالةُ الإسلام العامَّةُ الشاملةُ في الحياة الإنسانية، من تحريرِها للبشر من الوثنيات والخرافات، وإنقاذِهم من التخلف الفكري، والتفكك الاجتماعي.

٦- تشخيصُ حالِ الأمةِ الإسلاميةِ في مجالي الفكرِ والسلوكِ والحركةِ الحضاريةِ، وبيانُ مَواطن الخلل فيها ومنهج العلاج[١٦].

اهتمام الجامعات بتدريس مادة الثقافة الإسلامية:

يعود الفضل في تدريس المادة إلى الأستاذ محمد المبارك - رحمه الله - حيث سعى بجهوده إلى تحقيق ذلك، وقد ذكر - رحمه الله - الخطوات التي قام بها في هذا المجال، وهي التالية:

* كانت البداية في جامعة دمشق، في كلية الشريعة، عام ١٩٥٤م، حيث كان الأستاذ المبارك أحدَ أعضاء اللجنة التي وضعت خطةَ المناهج، وقام باقتراح إدخال مادة (نظام الإسلام) في منهج السنة الأولى؛ لإعطاء الطالب صورةً شاملةً للإسلام، وقُبِلَ الاقتراحُ، وقامَ الأستاذُ بتدريس تلك المادة.

* في عام ١٩٦١م اشترك الأستاذُ المبارك في لجان تطوير الأزهر، وقام بإدخال تلك المادة في مناهج جميع الكليات.

* ثم أدخلت المادة إلى مناهج الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

* ثم أدخلت المادة في كلية الشريعة بمكة المكرمة.

* ثم أدخلت في جامعة أم دَرْمان الإسلامية بالسودان.

* ثم في جامعة الرياض (جامعة الملك سعود حالياً) عام ١٩٦٤م[١٧].

* وكانت المملكة العربية السعودية سبّاقة في هذا المجال، حيث جعلت الثقافة الإسلامية أساساً في التعليم، وجاء في السياسة التعليمية ما يلي: (العلومُ الدينيةُ أساسيةُ في جميع سنوات التعليم: الابتدائي، والمتوسط، والثانوي بفروعه، والثقافةُ الإسلاميةُ أساسيةُ في جميع سنوات التعليم).

وبهذا أصبحت مادة الثقافة الإسلامية من المتطلبات العامة لجميعِ الجامعات في المملكة العربية السعودية.

ـــــ

[١] انظر بحث (مدخل إلى علم الثقافة الإسلامية)، للأستاذ الدكتور عبد الرحمن الزنيدي، المنشور في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الثاني، ص:٩٤، المحرم عام ١٤١٠هـ.

[٢] (الثقافة الإسلامية: تخصصاً ومادة..)، ص:١٩-٢٠.

[٣] (نظام الإسلام: العقيدة والعبادة)، ص:٩-١٠، دار الفكر، بيروت،١٤٠٥هـ ،١٩٨٤م.

[٤] انظر المرجع السابق، ص:٢٢.

[٥] المرجع السابق، ص: ٢٤.

[٦] انظر المرجع المذكور، ص:٨-١١، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٠م.

[٧] انظر المرجع السابق، ص:٥١.

[٨] انظر المرجع السابق، ص:١٥-١٦و٥١.

[٩] انظر المرجع السابق، ص:١٦.

[١٠] انظر المرجع السابق، ص:١١٠-١١١.

[١١] انظر بحث (مدخل إلى علم الثقافة الإسلامية) للزنيدي، ص: ٨٩.

[١٢] انظر (الثقافة الإسلامية: تخصصاً ومادة..)، ص:٢١.

[١٣] انظر المرجع السابق، ص:٢٢.

[١٤] انظر المرجع السابق، ص:٢٢.

[١٥] انظر (الثقافة الإسلامية: تخصصاً ومادة..) ص:٢٣-٢٤، و(مقدمات في الثقافة الإسلامية)، د. مفرح سليمان القوسي، ص:٤٢-٤٣، دار الغيث للنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ.

[١٦] انظر (نظام الإسلام)، للأستاذ محمد المبارك، ص:٢٤-٢٥.

[١٧] (سياسة التعليم في المملكة العربية السعودية)، ص:٩.

=============

#كيف اختلطت النصرانية بالعقائد الشركية ؟

سؤال:

إذا كانت النصرانية الحقة قد جاءت بتوحيد الله تعالى ، وإفراده بالعبادة دون ما سواه من الخلق ، سواء كان عيسى أو غيره ، فكيف اختلطت هذه الديانة بالعقائد الشركية ، فاتخذوا عيسى عليه السلام ، وأمه إلهين من دون الله ؟.

الجواب:

الحمد لله

ليس من شك أن الدعوة إلى توحيد الله تعالى ، وإفراده بالعبادة دون ما سواه من الخلق ، هو أصل الرسالة التي جاء بها نبي الله عيسى ، عليه السلام ، كما أنها أصل الرسالة التي جاء بها سائر الأنبياء ، قال الله تعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) النحل/٣٦ وقال تعالى أيضا : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا أَنَا فَاعْبُدُونِ) الانبياء/٢٥

وعلى هذه الدعوة يشهد عيسى عليه السلام على قومه ؛ قال الله تعالى : (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ(١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(١١٧) ، وأما كيف انحرف أصحاب هذه الديانة بعد ذلك عن التوحيد الخالص إلى العقائد الوثنية ، وعبادة عيسى وأمه من دون الله ، فهي قصة مبكرة في تاريخ النصرانية ، وسوف نورد هنا بعض الشواهد عليها ، من كلام أهلها ، وليسمع من له أذنان :

. . جاء في دائرة المعارف الأمريكية :

(لقد بدأت عقيدة التوحيد – كحركة لاهوتية – بداية مبكرة جدا في التاريخ ، وفي حقيقة الأمر فإنها تسبق عقيدة التثليث بالكثير من عشرات السنين . لقد اشتُقَّت المسيحية من اليهودية ، واليهودية صارمة في عقيدة التوحيد .

إن الطريق الذي سار من أورشليم [مجمع تلاميذ المسيح الأول] إلى نيقية [حيث تقرر مساواة المسيح بالله في الجوهر والأزلية عام ٣٢٥م] كان من النادر القول بأنه كان طريقا مستقيما .

إن عقيدة التثليث التي أقرت في القرن الرابع الميلادي لم تعكس بدقة التعليم المسيحي الأول فيما يختص بطبيعة الله ؛ لقد كانت على العكس من ذلك انحرافا عن هذا التعليم ، ولهذا فإنها تطورت ضد التوحيد الخالص ، أو على الأقل يمكن القول بأنها كانت معارضة لما هو ضد التثليث ، كما أن انتصارها لم يكن كاملا .)

[٢٩٤/٢٧]

ويمكنك الرجوع إلى بعض آراء من لا يزالون يذهبون إلى التوحيد من المسيحيين ، في المصدر السابق نفسه ، دائرة المعارف [٣٠٠/٢٧-٣٠١] .

ويقول وول ديورانت :

(لما فتحت المسيحية روما انتقل إلى الدين الجديد [أي المسيحي] دماء الدين الوثني القديم : لقب الحبر الأعظم ، وعبادة الأم العظمى ، وعدد لا يحصى من الأرباب التي تبث الراحة والطمأنينة في النفوس ، وتمتاز بوجود كائنات في كل مكان لا تدركها الحواس ، كل هذا انتقل إلى المسيحية كما ينتقل دم الأم إلى ولدها . وأسلمت الإمبراطورية المحتضرة أزِمَّة الفتح والمهارة الإدارية إلى البابوية القوية ، وشحذت الكلمة بقوة سحرها ما فقده السيف المسلول من قوته . وحل مبشرو الكنيسة محل الدولة .

إن المسيحية لم تقض على الوثنية ، بل ثبتتها ؛ ذلك أن العقل اليوناني عاد إلى الحياة في صورة جديدة ، في لاهوت الكنيسة وطقوسها ، ونقلت الطقوس اليونانية الخفية إلى طقوس القداس الرهيبة ، وجاءت من مصر آراء الثالوث المقدس ، ويوم الحساب ، وأبدية الثواب والعقاب ، وخلود الإنسان في هذا أو ذاك . ومن مصر جاءت عبادة الأم الطفل ، والاتصال الصوفي بالله ؛ ذلك الاتصال الذي أوجد

الأفلوطينية واللاأدرية ، وطمس معالم العقيدة المسيحية . ومن بلاد الفرس جاءت عقيدة رجوع المسيح وحكمه الأرض لمدة ١٠٠٠) . [قصة الحضارة ٤١٨/١١] .

وعلى الرغم من النفثة الإلحادية في كلام ديورانت ، وهو أمر معروف به ، والتي تظهر في زعمه أن أبدية الثواب والعقاب منقولة عن المصرية ، فإن تتبع الأصول الوثنية للنصرانية المحرفة لم يعد بالأمر الخفي ، ولم ينفرد هو ببحثه ؛ ففي كتابه " المسيحية والوثنية " يقرر روبرتسون أن الميثراثية ، وهي ديانة فارسية الأصل ، ازدهرت في بلاد فارس قبل الميلاد بنحو ستة قرون ، قد دخلت إلى روما حوالي عام ٧٠ م ، وانتشرت في بلاد الرومان ، ثم وصلت إلى بريطانيا ، وانتشرت في العديد من مدنها .

وما يعنينا هنا من أمر هذه الديانة أنها تقول :

- إن ميثراس ، الذي تنسب إليه ، كان وسيطا بين الله والناس . { انظر مقابله في النصرانية : أعمال الرسل ١٢/٤ }
- وأن مولده كان في كهف ، أو زاوية من الأرض . { انظر : لوقا ٧/٢ } .
- وأن مولده كان في يوم ٢٥ ديسمبر . { وهو يوم احتفال النصارى بمولد المسيح }
- كان له اثنا عشر حواريا . { انظر : متى ١/١٠ }
- مات ليخلص العالم { انظر : كورنثوس الأولى ٣/١٥ }
- دفن ولكنه عاد إلى الحياة { انظر : السابق ٤/١٥ }
- صعد إلى السماء أمام تلاميذه { انظر : أعمال الرسل ٩/١}
- كان يدعى مخلصا ومنقذا { انظر : تيطس ١٣/٢}
- من أوصافه أنه حمل وديع { انظر : يوحنا ١/ ٢٩ }
- في ذكراه كل عام يقام العشاء الرباني { انظر : كورنثوس الأولى ٢٣/١١-٢٥}
- من شعائره التعميد .
- يوم الأحد مقدس عندهم .

بينما يذهب المستشرق الفرنسي ليون جوتيه في كتابه " مقدمة لدراسة الفلسفة الإسلامية " إلى أن أصول التثليث النصراني ينبغي تلمسها في الفلسفة اليونانية ، وتحديدا في أفكار الأفلاطونية المحدثة ، التي تلقت مبادئ فكرة التثليث في النظرة

إلى خالق الكون عن أفلاطون ، ثم عمقتها إلى حد كبير ، بحيث اتضح التشابه الكبير بينها وبين النصرانية ؛ فالخالق ، ذو الكمال المطلق ، جعل بينه وبين العالم وسيطين ، صادرين عنه ، وهما أيضا داخلان فيه في نفس الوقت ؛ أي تتضمنهما ذاته ، وهما العقل والروح الإلهية . ثم قال :

(وهكذا كان التزاوج بين العقيدة اليهودية والفلسفة الإغريقية لم ينتج فلسفة فقط ، بل أنتج معها دينا أيضا ، أعني المسيحية التي تشربت كثيرا من الآراء والأفكار الفلسفية عن اليونان ؛ ذلك أن اللاهوت المسيحي مقتبس من نفس المعين الذي كانت فيه الأفلاطونية الحديثة ، ولذا تجد بينهما مشابهات كثيرة ، وإن افترقا أحيانا في بعض التفاصيل ، فإنهما يرتكزان على عقيدة التثليث ، والثلاثة الأقانيم واحدة فيهما .)

وهذا هو ما يشير إليه الكاتب الأمريكي (درابر) :

(دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ، ومناصب عالية في الدولة الرومية بتظاهرهم بالنصرانية ، ولم يكونوا يحتفلون بأمر الدين ، ولم يخلصوا له يوما من الأيام ، وكذلك كان قسطنطين فقد قضي عمره في الظلم والفجور ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية ، إلا قليلا في آخر عمره (٣٣٧م) .

إن الجماعة النصرانية ، وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت قسطنطين الملك ، ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية ، وتقتلع جرثومتها ، وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادئها ، ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء) .

وهكذا سلك النصارى بدينهم مسلك الذين كفروا من قبلهم ، حذو القذة بالقذة ، كما يشهد كتابهم على أنفسهم وبني قومهم ، وكفى بالله شهيدا ؛ قال الله تعالى : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) التوبة/٣٠

والله الموفق .

الإسلام سؤال وجواب

==============

#كيف يوفق المسلمون بين العمل للآخرة والعمل للدنيا ؟

سؤال:

في هذا العالم إذا كرس المسلمون جميع أوقاتهم وأفعالهم لما ينفع في اليوم الآخر ولم ينخرطوا في أي من الأعمال الدنيوية ، فكيف سيساهمون فيما فيه نفع الحضارة والإنسانية مثل التكنولوجيا والعلم والاختراع ؟.

الجواب:

الحمد لله

دين الإسلام هو خاتم الأديان ، وإن مِن أهم خصائص هذا الدين أنه دين ينظم الحياة كلها , فالإسلام دين الدنيا والآخرة , قال الله سبحانه وتعالى : (قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) الأنعام/١٦٢ ، وفي دعاء المسلمين في مواضع متفرقة يقولون : (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) ، فهذا دين الله الكامل والشامل والجامع ، جمع بين حق الله وحق العبد ، وبين أمر الدنيا وأمر الآخرة .

وإن ادِّعاء أن الإسلام جاء بالرهبانية ادعاء باطل ، بل الرهبانية في دين النصارى المحرَّف ، وأخذها عنهم بعض مبتدعة المسلمين كالصوفية ، أما أهل السنة والجماعة الذي أخذوا الدين من نبعه الصافي ، وفهموه على وجهه الصحيح فإنهم يعتقدون أن الدنيا معبر إلى الآخرة ، وأن الإنسان لا ينبغي له أن يتعلق بالدنيا على حساب الآخرة ، فهم جعلوا الآخرة هي محط أنظارهم لأنها الحياة الأبدية الخالدة ، فالعمل ينبغي أن يكون من أجلها لا من أجل حياة قصيرة فانية ، وليس معنى هذا أن لا يعملوا في الدنيا ولا يعمروا الأرض ، بل إن المسلمين بلغوا في مجالات العلم النظرية والعملية أعلى المنازل ، وكانت الحضارات تتبع المسلمين في تقدمهم وعلومهم ، ولا تزال بعض الجامعات الغربية العريقة تعترف بهذا وتدرِّس كتاباً للمسلمين في مناهجهم .

قال الفيلسوف الفرنسي " جوستاف لوبون " في كتابه " حضارة العرب " :

هل يتعين أن نذكر أن العرب - والعرب وحدهم - هم الذين هدونا إلى العالم اليوناني والعالم اللاتيني القديم ، وأن الجامعات الأوربية ومنها جامعة باريس عاشت

مدة ستمئة عام على ترجمات كتبهم وجرت على أساليبهم في البحث ، وكانت الحضارة الإسلامية من أعجب ما عرف التاريخ " انتهى .

والمسلمون ليسوا كغيرهم ، فإنهم لما كانوا متمسكين بدينهم كانوا سابقين – أيضاً – في الدنيا ، ولما تركوا دينهم وتخلوا عنه صاروا تبعاً لغيرهم وعالة عليهم ، والنصارى لما كانوا متمسكين بدينهم المحرَّف كانوا متخلفين في دنياهم ، ولما قاموا على كنائسهم حرقاً وعلى رهبانهم قتلاً وفصلوا الدين عن الدنيا تقدموا في دنياهم وعلومها ، فالمسلمون يدفعهم دينهم إلى التقدم ، ويتأخرون بتأخرهم عن دينهم ، والنصارى تخلفوا لما تمسكوا بدينهم المحرَّف ، لأنه لا يمكن لدين حرفه العباد أن يؤدي إلى التقدم ، وتقدموا لما تخلوا عنه ، فأي المنهجين يدعو لعمارة الدنيا ويسعى في تقدمه في العلوم وإسعاد الناس في الدنيا والآخرة ؟

والآيات والأحاديث التي تحث المسلم على عمارة الأرض بالزراعة والصناعة كثيرة ، وقد فهم المسلمون ذلك فسارعوا إلى العمل على هذه العمارة دون أن يؤثر ذلك على عبادتهم وطاعتهم ، ودون أن يروا أن بين الدين والدنيا تضادّاً وتنافراً ، والمحذور في هذه العمارة هو أن ينشغل المسلم بها عن واجبات دينه وطاعة ربه .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة) رواه البخاري (٢١٩٥) ومسلم (١٥٥٣) .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

وفي الحديث : فضل الغرس والزرع والحض على عمارة الأرض , ويستنبط منه اتخاذ الضيعة والقيام عليها ، وفيه فساد قول من أنكر ذلك من المتزهدة ، وحُمل ما ورد من التنفير عن ذلك على ما إذا شغل عن أمر الدين , فمنه حديث ابن مسعود مرفوعا : (لا تتخذوا الضيعة فترغبوا في الدنيا) الحديث , قال القرطبي : يجمع بينه وبين حديث الباب بحمله على الاستكثار والاشتغال به عن أمر الدين , وحمل حديث الباب على اتخاذها للكفاف أو لنفع المسلمين بها وتحصيل ثوابها .

"فتح الباري" (٥/٤) .

والحديث الذي ذكره الحافظ ابن حجر : (لا تتخذوا الضيعة فترغبوا في الدنيا) رواه الترمذي (٢٣٢٨) وحسَّنه .

قال المباركفوري رحمه الله :

(الضيعة) هي : البستان والقرية والمزرعة .

(فترغبوا في الدنيا) أي : فتميلوا إليها عن الأخرى , والمراد : النهي عن الاشتغال بها وبأمثالها مما يكون مانعاً عن القيام بعبادة المولى وعن التوجه كما ينبغي إلى أمور العقبى . وقال الطيبي : المعنى لا تتوغلوا في اتخاذ الضيعة فتلهوا بها عن ذكر الله قال تعالى : (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) .

"تحفة الأحوذي" (٦/٥١١) .

وقد رأينا إنصاف المسلمين ودينهم من بعض الباحثين الغربيين ، فاعترفوا بسبق المسلمين في مجالات العلوم الدنيوية المختلفة ، وهاهي بعض أقوالهم ليعلم السائل – وغيره – موقع الإسلام من الحضارات الأخرى ، وليعلم منهج الإسلام في حثه أتباعه على النظر والتأمل والعمل والإبداع ، وسنحرص على تنويع بلدان القائلين واختلاف ثقافاتهم .

١. يقول المفكر الفرنسي " جوستاف لوبون " في كتابه المعروف " حضارة العرب " – ترجمة " عادل زعيتر " – :

" لو أن العرب استولوا على فرنسا : إذن لصارت باريس مثل قرطبة في إسبانيا ، مركزاً للحضارة والعلم ؛ حيث كان رجل الشارع فيها يكتب ويقرأ ، بل ويقرض الشعر أحياناً ، في الوقت الذي كان فيه ملوك أوروبا لا يعرفون كتابة أسمائهم " ! .

٢. وقالت المستشرقة الألمانية " زيغريد هونكة " – في كتابها المعروف " شمس الله تشرق على الغرب" – انتشار المكتبات في العالم العربي والإسلامي :

" نمت دور الكتب في كل مكان نمو العشب في الأرض الطيبة ، ففي عام ٨٩١ م يحصي مسافر عدد دور الكتب العامة في بغداد بأكثر من مئة ، وبدأت كل مدينة تبني لها داراً للكتب يستطيع عمرو وزيد من الناس استعارة ما يشاء منها ، وأن يجلس في قاعات المطالعة ليقرأ ما يريد ، كما يجتمع فيها المترجمون والمؤلفون في

قاعات خصصت لهم ، يتجادلون ويتناقشون كما يحدث اليوم في أرقى الأندية العلمية " .

وكتاب " شمس الله تشرق على الغرب " في النص الألماني معناه : نور الإسلام يضيء الحضارة الغربية ، والكتاب مليء بأسماء مبدعين مسلمين عرب وغير عرب .

٣. واقرأ هذا الكلام لحكيم روسي وهو يبين أن هذا الدين فيه ما خدم الإنسانية ، وقاد إلى الرقي والمدنية .

وقال تولستوي الحكيم الروسي :

" ومما لا ريب فيه أن النبي محمداً كان من عظام الرجال المصلحين الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمة جليلة ، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق ، وجعلها تجنح للسكينة والسلام وتؤثر عيشة الزهد ، ومنعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية ، وفتح لها طريق الرقي والمدنية ، وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتي قوة ، ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإكرام " .

٤. وقال الدكتور النمساوي شبرك :

" إنّ البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها ، إذ إنّه رغم أُمّيته استطاع قبل بضعة عشر قرنًا أنْ يأتي بتشريع ، سنكونُ نحنُ الأوروبيين أسعد ما نكون إذا توصلنا إلى قمّته " .

٥. وفي باب الطب والجراحة كان للمسلمين دورٌ لا يُنكر .

يقول الكاتب البريطاني هـ.ج. ويلز في كتابه " معالم تاريخ الإنسانية " :

" وتقدموا في الطب أشواطا بعيدة على الإغريق ، ودرسوا علم وظائف الأعضاء ، وعلم تدبير الصحة ، ... ولا يبرح كثير من طرق العلاج عندهم مستعملا بين ظهرانينا إلى اليوم ، وكان لجراحيهم دراية باستعمال التخدير ، وكانوا يجرون طائفة من أصعب الجراحات المعروفة ، وفي ذات الوقت التي كانت الكنيسة تحرم فيه ممارسة الطب انتظاراً منها لتمام الشفاء بموجب المناسك الدينية التي يتولاها القساوسة : كان لدى العرب علم طبي حق " انتهى .

بل ويقول – أيضاً – :

"كل دين لا يسير مع المدنية فاضرب به عرض الحائط ، ولم أجد ديناً يسير مع المدنية أنَّى سارت سوى دين الإسلام " انتهى .

والشهادات أكثر من أن تحصى ، وأردنا بذكر بعضها التدليل على ما قلناه من كلام غير المسلمين ، وقد اخترنا أناساً لا يمكن تواطؤهم على الكذب ، فهم من دول مختلفة ، ومن ثقافات مختلفة ، بل ومن أديان وحضارات مختلفة ، وفي كل ما ذكرناه عنهم بيان لما كان عليه المسلمون – ويجب أن يبقوا عليه – من تقدم وازدهار في العلوم المدنية ومن السعي في الإنسانية للرقي بحياتها في مختلف المجالات ، وكان المسلمون مع بروزهم في هذه المجالات متقدمين – كذلك – في العلوم الدينية والعبادات والطاعات لربهم عز وجل ، وتاريخ هذا الدين يشهد بالحركة العظيمة في التأليف في المجال الشرعي المتعلق بالقرآن والسنة ، ويشهد بنماذج عالية لعبَّاد وزهَّاد لم تمنعهم عبادتهم ولم يمنعهم زهدهم من أن يكونوا علماء في الشرع أو علماء في علوم دنيوية .

وثمة أسماء لامعة لعلماء مسلمين في مجالات متعددة لا يُنكِر علمَهم وتقدمَهم إلا جاهل أو مكابر ، ومنهم : ابن النفيس والزهراوي في الطب ، وابن الهيثم في الرؤية والضوء ، والخوارزمي في الرياضيات ، وغيرهم كثير كثير .

وفي نهاية الجواب نتمنى أن تطلع على هذه المحاضرة والتي هي بعنوان " عمل الدنيا لا ينافي عمل الآخرة " وستجد فيها المزيد مما تستفيد منه وتفيد غيرك به ، وهي مفرغة تحت هذا الرابط :

.htm٣٦٤http://www.islamdoor.com/k/

ونسأل الله أن يهدي المسلمين لدينهم ، وأن يوفقهم للعمل بما أمروا به ، وأن يهدي كل باحث عن الحقيقة ساعٍ في طلبها ، راغبٍ في الهداية .

والله الموفق .

الإسلام سؤال وجواب

=============

#تريد النصيحة للمسلمات اللاتي يعشن في الغرب

سؤال:

أنا امرأة مسلمة أعيش في دولة أجنبية مع زوجي لطلب العيش ، أرجو أن تذكروا الالتزامات والقواعد والواجبات التي يجب على المرأة المسلمة الالتزام بها وتحافظ عليها ؛ وذلك لكثرة عدد المسلمات في الدول الأجنبية .

الجواب:

الحمد لله

١. أول ما يجب عليكم هو ترك تلك الديار الكافرة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم بَرِئ ممن أقام بين أظهر المشركين ، ولذلك فإنه يحرم عليكم البقاء في بلاد الكفر ، وخاصة أنكم فيها من أجل العمل ، وليس هذا من الأعذار الشرعية التي تجيز لكم البقاء فيها .

انظر السؤال (١٣٣٦٣) و (٢٧٢١١) عن تحريم الإقامة في بلاد الكفر ، وشروط جواز ذلك في بعض الحالات .

٢. وعليكم أن تختاروا من البلاد الإسلامية الأقرب إلى الستر والعفاف والاستقامة على الدين ، ومن المعلوم أن البلاد الإسلامية تتفاوت فيما بينها في هذه الأمور ، وليست كل البلاد يمكنكم الإقامة فيها – للأسف – بل يتبع هذا لجنسيتكم وقوانين البلد .

٣. فإن لم يحصل منكم مغادرة لتلك البلاد : فعليكن بتقوى الله تعالى ، والاستقامة على أمرِه عز وجل في كل شئونكن ، وأول ذلك : الحرص على أسركن من التفكك والضياع في تلك البلاد التي تساهم في هذا ، فيجب عليكن الاهتمام بأولادكن ذكوراً وإناثاً وتربيتهم تربية إسلامية وربطهم بالتاريخ الإسلامي وتعليمهم الأحكام الشرعية ، وتقوية اللغة العربية عندهم .

٤. يجب أن يكون مكان سكن الأسر المسلمة بعيداً عن أماكن الفجور والانحلال ، ولا بدَّ من اجتماع الأسر المسلمة المحافظة في مكان واحد من أجل أن يقوِّي أحدهم الآخر ، ويعين بعضهم بعضاً على طاعة الله تعالى ، ويساهمون بالتالي في حسن تربية أنفسهم وأبنائهم .

٥. يحرم عليكن ترك الحبل على غاربه في علاقات أولادكم بأولاد الكفار ، ولا يجوز لكم تمكينهم من مشاهدة البرامج والأفلام الهابطة التي تدمر الأخلاق ، كما يجب الاهتمام بقراءاتهم ومراقبتها حتى لا تضل أفكارهم أو يفقدوا دينهم .

٦. ينبغي أن يكون لكم في أسرتكم أوقات محددة ولو كانت قصيرة تلتقي فيها الأسرة جميعها لمتابعة بعضهم بعضا ، وللوقوف على مشاكل كل واحد من الأسرة قبل تفاقمها وصعوبة أو استحالة حلها .

٧. كما يجب عليكن حسن اختيار الصحبة للأسر التي تختلطون بها ؛ خشية أن يكون لبعضهم تأثير سلبي على أفراد أسرتكم فتضيع جهودكم في التربية والتوجيه .

٨. عليكن تبغيض هذه الحضارة وأخلاقها في نفوس أولادكم ، وإعلامهم بمخالفتها للشرائع والفطَر السليمة ، وضرب الأمثلة على ذلك ، وربطهم بالحضارة الإسلامية وأخلاقها ، وتنبيههم على أن بقاءكم في تلك الديار لن يطول .

٩. وعليكن بكثرة زيارة البلد الله الحرام مكة المكرمة ، فاحرصوا على الحج كل عام ، وعلى العمرة أكثر من مرَّة في العام الواحد إن تيسر تقويةً لإيمانكم وتعليقاً لقلوب أولادكم بالإسلام والمسلمين ، وللأسف نرى تقصيراً واضحاً من الجاليات المسلمة في بلاد الكفر في هذا الجانب .

١٠. تكوين مكتبة إسلامية من كتب وأشرطة وأقراص إسلامية لربط أفراد الأسرة بدينهم ، وتسهيل الرجوع إلى معرفة الأحكام الشرعية ، وإغلاق طرق التضليل التي تساهم في تجهيلهم وإفسادهم ، وحبذا أن يكون لقناة " المجد " حضور في بيوتكم لما تقدمه من علم نافع ، ولحرصهم أن لا يكون فيها نساء ولا موسيقى ، وكذا ربطهم بالمواقع المفيدة في الإنترنت .

والحقيقة أن النصائح كثيرة ، وكثرتها إنما هو بسبب كثرة ما في تلك الديار الكافرة من ضلال وانحلال وتفسخ وتهتك ، وتحتاج كل جوانب الحياة لنصح وتوجيه وإرشاد ، ولكن ما قلناه أولاً يوفر كثيراً من النصائح وهو الخروج من تلك الديار إلى بلاد الإسلام ، ومن بقي في تلك الديار فليعلم أن الله تعالى سائله عن رعيته يوم القيامة ، فليعد للسؤال جواباً ، ونسأل الله تعالى أن يسهل لكم الخروج من تلك الديار ، وأن

يثبتكم على الإسلام والهداية والتوفيق والرشاد ، وأن يصلح لكم ذريتكم ، ويجعلهم دعاة للإسلام .

ونرجو الرجوع إلى السؤال رقم (٤٢٣٧) : ففيه زيادة بيان حول المحافظة على الأبناء وأفكارهم في الغرب .

والله الموفق .

الإسلام سؤال وجواب

===============

#لماذا فتح المسلمون الأندلس ؟

سؤال:

فهم شخص يهودي من آية في القرآن الكريم أن الإسلام ينهى عن اعتراض الناس في ديارهم ، فلماذا في السابق كانت هناك فتوحات إسلامية ؟ خاصة عندما ذهب الفارس الإسلامي طارقُ بن زياد لفتح الأندلس ، مع أن سكانها كانوا في ديارهم ، وقال طارق بن زياد لجنوده : البحر من خلفكم ، والعدو أمامكم . أرجو من فضيلتكم توضيح ذلك ؟

الجواب:

الحمد لله

الأندلس حلقة من حلقات التاريخ الإسلامي العظيم ، بل هي منارة في تاريخ البشرية كلها ، حيث كانت مصدر العلم والمعرفة في الأرض لقرون متطاولة ، تعلمت منها أوروبا كلها دروس الحضارة والمدنية ، وكان فتحها – بلا شك – من أعظم أحداث القرن الهجري الأولى (٩٢هـ الموافق ٧١١م) ، وكان ذلك العهد أزهى وأرقى عهود بلاد الأندلس منذ بدء التاريخ ولعله إلى آخر الزمان .

ولأهمية هذا الموضوع ، كان لا بد من بيان بعض الأمور المهمة المتعلقة بهذا الحدث العظيم:

أولا :

إن أهم مقاصد الجهاد التي شرع من أجلها تبليغ رسالة التوحيد ، بكسر جميع الطواغيت التي تحول بينها وبين الناس ، ودعوة الناس إلى الإسلام من غير إكراه ولا إجبار ، بل عن طواعية واختيار .

يقول الله تعالى : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ) البقرة/١٩٣

قال قتادة رحمه الله : " حتى لا يكون شركٌ ، "ويكون الدين لله" : أن يقال : لا إله إلا الله ، عليها قاتل نبيُّ الله ، وإليها دعا . " تفسير الطبري (٣/٥٦٧) .

ثانيا :

كانت " الأندلس " واسمها القديم " أيبيرية " خاضعةً للإمبراطورية الرومانية ، وفي مطلع القرن الخامس الميلادي – أي حوالي عام ٤١٠ م اجتاحتها قبائل " القُوط " الأريوسية المذهب ، وأسسوا فيها دولةً قُوطِيَّة عاصمتها " طليطلة " .

ومن هنا نفهم أن شعوب " الأندلس " الأصلية من الكنعانيين الكاثوليك كانت – قبل الفتح الإسلامي – خاضعة للنفوذ القوطي ، وتكوَّنَ سكانها من طبقات أربعة متناقضة متصارعة : طبقة القوط الحكام المستعمرين ، وطبقة الأعيان الرومانيين ومعهم الإقطاعيون ورجال الدين ، وطبقة اليهود ، وطبقة الشعب العامل من سكان البلاد الأصليين .

فهي بلاد محتلة مضطهدة أصلا ، ولم تكن تحت حكم سكانها الأصليين ، ولم يكن المسلمون هم المبتدئين للاحتلال ، إنما خلصوا البلاد من احتلال ظالم إلى بلد مسلم يختار أهله عقيدة المسلمين ، وينتسبون إلى دولتهم .

ثالثا :

زيادة على الاحتلال الذي فرضته القبائل القوطية الغربية على بلاد الأندلس ، كان التسلط والظلم والاضطراب سمةً بارزة في فترة حكمهم التي امتدت نحو ثلاثة قرون .

يقول حسين مؤنس في كتابه "فجر الأندلس" (ص/٨،١٨-١٩) :

" لكن سلطانهم لم يستقر في البلاد أول الأمر بسبب ما ثار بينهم وبين أهل البلاد من منازعات دينية ، وبسبب ما شجر بين أمرائهم من خلافات ، ولهذا ظلت البلاد طوال القرن السادس نهبا للحروب الأهلية ، وما ينجم عنها من الفوضى وسوء

الحال...– حتى كان آخر حكام القوط – واحد اسمه " رودريكو " (لذريق)...والظاهر الذي لا تستطيع المناقشة إخفاءه أن الرجل كان يشعر باضطراب الأمر عليه ، وأنه ظل حياته متخوفا من وثبة تكون من أحد أعدائه الكثيرين ؛ لأن هؤلاء الأعداء لم يكونوا أولاد " غيطشة " وحدهم – الذين استولى " لذريق " على ملكهم – بل كانوا في واقع الأمر جلة الشعب الإيبيري الروماني واليهود ، أي معظم أهل البلاد التي اقتحمها القوط عليهم " انتهى باختصار .

وقد حاول كثير من المؤرخين الأسبان أن يدافعوا عن دولة القوط – تعصبا منهم في رفض الوجود الإسلامي في تلك البلاد – إلا أن كتب التاريخ مليئةٌ بالأدلة على ما ذكره الأستاذ حسين مؤنس في شأن رفض أهل البلاد حكم القوطيين ، حتى نقل في (ص/١٠) عن " رفائيل بالستيروس " المؤرخ الإسباني قوله : إن العرب لو لم يتدخلوا في سنة ٧١١هـ في شؤون الجزيرة ، ويضعوا نهاية لهذا العصر المضطرب ، لَبَلَغَ القوطُ بإسبانيا مبلغا من السوء لا يسهل تصوره .

رابعا :

لما اشتد ظلم حكام القوط في تلك البلاد ، وضاق الشعب بهم ، أرسلوا إلى المسلمين يطلبون منهم تخليصهم والنجاة بهم ، فقد أجمعت المصادر العربية على ذكر إرسال حاكم " سبتة " واسمه " يوليان " أو جوليان " إلى موسى بن نصير يطلب منه دخول البلاد وتخليصهم من شر " لذريق " ، كما تذكر كثير من المصادر إرسال أبناء " غيطشة " إلى موسى بن نصير يستنجدون به على مَن غصبهم ملك أبيهم ، بل إن المصادر التاريخية الغربية تنسب إلى اليهود المضطهدين في " الأندلس " من قبل القوط استنجادَهم بِمَن وراء البحر من " الأفارقة " أو " المسلمين " ليخلصوهم من ظلم " لذريق " وأعوانه ، وهو أمر وإن أنكره بعض المؤرخين ، غير أن المتفق عليه بينهم أن اليهود تعرضوا في تلك الفترة إلى اضطهاد كاد يفنيهم ولا يبقي لهم أثرا .

انظر "فجر الأندلس" لحسين مؤنس (ص/١٤)

وفي النصوص الباقية الموروثة كثير من الأدلة على أن الأندلسيين استقبلوا المسلمين استقبال الفاتحين ، ومن ذلك :

يقول صاحب كتاب "أخبار مجموعة في فتح الأندلس" (ص/٢٤) متحدثاً عن الخدمات التي قدمها بعض الإسبان لموسى بن نصير :

" فلما نزل الجزيرة ، قيل له : اسلك طريقه ، قال : ما كنت لأسلك طريقه . قال له العلوج الأدلاء : نحن ندلك على طريق هو أشرف من طريقه ، ومدائن هي أعظم خطباً من مدائنه ، لم تُفتح بعد ، يفتحها الله عليك إن شاء الله " انتهى .

ويقول أيضاً :

" ثم سار إلى مدينة قرمونة ، فقدَّم إليها العلوج الذين معه ، وهي مدينة ليس بالأندلس أحصن منها ، ولا أبعد من أن ترجى بقتال أو حصار ، وقد قيل له حين دنا منها : ليست تُؤخذ إلا باللطف ، فقدَّم إليها علوجاً ممن قد أمنه واستأمن إليه ، مثل " يليان " ، ولعلهم أصحاب " يليان " ، فأتوهم على حال الأفلال ، معهم السلاح ، فأدخلوهم مدينتهم ، فلما دخلوها بعث إليهم الخيل ليلاً ، وفتحوا لهم الباب ، فوثبوا على حراسه ، ودخل المسلمون قرمونة " انتهى.

بل إن بعض أساقفة النصارى شاركوا في مساعدة المسلمين على الفتح ، منهم " أوباس " أسقف " إشبيلية " كما في كتاب "العرب لم يغزوا الأندلس" (ص/١٨٧)

وينقل صاحب كتاب "تاريخ النصارى في الأندلس" (ص/٤٥) عن ما جاء في سيرة القديس " سانت ثيودارد" رئيس أساقفة " أربونة " الذي عاش حوالي سنة (٢٦٦هـ) أنه لما دخل المسلمون لأول مرة إلى " لانجدوك " ، انحاز اليهود إليهم ، وفتحوا لهم أبواب مدينة

" طولوشة " .

والمسلمون يؤمنون بأن نصرة المظلوم وإحقاق العدل والسلم من أعظم مقاصد الجهاد في الشريعة الإسلامية ، دليل ذلك ما وقع في "سيرة النبي صلى الله عليه وسلم " من " حِلف الفضول " ، حيث تعاهدت القبائل على كف الظالم ونصرة المظلوم ولو كان كافرا .

يقول الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه "العلاقات الدولية في الإسلام" (٨٣) :

" الإسلام ينظر إلى الرعايا الذين يُحكَمون بالظلم ويُقيدون في حرياتهم نظرة رحيمة عاطفة ، ينصرهم إذا استنصروه ، ويرفع عنهم نير الطغيان إن هم استعانوا به " انتهى .

وذلك ما شهد به بعض اليهود حين أدركوا عظيم الفضل الذي أسداه المسلمون لهم في توفير حياة كريمة ، وحرية لم يشهدوا لها مثيلا عبر تاريخ وجودهم في أوروبا كلها .

يقول حاييم الزعفراني اليهودي في كتابه "ألف سنة من حياة اليهود في المغرب" (ص/١٣) :

" لقد عرفت اليهودية الأندلسية في مجموعها حياة أكثر رخاء ، وأكثر اطمئناناً ، كما لم تعرفها في مكان آخر " انتهى .

ويقول نسيم رجوان – رئيس تحرير جريدة اليوم الإسرائيلية – :

" كان اليهود قد عانوا خلال قرون الكثير من الشقاء والبؤس ، حيث كان الملوك الإسبان القساة الغلاظ بعيدين كل البعد عن الشفقة والرحمة . وعندما دخل المسلمون إسبانيا لم يكتفوا بتحرير اليهود من الاضطهاد ، ولكنهم شجَّعوا بينهم نشر حضارة كانت توازي بخصبها وعمقها أشهر الحضارات في مختلف العصور " انتهى نقلا عن كتاب "أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي" (ص/٤٩)

سادسا :

ويُتَوَّجُ ما سبق بالقطع واليقين ، حين نستحضر أن فتح تلك البلاد لم يستغرق إلا نحو ثلاثة سنين (٩٢هـ – ٩٥هـ) وصل فيها المسلمون إلى فرنسا ، ولم يشارك فيه إلا بضعة آلاف من الجنود ، مما يقطع لك بأن الأمر لم يكن فتحا عسكريا بالقدر الذي كان فتحا فكريا وعقائديا ، آمن فيه سكان " الأندلس " بعقيدة المسلمين ، واختاروا – عن حب وطواعية – التسليم لهذا الدين الجديد ، والتخلص من طغيان الكنيسة والإقطاع الذي كان سائدا قبل المسلمين ، وقد كتب في ذلك واحد من أشهر المؤرخين الإسبان ، واسمه " اغناسيو أولاغي " كتابا اشتهر في السبعينيات اسمه " الثورة الإسلامية في الغرب " ، ترجمه واختصره الأستاذ المؤرخ المحقق " إسماعيل الأمين " تحت عنوان " العرب لم يغزوا الأندلس " ، طباعة " رياض الريس للكتب

والنشر " ، أراد فيه المؤلف بيان أن التحول إلى الإسلام في الأندلس لم يتم إلا عبر حركة الأفكار وتصارعها ، ثم هيمنة ما يسميه المؤلف بالفكرة/القوة ، التي شكلت عصب الحضارة العربية الإسلامية في ثلاثة أرباع العالم يومها ، ورغم ما في الكتاب من مغالاة في نقد كل ما اشتهر في تاريخ الأندلس ، إلا أن الذي يهمنا فيه بعض النصوص التي توحي بأن دخول الإسلام الأندلس لم يكن اعتراضا وقهرا ، بل كان فتحا للقلوب وتنويرا للعقول ، وليتحمل القارئ الكريم طول النص المنقول ، فإنه من أبدع النصوص التي كتبها أعداء الإسلام في أمر يثيره كثير من الحاقدين :

جاء في (ص/٥٥- ٦٦) :

" هكذا يتضاءل الغزو الأجنبي إلى حادث عرضي في حرب أهلية ، فهل يبقى من صلة بين هذا الحدث العسكري من جهة ، وبين اعتناق الأيبيريين الإسلام ، ثم نشوء حضارة إسلامية في أيبيريا من جهة ثانية ؟

في الأبحاث المتعلقة بخرافة الغزو جاءت الأرقام دقيقة ، وصل طارق بسبعة آلاف رجل لهزيمة رودريك ، وجاء موسى بن نصير على رأس ثمانية عشر ألف رجل ليخضع الأيبيريين لسلطانه ، أحدث خمسةٌ وعشرون ألف رجل هذا التحول الهائل في اللاتينية والمسيحية والزواج الأحادي ، في ضربة واحدة بدَّل الأيبيريون أعرافهم وتقاليدهم وديانتهم ، بعد هذا الإنجاز العظيم يبادر العرب دون أي تعزيز لقواتهم ومواقعهم إلى غزو فرنسا !

مع ذلك يبقى من المطلوب تفسير كيف يمكن أن تتم عملية تحويل شعوب أيبيريا المحصَّنة جغرافيا وطبيعيا بهذه السرعة ، ومن قبل حفنة ممن نسبت إليهم المعجزات ، خصوصا أن الأيبيريين والغزاة لم يكونا من أصل مشترك .

من البديهي أن جيشا من هذا النوع كان سيذوب بين الجموع إذا ما خاطر بنفسه وتوغل في عمق البلاد ، هذا فضلا عن أن الأيبيريين خلال تاريخهم الطويل لم يكونوا شعبا مسالما في مواجهة مثل هذا النوع من الأحداث ، ألم يكن من الممكن أن ينظموا حرب "العصابات" التي كانوا قد قدموا وصفتها إلى العالم بأكمله ؟!

ماذا فعل الأيبيريون في هذه الأثناء ؟ بعد سنة ٧١١م لم يحدثنا التاريخ عنهم ، مع هذا فإن عشرة ملايين نسمة – على أقل تقدير – لم يختفوا هكذا بضربة سحرية في

تلك الحقبة السعيدة ، لم يكن هناك وسائل إبادة جماعية ، وكان يلزم الفاتحون الكثير من الوقت والعمل لجزر هذا العدد بالسيف ، لا يمكن لأودية "أشتورش" الصغيرة استقبال هذا العدد من اللاجئين ، يكفي هذه الأودية أنها شكلت حصنا للمتمردين القلائل الذي سيشكلون فيما بعد نواة المملكة المسيحية ، هكذا تم إخفاء عشرة ملايين من الأيبيريين من صفحات التاريخ ، فإذا كان اجتياح أرض مسيحية من قبل " الكفار " قد بدا بهذه الضخامة ، بماذا يمكننا إذن أن نصف اعتناق شعبها الإسلام ، وتمثله الحضارة العربية الإسلامية ؟ إما أن يكونوا جميعهم قد قتلوا ، وإما تم استرقاقهم عبيدا ، أو لجؤوا إلى الجبال ، أو ببساطة قد تم تجاهل وجودهم من قبل المؤرخين.

لماذا وكيف اعتنقت الجماعات الإنسانية التي كانت متمركزة في المقاطعات البيزنطية في آسيا ومصر وأفريقيا الشمالية وشبه جزيرة أيبيريا إيمانا جديدا ومفهوما جديدا للوجود ؟

قد يسهل تحويل خرافة الغزوات العربية المستحيلة جغرافيا وتاريخيا إلى حقيقة ، ولكننا لا يمكننا أن ننكر أن حضارةً عربية إسلامية قد امتدت في جميع هذه الأصقاع .

يصاب الباحثون بالدهشة حين يعرفون من خلال الروايات عدد الغزاة : خمسة وعشرون ألف رجل أهلكوا عشرة ملايين !!

في الواقع استمرت عملية اعتناق الدين الإسلامي واكتملت خلال قرنين أو ثلاثة قرون ، فكان اعتناقا كاملا أو نهائيا ، لم يترك سوى بعض الجزر التي بدا وجودها مشكوكا فيه .

كيف إذًا يمكن تفسير هذه العودة عن المسيحية واعتناق الإسلام بقوة السلاح ؟

وماذا كانت نتيجتها ؟

بعض المؤرخين قَبِلَ الإجابة التقليدية الجاهزة عن هذه الأسئلة ، وبعضهم الآخر أصيب بتشوش فكري .

لم يتمكن هؤلاء من فهم كيفية خضوع شعوب مصر والمقاطعات البيزنطية لما يسمونه بـ "قوانين البدو" ، لقد أثبت " كزافيي بلان هول " في كتابه " العالم الإسلامي

" أن الإسلام كان دائما دين المدن ، مع هذا لنفترض أنهم أُخضعوا بالقوة من قبل جماعات البدو ، فلماذا تنازلوا لهؤلاء البدو عن كامل حضارتهم ؟

كانت المقاطعات البيزنطية تتمتع بحياة مدنية متقدمة ، وكانت المدن المزدهرة كبيرة ، كان عدد سكان أنطاكيا حوالي ٣٠٠ ألف نسمة ، وكان من بين الأربع مائة أسقفية بيزنطية ثلاث مائة وواحد وسبعون أسقفية موجودة في آسيا ، من هنا تظهر أهمية النصر الإسلامي على المستوى الفكري .

هل يتعين علينا أن نتصور أن أبناء المدن قد فُتنوا بمدنية أولئك المتدفقين من تلك الوحشة الواسعة ؟ يبدو الأمر مستحيلا إذا لم يكن لدى هؤلاء البدو غير السيف .

التعصب الديني وسوء الفهم الناتجان أحيانا عن انعدام الوعي وأحيانا عن الإرادة الواعية والمتعاظمان مع الزمن أخفيا – تحت جملة من الأكاذيب والخرافات – قسما هاما من تاريخ انتشار الإسلام على طول السواحل الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط ، وانسجاما مع مفهوم بدائي للتاريخ فسرت التحولات الروحية والاجتماعية والثقافية العملاقة في القرنين السابع والثامن – في عالمي الشرق والبحر المتوسط – كنتيجة لغزوات عسكرية فرضت اللغة والحضارة والدين بالسيف المعقوف !!

الإكراه لا يفسر كل شيء .

في الواقع : إن المؤرخين قد خلطوا بين انتشار الأفكار العبقرية التي تحملها حضارة ما ، وبين القدرات العسكرية التي لا تسمح إلا بنشوء إمبراطوريات وقتية تزول مع الزمن .

لقد خلطوا بين القوة العقلية والقوة المادية .

نستنتج من دراسة الحركات المشابهة أن انتشار الإسلام كان نتيجة الفكرة/القوة ، وليس نتيجة للقدرة على الهجوم العسكري المسلح ، فمثلما سيطرت " الهيلينية " فيما مضى ، ويسيطر الغرب اليوم ، فإن سيطرة الإسلام لا يمكن أن تكون إلا ثمرة لحركات أفكار /قوة.

أما الاستمرار في الاعتقاد بأن شعوبا تزدهم (أي تغزوهم) في بلادها حضارة هادمة ، قد تركت معتقداتها وغيرت عاداتها لأن حفنة من الفرسان الميامين قهرتها عسكريا ، فلا يوحي إلا بمفهوم صبياني سخيف للحياة الاجتماعية .

يجب أن يتقلص الجانب العسكري من الأحداث إلى دور ثانوي يتعلق بتفاصيل طرائف الحياة الشخصية . يجب فهم المشكلة في المجال الفكري والثقافي .

لم يكن هناك عدوان عسكري ، بل أزمة ثورية ، ودعوة حملها الفقهاء وليس الجنرالات .

إن العلماء وحدهم يدركون حركة الشعوب ويقدرون على قيادتها ، أما السيادة العسكرية فلا يمكن أن تستمر ثمانية قرون في الأندلس ، وإلى الأبد في مساحات شاسعة من العالم " انتهى باختصار .

(من المراجع التاريخية المستفاد منها : "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" لابن عذاري المراكشي (٢-٩) ، "نفح الطيب" للمقري ١/٢٢٩-٢٦٣ وغيرها) .

وفي موقعنا بعض الإجابات المتعلقة بموضوع الجهاد ، يمكنكم مراجعتها ، وهي : (٢١٩٦١) ، (٢٦١٢٥) ، (٣٤٦٤٧) ، (٤٣٠٨٧)

والله أعلم .

الإسلام سؤال وجواب

================

#متى بدأ الإسلام ومن وضع الحضارة الإسلامية

سؤال:

من الذي وضع الحضارة الإسلامية ؟ ومتى بدأ هذا الدين ؟ وما هي أحكام الإسلام , وكيف يدخل الفرد إلى هذا الدين ؟.

الجواب:

الحمد لله

إن كان مقصدك بالحضارة الإسلامية ذات الدين الإسلامي فالجواب في الفقرة الثانية .

١- أما إن كان قصدك ما وصلت إليه الأمة الإسلامية في عصور ازدهارها من رقي في النواحي المادية ، فهذا لم يكن وليد ساعة ، ولكنه بدأ مع بداية الإسلام ، وبالأخص بعد قيام الدولة الإسلامية في وقت النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم أخذ في الازدياد والتطور مع اتساع الفتوحات الإسلامية إلى أن وصل إلى ما وصل إليه

، وهذا إن صحت نسبته فإنما تصح للنبي عليه الصلاة والسلام بعد الله تعالى ، وأما من عداه فكل ساهم بما استطاع إلى أن استتم البناء .

٢- وأما بداية هذا الدين ، فالظاهر أن المقصود بالدين : دين الإسلام عقيدة وشريعة ، وهذا بدايته ببداية بعثة النبي صلى الله علية وسلم .

وأما أحكام الإسلام فهي كثيرة يصعب ذكرها في هذه العجالة ، لكن أهمها :

شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج بيت الله الحرام .

ويدخل الفرد في هذا الدين بعد أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ثم بعد ذلك يلتزم بالباقي من صلاة وصيام وحج ، وفي هذه الأمور تفصيلات .

ويراجع سؤال رقم ١٣٥٦٩

الشيخ سعد الحميد

============

#الإسلام والرق

سؤال:

كثيرا ما أسمع من دعاة الدين النصراني ذم الإسلام وتوجيه الاتهامات إليه بسبب أن الإسلام أباح الرق ، وهذا فيه الاعتداء على حرية الإنسان وحقوقه ، فكيف نمكن أن نجيب على هؤلاء ؟

الجواب:

الحمد لله

الخوض في الحديث عن الرق وإثارة الأسئلة حوله من قبل دعاة التنصير والصادين عن دين الإسلام مما يثير حفيظة المتعقل , ومما يشير بأصابع الاتهام نحو الأغراض المستترة وراء هذه التساؤلات .

ذلك أن الرق في اليهودية والنصرانية مقرر ثابت على صور ظالمة , وكتبهم بتفاصيل الحديث عنه والاستحسان له طافحة ، وعليه فإن أول ما يستلفت النظر : كيف يسعى الكنسيون للدعوة إلى التنصير ، والنصرانية تقول بالرق ومشروعيته ؟

وبمعنى آخر : كيف يثيرون أمراً هم غارقون فيه إلى الأذقان ؟

أما أمر الرق في الإسلام فمختلف تماماً إذا ما قورن بين النظرتين , وإذا ما قورن كذلك بما عليه حال الرق حين مجيء الإسلام .

ولذلك لا بد من بسط القول في هذا الموضوع شيئاً ما مع الإشارة إلى ما عند اليهودية والنصرانية والحضارة المعاصرة في هذا الموضوع (الرق) ثم نذكر ما في الإسلام .

وقد تعرض الإسلام في هذا لإفك كثير على حين نَجَا مجرمون عريقون في الإجرام لم تشر إليهم – مع الأسف – أصابع الاتهام .

الإسلام والرق :

يقرر الإسلام أن الله عز وجل خلق الإنسان كامل المسئولية وكلفه بالتكاليف الشرعية ورتب عليها الثواب والعقاب على أساس من إرادته واختياره .

ولا يملك أحد من البشر تقييد هذه الإرادة ، أو سلب ذلك الاختيار بغير حق , ومن اجترأ على ذلك فهو ظالم جائر .

هذا مبدأ ظاهر من مبادئ الإسلام في هذا الباب وحينما يثار التساؤل : كيف أباح الإسلام الرق ؟

نقول بكل قوة وبغير استحياء : إن الرق مباح في الإسلام , ولكن نظرة الإنصاف مع التجرد وقصد الحق توجب النظر في دقائق أحكام الرق في الإسلام من حيث مصدره وأسبابه ثم كيفية معاملة الرقيق ومساواته في الحقوق والواجبات للحر وطرق كسب الحرية وكثرة أبوابها في الشريعة ، مع الأخذ في الاعتبار نوع الاسترقاق الجديد في هذا العالم المتدثر بدثار الحضارة والعصرية والتقدمية .

لقد جاء الإسلام وللرق أسباب كثيرة ، منها : الحروب ، المدين إذا عجز عن الدين ، يكون رقيقا ، السطو والخطف ، الفقر والحاجة .

وما انتشر الرق ذلك الانتشار الرهيب في قارات الدنيا إلا عن طريق هذا الاختطاف ، بل كان المصدر الأعظم في أوربا وأمريكا في القرون الأخيرة .

والإسلام يقف بنصوصه من هذا موقفاً حازماً حاسماً ، جاء في حديث قدسي : قال الله تعالى : (ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ ، ذكر منهم : رَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ) رواه البخاري (٢٢٢٧) .

ومن الطريف أنك لا تجد في نصوص القرآن والسنة نصاً يأمر بالاسترقاق , بينما تحفل آيات القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم بالعشرات من النصوص الداعية إلى العتق والتحرير.

كانت مصادر الرق ومنابعه كثيرة عند ظهور الإسلام , بينما طرق التحرر ووسائله تكاد تكون معدومة , فقلب الإسلام في تشريعاته النظرة فأكثر من أسباب الحرية ، وسَدَّ مسالك الاسترقاق , ووضع من الوصايا ما يسد تلك المسالك .

فقد حصر الإسلام مصادر الرق التي كانت قبل الرسالة المحمدية في مصدر واحد فقط وهو : رق الحرب الذي يفرض على الأسرى من الكفار وكذا على نسائهم وأولادهم .

قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله : " وسبب الملك بالرق : هو الكفر ، ومحاربة الله ورسوله ، فإذا أقدر اللهُ المسلمينَ المجاهدين الباذلين مُهَجهم وأموالهم وجميع قواهم وما أعطاهم الله لتكون كلمة الله هي العليا على الكفار : جعلهم ملكاً لهم بالسبي إلا إذا اختار الإمام المنَّ أو الفداء لما في ذلك من المصلحة للمسلمين " انتهى من " أضواء البيان " (٣/٣٨٧) .

وقال أيضاً :

فإن قيل : إذا كان الرقيق مسلماً فما وجه ملكه بالرق ؟ مع أن سبب الرق الذي هو الكفر ومحاربة الله ورسله قد زال .

فالجواب : أن القاعدة المعروفة عند العلماء وكافة العقلاء : أن الحق السابق لا يرفعه الحق اللاحق ، والأحقية بالأسبقية ظاهرة لا خفاء بها .

فالمسلمون عندما غنموا الكفار بالسبي : ثبت لهم حق الملكية بتشريع خالق الجميع ، وهو الحكيم الخبير ، فإذا استقر هذا الحق وثبت ، ثم أسلم الرقيق بعد ذلك كان حقه في الخروج من الرق بالإسلام مسبوقاً بحق المجاهد الذي سبقت له الملكية قبل الإسلام ، وليس من العدل والإنصاف رفع الحق السابق بالحق المتأخر عنه كما هو معلوم عند العقلاء .

نعم ، يحسن بالمالك ويجمل به أن يعتقه إذا أسلم ، وقد أمر الشارع بذلك ورغَّب فيه ، وفتح له الأبواب الكثيرة . فسبحان الحكيم الخبير (وتمَّت كلمة ربِّك صدقاً وعدلا لا مبدِّل لكلماته وهو السميع العليم) الأنعام/١١٥.

فقوله : (صدقاً) أي : في الأخبار ، وقوله : (عدلاً) أي : في الأحكام .

ولا شك أن من ذلك العدل : الملك بالرق وغيره من أحكام القرآن .

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم " انتهى من "أضواء البيان" (٣ / ٣٨٩) .

ولقد كان الأسر في الحروب من أظهر مظاهر الاسترقاق , وكل حرب لابد فيها من أسرى , وكان العرف السائد يومئذ أن الأسرى لا حرمة لهم ولا حق ، وهم بين أمرين إما القتل وإما الرق ، ولكن جاء الإسلام ليضيف خيارين آخرين : المن والفداء ، قال الله تعالى : (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً) محمد/٤ .

ففي غزوة بدر أخذ النبي صلى الله عليه وسلم الفداء من أسرى المشركين وأطلق سراحهم ، وأطلق الرسول صلى الله عليه وسلم كثيراً من الأسرى في غزواته مجاناً ، منَّ عليهم من غير فداء ، وفي فتح مكة قيل لأهل مكة : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وفي غزوة بني المصطلق تزوج الرسول أسيرة من الحي المغلوب ليرفع من مكانتها , حيث كانت ابنة أحد زعمائه , وهي أم المؤمنين جويرة بنت الحارث رضي الله عنها ، فما كان من المسلمين إلا أن أطلقوا سراح جميع هؤلاء الأسرى .

فالإسلام ليس متعطشا لدماء الأسرى ، بل ولا متعطشا حتى لاسترقاقهم .

ومن هذا تدرك الصورة المحدودة والمسالك الضيقة التي يلجأ إليها في الرق , وهو لم يلغه بالكلية , لأن هذا الأسير الكافر المناوئ للحق والعدل كان ظالماً ، أو معيناً على ظلم ، أو أداة في تنفيذه أو إقراره , فكانت حريته فرصة لفشو الطغيان والاستعلاء على الآخرين ، والوقوف في وجه الحق ، ومنعه من الوصول إلى الناس .

إن الحرية حق أصيل للإنسان ، ولا يسلب امرؤ هذا الحق إلا لعارض نزل به , والإسلام – عندما قبل الرق في الحدود التي أوضحناها – فهو قيّد على إنسان

استغلَّ حريته أسوأ استغلال .... فإذا سقط أسيراً إثر حرب عدوان انهزم فيها ، فإن إمساكه بمعروف مدة أسره تصرف سليم .

ومع كل هذا فإن فرصة استعادة الحرية لهذا وأمثاله في الإسلام كثيرة وواسعة .

كما أن قواعد معاملة الرقيق في الإسلام تجمع بين العدالة والإحسان والرحمة .

فمن وسائل التحرير : فرض نصيب في الزكاة لتحرير العبيد , وكفارات القتل الخطأ والظهار والأيمان والجماع في نهار رمضان , إضافة إلى مناشدة عامة في إثارة للعواطف من أجل العتق والتحرير ابتغاء وجه الله .

وهذه إشارات سريعة لبعض قواعد المعاملة المطلوبة عدلاً وإحساناً مع هؤلاء :

١- ضمان الغذاء والكساء مثل أوليائهم :

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هُمْ إِخْوَانُكُمْ ، جَعَلَهُمْ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ , فَمَنْ جَعَلَ اللَّهُ أَخَاهُ تَحْتَ يَدِهِ , فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ , وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ , وَلَا يُكَلِّفُهُ مِنْ الْعَمَلِ مَا يَغْلِبُهُ فَإِنْ كَلَّفَهُ مَا يَغْلِبُهُ فَلْيُعِنْهُ عَلَيْهِ) رواه البخاري (٦٠٥٠) .

٢- حفظ كرامتهم :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ أَبَا الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : (مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ وَهُوَ بَرِيءٌ مِمَّا قَالَ جُلِدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ) رواه البخاري (٦٨٥٨) .

وأعتق ابن عمر رضي الله عنهما مملوكاً له ، ثم أخذ من الأرض عوداً أو شيئاً فقال : ما لي فيه من الأجر ما يساوي ! هذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (مَنْ لَطَمَ مَمْلُوكَهُ أَوْ ضَرَبَهُ فَكَفَّارَتُهُ أَنْ يُعْتِقَهُ) رواه مسلم (١٦٥٧) .

٣- العدل مع الرقيق والإحسان إليهم

روى أن عثمان بن عفان رضي الله عنه دَعَك أُذُن عَبْدٍ له على ذنب فعله ، ثم قال له بعد ذلك : تقدم واقرص أذني ، فامتنع العبد فألح عليه ، فبدأ يقرص بخفة ، فقال له : اقرص جيداً ، فإني لا أتحمل عذاب يوم القيامة ، فقال العبد : وكذلك يا سيدي : اليوم الذي تخشاه أنا أخشاه أيضاً .

وكان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه إذا مشى بين عبيده لا يميزه أحد منهم – لأنه لا يتقدمهم ، ولا يلبس إلا من لباسهم .

ومر عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً فرأى العبيد وقوفاً لا يأكلون مع سادتهم ، فغضب ، وقال لمواليهم : ما لقوم يستأثرون على خدامهم ؟ ثم دعا الخدم فأكلوا معهم .

ودخل رجل على سلمان رضي الله عنه فوجده يعجن – وكان أميراً – فقال له : يا أبا عبد الله ما هذا ؟! فقال بعثنا الخادم في شغل فكرهنا أن نجمع عليه عملين !

٤– لا مانع أن يتقدم العبد على الحر في بعض الأشياء:

فيما يفضله فيه من شئون الدين والدنيا ، وقد صحت إمامته في الصلاة ، وكان لعائشة أم المؤمنين عبد يؤمها في الصلاة ، بل لقد أمر المسلمون بالسمع والطاعة إذا ملك أمورهم عبد !

٥– وله أن يشتري نفسه من سيده ويكون حراً

فإذا حدث لأمر ما أن استرق ثم ظهر أنه أقلع عن غيه ، ونسي ماضيه وأضحى إنساناً بعيد الشر قريب الخير ، فهل يجاب إلى طلبه بإطلاق سراحه ؟ الإسلام يرى إجابته إلى طلبه ، ومن الفقهاء من يوجب ذلك ومنهم من يستحبه !!!

وهو ما يسمى عندنا مكاتبة العبد لسيده (بمعنى أن العبد يشتري نفسه من سيده مقابل مال يدفعه له على أقساط) قال الله تعالى : (وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ) النور/٣٣ .

هذا عدل الإسلام مع الرقيق وإحسانه إليهم ، ومعاملته لهم .

فكان من نتائج هذه الوصايا : أن أصبح الرقيق صديقا لمالكه في كثير من الأحيان ، بل أحله بعضهم محل الابن، يقول سعد بن هاشم الخالدي في وصف غلام له :

ما هو عبد لكنه ولد * خولنيه المهيمن الصمد

شد أزري بحسن خدمته * فهو يدي والذراع والعضد

وكان من نتيجة معاملة المسلمين للأرقاء هذه المعاملة، اندماج الأرقاء في الأسر الإسلامية إخوة متحابين، حتى كأنهم بعض أفرادها.

يقول جوستاف لوبون في "حضارة العرب" (ص٤٥٩-٤٦٠) : "الذي أراه صادقاً هو أن الرق عند المسلمين خير منه عند غيرهم، وأن حال الأرقاء في الشرق أفضل من حال الخدم في أوروبا، وأن الأرقاء في الشرق يكونون جزءاً من الأسرة... وأن الموالي الذين يرغبون في التحرر ينالونه بإبداء رغبتهم.. ومع هذا لا يلجأون إلى استعمال هذا الحق" انتهى .

كيف معاملة غير المسلمين للرقيق ؟

موقف اليهود من الرقيق :

ينقسم البشر عند اليهود إلى قسمين : بنو إسرائيل قسم ، وسائر البشر قسم آخر .

فأما بنو إسرائيل فيجوز استرقاق بعضهم حسب تعاليم معينة نص عليها العهد القديم .

وأما غيرهم ، فهم أجناس منحطة عند اليهود ، يمكن استعبادها عن طريق التسلط والقهر ، لأنهم سلالات كتبت عليها الذلة باسم السماء من قديم ، جاء في الإصحاح الحادي والعشرين من سفر الخروج (٢- ١٢) ما نصه :

(إذا اشتريت عبداً عبرانياً فست سنين يخدم ، وفي السابعة يخرج حراً مجاناً ، إن دخل وحده ، فوحده يخرج ، إن كان بعل امرأة تخرج امرأته معه , إن أعطاه سيده امرأة وولدت له بنين وبنات فالمرأة وأولادها يكونون للسيد ، وهو يخرج وحده ، ولكن إذا قال العبد : أحب سيدي وامرأتي وأولادي لا أخرج حراً ، يقدمه سيده إلى الله ، ويقربه إلى الباب أو إلى القائمة ، ويثقب سيده أذنه بالمثقب يخدمه إلى الأبد) .

أما استرقاق غير العبراني فهو بطريق الأسر والتسلط لأنهم يعتقدون أن جنسهم أعلى من جنس غيرهم ، ويلتمسون لهذا الاسترقاق سنداً من توراتهم المحرفة ، فيقولون : إن حام بن نوح – وهو أبو كنعان- كان قد أغضب أباه ، لأن نوحاً سكر يوماً ثم تعرى وهو نائم في خبائه ، فأبصره حام كذلك ، فلما علم نوح بهذا بعد استيقاظه غضب ، ولعن نسله الذين هم كنعان ، وقال – كما في التوراة في "سفر التكوين" إصحاح (٩/٢٥- ٢٦) : (ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته ، وقال : مبارك الرب إله سام ، وليكن كنعان عبداً لهم) . وفي الإصحاح نفسه (٢٧) : (ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام ، وليكن كنعان عبداً لهم) .

وفي سفر التثنية الإصحاح العشرون (١٠-١٤) : (حين تقرب من مدينة لكي تحل بها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة ، كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك) .

موقف النصرانية من الرقيق :

جاءت النصرانية فأقرت الرق الذي أقره اليهود من قبل ، فليس في الإنجيل نص يحرمه أو يستنكره .

والغريب أن المؤرخ (وليم موير) يعيب نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم بأنه لم يبطل الرق حالاً ، مع تغاضيه عن موقف الإنجيل من الرق ، حيث لم ينقل عن المسيح ، ولا عن الحواريين ولا عن الكنائس شيئاً في هذه الناحية .

بل كان بولس يوصي في رسائله بإخلاص العبيد في خدمة سادتهم ، كما قال في رسالته إلى أهل إفسس.

أمر بولس العبيد بطاعة سادتهم كما يطيعون المسيح ، فقال في رسالته إلى أهل إفسس الإصحاح السادس (٥-٩) : (أيها العبيد ، أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح ، لا بخدمة العين كمن يرضى الناس ، بل كعبيد المسيح ، عاملين مشيئة الله من القلب ، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس ، عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبدا كان أو حرا) .

وفي المعجم الكبير للقرن التاسع عشر (لاروس) : " لا يعجب الإنسان من بقاء الرق واستمراره بين المسيحيين إلى اليوم ، فإن نواب الدين الرسميين يقرون صحته ويسلمون بمشروعيته " .

وفيه : " الخلاصة : أن الدين المسيحي ارتضى الاسترقاق تماماً ، إلى يومنا هذا ، ويتعذر على الإنسان أن يثبت أنه سعى في إبطاله " .

وأقر القديسون أن الطبيعة جعلت بعض الناس أرقاء .

فرجال الكنيسة لم يمنعوا الرق ولا عارضوه بل كانوا مؤيدين له ، حتى جاء القديس الفيلسوف توماس الأكويني فضم رأي الفلسفة إلى رأي الرؤساء الدينيين ، فلم يعترض على الرق بل زكاه لأنه – على رأي أستاذه أرسطو – حالة من الحالات التي خلق عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية ، وليس مما يناقض الإيمان أن يقنع الإنسان من الدنيا بأهون نصيب .

"حقائق الإسلام" للعقاد (ص٢١٥) .

وجاء في قاموس الكتاب المقدس للدكتور جورج يوسف : "إن المسيحية لم تعترض على العبودية من وجهها السياسي ولا من وجهها الاقتصادي ، ولم تحرض المؤمنين على منابذة جيلهم في آدابهم من جهة العبودية ، حتى ولا المباحثة فيها ، ولم تقل شيئاً ضد حقوق أصحاب العبيد ، ولا حركت العبيد إلى طلب الاستقلال ، ولا بحثت عن مضار العبودية ، ولا عن قساوتها , ولم تأمر بإطلاق العبيد حالاً ، وبالإجماع لم تغير النسبة الشرعية بين المولى والعبد بشيء ، بل بعكس ذلك فقد أثبتت حقوق كل من الفريقين , وواجباته" .

أوربا المعاصرة والرقيق :

من حق القارئ أن يسأل وهو في عصور النهضة والتقدم عن رائدة التقدم في هذه العصور ، وعدد من كانوا يموتون بسبب طرق الاصطياد, وفي الطريق إلى الشواطئ التي ترسو عليها مراكب الشركة الإنجليزية وغيرها , ثم إن الباقين يموتون بسبب تغير الطقس , ويموت نحو ٤% أثناء الشحن , و ١٢ % أثناء الرحلة , فضلاً عمن يموتون في المستعمرات !!!

ومكثت تجارة الرقيق في أيدي شركات إنجليزية حصلت على حق احتكار ذلك بترخيص من الحكومة البريطانية , ثم أطلقت أيدي جميع الرعايا البريطانيين في الاسترقاق , ويقدر بعض الخبراء مجموع ما استولى عليه البريطانيون من الرقيق واستعبدوه في المستعمرات من عام ١٦٨٠ / ١٧٨٦م حوالي ٢١٣٠٠٠٠ شخصاً .

فعندما اتصلت أوربا بإفريقيا السوداء كان هذا الاتصال مأساة إنسانية , تعرض فيها زنوج هذه القارة لبلاء عظيم طوال خمسة قرون ، لقد نظمت دول أوربا وتفتقت عقليتها عن طرق خبيثة في اختطاف هؤلاء واستجلابهم إلى بلادهم ليكونوا وقود

نهضتها , وليكلفوهم من الأعمال مالا يطيقون , وحينما اكتُشِفَتْ أمريكا زاد البلاء , وصاروا يخدمون في قارتين بدلاً من قارة واحدة !!

تقول دائرة المعارف البريطانية (٧٧٩/٢) مادة Slavery : " إن اصطياد الرقيق من قراهم المحاطة بالأدغال كان يتم بإيقاد النار في الهشيم الذي صنعت منه الحظائر المحيطة بالقرية حتى إذا نفر أهل القرية إلى الخلاء تصيدهم الإنجليز بما أعدوا لهم من وسائل " .

وتم نقل مليون زنجي أفريقي إلى أمريكا مقابل موت تسعة ملايين أثناء عملية الاصطياد والشحن والنقل ، وذلك في الفترة ما بين عام ١٦٦١م إلى عام ١٧٧٤م ، أي أن عشر الذين كانوا يصطادونهم فقط هم الذين يبقون أحياء ، ويتم نقلهم إلى أمريكا ، لا ليجدوا الراحة واللذة ، بل ليجدوا السخرة والتعذيب !!

وكان لهم في ذلك قوانين يخجل منها العقلاء !

فكان من قوانينهم السوداء في ذلك : من اعتدى على سيده قُتل ، ومن هرب قطعت يداه ورجلاه وكوي بالحديد المحمى , إذا أبق للمرة الثانية قُتل ! وكيف سيهرب وقد قطعت يداه ورجلاه !!

ومن قوانينهم : يحرم التعليم على الرجل الأسود ويحرم على الملونين وظائف البيض .

وفي قوانين أمريكا : إذا تجمع سبعة من العبيد عُدَّ ذلك جريمة ، ويجوز للأبيض إذا مر بهم أن يبصق عليهم ، ويجلدهم عشرين جلدة .

ونص قانون آخر : العبيد لا نفس لهم ولا روح ، وليست لهم فطانة ولا ذكاء ولا إرادة ، وأن الحياة لا توجد إلا في أذرعهم فقط .

والخلاصة في ذلك : أن الرقيق من جهة الواجبات والخدمة والاستخدام عاقل مسئول يعاقب عند التقصير , ومن جهة الحقوق شيء لا روح له ولا كيان بل أذرعة فقط !!

ثم أخيرا وبعد قرون طويلة من الاستعباد والظلم تم تحرير البروتوكول الخاص بمنع الرق والعمل للقضاء عليه ، والمحرر في مقر الأمم المتحدة عام ١٩٥٣ م .

وهكذا لم تستفق ضمائرهم إلا في هذا القرن الأخير بعد ما بنوا حضارتهم على رفات الأحرار الذين استعبدوهم ظلماً وقهراً ، وأي منصف يقارن بين هذا وبين تعاليم

الإسلام –الذي مضى له أكثر من ١٤ قرناً– يرى أن إقحام الإسلام في هذا الموضوع أحق بالمثل السائر : "رمتني بدائها وانسلت!" .

والله أعلم

انظر كتاب : "شبهات حول الإسلام" لمحمد قطب ، "تلبيس مردود في قضايا خطيرة" للشيخ الدكتور صالح بن حميد إمام الحرم المكي .

الإسلام سؤال وجواب

==============

#الحضارة الإسلامية

لفضيلة الشيخ أحمد عبد الرحيم السايح

لفظ الحضارة في مفهومه الحديث، ومفهومه العالمي المعاصر، قد أصبح أكثر اتساعا، مما كان يدل عليه في مفهومه اللغوي التقليدي.. وإذا كان أصل الحضارة: الإقامة في الحضر. فإن المعاجم اللغوية الحديثة، ترى أن الحضارة هي: الرقي العلمي، والفني، والأدبي، والاجتماعي، والاقتصادي في الحضر.. وبعبارة أخرى أكثر شمولا، هي: الحصيلة الشاملة للمدنية، والثقافية، والفكر، ومجموع الحياة، في أنماطها المادية والمعنوية.. ولهذا كانت الحضارة هي: الخطة العريضة –كماً وكيفاً– التي يسير فيها تاريخ كل أمة من الأمم، ومنها الحضارات القديمة، والحضارات الحديثة والمعاصرة.. ومنها الأطوار الحضارية الكبرى، التي تصور انتقال الإنسان أو الجماعات، من مرحلة إلى مرحلة..

ولئن كان الإسلام قد امتاز بأنه دين الحضارة الإنسانية، فإن الواقع يبين للباحث والمفكر، والدارس، أن الحضارة الإسلامية استمدت كل مقوماتها، وعناصر وجودها، وأسباب نمائها وازدهارها، من الإسلام ذاته..

والإسلام كان ولا يزال دين الحضارة والإنسانية، بمعنى أنه كان منذ نزوله دين عبادة، ودين معاملة، وأنه أنشأ لونا من الحضارة، عرف باسمه، وهو الحضارة الإسلامية.. لهذا نجد أن المستشرقين مدفوعين بدوافع شتى، قد ظلموا الحضارة الإسلامية، حينما أطلقوا عليها في مؤلفاتهم وكتاباتهم: الحضارة العربية أو حضارة العرب، وهذا يدل على الجهل والتجاهل، لأن حضارة عربية بدون إسلام لم تقم..

وقد قامت الحضارة الإسلامية، على دعائم أساسية، جعلت منها حضارة عالمية متميزة، وفريدة من تاريخ البشرية.. ومن ذلك..

أولا: أن الإسلام قد انطوى على طاقة روحية، جعلت منه قوة فاعلة، والشيء المهم في هذه القوة الفاعلة. أنها كانت أصلا جذريا يمس كل الأوضاع في حياة الناس.

ثانيا: أن الإسلام كان دين دعوة.. وفكرة الدعوة في الإسلام، قد واتتها ظروف الانتشار في النطاق العالمي، وفي ظلال الدعوة المستمرة، تمكن الإسلام من نشر طابعه الحضاري، كعقيدة للحياة، وأن يصبح في أقل من ربع قرن، مقوما أساسيا من مقومات الحضارة الإنسانية..

ثالثا: كان الإسلام دينا سهلا غير معقد، ولا مركب في عقيدته، وكان في الوقت ذاته، دينا مباشرا، يتصل فيه الإنسان بخالقه دون وساطة: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} ، {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ} ، ولا نجد عقيدة تطلب من الإنسان شهادة أبسط من شهادة الإسلام، على عمقها وعظمتها: ((لا إله إلا الله محمد رسول الله)).. عبارة سهلة رائقة نظيفة، تقف بالعاقل على عتبة الدخول في الإسلام، موقفا سهلاً. والمقوم الأصيل في هذه البساطة، أن القرآن الكريم هو الوعاء الأساسي للعقيدة كلها.

رابعا: كان الإسلام دينا رحبا يدعو إلى سبيل العقل، في حدود أصول العقيدة، كما يدعو إلى سبيل الضمير، والحق.. ومن هنا كانت الدعوة إلى النظر، وإلى المعرفة، أساسا من أسس الدعوة الإسلامية، وكان التفتح البصير مفتاح الدعوة للحضارة..

والإسلام في رحابته الحضارية، استطاع أن يمتص ألوان الحضارات في البلاد التي أوقد فيها قناديل الضياء، وأن يسبغ عليها طابعاً إسلاميا شاملا..

خامسا: البيئة بعواملها المحلية، وموقعها الجغرافي، قد ساعدت على إعطاء الحضارة الإسلامية، ما كان لها من طابع، ومن مكانة.. ولقد كانت الجزيرة العربية ذاتها، منطقة وصل بين أطراف العالم، عند ملتقى القارات الثلاث في العالم القديم ((أسيا وأفريقيا وأوربا)).. ومن شواطئ الجزيرة العربية، تمتد بحار الشمال، بادئة بالبحر الأبيض المتوسط. وبحار الجنوب بادئة بالبحر الأحمر، والخليج الإسلامي [١] ..

وقد كان عدم اتصال المياه بين الشمال والجنوب، سببا في أن شبه الجزيرة العربية،

كانت نقطة تغيير، في وسائل المواصلات، وفي ظهور الوساطة التي كتب للمسلمين أن يقوموا بها.. ولم يكن الأمر بالطبع مجرد التوسط الجغرافي على أهميته، وإنما كان الأمر أوسع وأعمق، فهو توسط من ناحية الطبيعة البشرية، ومن ناحية السلوك الإنساني، ومن ناحية الاعتدال في كل ما يصل بالمادة وهي أمور كلها اتصلت بطبيعة البيئة العربية. ومن هذه البيئة الوسط، انتشر الإسلام شرقا وغربا، وشمالا وجنوبا، بالبر والبحر على السواء.. وقد شاء الله سبحانه وتعالى، أن تستيقظ الجزيرة العربية في القرن الرابع عشر الهجري، الموافق القرن العشرين ميلادي، والقرن العشرون يعتبر أزهى قرون الحضارة في الغرب. شاء الله أن تقوم –في الجزيرة العربية

المملكة السعودية، على أساس القرآن الكريم، لا على أنه المادة الأولى أو الثانية من الدستور، كما تفعل كثير من الدول التي يقال عنها، عربية وإسلامية.

ولكن على أساس أنه هو كل شيء، في التعليم، وفي التوجيه، وفي الحكم، وفي السياسة، وفي الثقافة، وفي جميع نواحي الحياة.. وقد قامت في السعودية نهضة علمية وثقافية جبارة، جعلت الجامعات تعمل في إعداد كامل، لمؤتمرات إسلامية جامعة، مثل مؤتمر الفقه الإسلامي ومؤتمر العلم والتكنولوجيا، ومؤتمر الاقتصاد، ومؤتمر الشباب، ومؤتمر الدعاة ومؤتمر المساجد، ومؤتمر المذيعين، وصارت الجامعات والكليات ومعاهد العلم، تصدر صحفا، ومجلات ذات دراسة وعمق، معدة إعدادا يتفق مع ما وصلت إليه الطباعة من تقدم..

ولا شك أن هذا كله دعامة من دعامات الحضارة الإسلامية القائمة على الإسلام.. حتى لا يأتي إلينا مخرف من الشرق، أو من الغرب، فيقول إن حضارة الإسلام قد شاخت وهرمت.. شاء الله أن تظل تجربة الحكم بالقرآن الكريم، قائمة في أرض الجزيرة العربية، كما كانت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وعهد الخلفاء الراشدين..

سادسا: الوسطية التي جاء بها الإسلام، والوسطية التي جعلت فيها الأمة الإسلامية وشرفها الله بها.. ليست الوسطية المبتدعة في الفكر المستورد الحديث.

فالوسط المبتدع في الفكر العصري، وسط عفن، قام بين تراكمات عفنة من اليمين واليسار. ولا شك أن اندفاع بعض المجتمعات الإسلامية إلى هذا الوسط العفن، وما جاء حوله من يمين ويسار، يعد عند الدارسين لتطور الشعوب، كارثة فكرية خطيرة، وردة جاهلية وثنية.. والوسطية الإسلامية وسطية عامة شاملة، لا تعترف بتقسيم اليمين والوسط واليسار. بل إنها:

١- في العقيدة تقوم على توحيد الله وإفراده بالعبادة، والتمسك بما شرع من آداب السلوك والمعاملة..

٢- وفي التشريع تقوم على أصول رئيسية، مصدرها الأساسي: القرآن الكريم، وسنة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام.

٣- وفي الأخلاق تقوم على خلوص النية، ونقاء الضمير، والتمسك بقيم الخير، والحق، والتزام الآداب الفردية والاجتماعية..

٤- وفي الاجتماع تقوم على الأسرة المتماسكة القائمة على ركائز المودة، والرحمة، والإخلاص، والاحترام والتعاون..

٥- وفي السياسة تقوم على الشورى، واحترام حقوق الإنسان، والتزود بكل أسباب القوة، والدفاع عن العقيدة..

٦- وفي الاقتصاد تقوم على تبادل المنافع، واتخاذ المال وسيلة لا غاية واحترام الملكية الفردية..

٧- وفي الثقافة تعتمد على طلب المعرفة، واستخدام العقل في كسب المعارف..

٨- وفي الفكر تقوم على استنهاض العقول، وحرية الفكر، واستقلال الإرادة..

فأي وسطية أسمى من هذه الوسطية التي ارتضاها الله، وجعلها سمة هذه الأمة الإسلامية، ذات الحقيقة الكبيرة، والوظيفة الضخمة في هذه الأرض، ويقول في ذلك شهيد الأمة الإسلامية سيد قطب: ((إنها الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعا، فتقيم فيهم العدل والقسط، وتضع لهم الموازين والقيم، وتبدي فيهم رأيها.. فيكون هو الرأي المعتمد، وتزن قيمهم، وتصوراتهم وتقاليدهم، وشعاراتهم. فتفصل في أمرها، وتقول: هذا حق منها، وهذا باطل.. لا التي تتلقى من الناس تصوراتها، وقيمها، وموازينها وهي شهيدة على الناس، وفي مقام الحكم العدل بينهم. وبينما هي تشهد

على الناس هكذا، فإن الرسول هو الذي يشهد عليها، فيقرر موازينها وقيمها، ويحكم على أعمالها وتقاليدها، ويزن ما يصدر عنها، ويقول فيه الكلمة الأخيرة.. وبهذا تتحقق حقيقة هذه الأمة، ووظيفتها، لتعرف وتشعر بضخامتها ولتقدر دورها حق قدره، وتستعد له استعدادا لائقا.. وإنها للأمة الوسط بكل معاني الوسط. سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعناه المادي الحسي.

{أُمَّةً وَسَطا} في التصور والاعتقاد. لا تغلو في التجرد الروحي، ولا في الارتكاس المادي. إنما تتبع الفطرة الممثلة في روح متلبس بجسد. أو جسد تتلبس به روح. وتعطي لهذا الكيان المزدوج الطاقات، حقه المتكامل من كل زاد، وتعمل لترقية الحياة ورفعها، في الوقت الذي تعمل فيه على حفظ الحياة وامتدادها، وتطلق كل نشاط على عالم الأشواق، وعالم النوازع، بلا تفريط ولا إفراط: في قصد، وتناسق، واعتدال..

{أُمَّةً وَسَطا} في التفكير والشعور، لا تجمد على ما علمت، وتغلق منافذ التجربة والمعرفة. ولا تتبع كذلك كل ناعق، وتقلد تقليد القردة المضحك، إنما تستمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول، ثم تنظر في كل نتاج الفكر والتجريب.. وشعارها الدائم: الحكمة ضالة المؤمن أني وجدها أخذها، في تثبت ويقين..

{أُمَّةً وَسَطا} في التنظيم، لا تدع الحياة كلها للمشاعر والضمائر، ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب. إنما ترفع ضمائر البشر بالتوجيه والتهذيب وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب وتزاوج بين هذه وتلك. فلا تكل الناس إلى وسط السلطان، ولا تكلهم كذلك إلى وحي الوجدان، ولكن مزاج من هذا وذاك.

{أُمَّةً وَسَطا} في الارتباطات والعلاقات لا تلغي شخصية الفرد ومقوماته، ولا تتلاشى شخصيته في شخصية الجماعة أو الدولة، ولا تطلقه كذلك فرداً أثراً جشعاً، لا هم له إلا ذاته.. إنما تطلق من الدوافع والطاقات ما يؤدي إلى الحركة والنماء، وتطلق من النوازع والخصائص ما يحقق شخصية الفرد وكيانه، ثم تضع من الكوابح ما يقف دون الغلو، ومن المنشطات ما يثير رغبة الفرد في خدمة الجماعة، وتقرر من

التكاليف والواجبات ما يجعل الفرد خادما للجماعة، والجماعة كافلة للفرد، في تناسق، واتساق..

{أُمَّةً وَسَطا} في المكان، في سرة الأرض، وفي أوسط بقاعها، وما تزال هذه الأمة التي غمر أرضها الإسلام، إلى هذه اللحظة.. هي الأمة التي تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغرب، وجنوب وشمال، وما تزال بموقعها هذا تشهد الناس جميعا وتشهد على الناس جميعا، وتغطي ما عندها لأهل الأرض قاطبة، وعن طريقها تعبر ثمار الطبيعة، وثمار الروح والفكر، من هنا إلى هناك، وتتحكم في هذه الحركة ماديها ومعنويها على السواء..

{أُمَّةً وَسَطا} في الزمان، تنهي عهد الطفولة البشرية من قبلها، وتحرس عهد الرشد العقلي من بعدها، وتقف في الوسط تنفض عن البشرية ما علق بها من أوهام، وخرافات، في عهد طفولتها، وتصدها عن الفتنة بالعقل والهوى، وتزاوج بين تراثها الروحي من عهود الرسالات، ورصيدها العقلي المستمر في النماء، وتسير بها على الصراط السوي بين هذا وذاك)). فالأمة الإسلامية ليست بحاجة إلى الأحزاب التي أوجدها ورعاها التبشير الصليبي.. وليست في حاجة إلى التقدمية، والثورية، واليمين والوسط واليسار.. وليست في حاجة إلى اشتراكية المنحرفين، من سماسرة الشيوعية، والدجل الفكري، وليست في حاجة إلى تعدد المنابر، واستيراد ما هب ودب.. وليست في حاجة إلى تجارب الأمم. إذن وبدون شك. الأمة الإسلامية في حاجة إلى إسلام، والإسلام فقط..

سابعا: القرآن الكريم ذاته. وذلك أن القرآن كان أعظم ما عرفته الإنسانية في تاريخها الممتد الطويل.. وقد تضمن القواعد الرصينة الكفيلة بقيام المجتمع الإنساني السليم. تشده الإنسانية فتجد فيه مبتغاها من التشريعات الفردية، والعلائق الأسرية، والمعاملات الاقتصادية والحربية، والقوانين المدنية، والأنظمة الدولية، وبعبارة أوجز.. تجد فيه الأمة كل ما تحتاج إليه في حياتها العامة والخاصة، الدين والدنيا..

ثامنا: اللغة العربية نفسها كانت دعامة من دعائم الحضارة الإسلامية، وذلك لأنها أعرق اللغات منبتا، وأعزها جانبا، وأقواها جلادة، وأغزرها مادة، وأدقها تصويرا لما يقع تحت الحس، وتعبيرا عما يجول في النفس..

وعندها من المرونة على الاشتقاق، والقبول للتهذيب، وسعة صدرها للتعريب. ما يمكنها من الاستمرار في عطائها، نزل القرآن بلسانها فجعلها أكثر رسوخا، وأشد بنيانا، وأقوى استقرار. وبفضل القرآن، صارت العربية، أبعد اللغات مدىً، وأوسعها أفقا، وأقدرها على النهوض بتبعاتها الحضارية، عبر التطور الدائم الذي تعيشه الإنسانية. واستطاعت العربية في ظل عالمية الإسلام، أن تتسع لتحيط بأبعد انطلاقات الفكر، وترتقي حتى تصل أرقى اختلاجات النفس، وليس هناك معنى من المعاني، ولا فكر من الأفكار، ولا عاطفة من العواطف، ولا نظرية علمية من النظريات، تعجز اللغة العربية عن تصويره بالأحرف والكلمات، وتجسيده داخل الكلمات.

تاسعا: وبجانب هذا وذاك، كانت هناك مقومات تاريخية وبشرية، تتصل بالعصر الذي ظهر فيه الإسلام، ثم بالعنصر البشري، والتكوين السكاني. فأما عن العصر، فقد كان الإسلام ختام الأديان السماوية، وكان الإسلام بذلك رباطا لها من الناحية التاريخية، كما كان في الوقت ذاته تصحيحا لها لما أصابها من تخريف الفلاسفة والوثنيين..

ولقد كان هذا كله، قوة دفع للفكر الإسلامي، وما تصل به من حضارة، ومن هنا انطوى التفاعل الإسلامي على قوة غلبت كل التحديات الجاهلية، فانتشر طابع الحضارة الإسلامية على فعالية، لم يعرف لها مثيل في تاريخ الإنسانية..

عاشرا: ومما يذكر أن ترسيخ معالم الحضارة الإسلامية، قد تضاعف بفعل مقوم إنساني آخر.. وهو تنوع السلالات التي دخلت في الإسلام، ثم هناك ظاهرة أخرى ترتب على كل هذه الجوانب والعوامل، وهي ظاهرة الاتصال والاستمرار الزمني في الحضارة الإسلامية.. ومن وراء كل ذلك هناك الإيمان بالله، فهو القوة الدافعة الموجهة التي تسند الضعيف من أن يسقط، وتمسك القوي من أن يجمح، وتعصم الغالب من أن يطغى، وتمنع المغلوب من أن ييأس..

وقد أثبت التاريخ أن الذين تربوا في مدارس القرآن، هم وحدهم الذين صلحت بهم الحياة، واعتدل في أيديهم ميزان الحق، والعدل..

ولقد كانت المملكة الإسلامية تزدهر بالعلم والحضارة شرقا وغربا، وتنتشر فيها أرقى الصناعات على اختلافها، وما تركه المسلمون من تراث علمي، لأكبر شاهد على ذلك..

ولقد تلمست أوربا الحضارة الإسلامية، فاستقت من روافدها العلوم والمعرفة من الفلك والجبر والهندسة والحساب والكيمياء والطب والزراعة، وسائر أنواع الفنون الحضارية. وبنى رجال أوربا بما تعلموه في معاهد المسلمين بالأندلس، وبما نقلوه من علوم.. بنوا أسس النهضة الحديثة التي ظهرت بوادرها في القرن الثامن عشر، وازدهرت في القرن العشرين..

والإسلام بدعوته إلى العلم هو الذي خرج جهابذة الفكر، ورجال الحضارة، أمثال ابن الهيثم، وابن البيطار، وابن سينا، وابن النفيس، وابن زهر، وابن بطوطة، والكندي، والفارابي، والبيروني، والطوسي، والدينوري، والبغدادي، والرازي، والقزويني، والأنطاكي، والخوارزمي، والإدريسي، والمسعودي، وجابر والحافظ، وغيرهم ممن أفادوا الإنسانية. وهذا ابن الهيثم يبحث في السهول والأودية، ويجول فيها طولا وعرضا، حتى يضع قواعد علم الضوء. وابن الدجيلي، يسهر على قمم الجبال العالية، يحدق في الكواكب والنجوم، ليحد أفلاكها، ويعرف أبعادها، ويقيس محيط الكرة الأرضية. وعبد الله الخوارزمي العالم المسلم الذي ولد في إقليم خوارزم [٢] ، أول رجل في العالم يضع أصول علم الجبر، وفي كتابه ((الجبر والمقابلة)) يقسم العلماء إلى ثلاثة أقسام: فمنهم المخترع المبتكر الذي لم يسبق إليه، ومنهم الذي يتناول آراء العلماء قبله بالشرح والتفصيل والتوضيح، ومنهم الذي لم يكلف نفسه أكثر من جمع المتفرق..

وأبو الريحان محمد البيروني الذي ولد في بيرون، وهي مدينة صغيرة تتبع مدينة خوارزم. يساهم في الفلك والرياضيات، بمساهمات فعالة. وابن النفيس العالم الدمشقي، يجري التجارب والاختبارات، حتى يثبت أن الدم ليس سائلا مستقرا في الأوردة والشرايين. بل هو سائل متحرك، يدور في جميع أجزاء الجسم، وذلك قبل أن يكتشف العالم البرتغالي (هارفي) الدورة الدموية بثلاثة قرون..

وابن مسكويه ذلك المفكر الإسلامي الكبير الذي طرق الدراسات الأخلاقية والنفسية، فذلل متونها، وسبق علماء أوربا، فيما وصل إليه من النظريات النفسية والسلوكية.. هذا كله في الوقت الذي كانت فيه أوربا تعيش في ظلمات الجهل والهمجية، ولم ينقذ أوربا من ورطتها التي كانت واقعة فيها إلا نور الإسلام. وما زالت أسماء العلوم والمصطلحات التي أعطاها العلماء المسلمون لغرائب العلم، ما زالت حية في جميع اللغات رغم ما مر عليها من تحريف وتغيير.. ولقد سجل تاريخ الحضارة الإسلامية بإعزاز. وتقول الكاتبة الألمانية الدكتورة سيجريد هونكه، في كتابها ((شمس الله تشرق على الغرب)) تقول: ((إن هذه الطفرة العلمية الجبارة التي نهض بها أبناء الصحراء من العدم، من أعجب النهضات العلمية الحقيقة في تاريخ العقل البشري، فسيادة أبناء الصحراء التي فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة، وحيدة في نوعها، وإن الإنسان ليقف حائرا أمام هذه المعجزة العقلية الجبارة))..

وإن من يمعن النظر في أعماق الحضارة الإسلامية، وما حققته للإنسانية من أسباب النمو، وعوامل الازدهار، ويلم بما جاء به الفكر الإسلامي، من مفاهيم تناولت أهم معضلات الحياة. إن من يتعمق في ذلك، يدهشه مدى عمق التفكير الواعي الذي بلغ ذروته علماء الإسلام، وقد يتضاعف إعجاب الباحث، بهذا الفيض الزاخر، من الجهود العلمية التي شرقت بالحضارة وغربت، وملأت الدنيا بإشراقها..

وربما تزداد دهشت الباحث العاقل، والمفكر الناصح، ويتعاظم تمجيده لحركة التحول الخطيرة التي أصابت المجتمع العربي في تلك الفترة القصيرة. ترى أي سر هذا الذي استطاع أن يحول عرب الصحراء، وهذه الشعوب المتفرقة.. إلى أساطين في العلم، ومشاعل في الحضارة، ومنارات في الثقافة؟ وأي قوة رفعت العرب من حال البداوة التي كانوا عليها إلى أبطال وقادة، يفتتحون أعظم الممالك وأوسعها، ويجولون في الأرض غير هيابين ولا وجلين..؟ .. وأي دعوة هذه التي حولت الناس من الجهل والجاهلية والمذاهب الوضعية، إلى النور الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور..؟

ليس من المعقول في نظر المفكر.. ولا من المقبول في نظر الباحث.. ولا من المعروف في نظر الدارس.. أن يطفر الفكر العربي الذي قيدته ظروف الحياة القبلية

الآسنة اليبوس.. إلى مثل هذه المرتبة العالية، دون أن تكون هناك الأسباب القوية التي دفعت به إلى الحياة المتحركة دفعا.. فما هي تلك الأسباب التي استقى منها الفكر الإسلامي، مادة حيويته وحركته؟ وما هي الموارد التي نهل منها أسباب تكامله..

إن المنبع الأول والأصيل الذي استقى منه الفكر أسباب تقدمه ونمائه، هو القرآن الكريم، فهو السر الكامن، وهو القوة المحركة، وهو الدعوة القائمة المستمرة.. وذلك أن القرآن لم يكن كتاب دين يحث على العبادة وتوحيد الله فحسب، وإنما كان إلى جانب تأكيد وحدانية الله، وما يتبعها من عقائد وعبادات.. منبعا أصيلا من منابع الحضارة، ولقد كان أول أثر من آثار القرآن في الحضارة الإنسانية، الاهتمام الواسع بالعلم، وذلك أن العلم عنوان التقدم الحضاري.. ولقد كانت عناية القرآن بالعلم، تفوق حد الوصف واستطاعت توجيهات القرآن العلمية أن تكون منهجا علميا سليما، حدد به المسلمون موقفهم من مشاكل الكون والحياة.

ومن هنا كان التفكير العلمي في الإسلام، يقوم على الموضوعية، والصدق، ومن الحوادث البالغة الدالة على العقلية الموضوعية، لدى الفكر الإسلامي، ما حدث مصادفة، أن كسفت الشمس يوم مات إبراهيم بن محمد رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فقال قوم إنها كسفت لموت إبراهيم.. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته". وبهذا قرر الرسول الصادق، مبدأ علميا، يعتمد عليه المسلمون، فيما يتصل بالكون وما فيه)).

وفي حادثة فيضان نهر النيل، بإقليم مصر الإسلامي، موضوعية علمية، تنبئ عن نظافة الفكر الإسلامي.. حيث كان الاعتقاد قبل الفتح الإسلامي، أن النيل لا يفيض بالماء، إلا إذا ألقيت فيه فتاة حسناء، لتموت فيه غرقا. فلما حان وقتذاك. كتب الحاكم عمرو بن العاص، والي أمر مصر، إلى خليفة المسلمون عمر بن الخطاب، في المدينة المنورة، عاصمة الخلافة الإسلامية، يخبره بما تعود عليه المصريون فأجابه عمر بإرسال رسالة، يلقيها في النيل، وكان في الرسالة: ((من عمر أمير المؤمنين إلى النيل إن كنت تجري من عندك فلا حاجة لنا بك، وإن كنت تجري بفضل الله، فاللهم بارك لنا)).

وفي ميدان التطبيق العملي، نجد أن عمر بن الخطاب في خلافته، قد أمر بقطع شجرة الرضوان، لأن بعض الناس قد أسبغ عليها صفات غير موضوعية.. هذا وأمثاله مظهر للتفكير العلمي الموضوعي لدى المسلمين ينبئ لكل عاقل أن الإسلام هو الدين الحق والصراط المستقيم.

ولهذا كانت للمسلمين حضارة، وعلوم، ومخترعات.. كانت هناك تشريعات وفلسفة، وقوانين، وطب، وفلك، ورياضيات، وأدب، واجتماع وتاريخ وجغرافيا، وكيمياء، وآداب للسلوك.. وكان لكل هذه العلوم أساتذة عباقرة، كأئمة الفقه، وعلماء التفسير، ورجال الحديث، الذين خرجوا المسائل والأحكام الفقهية، وضبطوا أساليب النقد، وقعَّدوا قواعد التشريع.. ويذكر لنا التاريخ عشرات المئات من العلماء في كل فن.. أصبح هناك قادة وحكام لم يعرف التاريخ لهم مثيلا.. وهم لم يدخلوا الكليات الحربية، ولم يدرسوا في مدارس عسكرية.. ولكن دخلوا شيئا واحدا، هو كلية القرآن الكريم، ومدرسة الإسلام الحنيف.. وهناك مدن امتلأت بالعلم والعلماء، ومعاهد الحضارة، مثل: القاهرة، وبغداد، ودمشق، وقرطبة، وغرناطة، واشبيلية، وبخارى وغيرها من العواصم التي تزخر بكل ألوان الحضارة.. وكانت هناك دول وممالك، في الشرق والغرب، بسطت نفوذها الإسلامية وعقيدتها، وعبقريتها، وشرقت وغربت حتى نشرت الفكر الصحيح.. وكل هذا بفعل الاتجاهات القرآنية التي غرسها الإسلام، في قلوب الناس، والتي أدت إلى تنمية القوى العقلية في الإنسان المسلم، ففتحت أمامه آفاقا واسعة لا حدود لها)).

واليوم على الغيورين أن يدرسوا حال المسلمين، الذين ابتلوا بالأفكار المستوردة، والأحزاب الحمراء المتنمرة. لنرى هل يمكن أن تعود حضارة المسلمين، وتشرق من جديد، فتنقذ الإنسانية من بلاء الإلحاد. وحضارة المادية العفنة.. وقبل أن نقرر إمكانية عودة الحضارة الإسلامية أضع أمام القارئ الحقائق التالية:

أولا: العالم الإسلامي حباه الله بأعظم النعم، إذ يتربع على كنوز ثمينة ويربض على ثروات معدنية هائلة، ويملك من حقول البترول أجداها نفعا، وأكثرها سخاء وثراء، وأقواها تدفقا وعطاء.

ثانيا: يملك العالم الإسلامي من شواطئ البحار والأنهار، والممرات، والطرق، البرية، والبحرية، والجوية، ما يجعله في مركز القيادة، ويمكنه من المساهمة والإشراف والتحرك الفعال.

ثالثا: مناطق الثقل في العالم الإسلامي بعيدة عن القطبين، ومصونة من الأعاصير، والطوفانات، والثلوج، والمد والجزر، والبراكين وهذا يتيح لها ما تستطيع به العمل والتقدم..

رابعا: العالم الإسلامي غني بالمحاصيل الزراعية، والإنتاج الحيواني، مما يمكن من قيام صناعات متقدمة ومتطورة.

خامسا: يعيش العالم الإسلامي اليوم في يقظة واعية، وصحوة صحية، إذا أحسن توجيهها، أثمرت..

تلك وغيرها أمور تجعل العالم الإسلامي، قوة إيجابية، مرهوبة الجانب مهيأة لإنقاذ الإنسانية من وهدة الضياع..

ولا شك أن الأمور الخمسة المذكورة مع ما سبق ذكره من مقومات الحضارة الإسلامية، هي أسباب قيام حضارة كاملة.. ومن هنا نقول في غير تردد، إن عودة المسلمين إلى إقامة حضارة إسلامية، أمر ممكن، ولا يحتاج منا إلى أن نخرب أنظمة الأمم، ولا أن نتمسك بأحزاب بعثها المخربون، ولا أن نقسم الأمة إلى أنظمة وجبهات، ولا أن نمزق المجتمع الواحد إلى يمين ووسط ويسار، واشتراكيين وأحرار.. وإنما يحتاج إلى أمر واحد فقط هو الإسلام. الإسلام سلوكا وعملا، والإسلام ثقافة وتربية، والإسلام نظاما وحياة، ولن يصلح آخر الأمة إلا بما صلح به أولها. والله الموفق..

----

[١] التسمية بالخليج الإسلامي هي أفضل طريقة أمام تحديات العصر.

[٢] إقليم خوارزم هذا من الأقاليم الإسلامية التي كانت عامرة بالعلم والعلماء، وهو واقع الآن في قبضة الاستعمار الشيوعي الروسي..

===============

التربية الإسلامية

مفومها :

في اللغة تأتي على ثلاثة معاني :

أ – الزيادة والنماء . ب – النشأة والترعرع . ج – الإصلاح .

في الإصطلاح :

مجموعة التصرفات العملية والقولية ، المأخوذة من الكتاب والسنة أو الاجتهاد في ضوئهما ، والتي يمارسها إنسان بإرادته مع إنسان آخر ، بهدف مساعدته في اكتمال جوانب نموه ، وتفتيح استعداداته ، وتوجيه قدراته ، وتنظيم طاقاته ، ليتمكن من ممارسة النشاطات ، وتحقيق الغايات التي يحددها الإسلام .

وهناك نتائج أساسية في فهم التربية :

١- أن المربي الحق على الإطلاق ، هو الله الخالق .

٢- أن عمل المربي تالٍ وتابع لخلق الله وإيجاده ، كما أنه تابع لشرع الله ودينه .

٣- أن التربية عملية هادفة ، لها أغراضها وأهدافها وغاياتها .

٤- أن التربية تقتضي خططاً متدرجة ، تسير فيها الأعمال التربوية والتعليمية ، وفق ترتيب منظم صاعد ، ينتقل مع الناشئ من مرحلة إلى مرحلة

أهدافها وغاياتها

المقصد القريب هو الهدف ، والمقصد البعيد هو الغاية ، والباحثون يختلفون في ذكر الأهداف والغايات ، ويختلفون في تحديد الهدف الأساسي وما يتفرع عنه . والصواب أن غاية التربية هي العبودية الخالصة لله وحده ، قال تعالى : {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }الذاريات٥٦ والعبودية على مستويات ، كل يختلف عن الآخر ، بحسب ما قام في قلبه للخالق عز وجل . والعبودية المرضية لله ، لها جناحان ، جناح عبادة لله وحده ، وجناح خدمة عباد الله لوجه الله . والأهداف للتربية ينبغي أن تتحقق في ضوء هذه الغاية . ولما كانت الأهداف كثيرة ومتنوعة ، فسوف نقتصر على الأهداف العامة والشاملة والدائمة ، وهي متدرجة ومترابطة ومتكاملة ومتناسقة مع الغاية المنشودة ، وتحت كل هدف عام يندرج تحته عدة أغراض تربوية جزئية ومرحلية ، وهي كالتالي :

الأول / بناء إنسان مسلم متكامل جوانب الشخصية .

الثاني / بناء خير أمة مؤمنة أخرجت للناس .

الثالث / بناء خير حضارة إنسانية إسلامية .

الرابع / البناء العلمي للأفراد والجماعات .

وبناء المسلم أساساً لبناء تلك الأمة ، وبناء تلك الأمة أساساً لبناء تلك الحضارة .

الأول / بناء إنسان مسلم متكامل جوانب الشخصية

وهي جوانب النمو الأساسية مثل :

- تحقيق النمو الصحي / التربية الصحية ، الوقاية ،صحة قوية .
- تحقيق النمو العقلي / التربية العقلية ، حماية العقل ، تنميته ، تكوين عقليته .
- تحقيق البناء الاعتقادي / التربية الاعتقادية ، تكون إيمان صحيح ، تنميته ، دفاع عن العقيدة ، النظرة الصحيحة إلى الكون والحياة وما بعد الحياة .
- تحقيق البناء الروحي /التربية الروحية (الإيمانية) الإلتزام، العبادة ، السعادة .
- تحقيق البناء الأخلاقي الاجتماعي / التربية الأخلاقية ، الفضائل والرذائل .
- تحقيق النمو الإرادي/ تربية الإرادة لمواجهة الصعاب في الحياة، نفسية، أخرى.
- تحقيق النمو الإبداعي / التربية الإبداعية ، إتقان الخالق لتعظيمه، المخلوق وإتقانه في مجالات :

الإبداع الخَلقي / إبداع الخالق .

الإبداع الجمالي / تحسين كل ما يقوم به الإنسان من أعمال وصنائع .

الإبداع العقلي والفكري / صنع نظريات وحكم ، تحلَّ بها المشكلات الفردية والجماعية .

الإبداع العلمي / الاختراع وكشف الحقائق العلمية التي لم تنشر ولم تكتشف .

الإبداع الأدبي / الابتكار في البيان والبلاغة والمعاني والصور الأدبية .

الإبداع الأخلاقي / ابتكار المشاريع الخيّرة من أجل نهضة الأمة والمجتمع .

الإبداع الفني / الابتكار في المجال الفني من أجل تحقيق أهداف سامية .

شروط نجاح التربية الإبداعية .

- الكشف عن الميول والاستعدادات ثم توجيههم إلى التخصصات والمهن .
- إعداد المعلمين والمربين من ذوي القدرات في المجالات العلمية والمهنية .

– جعل الناشئين يمارسون الابتكارات والمهارات ، وتحقيق كل ما يلزم لذلك .

– إرسال بعثات من ذوي الكفايات إلى الدول المتقدمة بالضوابط الشرعية للوقوف على الأسرار العلمية والتقدمية .

– استقدام أساتذة مهرة في الإبداع ومخلصين في جميع المجالات .

– تنمية روح الإبداع والاهتمام بأساليبها وطرقها .

الثاني / بناء خير أمّة أُخرِجت للناس

– بناء هذه الأمة هدف من بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان خير مثال في حياته صلى الله لعيه وسلم العملية بناء هذه الأمة .

والصفات التي تميز الأمة عن غيرها هي التي يجب تكوينها فيما يلي :

– تكوين العقيدة الإسلامية الصحيحة ، الدافعة إلى السلوك بموجبها .

– تكوين الروح الأخلاقية الإسلامية الخيّرة ، والتي تدفع الناس إلى التنافس .

– تكوين روح الأخوة الحقة ، وبها تزول الفوارق إلا لأهل التقوى .

– تكوين الوعي الكامل بوحدة حياة الأمة ووحدة مصالحها العامة ، كالجسد .

– تكوين روح الخضوع للنظام الإسلامي ، فهو نظام رباني فيه صلاة الأمة .

– تكوين روح التعلق بالأمة الإسلامية ، ومعنى هذا إيثار مصلحة الأمة وترك كل ما من شأنه إظهار للفتن والفرقة التي تمزق الأمة ، والجماعة خير .

– تكوين روح العدالة الاجتماعية ، فهي تحقق المودة والشعور بالمساواة ، والظلم له أثر كبير في خراب العمران وسقوط الدول ، وعامة الاضطرابات والجرائم سببها الظلم .

– تكوين روح التعاطف والتراحم ، حتى تكون الأمة كالجسد .

– تكوين روح التعاون والتناصح والتواصي والأمر والنهي ، فهي كفيلة بالاستمرار .

– تكوين روح الجهاد والكفاح من أجل حماية الأمة ونشر الدعوة .

– تكوين روح الإتقان والتقدم العلمي في جميع المجالات ، ومن ليست كذلك فهو محكوم عليها بالتأخر والتخلف.

الثالث : بناء خير حضارة إنسانية إسلامية

والحضارة الإسلامية هي تقدم المجتمع الإسلامي وتفوّقه من الناحيتين المادية والمعنوية في جميع المجالات ، بروح خيّرة ، ونحوه غاية خيرة في ضوء المبادئ الإسلامية .

وكل تقدّم وتميّز بغير هذه الروح وبغير هذه الغاية لا يعتبر تقدماً حضارياً ولها أهمية بالغة من خلال ثلاثة أمور :

- حفظ الحضارة من الانهيار .
- دفع عجلة التقدم الحضاري .
- توجيه الحضارة نحو هدف أسمى وغاية خيّرة .

والإسلام يقتضي الحضارة ، فالله دعا المسلمين إلى أن يكونوا أعلى من غيرهم بالإيمان والإعداد والعدة {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ}محمد٣٥ {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا}آل عمران١٣٩ {وَأَعِدُّواْ}الأنفال٦٠وهناك شروط تربوية لبناء الحضارة الإسلامية .

- يجب توضيح صورة تلك الحضارة وعناصرها وقيمها ووسائلها أمام الناشئين .
- يجب إقناع الجيل بأهمية مثل هذه الحضارة وقيمتها وضرورتها وأنها خير وسيلة لبناء الأمة .
- يجب الإيضاح للناشئين أن إقامة هذه الحضارة تحتاج إلى جهود جبارة وكفاح .
- يجب تنشئة الجيل على التضحية والبذل من أجل بناء هذه الحضارة .
- يجب تنشئة الجيل وتوجيهه للابتكار والتصنيع وإتقان المهارات حسب الاحتياج.

* أسسها

١- الأسس الفكرية ٢- الأسس التعبدية ٣- الأسس التشريعية

الأسس الفكرية من خلال نظرة الإسلام إلى :

الإنسان ... الكون ... الحياة

حقيقته وأصل خلقته ... مخلوق الله ... مبدأها بجعلها دار اختبار

هو مخلوق مكرم ... خضوعه لسنن الله ... صفاتها في نظر الإسلام

هو مميز مختار ... مسيّر بقدرة الله

قدرته على التعلم ... كانت لله

مسؤليته وجزاؤه ... مسخر للإنسان

مهمته الكبرى (العبادة)

الأسس التعبدية

الصلاة + الصوم + الزكاة + الحج + سائر العبادات

الأذكار + النسك + الشورى + العدل + العزة + التوبة

– يجب التركيز على هدف الحضارة وأنه هدف إنساني نبيل ، وغايتها غاية دينية عليا ، تخدم الدين ، فهو خير طريق لانتشاره وسيادته .

خصائصها :

١- أنها مرتبطة بنصوص القرآن والسنة ، والاجتهاد في ضوئهما .

٢- طرفاها من البشر ، قد يكونان كبيرين ، أو كبير وصغير ، وهذا الأغلب .

٣- أنها مقصودة ومرتبة ، ولا يمنع أن تحدث عبر مواقف غير مقصودة .

٤- أنها شاملة تتناول جميع جوانب النمو في الفرد العقلي والجسمي والنفسي والاجتماعي والصحي والروحي والخلقي وجميع قدراته وطاقاته .

٥- أنها مستمرة مع الإنسان في جميع مراحل نموه ، منذ تكوينه حتى وفاته .

٦- أنها هادفة لتمكين الإنسان من القيام بالأنشطة والممارسات المحققة لغايات الإسلام وأهدافه في بناء الفرد والمجتمع والحضارة .

الأسس التشريعية

فالشريعة الإسلامية أساس عظيم من أسس التربية وهي بيان للعقيدة والعبادة ونظم الحياة ، وهي ترسم للمسلم صورة منطقية متكاملة لكل شيء ، وتقدم له قواعد ونظماً سلوكية وأحكام الشريعة لكل العصور والأزمان ، والشارع هو الله في كتابه ، ورسوله صلى الله عليه وسلم في سنته .

فالشريعة ضابط خلقي للفرد ، رقابة ذاتية ، بيع ، نظر ، سماع ، أكل .

وضابط اجتماعي ، فنظم الأمر والنهي والتعاون والتناصح والتواصي

وضابط سياسي ، فنظم الدولة المسلمة ، وجعل لها سياستها ودستورها فتنفذ أحكام الشريعة من إقامة الحدود وإرساء الاحتساب والدعوة إلى الله وإنشاء المحاضن التربوية .

مصادرها :

التربية الإسلامية تختلف عن غيرها من الأنظمة التربوية في مصادرها التي تقوم عليها ، وهي ضربان :

١- الوحي ، المتمثل في نصوص القرآن والسنة .

٢- الاجتهاد والبحث العلمي ، في ضوء القرآن والسنة ، ومقاصد الشريعة ، ومنه الإجماع والقياس ويتعلق بالأول ، ومنه الاستحسان والمصالح المرسلة وسد الذرائع والعرف ، وهو مرتبط بتحقيق مصالح العباد .

فالأول نقل محض ، والثاني رأي محض .

والمراد بالاجتهاد هنا ، بذل العلماء المسلمين جهدهم وطاقتهم وقدراتهم في فهم نصوص القرآن والسنة المتعلقة بالمفاهيم أو التصورات ، أو القضايا المتعلقة بأساسيات التربية الإسلامية ، وأبعاد جوانب النظام التربوي لها .

والمراد بالبحث العلمي ، الدراسات العلمية أو التجارب العملية ، أو التطبيقات الميدانية ، مما له صلة بالعملية التربوية التعليمية ، ويسهم في تحقيق أهدافها المرجوة منها ، أو يسهم في رفع مستوى الأداء التعليمي والفعلي ، ويعتبر البحث العلمي من الاجتهاد في ضوء المصالح المرسلة : أحد مصادر التشريع الإسلامي وعامة ما يتوصل إليه من أحكام ونتائج ، لا تعتمد إذا كانت مخالفة لنصوص القرآن والسنة أو معارضة لمقاصد الشريعة وأغراضها ، ولذا لا يجوز باسم البحث العلمي قبول الأنظمة التربوية الوافدة إلى المجتمع الإسلامي ، والمخالفة للقرآن والسنة ومقاصد الشريعة .

ويعد الاجتهاد والبحث العلمي مما كان له أثر كبير في تنمية التربية الإسلامية ، وإثرائها ، وذلك على أيدي بعض علماء المسلمين حيث كتبوا في بعض قضايا التربية والتعليم كابن سحنون والقابسي وابن عبد البر والغزالي والزرنوجي وابن جماعة وابن خلدون والنووي والخطيب البغدادي وابن الجوزي وابن تيمية وابن القيم .

ومن الجوانب التربوية في مجالات الاجتهاد :

- مناقشة بعض القضايا والآراء والمبادئ التربوية .

– التوسع في إقامة المؤسسات التربوية الإسلامية وتنوعها (المدارس – بيوت العلماء – قصور الخلفاء – دور الكتب – دور الحكمة – الأربطة – الزوايا .

– ظهور المكتبات العلمية ، العامة منها والخاصة .

– التنوع في المواد الدراسية ، كالعلوم اللغوية والمنطق وعلوم الفلك والجغرافيا والتاريخ والهندسة والجبر والطبيعة والطب .

– اختلاف مناهج التدريس ، وذلك تبعاً لاجتهادات المعلمين والقائمين على المؤسسات التعليمية . من البداية والنهاية .

– نمو طرق التدريس وتعددها ، كالمناظرة والمحاضرة والإملاء ، والتجريب في العلوم التجريبية والتطبيقية . وتجدر الإشارة إلى أن الضرب الأول وهما القرآن والسنة ، أنه كان للقرآن أسلوب رائع ومزايا فريدة في التربية ، ولذا « كان خلقه صلى الله عليه وسلم القرآن » .

والسنة جاءت لتوضح ما في القرآن {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ}المائدة٤٨

ولتظهر تشريعات وآداب أخرى{ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ }البقرة١٢٩ السنة .

ولذا قال صلى الله عليه وسلم : « ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه » .

وبهذا صارت شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم نموذج تربوي كامل للإنسان .

أساليبها :

هي كثيرة ومتنوعة ، ولعل أهمها وأبرزها ما يلي :

١– أسلوب الحوار القرآني والنبوي

بطريقة السؤال والجواب + الإجابة + قسمت الصلاة / تعبدي + الذكر بعد الآيات + ترديد العبارة ، الحاقة + أتدرون ما الغيبة + عاطفي "أفرأيتم الماء" – قصة الرسول صلى الله عليه وسلم مع الأنصار + جدلي/ أول النجم .

٢– التربية بالقصص القرآني والنبوي

٣– التربية بضرب الأمثال

٤– التربية بالقدوة "محمد صلى صلى الله عليه وسلم" ومنه التقليد

٥- التربية بالممارسة والعمل ، الوضوء " فعل عثمان" + الصلاة قصّة المسيء+ ذكر النوم ، حديث البراء الاستخارة (كما يعلمنا السورة) ترديد المحفوظ + تصحيحه + الأسئلة التطبيقية .

٦- التربية بالعبرة والموعظة ، وبينهما فرق

فالعبرة حالة نفسية توصل الإنسان إلى معرفة المغزى كالاعتبار بالقصص ، وبمخلوقات الله ونعمه ، وبالحوادث التاريخية ، والمقصود : أن يصل الإنسان إلى قناعة فكرية بأمر من أمور العقيدة ، وأن يخضع لشرع الله .

والموعظة هي التذكير بما يلين القلب كالنصح وبيان الحق ، والتذكير بالموت والمرض ويوم الحساب .

٧- التربية بالترغيب والترهيب :

فالترغيب وعد يصحبه تحبيب وإغراء ، مقابل فعل أو ترك . والترهيب وعيد بعقوبة ، مقابل فعل أو ترك .

وفي التربية الغربيّة يسمونه "الثواب والعقاب"

وتُرّبى عند الناشئة العواطف تلك من خير أو شر ، باعتدال واتزان ، فلا يتمادون في المعاصي مغترّين برحمة الله ، ولا ييأسوا من نصر الله ورحمته بدعوى أن المجتمع كله منغمس في المعاصي

وسائطها :

١- المسجد : وكان أول عمل قام به الرسول صلى الله عليه وسلم عندما قدم المدينة أن بنى مسجد قباء ثم مسجد المدينة ، فهو الذي يضم شتات المسلمين ، ويتشاورون فيه لتحقيق أهدافهم ، وكان منطلقاً للجيوش ، ومحلاً لتعليم العلم وتعلمه ، وهكذا حين تعصف النكبات بالمسلمين ، فإنه ينطلقون من المساجد . وهو يعتبر من أعظم المؤثرات .

٢- الأسرة المسلمة : ونعني بذلك الزوجات ، وينبغي أن يكونا على دين وخلق وأن يهتما بالإنجاب وأن يقيما حدود الله في أسرتهما وأن يكونا على معرفة بالتربية الإسلامية . ثم الاهتمام البالغ بالطفل من الولادة وحتى الممات .

٣- المدرسة : ويعتبر المسجد أول مدرسة جماعية منظمة يتعلم فيها الناس في النهار ويأوون إليها في الليل "الصفة" مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي عهد عمر نشأ في المسجد كتاتيب للأطفال إلا يوم الجمعة فهو راحة أسبوعية استعداداً للصلاة تبدأ من ظهر الخميس وبعد استقلال الدول ظهرت المدارس . وأول من بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور ، وانتقلت الفكرة تلك من خراسان والعراق إلى بلاد الشام ومصر ، ثم انتشرت .

٤- المربِّي المسلم : وإمام المربين هو محمد صلى الله عليه وسلم ، ووظيفته تزكية النفس ، وإبعادها عن الشر ، وتعليم المؤمنين .

٥- المجتمع : فيرجع إلى الله ويحكِّم شرعه في تنظيم المجتمع ، ويكون وسطاً صالحاً للنيل منه .

٦- النشاط المدرسي :

٧- المنهج التربوي الإسلامي : وهو خطة ترسم فيها أهداف التربية ليستفيد منها المدرسة والمدرس .

المراجع والمصادر

١- "أصول التربية الإسلامية" مذكرة دراسية جامعية ص ٨

٢- "أصول التربية الإسلامية" للنحلاوي ص ١٢-١٤

٣- " أصول التربية الإسلامية" مذكرة دراسية جامعية ص ١١٧-١٤٨

٤- "أصول التربية الإسلامية" مذكرة دراسية جامعية ص ٨-٩

٥- "أصول التربية الإسلامية" للنحلاوي ص ٢٨-٩٦

٦- "أصول التربية الإسلامية" مذكرة دراسية جامعية ص ١٠-٢٣

٧- "أصول التربية الإسلامية" للنحلاوي ص ٢٠-٢٥

٨- "أصول التربية الإسلامية" للنحلاوي ص ١٨٤-٢٦٤

٩- "أصول التربية الإسلامية" للنحلاوي ص ١١٩-١٨٠

١٠- "أصول التربية الإسلامية" مذكرة دراسية جامعية ص ٤٠-١٦٢ . هـ

==============

نقد الفكر الليبرالي (جديد ومزيد).

الحرب على السلفيّة..!

(نقد الفكر "الليبرالي" السعودي)

فئة ضالة جديدة

المقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

فإنّ من المعلوم أنّ هذه الدولة السعوديّة منذ نشأتها على يد الإمامين الجليلين محمّد بن عبد الوهّاب ومحمّد بن سعود . رحمهما الله تعالى . قد قامت على العقيدة السلفيّة النقيّة التي كان عليها السلف الصالح منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم.. والإمام محمّد بن عبد الوهّاب رحمه الله لم يأت بجديد فيما دعا إليه، وإنّما جدّد ما اندرس من معالم هذا الدين لا سيّما ما يتعلّق بالتوحيد ونبذ الشرك، فكانت دعوته تحريراً للعقول من الجهل والخرافات والخزعبلات، وجرى على ذلك أتباعه من بعده حكاماً ومحكومين، ولقد تعرّضت هذه الدولة السلفيّة المباركة منذ نشأتها للكثير من الأذى والمواجهات والتحديات من قبل جهات عدّة، لكنّها . بفضل الله تعالى ثم بفضل تمسّك أهلها بهذه العقيدة السلفيّة النقية . صمدت في وجه أعدائها، وعاودت الظهور كلّما ظنّ أعداؤها أنّها قد زالت إلى الأبد..

وفي أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ثمّ الأحداث التي وقعت في هذه البلاد من تفجيرات آثمة، مع ما صاحب ذلك من وفاة كبار أئمّة هذه الدعوة السلفيّة المعاصرين الذين كان لهم كبير الأثر في حمايتها والذود عنها؛ وجد الأعداء فرصتهم في النيل من هذه الدعوة السلفية ممثّلة في أهلها والقائمين عليها، ولم يكن عدوّها الخارجي بأخطر من عدوّها الداخلي المتمثلّ في بعض أبنائها العاقّين الذين تشرّبوا مبادىء وأفكاراً منحرفة، كان منهم طائفة تبنت الفكر الاعتزالي القديم، وراحت تدعو إليه وتنافح عنه، وترى في السلفيّة عدوّاً لدوداً له، وهم بذلك يسعون إلى إعادة فتنة سلفهم القديمة مع إمام أهل السنة في وقته الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، ولكن بوجه عصري جديد يتماشى مع ما يريده العدو الخارجي المتمكن، هذا الوجه يتلخص في اتهام هذه السلفية النقيّة بأنّها هي مصدر الإرهاب . الذي لم يتم الاتفاق على تعريفه إلى هذه اللحظة .، ومصدّرته، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك فجعلوا السلفية

المسكينة هي السبب الرئيس في جميع النكبات التي حلّت بالأمّة من تخلّف وتأخر وتفرّق(!)، وأنّه لا سبيل إلى التقدم والازدهار إلا بنبذ هذه السلفية النقية التي تدعو إلى اتّباع منهج السلف الصالح ابتداء من رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم، ومروراً بأئمّة الإسلام العظام كسعيد بن المسيّب وسعيد بن جبير والأئمّة الأربعة وابن تيمية وانتهاء بأئمة السلفية المعاصرين كابن باديس وابن باز وابن عثيمين وغيرهم عليهم جميعاً رحمة الله تعالى، وفي الوقت نفسه راحوا يبشّرون بمشروعهم التغريبي الجديد المتمثّل في إحياء الفكر الاعتزالي العقلاني، بدعوى الإنسانية والتعددية.. وقد رأيت أن أقصر الحديث على هذه الطائفة الاعتزالية دون غيرها لأسباب أهمّها:

١. أنّهم من أبناء جلدتنا اللصيقين، ويتكلّمون بألسنتنا..

٢. تمكنهم من بعض وسائل الإعلام المحلية، وإعطاؤهم الضوء الأخضر من قبل القائمين على تلك الوسائل ليقولوا جلّ ما يريدون، وعدم السماح بنشر الردود عليهم إلا بشكل ضئيل جداً.

٣. أنّهم يتحدّثون باسم الدين ويلبسّون على الناس بخلط الحقّ بالباطل، وإثارة الشبه القديمة التي أثارها الأعداء من قبل.

٤. تمكنهم من بعض المنابر الجامعية في بلادنا، وبلبلة أفكار الطلاب وتشكيكهم في دينهم وعلمائهم بل وفي أقرب الناس إليهم وفي هذا يقول أحدهم . وهو أشدّهم تطرّفاً وبذاءة . في مقال له بعنوان: (نحن والخوارج إلى أين) الرياض: ١٣٧٠٩: ' ما أؤكّده لطلابي دائماً، ويقع منهم موقع الغرابة أنّ الفكر الخارجي حالة ليست ببعيدة عنا، الحالة الخارجية لها نسبتها الخاصة، وقد تنمو داخل الفرد ببطء دون أن يشعر، وقد تتسرب إليه من أقرب الأقربين، بل قد يكون أقرب الناس إليه . والداه أو إخوته مثلاً . من غلاة الخوارج، ولكنه يستبعد أن يكون هذا القريب الذي يطمئن إليه غاية الاطمئنان من الخوارج الغلاة الذين يقرأ عنهم وعن تكفيرهم ووحشيتهم.. لا يكادون يصدقون هذا، مع أنهم يعرفون تمام المعرفة أن الخوارج القدامى خرجوا من صميم المجتمع... "، بهذه الطريقة الماكرة يشكك الأستاذ الجامعي تلاميذه في والدِيهم وإخوانهم، بل العجيب أن يتحوّل مدرس العربية، إلى أستاذ في العقيدة،

ليلقنهم درساً في الفِرَق، وهذا الذي طالما استنكروه في صحفهم، وعدّوه من أسباب تدني التعليم عندنا كما يقول أحدهم في مقال له بعنوان: (دعاة لا معلمون) الوطن: ٩٢١.

ثم يقول الأول في مقاله: إن الطلاب لا يكادون يصدقون ما يقوله..!!، وكيف يصدقون هذا الهراء من كاتب يعلمون خبثه وانحرافه العقدي والفكري، وقد قابلت بعض طلابه فأبدوا استياءهم من فكره المنحرف الذي يبثه في قاعة الدرس..

ولقد كنت منذ زمن أتتبع كتاباتهم التي يسوّدون بها الصحف والمجلات، فجمعت منها كمّاً هائلاً مليئاً بالجهالات والمغالطات والتلبيس والدسّ الرخيص، وتقرير العقائد الباطلة، وغير ذلك من أنواع الباطل، وما فاتني منها ربما أضعاف ما جمعته، مما يصعب معه نقد هذا الفكر نقداً شاملاً دقيقاً، إذ يحتاج ذلك إلى مجلدات ضخمة ربما فني العمر قبل الفراغ منها.. ولا أقول ذلك مبالغة وإنّما هي الحقيقة، لذا سأحاول نقد ما تيسر لي من هذا الفكر بحسب ما يتسع له الوقت، وهو كاف . بإذن الله . لفضحه وبيان فساده وخطله..

وسيكون الحديث عنهم في النقاط التالية:

أوّلاً: سماتهم الشكلية الظاهرة..

ثانياً: سماتهم الفكرية والثقافية من خلال كتاباتهم المعلنة..

ولن أحرص على ذكر الأسماء، لأنّ الأسماء تتغيّر وتتبدّل، بخلاف السمات فإنّها ثابتة لا تتغير بتغير الزمان إلا قليلاً، وهذا هو منهج القرآن في الحديث عن مثل هذه الطائفة..

هذا؛ ومن الملاحظ من خلال كتاباتهم أنّهم يتبادلون الأدوار، فبعضهم متخصّص في الطعن في السلفية وتشويهها وتنفير الناس منها، وبعض آخر متخصّص في التقليل من خطورة المذاهب المنحرفة، والأفكار الضالة، بل الدعوة إلى بعضها وتلميعها وخصوصاً الفكر الاعتزالي كما سيأتي بإذن الله، وهكذا، وبعض ثالث متخصّص في النيل من حضارتنا الإسلامية، وتشويهها، والثناء المغالي على الحضارة الغربية، وتمجيدها إلى حدّ الهوس، وهلمّ جرّاً..

أمّا مصادرهم التي ينهلون منها، فهي بعض الكتب الفكريّة لبعض الكُتّاب المنحرفين من تلامذة المستشرقين الحاقدين، ومن أصحاب التوجّهات العلمانية المشبوهة، الذين يجيدون بثّ الشبه، والتشكيك في أصول الدين ومصادره، وتاريخ المسلمين، بطريقة ماكرة، وغير منهجية، قد تخفى على كثير من الشباب الغضّ الذي ليس له حظّ وافر من العلم الشرعي، ومن أبرز هؤلاء المفكّرين، وأكثرهم حضوراً في كتاباتهم: المفكّر المغربي محمّد عابد الجابري، ففي الوقت الذي يطعنون فيه بأئمّة السلف وعلماء الأمّة كما سيأتي؛ نجدهم يسبغون أوصاف التعظيم والتبجيل لهذا المفكر وأمثاله، يقول أحدهم . وهو أشدّهم تطرّفاً . في مقال له بعنوان: (إشكالية العنف الفلسطيني الإسرائيلي) الرياض: ١٣٤٠١: " فلسطين والنهضة العربية، أيّهما الوسيلة، وأيّهما الهدف؟ تاه العربي في هذا السياق وغمّ عليه! وأصبحت الحيرة في هذا من الإشكاليات المزمنة في الوعي العربي ذي البعد الوحدويّ؛ كما يرى ذلك المفكّر المغربيّ الكبير: محمد عابد الجابريّ.. "!!! .

ويقول آخر . وهو أكثرهم حديثاً عن العقائد، وتقرير مذهب الاعتزال . في مقال له بعنوان (غرس المفاهيم من خلال الطرح غير العقلاني) الرياض: ١٣٤٧٧: " يرى الدكتور محمد عابد الجابري أنّه لكي يتمّ غرس المفاهيم الحداثية في الذاكرة الجمعية لمجتمع معين مثل مفاهيم الديمقراطية والتسامح وحقوق الإنسان والمجتمع المدني فلا بدّ من تجذيرها تراثياً.. " ويستمر الكاتب في شرح وجهة نظر الجابري، وعلى الرغم من أنّه أبدى شيئاً من التحفظ المؤدب تجاه تلك الوجهة، إلا أنّه يختم مقاله بقوله: " وهذه على الأقلّ تظلّ مجالاً للتساؤلات التي على المفكّرين الكبار من طراز الجابري بالذات أن يولونها (هكذا) اهتمامهم..."، وأضع تحت كلمتي (طراز) و(بالذات) عدّة خطوط.

وفي مقال آخر بعنوان (النظام المعرفي والهوية الثقافية) الرياض: ١٣٥٥١، يقول الكاتب نفسه: " مفكرون عرب كبار وعلى رأسهم الجابري.. ".

أمّا ترديد أفكار الجابريّ، وحتى ألفاظه ومصطلحاته، فهو كثير في كتاباتهم، ومن ذلك:

- (بنية العقل العربي) من مقال بعنوان: (بائعو الكلام) الرياض: ١٣٤٩٠.

• (الإيبيستيمولوجيا، النظام البياني والعرفاني والبرهاني) من مقال بعنوان: (النظام المعرفي والهوية الثقافية) الرياض: ١٣٥٥١.

• (التاريخ السياسي المتدثّر برداء الدين، والمحافظ على أيدلوجيته القبليّة، ومكاسبه الغنائميّة..) من مقال بعنوان: (قراءة في بعض فروع العقائد) الرياض: ١٣٦٦٧.

• (المخيال الجمعي) من مقال بعنوان: (مفهوم الحاكمية) الرياض: ١٣٧١٦، وغيرها من العبارات.

بل إنّ أحد كبرائهم . وهو أشدّهم افتتاناً بالحضارة الغربيّة وتمجيدًا لها . صرّح في مقال له بعنوان: (أسباب التباس مفهوم الثقافة) الرياض: ١٣٧٨٩ بمنهجهم في التلقّي، يقول: " أمّا التوغّل الفردي في اكتساب المعرفة المقروءة، والتحليق في آفاق المعارف الإنسانيّة؛ فهو من التغيّرات التي طرأت على الحياة البشريّة، وهو عالميّ المصدر، فرديّ الاهتمام، فهو لا يكون جماعياً، ولا يمثّل سياقاً عامّاً، أو نسقًا سائدًا، وإنّما هو عمل فرديّ يقتصر مداه على صاحبه ومن يتأثّرون به، ويستجيبون له [يقصد حزبه الليبراليّ]، وتكون مرجعيّته المعرفيّة من خارج النسق الثقافي المحلّي المغلق(!)، إنّه يعتمد على المصادر المكتوبة الممحصّة(!)، وهي مصادر مجلوبة من خارج الثقافة السائدة "

هذه هي مرجعيّتهم، إنّها مجلوبة من خارج الثقافة السائدة(!) وهي كتب المستشرقين الحاقدين، وأذنابهم من الزنادقة الملحدين، والمفكّرين المنحرفين كما تدلّ على ذلك كتاباتهم!!!.

ثمّ يواصل: " فالفرد المهتّم يكوّن ذاته بذاته منفردًا، ويفتح ذهنه لكلّ المتاح من الإنتاج العالميّ، من الأفكار والمعارف والآداب(!) والفنون حيث يتجاوز الفرد بهذا التحليق(!) الثقافة السائدة تجاوزًا موغلاً(!) معتمدًا في ذلك على التأمّل العميق والاستقصاء الدقيق، والبحث الدائم، والمعايشة المنفردة(!) ".

فهو يرى أنّ مجرّد القراءة الفرديّة، والجهد الفرديّ في التلقّي، ومن مصادر خارج النسق الإسلاميّ المنضبط، هو سرّ التميّز والتثقيف والتقدّم المنشود، وهو إذ يقول ذلك . بهذه السذاجة الغريبة . لا يخاطب جمعًا من المثقّفين والنخب الذين لديهم التمحيص والتمييز بين الغثّ والسمين، والنافع والضارّ، وإنّما يخاطب الناس جميعًا

في صحيفة سيّارة، فكيف يصدر مثل هذا من كاتب يعدّ نفسه من نخبة النخبة(!)، وقد حذّر سلفنا الصالح من هذا النوع من التلقّي، وشاعت بينهم المقولة الشهيرة: (من كان شيخه كتابه، كثر خطؤه، وقلّ صوابه)، وهي مقولة صحيحة يؤكّدها الواقع القديم والحديث، فإنّك لا تجد رجلاً تفقّه وتعلّم وتتلمذ على الكتب إلا وتجد له من الأخطاء والشذوذ ما يفوق الحصر.

ثمّ إنّ هؤلاء وهم يتّهمون السلفية بالتقليدية، ويلمزونها بذلك، وهي من أشدّ المذاهب حرصاً على اتّباع الدليل، ونبذ التقليد؛ نراهم يقلّدون هذا الجابري وأمثاله، ويردّدون ذات الأفكار، بل ذات الألفاظ التي يردّدونها، والتي صدرت . أوّل ما صدرت . من المستشرقين الحاقدين، وأخذها عنهم هؤلاء المقلّدون، فعاد الأمر إلى تقليد المستشرقين، وترديد شبههم..، وإذا كان ولا بدّ من التقليد، فتقليد السلف الصالح خير من تقليد المنصّرين، من المستشرقين، وأذنابهم من المفكّرين بعقول غيرهم(!!!).

وبعد، فهذا أوان البدء بالمقصود:

أوّلاً: السمات الظاهرة: فأمّا سماتهم الشكلية الظاهرة . التي يتستّرون بها على أفكارهم .، فأبرزها إعفاء اللحى مع الأخذ منها، أو على حدّ تعبير أحد مشايخنا الأجلاء . اللحى الليبرالية .، حتى إنّ أشدّهم تطرّفاً لو رأيت صورته لحسبته من الصالحين، بينما كتاباته تمتليء حقداً وغلاً على الصالحين والمصلحين لا سيما أصحاب المنهج السلفي القويم من الأوّلين والآخرين كما سيأتي.. وليس ذلك خاصّاً بهم، فقد يشترك معهم في ذلك بعض العامّة ممن لا يحمل فكرهم المنحرف..

ومع ذلك، فقد تقتضي مرحلة من المراحل الظهور بغير لحى، فهي ليست ضرورية عندهم..

كما أنّ من سماتهم الظاهرة حضور الجمع والجماعات، مع انتقادهم الشديد . غير الموضوعي . لأئمّة المساجد واحتقارهم وكراهيتهم، إلى درجة الطعن والتشكيك في دينهم أحياناً، والتأليب عليهم، وأحياناً السخرية منهم والتندّر بهم لا سيما إذا خالفوهم في الأفكار المطروحة.. ويظهر ذلك جليّاً في مواقعهم على الأنترنت، فما لا يقدرون على بثه في صحفهم ومجلاتهم بأسمائهم الصريحة، يبثونه عبر تلك المواقع بأسماء مستعارة.. بل إنّ أحدهم . وهو أشدّهم تطرفاً وبذاءة . دعا في مقال له بعنوان: (نحن

والخوارج إلى أين) الرياض: ١٣٧١٦، إلى فرض الوصاية على الخطباء . الذين هم في الغالب من طلاب العلم وأساتذة الجامعات . وكتابة الخطب لهم بل حتى الأدعية، فلا يكون لهم دور إلا مجرد قراءة الخطب المكتوبة فقط(!)، هذا مع طنطنة هذا الكاتب وغيره من هذه الفئة على ضرورة رفع الوصاية المفروضة على عامة الناس من قِبل العلماء، والتي تحول بينهم وبين الاقتناع بالأفكار المضللة التي تدعو إليها هذه الفئة الضالة وغيرها، وهذه من أعجب تناقضاتهم كما سيأتي إن شاء الله..

يقول أحدهم . وهو من أكثرهم حديثاً عن السياسة والدعوة إلى الفكر الاعتزالي . في مقال له تفوح منه رائحة العلمنة بعنوان: (التجييش الطائفي على المنابر) الرياض: ١٣٧٧٠، . وكلّ من يدعو إلى الدين والعقيدة عندهم فهو طائفي .، يقول: " أدركتني صلاة الجمعة الماضية مع أحد الخطباء ذي الباع الطويل في التسييس المنبري(!) ومنذ قد غادرت مسجده منذ مدّة ليست بالقصيرة عندما أدركت حينها أنني لا أكاد أسمع وأنا منصت لخطبته إلا تحاليل(!) سياسية رديئة المضمون(!) رائجة السوق لدى الخطاب الديماغوغي(!) القابل للتجييش بطبيعته.. " إلى آخر ما ذكر بأسلوبه الركيك المتهالك، أمّا الخطاب الديماغوغي!!! فهذا الذي لم أفهمه إلى هذه الساعة، ولعلّه مشتق من الدماغ، والله تعالى أعلم، أما (التحاليل)، فذكرتني بالمستشفيات، والدماء المسحوبة للتحليل، ولعله اختار هذا اللفظ لمناسبته للإرهاب وسفك الدماء..

وفي مقال بعنوان: (نجاحات الأمن قدوة كيف نبرر قتلنا المجاني) الوطن: ١١٥٦، يلمز أحدهم خطيب العيد الذي صلى خلفه، لأنّه . كما يقول . ذكر أنّ للتطرف وجهين، وجه محسوس وهو الذي يؤدي إلى التفجير والتخريب، والوجه الآخر تطرف فكري وهو تطرف العلمانيين والمنحرفين من كتّاب ومثقفين... وذِكْرُ هذا الوجه الأخير هو الذي أقضّ مضجع هذا الكاتب، واغتاظ منه (كاد المريب أن يقول خذوني)، فما كان منه إلا أن اتهم الخطيب بالتبرير للإرهاب المحسوس، مع أنّه لم يقل ذلك، لكنه الصيد في الماء العكر، والدفاع عن وجودهم، حيث استغلوا الأحداث الأخيرة لتصفية الحساب مع خصومهم التقليديين.

هذه مجمل سماتهم الظاهرة..

أمّا سماتهم الفكرية العامّة التي ظهرت من خلال كتاباتهم المعلنة، فهي كثيرة جداً، أذكرها أوّلاً بإجمال، ثمّ بتفصيل:

أوّلاً: الإجمال:

١. محاربة السلفية.

٢. الخلل العقدي الواضح في كتاباتهم.

٣. الشكّ في دينهم، وكثرة الحديث عمّا يسمونه بـ (امتلاك الحقيقة المطلقة).

٤. العزف على وتر الإنسانية.

٥. الدعوة إلى علمنة الحياة، وإقصاء الدين (وهو لبّ مشروعهم الذين يدعون إليه).

٦. الإعجاب بمن يسمّونه (الآخر)، ومدحه، وكيل الثناء عليه.

٧. الجهل.

٨. تنزيل الآيات التي جاءت في حقّ الكفرة من المشركين وأهل الكتاب، على خصومهم المؤمنين من العلماء والدعاة وطلبة العلم!!.

٩. عدم قبول النصيحة، والسخرية من الناصحين، والتشهير بهم.

١٠. المزايدة على حبّ الوطن، وهم أشدّ الناس خطرًا على الوطن.

١١. الطعن في أئمّة السلف قديمًا وحديثًا، والتقليل من شأنهم، مع إجلال الزنادقة والملحدين والمارقين والمبتدعة.

١٢. الغرور والكبر واعتقاد امتلاك الصواب..

١٣. الهجوم الشديد على المؤسسات الدينية والمناشط الدعوية والأشرطة والكتيّبات النافعة.

هذه بعض سماتهم بإجمال، أمّا التفصيل:

السمة الأولى:

محاربة السلفية

وهذه سمة ظاهرة في كتاباتهم، بل هي أبرز سماتهم، يبدونها أحياناً، ويخفونها أحياناً كثيراً، وليس المراد بالسلفية هنا: المدّعاة من قبل بعض النوابت الذين شوّهوا السلفية الحقّة ما بين إفراط أو تفريط، فهؤلاء أمرهم مكشوف لكل ذي بصيرة، بل العجب إنّ

بعضهم قد وضعوا أيديهم في أيدي هؤلاء الاعتزاليين المارقين لمحاربة السلفية الحقّة ممثّلة في أهلها العاملين بها.. ومع هذا فإنّ هؤلاء الاعتزاليين يسخرون منهم، ومن سلفيتهم بل من السلفية كلّها أيّاً كانت، يقول أحدهم . وهو أشدّهم تطرفاً . بأسلوب ماكر لا يخلو من السخرية في مقال له بعنوان: (المعاصرة وتقليدية التقليدي) الرياض: ١٣٣٦٦، وعلامات التعجب من عندي: " السلفيات وإن تنوعت، بل وإن وقف بعضها من بعض موقف التضادّ؛ إلا أن الوعي الماضوي(!) يجمعها. إن السباق فيما بينها ليس سباقاً في ميدان الحاضر أو المستقبل، وإنّما هو سباق في ميدان الماضي، والسابق هو الذي يصل . بأقصى سرعة . إلى الماضي السحيق(!).." إلى أن يقول: " وهكذا نجد أنّ كلّ سلفية . أيّاً كان نوعها ودعواها وتمظهرها . تدعم الوعي السلفي(!) وترسّخ للماضوية، وتكافح في سبيل التقليد، بدعوى أنّه الحصن المنيع ضدّ الابتداع، وهي بهذا تقف ضدّ أي حراك تقدّمي، تقف ضدّ التقدّم كوعي(!)، وإن تهادنت معه في هذا الموقف أو ذاك. إنّ هذه الهدنة من قبل السلفي فعل تكتيكي لا يرقى إلى الاستراتيجي ولا يقاربه، حتى في مداه النسبي، لأنّ السلفية . دائماً(!) . في صف الماضي على حساب الحاضر(!) ". والماضي السحيق الذي أشار إليه هذا الكاتب، هو رسول الله r وأصحابه الكرام، إذ إن هذا هو أقصى ما يرجع إليه السلفي المتبع، فهو تعبير آثم يدلّ على شناعة هذا الفكر التغريبي وقبحه، واستهانته بسلف الأمّة.. وأما اتهام السلفية بأنّها في صف الماضي على حساب الحاضر! فهو محض افتراء وكذب، فلا تعارض بين الماضي السحيق على حدّ تعبير الكاتب . الذي منتهاه رسول الهدى صلى الله عليه وسلم، وبين الحاضر والمستقبل في الفكر السلفي الصحيح، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها كما دلت على ذلك النصوص الشرعية.

وقبل الحديث عن هذه الحرب القذرة، لا بد من بيان بعض المصطلحات التي تتردد في كتاباتهم، حتى يتفهم القارىء ما يهدفون إليه.

فمن هذه المصطلحات:

• (السلفية التقليدية) ويريدون بها المؤسسات الدينية الرسمية في الدولة التي تتمثّل فيها هذه السلفية، كهيئة كبار العلماء، واللجنة الدائمة للإفتاء، وسائر علمائنا الكبار..

• (الفكر الصحوي) ويريدون به طلبة العلم والدعاة النشطين، وهو الذي يعدونه كما يقول أحدهم . " النشاط الحركي العصري للسلفية التقليدية وأنّ العلاقة بينهما علاقة عضوية يستحيل تمايزها " الرياض:١٣٤٣٦.

• (الإسلام الحركي) أو (الحراك المتأسلم!!)، ويريدون به أيضاً الدعاة النشطين في الدعوة... فهم لا يريدون إسلاماً نشطاً متحرّكاً، وإنّما يريدون إسلاماً جامداً خاملاً لا يتحرك، حتى يتمكنوا من تنفيذ مشروعهم التغريبي دون مقاومة تذكر!!!.

• (الإسلام السياسي) ويريدون به العلماء والدعاة الذين يشاركون في الشأن العام، لا سيما القضايا السياسية، ولهم دور فاعل فيها... وهم يريدون إسلاماً "دراويشياً" لا يفقه شيئاً في القضايا العامة حتى تخلو لهم الساحة..

• (التنميط) ويريدون به تربية الناس على منهج أهل السنة والجماعة، وعقيدة السلف الصالح، وحمايتهم من المذاهب المنحرفة، والعقائد الفاسدة..

• (الأيديولوجيا)، وهو مصطلح وافد غير عربي يتردد كثيراً في كتاباتهم . بل يكاد يكون ترداده سمة لهم . ويريدون به المعتقد الديني أو الثقافي الذي يؤمن به الفرد ويترجمه سلوكاً في الواقع المعاش. والأدلجة عندهم فيما يتعلّق بالسلفية: تشبه التنميط، فهي دعوة الناس إلى الدين والمعتقد الصحيح وتربيتهم عليه ليكون واقعاً معاشاً، وهذا هو الذي يقضّ مضاجعهم، ويحول بينهم وبين تحقيق مشروعهم التغريبي.

وقد سلك هؤلاء المارقون في حربهم للسلفية مسالك عدّة، من أبرزها:

١. محاولة تشويه السلفية، والتنفير منها، وتصويرها بصورة مقزّزة لصرف الناس عنها، وذلك للتمهيد لطرح مشروعهم التغريبي العفن المتقنّع بقناع العقلانية والتنوير!! وهم وإن كانوا كلّهم يعملون في هذا السياق؛ إلا أنّ أحدهم . وهو أشدّهم تطرّفاً وأكثرهم بذاءة . قد تخصّص في ذلك كما سبق، فلم يترك شتيمة، ولا نقيصة إلا رمى بها هذه السلفية التي يدين بها عامّة أهل هذه البلاد وغيرهم، وكلّ ما تقاطع معها من

"الإسلامويين" . كما يعبّرون استهزاء . ولو من بعيد، وحتى لا أكون متجنّياً، فإنّي سأذكر بعض هذه الشتائم، ليعلم القارىء مدى الإسفاف الذي وصلوا إليه، مع دعواتهم المتكرّرة للتسامح مع "الآخر" واحترامه وتقديره!!!. فمن هذه الشتائم:

(السلفية العتيقة) الرياض: ١٢٩٥٣، (السلفية التقليدية) الرياض: ١٣٠٦٥، (الانغلاق السلفي) الرياض: ١٣٣٣٨، (قوى التقليد والجمود والظلام) الرياض: ١٣٤٨٥، (قوى التقليد والظلام والإرهاب) الرياض: ١٣٣٣١، (قوى التأسلم) الرياض: ١٣٣٥٩، (قوى التخلف والتوحش والانغلاق) الرياض: ١٣٣٥٢، (قوى التطرف) الرياض: ١٣٣٣١، (قوى تخلف وتقليد) الرياض: ١٣٣٣١، (التقليدية البلهاء) الرياض: ١٣٠٦٥،(التقليدية الميتة) الرياض: ١٣٣٣١ ، (الثقافة الميتة) الرياض: ١٣٠٧٢، (الثقافة التي تصنع الغباء) الرياض: ١٣٠٧٢، (الثقافة التقليدية البائسة) الرياض: ١٣٠٦٥، (ثقافة الانغلاق) الرياض: ١٣٠٦٥، (ثقافة تقتل الوعي) الرياض: ١٣٠٦٥، (ثقافة التجميع واللا عقل) الرياض: ١٣٠٧٢، (ثقافة الموت الوعظية الحمقاء) الرياض: ١٣٠٧٢، (ثقافة كسيحة) الرياض: ١٣١٥٦، (الوعي الكسيح) الرياض: ١٣٠٠٢، (الوعي المتسطّح الكسيح) الرياض: ١٣٠٧٢، (الوعي المأزوم) الرياض: ١٣٣٨٠، (وعي غارق في مخلّفات عصور الانحطاط) الرياض: ١٣١٥٦، (القراءة التراثية المبعثرة) الرياض: ١٣٣٣١، (الطرح المتسطّح ثقافياً) الرياض: ١٣١٦٣، (رؤى الانغلاق وتيارات الكره ودعاة النفي) الرياض: ١٣١٢٨، (براثن التنميط والمحافظة والتقليد) الرياض: ١٣١٢٨، (الاحتيال اللا معرفي وجرثومة الوصاية) الرياض: ١٣٠٦٥، (الدروشة الوعظية التي تفتقد الحكمة) الرياض: ١٣٠٧٢، (الإفلاس المعرفي) الرياض: ١٣٠٧٢، (الاستغفال المعرفي) الرياض: ١٣١٢١، (الترنح المعرفي) الرياض: ١٣٢٨٢، (تيار الجمود والارتياب) الرياض: ١٣٢٨٢، (الاختطاف الثقافي والاجتماعي) الرياض: ١٣١٢٨، (قصور معرفي حاد) الرياض: ١٣١٦٣، (البلاهة السياسية) الرياض: ١٣١٩١، (الغباء السياسي) الرياض: ، (ضمور الوعي السياسي) الرياض: ١٣٣٨٠، (الجماعات المتأسلمة) الرياض: ١٣٢٤٧، (نمطية بلهاء) الرياض: ١٣٣٣٨، (المتأسلمون)، (تيارات التأسلم)

الرياض: ١٣٢٨٢، (فكر الإقصاء والنفي) الرياض: ١٣٢٨٢، (اللا وعي بالتاريخ) الرياض: ١٣٠٠٢، (الفهم القاصر) الرياض: ١٣٠٠٢، (جماهير الغوغاء) الرياض: ١٣٠٠٢، (المنزل القديم المتداعي بوحشيته المعتمة) الرياض: ١٣٠٠٢، (سيكولوجية البدائي) الرياض: ١٣٠٠٢، (خطاب موعظة لا معرفة) الرياض: ١٢٩٥٣ ، (ألاعيب الحواة) الرياض: ١٣٤٣٦، (ممارسة خرقاء) الرياض: ١٣٤٣٦، (الحراك المتأسلم) الرياض: ١٣٤٧٨، (الخرافة والتقليد والخداع) الرياض: ١٣٤٨٥ ، (طمر الحقائق) الرياض: ١٣٤٨٥، (حراك سلبي) الرياض: ١٣٤٨٥، (الأيدلوجي المنمط) الرياض: ١٣٤٩٩، (المجتمعات المحافظة الأصولية) الرياض: ١٣٤٩٩، (حركات الأدلجة) الرياض: ١٣٤٩٩ ، (الأدلجة الماكرة) الرياض: ١٣٣٢٤ ، (تجهيل الجماهير) الرياض: ١٣٤٩٩، (الجماهير البائسة الظامئة) الرياض: ١٣٥٠٦، (الجماهير الغائبة المغيّبة) الرياض: ١٣٣٣٨، (الحواشي وحواشي الحواشي) الرياض: ١٣٥٠٦، (الإسلام الحركي السياسي) الرياض: ١٣٥٠٦، (المراهقة الصحوية) الرياض: ١٣٣٠٣، (أوهام التقليدية الميتة) الرياض: ١٣٠٦٥، (مفرقعات صحوية) الرياض: ١٣٢٨٩، (شريط الكاسيت الغبي) الرياض: ١٣٢٨٩، (الهراء الإعلامي والسطحية) الرياض: ١٣٢٨٩، (المتأسلمون) الرياض: ١٣٣٠٣، (الحراك الثقافي المتأسلم) الرياض: ١٣٣٥٩، (دعوى النقاء الأخلاقي المزعوم) الرياض: ١٣٣٣١..

هذه بعض الشتائم المقذعة التي قمت بإحصائها من مقالات كاتب واحد منهم فقط، ودون استقصاء تام(!) ويلاحظ على هذه الشتائم ما يلي:

أ- كثرتها، حتّى إنّها لتصل إلى الخمس والستّ في المقال الواحد!!!!، وفي هذا دليل واضح على افتقاد الحجّة الصحيحة المقنعة، فإنّ المبطل إذا عجز عن الإقناع بالحجّة؛ لجأ إلى السباب والشتائم للنيل من خصمه.

نعم؛ قد يضطر الإنسان أحياناً إلى توجيه بعض الشتائم إلى خصمه اللدود، لكن أن تكون بهذه الكثرة المفرطة، ومن أناس " أكاديميين" يدّعون الفكر والعقل المستنير؛ فهو أمر يدعو إلى التأمّل والعجب!!.

ب- تضمنّها العديد من التهم ذات العيار الثقيل بلا دليل ولا برهان صحيح، وما أسهل أن يطلق المرء على خصومه التهم جزافاً بلا بيّنة صحيحة، والتي قد يصل بعضها إلى الإخراج من الدين والإسلام، كقولهم: (المتأسلمون)، (قوى التأسلم) ، (الحراك الثقافي المتأسلم) ونحوها من الشتائم، فالمتأسلم هو الذي يدعي الإسلام وهو ليس كذلك كما يُفهم من هذا الوصف، ولطالما دندن هؤلاء حول خطورة التكفير، والإخراج من الدين، حتى وإن كان بحقّ، فما بالهم يصفون خصومهم المسلمين بالضد من ذلك !!!.

ج- أنّ هذه الشتائم لم تقتصر على أهل العلم والفكر والدعوة من السلفيين من الأوّلين والآخرين، بل تجاوزت ذلك إلى عامّة الناس المقتنعين بهذه العقيدة، والذين يطلقون عليهم وصف (الجماهير): فهم (الجماهير البائسة الظامئة)، و(جماهير الغوغاء)، و(الجماهير المجهّلة)، و(الجماهير الغائبة المغيّبة)، و(المجتمعات المحافظة الأصولية)، لا لشيء إلا لأنّ هذه الجماهير المسلمة اختارت هذه العقيدة النقية، ولم تستجب لدعواتهم التغريبية المضللة، ولن تستجيب بإذن الله تعالى..

د- أنّ الكثير من هذه الأوصاف (الشتائم) هم الأقرب إلى الاتصاف بها، والتخلّق بها لمن تأمل ذلك، لكنهم يقلبون الأمور، ويلبّسون على الناس على قول المثل السائر: (رمتني بدائها وانسلّت)!!.

هـ- أنّ مثل هذه الشتائم لا تصدر إلا من نفس موتورة حاقدة، قد تشبّعت بالشبهات، فاستقرّت فيها وتمكّنت منها، وداء الشبهات أعظم أثراً في النفوس والقلوب من داء الشهوات، فكيف إذا اجتمع الأمران، نسأل الله السلامة والعافية.

والعجيب أنّهم يرون أنّ مثل هذه الشتائم القبيحة التي يسمونها نقداً؛ ضرورية لإيقاظ المجتمع من سباته، وتنويره(!!!)، يقول أحدهم . وهو كبيرهم وأشدّهم افتتاناً بالحضارة الغربية . في مقال له بعنوان: (تخصّص في الطب وأبدع في الفكر والمسرح) الرياض: ١٣٥٠٢: " وبذلك أدرك (بريخت) بأنّ مواجهة الطوفان بالنقد الحادّ، والتهكّم الموجع من أهمّ وسائل إيقاظ المجتمع من سباته، وتنويره للمصير المظلم الذي يساق إليه ". وبريخت هذا مبدع عالمي عند الكاتب ترك تخصصه في الطب(!)، واشتغل بالمسرح(!)، وهو حين يذكر قول هذا المبدع(!) لسان قلمه يقول:

إياك أعني واسمعي يا جارة، كما يدل على ذلك باقي المقال، ومقالاته الأخرى. وقد فهم تلميذه السابق الرسالة . وبئست التربية .، فأطلق تلك الشتائم والتهكّم الموجع بذلك الكمّ الهائل لمواجهة (طوفان) السلفية، وإيقاظ الفتنة النائمة.. وحتماً سيغرقه هذا الطوفان بإذن الله تعالى.

وأعجب من ذلك أنّ هذا الكاتب نفسه . صاحب الشتائم السابقة . حينما تحدّث عن بعض الكُتّاب المنحرفين في مقال له بعنوان (قراءة الإسلام بين العلمية والإيديولوجيا ٢/٢) الرياض: ١٤١٨٥ وصفه بوصف هو أجدر أن يوصف به فقال: " لا غرابة في أن تصدر هذه الشتائم عن إنسان مريض يعاني من عقد الاضطهاد، وربما مر بمواقف زادت من تأزمه واضطرابه، أو ربما كان خاضعاً لتربية غير سوية، قادته إلى استخدام هذه اللغة السوقية التي لا تجد من يلوكها إلا في الحواري الخلفية، وعند الحشاشين والقوادين، وإنما العجب أن تحتفي بعض الصحف المحترمة، كأخبار الأدب، وأدب ونقد، ودور النشر العلمية.. بمثل هذا العابث، والذي لا يمتلك سوى هذا الكلام الذي يراه صاحبه علماً. الجهالة من ناحيتين، جهالة أولية، وجهالة جراء عدم إدراك مستوى ضحالة الذات معرفياً ".

وهو في مقاله هذا نصّب نفسه مدافعاً عن الإسلام والدين، وهو الذي كان يكيل الشتائم لأهل الدين كما سبق، ويرميهم بكل نقيصة، فلم يسلم منه حتى الأئمّة الكبار كابن القيّم وغيره، ولا فرق بين من يطعن في الدين نفسه، ومن يطعن في حملته وأهله، سوى أنّ الأوّل طعن صريح، والثاني خبث مغلّف بتلميح..

وفي مقال له بعنوان (متطرفون في الزمن الليبرالي) الرياض: ١٤٢٢٠ دعا فيه صراحة إلى اعتناق الفكر الليبرالي وبشّر فيه بها!!! قال: " والمجتمع الليبرالي مجتمع راشد، يتجاوز هذا السباب الطفولي، وإن اضطر في سياق الخطاب اللاهوتي إلى شيء من ذلك – كحق في التعبير عن الرؤية – فإنه يطرحه في سياق موضوعية صارمة، لا يسمح لها بالإساءة المباشرة إلى أحد ". هذا هو نصّ ما قاله: سباب طفولي في سياق موضوعية صارمة !!! ودون إساءة إلى أحد !! وهل بعد ذلك الكمّ الهائل من الشتائم الطفولية السابقة من إساءة تطال كلّ سلفي موحد في هذه البلاد السلفية ؟. أهذه هي الليبرالية التي يدعون إليها ويبشّرون بها؟..

٢. ربط السلفية بالإرهاب . الذي لم يُتفق على تعريفه إلى هذه الساعة . والاستماتة في ذلك، ونسبة بعض المارقين إليها وهو ما يطلقون عليه: (السلفيّة الجهادية).. فكلما خالفهم مخالف، أو حاجّهم محاجّ، أو احتسب عليهم محتسب من أهل الدين والعلم والدعوة رموه بالإرهاب بجرة قلم، والعامة يروون في هذا المقام قصة رمزية طريفة، وهي أن امرأة أراد زوجها أن يتزوج عليها، ففكرت في حيلة لمنعه من الزواج، فما كان منها إلا أن اتصلت برجال الأمن، وذكرت لهم ارتيابها من زوجها، وأن له صلة بـ (الإرهابيين)، وقبيل ليلة الزواج تم القبض عليه بهذه التهمة، واعتذر أهل الزوجة عن تزويجه، وبهذا نجحت الخطة..

يقول أحدهم . وهو مقيم في لندن . في مقال له بعنوان: (الحالة الدينية في السعودية..هل تستمر القاعدة بتجنيد السعوديين) الوطن: ١١٣٩ : " ما هي وضعية الحالة الدينية اليوم في السعودية؟.. لا يمكن القول إنّها متسامحة وعصرية، فالأحداث الإرهابية هي نتاج غلو ديني اشترك بعض أفراد المذهبيّة الدينية السلفية السائدة، والأيديولوجيا الصحوية في صنعها في المقام الأوّل بغض النظر عن المسببات الأخرى التي وضعتها في موضع التنفيذ. ومظاهر التشدد الديني التي تلمس كل يوم في خطب الجوامع وأدعية القنوت، والفتاوى المتشددة، والخطاب الديني بمجمله مغرق في التزمت بعيد كل البعد عن حال التسامح واليسر المنتظرة منه "، وهكذا تطلق التهم جزافاً بلا بيّنة سوى أنّ الذين قاموا بالتفجيرات يستشهدون ببعض أقوال السلف، ولو أننا أخذنا بهذا المنطق المعوج لحكمنا على القرآن نفسه بأنّه سبب الإرهاب، لأنّ الخوارج الأوّلين استدلوا به على مذهبهم، وكذلك سائر الفرق الضالة.

ثم، ومن أجل حلّ هذه الأزمة يرى الكاتب أنّ الحل يكمن في: " تغيير الطريقة التي يتم التعامل بها مع الأفكار والطوائف أو الأديان بوصفها كافرة أو مبتدعة أو علمانية، وينبغي أن ينظر إلى نقد وتقييم المناهج والمؤسسات الدينية، وإصلاحها(!) بالطريقة العصرية، والحدّ(!) من تضخّم الأدلجة الإسلاموية.." وهو كلام في غاية الخطورة والضلال، والغلو المضاد، حيث يدعو الكاتب إلى عدم وصف الأديان ويريد بها بطبيعة الحال أصحابها المتدينين بها اليوم . بالوصف الذي وصفها الله به

في كتابه الكريم، ووصفها به رسوله الأمين كما في قوله تعالى: { لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ.. }، وقوله: { لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ..}، وقول النبيّ r: " والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة؛ يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار " أخرجه مسلم. ولا خلاف عند أهل الإسلام في كفر اليهود والنصارى وغيرهم من أصحاب الملل الأخرى، فمن لم يكفرهم فهو مكذب للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

وكذلك يدعو الكاتب إلى عدم تبديع أهل البدع وأهل العلمنة، وفي ذلك مضادة لقول نبينا r: " كل بدعة ضلالة"، وهذا في نظر الكاتب يعدّ إصلاحاً بالطريقة العصرية، وصدق الله إذ يقول: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ }.

ويقول آخر . وهو أشدّهم تطرّفاً . في مقال له بعنوان: (الإنترنت والخطاب الديني) الرياض: ١٣٢٤٧: " .. كما أظهر هذا الخطاب [يعني خطاب التطرّف] أنّ مرجعيّة التطرّف والغلو، ومن ثم الإرهاب، ليس الفكر القطبي، ولا طرح الجماعات المتأسلمة(!) وإنّما مصدر الاستدلال . في الغالب العام .: السلفية التقليدية، بمرجعيّاتها المشهورة التي لها اعتبارها في الخطاب السلفي ".

إذن، السلفية بمرجعياتها المشهورة هي مصدر الإرهاب، فيجب محاربتها، والقضاء عليها، هذا ما يهدف إليه الكاتب. والردّ عليه كالرد على الذي قبله.

أمّا المرجعيات المشهورة فيريدون بها: أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وابن عبد الوهاب رحمهم الله..، وقد صرّح أحدهم بذلك . وهو أكثرهم تعالماً، وأشدّهم جهلاً . في مقال له بعنوان: (الإنسان والوطن أهمّ من ابن تيمية) الوطن: (٩٦٥)، زعم فيه . زوراً وبهتاناً . أنّ ابن تيمية هو منظّر الجهاديين، وأنه سبب الإرهاب، معتمداً على نص لابن تيمية مبتور من سياقه، وهو إذ يعيب على من أسماهم بالجهاديين سوء الفهم؛ يقع في الخطأ نفسه وهو لا يشعر.

وأخطر من ذلك، ما سطّره الكاتب الأوّل في مقال له بعنوان: (واحذرهم أن يفتنوك) الرياض: ١٣١٢٨، يتحدّث فيه عمّا أسماه بالفرادة، يقول منظرّاً لهذه الفرادة: " إنّ الأصل في الكائن الإنساني خاصّة هو الاختلاف والتنوّع والتفرّد، وليس التشابه

والتماثل كما يحاول دعاة المحافظة والتقليد ترويجه . تطبيقاً . في بيئتنا الاجتماعيّة، وإن ادّعوا تنظيراً غير ذلك".. وهذا كلام مجمل يحتاج إلى تفصيل، فالفرادة إن كانت فيما لا يتعارض مع أصل الدين وثوابته، ونصوصه القاطعة، فهي مطلوبة، وإلا فإنّها ابتداع وخروج عن الدين، وحقّها . لفظاً . أن تكون بالمثنّاة (قرادة)، لكنّ الكاتب تعمد الإطلاق للوصول إلى ما يهدف إليه، لذا فهو يواصل مقاله قائلاً . بعد أن قرّر أنّ إلغاء هذه الفرادة المطلقة جريمة .: " ويبقى السؤال الأهم في هذا الطرح: إذا كان إلغاء معالم التفرد في الإنسان جريمة، فهل تمارس هذه الجريمة في محيطنا الثقافي والاجتماعي؟، وإذا كانت تمارس، فهل هي مقصودة أم أنها جزء من الحراك الاجتماعي التلقائي؟، وعلى أية صورة تمارس هذه الجريمة؟، هل هي فردية أم جريمة منظمة؟، وما مدى انتشارها وذيوعها؟ ومن الفاعل؟، وأين؟، ومتى؟. وإذا كان بعض هذه الأسئلة لا يمكن الإجابة عليها تفصيلاً؛ لهذا السبب أو ذاك، فإن الإجابة العامة التي ينطق بها الواقع (الثقافي/ الاجتماعي) لدينا إجابة لا تدعو للتفاؤل، من حيث الوقوع المتعين لهذه الجريمة المعنوية ".

ثم تبدأ معركته مع السلفية، أو على حدّ تعبيره: (الاتجاه المحافظ التقليدي لدينا)، وهذا هو المقصود، فيقول: " إن ما فعله – ويفعله – الاتجاه المحافظ التقليدي لدينا إنما هو عملية قتل متعمد لكل معالم الفرادة الطبيعية، إنه في الحقيقة (اغتيال للعقل) على نحو تدريجي، وبأساليب قد لا تكون واضحة في كل الأحيان، وفي كل الحالات. لا أستطيع أن أقول: إن عملية المسخ الاختياري (والقسر في بعض الأحيان) التي يمتزج بها الاجتماعي بالديني (وفق رؤية خاصة يتم تعميمها)، بالثقافي، بالواقعي، وبطريقة لا تبقي أي خيار، لا أظن أن لها مثيلاً على مستوى التجمعات الإنسانية المعاصرة كافة..".

وبعد الطعن في السلفية . خصمه اللدود . بإجمال، يبدأ في التفصيل، فيستعرض المراحل الدراسية جميعها إلى مرحلة الدراسات العليا، فيقرّر أنّ هذه المراحل كلّها عندنا تقضي على هذه الفرادة المزعومة، والسبب أنّها تلتزم بمذهب أهل السنّة والجماعة وسلف الأمّة، أو على حدّ تعبيره: " نمط التربية المستمد من موروث اجتماعي موغل في القدم يبدأ عمله منذ السنوات الأولى للطفولة؛ لكون القائم على

التربية الأولى ابناً باراً لثقافة التقليد والمحافظة في الغالب " أو بتعبير آخر له: " أفكار مغرقة في محافظتها وسلفيتها وتزمتها.. "، أو بتعبير ثالث عن النشاط اللا منهجي: " وفق المنطلقات ذات الزوايا الحادة للمنظومة السلفية التقليدية التي تجتهد في التنميط؛ فضلاً عن أن التنميط كامن في البنية العامة للمناهج "..

ثم يتحدث عن المرحلة الجامعية، فيصفها بأنّها: " أكبر (ورشة) للتنميط، وقتل ما أبقته المراحل الأولى من الفرادة العقلية، وترسيخ قيم المحافظة والتقليد، فتمارس بين أروقة الجامعة أكبر عملية اجترار للتراث، بكل ما يحمله من إيجاب وسلب، وبكل ما تعنيه هذه العملية في ذاتها (من حيث هي اجترار) من نكوص إلى وعي قد طواه الزمن في مقبرته الأبدية، ولكننا نأبى إلا نبش تلك القبور، والبحث في تلك العظام النخرة عن مصدر للحياة!.. ". وهو يريد بذلك الأقسام الشرعية في الجامعات ذات التوجه السلفي خصمه اللدود، أمّا كليات الطب والهندسة والعلوم وغيرها، فلا يتحدّث عنها.

ثم يتحدّث عن مرحلة الدراسات العليا، فيصفها بأسلوب مسفّ ينم عن حقد دفين على المنهج السلفي القويم، مدعم بالافتراء والكذب وكيل التهم الجائرة فيقول: " إن الدارس لا يمكن أن يقبل في هذه الدراسات ابتداء، ولا يمكن أن يتقبل فيما بعد، ما لم يكن ذا مهارة في النسخ، مع قدر لا يستهان به من عدم الأمانة في النقل والاجتزاء؛ لخدمة الفكرة الموروثة في التيار المندغم فيه، فليست الحقيقة هي الغاية، وإنما الإبقاء على ما يؤيده تيار المحافظة من مخلفات القرون الوسطى هو الغاية، وفي سبيلها فليتم الإجهاز على الحقيقة بسيف العلمية!، وبهذا لا يمكن أن يعترف بالدارس باحثاً علمياً في مؤسسات التقليد ما لم يتنكر لبدهيات البحث العلمي. وهذا هو الشرط الأولي لقبوله (باحثاً!) في المنظومة التقليدية ".. إنّها تهم شنيعة، في غاية البشاعة والشناعة لجامعاتنا الإسلامية العريقة التي خرّجت الكثير من العلماء والدعاة والمفكّرين حتى من غير أبناء هذا البلد، ولكن الحقد الدفين يعمي ويصم..

فعين الرضا عن كلّ عيب كليلة كما أنّ عين السخط تبدي المساويا

ثم يدلل هذا الكاتب الموتور على ما ذهب إليه من حقد دفين وفق طريقته السابقة من الافتراء والكذب والتلبيس والألفاظ النابية فيقول: " ومما يدل على مستوى هيمنة

هذا النمط الببغاوي في المؤسسات العلمية التي تهيمن عليها الاتجاهات المحافظة، أن الحكم بموضوعية على شخصيات أو تيارات في القديم أو الحديث، بما يخالف رؤية هذه الاتجاهات، وما يسود في أروقتها من مسلمات يودي بصاحبه، ويعرضه للنفي خارج المؤسسة العلمية، فضلاً عن الإقصاء الديني، يشهد على ذلك أن كل دراسة لشخصية أو فكرة أو تيار، تتم في هذه الأقسام تعرف النتيجة فيها سلفا، بل لا يمكن أن تكون النتيجة إلا ما قررته المنظومة في أدبياتها، فمهما حاول (هذا إذا حاول) الباحث الاستقلال فهو لا يستطيع، وموقفه البحثي في النهاية دفاعي عن الأفكار العامة لمؤسسته العلمية التي تحتويه. هذا هو الواقع، وإلا فدلوني على رسالة واحدة طعن(!) صاحبها في فكرة أو شخصية لها وزنها في المنظومة الفكرية لمؤسسته العلمية، أو أثنى على تيار مخالف أو شخصية ليست محل القبول في هذه المؤسسة، فقبلت المؤسسة المحافظة بذلك ".. إنّ هذا الكاتب يريد من الباحث الملتزم بعقيدة أهل السنّة والجماعة أن يطعن في أئمّة السلف أو مذهب السلف، أو يثني على أهل البدع، والفرق الضالة وخاصة المعتزلة(!) ، ويريد من الجامعات الإسلامية أن تفتح المجال لكلّ من أراد ذلك باسم الاستقلال والفرادة كما يزعم، وإلا فإنّ ذلك ضرب من الإقصاء والنفي والقضاء على الفرادة المزعومة، أمّا أن يبتكر الباحث موضوعاً في تخصّصه . مع التزامه بثوابت الأمة ومنهج أهل السنّة . فذلك ليس من الفرادة في شيء في مفهوم الكاتب، الفرادة عنده هي الخروج عن مذهب السلف، والطعن فيهم . كما يفعل هو مراراً في مقالاته كما سيأتي . ، إنّ هذا لهو عين الضلال وانتكاس المفاهيم..

ثمّ إني أوجه سؤالاً لهذا الكاتب ولن يستطيع الإجابة عليه فأقول: هل صحيفتك التي تكتب فيها، وتهاجم مِنْ على منبرها مذهب السلف الصالح تسمح بمثل ما ذكرت من نقد لفكرة أو شخص ينتمي إليها أو إلى الفكر الذي تتبناه ؟؟ الجواب: لا وألف لا، لأني قد جربت ذلك، وجربّه غيري، فلم نجد إلا الإقصاء والنفي والتجاهل إلا في حدود ضيقة، فهل من معتبر..؟

ثم يواصل الكاتب بذاءته وافتراءاته وشتائمه المعتادة . سأضع تحتها خطاً . قائلاً: "بهذا يتضح أن كل مرحلة علمية، وكل تناغم مع المجتمع في تياره المحافظ خاصة،

تفقد المرء جزءاً من فرادته، مما يعني أنه كلما قطع مرحلة من ذلك، وظن أنه قد تحقق له شيء من العلم، فإنه لم يزدد بذلك إلا جهلاً. وبمقدار حظه من هذا التنميط والاختطاف الثقافي والاجتماعي يكون حظه من الجهل المركب؛ لأنه بهذا يفقد التفرد في الرؤى والأفكار، بمقدار ما يندغم في تيارات المحافظة، وبقدر ما يتناغم مع المؤسسات العلمية التي تهيمن المحافظة عليها. ويزداد الأمر سوءا ومأساوية، عندما ندرك أن هذا الاغتيال للفرادة، وهنا التنميط الذي يتم في هذه المراحل العمرية لا يجري لصالح رؤى الانفتاح – مع أن اغتيال الفرادة جريمة، أيا كانت مبرراته – وفي سبيل الرقي بالإنسان، وإنما هو لصالح رؤى الانغلاق، وتيارات الكره، ودعاة نفي الآخر، كل ذلك بالإيحاءات الخاصة للسلفية التقليدية التي لا تني عن إنتاج نفسها كلما أشرفت على الهلاك "..

ويختم مقاله بهذا التحذير: " وأخيراً لا يسعني إلا أن أقول لكل قارئ: احذرهم.. احذرهم (وأنت تعرفهم) أن يفتنوك. قد تكون نجوت منهم كليا أو جزئيا، قد تكون ممن هلك بفتنتهم التي ظاهرها الرحمة، لكن أدرك من نفسك ما يمكن إدراكه، مارس إنسانيتك(!) على أكمل وجه، كن ابن نفسك في كل شيء(!)، حاول قدر الاستطاعة، مهما كلفك ذلك، هذا بالنسبة لك، ولكن، تبقى المهمة الصعبة: استنقاذ الأجيال الناشئة من براثن التنميط والمحافظة(!) والتقليد، وهي مهمة لابد أن ينهض بها كل (إنسان) لتحقيق أكبر قدر من الفرادة (من الإنسانية)(!) قبل أن تغتال في مهدها ".. وهكذا تصبح المحافظة على العقيدة السلفية النقيّة ـ حسب رأي هذا الكاتب ـ فتنة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، ويحذّر منها في معقلها ومهدها، فإلى الله المشتكى.

أمّا دندنة الكاتب ـ بل سائر المنتمين إلى هذا الفكر الاعتزالي الليبرالي التغريبي حول (الإنسانية) فذلك موضوع آخر سأفرد له سمة مستقلة بإذن الله تعالى.

كما أنّ من الملاحظ أنّ الكاتب(!) جعل عنوان مقالته هذه جزءاً من آية كريمة نزلت في جماعة من اليهود(!)، وهو ها هنا ينزلها على خصومه السلفيين المسلمين المحافظين(!!)، وهذه سمة متكرّرة في مقالات هذا الكاتب وأصحابه، سأفرد لها أيضاً

سمة خاصّة بإذن الله تعالى. وهي جريمة نكراء في حقّ كلام الله تعالى، وحقّ إخوانه المسلمين.

وحتى يعرف القاريء حقيقة هذه الفرادة التي تحدث عنها هذه الكاتب وغيره من أصحاب هذا الفكر، وحقيقة موقفهم من عقيدة السلف والعقائد الأخرى المنحرفة وخاصّة المعتزلة؛ أسوق لكم هذه الأقوال لبعضهم:

فهذا أحدهم . وهو الكاتب السابق نفسه . في مقال له بعنوان (ثقافة تصنع الغباء) الرياض: ١٣٠٧٢، وهذا العنوان من جملة شتائمه المعتادة للسلفية، يقول عن السلفية التي يسميها تقليدية بأنّها: " لا تعدو كونها تأويلاً خاصّاً للإسلام، محلّه متاحف الفكر، لا الحراك الاجتماعي "، فهل رأيتم إقصاء ونفياً أشدّ من هذا الإقصاء والنفي؟!!!

والغريب أنّ هذا الكاتب نفسه في مقال له بعنوان: (من التطرف إلى الإرهاب) الرياض: ١٢٩٥٣،يصف بعض الأقسام في بعض جامعاتنا أنّها " ما زالت معاقل للفكر الذي ينفي الآخر، وما زالت تقتات على الترسيخ لثقافة الإقصاء ونفي الآخر، وتروج لها في أطروحاتها "، ويريد بهذه الأقسام التي في جامعاتنا . كما هو ظاهر .: الأقسام الشرعية، والعقدية على وجه الخصوص، ويريد بثقافة الإقصاء والنفي ثقافتنا الإسلامية السلفية، أمّا الآخر المنفي فهي الفرق الضالة المنحرفة من معتزلة وحرورية ومرجئة وصوفية وغيرها.

ويقول آخر . وهو أكثرهم حديثاً عن العقائد وأكثرهم خلطاً بين النصوص . في مقال له بعنوان: (قراءة في بعض فروع العقائد) الرياض: ١٣٦٦٧: " ومما يجدر التنبيه عليه أنّ مصطلح (العقيدة) أمر تواضع عليه العلماء الذين تبنوا مجال البحث في مجال الغيبيات فيما بعد الصدر الأوّل، إذ لم يكن لذلك لمصطلح أساس من النصوص الوحييه سواء من القرآن أو السنة، إذ إنّ المصطلح الأساسي الشرعي الذي جاء به القرآن والسنة النبوية هو مصطلح (الإيمان).. " وكأنّ مصطلح (الديمقراطية) و(الليبرالية) و(الإيبيستيمولوجيا) و(الأيديولوجيا) وغيرها من المصطلحات التي يرددونها في مقالاتهم ليل نهار، لها أصل في الكتاب والسنة !!!

ثمّ يمضي الكاتب في تقريره لحقيقة الإيمان ومن هو المؤمن فيقول: " وهو [أي الإيمان] عبارة عن مفهوم بسيط (هكذا) يرمز إلى ستة أمور، من آمن بها أصبح مسلماً ومؤمناً كامل الإيمان لا يحتاج معه إلى امتحانات قلبية أو مماحكات لفظية، أو حفظ مدونات عقدية لإثبات إيمان المرء ودخوله حظيرة الإسلام "..

وهو كلام خطير يدلّ على جهل فاضح، وانحراف واضح عن المنهج القويم والفهم السليم لدين الإسلام.. فإنّ لفظ الإيمان والإسلام إذا اجتمعا صار لفظ الإيمان مراداً به الاعتقاد الباطن، ولفظ الإسلام العمل الظاهر كالنطق بالشهادتين، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والحج، كما قال الله تعالى عن الأعراب: { قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا..} ففرق بين الإيمان والإسلام، وهذا أمر بدهي عند أطفال المسلمين، فمن لم يأت بأركان الإسلام الظاهرة لم يكن مسلماً ولا مؤمناً، حتى وإن ادّعى الإيمان والإسلام، ولهذا قاتل أبو بكر الصديق t مانعي الزكاة، مع أنّهم كانوا يشهدون أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، ولما أنكر عليه عمر t كما جاء في الصحيح، قال له: والله لأقاتلنّ من فرق بين الصلاة والزكاة.. أمّا الامتحان، فقد قال الله تعالى في سورة الممتحنة: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ..}، وهي تسمى (آية الامتحان)، وقد سئل ابن عباس t كيف كان امتحان رسول الله r النساء؟ قال: كان يمتحنهنّ: بالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله.. وهذا خلاف ما قرره الكاتب، بل إنّ ما قرّره هو مذهب المرجئة القائلين بأنّ الإيمان مجرّد الاعتقاد بالقلب، وأنّ العمل غير داخل في مسمّى الإيمان، وأنّه لا يضر مع الإيمان ذنب.. فكلّ من ادّعى الإيمان . حسب زعمهم صار مؤمناً مسلماً.. وقد صدرت عدة فتاوى من اللجنة الدائمة للإفتاء في هذه البلاد في التحذير من هذا الفكر الإرجائي الخطير.

ثم يقرر الكاتب مذهبه الفاسد مؤكّداً فيقول: " وبالتالي فليس هناك من الوجهة الشرعية(!) ما يعرف بأصول العقائد مقابل فروعها، بل هو أصل واحد هو الإيمان، وكلّ ما جاء بعد ذلك مما أصطلح عليه أصول العقائد وفروعها، وهي التي ألحقت

بالعقائد وفقاً لأيديولوجية الجماعة أو المذهب القائلة بها؛ فهي مما تواضع عليه من امتهنوا ما اصطلح عليه لاحقاً بعلم العقائد، ومن الطبيعي أن يضطر الباحث إلى مسايرة هذه المواضعة عند البحث عن أي من مفرداتها بعد أن أصبحت واقعاً تراثياً في حياة المسلمين ".. ، وفي موضع آخر يصفها الكاتب بأنّها: " مماحكات ومجادلات سفسطائية، أدخلت في العقيدة قسراً بمؤثرات أيديولوجية" الرياض: ١٣٥٦١، وهكذا يلغي الكاتب بجرّة قلم كلّ ما قرره سلفنا الصالح من العقائد والأصول المجمع عليها عند أهل السنة والجماعة، مما هو مستمد من الكتاب والسنة الصحيحة، والتي يتميز بها أهل السنة والجماعة عن أهل البدعة ، ليفتح الباب على مصراعيه لكلّ مبتدع وضال ليكونوا جميعاً على درجة واحدة من الإيمان والاعتقاد الصحيح، ولعمر الله إنّ هذا لهو الضلال المبين.

ويقول هذا الكاتب في مقال له آخر بعنوان: (الخوف من النقد) الرياض: ١٣٥٠٩، بعد أنّ قرر حق (الآخر)(!) في الاختلاف من زاوية عدم احتكار الحقيقة من جانب واحد . يريد مذهب السلف .: " هنا أجد أنّه من المناسب القول بضرورة إعادة النظر في المناهج التعليمية، خاصّة المناهج الجامعية في الأقسام التي تدرّس العقديات والمذاهب بحيث يجعلها تؤسّس لنظرة تسامحية تنطلق من إبراز أهداف ومنطلقات الفرق المخالفة عندما أرست قواعد مذهبها . خاصّة الفرق الإسلاميّة الماضية المنظور لها على أنّها مخالفة . بدلاً من تكريس وضع منهجي ينظر لها على أنّها ذات أهداف خاصّة لهدم الإسلام وتقويض بنيانه، بحيث تتأسس المخرجات التعليمية البشرية على التعامل مع حقّ وحيد ورأي فريد هو ما تلقنه إياه تلك المناهج كحقّ حصري لمبادىء مذهبه وقواعد مرجعيته " يريد مذهب أهل السنة والجماعة، ثم يذكر المذهب الاعتزالي على وجه الخصوص ويدافع عنه، وهذا هو مربط الفرس عنده، لتقرير مذهب الاعتزال، فيقول: " ومن ثم فإنّ الحاجة ماسّة لتأسيسٍ جديد لأقسام العقيدة والمذاهب في الجامعات لتأسيس طلابها على النظرة المجردة(!) للمذاهب والفرق المخالفة عن طريق وضع مناهج تؤسس هي الأخرى للدراسة التاريخية المجرّدة باستصحاب كامل لتاريخ نشأة تلك الفرق وأهمها الظروف السياسية التي صاحبت نشأتها وتأسيسها مذهبياً، بدل أن تقدّم للطالب باعتبارها فرقاً

ضالة هالكة في مقابل فرقة ناجية وحيدة.."، وهكذا يريدون تمييع العقيدة السلفية الصحيحة، باسم التجرّد والفرادة. وتلميع الفرق الضالة المنحرفة، ومن ضمنها المعتزلة والرافضة والخوارج وغيرها من الفرق التي شوهت الدين، وآذى أصحابها عباد الله المؤمنين، ويلاحظ فيما ختم الكاتب مقاله ملاحظتين، إحداهما: التفسير السياسي للتاريخ والأحداث بشكل عام، وسأتحدث عن هذه المسألة بإذن الله في فصل مستقل. والثانية: التعريض بالحديث النبوي الشريف، حديث الفرقة الناجية، والاعتراض عليه(!)، بحجّة أنّه يخالف العقل، وهذا بناء على مذهبهم العقلي الفاسد.

وفي مقال آخر للكاتب نفسه بعنوان: (أصالة التعدد في الطبيعة البشرية) الرياض: ١٣١٦٠، يحاول الكاتب تأصيل مبدأ الاختلاف بين الناس (التعددية) وأنّها {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ.. }، ويستدل بالآية الكريمة الأخرى: { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم }، واستشهاده بهاتين الآيتين على ما ذهب إليه خطأ فادح يدل على جهل فاضح، فأمّا الآية الأولى فإن من المعلوم . بلا خلاف أعلمه . أنّ المراد بالفطرة: الإسلام وليس الاختلاف، كما جاء في الحديث الشريف: " كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرّانه أو يمجّسانه..".. وأمّا الآية الثانية فهي في سياق الحديث عن اليهود، ولا علاقة بالاختلاف الذي بين الفرق المنتسبة إلى الإسلام، بل إنّ نصوص الكتاب تدل على عكس ما أراد الكاتب تأصيله، فالله تعالى يقول: { وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }، وقوله تعالى: { وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ.. }، فجعل الرحمة في مقابل الاختلاف، فدل ذلك على أنّ الاختلاف ليس برحمة، بل هو شرّ ونقمة، وإن كان الله قد أراده كوناً، لا شرعاً، وأنّ الحقّ واحد لا يتعدد، وتأويل الآيات على غير ما جاءت له سمة بارزة من سمات أصحاب هذا الفكر الاعتزالي كما سيأتي في مبحث جهلهم.

ثمّ يواصل الكاتب جهله فيقول مقلداً للجابري: " كان فيروس الضيق قد تحدد سلفاً في الفكر العربي حيث دشّن الخوارج ومباينوهم في الطرف القصيّ من المعادلة (الأمويون وشيعتهم) مبدأ ثنائية القيم الذي يقول عنه المفكر المغربي محمد عابد

الجابري إنّه مبدأ (إمّا وإمّا) ولا مجال لحطّ الركاب بينهما، إمّا مع وإّما ضدّ، إمّا مسلماً وإمّا كافراً، وإمّا ناجياً وإمّا هالكاً، وإمّا مقتفياً وإمّا مبتدعاً.."

إنّ هذه الثنائية التي ذكرها مقلداً الجابري، قد نصّ الله عليها في كتابه الكريم، فقال سبحانه: { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ.. }، وقال سبحانه: { إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً }، فهي ذات الثنائية (إمّا وإمّا).. والذي أراده الجابري ولم يتفطّن له الكاتب أو تفطّن له ووافق عليه، هو تقرير مذهب الاعتزال القائل بأن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين (لا مؤمن ولا كافر)، ولهذا قال: (ولا مجال لحطّ الركاب بينهما)، وهو تقرير في غاية الخفاء والخبث، ويشبه فعل صاحب تفسير الكشّاف المعتزلي في تقريره لمذهب الاعتزال في تفسيره، حتى قال البلقيني رحمه الله: " استخرجت من الكشّاف اعتزاليات بالمناقيش ".. وهذا يحدث في صحيفة سيّارة تصدر في بلاد التوحيد التي قامت على العقيدة السلفية النقيّة، وفي ظني أنّ ولاة أمرنا . وفقهم الله لطاعته . لو تنبهوا لذلك لما رضوا به..

ولا يكتفي الكاتب بذلك، بل يختم مقاله بتوجيه بعض الشتائم، والانتقاص لأهل السنة وسلف الأمّة، ويضيف إلى ذلك بعض النصوص الحديثية، بطريقة فاضحة لا تدلّ على مقصوده، وما أقبح الجهل والتعالم إذا اجتمعا..

يقول . وتأمّلوا ما تحته خط .: " إنّ أكبر مشكلة واجهت الفكر العربي الإسلامي حين مواجهته مشكلة التعددية، وبالذات من النصف الأوّل من القرن الثالث الهجري، وهي ظن أولئك المتحذلقين والمتقوقعين حول فهومهم الخاصّة أنّهم بنفيهم وإقصائهم لخصومهم إنّما هم آخذون بحجزهم عن النار، وهؤلاء المخالفون ما فتئوا يتفلّتون منهم ويقعون فيها في تصنيف حصري لحقّ النجاة لفهوم بعينها دون بقيّة الأفهام المباينة والمقاربة... ".

فهو يعدّ تصدي سلفنا الصالح لأصحاب الفرق الضالة، والردّ عليهم، أكبر مشكلة واجهت الفكر العربي الإسلامي، ويخصّ النصف الأوّل من القرن الثالث الهجري، لأنّه وقت نشوء فرقة المعتزلة التي جنّد نفسه للدفاع عنها، ويلاحظ شتائمه التي وصف بها أهل السنة وسلف الأمّة: (المتحذلقين المتقوقعين حول فهومهم الخاصّة)، والتهم التي وجهها (النفي والإقصاء للخصوم)، والتعريض بالحديث النبوي

الشريف الذي يُشبّه فيه النبي r المتهافتين على الباطل . كهذا الكاتب وأمثاله كالفراش المتهافت على النار.. وتعريضٌ آخر بحديث الفرقة الناجية الوحيدة دون سائر فرق الضلال، ويصف ذلك ساخراً بلفظ سوقي فضائي بأنّه: (تصنيف حصري لحقّ النجاة لفهوم بعينها دون بقية الأفهام..) ويريد بذلك فهم السلف الصالح!!!، فما حكم من استهزأ بالنصوص الشرعية ؟!.

ثم يستشهد على ما ذهب إليه من التعددية بقوله: " ومن ثمّ يتساءل الإنسان كيف حاص أولئك [يعني السلف الصالح] عن حياض المنهج النبويّ الكريم حين كان r يقرّ أصحابه على تباين أفهامهم لما كان يلقي عليهم من نصوص (قصّة الصلاة في بني قريظة مثلاً) وعن مسار الصحابة بعده على هذا المنهج المتفرّد في قراءة النصوص، وامتثال مكنوناتها (اختلاف عمر بن الخطّاب وأبي بكر حول الكيفية التي ينبغي بواسطتها مجابهة مانعي الزكاة فكلاهما انطلق في تفسيره من ذات النصّ) .. " ا. هـ واستشهاد الكاتب بهاتين الواقعتين فيه جهل عظيم، وتلبيس واضح، وبعد كبير جداً عما أراد التوصل إليه، وهذه هي طريقة هذا الفكر الاعتزالي في التعامل مع النصوص، فأمّا الحادثة الأولى، فهي اختلاف في مسألة فقهية فرعية لا تعلّق لها بمسألة الاعتقاد والإيمان، لذا أقرّ النبي r الفريقين على اجتهادهما.. ومثل هذا الاختلاف لم يزل موجوداً عند أهل السنة حتى وقتنا الحاضر، وليس فيه تثريب إذا صدر من مؤهل.. وأمّا اختلاف عمر مع الصديق y في قضية مانعي الزكاة، فهو ليس اختلافاً، وإنّما هو إشكال وقع في نفس عمر، فما لبث أن زال بعد ذلك وحصل الاتفاق على ذلك الأصل، والكاتب . للتلبيس . لم يذكر تمام القصّة، وهو قول عمر بعد أن زال عنه الإشكال: " فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنّه الحقّ "، فأين في هذين الحادثتين ما يدلّ على ما أراد أن يقرره الكاتب من التعددية في أصول الدين والإيمان والاعتقاد ؟!!

ومن قبيل هذا الخلط والتلبيس المتعمّد بين الأصول والفروع، يذكر أحدهم . وهو أشدّهم تطرّفاً وخبثاً . في مقال له بعنوان (المعاصرة وتقليدية التقليدي) الرياض: ١٣٣٦٦، بعد الخلط المتعمّد بين السلفية الحقّة ، والسلفية المدّعاة أنّ " السلف لم يتفقوا إلا على القليل(!)، واختلفوا على الكثير، فعن أيّهم يأخذ ؟ " يعني السلفي، ثم

يذكر مسألة واحدة . واحدة فقط . اختلف فيها السلف، وهي خروج الحسين بن عليّ على الحاكم، ومخالفة بعض الصحابة له في هذا الخروج رضي الله عنهم جميعاً، وهذا الاختلاف ليس في أصل المسألة، وإنّما هو في بعض تطبيقاتها مع ما صاحب تلك الحادثة من ظروف وملابسات خاصّة، والقول بأنّ السلف لم يتفقوا إلا على القليل . من مسائل الاعتقاد . قول في غاية التجني والجهل بأحوال السلف ومنهجهم وعقيدتهم، وهو من أعظم التلبيس على عامة الناس، بل المعروف عند صغار أهل العلم، أنّ السلف الصالح في مسائل الاعتقاد الكبرى لم يختلفوا إلا في مسألة واحدة أو مسألتين، وبعض العلماء يعدها من قبيل الخلاف اللفظي لا الحقيقي، وإنّما وقع الخلاف بينهم في الفروع.

وفي سياق الحديث عن الفرق الضالة، يتباكى أحدهم على إقصاء تلك الفرق المارقة بل . وحتى الإلحادية منها(!) . في مقال له بعنوان (تلاشي الفكر العربي) الوطن: ٩٨٠، فيقول: " نحن حتى اليوم(!) لم نقف على قراءة صحيحة للقضايا الكبرى أو حتّى الصغرى(!) في فكرنا، ولا للحركات الدينية التي مارست أشكالاً متعدّدة من حركات النقد للموروث بطريقة أو بأخرى، سواء الحركات الإلحادية أو الصوفية أو المعتزلية أو حتى الحركات الشعرية، فمن التجنّي إقصاء كلّ هذا الموروث وعدم الإفادة منه(!!!).."، ولا أدري ما الذي يريد بالقراءة الصحيحة التي لم نقف عليها حتى اليوم، ووقف عليها هو وأضرابه؟! وليست القضايا الكبرى فقط، بل حتى الصغرى !!!!. كما لا أدري ما الذي سنفيده من الحركات الإلحادية، والصوفية والمعتزلية الضالة ؟!!.

٣. الطعن في مذهب السلف، والتندّر به، وكيل التهم له بلا حساب..

ففي مقال بعنوان: (التاريخ وأزمة الفكر الإسلامي) الرياض: ١٣٦٨٨، كتب أحدهم . وهو أشدّهم تطرّفاً . مقالاً تحدّث فيه عن مسألة عقدية، وهي الكف عما شجر بين الأصحاب، وترك الخوض في ذلك، لأن الله U أثنى عليهم جميعاً، فهم ما بين مجتهد مصيب فله أجران، ومجتهد مخطيء فله أجر واحد، وهذا مما اتفق عليه أهل السنة والجماعة، ولذا يذكر في كتب العقائد، وقد عدّ الكاتب هذه العقيدة المتفق عليها عقبة تقف . حسب زعمه . دون تحقيق الحدّ الأدنى من الموضوعية العلمية(!)،

ثم يقول بأسلوب ماكر خفي: " دراسة طبيعة الفكر الديني، وتتبع مراحل تشكله في فتراته الحاسمة تواجه الرفض في مجتمعات تقليدية لا تزال تستعصي على العلمية، وتتماهى مع الأسطرة(!)، بل والخرافة بوعي منها بهذا التماهي وما يتضمنه من مدلولات في الفكر والواقع أو بلا وعي. وهذا الرفض إما أن يكون رفضاً للدراسة ذاتها أي للمراجعة الفاحصة باعتبارها تتناول ميداناً مقدّساً لا يجوز الاقتراب منه، وإما أن يكون رفضاً للآلية (المنهج النقدي) التي تجري مقاربة الموضوع بواسطتها، وفي أكثر الأحيان يجتمع السببان كمبرر للرفض"، أستاذ اللغة العربية، وصاحب الفكر الاعتزالي المنحرف، الحاقد على منهج السلف، يريد أن يخضع تاريخ الصحابة الأطهار y للفحص والمراجعة!!!، أمّا الآلية التي يريد أن يسلكها فهي آلية شيخه الجابري تلميذ المستشرقين والتي تتلخص في انتقاء بعض الصور القاتمة من بعض المصادر المشبوهة التي لا تميز بين الغث والسمين، وجعلها مناطاً للأحكام والنتائج، هذه هي الموضوعية التي يتحدّث عنها(!).

ثم يقول: " لا شيء يزعج البنى التقليدية الراسخة في الأعماق الوجدانية [يريد عقيدة أهل السنة] سوى إعادة فحص الحدث التاريخي، والنظر إليه من خلال أبعاد أخرى(!) غير التي اعتادت التقليدية أن تقدمه بها "، إنه يريد منا أن نسلك منهجاً آخر غير منهج أهل السنة والجماعة في تقرير العقائد، ليفتح الباب على مصراعيه لكل مبتدع وحاقد وموتور ليقرر ما يريد، وتالله ذلك هو الضلال البعيد..

ثم يواصل: " مما يعني أن الأشخاص (الذوات المقدسة صراحة أو ضمناً) ستكون على المحك، ولن تبقى كما هي عليه من قبل في تراتبيتها التي تتغيا الفكرة براجماتياً(!) . في النهاية "، وهذا هو مربط الفرس عنده: النيل من الصحابة، على حد قول أهل الاعتزال: (هم رجال ونحن رجال) وشتان بين أولئك الرجال وهؤلاء أشباه الرجال ولا رجال..

ثم يضرب مثالاً للذوات التي يصفها بالمقدّسة بالخلفاء الراشدين y ومذهب أهل السنة في ذلك أن التفاضل بينهم على حسب ترتيبهم في الخلافة، لكنّ هذا الكاتب لا يروق له ذلك، ويعده أمراً مبيتاً في الضمائر قبل وجوده(!!!)، يقول: " جرى الحدث التاريخي فيما يخص السلطة على التراتبية المعروفة بالنسبة للخلفاء الراشدين رضوان

الله عليهم أجمعين، ومع أنه . أي الترتيب التاريخي للخلفاء . كان حدثاً تاريخياً مجرداً إلا أنه قد جرى تحميله معنى دينياً في تراتبية الأفضلية لهؤلاء، وهنا يظهر أثر الحدث التاريخي الواقعي . بأقصى حدود الواقعية الصريحة . على الفكري، وكيف جرى ضمه إلى مجمل المنظومة العقائدية بوصفه معبراً عن مضمر عقائدي كان موجوداً قبل وجوده المتعين في الواقع "، فهو لجهله . أو خبثه . يرى أن ترتيب الخلفاء كان حدثاً تاريخياً مجرداً..!! ولم يكن الأمر كذلك، بل إن الصحابة y اجتهدوا في تعيين الأفضل، بدليل أنهم توقفوا طويلاً بعد موت عمر t أيهما الأحق والأفضل عثمان أم علي، وكان عبد الرحمن ابن عوف t يطوف حتى على العذارى في خدورهن يسألهن حتى انتهى الأمر إلى تقديم عثمان t. ولهذا يقول أحد السلف: " من فضل علياً على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار "، فكيف يقال إن ترتيب الخلفاء الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة كان حدثاً تاريخياً مجرداً ؟! لكنه الجهل والهوى، وإذا كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي، فإنهم لم يختلفوا في أبي بكر وعمر.. .

ولا يفوته في مقاله هذا أن يعرج على الصحابي الجليل، وكاتب الوحي معاوية t ويتهمه ببعض التهم الجائرة التي تنال من عدالته ونزاهته بناء على ما قرره سابقاً من الفحص والمراجعة(!)، ثم في نهاية مقاله يتباكى على مذهبه الاعتزالي العقلاني فيقول: " لا شك أن هذا يفسر كيف أن تيار العقلانية لا يظهر في مكان من العالم الإسلامي إلا ريثما يندثر، لا يتم هذا بقرار سلطوي في الغالب، وإنما بإرادة جماهيرية لا تزال تتدثر بلحاف الخرافة الصريحة أو الخرافة التي تؤسس على هذا القول أو ذاك "، وشتم الجماهير سمة بارزة من سماتهم كلما عجزوا عن بث فكرهم المنحرف، وستستمر الجماهير المسلمة التي تتدثر بلحاف أهل السنة والجماعة في رفض هذا الفكر الضال الذي ينال من ثوابتها وعقيدتها الراسخة ورموزها الشامخة ولو كره أدعياء العقلانية والتنوير بل التزوير.

وتقريراً لهذه العقيدة يقول شيخ الإسلام ابن تيمية . رحمه الله . في الواسطية: " ومن أصول أهل السنة والجماعة: سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله y كما وصفهم الله في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا

الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}[الحشر:١٠]، وطاعة النبي r في قوله: " لا تسبّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنّ أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه"، ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم .." إلى أن قال: " ويتبرؤون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل، ويمسكون عما شجر بين الصحابة، ويقولون إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغُيّر عن وجهه، والصحيح أنهم معذورون إما مجتهدون مصيبون وإما مجتهدون مخطئون، وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم.. " إلى آخر ما ذكر.

هذا مثال واحد على طعنهم في عقيدة السلف والتشكيك فيها بطريقة ماكرة خفية، لا تخلو من مسلك التقية، مع ما فيها من التصريح ببعض ما تكنه نفوسهم، ومع هذا فهم يشتكون من عدم تمكنهم من قول كل ما يريدون. كفانا الله شرهم.

وفي مقال بعنوان: (هيمنة الخرافة) الرياض: ١٣٥٦٦، يسخر آخر . وكان تكفيرياً فصار مرجئاً(!) . من عقيدة من عقائد أهل السنة والجماعة، وهي إثبات كرامات الأولياء، . وهي عقيدة ثابتة بالكتاب والسنة .، فيعدّها من الخرافة، ثم يقرر(!!) أنّ الخرافة والعقل ضدان لا يجتمعان!! ولا أدري أي عقل يقصد، فعقله يرى أنها خرافة، وعقول أئمة أهل السنة والجماعة بناء على ما جاء في الكتاب والسنة يرون أنها عقيدة ثابتة، فإلى أي عقل نتحاكم ؟ ثم يخلط الكاتب . وهذه عادتهم في الخلط والتلبيس . بين هذه العقيدة الثابتة وبين بعض الاجتهادات البشرية من بعض المجاهدين أو بعض المنحرفين فكرياً، وهذا الخلط منهج فاسد يدل إما على الجهل الفاضح، وإما على الهوى الواضح، للتوصل إلى أغراض في نفس الكاتب..

وتقريراً لهذه العقيدة يقول شيخ الإسلام ابن تيمية . رحمه الله . في الواسطية: " ومن أصول أهل السنة: التصديق بكرامات الأولياء، وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات.. "..

السمة الثانية:

الخلل العقدي الواضح في كتاباتهم

وذلك ناتج عن تلوث المصادر الفكرية التي ينهلون منها، وهل تلد الحيّة إلا الحية!..وقد سبق شيء من انحرافاتهم العقدية، ويضاف إليها:

١. نسبة الإعطاء والمنح والضرب للطبيعة(!)..

يقول أحدهم في مقال له بعنوان: (الثقافة والإرهاب علاقة تضادّ) الرياض: ١٣٧٧٢، عازفاً على وتر الإرهاب والإنسانية: " والإرهاب تنكّر للبعد الإنساني في الإنسان، ومحاولة جنونية للرجوع إلى ما قبل الفطري والإنساني، أي أنّه محاولة رجعية ليست للقضاء على مكتسبات الأنسنة(!) فحسب، بل وللقضاء على ما منحته الطبيعة فطرياً للإنسان "، وسيأتي الحديث عن موضوع الأنسنة لاحقاً بإذن الله تعالى.

وفي مقال له بعنوان: (المرأة من الأيديولوجيا إلى الإنسان) الرياض: ١٣٧٥٨، يكرر هذا الخلل العقدي مع عزفه المعتاد على وتر الإنسانية، وشتم السلفية، يقول: " ربّما كان من قدر المرأة لدينا أن تواجه أكثر من سور منيع يحول بينها وبين الحصول على أقلّ القليل من حقوقها الفطرية، تلك الحقوق التي منحتها إياها الطبيعة ابتداء.. "، وهكذا تصبح الطبيعة الجامدة هي المانحة ابتداء(!!!)، أليس هذا هو منطق الإلحاد ؟.

وفي السياق نفسه يقول آخر في مقال له بعنوان: (إعصار كاترينا وعصارة الكره) الرياض: ١٣٦٠٧، وهو يتحدّث عن الإعصار الذي ضرب أمريكا: " ما ذنب أطفال وشيوخ وعجائز وأبرياء ضربتهم قوى الطبيعة(!) حتى غدوا كأنهم أعجاز نخل خاوية أن نحملهم وزر حكوماتهم في أخف المبررات(!) أو نربط بين ما حل بهم وبين ما مارسوا فيه حقهم المضمون(!) من رب العالمين في اختيار المعتقد الذي يريدونه في أسوأ المبررات.."، فربنا جل وعلا يقول: { ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ }[سبأ:١٧]، والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً، والكاتب يقول: لا تسمعوا لكلام الله بل إنّ الضارب والمهلك هي قوى الطبيعة!!!. أمّا الكفر الذي هو ظلم للنفس قبل أن يكون جريمة يستحق صاحبها العذاب، فهو عند الكاتب حق مضمون من رب العالمين لأولئك الكفرة..!! فأي خلل أعظم من هذا الخلل العقدي الصارخ.

ثم يضيف إلى هذه الخلل خللاً آخر أطم فيقول: " لماذا لا نجيد إلا التشفّي والتمني بالمزيد بعد أن قصرت بنا الثقافة المنغلقة عن إشاعة ثقافة العون والمساعدة المنبثقة من روح الأخوّة الإنسانية التي تشكل أصلاً من أصول الإنسان العظيم الإسلام في صفائه ونقائه وعزته وإنسانيته قبل أن تختطفه قوى الظلام والكراهية لتجعل منه أيديولوجية ساخطة على العالم كله.." ، والأخوّة الإنسانية التي يتحدث عنها سيأتي الحديث عنها بشكل مفصل بإذن الله، أمّا التشفي فلا أعلم قوماً أشدّ تشفياً من هؤلاء القوم، لا سيما مع خصومهم السلفيين، وقد رأينا قمة هذا التشفي في حادثة حريق الرئاسة، نثراً وشعراً ورسماً، وبكائيات عجيبة لوفاة بضع فتيات من آثار التدافع والهلع، لا بسبب الحريق.. ولم يقتصر الأمر على هذا بل حاولوا الزج بهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه القضية زوراً وبهتاناً، وبطريقة قذرة، لولا تصريحات المسؤولين المبرئة للهيئة.. ثم هم ينكرون تشفي (بعض) المسلمين المظلومين الذين فقدوا الكثير من أولادهم وأعزائهم والكثير من أموالهم وممتلكاتهم بسبب الجبروت الأمريكي المدمر في كثير من بلاد المسلمين.. ثم أي أخوّة إنسانية مع قوم يمتهنون المصحف الشريف في سجونهم، ويسخرون من سيد الخلق وخاتم المرسلين عليه من ربه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

٢. الدفاع عن القبوريين وأصحاب المذاهب الكفرية..

ففي مقال له بعنوان: (نحن والخوارج إلى أين) الرياض: ١٣٧١٦، يقول الكاتب السابق، بعد أن قرر أن مرجعية من وصفهم بالخوارج هي السلفية (التقليدية): "إننا نريد أن نعرف من هؤلاء الخوارج القعدة هل نحن أي كدولة ومجتمع في نظرهم مسلمون أم لا؟ "

إلى أن يقول: " أنا هنا لا أقصد موقفهم من عموم المجتمعات الإسلامية، لأنها في تصنيفهم العام غير المفصّل كافرة إمّا لأنها لا تحكم بما أنزل الله أو تسكت عن الحاكم في هذا الأمر وإمّا لأنها بدعية أو مذهبية أو قبورية أو حزبية.. إلخ هذا الهراء وإما لا تنكر كل ذلك "..

والقبوريّون هم عبّاد القبور، المعظّمون لها بالذبح والنذر والسجود وغير ذلك من أنواع الشرك الأكبر، وهؤلاء لا شكّ في كفرهم، والكاتب يجعل ذلك من الهراء، وهذا خلل

كبير في الاعتقاد، فإنّه إذا كان تكفير المسلم الموحّد لا يجوز، فكذلك عدم تكفير الكافر هو أيضاً لا يجوز، وهو تطرّف مضادّ للتطرف الأوّل الذي أراد أن يحذّر منه..

وأمّا حديثه عن الدولة والمجتمع، وتمسّحه بذلك، فهو من باب التقيّة التي يشتركون فيها مع الرافضة، وذلك أنّهم أصلاً لا يرون شرعية هذه الدولة السلفيّة (الوهابيّة في نظرهم) لأنّها غير ديموقراطية، أي غير منتخبة من الشعب، وهم يسعون لتحقيق مشروعهم التغريبي الغربي إلى إزاحة هذه الدولة، لإقامة دولتهم (الإنسانية) المرتقبة التي لا دين لها ولا مذهب ولا طعم ولا لون ولا رائحة.!!!.

وأمّا المجتمع الذي يزعمون تكفيره من قبل الخوارج القعدة، فهو المجتمع الذي استعصى عليهم ولذا فهم يرمونه . على سبيل الشتم . بالتجهيل، أو على حدّ تعبيرهم كما سبق: (الجماهير البائسة الظامئة)، و(جماهير الغوغاء)، و(الجماهير المجهّلة)، و(الجماهير الغائبة المغيّبة)، و(المجتمعات المحافظة الأصولية)، وهي الآن بعد هذه الشتائم أصبحت متّهمة بالكفر من قِبَل من يزعمون أنّهم قد اختطفوها، فأيّ تناقض بعد هذا التناقض الحادّ ؟!!.

٣. الخلل في مفهوم الولاء والبراء..

وقد كتب أحدهم . وهو أكثرهم حديثاً عن العقائد وأشدّهم جهلاً . مقالاً بعنوان: (فلسفة الولاء والبراء في الإسلام) الرياض: ١٣٥٤٦، وقرر مفهوماً غريباً للولاء والبراء، يفرّغه من مضمونه الشرعي الذي أراده الله U ، بل يضادّه ويخالفه، يقول: " وهو يشي بعلاقات سلمية قوامها الصلة والإحسان والبرّ ودعم ممكنات السلام الاجتماعي الذي أتى الإسلام ليجعلها الأصل في حياة الناس قبل أن تختطفها جماعات الإسلام السياسي لتجعل بدلاً منها العنف والقتل والدمار هو الأساس في علاقة الإسلام بغير من الديانات الأخرى افتئاتاً على الله تعالى ورسوله ومكراً للسوء ولا يحيق المكر السيّء إلا بأهله ".. فهو يخلط بجهل فاضح بين عقيدة الولاء والبراء التي قوامها ولبّها وروحها: الحب والبغض وموالاة المسلم أيّاً كان، والتبرّي من الكافر ومعاداته أيّاً كان، وبين معاملة الكفّار والتفريق بين من كان منهم محارباً، ومن كان منهم مسالماً.. وبغض الكافر ومعاداته كما قال الله عن الخليل إبراهيم u: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ

أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ }[الممتحنة:٤]، فنحن نبغض الكافر ونعاديه بقلوبنا من أجل كفره، لكن ذلك لا يمنعنا من بره إذا كان قريباً مسالماً كالوالدين ونحوهما، وكذلك لا نظلمه بل نقسط إليه، ونحسن معاملته ترغيباً له في ديننا، ومن أجل إنقاذه من الكفر الذي هو فيه، بل إنّ عقيدة الولاء والبراء لا تختص بالكافر، بل تشمل حتى العاصي، فنبغضه لمعصيته، لكن نحبه من وجه آخر لما عنده من الإيمان والإسلام، فمن لم يبغض الكافر لكفره، والعاصي لمعصيته، فلديه خلل في هذه العقيدة العظيمة، وما تأخر المسلمون، ولا تسلط عليهم العدو، إلا لتخليهم عن هذه العقيدة، أو اختلال مفهومها لديهم.

ولم يقف الأمر عند هؤلاء على مجرد الاختلال في المفهوم، بل تجاوزه إلى ما هو أعظم من ذلك، ألا وهو إلغاء هذه العقيدة من أصلها(!)، يقول أحدهم في مقال له بعنوان: (الخطاب الديني وضرورة التجديد) الجزيرة: ١١٥٩٥، عن مفهوم الولاء والبراء: "هذا المفهوم كان في الماضي، وفي زمن عدم وجود (الدولة) بمعناها وشكلها الحالي، ضرورة احترازية، ودفاعية وقائية مهمة، فقد كان بمثابة آلية عالية الفعالية آنذاك لمنع ما يمكن أن نسميه بلغة اليوم (منع اختراق مجتمعاتنا من الآخر) في حقبة كان الصراع والتطاحن فيها بين الأمم والثقافات هو السمة الطاغية على العلاقات الدولية، أما اليوم فقد تغير الوضع حيث أصبح التعاون بين الأمم(!!!) وتكريس كل ما من شأنه إثراء هذا التعاون، هو الثقافة السائدة بين شعوب الدنيا، لهذا فإن التغير النوعي في العلاقات الدولية الذي نعايشه اليوم كان يجب أن يتبعه تغير مواكب في مفهومنا للولاء والبراء بالشكل الذي يحافظ على فعالية هذا المفهوم.."، وقد ذكرني قوله (ضرورة احترازية ودفاعية وقائية) بالحرب الاستباقية الوقائية التي دشّنها (الآخر) في ظل التعاون الدولي بين الأمم(!) دفاعاً عن نفسه، ولو كان ذلك مبنياً على استخبارات خاطئة أو مبالغ فيها، وهي ليست مجرّد عقيدة في القلب، أو بغض باللسان، وإنما حرب بالأسلحة المدمرة وربما المحرمة دولياً التي

لا تفرق بين المحارب والمدني، ويبدو أن مفهوم هذه العقيدة قد انتقل إلى ذلك الآخر في حين غفلة منا، فكان علينا التخلي عنه.. أما التعاون بين الأمم! فصحيح لكنه ضد الإسلام وأهله، كما في فلسطين والعراق وأفغانستان وغيرها مما يطمع فيه (الآخر)..

ويستشهد الكاتب المذكور على ما ذهب إليه من تعطيل مفهوم الولاء والبراء، بقول كبيرهم الجابري الذي يقول: " إذا تعارضت المصلحة مع النصّ، روعيت المصلحة(!) باعتبار أنّ المصلحة هي السبب في ورود النصّ، واعتبار المصلحة قد يكون تارة في اتّجاه، وتارة في اتّجاه مخالف(!)".

فتأمّلوا هذا القول العجيب الذي يفترض تعارض المصلحة مع النصّ، ثمّ من الذي يحدّد المصلحة ؟، وكيف يكون اعتبار المصلحة تارة في اتّجاه، وتارة في اتّجاه مخالف؟ فما قيمة الدين حينئذ، إذا كانت ثوابته عرضة للاعتداء والإلغاء بحجّة المصلحة المزعومة ؟.. نعم قد يتخلّى المسلم عن عقيدة الولاء والبراء ظاهراً في حالات استثنائية خاصّة جداً، لكنّها تبقى عقيدة قلبية لا يجوز له أن يتخلّى عنها: { مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }[النحل:١٠٦].

٤. الثناء على الفرق الضالّة، وخصوصاً المعتزلة . التي تتّخذ من السلفية خصماً تقليدياً لها . والدفاع عنها، بل الدعوة إليها !!...

ففي مقال بعنوان: (الخوف من النقد) الرياض: ١٣٥٠٩، كتب أحدهم يستنكر فزع خصومه السلفيين عند شتم مذهب السلف، وكيل التهم للسلفية بلا حساب ولا برهان، والذي يعدّونه من النقد!!. ويقرّر بفهم مغلوط ومنقوص للآية الكريمة: {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ }[هود:١١٨]، أنّ الاختلاف بين البشر أمر جبلّي قد فُطر عليه البشر، وليس بمذموم، ولو أتمّ الآية لتبين له خطأ ما ذهب إليه، فإنّ الله قال بعدها: {إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ }[هود:١١٩]، فجعل الله الاختلاف مقابل الرحمة. وقوله: (ولذلك خلقهم) قيل للاختلاف. وقيل للرحمة. وقيل للأمرين: فريق في الجنّة وفريق في السعير، وهو الصحيح. ولذا ختم الآية بتوعّد الكافرين من الجنّ والإنس بنار جهنّم، ولم يعذرهم

بكفرهم بحجّة أنّ الاختلاف أمر جبلّي فطريّ كما يقول هذا الكاتب الجاهل، ويدلّ على أنّ الأصل هو الاجتماع والاتفاق على التوحيد والإيمان الصحيح قوله تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً..}[البقرة:٢١٣]، وقد روي عن ابن عباس t أنّ الناس قبل نوح كانوا على التوحيد عشرة قرون، ثم حدث الاختلاف والتفرق بعد أن زين الشيطان لقوم نوح عبادة الأصنام وتعظيم الصور..فكان نوح u هو أوّل الرسل لمحو الشرك.

ثم يقرر هذا الكاتب " حق الآخر (الكافر)(!) في الاختلاف من زاوية عدم احتكار الحقيقة من جانب واحد!! أياً كان هذا الجانب... "..

ثم يقول مدافعاً عن المذهب الاعتزالي . وهذا هو مربط الفرس لديه .: " هنا أجد أنّه من المناسب القول بضرورة إعادة النظر في المناهج الجامعية في الأقسام التي تدرس العقديات والمذاهب بحيث يجعلها تؤسس لنظرة تسامحية تنطلق من إبراز أهداف ومنطلقات الفرق المخالفة عندما أرست قواعد مذهبها . خاصة الفرق الإسلامية الماضية المنظور لها على أنها مخالفة . بدلاً من تكريس وضع منهجي يُنظر لها على أنها ذات أهداف خاصة لهدم الإسلام وتقويض بنيانه بحيث تتأسس المخرجات التعليمية البشرية على التعامل مع حق وحيد ورأي فريد هو ما تلقنه إياه تلك المناهج كحق حصري لمباديء مذهبه وقواعد مرجعيته "، وبعد هذا التلميح غير المليح، ينتقل إلى التصريح فيقول: " المذهب الاعتزالي مثلاً عندما أسس للنظرة العقلية في الإشراقات(!) المبكرة من تألق الحضارة الإسلامية كان له هدف نبيل واضح وهو محاربة الهجمة الشعوبية على الإسلام آنذاك المتخذة من مذهب الشك أساساً لإتيان بنيان الإسلام من قواعده، فكان أن قام المعتزلة بالتأسيس للمذهب العقلي القاضي بتقديم العقل(!!!!) على النقل كسلاح مماثل ووحيد لردّ تلك الهجمة على الإسلام... " إلى آخر ما ذكر من التلبيس وقلب الحقائق، فأما الشك الذي يتحدث عنه فهم أهله والداعون إليه كما سبق من دندنتهم حول أنّ أحداً ما . أيّاً كان دينه ومذهبه . لا يمتلك الحقيقة المطلقة، فأي شك بعد هذا الشك ؟!، وأما تقديم العقل على النقل فهو الضلال المبين، فكيف تكون السيئة حسنة يُمدح صاحبها ؟!، إن هذا من انقلاب المفاهيم..

ثم يختم مقاله بالتعريض بالحديث الشريف . حديث الافتراق والفرقة الناجية .، وهو مخالف للعقل عندهم(!)، فيقول: " ومن ثم فإن الحاجة ماسّة لتأسيس جديد لأقسام العقيدة والمذاهب في الجامعات لتأسيس طلابها على النظرة المجرّدة(!) للمذاهب والفرق المخالفة عن طريق وضع مناهج تؤسس هي الأخرى للدراسة التاريخية المجرّدة(!) باستصحاب كامل لتأريخ نشأة تلك الفرق وأهمها الظروف السياسية التي صاحبت نشأتها وتأسيسها مذهبياً بدل أن تقدم للطالب باعتبارها فرقاً ضالة هالكة في مقابل فرقة ناجية وحيدة... "، أما التفسير السياسي للتاريخ والأحداث، واستبعاد الدين والعقيدة كمؤثّر رئيس، فذلك من أبرز سماتهم كما سيأتي، للتوصّل إلى ما يهدفون إليه من العلمنة.

وفي مقال لهذا الكاتب بعنوان: (العقل قبل ورود السمع) الرياض: ١٣٦٨٨، الذي هو أصل من أصول المعتزلة، يثني الكاتب على هذا الأصل، الذي يعلي من شأن الفلسفة والمنطق وعلم الكلام المذموم، ويصف موقف السلف من ذلك بالركام الظلامي الراكد على ثقافتنا منذ قرون... أمّا تراجع بعض كبار أساطين الفلاسفة عنها، وتسجيل اعترافاتهم في ذمّها، وأنّها لا تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، فيعدّه الكاتب في مقال له ساخر بعنوان: (التراجعات المذهبية) الرياض: ١٣٥٧٢، مجرّد دعوى لا حقيقة لها، وأنّ ما قالوه، معظمه منحول عليهم، ولا يخفى ما في قوله هذا من اتّهام للسلف بالكذب والافتراء على أولئك المتراجعين، ودفاع عن تلك الفلسفة البائسة العقيمة باعتراف أساطينها.

وفي هذا السياق يقول أحدهم في مقال له بعنوان: (تعميق التعددية الفكرية... تأسيس لتطور المجتمعات) الوطن: ٢٣٠٥، مثنياً على مذهب الاعتزال، ولامزاً مذهب السلف: " ويزخر تاريخنا القديم بمدارسَ فكرية متعددة شاركت في زمانها في حراكٍ فكري ثقافي في قضايا فلسفية متعددة كثيرة شغلت تلك المدارس بالتأليف والردود, وأفرز ذلك الحراك الفكري الثقافي مدرسةً فلسفيةً عقلية وهي فكر الاعتزال بيد أننا لم نستفد من تلك المدرسة العقلية التي كانت تُحاكي عقل الإنسان ولم نحاول أن نبرز الأدوات والوسائل التي كانت أساساً لتلك المدرسة, بل قد أُبرزت تلك المدرسة على أنها ضارة وغير نافعة وهذه إشكاليةُ فكرٍ تفردَ بمجتمعٍ فأصبح يملي

عليه ما يجوز التفكير فيه وما لا يجوز وساهم في ترسيخ منظور ومنهج واحد تدرسُ من خلاله تلك المدارس الفكرية العقلية التي تزخرُ بالثقافة, فهل سوف تتغير طريقة طرحنا للمدارس الفكرية المتعددة كي نوظفها في خدمة الحراك الفكري الثقافي لكي يمارسه أفراد مجتمعنا ويتفاعلوا معه والذي هو مطلب أساسي للإصلاح والتطوير أم إننا سوف نبني سداً يحول بين عقولنا وآليات تفعيلها كي تبقى على القديم ؟ وكيف سوف نغير طريقة طرحنا؟ ومتى؟".

أنّها دعوة صريحة إلى تبنّي مذهب الاعتزال ، ونبذ منهج السلف الذي يصفه بأنّه (فكر تفرّد بمجتمع)، فهو لا يفرّق بين الفكر والعقيدة التي لا مجال للمساومة عليها، بل إنّه يعدّ الأخذ بمذهب الاعتزال المنحرف مطلباً أساسياً للإصلاح والتطوير ..!!!!!

٥. الدعوة إلى نقد الثوابت(!) والتشكيك فيها، والتي يعبّرون عنها تارة بالمسلّمات، وتارة بالحتميات، وتارة بالمعرفة الأولى... الخ ..وهي دعوة خطيرة تكشف عن حقيقة ما يطرحونه من فكر..

يقول أحدهم . وهو كبيرهم وأشدّهم افتتاناً بالغرب . في مقال له بعنوان: (ظهور الفكر النقدي شرارة الانطلاق الحضاري) الرياض: ١٤٠٨٣: " إن إخفاق العرب والمسلمين في تحقيق الإفلات من قبضة التخلف وعجزهم عن إحراز النهوض وعدم القدرة على التفاهم وغياب تبادل الاحترام واستمرار التمركزات المتنافرة بين الأقطاب المختلفة داخل الأمة والاحتكام إلى القوة والعجز عن الاتفاق عند أي اختلاف ان هذه كلها وغيرها من المعضلات المزمنة تعود بشكل أساسي إلى حرمانهم من آليات النقد التي كانت المفتاح الذي اهتدت إليه بعض الأمم وأحسنت استخدامه فحقق لها الوئام المنتظم والتكامل المكتظ والنمو المطرد ومكنها من الازدهار المتجدد.. أجل إن النقد للأفكار والرؤى والأوضاع والأعراف والتقاليد والمواضعات والمسلّمات هو محرك الحضارة وهو صانع التقدم في كل مجالات الفكر والفعل وهو الشرارة التي فجرت طاقات الإنسان وصنعت له أمجاد الفكر والعلم ووفرت له أسباب الازدهار فالأمم التي اعتمدت هذه الآلية الرائعة حققت طموحاتها وأنجزت إثبات ذاتها ووقفت شامخة بين الشعوب في سباقات الفكر والفعل أما الأمم التي أخمدت هذا المحرك

الأكبر أو تجهله أو لا تحسن استخدامه فقد بقيت عاجزة عن مبارحة خنادق التخلف بل بقيت رافضة بأن تتجاوز هذه الخنادق لأن حرمانها من النقد والمراجعة حرمها من اكتشاف نقائصها كما حرمها من التعرف على ما في الدنيا من آفاق وبدائل فبقيت تتوهم أنها الأفضل والأرقى وظلت رهينة هذا الوهم .."

فهو قد ساوى بين الأفكار والرؤى والأوضاع والأعراف والتقاليد.. وبين المسلّمات التي هي الثوابت، ولم يستثن من ذلك شيئاً.. فكلّها يجب أن تكون خاضعة للنقد حسب رأيه، وهو يستشهد على ذلك بالحضارة اليونانية ووريثتها الحضارة الغربية حسب تعبيره، فيساوي بين دينهم وثوابتهم المحرّفة الباطلة، وثوابتنا وديننا الصحيح الذي لا يقبل النقد، بل يعدّ هذا التفريق بين الدينين وثوابتهما ضرباً لما أسماه بامتلاك الحقيقة المطلقة، بمعنى أنّك حين تعتقد أيها المسلم بأنّ دين الإسلام هو وحده الحقّ وما سواه باطل، فإنّك حينئذ تدّعي امتلاك الحقيقة المطلقة!!! هذا ما يفهم من إطلاقه حيث يقول: "ولكن لن ندرك عظمة هذا السبق المذهل الا إذا تذكرنا أن أصعب معضلة واجهت الإنسانية وسببت لها الفظائع والشرور وعرقلت مسيرتها الحضارية هي الانغلاق الثقافي الناتج عن توهم الكمال واعتقاد كل طرف من المختلفين أنه هو وحده الذي يملك الحقيقة النهائية المطلقة وأن كل الأطراف الأخرى غارقة في الأباطيل والحماقات والعمى والضلال وانحلال الأخلاق وأن كل المخالفين يستحقون الاقصاء والاستئصال لأنهم في نظره خطر على الحقيقة وعلى الوجود ولأن هذا الوهم يجري من الناس مجرى الدم ومحتجب عن الوعي خصوصاً في الثقافات المغلقة [ويقصد بها ثقافتنا] فإنه قد بقي ويبقى محصنا عن أضواء العقل وغير متأثر بفتوحات العلم ومحمياً من عمليات التحليل والفحص والمراجعة فتوهّم الانفراد بامتلاك الحقيقة يؤدي إلى الانغلاق الثقافي ومعاداة كل المغايرين وتوهّم الخطر من أي مخالف . إن ادعاءات كل طرف سواء بين الأمم المختلفة أو بين المذاهب والطوائف والاتجاهات داخل الأمة الواحدة بأنه وحده يملك الحقيقة المطلقة وأن الآخر ليس لديه سوى الضلال والعمى كانت وما زالت من أقوى أسباب البؤس الإنساني والفرقة والاقتتال والعداوات وحجب الحقائق وتزييف الوقائع وإفساد الأخلاق وملء النفوس بالأحقاد وتلويث العقول وإعاقة المعرفة وعرقلة الحضارة ومنع

الانسجام الإنساني لذلك كان تأسيس الفكر النقدي وتقويض أوهام الانفراد بامتلاك الحقيقة النهائية المطلقة من أعظم الاختراقات الإنسانية.."

وهذا الكلام تضمن حقّاً وباطلاً، وخلطاً عجيباً يدلّ على غبش في التصور، أو ضلال في الفكر، وسيأتي قريباً إن شاء الله الحديث عما يسمّى بامتلاك الحقيقة المطلقة..

ويقول آخر . وهو أشدّهم تطرّفاً وبذاءة . في مقال له بعنوان: (الإرادة الإنسانية.. المستقبل يصنعه الإنسان) الرياض: ١٤٠٧٣، هاجم فيه ما أسماه بالحتميات التي هي الثوابت، يقول: " لا أريد أن أتحيز إلى تهميش الحتميات؛ بقدر ما أريد التأكيد على قدرة الإرادة الإنسانية على تجاوزها، والتحرر منها؛ مع الإقرار بنسبية هذا التحرر. بل إن حضورها الطاغي أحيانا هو ما يبعث روح التحدي إزاءها، ويجعل من التحرر منها تحقيقا لتحرر الإرادة الإنسانية مما سوى الإنساني ".

فهو يرى في مقاله الطويل الذي يكتنفه الغموض أنّ الحتميات التي هي الثوابت ويعني بها ثوابتنا نحن لكنّه لم يجرؤ على تسمية الأشياء بأسمائها . هي العائق عن تحقيق التقدّم والإرادة الإنسانية، في الوقت الذي يثني فيه على الإنسان الغربي الذي يمثل في نظره مقدمة الوعي الإنساني، ومثال الإرادة الحرة الواعية بذاتها. لأنّه الإنسان الأقل خضوعا للحتميات، والأشد تحررا من أسرها !!!!!. إنّها قمّة الانهزامية والتبعية والانحراف الفكري، أو بتعبير بعض الفضلاء: (الأدمغة المفخخة).

وفي مقال بعنوان: (ثقافة معاقة)(!) الوطن: ٢٢٥٢ كتبت إحداهنّ داعية إلى الشك في الثوابت، والتشكيك فيها، تقول بكلّ جرأة: " يقال إن الفرد قد حقق هويته عندما تكون سلوكياته العملية في جميع جوانب حياته نتاجاً لمفاهيم وقناعات اختبرت صحتها بعقلية حرة مستقلة ولم تكن نتاج وراثة أو برمجة بطريقة الترديد الببغائي لما يقوله الوالدان والمدرسة ووسائل الإعلام كالمسجد والتلفزيون والكتيبات، وليصل الإنسان لهذا المستوى فلابد أن يمر بمرحلتين الأولى وفيها يتم وضع كل ما تم تلقينه إياه في فترة طفولة الفكر وهي مرحلة الطفولة وحتى نهاية المراهقة موضع الشك والاختبار دون النظر إلى ما يسميه مجتمعه أعرافاً أو ثوابت فيبدأ المراهق بالتساؤل حول مصداقية التعليمات التي جاءت من قبل الكبار وتشكيكه فيها بالبحث والقراءة

والاستطلاع بهدف الغربلة والتصحيح فيدخل سن الشباب وقد كوّن فكره المستقل الذي يعكس ما يدل عليه ثم يظهر الالتزام بالمعرفة الجديدة وتطبيقها عملياً كمؤشر ملموس على تحقق الهوية ".

فهي تدعو الشاب الغض بعد سنّ المراهقة أن يختبر قناعاته . حتى الثوابت(!) بعقلية حرة مستقلة كما تقول(!!!) وهي لا تعلّم أنّ ثوابتنا لا سيما العقدية لا تخضع للعقل، ولا مدخل للعقل فيها، فهي تعتمد على الإيمان والتسليم المطلق { الذين يؤمنون بالغيب }[البقرة: ٢]، ولو كانت الكاتبة تتحدث عن مجتمع غير مجتمعنا، ثوابته من وضع البشر لكان لكلامها وجاهة، أمّا وهي تتحدّث عن مجتمعنا السلفي المسلم بمناهجه النقية التي تولّى إعدادها علماء أجلاء، فلا وجه لهذه النزعة التشكيكية المتلقّاة من الغرب الكافر الذي لا ثوابت له سوى ما وضعه البشر..

ثم كيف لشاب غضّ في مقتبل العمر أن يختبر تلك القناعات والثوابت التي وضعها له علماؤه ومشايخه، وهي مما اتفق عليه سلف الأمة منذ عهد الصحابة إلى يومنا هذا ؟!!

ثم تقول: " وقد يظن أي معاق الهوية أن الأخلاق والقيم والمبادئ غير قابلة للتطور ويجب أن تبقى ثابتة وأننا نعني بهذا المقال التأثير على شبابنا ودفعه للتخلي عن قيمنا وأخلاقنا العظيمة ونقول له بل هي قابلة للتطور والتحسن ويجب أن تعامل بمرونة أكثر وسأعطي مثالاً على نمو المبادئ وتطورها ففي ثقافتنا الإسلامية الجميلة كنا من رواد الدعوة لحقوق العبيد ولتضييق موارد الاستعباد ثم تطور هذا المفهوم الأخلاقي على يد الثقافة الغربية لمستوى أعلى فمنع استعباد الإنسان والاتجار به أساسا ومن هذا المنطلق يمكن حتى أن نطور مفاهيمنا حول حقوق المرأة والطفل ".

وهو كلام خطير يدلّ على جهل فاضح، وانهزامية بائسة، فديننا ولله الحمد قد أكمله الله وأتمّه { اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً }[المائدة: ٣] فلسنا بحاجة لنطور ثوابتنا وقيمنا عن طريق أمم لا قيم لها ولا أخلاق أصلاً إلا الأخلاق التجارية إن صحّ التعبير، والمثال الذي ضربته دليل صارخ على جهلها فإنّ إلغاء الرقّ الذي أقرّه الإسلام ليس تطويراً وإنّما هو مضادة لحكم الله

وشرعه، فالرق باق ما توفّرت أسبابه، وقولها: (ثم تطور هذا المفهوم الأخلاقي على يد الثقافة الغربية لمستوى أعلى فمنع استعباد الإنسان والاتجار به أساساً) كلام خطير حيث جعلت هذا النقض لحكم الله مستوى أعلى مما شرعه الله وأقرّه.. فجعلت حكم الطاغوت أعلى من حكم الله، ولا أظنّها لجهلها تدرك ذلك، فإلى الله المشتكى من جهل هؤلاء وجرأتهم وتعالمهم..

ثم أي استعباد أعظم مما تفعله الدول الكبرى اليوم من استعباد الدول والشعوب وإذلالها والضغط عليها لتنفيذ أجنداتها، والسير في ركابها، والاستيلاء على ثرواتها ومقدّراتها ؟!! ومن يخالف ذلك فإنّ مصيره إلى الإقصاء والإبعاد والاتهام بالإرهاب، وتسليط المرتزقة عليه وغير ذلك من الأساليب الماكرة.

وتختم مقالها بما لا يقل خطورة عما سبق، فتقول: " وأخيرا تحت شعار حماية ثقافتنا خوفا من المتربصين وهذا الخوف الذي ينادي إلى التقهقر ومحاولة إحياء عصر ما قبل ألف سنة بحذافيره وهذا الفكر خلق مجتمعات بأكملها معاقة الهوية وجعل عقولنا راكدة متوقفة عن العطاء نعيش عالة ولا نساهم في أي إضافة للمجتمعات لا تقنيا ولا ثقافيا بالرغم من أننا نشكل خمس سكان العالم ".

فتأملوا قولها: (إحياء عصر ما قبل ألف سنة) وهو عصر النبيّ . صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه والتابعين، أي القرون الأولى المفضّلة التي قال عنها النبيّ . صلّى الله عليه وسلّم .: ((خير القرون قرني، ثمّ الذين يلونهم، ثمّ الذين يلونهم..)) وجعلت إحياء مثل هذا العصر المجيد سبباً من أسباب خلق مجتمعات بأكملها معاقة الهوية... ألا يعدّ هذا الكلام من الكفر الصريح، أم أنّ هذه الكاتبة تردّد ببغائية ما لا تدرك معناه ؟!

وفي ذات السياق يقول أحدهم في مقال له بعنوان: (التفكير في المعرفة الأولى) الوطن: ٢٢٥٩: "يعتبر كثير من الباحثين في الفكر العلمي، باشلار من أبرزهم، أن المعرفة الناتجة عن التجربة الأولى، أي الاتصال الأول بالموضوع، تعتبر عائقا معرفيا أمام الحصول على معرفة علمية موضوعية. وبالتالي فإن المعرفة العلمية الحقيقية تأتي لتواجه وتتجاوز هذه المعرفة الأولى ".

إلى أن يقول: " هذا المفهوم يمكن توسعته أيضا إلى معارفنا الأولى عن الكون والحياة والأفكار والثقافات وعن أنفسنا ومحيطنا الصغير والكبير. خصوصا أن أغلب معارفنا في هذا الإطار اكتسبناها ونحن صغار في فترات التعلم الأولى. تعلمنا في البيت وفي المدرسة ومن خلال التفاعل الاجتماعي أشياء كثيرة. تعتبر كلها معارف أولى تبقى متأثرة بثقتنا بمن علمنا إياها وبالهالة التي لهم عندنا...."

إلى أن يقول: " يمكن سحب هذا الفهم على المعرفة الأولى التي اكتسبناها في المدرسة من المعلم وتلك التي اكتسبناها من إمام المسجد وتستمر حتى إلى المعرفة الأولى التي تحصلنا عليها من الجامعة أو أي مصدر معرفي آخر ". وهذا هو مربط الفرس عندهم: المعلم، المسجد....

وهكذا تستمر الدعوة إلى التشكيك في ثوابتنا ومسلّماتنا الشرعية بحجّة النقد والتمحيص، وهم يقيسون مجتمعنا المسلم على المجتمعات العلمانية الكافرة التي لا ثوابت لها إلا ما صنعه البشر كما سبق ضاربين بثوابتنا الشرعية عرض الحائط.

ويبدو أنّهم بدأوا في تطبيق ما يدعون إليه، فهذا أحدهم في مقال له بعنوان (الأمن الفكري والركض في الطريق الآخر!!) الوطن: ٢٣٢٢، يطعن في مذهب أهل السنّة والجماعة، ويقرر الفكر الليبرالي المنحرف فهو يرى أنّ الأمن الفكري هو : " أن يفكر جملة الناس وأفرادهم تفكيرا لا يؤدي إلى إيقاع الخطر بالمجتمع ".

ثم يقرر " إن هناك رؤيتين مختلفتين في تحقيق هذا الهدف. الأولى تقول إن الفكر الآمن هو الفكر "السلمي". بمعنى الفكر الذي يطرح آراءه وأفكاره بطريقة سلمية دون أن يلزم أحد بها أو يفرضها بالقوّة " وهذه هي الرؤية الليبرالية التي يريد أن يقررها .

ويواصل: " الرؤية الثانية ترى أن الفكر الآمن هو الفكر الذي يسير في الطريق المحددة سلفاً. طريقة يرى أصحاب هذه الرؤية أنها هي السليمة قطعا وبالتالي فإن تحقيق الأمن للفكر يكون في السير على هذه الطريقة وكل ما يخرج عنها يعتبر فكرا خطرا ويهدد الأمن الفكري ". وهذه هي الرؤية السلفية الصحيحة، وهي التي يريد أن ينقضها، ولذا يقول: " شتّان بين الرؤيتين فكل منهما تنطلق من أساس فكري ورؤية للإنسان والحياة تختلف عن الأخرى. الرؤية الأولى التي ترى الأمان الفكري يكمن وينبع من التفكير السلمي بدون إضافة أي قيد آخر على هذا التفكير تنطلق من مبدأ

حرية التفكير غير المحدودة إلا بكونها سلمية. حرية التفكير التي هي حق أولي للإنسان وشكل من أشكال تحقيق وجوده الحقيقي في الحياة. هذه الحرية هي منطلق وطريق كل الإنجاز البشري وأفكار التقدم والتحرر على مدار التاريخ. كل الفلاسفة والمصلحين على مدى التاريخ انطلقوا من هذا الحق حين كانوا يواجهون بمعارضة شديدة من مجتمعاتهم في البدايات. صحيح أن الكثير منهم انقلب على هذا المبدأ بعد أن استقر لأفكارهم الأمر إلى أن المبدأ الأول كما شملهم يفترض أن يشمل من بعدهم بالتأكيد . الرؤية الثانية تنطلق من أن فكرة أن الحق معروف سلفاً، في جملة آراء جماعة ما " يقصد أهل السنة والجماعة، ثم يواصل: "وبالتالي فإنه لا يسع أحد أن يخرج عن هذا الفكر وإلا اعتبر مباشرة خارجاً عن الحق".

ثم يقول ساخراً: " لا تهتم هذه الرؤية بحرية الفكر، ولا تعتد بها، بل تحاربها بقدر ما تستطيع، وتعتبرها سبباً من أسباب الدمار والبلاء. ولذا فعلى الناس استمرار الاتباع للحق، الذي هو حق محدد عندهم في جملة من الأقوال والآراء وفي ما وافقها فقط .."

وحرية الفكر عند هؤلاء تعني حرية الكفر، والسخرية بالدين وأهله، والتشكيك في الثوابت كما سبق..!! أما الحقّ المحدّد في جملة من الأقوال والآراء . حسب وصفه فواضح أنّه يريد به مذهب السلف، وهل هناك حقّ غيره عندنا ؟.

وفي مقال بعنوان (لا إجحاف) الوطن: ٢٣٢٢، كتبت إحدى الكاتبات من أصحاب هذا الفكر . وهي التي سبق قريباً أنها طالبت بالشكّ في الثوابت . تنتقد وبصراحة وقحة بعض الثوابت المتعلّقة بالمرأة، والتي وردت فيها نصوص صحيحة وصريحة، وقد خلطتها مع بعض القضايا الأخرى التي هي محل اجتهاد، ومن هذه الثوابت التي انتقدتها وأنكرتها . وسأذكرها بالنصّ الذي ذكرته .:

" ممنوعة من السفر بدون إذن، ممنوعة من استئجار غرفة بفندق بدون إذن، ممنوعة من إلحاق أبنائها في المدرسة التي تحب بدون إذن، ممنوعة من استخراج جواز سفر بدون إذن، ممنوعة من الخروج من المنزل بدون إذن، ممنوعة من الخروج من الدوام (للمعلمات والطالبات) دون إذن، ممنوعة من الالتحاق بالعمل بدون إذن، ممنوعة من استئجار منزل وحدها بدون إذن، ممنوعة من الاستفادة من البعثات الخارجية

بدون إذن، ممنوعة من تزويج نفسها بدون إذن، ممنوعة من التوقف عن الإنجاب بعملية بدون إذن، ممنوعة من الخروج من المستشفى إذا نومت فيه بدون ولي لاستلامها، ممنوعة من دخول الإدارات الحكومية ومقابلة المسؤولين بدون ولي، ممنوعة من الامتناع عن فراش الزوجية بدون عذر، ممنوعة من طلب الطلاق بدون عذر ودفع غرامة، ممنوعة من اللحاق بأطفالها إذا أخذهم طليقها خارج البلاد دون إذن وليها، ممنوعة من تزويج بناتها دون إذن، ممنوعة من الوقوف في محل بيع أو مقهى هي تملكه، ممنوعة من استلام مناصب تنفيذية عليا في القطاع الخاص والحكومي، ممنوعة من لقاء وفد لعقد صفقة عمل، محرم عليها الركوب مع سائق وحدها، محرم عليها العمل في المكان المختلط، محرم عليها إغضاب زوجها، وأخيراً صوتها عورة لا يجب أن يظهر للملأ لتبقى قضيتها طي الكتمان.. ".

ويلاحظ أنّ أغلب ما ذكرته يدور حول أخذ الإذن من الزوج أو الولي في الخروج والسفر ونحوه، والاختلاط والخلوة المحرّمة، وقد وردت في ذلك نصوص شرعية صحيحة، فهذه الكاتبة . أصلحها الله . تريد من نسائنا أن يخرجن من بيوتهن، بل يسافرن حيث شئن ويتزوجن من شئن دون إذن من أوليائهنّ، ومعلوم شرعاً وعقلاً وذوقاً وأدباً في أي تجمّع، أو مؤسسة، أو إدارة حكومة أو أهلية، أنّ الموظّف لا يخرج من عمله إلا بإذن، وإلا لأصبح الأمر فوضى وتسيب، فكيف بمؤسسة الأسرة التي هي المحضن الأوّل للتربية والتعليم.. فهل تريد هذه الكاتبة من نسائنا أن يكن فوضويات متسيبات بلا رقيب ولا حسيب ؟! وإذا كانت هي ترى نفسها مثقفة وواعية، فهل كل النساء والفتيات كذلك؟!.

أما الاختلاط بين الجنسين . وأعني به الاختلاط المقصود . فهو أم البلايا ومقدمة الرزايا، فهو المقدمة للخلوة المحرمة المنتهية بالمآسي العظيمة، ولدي قصص مفجعة لضحايا الاختلاط من الجنسين، ولولا خشية الإطالة والخروج عن المقصود من هذه الدراسة، لذكرت شيئاً من ذلك، والعاقل اللبيب ينظر ويتأمل.

والعجيب أنّ بعض نساء الغرب العاقلات أكثر وعياً وإنصافاً للمرأة المسلمة، من هذه الكاتبة المنتسبة إلى الإسلام.. ففي مقابلة أجرتها مجلة الوطن العربي (العدد ٣١٤) مع امرأة فرنسية متخصصة في الفن الإسلامي قالت: " وجدتُ المرأة العربية (

المسلمة) محترمة ومقدرة داخل بيتها أكثر من الأوروبية ، وأعتقد أن الزوجة والأم العربيتين تعيشان سعادة تفوق سعادتنا.."

ثم توجه نصحها للمرأة المسلمة قائلة: " لا تأخذي من العائلة الأوروبية مثالاً لك، لأنّ عائلاتنا هي أنموذج رديء لا يصلح مثالاً يحتذى ".

وفي مقابلة أجرتها مجلة صدى الأسبوع مع فتاة إنجليزية أعلنت إسلامها، كان من الأمور التي دفعتها أن تترك النصرانية وتدخل الإسلام: الأسرة المسلمة ومكانة المرأة، قالت: " المرأة المسلمة دائماً في حماية ورعاية، تجد من يعيلها أينما حلت، وهي جزء هام من المجتمع الإسلامي، جو عائلي تفتقده الكثير من الأسر الغربية.." .

والخلاصة أنّ ما تدعو إليه هذه الكاتبة حث نسائنا وبناتنا على التمرّد على أوليائهنّ، وأن يخرجن بلا حسيب ولا رقيب، وينزعن جلباب الحياء بلبس اللباس غير الساتر، ويرفعن أصواتهن في المجامع، ويختلطن بالرجال ليكن فريسة للذئاب البشرية، ولو غضب أولياؤهن، حيث إنّ الكاتبة أباحت لهن ذلك.. هذا ما يُفهم من مقالها، فما الذي بقي من الثوابت في قضايا المرأة ؟ وهل سيقف هؤلاء في نقدهم عند مثل هذه الثوابت الجزئية، أم سيتعدّى الأمر إلى الثوابت الأخرى ؟

السمة الثالثة:

الشكّ في دينهم، وكثرة الحديث عمّا يسمونه بـ (امتلاك الحقيقة المطلقة) وأنّ أحداً من الناس . كائناً من كان . لا يمتلك هذه الحقيقة، وهم لا يفرقون عن عمد بين أمور الاعتقاد (الثوابت)، وبين غيرها من الأمور الخاضعة للنظر والاجتهاد، بل ظاهر كلامهم ينصرف إلى هذه الثوابت للتوصّل إلى مرادهم، وهو التشكيك في مذهب أهل السنّة والجماعة، أو ما يطلقون عليه: (السلفية التقليدية)، فلا أحد عندهم يمتلك الحقيقة المطلقة حتى في أصول الدين وأمور الاعتقاد التي أجمع عليها سلف الأمّة منذ فجر الإسلام، وإلى وقتنا الحاضر، فالمسلم الموحد، واليهودي، والنصراني، والمبتدع، كلّهم سواء من ناحية الحقيقة، لا حقّ لأحد منهم . حسب زعم هؤلاء . في امتلاكها(!) وهذا هو حالهم على الحقيقة، فهم حائرون تائهون مرتابون، أمّا نحن . ولله الحمد والمنّة . فليس لدينا شك في ديننا وعقيدتنا، فنحن مطمئنون

موقنون. إمامنا في ذلك رسولنا الكريم الذي قال الله له: { فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ }.

وفيما يلي بعض أقوالهم في هذه القضية التي أقلقتهم، وأقضّت مضاجعهم، وحالت بينهم وبين تحقيق مشروعهم التغريبي:

تقول إحدى الكاتبات في مقال لها بعنوان (النزعة الإنسانية) الجزيرة: ١١٩٦٦ ' تتميز التوجهات الفكرية المحافظة والمغلقة على نفسها، بالجمود والتشدد وعدم الرغبة في أيّ نوع من أنواع الاتصال مع المغاير أو المختلف، يرافق هذا شعور متأصل بالرعب والتهديد من العالم الخارجي، على اعتبار أنّ هذا العالم هو غابة من الشرّ والفساد والعهر.. حتى تصبح حالة من التيبس داخل طهرانية وأوهام بامتلاك الحقيقة المطلقة دون العالمين.."، ولا أدري عن أي مجتمع محافظ تتحدث . وهي بالتأكيد تتحدث مجتمعنا السلفي المسلم المحافظ، لكنها لا تجرؤ على التصريح .، فهل يوجد اليوم مجتمع ليس لديه الرغبة في أيّ نوع من أنواع الاتصال مع المغاير والمختلف، يبدو أنّ الكاتبة تتحدث عن بعض مجتمعات مجاهل أفريقيا، أو الواق واق.. أمّا أوهام امتلاك الحقيقة المطلقة دون العالمين فهو الشاهد من هذا النقل التغريبي الواضح.

ويقول آخر في مقال له بعنوان: (النظام المعرفي والهوية الثقافية) الرياض: ١٣٥٥١: "..العنف ومن ثم التطرف ينتج غالباً من اعتقاد المجتمع عموماً (وهو ما يربى أفراده عليه بالطبع) بأنّه مالك خطام الحقيقة المطلقة في نظرته للناس والكون والحياة، ومن ثم فلا يجد سبيلاً لأداء مهمته في الحياة سوى إجبار الناس المخالفين على عدم إهلاك أنفسهم، وردهم لحياض الحقيقة المطلقة "..

وهكذا ينبغي للناس . كما يريد الكاتب . ألا تكون لديهم عقيدة ثابتة راسخة يقينية، يربيهم عليها علماؤهم، ليظلوا في ريبهم يترددون.

ويوضّح هذا الكاتب ما أجمله في هذا المقال في مقال آخر له بعنوان: (الخوف من النقد) الرياض: ١٣٥٠٩، فيقول: " يعتضد ذلك السلوك المبني على تضعضع الحجّة [ويقصد به الرعب عند الطعن في الأصول ونقدها] بانعدام التربية . كجزء

من الحالة الثقافية المعاشة . على مراعاة حقّ الآخر في الاختلاف من زاوية عدم احتكار الحقيقة من جانب واحد، أيّاً كان هذا الجانب، سواء أكان فرداً أو جماعة أو هيئة أو مذهباً أو خلافه.. "، فلا فرق . على رأي الكاتب . بين مذهب أهل السنة والجماعة، وغيره من المذاهب الأخرى المنحرفة، وكلّ ذلك توطئة وتميداً للتبشير بفكرهم الليبرالي الاعتزالي التغريبي.

ويقول آخر . وكان تكفيرياً فصار مرجئاً . في مقال له بعنوان: (أيضاً في الطائفية) الرياض: ١٣٥٠٣، وهو يساوي بين أهل السنة وبين الرافضة: "وكانت تنشأ في الإسلام [أي الفرقة والاختلاف] جرّاء صراعات مريرة بين الطوائف والفرق المتصارعة على النصّ الديني، يغذّيها الوهم الزائف بامتلاك الحقيقة.."، وهكذا أصبح التمسك بمذهب أهل السنة والجماعة وهم زائف بامتلاك الحقيقة!!!.

وفي هذا السياق يقول أشدّهم تطرّفاً وبذاءة في مقال له بعنوان: (التفكير.. وإشكالية الوصاية) الرياض: ١٣٠٦٥: " وإذا عرفنا أنّ (التفرّد) في الفكر وفي الممارسة المادية، هو المتعين السلوكي لمعنى الحريّة، وأنّ الحرية هي جوهر المعنى الإنساني، وأنّ كلّ إنسان يولد . على الفطرة . حرّاً؛ أدركنا حجم الجناية التي ترتكبها الثقافة التقليدية البائسة في سعيها الحثيث لقولبة الأفراد وقسرهم على رؤى متشابهة إلى حد التطابق بإلزامهم بأقوال ختمت . زوراً . بختم المطلق الإيماني والثابت اليقيني، كي يتنازلوا . طائعين . عن (فرديتهم/ إنسانيتهم/ وجودهم) في سبيل أوهام التقليدية الميتة، وأشباحها الآتية من عصور الظلام والانحطاط ".. والثقافة التقليدية البائسة وأوهامها الميتة وأشباحها الآتية من عصور الظلام والانحطاط يريد بها السلفية التي يسمها بالتقليدية كما صرّح بذلك في المقال نفسه، بل إنّه ضرب مثلاً على ذلك بحادثة قتل الجعد بن درهم الذي أعلن كفره وإلحاده وتكذيبه للقرآن فقتله الوالي آنذاك خالد القسري حداً لردته، فينبري هذا الكاتب مدافعاً عنه، فيقول" ولعلّه ليس من قبيل المصادفة أن يتغنى التقليدي في هذا الزمن الراهن بكل ما شهده ذلك الصراع التاريخي من قمع لمظاهر الاختلاف والمغايرة(!)، ويترحم على القاتل ويلعن المقتول، ويتمنى أمثالها قرابين ترضي مرضه السادي، ولا يزال التقليدي [يعني السني السلفي] يطرب كلما سمع أو تذكر قصّة الطاغية الذي ضحى يوم عيد

الأضحى بـ (إنسان) بدل أضحيته في أوائل القرن الثاني الهجري ".. وهكذا يتحوّل من يقيم حدود الله إلى طاغية، ويتحوّل الطاغية المرتدّ المكذب للقرآن وللرسول r إلى (إنسان) مسكين يستحق الشفقة، ويصبح إقامة الحد الشرعي جريمة، وقمع لمظاهر الاختلاف والمغايرة !!!!!! إنّ هذا لعمر الله قلب للحقائق، بل هي ردة يجب أن يستتاب منها هذا الكاتب.

وليته اكتفى بذلك، بل يواصل بذاءته ساخراً من الإمام الرباني ابن القيم رحمه الله وسائر علمائنا السلفيين بعده، وتلامذتهم، واصفاً إياهم جميعاً بالسفهاء(!!) فيقولً: " وأصبحت هذه الجريمة منقبة للقاتل يمتدح بها عبر القرون بحيث لا يخجل أحدهم وكان على علم . أن يمتدحه في نونيته التي قالها بعد الجريمة بستة قرون فيقول: (لله درك من أخي قربان)، ويردده من خلفه السفهاء(!) وأشباه السفهاء(!) على مرور الأيام ".. فهل بعد هذا التطرّف من تطرّف، وهل بعد هذا الإرهاب الفكري من إرهاب ؟!!.

والعجيب أنّ أسياده الغربيين وعملاءهم من الباطنية فعلوا مثل ما فعل القسري حين أعدموا صدّام حسين شنقاً في يوم عيد الأضحى . مع الاختلاف الشاسع في أسباب الإعدام ودوافعه . ومع أنّ الغرب كان هو الداعم الرئيس لمعظم جرائم صدّام، والمبارك لها!! إلا أنّ هذا الكاتب البائس لم يساو بين الجلاّدَين في الحالتين، وكذلك لم يساو بين الضحيتين في حكمه البائس أيضاً، بل راح يكيل الشتائم لصدّام ويجرّده حتى من الخصال التي اتفق الناس عليها حتى جلادوه، أمّا الجلاد والقاتل الحقيقي فقد عمي عنه هذا الكاتب، ولم يشر إليه ولا مجرّد إشارة، مع الفارق الكبير . كما أسلفت . بين الحادثتين.. !

السمة الرابعة:

العزف على وتر الإنسانية

وذلك في مقابل الأخوّة الإيمانية، وأخوّة العقيدة، وهذا بناء على ما قرّروه سابقاً من أنّ أحداً لا يمتلك الحقيقة المطلقة ! وقد كتب أحدهم مقالاً بعنوان: (الإنسانية والطائفية: صراع الأضداد) الرياض: ١٣٧٥٤، يؤصّل فيه هذه النزعة الإنسانية شرعاً(!!) في جرأة متناهية حسب فهمه للنصوص ومقاصدها(!!) . وبئسما ما فهم .،

فيذكر إن الإسلام "جاء أوّلاً لتفكيك العصبية القبلية التي كانت سائدة عند العرب في الجاهلية، وعندما خلخل الأساس المعرفي القيمي التي تقوم عليه العصبية الجاهلية؛ قام بتجذير أساس قيمي جديد قوامه { أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } وهي نقلة نوعية متطورة . كما يقول . على طريق أنسنة(!) العلاقات في المجتمع العربي على أنقاض العصبية القبلية وما شاكلها من مقومات الطائفية(!)، ولأنّ القرآن كنص مؤسس لاجتماع جديد لا يستطيع وفقاً لقوانين الاجتماع البشري من جهة، ووفقاً لحركته ضمن جدلية التأثر بالواقع والتأثير فيه أن ينقل مجتمعاً غارقاً في قبليته كالمجتمع العربي القديم من أقصى قيمة سلبية . كما هي العصبية القبلية . إلى أقصى قيمة إيجابية . كما هي الإنسانية المطلقة فقد بدأ باستبدال الأخوة التي تقوم على العصبية القبلية بالأخوّة التي تقوم على الرابطة العقدية من جنس { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ }، ومن جنس: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ } ولكنها ليست تجسيداً نهائياً لأنموذج العلاقة التي يجب أن تحتذيها المجتمعات، بل إنّها لا تعدو أن تكون خطوة على طريق الأنسنة الشاملة ليس إلا، يؤيّد ذلك قوله تعالى { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } وأيضاً {يا أيها الناس إنا خلقناكم من نفس واحدة }(١) " انتهى كلامه بنصّه، وهو كلام في غاية الخطورة والجهل والجرأة على النصوص الشرعية، حيث جعل النصّ المكيّ المتقدّم ناسخاً للنصّ المدني المتأخّر، وهذا لا يصحّ شرعاً ولا عقلاً، بل هو دليل على غاية الجهل والعبث بالنصوص الشرعية، لتقرير النزعة الإنسانية في مقابل الأخوة الإيمانية والرابطة العقدية التي يصنفها هذا الجاهل بأنّها من ضروب الطائفية(!!!).

وفي هذا السياق يقول أحدهم . وهو أشدّهم تطرّفاً وحقداً على السلفية . موضحاً ولكن بعبارات تمويهية في مقال له بعنوان: (ما بعد الكائن النمطي) الرياض: ١٣٤٩٩: " فقدان المشروعية الإنسانية يتم عندما يتقدّم سؤال الهويّة . أيّة هويّة . على سؤال الإنسان، أي على حساب الإنسان.. عندما يبدأ التنميط بإيديولوجيا الهوية ينتهي الإنسان الفرد المحقق للمعنى الإنساني، ومن ثم ينتهي الإنسان "، فهو يرى أنّ إثبات الهوية، . ويؤكد ذلك بقوله: (أية هوية) حتى تشمل الهوية الإسلامية والسلفية على وجه الخصوص كما نص على ذلك في بقية مقاله . يكون على حساب الإنسان!!

وهذه . عنده . بداية ما يسميه بالتنميط بإيديولوجيا الهوية، أي أن يكون للمسلم هوية وعقيدة تميّزه عن غيره، فذلك عنده يعني نهاية الإنسان..

ويؤكّد ذلك بقوله: " المجتمعات المحافظة . والمنتجة للأصولية بالضرورة . مجتمعات نمطية يشكل التنميط جوهر حراكها المعلن وغير المعلن، من حيث كونها ترتكز على وحدة القيم الصادرة عن وحدة الرؤية والمرجعية.. ".. فمن هي يا ترى هذه المجتمعات المحافظة والمنتجة للأصولية بالضرورة؟! وماذا يقصد بالأصولية؟ لا شك أنّه يقصد مجتمعنا السعودي المحافظ، بعقيدته السلفية الأصيلة، ومرجعيته المعتبرة، وقد أوضح ذلك فيما بعد من مقاله هذا بمن وصفهم بـ " رموز التنميط الذين كانت تدور عليهم حراك الأيديولوجيا المحلية " وزعم أن هذه الرموز أصبحت . بعد الانفتاح الإعلامي الهائل . فضيحة إعلامية بعد أن وضعت على المحكّ في مواجهة رموز المعرفة الحداثية التي واجهها . وانتصر عليها في الماضي . بالأدلجة وبتجهيل الجماهير لا بالحوار المعرفي الجاد.. وهكذا تصبح رموز الحداثة المارقة رموزاً معرفية(!!)، أمّا الرموز الإسلامية بمرجعيتها الشرعية المعتبرة فهي تنميطية مؤدلِجة مجهلّة للجماهير !!!

وفي مقال آخر له بعنوان: (تأملات في الغضب الإسلامي) الرياض: ١٣٧٤٤، وذلك في أعقاب استهزاء الدنمارك بالرسول الكريم يقول: " يخيّل إليك . أحياناً . أنّ بعض أطياف الإسلامويّة(!) مبتهجة بالحدث لما تراه من تقاطع كثير من الأصوات الغاضبة مع شعاراتها، وإذا كنا لا بد أن نغضب . مهما استخدم غضبنا لغير ما نأمل ونريد؛ فإننا لا بد أن نكون حذرين غاية الحذر في لغة الإدانة التي نختارها، كيلا نسهم في الحشد والتجييش لفصائل ليست من خياراتنا الحضارية(!)، بل تقف . من خلال مجمل مضامينها . على الضد من المنحى الإنساني الذي تجتمع عليه قوى التقدّم والتحرّر الإنساني(!) ".. فهو لم ينس خصومه الذي ينعتهم استهزاء بالإسلامويين حتى في هذه النازلة الكارثية التي لم يسبق أن اجتمع المسلمون اليوم جميعا مثل اجتماعهم عليها ، كما لا ينسى أن يبشّر بمشروعهم التغريبي ذي المنحى الإنساني(!) الذي تجتمع عليه قوى التقدّم والتحرر الإنساني، في مقابل قوى التقليد والظلام والإرهاب والتأسلم والتخلف والتوحش والانغلاق والتطرف، وهي

الأوصاف الذي أسبغها كما سبق على السلفية وكل ما تقاطع معها من الحركات الإسلامية ولو من بعيد. أمّا قوى التقدّم والتحرّر الإنساني عنده فهي القوى الحاملة للواء الحداثة . لا بوصفها منهجاً أدبياً فقط . كما يصفها في مقال له بعنوان: (المرأة والحداثة) الرياض: ١٣٤٥٧: فيقول: " نزل خطاب الحداثة إلى الواقع كخطاب نهضة واعدة، نهضة تتمركز حول الإنسان(!)، وتعنى بكل ما تقاطع مع البعد الإنساني، من مساواة(!) وتحرير، وديمقراطية.. الخ، وهذا الإنساني في خطاب الحداثة يعني . بالضرورة . أنه خطاب مهموم بالمسألة النسوية بوصفها إشكالاً يلازم المجتمعات التقليدية التي تسعى الحداثة لتقويضها(!!!) "، فهو يصرّح بأنّ الحداثة تسعى إلى تقويض المجتمعات التي يصفها بالتقليدية، ويريد بذلك . كما تدل عليه سائر مقالاته . المجتمعات المسلمة المحافظة، وخاصّة السلفية منها كمجتمعنا، لكن هؤلاء الكتّاب على عادتهم لا يجرؤن على التصريح وتسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية.

وفي مقال له بعنوان: (إشكالية العنف الفلسطيني الإسرائيلي) الرياض: ١٣٤٠١، يكثر من العزف على هذا الوتر . وتر الإنسانية . فهو يقرّر أوّلاً أنّ الصراع بين الطرفين ليس صراعاً عقدياً، ويَسِمُ من يعتقد ذلك بأنّه متطرّف: يقول: " المتطرّفون من هنا (العرب والمسلمون) ، ومن هناك (الإسرائيليون) يفترضون الصراع الدائر الآن صراعاً عقائدياً، لا مجرّد وقائع سياسية تقوم على دعاوى عقائدية ".. ولم يحدثنا الكاتب عن سبب اختيار اليهود لدولة فلسطين (أرض الميعاد) دون غيرها من بقاع الأرض، ولا عن هيكل سليمان . عليه السلام . الذي يراد بناؤه على أنقاض المسجد الأقصى، فكل ذلك في نظره ليس شأناً عقائدياً، والحقيقة أنّ اليهود أنفسهم هم الذين ألقوا في روع المسلمين أنّ هذا الصراع ليس عقائدياً ليأمنوا جيشان العقيدة في نفوس المسلمين، وليعزلوا الفلسطينيين المسلمين عن باقي المسلمين!

ثم يهزأ بالأحاديث الشريفة التي تُحدّث عن نهاية هذا الصراع، ومنها الحديث الذي أخرجه الشيخان عن أبي هريرة t أن رسول الله r قال: (لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود، حتى يقول الحجر وراءه اليهودي: يا مسلم، هذا يهودي ورائي فاقتله) ولعلّ هذا الحديث لا تقبله عقولهم المريضة لأنّ فيه نطق الحجر، وهذا أمر مخالف للعقل

عندهم، فيقول: " إنّهم يرونه صراعاً لا في لحظته الراهنة فحسب، وإنّما هو كذلك منذ البداية وحتى النهاية "..!!

ثم يبدأ العزف على وتر الإنسانية ساخراً ببعض النصوص الأخرى التي تفصّل في هذا الصراع، فيقول: " النهاية عقائدية كما يراها مَن هنا ومَن هناك، وهي ذات ملامح تفصيلية في ضمير الغيب الآتي، ملامح تلتهم إمكانيات الرؤية الواقعية الآنية، وتحدد خيارات الحوار(!) والحراك. إنّها رؤية إيمانية قطعية عند كلا الطرفين ومن ثم يصعب الحلّ تحت هذا السقف أو ذاك، فلا خيار للإنسان.. يتم تصوّر ما هو كائن وما سيكون بواسطة تفكير غيبي يلغي الفاعلية الإنسانية أو يكاد، ويؤطّر ما بقي منها لينتهي في مضمار الإلغاء.."، وهكذا يساوي بين الرؤية الإيمانية القطعية عند الطرفين، فلا فرق عنده بين ما يعتقده المسلمون حسب نصوص الكتاب والسنة التي تكفّل الله بحفظها، وبين ما يعتقده اليهود حسب نصوص توراتهم المحرّفة، ثم هو لا يفرّق أيضاً بين الفلسطيني المسلم صاحب الحقّ والأرض المغتصبة، وبين اليهودي الكافر المحتلّ الذي يمارس أبشع أنواع الإرهاب ضدّ الفلسطيني المسلم الأعزل، بل يرى أن لا ثوابت في هذه القضية أصلاً في ميدان الفعل السياسي، فيقول: " إنّ لدى الفلسطيني ثوابت! كما أنّ لدى الإسرائيلي ثوابت. وثوابت هذا تتناقض . واقعياً . مع ثوابت ذاك، لكنها ثوابت في التصور لا في الواقع، لأن الواقع وهو ميدان الفعل السياسي . لا ثوابت له، ومن هنا فأية جراحة فكرية إنسانية لبنية التصور، كفيلة بأن تمهد للحل السلمي ، ليس الواقع صلداً كما يتصوّره كثير منا، أو كما يريدونه أن يكون، بل هو مفتوح على كافة الاحتمالات، شرط أن تتفتح لها الأذهان!!! ".

وبعد أن ساوى بين الطرفين، أخذ يتباكى على ضحايا هذا الصراع، ولو كانوا من اليهود الغاصبين المحتلين، ويصفهم بالأبرياء عازفاً على وتر الإنسانية، مع أنّ الشعب اليهودي كلّه مجند ضد الفلسطيني المسلم صاحب الأرض، يقول: " للأسف نحن لم ننظر إلى العنف نظرة محايدة، بوصفه ظاهرة لا إنسانية، تطال الإنسان، أيّاً كان هذا الإنسان، سواء كان فلسطينياً أو إسرائيلياً. ضحايا العنف في معظم الأحيان من الأبرياء(!!!) وحتى ما سوى ذلك، فإنه يبقي خلفه مآسي تطال أبرياء لا محالة.

يجب ألا يغيب عن الوعي أن لهؤلاء وهؤلاء أمهات وأبناء وأزواج وأحباب تكاد قلوبهم تتفطر حزناً وألماً بعد كل مشهد من مشاهد العنف، تلك المشاهد التي ليست مقصورة على طرف دون آخر. هل انغرس في وعينا أن الإنسان هو الإنسان على هذا الطرف من أطراف الصراع أو ذاك، مهما حاول أحدهما قصر الإنساني عليه ؟! ما لم يكن هناك إحساس عميق ومشترك بالمأساة التي تطال الإنسان من كلا الطرفين؛ فستبقى دائرة العنف اللا إنسانية تدور رحاها دون توقف ".

ولم يفته في هذا المقام أن يعرض بحركات المقاومة الإسلامية في فلسطين . على عادته في لمز كل ما هو إسلامي .، فيقول: " لا شك أن الأيديولوجيا حاضرة بقوة في هذا العنف المتبادل(!)، بدليل أن العنف في طرفي الصراع يصدر بالدرجة الأولى من المحاضن الأيديولوجية، وكلما تضخمت الأيديولوجيا زادت حدة العنف، زادت فعلاً وتهديداً "..

ثم ينكر على المثقفين على امتداد العالم العربي والإسلامي الوقوف مع المقاومة الفلسطينية وتأييدها فيقول: " تزداد المسألة قتامة حين نرى الطلائع الثقافية والفكرية على امتداد العالم العربي والإسلامي تبارك هذا العنف(!) بل وتهتف له، إلا فيما ندر مما يعدّ نشازاً في سياق العنف الذي تباركه جماعات اليقين(!) ، بل أصبح هذا الصوت النادر . المنطوي على تصورات إنسانية . موضع اتهام وتخوين ".. وصدق من قال: كاد المريب أن يقول خذوني!! أمّا جماعات اليقين التي يسخر منها فهي الواثقة بوعد الله بقتل اليهود ونطق الحجر والشجر لصالح المسلمين كما صحّت بذلك الأخبار، وليسمّ الكاتب ذلك ما يسميه، فإن وعد الله آت لا مرية فيه... هذا وإنّ مما يلاحظ في مقال هذا الكاتب . مع طوله . أنّه لم يصف المحتل بالوصف الشرعي الذي وصفه الله به وهو اليهودي، وإنّما يصفه بالإسرائيلي، ولذلك دلالته العقدية التي تدل على فكر هذا الكاتب، ونظرته العلمانية (الإنسانية) لهذا الصراع التي أفصح عن شيء منها في هذا المقال.

بل إنّ هذا الكاتب نفسه كتب مقالاً بعنوان: (المستقبل لهذا الإنسان) الرياض: ١٣٧٧٩، وهو يريد بهذا العنوان . عن خبث وإلحاد . معارضة كتاب سيّد قطب رحمه الله . (المستقبل لهذا الدين)، فانظر كيف جعل الإنسان بدلاً من الدين، بناء

على ما قرّروه من تقديم الأخوّة الإنسانيّة على الأخوّة الإيمانية الدينية، وقد انتهى في هذا المقال إلى أنّ الإيمان بالإنسان . لا بالدين والعقيدة . هو المنتصر دائمًا(!!!).

وأخطر ممّا سبق وأشدّ وضوحاً ما سطّره أحدهم . وكان تكفيرياً ثم تحوّل بمقدار ١٨٠درجة إلى مرجيء غالٍ . في مقال له بعنوان: (كثيراً من الإنسانية قليلاً من الرهبانية) الرياض: ١٢٩٢٨: يقول وهو يقرر مذهب الإرجاء: " إنّ الله يكفيه منّا أن نحمل الشعلة في قلوبنا، أن نكون دائماً على أهبّة الاستعداد للعكوف بمحرابه لنقدّم شيئاً (لعياله) لعباده، فهو غنيّ عن عبادتنا(!)".. فهو يزعم . مفترياً على الله أنّ مجرّد حمل الإيمان في القلب كاف عند الله، دون الإتيان بالشعائر التعبدية المعروفة من صلاة وصيام وحج.. الخ

ويؤكّد ذلك فيقول: " الرسول r يذكر أنّ رجلاً دخل الجنّة لم يعمل خيراً ولا حسنة في حياته، وارتكب الكثير من الذنوب، ومع ذلك دخل الجنّة، لأنّهم وجدوا له بطاقة يعلن فيها صادقاً مخلصاً عن حبّه له وإيمان به: (لا إله إلا الله) ".. هذه هو فهمه لكلمة (لا إله إلا الله)، وتالله لقد كان أبو جهل ومشركو قريش أعلم منه بهذه الكلمة، فلو أنّ مجرّد الإيمان بها في القلب كاف في دخول الجنّة، لما وقفت قريش بخيلها ورجلها في وجه رسول الله r، ولقالتها وظلت على شركها وطقوسها، ثم كيف يكون المرء صادقاً مخلصاً وهو لم يعمل بمقتضى هذه الكلمة، إلا أن يكون قد منعه مانع، أو حال بينه وبين العمل حائل، كمن أسلم ثم مات قبل أن يعمل ونحو ذلك، وعلى هذا يحمل الحديث المذكور، أمّا أن يطلق هذا الحكم، فهو أمر في غاية الخطورة، إذ فيه ترغيب للناس على ترك فرائض الإسلام من صلاة وصيام والاكتفاء بمجرد ترديد هذه الكلمة دون عمل، وهذا هو مذهب الإرجاء..

ثم يختم حديثه . وهذا هو الشاهد . فيقول: " لتعلموا أنّ ديناً لا يسعى لسعادة الإنسان لحفظ مصالحه الحقيقية، ليس إلا وبالاً، وتذكروا قول النبيّ محمّد r: (إنّ هدم الكعبة أهون عند الله من سفك دم مؤمن) كلّ المؤمنين من كلّ الأديان: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً..}، الإيمان عندي هو كثير من الإنسانية، قليل من الرهبانية، ربما يكون لحياتنا طعم آخر ".. ولا شكّ أنّ الدين الذي لا يسعى لسعادة الإنسان فهو وبال، ولكن ما الحل

إذا رفض الإنسان هذا الدين، وأصرّ على دين باطل منسوخ محرّف يسعى لشقائه؟
ويبدو أنّ عدوى التحريف قد انتقلت إلى الكاتب نفسه فحرّف الحديث الشريف، كما حرّف معنى الآية الكريمة.. فأمّا الحديث فلفظه الصحيح: ".. أهون عند الله من سفك دم مسلم "، والكاتب حرّفها إلى (مؤمن) لتشمل جميع المؤمنين بزعمه من الأديان الأخرى ممّن أدرك النبيّ الخاتم، ثمّ راح يؤكّد تحريفه مستشهداً بالآية الشريفة التي لم يفهم معناها الصحيح، فإنّ المقصود بها من آمن بالله من الطوائف المذكورة في زمن نبيّهم قبل بعثة نبينا r،وليس بعد البعثة، وسبب نزول الآية يبيّن معناها، فقد نزلت في أصحاب سلمان الفارسي t، فإنّه لما قدم على رسول الله r جعل يخبر عن عبادة أصحابه واجتهادهم وقال: يا رسول الله، كانوا يصلون ويصومون ويؤمنون بك ويشهدون أنّك تبعث نبياً، فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال رسول الله r: " يا سلمان، هم من أهل النار "، فأنزل الله: {إنّ الذين آمنوا والذين هادوا..} وتلا إلى قوله: { ولا هم يحزنون }. (أسباب النزول للواحدي ص ١٣)، فتبين من سبب النزول أنّ الآية نزلت في قوم من أهل الكتاب قبل مبعث النبيّ، كانوا يؤمنون بمبعثه، ويشهدون أنّه رسول من عند الله، لكنّهم لم يدركوه، فأين هؤلاء من قوم أدركوا بعثته، بل راحوا يسخرون منه r، ويصورونه في رسوم ساخرة بأنّه إرهابي، أو امرأة، ويتواطئون على ذلك غير مبالين بمشاعر الملايين من أتباعه؟!!!
أمّا مرجعيّة هذه الإنسانية عندهم، فيبيّنها أحدهم . وهو مقيم في لندن(!) . في مقال له بعنوان تفوح منه رائحة العلمنة والسخرية وهو: (الإسلام السياسي وتجديد الأحكام السلطانية) الوطن: ١١٨٨، يقول: " إنّ الأخذ بالمفاهيم الإنسانيّة يجب أن يكون على أساس عقلي في المقام الأوّل، بعيداً عن كلّ الاعتبارات المتعلّقة بالنصوص(!) " وليس هذا التأصيل بغريب عليهم إذا كانوا يطمحون إلى إحلال الإنسانية محلّ الرابطة الدينية، وتحطيم عقيدة الولاء والبراء.

السمة الخامسة

. وهي لب مشروعهم الذي يبشرون به .:

الدعوة إلى علمنة الحياة

وإقصاء الدين بحيث لا يكون له أي سلطان على مناحي الحياة المختلفة، ومن هذا المنطلق فإنّهم يهزؤون من فكرة أسلمة العلوم . أي صبغها بالصبغة الإسلامية بعد تنقيتها من الشوائب الكفرية والإلحادية .، ويقللون جداً من شأن الإعجاز العلمي في الكتاب والسنّة، ويرفضون أن يكون (الإسلام هو الحلّ)، ويحاربون كل من يرفع هذا الشعار، بل ويفسّرون التاريخ والأحداث بشكل عامّ تفسيراً سياسياً بمعزل عن الدين، وفيما يلي شواهد من أقوالهم على كلّ ما سبق:

يقول أحدهم في مقال له تفوح منه رائحة العلمانية بعنوان: (ممارسة السياسة شأن مدني خالص) الرياض: ١٣٧٥٦: " من نافلة القول أنّ مثل هذه الشمولية لا تختصّ بها قومية معينة، أو دين بعينه، ولكنّ العبرة تكمن في النهاية في قدرة المجتمع من خلال تجاوز مرحلة تزييف وعيه، ومن ثم عبور ذلك الوهم الأيديولوجي عبر الإيمان المطلق بنسبيّة السياسة ووضعيتها، ومن ثم تعرضها للتغير والتبدل وفقاً لقوانين الاجتماع البشري وليس ثباتها المتوهم وفقاً لما يعرف بمفهوم الحقّ الإلهي في الحكم.." فالكاتب هنا يشير أوّلاً إلى ضرورة إقصاء الدين عن السياسة، وأنّ هذا الإقصاء لا يختصّ بدين بعينه، فيشمل حتى الإسلام، فلا يحقّ لأحد كائناً من كان أن يزعم أنّ ديناً بعينه هو الحلّ(!)، أمّا مفهوم الحقّ الإلهي في الحكم، فيريد به قول الله تعالى: { إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ..} فيرى أنّه وهم لا بدّ من تجاوزه(!)، أو على حدّ تعبيره في المقال نفسه: " إنزالها [إي السياسة] من السماء إلى الأرض "..

ثم لا يفوته في آخر المقال أن يعرّج على بعض خصومه التقليديين من الإسلاميين، الذين يرفعون شعار (الإسلام هو الحلّ) فيسخر منهم بحجج واهية لا تخلو من مغالطات وجهالات، ثم يختم المقال بطامّة كبرى من طاماته فيقول: "ويبقى القول بأنّه لا خيار في مجال السياسة الإسلاميّة إلا استخدام المنطق الذي أعلنه الرسول r في وجه مؤسلمي السياسة عندما أعلنها مدويّة بقوله (أنتم أعلم بشؤون دنياكم) وهو منطق مدني على أيّة حال.. " إنّه . لعمر الله . عبث بالنصوص، واعتداء على حرمة الدين، ومقام سيد المرسلين، فهل ترك النبيّ r السياسة لغيره واعتكف في مسجده، أم أنّه أقام دولة الإسلام، وجيّش الجيوش، وفتح الفتوح، وساس الأمة، أم أنّه . عليه الصلاة والسلام . كما صوّره الكاتب يقول خلاف ما يفعل ؟!!، وهل قوله r " أنتم

أعلم بأمور دنياكم " مراد به أمور السياسة وشؤون الأمّة، أم المراد قضية عين في أمر دنيوي خالص لا علاقة له بالسياسة العامّة كما يدل على ذلك سبب الحديث؟.. إنّها مهزلة يجب إيقافها ومحاسبة أصحابها احتراماً لديننا وعقيدتنا..

أمّا المجتمع المدني الذي يدندنون حوله كثيراً، ويعدونه النموذج الأمثل للدولة الحديثة، فيصفه أحدهم . وهو متخصّص في الكتابة السياسية . في مقال له بعنوان: (الخطاب الديني هل يستمرّ كعائق في الحرب على الإرهاب) الوطن: ١١٦٠، بأنّه: " مجتمع مدني رحب، ليس هناك مساحة لأوصاف من قبيل: (كافر)، أو (مبتدع)، أو (علماني)، أو غير ذلك(!)..."، هذا هو المجتمع المدني الذي يريدونه، والذي لا يقوم إلا على أنقاض التوحيد، وعقيدة الولاء والبراء التي وصفها النبيّ r بأنّها أوثق عرى الإيمان، وكأنّهم لم يقرأوا قوله الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ }، ولكنّ هؤلاء القوم لا يعقلون، وإن كانوا يدّعون العقلانية.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله عند تفسير هذه الآية ٣٩٨/١: " قيل لعمر بن الخطاب t إن ههنا غلاماً من أهل الحيرة (أي نصراني) حافظ كاتب فلو اتخذته كاتباً، فقال: قد اتخذتُ إذاً بطانة من دون المؤمنين.." قال ابن كثير رحمه الله: " ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين واطّلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب ".. هذه في مجرد الكتابة، فكيف بغيرها من شؤون الدولة ؟!! وهو أيضاً في الذمي الذي يدفع الجزية وهو صاغر، فكيف بمن يرى أنّه مساو لك في جميع الحقوق والواجبات في ظل مجتمعهم المدني المزعوم.

وفي سياق العلمنة يقول الكاتب نفسه في مقال له بعنوان: (الحالة الدينية في السعودية..) الوطن: ١١٣٩: وهو يتحدث عن التفجيرات الأخيرة " هل كان هذا بسبب ذنوبنا حسبما يخبرنا رجال الدين(!) نعم، ولكن الذنب هذه المرة هو التطرّف الديني والغلو المتضخم(!) في ثقافة المجتمع. الذنب هو في القبول بصبغ الحياة الاجتماعية كلّها بصبغة الأيديولوجيا الإسلامية، والإصرار على إقحام الدين في

شؤون الدنيا لإعاقة الحداثة "، إنّ إقحام الدين . حسب تعبيره . في شؤون الدنيا لإعاقة الحداثة المارقة ذنب عند هذا الكاتب، وهكذا تصبح العلمنة وإقصاء الدين عن شؤون الحياة حسنة يُدعى إليها.

ويقول آخر . وهو أشدّهم تطرّفاً وبذاءة . في مقال له بعنوان: (الإرهاب من الفكر الخارجي إلى السلوك القرمطي) الرياض: ١٣٤٣٦: " ليس صحيحاً ما يروّج له الإسلامويّ(!) من أنّ الزجّ بالدين في كلّ صغيرة وكبيرة هو عنوان التدين الحقيقي، أو أنّ ممارسه والمتحمّس له من أفراد المجتمع هو الأكثر تديّناً من غيره ".. إلى أن يقول: " تحييد الديني في الوقائع المدنية(!) التي ليس فيها حكم شرعي صريح، أمر ضروري لئلا تمنح القداسة إلا للديني الخالص الذي نصّ عليه الشرع الحنيف..".. أنّها علمنة خفية، تتدثر بلباس العلمية، ولو أنّا أخذنا بقول هذا الكاتب، واقتصرنا على ما فيه نصّ صريح، لما بقي لنا من ديننا إلا القليل، وهذا ما يريده أهل العلمنة.. وإنّ من المعروف لدى صغار طلبة العلم، أنّ الشريعة جاءت بكليات تندرج تحتها جميع الجزئيات، فلم ينصّ الله تعالى على كل جزئية بعينها، إذ إنّ ذلك يطول ولا يكاد ينتهي، مع ما يستجدّ من الجزئيات التي لم تكن قد وجدت عند نزول النصّ، ومهمة العالم أن يرجع هذه الجزئيات إلى كلياتها، ليبين حكمها، وما من قضية ولا مسألة إلا وفي كتاب الله وسنة رسوله r بيان لها، إمّا بالنصّ الصريح، وإمّا بالتلميح من خلال الكليات المذكورة، قال تعالى : { ما فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ }، وقال تعالى { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً }.

ويقول الكاتب نفسه في مقال له بعنوان: (ما بعد الأيديولوجيا.. العقد الاجتماعي) الرياض: ١٣٧٠٢ بعد أن شتم السلفيّة أو ما أسماه بالوعي السلفي(!): " لا بدّ من التأكيد على مدنية حراكنا الاجتماعي، وأنّ العقد الذي يجب الالتفاف حوله هو العقد الاجتماعي المدني الذي يضمن التساوي في الحقوق والواجبات، لا طائفية، ولا مذهبية ولا مناطقية ولا جنسوية... لا بدّ أن ينغرس في أعماق كل مواطن أن الجميع متساوون جميعاً دون تعنصر من أي نوع، ولكل بعد ذلك خصوصياته التي يراها ويختارها، دون فرضها على الآخرين، ودون الإخلال بمبدأ المساواة المقدّس ".. فالكاتب يريد مجتمعاً بلا هوية ولا دين، يريد دولة لا دين لها، ولا فرق فيها بين

المسلم والكافر . كما صرح بذلك غيره من أصحاب هذا الفكر .، ولا فرق فيها بين الموحّد والمشرك، وصاحب السنة وصاحب البدعة، بل لا فرق فيها بين الرجل والمرأة كما صرّح بذلك بقوله: " وخاصة التمييز الجنسي ضد المرأة في أي صورة كان ". ويضيف إلى ذلك (المناطقية) ليعزف على وتر حسّاس يثير الطائفية التي يحذر منها..

ثم يقول بعد ذلك: " لأجل ذلك؛ يجب أن تكون الخصوصية . أيّاً كان نوعها . بعد ذلك المقدّس وليس قبله، وإلا بقينا رهن صراع لا ينتهي.. لا بد أن يدرك المؤدلج أنّ العقد الاجتماعي المدني لا يمنحه أكثر من حريّة إبداء الرأي (المؤدّب) في سلوك الآخر، وبعد ذلك فليس على أحد بمسيطر ".. فالمقدس لديه هو هذا العقد الاجتماعي العلماني المزعوم، أمّا الدين والتوحيد فليس ذلك بمقدّس عنده، وإنّما هو مجرّد خصوصية تخص كل فرد على حدة، وليته يخبرنا ما الذي جعل رسول الهدى r يعاني في مكة وأصحابه ثلاثة عشر عاماً، ويصبرون على البطش والأذى والتعذيب والتشريد، وقد عرضت قريش عليه كلّ ما يريد مقابل تخلّيه عن دينه وعقيدته ودعوته، والتعايش السلمي معهم، مع الكف عن عيب آلهتهم، فيأبى حتى يقيم دولة الإسلام والتوحيد في المدينة، ومن ثم يعلن الجهاد على المشركين لرفع راية التوحيد خفّاقة، وإزالة كل مظهر من مظاهر الشرك، ولم يكتف بذلك بل يجهّز قبل وفاته جيشاً ضخماً لمحاربة الروم في الشام، وإخضاعهم لدين الله الحقّ ؟!.. سيقول هذا الكاتب وأمثاله: إنّ الزمن تغيّر، ولم يعد دين الرسول الكريم صالحاً لهذا الزمن، وهذه هي الطامة الكبرى والفجيعة العظمى التي حلّت ببعض أبنائنا، ليعتنقوا هذا الفكر المنحرف..

أمّا قوله: (حرية إبداء الرأي المؤدب(!))، فذلك واضح جداً في أدبه الجم مع خصومه السلفيين والسلفية خاصة، فهو لم يترك شتيمة إلا رماها بها كما سبق (انظر ص ١٤)، فإذا كان هذا هو الأدب الذي يدعو إليه، فعلى الأدب السلام..

وفي هذا السياق نراهم يدافعون عن العلمنة، ويغضبون من ذكرها على سبيل الاتهام، مع أنّهم لا يتورعون عن كيل التهم جزافاً لخصومهم التقليديين (السلفيين خاصّة والإسلاميين بشكل عام)..

يقول أحدهم في مقال له بعنوان: (العلمانية تهمة جاهزة لكل من اختلف معهم) الجزيرة: ١٢٠٢٢: " لا أدافع عن العلمانية، لأنني أعتقد اعتقاداً جازماً بأنّ العلمانية على اعتبار أنّها (فصل الدين عن السياسة) مصطلح (وافد) إلينا من الخارج، وله دلالات فكرية وحمولات تاريخية تجعل من تطبيقه على غير المجتمعات (المسيحية) أمر لا بد من التوقف عنده، والتعامل معه بحذر.."، هكذا ينفي التهمة عن نفسه، وعن زملائه الذين يقررون كثيراً في كتاباتهم . كما سبق شيء من ذلك قريباً . ضرورة تحييد الديني عن المدني كما يقولون، وهو بهذا التعميم ينطبق عليه المثل القائل (كاد المريب أن يقول خذوني).

ويقول آخر في مقال له بعنوان: (الإسلاميون والمشاركة السياسية.. الحزب المسيحي الديمقراطي الألماني) الوطن: : " أثناء وجودي في ألمانيا الشهر الماضي كان على مقربة من جامعة أيرلنجن حيث أتردد: مكتب حزبي للاتحاد المسيحي الديمقراطي الألماني. لقد ترددت بعض الشيء في دخول المقرّ سذاجة مني لتوهمي أنّه يشبه تلك التجمعات الإسلامويّة المتشددة الموجودة في بعض البلاد العربية، المليئة بالكتيبات والأشرطة الصوتية الصاخبة التي تتحدث عن الحكم بغير ما أنزل الله، وعفن العلمانية التي يتبارى نوابها في المطالبة بإيقاف الكاتب فلان، أو محاكمة السياسي علان، أو حتى في أوقات الاستراحة السياسية يتم التصعيد في البرلمان ضد راقصة أو مغنية بحجّة حماية الأخلاق ومراقبة الذوق العام.." ثم راح بعد ذلك يكيل الثناء لذلك الحزب النصراني الكافر، ويصفه بالحزب الناجح، ويدافع عن تسميته بالحزب المسيحي (نسبة إلى المسيح u) في دولة تدعي العلمانية ...!!!! إلى آخر ما ذكر.. ويلاحظ في ما نقلته من هذا المقال سخريته من إخوانه المسلمين المحتسبين الذين يتحدثون عن قضايا شرعية كالحكم بغير ما أنزل الله، وعفن العلمانية، والمطالبة بإيقاف الكتّاب المنحرفين ومحاكمتهم، ومحاربة العفن الفني من رقص وغناء ماجن.. كلّ ذلك يسخر منه الكاتب، ويعدّه تشدداً، فهذا هو مفهوم التشدد عندهم، في الوقت الذي يثني فيه على حزب نصراني زاره للمرّة الأولى، فراح يكيل له عبارات الثناء.. إنّها قلوب مريضة، غطتها ظلمات الشهوات والشبهات، فلم تعد ترى الأشياء على حقيقتها، نعوذ بالله من الخذلان.

أمّا تفسير الأحداث التاريخية والصراعات العقدية تفسيراً سياسياً (علمانياً) فهو ديدنهم للتقليل من شأن الدين والعقيدة، وقد كتب أحدهم مقالاً بعنوان: (خدعوك فقالوا نجد والشرك !!) الرياض: ١٤٢٣، قرر فيه بصفاقة عجيبة أنّ دعوة الشيخ الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله إنما كانت صراعاً مريراً حول السلطة والسياسة، وليست ضد الدين. حيث كانت الحالة الأمنية قبل قيام الدولة السعودية كما يزعم . تعيش في تأزم وتناحر وتصارع وقد وحُدت بحمده تعالى تحت كيان واحد. بينما كانت الحالة الدينية على مذهب أهل السنة والجماعة ولم يدخل نجداً ما ذكر عنها ابن غنام وغيره من وجود الخرافات والشركيات المنتشرة في جنباتها..!!! هذا ملخّص ما ذكره.وهكذا بجرّة قلم يبطل هذا الأفّاك الأثيم كلّ جهود الشيخ في محاربة الشرك ومظاهره التي كانت منتشرة في نجد، ورسائل الشيخ تنضح بالكثير من هذه الجهود التي يراها الأعمى قبل البصير، لكن هؤلاء عميت بصائرهم، مع سلامة أبصارهم إلا إذا كان يتهم الشيخ بالكذب فتلك طامة آخرى أعظم وأطم.. ثم إنّ السياسة جزء لا يتجزأ من الدين كما سبق، فالفصل بينهما كالفصل بين الروح والجسد، لكنّ هؤلاء المتعلمنين لا يفقهون.

ولم يسلم من هذا التفسير العلماني السقيم حتى إئمّة السلف، فبمثل هذا التفسير فسّروا فتنة خلق القرآن التي تعرّض لها أئمّة السلف وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، حيث ذكروا أنّ الأمر لا يعدوا أن يكون صراعاً سياسياً محضاً بين أهل الحديث وأهل الاعتزال على السلطة، وليس للدين ولا للعقيدة شأن بهذا الصراع إلا من باب ذرّ الرماد في العيون كما يزعمون.. المهم عندهم ألا يكون للدين ولا للعقيدة سلطان على الحياة، لأنّ ذلك يزعجهم كثيراً، وهذا هو الذي يسعى إليه أعداء الإسلام من اليهود والنصارى لإخماد جذوة الإيمان والعقيدة في نفوس المسلمين، ومن ثم يسهل التغلّب عليهم واختراقهم، وما هذه الفئة المارقة إلا بمثابة الطابور الخامس لهؤلاء الأعداء كما سبق، كفانا الله شرّهم.

وأختم الحديث عن هذه السمة بطامة أخرى أتى بها أحدهم . وهو كاتب له روايات أفتى عدد من علمائنا بكفر ما في بعضها .، يقرر هذا الكاتب في مقال له بعنوان: (من خطاب التدمير إلى خطاب التعمير) الشرق الأوسط: ٨٩٥٢ ، أنّ: " منطق

الدولة الحديثة متناقض مع منطق الدين " ثم يوضح ذلك قائلاً: " منطق الدولة محدود ومحدد، ومنطق الدين هو المطلق ذاته، وتأتي الكارثة للدولة والدين معاً حين محاولة الدمج بين منطقين لا يلتقيان، وهنا تكمن معضلة الإسلامويّة(!) المعاصرة وجوداً لا عقلاً .."..

وعلى الرغم من العلمنة الواضحة فيما ذكر، مع الجهل الفاضح بدين الإسلام وحقيقته؛ إلا أنّه يحاول أن ينفي هذه التهمة عن نفسه على طريقة (كاد المريب أن يقول خذوني) فيقول: " قد يقول قائل هنا: إذن فهي دعوة للعلمانية!، والحقيقة أنّ القضية لا علاقة لها بعلمانية أو أصوليّة إذا كانت الغاية هي البحث عن جواب يخرجنا من المأزق أو المآزق التي نحن فيها .." وهكذا بكل بساطة ينفي التهمة الساطعة كالشمس عن نفسه إذ الغاية عنده تبرر الوسيلة، ولو كانت هذه الوسيلة هي الإساءة إلى ديننا وانتقاصه، والافتراء على نبينا r ليرضى عنّا أعداؤنا !!.

السمة السادسة:

الإعجاب بمن يسمّونه (الآخر)

وحبّه، وكيل الثناء عليه بغير حساب، والدعوة إلى احتذائه حتى في ثقافته وأخلاقه، ويريدون بالآخر في الغالب: الغربي الكافر صاحب الحضارة الماديّة، والعقل الفلسفي، وهذا الإعجاب نتاج طبعي للهزيمة النفسيّة، والصدمة الحضارية التي أصابتهم، وعقدة النقص التي تلازم قلوبهم المظلمة الممتلئة بالشهوات والشبهات، ونحن لسنا ضدّ الاستفادة من علوم الآخرين فيما لا يتعارض مع ديننا وعقيدتنا، لكنّ هؤلاء فهموا الحضارة فهماً ناقصاً مغلوطاً، فاختزلوها في صناعة طائرة أو سيارة أو صاروخ، أو أيّ آله من الآلات الحديثة، أو في بناء ناطحات سحاب، أو تقدم طبي أو تقني، وكلّها أمور مادية يمكن لأيّ أمّة وأيّ شعب اللحاق بها والوصول إليها إذا تهيأت له الظروف المناسبة، وسلم من هيمنة هذا الآخر وجبروته وكيده..

إنّ الحضارة الحقيقية هي التي تجمع بين التقدّم المادي التقني، والسمو الروحي والأخلاقي، وهذا الأخير هو ما تفتقده الحضارة الغربية المعاصرة التي بلغت الحضيض في تردّي الأخلاق وموت الروح، فهي كما وصفها سيد قطب رحمه الله: كطائر ضخم، أحد جناحيه كبير يرفرف في السماء، والآخر مهيض كسير لا يكاد

يقوى على الحركة، فماذا سيكون حاله سوى التخبط وإيذاء من حوله، وهذا هو حال الحضارة الغربية اليوم حيث إنّها . مع ما فيها من الجوانب الإيجابية المضيئة . نشرت الخراب والدمار، ونشرت معه أسوأ الأخلاق من تفسخ وعري وفساد أخلاقي.

وليس الغرب ملوماً في إقصاء الدين عن الحياة، فقد كان الدين الذي يدينون به محرّفاً، يحارب التقدّم المادي النافع، ويقتل المبدعين والنابغين في العلوم الطبيعية التي لا تتعارض مع ثوابت الدين الصحيح، ولذا فإنّه لا خلاص للبشرية اليوم، ولا سبيل لها إلى الوصول إلى الحضارة الحقّة المكتملة التي تجمع بين التقدّم المادي التقني، والسمو الأخلاقي والروحي إلا بأن تعتنق هذا الدين الحقّ (الإسلام) الذي تكفّل الله بحفظ مصادره، وجعله الدين الوحيد الذي لا يُقبل سواه، قال تعالى: {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ }[آل عمران: ٨٥].

وفي هذا السياق يحاول أحدهم بجهل فاضح أن يؤصّل لهذه المسألة تأصيلاً شرعياً(!!)، فيزعم في مقال له بعنوان (المقاومة الفكرية للإرهاب) الرياض: ١٣٥٦١، أنّ الأصل في الولاء والبراء " موالاة (الكافر) المسالم الموادع مهما كانت ديانته"، وفي مقال آخر له بعنوان: (فلسفة الولاء والبراء في الإسلام) الرياض: ١٣٥٤٦، أتى بما هو أطم، فيقول: " والرسول r عندما أرسل صحابته الأول إبان الفترة المكية إلى الحبشة اتقاء لشر قريش قال لهم إنّ فيها . يعني الحبشة . ملكاً لا يظلم عنده أحد، ولم يبرر إرساله لصحابته بإسلام المجتمع الحبشي بدليل أن ذلك المجتمع ظل حتى وفاة النجاشي نصرانياً خالصاً مما يؤكد(!) أن الولاء حين ينصب على العلاقة مع الآخر فهو يدشن لموالاة المسالم والبراءة من المعتدي بغض النظر عما يدين الله به وهذه العلاقة السلمية . الأهلية منها والدولية . المبنية على الولاء للمسالم والبراء من المعتدي منظمة بشكل واضح لا لبس فيه في القرآن الكريم إذ يقول تعالى في الآية الثامنة من سورة الممتحنة: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }[الممتحنة:٨]، وهي إشارة إلى موالاة الآخر(!) المسالم الملتزم بشروط العلاقة السلمية ببرّه والقسط إليه.. " إلى أن يقول: " هذا هو المسار الصحيح(!)

لمفهوم الولاء والبراء المتكيف مع أصول الإسلام وغاياته العظام(!) " إلى آخر ما ذكر، وأنا أتحدّى هذا الكاتب وغيره أن يأتي بنص واحد من كتاب الله أو سنة رسوله r يدعو إلى موالاة الكفار أياً كانوا، بل إن نصوص الكتاب والسنة تحذر من موالاة الكفار بإطلاق كما في قوله تعالى: {لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ }[آل عمران:٢٨]، وقوله في سياق الحديث عن المنافقين: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً }[النساء:١٤٤]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }[المائدة:٥١]، بل في السورة نفسها التي استشهد الكاتب بآية منها قال الله تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ }[الممتحنة:٤]، والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً، وذلك أنّ مقتضى الموالاة: المحبة والنصرة، وذلك لا يصدر من مؤمن لكافر على الإطلاق، وإنّما الذي أذن الله فيه تجاه الكافر المسالم: البر والعدل كما قال تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }[الممتحنة:٨]، ويوضح معنى الآية سبب نزولها، فقد أخرج البخاري عن أسماء بنت أبي بكر y، قالت: أتتني أمي راغبة، فسألت النبيّ r : أأصلها؟ قال: " نعم " فأنزل الله فيها: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ }. فإذا كان للمسلم أب كافر أو قريب أو جار ونحو ذلك، ولم يكن محارباً، فلا حرج على المسلم أن يحسن إليه ويبره ولا يظلمه، لكن أن يحبه وينصره أو يفضله على إخوانه المسلمين مهما كانوا عاصين، فذلك خلل عقدي عظيم، وهذا هو حال هذه الفئة الضالة، كما سبق قريباً من تفضيل أحدهم الحزب المسيحي الديموقراطي الألماني على من أسماهم تهكماً بـ (الإسلامويين) المتشددين الذين يتحدثون عن عفن العلمانية، ويطالبون بمحاكمة الكتّاب المنحرفين فكرياً !!!.

ثم هل الكافر الذي (يوالونه) الآن مسالم حقّاً، أم أنّه يقتل المسلمين بالأسلحة المحرمة دولياً، ويسخر من نبي الإسلام في رسوم سخيفة ماجنة ؟؟؟؟؟، بل ويهين المصحف في معتقلات غير شرعية ولا قانونية.. فأين عقول هؤلاء؟!!!.

وبمناسبة ذكر الآخر (الكافر) يلاحظ في مقال هذا الكاتب الذي امتد من أعلى الصفحة إلى أسفلها بما يزيد عن نصف المتر أنّه لم يذكر لفظ (الكافر) بتاتاً بناء على مذهبهم في ضرورة التخلي عن هذا المصطلح الشرعي الأصيل الذي امتلأ به القرآن والسنة، والعدول عنه إلى ألفاظ مثل: (الآخر)، و (غير المسلم)، وما شابه ذلك حتى لا يغضب هذا الآخر، بل بعضهم (يتورّع) عن اعتقاد كفر اليهود والنصارى، ويعدهم مؤمنين و(إخوة) لنا في الإنسانية(!)، كما مر سابقاً.

أمّا قضية النجاشي، والهجرة إلى الحبشة، فلا علاقة لها بموضوع الولاء والبراء. وذكرها في هذا المقام من الخلط العجيب، فإنّ المسلم إذا لم يتمكن من إظهار دينه في بلد فله أن يهاجر إلى بلد آخر يتمكن فيه من إظهار دينه، وهذا قبل أن تقوم للإسلام دولة تحكم بشرع الله، فإذا قامت الدولة فلا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، كما قال الصادق المصدوق r، فما علاقة ذلك بالولاء والبراء ؟!!.

ويقول آخر . وهو من أصحاب التحولات الإنفراجية . في مقال له في غاية السذاجة بعنوان: (نحن وأمريكا والديموقراطية) الشرق الأوسط: ٩٢١٢ مدافعاً عن الآخر الكافر: ".. الغرب حينما يدعم الديموقراطية، ويفكر في وضع هذا الجزء من العالم، فليس ذلك من قبيل التبشير أو الاهتداء بروح الأم تيريزا، قدر أنها مصلحة غربية جوهرية تكمن في إنقاذ الشرق الأوسط المتعثر(!!!) "، وعلى الرغم من أن الآخر النصراني ممثلاً في زعيمه صرّح بأنّ الحرب على العالم الإسلامي حرب صليبية، إلا أنّ هؤلاء (العقلانيين) لا يزالون أشدّ إخلاصاً للآخر من الآخر نفسه، حيث يعدونه في سذاجة واضحة (جبهة إنقاذ) للشرق المتعثر!!!!.

ولم يكتف هذا الكاتب بالثناء على (الآخر) وديمقراطيته المزعومة، بل راح ينتقص دينه الحق (الإسلام) ومبدأ الشورى المذكور في القرآن، يقول: " طُرحت فكرة الشورى كبديل أصيل عن الديموقراطية، ولكن اتّضح(!) أنها تختلف اختلافاً فلسفياً ومفارقاً للديموقراطية، فرفضت من الإسلاميين الأصلاء(!)، والليبراليين الخلصاء(!)،

أمّا الأخيرون فبحجة أنّ الشورى أبعد ما تكون عن العقد الاجتماعي والمشاركة الشعبية الواسعة، فهي ليست إلا تدبير أهل الحلّ والعقد، وهم طبقة ضيقة من كبار القوم والملأ.." إلى آخر ما ذكر.

السمة السابعة

الجهل

فعلى الرغم من أنّهم أشدّ الناس تعالماً وادّعاءً لفهم النصوص ومقاصد الشريعة، ورميهم العلماء وطلاب العلم السلفيين بالضدّ من ذلك!!؛ إلا أنّهم أكثر الناس جهلاً بالنصوص وبالمقاصد وبالناسخ والمنسوخ والعام والخاصّ والمطلق والمقيّد من نصوص الشريعة، كما تشهد بذلك كتاباتهم، والسر في ذلك أنّ معظمهم ليسوا من أهل التخصّص الشرعي، فإذا انضاف إلى ذلك الهوى وتمكن الشبهات من قلوبهم؛ كانت الطامة أكبر، وفيما يلي بعض الأمثلة على جهلهم بالنصوص الشرعيّة:

١. في مقال لأحدهم بعنوان: (الذين يجلدون المختلفين معهم في الرأي بإطلاق التهم) الرياض: ١٣٦٩٨، يقول: " أُعطي الرسول r جوامع الكلم، وهي ميزة خصّه الله تعالى بها من بين سائر الأنبياء والمرسلين u، فهو r يقول الكلمة أو اللفظة الواحدة لتكون جامعة لمعاني ومتطلبات موضوع بأكمله، ومن بين ما أخبر به r في ألفاظ قصيرة، لكنّها حملت معاني عظاماً، قوله r : (الدين المعاملة).. ".. ثمّ بنى مقاله على ما زعم أنّه حديث، وجزم بنسبته إلى رسول الله r !! وهو ليس بحديث، وإن اشتهر على ألسنة العامّة، بل إنّ معناه في غاية البطلان لمن تأمّله بعقل منضبط بالشرع، لا بعقل منفلت كعقول هؤلاء الزاعمين بأنّهم عقلانيون، فإنّ مقتضى هذا الحديث المزعوم أنّ الكافر إذا كان حسن المعاملة فهو مسلم ومتدين، والمسلم إذا كان سيء المعاملة ليس بمسلم، لأنّ المقصود بالدين هنا هو الإسلام كما قال تعالى: { إنّ الدين عند الله الإسلام }، وقد ثبت في صحيح مسلم في كتاب الإيمان، عن عائشة t قالت: قلت: يا رسول الله، ابن جدعان؛ كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه ؟ قال: " لا ينفعه. إنّه لم يقل يوماً: ربّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين ". فلم ينفعه حسن خلقه، وإحسانه للناس مع كفره.

٢. وفي مقال آخر بعنوان فضائي: (الحوار الوطني: سيرة وانفتحت) الرياض: ١٣٧٠٢، يقول الكاتب نفسه: " من غير المجدي وفقاً لمعطيات العمران البشري أن تقسر شخصاً على رؤية معينة، لمجرّد أنّك تعتقد بصوابها، فهذا الآخر الذي تودّ قسره على رؤيتك يملك من الأدلّة والطرائق الحكمية(!) ما يستطيع بها نفي صوابية ما تعتقده حتى وإن كنت لا تؤمن بمرجعيته الدلالية بنفس الوقت الذي لا يعترف فيه هو أيضاً بمرجعيتك في استنباط أدلة تصويبك لرؤيتك، وإذا كان الله تعالى يأمر نبيّه الكريم بأن يعتزل مقام مشركي قريش حين يخوضون في آيات الله تعالى حتى يصرفوا حديثهم إلى جانب آخر، ولم يأمره بحربهم أو قسرهم على رؤيته ممثلاً بقوله تعالى: { وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره... } أفلا نترك نحن غيرنا أحراراً ...".. فاستدلاله بهذه الآية في غاية البطلان، ودليل على جهله الفاضح . أو تجاهله . لنصوص الشريعة، والمراحل التي مرّت بها الدعوة، فماذا يصنع هذا الكاتب بمثل قوله تعالى في سورة التوبة: { فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كلّ مرصد.. }، وقوله في السورة نفسها: {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ }، وقوله r :" أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله.. " الحديث، وقوله: " لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحقّ أطراً " أي تقسروهم عليه قسراً، يعني العصاة، فضلاً عن المبتدعة.. وليس في دين الله تعارض، ولكنّ الواجب أن تنزل النصوص منازلها، فاعتزال المشركين كان في العهد المكي، وأما آيات القتال والأطر على الحقّ ففي العهد المدني، وبهذا يتبين جهل هؤلاء بمدلولات النصوص مجتمعة، فكيف يؤتمنون على توجيه الناس في صحف سيّارة !!!!!.

٣. وفي مقال بعنوان: (هل الحضارة الإسلامية حضارة شاملة ؟) الجزيرة: ١١٩٨٠، كتب أحدهم . وهو وللأسف الشديد من سلالة الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله !!! . مقللاً من شأن الحضارة الإسلامية يقول: " الثقافة الإسلامية ثقافة فقه ولغة، وليست ثقافة كشف واختراع وابتكار على مستوى المنجزات الدنيوية.." إلى أن يقول: " وهذا ما نلحظه بوضوح من خلال القراءة لكبار العلماء

الدينيين المسلمين، فالإمام ابن تيمية رحمه الله . مثلاً . اتّخذ موقفاً مناهضاً بشدّة لعلم الكيمياء.." إلى آخر ما ذكر، وهو دليل على جهل فاضح، لأنّه ظن أنّ الكيمياء التي ذكرها ابن تيمية رحمه الله هي الكيمياء المعروفة اليوم، وليس الأمر كذلك، فالكيمياء التي ذكرها شيخ الإسلام نوع من الغشّ، وصناعة ذهب مغشوش يشبه الذهب الذي خلقه الله، وبيعه على الناس على أنّه ذهب خالص، ولذا قال الشيخ رحمه الله: " وأهل الكيمياء من أعظم الناس غشاً، ولهذا لا يُظهرون للناس إذا عاملوهم أنّ هذا من الكيمياء، ولو أظهروا للناس ذلك لم يشتروه منهم.. " إلى آخر ما ذكره رحمه الله.

٤. وفي مقال بعنوان: (فلا يلومنّ إلا نفسه.. فلسفة جديدة) الوطن: ١١٧٣، كتب أحدهم . وهو طبيب يكثر من الحديث عن الدين والعبث بالآيات . كتب بعد أن ساق الحديث القدسي (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي) يقول: " وما يدفعني إلى سرد هذا الحديث فكرة التمعت في ذهني أن أفعل ما فعله النووي، فهذا الرجل جمع أربعين حديثاً اشتهرت باسمه، وهي رياض الصالحين..".. وهذا جهل فاضح، فهو يظن لجهله أنّ كتيب الأربعين النووية الصغير، هو نفسه كتاب رياض الصالحين المجلّد الضخم، وكلاهما للإمام النووي رحمه الله، وصغار طلاب العلم يعرفون الفرق بينهما.

٥. وفي مقال بعنوان (ذكريات غير صحوية وحديث عن الثبات والتحوّل) الرياض: ١٢٧٢٢، كتب أحدهم منظرّاً . وكان من هواة التكفير والتفجير ثم أصبح من غلاة المرجئة . يقول: " وقد نسمع أحياناً وصف الآخرين بالفسق أيضاً. وفي القرآن الكريم لم يأت وصف الفسق إلا في حقّ الكفّار والمشركين كما في سورة السجدة، غير أنها في فترة متأخّرة جرى التوسّع في استخدام لفظ الفاسق على المسلم الذي يأتي بعض المخالفات الشرعية..".. وهذا جهل فاضح، وجرأة على كلام الله تعالى، وقد يعجب هذا الكاتب إذا علم أنّ وصف الفسق جاء في القرآن الكريم في حقّ أحد أصحاب رسول الله r وهو الوليد بن عقبة t، كما في قوله تعالى في سورة الحجرات: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ

فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ }، وذلك باتّفاق المفسّرين. ولكنّ الجهل داء لا دواء له.

٦. وفي نفس المقال يقول هذا الكاتب: " لبس جوارب اليدين أصبح اليوم دلالة على عفّة المرأة، وشدّة تديّنها، في وقت سابق لم تكن النساء تعرف ذلك.. " وهذا من جهله، فقد كان هذا معروفاً في زمن النبوّة، فقد صحّ عنه r أنّه قال: " لا تنتقب المحرمة، ولا تلبس القفازين "، ففيه دليل بيّن على أنّ الصحابيات كن يلبسن القفازين لكمال الستر، وإنّما نهين عن ذلك وقت الإحرام.

هذا غيض من فيض من جهلهم بالنصوص الشرعيّة، وكيفية تعاملهم معها، ومع كلام الأئمة، ولو ذهبت أستقصي جهلهم، من خلال كتاباتهم لطال بي الأمر..

والعجيب أنّهم على الرغم من جهلهم الواضح الذي سبق الكثير منه؛ إلا أنّهم يزعمون أنّهم أكثر فهماً للإسلام ممّن شابت لحاهم في تعلّم العلم الشرعي، ومزاحمة العلماء بالركب، بل أكثر فهماً للإسلام حتى من العلماء الكبار، مع أنّ جلّ أصحاب هذا الفكر قد عاشوا ردحاً من الزمن في بلاد الغرب لتعلّم تخصّصات غير شرعية قد تكون مفيدة في مجالها لكنها لا تؤهل صاحبها للحديث عن الأمور الشرعية الدقيقة..

وفي هذا السياق كتب أحدهم . وهو رئيس تحرير إحدى صحفهم . في مقال له بعنوان: (الأسهم تقول إنّهم أقليّة محدودة) الرياض: ١٣٧٧٠ يقول: " نحن جميعاً مسلمون.. بل إنّ معظم الليبراليين هم أكثر فهماً للإسلام وسعياً لحلّ مشاكله وتقديمه بصورته الحضارية للعالم الأجنبي..!! " قال ذلك في أعقاب تصدي بعض العلماء له في محاضرة أقيمت في فعاليات معرض الكتاب الدولي بالرياض.. والليبراليون يعني بهم نفسه وزمرته.

بل إنّ أحدهم . وهو أشدّهم تطرّفاً . كتب مقالاً بعنوان: (الجهل كخطاب: مقاربة أولية لنماذج وصور واقعية !!) الرياض: ١٤١٣٦، رمى فيه جامعاتنا الإسلامية بأنّها معاقل لتفريخ الجهل وإنتاجه، يقول: " إن هذا يتم في نطاق المؤسسات العلمية، أو التي تدعي ذلك، حيث يتم استيراد آليات البحث العلمي، بل أحدثها، ووضعها في خدمة خطاب الجهل. وجراء ذلك، تعتمد الأطروحات، وتناقش في أجواء تشي

بالعلمية، بينما هي تستخدم في تعزيز مستوى أعلى وأشد تعقيداً من الجهل الذي لا بد من تفكيكه من زوايا كثيرة، ليس أقلها كشف زيف ادعاء العلمية)!!! ".

وكان سبب هذا الهجوم وهذا التجهيل الجماعي لمؤسساتنا العلمية، أنّ بعض الأساتذة الغيورين حذّر من بعض الكتب المنحرفة فكرياً، وطالب بمنعها في معرض الكتاب وغيره، حيث يقول الكاتب: " لم نستطع أن نفهم كيف ينادي أستاذ جامعي، قضى عقوداً من عمره في القراءة، بضرورة منع هذا الكتاب أو ذاك. لن نستطيع أن نفهم؛ كيف يسمح له ضميره (العلمي!) بمصادرة حق الآخرين في الاختيار القرائي، ما لم نع أن بنيته الذهنية – رغم جامعيتها وقرائيتها – تكونت عبر خطاب الجهل. يحدث هذا، بينما رجل الشارع الذي ليس لديه أدنى اهتمام قرائي، يفتح فاه متعجبا، كيف يكون الكتاب محظوراً، وكيف تكون المعرفة محرمة!. وهذا دليل على أن رجل الشارع أقل جهلاً من ذلك المشتبك منذ عقود مع خطاب الجهل)!!! " وهكذا يجعل رجل الشارع مقياساً للحكم، ولا أدري كيف يصنع بحديث عمر الخطّاب . رضي الله عنه . لمّا رأى معه النبيّ . صلّى الله عليه وسلّم . كتاباً أصابه من بعض أهل الكتاب، قال له مغضباً: "أمتهوّكون فيها يا ابن الخطّاب ؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية.. "، أخرجه أحمد وغيره وهو حسن بشواهده، فإذا كان هذا مع عمر الفاروق الذي أجرى الله الحقّ على لسانه؛ فكيف بغيره من الشباب والمراهقين ومن ليس عنده حصانة شرعية كافية!! .

وسيأتي المزيد حول هذه المسألة في مبحث خاص بإذن الله تعالى.

السمة الثامنة:

تنزيل الآيات التي جاءت في حقّ الكفرة من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين، على خصومهم المؤمنين من العلماء والدعاة وطلبة العلم:

وقد سلك هذا المسلك أشدّهم تطرّفاً وحقداً على السلفية، ففي مقال له بعنوان: (التفكير وإشكالية الوصاية) الرياض: ١٣٠٦٥، شتم فيه السلفية عدة شتائم، يقول: " إنّ ما نراه في الخطاب التقليدي . السائد ثقافياً على المستوى الشعبوي(!) خاصّة من محاولة التقليدية البلهاء . المتلبّسة بصيانة الأعراف والتقاليد و.. الخ . فرض الوصاية على أعين الناس، وعلى آذانهم، وألسنتهم وأقلامهم ليس بدعاً في سلوك

المنظومة التقليدية أياً كانت طبيعتها، فهي . دائماً . تسعى لتعطيل هذه الحواس التي هي نوافذ العقل، ومنها يستمد العقل مادته وتجتهد في لتقنيتها في أتباعها بفرض الوصاية عليها ليصبح الناس . إذا تعطلت لديهم فاعلية هذه الحواس ومن ثم تعطل العقل . كالأنعام بل هم أضل وهذه الحال شعر الأيديولوجي التقليدي أو لم يشعر منتهى الأماني لديه ". فهو يرى أن تحصين الناس من الأفكار المضللة، وحمايتهم منها، ضرب من ضروب الوصاية، ويرى أن ترك الناس بلا تحصين كافٍ ليعتنقوا مثل أفكاره المنحرفة التي يدعو إليها، ويدافع عنها، لذا فهو يرى أنّ : " مفردات من نوع (الإرشاد/ التوجيه/ الرعاية الفكرية/ الأمن الفكري/ التحصين ضد الأفكار الهدامة/ مروجي الشبهات/ التغريب/ البرامج الهابطة/ العهر الفضائي) " مفردات تستخدمها الثقافة التقليدية (السلفية) في وقوفها ضد الفكر الحديث (يعني فكره العفن) وصدق والله، فهو تحصين ضد الأفكار الهدامة ومروجي الشبهات من أمثاله، وهذا هو سر عدائه للسلفية..

والشاهد هنا من مقاله تنزيل الآية التي وردت في الكفار وهي قوله تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ }[الأعراف:١٧٩]، وقد أنزلها في الناس السلفيين الذين يفرض عليهم السلفي (التقليدي) . كما يزعم هذا الكاتب . وصايته، وسيأتي المزيد من الحديث عن الوصاية لاحقاً بإذن الله تعالى..

وفي مقال له بعنوان: (واحذرهم أن يفتنوك) الرياض: ١٣١٢٨، وهو جزء من آية في سورة المائدة، نزلت في اليهود وأذنابهم من المنافقين، وقد أنزلها في خصومه السلفيين، في مقال شتم فيه السلفية على عادته، وقد سبق الحديث عن هذا المقال..

وفي مقال له بعنوان: (من صور التطرف والاعتدال) الرياض: ١٣٢٨٢، سخر فيه من بعض مناصحيه من السلفيين، إضافة إلى شتم السلفية، والثناء على رموز التغريب؛ لم يكتف بآية واحدة، بل ثنّى بآيتين، إحداهما قوله تعالى: {اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ }[البقرة:١٥]، اقتصر على آخرها، وقد أنزلها في ما يراه ضحايا للمدرسة السلفية، وأطلق عليهم (الأبرياء المذنبون) حيث يجري توظيفهم

من حيث لا يشعرون(!)، يقول: " في الغالب لا يكون التوظيف مباشراً ومقصوداً، بل تفعل المنظومة التي يجري الترويج لها فعلها بقوة الدفع الذاتي فيها، دون أن يشعر بنوها أنهم في طغيانهم يعمهون "(!).

ثم يختم مقاله باتهام الناصح له بالتكفير فضلاً عن بذيء السباب(!)، على الرغم من أنه في هذا المقال يصف الصحوة الإسلامية بالمتأسلمة أو ما أسماه بـ (تيارات التأسلم) و(تيار الجمود والارتياب)، وهي تهمة تعني عدم الإسلام الحقيقي.

أما السباب؛ فقد ضمّن مقاله هذا عدداً لا بأس به من الشتائم للسلفية، إضافة إلى تهم الإرهاب وغيره، فضلاً عما في سائر مقالاته من السباب البذيء ليس للأشخاص فحسب، بل للمذهب والمعتقد، وبعد أن اتهم ناصحه بالتكفير والإرهاب(!) راح ينزل عليه آية نزلت في المنافقين، يقول: " أَتَذَكّر كل هذا وأقول: صدق الله العظيم القائل: {لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ }[التوبة:٥٧] "، وهكذا يرمي كل من اختلف معه تارة بالآيات التي نزلت في الكفار، وتارة بالآيات التي نزلت في المنافقين، ثم يرميهم بتهم التكفير والإرهاب(!!!!)، فأي إرهاب فكري أعظم من هذا الإرهاب.

وفي مقال له بعنوان: (ما بعد المعركة الخاسرة) الرياض: ١٣٣٠٣، شتم فيه السلفية على عادته، وتشفّى مما حدث في الفلّوجة من قتل ودمار، وسبب هذا التشفّي أنّ الفلّوجة تعدّ معقل السلفيّة في العراق، ثمّ أنزل عليهم آية نزلت في المنافقين بأسلوب تهكّمي ساخر، يقول: " انتهت معركة الفلّوجة، معركة خاسرة بلا ريب، انتهت معركة. ومعارك أخرى غيرها على صورتها (صورة طبق الأصل) في الانتظار ما دامت بيانات الحماس الديني والقومي تشعل أوارها، ومؤتمرات الأحزاب الحالمة تنفخ فيها بالكثير من غبائها التاريخي المجيد!. الإسلاموي(!) والقومي كلاهما نسي التاريخ خاصّة إذا ما كان تاريخ هزائم وعبر، مع أنّه تاريخ ليس بالبعيد، إنهم يفتنون في كلّ عام مرّة أو مرّتين ثمّ لا يتوبون ولا هم يذكّرون "(!!)، وهذه آية من سورة التوبة نزلت في المنافقين.

وفي مقال له بعنوان: (الاتصال والانفصال بين الديني والمدني) الرياض: ١٣٣٢٤، تفوح منه رائحة العلمنة، يذكر فيه إشكالية العلاقة بين الديني والمدني

عنده هو، وعلى عادته في شتم خصومه وتنزيل الآيات التي في الكفار عليهم، يقول: " حلُّ الإشكال يتمّ من خلال الوعي بدرجة تعقيده، لا بتبسيطه أو تجاهله في سبيل الأدلجة الماكرة بأصحابها قبل أن تمكر بغيرهم، وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال " وهذه آية من سورة إبراهيم نزلت في المشركين !!!.

وفي مقال له بعنوان: (المرأة من الأيديولوجيا إلى الإنسان) الرياض: ١٣٧٥٨، وعلى عادته قام بشتم السلفية، وعدّها (الخصم الأيديولوجي الشرس) للمرأة، ثمّ أنزل عليها آية نزلت في حقّ الكفار، يقول: " قبل استفحال الأيديولوجيا المتأسلمة (ويعني بها الصحوة الإسلامية المباركة) كانت المجتمعات على براءتها الأولى (يعني الجهل والغفلة) صحيح أنها كانت محكومة بأعراف وتقاليد تحدّ من حريّة الإنسان، وترسم له كثيراً من الخطوط التي قد لا يرضاها، لكنّها . على كلّ حال كانت بريئة من الارتياب الذي يقود إلى التزمّت(!) وإلى خلق مسارات للمجتمع ما أنزل الله بها من سلطان [ليته ذكر بعض هذه المسارات] وليست إلا من اتباع الظنّ، والظنّ لا يغني عن الحقّ شيئاً "..

وهكذا يشبّه هذه الصحوة المباركة التي قامت برعاية علمائنا الكبار من أمثال الإمام عبد العزيز ابن باز والعلامة محمّد العثيمين وغيرهما من الأموات والأحياء؛ بحال المشركين الذين قال الله فيهم:{إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى * وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً }[النجم: ٢٧، ٢٨]، ألا يعدّ هذا ضرباً من ضروب التكفير، أو في أقل الأحوال: التضليل الذي ينهون عنه من أجل إقامة مجتمعهم المدني المزعوم؟!!!.

والعجيب أنّ أحدهم كتب مقالاً في الجريدة نفسها بعنوان: (الشيخ السعدي وميتافيزقيا اللغة) الرياض: ١٣٠٥٨، اتهم فيه الشيخ العلامة المفسّر عبد الرحمن ابن ناصر السعديّ . رحمه الله . بإنزال الآيات الواردة في أذى المشركين والكفار للمؤمنين الصالحين، على قومه الذين ثاروا عليه وآذوه، وعدّ الكاتب ذلك معضلة، وأنّ الشيخ . رحمه الله . أخطأ طريق الإصلاح(!!!).. أمّا عنوان كتاب الشيخ السعديّ الذي انتقده هذا الكاتب النكرة فهو: (الإيضاحات السلفية لبعض المنكرات والخرافات الوثنية المنتشرة في قضاء الظفير)، ويلاحظ من خلال هذا العنوان أنّ القوم الذين

أنزل الشيخ السعدي عليهم الآيات ذوو خرافات وثنية، أي أنّهم أهل شرك وخرافة، ولو أنّ هذا الكاتب بدلاً من التنقيب في كتب الأئمّة الأعلام، واتّهامهم بما هم منه براء؛ نظر إلى كتابات زميله في الصحيفة الذي نقلتُ بعض مقالاته آنفاً، وهو يقوم في القرن الحادي والعشرين بتنزيل الآيات التي نزلت في الكفّار والمنافقين على المختلفين معه من أصحاب العقيدة السلفية؛ لو أنّه نظر إلى هذه الكتابات، لوجد فيها ضالّته التي أراد إنكارها، إن كان هذا هو مراده حقّاً، لكنّه عمي عن الجذع في عينه وعين زميله البذيء، وأبصر الذرة في عين غيره، بل أبصر الوهم، فيا لله العجب كيف يفكّر هؤلاء، وكيف يحكمون !!.

والأعجب من ذلك أنّ الكاتب الأوّل نفسه في مقال له بعنوان (الوحدة الاستراتيجية في التحالف الإرهابي) الرياض: ١٣٨٥٦، اتّهم بعض علمائنا الأجلاء بأنّهم ينزلون الآيات التي نزلت في المنافقين على أناس يعترفون بأنّهم أبناء مجتمعنا(!!) ثمّ يقول: " نسمع ونقرأ مثل هذا، ثمّ نسأل من أين يأتي التكفير..."، وهو الذي ما فتىء في مقالات كثيرة ينزل الآيات التي نزلت في المشركين واليهود على هؤلاء العلماء الأجلاء وغيرهم من عامّة السلفيين، فالحمد لله الذي جعله يحكم على نفسه بأنّه تكفيريّ جلد، بل خارجيّ كما ذكر في مقال له بعنوان (بيانات التطرّف وبيان الاعتدال) الرياض: ١٣٨٦٣، بأنّ هذه الصفة من صفات الخوارج المارقين، ولا شكّ بأنّ هذه الفئة الليبرالية الاعتزالية الضالّة، خارجة مارقة عن جماعة المسلمين في هذا البلد السلفي الأمين.

السمة التاسعة:

عدم قبول النصيحة، والسخرية من الناصحين، وبغضهم، والتشهير بهم

بل وصلت الوقاحة بأحدهم . وهو أشدّهم تطرّفاً . إلى التندّر بأشكالهم وخَلْقهم الذي هو خلق الله . عزّ وجلّ .!!

ففي مقال له بعنوان: (من صور التطرّف والاعتدال) الرياض: ١٣٢٨٢ ذكر فيه صورًا عدّة لمن ناصحوه، فسخر في إحداها من رجل فاضل حذّره من عميل الفكر الغربيّ طه حسين (أعمى البصر والبصيرة). وفي صورة أخرى سخر فيها من قريب له ناصحه(!) . وهو شيخ فاضل وأستاذ في العقيدة . بل أظهر الرحمة والشفقة

عليه(!) لأنّه كما يقول: " ضحيّة ثلاثين عامًا من الاشتغال على الصراع العقديّ ". وهكذا يصبح المشتغل بتصحيح العقيدة، وكشف فرق الضلال ضحيّة، ولا أدري ضحيّة ماذا؟!! ثمّ واصل سخريته باتّهام شيخ العقيدة بالتكفير، وبذيء السباب، وهو الذي ما فتىء يسب ويشتم السلفية وأئمّة السلف في صحيفة سيّارة!!

ثمّ يواصل في الجزء الثاني من مقاله (من صور التطرّف والاعتدال) الرياض: ١٣٢٨٩ السخرية من الناصحين فيذكر قصّته مع أستاذ العقيدة في جامعته الذي زاره في البيت لمناصحته، وأطال عنده الجلوس، وهو لم يقرأ كتاباته . الرواية من طرف واحد .، إلى أن قال: " ولولا رقّة في أخلاقه، وسماحة تندى بها ملامحه (لم تكن سماحة، وإنّما كانت بلادة وبلهًا وخمولاً) لطردته غير آبه.. "، بهذه البذاءة يصف علنًا من جاء يناصحه سرًا ويحذّره من كتاباته البذيئة، وأفكاره المنحرفة.

ولم يكتف بذلك، بل واصل سخريته واستهزاءه ذاكرًا أنّ اللقاء استمرّ ساعات طويلة، وصف ما تمّ فيها بأنّه " من الهراء الميّت الذي لا طعم ولا رائحة له، ولم يكن للكلام من دور فيها إلا تحسين العلاقات الثنائية بين الطرفين عاطفيّاً لا فكريًا..".

ثمّ يضيف ساخرًا . وما أقبحها من سخرية .: " وكنت في تلك الأثناء وأنا أنظر إليه، لا أستمع إليه، بقدر ما أتأمّل مقدار ما تحمله تلك العيون الخاملة، والأهداب الذابلة، والجفون المسترخية، من معاني الغباء والبلادة والخمول التي تكاد لكثافتها أن تمتدّ بعدواها إلى متأمّلها، بل والجماد حولها "!!!! فهل ثمّة بذاءة ووقاحة أعظم من هذه البذاءة والوقاحة، وفي صحيفة سيّارة؟ لا أظنّ.

ثمّ ختم هذه الصورة باتّهام هذا الأستاذ الناصح بالتكفير، وهي تهمة جاهزة لكلّ من أقدم على نصح هذا الكاتب، وتحذيره من مغبّة ما يكتب، ومن أمن العقوبة، أساء الأدب.

وفي مقال ساخر لأحدهم بعنوان (حرّاس الله !!) الوطن: ٢٩٣، . والسخرية بادية من العنوان . سخر فيه من أحد مناصحيه، بعد أن نشر هذا الكاتب النصيحة على الملأ، ثمّ عقّب على هذه النصيحة قائلاً بسخرية سمجة سخيفة: " يا رب ليس لنا إلا أنت، نحتمي بك سبحانك من (حرّاسك)..".

وعلى عادتهم في قلب الحقائق والتلبيس على الناس وإلقاء التهم جزافاً، فقد اتّهم مناصحه بالحكم على نواياه وما في قلبه قائلاً: " ولكنّ (حرّاسك) يؤذون قلوبنا حين يدّعون معرفة ما فيها، وكأنّهم أنت والعياذ بالله ممّا يصفون.. "، مع العلم بأنّ هذا الكاتب قد كتب عدّة مقالات تهجّم فيها على المحاكم الشرعيّة، وسخر فيها من الحجاب!! والناس ليس لهم إلا الظاهر، أمّا ما في القلوب فعلمه عند الله تعالى.

وفي مقال لأحدهم بعنوان: (الفرق بين العادة والعبادة) الرياض: ١٣٨٨٣، سخر فيه من شابّ ناصحه، يقول هذا الكاتب: " بينما كنت أيمّم وجهي شطر باب المسجد هامًّا بالخروج منه بعد انقضاء إحدى الصلوات؛ اندفع إليّ شابّ حدث لا يكاد يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، وبدأ في إبداء نصائحه لي تجاه ما يراه أخطاء وقعت بها أثناء قضاء ما فاتني من الصلاة، وهي في الحقيقة لم تكن أخطاء بقدر ما صوّرت له ذهنيته الآحاديّة أنّها كذلك..". وهكذا نجد أنّ التهم عند هؤلاء جاهزة لإلصاقها بالناصحين، فبدلاً من تقبّل النصيحة بصدر رحب، وشكر الناصحين عليها، نراهم يسخرون منهم علنًا في صحف سيّارة، ويرمونهم بالتهم الجائرة. وحتى لو كان هذا الناصح مخطئاً أو مستعجلاً، كان الواجب تشجيعه على هذه الروح الناصحة، المشفقة على الغير، وتعليمه الطريقة المثلى للنصح، بدلاً من السخرية به، وكيل التهم له، انتصارًا للنفس.

السمة العاشرة:

التناقض الصارخ فيما يأمرون به وينهون عنه

وهو نتاج طبعي للتخبط، واختلال المنهج، والبعد عن منهج الحقّ، فكلمّا كان المرء قريباً من منهج الحقّ؛ كان أقلّ تناقضاً في أقواله وأفعاله، والعكس صحيح: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً }[النساء: ٨٢].

ومن ذلك:

١. أنّهم ينهون عن التضليل والتبديع والتفسيق، وهم يفعلون ذلك، فيبدّعون العلماء والدعاة وطلاب العلم الذين هم على منهج السلف، وقد كتب أحدهم مقالاً نشره في أحد مواقع الأنترنت المشبوهة، وتواطأت الصحف المحليّة على نشره، وكان عنوان

المقال (الصحوية والصحويون!!) الجزيرة: ١٢٣١٨، شكّك فيه بالصحوة الإسلامية المباركة، وضمّنه الكثير من المغالطات والافتراءات والتهم والنقولات المبتسرة، وفاحت منه رائحة العلمنة، خلص فيه إلى ما نصّه: " ممّا تقدّم يتّضح لنا بجلاء أنّ الصحوة هي التي فجّرت منابع الإرهاب، وأنّ أدلجة المذهب السنّي أدلجة سياسية محضة هي قلب الصحوة النابض، وأنّ فكرة التنظيم – الكهنوت هو الوسيلة، وهو أسّ البلاد، وأنّ استثمار قضايا المرأة السعوديّة هو استثمار سياسي بحت، وأنّ مذهب أهل السنّة والجماعة شيء، والصحوة في جوهرها وأهدافها شيء آخر ".

وهكذا بجرّة قلم يحكم الكاتب الصحفيّ(!) على قطاع كبير من مجتمعنا يمثّل الأغلبيّة من العلماء والدعاة والصالحين ومن يثق بهم من سائر أبناء مجتمعنا، وهم عامّة الناس، بل على مجموعات كبيرة في العالم أجمع تفتخر بانتمائها إلى هذه الصحوة ولله الحمد، يحكم عليهم بأنّهم ليسوا على مذهب أهل السنّة والجماعة، وإنّما هم شيء آخر، أي ضلاّل مبتدعة، ولعمر الله إنّ هذا لشيء عجيب، وقلب واضح للحقائق المبينة، فالذين ينافحون عن مذهب أهل السنّة والجماعة وسلف الأمّة أصبحوا اليوم ليسوا من أهل السنّة والجماعة، أمّا الذين يطعنون في مذهب أهل السّنّة والجماعة وسلف الأمّة كابن تيمية الذي قال عنه هذا الكاتب .كذباً وزوراً . إنّه يحرّم الكيمياء المعروفة اليوم(!) والذين يبالغون في الثناء على الغرب، فهم الهداة المهتدون، وهم أهل السنّة عند هذا الكاتب، فأيّ تناقض بعد هذا التناقض.

٢.

البحث لما يكتمل.....

(١) صواب الآية: (يا أيها الناس اتقوا ربّكم الذي خلقكم من نفس واحدة..) [النساء: ١].

=============

برنارد لويس: حملاتنا الصليبية ضرورة لوقف انتشار الإسلام

شبكة نور الإسلام

أكد الكاتب والمحلل السياسي الإنجليزي الأصل الأمريكي الجنسية "برنارد لويس" أن الحملات الصليبية قديماً وحتى بعد أحداث ١١ سبتمبر كانت ضرورة ملحة لوقف

موجات الإسلام من أن تنتشر في مناطق كثيرة من العالم وبالأخص مناطق أوروبا، ووصف الحملات الصليبية الغربية والأمريكية علي منطقة الشرق الأوسط بالمتأخرة.

ونشرت صحيفة "وول ستريت جورنال" مقالاً قالت فيه: إن "برنارد لويس"(٩٠ عاماً) المؤرخ البارز للشرق الأوسط قد وفر الكثير من الذخيرة الأيديولوجية لإدارة بوش في قضايا الشرق الأوسط والحرب على الإرهاب، حتى أنه يُعتبر بحق منظرا لسياسة التدخل والهيمنة الأمريكية في المنطقة.

قالت الصحيفة إن "لويس" وصف هجرة المسلمين إلى أوروبا بأنها هجوم إسلامي على الغرب، ودافع عن الحملات الصليبية معتبرا أنها تقليد متأخر ومحدود و ناجح للقضاء علي الجهاد' أدت إلى منع نشر الإسلام في كثير من مناطق العالم.

أضافت الصحيفة: إن لويس قدم تأييدا واضحا للحملات الصليبية الفاشلة وأوضح أن الحملات الصليبية، على بشاعتها، كانت رغم ذلك ردا مفهوما على الهجوم الإسلامي خلال القرون السابقة، وأنه من السخف الاعتذار عنها.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يشير فيها "لويس" إلى الحملات الصليبية باعتبارها ضرورة، بل محاولة ناجحة للحد من نفوذ الحضارة الإسلامية.

فبعد وقت قصير من هجمات ١١ سبتمبر كتب "لويس" يقول: إن الحملات الصليبية يمكن وصفها بشكل أكثر دقة باعتبارها ردا محدودا ومتأخرا، وفي التحليل الأخير غير فعال، للرد على الجهاد.

ويؤكد البعض أن تكون كتب لويس المشتبكة مع تاريخ الشرق الأوسط والسياسة قد دعمت السياسة الخارجية الكارثية لإدارة بوش في الشرق الأوسط.

ومن بين التحليلات المهمة للوجود السياسي لبرنارد لويس في فترة ما بعد ١١ سبتمبر ما كتبه "إيان بوروما" في مقال بعنوان "فُقد في الترجمة" والذي نُشر في صحيفة "نيو يوركر" في ٢٠٠٤، وقد وصف "بوروما" في مقاله هذا "لويس" بأنه صديق للعديد من رؤساء الوزراء الإسرائيليين، كما قال "بوروما": إن البعض سعى إليه بعد ١١ سبتمبر، حيث دعاه "كارل روف" للحديث في الشرق الأوسط، كما أن ديك تشيني من بين المعجبين به، مضيفا: أن "لويس" ساند صديقه أحمد الجلبي من أجل القيام بدور رئيسي في العراق.

كما انتقد "مايكل هيرش" المحرر الكبير في" نيوزويك" برنارد لويس بحدة في مجلة "واشنطن منثلي" قائلا: إن سوء قراءة أمريكا للعالم العربي –ومصيبتنا في العراق– ربما تكون قد بدأت في ١٩٥٠".

وطرح لويس في زيارته إلى تركيا تصور نصراني غربي مفاده "ديمقراطية عربية مُعلمَنة ترمي بقيود الإسلام التي تعود إلى القرون الوسطى وتدخل المدنية أخيرا".

وأشار هيرش إلى أن المنطق الأساسي للإدارة في احتلالها للعراق، بعد الفشل في العثور على أسلحة دمار شامل، كان هو ما أطلقت عليه وول ستريت جورنال "عقيدة لويس"، ولكن بدلا من أن ينتج عن هذا "حكومة غربية، يتم تشكيلها وفرضها من أعلى مثل تركيا الكمالية، تكون حصنا لأمن أمريكا ونموذجا للمنطقة" أشار هيرش إلى أن ما يُسمى بعقيدة لويس، التي تم تطبيقها في العراق من خلال الاحتلال، "انتقلت من (مجتمع) علماني إلى مجتمع يتزايد تشددا وأسلمةً".

ورغم أن قليلا من المراقبين وثيقي الصلة بالشرق الأوسط يقولون إن فكرة إيجاد شرق أوسط علماني وديمقراطي أمر مرغوب، فإن منتقدين يشيرون إلى أن ظروف تفكك الإمبراطورية العثمانية كانت مثالا فريدا في تركيا، وأن ثمة عوامل أدت إلى تعقيد التطور السياسي للشرق الأوسط بشكل كبير، مثل إنشاء الكيان الصهيوني والاحتلال الأجنبي للشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الثانية (وخاصة فيما يتعلق بالنفط)، وسياسة الحرب الباردة، وسقوط الحكومات المنادية بالقومية في الشرق الأوسط.

ورغم أن مصطلح "صدام الحضارات" يرتبط عادة بالمفكر المحافظ صمويل هنتنجتون، فإن لويس كان هو من قدم التعبير أولا إلى الخطاب العام، ففي كتاب هنتنجتون الصادر في ١٩٩٦، يشير المؤلف إلى فقرة رئيسية في مقال كتبه لويس في ١٩٩٠ بعنوان "جذور الغضب الإسلامي" قال فيها: هذا ليس أقل من صراع بين الحضارات، ربما تكون غير منطقية، لكنها بالتأكيد رد فعل تاريخي على منافس قديم لتراثنا اليهودي المسيحي، وحاصرنا العلماني، والتوسع العالمي لكليهما.

وقد طور لويس روابطه الوثيقة بالمعسكر السياسي للمحافظين الجدد في الولايات المتحدة منذ سبعينيات القرن العشرين؛ حيث يشير جريشت، من معهد العمل

الأمريكي، إلى أن لويس ظل طوال سنوات "رجل الشئون العامة"، كما كان مستشارا لإداراتي بوش الأب والابن.

وفي ١ مايو ٢٠٠٦ ألقى تشيني خطابا يكرم فيه لويس في مجلس الشئون العالمية في فيلادلفيا؛ حيث تذكر تشيني أن لويس كان قد جاء إلى واشنطن ليكون مستشارا لوزير الدفاع في ذلك الوقت بشأن الشرق الأوسط بعد غزو العراق للكويت.

وقال تشيني: "لقد قررت في ذلك اليوم أن هذا رجل أريد أن أكون على اتصال به، وأنه ينبغي أن أتابع عمله بدقة في السنوات القادمة"، وفي ١٩٩٨ وقع لويس خطابا أرسلته لجنة السلام والأمن في الشرق الأوسط إلى الرئيس بيل كلينتون يطالب بـ"إستراتيجية سياسية وعسكرية شاملة لإسقاط صدام ونظام حكمه".

ومن بين الموقعين على هذا الخطاب صقور البيت الأبيض، منهم ريتشارد بيرل وجون بولتون ودونالد رامسفيلد وفرانك جافني وبول وولفيتز ووليام كريستول وروبرت كاجان وإليوت أبرامز ودوجلاس فيث وزلماي خليل زاد.

يُشار إلى أن لويس، وهو أستاذ متقاعد في جامعة برنستون، ألف ٢٠ كتابا في الشرق الأوسط، من بينها "العرب في التاريخ" و"صعود تركيا الحديثة" و"اكتشاف المسلمين لأمريكا" و"الصدام بين الإسلام والحداثة في الشرق الأوسط الحديث" و"أزمة الإسلام: حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس".

===============

ماذا قدم الإسلام للمرأة ؟

أخواتي الكريمات: حديثنا اليوم إليكن حديث قديم جديد مألوف متكرر أنه مساحة للحوار وفرصة للتشاجي والتشاكي حول قضية من أصخم القضايا المطروحة على الساحة الفكرية، ألا وهي المرأة. خاض فيها من خاض وبحث فيها من بحث وقال فيها من قال بحق حينا وبباطل أحياناً أخرى وادعى إنصاف المرأة وتباكى على حقوقها الضائعة المسلوبة زعموا بدموع التماسيح طائفة من الأقلام تطوعوا للدفاع عن قضيتها أعني المرأة تطوع الفضولي الذي لم يفوض وإن شت قلت كتيبة من الكتاب المجندين من عملاء الفساد والتخريب {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ

الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ}. والجميل هذه المرة والرائع في هذا البحث والحوار أن الذي يناقش قضية المرأة هي المرأة نفسها، هي تعرب عما في نفسها وتتحدث عما في خاطرها دون وصي أو ولي فتعالين: نتعرف على البداية وما هي قضية هذه المعركة! هكذا صورت معركة هي حقا معركة سلاحها الأقلام والأفهام ووقودها النساء والمداد وساحتها جبهة عريضة من وسائل الإعلام بشتى صورها وأنماطها وإن كان هذا الاستعراض غير مطلوب مني وقد يتداخل في المساحة المقررة لأخريات ولكنها مقدمة لا بد منها فلتحتملنها ولو على مضض.

أولاً وقبل كل شيء: لنعرف أن الحضارة التي يدعى إليها في هذا العصر حضارة غربية وإن شئت قلت حضارة إباحية كافرة، حضارة أجنبية يهودية ونصرانية شاء ما شاء وأبى من أبى حقا إن الحضارة الآن تكتب من الشمال كما يقولون. ومع ذلك الانفجار العلمي والتقني الهائل الذي بهر العقول بمنجزاته وصناعاته والذي يحمل الماركة الغربية التي شع منها شعاع الحضارة المادي المعاصر، مع ذلك كله طفح على الساحة فيض من الأفكار المنجرفة المنحرفة والتي أرادت أن تتعامل مع الإنسان ومنه المرأة كما تتعامل مع الآلة تماما وأرادت أن تخضع قيمة وأخلاقه بل وعقائده للتجارب كما تخضع عناصر المادة لذلك في المعامل والمختبرات ومع استيراد الآلات والمصانع من الغرب للشرق وردت أو استوردت أخلاق غريبة عجيبة في الإنسان والكون والحياة بهر الشرق بها كما بهر بالمنجزات الغربية واعتبرت مسلمات ثبوتية لا تقبل النقاش ويكفي لكثير من الناس في الشرق المهزوم مبرراً لصحتها إنها وردت من الغرب وهبت معها رياح التغيير. ولئن كان للتمرد على الدين والقيم في الغرب إبان التحول من القرون الوسطى وعصور الظلمات إلى العصر الصناعي والثورة العلمية ما يفسره ولا يبرره أقول يفسره ولا يبرره، فهل يوجد في شريعة الإسلام وبلاد المسلمين مثل ذلك اليوم.

أخواتي الكريمات:

إن الكنيسة الغربية النصرانية خرجت على الناس في العصور الوسطى بنظريات أبعد ما تكون عن روح الشريعة ونقاء العقيدة في الكون والحياة والإنسان نظريات في الوجود تصادم الحقائق العلمية الثابتة ونظريات في الكون تصادم المحسوس

والملموس ونظريات في الإنسان والمرأة بالذات تعارض الفطرة والدين مثل الأساقفة والكرادلة والبابوات والأباطرة هل المرأة لها روح أم لا؟ هل هي كائن شيطاني أم إنساني؟ هل وهل؟؟ إلى غير ذلك من النظريات التي أصيخت بها الأسماع وشغلت بها الساحات الفكرية وامتحنت بها العقول على طريقة الجدل البيزنطي المشهور. هل الدجاجة من البيضة أم البيضة من الدجاجة، وأيهما كان أولاً، والويل كل الويل لمن كذب أو يرتاب فصكوك الحرمان والمقاصل جاهزة معدة وكلها تحت رواق الكنيسة رمز الدين والإيمان ومع إشراقة شمس الحضارة الإسلامية على العالم ومنه على أوروبا الغارقة في ذلك الوقت في غياهب الجهل والخرافة والتزمت استيقظت أوروبا وكان العالم في الظهيرة وحان في ذلك تنفس عظيم لمجموعات البحث والكشف العلمي المضطهدة والتي كنت تتململ في قمقمها وأكتشف الناس كذب وزيف هذه النظريات بانبلاج شمس الحضارة (وشمس الحقيقة تحرق المغالطات). فثار الناس في أوروبا على الكنيسة والبابوات والأباطرة المتواطئين معهم لتقاطع المصالح وتلافيها بينهم، ثاروا ثورة عارمة على الدين كله فكانت (العلمانية) فصل الدين عن الدولة في المدنية الحديثة، ثاروا على الكنيسة التي حرمت العلم الصحيح والتفكير السليم التي ظلمت المرأة وتتبعتها بالحرب والإبادة بحجة أنها عنصر شرير فاسد.

أقول مجدداً: أخواتي الكريمات إن كان لهذه المعركة في قضية الكون والحياة والوجود ما يفسرها في عالم الغرب فهل يوجد هذا في عالم الشرق إن كان لهذه الثورة على الكنيسة ما يعلله فهل يوجد لحرب المسجد من مبرر إن كان لإعلان الثورة على النصرانية أسباب فهل يوجد سبب واحد لإعلان الحرب على دين الإسلام. أخواتي: هكذا أردت أن أرجع بكن إلى الوراء لتتبع فلول القضية وجمع شتاتها حتى لا تفهم مبتورة مجردة أنها قضية ضخمة كبيرة خطيرة ليست قضية خاصة بالمرأة وحدها.

فأولاً أقول: ينبغي تقرير مسألة أحسبها فاصلة في القضية وهي: أن أحداً أو محوراً قد يتفوق في جانب الحياة دون جانب ولا يعني تفوقه في جانب تفوقه في كل الجوانب. نقترب من الحقيقة أكثر: لنفترض أن الغرب حاز السبق في الصناعة والتقنية وسجل إنجازاً واضحاً فهل يعني ذلك أن جميع ما جاء منه من نظريات ودراسات اجتماعية ومدنية وأخلاقية حق لا يقبل النقاش؟ وهكذا حلا للبعض أن

يصور لكن نظرة إلى واقع الغرب ونظره إلى منهج الإسلام تنسف كل هذا الفهم المغلوط من القواعد. نظرة إلى الأسرة الغربية وما تعيشه من جحيم التفكك والتمزق والقطيعة والنظرة إلى المجتمعات الغربية وما تحياه من أثرة وجشع وأنانية يسحق العجزة والضعفاء والأيتام والمعلقات والمطلقات والمعوقات تحت جنازير الحياة الرأسمالية البائسة التافهة الحقيرة، مثلها أو قريب منها في الشرق الاشتراكي. ونظرة إلى شباب الغرب وما يعيشه من مخدرات وعلاقات وصداقات محرمة. ونظرة إلى المرأة وما تعيشه من بؤس وشقاء واستضعاف إلى درجة الاستبعاد وإقحام لها في مجالات الرجال بحجة المساواة حتى زاحمن الرجال في سفلتة الطرق وقيادة الشاحنات وقطع الصخور وحتى قطعت يديها الآلات والمكائن وشحب لون وجهها وأذهب أنوثتها دخان المصانع وغبار الطرق ناهيك عما تعيشه من وضع أخلاقي مدمر، ومعذرة مرة أخرى على تجاوز الموضوع المقرر ولكنها مقدمة ضرورية أقول نظرة إلى هذا كله ثم كرة أخرى إلى شريعة الله الطاهرة المطهرة كما هي في القرآن والسنة تكذب ذلك الفهم المنكنوس والفكر المنحوس وتدحضه وتدفعه فإذا هو زاهق فلكم الويل مما تصفون. نظرة الإسلام للمرأة والآن إلى نظرة الإسلام للمرأة أقدمها باجتهاد شخصي ونظرة قاصرة فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن الشيطان والله ورسوله منه بريئان.

أخواتي العزيزات: ينبغي أن نفهم أولا وقبل كل شيء: أنها مسألة دينية إلهية لا بد فيها من استسلام العبد والأمة إلى الإله المعبود والتحاكم إلى شرعه والإسلام يعني الاستسلام على منهج الخليل: إذ قال له ربه { أَسْلِمْ } قال {أَسْلَمْتُ}ولا تثبت قدم الإسلام على ظهر التسليم والاستسلام، ومن شغب على الشريعة وعاند الله في شرعه وضاد الخالق في حكمه فذلك خارج عن الإسلام ملحد بالله العظيم، والله يقول {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ} أي الطائعين لله المستسلمين لحكمه ويقول المولى أيضاً: {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدىً مُسْتَقِيمٍ} فالمنازعة مرفوضة، والمعاندة مردودة ومن نازع في حكم الله ورسوله

في المرأة فهو كمن ينازع في عدد الصلوات والركعات وانصبة الزكوات. إذ تقرر هذا فإن الإسلام حدد نظرته للمرأة من خلال المعالم والسمات التالية:

أولاً: إن المرأة شقيقة الرجال، قال رسول الله صلى الله عليه ونسلم : "إنما النساء شقائق الرجال" {صحيح أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي عن عائشة وأخرجه البزار من حديث انس نحوه بلفظ مقارب}. وهي مخلوقة من عنصر الرجل ومادته لا فرق بينهما في أصل الخلق {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً}. {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا}.وبهذا يفهم البون الشاسع والبحر الواسع بين الإسلام والنصرانية المحرفة التي تشكك هل المرأة عنصر طاهر أم رجس أم نجس؟ وهل هي كائن شيطاني أو إنساني؟ وهل لها روح أم لا ؟ الخ....

ثانياً: الله سبحانه وتعالى فرق ين تكوين المرأة والرجل نفسياً وعقلياً ومزاجياً ووظيفيا وجعل بينهما فرقا كبيراً بين تكوني الليل إذ يغشى النهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى فشتان بين الرجل بصلابته وجلده وشدته وقوته وبين المرأة وأنوثتها وضعفها وسرعة انفعالها وتأثرها وحيضها ونفاسها، وهذه ليست عيوبا ولكنها أمور خلقت في المرأة وبهذا يعلم بأن لكل عمله المناسب ووظيفته اللائقة والمداخلة بينهما ظلم وجور وإجحاف صارخ وإذا أردتن فهم المسألة فأقلبنها وبضدها تتبين الأشياء. ولن أتكلف البحث عن الأدلة الشرعية على ضعف المرأة عقليا وبدنيا ونفسيا وهي موجودة ومفورة لكن اكتفى بالنظرة إلى الواقع والتاريخ والحياة وأعنى هنا الأغلب والحكم للأغلب وإلا فرب امرأة خير من ألف رجل ثم إن هذا الضعف ليس نقصاً ولا عيباً فيها ولكن فطرة الله سبحانه وتعالى له الحكم عديدة لا يحيط بها حصر أو وصف. أقول كم عدد المخترعات من النساء وما نسبة المؤلفات منهن إلى الرجال، وهل عرف منهن قائدات جيوش؟ وصانعات حروب وفاتحات مدن؟ إلا النزر اليسير وما نسبة السياسيات البارعات ورئيسات الدول حتى لدى الدول التي صدرت لنا منها هذه الأفكار الجانحة في أمريكا مثلاً، هل أعتلي عرش الجمهورية رئيسة واحدة منذ عهد (إبراهام لنكولن) و(جورج واشنطن) إلى اليوم. فلماذا يا أمريكا عدم الثقة بالنساء أم أنه نداء الفطرة الغالبة القاهرة.

ثالثاً: ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة تماما في التكاليف الشرعية وذلك من حيث الثواب والعقاب والخير والشر فلا تحمل نفس جريمة غيرها ولا تزر وزارة وزر أخرى يتبين هذا من خلال حشد هائل من نصوص المصدرين مثال لذلك: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً}. {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}. {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً}.{فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ}. غير أن هاهنا نقطة تسجل لإسلامنا العظيم وشريعته الغراء وهي: أنه أعفى المرأة اعترافاً بضعفها من المهام الشاقة والوظائف الصعبة التي كلف بها الرجل من ذلك الجهاد، صلاة الجماعة والجمع والعمل والقوامة مثلاً، ومع ذلك فلها أجر الجهاد كاملاً غير منقوص، قالت عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله نرى الجهاد أفضل الأعمال أفلا نجاهد قال: "لكن أفضل من الجهاد حج مبرور" وفي رواية قالت: هل على النساء جهاد؟ قال: "عليهن جهاد لا قتال فيه، الحج والعمر"، ثم أن هناك أمور أعفيت منها المرأة صيانة لها وحفاظا علهيا كالأذان والإقامة فإنهما لا يشرعان للنساء. فما أروع شريعتنا وديننا إذا راعت الحال للجنسين وكلفت بمقتضاها، تنزيل من حكيم حميد {أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}، تصورون يا أخواتي لو كان الجهاد علينا فرض كالرجال، من التي تسل سلاحها، من التي ترد رماحها، إنها لا تستطيع ملازمة ساحة المعركة ولا تنطح العدو ولا تطيق من ذي تطيق نطاحها الحرب باشباحها ومخاوفها وصياحها ولهذا أراحها الله وأباحها إن أقبلت أشباحها، أو أزهقت أرواحها، أو ودعت أفراحها.

رابعاً: أن الإسلام كرة المرأة وأعزها بحق وحقيقة بما لم تظفر به في شريعة ما قديماً وحاضراً وحظيت بمكان ومكانة عظيمة في شريعة الله الخالدة وانتشلها الإسلام من

وضع جهنمي مأساوي كانت تعيشه قبل تكريم الإسلام لها ولنضرب من الواقع أمثلة يتضح بها سمو مكانة المرأة في الإسلام. ففي شريعة حمورابي الملك الأشوري لا يسمح للمرأة بالخروج من بيتها إلا مع زوجها أو إلى قبرها، وفي شريعة الرومان كما سبقت الإشارة إليه واليهود يعاملونها على أنها رجس من عمل الشيطان وإذا حاضت لا تخالط ولا تؤاكل ولا تعاشر، فقال عليه الصلاة والسلام فيما صح عنه: "خالفوا اليهود واصنعوا كل شيء إلا النكاح" ولدى النصرانية يعتبرون المرأة أصل الخطيئة وأنها أغوت آدم حتى أكل من الشجرة وفي أسفارهم المكذوبة على الله في التوراة والإنجيل إن الله عاقبها على ذلك بآلام الحيض والنفاس والوضع والولادة. وفي الجاهلية العربية يعدونها من سقط المتاع لا يملك بل تملك كسائر المتاع فإذا مات زوجها تسابق الورثة عليها فمن ألقى رداءه عليها أولا ملكها ولا تعطى من الإرث شيئاً يقولون كيف نعطي من لا يركب فرساً ولا يحمي عشيرة ولا ينكأ عدوا ولا يحمل سيفاً! وإذا بشر أحدهم بظل وجه مسودا وهو كظيم وربما وأدها حية في التراب ولهم في ذلك أخبار بشعة، فجاء الإسلام حاميا لها بتعاليمه التي أحدثت ثورة عارمة على وضع مأساوي تعيشه المرأة فأعطاها الحق في الميراث {لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً}. وحماها بعد الولادة وندد بأفعال الجاهلين في وأدها وأعتبرها جريمة كبيرة وعظيمة وسيسألون عنها: {وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ} {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيم * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} ، {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ}.

خامساً: ثم أوصى بها وصاية متنوعة: قوله عليه الصلاة والسلام فيما صح عنه أوصى بحفظ حقها بوجه عام من ذلك: "إني أحرج حق الضعيفين المرأة واليتيم"، وقال: "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي"، وقال: "استوصوا بالنساء خيراً" والتمس لها العذر في ضعفها فلا تؤاخذ بكرهها وطلاقها، وقال: "لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضي منها آخر" وقال: "الدنيا متاع المرأة الصالحة"...ألخ. وأوصى بها أماً: فإن أعظم حق بعد حق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم حق المرأة

الأم: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً}. ولما سأله الصحابة من أحق الناس بحسن صحابتي قال: "أمك، ثلاثاً قال ثم من قال أبوك". وأوصى بها بنتاً: فهي البنت التي من عالها وأحسن إليها كانت له ستراً من النار وحجاباً منها. وأقف هنا لأتذاكر معك أختي العزيزة كيف يحسن الوالدان إلى البنت ما الإحسان الذي يشير إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم هنا ويحث عليه، أهو بشراء الجديد وأكل الحلوى المتنوعة والتسكع مع البنات في مراكز التسويق؟ هل هو يتنميق الملبس وتعدده؟ هل هو بإلقاء الحبل لها على الغارب تيم حيث شاءت دون حسيب أو رقيب؟ لا إن هذه أمور ليست مراده وإن أنزلق في بعضها كثير من الأباء والأمهات فضاعوا وأضاعوا بين التفريط والإفراط. إن الإحسان المطلوب شرعاً للبنت هو صيانتها وحفظها كما تحفظ الجوهرة الثمينة، وتصان مشاعرها فلا تعنف ولا تجرح بل تكرم وتربى تربية إسلامية صحيحة على العقيدة السليمة وعلى دأب نساء خير الأمة. كما أوصى بها زوجة: فهي الزوجة التي أوصى بها الرسول صلى الله عنه وسلم في أحاديث سلف بعضها فماذا تريدين أختاه بعد هذا والجنة تحت أقدامك ورضا الله من رضاك وسخطه من سخطك – الله أكبر – ولو كره الكافرون.

رغم الشقي أخو الجهالة ... المفتري إفكاً لدين محمد

الزاعم الكذب الجزاف بأنه ... قدر النساء بها كقدر الأبعد

حاشا وكلا والذي فلق ... بل حظها حظ العزيز الأسعد

أم لها عدد الحقوق ثلاثة ... بنت حجاب جهنم إن ترشد

وهي العقلية كم أتت من ... يوصى بها خيراً بسنة أحمد

أخت العقيدة تلك شرعة ... عضي عليها بالنواجذ واليد

سادساً: أوصى بها أن تستأذن فيما يخصها ويعنيها في النكاح والمبايعات ونحوها واعتبر الإسلام رضاها في النكاح عكس ما كانت الجاهلية تفعل، واعتبر لها الملكية كالرجل لا تنازع ولا يحجر عليها إلا لسفه أو فلس كالرجل ولها حقها في المهر والنفقة والكسوة والمسكن وأحب الرجال إلى الله وأكرمهم من أسخاهم بذلك نفسهاً، وسجل لنساء كمواقف محمودة مشهودة: (كمل من النساء أربع)، ورفرف لهن في سماه المجد رايات خالدة وسجل الإسلام والتاريخ مشاهد فاضلة كامرأة فرعون، ومريم

ابنة عمران، وأم موسى، وسارة، وهاجرة، ومريم، وخديجة، وعائشة، ألخ... رضي الله عنهن. وأعطاها الحق في التعامل بالبيع والشراء والهبة والإجارة والصلح، والشركة والوقف كالرجل وغير ذلك من عقود المعارضة والإرفاق. وحماها نفسياً وعاطفياً أن تضار بولدها في الرضاع والنفقة وأن تخرج من بيتها إن طلقت رجعيا: {وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنّ}وغير ذلك من أحكام وليس المقام مقام حصر والمطلوب تدبر القرآن ومراجعة دواوين السنة الحافلة بالأحكام الرائعة ولسنا بذلك نحاكم الإسلام أو نضعه في قفص الاتهام أو حتى ندافع عنه معاذ الله فهو شريعة الله الباقية ودستوره الصالح بل المصلح لكل زمان ومكان.

أخواتي الفاضلات: أعذرنني إن أطلت وحتى يأخذ موضوعنا شكله المتكامل لا بد أن نجيب على تساؤلات تطرح شغبا وكيداً وربما أوحدت لدى البعض شبها من المناسب إيضاحها وكشفها، من ذلك:

١- لماذا جعل الإسلام العصمة بيد الرجل؟

والجواب : لأن المجرب المعروف بالطبع أن المرأة أسرع انفعالا وأقل تفكيراً في العواقب، فتصور لو كانت العصمة بيدها ما الذي كان قد يحدث وهناك قصة طريفة، يحكى أن رجلاً أراد أن يداعب زوجته فاتاها يوما وتظاهر بالحزن ولما سألته قال: قيل لنا إن العصمة نقلت اليوم إليكن وأخشى أن تطلقيني فطفقت تحلف له الأيمان وتؤكدها وتوثقها أنها لا تفعل أبدا لو عاش معها قرونا كثيرة، غير أنه لم تغب شمس ذلك اليوم حتى نشب خلاف عادي بينهما فانتهي إلى أن طلقته مائة طلقة، وهناك كشف لها الحقيقة.

٢- لماذا جعلت المرأة على النصف من الرجل في الشهادة، شهادة المرأة بنصف شهادة الرجل وكذلك في الميراث والعقيقة والدية؟

الجواب: أما الشهادة فينبغي أن يعلم هذا في الأمور المالية فقط قال تعالى في آية الدين في سورة البقرة: {فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ} ذلك أن الرجل أكثر ممارسة للبيع من المرأة وأكثر ضبطاً، ولذا فإنه في بعض الأحكام الأخرى تقبل شهادة امرأة واحدة عدله ولا يسقطها أو يعادلها شهادة ألف رجل كأمور النساء في بكارة ورضاعة وعيوب تحت الثياب وغير ذلك. إذن المسألة تخصص لا غير. وأما

الدية فلأن الخسارة الواقعة أو المتوقعة بفقد الرجل أفدح من المرأة إن يكسب وينفق على أهله فهي خسارة واقعة وإن كان صغيراً فهي متوقعة عكس النساء اللاتي كفين مؤونة النفقة والسكن والمشاركة في تحمل ديات قتل الخطأ وشبه العمد من العصبة، وذلك في الغالب هو جواب الميراث والعقيقة. بل فيه فوارق كان يحسن ذكرها.

٣- لماذا القوامة والولاية في النكاح والمحرم في السفر؟

الجواب: إن ذلك ليس لإهانة المرأة بل لصيانتها من التكسب في القوامة ومعاشرة الرجال وصيانتها من مباشرة العقد في النكاح المشعر بتوقانها إلى النكاح وهو ما تأنفه الطباع وتستحي منه المرأة ولأنها كثيراً ما تخدع بالمظاهر ويغرها الظاهر. وهكذا المحرم في السفر لحفظها وصيانتها وما أكثر أخطار السفر.

٤- لماذا القرار في المنزل؟ الجواب: إن هذا أمر إلهي {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُن} وذلك لتتفرغ لأشرف وظيفة وأنبل رسالة لا يطيقها غيرها، ولا يقواها ويحسنها الرجال كالحمل والولادة والإرضاع والتربية ومن هنا يعلم كذب من قال نصف المجتمع معطل وه لخرج العلماء والدعاة والهداة والساسة والعباقرة والقادة إلا من حجور بنات حواء..!

٥- لماذا الحجاب وكيف توصت المرأة بالفتنة ويحذر منها الرجال؟ هل هي شبح؟

الجواب: إن ذلك لتكريمها أيضاً وأن الأشياء الثمينة تحفظ كالجواهر والأطياب، وهل هناك أثمن من المحارم وأشرف ولأن وجودها خارج المنزل حالة طارئة والأصل قرارها في البيت وعند النساء فلتحجب حتى تعود لأصل مكانها. وأما التحذير مناه وأنها فتنة، ألخ..، فليس لأنها شيطان أو عفريت من الجن وإن صورها الشطيان في أعين الرجال كذلك فتنة وإغراء، ويذكر أن امرأة سألت أحد الدعاة عن هذه المسألة فقال يا أخيتي: أليس المال والبنون فتنة كما ذكر الله فقالت: بلى، فقال: هل تكرهين المال والبنين لأنها فتنة، قالت: لا، قال: نحن كذلك لا نكره المرأة بل نحبها كالمال والبنين وإن كانت المرأة فتنة. إذن هذه الضوابط وغيرها لا تزيل التكريم بل تزيده وعندما استدركت النساء في زمن النبوة واعترضن على بعض الأمور كان هنا الاعتراض متسما بسمات:

١- إنهن اعترضن على أمور تتعلق بالوضع الديني حرصا منهن على المسابقة في الخيرات.

روى البخاري في كتاب العلم من صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري قال: قالت النساء للنبي صلى الله عليه وسلم : "غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك فوعدهن يوما لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن فكان فيما يقال لهن ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار... الحديث".

٢- كان ثنائيا بينهن وبين من يملك إنصافهن بأمر ربه لم ينشرن هذه الشبه التي ترددت في خواطرهن بين الملأ والنساء مع أن القلوب صالحة آنذاك والإسلام عزيز.

٣- لم تتمن المرأة المسلمة أمراً تعلم أن الله قد فضل به الرجال إذ لم تنازع في القوامة، الحجاب.... بل أرادت أمراً هو من أجل دينها فقط، هذا أدب النبوة وتربية المصطفى لهم قال تعالى: {وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً}. وروى الإمام أحمد قال: حدثنا سفيان الثوري عن أبي نجيح عن مجاهد قال: قالت أم سلمة يا رسول الله: "يغزوا الرجال ولا نغزو ولنا نصف الميراث فأنزل الله ولا تتمنوا ما فضل الله...". ورواه الترمذي عن أبي عمر عن سفيان به نحوه ورواه الحاكم وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه بلفظ (لا نقاتل فنستشهد ولا نقطع الميراث).

٤- إن للطلب والاعتراض حدود نتعلمها من قصة أسماء بنت السكن خطيبة النساء رضي الله عنها تلك المرأة التي سألت أمور تتعلق بالدين مبتغية الأجر والثواب من ربها حتى أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على مقالتها قائلاً: "هل رأيتهم مقالة امرأة أحسن من مقالة هذه في دينا؟".

وثمة توصيات أبعث بها لمن يريد أن يتكلم بلسان المرأة المسلمة أو يخوض في قضاياها:

١- تقوى الله ووزن القضايا بميزان صحيح فلا يجعل من الأمور الهامشية التافهة مشكلة يرتفع صوته طالبا الحل لها.

٢- لا يحق لمن لا ينتمي للإسلام أن يعتبر نفسه وصياً على المرأة وكيلاً على ما يتعلق بها.

٣- عند معالجة ما يتعلق بالمرأة تراعي محدودية النقاش فلا ينشر الخواطر والتساؤلات على صفحات المجلات والصحف بل تبحث بحثا جاداً مع من يملك إقامة الحل.

٤- من يعطي رأيا في تحديد الأمور المتعلقة بالمرأة لا بد أن يكون ملتزما منصفا ذا إدراك للواقع والعواقب والنفسيات.

هذا والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

============

أهمية التربية

تعتبر التربية العملية الإنسانية الكبرى في حياة المجتمعات البشرية،التي يمكن من خلالها تحقيق الآمال والطموحات المجتمعية.المختلفة.وتنبع هذه الأهمية الكبرى للتربية من مسماها الذي ينبثق من كلمة(الرب) الذي خلق الإنسان وجعله خليفة في الأرض ليحي فيها وعليها وليعمرها وينميها .

كما أننا لو تتبعنا مسيرة تربية الإنسان من خلال متساسة ماضوية تذهب بنا عبر الزمن منذ خلق آدم عليه السلام وسألنا أنفسنا من الذي ربى أول الخلق عليه السلام؟!لعلمنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذي تكفل بتربيته وتعليمه قال تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) صدق الله العظيم.

وإذ كانت لأول عملية تربوية تعليمية قد تشرفت بكفالة الله سبحانه وتعالى لها،فإن ذلك يوضح لنا مدى عظمة وأهمية وخطورة التربية في حياة البشر،لكون الإنسان هو موضوع التربية،ولكون الإنسان هو خليفة في الأرض منوط به عمارتها وتهيئتها لتكون مناسبة لحياة الإنسان الذي كرمه المولى عز وجل وأوكل إليه القيام بعملية التربية،وهو شرف رفيع،يوضح لنا مدى الأهمية الكبرى لهذه العملية الحياتية الدقيقة.وإذا كانت التربية تكتسب أهميتها الكبرى والبالغة من كون الإنسان هو موضوعها،فإن ذلك يعزي إلى كون هذا الإنسان هو ركيزة الحياة والعمل والتنمية،ومن ثم إحداث التقدم وبناء الحضارة الإنسانية وذلك من خلال عمل تربوي

جاد وهادف يستند إلى فكر مجتمعي وفكر تربوي واضح وأصيل،تتم في إطاره عملية إكساب أفراد المجتمع القيم والأعراف الاتجاهات والمعارف والمهارات اللازمة لبناء إنسان قوي قادر على إحداث النهضة المجتمعية المنشودة.

ولو عدنا مرة أخرى عبر الزمن لوجدنا أن الدولة الإسلامية فيما مضى كانت قد أدركت حقيقة ما تقدم وحققت من خلاله الحضارة الإسلامية التي سادت العالم لسنوات طويلة.وفي نفس الإطار فقد أدركت المجتمعات المتقدمة في العصر الحديث هذا الأمر فحققت من خلاله التقدم المذهل الذي نراه الآن ولنأخذ دولة اليابان كمثال للتدليل على ذلك حيث حققت هذه الدولة من خلال استثمار رأس المال البشري في إطار عمل تربوي وتعليمي،يستند إلى فكر مجتمعي وتربوي واضح وأصيل،نهضة مجتمعية أذهلت العالم ولا تزال،وكانت التربية هي العصا السحرية التي أحدثت تلك النهضة عليها مدى قرابة نصف قرن من الزمان أو يزيد قليلاً،حيث خرجت اليابان من الحرب العالمية الثانية دولة محطمة،ولم يكن أمامها إلا استثمار ما لديها من طاقات بشرية أدخلتها في منظومة تربوية وتعليمية أفرزت أفرادا على درجة من القدرة الفائقة على إحداث التقدم والنهضة المجتمعية الهائلة التي نراها الآن.

وبناء على ما تقدم فإننا نرى أن التربية عملية حياتية على درجة كبيرة من الأهمية في حياة البشر،حيث تكتسب هذه الأهمية من مسماها وموضوعها وأثرها في حياة الأفراد والمجتمعات،إلا أنه يتبقى الحديث عن مدى فاعليتها وتأثيرها،واضعين في الاعتبار أن التربية قوة ذات تأثير بالغ ،إذا ما توافرت لها على أرض الواقع عوامل وقوى متباينة ومتعددة من أهمها:

١. تبني المجتمع لفلسفة مجتمعية واضحة وأصيلة بمعنى أنها ذات جذور ضاربة في أعماق وكيان هذا المجتمع ،كما أنها واضحة بلا غموض أو صياغات تجردية يصعب فهمها أو تفسيرها والعمل بها.

٢ _تبني المجتمع لفلسفة تربوية واضحة وأصيلة،تنبثق من فلسفة المجتمع الأصلية، وكذلك تبني فلسفة تعليمية واضحة وأصيلة تشتق من فلسفة المجتمع التربوية،وهذا على اعتبار أن التعليم جزء مهم من العمل التربوي.

٣ _تبني أهداف تربوية وأهداف تعليمية واضحة وأصيلة يتم اشتقاقها من الفلسفات المجتمعية والتربوية والتعليمية مع مراعاة متغيرات وظروف العصر ومتطلبات التنمية في شتى مجالات الحياة،وظروف المجتمع المحلية والإقليمية والدولية،وأن تكون الأهداف إجرائية واقعية بعيدة عن الخيال والتجردية.

٤ _تبني مفاهيم تربوية وتعليمية تتسم بالأصالة والمعاصرة والمرونة،بعيدا عن الجمود الفكري والحساسية المفرطة وأحادية التفكير ،بحيث تكون هناك إمكانية للتغيير والتعديل للتخلص من مفاهيم خاطئة أو قديمة،مع تغليب الصالح العام على المصالح الخاصة ،والأخذ في الاعتبار ما جاءت به الشريعة الإسلامية التي يسير عليها المجتمع.

٥ _توافر الإمكانات المادية والبشرية اللازمة لإمكانية نجاح العمل التربوي والتعليمي.

والجدير بالذكر أنه مع توافر كل ما سبق ذكره من العوامل اللازمة لنجاح العمل التربوي والتعليمي في المجتمع،إلا أنه يتبقى أمران مهمان :

أولها :يتعلق بمدى قناعة المسئولين عن الدولة بأهمية التربية في إحدث النهضة والتقدم من خلال أفراد أحسنت تربيتهم وتعليمهم .

والأمر الثاني : هو عدم الخلط بين المفاهيم التربوية وعلى وجه الخصوص الخلط بين مفهومي التربية والتعليم واعتبارهم شيئا واحدا،وهذا خطأ فادح أدى إلى تحمل مؤسسات التعليم وحدها المسؤولية التربوية كاملة،كما ترتب على ذلك أيضا الخلط بين مفاهيم أخرى مرتبطة بهذين المفهومين مثل التخطيط والإدارة والأهداف والنظام بحيث أصبحت كلها تعني شيئا واحد دون تمييز وتدقيق في المعنى والمحتوى والتوجيه .

==============

خواطر فكرية مبعثرة

الحلقة الأولى (١)

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده، أمّا بعد:

فهذه خواطر مبعثرة، في موضوعات شتّى، ليس بينها رابط يربطها سوى أنّها جالت في الذهن يومًا ما، ولا تحتمل مقالة كاملة فضلاً عن كتاب، فرأيت أن أبعثرها هنا نصحًا للأمّة، فما كان منها من صواب فهو من الله وحده لا شريك له، وما كان منها من خطأ فهو من نفسي ومن الشيطان، والله المستعان.

* ما يسمّى بـ (زواج الفرند) وإن كان مقصود من اقترحه صحيحاً شرعاً، إلا أنّ تسميته بهذا الاسم – في نظري – خطأ من وجهين:

– أحدهما: أنّ كلمة الفرند . بغض النظر عن معناها . كلمة أجنبية. وفي لغتنا العربية ما يغني عن مثل هذه الكلمات الأجنبية.

– والوجه الثاني: أنّ هذه التسمية موهمة، قد يفسّرها بعض الناس بالزواج العرفي، أو غيره من الأنكحة الباطلة المحرّمة، وقد نهى الشارع عن مثل هذه العبارات الموهمة.

* أقترح على دار الإفتاء، أو وزارة الشؤون الإسلامية، أو الحسبة تفريغ باحثين أَكْفَاء لمتابعة ما ينشر في الصحف المحلية وغيرها من وسائل الإعلام المختلفة، لشكر من يستحقّ الشكر، وتفنيد ما يحتاج إلى تفنيد، فالجهود الفردية وحدها في هذا المجال لا تكفي.

* يحتجّ بعض الناس على إباحة بعض الأمور بأنّ تحريمها لم يرد نصّاً في القرآن الكريم، وهذه حجّة باطلة لا تصدر إلا من جاهل، أو ملبّس، فإنّ من المعلوم أنّ القرآن الكريم لم يرد فيه تحريم كلّ محرّم بعينه، وإنّما تضمّن القرآن كليّات كبرى يندرج تحتها جزئيات كثيرة لا تحصى، بعضها وقع وبعضها ربّما لم يقع إلى هذه الساعة، ومهمّة العلماء الراسخين ردّ هذه الجزئيات إلى قواعدها الكليّة.

* الذين يجعلون الدولة الدينية في مقابل ما يسمّى بالدولة المدنية هم لا يعرفون حقيقة الإسلام، فدين الإسلام دين شامل مهيمن على جميع نواحي الحياة ولو كره أهل العلمنة، فإذا كانت الدولة المدنية تعني إقصاء الدين، والمساواة بين الكافر والمسلم، والسنّي والمبتدع، فهي دولة علمانية مارقة، أمّا إن كانت تخضع للدين وتأتمر بأمره . وهذا هو الواجب .، فهي لا تعدو أن تكون دينية، وإن اعتنت بمصالح الناس الدنيوية.

* الفئة التي تسمّي نفسها (ليبرالية) لا تجيد إلا النقد والجدل، إن بحقّ . وهو قليل وإن بباطل، مع تعالم سمج ظاهر، حتى إنّك لو كتبت آيات محكمات من القرآن على غير ما هي عليه في المصحف، وعرضتها على أحدهم دون أن يدري أنّها من المصحف؛ لراح ينتقدها ويجادلك في زيفها بزعمه، وصدق نبينا . صلّى الله عليه وسلّم .: "ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل "..

* يقول بعض المفتونين: إنّ الاختلاط بين الجنسين يهذّب الغرائز، ويكبح جماح الشهوة، ويرشّدها!! والحقّ أنّه يقضي على الشهوة أو يضعفها، فيجعل الرجال أشباه رجال ولا رجال، لا يجيدون سوى التحرّش الظاهر، فلا يجدون ما يجده المسلم المحافظ البعيد عن مخالطة النساء الأجنبيات من القوّة والمتعة مع أزواجهم، وهذا أمر مجرّب، وما أحسن ما قيل: (كثرة الإمساس تميت الإحساس).

* إنّ ممّا يحتجّ به المنهزمون فكريّاً من أبناء جلدتنا للتقليل من شأن حضارتنا الإسلامية المجيدة وإعلاء شأن الحظيرة الغربية: قولهم إنّ المبرّزين من العلماء في الطب وغيره في الحضارة الإسلامية كابن سيناء وغيره قد حُكم عليهم بالكفر والزندقة والمروق من الدين، فهي حضارة دينية.. والجواب عن ذلك من وجوه:

- أحدها: أنّ هذا ليس على إطلاقه، فهناك علماء أجلاء في الطب والرياضيات وهم كثر . لا يُذكرون إلا بالخير، وهؤلاء الذين حُكم عليهم بالزندقة هم قليل من أولئك الكثير.

- الثاني: أنّ هؤلاء الذين حُكم عليهم بالزندقة لم يُحكم عليهم بذلك لبروزهم في العلوم الطبيعية، وإنّما حُكم عليهم لإلحادهم وانحرافهم العقدي، ولا تلازم بين الأمرين.

- الثالث: أنّ الفضل في بروز هؤلاء ليس لهم على الحضارة الإسلامية، بل للحضارة الإسلامية عليهم، فهي التي أبرزتهم، ولو عاشوا في بلاد الغرب المتخلّفة آنذاك لكانوا نسياً منسياً، ولم يكن لهم شأن يُذكر.

- الرابع: أنّ الحضارة الإسلامية - مع حكمها على هؤلاء بالزندقة - استفادت من علومهم الطبيعية التي توصّلوا إليها، وبنت عليها علوماً أخرى، مع نبذها لعلومهم العقدية المنحرفة، وهذه قمّة العدل والإنصاف.

* من الحجج التي يحتجّ بها دعاة التغريب والمفتونين بالحظيرة الغربية: قولهم إذا كنتم تكرهون الغرب فاستغنوا عن منتجاته التقنية!! وهي حجّة سمجة سخيفة، والجواب عنها من وجوه:

- أحدها: أنّ ما وصل إليه الغرب اليوم من التقدّم التقني المادّي ليس نتاجه وحده، وإنّما هو نتاج جهود تراكمية للحضارات السابقة، ومنها الحضارة الإسلامية، وعلى سبيل المثال: الطيران، كان صاحب فكرته الأولى: العربي المسلم المشهور عبّاس بن فرناس، وقس على ذلك مخترعات أخرى.

- الثاني : أنّ دول الغرب لم تنفرد بهذا التقدّم التقني، بل شاركها دول أخرى وثنية وإسلامية، وباتت تنافسها تنافساً محموماً، بل تفوقها في كثير من الأمور، ويمكننا الاستغناء بهذه الدول عن الغرب.

- الثالث: أننا لو استغنينا عن منتجات الغرب المادية - ونحن قادرون - فإنّ المتضرّر الوحيد هو الغرب نفسه إذ جلّ اقتصاده إنّما يقوم على تسويق هذه المنتجات، ونحن لو استخدمنا هذا السلاح - سلاح المقاطعة - لتمكنّا من تركيع الغرب المتغطرس لإرادتنا، وهزيمته بلا أسلحة ولا حروب مدمّرة.

* في العشر الأواخر من رمضان، وفي صلاة التهجّد، يقلّ المصلّين في المساجد، وتعلو أصوات الأئمّة في هدأة الليل وتتشابك! لذا أقترح على الجهات المعنيّة قصر صلاة التهجّد على الجوامع فقط دون سائر المساجد، وفي ذلك عدّة مصالح، فمنها:

- تكثير الجماعات في الجوامع بدلاً من تفرّقهم في جميع المساجد.

- التقليل من أصوات الأئمّة المنطلقة من مكبّرات الصوت، فبدلاً من انطلاقها من كل مسجد، يقتصر على الجوامع فقط.

- التخفيف على أئمّة المساجد، فبدلاً من قيام كلّ إمام وحده بصلاة التهجّد، مع ما في ذلك من المشقّة؛ يتعاون عدد من الأئمّة في مسجد واحد، مع ما في ذلك أيضاً من إزالة السآمة من الاستماع إلى صوت إمام واحد.

* الاقتصاد في الكهرباء في تلك الليالي الشريفة، فبدلاً من تشغيل طاقات جميع المساجد من المكيفات والإضاءة، يُقتصر على الجوامع فقط.

=============

ضلالات طبيب القصيم: خالص جلبي

الحمد لله , والصلاة والسلام على رسول الله , وعلى آله وصحبه ومَن اهتدى بهداه .

أما بعد : فقد روى الإمام مسلم أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال : ((الدينُ النصيحة , قُلنا : لِمَنْ ، قال صلَّى الله عليه وسلَّم : لله , ولكتابه , ولرسوله , ولأئمةِ المسلمينَ , وعامَّتهم)).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : (وكذلك بيانُ مَن غلط في رأي رآه في أمر الدين من المسائل العلمية والعملية فهذا إذا تكلَّم فيه الإنسانُ بعلم وعدل وقصدَ النصيحة فالله تعالى يُثيبه على ذلك , لا سيّما إذا كان المتكلّمُ فيه داعياً إلى بدعة فهذا يجبُ بيان أمره للناس , فإنَّ دفعَ شرّهِ عنهم أعظم من دفع شرِّ قاطع الطريق) منهاج السنة ج٥/١٤٦ .

وفي هذه الرسالة المختصرة أذكر بعض ما خالفَ فيه طبيب مستشفى الملك فهد بالقصيم الدكتور خالص مجيب جلبي كتابَ الله تعالى وسنةَ رسوله صلى الله عليه وسلم , وذلك عبر النقاط التالية مع عدم التعليق عليها إلاَّ نادراً لمعرفة بطلانها من الدين .

* قوله بعدم الاستغناء بالكتاب والسنة : قال : (فالأمرُ هنا هو السير في الأرض , وليس السير في الكتاب , أي قراءة الواقع , وليس قراءة النصوص , والظن بأنَّ الاستغناء بالكتاب عن الواقع هو الذي قاد العالم الإسلامي إلى كارثة ثقافية مروعة) جريدة الرياض عدد ١٠١٨٨في ١٤١٦/١٢/٢٨هـ .

* تمجيده ودفاعه عن مُدَّعي النبوة : قال مُدافعاً عن الحلاج الذي يقول بحلول الله في خلقه , وادَّعى النبوة , ثم ادَّعى الألوهية : (وباسم الشعب في بغداد حُكم على الحلاج بضربه بألف سوط , ثم قُطع لسانه , وأطرافه قطعة قطعة) (ج الشرق ع ٨٠٠٢ في ١٤٢١/٧/٢٧هـ) .

ويقول عن محمود طه الذي ادَّعى النبوة بالسودان : (وفي عام ١٩٧١م أُعدم محمود طه في السودان بيد الطغمة العسكرية بتهمة الردة , وكان الرجل مُجدِّداً , ولم يكفر ولم يرتد) ج الشرق ع ٨٣٢٤ في ١٤٢٢/٦/٢٤هـ .

وقال : (ومات الحلاج صلباً في بغداد بكلمة اختُلقت ضده بعد جلده ألفاً وقطعت أطرافه .. وأنهى المفكر السوداني محمود طه حياته وهو يتأرجح على حبل المشنقة بتهمة الردة , ماتوا جميعاً لا لذنبٍ فعلوه , بل من أجل أفكارهم ونشاطهم) (ج الشرق ع ٨٢١٢ في ١٤٢٢/٣/١هـ) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (الحلاج قُتل على الزندقة التي ثبتت عليه مما يُوجب قتله باتفاق المسلمين , ومَن قال إنه قُتل بغير حق فهو إمَّا منافق ملحد , وإما جاهل ضال) (مجموع الفتاوى ج٣٥/١٠٨).

* استهتاره بآيات القرآن الدالة على عظمة الله تعالى : قال : (إذا كان الحاكم ينفخ في الصور فيقول للعباد ما علمتُ لكم من إله غيري , فإنَّ الزوج في البيت يُعلن أنه الأعلى, لا مُعقِّبَ لحكمه وهو سريع الحساب .. واحتكار فهم النصوص بيد طبقة الكهنوت, وخنق التعبير تحت دعوى الخيانة أو الردة , والطغيان يتأسَّس من العائلة ليظهر في النهاية على شكل تنيّن سياسي يقذف باللهب على عُبَّاد يرتعشون وجلاً خاشعة أبصارهم من الذل.. فإذا أنتجت العائلة الإنسان الأخرس الخائف هيَّأت الجو الاجتماعي للخرس الجماعي المطبق، وخشعت الأصوات للحاكم فلا تسمع إلاَّ همساً) (جريدة الشرق ٨١٧٧ في ١٤٢٢/١/٢٥هـ).

* كذبه على الله تعالى: ومن ذلك قوله عن الله تعالى: (والله غير متحيّز للمسلمين , وقانونه يسري على الجميع) (ج الشرق عدد ٨٦٩٥ في ١٤٢٣/٧/١٢هـ) .

((اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)) (البقرة: ٢٥٧) .

* دعوته لمناقشة الأصول المسلَّمة في الإسلام علانية ووصفه للكتاب والسنة بالعقل الميّت : قال : (المواطن العربي اليوم مُحاصر في مثلّث من المحرمات : بين الدين والسياسة والجنس , كل ضلع فيه يُمثِّل حاجزاً شاهقاً لا يستطيع أفضل حصان عربي رشيق أن يقفز فوقه إلاَّ بالقفز إلى الإعدام , فأمام حائط الدين يُطلُّ مفهوم الردة , وأمام جدار السياسة يبرز مصطلح الخيانة , وعند حافة الجنس تشع كل ألوان الحرام والعيب , فالعقل مُصادر ومؤمم وملغى حتى إشعار آخر ... لا بدَّ من تدريب عقولنا

على النقاش والجدل , وذلك يفتح طرقاً عصبية رائدة , فالعقل النقدي حي , والعقل النقلي ميّت ... ولم يكن للعلم أن يتطوَّر لولا نزع غطاء السرية عنه .. ومناقشة أي شيء علَناً دون الخوف من الاتهام بالزندقة) (ج الشرق ع ٧٧٢٨ في ١٩/١٠/١٤٢٠هـ).

* دعوته للتقريب بين الأديان وذلك بإقامة الدولة العالمية : قال : (إنَّ وجود دولة عالمية تحتكر العنف من الدول سيحقق الأمن عالمياً ، فندخل العصر الذي تتوقف فيه الحروب) ويقول : (الأمل أن تُتحقق الدولة العالمية الواحدة في مدى القرنين القادمين أو ربما أسرع .. عندها تنتهي لعبة الحروب نهائياً) سيكولوجية العنف ص١٥٨ .

ويقول في موضع آخر : (الطريق ما زال طويلاً لإقامة الدولة العالمية التي ستحتكر السلاح والخبز ، فتُلغي الحروب بين الدول، وتُنهي عصر المجاعات) سيكولوجية العنف ص٢١٨ .

ويقول : (إنَّ مؤشرات التقدُّم العلمي كلها تُشير باتجاه تحطيم الجغرافيا , وزحف عارم للإنترنت , وتجاوز العنصرية والدولة القطرية , ودخول الإنسان أفق العالمية الثقافية المشتركة) (ج الرياض ع ١٠٦٧١ في ١٠/٥/١٤١٨هـ) .

* سخريته بالحديث عن الجنة والآخرة وعن قصص القرآن الكريم , ودعوته لنقد ولاة الأمر على المنابر , وتهييج الجماهير : قال : (كل يوم جمعة يجتمع المؤمنون للصلاة وسماع الخطبة , ويستنفر نصف جيش من المخابرات لتسجيل الكلام ورفع التقارير ، فلعل فيروساً خطيراً مرَّ من أقنية الكلام .. وفي معظم الأحيان يكتشف الجمهور أن صوته مصادر في هذا الاجتماع لحساب وُعَّاظ السلاطين .. ويعيد نفس الدعاء للسلطان بالحفظ والصون , ويتلقَّى الموجة جمهور أخرس , أتقنَ الصمت بختم على الفم أكبر من ختم الحبل السري على البطن، ليسمع حديث واعظ في قضايا لا تستحق الاجتماع ، فلا يزيد الحديث فيها عن فواكه الجنة في الوقت الذي لا يجد فيه المواطن رزق عياله ، وعن الآخرة في الوقت الذي يحتضر فيه المواطن كل يوم مرتين , وعن فرعون ذي الأوتاد في الوقت الذي طغى فيه الحاكم في البلاد فأكثر فيها الفساد) ج الشرق ع ٨٦١١ في ١٦/٤/١٤٢٣هـ .

* تسميته الدعاء على الكافرين بالدعاء العدواني : ومن ذلك قوله عن أحد الخطباء : (فلم يزد الحديث عن مواعظ عثمانية , وأدعية عدوانية بأن يُدمِّر الله الكافرين جميعاً وعائلاتهم) (ج الشرق ع ٨٦١١ في ١٤٢٣/٤/١٦هـ) .

* القول بانتهاء النبوة وإحلال البدائل العقلية : قال : (ويُبدع الفيلسوف محمد إقبال , عندما يعتبر أنَّ فكرة ختم النبوة تعني إلغاء الامتيازات , فإبطال الإسلام للرهبنة ووراثة الملك , ومناشدة القرآن للعقل والتجربة على الدوام , وإصراره على أنَّ النظر في الكون والوقوف على أخبار الأولين من مصادر المعرفة الإنسانية , كل ذلك صور مختلفة لفكرة انتهاء النبوة) ويتساءل جلبي : ما معنى ختم النبوة ؟! فيجيب : (إنها فكرة عملاقة تعني نهاية مرحلة توجيه الإنسان ليقوم بنفسه , فالنبوة تحولت هكذا من نموذج قديم إلى نموذج جديد , يعتمد زخم العقل والعلم , وآيات الله في الآفاق والأنفس , والكشف عن مصادر الطبيعة والتاريخ ... مع هذه الفكرة ينتهي عصر الخوارق والتفوق والامتيازات , فلا نبيَّ بعد ولا خوارق تدشن ... والعلم هو الذي سيحتل الساحة من خلال الكشف عن القانون وتسخيره في كلِّ مستوى) (جريدة الرياض عدد ١١٠٣٥ في ١٤١٩/٥/١٩هـ) .

* قوله بحرية العقيدة : قال : (إنَّ الأديان السماوية أُنزلت من أجل أن يُؤمن بها الناس ... ولم يُرسَل الأنبياء كي يُصادروا آراء الناس ويفرضوا عليهم القوة المسلَّحة) ملحق الرسالة بجريدة المدينة ١٤٢٣/٩/٢٤هـ .

ويقول : (المجتمع الإسلامي هو المكان الوحيد المسموح فيه بممارسة كل الأفكار , والتقاء كل الثقافات بالتعايش والتعبير) سيكولوجية العنف ص٢٣٤ .

* قوله بأنَّ سبب فشل الشيوعية هو إكراه الناس على دين واحد , وأنَّ سبب فلاح الدول الأوربية هو استيعابهم لجميع الأديان في بلد واحد : قال : (لا يوجد جغرافيا واضحة لأوروبا ، وهذا يعني بكلمة ثانية : أنَّ هذه التجربة – الاتحاد الأوربي – ستبلغ ما بلغ الليل والنهار , ولن يطول ذلك الوقت الذي تزحف فيه هذه الوحدة شرقاً ، فتلتهم كل دول الحوض المتوسط في أحشائها , وإذ كانت قد تصدَّعت وتشظت الإمبراطورية الشيوعية عندما أرادت جمع الناس بالقوة تحت مبدأ الإكراه في الدين ،

فإنَّ الناس يجمعهم اليوم سقف أوروبي واحد) (ج الشرق الأوسط ع ٨٤٥٠ في ١٤٢٢/١١/٣هـ) .

* قوله بأنَّ أوروبا لم تستقر حتى رَفَضَت الكنيسة : قال : (لم تخرج أوربا من مستنقع الطائفية بسهولة ، ولم يكسر احتكار الكنيسة للنصوص الدينية إلا بشق الأنفس) جريدة الشرق الأوسط ع ٨٤٣٦ في ١٤٢٢/١٠/١٨هـ .

* سخريته بالقضاء والقدر , وقوله بأنَّ التحاكم إلى القرآن لا يحلُّ المشكلات: قال : (لنتذكر معركة صفين حيث رُفعت المصاحف على رؤوس الرماح , دليلاً على الرغبة في التحاكم إلى النصوص ... فلم يحل التحاكم إلى النصوص المشكلة , إن لم يكن قد زادها تعقيداً) سيكولوجية العنف ص٢٤ .

وقال : (إنَّ النصوص لم تحل مشكلة في يوم من الأيام , وإنَّ القرآن بذاته تم توظيفه لحياكة أكبر خدعة سياسية في التاريخ , فرُفع على رؤوس الرماح في كلمة حق يُراد بها باطل , وإن ما حكم تاريخنا كان الغدر والسيف , ومن سخرية الأقدار أن نرى في النهاية أنَّ من حلَّ المشكلة لم يكن النصوص) (ج الشرق ع ٨٠٠٩ في ١٤٢١/٨/٤هـ).

* احتجاجه بالقدر على الكفر والفسوق : قال : (ما الذي يُفرِّق صاحب المذاهب عن السلفي بغير مذهب ؟ وما الذي يُفرّق السني عن الشيعي في الدين الواحد ؟ ثم قفز السؤال عتبة جديدة : ما الذي يفرق المسلم عن المسيحي واليهودي والبوذي عن الديانات الأخرى ؟ بل ما الذي يفرق المؤمن عن الملحد ,.. روت لي سيدة كانت تعالج في مشفى كَنَسي في دمشق , وهي طفلة وصادف ذلك أيام أعياد الميلاد , فقَرَأَت في وجه الراهبات الخشوع , ورأت من لطف الراهبات في العناية بها ما جعلها تطرح السؤال التالي : لقد علَّمونا أنَّ ديننا هو الأفضل , ولعلَّهم يظنون بأنفسهم كما نظن بأنفسنا , وهو نفس السؤال الذي طرحته أم مالك بن نبي الذي استمرَّ طبيب فرنسي يُعالجها لفترة طويلة في بيتها , كانت العائلة تُردِّد نفس السؤال عن مصير هذا الكافر ؟) ج الشرق ع ٨٤٣٦ في ١٤٢٢/١٠/١٨هـ .

* قوله بأنَّ الجهاد شُرع لحماية ديانات الكفار داخل ديار المسلمين : قال : (الجهاد ليس لنشر الإسلام ، بل لحماية الرأي الآخر ، ولتطبيق مبدأ ((لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ))

أي دين , أو مذهب , أو عقيدة ، تركاً أو اعتناقاً ، فالجهاد هو لحماية التعددية داخل المجتمع الإسلامي) سيكولوجية العنف ص١٢-١٣ .

* تعطيل النصوص الشرعية بالتحريف والتأويل : ومن ذلك محاولاته الكثيرة لتأويل القرآن لإلغاء الجهاد في سبيل الله , قال : (بقدر نمو الوعي والتراكم المعرفي ، والسمو الأخلاقي ، تتراجع وتضمر مؤسسة العنف ، حتى يتخلَّص الجنس البشري من العنف كلية ((حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا)) (محمد : ٤) سيكولوجية العنف ص١٢٠ .

الله أكبر : قال ابن عباس رضي الله عنهما : ((حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا)) : حتى لا يبقى أحد من المشركين) (زاد المسير ج٣٩٧/٧) .

* قوله بأنه إذا التقى المسلم مع الكافر بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار : قال مُعلِّقاً على قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيحين : ((إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار)) قال جلبي : (يظنُّ بعض الناس أنَّ هذا الحديث يخصُّ المسلمين باعتبار أنه قال : ((إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار)) في محاولة لفهم عنصري مغلق) سيكولوجية العنف ص١٧٢ .

وينتقص الصحابة رضي الله عنهم فيقول : (وفي الحديث معنى انقلابي خفي وعميق , إذ يُسوِّي تماماً بين الطرفين , وبسبب بسيط « لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه » وهذا فهم رائع مدهش لجوهر النزاعات البشرية وآلياتها النفسية العميقة , والصحابة رضي الله عنهم لم يفهموا المعنى الخفي والعميق خلف دلالة كلمات الحديث) سيكولوجية العنف ص١٩٨ , وجريدة الرياض عدد ١٠٥٩٤ في ١٤١٨/٢/٢٠هـ .

* استهزاؤه بدعاء الله تعالى : سُئل : لماذا الآخرة غير حاضرة في مشروعك ؟ أجاب : (أستطيع أن أرثي لكم فقط , لأنَّ المسلمين مشكلتهم دنيوية أرضية واقعية , وأنت تبحث في الميتافيزيقيا , مثل مريض السل الذي تُريد معالجته هذه الأيام بالدعاء , وهي كارثة عقلية) ملحق الرسالة بجريدة المدينة ١٤٢٣/٩/٢٤هـ .

* تأليه الطبيعة أو الكون والواقع : قال : (لقد اعتبر القرآن التاريخ مصدراً للمعرفة تماماً مثل الطبيعة ... فهذه الحقول الأولية هي كلمات الله الأساسية , والنسخة

الأصلية من كتاب الله التي لا تقبل التزوير والتحريف والتفسير اللاعقلاني , فصخرة أو جبل أو شجرة أو نهر , هرم فرعوني أم سور الصين , نقش مسماري أم هيكل عظمي , أدل على نفسه بنفسه من أيِّ نص كتب عنه مهما كان مصدره) (جريدة الرياض عدد ١٠٤٤٧ في ١٤١٧/٩/٢٢هـ).

إنَّ كلام جلبي هذا كلام خطير في تأليه الطبيعة أو الكون والواقع , فقد جعل الصخرة المخلوقة أولى من كلام الله الذي خلقها ؟! .

* تقديمه للواقع الذي يراه على كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم : قال : (الواقع أكبر من النصوص لأنه يشكل المصدر الذي يراه البشر جميعاً , لأنَّ الواقع هو النصّ مجسداً , في حين أنَّ النصوص تتعلَّق بالخلفية الثقافية التي حملها البشر , والتي بموجبها يفهمون النصوص ويتعاملون معها ويختلفون , بل ويفتك بعضهم بعض من أجل الخلافات في وجهات النظر وهم يُواجهون النصوص) سيكولوجية العنف ص٤٢ .

* تقديمه للتاريخ البشري على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم : قال : (لا يوجد مثل القرآن ... ولا توجد أمة لم تستفد من كل هذه الثروة العقلية كما فعل متأخرو المسلمين في استعصاء عقلي عنيد , غير مفهوم وغير مبرر ولا عقلاني , حرَّكها من خانة دول المقدمة العظمى إلى خانة دول التخلُّف والإتباع , في لغز يحتاج فك طلاسمه إلى بحث تاريخي عقلاني موسع لاكتشاف بدايات الخلل , والتاريخ يتحرَّك وفق قوانين نوعية , وهو مصدر للمعرفة , وفيها محطَّات كبرى عقلية تأسيسية للمعرفة) (جريدة الرياض عدد ١٠٤٤٧ في ١٤١٧/٩/٢٢هـ) .

* تطاوله على مقام النبوة والأنبياء : قال عندما سُئل عن العلم : (كنتُ قد طرحت أنَّ العلم حقَّق للجنس البشري ما لم يستطع تحقيقه الأنبياء على مدى العصور) ملحق الرسالة بجريدة المدينة الحلقة الثالثة في ١٤٢٢/٩/١٠هـ .

ويقول : (إنَّ الجنس البشري بلغ من النضج ما جعله يُحقِّق الحلم النبوي القديم في إلغاء مؤسسة العنف جملة وتفصيلاً .. والمؤسسات الدولية اليوم هي نطف بدائية لأفكار عظيمة نادى بها الأنبياء) سيكولوجية العنف ص١٥١ .

* تطاوله على نبي الله نوح عليه السلام : قال : (لقد فشلَ نوح عليه السلام في عملية التغيير الاجتماعية , أمامنا إذن إمكانية الفشل في تغيير المجتمع وتولِّي قيادته كما حدث لنوح مع أنه دعا فيه ما يزيد على تسعة قرون , فقصة نوح تُمثِّل مرحلة بدائية من التاريخ البشري) النقد الذاتي ص٧٧-٧٨ .

* تطاوله على رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال : (فحين فشلَ في اختراق مجتمع مكة والطائف , نجح في نشر دعوته في أهل يثرب , حتى تفشَّى الإسلام في مجتمع المدينة , لكنه لم يذهب إليهم على ظهر المدافع والدبابات) سيكولوجية العنف ص١٢٥ .

* سبُّه لبعض الصحابة رضي الله عنهم : قال : (وشخصيات هامشية في الثورة الإسلامية الأولى من طراز عمرو بن العاص ومعاوية حرَّفت مسيرة الخلافة الراشدة) جريدة الرياض عدد ١٠٤٨١ في ١٤١٧/١٠/٢٢هـ .

وقال : (وفي معركة صفين تواجه فريقان : مَن قضى عمره في بناء الإسلام , ومن أنفق عمره في حرب الإسلام , ولكن مَن ربح لم يكن أنزه الطرفين , ورُفع المصحف على رؤوس الرماح كي يُعطَّل المصحف) الزلزال العراقي ص١٣١ .

* طعنه في الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم : قال : (فالصحابة فشلوا وبوقت مُبكِّر في المحافظة على المجتمع الإسلامي الذي بناه لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد كل تعب وعناء) سيكولوجية العنف ص٣٤ .

* تكفيره للصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه , وتكفيره لدولة بني أمية : قال : (عندما يقلب معاوية الوضع الراشدي لبناء دولة بيزنطية , ومسخ الخلافة الراشدة بالتآمر الأُموي) سيكولوجية العنف ص١٥٧.

* إنكاره لحدِّ الرِّدة وتجويزه لارتداد المسلم عن دينه : قال : (الخطأ يحق له أن يعيش ، ولا يُقتل الإنسان من أجل آرائه مهما كانت) سيكولوجية العنف ص١٤٨ .

ويقول : (في المجتمع الإسلامي مجتمع اللا إكراه لا يُقتل الإنسان من أجل آرائه أياً كانت الأفكار ، سواءً تركاً أو اعتناقاً ... وهذا يُفنِّد الاتجاه العام للمفهوم السائد بقتل المرتد , لأنَّ المرتد هو الذي يعتنق مبدأ ثم يتركه ، فكيف تسمح الحرية الفكرية

لاعتناق مبدأ ثم تحبسه فيه , إنه لا حرية فكرية مع هذا الحجر ، فهذه المقولة تدشن العصبية الفكرية باتجاه واحد) المرجع السابق ص١٢٦-١٢٧ .

* سخريته من جهاد النبيّ صلى الله عليه وسلم : قال : (فحينَ فشلَ في اختراق مجتمع مكة والطائف ، نجحَ في نشر دعوته في أهل يثرب .. فلم يذهب إليهم على ظهر الدبابات بانقلاب عسكري) سيكولوجية العنف ص١٢٥ .

ويقول : (وهذه كتب السيرة سجَّلت أحداثها على أساس مسلسل مُتتابع من الغزوات , كأنَّ الرسول صلى الله عليه وسلَّم كان لا ينام إلاَّ على غزوة ولا يستيقظ إلاَّ على معركة , كما كُتبت مضمَّخة بعبق الأجواء السحرية , فكلها سلسلة من المعجزات) سيكولوجية العنف ص٤٨ .

الله أكبر : لقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((مَن ماتَ ولم يغزو ولم يُحدِّث نفسه بالغزو ماتَ على شعبةٍ من نفاق)) وروى البخاري عن أبي هريرةَ أن رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال : ((والذي نفسي بيده : وددت أني أُقاتلُ في سبيل الله فأُقتلُ , ثم أُحيا ثم أُقتلُ , ثم أُحيا ثم أُقتل , ثم أُحيا)) فكان أبو هريرة يقولُهن ثلاثاً أشهدُ بالله .

* إلغاؤه للجهاد في سبيل الله تعالى : قال مستدلاً بقصة ابني آدم عليه السلام في غير مكانها : (الذي حدث بين الدول أنها لم تتبنَّ موقف ابن آدم المقتول , فنشبت الحروب ولم تتوقف إلاَّ بتطوُّر السلاح النووي ودخول العصر الذري , حينما أدركت الدول أنَّ خوض الحروب غير رابح إطلاقاً) (ج الرياض ع ١٠٨٩٥ في ١٤١٨/١٢/٢٦هـ) .

* دعوته لإقامة حلف عالمي جهادي لرفع الظلم عن الناس مُسلِمهم وكافرهم : قال : (إنَّ الجهاد المسلَّح شُرع لحماية المخالف وضد الظالم , وهي أداة مسخَّرة ضد المسلم عندما يكون ظالماً , وليست ضد الكافر طالما كان عادلاً , والجهاد تحرير مهم كونه دعوة لإقامة حلف عالمي لرفع الظلم عن الإنسان أيَّاً كان) وقال : (وبذلك فإذا رأينا أنَّ الوثنيين يُضطهدون ويُعذَّبون ويُطردون من ديارهم بالقوة المسلَّحة في أقصى جزر الأرض على يد المسلمين , فيجب نصر الوثنيين المظلومين ضد

المسلمين الظالمين , لأنَّ علَّة الجهاد هي لردِّ الظلم من أي مصدر جاء) سيكولوجية العنف ص١٢٨ , ص١٦٤ .

* تأييده لحرب أمريكا على العراق وأنه نوعٌ من الجهاد : قال : (ما عملته أمريكا مع سلوبودان يُمكن أن يكون نوعاً من الجهاد ... كذلك فإنَّ نفس الأمر ينطبق على صدام حسين , فيجب على صدام أن ينشئ تعددية حزبية , وعليه أن يستقيل فهو قد انتهى , إذا كانت أمريكا تريد فعلاً عمل نظام ديمقراطي في العراق فأنا مع أمريكا) ملحق الرسالة ١٤٢٣/٩/٣هـ .

* اتهامه بأنَّ الجهاد كان لأجل الغنائم : قال : (كانت الحروب قديماً تُؤدِّي دوراً من الغنائم والأسلاب والرقيق , واليوم فات وقتها , والعالم في طريقه لإلغاء مؤسسة الحرب) سيكولوجية العنف ص١٤٣ .

* تسميته لجهاد الدفع تخلُّف : قال : (غدت الحرب موضة قديمة يُمارسها المتخلِّفون , فكل بؤر النزاع والحروب في العالم اليوم هي في معظمها مناطق المتخلِّفين , وعندما نتأملها نراها في أفغانستان والصومال وزائير , فكلها كما ترى مناطق المتخلِّفين) سيكولوجية العنف ص١٦٤ .

* وصفه للشعب اليهودي بما وصفَ الله به الصحابة ويصفُ الشعب العربي بما وصفَ الله به اليهود : قال : (ويجب أن نعترف بحقيقة أنَّ المجتمع الإسرائيلي من داخله ديمقراطي , فهم رحماء فيما بينهم , وهم في الخارج أشداء على العرب وأهالي فلسطين , أمَّا نحن ((تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)) (الحشر :١٤) (ج الشرق في ١٤٢٣/٢/٢٦هـ).

* إيمانه بنظرية دارون : وهذه النظرية تتنكَّر للأديان السماوية , لأنها تعتمد على (أنَّ أصل الحياة خلية كانت في مستنقع أو بحر قبل ملايين السنين , ثمَّ تطوَّرت هذه الخلية , ومرَّت بمراحل عديدة منها : مرحلة القرد الذي تطوَّر ليكون منه هذا الإنسان , وهذه العملية كلّها من فعل الطبيعة , ويَعتبر دارون أنَّ الطبيعة تخلق كل شيء , ولا حدَّ لقدرتها على الخلق ..) يُنظر : مذاهب فكرية معاصرة لمحمد قطب ص٩٦-٩٨ .

قال جلبي : (لقد فتح دارون الطريق لمعرفة سر الحياة , وأصل الإنسان بشكل عام , وهذا بدوره شقَّ الطريق إلى مجموعات جديدة من فضاءات المعرفة ... لقد تركت الدارونية بصماتها على الفكر الإنساني من خلال علم الاجتماع على الشكل الذي طوَّره البريطاني سبنسر) جريدة الرياض , عدد ١٠٤٠٥ تاريخ ١٤١٧/٨/٩هـ .

* دعوته للديمقراطية وهي حكم الشعب بالشعب , وأنَّ من لم يقل بها فهو مُخرِّب ومجرم : قال : (الديمقراطية انقلاب عقلي قبل كلِّ شيء , وتربية طويلة , وما لم نفطن إلى طبيعة الأشياء فسوف نبقى مُخرِّبين ومجرمين) سيكولوجية العنف ص١٣٠ .

ويقول في ص١٥٧ : (الديمقراطية الشورية سوف تعم العالم , فهي قَدَرٌ لا مفرَّ منه مثل الموت) .

* زعمه بأنَّ الفلاسفة هم بناة الحضارة : قال : (فالتاريخ رأى في الفلاسفة والمفكرين أنهم البُناة النظريون للحضارة الإنسانية , إنهم مفجِّرو الثورات , إنهم منشئو الحركات , إنهم مغيِّرو مجرى التاريخ) النقد الذاتي ص٧٤ .

* تكفيره للعرب : قال : (قد يكون العالم العربي في بعض جوانبه ارتدَّ وانتكس , فالجنس البشري ليس وقفاً على حالة العالم العربي وأمراضه وظلامه السياسي وإغلاقه الفكري) ج الرياض ع ١٠٤٩٦ في ١٤١٧/١١/١٢هـ .

* قوله بوجوب الحزن لحزن أمريكا : قال : (يجبُ أن نحزن لحزن أمريكا , لأنَّ فشلها فشل لكلِّ الجنس البشري , ولأنها تُمثِّل طليعة الجنس البشري) ج الاقتصادية ع ٣٤٠٣ في ١٤٢٣/١٢/٣هـ .

* دعوته للعُريِّ والاختلاط : قال : (عند سكان استراليا الأصليين تتدلَّى أثداء النساء بدون أن تُثير الفتنة , وفي كهوف الفلبين يعيش الناس رجالاً ونساءً مع أطفالهم في حالة عُريٍّ كامل , فلا يصيح واعظهم أنَّ هذا مخلٌ بالأخلاق , وبالمقابل : فإنَّ كشف يد امرأة متلفِّعة بالسواد من مفرق رأسها حتى أخمص القدم في بعض المناطق من العالم العربي يُثير الشهوة عند رجال يعيشون في حالة هلوسة جنسية عن عالم المرأة) ج الشرق الأوسط في ١٤٢٣/٤/٢٣هـ .

* زعمه بأنَّ الحج فُرض لإيقاف الحروب : قال : (جُعل الحج تظاهرة لإيقاف تقديم القرابين البشرية وتدشين السلام العالمي) سيكولوجية العنف ص٢١٠ .

* دعوته لتمديد الأشهر الحرم لتشمل السنة كلَّها , وتوسيع حدود الحرم ليشمل الكرة الأرضية : قال : (بعد أن تأمَّلت ظاهرة الحج رأيتُ أنها رمزية في تحويل البيت الحرام إلى أقطار الأرض جميعاً كهدف إبراهيمي قديم , فيكبَّر البيت الحرام ليستوعب بسلامه الكرة الأرضية كلَّها من خلال تجربة صمدت عبر أربعة آلاف سنة , ومدّ الأشهر الأربعة لتعم السنة , أي امتداد السلام إلى العالم في مستوى الزمان والمكان) سيكولوجية العنف ص١٦١ .

* زعمه بأنَّ الأضحية شُرعت لإيقاف الحروب : قال : (وكانت التضحية بالحيوان ترميزاً لإحياء ذكرى الإعلان الإبراهيمي قبل أربعة آلاف سنة بالتوقف عن تقديم القرابين البشرية , وتوديع عقلية العالم القديم في حل المشاكل بالعنف) جريدة الرياض عدد ١٠٥٣١ في ١٤١٧/٢/١٧هـ .

* زعمه بأنَّ الصوم شُرع من أجل إيقاف الحروب : قال : (لماذا نصوم ؟ ... كان الصيام إحدى أدوات التحرير الكبرى في الهند أيام غاندي , وأهم ما في التحرير : تحرير النفس من كراهية الانجليز قبل رحيلهم , لأنَّ العنف شجرة خبيثة , جذورها الكراهية , وثمرتها الخوف في علاقة جدلية) جريدة الرياض عدد ١٠٧٩٠ .

* تمجيده للفلاسفة من الكفار : قال : (ومشى في هذا الدرب الأنبياء والآمرون بالقسط من الناس , وكان سقراط واحداً منهم ، فلم يقتل ولم يهرب من الموت , كان سقراط فلتة عقلية ، وبالتعبير الطبي طفرة , والطفرة هي قفزة نوعية في الخلق , مع هذا فقد حكمت أثينا الديمقراطية بإعدام سقراط عام ٣٩٩ ق. م) ج الشرق ٩٤٦٠ في ١٤٢٥/٩/٩هـ .

* دعوته لنزع السلاح من جيوش البلاد الإسلامية , واستسلامها بدون قيد ولا شرط , ومَن لم يفعل ذلك فهو مغفَّل : قال : (إنَّ الدول الكبرى أدركت عقم مفهوم القوة .. فهم يعلمون أنَّ أكبر خطر يُهدِّد امتيازاتهم هو انتباه واستيقاظ المغفَّلين على هذه الحقيقة , فنكفُّ عن شراء الأسلحة , ونفعل كما فعلت اليابان وألمانيا اللتين استسلمتا

دون قيد ولا شرط في الحرب العالمية الثانية , فكانت النتيجة أن ارتفعتا إلى قمة العالم دون سلاح) سيكولوجية العنف ص١٦٨ .

* قوله بأنَّ الاستسلام للعدو هو السلاح الوحيد لكي يعتذر عن قتله للمسلمين : قال عن مجزرة ما يُسمَّى بالحرم الإبراهيمي وقتل الناس وهم في صلاتهم : (إنَّ هذه المذبحة جعلت اليهود ليس في إسرائيل وحدها بل حتَّى في كندا يمشون مطأطئي الرؤوس خجلاً وهم يحملون الشموع والقناديل والدموع عن أولئك الذين قُتلوا صبراً ظلماً عُزَّلاً مُصلِّين) سيكولوجية العنف ص٩٠ , وقال عن مجزرة صبرا وشاتيلا : (لقد حرَّكت هذه المذبحة الضمير العالمي كله , بل وحرَّكت المظاهرات داخل إسرائيل نفسها حزناً عليهم , بسبب موتهم بغير دفاع , خلافاً للقتل المتبادل في الحرب الأهلية , والقاتل سوف يندم في النهاية فكان من النادمين والندم هو التوبة) سيكولوجية العنف ص٩١ .

* تسميته للفسلطينين الذين يدافعون عن دينهم وأنفسهم ووطنهم إرهابيون : قال : (إنَّ إسرائيل تُراهن في العالم على تشويه صورة العربي الذي يقوم بالعمليات الإرهابية الانتحارية , ولكن أسلوب مقاومتها بالطريقة السلمية يُوقظ الضمير الإسرائيلي) سيكولوجية العنف ص٢١٥ .

* دعوته للشعوبية : وهي تفضيل العجم على العرب : ومن ذلك قوله : (وهنالك حزمة أمراض ثقافية تبلغ العشرة منها : أنَّ العالم العربي ما زال يحكم بسيف معاوية بعد انطفاء الوهج الراشدي ... وأنَّ الثقافة العربية تستحم بالعنف منذ المصادرة الأُموية , وتوديع حياة الرشد , واعتناق حياة الغي , وتفشِّي روح الغدر والقتل والانقلابات والتآمر , فليس بعد الرشد إلاَّ الغي) ج الرياض ع ١٠٦٩٢ في ١٤١٨/٦/١هـ .

* حُزنه على فتح القسطنطينية : قال : (يفرح المسلمون بسقوط القسطنطينية ١٤٥٣م ولكن هناك مَن يذكرها مع الدموع , فهل كان فتحها إسلامياً ؟ ثم ما هي النتائج المدمِّرة على العالم الإسلامي من وراء هذا الفتح المبين ؟ إنَّ المشكلة هي أن ما يفعله المرء يراه عين الصواب ، ولا يخطر في بالنا أنَّ تاريخنا قد يكون في بعض صفحاته مرباداً أسود كالكوز مُجخِّياً) ج الشرق ع ٨٣١٠ في ١٤٢٢/٦/١٠هـ .

* شتمه لأهل السنة والجماعة : قال : (إنَّ جذور الاستعمار تضرب في تربة الثقافة , وأنَّ هذا المرض يعسُّ في مفاصل الثقافة العربية , مثل الروماتيزم الخبيث , منذ الانقلاب الأموي , وقُتل العقل على يد تيار ما سُمِّي أهل السنة والجماعة , ولم يكن بسنة ولا جماعة) كتاب الزلزال العراقي ص١٢٤ .

* دعوته لمذهب الخوارج في الخروج على الأُسر الحاكمة : قال : (لماذا استوردنا سيارات ولم نستورد الديموقراطية ؟ ولماذا نُبايع الزعيم السياسي مثل شيخ الطريقة الصوفية إلى الأبد) ج الشرق ع ٨٦٩٥ في ١٤٢٣/٧/١٢هـ .

* طعنه وسخريته بالحضارة الإسلامية : قال : (وإحدى الحضارات المتبقية التي تترنح اليوم , وتبدو كشبح مجتمع هي الحضارة الإسلامية , مجتمع منطفئ الفعالية , عاجز عن حل مشكلاته الميدانية) جريدة الرياض عدد ١٠٣٣٥ في ١٤١٧/٥/٢٨هـ .

* مدحه لحضارة الكفار : ومن ذلك دفاعه عن مذبحة وقعت بين طلاب مدرسة أمريكية : (فقصة مجزرة المدرسة الأمريكية , يجب أن لا تُحرِّض فينا منعكس البحث عن العورات , فمن كان بيته من زجاج عليه ألاَّ يضرب الآخرين بالحجارة , بل يجب علينا أن نتأمل مظاهر الصحة والقوة عندهم , نُلقِّحُ بها مجتمعاتنا العاجزة) جريدة الرياض عدد ١٠٨٧٤ في ١٤١٨/١٢/٥هـ.

* المخرج من الكارثة التي أصابت الشرق الأوسط : قال : (وفي قناعتي أنَّ كارثة أصابت الشرق بعدم تطوير الفن , ويجب أن نُطوِّر فرقاً موسيقية , كما فعل الإيرانيون) مقابلته في ملحق الرسالة ١٤٢٢/٨/٢٨هـ .

هذا غيض من فيض من ضلالات خالص جلبي , هداه الله على أيدي العلماء والولاة إنه سميع مجيب .

نسأل الله تعالى أن يكفينا شرَّ المنافقين والمنافقات , وأن يجعل كيدهم في نحورهم , وأن يُعيذنا من شرورهم , وأن يفضحهم في عقر دارهم , آمين , وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه وسلم .

=================

أيصبح العدو اللدود صديقاً حميماً!

اشتق لفظ التطبيع (Normalizaion) (من الكلمة الإنكليزية) (Normal)) بمعنى العادي أو المعتاد أو المتعارف عليه ، وفي مختار الصحاح (الطبع هو السجية جبل عليها الإنسان)، وفي المعجم الوسيط (تطبع بكذا أي تخلّق به ، وطبّعه على كذا أي عوّده إياه) ، ولا توجد مادة تطبيع في المعاجم العربية لأنها محدثة ، فالمعنى الحالي مأخوذ من ترجمة هذه الكلمة عن لفظة إنكليزية تم تداولها أخيراً خاصةً بعد اتفاقيات كامب ديفيد، لكن يمكن تصور المعنى من كلمة التطبيع من حيث المبدأ أنه (هو العودة بالأشياء إلى سابق عهدها وطبيعتها).

حقيقة التطبيع مع اليهود : " أنه يشمل (كل اتفاق رسمي أو غير رسمي أو تبادل تجاري أو ثقافي أو تعاون اقتصادي مع إسرائيليين رسميين أو غير رسميين) ويهدف إلى (إعادة صياغة العقل والوعي العربي والإسلامي بحيث يتم تجريده من عقيدته وتاريخه ومحو ذاكرته خاصة فيما يتعلق باليهود، وإعادة صياغتها بشكل يقبل ويرضى بما يفرضه اليهود) ومآله: الاستسلام غير المشروط للأمر الواقع والاعتراف بالكيان الصهيوني الغاصب للأرض كدولة ذات شرعية، وتحويل علاقات الصراع بينها وبين البلدان العربية والإسلامية إلى علاقات طبيعية وتحويل آليات الصراع إلى آليات تطبيع " (ورقة لحسين عبيدات ألقيت في المؤتمر العام العاشر للصحفيين العرب عام ٢٠٠٤ م) .

وبذلك يتضح أن المقصود بالتطبيع هو سلام دائم وليس عبارة عن هدنة مؤقتة ومسالمة يركن إليها المسلمون لضعفهم في زمن معين – كما يعتقد بعض من يقولون بجواز التطبيع – باعتبار أنه صُلحٌ أو سِلمٌ جنح له العدو، ولا يخفى أن هناك فرقاً شاسعاً بين اتفاقيات التطبيع وبين أحكام الهدنة والصلح التي ذكرها العلماء، وأهون ما يمكن أن يقال عن هذه الاتفاقيات أنها صلح دائم مع عدو محتل لأرض المسلمين غاصب لمقدساتهم وهذا محرم باتفاق المسلمين ، وقد قال جمع من علماء المسلمين أن الصلح الدائم مع اليهود لا يجوز شرعاً لما فيه من إقرار الغاصب على الاستمرار في غصبه والاعتراف بحقية يده على ما أغتصبه وتمكين المعتدي من البقاء على عدوانه ، وقد أكدت الفتوى الصادرة من رابطة علماء فلسطين عدم جواز التطبيع مع دولة الاحتلال الصهيوني، موضحة أنه 'إذا استوطن أحد من الأعداء أرض

المسلمين، فلا يجوز أن يقره على هذا الاستيطان أحد من المسلمين، وأن التطبيع بمثابة إقرار من المسلم المطبع لعدوان العدو واحتلاله،وجاء في فتوى الرابطة أن 'الواجب الديني على كل مسلم نصرة إخوانه ومعاونتهم على إخراج الأعداء من أرضهم، وعدم التطبيع مع الأعداء أبداً؛ لأن التطبيع مع الغاصب خذلان لأصحاب الحقوق وضرر بالغ بهم، فأين التعاون بين المسلمين على الأعداء إذا طبع المسلم مع عدو أخيه ومغتصب أرضه وقاتل بنيه' (موقع حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين على شبكة الإنترنت).

وأخطر ما في التطبيع الذي يراد إقراره هو أنه في حقيقته صورة من صور الولاء ، الذي يمكن أن ينتهي إلى التولي ، والولاء والتولي لا يجوز إلا للمسلم، قال الله تعالى .: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ)) (لممتحنة:١).

ولعلنا نتأمل أقوال بعض زعماء الصهاينة ونظرتهم إلى العلاقة التي يرغبون بإقامتها مع المسلمين ، " يقول اليهودي هركابي (الأب الروحي لرابين) : لابد من إدماج العرب في المشروع الصهيوني وتوظيفهم لخدمته، وهذا ممكن من خلال التعامل السياسي (وليس العسكري) مع العرب، لأنهم قوم لا يتحلون بالمثابرة والصبر والدأب وسرعان ما يدب فيهم الملل والضجر والاختلاف ، ويسلمون أمورهم حتى لأعدائهم في سبيل الغلبة في معاركهم وخلافاتهم الداخلية كتاب (لا للتطبيع د. عبدالله النفيسي)، ويقول شيمون بيريز : إن البقاء مستحيل لدينين لن يلتقيا ولن يتصالحا، وأنه لا يمكن أن يتحقق السلام في المنطقة ما دام الإسلام شاهراً سيفه ولن نطمئن على مستقبلنا حتى يغمد الإسلام سيفه إلى الأبد ، وفي مؤتمر التسامح الذي عقد قبل عدة سنوات في المغرب العربي قال ديفيد ليفي وزير خارجية العدو حينها(إنه من أجل أن يقوم التسامح بيننا وبين العرب والمسلمين ، فلا بد من استئصال جذور الإرهاب , وإن من جذور الإرهاب سورة البقرة من القران) .

ثانياً :إستراتيجية اليهود وخططهم في التطبيع

هناك بعض المعالم التي تبين سياسة الكيان الصهيوني للوصول إلى رحلة التطبيع :-

١- القضم ثم الهضم هي إستراتيجية الكيان الصهيوني ، ففي السنين الماضية احتلت أجزاء من بلاد المسلمين فتحتاج إلى وقت لهضمها وخلال هذا الوقت يتم الاستعداد لجولة أخرى يتم فيها التهام جزء آخر من بلاد الإسلام .

٢- أصبح من المعتاد أن تبدأ الاتصالات سرية أولا بين المندوبين والوسطاء ، ثم تنتقل إلى المسئولين فالزعماء للترتيب لإعلان بداية المفاوضات العلنية للتضليل ، وهي قد انتهت سراً قبل الإعلان ، وما جرى قبل زيارة السادات لفلسطين من اتصالات سرية بدأت في ١٩٧٧/٩م ، وما كشفه موشي ديان في كتابه " أيبقى السيف الحكم " ، وكشفته العديد من الكتب والمذكرات لزعماء يهود ومنها كتاب (تواطؤ عبر الأردن : ليوسي ميلمان ودان رفيف) من حقائق كثيرة لهو دليل واضح على ذلك .

٣- تكوين رابطة الشرق أوسطية التي تربط بين دول المنطقة أجمع باسم الشرق الأوسط وتنبذ الانتماء للإسلام أو العروبة وهذا مشروع اليهودي (شيمون بيريز) الذي طرحه في كتابه " الشرق الأوسط الجديد " عام ١٩٩٣ م ، ثم طور خطابه في عام ١٩٩٥ م فذكر بأن الشرق الأوسط بحاجة إلى تبني مواقف ليندمج مع العالم الجديد ، ونصح العرب بتطبيق سياسة اقتصاد السوق علماً بأن الكيان الصهيوني يقيد سياسة السوق ، ومن المعلوم أن اقتصاد السوق الذي ينادي به بيريز هو الطريق اليسير لسيطرة الكيان الصهيوني والصهيونية العالمية ورؤؤس الأموال الأمريكية على الاقتصاديات العربية ، ثم اسُتنسخ هذا الطرح مع بعض الإضافات والتعديلات في المشروع الأمريكي المسمى (الشرق الأوسط الكبير) الذي من أبرز عناصره :

- إقامة أمن إقليمي جديد بدلا من الأمن القومي العربي ويتضمن ذلك إقامة مناورات مشتركة عربية – غربية – إسرائيلية لضمان تطبيع العلاقات وكسر التعبئة النفسية وإضعاف روح الاستعداد المعنوي للمواجهة.

- طبيعة هذا المشروع سياسية في الأصل لكنه يعرض بقالب اقتصادي حيث يوصف بأنه مشروع اقتصادي أو كما يجري اختزاله أحياناً بـ " سوق شرق أوسطية.

٤- التطبيع وسيلة فاعلة لليهود تهيىء لهم الفرصة لدعم المنافقين والمفسدين لأداء دورهم داخل مجتمعاتهم بشكل يدفع كثيراً من المسلمين إلى الهزيمة النفسية والشعور باليأس من الإصلاح .

٥- من أبرز أهداف اليهود سعيهم إلى عزل الدول العربية بعضها عن بعض وخاصة في المفاوضات ليحققوا أطماعهم الخاصة ، فيخسر العرب الكثير من قوتهم بسبب فرقتهم وتفرقهم .

٦- أن تصبح جامعات اليهود ومراكز أبحاثهم ودراساتهم مرجعية علمية للمنطقة بأسرها، بحيث تؤسّس للمشروع الصهيوني، الموجّه لتدمير الثقافة والهويّة الحضارية الإسلامية للمنطقة العربية بأكملها، وإحداث التفكيك والفوضى في داخل كل بلد عربي.

ثالثاً: مراحل التطبيع

المرحلة الأولى: قبل عام ١٩٦٧ م (اللقاءات السرية) :

كانت بدايات مراحل التطبيع الأولى تتمثل في قدر من التواصل السياسي الذي يتحرك عبر الاتصالات السرية بين بعض الدول العربية والكيان الصهيوني ، كالاتصالات التي كانت قائمة بين المغرب والكيان الصهيوني وبينه والأردن ، وبعضها قبل حرب ١٩٦٧م ، وما كشفه كتاب (تواطؤ عبر الأردن) ، يكفي في بيان المقصود حيث فيه توثيق للعلاقات السرية التي كانت قائمة بين الكيان الصهيوني والأردن ومن ذلك التوقيع على مسودة اتفاق في عام ١٩٥٠ م تضمن : عدم الاعتداء بين الجانبين لمدة خمس سنوات وتشكيل لجان مشتركة بهدف التوصل إلى تسوية شاملة بين الطرفين ، وقد برز هذا اللون من التطبيع منذ الاحتلال العسكري الإسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة في يونيو ١٩٦٧م، وذلك إثر توافق النظام العربي الرسمي بعد اعتراف مصر، ومن ثم سوريا بالقرار الدولي رقم ٢٤٢ المتضمن أن الكيان الصهيوني قد وجد ليبقى، وأنه ما من سبيل إلى إزالته، لكن هذا التوجّه بدا أكثر وضوحاً بعد عام ١٩٧٤م عندما انضمت منظمة التحرير الفلسطينية إلى السرب العربي، واعترفت بالقرار المذكور ولم يكن خافياً بالطبع ذلك الترابط بين اعتراف المنظمة بالقرار الدولي وبين الاعتراف بها ممثلاً شرعياً ووحيداً للشعب

الفلسطيني في مؤتمر الرباط عام ١٩٧٤م، بل بدأت مشاريع اتصالات سرية مع الكيان الصهيوني من خلال ما عُرف بالاتصالات مع التقدميين الإسرائيليين، أو اليسار الإسرائيلي ، وكان من أبرزها اللقاءات المتتابعة للملك حسين مع اليهود في عامي ٧٥ – ١٩٧٦م حيث بلغت ستة لقاءات ، وذلك لشعور الملك بخسارته لجزء مما كان يملكه بعد الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ولخوفه من اتفاق وشيك بين مصر و الكيان الصهيوني .

المرحلة الثانية : مرحلة توقيع معاهدة كامب ديفيد وتداعياتها عام١٩٧٩م (كسر الحاجز النفسي):

زار فيها السادات فلسطين المحتلة عام ١٩٧٧م ، والتقى بقادة اليهود فيها وألقى خطاباً في الكنيست الإسرائيلي ، ثم ما لبثت المفاوضات أن تسارعت حتى تمخضت عن توقيع معاهدة كامب ديفيد برعاية أمريكية وذلك عام ١٩٧٩م ، وتم عزل مصر عن بقية الدول العربية بهذه المعاهدة المنفردة ، وسيأتي مزيد من التفاصيل عن هذه المرحلة لاحقاً .

المرحلة الثالثة: مرحلة أوسلو عام١٩٩٣م...(الهرولة السريعة) :

جاءت مرحلة مدريد بعد حرب الخليج الثانية ثم أوسلو لتطلق حصان التطبيع العربي الإسرائيلي من عقاله خاصة مع الطرف المباشر وهم الفلسطينيون؛ فما هي سوى عشرة شهور، وتحديداً في شهر يوليو ١٩٩٤م، حتى وقع الأردن اتفاقية (وادي عربة), وما أن حدث ذلك حتى انطلق مسلسل سريع من الهرولة العربية صوب تل أبيب؛ من موريتانيا إلى المغرب صاحب العلاقات التاريخية مع تل أبيب، إلى تونس وبقية الدول العربية .

المرحلة الرابعة: مرحلة ما بعد مؤتمر الإسكندرية عام ١٩٩٥م (التهدئة التكتيكية) :

أدركت الدول العربية المحورية، وعلى رأسها السعودية , ومصر، وسوريا أن موجة الهرولة العربية صوب تل أبيب تؤذن بإنجاح مشروع (شيمون بيريز) الشرق أوسطي القائم على فكرة التمدد السياسي والاقتصادي الإسرائيلي في المنطقة من خلال السوق الشرق أوسطية بلا ثمن, وأن إسرائيل تتجاهل النوايا العربية في التطبيع بالحد الأدنى

من الحقوق ، وفي هذه الأجواء جاء مؤتمر القمة الذي عقد في الإسكندرية مطلع عام ١٩٩٥م لتهدئة الهرولة تجاه الكيان الصهيوني ، وبدأت موجة من الضغوط التكتيكية على الدول العربية المطبعة والمتجهة للتطبيع كي تهدئ جماح التطبيع، وهو ما استجابت إليه معظم الدول في واقع الحال؛ إذ بقيت العلاقات الدبلوماسية في حدها الأدنى غالب الأحيان ، غير أن الأهم من ذلك كله هو ما يتعلق بسير المفاوضات؛ فقد كانت استراتيجية الدول الثلاث تقول: إن مسيرة التطبيع يجب أن تتزامن مع سير المفاوضات؛ إذ من دون الوصول إلى تسوية حقيقية لا يمكن الحديث عن تطبيع مع الكيان الصهيوني ، وقد جاءت مسيرة المفاوضات الأولية من خلال جملة الاتفاقات التي تلت (أوسلو) لتؤكد أن نوايا الكيان الصهيوني بالتسوية بعيدة جداً، وهو ما تأكد بعد ذلك في قمة كامب ديفيد صيف عام ٢٠٠٠م، وهي القمة التي أكدت صعوبة التسوية مع مطالب إسرائيلية لا يقبل بها أحد في الساحة الفلسطينية والعربية.

المرحلة الخامسة: مرحلة تصاعد انتفاضة الأقصى واشتداد المقاومة المسلحة(تكافؤ القوى):

جاءت انتفاضة الأقصى بعد ثلاثة شهور من القمة كامب ديفيد ثم تصاعدت واستمرت وفي أجوائها تصاعدت المقاومة المسلحة لتحصر في زمن قياسي جهود التطبيع التي بذلت طوال سبع أو تسع سنوات في أضيق نطاق ، وبدأت مرحلة جديدة في الخطاب الرسمي العربي حيال الكيان الصهيوني تقوم على هذه الرؤية للتطبيع، حتى أن الدولتين المرتبطتين باتفاقيات سلام مع الكيان الصهيوني ولهما علاقات دبلوماسية معها وهما مصر والأردن قد اضطرتا إلى سحب سفيريهما من تل أبيب تحت وطأة الضغوط الشعبية والرسمية والتكتيك السياسي.

المرحلة السادسة: مرحلة ما بعد قتل عرفات واحتلال أمريكا للعراق (الهرولة الجماعية) :

يمكن التأريخ لهذه المرحلة بمقتل الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات نهاية عام ٢٠٠٤م، وموافقة حركة فتح على تعيين (محمود عباس) خلفاً له، و هو المعروف بمناهضته لبرنامج المقاومة الذي تبنته حركة حماس والجهاد وفصائل فلسطينية

أخرى ، أو يمكن التأريخ لها باحتلال العراق، على اعتبار أن ذلك الحدث هو الذي مهّد لمرحلة الرعب بالنسبة للنظام العربي الرسمي الذي شكّل وقوفه خلف (محمود عباس) سبباً أساسياً في إنهاء مرحلة انتفاضة الأقصى، وإعلان التعامل مع التسوية بلغة جماعية جديدة، على رغم عدم توفر أي أفق حقيقي لها في المنطقة بوجود شارون والمحافظين الجدد على رأس السلطة في الكيان الصهيوني والولايات المتحدة ، وفي هذه الأجواء جاءت المبادرة العربية للتطبيع الجماعي .

رابعاً :نماذج من بنود اتفاقيات التطبيع السابقة بين العرب والكيان الصهيوني :

أ- كامب ديفيد الأولى (التطبيع بين مصر و الكيان الصهيوني ١٩٧٩م)

" نصّت المادة الثالثة من اتفاقيات كامب ديفيد تحت عنوان العلاقات الثقافية على ما يلي:

١- يتفق الطرفان على إقامة علاقات دبلوماسية وتبادل السفراء عقب الانسحاب المرحلي .

٢- يتّفق الطرفان على أنّ التبادل الثقافي في كافّة الميادين أمر مرغوب فيه، وعلى أن يدخلا في مفاوضات في أقرب وقت ممكن، وفي موعد لا يتجاوز ستّة أشهر بعد الانسحاب المرحلي، بغية عقد اتفاق ثقافي.

٣- كما نصّت المادة الخامسة الفقرة الثانية على تعاون الطرفين على إنماء السلام والاستقرار والتنمية في المنطقة ويوافق كل منهما على النظر في المقترحات التي قد يرى الطرف الآخر التقدم بها تحقيقا لهذا الغرض. (من كتاب مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية).

ومع ذلك كله فإنه أثناء زيارة (بيغن) – رئيس وزراء الكيان الصهيوني الهالك – لمصر في ٨/٢٥/ ١٩٨١م ، أعرب عن استيائه البالغ من استمرار الطلبة في مصر بدراسة كتب التاريخ التي تتحدث عن "اغتصاب إسرائيل لفلسطين" وكتب التربية الإسلامية التي تحتوي على آيات من القرآن الكريم تندّد باليهود وتلعنهم ولعله يقصد مثل قوله تعالى : ((لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ)) (سورة المائدة: ٨٢)، وقد أشارت الصحف إلى أنّ السادات

استجاب على الفور لطلب "صديقه بيغن"، فأصدر أوامره للمختصين في وزارة التربية بإعادة النظر في المناهج الدراسية بما يتلاءم مع طلبات بيغن .

ب- وادي عربة (التطبيع بين الأردن و الكيان الصهيوني ١٩٩٤ م)

لا يخفى إهتمام اليهود بالجانب الثقافي لما له من أثر كبير في مسيرة التطبيع، فهم في معاهدة كامب ديفيد قد طالبوا بأمور عديدة ، ثم تطورت مطالباتهم في اتفاقية (وادي عربة) على النحو التالي :

- «انطلاقاً من رغبة الطرفين في إزالة كافة حالات التمييز التي تراكمت عبر فترات الصراع؛ فإنهما يعترفان بضرورة التبادل الثقافي والعلمي في كافة الحقول، ويتفقان على إقامة علاقات ثقافية طبيعية بينهما».

- وجاء في المادة الحادية عشرة: «يسعى الطرفان إلى تعزيز التفاهم المتبادل فيما بينهما والتسامح القائم على ما لديهما من القيم «التاريخية» المشتركة، وبموجب ذلك فإنهما يتعهدان بما يلي:

أ - الامتناع عن القيام ببث الدعايات المعادية القائمة على التعصب والتمييز، واتخاذ كافة الإجراءات القانونية والإدارية الممكنة التي من شأنها منع انتشار مثل هذه الدعايات؛ وذلك من قِبَل أي تنظيم أو فرد موجود في المناطق التابعة لأي منهما.

ب - القيام بأسرع وقت ممكن بإلغاء كافة ما من شأنه الإشارة إلى الجوانب المعادية، وتلك التي تعكس التعصب والتمييز، والعبارات العدائية في نصوص «التشريعات» الخاصة بكل منهما.

خامساً: من وسائل التطبيع

من أخطر وسائل التطبيع ، التطبيع الثقافي ومن أهم ما يرتكز عليه:-

١- الاهتمام بعينة من الكتاب والصحفيين والأكاديميين، وفتح المنابر لهم، وتوفير فرص تدفعهم إلى مناصب سياسية واجتماعية متقدمة حتى وإن كانت مؤهلاتهم الحقيقية متواضعة وضعيفة، أو من خلال جمعيات أهلية عربية تدعم مشروع التسوية، وتدفع باتجاه التطبيع كجمعية بذور السلام غير الحكومية التي تأسست عام ١٩٩٣م ، إثر اتفاق أوسلو بين الفلسطينيين والكيان الصهيوني .

٢- إيجاد أنصار للتطبيع مع دعمهم وإبرازهم من خلال المنظمات الممولة أمريكياً وأوروبياً تحت لافتات متعددة ومتنوعة مثل منظمات الدفاع عن حقوق المرأة ومنظمات الدفاع عن حقوق الانسان داخل المجتمع العربي ليقوموا بالأدوار التالية:

* الطعن في الإسلام وإدعاء عدم صلاحية الشريعة للتطبيق ، وضرورة علمنة المجتمعات العربية والإسلامية وتبديل أحكام الشريعة ومحاصرة دعاة الإسلام واتهامهم بالتطرف والإرهاب والظلامية ...الخ .

* القول إن النص القرآني يجوز التعامل معه كنص تاريخي أو الهجوم على كل تفسير صحيح للإسلام وبشكل خاص الآيات القرآنية التي تتعلق بالجهاد أو بالمواريث أو غيرها.

* الدعوة إلى كل ما يثير الاضطراب داخل المجتمعات الإسلامية والعربية بإثارة المسائل العرقية والطائفية والأقليات ، وإبراز الحضارات السابقة للإسلام كالفرعونية والفينيقية ونحو ذلك.

٣- الترويج لما يسمى بثقافة السلام ، الذي وجد طريقه إلى العديد من الكتابات والأفكار التي طرحت في العديد من المؤتمرات والملتقيات الدولية والعربية العامة، وكذلك الندوات والحوارات عبر القنوات الفضائية ، والتي تدعو إلى نسيان التاريخ – تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي – وإلغاء ذاكرة الأمة .

٤- التهوين من فتاوى العلماء حتى علماء المؤسسات الرسمية خاصة السنية، للتقليل من أهمية المرجعية العلمية في معظم البلاد العربية والإسلامية ، فترى اليوم كثيراً من الدول العربية والإسلامية ، تفتقد المرجعية العلمية ، بينما تنمى المرجعية العلمية المتميعة والمبتدعة .

٥- ممارسة ضغوط على الدول التي لا تتجاوب مع التطبيع بالسرعة المطلوبة فقد حث أعضاء الكونغرس الأمريكي إدارة الرئيس جورج بوش على رفض التوقيع على اتفاق يسمح للسعودية بالانضمام إلى منظمة التجارة العالمية حتى تنسحب من المقاطعة العربية لإسرائيل وأكدوا أنه يتعين على الولايات المتحدة الإصرار على تحقيق تقدم في أربعة ميادين رئيسة قبل تقديم مساعدتها للرياض للانضمام إلى

منظمة التجارة العالمية ، ووضعوا على رأس هذه الميادين إنهاء المقاطعة السعودية للكيان الصهيوني.

٦ – تشويه صورة الجهاد والمجاهدين المقاومين للاحتلال في نفوس الشعوب المسلمة والسعي لإيقاف الدعم عنهم ونبزهم بالارهاب.

٧ – استخدام طوائف من عرب أراضي ثمانية وأربعين الذين هم داخل الخط الأخضر للترويج للتطبيع كما هي خطة (عزمي بشارة) التي عرضها على الكنيست الإسرائيلي والتي قدمها كمشروع لدولة المواطنين والتي يدعو فيها إلى المساواة بين الفلسطينيين والصهاينة وهو لا يعني سوى إضفاء شرعية نهائية على اغتصاب فلسطين بشرط الاعتراف بحقوق الفلسطيني في المواطنة.

فالمقصود من كل هذه الوسائل إيجاد تيار عريض يقوم أفراده بدور الطابور الخامس القابع خلف خطوط الدفاع في الأمة ، حيث أنهم يضربون في صميم عقيدة الأمة وملامح هويتها على جميع الصعد ، لجعل الإنسان العربي المسلم مجرد إنسان بلا هوية ، يسهل تشكيل عقله على هوى المحتل ، وقد كان تمويل أمثال هؤلاء يجري في مصر وفق أنماط من الرسمية أو وفق حالات مقننة ، حيث كانت الأموال تصل إليهم عبر وزارة الشئون الاجتماعية وخصماً من المعونة الأمريكية المقدمة للحكومة المصرية ، إلى أن تطور الأمر بعد احتلال العراق وأخذ مدى أبعد حيث أصبحت السفارة الأمريكية في القاهرة هي التي تتولى مباشرة عملية تسليم الأموال في الاحتفالات التي تدعى إليها مختلف أجهزة الإعلام ، ليجري توزيع ما يزيد على ٤٠ مليون دولار سنوياً .

سادساً : من فعاليات التطبيع

ضمن إطار العمل المستمر لدعاة التطبيع من الصهاينة والأمريكيين والعرب من أجل استحداث مؤسّسات وهيئات وجماعات وملتقيات تصب في المشروع التطبيعي ، تكوّنت "مؤسّسة المبادرة من أجل السلام والتعاون في الشرق الأوسط" في سبتمبر ١٩٩١م، وهي تضمّ نخبة من الشخصيات الأمريكية و الصهيونية والعربية, ويترأسها "جون ماركس" بصفته من الخبراء الأمريكييّن في شؤون المنطقة على مدى العقود الأربعة الماضية, ويعمل في إطار مؤسّسة المبادرة" خمسة وعشرون شخصاً من

الأمريكيين والعرب والإسرائيليين، وتعدّ أحد المطابخ الرئيسة في طرح الأفكار والتصوّرات الممّهدة لتأسيس "نظام الشرق أوسطي" على أنقاض النظام العربي، يقوم اليهود فيها بدور القيادة وتتمحور حول مصالحهم وإستراتيجيتهم شبكة التفاعلات الإقليمية الجديدة وقد برزت أخبار هذه "المؤسّسة" إثر خلوتهم السرّية السادسة التي عقدت في مراكش بالمغرب (في الفترة من ١٨-٢٢ مارس ١٩٩٤م)، حيث اعترف المجتمعون أن هدف اجتماعاتهم هو إعداد الجماهير العربية لقبول "السلام" بشروطه الحالية أي فرض هذا "السلام" طوعاً بإرادتها، أو رغماً عنها عن طريق تزييف وعي الناس وإرادتهم المقاومة للعدوان والاستيطان والعنصرية الصهيونية، ولتحقيق برنامجها، قررت المجموعة القيام بإجراءات وتحركات واسعة، تتمثّل خطوطُها العامة بما يلي:

- ينبغي إحداث تحولات في التوجهات والإدراك في الشرق الأوسط إذا أريد للمنطقة الانتقال من ثقافة المواجهة والحرب إلى ثقافة السلام.

- يمكن للإعلام أن يلعب دوراً أساسياً في بناء السلام لتجاوز القيود الحكومية والثقافية السائدة، التي تضع عقبات مانعة أمام تقدم السلام.

ثم عُقدت في سبتمبر من عام ١٩٩٤ م ، "خلوة أنقرة" التي أشرفت عليها ونظمت أعمالها وأسماء المدعوّين إليها وموّلتها المؤسّسة الأمريكية الصهيونية المعروفة بـ "مشروع البحث عن أرضية مشتركة" وقد استمرت أعمالها لثلاثة أيام تحت شعار "نحو ثقافة سلام بالشرق الأوسط"، وقد بدأت بتنفيذ برنامج العمل المستقبلي، الذي كانت أقرته في الاجتماع السادس بمراكش (مارس ١٩٩٤م)، مجموعة العمل الأساسية في إطار "المبادرة" من أجل السلام والتعاون في الشرق الأوسط، وقد ساهم بدور واضح في "خلوة أنقرة" ، "مركز تاتي ستينمتيز الإسرائيلي لأبحاث السلام" في تل أبيب، الذي يترأسه "شمعون شامير" (الذي كان مديراً للمركز الأكاديمي الإسرائيلي بالقاهرة)، ومؤسّسة "وقف الأمل" التركيّة بأنقرة وجمعية إعلام العالم بباريس، إضافة إلى تسعة صحفيين عرب .

وقد أجمع المشاركون على ضرورة اتخاذ الخطوات التالية:

- ينبغي على صحف المنطقة نشر مقالات وزوايا دائمة من دول أخرى، وقد قبل أكثر من صحفي عربي دعوة المساهمة في كتابة مقالات في الصحف (الإسرائيلية).

- أن يتم ترجمة وتوزيع المقالات الرئيسة التي تصدر في الصحف (الإسرائيلية)، التي لا يسمح بدخولها إلى الدول العربية من قبل المشاركين، كما يتم ترجمة وتوزيع المقالات الرئيسة، التي تصدر في الصحف الأخرى التي لا تتوافر (للإسرائيليين)، والهدف من ذلك هو رفع مستوى العلاقات وتقويتها بين الصحفيين العرب و(الإسرائيليين).

- ينبغي على الصحفيين المشاركين من دول مختلفة أن يكتبوا مقالات مشتركة، وهذا من شأنه أن يجعلهم يتبنّوا ذات الأفكار والمفاهيم، وقد وافقت (ر.د) مراسلة صحيفة "الحياة" مشاركة صحفي (إسرائيلي) في كتابة مقالات مشتركة.

- أعلن المشاركون عن تشكيل شبكة مهنية لصحافة الشرق الأوسط، ودعوا إلى ضرورة توسيعها والنشر عنها، لضمّ أكبر عدد ممكن من الصحفيين العرب و(الإسرائيليين) وغيرهم إليها، وتقديم إرشادات حول أية مقالات يريدون كتابتها.

من آثار التطبيع :-

أولاً: فلسطين

١ - الجانب السياسي :

من أبرز المبادئ اليهودية في إدارة الصراع مع الفلسطينيين العمل على عدم تمكينهم من إقامة دولة فلسطينية مستقلة ، لأن إقامتها يعني وجود منافس حول الشرعية المرتبطة بالأرض التي يعيش عليها اليهود ، وأخطر من ذلك سياسة استيعاب الشعب الفلسطيني عن طريق :

- استيعاب الفرد معنوياً وحضارياً سواء بإيجاد الاحترام والانتماء العربي أو بإيجاد الإعجاب بالحضارة اليهودية .

- تشجيع زواج العربي باليهودية وخاصة الشرقية مع مخالفة ذلك لمبادئ النقاء اليهودي ولكن ذلك قد يؤدي في الأمد البعيد إلى إضعاف العنصر الفلسطيني .

- الاستئصال العضوي وله وسائل متعددة كالقتل أو الطرد أو التشجيع على الهجرة الدائمة .

وإذا نظرنا إلى فصائل المقاومة الفلسطينية ، فإنها تجد نفسها في مأزق، كلما وجدت الدول العربية تهرول باتجاه الكيان الصهيوني غير عابئة بما تجره هذه الهرولة من تنسيق أمني عالٍ مع الكيان الصهيوني في المجال الأمني والإستخباراتي خصوصاً ، مما يضرها وهذا بدوره يقطع كثيراً من طرق الإمداد للمقاومة الفلسطينية، سواء العسكرية أو التموينية، كما تقلل مساحة الوجود للفصائل الفلسطينية على التراب العربي، ومن ثم يقطع سبيل التواصل بين الخارج والداخل لهذه الفصائل ٢ – الجانب الاجتماعي :-

سعى اليهود للتقليل من تكاثر المسلمين في فلسطين (عام ١٩٤٨م) خاصة وبقية الأراضي المحتلة بوسائل متعددة كنشر الأمراض الجنسية وترويج مواد استهلاكية وأدوية تؤدي إلى العقم ، وقد صرح وزير الصحة الفلسطيني السابق عبد العزيز شاهين عن اكتشاف ما يقارب العشرين طناً من علكة لبان تسبب العقم كانت توزع داخل فلسطين المحتلة .

٣ – الجانب الاقتصادي :

منذ العام ١٩٦٧م بدأ اليهود باستخدام العملة اليهودية في المناطق المحتلة وتحويل أفرع البنوك العربية إلى بنوك يهودية وفتح باب التبادل التجاري بين المناطق المحتلة و الكيان الصهيوني وتشجيع زراعة المحاصيل الزراعية التي يحتاجها الكيان الصهيوني للاستهلاك المحلي أو قيامه بتصديرها إلى أوربا وتنشيط إدماج العمالة العربية في قوة العمل اليهودية لتوثيق الامتزاج الاقتصادي ولكن بشروط قاسية حيث يعمل العربي ساعات أكثر من اليهودي ويأخذ أجراً يماثل نصف أجر العامل اليهودي الذي يؤدي العمل نفسه ، إضافة إلى تعرض بعض العمال العرب إلى اعتداءات عنصرية من رجال الشرطة أو رجال سلاح الحدود اليهود بل وحتى من العمال اليهود ،ومع استمرار مسلسل الحصار والاجتياح اليهودي للمدن الفلسطينية تزايد عدد الأسر الفقيرة إما بسبب مقتل عائلها أو اعتقاله ، وكان من نتيجة ذلك سيطرة اقتصادية يهودية شبه كاملة على الضفة وقطاع غزة ، بلغ فيه حجم التعامل الاقتصادي مع اليهود ٨٣% وحقق اليهود من ورائها سوقاً يفوق حجم سوقه مع مجموع الدول الأفريقية ، وبعد بدء مسلسل المفاوضات بين السلطة والكيان

الصهيوني ظهر منذ البداية الاهتمام الأميركي . الصهيوني بالمضمون الاقتصادي للعملية السلمية، حيث تم التركيز بشكل خاص على ضرورة البدء بإقامة تكتل اقتصادي يدمج اقتصاد الكيان الصهيوني واقتصاد الأردن والاقتصاد الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة، ولقد بادرت مدرسة جون كيندي في جامعة هارفارد إلى دعوة اقتصاديين أكاديميين من فلسطين والأردن والكيان الصهيوني ليعملوا تحت أشراف اقتصاديين أميركيين على تحديد مستقبل التعاون الاقتصادي بين بلدانهم وعقد ذلك المؤتمر قبل توقيع اتفاق أوسلو، وتم بعد ذلك اعتماد الكثير من توصياته في الاتفاقية الاقتصادية بين الكيان الصهيوني ومنظمة التحرير التي وقعت في باريس العام ١٩٩٤ م .

وقد كان الفلسطينيون قد وعدوا عند توقيع اتفاقية أوسلو بتحسن الأوضاع الاقتصادية والمعيشية ولكن الواقع الحالي يشهد بما يعانيه ساكني مسرى الأنبياء من فقر وحاجة لا يعلمها إلا اللطيف الخبير .

ثانياً : مصر

١ - الجانب السياسي :

تم عزل مصر عن محيطها العربي فلم يكن لها دور في أحداث عظام وقعت بعد توقيعها لاتفاقية (كامب ديفيد) كتدمير المفاعل النووي العراقي وقمع اليهود للمقاومة الفلسطينية واللبنانية بشراسة ودعمهم لإثيوبيا ولحركة التمرد في جنوب السودان وغيرها من الأحداث ، أما على الصعيد الداخلي فقد كشفت المخابرات المصرية عدداً من شبكات التجسّس (الإسرائيلية)، أغلبها على صلة مباشرة بسفارة "إسرائيل" منها -على سبيل المثال- الشبكة التي كانت برئاسة المستشار العسكري (الإسرائيلي) بالسفارة، والتي كشفت في أوائل أغسطس ١٩٨٥م ، وكانت تضم عدداً من أعضاء البعثة الدبلوماسية (الإسرائيلية)، وبعض الباحثين "بالمركز الأكاديمي الإسرائيلي"، وأمريكيين يعملان بهيئة المعونة الأمريكية، وسويدياً يعمل وسيطاً في صفقات الأسلحة، وثلاثة مصريين، وكانت هذه الشبكة تستخدم محطة لاسلكية متطورة داخل سفارة العدو، لتبليغ رسالة يومية عن أحوال مصر، بينما يتم نقل التقارير والأفلام والصور والخرائط إلى (إسرائيل) عبر الحقيبة الدبلوماسية، وكذلك

قام ضباط "الموساد" بالسفارة (الإسرائيلية) بالقاهرة، بتجنيد عدد من الطلاب عن طريق بعض أقاربهم العاملين بالسفارة، وتشجيعهم على السفر إلى (إسرائيل) ، حصل مقابلها أقاربهم على مكافآت مجزية نظير تجنيدهم!!.

وهناك قضية (الإسرائيليين) الأربعة الذين كانوا يحملون جوازات سفر إنجليزية مزوّرة، وتم ضبطهم عند خروجهم من إحدى نقاط المراقبة الخاصة بقوة حفظ السلام في جنوب سيناء، وبحوزتهم حقيبة تضم ٧ وثائق شفرية و١٩ شريطاً ميكرو فيلماً للمنشآت المصرية في سيناء ونُظم تسليحها.(المركز الفلسطيني للإعلام على شبكة الانترنت يوم ٣٠ مايو ٢٠٠٥م) .

٢ –الجانب الثقافي

نشر المركز الفلسطيني للإعلام على شبكة الانترنت يوم ٣٠ مايو ٢٠٠٥م ، بحثاً بعنوان مراكز الأبحاث والمؤسسات العاملة في خدمة التطبيع والإستراتيجية الصهيونية ، وهذه مقاطع من البحث :–

]ضمن الإطار التطبيعي أقيمت في مصر ستّ وثلاثون مؤسّسة علمية أمريكية، وثقافية "إسرائيلية"، مثّلت وتمثّل مظلّة رسميّة لاختراق الشخصية العربية، والتجسّس على قطاعات المجتمع كافّة ، ومن ذلك –مثلاً– النشاط الذي يقوم به "مركز البحوث السياسية" في كلية الاقتصاد جامعة القاهرة، الذي يجري كثيراً من الأبحاث بتمويل من "مؤسّسة فورد"، وكذلك نشاط "مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية في الأهرام"، و"معهد التخطيط القومي" وغيرها من المؤسّسات العلمية ، وبغية اختراق العقل العربي وعناصر المجتمع العربي أُنشئ في مصر عام ١٩٨٢ م "المركز الأكاديمي الإسرائيلي بالقاهرة"، الذي لعب ويلعب دوراً خطيراً في مجال التمهيد للتطبيع، ونظراً لكونه الأخطر في ميدان إستراتيجية العدو على الأصعدة الأمنية والثقافية والعلمية، فقد توالى على إدارته عدد من أبرز المتخصصين في الدراسات الشرقية والعربية، الذين يرتبطون بعلاقات عضويّة مع أجهزة المخابرات (الإسرائيلية) ، ومع مراكز التخطيط الاستراتيجي في الكيان الصهيوني حيث ركّز المركز جهوده خلال فترة ماضية للحصول على معلومات عن طلبة كليات العلوم والهندسة في جامعات مصر، لمعرفة آخر ما توصل إليه الطلبة النابغون من اختراعات جديدة،

فاختير عشرة اختراعات وضعها "مدير المركز الأكاديمي الإسرائيلي بالقاهرة" تحت المجهر، ووجّه بشأنها رسالة إلى السفير الإسرائيلي بالقاهرة كتب فيها:

بناء على تعليماتكم بإحضار ملفّات كاملة عن آخر اختراعات الشباب المصريين أرسلنا لكم عشرة ملفات عن اختراعات في مجال الزراعة وتحلية المياه والبلاستيك والكمبيوتر وإطارات العربات، ونودّ أن ننبهكم أنّ معظم هذه الاختراعات قمنا بتجربتها وفحصها جيداً، وهي تعد من أحدث ما توصل إليه العلم ، فأرسل السفير الإسرائيلي بالموافقة على شراء أربعة اختراعات وبأسرع وقت، أحدها جهاز لتحلية مياه البحر لطالب في كلية الهندسة، و الثاني جهاز لإنتاج سماد يعيد خصوبة الأرض، ويحول الأرض المالحة إلى أرض صالحة للزراعة، لطالب في كلية الزراعة ، وهو الوحيد الذي قابل السفير الإسرائيلي في اليوم التالي ليعرض اختراعه ، فعرض عليه السفر ، وتجربة الاختراع ذاته بطريقة عملية، شاملة تكاليف الإقامة ومكافأة لكل يوم يقضيه في الكيان الصهيوني ، إضافة إلى حق شراء الاختراع نفسه ومدة الإقامة ثلاث سنوات، وسافر بالفعل بعدما وضع ثمن الاختراع في البنك الأمريكي المصري .

والمؤسّسات والهيئات الأمريكية، التي تمثّل بؤراً تطبيعية في جسد المجتمع المصري لا حصر لها، وسوف نقدّم هنا أكثر هذه المؤسّسات والهيئات شهرة وأكثرها خطراً وهي:

١- الجامعة الأمريكية في القاهرة .

٢- المركز الثقافي الأمريكي في مصر .

٣- مؤسسة فورد : يرى باحثون منصفون أنها من أخطر مؤسسات التغريب العالمي الأمريكية ، وقد انفردت بتمويل (أبحاث ودراسات الشرق الأوسط) وعبر هذه المؤسسة تقوم (وكالة التنمية الأمريكية: (aid بتخصيص حوالي مائة مليون دولار سنوياً لمركز البحث العلمي والجامعات المصرية منذ نهاية السبعينات وحتى اليوم .

٤- مؤسّسة راند الأمريكية وهي مؤسسة دراسات وأبحاث تقدم توصياتها للحكومة الأمريكية.

٥- معهد ماساشوستس وفروعه في القاهرة ومعهد "ام-أي-تي" (في مبنى جامعة القاهرة).

٦- الأكاديمية الدولية لبحوث السلام.

٧- مشروع ترابط الجامعات المصرية الأمريكية ومقره المجلس الأعلى للجامعات في القاهرة. (تبلغ ميزانيته السنوية ٢٧ مليون دولار تقدّمها المخابرات الأمريكية).

٨- "مركز البحوث الأمريكي" بالقاهرة، ويتركّز نشاطه في مجال الدراسات الاجتماعية، إلى جانب البحوث الاقتصادية والتاريخية والأثرية.. ويحظى بعضويته الشرفية "الزمالة" عدد من الأساتذة المصريين ومزدوجي الجنسية أمريكي/ مصري، وأمريكي/إسرائيلي , كما ينشط في مجال البحوث المشتركة والمموّلة، وفيما يلي بعض عناوين البحوث والدراسات التي أجراها هذا المركز:

-بحث فاليري هوفمان: "الحياة الدينية للمرأة المسلمة في مصر المعاصرة".

-دراسة ليوناردو بايندر حول "حرية الفكر الإسلامي في مصر المعاصرة".

-دراسة آرثر كريس عن: "الجهاد الإسلامي والاتجاهات الفكرية المختلفة".

ومنذ منتصف الثمانينات كثّف "مركز البحوث الأمريكي" نشاطه في مجال التطبيع والتجسّس العلمي على المجتمع المصري وتمثّل ذلك في عشرات الأبحاث المموّلة ومنها :

دراسة عن العادات والتقاليد المتوارثة للأسرة المصرية، الموالد الشعبية المصرية، تقصي ظاهرة التطرف في الحياة المصرية الحديثة، الإسلام والثورة.. إلخ.

٩- هيئة المعونة الأمريكية: استطاعت تمويل مشروع بحثي، أُنجز بالتعاون بين عدد من الجامعات الأمريكية، والجامعات المصرية، شمل أكثر من ٥٠٠ دراسة بحثية برصيد ٦٠ مليون دولار، وتناولت كل شيء في مصر من الصناعات الاستراتيجية، مثل: صناعة الحديد، والصلب، مروراً بمناهج التعليم والتربية وموقع الدين فيها، وانتهاء بسياسة مصر الخارجية تجاه (إسرائيل)، والتطبيع معها، وقد اشترك في هذا المشروع أكثر من ٢٠٠٧ من الباحثين المصريين، وأكثر من ٥٠٠ أمريكي، وقد كُتبت جميع هذه الدراسات باللغة الإنجليزية، وحصلت (هيئة المعونة الأمريكية) على نسخ منها، وعلى جميع المعطيات والأرقام والاستنتاجات التي

توصل إليها الباحثون إلى الحدّ الذي دفع بعض الباحثين المصريين إلى القول: إن «كمية المعلومات التي حصلت عليها هذه المؤسّسات تفوق ما تعرفه القيادة السياسية، وتفوق ما يعرفه علماؤنا» [

وقد أوردت صحيفة «السياسي» القاهرية في عددها ١٩٩٣/٥/٢٥م تحت عنوان بارز «اليهود والأمريكان... هل اندسوا في تطوير مناهجنا الدراسية؟» بعض المعلومات البالغة الدلالة إذ نشرت الفقرات المحذوفة من المناهج، مشيرة إلى أن «العملية التطويرية للمناهج التعليمية المصرية» قام بها ٢٩ أستاذاً ومستشاراً أمريكياً، بينهم عدد كبير من اليهود بتمويل من المعونة الأمريكية لمصر، وبينت الصحيفة أيضا : أن وزارة التعليم المصرية ألغت كتاب «صور من تاريخ مصر الإسلامية» للصف الخامس الابتدائي، وقررت بدلاً عنه كتاب «تاريخ الفراعنة»؛ بغية غرس محبة الحضارة الفرعونية عوضاً عن الحضارة العربية الإسلامية ، كما ألغي كتاب «الدولة الإسلامية العربية وحضارتها» للصف الثاني الثانوي، وتقرر عوضاً عنه كتاب «تاريخ أوروبا في القرون الوسطى» مع تحريف كتب التاريخ العربي، وتاريخ الحضارة الإسلامية.

٣ –الجانب الاجتماعي :

* ازدياد أعداد المصابين بمرض السرطان بسبب الكثير مما يتم استيراده من الكيان الصهيوني .

* انتشار المخدرات بشكل كبير بين فئات المجتمع كلها .

* السماح بدخول اليهوديات بأعداد كبيرة بزعم تنشيط السياحة فقمن بنشر الأمراض واقترنت الكثير منهن بشباب مصريين حتى بلغ عدد الزيجات أكثر من عشرين ألفا زواجاً مختلطاً.

* ظهور جماعات منحرفة من الشباب تحمل عقائد باطلة كمن يتسمون بعبدة الشيطان .

٤– الجانب الاقتصادي :

يعد هذا الجانب من أبرز الجوانب التي يحرص عليها اليهود لأهميته ، وقد وقعوا مع مصر على اتفاقية الكويز :(QIZ: qualifying industrial zones) في

٢٠٠٤/١٢ م، لإقامة المناطق الصناعية (في طور التأهيل) ، وهذه الاتفاقية هي تطبيق للقسم التاسع من اتفاقية التجارة الحرة بين أمريكا والكيان الصهيوني المبرمة عام ١٩٨٥ م ، وهي ليست اتفاقية مستقلة بين حكومتين من الناحية الفعلية فقد وافق الكونجرس الأمريكي على إعطاء الرئيس الأمريكي الإذن بالسماح لمصر والأردن بتصدير منتجاتهما إلى أمريكا دون دفع رسوم جمركية بشرط احتوائها على مكون إسرائيلي بنسبة ٧,١١ % كحد أدنى ، وهي تشمل كل الصناعات والسلع ، وقد تم في مصر استبعاد أهم المناطق الصناعية التي تنتج الملابس الجاهزة كمدينة المحلة الكبرى (قلعة النسيج في مصر) ومدينة ٦ أكتوبر والتي يوجد فيها أكثر من ٢٠٠ مصنع وغيرها من الأماكن فلا تشملها الاتفاقية ، ويتضح من هذا الاستبعاد مراعاة مصالح خاصة لبعض رجال الأعمال ، واتفاقية الكويز تناقض اتفاقية التجارة الدولية (الجات) والتي تؤكد على عدم وضع شروط تفصيلية لبعض الدول دون البعض الآخر ، وكذلك هي مخالفة للقانون والدستور المصري لأنها حفظت في مجلس الشعب دون عرضها للنقاش، بل لم تنشر إلى الآن ؟

ومن أبرز الآثار السلبية لهذه الاتفاقية أنها لم تحدد الحد الأقصى للمكونات الإسرائيلية الداخلة في المنتجات ، وهي ستساهم في زيادة الكساد للمصانع المصرية وستمكن اليهود من اختراق منظومة المعلومات الخاصة بالصناعة المصرية وستدخل غالب الأرباح الناتجة منها للخزينة اليهودية وستتسبب في هروب رؤوس الأموال العربية وستقضي على حلم السوق العربية المشتركة ، وكذلك فإنها ستمكن بقية الدول العربية من إظهار التطبيع بعد أن كانت تستخفي به، وما سيتبع ذلك من انسحاب الدول المنضمة إلى اتفاقية الكويز من اتفاقية المقاطعة العربية للكيان الصهيوني ، مثلما فعلت الأردن التي أعلنت انسحابها بعد التوقيع على الاتفاقية نفسها قبل مصر.

ومن أبرز المستجدات في الجانب الاقتصادي ، قيام شركة (EMG) الصهيونية – المصرية المشتركة بالتوقيع على صفقة لشراء الغاز الطبيعي مع وزير البترول المصري (سامح فهمي) وشركتين حكوميتين تعملان في مجال الغاز في مصر حيث سيتم سنوياً شراء ٧ ملايين متر مكعب من الغاز الطبيعي المصري ولمدة

عشرين عاما بقيمة ٥,٢ مليار دولار تقريبا ثم بيعه بعد ذلك إلى شركة الكهرباء (الإسرائيلية) ، وذكرت مصادر رسمية في مجال الطاقة بالكيان الصهيوني : إن كمية الغاز المتبقية سيتم بيعها لتركيا واليونان ودول أوربية أخرى ، وقالت تلك المصادر : إن نسبة الغاز التي ستنقل لشركة الكهرباء الإسرائيلية تصل إلى١,٧ مليون متر مكعب في العام الواحد وتقوم شركة(EMG) حالياً بإجراء مفاوضات مع شركات(إسرائيلية) أخرى لبيع كميات من الغاز المصري لها ، والشركة يمتلك رجل الأعمال الإسرائيلي (يوسي ميمان) نسبة ٢٥% ويمتلك رجل الأعمال المصري (حسين سالم) نسبة ٦٥% أما الحكومة المصرية فتمتلك ١٠% فقط من أسهم الشركة .

وكذلك نقل موقع (مفكرة الإسلام) على شبكة الانترنت الخبر التالي : كشف موقع صهيوني أن الرئيس المصري (حسني مبارك) أبلغ (شيمون بيريز) نائب رئيس الحكومة (الإسرائيلية) بموافقته على إقامة منطقة زراعية مشتركة على الحدود المصرية- الصهيونية وذكر موقع (القناة السابعة) العبري الإخباري أن (بيريز) أجرى اتصالاً هاتفياً برئيس مجلس مدينة (رامات هناجف) بصحراء النقب وأبلغه موافقة الرئيس مبارك على مشروع مشترك لتطوير المنطقة الحدودية بين مصر و(إسرائيل) وإقامة مشروع زراعي على مستوى عالٍ يندرج ضمن مشاريع التعاون الإقليمي المشتركة ، وقال (موشيه برائيل) مراسل الموقع : إن الرئيس مبارك وافق كذلك على مشروع تقدم به مجلس مدينة (رامات هناجف) يقضي بإقامة معبر سياحي لاستقبال السائحين بالقرب من معبر (نيتساناه) الحدودي بين مصر و(إسرائيل) .

وأخيراً لا يخفى ما يعيشه الناس في مصر من أزمات اقتصادية خانقة متتالية وصل فيها معدل البطالة إلى ٥,١٠ % والدين الخارجي إلى أكثر من ٣٠ مليار دولار وبلغ الدين الداخلي ما يزيد على ٣٠٠ مليار جنيه .

ثالثاً :- الأردن

الجانب السياسي :

" كانت اللقاءات بين الملك حسين واليهود مستمرة عن طريق الوسطاء منذ العام ١٩٥٠ م ، ثم تطورت حتى بدأ اليهود يبلغون الملك حسين بمحاولات اغتياله (١٩٥٨ م) عن طريق بريطانيا، وفي عام ١٩٦٠ م اغتيل رئيس الوزراء الأردني المجالي وكان المستهدف هو الملك حسين ، وكانت أصابع الاتهام تتجه إلى سوريا فقام الملك حسين بنقل جزء من قواته المرابطة على حدوده مع فلسطين إلى حدوده مع سوريا وأكد على اليهود بعدم استغلال ذلك ، ولكنه عدل عن الفكرة فيما بعد، ثم كان اللقاء الأول للملك حسين مع المدير العام لوزارة الخارجية الإسرائيلية في سبتمبر عام ١٩٦٣ م ، ثم تتابعت اللقاءات إلى أن التقى الملك حسين مع موشي ديان في لندن عام ١٩٧٧ م " من كتاب (تواطؤ عبر الأردن)، ولا يخفي مقولة الملك حسين عندما أدخل اليهود في قائمة المؤمنين حيث قال في خطابه يوم ١٩٩٤\١١\١٥ م :" إن السلام المعقود مع إسرائيل سيكون سلاما تنعم به الأجيال من العباد المؤمنين من نسل إبراهيم, ويؤدي إلى علاقات الإخوة بين المؤمنين الذين جعل الله لهم القدس محج أنظارهم جميعا.

الجانب الاقتصادي :

بعد أن وقع الأردن على (اتفاقية الكويز) مع الكيان الصهيوني عام ٢٠٠٣ م ، هبط الميزان التجاري الأردني مع الكيان الصهيوني من ٢٤ مليون دولار عام ١٩٩٩ م إلى عجز بقيمة ٢٦ مليون دولار عام ٢٠٠٣ م وقد تسببت هذه الاتفاقية بخسارة كبيرة لكثير من مصانع المواد الكهربائية وزيادة نسبة البطالة أيضا ، ويمكن رصد عينة من ممارسات التطبيع التجاري والصناعي بين الجانبين خلال الأعوام الماضية :

* يعمل الإسرائيليون على الاستفادة من رخص الأيدي العاملة الأردنية لزيادة إنتاجهم وخفض كلفة الإنتاج ، وذلك عبر نقل مصانعهم إلى الأردن ، أو اتخاذ مصانع وكيلة لهم في المناطق الصناعية .

* تهتم هذه المصانع بالاستفادة من الانفتاح الأردني الواسع على الدول العربية لترويج بعض منتجاتها في دول لا تقيم علاقات اقتصادية مع الكيان الصهيوني بوصف هذه البضائع أردنية المنشأ والإنتاج .

* من المشاريع الهامة التي نجح الإسرائيليون في إقامتها :

* تمكنت شركة " شتراوس " الإسرائيلية المتخصصة في صناعة منتجات الألبان من نقل جزء من صناعاتها إلى الأردن في منتصف عام ١٩٩٨م ، وقد خطط لتصدير الكثير من الإنتاج إلى الدول العربية ، غير أن الشركة تعاني من صعوبات كبيرة في تسويق منتجاتها حيث اكتشف عدد من التجار مصدر الألبان الذي تصلهم منه ، مما جعل السوق الرئيسي لها هو الدول العربية بوصفها منتجات أردنية .

* خرّجت كلية " شنكر"الإسرائيلية لتعليم مهنة الحياكة وفنون الموضة وإنتاج الملابس الجاهزة خمسة عشر عاملا أردنيا على نفقة مؤسسات إسرائيلية بهدف إلحاقهم بالمصانع الإسرائيلية التي أقيمت في الأردن .

وقبل فترة وجيزة أعلن رسمياً عن تطوير الاتفاق التجاري الذي يربط بين الكيان الصهيوني والأردن، ما يعطي مزيداً من الفرص للتعاون فيما بينهما للتصدير المشترك لأوربا ، فقد أجرت صحيفة (هارتس) العبرية حواراً مع مسئول التجارة بالإتحاد الأوربي (بيتر مندلسون) حيث أكد أن هذا الاتفاق الذي وقعه الاتحاد الأوربي مع الأردن و الكيان الصهيوني لم يكن رد فعل متأخر لاتفاق (الكويز) الموقع مع الولايات المتحدة ، وقال :إن التعاون معهما بدأ قبل تنفيذ هذا الاتفاق ، وعن إمكانية التوقيع على اتفاق مماثل بين مصر والكيان الصهيوني قال المسئول الأوربي : إنه يتمنى دخول مصر تلك المنظومة التجارية ، كما أشار إلى أن الإتحاد الأوربي يبدي اهتماماً خاصاً باتفاق التجارة الحالي بين الكيان الصهيوني والسلطة الفلسطينية ، وأنه معني باستمراره في قطاع غزة بعد الانسحاب الإسرائيلي منه حيث أن مسئولي الاتحاد الأوربي يرون أن هذا الاتفاق إذا تم وقفه سيؤدي إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية في القطاع ، كما سيضر بمحادثات السلام بين الكيان الصهيوني والفلسطينيين حسب رأيهم .

وأخيرا فالشعب الأردني المسلم والذي ظلت قيادته متمسكة بتعهداتها للعدو الصهيوني لا يزال يئن من شدة الحاجة والفاقة ، وأرضه تحوي من الخيرات والثروات الشيء الكثير ، حتى وصل الحال " بحاملي درجة الدكتوراه – العاطلين عن العمل – أن يسيروا في مظاهرات في شوارع عمان " (تقرير بثته فضائية الجزيرة).

رابعاً:- موريتانيا

وضع موريتانيا الجغرافي وثقلها السياسي الهش جعلها دومًا بعيدة عن الصراع العربي والإسلامي مع الكيان الصهيوني , إلا أن نظام معاوية ولد الطايع (المخلوع) مد جسور العلاقة مع الكيان الصهيوني, وجعل من بلاده أول بلد عربي خارج دول الطوق يكسر حاجز التطبيع مع الصهاينة, ليكون ثالث نظام عربي بعد مصر والأردن يقيم علاقات دبلوماسية كاملة مع الكيان الصهيوني ، ولعلنا نقول: إن علاقات موريتانيا مع الكيان الصهيوني تفوقت واتسمت بدفء مستمر لم تشهده علاقات الكيان مع أية دولة عربية أخرى, ففي نوفمبر ١٩٩٥ م وقعت موريتانيا اتفاقًا تعترف فيه بالكيان الصهيوني وتقيم علاقات معها، و في أكتوبر ١٩٩٨م زار وزير الشؤون الخارجية والتعاون الموريتاني الكيان الصهيوني ؛ حيث عقد محادثات مع رئيس الوزراء الصهيوني السابق بنيامين نتانياهو، ثم أقامت موريتانيا علاقات دبلوماسية كاملة مع الكيان الصهيوني في أكتوبر ١٩٩٩م, وفي ذات العام تواردت الأنباء عن سماح النظام الموريتاني بدفن نفايات نووية من الكيان الصهيوني في البلاد في صفقة لم يتم الكشف عن جميع أبعادها، وقد زار وزير الخارجية ولد عبدي الكيان الصهيوني في مايو ٢٠٠١م اجتمع خلالها مع رئيس الوزراء الصهيوني أريل شارون ووزير خارجيته شيمون بيريز ، و في أبريل ٢٠٠٢م قاومت الحكومة الموريتانية الضغوط لقطع علاقاتها الدبلوماسية مع الكيان الصهيوني ، بسبب حملته العسكرية الإجرامية على الفلسطينيين في الضفة الغربية, مع أن مصر قد اضطرت تحت الضغوط الشعبية إلى سحب سفيرها من الكيان الصهيوني وتبعتها في ذلك الأردن، و في مايو ٢٠٠٥ م أجرى وزير الخارجية الصهيوني سيلفان شالوم محادثات مع مسؤولين بارزين في الحكومة الموريتانية.

خامساً :- المغرب

يمثل النظام المغربي حالة فريدة في التطبيع من خلال أدواره التاريخية في تسهيل الاتصالات الإسرائيلية – العربية بالمنطقة ،منذ بداية الستينات حيث كان يعمل على تهجير المغاربة اليهود إلى الكيان الصهيوني مقابل رسوم مالية بالدولار ، ويشكل حجم الجالية اليهودية الكبير وسيلة تواصل دائم بين الجانبين ، حيث يوجد حوالي

مليون يهودي مغربي بالكيان الصهيوني و٣٠٠ ألف يهودي مقيم بالمغرب ، وهو أكبر عدد لطائفة يهودية في دولة عربية، كما يوجد في المغرب عدة جمعيات يهودية تعمل في مجال التطبيع مع الكيان الصهيوني كجمعية هوية وحوارالتي تأسست عام ١٩٧٤ م ، والتجمع العالمي لليهودية الذي تأسس عام ١٩٨٥م ، والمركز العالمي للأبحاث حول اليهود المغاربة الذي تأسس عام ١٩٩٥ م ، ثم الاتحاد العالمي لليهود المغاربة الذي تأسس في ٣ مايو ١٩٩٩م.

وقد قام النظام المغربي بدور كبير في اتفاقية (كامب ديفيد) ، ففي اللقاء التمهيدي بين الحسن الثاني وموشي ديان – وزير الخارجية الإسرائيلي آنذاك – الذي سأل الملك متعجباً عن كيفية عمله كمنسق بين الكيان الصهيوني والدول العربية ، أجاب الملك بكل سهولة : (أتعرف أنه لو علم بوجودك هنا فلن يطيح هذا العمل بي عن العرش والسبب شعبيتي الكبيرة بين اليهود)، ثم تلا ذلك عدد من الاجتماعات بين (موشي ديان) و حسن التهامي (أحد ضباط ثورة يوليو وأمين عام منظمة المؤتمر الإسلامي) مبعوث الرئيس السادات في مدينة (أفران) بالمغرب سنة ١٩٧٧ م .

وأخيراً لا يخفى ماأعلنته غالب دول الجامعة العربية بما فيها بعض دول الخليج عدم التزامها بالمقاطعة الاقتصادية للكيان اليهودي وذلك عام ١٩٩٤م، إلا أن بعضها ما زال ملتزماً بشئ يسير منها، وهذه المقاطعة هي التي كبدت اليهود بين عامي ١٩٤٨م إلى ٢٠٠٤م، ما يقرب من مائة مليار دولار، وما وصفته الصحافة الأميركية بهدف (إعادة تأهيل الكيان الصهيوني عالميا The International Rehabilitating of "Israel") وهو هدف يتطلب تحقيق أمرين: الأول إنهاء المقاطعة العربية للكيان الصهيوني ، والثاني إشاعة جو يطمئن الشركات العالمية إلى إن السلام في الشرق الأوسط أصبح حقيقة لا رجوع عنها حتى تقبل على الاستثمار في الكيان الصهيوني ، ففي ثلاث سنوات تقريبا تم تحقيق هدف إعادة تأهيل الكيان الصهيوني عالميا، على ثلاثة محاور: المحور الأول إقامة علاقات دبلوماسية مع بلدان كانت لا تقيم علاقات مع الكيان الصهيوني بسبب الصراع العربي . الصهيوني ، وخلال عام واحد بعد توقيع اتفاقية أوسلو، أقام الكيان الصهيوني علاقات دبلوماسية مع ٢٠ دولة، وبعد ذلك استمر يقيم علاقات مع بلدان

أخرى، وكان واضحا أن الكيان الصهيوني يولي بلدان جنوب شرقي آسيا اهتماما خاصا ، أما المحور الثاني فهو أن البلاد التي كانت تلتزم قوانين المقاطعة العربية للكيان الصهيوني أخذت تفتح أسواقها للبضائع الصهيونية ، وتقيم مع الكيان الصهيوني مشاريع مشتركة، وعلى سبيل المثال زادت الصادرات من الكيان الصهيوني للبلدان الأسيوية بعد سنة واحدة من اتفاق أوسلو بمقدار ٢٣ في المائة وأصبحت تعادل حوالي ١٣ في المائة من مجمل الصادرات الصهيونية بعدما كانت اقل من ٨ في المائة ولقد ازداد حجم التبادل التجاري بين الكيان الصهيوني وكوريا الجنوبية حوالي ٥٠ في المائة ما بين ١٩٩٤ . ١٩٩٦م ، كما أصبحت الصين مستوردا رئيسيا للسلاح والتكنولوجيا الصهيونية، وكذلك فان الشركات الآتية قامت ببناء مصانع أو مراكز لها في الكيان الصهيوني بعد العام ١٩٩٤م : Intel General Motors, Westinghouse, Mottorola, Salmon, Cablet Wireless, Daimler Brewze, Siemens, Brothers, ولقد أتت هذه الشركات إلى الكيان الصهيوني لأنها ترى في اقتصاد الكيان الصهيوني شريكا في التمويل والاستثمار والبحث العلمي، وهي لا تقيم مصانعها في الكيان الصهيوني من اجل سوقه المحلي ، ولكن لأنها تستخدم سوق الكيان الصهيوني بوابة لأسواق الشرق الأقصى أولاً، وأسواق الشرق الأوسط ثانياً، وهكذا بينما كان حجم الاستثمارات الأجنبية في الكيان الصهيوني عام ١٩٩١م لا يتعدى ٤٠٠ مليون دولار، أصبح عام ١٩٩٦م حوالي ٢,٩ بليون دولار ، وهذا يعني أن حجم الاستثمار الأجنبي في الكيان الصهيوني في العام ١٩٩٦م ، كان حوالي أربعة أضعاف حجمه في مصر' (مجلة الوسط ١-٥-٢٠٠٠م).

سابعاً : مبادرات التطبيع الجديدة:

أ – خارطة الطريق

إن هذه المبادرة ليست معاهدة رسمية ، بل هي خطة عملٍ تتطلّب من السلطة الفلسطينية ومن دولة الكيان القيام بأعمالٍ عدةٍ في المجالات الأمنية و الإنسانية من أجل تهدئة الأوضاع و تحسين عوامل الثقة بين الطرفين من أجل العودة إلى المفاوضات ، وتتكوّن خارطة الطريق من ثلاث مراحل رئيسة :

المرحلة الأولى : استتباب الأمن للكيان الصهيوني بالقضاء على من يسمونهم بـ (الإرهابيين) – المقاومة الفلسطينية – حيث تعلن السلطة الفلسطينية عدم شرعية المقاومة و تعتبر المقاومين (إرهابيين) خارجين عن القانون يجب محاربتهم و اجتثاثهم بالقوة من المجتمع الفلسطيني و القضاء عليهم كلية , وعليها كذلك أن تمنع و توقف جميع مظاهر التحريض ضد الكيان في أجهزة الإعلام و خطب المساجد و المناهج الدراسية التي ستُبدل إلى منهاجٍ جديدٍ شبيهٍ بالمنهاج الأميركي المُصمّم لمدارس العراق , و تشمل هذه المرحلة أيضاً إصلاحاتٍ جذريةٍ في جميع المؤسسات الحكومية الفلسطينية لكي تتعاون تماماً مع الكيان الصهيوني في جميع مجالات الأمن (أمن الكيان الصهيوني) , و بعد أن تقوم السلطة الفلسطينية بجميع هذه الأعمال تقوم دولة الكيان بتقديم التسهيلات الإنسانية المعيشية للفلسطينيين و تفكيك مستوطنات ما بعد ٢٨ أيلول ٢٠٠٠م و تجميد عمليات اغتصاب الأراضي و بناء المستعمرات عليها .

المرحلة الثانية : قيام دولة فلسطينية في غضون عامين أي عام ٢٠٠٥ م ، قابلة للاستمرار و للنمو حسب تصوّر الرئيس الأميركي جورج بوش ، وهانحن في بداية عام ٢٠٠٦ م ولم ترى هذه الدولة النور بعد !! .

المرحلة الثالثة : و تعتبر المرحلة النهائية للصراع الفلسطيني الصهيوني حيث يقوم الطرفان بالمفاوضات النهائية من أجل إحلال سلامٍ شاملٍ في المنطقة .

ب – المبادرة العربية

هذه المبادرة في الأصل مبادرة سعودية (مبادرة الأمير عبد الله بن عبد العزيز عندما كان ولياً للعهد) ثم سميت بالمبادرة العربية بعد أن تبنتها قمة بيروت وهذه المبادرة لم تأخذ مجمل الحقوق الفلسطينية بعين الاعتبار بل حصرت الحقوق في الانسحاب الإسرائيلي من الضفة والقطاع إلى حدود عام ١٩٦٧ م وفي الدولة الفلسطينية، ونلاحظ كذلك أن الكيان الصهيوني عندما رحب بهذه المبادرة لم يأخذ منها إلا جانب التطبيع والاعتراف العربي الذي سيحصل عليه، أما ما يترتب عليها من التزامات، وهو الانسحاب الكامل والاعتراف بالدولة المستقلة لم يشر إليه الترحيب اليهودي بل

عندما أشار إليه ، قال إن ذلك يأتي عبر المفاوضات ، ومن أبرز بنود هذه المبادرة –:

* إقامة علاقات كاملة بين الكيان الصهيوني وكل الدول العربية الأعضاء بالجامعة العربية .

* العمل طبقاً لأسس وبنود قرارات مجلس الأمن الدولي أرقام ٢٤٢، ٣٣٨،٤٢٥ .

* الالتزام بالقرار ١٩٤ لمجلس الأمن خاصة فيما يتعلق بحق عودة اللاجئين الفلسطينيين منذ عام ١٩٤٨ م .

* ضرورة توافر ضمانات كتابية أمريكية لنجاح المبادرة والتزام الكيان الصهيوني في حالة قبولها .

* تحديد وضع القدس باعتبارها أراضي عربية احتلت صباح يوم ٥ يونيو ١٩٦٧م، وبهذا ينطبق عليه قرارات مجلس الأمن الداعية لانسحاب إسرائيل الكامل إلى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧ م .

* اعتبار الحدود الدولية هي الحدود التي كانت على أرض الواقع يوم ٤ يونيو١٩٦٧م.

* تطبيق مبدأ الأرض مقابل السلام وهو ما جاءت به قرارات مؤتمر مدريد للسلام ١٩٩١ م .

وقد اعتبر "شيمون بيريز" وزير الخارجية الإسرائيلي المبادرة "مرنة" بشأن القدس، ومواضيع أخرى، وقال لشبكة "فرانس – ٢" التلفزيونية ، الأربعاء ٢٦-٢-٢٠٠٢م: إن تقاسم المدينة المقدسة سوف يتضمن الإبقاء على مواقع إسرائيلية في القدس الشرقية، حيث ستبقى بعض القطاعات بين يدي إسرائيل , وأضاف أن الحلول التي تطرحها المبادرة تقوم على "تبادل أراض" بين الإسرائيليين والفلسطينيين، مع اعترافها في الوقت نفسه بأن وضع المستوطنات اليهودية يشكِّل واقعًا من الصعب جدًّا تغييره, واستبعد إجراء أي "اتصال مباشر" مع المسئولين السعوديين في الوقت الراهن,وكانت صحيفة "يديعوت أحرونوت" الإسرائيلية قد نشرت في ٢٦-٢-٢٠٠٢م: إن المبادرة السعودية تنطوي على أهمية كبيرة لإسرائيل، تتمثل في اعتراف ٢٢ دولة أعضاء في الجامعة العربية بها، وإقامة علاقات كاملة معها.

وقد قيل أن المبادرة تأتي في سياق تفاهم أمريكي – عربي في صورة مقايضة بين القضية الفلسطينية والعراق؛ بحيث توافق الدول العربية على إطاحة النظام العراقي في بغداد عبر غزو على غرار غزو أفغانستان مقابل تهدئة الأوضاع في فلسطين، وإقامة الدولة الفلسطينية ، وربما لهذا تم التركيز في هذه المبادرة على فكرة (التطبيع الشامل) وتنبع أهميتها كذلك من أنها صادرة عن أهم دولة إسلامية تحتضن المقدسات الإسلامية، وأكبر مصدر للنفط؛ وذلك بغرض إغراء الصهاينة، ودفعهم لتقديم أقصى تنازلات ممكنة، وبعد هذه الأطروحات كلها أكد بوش في خطابه للعالم بخصوص القضية الفلسطينية في ٦ / ٢٠٠٢م، على أن :

* الاحتلال باق و إسرائيل تدافع عن نفسها وهي وأفعالها تحت المظلة الأمريكية .
* العراق دولة تشجع على الإرهاب .
* على سورية التزامات بخصوص الحرب على الإرهاب وعليها القيام بها .
* على الدول العربية إنجاز التطبيع الكامل مع إسرائيل.

جـ – المبادرة الأردنية

قدمت هذه المبادرة إلى قمة الجزائر الأخيرة ، ولقد وصفت القمة بأنها قمة الهرولة نحو التطبيع، خاصة بعد موافقة وزراء الخارجية في الاجتماعات التحضيرية على المبادرة الأردنية، وهي المبادرة التي تنظر إليها أوساط عربية على أنها دعوة إلى الاستسلام وفتح العواصم العربية من دون قيد أو شرط أمام المسئولين الصهاينة، الذين ردوا على مبادرة السلام العربية التي صدرت عن قمة بيروت باجتياح الضفة الغربية، فيما سمي عملية 'السور الواقي'.

والمثير في الأمر حقًا هو تزامن إعلان الأردن عن المبادرة بعد لقاءات خاصة بين العاهل الأردني الملك عبد الله الثاني ورئيس وزراء الاحتلال الصهيوني شارون، كما كانت قبيل لقاء الملك عبد الله الثاني بالرئيس الأمريكي بوش في واشنطن، والأكثر إثارة هو الإعلان عن عدم مشاركة العاهل الأردني في القمة.

ولكن هذه المبادرة أجهضت ونتيجة لذلك اتهم وزير الخارجية الإسرائيلي سيلفان شالوم كلاً من سوريا والجزائر والأمين العام للجامعة العربية عمرو موسى بإعاقة المبادرة التي طرحتها الأردن على قمة الجزائر الأخيرة، وقال شالوم إن هذه المبادرة

كانت تحظى بتأييد إسرائيل ، وأظهرت أمريكا عدم رضاها عن القمة من خلال تصريحات رسمية انتقدت القمة العربية، وبالطبع لم تؤسس انتقادها على رفض القمة للتطبيع المجاني مع الكيان الصهيوني ، وإنما لجأت إلى نقطة الضعف التقليدية في النظام العربي، مشيرة إلى أن القمة فشلت في التوجه نحو المزيد من الديمقراطية والحرية في الشرق الأوسط!.

ومن جانبه أعلن العاهل الأردني أن ما أثير حول المبادرة الأردنية هو مجرد «سوء فهم» للنوايا الأردنية، و«حادث مؤسف» في سلسلة الأحداث المؤسفة التي ارتبطت بالدبلوماسية الأردنية في الآونة الأخيرة.

ثامناً : آخر تطورات التطبيع :

إن المؤشرات الجديدة تتمثل فيما صرح به وزير الخارجية «الصهيوني» سيلفان شالوم، من أن هناك عشر دول عربية سوف تقيم علاقات دبلوماسية مع الكيان الصهيوني في وقت قريب ، وهو تصريح يَلْقى مصداقية . للأسف . مما جرى، ومما أعلن عنه رسمياً في الفترة الأخيرة، ومما تناقلته وسائل الإعلام وسط صمت، أو رفض علني رسمي – وهي السياسة المعتمدة دوماً في جسّ النبض لقرارات بدء التطبيع من قِبَل الأجهزة الرسمية العربية – عن لقاءات وزيارات علنية، وأخرى سرية .

ولعلنا نستعرض ما يجري في بعض الدول العربية من ممارسات تدل على قربها من التطبيع:

الجزائر :-

في أثناء تشييع جنازة الحسن الثاني بالرباط في يوليو ١٩٩٩ م ، صافح الرئيس الجزائري بو تفليقة ، أيهود باراك رئيس وزراء الكيان الصهيوني السابق ، كما صرح بوتفليقة للصحافة مراراً بوجود آفاق واسعة للتعاون الاقتصادي بين الجزائر و الكيان الصهيوني وبأنه لا يشعر بأي عداء تجاهها ، وعلى هامش مؤتمر حوض الأبيض المتوسط المنعقد في أكتوبر ١٩٩٩ م التقى بو تفليقة بشيمون بيريز وبوزير الأمن الداخلي للكيان الصهيوني شلومو بنعمي ، ودعماً لهذه الإشارات أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية عن مشروع إنشاء محطة للتصنت في جنوب الجزائر تابعة لوكالة

الأمن الوطني الأمريكية ، تهدف إلى التقاط كل المكالمات الهاتفية وشبكة المعلومات وكل وسائل الاتصال الالكترونية وتحليل معلوماتها لأغراض أمنية،كما تعتزم إقامة قاعدة عسكرية أمريكية في جنوب الجزائر .

تونس :-

استغل الموساد الوجود المكثف لليهود التونسيين الذين يتمتعون بحقوق المواطنة التونسية فورط بعضهم في جمع معلومات عن منظمة التحرير الفلسطينية ونشاطها العسكري والسياسي وقد اعتقلت السلطات التونسية اثنين من هؤلاء وأطلقت سراحهما بعد تدخل حاخام اليهود الأكبر في تونس لدى الرئيس التونسي زين العابدين بن علي ، ومن الشخصيات الفلسطينية المهمة التي جرى اعتقالها في تونس الرجل الثاني في سفارة فلسطين في تونس عدنان ياسين الذي كلف من قبل الموساد الإسرائيلي بجمع معلومات عن مسودات محمود عباس- أبومازن- وذلك قبل لقاء جرى بين أبو مازن وشيمون بيريز في القاهرة ، وقد تفاجأ أبو مازن بأن شيمون بيريز كان على إطلاع كامل بتفاصيل الأطروحات الفلسطينية المتعلقة باتفاق غزة أريحا أولاً ، وفي ٢٩ يوليو ٢٠٠١ م تم تعيين بن عامي رئيساً جديداً لمكتب الاتصال الإسرائيلي بالعاصمة التونسية خلفاً لـ شالوم كوهن وكلاهما من أصل مغربي ، وتأتي دعوة شارون لزيارة تونس التي خرقت السقف العربي ، لا سيما في محطاته غير ذات الصلة المباشرة بالصراع ، دليلا واضحا على قرب إعلان التطبيع بين البلدين .

ومن الجدير بالذكر أنه قبل زمن الإصلاح الأمريكي المزعوم الذي نعيشه هذه الأيام ، كانت الولايات المتحدة تلعب ذات اللعبة وإن على نحو مختلف عن الوقت الراهن ، إذ كانت تمارس بعض الضغوط الرامية إلى الابتزاز من خلال بعض المؤسسات المعنية بحقوق الإنسان، في وقت كانت فيه تونس تتصدر التقارير بانتهاكها المستمر لكل ما له علاقة بحقوق الإنسان ، لكنها كانت تبيع مواقفها على الإدارة الأمريكية بشكل من الأشكال من خلال مقولة أنها الدولة الأفضل في ميدان محاربة الأصولية ، بل إنها تقدم نموذجاً في النجاح من دون التورط في الدم كما جرى في الجزائر ومصر ، بل وصل الحال حد التباهي بالقدرة على الحد من ظاهرة التدين في الشارع

التونسي ، من خلال المنع القسري للمظاهر الإسلامية مثل الحجاب في المدارس والجامعات فضلاً عن أماكن العمل الرسمي .

العراق:

هناك في بلاد الرافدين تجري تطورات خطيرة ، تتمثل في وصول عدد الشركات الصهيونية العاملة إلى أكثر من مائة شركة تعمل في مجالات متنوعة كالأمن والأعمال التجارية وغيرها ، وسط دلالات على أن مخطط عودة خط البترول القديم من العراق إلى حيفا عبر الأردن بات تنفيذه مسألة وقت ترتبط بهدوء أو ضعف عمليات المقاومة العراقية ، بالإضافة إلى النشاط المسعور لجهاز الموساد في تنفيذ أعمال الاغتيالات لرموز أهل السنة وعلماء الطبيعة وشراء المباني والأراضي والتنسيق مع بعض الرافضة في كثير من هذه الأعمال .

اليمن :

أما في اليمن فتجري عمليات تطبيع تتوسع باضطراد، تحت عنوان منح اليهود اليمنيين تسهيلات واسعة.

البحرين :

نقلت مصادر صحفية عن وزير الخارجية البحريني الشيخ محمد بن مبارك آل خليفة قوله : إن البحرين قررت إلغاء الحظر على الواردات من البضائع الإسرائيلية، بعد أن وقعت اتفاقا للتجارة الحرة مع الولايات المتحدة، وأوردت صحيفة "الرأي العام" الكويتية في مقال نشرته في عددها يوم ٢٠٠٥/٩/٢١ م ،عن الشيخ محمد قوله . في نيويورك ـ : "نعم.. اتخذنا بالفعل هذا القرار، وهناك اتفاقية تجارة حرة وقعتها البحرين والولايات المتحدة، واتفاقيات التجارة الحرة لا تطبق قرارات المقاطعة" مشيراً إلى المقاطعة العربية للكيان الصهيوني السارية منذ عقود.

باكستان :

أثر لقاء وزير خارجية الكيان الصهيوني شالوم مع نظيره الباكستاني في تركيا ، فقد شكر شالوم الرئيس الباكستاني على دعم السلام بين "إسرائيل" والعالم الإسلامي مؤكداً بأن هذا اللقاء الأول بين البلدين سيمهد المستقبل للسلام وسيكون لمصلحة جميع شعوب المنطقة وأضاف:"لقائي مع نظيري الباكستاني هام جداً كونه مع وزير

دولة إسلامية كبيرة، ثم أضاف قائلاً: لدينا اتصالات سرية مع كل الدول العربية، ونأمل أن تصبح علنية قريباً"، وأن تساعد العلاقات الآخذة بالتوطد بين الدولة العبرية ونظام برويز مشرف في باكستان في تبادل المعلومات بينها وبين المخابرات الباكستانية، وذلك من أجل تكثيف الحرب ضد تنظيم القاعدة !.

تركيا :

يشير المراقبون إلى أهمية الدور الذي لعبته تركيا في أن تكون جسراً للحوار بين باكستان والدولة اليهودية في أول محادثات علنية تجري على الإطلاق بين البلدين مما يدعم موقعها الاستراتيجي المميز، ويؤهلها للعب دور أكبر حيوية في المنطقة ، وكانت صحيفة ميللى جازيت التركية الإسلامية قد انتقدت حكومة حزب العدالة والتنمية برئاسة رجب طيب إردوغان مؤكدة أن هذه الحكومة مستمرة في تأدية دورها والمهام المكلفة بها في إطار مشروع الشرق الأوسط الكبير بهدف خدمة المصالح "الإسرائيلية" في المنطقة مشيرة إلى أن أنقرة وفى هذا الإطار وبتعليمات من إردوغان شخصياً قامت باستضافة اللقاء الباكستاني الإسرائيلي في اسطنبول ، وشددت الصحيفة على أن إردوغان يقترب يوماً بعد يوم من "إسرائيل" جراء ممارسات اللوبي اليهودي الأمريكي مما جعله يتحرك للقيام بدور الوساطة بين باكستان و"إسرائيل" واصفة ما تعيشه العلاقات التركية "الإسرائيلية" هذه الأيام بأنه شهر عسل غير مسبوق.

وقد نشر المركز الفلسطيني للإعلام مقالاً للدكتور (رفعت سيد أحمد) قال فيه :

إن التقارير والوثائق الرسمية تقول إن عدة دول عربية قامت خلال عام ٢٠٠٤م (عام زيادة القتل الصهيوني للفلسطينيين) بإجراء عمليات تبادل تجارى مع الكيان الصهيوني بلغت قيمتها ١٩٣ مليوناً و٩٦٠ ألف دولار إما مباشرة أو عن طريق دول أخرى ، وهذه الدول جاءت وفقاً للترتيب التالي:

١- المملكة الأردنية الهاشمية بقيمة إجمالية لحجم التبادل التجاري مع الكيان الصهيوني ١٣١ مليوناً ٢٠٠ ألف دولار وكانت الواردات بقيمة ٨٦ مليوناً و٧٠٠ ألف دولار.

٢- مصر بإجمالي ٤٨ مليوناً و٦١٠ آلاف دولار، وواردات بقيمة ٢٦ مليوناً و٥٠٠ ألف دولار.

٣ - المملكة المغربية بلغ إجمالي قيمة التبادل التجاري ٧ ملايين و٨٤٠ ألف دولار ،الواردات فبلغت ٦ ملايين و٧٠٠ ألف دولار.

٤- جيبوتي بإجمالي مليون و٢٧٠ ألف دولار، وكانت الواردات بقيمة مليون و١٠٠ ألف دولار.

٥- المملكة العربية السعودية بإجمالي مليون و٢٧٠ ألف دولار وكانت الواردات قيمتها مليون و١٠٠ ألف دولار.

٦- دولة الإمارات العربية المتحدة بإجمالي ٩٠٤ ألف دولار وكانت الواردات بقيمة ٩٠٠ ألف دولار.

٧- لبنان بإجمالي ٨٠٢ الف دولار وكانت الواردات بقيمة ٨٠٠ ألف دولار.

٨- الجزائر بإجمالي ٥٠١ الف دولار وكانت الواردات بقيمة ٥٠٠ ألف دولار.

٩- العراق بإجمالي ٥٠٢ ألف دولار وكانت الواردات بقيمة ٥٠٠ ألف دولار.

ونتيجة لذلك نجد " أن مؤسسة الحكم الإسرائيلية تعدّ أن تطبيع الدول العربية لعلاقاتها معها سيدفع الفلسطينيين لتخفيض سقف توقعاتهم، وسيمثل أداة ضغط على قيادة السلطة للتقارب مع التصور الإسرائيلي للتسوية، وتشير دوائر صنع القرار العبرية إلى أن هناك الكثير من المؤشرات على ممارسة الدول العربية الضغط على قيادة السلطة من أجل تغيير الكثير من المواقف "التقليدية" المتعلقة بالتصور لتسوية الصراع، لا سيما في مجال دفع السلطة للتنازل بشكل مباشر أو غير مباشر عن حق العودة للاجئين ، وهاهو مدير عام وزارة الخارجية الإسرائيلي (جاك بورسو) يعبر عن ذلك بشكل صريح فيقول: إن هناك بعض الدول العربية تبدي استعداداً لقبول توطين اللاجئين الفلسطينيين، وإضافة إلى ذلك فقد صرح (دوف فايسغلاس كبير مستشاري شارون) بأن تل أبيب ستطرح على الدول العربية –وبتدخل أمريكي فاعل– القيام بإعادة تأهيل مخيمات اللاجئين في قطاع غزة والضفة الغربية وتحويلها إلى أماكن سكن ثابتة ومستقرة، وذلك بتمويل دول الخليج العربي " (بتصرف من مقال لصالح النعامي : موقع الإسلام اليوم).

تاسعاً : مقترحات وبرامج لمقاومة التطبيع :

١- إن النصر من عند الله وحده، وأنه لا يستحقه إلا المؤمنون حقًا، قال تعالى: ((وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)) (الأنفال: ١٠).

وقال تعالى:((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)) (محمد: ٧)، وقال تعالى: ((وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)) (الروم: ٤٧(، وأول الطريق إلى النصر على الأعداء هو الانتصار على النفس في معركة الشهوات والشبهات، وأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وأنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ولم ينكشف إلا بتوبة، وأن ذنوب الأمة أخوف عليها من عدوها، وأن تقوى الله من أعظم العدة في الحرب، ومن أقوى المكيدة على العدو، وأن كل خطيئة ترتكب في أرض الإسلام فهي حبل من الناس يمد به العدو بمزيد من القوة .

٢- إن هذه الأمة منصورة ومرحومة، و العاقبة لها بإذن الله، و لا تزال طائفة منها قائمة على أمر الله لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله، و قد مرت عبر التاريخ بأطوار من الضعف والانحطاط أعظم مما تمر به هذه الأيام، وقد خرجت من كل ذلك، واستعادت عافيتها، واستأنفت مسيرتها.

٣- الاهتمام البالغ بتزكية الأنفس، وتربية الناشئة على الإيمان والجهاد، وحمايتهم من غوائل التغريب والعلمنة، فإن المعركة طويلة الأمد ، وقد لا تحسم على يد هذا الجيل، فيجب إعداد العدة لمثل هذا الامتداد على مستوى الزمان كما نعد له على مستوى المكان!

٤- الاتحاد والائتلاف: فالتنازع والاختلاف هو بريد الفشل وذهاب الريح، وإن نصر الله لا يتنزل على شيع متنازعة متناحرة، وقد قال تعالى: ((وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)) (الأنفال: ٤٦).

٥- التأكيد الدائم على أن القضية الفلسطينية قضية إسلامية، وتخليصها - على الأقل في نفوس المؤمنين بالله واليوم الآخر- من الأقنعة العلمانية، والنزاعات العرقية أو الإقليمية.

وختاماً:

إن المتأمل للواقع اليوم في أرض مسرى محمد صلى الله عليه وسلم يرى البشائر تترى على الأمة من هناك على يد فئة قليلة العدد والعدة ولكنها كبيرة بما تملكه من قلوب مؤمنة واثقة بعون الله تعالى ورعايته – نحسبهم كذلك ولا نزكي على الله أحدا – فقد أثمرت تضحياتهم على مدى سنين قليلة ومن خلال عشرات العمليات وسقوط مئات القتلى من يهود ، أن تنادى إخوان القردة والخنازير أن احموا أنفسكم وأقيموا الجدار الفاصل ، فصدق عليهم قول القوي العزيز : ((لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ)) (الحشر :١٤) ، ثم ها هم وبعد إقامة جزء كبير من الجدار العازل يخربون بيوتهم بأيديهم في مستوطنات قطاع غزة و يخرجون منها أذلة صاغرين ، فيتذكر المؤمن قول مولاه عز وجل : ((هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ))(الحشر٢) ، ولا يخفى أن هذا الانسحاب وإن كان محدود المساحة لكنه عميق الدلالة على أهمية الجهاد في سبيل الله وعظم نتائجه ، وقد كانت عدد من الدول العربية قد طالبت اليهود بالانسحاب من قطاع غزة وعلى مدى عقود جرت فيها عشرات اللقاءات لكنها لم تظفر من ذلك بشيء ، ولنتأمل ما ذكرته صحيفة "يديعوت أحرونوت " اليهودية في ٢٢-٩-٢٠٠٥ م ، عندما أكدت على حقيقة هامة فقالت :' نحن لم نقض على حماس بقوة القنابل، ولن نقوم بالانتصارعليها بقوة الحواجز المانعة ، وآخر البشائر هو فوز حركة حماس الذي فاجأت به العالم في انتخابات المجلس التشريعي وسعيها لتكوين الحكومة الفلسطينية القادمة التي نرجو العليم الخبير أن يجعلها جالبة لنصر من الله وفتح قريب، وهذا الفوز هو دليل على تعطش الأمة للإسلام وأهله ، و والله إن هذه آية وعبرة رآها العالم أجمع، فهل يعتبر المسلمون حكاما ومحكومين أن المستقبل لهذه الأمة، ما استقامت على أمر الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأنها لا تؤتى إلا من قبل نفسها، وأن ذنوبها أخوف عليها من أعدائها، وأنها قد وعدت بأن تبقى طائفة منها مستقيمة على أمر الله، لا يضرها من خالفها أو خذلها

حتى يأتي أمر الله، وأن هذه الطائفة المنصورة هي التي يقوّم الله بها اعوجاج الأمة ، ولهذا فإننا نقول لإخواننا في أرض الإسراء والمعراج: إن نصر الله قريب، ولينصرن الله من ينصره ،فاصبرواوصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون.

=============

الكاتب المغلوث

يقول بعض أهل العلم: إن لكلٍ من اسمه نصيباً، وفي لسان العامة يقولون: كلب مغلوث، أي : مسعور ..وما كنت أظن أن هذا الداء سينتقل إلى بعض البشر، ويتسمى به، حتى ظهر علينا كاتب يُدعى : غازي المغلوث، كان له من اسمه أوفر الحظ والنصيب، هذا الكاتب – وهو أستاذ في الثقافة الإسلامية بجامعة الملك فيصل .!!

أطلقته صحيفة الوطن السعودية !! لينهش لحوم خيار البشر عبر مقالاته المسمومة، ويغزوهم بسيفه الخشبي المتهتك ، حتى يكاد ينطبق عليه قول المولى عز وجل : ((وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ* وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ)) (الأعراف:١٦٦-١٦٧) .

ونسي أن لحوم خيار الأمة مسمومة، وعادة الله في هتك منتقصهم معلومة ..

اعذروني إن كنت قد قسوت في القول، أو أسأت في العبارة ، فإن الله يقول : ((لاَّ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ)) (النساء:١٤٨) .

ولو كان الظلم واقعاً على نفسي، لما خططت حرفاً وحداً، لكنه واقع على خيار الأمة وسلفها الصالح، باسم الإصلاح والتنوير !!

وقبل أن نعرج على مقالات هذا المغلوث، يحسن بنا أن نتعرف على انتمائه .. فهو ينتمي إلى المدرسة القرضاوية – إن صح التعبير – والتي يمكن أن نسميها مدرسة التميع في العقيدة والأحكام .. لذا نجده في مقال له في جريدة الوطن (عدد: ٣٤٧) بعنوان (قراءة في فكر الشيخ القرضاوي) يثني على القرضاوي، بل يضعه في قائمة مجددي وعمالقة الإسلام كالنووي، وابن حجر، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والعز بن عبد السلام، والسيوطي!! على حد تعبيره، في الوقت الذي نراه يطعن في المنتمين

إلى المدرسة السلفية، وأهل الحديث، بل في المدرسة ذاتها، وهذا هو فحوى غالب مقالاته القليلة ..

ففي صحيفة الوطن (عدد : ٣٢٤) كتب مقالاً بعنوان : (الجماعات السلفية، والإشكاليات المزمنة) يرى فيه أن الحركات السلفية في معظم أقطار الوطن العربي / الإسلامي تعاني من حالة مرضية مزمنة، تتمثل في فقدان القدرة على التعاطي مع العصر، والتماهي مع مستجدات وأدوات الحداثة الكونية، فلا زالت تتخبط في مناهجها! .

وتتعثر في برامجها! وتفقد مصداقيتها، مما جعلها تبتعد عن التأثير في الجماهير !! هذا نص ما ذكره عليه من الله ما يستحق .

ثم يذكر أن من المطبات التي وقعت فيها الجماعات السلفية في خطابها المعاصر : النظر إلى التراث بعيون تراثية لا نقدية، ومن ثم – يقول – هناك نظرة تضخيمية لأعلام التراث، فهم وحدهم يحتكرون الحكمة والعلم والصواب ، والخير كل الخير في التأسي بهم والسير على منهاجهم !!!

وأقول : إن لم يكن الخير في اتباع السلف الصالح ، والسير على منهاجهم، فأين يكون ؟ هل يكون في اتباع الخلف وما ابتدعوه في دين الله .

أما النظرة التضخيمية لأعلام السلف وأنهم وحدهم يحتكرون الحكمة والعلم والصواب .. فلم يقل به أحد من السلف الأوائل ولا الأواخر .

بل شاع في كتب السلف قول الإمام مالك رحمه الله : (كلٌ يؤخذ من قوله ويُرد عليه إلا صاحب هذا القبر) يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتضخيم أئمة السلف وأعلامهم لما بلغوه من العلم والمكانة ونفع الأمة ، خير من تضخيم الخلف وما ابتدعوه في دين الله كما فعل الكاتب بشيخه القرضاوي .

ثم يصل ضلال الكاتب إلى ذروته، فيقول بخبث : من خلال قراءة الأدبيات التي تنطلق منها الحركات السلفية، نجدهم يتترسون بنزعة حجاجية غير مقنعة، وهي أن ثمة منهجاً للسلف واحداً ينبغي التماهي والتأسي به، وهذه مفارقة عجيبة، لأن هذه الحركات منقسمة على نفسها إلى جماعات وحركات كلها تدعي التماهي مع نهج السلف والاقتداء به . وأقول :

أولاً : هل ثمة شك في أن للسلف منهجاً واحداً ينبغي التمسك به .

وإذا كان الكاتب غير مقتنع بذلك ، فذلك ناتج عن انحرافه عن منهج السلف .

ثانياً : الكاتب لم يفرق بين الجماعات السلفية الحقة، وأدعياء السلفية، فليس كل من تسمى بالسلفي يكون سلفياً ، فإغفال هذه النقطة في الحديث عن السلفية يدل على أمرين : إما جهل الكاتب بالواقع، أو خبثه واصطياده في الماء العكر ، وهذا هو الظاهر .

ثالثاً : هناك أمور اجتهادية ليس فيها نص قاطع ، فتختلف فيها وجهات النظر، ومثل هذا الاختلاف يقع بين أفراد الجماعات السلفية وغيرها، فليس هو حكراً على الجماعات السلفية وحدها، ومثل هذا الاختلاف سائغ، ولا يلزم أن يتفق السلفيون في كل صغيرة وكبيرة لاسيما مع اختلاف البلاد واختلاف الأوضاع .

ثم يستطرد الكاتب في كيل التهم والافتراءات على الجماعات السلفية والذي يطول الرد عليها، بل إنها لا تحتاج إلى رد لمن كان لديه أدنى بصيرة ، ويمكن تلخيصها فيما يلي :

١ – ادعاء الحقيقة المطلقة التي لا يرقى إليها شك، ورفض الرأي الآخر، ويقصد بالرأي الآخر، ما خالف مذهب السلف .

٢– استنساخ الأقوال القديمة دون اعتبار زمانها ومكانها، واجترار اجتهادات الفقهاء القديمة وتقديمها في طبعة جديدة .

٣– التوظيف المكشوف (كذا) لآراء السلف الصالح، والانتقائية حسب الهوى .

٤– رفض النظرة المقاصدية للنصوص الشرعية، والوقوف عند ظواهر النصوص .

٥ – عدم الاهتمام بالعمل الاجتماعي وخدمة الناس ومعايشة همومهم ومشاكلهم ..

٦– عدم الاكتراث بالمواجهة المصيرية مع الحضارة الغربية والسعي لأسلمة المعرفة والفنون والاقتصاد والسياسة، والانشغال!! بالرد على المتصوفة والأشاعرة والماتوريدية !!.

٧– رفض الحوار والنقاش مع الفرقاء (المخالفين) واستدعاء الخلافات الفقية والكلامية القديمة .

٨– الوعي المنقوص ، وعدم الانعتاق من أسر التراث الفقهي والكلامي وأعلامه ...

هذه مجمل التهم التي وجهها الكاتب لأتباع السلف دون تمييز بين الصادقين منهم والأدعياء، وهي تهم جائرة وظالمة، صادرة من قلب متشبع بالبدعة، منافح عنها ..

وليس المقصود – فيما يبدو – من هذا المقال نقد الجماعات السلفية وإصلاحها، وإنما المقصود تنفير الناس من المنهج السلفي القويم المتمثل في أتباعه المنافحين عنه، وصرفهم إلى مناهج الخلف المنحرفة ، وهذا ما تدأب إليه صحيفة الوطن وللأسف الشديد منذ صدورها في بلاد التوحيد .

وفي مقال آخر له في الصحيفة ذاتها (عدد : ٤٠٦) بعنوان : (المشروع الإسلامي ..) ويقصد به تطبيق الشريعة الإسلامية، يردد ما قاله العلمانيون منذ زمن من غياب الفكر السياسي في المشروع الإسلامي، فيقول : ليس من شك أن ثمة غياباً للفكر السياسي في المشروع الإسلامي المعاصر ، فلا يملك رؤية واضحة أو برنامجاً يثبت من خلاله قدرته وكفاءته وأحقيته في القيادة ثم يستدل على ذلك ببعض التجارب المعاصرة، فيخلط بين أصحاب المناهج المنحرفة ، والمنهج الصحيح ..

وقد نسي وهو يردد ما يقوله العلمانيون أعداء لشريعة أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل المدينة مهاجراً لم يكن لديه برنامجاً – بالمعنى الذي يدندنون حوله – لتطبيق الشريعة، بل كانت الأحكام تنزل تباعاً في القضايا والأحكام المختلفة، حتى اكتمل الدين، وتمت النعمة على مدى عشر سنين ، فأي رؤية اليوم أوضح من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأي برنامج أحسن منهما لا سيما مع توافر العلماء الربانيين الذين لا يخلو منهم عصر ولا مصر .

ثم يصرح بأن الواقع اليوم غير مهيء لتطبيق الشريعة . ولست أدري متى يكون مهيأ – فالشريعة في نظره لا تطبق ابتداءً في ظل الفقر والجوع والبطالة والجهل .. الخ ، فأقول : إذاً ما قيمة الشريعة إذا لم تحل مشاكل الناس ؟

ثم يبرر رفضه لتطبيق الشريعة بأنه إذا كان المقصود تطبيق الحدود فالغالب أنها لا تطبق إلا في حالات محدودة ومعينة ، كحد الزنى والردة والسرقة وهي الاستثناء وليست الأصل، أما إذا كان المقصود من الشريعة بقية الأحكام والتشريعات، فثمة تشابه كبير بين قواعد المذاهب الإسلامية، والقواعد القانونية المعاصرة نتيجة استطراق الآراء والأفكار والعبارات خلال الأوعية البشرية المتشابهة في الطبائع،

والمتماثلة في الظروف، وتقارب النفوس والعقول، وتشابه التصرفات والمعاملات .. الخ، فإذاً لا حاجة إلى تطبيق الشريعة بزعمه .

ثم يثني على الحضارة الغربية التي تعلي من قيمة الإنسان !! في مقابل الحضارة الإسلامية التي تعلي من قيمة الجماعة على حساب الإنسان حسب زعمه، مستشهداً بقول المفكر البحريني محمد جابر الأنصاري !!!

وهذا حق، فهي تعلي من قيمة الإنسان الغربي بل حتى الحيوان البهيم، أما المسلم فهو في نظر هذه الحضارة أحط درجة من الحيوان ، وهذا ما تشهد به أفعالهم في شتى بقاع الأرض .

وفي مقال له آخر في الصحيفة ذاتها (عدد: ٤٤٢)، يستشهد بقول للمفكر المغربي محمد عابد الجابري وهو من المبشرين بما يسمى بالمذهب الانتقائي ، والذين يزعمون أن العلم شيء والعقيدة شيء آخر – يستشهد بمقولة له وهو يتحدث عما سماه بالـ (أنا) وثقافة الآخر، وأن الأحداث التي حصلت منذ حملة نابليون على مصر، وإلى وقتنا الراهن كشفت ضعف المسلمين وتخلفهم ، وتفوق الأعداء، وهذا حق لا مرية فيه، لكنه يعزو ذلك إلى ما سماه بالـ (أنا) عند المسلمين، التي تمثل – حسب زعمه – الحق الذي لا مرية فيه، والآخر يمثل الباطل الذي لا شبهة فيه .. ثنائية الهدى والضلال .. حزب الله وحزب الشيطان .. الفرقة الناجية والفرقة الهالكة .. هذه المصطلحات الشرعية التي وردت في الكتاب والسنة، تفسر – في نظره – تأزم وضعية الآخر في تراثنا .. وهذا كلام خطير، لا يصدر عن مسلم – فضلاً عن أستاذ جامعي – يدرك ما يقول .

ثم يعود إلى الوراء ليذكر تكفير بعض علماء الحديث لأبي حنيفة، إحراق الحنابلة لمنزل الطبري، عراك الحنابلة مع الأشاعرة ..الخ، فيخلط الماضي بالحاضر مع التباين الواضح في واقع المسلمين قديماً وحديثاً، كما يلاحظ تركيزه على أهل الحديث والحنابلة كعادته في لمز السلف وأهل الحديث .

ثم يثني على الآخر البعيد، وهو الغرب الكافر، فيعزو نجاحه وتقدمه المطرد على المستوى السياسي والفكري – حسب تعبيره – إلى إيمانه بمنظومة قيمية، تقوم على القبول بالآخر، والتسامح معه، والحق في الاختلاف، ونسبية الحقيقة، ونسبية المعرفة

.. الخ وقد نسي أو تناسى جرائم الغرب التي يرتكبها في كل زمان ومكان لتحطيم المسلمين وإذلالهم وقتلهم وتشريدهم، سواء بطريق مباشر أو غير مباشر .. ولو صدق لقال إن الهزيمة النفسية، والإعجاب بالغرب الكافر، والخضوع له، هو السبب الرئيس في تخلف المسلمين وتأخرهم، وهو الداء العضال الذي أصاب هذا الكاتب وأمثاله ممن يدعون أنهم من أصحاب الفكر المستنير .

ولا يقف الكاتب عند هذا الحد، بل يتجاوزه إلى إنكار ما يسمى بالغزو الفكري أو الثقافي للعالم الإسلامي في مقال له في الصحيفة ذاتها (عدد : ٤٢٩) بعنوان (وهم الغزو الثقافي) ويسخر من العلماء والدعاة الذين حذروا من هذا الغزو، كأمثال محمد محمد حسين، ومحمد رشيد رضا ، وقد عد رجوع هذا الأخير عن المنهج العقلي في تفسير النصوص، إلى المنهج السلفي ردة إلى الوراء، ونكوصاً عما أسماه بـ (المشروع النهضوي الكبير) ..!!!

ويعزو لجوء هؤلاء العلماء والدعاة الأجلاء للتحذير من الغزو الفكري إلى العجز الذي ظهرت تجلياته – كم يزعم – في الخطاب الإسلامي عن تقديم بديل سياسي، ثقافي، اقتصادي للمجتمعات الإسلامية، فيلجئون إلى الشعارات المعلبة الجاهزة، والأسطوانات المكرورة، ويعلقون عليها فشلهم الحضاري عن اجتراح البديل .. هكذا يفسر جهود أولئك العلماء والمصلحين .

ثم يخلص إلى القول أن لا قضية حقيقية في هذا الموضوع ، فلا يوجد ثمة غزو ولا من يغزون .. كل ما هنالك أن ثمة حضارة غربية علت وهيمنت .. الخ .

وأقول : هاهنا مكمن الداء، فإن الحضارة الغربية قد علت مادياً، لكنها روحياً تتمرغ في الحضيض، ونحن المسلمين ، نحن الأعلون بإيماننا وعقيدتنا ومبادئنا كما قال تعالى: ((وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)) (آل عمران:١٣٩) . فمتى ما تخلينا عن عقيدتنا ، وأحسسنا باستعلاء الكافر علينا ، كانت الهزيمة الحسية والمعنوية كما هو حال المسلمين اليوم، وهذا ما يفسر انتصار المسلمين الأوائل الذين لم يعرفوا الحضارة المادية، على أكبر حضارتين في العالم آنذاك : فارس والروم .

وختاماً: فإني أنصح هذا الكاتب بتقوى الله عز وجل، وأن يكف عن لمز المؤمنين ، وتنفير الناس عن منهج السلف، فالخير كل الخير في اتباع منهج السلف الصالح .

والله ولي التوفيق ، وصلى الله على نبينا محمد .

==============

الولاء والبراء والنظر في المناهج

الحمد لله القائل: ((إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)) (سورة الأنبياء:٩٢).

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ختم رسالات السماء بالإسلام، وأنزل على خاتم المرسلين قوله تعالى: ((إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ)) (سورة آل عمران:١٩).

وأشهد أن محمداً عبدهُ ورسوله نزل عليه حين كان بمكة قوله تعالى: ((قُل يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ *وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)) (سورة الكافرون) .

وبَعَثَ في آخر أيامه بالمدينة منادياً يُنادي في الحج بقوله تعالى: ((وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ)) (سورة التوبة:٣).

اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

عباد الله :

اتقوا الله واخشوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ((يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)) (سورة آل عمران :١٠٢).

أيها المسلمون:

قضيةٌ كبرى من قضايا الدين الحق، ما كنت أحسبُ أنني بحاجة إلى تذكيركم بها هذه الأيام – وإن كانت غاية في الأهمية لوضوحها عند عوام المسلمين فضلاً عن علمائهم ومثقفيهم – لولا أني قرأت ما كتبه البعضُ مؤخراً عنها ، ومسألة عظيمة من مسائل العقيدة يقع فيها الخطأ والخلط إن في الفهم أو في التطبيق أو في كليهما،

عند فئة من الناس، وتحتاج إلى بيان وإيضاح، تلكم هي عقيدة الولاء والبراء، فما معنى الولاء وما معنى البراء؟ وما حكم الموالاة والمعاداة ؟ وماذا عن نصوص الكتاب والسُّنة وكلام أهل العلم فيهما؟ وهل من أمثلةٍ واقعية على الموالاة للكفار؟ وما هي نتائج ذلك وآثاره؟

إخوة الإسلام:

معنى الولاء هو المحبةُ والودُّ والقُرب، ومعنى البراء هو: البُغض والعداوة والبعد، وإذا كان الولاءُ والبراءُ من أعمال القلوب فإن مقتضياتهما وآثارهما تظهر في المواقف العملية وعلى الألسنة والجوارح.

ومن هنا يمكن القول أن الولاء والبراء ليسا مجرد اعتقادٍ في القلب، بل يظهر منهما وينشأ عنهما من أعمالِ القلوب والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة كالنُصرة والأنسِ والمعاونة، وكالجهاد والهجرة ونحو ذلك من الأعمال (عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، الدرر السنية ١٥٧/٢).

والولاءُ الحق لا يكون إلا لله ولرسوله r وللمؤمنين كما قال تعالى: ((إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالذِينَ آمَنُواْ الذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)) (سورة المائدة:٥٥).

والبراءةُ إنما تكون من الكافرين وكذلك أُمر المؤمنون ((يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلقُونَ إِلَيْهِم بِالمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الحَقِّ)) (سورة الممتحنة:١) إلى قوله تعالى مخاطباً المؤمنين ومادحاً لإبراهيم والمؤمنين معه: ((قَدْ كَانَتْ لكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ وَالبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ)) (سورة الممتحنة:١ –٤).

عبادَ الله :

هل يخفى أن الولاءَ والبراءَ شرطٌ في الإيمان، والله تعالى يقول: ((تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الذِينَ كَفَرُواْ لبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللهُ عَليْهِمْ وَفِي العَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِل إِليْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ)) (سورة المائدة:٨٠، ٨١).

قال ابن تيمية – رحمه الله-: "فذكر جملةً شرطيةً تقتضي أنه إذا وجد الشرطُ وُجد المشروط، بحرف (لو) التي تقتضي مع الشرط انتفاءُ المشروط(الإيمان ص١٤).

أيها المؤمنون :

بل يصل الأمرُ في الولاء للمؤمنين والبراءة من الكافرين إلى كونه أوثق عُرى الإيمان، بخبر الصادق المصدوق حيث قال عليه الصلاة والسلام: ((أَوْثَق عُرَى الإِيمَان الحُبّ فِي الله وَالبُغْض فِي الله)) (أخرجه أحمد ٢٨٦/٤ وغيره، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٢٨).

والولاءُ والبراءُ ليس عقيدةً باردةً لا محل لها ولا شأن في الإسلام، بل يرى علماءُ العقيدة أنه لا يتمُّ الدينُ ولا يُقام علمُ الجهاد، والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر، إلا في الحبِّ في الله والبغض في الله، ولو كان الناسُ مسلمهُم وكافرهم متفقين على طريقةٍ واحدة ومحبةٍ من غير عداوةٍ، ولا بغضاء لم يكن فرقاناً بين الحق والباطل ولا بين المؤمنين والكفار، ولا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان(الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، رسالة أوثق عرى الإيمان/٣٨).

ومن عجبٍ أن تُجهل عقيدةُ الولاءِ والبراء، أو يتهاون المسلمون في تطبيقاتها، وليس في كتاب الله حكمٌ – بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده – أكثر أدلةٍ ولا أبينَ من معاداة الكفار والمشركين، كما قال الشيخُ حمدُ بن عتيق – رحمه الله- وغيره(د. عبد العزيز العبد اللطيف، نواقض الإيمان القولية والعملية/٣٥٩).

أجل لقد كان رسول الله r يبايع أصحابه – رضي الله عنهم- على تحقيق هذا الأصل العظيم .

وهذا جريرُ بن عبد الله البجلي t يقول: ((أَتَيْتُ النَّبِيَّ r وَهُوَ يُبَايِعُ، فَقُلتُ: يَا رَسُول اللهِ ابْسُطْ يَدَكَ حَتَّى أُبَايِعَكَ وَاشْتَرِطْ عَليَّ فَأَنْتَ أَعْلمُ، قَال: أُبَايِعُكَ عَلى أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتُنَاصِحَ المُسْلِمِينَ، وَتُفَارِقَ المُشْرِكِينَ)) (أخرجه أحمد ٣٦٥/٤، والنسائي ١٤٨/٧، والبيهقي ١٣/٩، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٣٦).

أيها المسلمون: ومن خلال ما سبق يتبين أن عقيدة الولاء والبراء منهجُ الأنبياء عليهم السلام، ومما بايع عليه الصحابةُ رضوان الله عليهم، وتكلم علماءُ الأمة فيها سلفاً

وخلفاً، وما ينكر ذلك إلا جاهل أو مكابرٌ أو صاحبُ هوى، وكم تفاجأتُ – وربما تفاجئ غيري– من مقال نُشر في جريرة عكاظ يوم السبت الماضي ١٤٢٢/١٠/٢١هـ لأحد الكتاب – هداه الله وبصَّره بالحنيفية السمحة– وليست هذه بأولى سوآته، والمقال بعنوان: (التطرف) وقد تكلم فيه عن (الولاء والبراء) بكلام تستغرب أن يُنشر أولاً، وتستغرب ثانياً أن يصدر من مسلم يقرأ القرآن الكريم أو يعرفُ سنة محمد r وأقتطف لكم شيئاً مما قاله:

قال في بداية المقال : لو تأملنا قليلاً في فكر الجماعات المتطرفة الإرهابية ثم ذكر نموذجاً لها وقال: هذه الجماعاتُ تؤمن وتعمل وفق ما يُسمى بعقيدة أو فكرة الولاء والبرء... " .

ثم قال بعد: "ونظريةُ الولاءِ والبراء مبدأ أعلنه الخوارجُ قديماً وجعلوه مُحفِّزاً لأتباعهم للقتالِ والعُنفِ ضد المجتمع، ثم اندثر هذا المبدأُ ولم يعدْ له ذكرٌ إلى أن أحياه وعاد له المتطرفون الجُدد...".

وفي نهاية المقال قال: وهكذا دخلت (نظريةُ) الولاء والبراء من عدة بوابات في الإعلامِ وفي التعليم وفي الكتب...الخ وأصبحت تُعرف بأنها إحدى ركائز دراسةِ العقيدة، وواضحٌ أنها أضيفت بتعسفٍ إلى ركائز العقيدة السليمة" .

إن هذا الكلام من السقوط والضحالة والجهل بحيثُ لا يحتاج معه إلى وقفة ولا تعليق وفيما مضى من الأدلة الشرعية وكلام أهل العلم ما يكشفُ بطلانه، ولكنك تستغربُ كيف تصلُ الضحالة الفكرية ببعض الكتاب إلى هذا الحد... وتستغرب كيف يُسمح بنشر هذا التهجم الصريح أو الملفوف على نصوص الكتاب والسنة وسيرة محمد r وهديه وهدي أصحابه وتراث الأمة كلِّها في بلاد أكرمها الله بالحرمين، ومنها انطلقت وشعَّ نورُ الإسلام معلناً الولاء للمؤمنين والبراءة من المشركين .

تُرى أيجهل الكاتبُ أن من بلده الذي كتب فيه شعَّ نورُ الإسلام وأعلن محمد r بأمر ربه ولاءه للمؤمنين وبراءته للمشركين حتى وإن كانوا أولي عهد، في قرآن تُلى ويُتلى إلى يوم القيامة : ((بَرَاءةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلى الذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ المُشْرِكِينَ)) (سورة التوبة:١).

وفي الآية الأخرى: ((وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلى النَّاسِ يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ)) (سورة التوبة:٣).

وفي صحيح البخاري ومسلم وغيرهما من مدونات السنة وكتب أهل العلم ما يكشف ويفسر ويوضح ويرشدُ إلى مزيد من آيات وأحاديث البراءة من المشركين، فهل هذه وتلك نَبتت وأعُلنت من قبل الخوارج ؟ وهل هذا فكرُ المتطرفين أم وحيُ رب العالمين؟! إنه الجهل والرميُ والبهتان، وويل للفضيلة من الرذيلة، وللحق من الباطل، إذا تكلم المرءُ بما لا يُحسن، وتطاول المتطاولون ولنا أملٌ في أن يوقف الكاتبُ عند حدّه وتُساؤل الصحيفة كيف سمحت بمثل هذه الكتابات المفترية على الله الكذب والله يقول: ((وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلى اللهِ الكَذِبَ إِنَّ الذِينَ يَفْتَرُونَ عَلى اللهِ الكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)) (سورة النحل:١١٦، ١١٧).

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه .

الخطبة الثانية

الحمد لله رَبّ العالمين جعل فرقاناً كبيراً بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له حكم – وهو أعلمُ وأحكم– بأن حزب الله هم المفلحون، وحزب الشيطان هم الخاسرون، وأشهد أن محمداً عبده ورسولهُ صلى الله عليه وعلى آله وإخوانه وسلم تسليماً كثيراً .

إخوة الإيمان: ومن التنظير –في مسألة الولاء والبراء– إلى التطبيق العملي لنرى ونتبين أنواعاً من الممارسات والسلوكيات المخالفة لعقيدة الولاء والبراء، إذْ من الناس من يؤمن بهذه العقيدة نظرياً لكنه قد يضعفُ في تطبيقاتها عملياً، والله تعالى ينهى بشكل عام عن التناقض بين القول والعمل ويقول: ((يَا أَيُّهَا الذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ)) (سورة الصف:٣).

واكتفي بالوقوف عند مظهرين من مظاهر الولاء للكافرين :

أولاً : من هذه الموالاة العملية للكفار، الإقامة ببلدهم رغبةً واختياراً لصحبتهم، والرضا بما هم عليه من كفر أو يمدحه، أو يُرضيهم بعيب المسلمين فأولئك ليس من

الله في شيء كما قال تعالى: ((لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَل ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْء)) (سورة آل عمران:١٢٨).

وإذا كان الإمامُ مالك – رحمه الله – كره للمسلم أن يسكن ببلدٍ يُسبُّ فيه السلفُ فكيف ببلدٍ يُكفر فيه بالرحمن، وتُعبد فيه من دونه الأوثان، ولا تستقرُ نفسُ أحدٍ على هذا إلا وهو مسلمٌ مريضُ الإيمان (ابن رشد، مقدمات ابن رشد ٢/٦١٢، ٦١٣).

ثانياً: ومن مظاهر الولاء للكفار وهو الأكثر وقوعاً طاعتهم في التشريع والتحليل والتحريم، فذلك كفرٌ وخروجٌ عن الملّة يقول تعالى: ((يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الذِينَ أُوتُواْ الكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ)) (سورة آل عمران:١٠٠).

وهو – فوق الكفر– مُوردٌ للخسران في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ((يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ الذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ)) (سورة آل عمران:١٤٩).

يقول الشيخُ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب – وهو من أعلام الدعوة السلفية– عند هذه الآية: "أخبر تعالى أن المؤمنين إن أطاعوا الكفار فلابد أن يردوهم على أعقابهم عن الإسلام، فإنهم لا يقنعون منهم بدون الكفر، وأخبر أنهم إن فعلوا ذلك صاروا من الخاسرين في الدنيا والآخرين، ولم يرخِص في موافقتهم وطاعتهم خوفاً منهم. (الدلائل في حكم موالاة أهل الإشراك ص٣٣، العبد اللطيف، نواقض الإيمان ٣٦٥).

أيها المسلمون:

ونحن في هذه الأيام – ومع الأزمة الأخيرة – نشهد نوعاً من هذا التدخل الغربي النصراني في أحوال المسلمين وتشريعاتهم وذلك بفرض السياسات والتدخل في المناهج وصياغة العقول المسلمة كما يريدون إنها حملةٌ شرسةٌ على الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، والثقافة الإسلامية، لم يستطع الغربُ إخفاء معالمها وخطواتها، في ظل دعايته وإعلانه الحرب على الإرهاب، لقد انكشف الغطاءُ، وزال اللبسُ عند عددٍ من المنُخدعين بسياسةِ الغرب والضانين بنْزاهته ؟

وما الحملات والمخططات للعالم الإسلامي – من قِبل الغرب – إلا برهانٌ لتوجههم لسياسة (صراع الحضارات) – وفي مقدمتها والمقصود الأولُ منها حضارةُ الإسلام–

وكان للملكة نصيبٌ وافرٌ من هذه الحملة الظالمة، ويبدوا أنها إرهاصٌ لفرض سياسات والتدخل في الخصوصيات – في العالم الإسلامي بشكل عام –
إن المناهج – على سبيل المثال – خصوصيةٌ وهي تعبيرٌ عن ثقافة الأمة، ومقومات الدولة – لا يسوغ – بحال– أن تتدخل فيها الأمم الأخرى، وإذا كان الغربُ لا يسمح للمسلمين أن يتدخلوا في مناهجه التعليمية، حتى وإن كان فيها من العَوَر والقصور – ما فيها– في نظر المسلمين، فكذلك المسلمون لا يسمحون للأجنبي أن يتدخل في مناهجهم – بل ولا في سياساتهم الأخرى الإعلامية، والاقتصادية، والاجتماعية... ونحوها.
ولو كان الغربُ جاداً في الإصلاح لبدأ بإصلاح مناهجه ومدارسه، تلك التي تشهدُ من الجرائم وتخريج المنحرفين والشاذين ما يدعوا للإصلاح ، ولغة الأرقام، وعناوين المقالات يشهد على عدد من هذه الجرائم والممارسات اللاأخلاقية في مدارس الغرب مما لا يوجد مِثلُه ولا قريبٌ منه في مدارس المسلمين، هذا فضلاً عن ما في إعلامهم وتعليمهم من إساءة للإسلام وتشويه صورة المسلمين، دون حقٍ أو عدل ، ومن زاوية أخرى فهل يستطيع الغربُ أن يدعوا للتغيير في المناهج والبُنى الثقافية والإعلامية في الصين واليابان مثلاً أو في الهند، أو في فيتنام أو نحوها من الأمم والثقافات الأخرى ؟
ومن زاوية ثالثة وإذا وُجد في العالم الإسلامي مدارسُ ومعاهدُ دينية أو كليات وجامعات لتعليم الدين الحق في مصر أو السعودية أو الباكستان أو غيرها من الدول العربية والإسلامية مثل اليمن والمغرب وأفريقيا، فعند الغرب مئاتٌ من المدارس والمعاهد والكليات والجامعات التي تدرس اللاهوت وتُعنى بالإنجيل و التوراة، ولو كانت خزعبلات وتحريفات وطنطنات وترانيم فارغةَ المحتوى قاصرة في الأهداف والرؤى، وهناك المئات بل الألوف من المحطات الإذاعية والقنوات الفضائية، والصحف والمجلات الأصولية الإنجيلية أو التوراتية، فأين الحديث عن التطرف وتلك منابعهُ، وأين الحديث عن الإرهاب وتلك مجالات تفريخة ؟!
وباختصار – يمكن القول– إن المناهج التعليمية والسياسات الإعلامية والاجتماعية ونحوها في أي أمة من الأمم هي شأن خاص من شؤونها لا يجوز لأي قوةٍ خارجية

أن تتدخل في صياغتها أو تتلاعب بشيءٍ من مفرداتها، والقوانين والدساتيرُ التي يُدندن حولها هؤلاء الغربيون تمنع من هذه التدخلات هذا بمنطقهم ، وفوق ذلك ترفض شريعةُ الله، ويمنع منه إقامةُ الحق والعدل، ويتعارض مع لوازم عقيدة الولاء والبراء في مفهومنا ومنطقنا؟

معاشر المسلمين:

إننا لا نستغرب مثل هذه الهجمات على الإسلام والمسلمين- من قبل الأعداء فذلك شأنُنا وإياهم عبر التاريخ، لكن المستغرب بحق أن ينبري للتغيير للأسوأ أناسٌ من أبناء جلدتنا ويتكلمون بلغتنا، وفي مقال الكاتب المشار إليه أنفاً، شيءٌ من ذلك بل ودعوةٌ للنظر في الكتب والمناهج التي تحمل خصوصية الأمة وما يحفظها من الذوبان في حضارة الآخرين عبر مؤشرات الولاء والبراء، ومحاور الأصالة، وتثبيت القيم، وثمة طروحاتٌ أخرى مشابهة لهذا الطرح تظهر علينا بين الفينة والأخرى، ولستُ أدري أهي تشكيكٌ في مناهجنا التعليمية تلك التي تعب في صياغة سياستها، ومقرراتِ مناهجها، - مخلصون لدينهم ووطنهم - كذلك نحسبهم والله حسبنا وإياهم- وتخرج منها بكل كفاءة واقتدار العلماءُ والوزراء والمهندسون والأطباء، والإداريون، وأصحابُ الكفاءات المختلفة ؟

أم هو تناغمٌ مع ما يطرحه الغربُ - هذه الأيام- ويتهجمون به على مناهجنا؟ إن التطوير للأحسن مطلب، والنظرُ والتقويم المستمرُ للمناهج - بما يفي بحاجات العصر ومتطلبات التقدم - دليلُ النضج لكن ليس على حساب قيمنا وعقائدنا وأصالتنا وثوابتنا، وتاريخنا، والمختصون يقولون : إن نسبة تأثير المناهج على الفرد بحدود (٧%) إنها مأساة حين ينحصر تفكيرُ بعض مثقفينا -في تطوير المناهج- بحذف أو تقليل المواد الدينية والعربية في زمن باتت فيه حربُ العقائد ظاهرة، أو بحذف عبارات ومفاهيم هي من صميم ديننا كالولاء والبراء والجهاد...ونحوها، وكأنها المعوق عن التقدم وينسون أن التطوير ممكن دون طمس هوية الأمة، وأن التقدم لا يعيقه تحقيق معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله .

إن الاستحياء من ذكر المفاهيم الإسلامية والمصطلحات القرآنية، والعناية بالسنة والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي المجيد، كل ذلك مؤشراتٌ للهزيمة النفسية، وهو

سقوطٌ في أول المعركة، بل هو ذوبانٌ للشعوب والدول الإسلامية والحضارة الإسلامية في زمنٍ باتت لغةُ القوة هي المسيطرة، وإن كانت قوةً باطلة فهل نعي حقيقة المعركة، وهل نحافظ على أصالتنا وقيمنا مع التطوير والتجديد النافع وهل نشدُّ على أيدي القائمين على المناهج والمدركين لأهداف الحملات الشرسة؟

إن في بلادنا والحمد لله من المسؤولين والعلماء والمفكرين وصُناع القرار من يدركون هذه المعاني، زادهم الله قوةً وأعانهم وسددهم ولا بُدَّ أن نقف معهم إن كنا جادين في مصلحة الدين والوطن؟ والعاقبة للتقوى وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون.

==============

معالم قرآنية في تاريخ اليهود

الحمد لله رب العالمين ولا عدوان إلا على الظالمين والعاقبة للمتقين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وبعد :

فمن المعالم القرآنية التي حكم الله بها على اليهود :

المعلم الأول : عداوتهم للإنسانية عامة وللمؤمنين خاصة، قال الله تعالى ((لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ)) (سورة المائدة:٨٢) .

وعداوة اليهود هذه مبكرة تشهد بخستها القرون الغابرة، وتؤكدها القرون اللاحقة، فأنبياؤهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون، ولا غرابة أن يتطاولوا على محمد صلى الله عليه وسلم ويحاولوا قتله وهو بعد طفل رضيع، فقد روى ابن سعد [١]: أن أم النبي صلى الله عليه وسلم لما دفعته إلى حليمة السعدية لترضعه قالت لها: احفظي ابني وأخبرتها بما رأت من المعجزات، فمر بها اليهود فقالت : ألا تحدثوني عن ابني هذا، فإني حملته كذا ووضعته كذا، فقال بعضهم لبعض: اقتلوه، ثم قالوا: أيتيم هو؟ قالت لا، هذا أبوه وأنا أمه.. وكأنها أحست منهم شيئاً.. فقالوا لو كان يتيما لقتلناه.

ثم تستمر محاولة اليهود في قتله حين ذهب مع عمه أبي طالب إلى الشام وهو بعد في رعيان الشباب، ومقولة بحيرى لعمه إني أخشى عليه من اليهود فارجع به بلده. هذا كله قبل النبوة.

ثم تشتد العداوة بعد النبوة، ويحاول اليهود أكثر من مرة قتل النبي صلى الله عليه وسلم فلم يفلحوا، وسموا الطعام الذي قدموه له، وآذوه وألبوا الأعداء عليه وتعاونوا مع

المنافقين والمشركين لحربه،وأعلنوا العداوة له بكل وقاحة وصراحة، إذ هم يعترفون بنبوته ويعلنون كرهه وعداوته حتى الممات، وهذا حيي بن أخطب زعيم يهود بني النضير يسأله أخوه أبو ياسر: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته ؟ قال: نعم، قال فما في نفسك منه ؟ قال: عداوته والله ما بقيت) [٢]

وحين أمكن الله من عدو الله حيي وجيء به مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألم يمكن الله منك يا عدو الله؟ قال!: بلى، أبى الله إلا تمكينك مني، أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكنه من يخذل الله يخذل.

واستمرت عداوة اليهود للمسلمين وفي أيام الخلفاء الراشدين خرج عبد الله بن سبأ اليهودي ليشعل الفتنة ويبذر الخلاف بين المسلمين وكانت الفتنة وكانت الحروب، ونتجاوز الزمن قليلاً ونقف عند الدولة العثمانية ملياً إذ كانت محاولات اليهود للعثمانيين للسماح لهم بالهجرة إلى أرض فلسطين والاستيطان فيها، فأصدر السلطان عبد المجيد خان أمراً بمنع اليهود القادمين لزيارة بيت المقدس من الإقامة في القدس أكثر من ثلاثة أشهر [٣].

ثم يعيدون الكرة مع السلطان عبد الحميد ويعدوه ويمنوه بالهبات والأموال مقابل إنشاء مستعمرة قرب القدس، فيجابههم بالرفض التام والتحقير والتوبيخ كما الوثيقة المشهورة.

ثم يدرك اليهود أن لا وسيلة لهم لتحقيق أغراضهم إلا القضاء على هذه الدولة بالتآمر مع الدول الكبرى وقد كان، فليهود الدونمة دور كبير في القضاء على الدولة واختيار الزعماء المناسبين لهم.

ويستمر العداء، ويؤكد الخلف ما بدأه السلف، فليست عداوتهم تاريخاً مضى وانتهى إنما هي عقيدة يلقنها الأباء للأبناء.

فهذا ((مناحيم بيجن)) يقول: (أنتم أيها الإسرائيليون لا يجب أن تشعروا بالشفقة حتى تقضوا على عدوكم، ولا عطف ولا رثاء حتى تنتهوا من إبادة ما يسمى بالحضارة الإسلامية، التي سنبني على أنقاضها حضارتنا) [٤]

وهذا "شامير" يقول في حفل استقبال اليهود السوفيت المهاجرين إلى إسرائيل (إن إسرائيل الكبرى من البحر إلى النهر هي عقيدتي وحلمي شخصياً، وبدون هذا الكيان

لن تكتمل الهجرة ولا الصعود إلى أرض الميعاد، ولن يتحقق أمر الإسرائيليين ولا سلامتهم).

ويقول ابن غوريون (نحن لا نخش الاشتراكيات ولا الثوريات ولا الديمقراطيات في المنطقة، نحن فقط نخشى الإسلام هذا المارد الذي نام طويلاً وبدأ يتململ) [٥].

هكذا يحدد اليهود أعداءهم، وكذلك تستمر العداوة، ويتحقق إعجاز القرآن ((لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ)) (سورة المائدة :٨٢) .

المعلم الثاني : والبارز في تاريخ اليهود هو نقضهم العهود، قال تعالى : ((الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ)) [الأنفال: ٥٦] .

وقال تعالى : ((أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ)) [البقرة: ١٠٠]

فهذه شهادة القرآن،فما هي شهادة الواقع على هؤلاء الأقوام؟ لقد عاهدهم الرسول صلى الله عليه وسلم وكتب بينه وبينهم كتاباً حين وصل المدينة فهل التزم اليهود العهد واحترموا الميثاق؟ كلا فقد غدر يهود بني قينقاع بعد غزوة بدر وانتصار المسلمين على المشركين، والمعاهدة لم يمض عليها إلا سنة [٦].

وغدرت يهود بني النضير بعد غزوة أحد وتجرأوا على المسلمين بعد ما أصابهم في غزوة أحد.

وغدرت بنو قريظة عهدهم في أشد الظروف وأحلكها على المسلمين يوم الأحزاب، فإذا كانت هذه أخلاقهم مع من يعلمون صدقه، ويعتقدون نبوته، فهل يرجى منهم حفظ العهود مع الآخرين؟ هل يتوقع صدق المجهود في معاهداتهم مع من يرونهم أضعف وأقل شأناً؟

إن اليهود قوم بهت، كما قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه الذي كان يهودياً فأسلم، وهم ينظرون إلى العهود والمواثيق التي يوقعونها مع غيرهم أنها للضرورة ولغرض مرحلي ولمقتضيات مصلحة آنية، فإذا استنفد الغرض المرحلي نقض اليهود الميثاق من غير استشعار بأي اعتبار خلقي أو التزام أدبي [٧].

فإذا كانت تلك شهادة القرآن، وشهادة الواقع التاريخي على اليهود، فإن من الجهل والبلاهة والحمق الثقة بأي معاهدة يبرمها اليهود، وبأي اتفاق يتم مع اليهود.

المعلم الثالث : يأبى الله إلا أن ينتقم من هذه الطغمة الفاسدة في الحياة الدنيا وقبل أن يقوم الأشهاد، وذلك بتسليط شعوب الأرض وأممها على اليهود، كلما اشتد فسادهم في الأرض، تحقيقاً لقوله : ((وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ)) .

وذلك معلم ثالث من معالم تاريخهم، وذلك راجع– والله أعلم– إلى فسادهم، وإلى علوهم واستكبارهم، وتحريف كتبهم، وحقدهم وعدائهم، فليس لهم صديق دائم، بل المصلحة والمنفعة الذاتية هي التي تخلق لهم الأصدقاء أو تجلب لهم العداوة والبغضاء، ولذلك فما من شعب جاوره اليهود إلا ويحاول التخلص منهم، وإليكم هذه النماذج من شهادات التاريخ:

ففي سنة ١٢٩٠ للميلاد قضى الإنجليز على اليهود جميعاً بالنفي وتبعهم في ذلك الفرنسيون وفي عامي ١٣٤٨، ١٣٤٩ م انتشر الموت الأسود في أوربا، واتهم اليهود بأنهم سمموا الآبار ومجاري المياه، فاشتدت حملة القتل والتنكيل بهم، بالرغم من محاولة البابا ((كليمنس السادس)) الدفاع عنهم ولكن دون جدوى.

وفي ١٤٩٣ م أصدر فرديناند وايزابيلا بأسبانيا مرسومها الرهيب بالفتك باليهود والمسلمين فهام اليهود على وجوههم، ولم يجدوا ملاذاً آمناً إلا بلاد المسلمين .

وفي سنة ١٨٨١ م كانت أعمدة الدخان تتصاعد حول بحر البلطيق إلى البحر الأسود حيث كانت عمليات حرق اليهود وبيوتهم وكتبهم مستمرة وحددت لهم روسيا مناطق لا يخرجون منها وألزمتهم الخدمة العسكرية خمسة عشر عاماً .

إذا كان النصارى والعلمانيون، والأوربيون والأمريكان اقرب الشعوب إلى اليهود فاسمعوا وجهة نظرهم فيهم .

يقول ((باكس)) وهو أحد النصارى (.. وكان في ذاكرة عامة أوربا أن اليهود يمتصون جهود البلاد الاقتصادية ويمثلون الطرف الخبيث الخطر الذي يسعى أبد الدهر لتحطيم المسيحية).

وفي أمريكا ألقى الرئيس الأمريكي الأسبق ((بنيامين فرانكلين) أول خطاب في الاجتماع التأسيسي للولايات المتحدة بعد استقلالها عام ١٧٧٩ م قال فيه:(إن هؤلاء اليهود هم أبالسة الجحيم، وخفافيش الليل، ومصاصو دماء الشعوب ،

أيها السادة : اطردوا هذه الطغمة الفاجرة من بلادنا قبل فوات الأوان، ضماناً لمصلحة الأمة وأجيالها القادمة، وإلا فإنكم سترون بعد قرن واحد أنهم أخطر مما تفكرون، وثقوا أنهم لن يرحموا أحفادنا، بل سيجعلونهم عبيداً في خدمتهم.. إلى أن يقول:

أيها السادة : ثقوا أنكم إذا لم تتخذوا هذا القرار فوراً، فإن الأجيال الأمريكية القادمة ستلاحقكم بلعناتها وهي تئن تحت أقدام اليهود ..) [٨].

إذا كان هذا حكم القرآن فيهم، وتلك وجهات نظر أقرب الناس إليهم، فكم هو مؤلم ومؤسف أن تختل هذه النظرة عند بعض المنتسبين للإسلام، وينسوا أو يتناسوا هذا التأريخ البعيد والقريب لليهود فيطمعوا في صلح دائم معهم ويثقوا بعهودهم والله المستعان.

المعلم الرابع : من المعالم القرآنية التي حكم الله بها على اليهود: التفرق والشتات والخلاف ماض فيهم إلى يوم القيامة، يقول تعالى: ((وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا)) [سورة الأعراف:١٦٨] ويقول تعالى: ((وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)) (سورة المائدة : ٦٤) .

ويقول تعالى : ((تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ)) (الحشر:١٤) .

فهذه سنة ماضية من سنن الله في اليهود : ((لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ)) (سورة الحشر:١٤).

يعلمها من يقرأ تاريخهم قديما وحديثاً، ودعونا نطوي صفحة الماضي حتى لا يظن أننا نتعلق دائماً بالماضي، ففي عصرنا الحاضر وفي دولة إسرائيل اليوم من التفرقة العنصرية بين اليهود الغربيين الذين يسمون ((الأشكنازيم)) وبين اليهود الشرقيين الذين يسمون ((السفارديم)) من العداوة والبغضاء والكره ما الله به عليم، وليست تلك عداوة عنصرية لاختلاف المواقع، لكنها طبع، وتحقيق لموعود الله فيهم، وإليك هذا النص المؤكد لاستمرارعداوتهم.

تقول يهودية روسية ذات ثقافة أكاديمية : صحيح أننا نكرههم- تقصد اليهود الغربيين- وصحيح أنهم يكرهوننا، إننا إسرائيليون وهم إسرائيليون، يبدو أن سوراً كبيراً يفصل بيننا، إننا نعيش في مستويات مختلفة ومفاهيم مختلفة، إننا نتحدث بشكل آخر ونفكر بشكل آخر، وينظر الواحد منا إلى الثاني بشكل آخر،إن هذا لأكثر من طائفتين مختلفتين، هذا بمثابة شعبين مختلفين، صدقني هذه عنصرية، إن ذلك ليس مسألة لون جلد، ولا مسألة البلد الأصلي، إن الذي يحدث ناجم عن الكراهة الثقافية،

إنني أكرههم لأنني أتخوف من الانتقال ليلاً

تلك الشوارع التي يتجولون فيها، إنني أكرههم بسبب نظرتهم، بسبب كلماتهم البذيئة التي يطلقونها خلفنا، وبسبب جميع الأعمال الخسيسة التي يحاولون القيام بها ضدنا.

إلى آخر مقالها الذي يعبر عن الكره بين طوائف اليهود وصدق الله: ((تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)) (سورة الحشر:١٤).

فلا تظنوا والحالة تلك أن يهود اليوم صف واحد وبنيان مرصوص، كلا فبنيانهم أوهى من بيت العنكبوت وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت، وما يخيل لبعض المسلمين اليوم من هيبة اليهود وقوة اليهود واجتماع كلمتهم إنما يبرز بسبب واقع المسلمين من الضعف والفرقة والشتات، وسيبصر المسلمون حقيقة الحال ويتأكدون من وصف القرآن إذا صلحت أحوالهم وعادوا إلى كتاب ربهم والتزموا شريعته، هناك يزول السراب الخادع، وتذهب الغشاوة عن العيون، ويأذن الله بنصر المسلمين، ويفر اليهود كما تفر الفئران من أرض المعركة، يحتمون بالقصور والحصون، غير قادرين على مواجهة المسلمين وحينها يعلم المسلمون مصداق قوله تعالى : ((لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ)) (سورة الحشر:١٤) .

إن المعالم في تاريخ اليهود كثيرة، وإن آيات القوم عنهم بليغة، وليس هذا حصراً لها بقدر ما هو إشارة إلى بعض منها،

وللمزيد من العلم أنصح بالاطلاع على عدد من الكتب عن اليهود ومنها:

١- جذور البلاء (عبد الله التل) .

٢- صراعنا مع اليهود (محمد ماضي) .

٣- صراعنا مع اليهود (محمد عثمان شير) .

٤- مكائد يهودية عبر التاريخ (عبد الرحمن حبنكة الميداني) .

٥- اليهود في القرآن (محمد عزة دروزه) .

٦- اليهود وراء كل جريمة (وليم كار) .

٧- اليهود والماسونية (الشيخ عبد الرحمن الدوسري..رحمة الله) .

٨ - وأخيراً صدر كتاب جيد بعنوان: معالم قرآنية في الصراع مع اليهود (الدكتور/مصطفى مسلم..

ولاشك أن العلم والوعي بهذه الحقائق مهم في كل زمان ومكان، وهو في هذا الزمان أهم، وقد قيل إن معرفة المؤمنين بحالهم وحال أعدائهم نصف المعركة [٩] ويبقى الشق الآخر وهو العمل والاستعداد فمجرد العلم وحده لا يكفي، وليست هذه المعرفة خاصة بطبقة دون أخرى، ولا بحاكم دون محكوم، ولا بذكر دون أنثى ، فكل عليه كفله من المسؤولية، فليبدأ بإصلاح نفسه وتسديد عيوبه وتنمية معارفه، وليحذر من الخداع والتزوير وليجعل الكتاب والسنة دليله في الحياة.

[١] في الطبقات ١١٣/١

[٢] السيرة لابن هشام ١٨٩/٢.

[٣] الأفعى اليهودية عن معالم قرآنية ٢١١.

[٤] صراعنا مع اليهود لمحمد ة إبراهيم ماضي ص ٥٩، عن معا لم قرآنية في الصراع مع اليهود: ص٢١٤

[٥] المصدر السابق ص ٢١٤

[٦] انظر: العمري، السيرة النبوية الصحيحة ١/ ٢٧٦.

[٧] معالم قرآنية ص١٧٧ .

[٨] انظر: د. مصطفى مسلم، معالم قرآنية في الصراع مع اليهود ص ٢٠٥، ٢٢١.

[٩] سيد قطب: الظلال ٣٥٢٩/٦

==============

#أثر الحضارة الإسلامية في الحضارة الأوروبية

د/ جاد أحمد رمضان

رئيس قسم التاريخ بالجامعة

الحمد لله الذي هدى المسلمين إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي بعثه الله رحمة للعالمين فبلغ الرسالة وأدى الأمانة وعبد ربه حتى أتاه اليقين.

أما بعد

فإنه في الوقت الذي كان المسلمون ينعمون فيه بظل الحضارة الإسلامية التي أفاضت عليهم كل أنواع الخير ووقتهم مفاسد الشر وأبعدتهم عن مواقع الفتن، في هذا الوقت الذي كان فيه المسلمون كذلك، كان أهل أوروبا يعيشون في جهالة جهلاء وضلالة عمياء بعيدين كل البعد عن كل مظاهر التقدم الحضاري.

ومنذ العقد الأخير من القرن الأول الهجري بدأ شعاع الحضارة الإسلامية يصل إلى أوروبا عن طريق الأندلس، ثم عن طريق صقلية وكذلك عن طريق الحروب الصليبية، ومن قبل تلك الحروب، عن طريق السفارات بين دول أوروبا وبين دول المسلمين، في الشرق والغرب.

ولم يكن تأثير هذا الإشعاع الحضاري متساويا في الدرجة بل كان بعضه أكثر تأثيرا من الآخر فالأندلس كانت أسبق مصادر الإشعاع وأكبرها تأثيرا، ثم تلتها في الأهمية صقلية ثم تأتي بعد ذلك الحروب الصليبية ثم الاتصالات السياسية والتجارية بين الدول الإسلامية والدول الأوروبية.

الأندلس مصدر الإشعاع الأول

عبر المسلمون إلى الأندلس في العقد الأخير من القرن الأول الهجري وواصلوا فتوحهم في أوروبا حتى استولوا على شبه جزيرة أيبريا وجنوب فرنسا ثم استمروا في فتوحهم حتى استولوا على جزر البحر الأبيض المتوسط وجنوب إيطاليا ونشروا دينهم فيما فتحوه من البلاد.

وكانت أوروبا –في ذلك الوقت– خلوا من كل مظاهر الحضارة بعد أن تمكنت القبائل المتبربرة من القضاء على الدولة الرومانية الغربية واحتلال الأقاليم التي كانت تخضع لحكمها. وعلى الرغم من أن هذه القبائل دانت بالمسيحية، فإنها لم تتقدم تقدما حضاريا يستحق الذكر؛ بسبب تولى مجيء موجات جديدة منهم، وغلبة الروح

العسكري عليهم، وقلة المرونة العقلية لديهم؛ مما جعلهم متخلفين عن ركب الحضارة والمدنية يعيشون في ظلام الجهالة والهمجية.

وقد نشر المسلمون في كل بقعة دخلوها من أوروبا لواء الأمن ونور المعرفة، وأقاموا فيها قواعد حكم عادل، يسوي بين الجميع في المعاملة، ويكفل الحرية لكل فرد في المجتمع، ويعمل للصالح العام ويمقت الأنانية والانتهازية.

وتاريخ أسبانيا العربية المسلمة صحيفة مشرقة من صحائف التاريخ الإنساني، وسجل حافل بالأمجاد، ذاخر بمختلف نواحي الحضارة، التي كانت مركز إشعاع هائل للحضارة الأوروبية.

وقد كان المجتمع في الأندلس بعد الفتح الإسلام يتألف من العرب الفاتحين، ومن الأسبان الذين اعتنقوا الإسلام، وقد عرفوا باسم "المسالمة"، ومن الأسبان الذين استمروا على المسيحية، وقد أطلق عليهم اسم "العجم"، وأصبحوا أهل ذمة يدفعون الجزية للمسلمين، ويعيشون آمنين في وطنهم، ويتمتعون بالحرية الدينية والتسامح الذي امتاز به المسلمون في معاملتهم لمخالفهم في الدين.

وكان من بين هؤلاء جماعة عاشروا العرب، وتعلموا لغتهم، ودرسوا علومهم وقلدوهم في عاداتهم، وأسلوب معيشتهم، وأطلق على هذه الطائفة اسم "المستعربين" [١]

وعن طريق هؤلاء الذين جمعوا بين معرفة اللغة العربية واللغة اللاتينية الحديثة نقلت حضارة العرب إلى الإمارات الشمالية في شبه جزيرة أيبريا، التي اتخذها المسيحيون معقلا لهم واعتصموا بجبالها ولم يدخلوا في طاعة المسلمين.

وبعد جيل من الفتح تكوَّن من المسلمين العرب والأسبان عنصرٌ جديدٌ عرف "بالمولدين"وهم الذين ولدوا من آباء عرب وأمهات أسبانيات، وعلى مرّ الزمن كثر عدد هؤلاء حتى أصبحوا يكونون أغلب سكان الأندلس.

وقد وصلت الحضارة العربية في الأندلسي إلى درجة عالية من الازدهار، وبخاصة في القرن الرابع الهجري؛ حيث كانت مدينة قرطبة العاصمة تضم مائة وثلاثة عشر ألف مسكن وواحد وعشرين ضاحية، وكان بها سبعون دارا للكتب، وعدد لا يحصى كثرة من الحوانيت كما كان بها كثير من المساجد، وكان أغلب شوارعها مرصوفا ومضاءة [٢] وكانت بقية المدن صورة مصغرة من العاصمة.

وفي محيط الزراعة غرس العرب الكروم في بلاد الأندلس، وأدخلوا إليها كثيرا من النباتات والفواكه التي لم تكن بها، مثل الأرز والقمح وقصب السكر والمشمش والخوخ والبرتقال والرمان، وقد حفر المسلمون الترع والقنوات، ونظموا وسائل الري وكان الرقى الزراعي أحد مفاخر أسبانيا الإسلامية [٣] .

وفي ميدان الصناعة ازدهرت صناعة النسيج والزجاج والنحاس والخزف والسيوف، وكثر استخراج الذهب والفضة والحديد والرصاص، وغيره من المعادن [٤] . وكان ما تنتجه الأندلسي من مزروعات وفواكه ومصنوعات يفيض عن حاجة سكانها.

ولقد ازدهرت الحياة الثقافية في الأندلس وبخاصة في عهد الحكم الثاني (٣٥٠-٣٦٦ هـ) وكانت جامعة قرطبة التي أنشأها والده عبد الرحمن الناصر في المسجد الجامع يفد إليها الطلاب من جميع أنحاء الأندلس، ومن أفريقيا وأوروبا، وقد استدعى الحكم بعض الأساتذة المشهورين من الشرق ليحاضروا فيها، ومن بينهم العالم اللغوي المشهور أبو على القالي مؤلف كتاب الامالي [٥] وكان المؤرخ الأندلسي ابن القوطية يدرس النحو بها. وكان الحكم مغرما باقتناء الكتب؛ فكان يكلف رجاله بالبحث عن المخطوطات في حوانيت الإسكندرية ودمشق وبغداد، وشرائها ونسخها، وبهذه الطريقة تمكن من جمع أربعمائة ألف مجلد [٦] وكان يطالع بنفسه على بعض هذه المخطوطات ويكتب ملاحظات في هوامشها مما جعل لها قيمة كبيرة في نظر العلماء المتأخرين. وقد أراد أن يحصل على النسخة الأولى لكتاب الأغاني التي كتبها أبو الفرج الأصفهاني بنفسه- وهو من سلالة الأمويين- وكان يقيم إذ ذاك بالعراق فبعث إليه بألف دينار ثمنا لها [٧] .

وكان المسيحيون الأسبان الذين هاجروا إلى كثير من بلاد أوروبا قد أشادوا بالعرب وشرائعهم، وحضارتهم، وثقافتهم، وبالعمران الذي عم البلاد الأسبانية على أيديهم؛ فنشروا بذلك- من حيث لا يقصدون- دعاية طيبة للمسلمين في أوربا ونبهوا أذهان أهلها إلى النهضة الحضارية التي قام بها المسلمون في أسبانيا.

وكان هؤلاء المهاجرون قد تسرعوا في هجرتهم خوفا على أنفسهم من بطش المسلمين بهم، من غير أن ينتظروا ما سيكون منهم، ولكنهم لم يلبثوا أن ندموا على هجر بلادهم حين علموا من مواطنيهم الذين لم يهاجروا مثلهم أن المسلمين يحسنون

جوارهم ويطلقون لهم الحرية في أداء شعائر دينهم، ويعاملونهم بالحسنى وينشرون العدل والأمن في سائر البلاد وأنهم حولوا أسبانيا إلى مروج خضراء وجنات فيحاء . [٨].

هذه الدعاية غير المقصودة التي نشرها المهاجرون الأسبان، في أكثر بقاع أوروبا جعلت أهلها يتطلعون للوقوف على هذه النهضة الحضارية، التي وصلت أخبارها إليهم وكان أسبق الأوربيين إلى ذلك الملك فيليب البافاري؛ حيث بعث إلى الأندلس يرجو الأمير الأموي هشاما الأول (١٧٢- ١٨٠ هـ) يرجوه أن يسمح له بإيفاد بعثة إلى قرطبة لدراسة أنظمة الأندلس وثقافتها، ومشاهدة أوجه النشاط بها، فقبل الأمير رجاءه وأرسل الملك الجرماني وفداً إلى الأندلس برئاسة وزيره الأول "ويلميين "الذي أطلق عليه الأندلسيون اسم "وليم الأمين "لأنه تحرى الأمانة في نقل ما رأوه من مظاهر نهضة بلادهم إلى الملك. وقد أشار الوزير على الملك بالاستمرار في إرسال البعثات العلمية لاقتباس ما يفيد البلاد من فنون الحضارة العربية [٩] .

وقد توالت البعثات على الأندلس بعد ذلك، وفي أوائل القرن الخامس الهجري أرسل جورج الثاني ملك إنجلترا ابنة أخيه الأميرة "دوبانت "، على رأس بعثة من ثمان عشرة فتاة، من بنات الأمراء والأعيان، إلى أشبيلية بمرافقة النبيل "سفليك "رئيس موظفي القصر الملكي، وأرسل معه كتابا إلى الخليفة هشام الثالث آخر الخلفاء الأمويين بالأندلس جاء فيه بعد الديباجة: "وقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم، والصناعات في بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج من هذه الفضائل؛ لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يحيط بها الجهل من أركانها الأربعة، وقد أرسلنا ابنة شقيقتنا الأميرة "دوبانت "على رأس بعثة من بنات الأشراف الإنجليز؛ لتتشرف بلثم أهداب العرش؛ والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم؛ وحماية الحاشية الكريمة، وحدب من لدن اللواتي سيتوفرن على تعليمهن، وقد أرفقت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل أرجو التكرم بقبولها، مع التعظيم والحب الخالص من خادمكم المطيع: جورج.

وقد ردّ الخليفة هشام الثالث على ملك إنجلترا برسالة جاء فيها: "لقد اطلعت على التماسكم فوافقت– بعد استشارة من يعنيهم الأمر– على طلبكم وعليه فإننا نعلمكم بأنه سينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين دلالة على مودتنا لشخصكم الملكي. أما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد، وبالمقابلة أبعث إليكم بغالي الطنافس الأندلسية وهى من صنع أبنائنا، هدية لحضرتكم، وفيها المغزى الكافي للتدليل على اتفاقنا ومحبتنا والسلام– خليفة رسول الله على ديار الأندلس: هشام.

وفي عهد ملوك الطوائف في الأندلس كانت توفد إلى معاهد غرناطة، وأشبيلية، وغيرهما بعثات من فرنسا، وإيطاليا، والأراضي الواطئة؛ لتنهل من الحضارة العربية، وكان طلاب هذه البعثات يعجبون بالحياة العربية وتقاليدها وثقافتها حتى أن بعضهم اعتنق الإسلام وفضل البقاء بالأندلس ولم يعد إلى بلاده [١٠] .

وكانت مدينة طليطلة بعد سقوطها في أيدي المسيحيين سنة ٤٨٧ هـ المركز الرئيسي لحركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، وقد أنشأ "ريموند "رئيس أساقفتها مكتبا للترجمة، وكان المستعربون من أهل الأندلس أكبر المساهمين في حركة الترجمة ومن أشهرهم " دومونيقوس جوند يسا لفى "و "بطرس الفونسى "و "حنا الأشبيلى "وغيرهم [١١]

وقد ترتب على هذه الحركة وجود ثورة علمية وفكرية هائلة في غرب أوروبا؛ ذلك لأن المعارف الجديدة التي نقلت من العربية إلى اللاتينية أضاعت أمام الأوربيين طريق الحياة, وبددت ضباب الجهالة الذي حجب عنهم رؤية الحضارة وأيقظتهم من سباتهم العميق ونبهتهم من غفلتهم الطويلة فأقبلوا على دراسة الحضارة الإسلامية بشغف بالغ ونهم شديد [١٢] .

ففي علم الحساب مثلا عرفوا نظام الأعداد الهندية عن العرب، وهو النظام الذي تتغير فيه قيمة الرقم بنقله من خانة الآحاد إلى خانة العشرات أو المئات أو الآلاف وما بعدها استعملوه في عملياتهم الحسابية بدل الأرقام الرومانية التي كانت عملياتها الحسابية تتطلب منهم وقتا طويلا .

ومن المرجح أن البابا "سلفتر "الثاني الذي قضى سنوات عديدة في شمال إسبانيا كان من أوائل الأوروبيين الذين نقلوا نظام الأعداد العربي إلى الغرب، هذا بالإضافة

إلى تشجيعه على ترجمة كثير من المؤلفات العربية إلى اللاتينية. وبخاصة ما يتعلق منها بعلم الجغرافيا.

وقد عرف الأوروبيون علم الجبر– لأول مرة– عن العرب، كما نقلوا عنهم علوم الهندسة والفلكَ والطبيعة والكيمياء والطب والفلسفة، وكثيرا من أنواع فروع المعرفة المختلفة.

وقد سلكت الفنون الإسلامية سبيلها إلى أوربا عن طريق الأندلس، كذلك، مثل صناعة الخزف والنسيج، والتعدين، وصناعة المعادن، والنجارة، والتطعيم بالعاج وغيرها من الصناعات [١٣] .

ومن هذا العرض السريع نتبين أهمية الدور الذي قامت به الأندلس في نقل الحضارة الإسلامية إلى ربوع أوربا، فكانت أساس نهضتها في العصور الحديثة، وسببا في تنعم به الآن من حياة مرفهة وثراء وفير، وما تفخر به من تفوق في العلوم والفنون.

صقلية مصدر الشعاع الثاني

حاول المسلمون فتح جزيرة صقلية منذ عهد معاوية بن أبى سفيان فقد أرسل و اليه على مصر وأفريقية (معاويةُ بن حديج) جيشا بقيادة عبد الله بن قشر الغزاوي؛ لغزوها ولكن ابن قشر لم يتمكن من ذلك ثم تجددت المحاولة عدة مرات، ولكن أقدام المسلمين لم تثبت في هذه الجزيرة إلا في أوائل القرن الثالث الهجري حيث ابتدأ فتحها سنة ٣١٣ هـ زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب الذي كان والي على إفريقية من قبل الخليفة المأمون العباسي.

وكان سبب فتحها أن إمبراطور الدولة البيزنطية " ميخائيل الثاني"ولى عليها "قسطنطين البطريق"، فأرسل الأمير القائد قسطنطين "بوفيموس"على رأس أسطول نهب ساحل أفريقية، ولكن الإمبراطور غضب على هذا القائد، لما بلغه من أنه اختطف راهبة من أحد الأديرة هناك،؛ ففر القائد إلى مدينة "سرقوسة"الواقعة على ساحل صقلية الشرقي، وأعلن الثورة على حاكم الجزيرة، غير أنه رأى أن لا طاقة له على مقاومة جيوش الإمبراطور وأساطيله، فلجأ إلى زيادة الله بن الأغلب أمير أفريقية، وأغراه بغزو صقلية وهوّن عليه فتحها فجهز الأمير الأغلبي جيشا وأسطولا يتألف من مائة سفينة بقيادة أسد بن الفرات قاضى القيروان وسيره لفتحها ([١٤]) .

وقد لقي المسلمون صعوبات كثيرة في فتحها ولم يتمكنوا من الاستيلاء عليها جميعها إلا في عهد إبراهيم الثاني الأغلبي سنة ٣٦٤ هـ، وقد ظلت صقلية تابعة لدولة الأغالبة حتى سقطت هذه الدولة على أيدي الفاطميين سنة ٣٩٦ هـ، فدخلت صقلية في حوزتهم ولكن العرب الذين كانوا يستوطنونها أعلنوا الثورة على الفاطميين، بزعامة أحمد بن قرهب بعد أربع سنوات من حكمهم اعترفوا بسيادة الدولة العباسية [١٥] .

غير أن الفاطميين تمكنوا من إخضاع الثورة، وإعادة سيطرتهم على الجزيرة، واتخذوها قاعدة حربية لأسطولهم يشنون منها الغارات على جنوب إيطاليا، وبخاصة مدينة جنوة التي تكررت غاراتهم عليها.

وقد عيّن الخليفة المنصور (ثالث خلفاء الفاطميين) الحسن بن علي بن الكلبي واليا على صقلية فوضع الحسن أساس حكومة شبه مستقلة في صقلية يتوارثها أبناؤه من بعده وفي عهد هذه الأسرة بذرت بذور الثقافة العربية، وأخذت تنمو وتزدهر على مرّ الأيام في تلك الجزيرة. ولم يتدخل العرب في الشئون الداخلية لأهل الجزيرة، بل تركوا لهم الحرية التامة في مزاولة عاداتهم وتقاليدهم، وفي أداء شعائر دينهم، واكتفوا بجباية جزية قليلة ممن لم يعتنق الإسلام منهمن، وكان مقدارها أقل بكثير من الضرائب التي كان الرومان يفرضونها عليهم، وقد أعفوا من هذه الجزية الرهبان والفقراء والنساء والأطفال والشيوخ، ولم يتعرضوا لكنائسهم بسوء.

وقد اهتم العرب بالزراعة، وأدخلوا في الجزيرة العربية زراعة قصب السكر والكتان والزيتون، وكثيرا من النباتات، وأشجار الفاكهة التي لم تكن موجودة بها من قبل، وقد ساعد خصب تربة الجزيرة على نمو زراعتها وجودة فواكهها؛ فتوفرت حاصلاتها، وكثرت مواردها. وقد مرّ الرحالة ابن جبير بها سنة ٥٨٠ هـ بعد ست وتسعين سنة من انتهاء حكم العرب بها، فأعجب بأشجار الفاكهة فيها، واسترعى انتباهه ما شاهده من جودة كرومها [١٦] .

ولم يكن اهتمام العرب في صقلية بالصناعة أقل من اهتمامهم بالزراعة، فقد أنشأوا مصانع للورق، ومصانع للنسيج، واستخرجوا الذهب والفضة، والحديد والرصاص والنوشادر من مناجمها، وتفننوا في صناعة الأواني النحاسية وصناعة النجارة

والتطعيم بالعاج وصناعة الرخام والفسيفساء وغيرها وشيدوا المساجد الفخمة والقصور الجميلة.

وقد ساعدت موارد الجزيرة الفنية، كما ساعد اشتغال العرب بالتجارة على زيادة ثروتهم؛ فعاشوا عيشة مرفهة، ومضوا منازلهم بالأثاث الفاخر، وفرشوها بأحسن أنواع السجاد، وتزينوا بأغلى أنواع الثياب، ولبست نساؤهم ثياب الحرير الموشى بالذهب وانتعلن الأخفاف المذهبة وتزيّن بالذهب والجواهر.

ومنذ أوائل القرن الرابع الهجري أخذ البيزنطيون يكثرون من الغارات على الجزيرة فشغل ولاتها من قبل الفاطميين بعد هذه الغارات، وفي الوقت نفسه، قامت اضطرابات بين العرب أنفسهم داخل صقلية؛ فأدى ذلك إلى ضعفهم وعجزهم عن الدفاع عن الجزيرة، ولم يكن في وسع الفاطميين بالقاهرة أن يمدوهم بالجيوش لاضطراب الأمور فيها، فانتهز النورمانديون هذه الفرصة وأخذوا يستولون على ثغور الجزيرة ومدنها الواحدة تلو الأخرى حتى تم للملك "روجر الأول"الاستيلاء على جميع نواحي الجزيرة سنة ٤٨٣ هـ وبذلك انتهى حكم العرب فيها بعد أن استمر مائتين وعشرين عاما [١٧] .

ولم يكن استيلاء النورمانديين على الجزيرة آخر عهد العرب بها، بل ظلوا بعد زوال الحكم العربي يقيمون فيها، وقد اعتمد حكامها النورمانديون على العناصر العربية في الشئون السياسية، والاقتصادية؛ لأنهم كانوا على جانب كبير من الخبرة والحضارة والرقي، كما كانوا عناصر نشيطة ومنتجة.

وكان "روجر الثاني" يرتدى الملابس العربية ويطرز رداءه بحروف عربية وقد نقش على سقف كنيسته التي بناها في مدينة "بارمو"نقوشا بالخط الكوفي. وكان الإدريس الجغرافي الرحالة، وأعظم رسامي الخرائط، محببا إليه مقربا عنده، وقد شجعه الملك على بحوثه الجغرافية وقدم له كل مساعدة وبذل له من المال ما مكنه من إرسال الرسل إلى كثير من الأقاليم؛ لإمداده بالمعلومات الجغرافية عنها.

وكذلك كان الملك "وليم"بن الملك روجر الثاني وحفيد الملك روجر الأول يعتمد على العرب فيقربهم إليه ويثق فيهم، وقد عبر عن ذلك شاهد عيان هو الرحالة بن جبير في حديث له عن الملك بقوله: "لا.... إنه عجيب في حسن السيرة واستعمال

المسلمين، وإنه لكثير الثقة بهم، وساكن إليهم في أحواله، والمهم من أشغاله، وله منهم الأطباء، والمنجمون وهو شديد الحرص عليهم" [١٨] .

وكان الإمبراطور "فردريك الثاني"الذي ورث عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة عن أبيه الألماني، كما ورث عرش صقلية عن أمه الإيطالية، كان قد ولد بصقلية وتربى بها، وتعلم فيها؛ فنشأ محبا للعلوم العربية وكان يحسن التكلم باللغة العربية. وقد أفاض المؤرخون العرب والأوربيون في وصف حبه للمسلمين، وإعجابه بعلومهم، وحضارتهم، وأخلاقهم، وتقريبه لهم واستخدامهم في حاشيته حتى أن الموذنين المسلمين كانوا يؤذنون عند موعد كل صلاة في معسكره [١٩] .

وقد قامت بين الإمبراطور "فرديك الثاني" وبين السلطان الأيوبي الكامل محمد بن آخي صلاح الدين صداقة متينة، وكانا يتبادلان السفارات والهدايا. فتذكر المصادر التاريخية أن السلطان الكامل أرسل هدية إلى الإمبراطور، كان من بينها زرافة كانت أول زرافة دخلت أوربا، وأن الأشراف الأيوبي صاحب دمشق أرسل إليه جهازا عجيبا للكواكب في صدر تمثل الشمس والقمر، وتحدد الساعات في مداراتهما، وأن الإمبراطور أرسل هدايا لكل من الكامل والأشرف منها دب أبيض وطاووس أبيض أعجبا أهل القاهرة ودمشق، كما أعجبت الزرافة وجهاز الكواكب أهل صقلية [٢٠]

وقد استمرت الصداقة قائمة بين "فردريك الثاني"وسلاطين مصر بعد وفاة السلطان الكامل سنة ٦٣٥ هـ؛ يدلّ على ذلك ما أشارت إليه المراجع التاريخية من أن الإمبراطور حذر الصالح نجم الدين أيوب عندما علم بنية ملك فرنسا "لويس التاسع"القيام بالحملة الصليبية السابعة ضد مصر سنة ٦٤٧ هـ حيث أرسل إليه- وهو بدمشق- رسولا تظاهر بأنه تاجر، وأسرّ إليه بأن لويس التاسع يعتزم توجيه حملة إلى مصر؛ للاستيلاء عليها، فأسرع الصالح بالعودة إلى مصر للدفاع عنها [٢١] .

وقد ظل العرب يحتفظون بضياعهم وأموالهم ومتاجرهم ومصانعهم في الجزيرة، ويزاولون نشاطهم الزراعي والتجاري والصناعي بحرية تامة، كما ظلت اللغة العربية شائعة في الجزيرة، وكان ملوك النورماند يحسنون التكلم بها ويطربون لأدبها وشعرها. ويظهر أن استعمالها استمر إلى أواخر القرن التاسع الهجري؛ ويؤيد ذلك شواهد

القبور التي عثر عليها علماء الآثار حديثا سواء كانت قبور مسلمين أم قبور مسيحيين.

وقد ترك العرب في جزيرة صقلية كثيرا من عاداتهم وتقاليدهم، التي لا تزال باقية حتى الآن، كما تركوا ألفاظا عربية كثيرة في اللغة الصقلية والإيطالية. ولا تزال مدن كثيرة في الجزيرة تحمل أسماء عربية. وفي مدينة بارمو مبنيان عظيمان من مباني العرب أحدهما قلعة العزيزة والآخر قصر القبة.

ومما تقدم يتبين أن الحضارة الإسلامية ازدهرت في الجزيرة نحو ستة قرون من الزمن وقد خرّجت صقلية العربية عددا غير قليل من المحدثين والفقهاء والنحويين والأدباء والمؤرخين والجغرافيين والأطباء والفلاسفة. نذكر منهم على سبيل المثال أسد الدين بن الحارث، صاحب كتاب الأسديات في الفقه، والقاضي ميمون بن عمر، وابن حمد يس الصقلي الشاعر المبدع، والشريف الإدريسي الجغرافي المحقق، والحسن بن يحي المعروف بابن الخزاز صاحب تاريخ صقلية، وعيسى بن عبد المنعم، وكان من أهل العلم بالهندسة والنجوم والحكمة، وأبو عبد الله الصقلي الفيلسوف وغيرهم كثير.

وقد أنشأ العرب في مدينة بالرمو، عاصمة صقلية، أول مدرسة للطب في أوربا، وعن طريقها انتشر الطب في إيطاليا، وسائر أرجاء القارة. إذن كانت جزيرة صقلية مركز إشعاع للحضارة الإسلامية العربية، أفادت منه أوربا أعظم الفائدة؛ لأن الجزيرة كانت على صلة وثيقة بالعالم الإسلامي، وبخاصة ما يقع منه على شواطئ البحر المتوسط؛ مثل الشام، ومصر وبلاد المغرب، وكانت البلاد الإسلامية في العصر الوسطى وطنا عاما للمسلمين لا فرق بين مشرقي ومغربي. فلم تكن هناك قيود على انتقال العلماء من بلد إسلامي إلى بلد آخر فكثرت تنقلاتهم، وساعد هذا على تبادل الآراء وانتقالها من جهة إلى جهة فلم تكن حضارة المسلمين في صقلية من صنع أهلها وحدهم بل كانت حضارة إسلامية شاملة لنتاجها ونتاج العالم الإسلامي كله ومن هناك ترجمت وتسربت إلى جميع أصقاع أوروبا.

لذلك لا نكون مبالغين إذا قلنا: إن صقلية ساهمت في تحضير أوروبا وتنويرها بنصيب يقرب من نصيب الأندلس، ولكنه يقّل عنه لأن رقعتها أضيق بكثير من

رقعة الأندلس ولأن عدد من أنجبتهم من العلماء لم يصل في شهرته العلمية إلى ما وصل إليه علماء الأندلس.

وهذا لا يغض من قيمة الدور الذي قامت به صقلية في إمداد أوروبا بكل مظاهر الحضارة ما كان منها من صنع العرب الذين استوطنوها أو مما نقلوه عن غيرهم من الدول الإسلامية الأخرى.

دور الحروب الصليبية في نقل الحضارة الإسلامية

في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) خرجت جموع من المسيحيين الأوروبيين مختلفي النزعات والأغراض لغزو الشرق الإسلامي. والأسباب التي دفعت هؤلاء إلى شنّ تلك الحروب التي عرفت في التاريخ باسم "الحروب الصليبية"نسبة إلى الصليب –الذي اتخذه المحاربون شعارًا لهم– أسبابٌ غير واضحة، تختلف باختلاف الطوائف التي اشتركت فيها.

ويمكننا أن نعتبر رغبة القبائل القيوتونية في الهجرة، وحبهم للمخاطرة من بين تلك الأسباب، كما لا نستبعد أن يكون هدم الخليفة الفاطمي (الحاكم بأمر الله) لكنيسة القيامة في أواخر القرن الرابع الهجري من بين الأسباب البعيدة لهذه الحروب [٢٢] . أما ادعاء الحجاج المسيحيين أنهم كانوا يلقون مصاعب في أثناء اجتيازهم أسيا الصغرى الإسلامية، وهم في طريقهم إلى بيت المقدس، أو أنهم كانوا يتعرضون لمضايقات من جانب المسلمين في أثناء حجهم، فليس له ما يبرره؛ لأن تعاليم الإسلام كفلت لأهل الأديان الأخرى الحرية التامة في مزاولة شعائر دينهم، ونهت عن التعرض لهم بسوء مادامو مسالمين ولا نظن أن مسلمي هذا العصر كانوا يجهلون ذلك.

ولئن سلمنا حدوث بعض مضايقات، فإن ذلك لا يعدو أن يكون حوادث فردية صدرت من بعض جهلة المسلمين، وحتما على فرض صدورها، فإنها لا تقتضي هذه الضجة الكبرى التي أثارها الغرب ضد المسلمين ولا تستلزم سفك ما سفك من دماء في هذه الحروب التي استمرت نحو قرنين من الزمن.

وكان الراهب بطرس الناسك الذي حج إلى بيت المقدس، وعزّ عليه أن يراه مِلكا للمسلمين، وهو المكان الذي يقدسه المسيحيون؛ كان هذا الراهب هو الذي روّج تلك الإشاعات.

على أن السبب المباشر لتلك المأساة التي ذهب ضحيتها عدد من البشر هو استنجاد الإمبراطور "ألكسيوس كمنينوس"إمبراطور الدولة البيزنطية بالبابا "إربان الثاني"بطريك الكنيسة الغربية بعد هزيمة البيزنطيين أمام السلاجقة في موقعة "ملاذكر"في أواخر سنة ٤٦٢ هـ [٢٣] ، وكان هذا الاستنجاد بعد الموقعة بأكثر من عشرين سنة ولكنه صادف هوى في نفس البابا الذي كان يطمع في ضم الكنيسة الشرقية إلى الكنيسة الغربية فأثار تلك الضجة العالمية التي تعتبر من أهم أحداث التاريخ العالمي.

وفي العام التالي لهذا الاستنجاد ألقى البابا خطبة في مدينة "كليرمنت"في الجنوب الشرقي لفرنسا حثّ فيها المؤمنين من النصارى على أن "يسلكوا سبيلهم إلى القبر المقدس ويأخذوه عنوة من ذلك الشعب الملعون ويخضعوه لأنفسهم" [٢٤] ، ولقد أشعلت هذه الخطبة جذوة الحماس في نفوس الجماهير المسيحية شريفهم ووضيعهم على السواء، وبلغ عدد المتطوعين لهذه الحرب مائة وخمسين ألفا من النورماندبين والفرنج.

ولم يكن الحماس الديني وحده هو الذي دفع هذه الجماهير إلى شنّ الغارة على الشرق بل إن كثيرا من الأمراء– ومن بينهم "بوهيمند"_ خرجوا استجابة لأطماعهم في تكوين إمارات لهم في الشرق الأوسط، كما كانت المصالح الاقتصادية هدف تجار البندقية وبيزة وجنوة.

وقد نجح الصليبيون في تكوين أربع إمارات لهم في الشرق وهى إمارة الرها وإمارة أنطاكيا وإمارة طرابلس وإمارة بيت المقدس وسميت هذه الإمارات مملكة بيت المقدس حيث كان أمير بيت المقدس يتوج ملكا لهذه المملكة، وإن كان كل أمير مستقلا داخليا في إمارته. وكان الاعتداء الصليبي على الشرق سببا في ظهور قوى إسلامية فتية؛ فقد تحمس الأبطال المسلمون لاسترداد بلادهم المغتصبة، وتمكن البطل عماد

الدين زنكي من استرداد إمارة الرها أول أمارة أنشأها الصليبيون في الشرق، وأهم إماراتهم وقد تم له ذلك سنة ٥٣٩ هـ [٢٥] .

ثم جاء بعده ابنه السلطان نور الدين محمود (٥٤١- ٥٦٩ هـ) فوحّد بلاد الشام تحت حكمه وضم إليها مصر، ولم يتمكن الصليبيون في عهده من إضافة شبر واحد إلى ممتلكاتهم في الشرق، بل انتزع السلطان من أيديهم كثيرا من البلاد التي كانوا قد احتلوها قبل أن يتنبه المسلمون لخطرهم، وحمل لواء الجهاد في عهده ومن بعده السلطان صلاح الدين الأيوبي (٥٦٧- ٥٨٩ هـ) فانتزع بيت المقدس من أيدي الصليبيين سنة ٥٨٣ هـ [٢٦] .

ثم أخذ سلاطين الأيوبيين والمماليك من بعدهم ينتزعون المدن الإسلامية من أيدي هؤلاء المغتصبين مدينة بعد أخرى حتى انتزع السلطان المملوكي الأشراف خليل (٦٨٩-٦٩٣ هـ) مدينة عكا أخر معقل لهم في الشرق سنة ٦٩٢ هـ [٢٧] وبذلك قضى على مملكة الصليبيين القضاء الأخير.

وكان الأثر الحضاري لهذه الحروب فنيا وصناعيا وتجاريا أكثر منه علميا أو أدبيا؛ فقد كان الأوروبيون الذين أقاموا في الشام في الإمارات التي أنشئوها يعيشون داخل حصون وسكنات عسكرية، وكان اتصالهم بالزراع الوطنيين والصناع أكثر من اتصالهم بالطبقة المثقفة. على أنهم مع ذلك استفادوا علميا، وإن كانت استفادة محدودة فقد نقل أحد علماء مدينة بيزة الكتاب الطبي المشهور "كامل الصناعة الطبية"لعلي بن العباس المعروف بالمجوسي نسبة إلى أحد أجداده الذي كان يدين بالمجوسية قبل أن يعتنق الإسلام وترجم فيليب الطرابلسي مخطوطا عربيا في الفلسفة والأخلاق يسمى "سر الأسرار"يقال إن أرسطو ألفه لتلميذه الإسكندر المقدوني.

كما كان من أثر الحروب الصليبية العلمي اهتمام الأوروبيين بتعلم اللغة العربية؛ لأنهم وقد فشلوا في نشر الديانة المسيحية بحدّ السيف رأوا أن تعلم اللغة العربية يمكنهم من التخاطب مع الشرقيين ونشر المسيحية بينهم باللين والإغراء [٢٨] .

على أن إنشاء المستشفيات ومعالجة المرضى فيها لم يعرف في أوروبا قبل الحروب الصليبية؛ مما يرجح أن هذا النظام منقول عن الشرق الإسلامي، بعد أن شاهد الأوروبيون المستشفيات فيه أثناء الحروب الصليبية، كما يرجح أيضا أن نظام

الحمامات العامة الذي انتقل إلى أوروبا بعد الحروب الصليبية منقول كذلك بواسطتها.

وقد كان أثر الحروب الصليبية في نقل الفنون الحربية إلى أوروبا واضحا؛ فقد تعلم الصليبيون من المسلمين استخدام حمام الزاجل في نقل الأخبار الحربية [٢٩] كما اقتبسوا منهم الاحتفال بالانتصارات بإشعال النيران، ولعبة الفروسية المعروفة باسم "الجريد"، وكذلك نقلوا عنهم اتخاذ الشعارات ونقشها على الأسلحة والخوذات، وكان اتخاذ الشعارات معروفا عند المسلمين، فقد كان صلاح الدين يلبس خوذة عليها رسم النسر، وكانت خوذة الظاهر بيبرس على شكل أسد كخوذة ابن طولون من قبل، ولم يكن ذلك معروفا في أوروبا قبل الحروب الصليبية.

وفي مجال الزراعة والصناعة والتجارة نقل الصليبيون العائدون إلى أوروبا كثيرا من النباتات وأشجار الفواكه مثل السمسم والبصل والأرز والبطيخ والبرقوق والليمون، كما حملوا معهم حين عودتهم البسط والسجاجيد والمنسوجات، وبدأت تظهر في أوروبا مصانع الآنية والبسط والأقمشة تقليدا للمنتجات الشرقية، ووجدت سوق أوروبية جديدة للمنتجات الزراعية الشرقية، والسلع الصناعية مما ساعد على نشاط التجارة الدولية التي كانت قد ركدت منذ سقوط الدولة الرومانية الغربية في القرن الخامس الميلادي [٣٠].

السفارات بين دول أوروبا والدول الإسلامية

حدثت اتصالات بين دول أوروبا والدول الإسلامية في العصور الوسطى كان لها أثر– ولو ضئيل– في نقل حضارة المسلمين إلى أوروبا. فيحدثنا التاريخ أنه عندما يئس الخليفة أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء العباسيين من مدّ سلطانه إلى بلاد الأندلس التي أَسس فيها الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية بن هشام إمارة أموية.

عندما يئس أبو جعفر من التغلب على هذا الأمير بالقوة لجأ إلى سلاح سياسي يستعين به على الوصول إلى غرضه فأراد التحالف مع "ببن" ملك الفرنجة على طرد الأمويين من الأندلس.

وقد مهد أبو جعفر لذلك بإرسال سفارة إلى "ببن" وجرت مفاوضات بين رسل الخليفة وبين ملك الفرنجة حول الغرض الذي جاءوا من أجله، ثم عادوا إلى بغداد يصحبهم سفراء من الفرنجة ليتفاوضوا مع أبى جعفر في التحالف مع دولة الفرنجة على سحق الدولة البيزنطية عدوتها، وعادوا إلى بلادهم يحملون الهدايا النفيسة التي أرسلها الخليفة إلى ملكهم.

ولم تؤد هذه المفاوضات إلى نتيجة إيجابية لكل من الطرفين أكثر من إزعاج عبد الرحمن الداخل وتخويفه من هجوم الفرنجة على بلاده، وإزعاج البيزنطيين من هجوم العباسيين على بلادهم. ويؤخذ على حكام المسلمين الاستعانة بغير المسلمين للتغلب على إخوانهم في الدين؛ فالمسلمون إخوة ينصر بعضهم بعضا، ويقفون صفا واحدا للدفاع عن عقيدتهم وصد أي عدوان يوجه إليها {وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً} .

وفي عهد الخليفة هارون الرشيد تجددت العلاقة بين دولة الفرنجة والدولة العباسية؛ حيث خطب شارلمان ود الرشيدَ؛ فأرسل إليه يطلب التحالف معه ضد البيزنطيين ويرجوه أن ييسر الحج إلى بيت المقدس للفرنجة، وأن تتبادل دولة الفرنجة التجارة مع الدولة العباسية وأن يمده بالكتب العلمية، كما أرسل الرشيد بعثة إلى بلاط شارلمان بغية التحالف معه ضد الإمبراطورية البيزنطية، والأمويين بالأندلس.

وقد أسفرت هذه المفاوضات عن إرسال مفاتيح كنيسة القيامة إلى شارلمان، وتبادل الهدايا بينه وبين الرشيد وكان من بين الهدايا التي أرسلها الرشيد إلى شارلمان: فيل وساعة مائية دقاقة، وأقمشة فاخرة من الموشى المنسوج بالذهب، وبسط ومواد عطرية [٣١] .

ولم تسفر هذه المفاوضات عن عمل إيجابي من جانب شارلمان ضد الأمويين في الأندلس؛ لأنه لم يجازف بالدخول في حرب مع الأمويين لا يدرى مغبتها حيث أدرك استحالة القضاء على الأمارة الأموية التي أصبحت ثابتة البنيان، موطدة الدعائم، واكتفى هو وأولاده من بعده بالدفاع عن أملاكهم ولم يفكروا في توجيه حملات هجومية ضد الأمويين.

وكما حاول الفرنجة والعباسيون أن يتحالفوا ضد البيزنطيين والأمويين كذلك حاول الأمويون والبيزنطيون أن يتحالفوا ضد العباسيين والفرنجة. وقد بدأت هذه المحاولة في عهد الإمبراطور البيزنطي "تيوفيل"الذي اشتد العداء بينه وبين الخليفة العباسي المعتصم بالله، فقد هاجم الإمبراطور حصن زبطرة الإسلامي وضربه فرّد عليه الخليفة بالهجوم على عمورية وتخريبها سنة ٢٢٣ هـ، كما خرّب كثيرا من المدن البيزنطية [٣٢] .

بعث الإمبراطور "تيوفيل"، سفيره "كريتوس"ومعه هدايا نفيسة رسالة يطلب فيها صداقة عبد الرحمن الثاني (الأوسط) أمير الأندلس ويرجوه عقد معاهدة صداقة ويحرضه على استعادة مقر خلافة أجداده. وقد ردّ الأمير عبد الرحمن الأوسط على لا "تيوفيل"بخطاب عبّر فيه عن عداوته للعباسيين، دون أن يرتبط معه بمعاهدة حربية ضدهم وهذا تصرف نبيل من الأمير المسلم، يستحق الثناء عليه حيث لم يتفق مع المسيحيين على حرب المسلمين.

ومع أن هذه المراسلات لم تؤد إلى عقد تحالف فعلي فإنها لم تخل من فائدة حيث أوجدت حالة استقرار في غرب أوروبا؛ إذ أن الأمويين والفرنجة اقتنعوا بأنه من الخير لهم أن يتفاهموا، وأن تكف كل من الدولتين عن حرب الأخرى وتنصرف كل منها إلى رعاية مصالحها وتعمل على تقدمها الحضاري.

وقد نشأت بين المدن الإيطالية وبين الدولة الفاطمية بمصر والشام علاقات تأرجحت بين الودّ، والعداء فقد أرسلت مدينة بيزا سفيرا إلى بلاط الخليفة الفاطمي الظاهر (٤١١–٤١٧ هـ) لتسوية المشكلة التي تسببت عن اعتداء بعض تجار بيزا على جماعة من التجار المصريين في البحر الأبيض، على مقربة من بيزا وسلب أموالهم، وقتل بعضهم. وقد انتقمت الحكومة الفاطمية لرعاياها وعاقبت التجار البيزيين المقيمين بمصر.

ونجح سفير بيزا في تسوية الخلاف بعد أن تعهد عن حكومته بالاقتصاص من المعتدين كما تعهد بالامتناع عن إمداد أعداء المسلمين بأي مساعدة، وفي نظير ذلك تعهدت الحكومة الفاطمية بإطلاق سراح التجار البيزيين المسجونين بمصر، وحماية حجاج بيت المقدس القادمين من بيزا على سفن غير حربية.

وعندما تولى الصالح طلائع بن رزيك الوزارة المصرية سنة ٥٤٩ هـ بادرت حكومة بيزا بإرسال وفد لتهنئته، فرحب الوزير بهم وأكرمهم وأكد المعاهدات القديمة بينهما.

وقد قامت صلات ودية بين مدينة جنوة والدولة الفاطمية وازدادت هذه الصلات في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري فقدي بعثت جنوة سفراء معاهدة مع الحكومة الفاطمية وتمخضت المفاوضات بين الطرفين عن تعهد الحكومة الفاطمية بحماية رعايا جنوة في مصر، وكان معظمهم يقيمون في مدينة الإسكندرية.

وكذلك قامت علاقات بين البندقية والدولة الفاطمية؛ حيث تعهدت البندقية في القرن الرابع الهجري بإمداد الفاطميين بما يحتاجونه من الأخشاب التي تلزم لبناء الأسطول الفاطمي المرابط في سواحل مصر، وسواحل الشام، ولكن البندقية توقفت بعد فترة عن إرسال الأخشاب- تحت تهديد حكومة بيزنطة- فتعكر صفو العلاقات بينها وبين الفاطميين، غير أن البندقية لم تلبث أن أدركت أن مصالحها التجارية تحتم عليها أن تعيد علاقاتها الطيبة بالقاهرة؛ فعادت إلى ما كانت عليه من إمدادها بالأخشاب نظير حصولها على امتيازات خاصة لسفنها التي تمر بالمياه المصرية، وتنقل حاصلات إفريقية وأسيا إلى أوروبا [٣٣] .

ومما لاشك فيه أن هذه السفارات قامت بدور في توصيل حضارة المسلمين إلى دول الغرب؛ لأن السفراء كانوا يطلعون على مظاهر الحضارة في العالم الإسلامي، وينقلون فكرة عما شاهدوه إلى بلادهم لكن عدد هؤلاء السفراء- بالطبع- كان محدودا وإقامتهم في البلاد الإسلامية لم تكن طويلة، بل كانت مدتها تتوقف على انتهاء المهمة التي أرسلوا من أجلها.

ولذلك لم يكن دور هذه الاتصالات بارزا في نقل الحضارة الإسلامية، بل كان نصيبه في نقلها محدودا يقتصر أغلبه على الجانب المادي للحضارة، أما الجانب الثقافي منها فقد كان قليلا جدا، كما اقتصر نقل التجار على الجانب المادي فقط لأن همتهم كانت متجهة أولاً وبالذات إلى الحصول على المال فكانوا ينقلون التحف بقصد الكسب من ورائها فحسب ولم تكن الثقافة والفن مما يحرص التجار على تداوله.

من كل ما تقدم نعلم أن ما تنعم الدول الغربية به من حضارة ليس من ابتكار عقول أهلها، ولا من صنع أيديهم إنما هو فيض الحضارة الإسلامية وصل إليهم عن تلك المصادر التي تكلمنا عنها.

وقد اهتم الغربيون بالجانب المادي من الحضارة التي وصلت إليهم من الشرق وأغفلوا الجانب الروح، وهو المهم، وليتهم وجهوا الجانب المادي وجهة صالحة تعمّر ولا تخرب، وتبني ولا تهدم. بل تفننوا في نقل وسائل التخريب والتدمير، حتى أصبح العالم يعيش اليوم في جو من القلق والرعب اللذين يجب أن يخلو منها المجتمع الحضاري.

ويوم يرجع المسلمون إلى التمسك بقواعد دينهم، والسير على هداها فسوف يعيدون إلى المجتمع الإنساني نعمة الأمن، ويخرجونه من جو القلق والرعب إلى جو الطمأنينة والسعادة والله سبحانه وتعالى يهدى إلى سواء السبيل، نسأله جلت قدرته أن يعيد للمسلمين عزهم ومجدهم إنه سميع مجيب والحمد لله رب العالمين.

---

[١] لطفي عبد السميع، الإسلام في أسبانيا ص٣١,٣٠.

[٢] المقري ، نفح الطيب جـ١ ص٢٩٨.

[٣] جوت هل، الحضارة العربية ص١١٩.

[٤] ابن حوقل، المسالك والممالك ص٧٩,٧٨.

[٥] ابن خلكان، وفيات الأعيان جـ١ ص١٣١,١٣٠.

[٦] ابن خلدون، كتاب العبر جـ٤ ص ١٤٦.

[٧] المقري ، نفع الطيب ج١ ص ٢٥٠.

[٨] المدوّر . الديانات والحضارات ص ٦٧.

[٩] علي الخربوطلي: العرب والحضارة ص ٣١٣.

[١٠] المدور الديانات والحضارات ص ٧٠.

[١١] سعيد عاشور. أوروبا في العصور الوسطى ص ٢١٧.

[١٢] بالنشيا ، تاريخ الفكري الأندلس ص ٥٣٦.

[١٣] هل، الحضارة العربية ص ١٢٠.

[١٤] أماري، مكتبة صقلية العربية جـ١ ص ٤٢٩،٤٢٧.

[١٥] ابن الأثير، الكامل جـ١ ص ٥٤ ،٥٣

[١٦] رحلة ابن جبير ص ٢٢٨.

[١٧] أماري، مكتبة صقلية العربية ص ٤٧٢

[١٨] رحلة ابن جبير ص٣٣١.

[١٩] المقريرزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ ص٣٨٢

[٢٠] أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ج٦ ص٢٨٣

[٢١] المقريزي ، الخطط، ج١ ص٢١٩

[٢٢] ابن الأثير، الكامل جـ١ ص٤٤,٤٥.

[٢٣] ابن الأثير، الكامل جـ٨ ص٤٤,٤٥.

[٢٤] فيليب حتى، تاريخ العرب جـ٢ ص٨٢٢.

[٢٥] إسحاق أرملة، الحروب الصليبية ص١٠٦

[٢٦] ابن شداد. سيرة صلاح الدين ص ٦٧٠٦٦.

[٢٧] أبو الفداء المختصر في أخبار البشر جـ٤ ص ٢٤.

[٢٨] فليب حتى، تاريخ العرب جـ٢ ص ٨٥٧، ٨٥٨.

[٢٩] السيوطي ، حسن المحاضرة جـ٣ ص ١٦٨.

[٣٠] فيليب حتى تاريخ العرب جـ٣ ص ٦٥.

[٣١] جميل نخلة حضارة الإسلام ص ١٥١.

[٣٢] إبراهيم العدوى، المسلمون والجرمان ص ٢٧٠.

[٣٣] جمال سرور الدولة الفاطمية ص ١٧٦٠١٧٥

=================

#المراصد الفلكية في الحضارة الإسلامية

خالد عزب

عرفت الحضارات القديمة علم الفلك وارتبط فيها بالتنجيم ومعرفة الغيب، وهو ما ألقى بظلاله على علم الفلك عند المسلمين حتى عهد قريب، ولكن في حضارة الإسلام،

تلك الحضارة التي نبذت التنجيم واعتبرته مخالفًا لعقيدتها، انفصل علم الفلك عن التنجيم، وأصبحت له قواعده العلمية التي يرتكز عليها. ولم يكن هذا الانفصال وليد الصدفة، بل وليد التجربة العلمية والقياس والاستنباط، والحاجة الإسلامية لتحديد مواعيد الصلاة واتجاه القبلة، حتى أصبحت المساجد الجامعة لا تخلو من فلكي يقوم بتحديد الوقت من خلال واحدة من الآلات الفلكية التي عرفها وابتكرها المسلمون.

لقد كان علم الفلك في الحضارات القديمة تائهًا، ولكن مع العصر العباسي وفي خلافة المأمون بن هارون الرشيد، صار لهذا العلم موقع خاص، فلأول مرة نرى مراصد كبيرة لها مواقعها الثابتة والمتميزة، وآلاتها الضخمة المصنعة بعناية، والرعاية التي حظيت بها من قبل الدولة، وعدد الفلكيين الذين ارتبطت أسماؤهم بها.

ويرى آيدين صاييلي –أبرز الباحثين الأتراك الذين درسوا المراصد الفلكية– أنه نشأت ظروف اقترنت بالإسلام، وكانت مواتية لتطور المراصد كمؤسسات، ذلك أن هناك ما يبرر القول بأن الإسلام شكل بيئة مناسبة لنشأة المراصد وتطورها، فلقد كانت هناك مرتبة خاصة لعلم الفلك في العالم الإسلامي، وكان هناك اهتمام بالرصد المباشر، وبدقة القياسات، وبالنظريات الرياضية، وبزيادة حجم الآلات، وبالإصرار على ممارسة الفلكيين أعمالهم في مجموعات، وبالميل إلى التخصص في مجالات ضيقة، وبالنزعة التجريبية عند علماء الإسلام.

كان للمراصد في عصر المأمون عدة سمات هامة لعل أهمها البرامج البحثية المحددة، كانت المهمة الكبرى لتلك المراصد الأولى إيجاد جداول فلكية مبنية على أرصاد حديثة للشمس والقمر فقط. ولكن فضلاً على كون البرامج المرسومة لها محدودة، فإنها كانت بُدائية بعض الشيء من حيث الإدارة والتنظيم المالي، والواقع أن طبيعة العمل المحددة التي نيطت بمرصدي المأمون في الشماسية وقاسيون قد جعلتهما لا يرقيان إلى مستويات المراصد المتكاملة التي عرفها العالم الإسلامي فيما بعد.

ظهر المرصد الإسلامي بشكل أكثر تطورًا بعد زمن المأمون بحوالي قرن ونصف قرن، وكان أكثر تنظيمًا من الناحية الإدارية، وعندما نشأ مرصد شرف الدولة أصبح له مدير يشرف على تدبير شؤونه، واقترن ذلك بتوسعة برنامج الرصد بحيث صار

يشمل الكواكب كافة، ولقد أمكن تحقيق هذا الجانب الأخير من تطور المراصد على مرحلتين، ذلك أن هناك دليلاً على أن بعض برامج الرصد قد اقتصرت على مشاهدة الكواكب السريعة فقط إلى جانب الشمس والقمر.

كانت المهمة الرئيسية للأعمال التي يضطلع بها المرصد تتمثل في إقامة جداول فلكية جديدة لكل الكواكب مبنية على أرصاد حديثة. وكان هناك ميل واضح نحو تصنيع آلات تزداد حجمًا على مر الزمن ونزوع إلى توفير هيئة عاملة متميزة، وذلك بموجب التقدم الذي أمكن تحقيقه في هذا الاتجاه أيضًا، ومن شأن التطورات أن تعمل على تعزيز اعتقاد مفاده أن نشأة المراصد، باعتبارها مؤسسات، ترجع في أصلها إلى الخلفاء والملوك.

ويعد المرصد الذي شيده السلطان السلجوقي ملك شاه في بغداد مرحلة أخرى من مراحل تطور العمل في المراصد، وإن لم يتوافر لدينا إلى الآن معلومات كافية حول عمل هذا المرصد، وظل هذا المرصد يعمل لفترة تزيد على عشرين عاماً، وهي فترة زمنية طويلة نسبيًّا بالنسبة لعمر المراصد، وقد رأى الفلكيون آنذاك أنه يلزم لإنجاز عمل فلكي فترة زمنية لا تقل عن ٣٠ عاماً.

مرصد المراغة

يعد القرن السابع الهجري أهم حقبة في تاريخ المراصد الإسلامية؛ لأن بناء مرصد المراغة تم هذا القرن، ويعد هذا المرصد واحدًا من أهم المراصد في تاريخ الحضارة الإسلامية، وتقع المراغة بالقرب من مدينة تبريز. بُني المرصد خارج المدينة، ولا تزال بقاياه موجودة إلى اليوم، وقد أنشأه "مانجو" أخو "هولاكو". كان مانجو مهتمًا بالرياضيات والفلك، وقد عهد إلى جمال الدين بن محمد بن الزيدي البخاري بمهمة إنشاء هذا المرصد، واستعان بعدد هائل من العلماء منهم: نصير الدين الطوسي، وعلي بن عمر الغزويني، ومؤيد الدين العرضي، وفخر الدين المراغي، ومحيي الدين المغربي وغيرهم كثير.

ويعد مرصد المراغة أول مرصد استفاد من أموال الوقف؛ إذ وقفت عليه عقارات وأراضٍ، لكي يتم ضمان استمرارية العمل به؛ ولذا ظل العمل جاريًا في المرصد إلى عام ١٣١٦م وشهد حكم سبعة سلاطين اهتموا به وبرعايته.

وتكمن السمة الثالثة لمرصد المراغة في النشاط التعليمي الهام الذي تم فيه، فقد تم تعليم العديد من الطلبة في المرصد علم الفلك والعمل على الآلات الفلكية. كما كان بالمرصد مكتبة ضخمة ضمت آلاف المخطوطات في شتى مجالات المعرفة.

مرصد سمرقند

أسس هذا المرصد "أولغ بك" حفيد "تيمورلنك" في سمرقند، وفي عام ١٩٠٨ تم الكشف عن موقع هذا المرصد حين نجح "ج.ل فاتكن" في العثور على وقفية من وقفياته تحدد مكانه بالضبط في المدينة، واستطاع في أثناء تنقيباته الأثرية أن يعثر على قوس كبيرة كانت تستخدم في تحديد منتصف النهار، وتعتبر أهم الأدوات الفلكية في المرصد.

يقع فناء المرصد الذي يبلغ ارتفاعه حوالي ٢١ مترا على تل ذي قاعدة صخرية، وتبلغ مساحة السطح لذلك التل حوالي ٨٥ مترًا من الشرق إلى الغرب، وحوالي ١٧٠ مترًا من الشمال إلى الجنوب. وتحيط بالمبنى الرئيسي للمرصد حديقة، وأماكن إقامة لغرض السكن. وهذا ما يدل على فخامة المبنى وعظمته، ويستدل من الاكتشافات الأثرية أن ذلك المبنى كان أسطواني الشكل وذا تصميم داخلي دقيق ومحكم.

ولم يكن دمار مرصد سمرقند وزواله ناجمين، في رأي فاتكن، عن عوامل طبيعية؛ إذ من المحتمل أن يكون بعض الدمار قد نجم عن استخدام رخامه في عمليات بناء أخرى. وقد وضعت جداول فلكية في المرصد، عرفت بجداول "أولغ بك" وتعد من أدق الجداول في العالم. ومن المعروف أن قبة المرصد، استغلت في وضع الجداول؛ حيث كان يوجد بها نقوش تحدد الدرجات والدقائق والثواني وأعشار الثواني لأفلاك التدوير، وللكواكب السبعة، وللنجوم المتحيرة، وللكرة الأرضية بتقسيماتها من حيث الأقاليم والجبال والصحارى. وممن عملوا في هذا المرصد "غياث الدين الكاشي" الذي برع في ميدان النماذج الميكانيكية للحركات السماوية.

==============

#مفهوم الحضارة الإسلامية

الحضارة الإسلامية هي نتاجٌ لتفاعل ثقافات الشعوب التي دخلت في الإسلام، سواء إيماناً وتصديقاً واعتقاداً، أو انتماءً وولاءً وانتساباً، وهي خلاصةٌ لتلاقح هذه الثقافات

والحضارات التي كانت قائمةً في المناطق التي وصلت إليها الفتوحات الإسلامية، ولانصهارها في بوتقة المبادئ والقيم والمُثُل التي جاء بها الإسلام هدايةً للناس كافة. والحضارة الإسلامية نوعان : النوع الأول ـ حضارة إسلامية أصيلة وتُسمّى حضارة الخلق والإبداع، وقد كان الإسلام مصدرها الوحيد، وعرفها العالم لأول مرة عن طريق الإسلام، والنوع الثاني ـ حضارة قام بها المسلمون في الأمور التجريبية امتداداً وتحسيناً، كما عرفها الفكر البشري من قبل، وتُسمّى حضارة البعث والإحياء (١٢). فالحضارة الإسلامية بهذا المفهوم الجامع الشامل العميق، هي إرثٌ مشترك بين جميع الشعوب والأمم التي انضوت تحت لوائها، وشاركت في بنائها، وأسهمت في عطائها، وهي الشعوب والأمم التي كوَّنت وشائج الأمة الإسلامية ونسيجَها المُحْكَم. فليست الحضارة الإسلامية حضارةَ جنسٍ معيّن فتكون بذلك حضارةً قوميةً تنتمي إلى قوم مخصوصين، ولكنها حضارة جامعة شاملة للأجناس والقوميات جميعاً التي كان لها نصيبُها في قيام هذه الحضارة، ودورها في ازدهارها وتألقها، وفي امتداد تأثيرها ونفوذها إلى العالم الذي كان معروفاً خلال القرون التي سطع فيها نجمُها واتسع إشعاعها وامتدَّ نفوذها.

الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقاف

==============

حركة الترجمة و دورها في إثراء الحياة العلمية في الحضارة الإسلامية

المرجع: سعيد عبدالفتاح عاشور و آخرون، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، الكويت،١٩٨٦.

أ – عوامل مهدت لظهور حركة الترجمة (الترجمة قبل الإسلام) :

* أدت الفتوحات الاسكندر الأكبر إلى انتشار الحضارة اليونانية في غرب آسيا و مصر مما اكسب هذه المنطقة طابع خاص أطلق عليه بعض المؤرخين اسم الحضارة الهلينستية و هي ممتدة على الفترة من وفاة الاسكندر الأكبر يونيو ٣٢٣ ق.م. إلى القرن السابع الميلادي عندما جاء الفتح العربي. و تعد اشهر مراكز الحضارة اليونانية:

– الإسكندرية – انطاكيا – نصيبين – جنديسابور

* قبل ظهور الإسلام نهض السريان بدور كبير في ترجمة معارف اليونان و علومهم إلى اللغة السريانية، و الذي ساعد السريان على ذلك:

٢. كثير من علماء اليونان تركوا بلادهم تحت تأثير الاضطهادات الدينية و المذهبية و اتجهوا شرقا حيث استقروا في مدينة الرها شمال العراق و هناك أسسوا مدرسة انتعشت في القرن الخامس الميلادي.

٣. عندما أغلق زينون (٤٧٤ – ٤٩١ م) إمبراطور القسطنطينية مدرسة الرها سنة ٤٨٩ م رحل علماؤها إلى نصيبين حيث أسسوا مدرسة اشتهرت في ميادين الفلسفة اليونانية و الطب اليوناني.

٤. عندما أغلق جستنيان الأول (٥٢٧- ٥٦٥ م) مدرسة أثينا الوثنية سنة ٥٢٨ م هجرها علماؤها و اتجهوا شرقا يبحثون عن مأوى في أحضان دولة الفرس.

و عندما استقر السريان في جنديسابور التابعة للفرس أقام كسرى انوشروان (٥٣١- ٥٧٩ م) بيمارستان للطب. و تقع جنديسابور هذه في إقليم خوزستان و قد أسسها سابور الأول لتكون معسكرا و معقلا لأسرى الروم و لذلك كانت اللغة اليونانية معروفة فيها.

* عندما استقر العلماء اليونان في جنديسابور اشتهروا بالدراسات الطبية و ذاعت شهرتهم و صار علماؤها يضعون قوانين العلاج و قد ظلت قائمة و مستمرة في ظل الإسلام، حتى أن الخليفة أبا جعفر المنصور (١٣٦- ١٥٨ هـ) عندما مرض احضروا له جرجيس بن بختيشوع رئيس أطباء جنديسابور و منذ ذلك الوقت اشتهر آل بختيشوع في بلاط الخلافة ببغداد.

* في حين اشتهار مدرسة جنديسابور ظلت الإسكندرية بمصر (تأسست ٣٣١ ق.م.) و مدرسة انطاكيا شمال الشام (تأسست ٣٠٠ ق.م.) تمتلك قواعد ثابتة في الفلسفة و المعارف و العلوم اليونانية.

* نجد أن الفلسفة و الفكر اليوناني اتخذ طابع مميز في الشرق في العصر الهلينستي لاصطباغه بصبغة شرقية واضحة و من ابرز ما يمثل هذا هو مذهب الافلاطونية المحدثة التي اشتهرت به مدرسة الإسكندرية و الذي أسسه أفلاطون المصري أو السكندري.

* و عن المدارس الشرقية التي استوعبت الفكر اليوناني سرعان ما غدت مراكز إشعاع للحضارة اليونانية و اشتهرت بالفلسفة و الطب و التشريح و الرياضيات و الفيزياء و الكيمياء و قد جاء نشاط هذه المدارس مصحوبا بنشاط في الترجمة، إذ حرص السريان على نقل الكثير من الكتب اليونانية التي ضاعت أصولها إلى السريانية، و هي احد اللغات الآرامية. و من اشهر مراكز السريان هو مركز مدينة الحران إلى الجنوب من الرها، و قد كانت السريانية بمثابة اللغة العالمية للمعرفة و العلم في منطقة الشرق الأدنى و ذلك قبل ظهور الإسلام. و كان يعيب على الترجمة السريانية أنها ترجمة حرفية مما سبب ضياع المعنى للنص المترجم في بعض الأحيان. و قد أسهم السريان كذلك في ترجمة بعض الكتب عن الفهلوية و هي اللغة الفارسية و منها: كتاب "كليلة و دمنة" و "السندباد".

* عندما ظهر الإسلام و فتح المسلمون فارس و العراق و الشام و مصر في القرن ٧م، رؤوا ما في هذه البلاد من مدارس تحتضن حضارة اليونان و فكرهم و لم يكونوا على جهل بهذه الثقافات جهلا تاما، لان بعض المؤثرات الثقافية من المدارس السابقة تسربت إليهم. و بفضل ما أثاره الإسلام من حماسة للعلم و حثهم على التسامح إزاء الديانات الأخرى أدى ذلك إلى تزود المسلمين بقسط نافع من الثقافات التي التقوا بها و لم يكن السبيل إلى معرفتها إلا بترجمتها.

ب. نشأة حركة الترجمة و ظهورها (الترجمة بعد الإسلام) :

* هناك رأيين مختلفين حول نشأة حركة الترجمة في الحضارة الإسلامية، الأول من الكتاب المقرر و الثاني يتعلق بالرأي الأصح في مسالة نشأة الترجمة في الإسلام:

١. رأي الكتاب:-

- و يقول هذا الرأي أن الجذور الأولى لحركة الترجمة إلى العربية في أوائل العصر الأموي حيث ذكر في المصادر أن خالد بن يزيد بن معاوية و الملقب بحكيم آل مروان أرسل إلى الإسكندرية في طلب بعض الكتب في الطب و علم الصنعة (الكيمياء) لترجمتها إلى العربية و ذلك بعدما أقصى عن الخلافة طواعية و يقول عنه:

§ ابن النديم: و قد ذكر في "الفهرست" أن خالد كان يسمى حكيم آل مروان و كان فاضلا في نفسه و له محبة في العلوم، فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان الذي نزلوا مصر و تفصحوا بالعربية و كان هذا أول نقل في الإسلام من لغة إلى لغة.

§ ابن خلكان: وصف خالد بن يزيد بقوله انه كان اعلم قريش بفنون العلم و له كلام في صنعة الكيمياء و الطب و كان متقنا لهذين العلمين.

§ الجاحظ: قال عنه انه كان أول من أعطى الترجمة و الفلاسفة و قرب أهل الحكمة و رؤساء كل صنعة.

– و يقال أن خالد بن يزيد استقدم من الإسكندرية راهبا بيزنطيا اسمه مريانس و طلب منه أن يعلمه علم الصنعة و لم يكتفي بذلك و إنما طلب من آخر اسمه اصطفن ترجمة ما أتى به مريانس إلى العربية.

– و قد اتجه بعض الباحثين الأوروبيين المحدثين أن يشككوا فيما نسب إلى خالد بن يزيد من جهود في الترجمة إلى العربية مستهدفين غمس الإسلام و طمس دوره في ظهور أعظم حضارة عرفتها البشرية في العصور الوسطى، و في ذلك شككوا أيضا في شخصية جابر بن حيان الكوفي (القرن ٢ هـ) الذي يعتبر أبا لعلم الكيمياء و أيضا شككوا في قسطنطين الأفريقي الذي ينسب إليه ترجمة مؤلفات العرب في الطب إلى اللاتينية مما مهد لظهور مدرسة سالرنو الطبية. و قد ذهب الكاتب لوتسيان كاسيموفتش إلى التشكيك في شخصية محمد في كتابه" لم يكن هناك محمد إطلاقا" .

– و من الخلفاء الأمويين الذين استكملوا جهود الترجمة بعد خالد بن يزيد، عمر بن عبدالعزيز(٩٩– ١٠١ هـ) حيث اصطحب معه عند ذهابه إلى الخلافة في المدينة احد علماء مدرسة الإسكندرية بعد أن اسلم على يديه ابن ابجر واعتمد عليه في صناعة الطب. و قد قام الخليفة عمر بن عبدالعزيز أيضا بنقل علماء مدرسة الإسكندرية إلى مدرسة انطاكيا سنة ١٠٠ هـ لكن هذا لا يعني أن مدرسة الإسكندرية أغلقت بل ظلت قائمة في العصر العباسي و من اشهر أطبائها:

١. بليطان الذي اعتمد عليه هارون الرشيد (١٧٠–١٩٤ هـ) في علاج جارية له.

٢. سعيد بن توفيل كان طبيب احمد بن طولون (٢٥٤- ٢٧٠ هـ).

- و من المدارس التي ازدهرت بالعلوم و الترجمة:

١. مدرسة الإسكندرية: إلا أن انغماسها في الجدل الديني حول بعض القضايا المسيحية و بعدها نسبيا عن مركز الخلافة خاصة في العصر العباسي، جعل تأثير مدارس الشرق و خاصة جنديسابور يبدو أكثر قوة.

٢. مدرسة جنديسابور: اشتهرت هذه المدرسة بدراسة الطب و فيها ترجمت مؤلفات اليونان في الطب إلى السريانية و بعد ذلك نقلت إلى العربية، و ينتسب إلى هذه المدرسة أطباء أسرة بختيشوع الذين اشتهر منهم من عالجوا الخلفاء العباسيين الأوائل.

٣. مدرسة حران: و كانت مركزا للأثينيين الصابئة و هم من السريان الذين اختلطوا باليونانية الوثنيين الفارين من الاضطهاد المسيحي، و ينسب إلى هذه المدرسة: ثابت بن قرة الصابئي و له مؤلفات عديدة في الطب و عمل في خدمة الخليفة المعتضد العباسي(٢٧٩-٢٨٩ هـ) و كان من ذريته سنان بن ثابت الذي حظي برضاء الخليفة القاهر. كما اشتهرت مدرسة حران بالفلك و ينسب إليها في هذا المجال:

- عبدالله محمد البتاني - أبو جعفر الخازن

٢. و الرأي الأصح في نشأة الترجمة:

- ترجع حركة الترجمة إلى صدر الإسلام في عهد الرسول الكريم (ص) و بتكليف منه، فنُقل عن الصحابة رضوان الله عليهم: "من عرف لغة قوم امن شرهم" . و من اشهر من تعلم السريانية في عهد الرسول هو زيد بن ثابت و قد تعلمها في ستين يوما و تعلم كذلك الفارسية و الرومية.

- أقدم بردة في الإسلام تعود إلى سنة ٢٢ هـ و عليها نص باسم عمرو بن العاص و به ثلاثة اسطر باليونانية و الترجمة بالعربية تحتها، و بالتالي الترجمة ظهرت في صدر الإسلام و ليس منذ العصر الأموي.

ج. تطور حركة الترجمة و ازدهارها:

* حركة الترجمة إلى العربية أخذت تتسع و تزداد قوة في العصر العباسي بفضل:

١. تشجيع الخلفاء العباسيين و رعايتهم لهم و قد فتحوا بغداد أمام العلماء و اجزلوا لهم العطاء و أضفوا عليهم ضروب التشريف و التشجيع بصرف النظر عن مللهم و عقائدهم. في حين أن حركة الترجمة في العصر الأموي كانت محاولات فردية لا يلبث أن تذبل بزوال الأفراد.

٢. غدت ركنا من أركان سياسة الدولة فلم يعد جهد فردي سرعان ما يزول بزوال الأفراد سواء حكام أو غير ذلك بل أصبح أمرا من أمور الدولة و ركنا من أركانها.

* و في حين أن الترجمة في العصر الأموي اقتصرت على الكيمياء و الفلك و الطب، نجد انه في العصر العباسي صارت أوسع نطاقا بحيث شملت الفلسفة و المنطق و العلوم التجريبية و الكتب الأدبية.

* من أمثلة اهتمام الخلفاء العباسيين بالعلماء و المترجمين:

١. الخليفة أبا جعفر المنصور(١٣٦- ١٥٨ ه) : و قد عني بترجمة الكتب إلى العربية سواء من اليونانية أو الفارسية، و في تلك المرحلة نقل حنين بن إسحاق بعض كتب ابقراط و جالينوس في الطب و نقل ابن المقفع كتاب "كليلة و دمنة" من الفهلوية.

٢. هارون الرشيد (١٧٠ -١٩٤ ه): عندما كثر أعداد العلماء في بغداد انشأ لهم دار الحكمة لتكون بمثابة أكاديمية علمية يجتمع في رحابها المعلمون و المتعلمون و حرص على تزويدها بالكتب التي نقلت من آسيا الصغرى و القسطنطينية.

٣. المأمون (١٩٨-٢١٨ ه) : ازداد اهتماما ببيت الحكمة، فوسع من نشاطها و ضاعف العطاء للمترجمين و قام بإرسال البعوث إلى القسطنطينية لاستحضار ما يمكن الحصول عليه من مؤلفات يونانية في شتى ألوان المعرفة، فاخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر، و ابن البطريق فاخذوا مما اختاروا و قد ذكر ابن النديم انه كان بين المأمون و إمبراطور القسطنطينية مراسلات بهذا الشأن.

* من اشهر المترجمين في العصر العباسي:

- ثيوفيل بن توما الرهاوي - جورجيس بن جبرائيل - يوحنا بن ماسويه
- الحجاج بن يوسف الكوفي - ثابت بن قرة - حنين بن اسحق
- اسحق بن حنين.

و نخص بالذكر حنين بن اسحق الذي ترجم كتبا عديدة في المنطق و الفلسفة و الطبيعة لكن اغلب ما نقله كان في الطب و قد ترجم من اليونانية إلى السريانية و العربية فترجم لجالينوس ٩٥ كتابا إلى السريانية نقل منهم إلى العربية ٣٩ كتابا فقط.

د . تأثير الحضارات الأخرى في الحضارة الإسلامية:

أ – التأثير الفارسي:

* كان التأثير الفارسي في الحضارة الإسلامية أقوى في مجال الأدب حيث كان الأدب الفارسي الشرقي اقرب إلى ذوق العرب و أحاسيسهم من الأدب اليوناني.

* في العصر العباسي قام من يجيدون اللغتين الفارسية و العربية بترجمة الكتب الفارسية و من هؤلاء :

– عبدالله بن المقفع – أبناء خالد – الحسن بن سهل

و نخص بالذكر المقفع حيث ترجم تاريخ الفرس و قيمهم و عاداتهم و سير ملوكهم فضلا عن كتب أدبية منها:

– كليلة و دمنة – الأدب الكبير – الأدب الصغير – كتاب اليتيمة

* لم تكن حضارة الفرس في مجال الأدب فقط فقد امتلكوا تراثا في العلوم الأخرى كالهندسة و الفلك و الجغرافيا، لكن تأثير اليونان في العلوم العقلية كان أقوى من تأثير الفرس.

ب –التأثير اليوناني:

* التأثير اليوناني في الأدب كان محدودا و لا يزيد عن نقل بعض الكلمات مثل:

– القنطار – الدرهم – القسطاس – الفردوس – بالإضافة إلى بعض الحكم

* كانت الحضارة اليونانية ذات تأثير قوي في العلوم العقلية و هذا نتج عن معتقدات اليونان أنفسهم و اهتمامهم بالعقل و ارتفاع شانه على حساب الأعمال اليدوية أو المجال الأدبي، فنقل العرب عنهم في مجال الفلسفة عن أفلاطون و أرسطو و في مجال الطب عن جالينوس و ابقراط.

* لبرز مظاهر التأثير اليوناني كانت خلال العصر الهلينستي حيث امتزجت حضارة اليونان بالقسم الشرقي و اخذ المسلمون منهم ما يتوافق مع الإسلام و نبذوا ما يتعارض معه.

ت – لتأثير الهندي:

* حركة الفتوح الإسلامية امتدت إلى الهند في أواخر القرن الأول الهجري، أي في خلافة الوليد بن عبدالملك(٨٦ -٩٦ هـ) و استؤنفت في منتصف القرن الثاني الهجري في عهد أبي جعفر المنصور (١٣٦- ١٥٨ هـ) و نشطت مرة أخرى في القرن الخامس الهجري، و ذكر في ذلك بعض المؤرخين:

– الجاحظ:" اشتهر الهند بالحساب و علم النجوم و أسرار الطب".

– الاصفهاني: " الهند لهم معرفة بالحساب و الخط الهندي و أسرار الطب و علاج فاحش الداء....".

* جزء كبير من ثقافة الهند و علومهم انتقل إلى فارس بحكم العلاقات التجارية بين الطرفين قبل الإسلام و من ذلك أن كسرى انوشروان أرسل طبيبه برزويه إلى الهند لاستحضار كتب و مؤلفات في الطب فعاد بالكثير منها و يقال أن قصة كليلة و دمنة انتقلت من الهند ضمن ما نقله برزويه من كتب بالإضافة إلى لعبة الشطرنج.

* عندما عكف المسلمون على ترجمة كتب الفرس إلى العربية نقلوا بين ثناياها أجزاء من ثقافة الهنود و علومهم و أحيانا قام بعض المترجمين بنقل السنسكريتية و هي اللغة الهندية إلى العربية مباشرة و منهم:

– منكة الهندي – ابن دهن الهندي

* و من العلوم التي اخذ فيها المسلمون عن الهنود: الرياضيات و الفلك و الطب:

أ – الرياضيات:

– الأرقام الحسابية المستخدمة في العالم حاليا عرفها المسلمون عن الهنود و عن المسلمين نقلت إلى الغرب، و قد عرف المسلمون هذه الأرقام باسم راشيكات الهند.

– نقل عن الهنود الكثير من المصطلحات الرياضية مثل مصطلح الجيب في حساب المثلثات.

و استفاد العالم الرياضي أبا جعفر بن موسى الخوارزمي من معارف الهنود في الرياضيات.

ب – الفلك:

- أمر أبو جعفر المنصور سنة ١٥٤ هـ بترجمة كتاب في الفلك ألفه احد علماء الهند و هو برهمكبت و قد كان باللغة السنسكريتية، كما أمر باستخراج زيجا من ازيجة هذا الكتاب يستخدمه العرب لدراسة حركة الكواكب، و قد قام بترجمة هذا الكتاب الفزاري و أنجز الزيج المشهور الذي ينسب إليه. كما اخذ المسلمون عن الهنود كتاب "السند هند" في الفلك.

ت - الطب:

- من الكتب التي ترجمت إلى العربية عن الهندية في مجال الطب :

§ كتاب " السيرك" و قد ترجم أولا إلى الفارسية ثم من الفارسية إلى العربية عن طريق عبدالله بن علي.

§ كتاب " سسرد" نقله منكة عن الفارسية ليحيى بن خالد البرمكي.

§ كتاب "أسماء عقاقير الهند" نقله منكة عن اسحق بن سليمان.

§ كتاب " استنكر الجامع" نقله ابن دهن الهندي.

- من المعروف أن أطباء الهند نبغوا في استخدام الأعشاب الطبية في مداواة الكثير من العلل و قد نقل المسلمين الكثير عن فوائد الأعشاب عن الهنود، و بعض هذه الأعشاب لم يعرفها اليونان حيث لا تنبت إلا في أقاليم الهند و شرق آسيا، و يقال أن خالد بن يحيى البرمكي جلب بعض أطباء الهند مثل:

- منكة - قلبرقل - سندباد

- و كان الاتصال بالحضارة الهندية مصحوبا بتعريب كثير من المصطلحات و الأسماء مثل: - زنجبيل - كافور - خيرزان - فلفل

فضلا عن ترجمة بعض القصص مثل كليلة و دمنة و السندباد كما سبقت الإشارة.

* و إذا كان المسلمون اخذوا عن الحضارات السابقة فان هذا لا يقلل من شانها لان الترجمة كانت مرحلة من مراحل الابتكار العلمي الإسلامي و هذه المراحل هي:

١ . النقل و الترجمة. ٢. الشرح و التفسير.

٣ . النقد و التصحيح. ٤. الإضافة و الابتكار.

===============

#من نماذج العمارة الاسلامية في مصر: مقياس النيل بالروضة

المرجع: كمال الدين سامح، العمارة الاسلامية في مصر، القاهرة، ١٩٩١.

– يعد مقياس النيل بالروضة من المنشات العباسية، و قد عرف المصريون منذ أقدم العصور تشييد المقاييس في شتى أنحاء البلاد ليتعرفوا على ارتفاع النيل نظرا لعلاقته الوثيقة بري الارض و تحصيل الخراج. و تشير المصادر العربية إلى العديد من المقاييس التي أنشئت بمصر بعد الفتح العربي لها منها:

v معاوية بن أبي سفيان(٤١–٦٠ هـ): مقياس انصنا .

v عبدالعزيز بن مروان: أنشا مقياس بحلوان سنة ٨٠ هـ .

v بنى أسامة بن زيد التنوفي عامل الخراج، مقياس في الروضة في عهد الوليد بن عبدالملك(٨٦ –٩٦ هـ) سنة ٩٢ هـ و قد أبطل سليمان بن عبدالملك العمل به فانشأ غيره في سنة ٩٧ هـ، أي بعد خمس سنوات.

و في سنة ٢٤٧ هـ أمر الخليفة المتوكل (٢٣٢ – ٢٤٨ هـ) بإنشاء المقياس الذي عرف بعدة أسماء منها:

* المقياس الهاشمي * المقياس الجديد * المقياس الكبير *مقياس الروضة

و يذكر المؤرخ ابن خلكان أن اسم الخليفة المتوكل كان منقوشا في شريط من الحجر يحيط بأعلى فوهة البئر، و قد شيد على يد احمد بن محمد الحاسب، و تحيط بشخصية هذا المهندس الغموض حيث يقول البعض:

١. الذي بنى المقياس هو مهندس عراقي اسمه محمد بن كثير الفرغاني في ولاية يزيد بن عبدالله التركي.

٢. قال البعض أن اسمه ابن كاتب الفرغاني و انه كان قبطيا، لكن يقول كريزويل أن الذي ينسب إلى فرغانة التي هي جزء من دولة الفرس لا يمكن أن يكون قبطيا.

٣. زعم البعض أن احمد بن محمد الحاسب و احمد بن كثير الفرغاني ما هما إلا شخص واحد و في هذا يقول بوبر، انه هو نفسه احمد بن المدبر الذي ولي خراج مصر.

و ما يزيد من حدة هذا الخلاف أن النقش الحجري الذي أشار إليه ابن خلكان فقد أثناء إصلاحات احمد بن طولون (٢٥٤– ٢٧٠ هـ).

– و هذا المقياس الأثري عبارة عن:

١. عمود رخامي مدرج و مثمن القطاع يعلوه تاج روماني يبلغ طوله ١٩ ذراع، حفر عليه علامات القياس.

٢. يتوسط العمود بئر مربع مشيد بأحجار مهذبة روعي في بنائها أن يزيد سمكها كلما زاد العمق، و على هذا شيد البئر من ثلاث طبقات: السفلى على هيئة دائرة، يعلوها طبقة مربعة ضلعها اكبر من قطر الدائرة، و المربع العلوي و الأخير ضلعه اكبر من المربع الأوسط. و جدير بالإشارة أن سمك الجدران و تدرجه على هذا النحو، يدل على أن المسلمين كانوا على علم بالنظرية الهندسية الخاصة بازدياد الضغط الأفقي للتربة كلما زاد العمق إلى أسفل.

٣. يجري حول جدران البئر من الداخل درج يصل إلى القاع.

٤. يتصل المقياس بالنيل بواسطة ثلاثة أنفاق يصب ماؤها في البئر من خلال ثلاث فتحات في الجانب الشرقي، حتى يظل الماء ساكنا في البئر، حيث أن حركة المياه في النيل من الجنوب إلى الشمال و بالتالي لا يوجد اتجاه حركة للمياه في الناحية الشرقية و الغربية.

٥. يعلو هذه الفتحات عقود مدببة ترتكز على أعمدة مدمجة في الجدران، ذات تيجان و قواعد ناقوسية.

٦. و يرتكز العمود الوسطي على قاعدة من الخشب الجميز لأنه الوحيد الذي لا يتأثر بالمياه و ذلك لتثبيته من أسفل، و مثبت من أعلى بواسطة tie-beam أي كمرة، و عليه نقش بالكوفي لآية قرآنية.

٧. و عن النقوش و الكتابات الأثرية في هذا المقياس:

• في الجانب الشمالي و الشرقي كتابات أثرية بالخط الكوفي.

• في الجانب الجنوبي و الغربي نقوش ترجع إلى أيام احمد بن طولون سنة ٢٥٩ هـ عندما أصلحه و انفق عليه ألف دينار.

– و قد تناولت يد الإصلاح و التجديد مقياس النيل:

• في عهد احمد بن طولون– مؤسس مدينة القطائع في مصر– و قد أصلحه و جدده سنة ٢٥٩ هـ، و في هذا الإصلاح فقدت النقوش الحجرية التي أشار إليها ابن خلكان كما سبق الذكر.

• عهد الخليفة المستنصر إلى وزيره بدر الجمالي بتجديد المقياس سنة ٤٨٥ هـ و بنى مسجدا في جانبه الغربي عرف بمسجد المقياس.

• قام السلطان الظاهر بيبرس(٦٥٨- ٦٧٦ هـ) بإضافة قبة فوق بئر المقياس في القرن السابع الهجري.

• تمت بعض الإصلاحات في عهد الاشرف قايتباي ملك مصر(٨٧٢-٩٠١ هـ)

• كما شهد إصلاحات أخرى في العهد العثماني على يد كل من:

– السلطان سليم الأول (٩١٨ – ٩٢٦ هـ)

– السلطان سليمان القانوني (٩٢٦ – ٩٧٤ هـ)

– السلطان سليم الثاني (٩٧٤ – ٩٨٢ هـ)

• حظي بنصيب من جهود الحملة الفرنسية سنة ١٢١٤ هـ/ ١٧٩٩ م فنظفوا بئر المقياس من الطمي المتراكم في قاعه كما أضافت قطعة من الرخام مقدارها ذراع إلى عمود القياس و نقش عليها تاريخ ١٢١٥ هـ/ ١٨٩٩م.

• قامت وزارة الأشغال العمومية سنة ١٣٠٥ هـ/١٨٨٧ م بتنظيف المقياس مرة أخرى من الطمي المتراكم بداخله.

• بعد هذه الإصلاحات هبط عمود المقياس بمقدار ٣ سم ثم ٦سم، فقامت مصلحة المباني بالاشتراك مع لجنة حفظ الآثار العربية بأخذ الاحتياطات اللازمة لإيقاف الهبوط، و كان ذلك عام ١٣٤٣ هـ/ ١٩٢٥م.

– و عن وظيفة المقياس هو معرفة كمية مياه النيل و بناء عليها يعرفون ما إذا كانت ستروى جميع الأراضي أم سيأتي موسم جفاف أو فيضان، و في هذا:

• إذا كان ارتفاع مياه النيل ١٦ ذراعا، يعد بشيرا بوفاء النيل و أن الأراضي ستروى و يكون الخراج كافي لسد احتياجات الدولة.

• إذا كان ارتفاع مياه النيل اقل من ١٦ ذراعا، كان علامة على قدوم الجفاف، و من ثم يهيئ الدولة لأخذ الاحتياطات اللازمة.

• إذا كان ارتفاع مياه النيل أكثر من ١٦ ذراعا، كان علامة على قدوم فيضان.

==============

#اصول الحضارة الاسلاميه:

الحضارة الاسلاميه هى حلقة من سلسلة الحضارات الانسانية السابقه عليها وخلاصة لها ؛ فقد استوعب المسلمون علوم ومعارف الأمم السابقة ؛ وأضافوا اليها ماأبلدعه العقل العربى من ابتكارات واستكشاف نظريات جديدة تفيد الانسانية فى تقدمها ؛ كما انهم اخضعوا نظريات علماء الحضارات السابقه للتجربة والملاحظة ولم يأخذوها قضية مسلمة لا شية فيها ؛ فهم الذين اخترعوا المنهج التجريبى فى ابحاثهم ونظرياتهم؛ وكانوا سببا رئيسيا فى قيام الحضارة الحديثة ولولاهم لتأخر ركب المدنية قرونا طويلة ولبدأ الغرب من حيث بدأوا .

وتميزت الحضارة الاسلامية عن سابقتها من الحضارات بأنها قامت على رسالة سماوية هى رسالة الاسلام التى جاءت بالشرائع والنظم الاخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعقائدية فنظمت علاقة الانسان بخالقه وعلاقته باخيه الانسان وبمجتمعه ووطنه بحيث لاضرر ولا ضرار ووجهت نظر الانسان الى الاعمار والتطور والاخذ باسباب المدنية والارتقاء ولذا فهى تحقق للبشريه الرخاء والارتقاء .

وعلى الرغم من ان الحضارة الاسلامية قد قامت على الدين الاسلامى ؛فان ذلك لم يمنع المسلمين من دراسة الحضارات السابقة والاستفاده منها فقد استفادوا من الحضاره العربيه ؛والفارسية؛واليونانية؛ والهندية؛ والصينية؛ وغيرها من الحضارات فى العالم القديم . فان المسلمين عندما خرجوا من جزيرتهم العربيه ينشرون رسالة الاسلام التى وكلوا بنشرها شرقا وغربا وصادفوا مدنية وحضارة لم يطمسوها او يدمروها بل عكفوا على دراستها والاستفادة منها والاخذ مافيه النفع لهم وما يقره دينهم الحنيف .

اما عن اصول الحضارة لاسلامية :

القران الكريم والسنة النبوية :

هما الاصلان الاساسيان للحضارة الاسلامية فأما القران فهو كتاب الله المجيد المنزل على سيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قال تعالى (كتاب احكمت اياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) وهو معجزة الاسلام الخالده التى وقف العرب وقد نزل بلغتهم تجاهها مبهورين قد اخذ العجب بهم كل مأخذ قال تعالى (وان كنتم فى

ريب مما نزلنا على عبنا فاتوا بسوره من مثله وادعوا شهدائكم من دون الله ان كنتم صادقين)

وهو دستور المجتمع الاسلامى الذى احاط بكل صغيرة وكبيره قال تعالى (مافرطنا فى الكتاب من شئ) وفى القران الكريم يكم سر الحضارة الاسلميه وعظمتها فهو كتاب الله يهدى للتى هى احسن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فهو خير البشريه من كل نواحيها : الروحية ؛ العقائدية ؛الاجتماعية ؛العلمية ؛ الفكرية ؛ الاقتصادية؛الثقافية ؛العسكرية؛ فهو يدعو الى عقيدة حقه تقوم على الوحدانية لله تعالى خالية من التعقيد والغموض

اما السنة الشريفة :فهى كل ماصدر عن النبى صلى الله عليه وسلم من قول وفعل او تقرير وهى المصدر الثانى فى التشريع بعد القران الريم فقد وضع القران الكريم الخطوط الرئيسيه فى التشريع الاسلامى وترك تفصيلها فكان النبى صلى الله عليه وسلم يفسر ماجاء مجملا فى القران ويجيب على اسئله السائلين ويحل المشكلات التى تعرض عليه

وقد امرنا الله تعالى باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم لانه لاينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى وقد عصمه الله عن الخطأ فيما يبلغه للناس من امر الرسالة قال تعالى (وما اتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا)وبذلك صار القران لكريم اصلا والسنة النبويه الشريفة تفسيرا وتوضيحا وبيانا

=================

#النظام الاقتصادي في الحضارة الإسلامية

مفكرة الإسلام : جاء الإسلام بدعوة خاتمة لكل الرسالات والدعوات, ونزل القرآن مصدقًا لما بين يديه من الكتب السابقة ومهيمنًا عليها, وجاء الرسول صلى الله عليه وسلم كخاتم المرسلين بالرسالة العالمية الجديدة للبشر كافة والعالمين أجمعين، لذلك فقد اقتضت عالمية الرسالة الخاتمة أن تكون جامعة مانعة جامعة لها خير يحتاج إليه الإنسان في دنياه وأخراه, ومانعة لها ما يؤذيه ويكدر صفو حياته ويعطل سيره لأخراه, فجاء الإسلام بدعوة دين ودولة ودعوة حياة اجتماعية وسياسية واقتصادية وفكرية ووضع أسس العقيدة النقية ونظم العلاقات على كل المستويات لتنتج لنا في

النهاية مجتمعًا مسلمًا متميزًا في كل شئ عقديًا وسلوكيًا وأخلاقيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وفكريًا وحضاريًا.

ومن أبرز ما تميزت به الحضارة الإسلامية والتي تمثل تفاعل كافة القيم والتعاليم الإسلامية مع المجتمع البشري هي تلك النظم التي قامت عليها تلك الحضارة الإسلامية والتي شملت أمور الحكم والإدارة والسلام والحب والاجتماع والاقتصاد وكل ما يتصل بتنظيم أمور الدولة المسلمة التي هي المحتوي العلمي لقيم الحضارة الإسلامية, وحديثنا في هذا المقام عن النظام الاقتصادي في الحضارة الإسلامية.

* بيت المال 'وزارة المالية':

تعتبر الحضارة الإسلامية الرائدة في مجال تنظيم الأموال الاقتصادية والموارد المالية للأمة الإسلامية وعرفت البشرية أول وزارة للمالية على نفس النمط الذي يسود الآن في أرقى الدول المتحضرة وهذه الوزارة الرائدة كانت 'بيت المال', ويعتبر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من أنشأ بيت المال بسبب الفتوحات العظيمة التي تمت في عهده والخيرات التي تدفقت على الدولة المسلمة, فقد روى ابن سعد في طبقاته أن أبا هريرة قدم على عمر من البحرين فلقيه في صلاة العشاء الآخرة فسلم عليه ثم سأله عن الناس ثم قال لأبي هريرة: ماذا جئت به؟ قلت: جئت بخمسمائة ألف درهم, قال: ماذا تقول؟ قلت: مائة ألف، مائة ألف، مائة ألف حتى عددت خمسًا، فقال عمر، إنك ناعس فارجع إلى أهلك فنم, فإذا أصبحت فأتني، قال أبو هريرة: فغدوت إليه فقال: ماذا جئت به؟ قلت: جئت بخمسمائة ألف درهم, قال عمر: 'أطيب' قلت: نعم لا أعلم إلا ذلك، فقال عمر للناس: إنه قد قدم علينا مال كثير, فإن شئتم أن نعده لكم عدًا وإن شئتم أن نكيله لكم كيلاً، ونشأت من يومها فكرة بيت المال.

ولقد أنشأ عمر بيت المال الفرعي في كل ولاية يكون خاصًا بموارد ومصارف تلك الولاية وما يزيد يرد على بيت المال العام أو المركز الرئيس بالمدينة, وجعل له أمينًا مستقلاً في عمله عن الوالي وعن القاضي وهو ما عرفه العالم بعد ذلك باسم 'مبدأ فصل السلطات'.

وتعالوا سويًا نقترب من بيت مال المسلمين لنتعرف على موارد ومصارف هذا البيت والذي يمثل للنظام الاقتصادي للدولة الإسلامية، وما يوضح عظمة الحضارة الإسلامية وريادتها في هذا المجال وغيره.

موارد بيت المال:

تنقسم موارد بيت المال في الدولة المسلمة إلى عدة موارد ومصادر تحت القاعدة الأصولية العامة [إن الأصل في الأموال الحرمة وما أبيح أخذه يكون بنص].

وهي القاعدة المستفادة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع [[إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ...]] وهذه الموارد كما يلي:

[١] أولاً: الزكاة: وهي ركن من أركان الإسلام وفريضة محكمة وثابتة إلى قيام الساعة وهي مقدار معلوم من مال الأغنياء يرد إلى إخوانهم الفقراء وهي أرقى صور التكافل والتراحم الاجتماعي والذي لا يعرف نظيره في أي مجتمع من المجتمعات السابقة أو اللاحقة، والمال الواجب فيه الزكاة، أربعة أقسام، [١] زكاة النقد [٢] زكاة السوائم والأنعام والماشية [٣] زكاة الزروع والثمار [٤] زكاة الركاز والمعادن.

وهذا المورد من موارد بيت مال الدولة المسلمة يتميز عن باقي الموارد بتحديد مصارفه وأوجه إنفاقه وهي المذكورة في الآية رقم ٦٠ من سورة التوبة.

[٢] ثانيًا: الخراج: لما فتح المسلمون بلاد العراق وأزالوا دولة الفرس المجوس منها وأيضا فتحوا الشام والجزيرة وطردوا الروم منها طلب كثير من كبار الصحابة من الخليفة عمر بن الخطاب أن يقسم الأرض المفتوحة على الفاتحين والمجاهدين كما قسم عليها الغنائم المنقولة من سلاح ومتاع ولكن عمر رأى أن تكون الأرض المفتوحة فيئًا لعموم المسلمين على مر العصور, واستند في رأيه على آيات الفيء الموجودة في سورة الحشر, وأية الفيء هذه لعموم المسلمين حتى في العصور القادمة، وألح عليه الصحابة في تقسيم الأرض ولكنه أبى وأيده في رأيه عبد الرحمن بن عوف وشرح الله عز وجل صدر الفاروق لهذا الرأي الذي كان فيه الفلاح والصلاح للأمة المسلمة، وجعل عمر هذا الأرض عليها مقدار معين من المال تدفعه كل عام وهو ما عرف بالخراج، والأرض الخراجية تنقسم إلى نوعين هما:

١. الأراضي التي فتحت عنوة وبقى عليها أهلها دون أن يدخلوا في الإسلام، يفلحونها لحاجة الدولة لخبراتهم على أن يدفعوا خراجها وينتفعوا بالباقي مقابل عملهم في الأرض.

٢. الأراضي التي فتحت صلحًا واتفق المسلمون مع أهلها على أداء خراجها مقابل أن تبقي في أيديهم يتوارثونها طالما يدفعون خراجها ولا يستطيع أحد أن يأخذها.

وكان الخراج أحيانًا في صورة مال أو حاصلات زراعية وكان يجبى بعد الحصاد, وحولُه شمسي لا قمري لارتباط الزراعة بالنظام الشمسي والفصول الأربعة.

مع ملاحظة حقيقة هامة تضمن استمرارية الخراج كمصدر هام من مصادر الأموال في الدولة المسلمة وهي أن الخراج لا يسقط عن الأرض أبدًا حتى ولو أسلم أصحابها، ويعتبر كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة من أفضل وأول ما كتب في مصادر بيت مال الدولة ومصارفه كتبه بناءً على طلب الخليفة العباسي هارون الرشيد الذي أراد ضبط الأمور المالية في خلافته.

كيف تعامل عمر مع أرض الخراج؟

لما اتضح لعمر رأيه في الأرض المغنومة أرسل من قبله رجالاً لمسح أرض السواد 'بالصراق' فبلغت مساحتها ٢٦ مليون جريب، والجريب مساحته تقدر بألف ومائتان متر، أي أن كل ٣,٥ جريب يوازي فدان زراعي الآن، وجعل عمر على كل جريب مقدارًا معينًا من الدراهم يختلف من جريب لآخر حسب طبيعة الزراعة أو الثمار والزروع, فالكرم والنخل تختلف عن القمح, والشعير عن القطن عن القصب وهكذا, وبلغت قيمة خراج أرض السواد قبل وفاة عمر بعام واحد مائة مليون درهم.

وقد بقي لنا من عهد المأمون العباسي أثر تاريخ هام يدل على مقدار الجباية الخراجية من جميع الأقاليم, وقد ذكره ابن خلدون في مقدمته نقلاً عن كتاب جراب الدولة ولما في ذلك الأثر من الفائدة والتوضيح نذكره كما هو:

الإقليم الخراج النقدي الخراج العيني

١. أرض السواد ٢٧٨٠٠٠٠٠ درهم ٢٠٠ ثوب

٢. كسكر ١١٦٠٠٠٠٠ درهم ٢٤٠ رطلاً من التين

٣. كور دجلة ٢٠٨٠٠٠٠٠ درهم

٤. حلوان ٤٨٠٠٠٠٠ درهم

٥. الأهواز ٢٥٠٠٠٠٠٠ ٣٠ ألف زجاجة ماء ورد/ ٣٠٠٠٠ رطل سكر

٦. فارس ٢٧٠٠٠٠٠٠ ٣٠٢٠٠ رطل زيت/ ٢٠٠٠٠ رطل تمر/ ٥٠٠ ثوب

٧. كرمان ٤٢٠٠٠٠٠

٨. مكران ٤٠٠٠٠٠ ١٥٠ رطل عود هندي

٩. السندومايبه ١٢٥٠٠٠٠٠ ٢٠٠ ثوب

١٠. سجستان ٤٠٠٠٠٠٠ ألفان نقرة فضة/ ٤٠٠٠٠ برذون/ ١٠٠٠ رأس رقيق

١١. خراسان ٢٨٠٠٠٠٠٠ ٢٠٠٠٠ ثوب

١٢. جرجان ١٢٠٠٠٠٠٠ ٣٠٠٠٠ رطل أهليلج ونوع من الفاكهة

١٣. قومي ١٠٠٠٠٠٠ ١٠٠٠ ثوب حريري

١٤. الرويان ودنباوند ٦٣٠٠٠٠٠ ٢٥٠ كساء/ ٥٠٠ ثوب/ ٣٠٠ منديل/ ٣٠٠٠ إناء فضة

١٥. الري ١٢٠٠٠٠٠٠ ٢٠٠٠٠ رطل عسل

١٦. همذان ١١٣٠٠٠٠٠ ١٠٠٠ رطل رمان / ١٢٠٠٠ رطل عسل

١٧. البصرة / الكوفة ١٠٧٠٠٠٠٠

١٨. ماسبذان والريان ٤٠٠٠٠٠٠

١٩. شهررؤر ٦٧٠٠٠٠٠

٢٠. الموصل ٢٤٠٠٠٠٠٠ ٢٠٠٠٠ رطل عسل

٢١. الجزيرة ٣٤٠٠٠٠٠٠ ١٠٠٠ رأس رقيق/ ١٢٠٠٠ زق عسل/ ١٠ صقور

٢٢. أرمينية ١٣٠٠٠٠٠٠

٢٣. برقة ١٠٠٠٠٠٠

٢٤. أفريقية 'تونس' ١٣٠٠٠٠٠٠

٢٥. قنرين ٤٠٠٠٠٠٠ دينار

٢٦. دمشق ٤٢٠٠٠٠ دينار

٢٧. الأردن ٩٧٠٠٠ دينار

٢٨. فلسطين ٣١٠٠٠٠ دينار

٢٩. مصر ١٩٢٠٠٠٠ دينار

٣٠ اليمن ٣٧٠٠٠٠ دينار

٣١. الحجاز ٣٠٠٠٠٠٠ دينار

فيكون بهذا الأثر دخل الدولة الإسلامية من الخراج فقط كمورد من موارد الدولة يبلغ ٣١٩٦٠٠٠٠ درهم ٣٨١٧٠٠٠ دينار هذا غير العروض الأخرى المذكورة والتي لو قومت لبلغت مبلغًا كبيرًا كل ذلك يرد إلى بيت مال المسلمين ببغداد.

ثالثا: العشور:

ليست كل أراضي الدولة الإسلامية المفتوحة تعتبر أرضًا خراجية بل هناك نوع آخر من الأراضي لا يفرض عليها الخراج وهي التي يفرض عليها عشر غلتها واسمها الأرض العشرية وهي ثلاثة أنواع:

أ. الأرض التي أسلم أهلها وهم عليها من غير قتال ولا حرب.

ب . الأرض التي لم يعرف لها صاحب ووزعت على الفاتحين بإذن الإمام.

ج . الأرض البور أو الموات التي فتحها المسلمون وقاموا باستصلاحها.

ويلاحظ أنه لا يجوز تحويل الأرض العشرية إلى أرض خراج كما لا يجوز تحويل أرض الخراج إلى أرض عشرية.

رابعًا: الجزية:

تأمر شريعة الإسلام السمحة النقية أنه إذا أراد المسلمون غزو بلد وجب عليهم أولاً دعوة أهله إلى الدخول في الإسلام فإذا لم يسلموا يبقون على دينهم ويدفعون الجزية مقابل دفاع المسلمين عنهم ورد العدوان عن بلادهم وتمتعهم بجميع حرياتهم, وهي تقابل الزكاة المفروضة على المسلمين وتتبين لنا عظمة هذا الدين القويم في أن الجزية لا تؤخذ إلا من الرجال دون النساء والصبيان ولا تؤخذ من مسكين ولا من أعمى ولا من مقعد لا مال له ولا من راهب ولا من شيخ كبير لا يستطيع العمل ولا من المرضى الزمنى, وليس في أموال أهل ذمة المسلمين زكاة، وتتضح أيضًا عظمة هذا الدين في أن مقدارها يختلف من حالة لأخرى حسب يسر الدافع, وقد ذكر أبو يوسف في كتابه الخراج ثلاثة فئات ٥٨ درهمًا على الموسرين، و٢٤ على

المتورطين، و١٢ على العمال، والجزية لا تسقط عن الذمي إلا في حالة واحدة وهي إسلامه 'بخلاف الخراج'.

وليست الجزية من مستحدثات الإسلام فلقد عرفتها الأمم السابقة, فلقد فرض اليونان القدامى على سكان سواحل آسيا الصغرى في القرن الخامس قبل الميلاد ضريبة أشبه بالجزية مقابل حمايتهم من هجمات الفينيقيين كما فرضها الروم على الشعوب التي أخضعوها لحكمهم وتبعهم الفرس، وكانت الجزية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وأبي بكر الصديق على أهل الكتابين اليهود والنصارى, فلما كان عهد عمر بن الخطاب ألحق بهما المجوس عملاً بشدة عبد الرحمن بن عوف, فلما كان عهد المأمون العباسي ألحق بهم 'الصابئة'.

خامسًا: الغنائم:

وهي بحل ما غنمه المسلمون في حربهم ضد الكفار والمشركين من غير الملة, وقد أباحها الله عز وجل لهذه الأمة لما رأى ضعفها وقصر أعمارها وكثرة أعدائها وهي من خصوصيات هذه الأمة الخاتمة ولم تكن لأمة ولا نبي من قبل, وهذه الغنائم عبارة عن المتاع والسلاح والخيل والأموال المنقولة من ذهب وفضة وغير ذلك ولا يستثنى إلا الأرض عملاً بمذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه في جعلها وقفًا لعموم المسلمين.

والغنائم لا يدخل منها في بيت المال إلا الخمس أما باقي الأخماس الأربعة فتوزع على المجاهدين سواء كانوا من الجند النظاميين أو من المتطوعين، أما مصرف الخمس فهو مذكور في قوله عز وجل في الآية رقم ٤١ من سورة الأنفال كما يلي: [١] سهم للرسول صلى الله عليه وسلم ينفق منه على نفسه وأزواجه وفي صالح المسلمين, وقد أسقط أبو بكر هذا السهم بعد وفاة النبي [٢] سهم ذي القربى وهم قرابة النبي صلى الله عليه وسلم من بنى هاشم وبني عبد المطلب وقد أسقط أبو بكر أيضًا هذا السهم [٣] سهم لليتامى [٤] سهم للمساكين [٥] سهم لأبناء السبيل، وعندما جاء عمر اتفق مع الصحابة على جعل سهم الرسول وسهم قرابته في الكراع والسلاح ومصالح المسلمين وهذا ما عليه الراجح من أقوال أهل العلم.

سادسًا: عشور التجارة:

ولم تكن عشور التجارة من الموارد التي ذكرها القرآن الكريم ولكنها أحدثت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أيضًا وسبب ذلك أن أبا موسى الأشعري كتب إليه أن تجاراً من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر . ويعني أرض الحرب كل أرض أهلها غير مسلمين . فكتب إليهم عمر: وخذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين.

وروي أن أهل مدينة 'مبنج' وكانوا نصارى في شمال الجزيرة كتبوا إلى عمر بن الخطاب يقولون: دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا, فشاور عمر الصحابة في ذلك فوافقوا فأصبحت سنة ماضية, وإذا كان القادم بالتجارة من المسلمين فيُسأل هل أدى زكاة هذه التجارة أم لا؟ ويقبل يمينه على ذلك, وهكذا نرى أن العشور تختلف تمامًا عن صورة الجمارك المفروضة اليوم على كل ما يأتي من الخارج سواء كان التاجر مسلمًا أو غير مسلم.

هذا بالنسبة بموارد بيت مال المسلمين أو ما يطلق عليه في الصورة الحديثة بند 'الإيرادات'، أما بالنسبة للمصروفات أو مصارف بيت المال فهي كالآتي:

أولاً: أرزاق الولاة والقضاة وموظفو الدولة والعمال في المصلحة العامة ومن هؤلاء أمير المؤمنين أو الخليفة نفسه.

ثانيًا: رواتب الجند والعسكر, ولم يكن هناك في حياة النبي صلى الله عليه وسلم مرتبات معينة للجند لأن الجميع كانوا جنودًا ولم يكن هناك جيش نظامي بالمعنى المعروف وكان الجميع يأخذ من أربعة أخماس الغنائم والخراج ولما ولي أبو بكر ساوى بين الناس في الأعطيات فلما جاء عمر بن الخطاب قسم العطاء مفضلاً الأسبق فالأسبق وعلى هذه القاعدة كانت المرتبات كالآتي:

١٢٠٠٠ درهم لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ولعمه العباس/ ٥٠٠٠ درهم لأهل بدر وألحق بهم الحسن والحسين، ٤٠٠٠ درهم لمن كان إسلامه كأهل بدر ولكن لم يشهدها وألحق بهم أسامة بن زيد/ ٣٠٠٠ لعبد الله بن عمر وبعض أبناء المهاجرين والأنصار كعمر بن أبي سلمة/ ٢٠٠٠ درهم لأبناء المهاجرين والأنصار/ ٨٠٠ درهم لأهل مكة ٤٠٠/٣٠٠ لسائر الناس/ ٦٠٠ إلى ٢٠٠ لنساء المهاجرين والأنصار/ ٩٠٠٠ لأمراء الجيوش والقراء، وهكذا كان الحال, فلما كثر الناس عن حاجة الغزو

والجهاد ولدواعي قيام الحضارة العمرانية اشتغل كثير من الأمة بغير الجهاد من الصنائع فلجأت الدولة للجيش النظامي وأصبح هناك دواوين خاصة بالجند ينالون منها الرواتب الخاصة بهم على رأس كل سنة.

ثالثًا: تجهيز الجيوش وآلات القتال من سلاح وذخائر وخيل وما يقوم مقامهما.

رابعًا: إقامة المشروعات العامة من جسور وسدود وتمهيد الطرق والمباني العامة ودور الاستراحة والمساجد.

خامسًا: مصروفات المؤسسات الاجتماعية مثل المستشفيات والسجون وغير ذلك من مرافق الدولة.

سادسًا: توزيع الأرزاق على الفقراء واليتامى والأرامل وكل من لا عائلة له, فالدولة تعوله وتكفله, ومن العرض السابق يتضح لنا النظام الاقتصادي الدقيق الذي ابتكرته الحضارة الإسلامية في خطواتها الأولى ومبكرًا جدًا قبل أي حضارة أخرى سابقة أو حتى لاحقة, فهي صاحبة السبق في تنظيم الموارد والمصارف المالية الخاصة بالدولة، ويبقى بعد هذه الموارد والمصارف كلها أنه قد تفاجئ الدولة بكارثة أو مجاعة أو قحط شديد أو وباء قاتل، وهنا يكون ندب الأغنياء من المسلمين من غير إكراه للصدقة والعطاء لإنقاذ جمهور المسلمين كما فعل عثمان بن عفان مع المجاعة في عهد أبي بكر الصديق عندما تصدق بأموال طائلة لنجدة المسلمين وكما فعل عبد الرحمن بن عوف أيام عمر بن الخطاب وأمثال ذلك كثير عبر التاريخ الإسلامي مما يضمن استمرارية تدفق الأموال على خزينة الدولة دون إكراه أو مصادرة أو إجبار.

وهكذا نرى أن المنظومة الاقتصادية في الحضارة الإسلامية كانت تمثل معلمًا بارزًا من معالم تلك الحضارة ضمنت لتلك الحضارة وتلك الدولة المسلمة الاستقلالية والاستمرارية والتوسع والانتشار وأيضًا الشفافية في التعامل والحرية في اتخاذ قراراتها فإن الدولة متى اعتمدت على غيرها في المساعدات والقروض فقد تخلف طواعية عن سيادتها واستقلاليتها لصالح من تأخذ منه الأموال وهذا وقع بالفعل لكثير من بلاد المسلمين الآن وهذا رغم تراثهم العظيم والحافل من رصيد التجربة في الحضارة الإسلامية

=================

#النظام العالمي والعدالة الاجتماعيّة "المساواة" (١/٢)

د.عبدالله بن هادي القحطاني * ١٤٢٦/٦/٤
٢٠٠٥/٠٧/١٠

إن من المسلّمات التي لا يمكن التنازل عنها لأي نظام يصبو إلى العالميّة هو تحقيق المساواة بين كافة الشعوب، وكفالة العدالة الاجتماعيّة لهم. ومن المؤسف فإن مبدأ المساواة في التعامل مع البشر من خلفيات عرقيّة، واجتماعيّة، واقتصاديّة، وثقافيّة مختلفة مفقود في الأيديولوجيات المسيطرة على العالم، فالهند "أكبر ديموقراطية في العالم" –كما يزعمون– تعاني ولقرون عديدة من نظام طبقيّ اجتماعيّ مقيت (cast system)يُعامل بعض أفراده كآلهة (Avatars) بينما يُعَدّ الآخرون، وهم الغالبية الساحقة أقل قدراً من العبيد، ويسمّوْن بطبقة المنبوذين (Untouchables) ليس لهم أية حقوق، وعلى الرغم من أن المسلمين لا يُصنفون دينياً وفقاً للهندوسية ضمن هذا السلم الاجتماعي الظالم، إلا أنهم يعاملون في كثير من أرجاء الهند معاملة جائرة ظالمة، ناهيك عن البقرة التي يقدسها ويعبدها كثير من الهندوس.

وأما النصرانيّة التي لم يُكتب لها أن تُطبّق كنظام حياة متكامل كما في الإسلام إلا أنها تحوي في تعاليمها كثيراً من المبادئ العنصريّة، والتي اتخذها كثير من أتباعها ذريعة لاستعباد الشعوب الأخرى واستعمارها. وفي الجانب الآخر، فإن التعاليم التلموديّة التي تقوم عليها اليهوديّة الحديثة تعلي من شأن اليهود. وتصفهم بأنهم شعب الله المختار، وأما الأمم الأخرى بما فيهم أعوانهم من النصارى، فتصفهم بأنهم أميّون، ويمكن أن تمتد القائمة لتشمل الشيوعيّة، ونداءاتها الجوفاء "بأن الناس سواسية"، والتي واقعها أن هناك" أناساً أكثر سواسية من غيرهم". وأما الرأسماليّة الطاغية بظلمها على العالم اليوم فإنها لا تهدف ولا حتى على المستوى التنظيري إلى تطبيق المساواة؛ لأنها تشجّع الابتزازيّة المطلقة، وتقوم على الاحتكار الذي يؤدي إلى اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء، وينعكس ذلك في كافة مناحي الحياة. بينما الاشتراكيّة والتي –نظرياً– تدعو إلى رأْب الصدع بين الشيوعيّة والرأسماليّة وبلورة

نظمهما في بوتقة جديدة، ما فتئت إلا أن تخبطت في حمأة أخطاء ذينك النظامين. وبهذا لم تنجح في أن تقدم خياراً مقبولاً لنظام عالمي جديد، وبهذا فإن الإسلام يبقى الخيار الأوحد لنظام يسير حياة البشريّة. فهو يحترم حقوق البشر بغض النظر عن اختلافهم، ويعتبرهم أعضاء في أمة عالميّة واحدة تحيا في كنف الله في سلام ووئام، وبعد هذه المقدمة العامة فإنني سوف أتطرق لتعاليم بعض تلك الأنظمة بشيء من التفصيل، ومقارنتها بتعاليم الإسلام، فيما يتعلق بالمساواة بين البشر، بغض النظر عن الفوارق الاجتماعيّة والعرقيّة وغيرها.

١- النصرانيّة ومبدأ المساواة:

فمن خلال استعراضنا لبعض تعاليم النصرانية في كتبها الأصلية نقرر في كونها نظاماً يمكن أن تتطلع إليه الإنسانية ليحقق العدل والمساواة، وخاصة أن دستور أكبر دولة نصرانية في العالم قد تأثر كثيراً بتعاليم الكتاب المقدس عند النصارى، ولتعاليمها تأثير كبير على قادة الولايات المتحدة، ومثال ذلك مقولة الرئيس ريجان في خطاب ألقاه خلال فترة الحرب الباردة، قال فيه:

" لقد بدأت الأمور تتضح، ولن تكون بعيدة الآن، فإن إزاكل (١) يقول بأن النار والحمم ستمطر على أعداء شعب الله، وهذا يجب أن يعني أنهم سوف يُدمرون بالأسلحة النووية .. جوج الأمة التي تقود كل قوى الظلام الأخرى ضد إسرائيل، والتي سوف تأتي من الشمال فإن روسيا هي جوج ... وبما أن روسيا قد حاربت الإله .. فإنها تنطبق عليها أوصاف جوج وماجوج بدقة متناهية "(٢).

وفي الحقيقة فإن رسالة عيسى الحقيقية كانت موجهة لشعب بني إسرائيل في عهده عليه السلام، ومازالت بقايا ذلك في كتب العهد الجديد عند النصارى.

(متى ١٠: ٦.٥)

فهي إذن ليست رسالة عالمية لكل البشر ولكل الأزمنة ، بل محدودة بزمن معين ولشعب بعينه . وفي مقطع آخر من العهد الجديد يشير متى إلى حادثة مرت بعيسى (عليه السلام) حسب زعمهم وفيها إجحاف كبير على نبي الله أعزه الله وشرفه عما يقولون ، واتهام له بأنه عنصري متحيز ، فهو لا يرى أن أحداً أهل لدين الله من بني إسرائيل ، ولاشك في أن ذلك تجن على نبي من أولي العزم كرمه الله بالرسالة ،

وجعل ميلاده معجزة وآية ، ولكنه دليل على أن تعاليم النصرانية الحالية تعاليم متحيزة ولا تسمو لتطبيع المساواة بين البشريّة.

(متى١٥: ٢١ . ٢٦) .

ولاشك أن هذه المقاطع من كتاب النصارى المقدس قد وُضعت لتأكيد اصطفاء بني إسرائيل على كافة الأمم، وبأن ما ينطبق عليهم لا يمكن أن ينطبق على غيرهم مع إيماني بأن نبي الله . شرّفه الله عما يقولون . لايمكن أن يتلفظ بمثل هذه الكلمات التي تدل على احتقار الشعوب الأخرى والانتقاص منهم، وكأنهم ليسوا عباداً لله مثلهم. ولكنه أيضاً دليل على أصول العنصريّة الحديثة المعتمدة على التعاليم النصرانيّة المحرفة. والتي مهّدت للاستعمار والحروب الصليبيّة واستعباد الأحرار من عباد الله. فهذا السيناتور جون كالهون (John Calhoun)من كارولينا الجنوبيّة يقول حول أحقيّة السود بالعبوديّة دون غيرهم:

" إن الحريّة عندما تُعطى لأناس لا يستحقونها فبدل أن تكون بركة فإنها تكون لعنة ... فإن الله خلقهم عبيداً .. وهذا هو وضعهم الطبيعي (٣).

ونحن لا يساورنا أدنى شك بأن التعاليم الأصلية للنصرانيّة كما أتى بها نبي الله عيسى بن مريم . عليه السلام . كانت تعاليم خير وعدل وبركة، ولقد بقيت آثار لتلك الشريعة السمحة في بعض كتب النصارى الموجودة، ولكنه مع الأسف إندرس كثير منها في ظل التغييرات المتكررة في المجامع الكنسية المختلفة، حتى أصبح هناك نسخ متعدّدة من "الكتاب المقدس" بينها مساحات واسعة من الاختلاف، حتى غدا الكثير من فرق النصارى وكأنها أديان مختلفة تماماً.

٢- اليهود ومبدأ المساواة بين الأمم الأخرى :

لقد أعطى (٤) التلمود اليهود مرتبة لا يرقى إليها أحد من شعوب الأرض ولا حتى الملائكة، فاعتبر أن اليهود شعب الله المختار، فاليهود حسب التلمود أقرب إلى أن يكونوا آلهة، أما غيرهم من الأمم فهم " قيوم" غير مؤهلين لمرتبة اليهود، بل أقرب من أن يكونوا أقل من البشر، وخطورة هذه الرؤية العنصريّة هو أن التلمود يعتبر المرجعيّة الأولى عند اليهود.

وهذا إسرائيل شاحاك (المفكر اليهودي البارز) يقول:

" بأن المفهوم التلمودي الأرثوذكسي والذي يُرجع إليه بكثرة في كل الأوقات، هو أن الكون مقسم إلى خمسة أقسام: الجمادات ، النباتات والخضروات ، الحيوانات ، سائر البشر ، واليهود . وأن الفرق الشاسع بين اليهود وسائر البشر مثل البون الشاسع بين البشر والحيوانات " (٥).

ولقد بين الكاتب اليهودي المعاصر هرمن ووك(Herman Wouk) في كتابه هذا هو إلهي (This is my God) بأن:

" التلمود يبقى حتى يومنا هذا القلب النابض للدين اليهودي ، فبغض النظر عن كوننا أورثوذكس، محافظين، إصلاحيين، أو مجرد متعاطفين فنحن نتبع تعاليم التلمود، إنه قانوننا".

ومن وجهة نظر اليهود فإن سبب اختيارهم واصطفائهم على سائر الأمم؛ هو أن غير اليهود لم يكونوا حضوراً عند جبل الطور كما يقول التلمود حيث تم تطهير اليهود من الخطيئة الأصلية التي يلصقونها بحواء؛

عندما اقتربت الحية من حواء نفثت فيها الفحش الخبيث .. وعندما وقف بنو إسرائيل على سيناء تم تطهير ذلك الفحش، ولكن فحش أولئك الوثنيين الذين لم يقفوا على سيناء لم يتوقف.

وعلى أية حال فاليهود وفقاً للتعاليم التلموديّة لا يمكن أن يكون لهم نداً أي من البشر، بل التلمود يتعامل مع غير اليهود وكأنهم ليسوا بشراً، وهذا قد يساهم في تفهم الحقد المقيت الذي يكنّه اليهود للأمم الأخرى؛ فهذا مقطع من التلمود يبين كيف يجب أن تكون العلاقة بين اليهود وغيرهم من الأمم .

الأممي (القيوم) لا يمكن أن يكون جاراً بمعنى تبادل الحقوق والواجبات .. بل إن قوانين الأمميّين لا ترقى إلى ذلك أبداً فلا يمكن أن تكون هناك علاقة مبنية على حقوق مشتركة .(Belc ١٣b)

وبهذا فالتلمود لا يتورع في أن يبيّن حق اليهود في الحكم لصالحهم، وإن كانوا جائرين ظالمين لغير اليهود. فقانون الكيل بمكيالين أمر مشروع جداً عندما يكون ذلك في صالحهم وضد أعدائهم من غير اليهود، وقد يساهم هذا في تفهم الصلف الصهيوني في التعامل مع الفلسطينيين اليوم، وتجاهلهم لقرارات الأمم المتحدة، فهي

بالنسبة لهم منظمة "قيوميّة" أمميّة يذعنون لأحكامها عندما تكون لصالحهم فقط . فمنظمة العلاقات الأمريكيّة الاسرائيليّة IPAAC)) المعروفة باللوبي الصهيوني الذي يستخدم نفوذه المذهل في الضغط من أجل ألاّ تطبق على إسرائيل من خلال مجلس الأمن أو غيره أية عقوبات أو إدانات قوية، وبما أن غالبية الناشطين اليهود في أمريكا من الصهاينة، فإن التلمود هو مرجعهم الأول في تقنين الظلم والكيل بمكيالين إن لم يكن بمكاييل كثيرة. وهذا المقطع التالي من التلمود يظهر غاية الجور وانعدام العدل والمساواة بين اليهود وغيرهم من الأمم،

عندما تقع مقاضاة بين إسرائيلي ووثني heathen . مع العلم أن هذا المصطلح يُطلق على النصارى أيضاً . فإن أمكن الحكم لصالح اليهودي وفق قانون إسرائيل فلا بأس فأحكم له وقل هذا "شرعنا"، وإن كان بالإمكان الحكم لصالح اليهودي بقانون الوثنيين فاحكم لليهودي، وقل للوثني"هذا شرعكم" ، وإن لم يكن ممكناً الحكم لليهودي بناءً على أي الشرعين فلتجد ذريعة للتحايل عليهم . Babakama١١٣))(٦a)

ومن أمثلة احتقار اليهود لغيرهم واعتبار أنفسهم أمة مختارة على سائر البشر، أن تلمودهم يتحدث عن سائر الأمم بأنهم في منزلة منحطة ، ولا يمكن قبولهم كيهود حتى لو رغبوا ذلك ، فالتلمود يحرم تدريس التوراة لغير اليهود .

ووفقاً للموسوعة اليهودية :

فإن التلمود يحرم تدريس الأمميين التوراة (ميراث أبناء يعقوب) بل إن ر. جوهان يفتي بأن من يفعل ذلك "يستحق القتل " (٧) .

فبلا أدنى شك فإن نظاماً عنصرياً بهذه الدرجة لا يمكن أن يتقبله أحد كنظام حياة عالمي ينظم حياة كافة البشر . ولهذا فلا عجب بعد ذكر هذه المقتطفات البسيطة والمحددة من التلمود حينما تستمع لتصريحات القادة الصهاينة المتعجرفة والجائرة في عدم احترام حياة وحقوق غير اليهود ، وكأنهم ممنوحون دماءً خاصة . وتعاملاً خاصاً يميزهم لأنهم يهود على سائر الأمم ، فهذا مناحيم بيغن (الرئيس السابق للكيان الصهيوني) يرد بصلف وتعجرف على انتقادات واستنكارات الصحفيين والمنصفين بل كافة دول العالم حول مذبحة صبرا وشاتيلا التي قُتل فيها المئات من الأبرياء أطفالاً وشيوخاً ونساءً ، قائلاً :

قيوم "غير اليهود" يقتلون قيوم وتريدون أن تحاسبوا اليهود على ذلك ؟! (٨)

وما المداهمات الإجرامية التي تقوم بها القوات الصهيونية في قتل الفلسطينيين وتهجيرهم وهدم بيوتهم وتشريدهم وجرف مزارعهم وأشجارهم التي قد تأصلت جذورها في أراضيهم لعشرات السنين قبل احتلال اليهود لبلادهم، إلا مثالاً حياً أمام العالم الذي انعدمت فيه أي مصداقية لحقوق المسلمين لتعاليم التلمود العنصريّة.

بل إن شارون وتعامل حكومته مع الفلسطينيين بأقصى درجات الإرهاب على مسمع ومرأى من العالم، ومقتل داعية حقوق الإنسان الأمريكية دهساً بالجرافة أمام أعين الصحفيين والمصورين والعالم كله- إلا مثالاً لتلك الرؤية العنصرية الحاقدة التي تجذّرت في العقليّة الصهيونيّة المستشرية للحقد والكراهية والظلم . وما اغتيال الشيخ أحمد ياسين . الطاعن في السن المصاب بشتى العلل والمشلول تماماً . بأمر شارون نفسه رئيس وزراء الدولة الديموقراطيّة الوحيدة والمحافظة على حقوق الإنسان في الشرق الأوسط كما يزعم . بدماء باردة بل بكل فخر واعتزاز ودون أي مبالاة برد فعل واستنكار العالم كله إلا دليل آخر على فساد الفطرة، وتأصل نظرة الحقد والاحتقار لكل ما هو غير يهودي، ومحاولة استغلاله وابتزازه بأشرس الطرق وأخس الوسائل.

ومع هذا قد يقول قائل من محبي السلام واللاهثين وراء سراب اليهود: إن تلك التعاليم آثار قديمة قد لا يكون لها تأثير كبير في واقع الممارسات الإسرائيليّة في واقعنا اليوم. فإسرائيل دولة ديموقراطيّة، وتلك تعاليم عنصريّة راديكاليّة، فلنستمع سوياً لتصريحات رئيس وزراء إسرائيل لما سببوه من دمار وقتل يفوق الخيال بغزو لبنان بلد ذا سيادة وحرمة .. فلقد رد بيغن بصلف على تساؤلات الأمريكيين حول المذابح التي ارتكبت قائلاً:

لا نشعر نحن بالمسؤولية لتبرير ما نقوم به للآخرين .. نحن فقط نبرر ذلك لأنفسنا . (٩)

وبمفهوم تلمودي فإن كلماته تعني " أن اليهود أكبر وأعلى من أن ينتقدهم القيوم (غير اليهودي) وإن كان سيد نعمتهم وحامي ديارهم وحليفهم الأول" ومثال آخر على ذلك التفكير العنصري الصهيوني هو ما نشرته صحيفة صن داي (Sunday) حول الحاخام والكيميائي اليهودي (موشيه أنتل مان (Moshe Antelman)) والذي

يفخر بأنه استطاع تطوير رصاصة تحتوي على شحم الخنزير ولكن لم فعل ذلك؟

تقول الصن داي:

إن (أنتل مان) حاخام وكيميائي يهودي طوّر رصاصة مشبعة بشحم الخنزير لاستخدامها ضد الملتزمين من المسلمين، والذين يؤمنون بأن أي اتصال مع الخنزير يفقدهم الفرصة في دخول الجنة، حسب زعمه .. ولقد قدم هذا الحاخام "الطيب" اختراعه هدية لمستوطني الضفة الغربية، وبأمل أن يحصل على اهتمام البنتاغون في الاستفادة من هذا الاختراع الخنزيري العسكري (١٠).

وهذا مثال آخر سقناه عن كيف ينظر النخبة من اليهود ورجال الدين من الحاخامات للأمم الأخرى من غير اليهود.

كما يبين حقيقة اليهودية المعاصرة شاهد من أهلها، ألا وهو المفكر السياسي العالمي اليهودي الأمريكي الجنسيّة وأستاذ علم اللغة الشهير في معهد ماستشوستش للتكنولوجيا، البروفسور نعوم لتسوسكي Noam) Chomsky) في مقابلة أجراها معه ديفيد بارسا ميان (David Barsamian)حيث أجاب تشوسكي على سؤال وجه له حول نظرة اليهود للناس الآخرين فقال:

"لو نظرت إلى الثقافة اليهودية التقليدية سواء كانت في أوروبا الشرقية أوفي شمال أفريقيا ، لوجدت أنها تعدّ النصارى و غير اليهود وكأنهم مخلوقات مختلفة أقل مستوى من اليهود ... ولهذا فعلى سبيل المثال فإنه لا ينبغي للأطباء اليهود أن يعالجوا غير اليهود إلا إذا كان ذلك يعود بالفائدة على اليهود، ولهذا فإن موسى بن ميمون " الطبيب اليهودي الشهير" كان يعمل لدى السلطان صلاح الدين الأيوبي لأن اليهود سوف يستفيدون من هذا العمل وليس العكس (١١).

وعندما سئل تشوسكي هل تلك النظرة الدونيّة من قبل اليهود جزء من تعاليم اليهوديّة الأصليّة أم جزء من الثقافة اليهوديّة الشائعة؟ .فقال:

إنها في الحلقة Halakah(التعاليم الحاخامية) ... هناك الكثير من هذا، لقد كانوا أقلية مضطهدة ، ولكنهم كانوا عنصريين في نفس الوقت ، فهم يصبحون عنصريين عندما يصبحون أغلبية غير مضطهدة (١٢) .

ومما يبرز أهمية إظهار التعاليم والتشريعات العنصريّة اليهوديّة هو تشدّق كثير من الساسة والإعلاميين والمثقفين الأمريكان بأن حضارتنا هي "حضارة يهودية . نصرانية " (Judo-Christian) فإن كانت الحضارة الغربية حسب ما يقولون، فإنها بلاشك هجين غير متناسق من حضارتين (إن صحّ التعبير) متناقضتين في ركائزها العقديّة والأخلاقيّة، وإن جمعتهما أساطير ونبوؤات توراتيّة تفوح منها رائحة العنصريّة والاحتقار للأمم الأخرى، و بدأت طوائف نصرانيّة متطرفة أكثر من أي وقت مضى تربط مستقبلها السياسي وهيمنتها على العالم بإسرائيل وأساطيرها؛ إذ أدخل اليهود كجزء أساسي في منظومتها للهيمنة العولمية. ومن أولئك من يسمون "بالنصارى الصهاينة أو اليمينيين الجدد" . وهم من يحكم أمريكا في الوقت الحاضر، لقد استطاعوا السيطرة على حزب الجمهوريين في الولايات المتحدة لما يزيد عن ثلاثة عقود من الزمن، ولهم امتداد يتزايد في مناطق أخرى من العالم وخاصة أوروبا.

---

* أ ستاذ مشارك جامعة الملك خالد – أبها

١- أحد الحواريين عند النصارى .

٢- Jim Hill and Raud Cheadle's (١٩٩٦) The Bible Tells Me So. Anchor Book : New York (P. ١٢٩).

٣- Jim Hill and R. Cheadle, P.

٤- عالمية الإسلام ص ١٣ ترجمة الحاشية رقم

٥- Israel Shahak. "Israeli Apartheid and The Intifada" Race & Class, ٣٠)١ (١٩٨٨ :١-١٢ .P)٣ .

٦- The Jewish Encyclopedia .ed.Cyrus Adler, Isidore Singer, New York, London: Funk - Wagnalls, ١٩٠١-١٩٠٦ P.٦٢٠,

٧- T. Pike, (٦١), Sanh. ٦٢٣) from The Jewish Encyclopedia (p. S٩ Hagigah,a١٣a .

٨- T. Pike, p. ٥٣

٩- T. Pike. P. ٧٢. from New York Times, ٥ August ١٩٨٥, p. ١, and National Geographic, April ١٩٨٣, p. ٥١٤
١٠- Sunday. August ١٩٩٤, ٢٨, p. ١٨,
١١- David Barsamian and Noam Chomsky. Propaganda and The Public Mind. South Press : Cambridge, ٢٠٠١, p ٨٥
١٢- Barsamian and Chomsky,p. ٨٥

النظام العالمي والعدالة الاجتماعيّة "المساواة" (٢/٢)

د.عبدالله بن هادي القحطاني * ١٤٢٦/٦/١٤
٢٠٠٥/٠٧/٢٠

٣.الهندوسيّة ومبدأ المساواة :

تحوي تعاليم الهندوسيّة نظاماً اجتماعياً طبقياًً دينياً صارماً وجامداً يفتقر معه إلى أدنى مستويات المساواة والعدالة الاجتماعية، وقد أشار إلى ذلك المستشرق الفرنسي جوستاف لابون (Gustave lebone) في كتابه حضارة الهند أن هذا النظام الطبقي العنصري يصنف الناس إلى أربعة طوائف:

١. البراهما: وهم طبقة سدنه المعابد والرهبان.
٢. الكشتريا: وهم طبقة الحكام والقادة العسكريين.
٣. الفايزا ياس: وهم طبقة التجار والصناع والزراع.
٤. السودراس: المنبوذون وهم الطبقة الدنيئة ودورهم حسب التعاليم الهندوسية خدمة الطبقات العليا، فهم لم يخلقوا إلا لخدمتهم (١).

ولكل طبقة من هذه الطبقات عالم خاص بذاته، مختلف تماماً عن باقي الطبقات، فهذا النظام يعكس أسوأ صور التمييز العنصري وعدم المساواة، ولقد جلب هذا النظام الاجتماعي الطبقي الجائر أحد مؤسسي الهندوسية مانوManu)) خلال حقبة ازدهار الحضارة البراهمة، ثم أصبح جزءاً من الديانة الهندوكية. و يشير جوستاف لوبون إلى بعض تعاليم مانو فيقول:

" لقد أعطى هذا القانون للبراهما تميّزاً وحصانة ومكانة عالية مما رفع درجتهم لتصبح موازية للآلهة .. فكل من يولد برهمياً فهو أفضل المخلوقات على الإطلاق، فهو

مالك كل شيء.ومهمته الأساسية هو حماية الشاستراز (التعاليم الهندوسية التي تعطي الشرعية لسلطة البراهما). فبينما التعاليم الهندوسية تؤكد أن: "كل ما على الأرض ملك للبراهما؛ لأنهم الأعلون بين كل المخلوقات، وكل الأشياء لهم".

أما حال المنبوذين (سودراتر) في الديانة الهندوسية فلا يمكن أن يتصوره خيال أو يقبل به عقل، فهم حسب تعاليم الشاستراز أقل درجة من البهائم. فلا يجوز للسودراتر أن يمتلكوا شيئاً، وحتى لو سنحت لهم الفرصة، لا ينبغي لهم فعل ذلك؛ لأن ذلك يؤذي البراهما، فلا شرف أعظم للسودراز من أن يسهروا على خدمة البراهما ... بل إن التعالم الهندوسية توكد بأن "فدية قتل كلب أو قط أو ضفدع أو سحلية أو غراب أو بومة وقتل السودراز سواء" . فلايمكن أن يتصور عاقل أن هذا الدين صالح للبشرية؛ فهو يفتقر لأدنى مسلمات المساواة والعدالة الاجتماعية، وقد احتوت الهندوسية نوعاً جديداً من التمييز العنصري ضد الأقلية المسلمة "أكبر أقلية في العالم" (١٢٠)مليون نسمة، "فلقد تبنت الأحزاب الهندوسية المناهضة للمسلمين في الهند سياسة تفرقة عنصرية دينية نحو المسلمين. إذا استمرت فسوف تهدد كيان الهند كدولة تجمع أدياناً مختلفة "(٢).

٥.الرأسمالية :

يقول جورج تشرش (George Church) في مقاله سباق التسلح الآخر ...

أن الرأسمالية قد أصبحت نظام حياة الملايين من البشر وهم يسعون جاهدين لتشجيع انتشارها والدفاع عنها بحماس شديد. وهذا ما حدا بملايين البشر للانبهار بالرأسمالية ، ويبدو أن غالبية أولئك قد نسوا عشرات السنين من العبودية والمستعمرات المبنية على الجور والتميز العنصري ضد السود وغيرهم من الأقليات، ويبدو أن قليلاً فقط من بين الرأسماليين قد استوقفتهم معدلات الجريمة والاغتصاب والاعتداء على الأطفال المتصاعدة بالإضافة إلى التفرقة العنصرية الظاهرة والمستترة وسوء المعاملة لكبار السن والمشردين ..(٣)

ولا يخفى على أحد ما ينتج عن الرأسمالية من جور اقتصادي وخاصة فيما يتعلق بالأقليات والفئات غير المشاركة في الإنتاج مثل كبار السن والأطفال. ولقد نشأت مشكلات اجتماعية جديدة بسبب التغيّرات الكبيرة التي شهدها المجتمع الأمريكي

خلال المئة سنة الماضية؛ فلقد نتج عن هجوم الشركات الكبيرة على اقتصاد الأسر المعتمدة على الزراعة والمجتمعات الزراعية الصغيرة مشكلات اجتماعية واقتصادية كان لها تأثير واضح على كبار السن. وعلى الرغم من أن النظام الرأسمالي –كمنهج حياة– قد حقق مكاسب مادية كبيرة لعدد قليل من أفراد المجتمع، إلا أن الغالبية قد عانت من أعراضه الجانبية، ومن بينها كثرة تعداد كبار السن وقلة العناية بهم، وارتفاع عدد الأسر بعائل واحد وغالباً ما تكون المرأة، ومشاكل الأطفال، والأقليات. فلقد أصبح من المظاهر المعتادة أن كثيراً من كبار السن بين المشردين الذين لا مأوى لهم في أواسط كبريات المدن الأمريكية، وقد تنبأ عدد من علماء الاجتماع الأمريكيين بأن مشكلة كبار السن سوف تصبح أكثر تفاقماً في المستقبل (٤).

وفي الجانب الآخر فإن معدلات المواليد في تناقص متزايد، وارتفاع أعداد كبار السن دليل على أن مشكلة كبار السن سوف تتفاقم في السنوات القليلة. لقد كانت نسبة المسنين في الولايات المتحدة خلال عام ١٩٠٠م ٤% فقط من تعداد المجتمع آنذاك، ومن المتوقع أن يبلغ عدد المسنين عام ٢٠٣٠م (٥٠ مليون) أي ما يقارب ١٧% من تعداد المجتمع الأمريكي.

فلنتصور حجم المأساة التي يواجهها ما يقارب خمس المجتمع في وقت يواجهون فيه أفظع صور اللامبالاة والممارسات اللاأخلاقية من اعتداءات وسطو وقتل وتمييز وتخلٍّ من قبل الأولاد، فأي عدالة يحققها هذا النظام الذي يظلم الطفل والشيخ والمرأة. ويحافظ على حقوق القادرين على العمل والإنتاج فقط. وكنتيجة متوقعة للمعاملة الجائرة والتمييز العنصري فإن الأمريكيين من أصول أفريقية "السود"، يواجهون مشاكل مضطردة في مجتمع انعدام المساواة. وعلى الرغم من أن الأمريكان البيض في بعض طبقاتهم الدنيا يواجهون نفس المشاكل ولكن بنسب متفاوتة. فإن ٦٩% من المواليد السود هم أبناء زنا . وثلثي الأطفال السود يعيشون في بيوت ذات عائل واحد (Single Parent homes)أي برعاية الأم غالباً فقط دون وجود أب، أو الأب فقط، وهذه الحالة تشكل نسبة ضئيلة جداً. كما أن من المتوقع أن يُودع ٣٣% من الأولاد السود تحت سن السادسة عشر السجن لجرائم مختلفة. ويوجد أربع من كل عشرة رجال سود إما في السجن أو في مرحلة الاستئناف أو تحت مراقبة

الشرطة الدائمة، وبأسباب تلك الممارسات العنصرية بالإضافة لعوامل أخرى فإن أعلى معدلات تعاطي المخدرات وترك الدراسة والاغتصاب تنتشر بين الأمريكان السود (٥).

وبدلاً من بحث الأسباب لهذه الإحصاءات المخيفة، وإيجاد الحلول العادلة فإن مرشح الرئاسة السابق والمستشار لثلاثة رؤساء في الولايات المتحدة الأمريكية السابقين باتريك بوكانن (Patrick Buchanan) يتحدث عن تلك الإحصاءات بأسلوب اتهامي لطبقة السود المسحوقة ويلومها على ما هي فيه من ظلم وفساد (٦).

فلقد واجهت تلك الأقليات العبوديّة والرق وأسوأ أصناف العنف والتمييز العنصري، وهي الآن تواجه التميز العنصري والتجاهل المؤسساتي غير المعلن. إن ما يحتاجون إليه هو جهود صادقة ولكن عادلة تزرع المساواة والعدل وتعوّضهم عن قرون من الظلم والقهر والعنصرية، وليس كيل التهم ولوم الضحية على ما جنته يد الظالم، وبهذا فإن نظاماً جائراً على أهله وفي موطنه لايمكن أن يقيم العدل والمساواة بين شعوب الأرض، فالدعاوى الإعلامية للحرية والإصلاح والعدالة الاجتماعية إنما هي أساليب ملتوية لفرض الهيمنة الأمريكية الرأسمالية الإمبريالية على شعوب الأرض لسلبها مقدراتها وخيراتها بل إنه استعمار جديد والعراق وأفغانستان أكبر شاهد على ذلك.

٦.١الإسلام والمساواة :

إن من البدهي على كل نظام يدعي العالمية أن يحترم قدرات أتباعه، وأن يقدّر إنجازاتهم بغض النظر عن أعراقهم وخلفياتهم الجغرافية، أو الاجتماعية أو اللغوية أو غيرها. فهو يقيّم الناس حسب ما يستطيعون فعله، لا وفق ما جبلوا عليه من صفات خلقية لوناً كانت أم عرقاً. فالناس في نظر الإسلام سواسية أما الاختلافات الطبيعية بين الناس فإنها لمقاصد وحكم تتطلب منا التدبر والتقدير لا الازدراء والاحتقار وسلب الحقوق.

قال الله : (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِلْعَالِمِينَ) [الروم:٢٢] وقال سيد الخلق صلى الله عليه وسلم: "الناس سواسية كأسنان المشط" "لا فرق بين عربي ولا عجمي ولا أحمر ولا أسود إلا بالتقوى".

وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم".

فالإسلام يرفض كل أشكال الاستعلاء على الخلق والتكبر والتمييز العنصري البغيض الذي ينقص من آدمية الإنسان وتكريمه الرباني.

قال الله تعالى:(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) [الاسراء:٧٠] وقال سبحانه:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...)[الحجرات: من الآية١٣].

ولقد أذهلت المساواة كما يدعو إليها وآلياتها العملية والتطبيقية واحدة من أكبر شعراء الهند ساروجيني نايدو (Sarojni Naidu) حتى عبرت عن هذه المساواة بقولها:

إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي أرسى وطبق الديموقراطية الحقيقية؛ فالمساواة الإسلامية تتجلى كل يوم خمس مرات، عندما ينادى المؤذن للصلاة فيجتمع المسلمون زرافات ووحداناً، حينها يقف الحاكم والمحكوم جنباً إلى جنب ساجدين لله ومردّدين "الله أكبر" لقد أذهلني هذا التضامن الحقيقي الذي يجعل الإنسان أخاً فطرياً لأخيه الإنسان، فعندما نقابل مصرياً أو جزائرياً أو تركياً في لندن مثلاً، فمصر مجرد بلد ذاك الشخص وكذلك الهند أو تركيا".

لقد كان المجتمع المسلم منذ ذلك العهد الأول يجمع في كنفه كافة أصناف الناس يعيشون في وئام ومساواة حقيقية، يعبد بها المسلم نفسه لخالقه، فسلمان منا أهل البيت، و بلال سيدنا، مجتمع تسامت فيه النفوس المؤمنة على كل تصنيفات الجاهلية قديمها وحديثها. بل إن بعض الأرقاء المسلمين يفضل الرق على الحرية لما يحصل له من الأجر، ولما كفل له هذا الدين من حقوق غاية في الرقي والإنسانية، إنها قوانين ربانية ثابتة لا تسير وفق هوى الإنسان ومصالحه المتغيرة، بل تشريعات ربانية مطلقة لا تحدها أي حواجز نسبية مقيدة.

ولقد أذهلت تلك الأسس العالمية للمساواة بين الخلق في شريعة الإسلام مفكرين وعلماء كثر، فهذا ر.ل.ميليما رئيس القسم الإسلامي في المتحف الهولندي بامستردام، يقول:

إن مبدأ الإخوة الإسلامية الذي يضم تحت جناحه كافة البشر بصرف النظر عن اللون والجنس ..هذا المبدأ الذي جعل الإسلام الدين الوحيد القادر على تطبيق الأخوة في حيز الواقع لا في المجال النظري فحسب؛ فالمسلمون في جميع أنحاء العالم يعرفون أنهم جميعاً إخوة في الله .

كما يقول لايتز:

في المساجد ترى المساواة التامة بين المصلين فلا يوجد فيها مقاعد خاصة بأحد، وأي إمام يمكنه أن يؤم المصلين ولا يوجد أبهج من منظر جماعة المسلمين يصلون وهم خاشعون صامتون"

وهذه ديبرا بوتر (Deborah Potter) تقول:

الإسلام نظام عالمي وديني كوني جاء لجميع الناس في كل العصور، ولم يحدث أن أقرّ الإسلام آية تفرقة بسبب الوقت أو الوطن أو الثقافة أو الطبقة، فكل مؤمن بالحقيقة مسلم يتمتع بالأخوة الإسلامية مع كافة الناس في كل عصر ومصر, هذا هو سر قوة الإسلام".

وما تخاذُل المسلمين وظهور بعض الممارسات التي لا يقرها الإسلام إلا بسبب انحطاطهم. فالإسلام لا يحوي في تشريعاته ما يقر أي سوء معاملة أو تمييز ضد أحد للونه أو عرقه أو لغته أو لأي صفة جِبليّة جبله الله عليها.على عكس ما كان الأمر عليه في أديان ونظم تقر بصفة أو أخرى في قوانينها تفرقة عنصرية، أو تفضّل طبقة على طبقة لأسباب عنصرية تتنافى مع مبدأ المساواة بين البشر على منهج من العدل.

فالإسلام يبقى شامخاً دين العدالة الاجتماعية والمساواة بين الناس، وهذا أحد أهم الخصائص المميزة لهذا الدين العظيم، وقد انجذب إليه بسبب هذا المبدأ الأساس آلاف المهتدين من شتى أصقاع الأرض، ومن خلفيات دينية وعرقية واجتماعية مختلفة، ليجدوا مكانهم ضمن المنظومة الإسلامية العالمية السمحة من بلال وعمار إلى مالكوم إكس وسراج وهاج .

كل تلك المبادئ الإسلامية العظيمة للمساواة التي لم تستطع أن تسمو إليها أي حضارة إنسانية على مدار التاريخ، نشأت في بيئة مريضة بأدواء العصبيات

وضروب الضلال في اختلاف من العبادات والخرافات. فلو جرت الأسباب التي ندركها في مجراها المعهود فالدعوة التي تأتي من قبل هذه البيئة لن تدعو إلى إله واحد يتساوى لديه جميع الناس، ولن تمنح الإنسان حقاً يتساوى فيه جميع الناس, و لكن هذه الدعوة جاءت بهذا وذاك: جاءت بالدعوة إلى رب العالمين، والى الحق الذي يتساوى فيه أبناء أدم وحواء، وجاءت بذلك لأن إنساناً واحداً خلق الله فيه من قوة ما يكافىء تلك العصبيات جميعاً، وتلك الضلالات جميعا ويتغلب عليها ويجريها في غير مجراها بعون الله وتوفيقه. ذلك هو رسول الله .

|١|٢|

---

* أستاذ مشارك جامعة الملك خالد - أبها

١- Gustave Le Bone. Les Civilization de I'nde, p. ٢١١

٢- Khalid Al-Maeena. "Victims of India's Religious Apartheid." Arab News, Nov. ٢٩, ١٩٩٤, p. ١٠

٣- George Church. "The Other Arms Race." Time, Feb. ٦, ١٩٨٩,

٤- Sullivan, etal. Social Problems: Divergent Perspectives. (John Wiley & Sons, New York. ١٩٨٠, p. ٣٤٠,

٥- William J. Bennett. Index of Leading Cultural Indicators. New York: Broadway Books, ٢٠٠٠, pp. ٥٠-٥٧,

٦- Patrick J. Buchanan. The Death of the West. Thomas Dunne Books: New York, ٢٠٠٢, pp. ٢١٨-٢٢٥.

================-

#بعث الحضارة الإسلاميّة من جديد... دور النُّخبة

د. بدران بن الحسن ١٤٢٦/١١/٩

٢٠٠٥/١٢/١١

لقد قضى العالم الإسلامي وقتاً طويلاً من عمره الحضاري باحثاً عن نقطة بداية لإعادة بناء حضارته من جديد، وإعطاء نفسه الحضاري دفعة تخرجه من حالة التراوح والتبطل التي استنفدت قدراته في جهود مضنية.

وكان لمالك بن نبي –عليه رحمة الله– رأي في مسألة التخلف الحضاري الشامل التي يعانيها العالم الإسلامي، ورأى منذ الأربعينيات من القرن الماضي أن العالم الإسلامي يهدر طاقته في حل مشكلات جزئية متغاضياً عن المشكلة الكلية التي تحتوي كل تلك المشكلات، ألا وهي مشكلة الحضارة.

ورأى أيضاً أنه طالما أن العالم الإسلامي يفتقد إلى الرؤية الواضحة لما يريد أن يقوم به فإنه لن يتمكن من صياغة مشروع للنهضة أو الخروج من التخلف، ولن يتمكن من تحديد وجهته ولا بناء منهج لبناء الحضارة، وذلك في تصوره راجع إلى أن "الرؤية تحدّد المنهج والوجهة".

وبعبارة أخرى، فإن تصورنا لمشكلة العالم الإسلامي تصوّر جزئي ومفكّك، ولذلك فإن فهمنا للمشكلة فهم جزئي وعقيم؛ لأنه لا يحيط بكل أبعاد المشكلة، ولذلك فإن الحلول التي طُرحت كلها حلول جزئية؛ إن اهتمت بجانب أغفلت –عن قصد أو غير قصد– جوانب أخرى لا تقل أهمية عن الجانب الذي أولته اهتمامها. فأنتجت هذه التصورات الجزئية رؤى متناقضة ومشوهة وقاصرة في أغلب الأحوال، وغير قادرة على صياغة منهج لحل المشكلة الأم، ولا لحل المشكلات الجزئية المتراكمة.

ولذلك فإن أسئلة كثيرة تطرح نفسها بقوة على كل متأمل في ما نحن فيه من تردٍّ وتهلهل وتخلف شامل في العالم الإسلامي؛ فلماذا لم نستطع امتلاك هذه الرؤية المتكاملة لمشكلتنا في العالم الإسلامي؟ ولماذا لم نستطع بناء منهج قادر على الخروج بنا من المحنة التي نحن فيها؟

لعل هذا النوع من الأسئلة تراود كل من اهتم بأمر المسلمين، وسعى إلى المساهمة في فك خيوط الأزمة التي أُحكمت. ولا شك أن كثيراً من الإجابات راودت كل من طرح هذه الأسئلة على نفسه.

وفي تصوري، فإن الإجابة عن الأسئلة السابقة يمر حتماً بالإجابة عن سؤال أو أسئلة أخرى تتعلق بمن يتولى صياغة الرؤى الحضارية، ومن يقوم على بناء مناهج التغيير؟ هل هم عامّة الناس؟ أم هم النخبة من المجتمع؟

وإذا استقرينا التاريخ؛ تاريخ التغيرات الكبرى في تاريخ المجتمعات رأينا أن هناك دائماً "فرقة" تقوم بالمبادرة بحمل لواء التغيير، وتتبنى الأفكار والمشاريع والبرامج الجديدة التي تسوّغ على وفقها نمطاً جديداً للتفكير وصورة جديدة عن العالم، وبالتالي منهجاً جديداً لمعالجة الأمور.

ولنا في الأنبياء وأتباعهم أسوة حسنة، ولنا في تاريخ النبوات، وتاريخ الأفكار الكبرى، والأمم التي تعاقبت الريادة الحضارية في العالم، والمجتمعات التي سادت ثم بادت. لنا في كل هؤلاء خير دليل على أن هناك "نفراً" من كل "فرقة" يقومون بتغيير "القوم" وبصياغة منهج جديد للحياة.

ولذلك فإن مسألة القيادة التي هي النخبة أو النفر أو الفرقة التي تتولى شؤون القوم، وإنذارهم وإبلاغهم، وقيادتهم بالتعبير القرآني- هي المسألة المركزية في صياغة الرؤية والتصور الكلي الشامل من أجل أن تتبنى منهجاً يخرج قومها من ظلمات الفوضى إلى نور المنهج الواضح الأسس، البيّن الخطوات من أجل تحقيق مبادئ النخبة والمجتمع في أرض الواقع.

وفي هذا السياق فإن المشكلة في تصوري تتعلق بنمط القيادة التي تقود عملية التغيير الحضاري، ومدى وعيها واستيعابها للمعطيات المختلفة للواقع المعاصر، ولما يتطلبه القيام بمشروع بناء الحضارة من جديد من وضوح للرؤية وتوفر منهج شمولي متكامل للتغيير.

والحديث هنا يتجه أساساً إلى العلماء والمجتهدين والمثقفين، إلى النخبة التي تقود المجتمعات الإسلامية، ومدى قدرة هذه القيادات على قيادة مشروع بناء الحضارة الإسلامية من جديد، إن نظرياً أو عملياً.

ذلك أن مستقبل العالم الإسلامي يُناط بالقيادة التي تمتلك القدرة على شق الطريق اليبس في بحر الأزمة الخانق، وأن تكون قادرة -في رأي الجماهير من الناس- على فعل المعجزات التي تحوّل مسار التاريخ في لحظاته المدلهمة، وتنير الدرب بفعل

تجاوزها ليوميات الأحداث، من خلال قدرتها على استشراف المستقبل، ورسم مسارات العمل المستقبلي، والحد من الخسائر، وتحفظ المحتوى العقائدي لما تحمله من أفكار، حتى لا يفرغ من محتواه أو يحوّر أو يبدّل.

غير أن مؤسساتنا بكل تنوعها؛ الدعوية والسياسية والثقافية والعلمية والاجتماعية وغيرها، غير قادرة اليوم على أن تواكب نمط التحولات السريعة والهائلة التي تحدث بفعل عصر العولمة الذي نعيشه، ولذلك فهي غير قادرة على صياغة المجتمع وفق التطلعات التي تؤمن بها.

كما أن النخبة بمختلف طبقاتها اليوم في عالمنا الإسلامي غير قادرة على أن تحمل في وعيها آمال الجماهير وغير قادرة على توجيه هذه الجماهير أيضاً. بل إن هذه النخبة التي من المفترض فيها أن تكون هي المعبر عن آمال وتطلعات الناس من جهة، وأن تكون هي مجسّات الوعي من جهة أخرى قد انغلقت على نفسها، ولم تعد قادرة على متابعة التغيرات والأحداث الكبرى التي تجري في عالم اليوم.

ولذلك فإن النخبة في العالم الإسلامي اليوم مدعوة إلى مراجعات جوهرية لكل الأطروحات التي تتداولها منذ أمد، وعلى مختلف الأصعدة، ومن كل الأطراف. وعلى النخبة أيضاً أن تعيد ترتيب أولوياتها، ووضع خط فاصل وواضح بين القيم المبدئية التي لا يمكن أن تتغير وبين المواقف والخطوات الإجرائية التي يمكن التراجع عنها أو تغييرها أو تطويرها أو تجاوزها إلى ما هو أكثر نضجاً ونجاحاً وقابلية لتحقيق مقاصد القيم الأصلية المبدئية وتحقيق مصالح الأمة.

وعليه فإن النخبة مطلوب منها اليوم أن تعيد تشكيل مواقفها وفق المبادئ الكبرى للأمة بشكل واضح وصريح ومؤسس ومنهجي، وألاّ تلجأ إلى التلفيق بين المفاهيم، ولا التركيب المشوه بين مختلف المقولات والتصورات. كما أن على النخبة أن تعيد النظر في مفاهيمها التقليدية الموروثة سواء من تراثنا الإسلامي أو من التراث الحضاري للأمم الأخرى، ويكون ذلك وفق رؤية علمية مبنية على الحجة البينة والبرهان العلمي والحوار المنفتح على الآخر، القابل للحقيقة مهما كان مصدرها، خاصة إذا علمنا أن الإسلام لا يُخشى عليه من أي فكرة أخرى، بل إن الإسلام ذاته ما هو إلا رسالة لإتمام المكارم التي بين الناس.

ومن هذا المنطلق، فإن النخبة يكون أمامها مجال فسيح للاجتهاد المحتكم إلى القيم الثابتة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، تسترشد بعد ذلك بما استقر من صالح الكسب البشري من فكر وثقافة وحضارة شحذتها وهذبتها الخبرة الإنسانية الطويلة الأمد.

وعليه، لا نكون في اجتهادنا أمام خطر الانحراف عن القيم الكلية الثابتة؛ لأن القرآن مصدِّق ومهيمن على كل تجربة أو فكرة، ولا نكون أيضاً أمام خطر التخلف عن مواكبة الأحداث؛ لأن الانفتاح على مختلف التجارب يذكي الخبرة وحس الخطأ والصواب لدى الأمة، ويقوّي مجسّات التحقق من صلاح التجارب على اختلاف مصادرها ومدى مواءمتها لمختلف المشكلات التي تهدف النخبة لحلها.

ونختم حديثنا هذا بالتأكيد على أن سلوك نهج الحضارة، والعمل على بعث الحضارة الإسلامية من جديد، والتمكين للإسلام والمسلمين لن يتحقق طالما بقيت النخبة في العالم الإسلامي غير قادرة على بناء رؤية واضحة، من خلالها تستطيع تحديد القيم والمبادئ الكلية، وتحديد المنهج ذي الإجراءات العملية لتحقيق مقاصد هذه القيم في دنيا الناس

================

#مالك بن نبي.. وفلسفة الحضارة الإسلامية الحديثة

٢/١١/٢٠٠٣

د.إبراهيم رضا / المغرب**

مالك بن نبي

يعتبر مالك بن نبي ومدرسته من أكثر المدارس الفكرية التي كان لها أثر واضح في تحديد وصنع ملامح الفكر الإسلامي الحديث، خاصة أن هذه المدرسة اهتمت أكثر من غيرها من المدارس الأخرى بدراسة مشكلات الأمة الإسلامية؛ انطلاقا من رؤية حضارية شاملة ومتكاملة. فقد كانت جهوده لبناء الفكر الإسلامي الحديث وفي دراسة المشكلات الحضارية عموما متميزة؛ سواء من حيث المواضيع التي تناولها أو المناهج التي اعتمدها في ذلك التناول.

"وكان بذلك أول باحث حاول أن يحدد أبعاد المشكلة، ويحدد العناصر الأساسية في الإصلاح، ويبعد في البحث عن العوارض، وكان كذلك أول من أودع منهجا محددا في بحث مشكلة المسلمين على أساس من علم النفس والاجتماع وسنة التاريخ"١.

ولم يكن ابن نبي مفكرا إصلاحيا بالمعنى المتعارف عليه عند معظم من تناول مؤلفاته، بل كان في جوهره "شخص الفكرة"، كان بالأساس تعبيرا عن رؤية منهجية واضحة، ومفكرا معرفيا، أدرك أزمة الأمة الفكرية، ووضع مبضعه على أُس الداء، وهو بنيتها المعرفية والمنهجية، إنه -من دون شك- واحد من أهم رواد مدرسة "إسلامية المعرفة" وإصلاح مناهج الفكر، وإن مفاتيح مالك لا تزال تملك قدرة توليدية في مجال المفاهيم والمنابع والعمارة الحضارية بكل امتداداتها وتنوعاتها"٢.

*

ابن خلدون العصر

*

مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي

*

الحضارة إبداع وتميز وليست تقليدا وتبعية

*

الحضارة هي التي تلد منتجاتها

*

القابلية للاستعمار تكبل المجتمع وتحول دونه والإبداع

*

ابن نبي وضرورة استلهام التجربة اليابانية

*

الدورة الحضارية عند ابن نبي

ابن خلدون العصر

لا غرابة أن نجد من الدارسين للفكر الإسلامي الحديث من يعتبر مالك بن نبي بمثابة ابن خلدون العصر الحديث، وأبرز مفكر عربي عني بالفكر الحضاري منذ

ابن خلدون، ومع أنه قد تمثل فلسفات الحضارة الحديثة تمثلا عميقا، واستلهم في أحايين كثيرة أعمال بعض الفلاسفة الغربيين فإن ابن خلدون بالذات يظل أستاذه الأول وملهمه الأكبر" ٣.

ومالك نفسه لا يخفي تأثره بفكر ابن خلدون ونظرياته حول العمران البشري، بل أشار إلى ذلك في مواضع شتى من كتبه، كما ذكر ذلك في مذكرات حياته "شاهد القرن" ٤ .

وهكذا ظهر "مالك بن نبي" وكأنه صدى لعلم ابن خلدون، يهمس في وعي الأمة بلغة القرن العشرين، فأظهر أمراض الأمة مع وصف أسباب نهضة المجتمعات، ووضع الاستعمار تحت المجهر؛ فحلل نفسيته، ورصد أساليبه الخبيثة في السيطرة على الأمم المستضعفة، وخاصة المسلمين، ووضع لهم معادلات وقوانين "الإقلاع الحضاري"..

ولكن الأمة لم تقلع حضاريا؛ وذلك إما لثقل حجم التخلف بين أفرادها ومؤسساتها، وإما لضعف المحرك المقرر أن يقلع بها، وإما لاجتماع السببين معا. ومع ذلك فقد بقيت هذه المعادلات والقوانين "نظريات" مفيدة للمحركين الذي يهتمون بانطلاق "المشروع الحضاري" للأمة.٥

مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي

ينبني مفهوم الحضارة عند ابن نبي على اعتقاده الراسخ بأن "مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها".

وانطلاقا من هذا الاعتقاد الراسخ بأهمية الحضارة وضرورة "فقه" حركتها منذ انطلاقتها الأولى إلى أفولها يحاول ابن نبي إعطاء تعريف واسع للحضارة، يتحدد عنده في ضرورة "توفر مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقسم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه". ٦

وعلى هذا فكل ما يوفره المجتمع لأبنائه من وسائل تثقيفية وضمانات أمنية، وحقوق ضرورية تمثل جميعها أشكالا مختلفة للمساعدة التي يريد ويقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه. ٧

ويتبين من خلال هذا أن مفهوم الحضارة عند ابن نبي شديد الارتباط بحركة المجتمع وفاعلية أبنائه؛ سواء في صعوده في مدارج الرقي والازدهار، أو في انحطاطه وتخلفه، وبالتالي فلا بد من فهم عميق، و"فقه حضاري" نافذ لكل من يريد دراسة المجتمعات دراسة واعية وشاملة؛ لأن حركة المجتمعات الحضارية ظاهرة تخضع كغيرها من الظواهر الإنسانية "لسنن" و"قوانين" اجتماعية وتاريخية ثابتة، لا بد من الإحاطة بها، وإدراك كنهها لكل من يريد أن يعيد لأمته مجدها الحضاري، ويحقق لها ازدهارها المنشود. وهذا ما أكده بقوله: "إن أول ما يجب علينا أن نفكر فيه حينما نريد أن نبني حضارة أن نفكر في عناصرها تفكير الكيماوي في عناصر الماء إذا ما أراد تكوينه؛ فهو يحلل الماء تحليلا علميا، ويجد أنه يتكون من عنصرين (الهيدروجين والأكسجين)، ثم بعد ذلك يدرس القانون الذي يتركب به هذان العنصران ليعطينا الماء، وهذا بناء ليس بتكديس"

والعناصر الضرورية التي تتشكل منها كل الحضارات –حسب مالك– هي ثلاثة: الإنسان + التراب + الوقت.٨

الحضارة إبداع وتميز وليست تقليدا وتبعية

يدعو مالك بن نبي في جل كتاباته إلى ضرورة إبداع بدائل فكرية ومناهج علمية مستقلة تتناسب مع البيئة الإسلامية بدل استيرادها كما هي من الغرب الأوربي. ويلح على ضرورة الاستقلال الفكري في دراسة مشكلاتنا الحضارية والاجتماعية؛ لأنه يعتقد –كغيره من الدارسين للحضارات الإنسانية– أن هناك خصوصيات كثيرة تتميز بها كل حضارة عن غيرها. "فلكل حضارة نمطها وأسلوبها وخيارها، وخيار العالم الغربي ذي الأصول الرومانية الوثنية قد جنح ببصره إلى ما حوله مما يحيط به نحو الأشياء، بينما الحضارة الإسلامية عقيدة التوحيد المتصل بالرسل قبلها، سبح خيارها نحو التطلع الغيبي وما وراء الطبيعة.. نحو الأفكار"

ومن أهم الخصوصيات التي ميزت نشوء الحضارة الإسلامية أن نشوءها سببه الوحي الرباني؛ مما جعلها حضارة خالدة خلود المبادئ والتعاليم التي تحملها وتدعو إليها، "فجزيرة العرب.. لم يكن بها قبل نزول القرآن إلا شعب بدوي يعيش في صحراء مجدبة يذهب وقته هباء لا ينتفع به؛ لذلك فقد كانت العوامل الثلاثة: الإنسان، التراب، والوقت راكدة خامدة، وبعبارة أصح: مكدسة لا تؤدي دورا ما في التاريخ؛ حتى إذا ما تجلت الروح بغار حراء –كما تجلت من قبل بالوادي المقدس، أو بمياه الأردن– نشأت بين هذه العناصر الثلاثة (الإنسان + التراب + الوقت) المكدسة حضارة جديدة؛ فكأنها ولدتها كلمة "اقرأ" التي أدهشت النبي الأمي، وأثارت معه وعليه العالم" ٩.

. ولهذا "فالحضارة" لا يمكن استيرادها من بلد إلى آخر رغم استيراد كل منتجاتها ومصنوعاتها؛ لأن "الحضارة" إبداع، وليست تقليدا أو استسلاما وتبعية كما يظن الذين يكتفون باستيراد الأشياء التي أنتجتها حضارات أخرى؛ "فبعض القيم لا تباع ولا تشترى، ولا تكون في حوزة من يتمتع بها كثمرة جهد متواصل أو هبة تهبها السماء، كما يهب الخلد للأرواح الطاهرة، ويضع الخير في قلوب الأبرار ١٠. فالحضارة من بين هذه القيم التي لا تباع ولا تشترى.. ولا يمكن لأحد من باعة المخلفات أن يبيع لنا منها مثقالا واحدا، ولا يستطيع زائر يدق على بابنا أن يعطينا من حقيبته الدبلوماسية ذرة واحدة منها"

الحضارة هي التي تلد منتجاتها

وبما أن الحضارة إنجاز لا يمكن أن يوهب أو يشترى أو يستورد؛ فإن ابن نبي أولى كل اهتمامه لتحريك الإنسان المسلم الذي يمثل بالنسبة له جوهر الحضارة وعمودها الرئيسي نحو مواقع "الفعالية" و"العطاء" و"الإنتاج"؛ لأن "المقياس العام في عملية الحضارة هو أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها"، وسيكون من السخف والسخرية حتما أن نعكس هذه القاعدة، حين نريد أن نصنع حضارة من منتجاتها" ١١.

وعملية استيراد أشياء الغرب ومنتجاته، والاكتفاء بذلك سبيلا للتقدم.. أشبه بالذي يحاول أن يعالج أعراض المرض ونتائجه البارزة الظاهرة للعيان، بدل أن يعالج أسبابه العميقة، وأصوله الباطنية؛ مما يظهر المرض في الظاهر كأنه قد اختفى،

لكنه في الحقيقة لا يزال ينخر صحة المريض، ويستنزف قواه في الباطن. لهذا علينا في معاجلة تخلفنا -كما يرى أحد تلاميذه ابن نبي- ألا نتبع سبيل الاستيراد؛ فنحاول أن نصبغ من الخارج دارنا المتهدمة بلون الحضارة الغربية ونملؤها بأثاثها، ونقتنع بذلك كوسيلة تجعل دارنا المتهدمة المحطمة دارا قوية شديدة الأركان. فإن النظرة البسيطة تشير إلى أن الدار تستدعي مهندسا يدرس أسباب الخلل الذي يوشك أن ينقض البناء، لا تاجرا يملأ البيت بالأدوات والأثاث" ١٢

. وطالما بقي المجتمع الإسلامي عاجزا عن إيجاد البدائل الفكرية والمنهجية التي تنسجم مع عقيدته وواقعه؛ فهذا يعني أن هذا المجتمع ما زال يعاني من التبعية والتخلف، ولم ترقَ أفكاره بعدُ إلى درجة الاستقلال والتحرر الشاملين، وهذا هو الذي يشكل خطرا على حاضر ومستقبل المسلمين في نظر ابن نبي؛ لأن "المجتمع الذي لا يصنع أفكاره الرئيسية لا يمكن على أية حال أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه، ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه، ولن يمكن لمجتمع في عهد التشييد أن يتشيد بالأفكار المستوردة أو المسلطة عليه من الخارج.. فعلينا أن نكتسب خبرتنا؛ أي أن نحدد موضوعات تأملنا، وألا نسلم بأن تحدد لنا بكلمة، علينا أن نستعيد أصالتنا الفكرية، واستقلالنا في ميدان الأفكار حتى نحقق بذلك استقلالنا الاقتصادي والسياسي"١٣

القابلية للاستعمار تكبل المجتمع وتحول دونه والإبداع

يرى ابن نبي أن الاضطراب والفوضى والتناقض والغموض، وغير ذلك من السلبيات التي تتصف بها بعض النتائج الفكرية في العالم الإسلامي إنما ترجع في جانب كبير منها إلى تلك "القابلية للاستعمار" التي تسكن نفوس أبناء هذا المجتمع، وتدفعهم من موقع الدونية والتقليد إلى تمثل أشياء الغرب وأفكاره دون أي دراسة دقيقة وواعية بالتمايز الحضاري الشاسع الموجود بين المجتمعات الإسلامية والمجتمعات الغربية١٤.

وبدل أن تساهم كتابات أولئك المغتربين في تشييد البناء الحضاري للأمة الإسلامية، نجدهم يلجئون إلى تكديس "المعارف"، والانجذاب إلى الإكثار من الألفاظ الرنانة، وتلويك المصطلحات الغربية التي فقدت الحياة بمجرد قلعها من بيئتها الحضارية

الأصيلة في الغرب. وطبيعي أن هذا التكديس لا يؤدي إلى إنشاء حضارة؛ لأن "البناء وحده هو الذي يأتي بالحضارة لا التكديس، ولنا في أمم معاصرة أسوة حسنة. إن علينا أن ندرك أن تكديس منتجات الحضارة الغربية لا تأتي بالحضارة.. فالحضارة هي التي تكون منتجاتها، وليست المنتجات هي التي تكون حضارة.. فالغلط منطقي، ثم هو تاريخي؛ لأننا لو حاولنا هذه المحاولة فإننا سنبقى ألف سنة ونحن نكدس ثم لا نخرج بشيء".

وهكذا نجد هؤلاء المغتربين والمتمثلين تقليديا لأفكار الغرب لا ينظرون إلى الحضارة الغربية إلا من خلال قشورها، ولا ينقلون منها إلا ما يسميه ابن نبي "بالأفكار الميتة" أو "القاتلة" التي ترمي بها إليهم هذه الحضارة عن طريق مراصدها الفكرية حتى يظلوا تابعين لا مبدعين، منفعلين لا فاعلين. وهذا عكس ما فعلته "النخبة المثقفة" في اليابان مثلا التي استطاعت في تعاملها مع الغرب أن تفرق بين ما هو صالح للاقتباس، لا بد منه ولا ضرر يخشى منه، وما هو طالح وخاص بالقيم والأخلاق الغربية التي تتعارض مع قيم الإنسان الياباني وأخلاقياته١٥.

ابن نبي وضرورة استلهام التجربة اليابانية

شكلت التجربة اليابانية لكثير من المفكرين والمهتمين بقضايا التنمية عموما في العالم الإسلامي نموذجا يختزل كثيرا من الدروس التي ينبغي استخلاصها للنهوض وتحقيق التنمية المنشودة؛ ولهذا نجد ابن نبي في كثير من مؤلفاته يشيد بدوره بهذه التجربة؛ فقد كانت الانطلاقة الحديثة للمجتمع الإسلامي –في نظره– معاصرة لانطلاقة أخرى في اليابان؛ "فالمجتمعان قد تتلمذا سويا في مدرسة الحضارة الغربية، واليوم هاهي اليابان القوة الاقتصادية الثالثة في العالم. "فالأفكار الميتة" في الغرب لم تصرفها عن طريقها؛ فقد بقيت وفية لثقافتها.. لتقاليدها.. لماضيها".

وفي مقابل هذا يرى الأستاذ أن المجتمع الإسلامي –رغم الجهود المبذولة من قبل رواد عصر النهضة– ما يزال مجتمعا متخلفا؛ لأنه مجتمع لم يستطع أن يتعامل مع الحضارة الغربية تعاملا علميا ونقديا، يقول: "الواضح أن المشكلة التي تطرح نفسها لا تتعلق بطبيعة الثقافة الغربية، بل بالطبيعة الخاصة بعلاقتنا بها. فالطالب المسلم الذي يلتحق بمدرستها هو بين نموذجين: الطالب المجد، والطالب السائح. وكلا

الطالبين (المجد والسائح) لا يذهبان إلى منابع الحضارة، بل إلى حيث تتفطر فيها أو تلقي فيها نفاياتها" ١٦.

فالفرق شاسع إذن بين تعامل المسلمين مع الغرب، وتعامل الإنسان الياباني معه؛ حيث إن هذا الأخير ترك القشور واهتم بالجوهر، فتمكن من استيعاب العلوم الغربية التي تمثل سر شموخ حضارتها. دون أن يؤدي به ذلك إلى فقدان هويته، والسقوط في التبعية والتقليد. "فإذا كان اليابان قد بنى مجتمعا متحضرا؛ فهو قد دخل الأشياء من أبوابها، وطلب الأشياء كحجة، درس الحضارة الغربية بالنسبة لحاجاته، وليس بالنسبة لشهواته. فلم يصبح من زبائن الحضارة الغربية يدفع لها أمواله وأخلاقه، أما نحن فقد أخذنا منها كل رذيلة، وأحيانا نأخذ منها بعض الأشياء الطيبة التي قدرها الله لنا" ١٧.

وقد خصص ابن نبي مقالات عديدة للرد على هذه النخبة المغتربة التي لا تفرق في اقتباسها واستلهامها لأفكار ومناهج الحضارة الغربية بين ما هو صالح للاقتباس وما هو خاص بحضارة معينة، لا يمكن نقله لأي بيئة حضارية أخرى مغايرة.١٨

الدورة الحضارية عند ابن نبي

استخلص ابن نبي من قراءاته المتعددة للتاريخ البشري وفلسفته، ولتاريخ الحضارة الإسلامية على وجه الخصوص أن مسيرة الأمم والجماعات تخضع لنظام دوري، قلما تنجو أي أمة من الأمم من جريانه. وهذا في نظره هو الذي يجعل الأمة في فترة من فترات تاريخها الحضاري تسجل مآثر عظيمة ومفاخر كريمة، تبقى خالدة في سجل تاريخها وتاريخ البشرية من حولها، كما تسجل عليها في فترات أخرى انتكاسات وهزائم حضارية وعمرانية وعسكرية، وغير ذلك من الحالات المرضية التي تهوي بالأمة إلى مهاوي التخلف والانحطاط في آخر طور من أطوار دورتها الحضارية.

وهكذا تلعب الشعوب دورها، وكل واحد منها يبعث ليكون حلقته في سلسلة الحضارات، حينما تدق ساعة البعث، معلنة قيام حضارة جديدة، ومؤذنة بزوال أخرى"

ويرى ابن نبي أن هذا القانون طبيعي جدا؛ لأنه يخضع لنفس النواميس التي تخضع لها باقي مخلوقات الله في هذا الكون؛ فاليوم يبدأ بالشروق والزوال، ثم يتبعهما الغروب الذي يسدل الظلام على الكون، والشهر كذلك يبدأ ببزوغ الهلال، ثم يستكمل تدريجيا دورته؛ لينتهي بعد ذلك إلى الزوال ليبدأ شهر آخر، واحدا بعد الآخر في إطار سلسلة دورية مستمرة. انطلاقا من هذا يقول ابن نبي: "إذا نظرنا إلى الأشياء من الوجهة الكونية؛ فإننا نرى الحضارة تسير كما تسير الشمس؛ فكأنها تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشعب، ثم متحولة إلى أفق شعب آخر" ١٩

ولا يعني هذا أن التاريخ يفرق هداياه، أو يوزع أمجاده لأي كان، كما تنشر الشمس أشعتها حينما تؤذن بالشروق، لكن التاريخ كتلة من السنن والنواميس الإلهية التي تتحكم في توجيه الأفراد والمجتمعات على السواء. وهذه السنن والقوانين لا بد من استيعابها، والسير على هداها لمن أراد النهوض والريادة الحضارية. أما الذين لا يحترمونها ولا يستوعبون عبرها ومراميها؛ فإن حركتهم تكون حركة مضطربة لا يحكمها ضابط ولا هدف؛ مما يؤدي إلى مصادمة السنن الهادية إلى البناء والدخول في فترة الخمول. و"من عادة التاريخ ألا يلتفت للأمم التي تغط في نومها، وإنما يتركها لأحلامها التي تطربها حينا، وتزعجها حينا آخر؛ تطربها إذ ترى في نومها أبطالها الخالدين وقد أدوا رسالتهم، وتزعجها حينما تدخل صاغرة في سلطة جبار عنيد" ٢٠

ولكي يخرج المسلمون مما هم عليه الآن من سبات حضاري وخذلان لا بد أن يستوعبوا سنن الله الثابتة في الكون التي يخضع لها الأفراد والجماعات؛ لأنهم بهذا الاستيعاب فقط يمكن أن تكون حركتهم في التاريخ حركة ثابتة وهادفة بدل أن تبقى كما هي عليه الآن حركة عشوائية تحكمها الصدف، وتوجهها الأهواء الفردية والنزوات الشخصية. "فإذا ما حددنا مكاننا من دورة التاريخ، سهل علينا أن نعرف عوامل النهضة أو السقوط في حياتنا، ولعل أعظم زيفنا وتنكبنا عن طريق التاريخ أننا نجهل النقطة التي منها نبدأ تاريخنا، ولعل أكبر أخطاء القادة أنهم يسقطون من حسابهم هذه الملاحظة الاجتماعية، ومن هنا تبدأ الكارثة، ويخرج قطارنا عن طريقه؛ حيث يسير خبط عشواء" ٢١

ويرى ابن نبي في هذا الصدد أن كل الحضارات الإنسانية خضعت لنفس هذا القانون الدوري المتحكم الذي تخضع له الحضارة الإسلامية بدورها. ٢٢

وختاما لا بد من الإشارة إلى جملة من الملاحظات التي تتعلق بفكر مالك بن نبي.

أولا: على الرغم من اهتمام ابن نبي بقضايا الحضارة ومشكلاتها فإن ذلك لم يجعله ينحو بتحليلاته منحى التجريد والنظر البعيدين عن هموم الأمة الإسلامية وقضاياها الاجتماعية والاقتصادية والفكرية؛ بل ظل على الدوام ملتصقا بواقع الأمة، وراصدا لمختلف التحولات التي تطرأ عليها.

ثانيا: تتبُّع مالك بن نبي لواقع الأمة الإسلامية ورصده لمختلف ظواهره لم يجعل فكره يتيه في طلب حلول جزئية أو ترقيعية لمعالجة هذا الواقع؛ بل نفذ ببصيرته ليكشف الخيوط الرابطة لتلك الظواهر، وليضع الحلول المناسبة لمشكلات الأمة، على شكل معادلات رياضية وقوانين دقيقة.

ثالثا: إن أهمية فكر مالك بن نبي وسمو اجتهاداته لم تقابلها بعض الدراسات والبحوث القادرة على النفاذ إلى مقاصدها، وهذا ما يدعو إلى ضرورة بذل المزيد من العناية بهذا الفكر، وذلك بالآتي:

١- إعادة نشر كثير من مؤلفاته والتعريف بها ومدارستها بعمق.

٢- وضع مفاتح منهجية لتتبع اجتهادات هذا المفكر في مختلف المجالات، وتعميق النظر في "المفردات" و"المفاهيم" و"المعادلات" و"القوانين" التي أبدعها بقصد استيعابها والبناء عليها، وتوظيفها لتحليل وتوليد الحلول المناسبة لكثير من المشكلات الحضارية المستجدة في واقع الأمة.

اقرأ أيضا:

* ابن خلدون.. سيرة ومسيرة
* الغرب وعلاقته بالآخر
* لماذا نعيد طرح السؤال: "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟"
* حاجة البشرية إلى الرسالة الحضارية لأمتنا الإسلامية
* دراسة حول العلاقة بين الإسلام والتنمية

١ - جودت سعيد: "مذهب ابن آدم الأول"، ص: ١٤-١٥,

٢- انظر: د.نصر عارف: مقال "هندسة البناء الحضاري عند مالك بن نبي" مجلة الفكر الإسلامي، نشرة تصدر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ملف العدد الحضارة . ذوالقعدة ١٤١٤هـ أبريل١٩٩٤م.

٣- د. فهمي جدعان: "أسس التقدم عند مفكري الإسلام"، ص: ٤١٠,

٤- ذكر مالك بن نبي في مذكراته شاهد القرن: الطفل والطالب، "جملة من المفكرين المسلمين وغيرهم الذين كان لهم تأثير فكري في حياته ينظر إلى مذكراته، ترجمة مروان القنواتي، الطبعة ١، ١٩٦٩، دار الفكر- بيروت.

٥- خالد أبو الفتوح "مقال نحو وعي سنني"، مجلة البيان، العدد ٨٩,

٦- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص: ١٩-٢٠,

٧- مالك بن نبي: آفاق جزائرية، ص: ٣٨، وهذا هو التعريف الحقيقي الذي اختاره مالك بن نبي للحضارة، وليس ما ذهب إليه الدكتور توفيق يوسف الواعي في كتابه "الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية"، حين ادعى أن تعريف الحضارة عند ابن نبي "هو البحث الفكري والبحث الروحي".

الكتاب نفسه، ص: ٢٩، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م.

٨- مالك بن نبي: تأملات، ص: ١٦٨,

٩ - عمر كامل مسقاوي: تقديم كتاب "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي"، ص: ٧,

١٠- مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: ٥١,

١١- مالك بن نبي: في مهب المعركة، ص: ١١٧,

١٢- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص: ٤٢,

١٣- عمر كامل مسقاوي: في تقديمه لكتاب مالك بن نبي "حديث في البناء الجديد"، ص: ١٢ و١٣,

١٤- مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ص: ٤٨,

١٥- مالك بن نبي: تأملات، ص: ١٦٧,

١٦- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص: ١٥١,

١٧- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص: ,١٥٢
١٨ -مالك بن نبي، تأملات، ص: ,١٦٤
١٩- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص: ١٩-,٢٠
٢٠ - المصدر نفسه، ص: ,٤٩
٢١- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص: ,٢٠
٢٢- المصدر نفسه، ص: ٤٧

** أستاذ بكلية الآداب جامعة القاضي عياض - مراكش

================

#النظام الاقتصادي في الحضارة الإسلامية

مفكرة الإسلام : جاء الإسلام بدعوة خاتمة لكل الرسالات والدعوات, ونزل القرآن مصدقًا لما بين يديه من الكتب السابقة ومهيمنًا عليها, وجاء الرسول صلى الله عليه وسلم كخاتم المرسلين بالرسالة العالمية الجديدة للبشر كافة والعالمين أجمعين، لذلك فقد اقتضت عالمية الرسالة الخاتمة أن تكون جامعة مانعة جامعة لها خير يحتاج إليه الإنسان في دنياه وأخراه, ومانعة لها ما يؤذيه ويكدر صفو حياته ويعطل سيره لأخراه, فجاء الإسلام بدعوة دين ودولة ودعوة حياة اجتماعية وسياسية واقتصادية وفكرية ووضع أسس العقيدة النقية ونظم العلاقات على كل المستويات لتنتج لنا في النهاية مجتمعًا مسلمًا متميزًا في كل شئ عقديًا وسلوكيًا وأخلاقيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وفكريًا وحضاريًا.

ومن أبرز ما تميزت به الحضارة الإسلامية والتي تمثل تفاعل كافة القيم والتعاليم الإسلامية مع المجتمع البشري هي تلك النظم التي قامت عليها تلك الحضارة الإسلامية والتي شملت أمور الحكم والإدارة والسلام والحب والاجتماع والاقتصاد وكل ما يتصل بتنظيم أمور الدولة المسلمة التي هي المحتوي العلمي لقيم الحضارة الإسلامية, وحديثنا في هذا المقام عن النظام الاقتصادي في الحضارة الإسلامية.

* بيت المال 'وزارة المالية':

تعتبر الحضارة الإسلامية الرائدة في مجال تنظيم الأموال الاقتصادية والموارد المالية للأمة الإسلامية وعرفت البشرية أول وزارة للمالية على نفس النمط الذي يسود الآن

في أرقى الدول المتحضرة وهذه الوزارة الرائدة كانت 'بيت المال', ويعتبر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من أنشأ بيت المال بسبب الفتوحات العظيمة التي تمت في عهده والخيرات التي تدفقت على الدولة المسلمة, فقد روى ابن سعد في طبقاته أن أبا هريرة قدم على عمر من البحرين فلقيه في صلاة العشاء الآخرة فسلم عليه ثم سأله عن الناس ثم قال لأبي هريرة: ماذا جئت به؟ قلت: جئت بخمسمائة ألف درهم, قال: ماذا تقول؟ قلت: مائة ألف، مائة ألف، مائة ألف حتى عددت خمسًا، فقال عمر، إنك ناعس فارجع إلى أهلك فنم, فإذا أصبحت فأتني، قال أبو هريرة: فغدوت إليه فقال: ماذا جئت به؟ قلت: جئت بخمسمائة ألف درهم, قال عمر: 'أطيب' قلت: نعم لا أعلم إلا ذلك، فقال عمر للناس: إنه قد قدم علينا مال كثير, فإن شئتم أن نعده لكم عدًا وإن شئتم أن نكيله لكم كيلاً، ونشأت من يومها فكرة بيت المال.

ولقد أنشأ عمر بيت المال الفرعي في كل ولاية يكون خاصًا بموارد ومصارف تلك الولاية وما يزيد يرد على بيت المال العام أو المركز الرئيس بالمدينة, وجعل له أمينًا مستقلاً في عمله عن الوالي وعن القاضي وهو ما عرفه العالم بعد ذلك باسم 'مبدأ فصل السلطات'.

وتعالوا سويًا نقترب من بيت مال المسلمين لنتعرف على موارد ومصارف هذا البيت والذي يمثل للنظام الاقتصادي للدولة الإسلامية، وما يوضح عظمة الحضارة الإسلامية وريادتها في هذا المجال وغيره.

موارد بيت المال:

تنقسم موارد بيت المال في الدولة المسلمة إلى عدة موارد ومصادر تحت القاعدة الأصولية العامة [إن الأصل في الأموال الحرمة وما أبيح أخذه يكون بنص].

وهي القاعدة المستفادة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع [[إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ...]] وهذه الموارد كما يلي:

[١] أولاً: الزكاة: وهي ركن من أركان الإسلام وفريضة محكمة وثابتة إلى قيام الساعة وهي مقدار معلوم من مال الأغنياء يرد إلى إخوانهم الفقراء وهي أرقى صور التكافل والتراحم الاجتماعي والذي لا يعرف نظيره في أي مجتمع من المجتمعات

السابقة أو اللاحقة، والمال الواجب فيه الزكاة، أربعة أقسام، [١] زكاة النقد [٢] زكاة السوائم والأنعام والماشية [٣] زكاة الزروع والثمار [٤] زكاة الركاز والمعادن.

وهذا المورد من موارد بيت مال الدولة المسلمة يتميز عن باقي الموارد بتحديد مصارفه وأوجه إنفاقه وهي المذكورة في الآية رقم ٦٠ من سورة التوبة.

[٢] ثانيًا: الخراج: لما فتح المسلمون بلاد العراق وأزالوا دولة الفرس المجوس منها وأيضا فتحوا الشام والجزيرة وطردوا الروم منها طلب كثير من كبار الصحابة من الخليفة عمر بن الخطاب أن يقسم الأرض المفتوحة على الفاتحين والمجاهدين كما قسم عليها الغنائم المنقولة من سلاح ومتاع ولكن عمر رأى أن تكون الأرض المفتوحة فيئًا لعموم المسلمين على مر العصور, واستند في رأيه على آيات الفيء الموجودة في سورة الحشر, وأية الفيء هذه لعموم المسلمين حتى في العصور القادمة، وألح عليه الصحابة في تقسيم الأرض ولكنه أبى وأيده في رأيه عبد الرحمن بن عوف وشرح الله عز وجل صدر الفاروق لهذا الرأي الذي كان فيه الفلاح والصلاح للأمة المسلمة، وجعل عمر هذا الأرض عليها مقدار معين من المال تدفعه كل عام وهو ما عرف بالخراج، والأرض الخراجية تنقسم إلى نوعين هما:

١. الأراضي التي فتحت عنوة وبقى عليها أهلها دون أن يدخلوا في الإسلام، يفلحونها لحاجة الدولة لخبراتهم على أن يدفعوا خراجها وينتفعوا بالباقي مقابل عملهم في الأرض.

٢. الأراضي التي فتحت صلحًا واتفق المسلمون مع أهلها على أداء خراجها مقابل أن تبقي في أيديهم يتوارثونها طالما يدفعون خراجها ولا يستطيع أحد أن يأخذها.

وكان الخراج أحيانًا في صورة مال أو حاصلات زراعية وكان يجبى بعد الحصاد, وحولُه شمسي لا قمري لارتباط الزراعة بالنظام الشمسي والفصول الأربعة.

مع ملاحظة حقيقة هامة تضمن استمرارية الخراج كمصدر هام من مصادر الأموال في الدولة المسلمة وهي أن الخراج لا يسقط عن الأرض أبدًا حتى ولو أسلم أصحابها، ويعتبر كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة من أفضل وأول ما كتب في مصادر بيت مال الدولة ومصارفه كتبه بناءً على طلب الخليفة العباسي هارون الرشيد الذي أراد ضبط الأمور المالية في خلافته.

كيف تعامل عمر مع أرض الخراج؟

لما اتضح لعمر رأيه في الأرض المغنومة أرسل من قبله رجالاً لمسح أرض السواد 'بالصراق' فبلغت مساحتها ٢٦ مليون جريب، والجريب مساحته تقدر بألف ومائتان متر، أي أن كل ٣,٥ جريب يوازي فدان زراعي الآن، وجعل عمر على كل جريب مقدارًا معينًا من الدراهم يختلف من جريب لآخر حسب طبيعة الزراعة أو الثمار والزروع, فالكرم والنخل تختلف عن القمح, والشعير عن القطن عن القصب وهكذا, وبلغت قيمة خراج أرض السواد قبل وفاة عمر بعام واحد مائة مليون درهم.

وقد بقي لنا من عهد المأمون العباسي أثر تاريخ هام يدل على مقدار الجباية الخراجية من جميع الأقاليم, وقد ذكره ابن خلدون في مقدمته نقلاً عن كتاب جراب الدولة ولما في ذلك الأثر من الفائدة والتوضيح نذكره كما هو:

الإقليم الخراج النقدي الخراج العيني

١. أرض السواد ٢٧٨٠٠٠٠٠ درهم ٢٠٠ ثوب

٢. كسكر ١١٦٠٠٠٠٠ درهم ٢٤٠ رطلاً من التين

٣. كور دجلة ٢٠٨٠٠٠٠٠ درهم

٤. حلوان ٤٨٠٠٠٠٠ درهم

٥. الأهواز ٢٥٠٠٠٠٠٠ ٣٠ ألف زجاجة ماء ورد/ ٣٠٠٠٠ رطل سكر

٦. فارس ٢٧٠٠٠٠٠٠ ٣٠٢٠٠ رطل زيت/ ٢٠٠٠٠ رطل تمر/ ٥٠٠ ثوب

٧. كرمان ٤٢٠٠٠٠٠

٨. مكران ٤٠٠٠٠٠ ١٥٠ رطل عود هندي

٩. السندومابيه ١٢٥٠٠٠٠٠ ٢٠٠ ثوب

١٠. سجستان ٤٠٠٠٠٠٠ ألفان نقرة فضة/ ٤٠٠٠٠ برذون/ ١٠٠٠ رأس رقيق

١١. خراسان ٢٨٠٠٠٠٠٠ ٢٠٠٠٠ ثوب

١٢. جرجان ١٢٠٠٠٠٠٠ ٣٠٠٠٠ رطل أهليلج ونوع من الفاكهة

١٣. قومي ١٠٠٠٠٠٠ ١٠٠٠ ثوب حريري

١٤. الرويان ودنباوند ٦٣٠٠٠٠٠ ٢٥٠ كساء/ ٥٠٠ ثوب/ ٣٠٠ منديل/ ٣٠٠٠ إناء فضة

١٥. الري ١٢٠٠٠٠٠٠ ٢٠٠٠٠ رطل عسل

١٦. همذان ١١٣٠٠٠٠٠ ١٠٠٠ رطل رمان / ١٢٠٠٠ رطل عسل

١٧. البصرة / الكوفة ١٠٧٠٠٠٠٠

١٨. ماسبذان والريان ٤٠٠٠٠٠٠

١٩. شهررؤر ٦٧٠٠٠٠٠

٢٠. الموصل ٢٤٠٠٠٠٠٠ ٢٠٠٠٠ رطل عسل

٢١. الجزيرة ٣٤٠٠٠٠٠٠ ١٠٠٠ رأس رقيق/ ١٢٠٠٠ زق عسل/ ١٠ صقور

٢٢. أرمينية ١٣٠٠٠٠٠٠

٢٣. برقة ١٠٠٠٠٠٠

٢٤. أفريقية 'تونس' ١٣٠٠٠٠٠٠

٢٥. قنرين ٤٠٠٠٠٠٠ دينار

٢٦. دمشق ٤٢٠٠٠٠ دينار

٢٧. الأردن ٩٧٠٠٠ دينار

٢٨. فلسطين ٣١٠٠٠٠ دينار

٢٩. مصر ١٩٢٠٠٠٠ دينار

٣٠ اليمن ٣٧٠٠٠٠ دينار

٣١. الحجاز ٣٠٠٠٠٠٠ دينار

فيكون بهذا الأثر دخل الدولة الإسلامية من الخراج فقط كمورد من موارد الدولة يبلغ ٣١٩٦٠٠٠٠ درهم ٣٨١٧٠٠٠ دينار هذا غير العروض الأخرى المذكورة والتي لو قومت لبلغت مبلغًا كبيرًا كل ذلك يرد إلى بيت مال المسلمين ببغداد.

ثالثا: العشور:

ليست كل أراضي الدولة الإسلامية المفتوحة تعتبر أرضًا خراجية بل هناك نوع آخر من الأراضي لا يفرض عليها الخراج وهي التي يفرض عليها عشر غلتها واسمها الأرض العشرية وهي ثلاثة أنواع:

أ. الأرض التي أسلم أهلها وهم عليها من غير قتال ولا حرب.

ب . الأرض التي لم يعرف لها صاحب ووزعت على الفاتحين بإذن الإمام.

ج . الأرض البور أو الموات التي فتحها المسلمون وقاموا باستصلاحها.

ويلاحظ أنه لا يجوز تحويل الأرض العشرية إلى أرض خراج كما لا يجوز تحويل أرض الخراج إلى أرض عشرية.

رابعًا: الجزية:

تأمر شريعة الإسلام السمحة النقية أنه إذا أراد المسلمون غزو بلد وجب عليهم أولاً دعوة أهله إلى الدخول في الإسلام فإذا لم يسلموا يبقون على دينهم ويدفعون الجزية مقابل دفاع المسلمين عنهم ورد العدوان عن بلادهم وتمتعهم بجميع حرياتهم, وهي تقابل الزكاة المفروضة على المسلمين وتتبين لنا عظمة هذا الدين القويم في أن الجزية لا تؤخذ إلا من الرجال دون النساء والصبيان ولا تؤخذ من مسكين ولا من أعمى ولا من مقعد لا مال له ولا من راهب ولا من شيخ كبير لا يستطيع العمل ولا من المرضى الزمنى, وليس في أموال أهل ذمة المسلمين زكاة، وتتضح أيضًا عظمة هذا الدين في أن مقدارها يختلف من حالة لأخرى حسب يسر الدافع, وقد ذكر أبو يوسف في كتابه الخراج ثلاثة فئات ٥٨ درهمًا على الموسرين، و٢٤ على المتورطين، و١٢ على العمال، والجزية لا تسقط عن الذمي إلا في حالة واحدة وهي إسلامه 'بخلاف الخراج'.

وليست الجزية من مستحدثات الإسلام فلقد عرفتها الأمم السابقة, فلقد فرض اليونان القدامى على سكان سواحل آسيا الصغرى في القرن الخامس قبل الميلاد ضريبة أشبه بالجزية مقابل حمايتهم من هجمات الفينيقيين كما فرضها الروم على الشعوب التي أخضعوها لحكمهم وتبعهم الفرس، وكانت الجزية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وأبي بكر الصديق على أهل الكتابين اليهود والنصارى, فلما كان عهد عمر بن الخطاب ألحق بهما المجوس عملاً بشدة عبد الرحمن بن عوف, فلما كان عهد المأمون العباسي ألحق بهم 'الصابئة'.

خامسًا: الغنائم:

وهي بحل ما غنمه المسلمون في حربهم ضد الكفار والمشركين من غير الملة, وقد أباحها الله عز وجل لهذه الأمة لما رأى ضعفها وقصر أعمارها وكثرة أعدائها وهي من خصوصيات هذه الأمة الخاتمة ولم تكن لأمة ولا نبي من قبل, وهذه الغنائم

عبارة عن المتاع والسلاح والخيل والأموال المنقولة من ذهب وفضة وغير ذلك ولا يستثنى إلا الأرض عملاً بمذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه في جعلها وقفًا لعموم المسلمين.

والغنائم لا يدخل منها في بيت المال إلا الخمس أما باقي الأخماس الأربعة فتوزع على المجاهدين سواء كانوا من الجند النظاميين أو من المتطوعين، أما مصرف الخمس فهو مذكور في قوله عز وجل في الآية رقم ٤١ من سورة الأنفال كما يلي:

[١] سهم للرسول صلى الله عليه وسلم ينفق منه على نفسه وأزواجه وفي صالح المسلمين, وقد أسقط أبو بكر هذا السهم بعد وفاة النبي [٢] سهم ذي القربى وهم قرابة النبي صلى الله عليه وسلم من بنى هاشم وبني عبد المطلب وقد أسقط أبو بكر أيضًا هذا السهم [٣] سهم لليتامى [٤] سهم للمساكين [٥] سهم لأبناء السبيل، وعندما جاء عمر اتفق مع الصحابة على جعل سهم الرسول وسهم قرابته في الكراع والسلاح ومصالح المسلمين وهذا ما عليه الراجح من أقوال أهل العلم.

سادسًا: عشور التجارة:

ولم تكن عشور التجارة من الموارد التي ذكرها القرآن الكريم ولكنها أحدثت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أيضًا وسبب ذلك أن أبا موسى الأشعري كتب إليه أن تجاراً من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر . ويعني أرض الحرب كل أرض أهلها غير مسلمين . فكتب إليهم عمر: وخذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين.

وروي أن أهل مدينة 'مبنج' وكانوا نصارى في شمال الجزيرة كتبوا إلى عمر بن الخطاب يقولون: دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا, فشاور عمر الصحابة في ذلك فوافقوا فأصبحت سنة ماضية, وإذا كان القادم بالتجارة من المسلمين فيُسأل هل أدى زكاة هذه التجارة أم لا؟ ويقبل يمينه على ذلك, وهكذا نرى أن العشور تختلف تمامًا عن صورة الجمارك المفروضة اليوم على كل ما يأتي من الخارج سواء كان التاجر مسلمًا أو غير مسلم.

هذا بالنسبة بموارد بيت مال المسلمين أو ما يطلق عليه في الصورة الحديثة بند 'الإيرادات'، أما بالنسبة للمصروفات أو مصارف بيت المال فهي كالآتي:

أولاً: أرزاق الولاة والقضاة وموظفو الدولة والعمال في المصلحة العامة ومن هؤلاء أمير المؤمنين أو الخليفة نفسه.

ثانيًا: رواتب الجند والعسكر, ولم يكن هناك في حياة النبي صلى الله عليه وسلم مرتبات معينة للجند لأن الجميع كانوا جنودًا ولم يكن هناك جيش نظامي بالمعنى المعروف وكان الجميع يأخذ من أربعة أخماس الغنائم والخراج ولما ولي أبو بكر ساوى بين الناس في الأعطيات فلما جاء عمر بن الخطاب قسم العطاء مفضلاً الأسبق فالأسبق وعلى هذه القاعدة كانت المرتبات كالآتي:

١٢٠٠٠ درهم لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ولعمه العباس/ ٥٠٠٠ درهم لأهل بدر وألحق بهم الحسن والحسين، ٤٠٠٠ درهم لمن كان إسلامه كأهل بدر ولكن لم يشهدها وألحق بهم أسامة بن زيد/ ٣٠٠٠ لعبد الله بن عمر وبعض أبناء المهاجرين والأنصار كعمر بن أبي سلمة/ ٢٠٠٠ درهم لأبناء المهاجرين والأنصار/ ٨٠٠ درهم لأهل مكة ٤٠٠/٣٠٠ لسائر الناس/ ٦٠٠ إلى ٢٠٠ لنساء المهاجرين والأنصار/ ٩٠٠٠ لأمراء الجيوش والقراء، وهكذا كان الحال, فلما كثر الناس عن حاجة الغزو والجهاد ولدواعي قيام الحضارة العمرانية اشتغل كثير من الأمة بغير الجهاد من الصنائع فلجأت الدولة للجيش النظامي وأصبح هناك دواوين خاصة بالجند ينالون منها الرواتب الخاصة بهم على رأس كل سنة.

ثالثًا: تجهيز الجيوش وآلات القتال من سلاح وذخائر وخيل وما يقوم مقامهما.

رابعًا: إقامة المشروعات العامة من جسور وسدود وتمهيد الطرق والمباني العامة ودور الاستراحة والمساجد.

خامسًا: مصروفات المؤسسات الاجتماعية مثل المستشفيات والسجون وغير ذلك من مرافق الدولة.

سادسًا: توزيع الأرزاق على الفقراء واليتامى والأرامل وكل من لا عائلة له, فالدولة تعوله وتكفله, ومن العرض السابق يتضح لنا النظام الاقتصادي الدقيق الذي ابتكرته الحضارة الإسلامية في خطواتها الأولى ومبكرًا جدًا قبل أي حضارة أخرى سابقة أو حتى لاحقة, فهي صاحبة السبق في تنظيم الموارد والمصارف المالية الخاصة بالدولة، ويبقى بعد هذه الموارد والمصارف كلها أنه قد تفاجئ الدولة بكارثة أو

مجاعة أو قحط شديد أو وباء قاتل، وهنا يكون ندب الأغنياء من المسلمين من غير إكراه للصدقة والعطاء لإنقاذ جمهور المسلمين كما فعل عثمان بن عفان مع المجاعة في عهد أبي بكر الصديق عندما تصدق بأموال طائلة لنجدة المسلمين وكما فعل عبد الرحمن بن عوف أيام عمر بن الخطاب وأمثال ذلك كثير عبر التاريخ الإسلامي مما يضمن استمرارية تدفق الأموال على خزينة الدولة دون إكراه أو مصادرة أو إجبار.

وهكذا نرى أن المنظومة الاقتصادية في الحضارة الإسلامية كانت تمثل معلمًا بارزًا من معالم تلك الحضارة ضمنت لتلك الحضارة وتلك الدولة المسلمة الاستقلالية والاستمرارية والتوسع والانتشار وأيضًا الشفافية في التعامل والحرية في اتخاذ قراراتها فإن الدولة متى اعتمدت على غيرها في المساعدات والقروض فقد تخلف طواعية عن سيادتها واستقلاليتها لصالح من تأخذ منه الأموال وهذا وقع بالفعل لكثير من بلاد المسلمين الآن وهذا رغم تراثهم العظيم والحافل من رصيد التجربة في الحضارة الإسلامي

=============

بعث الحضارة الإسلاميّة من جديد... دور النُّخبة

د. بدران بن الحسن ١٤٢٦/١١/٩

٢٠٠٥/١٢/١١

لقد قضى العالم الإسلامي وقتاً طويلاً من عمره الحضاري باحثاً عن نقطة بداية لإعادة بناء حضارته من جديد، وإعطاء نفسه الحضاري دفعة تخرجه من حالة التراوح والتبطل التي استنفدت قدراته في جهود مضنية.

وكان لمالك بن نبي –عليه رحمة الله– رأي في مسألة التخلف الحضاري الشامل التي يعانيها العالم الإسلامي، ورأى منذ الأربعينيات من القرن الماضي أن العالم الإسلامي يهدر طاقته في حل مشكلات جزئية متغاضياً عن المشكلة الكلية التي تحتوي كل تلك المشكلات، ألا وهي مشكلة الحضارة.

ورأى أيضاً أنه طالما أن العالم الإسلامي يفتقد إلى الرؤية الواضحة لما يريد أن يقوم به فإنه لن يتمكن من صياغة مشروع للنهضة أو الخروج من التخلف، ولن يتمكن

من تحديد وجهته ولا بناء منهج لبناء الحضارة، وذلك في تصوره راجع إلى أن "الرؤية تحدّد المنهج والوجهة".

وبعبارة أخرى، فإن تصورنا لمشكلة العالم الإسلامي تصوّر جزئي ومفكّك، ولذلك فإن فهمنا للمشكلة فهم جزئي وعقيم؛ لأنه لا يحيط بكل أبعاد المشكلة، ولذلك فإن الحلول التي طُرحت كلها حلول جزئية؛ إن اهتمت بجانب أغفلت -عن قصد أو غير قصد- جوانب أخرى لا تقل أهمية عن الجانب الذي أولته اهتمامها. فأنتجت هذه التصورات الجزئية رؤى متناقضة ومشوهة وقاصرة في أغلب الأحوال، وغير قادرة على صياغة منهج لحل المشكلة الأم، ولا لحل المشكلات الجزئية المتراكمة.

ولذلك فإن أسئلة كثيرة تطرح نفسها بقوة على كل متأمل في ما نحن فيه من تردٍّ وتهلهل وتخلف شامل في العالم الإسلامي؛ فلماذا لم نستطع امتلاك هذه الرؤية المتكاملة لمشكلتنا في العالم الإسلامي؟ ولماذا لم نستطع بناء منهج قادر على الخروج بنا من المحنة التي نحن فيها؟

لعل هذا النوع من الأسئلة تراود كل من اهتم بأمر المسلمين، وسعى إلى المساهمة في فك خيوط الأزمة التي أُحكمت. ولا شك أن كثيراً من الإجابات راودت كل من طرح هذه الأسئلة على نفسه.

وفي تصوري، فإن الإجابة عن الأسئلة السابقة يمر حتماً بالإجابة عن سؤال أو أسئلة أخرى تتعلق بمن يتولى صياغة الرؤى الحضارية، ومن يقوم على بناء مناهج التغيير؟ هل هم عامّة الناس؟ أم هم النخبة من المجتمع؟

وإذا استقرينا التاريخ؛ تاريخ التغيرات الكبرى في تاريخ المجتمعات رأينا أن هناك دائماً "فرقة" تقوم بالمبادرة بحمل لواء التغيير، وتتبنى الأفكار والمشاريع والبرامج الجديدة التي تسوّغ على وفقها نمطاً جديداً للتفكير وصورة جديدة عن العالم، وبالتالي منهجاً جديداً لمعالجة الأمور.

ولنا في الأنبياء وأتباعهم أسوة حسنة، ولنا في تاريخ النبوات، وتاريخ الأفكار الكبرى، والأمم التي تعاقبت الريادة الحضارية في العالم، والمجتمعات التي سادت ثم بادت.

لنا في كل هؤلاء خير دليل على أن هناك "نفراً" من كل "فرقة" يقومون بتغيير "القوم" وبصياغة منهج جديد للحياة.

ولذلك فإن مسألة القيادة التي هي النخبة أو النفر أو الفرقة التي تتولى شؤون القوم، وإنذارهم وإبلاغهم، وقيادتهم بالتعبير القرآني- هي المسألة المركزية في صياغة الرؤية والتصور الكلي الشامل من أجل أن تتبنى منهجاً يخرج قومها من ظلمات الفوضى إلى نور المنهج الواضح الأسس، البيّن الخطوات من أجل تحقيق مبادئ النخبة والمجتمع في أرض الواقع.

وفي هذا السياق فإن المشكلة في تصوري تتعلق بنمط القيادة التي تقود عملية التغيير الحضاري، ومدى وعيها واستيعابها للمعطيات المختلفة للواقع المعاصر، ولما يتطلبه القيام بمشروع بناء الحضارة من جديد من وضوح للرؤية وتوفر منهج شمولي متكامل للتغيير.

والحديث هنا يتجه أساساً إلى العلماء والمجتهدين والمثقفين، إلى النخبة التي تقود المجتمعات الإسلامية، ومدى قدرة هذه القيادات على قيادة مشروع بناء الحضارة الإسلامية من جديد، إن نظرياً أو عملياً.

ذلك أن مستقبل العالم الإسلامي يُناط بالقيادة التي تمتلك القدرة على شق الطريق اليبس في بحر الأزمة الخانق، وأن تكون قادرة -في رأي الجماهير من الناس- على فعل المعجزات التي تحوّل مسار التاريخ في لحظاته المدلهمة، وتنير الدرب بفعل تجاوزها ليوميات الأحداث، من خلال قدرتها على استشراف المستقبل، ورسم مسارات العمل المستقبلي، والحد من الخسائر، وتحفظ المحتوى العقائدي لما تحمله من أفكار، حتى لا يفرغ من محتواه أو يحوّر أو يبدّل.

غير أن مؤسساتنا بكل تنوعها؛ الدعوية والسياسية والثقافية والعلمية والاجتماعية وغيرها، غير قادرة اليوم على أن تواكب نمط التحولات السريعة والهائلة التي تحدث بفعل عصر العولمة الذي نعيشه، ولذلك فهي غير قادرة على صياغة المجتمع وفق التطلعات التي تؤمن بها.

كما أن النخبة بمختلف طبقاتها اليوم في عالمنا الإسلامي غير قادرة على أن تحمل في وعيها آمال الجماهير وغير قادرة على توجيه هذه الجماهير أيضاً. بل إن هذه

النخبة التي من المفترض فيها أن تكون هي المعبر عن آمال وتطلعات الناس من جهة، وأن تكون هي مجسّات الوعي من جهة أخرى قد انغلقت على نفسها، ولم تعد قادرة على متابعة التغيرات والأحداث الكبرى التي تجري في عالم اليوم.

ولذلك فإن النخبة في العالم الإسلامي اليوم مدعوة إلى مراجعات جوهرية لكل الأطروحات التي تتداولها منذ أمد، وعلى مختلف الأصعدة، ومن كل الأطراف.

وعلى النخبة أيضاً أن تعيد ترتيب أولوياتها، ووضع خط فاصل وواضح بين القيم المبدئية التي لا يمكن أن تتغير وبين المواقف والخطوات الإجرائية التي يمكن التراجع عنها أو تغييرها أو تطويرها أو تجاوزها إلى ما هو أكثر نضجاً ونجاحاً وقابلية لتحقيق مقاصد القيم الأصلية المبدئية وتحقيق مصالح الأمة.

وعليه فإن النخبة مطلوب منها اليوم أن تعيد تشكيل مواقفها وفق المبادئ الكبرى للأمة بشكل واضح وصريح ومؤسس ومنهجي، وألاّ تلجأ إلى التلفيق بين المفاهيم، ولا التركيب المشوه بين مختلف المقولات والتصورات. كما أن على النخبة أن تعيد النظر في مفاهيمها التقليدية الموروثة سواء من تراثنا الإسلامي أو من التراث الحضاري للأمم الأخرى، ويكون ذلك وفق رؤية علمية مبنية على الحجة البينة والبرهان العلمي والحوار المنفتح على الآخر، القابل للحقيقة مهما كان مصدرها، خاصة إذا علمنا أن الإسلام لا يُخشى عليه من أي فكرة أخرى، بل إن الإسلام ذاته ما هو إلا رسالة لإتمام المكارم التي بين الناس.

ومن هذا المنطلق، فإن النخبة يكون أمامها مجال فسيح للاجتهاد المحتكم إلى القيم الثابتة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، تسترشد بعد ذلك بما استقر من صالح الكسب البشري من فكر وثقافة وحضارة شحذتها وهذبتها الخبرة الإنسانية الطويلة الأمد.

وعليه، لا نكون في اجتهادنا أمام خطر الانحراف عن القيم الكلية الثابتة؛ لأن القرآن مصدِّق ومهيمن على كل تجربة أو فكرة، ولا نكون أيضاً أمام خطر التخلف عن مواكبة الأحداث؛ لأن الانفتاح على مختلف التجارب يذكي الخبرة وحس الخطأ والصواب لدى الأمة، ويقوّي مجسّات التحقق من صلاح التجارب على اختلاف مصادرها ومدى مواءمتها لمختلف المشكلات التي تهدف النخبة لحلها.

ونختم حديثنا هذا بالتأكيد على أن سلوك نهج الحضارة، والعمل على بعث الحضارة الإسلامية من جديد، والتمكين للإسلام والمسلمين لن يتحقق طالما بقيت النخبة في العالم الإسلامي غير قادرة على بناء رؤية واضحة، من خلالها تستطيع تحديد القيم والمبادئ الكلية، وتحديد المنهج ذي الإجراءات العملية لتحقيق مقاصد هذه القيم في دنيا الناس

==============

حضارتنا ليست للبيع ... ...

إن تاريخنا الإسلامي هو أفضل تاريخ عرفته الأرض•• عبر مساحة التاريخ المدوَّن !! وهذه الحقيقة تتجلى عندما ننظر إليها في سياق بشريته، (فهو تاريخ بشر)••• وعندما ننظر إليه بالجملة، لا بالوقوف المتربص الحاقد عند نقطة معينة ، ففي حياة كل إنسان . عظيماً أو عادياً . هفوات•

والتاريخ هو حياة مجموع البشر أو الناس الأحياء، وليس رصداً لتاريخ أوهام أسطورية••• بل هو تاريخ ناس واقعيين ••• عاشوا على الأرض، وكانت لهم أشواق روحية، وغرائز بشرية!!•

وعندما ننظر بهذا التقويم الموضوعي، فسنجد أن عصر الرسالة والراشدين (١ . ١٤هـ)، هو أفضل عصور التاريخ البشري على الإطلاق، ولا يساويه إلا حياة الأنبياء عليهم السلام، وقد تقترب منهم حياة حواريي الأنبياء من الدرجة الأولى•

ولم يحظ أي نبي بهذا الجمع العظيم الذي صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على عينيه••• وكان القمة المثلى للحضارة الإسلامية!•

فلما جاء الأمويون (١٤ . ١٣٢هـ)، لم ينقطع هذا التاريخ لأن عام (١٤هـ) لا يعني موت كل الصحابة، فبقى عصر الأمويين يرشح بهؤلاء العظماء، وانحصر الخلل في بعض النواحي القومية والسياسية، وكانت الحياة الدينية والاجتماعية في القمة••• بل في هذا العصر تمت أعظم الفتوحات التي قام بها الشعب المسلم تحت قيادة بني أمية عن رضا وطواعية•

فلما جاء العباسيون (١٣٢هـ ـ ٦٥٦هـ)، مضت الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والتشريعية، بقيادة الشعب المسلم في مجراها الطبيعي ، فنهرُ الحضارة الدافق لا يخضع للتحولات السياسية بقيام دولة أو سقوط أخرى•

وقد وقع العباسيون في خطأين:

أولهما: حركة الترجمة إلى العربية من دون ضوابط كافية، ومن دون حركة ترجمة مضادة تنشر العقيدة الإسلامية في العالم•••

وثانيهما: إشغال الأمة بفتنة خلق القرآن، واستعمال العنف والقسوة، وترك الحبل على الغارب للمعتزلة المنهزمين أمام المقولات الفلسفية!!•

لكن العباسيين نشروا الحضارة الإسلامية، وامتدت في عهدهم حركة سلمية دعوية لنشر الإسلام! إذ إن فتوحات بني أمية العسكرية والسياسية لم تعنِ دخول الناس في الإسلام فوراً، فالإسلام لا يؤمن بالإكراه، فكان العصر العباسي هو الذي نشر الإسلام بواسطة الأمة الداعية، لا الدولة الراعية•

ثم إن الحكومة العباسية وقفت ـ بصرامة ـ ضد الحركات الباطنية كالبرامكة، والخرَّمية، وحسبها أنها صمدت في وجه المد الفاطمي الذي نجح في الاستيلاء على المغرب ومصر•• كما أنها استوعبت السيطرة الشيعية البويهية على الحكم، بحيث بقيت السيطرة البويهية سيطرة سياسية، لا باطنية!!•

وجاء الزنكيون، والأيوبيون، والمماليك•• ثم جاء العثمانيون، الذين عاشوا خمسة قرون حتى سقطوا سنة ١٩٢٤م، فكان للجميع بعض السلبيات، لكنهم قدموا للإسلام أعظم الخدمات، وصدوا عنه أشنع الغارات!!•

ومازال الإسلام ـ بفضل هؤلاء الأسلاف ـ موجوداً إلى الآن، يصارع المحن، ويمتص المؤامرات الخبيثة، ويفلت بالمسلمين ـ تحت رايته الخفاقة. من مرحلة الاستعمار العسكري والسياسي الأوروبي إلى مواجهة الغزو الفكري الصليبي والصهيوني، ثم إلى مرحلة الصحوة الإسلامية، وما تواجهه، الآن من صعوبات ومؤامرات عالمية•

لكن الإسلام يمتد إلى كل قارات الأرض بفضل الأمة الداعية، وينتصر حتى مع الهزائم السياسية والعسكرية، كما انتصر أيام التتار••• وسيشق المسلمون طريقهم بإذن الله، وستخفق راية الإسلام ـ مهما كانت السحب داكنة ـ فالإسلام هو الحل

الوحيد للبشرية•• وليس للمسلمين وحدهم، وهو قدر الله الغالب، والأمل الوحيد الذي لا أمل في إنقاذ البشرية من دونه!•

هذا التاريخ الصامد••• وهذ الإسلام الفاتح•• وهذه الحضارة المثلى التي صهرت الجوانب الوجدانية، والعقلية، والروحية، والفردية، والاجتماعية، في بوتقة واحدة، وحققت للإنسان إنسانيته، فكانت مشرق النور، روحاً وعقلاً لكل الدنيا لأكثر من عشرة قرون•

هذا التاريخ، وهذه الحضارة، هل يجوز أن نبيعهما رخيصين في عصور تصطنع الأمم فيها لنفسها تاريخاً، وتتوهم لنفسها حضارة!!•

وهل يجوز أن يبقيا مطعناً لسهام أصحاب النحل الباطلة والنزعات الشاذة، والمحنَّطين في كهوف أحداث معينة، لا يريدون أن يتحولوا عنها ليمدوا الطرف، ويوسعوا الصدر، ويتعاملوا مع البشرية بالمقياس الملائم للطاقة البشرية•

بم سنمضي في مجالات صراع الأمم، وحوار الحضارات؟

إن أسلافنا هم أجدادنا، ولا نستطيع أن ننسلخ عنهم إلا إذا كنا قد قررنا أن نفقد هويتنا••• فالاسم وحده لا يدل على صاحبه، ولا يعتمد في سجلات التاريخ!!•

وإن حضارتنا هي قسماتنا الحضارية التي نتميز بها ونحن نصنع حضارتنا المعاصرة التكنولوجية والإنسانية••• فهي التي تدل علينا، وتؤكد أننا شريحة خاصة من البشر، ولسنا عبيداً تابعين، قد ضاعت ملامحهم .. •

وكما أن أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعلياً هم . بعد إمام الدعوة، ورسول الإنسانية صلى الله عليه وسلم، قدوتنا وعظماؤنا، فكذلك ننظر إلى من جاء بعدهم•• فهم دونهم، لكنهم أزكى منا، وقدوتنا••• فهم من خير القرون، ومن الصحابة والتابعين، ومن الأسلاف المجتهدين، مصيبين كانوا أو مخطئين•• وكذلك نربي الأمة على الانتماء لحضارتها وصُنَّاعها والاعتزاز بهم، دون أن نقدسهم أو نرتفع بهم إلى درجة العصمة••• فلا عصمة لأحد بعد رسول الله، خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام•

والويل لأمة تتربص بتاريخها أو تشوهه أو تكبِّر لحظات الضعف فيه، أو تمضي في طريقها من دون معالم تستلهمها من حضارتها•

إنها . عندئذ . أمة ضائعة، تائهة، قد ضلت الطريق!!

إن تاريخنا، وحضارتنا، ليسا للبيع، وإن مؤرخينا ومفكرينا المنتمين الواعين بسنن الله في التقدم، يجب أن يجندوا أنفسهم للذود عن هذا التاريخ، وهذه الحضارة، وأن يحسنوا . كذلك . توظيفهما للانبعاث الحضاري العصري المنشود .

كاتب المقال: د. عبد الحليم عويس

المصدر: الشبكة الإسلامية

===============

حوار الحضارات بين الحقيقة و الخداع

أ. مجدي أحمد حسين*

منذ انهيار المعسكر الشيوعي قفز إلى رأس جدول أعمال العالم موضوع الصراع بين الغرب و الإسلام وتحول إلى محور رئيسي للسياسات الدولية, وفى المقابل بدأ الترويج لمقولة مضادة وهى حوار الحضارات بعيدا عن صراع الحضارات, وتشكلت من أجل ذلك العديد من المنتديات الدولية.

في العالم الإسلامي ظن البعض أن مواجهة العداء الغربي للإسلام تتم من خلال عدة محاور: إبراز شعار حوار الحضارات – تحسين صورة الإسلام في الغرب – تغيير الخطاب الديني الإسلامي بحيث يكون مقبولا على المستوى الدولي عامة والغربي خاصة.

حول هذا الموضوع جرت الكثير من المساجلات اختلط فيها الثابت مع المتغير, اختلط فيها تحديد من أين نشأت المشكلة بين الشرق والغرب, أو بالأحرى أي جانب هو المسئول عن سوء التفاهم , اختلط فيها ما هو عقدي مع ما هو سياسي , ما هو مبدئي مع ما هو عملي (براجماتي) , بل اختلط فيها كثير من الحقائق الساطعة , من المسئول عن أزمة الثقة , من المعتدِي ومن المعتدَى عليه , بل غلب على النخبة الإسلامية الرسمية وغير الرسمية الطابع الاعتذاري عن جرائم لم نرتكبها , وكأن ضعفنا المادي وتأخرنا عن مواكبة أسباب التكنولوجيا المتطورة سبب كاف لخلط الأوراق , وعدم ذكر الحقائق التي جرت وتجرى على مشهد ومرأى من العالمين.

ولكل هذه الأسباب أرى أن أركز على الثوابت الإسلامية فيما يتعلق بهذا الموضوع: نحن والغرب أو بالأحرى نحن وكل الآخرين من غير المسلمين.

وسنجد في إسلامنا كل ما يمكن أن نفاخر به , بل ونتحدى إذا كان لدى الآخرين ما هو أفضل وأكثر عدلا ورقيا فإننا على استعداد لأن نأخذ به .(وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) سبأ ٢٤.

الحوار والتفاهم والتعارف:

لنبدأ بالنقطة الجوهرية التي أفاض فيها الكثيرون من النخبة الرسمية وغير الرسمية في بلاد المسلمين , والتي يركزون عليها دون باقي النقاط المكملة لها , ولكننا نبدأ بها لنؤكد أنها فكرة صحيحة وأساسية بلا خلاف , ولكنها ليست كافية لعرض موقفنا كله إزاء المتغيرات المختلفة .

ونقصد أن الإسلام يحض على الحوار والتفاهم والتعارف والتعايش السلمي, ذلك أن الدين الحق لا يقوم إلا على الإقناع و الاقتناع, ولا يوجد إيمان بحد السيف , فالإيمان لغة هو التصديق.(١)

وآيات القرآن عديدة في هذا المجال .. (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة. وجادلهم بالتي هي أحسن)النحل١٢٥ . (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) البقرة ٢٥٦ .. (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)يونس٩٩.

ولأن البشرية تنقسم إلى شعوب و قبائل فان الدعوة تكون (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا , إن أكرمكم عند الله أتقاكم)الحجرات١٣.

وعندما تتمايز الأمم فان الهدف الأسمى هو التعايش والتعارف وعدم استعلاء طائفة على أخرى, أو لا أمة على أمة, ثم يكون الأكرم عند الله هو الأكثر تقوى, والحساب النهائي عند الله وليس على هذه الأرض الفانية. وحتى الخلاف العقدي فهو متروك لله عز وجل كي يحكم فيه يوم القيامة (ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون)آل عمران٥٥.

إذن من وجهة النظر الإسلامية الخالصة, لا توجد أي مشكلة على الأرض , بسبب الخلاف في الرأي أو العقيدة أو اللون أو العرق أو القومية, بل إن الإسلام يدعو إلى مباراة سلمية في إعمار الأرض والتخلية بين الإنسان و اختياراته العقدية.

من أين يأتي الصدام؟!

من أين يأتي الصدام إذن ؟ من أين تنشأ المشكلة؟

تأتى من الطرف الذي يرفض المبادرة السلمية ويستخدم وسائل الإكراه في فرض هيمنته ورؤيته ومصالحه.

وإذا افترضنا أن الكرة الأرضية مسرح واحد متواصل فإننا كإسلاميين نقبل منطق المباراة السلمية, ولترفع العقبات والروادع عن كل الرؤى والأيديولوجيات ولنترك الحكم لجمهور البشرية, ولكن الغرب لم يقبل بهذا المنهج، بل وصل الأمر إلى حد التدخل في شؤون الدول العربية و الإسلامية ضد الأنظمة ذات التوجه القومي, ثم ضد الأنظمة ذات التوجه الإسلامي, ثم انتقل الآن إلى الأنظمة الصديقة يريد أن يتدخل في أسلوب حياة مجتمعاتها ومناهج التعليم و الخطاب الديني.

والآن تتم عملية تعليق هذا التدخل على مشجب أحداث ١١ سبتمبر في حين أن تاريخ التدخلات قديم ولم ينقطع بعد فترة الاستعمار التقليدي, وكانت التدخلات الغربية متصاعدة في العقدين الأخيرين من القرن العشرين, وعندما نشير إلى الغرب فإننا نشير بشكل خاص إلى الولايات المتحدة الأمريكية التي اتخذت السياسة الأكثر غلوا, ولكن أوروبا لم تعارض هذا التوجه الأمريكي جذريا ولم تقدم بديلا متماسكا للعلاقات بين الإسلام و الغرب, وكان خلافها مع الولايات المتحدة تكتيكيا خاصة ألمانيا وفرنسا وبلجيكا. بل لقد عادت بنا الولايات المتحدة إلى مرحلة الاستعمار التقليدي مرة أخرى باحتلال أفغانستان والعراق والتهديد باحتلال دول أخرى.

وبالتالي نحن أمام الوضع التالي:

العالم الإسلامي لا يتدخل (ولا يقوى) في الشئون الداخلية للعالم الغربي, بينما يتعرض هو للاعتداء والاحتلال و التدخل في أخص شؤونه الداخلية.

والعقيدة الإسلامية توفر أعدل منهج للتعايش السلمي بين الحضارات, ولكننا لا يمكن أن نرفع شعار الحوار الحضاري مع الجيوش الغازية لأراضينا والمتواجدة في عدد كبير من الدول العربية و الإسلامية.

أما المنهج الذي نعتبره الأكثر عدالة, فقد نص عليه القرآن الكريم في قواعد نعرضها للاحتكام إليها, وأين يمكن أن نجد معيارا أكثر عدالة من ذلك؟! وإذا زعم أحد أن هناك ما هو أفضل من ذلك, فنحن على استعداد لمناقشته باعتبار أن الغرب في مجموعه لا يؤمن بطبيعة الحال بقداسة ما ورد بالقرآن الكريم, ولكننا نعرضه للمناقشة العقلية البحتة.

(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين , إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون)الممتحنة ٨-٩.

من هاتين الآيتين نستخرج مجموعة من القواعد الأساسية التي تحكم علاقة المسلمين بغيرهم سواء أكانوا أهل كتاب أو مشركين أو غير مؤمنين بأي دين من الأديان:

١- إن المسلمين ملتزمون بحسن العلاقة مع غيرهم من بنى البشر , ذلك أن الأصل في الإسلام هو السلام والمحبة , ونشر البر والعدل بين الناس قاطبة على اختلاف أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم(٢).

٢- إن عداوة المسلمين يجب أن تنصب حصرا على الذين يحاربونهم لتغيير دينهم , أو يعتدون على حرماتهم : النفس و الوطن.

٣- إن المسلمين لا يحاربون ولا يعادون ولا يعلنون الجهاد ضد الآخرين بسبب عقيدتهم ولكن دفاعا عن النفس والعقيدة وهى ضرورة للمحافظة على الذات فإذا انتفى هذا المبرر فلا مجال للحديث عن قطع كل صلات بالمخالفين في الرأي فضلا عن قتالهم, فالنهى عن الصداقة والمحبة والتحالف منصب على الذين ما يزالون مستمرين في حربهم و عدوانهم.

*****

نحن إذن أمام قاعدة أساسية واحدة تجمعها هذه الأبعاد الثلاثة ..

إن العلة في المقاطعة والقتال و العداوة, هي الفعل الدفاعي ردا على العدوان وحماية النفس والوطن والعقيدة, وليس لنشر الدين بالقوة أو لإبادة المخالفين في الرأي والعقيدة.

وهذا أمر بدهي لا يمكن أن يرفضه أحد بأي منطق وبأي معيار , فأنا باختصار أطالب المخالف لي بالحد الأدنى الذي لا يمكن الهبوط عنه وهو (ألا يقتلني) و (ألا يخرجني من وطني) هذا مطلب عادل لأنه غريزي , ولأنه مطلب لكل إنسان على الأرض , و التفريط في هذا الحد الأدنى معناه: العدم!!

ربما يرد أحد الغربيين فيقول هذا كلام حسن ولكننا لم نره في التاريخ, وما فائدة الكلام الحسن الذي لا يمكن أن يطبق. ونقول:

أولاَ: إن التاريخ يثبت أن هذه المقولات لم تكن غائبة.

ثانيا: حتى وإن اختلفنا في تقييم التاريخ فإننا نقترح على الغرب هذا الميثاق من جديد خاصة وأنهم عندما يتحدثون عن خطر الإسلام كقوة غازية لا يجدون إلا معارك بواتييه(٧٤١م) و فيينا(عام ١٦٨٤م). ونحن الذين نتعرض لحملات عسكرية متواصلة بل ومذابح في القرون الأخيرة خاصة خلال القرنين الأخيرين ١٩ و ٢٠ .

نظرة على التاريخ:

في إطار هذه الورقة المكثفة يصعب تقديم عرض أو تحليل شامل لتاريخ العلاقات بين الإسلام و الغرب.. وهنا نكتفي بعدة محطات:

المحطة الأولى

* الدعوة الإسلامية في موطنها الأصلي لا يمكن أن تقارن معاركها التي فرضت عليها بأي معارك في التاريخ السابق أو اللاحق لها من حيث محدودية العنف, فالمعارك فرضت أولا على المسلمين بقتلهم وتعذيبهم وإخراجهم من ديارهم على مدار ١٣ عاما , وعندما تأسست دولة المدينة خاضت دفاعا عن النفس والعقيدة خمسين مواجهة عسكرية لم يتجاوز عدد ضحاياها بأجمعها تسعمائة رجل في المعسكرين سقطوا في ساحة القتال خلال ١٠ سنوات(٣), قارن هذا العدد بالحرب الدينية الأوروبية التي عرفت بحرب الثلاثين سنة (١٦١٨-١٦٤٨)والتي كانت حربا كاثوليكية بروتستانتية و أدت إلى مقتل ٣٠% من السكان في وسط أوروبا(٤) .

* أما موقف الدين الإسلامي في بداية عهده من اليهود .. فقد كانت وثيقة المدينة التي أعطتهم حق المواطنة الكاملة مع المسلمين, ولكنهم هم الذين رفضوا هذه المواطنة و تعاونوا مع الأعداء ضد مدينتهم فكان الصدام.

* أما بالنسبة للإمبراطورية الرومانية فهي التي بادرت بالعداء للدين الجديد من خلال قبائل الغساسنة الحليفة, حتى أن مبعوث الرسول إلى هرقل قد تم قتله. وقد كانت هذه المواقف وراء غزوات مؤتة وتبوك وبعثة أسامة بن زيد.

* أما بالنسبة للدولة الفارسية فقد كان الفرس يضطهدون الفرق المخالفة لعبادتهم (النار) من يهود ونصارى وصابئة وبوذيين وماتويين, وكان للفرس قبائل عربية تابعة لهم في الحيرة وكانوا يحتلون البحرين واليمن , وعندما تلقى كسرى كتابا من محمد عليه الصلاة و السلام مزقه وأرسل إلى عامله على اليمن يأمره بأن يرسل رجلين قويين من عنده ليأتياه بمحمد (أو رأسه في رواية أخرى) . ثم بدأ عرب الحيرة التابعون للفرس الاعتداء على المسلمين المجاورين لهم. فأرسل أبو بكر خالد بن الوليد ليكف أذاهم , ويؤمن جيرانهم المسلمين وعندما انتصر عليهم حنق ملك الفرس وثار لأتباعه فكانت الحرب بينه وبين المسلمين في عهد عمر(٥).

المحطة الثانية:

عندما شنت أوروبا الحروب الصليبية التي دامت قرنين كاملين, وكانت اعتداء ماديا من جيوش أوروبية على أراضى مسلمين مشارقة . ٨ حملات وحشية. ونكتفي بما حدث في القدس كرمز لهذه المرحلة.

دخل الصليبيون القدس بمجزرة ذبح فيها سبعون ألفا من المسلمين. غرقت الدروب كما يحكى المؤرخون فى الدماء, وخاضت الخيول حتى الركب في السائل الأحمر . لكن بعد مائتي عام , طرد صلاح الدين الأيوبي الفرنجة من القدس , ليكون المؤرخون الأوربيون أول المنبهرين بسماحة وحلم وسلم القائد الكبير المنتصر مع أعدائه المنهزمين(٦).

وقد سجل المؤرخون أن الصليبيين عندما دخلوا القدس أحرقوا يهود القدس أحياء في كنيسهم, في حين تم الإبقاء على معظم الأماكن المقدسة المسيحية واليهودية بدون أن يمسها سوء خلال الحكم العربي الإسلامي كله(٧).

المحطة الثالثة:

الحروب التي دارت على الأرض الأوروبية سواء في الأندلس أو في شرق أوروبا في العهد العثماني. يعترف كثير من المؤرخين الغربيين (مثل المؤرخ البيزنطي خالكو كونديلاس khalkokondylas والمؤرخ الانجليزي جيبون Gibbons) وغيرهم كثير بأن النظام العثماني كان يتعامل مع الدول و الأشخاص غير المعادين بالحسنى واللين والكرم مهما كانت أديانهم وأنه عامل الأرثوذكس معاملة أفضل بأضعاف من معاملة الكاثوليك للأرثوذكس(٨).

وكان فتح القسطنطينية هدفا رئيسيا للسياسة الإسلامية منذ القرن الهجري الأول لأنه من القسطنطينية كانت تصدر قرارات الحرب لغزو ديار الإسلام و الإغارة على الثغور.

ويعترف نورمان بينز بأن "عداوة بيزنطة للإسلام بقيت ما بقيت الإمبراطورية"

ويتحدث "فازلييف" في بحثه "بيزنطة و الإسلام" عن تفضيل الأرثوذكس الأتراك العثمانيين على (الكاثوليك) أشقائهم في الدين فيقول] ولا زال الناس يرددون تلك المقالة المأثورة التي صدرت عن رئيس ديني بيزنطي يدعى "لوكاس فاتوراس" في ذلك الحين وهى: "انه لخير لنا أن نرى العمامة التركية في مدينتنا من أن نرى تاج البابوية"[.

ومن المهم في هذا الصدد أن نشير إلى شهادة " نهرو " زعيم الهند الهندوسي: ' ومهما يكن من أمر فالواقع أن سلاطين الأتراك العثمانيين كانوا متسامحين جدا مع الكنيسة الإغريقية الأرثوذكسية"(٩).

ولعل هذه الشهادات تغنينا عن سرد تفاصيل رهيبة من خلال عملية مقارنة تاريخية بين سياسة الدولة الإسلامية العثمانية , وسياسة الإمارات الأوروبية التي كانت تستخدم أساليب الاستئصال و الإفناء الكلى بالمعنى الحرفي, أي قتل جميع المسلمين في المناطق التي يسيطرون عليها , حدث هذا بنسبة ١٠٠% في الأندلس , وبنسبة ١٠٠% في مناطق كثيرة بشرق أوروبا, رغم أن الأغلبية الساحقة من مسلمي شرق أوروبا هم من أصل أوروبي (وليسوا أتراكا) ودخلوا الإسلام طواعية , لأنهم لو كانوا دخلوا مكرهين , لتحولوا سريعا إلى المذاهب المسيحية بمجرد انكسار

الجيش العثماني في بلادهم. وحدث الاستئصال بنسب أقل من ١٠٠% في مناطق أخرى. وحقائق التاريخ مفزعة , فالمسلمون كانوا أكثر من ٥٠% من سكان بلغاريا في القرن التاسع عشر أما في إحصاء ١٩٨٢ فقد أصبحوا يمثلون ١٧% من السكان !

وكان عدد المسلمين في اليونان يقارب نصف العدد الإجمالي للسكان حتى عام ١٨٣٢ أما الآن فهم يمثلون ٣% من السكان !!

وفى جزيرة كريت كان المسلمون يشكلون الأغلبية الساحقة من سكانها حتى منتصف القرن التاسع عشر , وظل المسلمون متواجدين حتى عام ١٩١٣ , أما الآن فلا وجود لأي مسلم في الجزيرة في وقتنا الحاضر!؟(١٠)

*****

وإذا عبرنا مرحلة الاستعمار الحديث (الاحتلال الفرنسي – الإنجليزي – الأوروبي عموما) لبلاد العرب والمسلمين والتي كانت في الحقيقة حملة صليبية تاسعة ولكن بشعارات مختلفة , فإننا نواجه الآن حملة استعمارية صليبية عاشرة . ومن المؤكد أن أي قوات إسلامية لم تطأ أرضا أوروبية أو أمريكية منذ أواخر القرن التاسع عشر. ولا يمكن تبرير هذه الحملة لاحتلال أراضى العرب و المسلمين بالعقد القديمة من الدولة العثمانية حتى و إن سلمنا بأي وجهة نظر غربية متطرفة ضد هذه الحقبة, فلا يمكن تبرير الحروب بالهواجس التاريخية القديمة. ومن المفترض أن الأجيال والعهود المختلفة تحاول في عصرها أن تضع ضوابط في العلاقات السياسية الداخلية أو الدولية.

في هذه الغزوة المعاصرة الصهيونية – الأمريكية , تقدم تبريرات بأن هدفها هو البترول (وأنها ليست حربا دينية) وكأن الاستيلاء على بترول العرب والمسلمين مسألة مشروعة أو مبررة أو فيها نظر , وكأن الاستيلاء على مكامن قوتنا الاقتصادية لا يؤدى إلى إضعافنا وإذلالنا وتحويلنا إلى تابعين.

وتردد كثير من الأبحاث والدراسات أن سقوط الاتحاد السوفيتي , وانتهاء الصراع السوفيتي–الأمريكي , الشيوعي–الرأسمالي , هو الذي فتح الطريق للصراع بين الغرب و الإسلام, والحقيقة أن العداء الغربي للإسلام لم ينقطع (الثورة الإسلامية الإيرانية

وثورة الإنقاذ السودانية حوربتا من الغرب رغم وجود الاتحاد السوفيتي) , ولا يقلل من هذا الموقف التكتيكي لأمريكا من الجهاد الأفغاني ضد الاحتلال السوفيتي, فلاشك أن الخطر السوفيتي كان الخطر رقم واحد , والآن ارتفع الإسلام إلى المرتبة الأولى وأصبح في الصدارة , رغم أنه لم يتشكل بعد كقوة عظمى , بل تسعى أمريكا والغرب للحيلولة دون قيام هذه الدولة العظمى ذات الرؤية الحضارية البديلة , وهى بهذا المعنى المنافس الوحيد للهيمنة الأمريكية والغربية , هذا بالإضافة إلى البعد العددي حيث تقدر الدراسات المستقبلية الغربية أن المسلمين سيشكلون ٤٠% من البشرية منتصف القرن الحالي . هذه الرؤية ليست بنت مرحلة العولمة أو النظام العالمي الجديد أو ما يسمى المسيحية الصهيونية المسيطرة الآن على السلطة في واشنطن ولندن. فقد سبق لـ "أرنست رينان" المؤرخ ذائع الصيت أن قالها بصراحة وفظاظة عام ١٨٦٢ : "إن الشرط الأساسي لانتشار الحضارة الأوروبية هو تحطيم الإسلامية. وتلك هي الحرب الدائمة , حرب لن تضع أوزارها إلا بعد أن يموت بؤسا آخر حفيد لإسماعيل أو يرد على عقبيه إلى أعماق الصحراء , لأن الإسلام هو أكبر نفى لأوروبا , ستفتح أوروبا العالم وتنشر دينها المتمثل في القانون , في الحرية , في احترام الإنسان وهى عقيدة ذات طابع الهي تحملها البشرية".

وهذا نفسه ما يقوله جورج دابليو بوش الآن عن أنه يشن حربا باسم السماء, وأن الله قد اختار الشعب الأمريكي لأداء هذه الرسالة. وما يقوله ممثلو الكنيسة المعمدانية الجنوبية – التي خرج من عباءتها معظم رؤساء أمريكا – من أمثال جيري فولويل وبات روبرتسون, وما يقوله رامسفيلد ومساعدوه, وهو يتضمن إعلان حرب على الإسلام كدين, وليس على ما يسمى الحركات الإرهابية. (الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إرهابي – القرآن كتاب يحض على العنف – اله المسلمين وثن – وعندما نحاربهم فنحن نحارب الشيطان ...الخ)

ولا شك أن الصراع ينطوي على استراتيجية للهيمنة والسيادة العالمية وأن هذا التوجه العدواني مشبع بالمصالح الاقتصادية والسياسية, ولكنه يستظل بهذه المظلة العقائدية (المسيحية الصهيونية,التي تربط نهاية العالم بعودة المسيح عقب معركة هر

مجدون.. وعقب تجمع اليهود في فلسطين , وهدم المسجد الأقصى وإقامة الهيكل على أنقاضه)، وبكل هذه المعاني نحن أمام حرب دينية حضارية.

وعبر التاريخ فان القوى العظمى لا تتخلى طواعية عن سيادتها العالمية, ولا تتراجع إلا عندما تتغير موازين القوى التي تجبرها على هذا التراجع. ولكننا نزعم انه عندما سادت حضارتنا فإننا لم نفرض ديننا ورؤيتنا على المخالفين لنا في الدين . هذا حدث في أوروبا , وحدث في الهند التي ظلت أغلبيتها هندوسية في ظل الحكم الإسلامي المديد , وحدث في مجمل أراضى آسيا , وحدث في قلب المنطقة العربية ذاتها , حيث لم تتعرض الأقليات المسيحية إلى أي حالة من الاستئصال. ويكفى أن نشير إلى حالة مصر , حيث ظل المسلمون منذ الفتح عام ٦٤٠م – ٢٠ هجرية أقلية لأكثر من قرنين , وظل الإسلام ينتشر بصورة طوعية بطيئة حتى أن المسلمين لم يصبحوا أغلبية إلا في عهد الدولة الطولونية (٨٦٨–٩٠٥م , ٢٥٤–٢٩٢هجرية)(١١) . وقارن ذلك بما حدث في الأندلس وبلغاريا واليونان..الخ

*****

ولا نطرح كل ذلك على سبيل التفاخر أو الكيد, فنحن على استعداد دائما لفتح صفحة جديدة, ونحاول في عصرنا الحديث أن نضع الضوابط الدولية التي يمكن أن تحكم تعايش الحضارات.

ولكنهم, ولأنهم الأقوى, لا يستمعون إلينا إلا على سبيل الخداع ومضيعة الوقت والمناورة.ونحن نشير إلى الفئات الحاكمة المسيطرة والتي تحظى بقبول الأكثرية, ولا يعنى ذلك عدم وجود فئات أو شرائح أو منظمات أهلية في الغرب يمكن التحاور بل والتعاون معها. ولقد كانت هناك و لاتزال فرصة تاريخية لإنشاء جبهة عالمية إنسانية ضد مشروع الهيمنة الأمريكية – الصهيونية, ولقد قدمت الحركات الشعبية في الغرب المناهضة للحرب في العراق فرصة لهذه الجبهة الإنسانية ضد الحرب وضد العولمة (الهيمنة) الأمريكية.

ولكن حديثنا ينصب على القوى المسيطرة في الغرب(وأمريكا خاصة) والتي تحظى بقبول شعبي عام من خلال الانتخابات . وهذه لا يجوز الحوار معها وهى تعتدي وتحتل أراضى المسلمين وتساند الكيان الصهيوني, وتستهين بمقدساتنا, بل وتقيم

حكومات يرأسها أمريكيون (كرزاي – بريمر) , بل وصل الأمر إلى حد استباحة المدنيين على نطاق واسع , استباحة النساء والشيوخ و الأطفال في حالتي الحرب أو الاحتلال (فلسطين – العراق – أفغانستان كحالات صارخة) . فهؤلاء لا يمكن الحوار معهم إلا بالسيف حتى يتراجعوا عن عدوانهم.

إن موقفنا كمسلمين من الغرب تحكمه الآيتان المشار إليهما من سورة الممتحنة (لا ينهاكم الله......) والتي حولها الفقه الإسلامي مع آيات أخرى إلى هذا التقسيم الأزلي الذي لا يعتوره أي تبديل عبر الأزمان لأنه مشتق من القرآن الكريم ،أي تقسيم العالم إلى ..

١- دار السلام ٢- دار الحرب ٣- دار العهد

- فدار السلام هي دار الإسلام حيث يتعين أن تكون أمة واحدة, والأمة الواحدة يتعين عليها أن تحكمها تقاليد الإسلام حتى أن الذي يخرج عليها بغيا يتعين محاربته لرده إلى الصواب (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين, إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون) الحجرات ٩-١٠.

ويدخل في دار السلام بطبيعة الحال كل مواطني الدولة الإسلامية من أهل العقائد غير الإسلامية حيث تكون لهم حقوق المواطنة الكاملة.

- دار الحرب هي الدول غير الإسلامية المحاربة للمسلمين , المعتدية على أراضيهم , المستبيحة لديارهم ومقدساتهم أو التي تبيد المسلمين على أراضيها.

- دار العهد هي الدول غير الإسلامية التي – بتعبيرات العصر- توقع معاهدة عدم اعتداء مع العالم الإسلامي, وتلتزم بها, وتصون حقوق المسلمين لديها, فهذه يمكن التعاون وإقامة علاقات طبيعية تماما معها. أقرب مثال لها الآن الصين وبعض الدول الأوروبية(كفرنسا وألمانيا) ودول أمريكا اللاتينية.

*****

ويتعين أن نطالب الدول الغربية الموجودة في خانة دار الحرب أن تنتقل إلى خانة دار العهد, وهى مطالبة ساذجة, إذا لم تكن مرهونة بتنامي قوة المسلمين, وتغيير

موازين القوى, ولكن ضعفنا المادي الراهن لا يبرر –من الناحية الشرعية– التغاضي عن دول دار الحرب واعتبارها وكأنها دول من دار العهد. والجهاد في فلسطين والعراق وأفغانستان يؤكد أن المقاومة ممكنة رغم الفجوة التكنولوجية. وأن المعتدين لابد أن يألموا – كما نألم – حتى يستمعوا إلى كلام الحق. ولنلحظ هذه الدقة القرآنية في الربط بين الحرب و السلام .. حيث يتضح لنا أن القوة أساس السلام, وهذا ما أكدته وقائع التاريخ..

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله و عدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم) الأنفال ٦٠ يتبعها مباشرة (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم) الأنفال٦١.

أي عندما تمتلكون من أسباب القوة ما يكفى فان باب السلم سينفتح.

وعلينا في هذه الحالة أن نقبل بالسلم حتى وإن كانت النوايا غير خالصة وغير موثوقة. (وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين). الأنفال ٦٢

وحتى عندما نبرم العهود فإننا لا ننقضها, ولا ننقض على الدول غير الإسلامية بأسلوب الغدر والخيانة , ذلك إن الغدر مرفوض حتى مع المخالفين لنا في الدين.

(وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين) الأنفال ٥٨.

والمقصود أننا إذا لاحظنا بوادر الخيانة من الآخرين , كحشد الحشود على الحدود , والخروج عن شروط معاهدة السلام فانه يتعين توجيه الإنذار قبل تبديل موقف السلم إلى الحرب , وهذا ما أقر به القانون الدولي مؤخرا ..

*****

والأمر المثير للحذر و القلق, أن الولايات المتحدة تتحدث عن أن أمنها القومي مهدد من المسلمين , وهذه مبالغة لا معنى لها , فأين هي الدولة الإسلامية التي يمكن أن تهدد الولايات المتحدة , ولكن الولايات المتحدة تعتبر أن حدودها تشمل كل الكرة الأرضية , وهذا أمر غير مقبول ولا يمكن التسليم به إلا لمن يريد أن يلغى شخصيته وحضارته ووجوده.

وفى النهاية نقول: إن حوار الحضارات كلمة حق ولكن يجب ألا يراد بها باطل, وهو خداعنا وكسب الوقت لمزيد من احتلال الأراضي, وألا يكون حوار الحضارات معناه, أن نغير ديننا (الخطاب الديني) ونظم تعليمنا وثقافتنا , ونستغني عن استقلالنا , وأن نتطابق مع مفاهيم العولمة الأمريكية في شتى المجالات.

كذلك فإن الحوار بمعناه الفكري الحضاري مرفوض مع المعتدين المحاربين لأن هؤلاء لا يعرفون ولا يستجيبون إلا للغة القوة.

ولكن في المقابل علينا أن نشن هجوما إسلاميا بالحوار مع كافة الحضارات والدول غير المحاربة في آسيا وأوروبا وأمريكا اللاتينية , وأن نسعى لتأسيس جبهة إنسانية عالمية حكومية وشعبية لمحاصرة العولمة الأمريكية–الصهيونية في مرحلتها العسكرية المتغطرسة.

الهامش

١- مختار الصحاح للشيخ الإمام محمد بن أبى بكر عبد القادر الرازي – المكتبة العصرية – صيدا بيروت, الطبعة الرابعة ١٩٩٨ – ص٢٢

٢- تفسير القرآن الكريم من سورة الأحقاف إلى سورة المرسلات – أحمد حسين – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – مصر ١٩٧٦ – ص٣٨٥

٣- الإسلام والحداثة – عبد السلام ياسين – دار الآفاق – الطبعة الأولى ٢٠٠٠ – ص٢٠٨

٤- هل تحتاج أمريكا إلى سياسة خارجية؟ هنري كيسنجر – دار الكتاب العربى – بيروت – ٢٠٠٢ – ص١١

٥- الجهاد – د.أحمد محمد الحوفي – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – مصر – ١٩٧٠ ص١٦٨

٦- الإسلام والحداثة – مرجع سابق – ص٧٨

٧- الغرب والإسلام – مجموعة دراسات مترجمة – دار جهاد للنشر والتوزيع – القاهرة , الطبعة الأولى ١٩٩٤ – ص١٤٣ ترجمة و تحليل منى ياسين , مراجعة و تعقيب د.محجوب عمر

٨- تاريخ الدولة العثمانية -يلماز أوزتونا - منشورات مؤسسة فيصل للتمويل - تركيا, استانبول - ١٩٨٨ - الجزء الأول - الطبعة الأولى ص١٠٢

٩- المسألة الشرقية - محمود ثابت الشاذلي - مكتبة وهبة - القاهرة ١٩٨٩ الطبعة الأولى ص٤١ , ص١٠٢

١٠- الإسلام و المسلمون في بلاد البلقان - محمد خليفة - مركز دراسات العالم الإسلامي - مالطة - الطبعة الأولى - ١٩٩٤ ص ٢٣٠و٢٣١ و٢٨٣ و ٢٨٤و٧١٣

١١- موسوعة تاريخ مصر - أحمد حسين - دار الشعب - مصر - الجزء الثاني - الطبعة الأولى - ١٩٧٣ ص٥٠٠

* كاتب صحفي مصري

=============

خرافة حوار الحضارات ومكافحة الفقر

د. أبوبكر محمد عثمان*

أعتقد أننا فيما نسميه حوار الحضارات نتجنب الدخول بطريق مباشر أو غير مباشر إلى لب الخلاف!!..

فإذا تحدثنا عن اليهود فهم يعلمون الآية (٨٢) من سورة المائدة (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا)، والآية (٥١) من سورة النساء (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلا)، وهم يقولون: (إن أجداد المصريين الحاليين هم الذين سخروا اليهود لبناء الأهرامات وأذلّوهم).. ولذلك قتلوا آلاف الأسرى في صحراء سيناء في حرب ١٩٦٧م..

فلا مجال للحوار مع هؤلاء.

أما عن النصارى فهم يعلمون الآية (٨٢) نفسها من سورة المائدة: (وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوَا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ)؛ لذلك أحمد الله كثيرا أن هُزِم اليابانيون الوثنيون في الحرب العالمية الثانية على أيدي النصارى الأوروبيين والأمريكان؛ وقد قال الله تعالى في سورة

الروم: (ألم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥))؛ لذلك يوجد مجال للتعايش حسب الضوابط الشرعية في حدود تضيق، وتتسع حسب تشدد قادتهم، ووعي أفرادهم..

وفي هذا تفصيل مهم:

- هم يعلمون أننا نكفرهم؛ لأنهم إما أنهم يعتقدون أن عيسى بن مريم هو الله؛ قال الله تعالى في الآية (٧٢) من سورة المائدة (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)، أو أنهم يعتقدون أنه ابن الله؛ قال تعالى: (وقالت النصارى المسيح ابن الله)، أو أنهم يعتقدون أن المسيح عيسى عليه السلام ثالث ثلاثة يشكلون الإله؛ قال الله تعالى: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ).. وهم يكفروننا للسبب نفسه؛ وهو أننا لا نعتقد بألوهية عيسى؛ بل نعتقد ببشريته؛ قال الله تعالى في الآية (٧٥) من سورة المائدة: (مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ)..

لقد هزمت الأحداث الأخيرة، والرسوم المسيئة لشخص النبي صلى الله عليه وسلم، وإعادة نشرها، بل لبس وزير إيطالي قميصا عليه تلك الرسوم إمعانا في التحدي، والازدراء، والامتهان.. وكذلك تدنيس مقابر المسلمين في الدنمارك، وتدنيس المصحف الشريف في سجون أفغانستان، وأبي غريب في العراق، وجوانتانامو في كوبا، وإلقائه في المراحيض، والتبول عليه، واستعماله بدلا من مناديل الورق لمسح الخرء عن أدبارهم..

هزمت كل هذه الأحداث فكرة حوار الحضارات..

ومن قبل قتل الصرب عشرات الآلاف من المسلمين، ودفنوهم في مقابر جماعية، واغتصبوا عشرين ألف امرأة مسلمة، ولا زال المجرمان - رادوفان كاراديتش، وميلاد يتش - طليقين..

ولا يظن إلا مُغفّل أن الاتحاد الأوروبي، أو الناتو، أو موسكو، أو واشنطن لا يعرفون مكانهما؛ فإنما هي صفقات؛ يباع فيها المسلمون لقاء منافع متبادلة..

نحن لا نتحدث عن الحروب الصليبية، والفظائع في القرون الغابرة!!..

ومن قبل كسب الإسلاميون انتخابات الجزائر فانقض عليهم الجيش بأمر فرنسا وألغى نتائجها..

ولماذا يعترضون على نتائج انتخابات فلسطين – التي أوصلت حركة حماس إلى السلطة –، ويطلبون منها طلبا لا أخلاقيا بالاعتراف بإسرائيل؛ فهذا قرار الأغلبية التي انتخبتهم على برنامجهم بعدم الاعتراف بإسرائيل؟!..

ولِمَ يعترضون على ممارسات السلطات المصرية التي أفقدت الأخوان المسلمين قدرا كبيرا من أصوات الناخبين؟!..

ولماذا يصرّون على أن يدخل السُنَّة في الحكومة العراقية؟!.. طبعا ليس حبا فيهم، وفي الديموقراطية؛ ولكن لتحجيم دور إيران الشيعية في العراق؛ فهم يتمسكون بالديموقراطية فقط إذا كان فيها قهر للحركات التي تؤمن بأن الإسلام هو الحل!!..

ومن هنا أُدين قتل الشرطة للمتظاهرين ضد الرسوم، وهي تتحمل وزر القتل العمد أمام الله، وفي الوقت نفسه لن يرضى عنهم ناشرو الرسوم..

أما قول تلك الحكومات: (إن المتظاهرين يستغلون الأحداث لأغراض سياسية)؛ فهل يجب على الأحزاب السياسية أن تبارك تلك الرسوم؛ حتى لا تتهم باستغلال الدين؟!.. ثم هذا اتهام للنيات، ويدل على الجهل الفاضح بالدين؛ فالنيات لا يعلمها إلا الله.

أما تفجيرات ١١ سبتمبر فقد اتخذتها أمريكا ذريعة لغزو أفغانستان، والعراق، وللاستيلاء على النفط، وقهر المسلمين؛ بادعاء نشر الديموقراطية.. ولقد افتضح أمرهم في أول انتخابات في مصر، وفلسطين، ومن قبل في الجزائر كما أوضحنا..

مثل هذا يحدث تماما مع فكرة مؤتمرات محاربة الفقر؛ فهم يتجنبون الحديث عن السبب الحقيقي، أو المهم للفقر – ألا وهو الفساد بأنواعه – فالفقراء هم الذين يغذون خزينة الدولة بالضرائب، والزكاة، والرسوم، والغرامات المتعسفة والعشوائية، والدعوم المفروضة التي تؤخذ عنوة أو بسيف الحياء؛ كدعم الشريعة، والجهاد، والجريح، والشهيد..

بينما لا يعرف دافعوها أين تصرف هذه الأموال؟!.. والحكومة تضن عليهم حتى بهذه المعلومة؛ لأنها تعلم أنها تصرف في غير ما جمعت له – كالرواتب المُركّبة،

والحوافز المصطنعة، والبدلات، والموبايلات، والسفريات، خلا العربات، والمؤتمرات القممية، والإقليمية، والقارية، واليخوت، والفلل، والسمنارات – خصوصا تلك المخصصة لمحاربة الفقر؛ حيث توزع رقاع الدعوة المكتوبة بماء الذهب، وتعقد في أفخم الفنادق والقاعات، حيث يقدم أطيب الطعام والشراب الذي يتبقى منه على الموائد ما يكفي لمدد طويلة لطالبات الداخليات، وملاجئ المشردين، والمساجين المظاليم؛ الذين سرقوا بسبب إفقار الدولة لهم..

هذا غير السرقات، والاختلاسات، والرشاوى، والعمولات، وإعفاءات الجمارك والضرائب، وحتى دين الله تلاعبوا به؛ فديوان الزكاة يفرض عند بدء كل سنة ربطا للزكاة عن تلك السنة؛ بمعنى أنه لا بد من جمع كذا من النقد، وكذا من المحاصيل، وكذا من الحيوان – فما يدريك يا صاحب المربوط أن التجارة ستربح، وأن النبات سيثمر، وأن الحيوان سيتوالد ويتكاثر؟! – لذلك يقوم زبانية الزكاة بجمع المربوط بالتعسف.. وإنما شرع الله الزكاة نسبة من الناتج بعد ثبوته؛ وليس لك افتراضه قبل بدء الحول.. ومثل ذلك في الضريبة، مع أنه ليس في دين الله شيء اسمه الضريبة؛ فقد حكم الله أن الزكاة تكفي لإغناء الفقراء إذا جمعت من المكلفين وصرفت على المستحقين؛ ولكن الحكومة تقول: (إنها لا تكفي)!!.. وليس ذلك إلا لأن الحكومة تعفي منها كثيرا من المكلّفين، وتصرفها لكثير من غير المستحقين!!..

فقط عند الأزمات شرع الله ما يسمى (في المال حق سوى الزكاة) يحدده الإمام على قدر الحاجة، ولمدة محدودة؛ ريثما تزول الحاجة التي أوجبته.

بالله عليكم.. كفوا عن عقد مؤتمرات وسمنارات مكافحة الفقر، وأنفقوا أموالها على الفقراء والمساكين؛ حتى لا تضطروهم للسرقة، والغشّ، والتزوير، وبيع الأعراض..

هذا لحين تحقق إرادة محاربة الفساد؛ فإنها لن تكون إلا بصدق العزم، ووضوح السبيل.

=============

صراع الحضارات ومستقبل الدعوة الإسلامية

أ. د. جعفر شيخ إدريس

قُدم هذا البحث لمؤتمر عقدته مجلة البيان بقاعة الصداقة بالخرطوم يوم ١٧ رجب ١٤٢٣ هـ الموافق ٢٤سبتمبر سنة ٢٠٠٢

.

هيمنة الحضارة الغربية

إذا أردنا للحديث عن صراع الحضارات أن يكون حديثا تبنى عليه مواقف فكرية وعملية فيحسن أن لا يكون حديثا عاما، بل يحسن أن نشير فيه إلى وقائع وحالات محددة. لذلك نقول:

ما الحضارات التي يقال إنها تتصارع الآن؟

لكي نجيب عن هذا السؤال يحسن أن نتفق على ما نعنيه بكلمة الحضارة، في بحثنا هذا على الأقل. الحضارة كما نستعملها هنا هي الكلمة العربية المقابلة للكلمة الانجليزية civilization . فالحضارة بحسب ما نراه هنا مكونة من جوهر ومظهر. أما الجوهر فهو معتقداتها وقيمها وأنماط السلوك الشائعة فيها، وأما مظهرها فهو انجازاتها المادية من قوة عسكرية واقتصادية، ونظم سياسية وعمران.

الحضارة بهذا المعنى مفهوم محايد، أعني أنه لا يدل بنفسه على مدح أو ذم، شأنه في ذلك شأن عبارات الأمة، والأئمة، والخُلق والدين وغير ذلك. فالأمة قد توصف بالاستقامة أو الزيغ، والأئمة قد يكونون هداة إلى الحق أو موردين لمتبوعهم إلى النار، والخُلق قد يكون حسناً وقد يكون سيئاً، والدين قد يكون حقاً وقد يكون باطلاً. وكذلك الحضارة قد توصف بالمادية أو الإيمانية، وبالقوة أو الضعف.

فما الحضارات . بهذا المعنى . التي تتصارع في عصرنا؟

لا نستطيع . فيما أرى . أن نشير في واقعنا الراهن إلى حضارة ماثلة محددة المعالم إلا حضارة واحدة هي الحضارة الغربية. وذلك أننا حين نتحدث عن الحضارة الغربية نستطيع أن نشير إلى دولٍ قائمة تتمثل فيها هذه الحضارة: فهنالك دول أوربا الغربية، والولايات المتحدة، وكندا، واستراليا ونيوزيلاندا. يجمع بين هذه الدول كونها كلها ذات نظام سياسي واحد هو الديمقراطية الليبرالية العلمانية، وأن بينها علاقات وتعاون، وأن لها تاريخاً واحداً مشتركاً، وأن الديانة النصرانية هي أكثر الديانات انتشاراً بين شعوبها. بل إن هذه الدول لتشترك شعوبها حتى في أزياء رجالها ونسائها، وفي كثير

من اذواقها الأدبية والفنية. هذه الدول في مجموعها هي أقوى دول العالم اقتصاداً، وسلاحاً، وتأثيراً إعلامياً. حضارتها هذه هي الحضارة الغالبة المهيمنة على العالم.

هل نستطيع أن نقول مثل هذا عن أية حضارة أخري في واقعنا الراهن؟ كلا. نستطيع أن نشير إلى أقطارٍ أخرى إشارات سلبية بأن نقول إن حضارتها ليست غربية بالمعنى الكامل. فاليابان تشبه دول الحضارة الغربية في نظامها السياسي وفي تقدمها الاقتصادي، وتخالفها في تاريخها، وفي الدين السائد بين أهلها. وهي صديقة للغرب ومتعاونة معه لا مصارعة. وقل مثل ذلك عن الهند.

أما الصين فإنها تشبه الدول الغربية من حيث نموها الاقتصادي، بيد أنها تخالفها في نظامها السياسي والاقتصادي. لكن حتى هذين النظامين ليسا بنابعين من ثقافة صينية أو تاريخ صيني وإنما هما مستوردان من فكر غربي هو الفكر الماركسي.

مجموعة الدول التي كانت تسمى بالاتحاد السوفيتي كانت متشابهة في نظامها السياسي والاقتصادي، وكانت لها قوة عسكرية ورسالة أيدُلوجية ومطامع توسعية، فكانت هي فعلاً المنافسة للغرب، لكنها حتى في أوج عظمتها لم تكن تمثل حضارة متميزة. أما بعد تفكك اتحادها وسقوط نظامها السياسي والاقتصادي وذهاب بريقها الأيدلوجي، فقد صارت دولاُ ضعيفة تحاول أن تتأسى بدول الحضارة الغربية في أنظمتها، كما تحاول تحسين علاقاتها بتلك الدول، ولا سيما الولايات المتحدة، طمعاً في مالها وجاهها.

ماذا بقي؟ بقيت الدول الإسلامية. هل نستطيع أن نقول إنها تمثل اليوم حضارة بالمعنى الذي وصفنا به الحضارة الغربية؟ نقول آسفين: كلا. فإنه ليس لها نظام سياسي واحد إسلامياً كان أو غير إسلامي، وليست ملتزمة كلها بالإسلام في نظمها الاقتصادية أو التعليمية أو الإعلامية أو غيرها. وليس بينها تعاون حقيقي يذكر رغم انضمامها كلها إلى عضوية المؤتمر الإسلامي.

فليس هنالك إذن حضارة إسلامية قائمة قياماً مادياً يميزها تمييزاً كاملاً عن الحضارة الغربية، ودعك أن تكون في صراع معها. نعم كانت لنا في الماضي حضارة، بل كانت الحضارة الإسلامية هي الحضارة العالمية الوحيدة إلى بداية القرن السابع عشر

الميلادي، حضارة اعترف بوجودها وقوتها معاصروها، ويعترف بوجودها المؤرخون والمختصون بالدراسات الإسلامية حتى من الغربيين المعادين.

وعليه فنستطيع أن نقول إنه ليس هنالك في واقع الأمر صراع بين حضارة غربية وأخرى إسلامية، لأنه لا توجد اليوم حضارة إسلامية بالمعنى الذي توجد به حضارة غربية، أو بالمعنى الذي كانت توجد به حضارة إسلامية. فما مشكلتنا مع الحضارة الغربية إذن؟ مشكلتنا أن الحضارة الغربية ليست راضية حتى بهذا القليل الذي تبقى لنا من الحضارة الإسلامية، بل تريد لنا ولغيرنا أن لا نكون عقبة في طريق مصالحها القيمية أو المادية، بل أن نكون تابعين في كل ذلك لها. ومع أنه لا توجد اليوم حضارة إسلامية، إلا أن الحضارة الغربية ذات حساسية بالغة من أية بادرة بعث لتلك الحضارة لسبب تاريخي. إن قادة الفكر الغربي لا ينسون، كما أن كثيرين منا لا ينسون، أن الحضارة الإسلامية كانت كما قلنا هي الحضارة العالمية حتى القرن السابع عشر الميلادي. استمع إلى المستشرق اليهودي برنارد لويس وهو يقول في شيء من شماتة:

ظل الإسلام لقرون طويلة أعظم حضارة على وجه الأرض ـ أغنى حضارة، وأقواها، وأكثرها إبداعا في كل حقل ذي بال من حقول الجهد البشري. عسكرها، أساتذتها وتجارها كانوا يتقدمون في موقع أمامي في آسيا وأفريقيا وأوروبا، ليحملوا ما رأوه الحضارة والدين للكفار البرابرة الذين كانوا يعيشون خارج حدود العالم الإسلامي.

ثم يمضي ليقول:

ثم تغير كل شيء. فالمسلمون بدلا من يغزو الدول المسيحية ويسيطروا عليها، صاروا هم الذين تغزوهم القوى المسيحية وتسيطر عليهم. مشاعر الإحباط والغضب لما عدوه مخالفا للقانون الطبيعي والشرعي ظلت تتنامى لمدة قرون، ووصلا قمتهما في أيامنا.[١]

فقادة الحضارة الغربية يخشون على حضارتهم من كل بادرة إحياء لتلك الحضارة التي كانت سائدة. ومما يزيد من خوفهم قول المختصين منهم في التاريخ الإسلامي، إن للإسلام مقدرة عجيبة على العودة كلما هُزم.

ما الإجراءات التي يجب أن تتخذ لضمان عدم عودته؟ اختلفت الإجراءات في تفاصيلها بحسب الظروف العالمية، وبحسب التكتيكات الوقتية، لكن أمرين استراتيجيين اثنين لم يتغيرا، هما ضمان عدم رجوع الأمة إلى فهم صحيح للقرآن الكريم، وضمان استمرارها ضعيفة محتاجة إلى الغرب، أي ضمان عدم توفر الشرطين اللازمين لتمكين الأمة وبالتالى لحضارتها، وهما الكتاب الهادي والسيف الناصر[٢] قال تعالى:

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ [الحديد:٢٥]

في عهد الاحتلال المباشر لبلدان العالم الإسلامي، كان أول ما فعله المستعمرون اقصاء العلم الشرعي عن المدارس والجامعات، وحصره في دوائر ضيقة روعي أن لا يكون لها علاقة بالمجتمع ولا بالعصر. وفي هذا العهد استغلت ثروات البلاد لتغذي مصانع أوربا وتقوي اقتصادها.

بعد انتهاء عصر الاستعمار والدخول في الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتي، انشغل الغرب بعدو ماثلٍ أكبر، فلم ير بأساً من التعاون التكتيكي مع بعض حملة هذا الفهم الصحيح كما حدث في أفغانستان. لكن الهدف الاستراتيجي لم يُنس أبدا؛ فقد ظل الغرب الديمقراطي بقيادة الولايات المتحدة هو . إلى حد كبير. الذي يصنع الحكومات غير الديمقراطية ويدعمها، مراعاة لمصالحه، وخوفاً من أن تكون الديمقراطية ذريعة لوصول الإسلام إلى السلطة.

أمريكا والنظام العالمي الجديد

وبسقوط الاتحاد السوفيتي واستتباب الأمر للحضارة الغربية، دخل العالم مرحلة جديدة، مرحلة القوة العالمية الكبرى الواحدة، التي لا تدانيها من حيث إمكاناتها الاقتصادية والعسكرية والتقنية والإعلامية قوة أخرى. وبدأت تظهر تبعاً لذلك معالمُ نظامٍ عالميٍ جديد، ما تزال تفاصيله محل نقاش كبير في الولايات المتحدة. لكن يمكن تلخيص اتجاهات هذا النقاش في اتجاهين كبيرين: الدعوة إلى الانفرادية، وضرورة الاستمرار في العمل ضمن الأطر العالمية السائدة.

الاتجاه الانفرادي

يرى أصحاب الاتجاه الانفرادي الذي تقوده عصبة ممن يسمون بالمحافظين الجدد، أن تستبد الولايات المتحدة باتخاذ ما تراه من قرارات وسياسات تحقق مصالحها، وتنشر قيمها من غير تقيد بأعراف ولا قوانين دولية، ولا بمؤسسات عالمية كالأمم المتحدة. وهم يعتمدون في تسويغهم لهذا الرأي وتسويقه على أمرين:

أولهما: القوة الاقتصادية والعسكرية الهائلة للولايات المتحدة التي لم تعد تدانيها فيها قوة أخرى، هذه القوة التي جعلت الجميع يعترفون بأنه لم تعد توجد الآن إلا قوة عالمية كبرى واحدة. لكن الأعراف الدولية والقوانين العالمية السائدة حتى الآن هي في رأي المحافظين الجدد . من مخلفات نظام عالمي قديم، اقتضتها ظروف لم يعد لها الآن وجود. ولذلك فلا جناح على الولايات المتحدة أن لا تلتزم بها مادام الأمر قد استتب لها. إن الولايات المتحدة قد بلغت من القوة شأواً لا تدانيها فيه دولة أخرى. فميزانية وزارة الدفاع هي أكبر من مجموع ميزانيات الدول الاثنتين والعشرين التي تأتي بعدها، ويقولون إنها ستكون بحلول عام خمسة بعد الألفين أكبر من مجموع ميزانيات الدفاع في كل أنحاء العالم! وإذا كانت عادٌ قد قالت فيما مضى "من أشد منا قوة؟" فإن أمريكا تقول اليوم لا أحد أشد منا قوة في الحاضر، ولم يكن أحد أشد منا قوة في الماضي. ولكن كما قال ربنا لعاد، نقول لمن أطغتهم القوة اليوم: "أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة؟"

يقول أصحاب هذا الرأي من المحافظين الجدد: إن على أمريكا أن تكون هي لا المنظمات العالمية، بل ولا حتى حُلفاؤها من الدول الغربية، التي تقرر ما هو حسن وما هو سيء بالنسبة للعالم، وأن تتصرف بحسب حكمها من غير التزام بقرارات يفرضها عليها غيرها. فلسان حالهم يقول "مَا أُرِيكُمْ إلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَشاد". هذا لا يعني . كما يقولون . أن لا تستشير الولايات المتحدة غيرها، وأن لا تتعاون مع من يريد التعاون معها، ولكنه يعنى يصورة حاسمة أنه لا أحد له الحق الآن في أن يلزمها بما لا تلزم به نفسها. ولئن لم تفعل هذا فسيكون مثلها كمثل جلفر Gullive صلى الله عليه وسلم الذي تقيده أقزامُ للبيوت، كما قال أحدهم.

وثانيهما: أن عامة الأمريكان يعتقدون أنهم أصحاب رسالة عالمية. رسالتهم هي رسالة الحرية، فهم لا يرون أنفسهم بأقوى الدول فقط، وإنما هم أخيرها، بل هم خير أمة عرفها التاريخ البشري، فهم بزعمهم أكثر الناس تدينا، وأشدهم استمساكا بالأخلاق الفاضلة. نظامهم السياسي كما يرون أحسن نظام، ودستورهم أحسن وثيقة كتبت في التاريخ، ونظامهم الاقتصادي أنجح نظام، وقضاؤهم أعدل قضاء، ونظامهم التعليمي أرشد نظام، ونظامهم الصحي أفيد نظام، بل وسجونهم أكثر السجون إنسانية. أمريكا هي بلد الأحرار وبلد الشجعان وبلد الفرص. وعليه فإن استبدادهم بالأمر سيكون لخير البشرية " لأن الأمريكان كما قال أحد مفكريهم هم "حداة البشرية في سيرها نحو الكمال" لا يملك المرء إلا أن يذكر مرة أخرى مقالة فرعون "مَا أُرِيكُمْ إلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَشاد".

ولهذا تجد زعماءهم السياسيين يستغلون فيهم هذه النزعة الرسالية وإن شئت فقل الحمية، حمية الجاهلية، فيحرضون شعبهم . ولا سيما العسكريين منهم . على التضحية من أجل هذه المُثل العليا، لا من أجل المصلحة الوطنية بالمعنى المحدود، لأنهم يعلمون أن الذي يحرك الإنسان هو الاعتقاد في مثل هذه المثل، لا مجرد الدفاع عن أرض أو مصلحة مادية.

وقد ظهر هذا جلياً في الخطاب الذي ألقاه الرئيس جورج بوش لخريجي كلية وست بوينت العسكرية. فمن العبارات التي جاءت في ذلك الخطاب، الذي أنصح بقراءته: أن أمريكا تدافع عن الحرية، وأن العَلَم الأمريكي حيثما رُفع فلن يكون رمزاً لقوتنا فحسب ولكن للحرية. لقد كانت أهدافنا دائماً أكبر من مجرد الدفاع عن أنفسنا. إننا كلما حاربنا فإنما نحارب من اجل سلام عادل، سلام يختار الحرية الإنسانية. سندافع عن السلام ضد تهديدات الإرهابيين والحكام المستبدين. إننا نريد لغيرنا ما نريد لأنفسنا ـ أمن من العنف، خيرات الحرية، والأمل في حياة أحسن. إن محاربة الإرهاب تحتاج إلى صبر، ولكنها تحتاج أيضا إلى هدف خُلقي. إن أعداءنا اليوم كما كانوا أيام الحرب الباردة شموليون، يؤمنون بمبدأ القوة التي لا مكان فيها للعزة الإنسانية. لقد كان الوضوح الخُلقي ضرورياً في انتصارنا في الحرب الباردة. يرى بعضهم أنه ليس من الدبلوماسية، وربما كان من سوء الأدب، أن نتحدث عن الحق

والباطل. لكنني أختلف معهم. نعم إن الظروف المختلفة تقتضي وسائل مختلفة لكنها لا تقتضي أخلاقاً مختلفة. إن الحقيقة الخُلقية واحدة في كل ثقافة وفي كل زمان، وفي كل مكان. إن هنالك صراعاً بين الحق والشر، وستسمى أمريكا الشر باسمه.

لكن الذي يشكو منه كثير من الأمريكان أن هذا الشعور بقيمة أمريكا وتميزها بدأ يضعف جداً في أجيال الشباب الذين هم الآن في المدارس والجامعات. فقد انتشرت بينهم انتشاراً مخيفاً فواحش الإباحية، والشذوذ الجنسي وتعاطي المخدرات، وما استتبعه ذلك من غلبة للاتجاه الفردي والسخرية بالخلق والمثل.

دل استطلاع لبعض المدارس قبل جيل مضى بأن أكبر المشكلات التي يعاني منها الطلاب هي: عدم احترام الممتلكات، والكسل وعدم أداء الواجبات المنزلية، والحديث في الفصل وعدم الانتباه، التراشق بكور الورق المبلول بالبصاق، ترك المنافذ والأبواب مفتوحة. فلما أعيد ذلك الاستطلاع للمدارس نفسها قبل سنوات قليلة، كانت النتيجة أن أكبر المشكلات هي: الخوف من القتل العنيف بالبنادق أو السكاكين في المدرسة، الاغتصاب، المخدرات، الحمل، الإجهاض.[٣]

ولهذا صار كثير من الأمريكان لا يرسلون أولادهم إلى المدارس العامة، بل يفضلون لهم التعليم المنزلي

وكثيرا ما يحزن المرء حين يرى مسلما حاز على البطاقة الخضراء فطار بها فرحا إلى أمريكا ليقذف بالبنين والبنات من أطفاله في هذا المستنقع الآسن.

ومع انتشار الثقافة الغربية، وضعف الوازع الديني بدأ هذا الفساد ينتشر في بلدان العالم كله، بما في ذلك بلادنا الإسلامية.

الاتجاه الائتلافي

أما الاتجاه الائتلافي فلا يجادل أصحابه إخوانهم الانفراديين في كون الولايات المتحدة هي القوة العالمية الكبرى الوحيدة، ولا فيما يتميز به الشعب الأمريكي من صفات، لكنهم يرون أن الانفراد غير ممكن عملياً وإن أمكن فليس في مصلحة بلادهم. ومما يذكرونه في هذا الصدد:

• أن ما صار يوصف الآن بالنظام العالمي القديم كان إلى حد كبير من صنع الولايات المتحدة، وقد كان نظاماً ناجحاً حقق لها ما تريد فما الداعي الآن للانقلاب عليه وتقويضه؟

• أن القوة الحربية للولايات المتحدة ذات علاقة وثيقة باقتصادها، واقتصادها ليس أمراً محلياً تستطيع أن تصنع فيه ما تشاء، بل له ارتباط كبير بالأمم الأخري. فالأسلحة لا ينتجها البنتاجون وإنما تنتجها شركات تجارية. لكن هذه الشركات تعتمد في استمرار حياتها على السوق العالمي، بل إن منتجاتها العالية التقانة لها الآن نصيب الأسد في ما يبيعه الاقتصاد الأمريكي في السوق العالمي. على سبيل المثال فإن مبيعات هذه الشركات من الحاسوبات الرفيعة في السوق العالمي تمثل نصف دخلها.

• أن هذا سيؤدي إلى فوضى عالمية. فإذا جاز لنا أن نبدأ بشن حرب وقائية على العراق، فلماذا لا تفعل الصين ذلك بالنسبة لتايوان، أو الهند بالنسبة لباكسان؟

• وإذا أعطينا أنفسنا حق تغيير النظم، فهل سنعطيها حق الإتيان بنظم نرضى عنها؟ ماذا إذا لم يختر الناس من نريد؟ هل نعود لعصر الاحتلال؟

كيف يكون التعامل مع المسلمين، ولا سيما العرب منهم؟

حوادث الحادي من سبتمبر أكدت للغرب، وللولايات المتحدة بالذات خطر الإسلام لأنه مهما قيل عن الخطأ الذي ارتكبه من قاموا بتلك العملية إلا أن الحقيقة تبقى أنهم شباب متدينون، وأنهم ابتغوا بعملهم الشهادة، وأنهم فعلوا ما فعلوا انتقاماً للمسلمين من ظلم الحضارة الغربية متمثلة في دولتها الكبرى وقائدتها. لذلك عاد الحديث جذعاً عن المواقف التي ينبغي أن تُتخذ لدرء الخطر الإسلامي. ومن المسائل التي ذكروها في ذلك

المسألة الأولى: محاربة ما أسموه بالفهم الحرفي للإسلام

ما أسموه بالفهم الحرفي للإسلام هو في رأيهم الذي يغذي عداوة المسلمين للحضارة الغربية. ومن هنا كثر الحديث عن الإسلام الراديكالي، وعن الوهابي وعن السلفية . يقولون إنه لا يمكن أن يقال للمسلمين تنكروا لدينكم، ولكن الذي يقال لهم هو أن يفهموه فهماً لا يجعله في صدام مع مقومات الحضارة الغربية. مشكلة المسلمين

المتشددين، بحسب هذا الرأي، هي أنهم رافضون للحداثة mode صلى الله عليه وسلم nity التي تتطلب . فيما تتطلب . أن تكون الدولة دولة علمانية تعددية. فالمطلوب من المسلمين إذن أن يفعلوا ما فعله الغرب ليكتمل لدينهم التصالح مع هذه الحداثة كما تم للمسيحية والنصرانية.

كيف يكون ذلك؟ يكون

أولاً: بأن لا يعتقد المسلمون أن نصوص دينهم صالحة لكل زمان ومكان بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة، بل عليهم أن يتذكروا كما فعل الليبراليون من النصارى واليهود، أن هذه النصوص ذكرت في ظروف تاريخية وثقافية معينة، فلا يمكن أن تكون بحرفيتها مناسبة مع ظروف تاريخية وثقافية مختلفة عنها. ما الحل إذن؟ الحل هو أن نعيد تفسير هذه النصوص لتتناسب مع العصر، بأن نقول حتى عما يبدو أنه وصف لواقع كقصة قوم لوط إن هذا إنما كان كلاماً مجازياً. فلم يحدث أن دمر الله تعالى قرى أو عاقب قوما لتوجههم الجنسي. (قال أوريلى مدللا على أن القصة كانت رمزية لا حقيقية: لماذا لم يدمر الله سان فرانسسكو إذن؟)

وثانياً: بأن يفهم المسلمون بأن الحقيقة الدينية حقيقة نسبية، لأنك إذا اعتقدت أن الحق كله معك . كما يعتقد المسلمون اليوم . فستعتقد أن مخالفيك على باطل ويستحقون لذلك أن يقتلوا، هكذا قال الرئيس السابق كلنتون في محاضرة ألقاها في جامعة جورج تاون بواشنطن بعد أحداث الحادي عشر. وهذا يعنى أن يكون الأفراد داخل الدين الواحد متسامحين مع مخالفيهم في فهم دينهم، لأن لكل إنسان الحق في أن يفهم دينه كيف شاء، وأن يرى الحقيقة من منظاره. وعلى المنتمين إلى الأديان المختلفة أن يكونوا أيضا متسامحين مع مخالفيهم معتقدين بأن كل دين يهدي إلى الحقيقة بطريقته .

وثالثاً: أن يُمنع بالقانون نشر مثل هذا الفكر وتغلق كل المؤسسات التعليمية التي تنشره، وأن يعاقب الذين يروجون له أو يمولون مؤسساته.

ومما يساعد الغرب على تحقيق هذه الأهداف أن الأفكار التي تعتمد عليها قد شاعت منذ زمان بين المثقفين المسلمين، بل بين بعض الإسلاميين منهم . فقد صار الكثيرون منا جزءاً من الحضارة الغربية في فكرهم وقيمهم وطموحاتهم السياسية

وعاداتهم وتقاليدهم بل وأزيائهم الرجالية والنسائية، لأنهم صاروا يعتقدون أن الحضارة الغربية هي حضارة العصر التي لا يكون الناس متحضرين إلا بها.

المسألة الثانية: معالجة الأسباب الاجتماعية التي أدت إلى معاداة المسلمين للغرب

يرى بعض المفكرين السياسيين الغربيين أن هنالك أوضاعاً اجتماعية وسياسية بغيضة إلى الناس في العالم العربي بالذات، وأن الغرب . ولا سيما الولايات المتحدة هو . في نظرهم . الذي يقف وراء هذه الأوضاع الظالمة ويدعمها فمن الطبيعي أن يكرهوه. ماذا نفعل إذن؟

يقول بعضهم: إن الحل واضح هو أن نعمل على تحويل أنظمة العالم العربي إلى انظمة ديمقراطية حقيقية يكون الحكم فيها للأغلبية، وتصان فيها الحريات، ويحارب فيها الفساد المالي. يقول الرئيس بوش في خطابه الشهير في كلية وست بوينت:

عندما يأتي الأمر إلى حقوق الناس رجالا ونساء وحاجاتهم فليس هنالك صدام حضارات. إن متطلبات الحرية تصدق على أفريقيا وأمريكا اللاتينية والعالم الإسلامي كله. إن جماهير الناس في الأمم الإسلامية يريدون ويستحقون أن يعطوا كل الحريات والفرص التي للناس في كل أمة. وعلى حكامهم أن يستجيبوا لطموحاتهم.[٤]

يقول آخرون: لكن لا تنسوا أن أغلبية الناس في هذه البلاد كارهون لنا، وعليه فإن الحكومات التي يختارونها في النظام الديمقراطي ستكون معادية لنا.

يقول أصحاب الاقتراح أولاً إن هذا الامر ربما يكون كذلك في البداية، ولكن سيظهر لهذه الحكومات أن من مصلحتها ومصلحة شعوبها أن تتعاون مع الغرب وتكون صديقة له. وثانياً إنه ليس من الصعب علينا أن نأتي بحكومات أغلبية حقيقية تكون في الوقت نفسه صديقة لنا. هنالك وسائل كثيرة لتحقيق ذلك.

هذا ما يراه بعض الساسة الأمريكان أما نتنياهو . رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق . فله نصيحة أخرى للولايات المتحدة. فهو ينصحها بأن تغزو العراق وتغير نظامها من غير اعتبار للأمم المتحدة، وأما بالنسبة لإيران فإنه يقول فض الله فاه

إنه بإمكان الولايات المتحدة أن تُحرض على إحداث ثورة ضد النظام الإسلامي المحافظ في إيران بأن تستغل وجود الآلاف المؤلفة من الأطباق الفضائية فيها

لتوجيه برامج أمريكية قذرة كتلك التي تذيعها قناة فوكس يظهر فيها شباب وشابات حسان في حالات مختلفة من حالات العري، يعيشون حياة مادية بهيجة ويمارسون الجنس بطرق إباحية. "هذه مادة هدامة. إن الأولاد في إيران سيحبون أن تكون لهم مثل تلك الملابس الجميلة التي يرونها في تلك الأفلام. سيحبون أن تكون لهم أحواض سباحة وأساليب تلك الحياة الفاتنة[٥] [٦]

المسألة الثالثة: القضية الفلسطينية

قضية العلاقة مع إسرائيل قضية حساسة بالنسبة لغالبية السياسيين الأمريكيين، لكن هذا لم يمنع بعضهم من أن يقول إن موقف الولايات المتحدة المنحاز لإسرائيل هو من الأسباب الرئيسة لعداوة الشعوب الإسلامية ولا سيما العربية للولايات المتحدة. وأنه ما لم تحل هذه القضية حلا يراه العرب والمسلمون منصفا فإن هذه الكراهية ستستمر ، وسيستمر باستمرارها الإرهاب.

الفكر الأمريكي المعارض

ما ركزنا عليه حتى الآن هو الاتجاهات الشائعة او الغالبة في أمريكا، لكن أمريكا بلد شاسع لا يسود فيه اتجاه واحد سيادة كاملة، بل ما من رأي ديني أو سياسي أو اقتصادي شائع، إلا وله معارضون أشداء قلَّ عددهم أو كثر. وكثيراً ما تكون آراء الفئات المعارضة هذه أقرب إلى الهدي الإسلامي من غيرها. وإليك بعض الأمثلة

• فمنهم من يرى كما نرى أن ما يُسمى بالفهم الحرفي للنصوص الدينية هو الفهم الصحيح الأمين لها. فنحن نوافقهم في المنهج ونستطيع لذلك أن نناقشهم في نصوص كتبهم التي نراها مجانبة للصواب، لكننا لا نستطيع أن ندخل في حوار مثمر مع من كلما ناقشته في صحة نص قال إنه مجازي وأعطاه من المعاني ما يوافق هواه.

• بل إن من هؤلاء من يدعو كما ندعو إلى تطبيق الحدود المذكورة في العهد القديم كرجم الزاني المحصن، وقتل المرتد، حتى قال أحد الصحفيين المعارضين إذا طبقنا هذه القوانين فسنقتل الغالبية العظمى من الشعب الأمريكي!

• ومنهم من يرى أن العلمانية هي العدو الأكبر، ومادام المسلمون يوافقوننا على ذلك فيجب أن نعدهم أصدقاء لا أعداء في مواجهة هذا العدو.

• ومن غير المتدينين، بل من العلمانيين من يدرس عيوب المجتمع الأمريكي دراسة علمية ممتازة، ينبغي أن يتعلم منها المسلمون المبهورون بالحياة الغربية، فالعاقل من اتعظ بغيره. من هؤلاء فوكوياما في كتابه الانفراط العظيم.

• وهنالك من ينتقد الممارسة الواقعية للديمقراطية ويرى أنها قد حادت عن المفهوم الصحيح لها. إن الكتب والدراسات في هذا المجال تعد بالمئات إن لم نقل الألوف.

• وهنالك من ينتقد الرأسمالية إما أصلا أو ممارسة.

• وهنالك من لا يداهن في نقده للسياسة الأمريكية الخارجية ولا سيما فيما يتعلق بإسرائيل.

• ثم هنالك إخواننا الدعاة المسلمون الذين يهدي الله تعالى بهم ما يقدر بخمسين شخصا في كل يوم! فإذا كانت الحضارة الغربية قد غزت العالم الإسلامي، فإن الإسلام يدخل الآن قلوب الآلاف المؤلفة ممن هم في أرضها، لأن الناس يجدون فيه ما لا يجدون في حضارته رغم قوة سلطانها المادي ورغم سيطرتها وقوة تأثيرها على بقية بلدان العالم.

البعث الإسلامي الحضاري

إذا لم تكن في الأرض اليوم حضارة إسلامية قائمة فعلاً، فإن فرص بعثها ما زالت متوفرة ومشجعة. إن المسلمين ما زالوا بحمد الله تعالى قادرين على الأوبة إلى الكتاب الهادي، وقادرين على السعي لامتلاك السيف الناصر. وذلك:

أولاً: لأن انحراف الأمة عن دينها لم يكن . وما كان له أن يكون . ردة كاملة عامة عن الدين الحق. فهذا دين تكفل الله تعالى بحفظ كتابه كما تكفل بحفظ العاملين من علمائه. فإذا كان الله تعالى قد قال، وقوله الحق "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" فإن رسوله صلى الله عليه وسلم قد قال . غير ناطق عن هوى . لا تزالُ طائفة من أمتي ظَاهرين على الحقِ لا يَضُرُهم من خالَفهم ولا من خَذَلهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون.

ثانياً: لأنه إذا كان جوهر الحضارة . أو المدنية . وأساسها الذي يُشيَّدُ عليه بنيانها هو رسالتها، هو المعتقدات والقيم التي تستمسك وتعتز بها، فإن الجوهر والأساس الإسلامي ما يزال أقوى من منافسه العلماني الغربي. إن الإسلام يما يزال يبرهن عبر

تاريخه الطويل بأنه فعلاً فطرة الله التي فطر الناس عليها. فليس على وجه الأرض دين عبر الحواجز الجغرافية والثقافات المحلية ليبقى بين المستمسكين به . في جملته . الدين الذي أنزله الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم. فكتابه هو الكتاب الذي أنزل على رسوله، وصلوات الناس هي الصلوات كانت تقام في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وزكاته هي الزكاة، وحجه وصيامه هما كما كانا في أشكالهما ومواقيتهما. وبالرغم مما أضيف إلى هذا الدين من بدع إلا أنه يظل رغم ذلك أكثر الأديان احتفاظاً بحقيقته، وقد كان هذا وحده مما أغرى بعض الباحثين عن الحق بالدخول فيه.

ثالثاً: وما يزال هذا الدين يؤكد هذه الحقيقة بسرعة انتشاره المذهلة حتى في موطن الحضارة الغربية. فهم يقولون إن معدل سرعة انتشاره أكبر من معدل سرعة الزيادة في سكان العالم.

رابعاً: لأنه باعتباره دين الفطرة، ما يزال هو الدين الذي يجد الناس في آيات كتابه عِلماً بالإله الحق الموصوف بكل صفات الكمال المُنَزَّه عن كل صفات النقص من الولد والوالد التي تطفح بها بعض الأديان، وهدياً بأنه هو وحده المستحق للعبادة الهادي إلى أنواعها وكيفياتها. ويجدون في آيات كتابه وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم عِلماً بحقيقة أنبياء الله وما كانوا عليه من كمال بشري أَهَّلَهُم لأن يكونوا الأسوة التي يتأسى بها كل سالك طريق إلى الله. لكن الأديان المحرفة تجعل من بعضهم آلهة وأنى للبشر أن يتأسى بالإله؟ وتنسب إلى بعضهم جرائم يستنكف عن ارتكابها عامة عباد الله، فأنى يكونون أسوة لغيرهم؟

خامساً: ولأنه دين الفطرة فلا يجد الناس فيه تصادماً بين مقتضيات العقول التي فطرهم الله عليها، ولا مخالفة لحقائق الخلق التي يشاهدونها ويجربونها. فالعقل فيه نصير الدين لا خصيمه، كما هو حاله في بعض الأديان. والعلم التجريبي يشهد له ولا يشهد عليه كما يفعل مع بعض الأديان.

سادساً: ولأن الناس كما يجدون فيه حاجتهم إلى الإيمان الخالص والعبادة السليمة والأخلاق الحسنة فإنهم يجدون فيه هدياً لتنظيم الحياة الاجتماعية تنظيماً يتوافق مع

ذلك الإيمان وتلك العبادة وهاتيك الأخلاق، ويعبر عنها ويؤكدها ويحميها؛ فهو الدين الوحيد الذي لا يحتاج إلى علمانية تكمل نقصه، أو تتصالح معه.

سابعاً: وهو الدين الذي ما يزال يشهد لأحقيته سلوك المهتدين من أبنائه. فهؤلاء هم أكثر أهل الأرض ذكراً وعبادةً لله، وأبعدهم عن مساخط الله، وأكثرهم بذلاً لأنفسهم وأموالهم في سبيل الله، وأكثرهم رحمةً بصغير وتوقيراً لكبير وصلةً لرحم.

وقد اعترف بهذه الحقيقة حتى بعض علماءِ النصارى، ومن أعجبهم بيتر كريفت أستاذ الفلسفة بكلية بوستن، الذي يحث إخوانه النصارى على أن يعدوا المسلمين أصدقاء وأعوانا لهم في حربهم ضد العلمانية التي يرى فيها العدو اللدود للدين والخطر الأكبر على الحياة الاجتماعية. يقول هذا الرجل:

لماذا ينتشر الإسلام بهذه السرعة المذهلة؟ سيسارع علماء الاجتماع وعلماء النفس والمؤرخون والاقتصاديون والديمغرافيون والسياسيون إلى تفسير ذلك النمو تفسيرا دنيويا كل بحسب تخصصه. لكن الإجابة بدهية لكل مسيحي ذي صلة بالكتاب المقدس: إن الله تعالى يفي بوعده، ويبارك أولئك الذين يطيعون أوامره ويخشونه، ويعاقب الذين لا يفعلون ذلك. إن الأمر في غاية من البساطة التي يعسر على الأساتذة الأكاديميين رؤيتها: قارن بين كميات الإجهاض، وزنا المحصنين وغير المحصنين والشذوذ بين المسلمين والنصارى. ثم قارن بين كمية العبادة.[٧]

ثامناً: ولأن كثيراً من الناس في الغرب بدؤوا يشعرون بالخطر الذي تسوقهم إليه الحياة العلمانية المجردة عن الدين، خطر تمكينها للاتجاه الفردي في الناس، وإضعافها للوازع الخلقي، وعبادتها للجنس، وتحويلها الحياة إلى جهد لا معنى له ولا غاية. كل هذا يسبب للناس أنواعاً من الشقاء الروحي، فذهب الكثيرون منهم يبحثون عن دين ينقذهم فلم يجد كثير ممن عرف الإسلام منهم أكثر منه إجابة لمطالبهم الروحية والخلقية بالطريقة التي أشرنا إليها سابقاً.

وعليه فإذا كانت الحضارة الغربية قد غزت بلادنا فكرياً وخلقياً وجعلت جزءاً من الصراع بيننا وبينها صراعاً على أرضنا، وبيننا وبين أقوامنا، فإن الإسلام الآن يفعل الشيء نفسه، إنه يغزو أرض الحضارة الغربية ويجعل الصراع بينه وبينها صراعاً على أرضها وبينها وبين من كانوا بالأمس حماتها المدافعين عن حياضها.

تلك بعض فرص الدعوة إلى الإسلام وإلى بعث حضارته، وهنالك وسائل كثيرة لاستغلال هذه الفرص، لكنني لا أريد الآن الدخول في تفاصيلها، ولا في تفاصيل السعي لامتلاك السيف الناصر، فلتفاصيل كل ذلك مجال آخر. وإنما أريد أن أختم هذه المقالة بالتذكير بقواعد للعمل الإسلامي لما أرى من خطورتها ومن عدم الاهتمام الشديد بها. وهي

أولاً: أن أمر العودة للإسلام وحضارته ليس بالحمل الخفيف الذي يمكن أن ينهض به أفراد، أو تقوم به جماعة واحدة أو دولة واحدة، وإنما هو عبءٌ ثقيلٌ يجب أن تتضافر على حمله الجهود. لذلك لا بد أن يقنع كل فرد عامل للإسلام وكل جماعة وكل دولة بأن التعاون بين الساعين لتحقيق هذا الهدف أمر لازم، وأن التشاور فيما بينهم أول خطوات ذلك التعاون، ثم يأتي التنسيق وتوزيع المهام.

ثانياً: وإذا كان التعاون أمراً لازماً فيجب أن يكون السعي لبعث الحضارة الإسلامية أبعد شيء عن الحزبية. إن بعض الناس يخلط بين العمل الجماعي المنظم . وهو أمر لا بد منه . وبين الحزبية التي تحول التنظيم إلى غاية كثيراً ما يُضحى في سبيلها بالغاية التي أُنشئ من أجلها والتي كان في البداية مجرد وسيلة إليها. الحزبية أن تحصر علاقات الأخوة الإسلامية وواجباتها في من دخلوا ضمن إطار التنظيم، وأن لا يعان على عمل خير بل ولا يعترف به إلا إذا كان من منجزات الجماعة المنظمة.

ثالثاً: الالتزام الصارم الشديد بقيم العدل والصدق والأمانة والوفاء حتى في معاملة الأعداء. لأن هذه القيم قيم مطلقة لا تختص بحال دون حال. قال تعالى:

ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا. وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان.

قال المفسر الكبير ابن كثير: إن العدل واجب على كل أحد، مع كل أحد، في كل حال؟

لكن بعض العاملين للإسلام اليوم يحيدون عن هذه القيم لأوهي الأسباب، ويسلكون سلوك السياسيين الميكيافليين. ناسين أن هذه القيم قيم يحبها الله، وأن الالتزام بها حتى مع الأعداء . عبادة لله. وأنك لا يمكن أن تنصر دين الله بارتكاب مساخط الله.

رابعاً: على الأفراد وعلى الجماعات غير الحكومية أن تلتزم التزاماً معلناً وصارماً بالطرق السلمية. هذا هو الذي يدل عليه شرع الله، وهو الذي ينتهي إليه كل من اتعظ بالتجارب المريرة للجماعات التي دخلت في صراعات دموية لم تكن لها بكفء. إنك لا تحمل السلاح على من أنت تحت سلطانه، وإنما الذي يشرع لك هو الدعوة مع كف الايدي وإقامة الصلاة، فإذا كانت لك أرض مستقلة وقوة مادية فآنذاك:

أذن للدين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير.

اللَّهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

أستغفر الله، وأصلى وأسلم على خاتم رسل الله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

==============

#الآخرة كمدخل عملي إلى "الإسلام هو الحل " وكمنهج لبناء الحضارة " الإسلامية "

د. يحيى هاشم حسن فرغل

إن السر في تأخر المسلمين يكمن هنا في هجرانهم الآخرة كمنهج عملي للدخول في " الإسلام هو الحل "، ثم في هجرانهم لها كمنهج لبناء الحضارة الإسلامية

ويرجع انحرافهم في ذلك إلى أمرين على التفصيل يربطهما أمر جامع:

أما الأمر الأول: فهو انحراف في المنهج المعرفي، جعلنا نشتغل بقضايا العلم الذي لا عمل من ورائه ونشتغل بالعمل الذي لا علم فيه " علم لا ينفع ".

إن قضية الآخرة قضية جوهرية في مسألة المعرفة أساسا، وفي مسألة القيم سلوكا، وفي مسألة البناء الحضاري هدفا.

وهي إذ تسيطر على هذه المواقف كمنهج إسلامي فإنها تحول مواقفنا جميعا إلى مواقف عملية.

وتنقلنا في ممارساتنا لقضايا المعرفة والقيم والبناء الحضاري إلى المنهج العملي.

حتى في قضية الإيمان الأساس ومبدأ الدخول في الإسلام..وضع الرسول – صلى الله عليه وسلم – الآخرة كمنهج عملي بابا للدخول في الإسلام.

ففي صحيح البخاري باب {إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} (سبأ: ٤٦) روى بسنده عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: «صَعِدَ النبيّ – صلى الله عليه وسلم – الصّفا ذاتَ يومٍ فقال: يا صباحاه.فاجتمعَت إليه قريش، قالوا: ما لك؟ قال: أرأيتم لو أخبرتكم أنّ العدوّ يصبّحكم أو يمسّيكم أما كنتم تصدّقونني؟ قالوا: بلى قال: فإني نَذيرٌ لكم بينَ يَدَي عذابٍ شديد.

وفي صحيح مسلم: روى بسنده عَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} (الشعراء الآية: ٢١٤) دَعَا رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – قُرَيْشاً. فَاجْتَمَعُوا. فَعَمّ وَخَصّ. فَقَالَ: «يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيَ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النّارِ. يَا بَنِي مُرّةَ بْنِ كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النّارِ. يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النّارِ. يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النّارِ. يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النّارِ. يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النّارِ. يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النّارِ. فَإِنّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ الله شَيْئاً. غَيْرَ أَنّ لَكُمْ رَحِماً سَأَبُلّهَا بِبِلاَلِهَا ».

وفي صحيح البخاري بسنده عن أبي بُردةَ عن أبي موسى عن النبيّ – صلى الله عليه وسلم – قال: «إنما مَثَلي ومثلُ ما بَعَثَني اللهُ به كمثلِ رجلٍ أتى قوماً فقال: يا قوم إني رأيتُ الجيشَ بِعَينيّ، وإني أنا النذيرُ العُريان، فالنّجاء النجاء! فأطاعَهُ طائفةٌ من قومِهِ فأدْلجوا فانطلقوا عَلى مَهَلِهم فنَجوا، وكذّبت طائفةٌ منهم فأصبَحوا مكانهم فصبّحَهم الجيشُ فأهلكهم واجْتاحَهُمْ، فذلك مثلُ مَن أطاعني فاتّبع ما جئتُ به، ومثلُ من عصاني وكذب بما جِئت به منَ الحق».

إن الوحي عندما نزل جعل قضية الآخرة في الصدَّر، وألح عليها بشكل دائم:

(يا أيها المدثر قم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر، فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير) أول سورة المدثر

(يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم، تنزيل العزيز الرحيم لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) أول سورة يس.

(تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) أول سورة الفرقان.

(الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيها أبدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) أول الكهف.

وفي المستدرك للحاكم النيسابوري: بسنده عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن بن مسعود رضي الله – تعالى –عنه قال: تلا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ' فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام " فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: إن النور إذا دخل الصدر انفسح، فقيل: يا رسول الله هل لذلك من علم يعرف؟ قال: نعم التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله

لكن للأسف الشديد: لقد زحزحت الآخرة عن موقعها التأثيري هذا من زمن طويل. منذ بدأ احتكاك المسلمين بالثقافات غير الإسلامية.

نقلوا قديما عن الثقافة اليونانية منهج النظر بغير عمل. ثم نقلوا حديثا عن النهضة الأوربية منهج العمل بغير إيمان

وأما الأمر الثاني: فانحراف في المنهج السلوكي، جعلنا نتناول الحياة الدنيا لا على منهج الكفار فنأخذها خالصة، ونفقد الآخرة كما فقدوا، ولا على منهج الإسلام فنأخذ الآخرة قصدا وتأتينا الدنيا تبعا. ففي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: بسنده عن إبراهيم بن بشار الصوفي الخراساني خادم إبراهيم بن أدهم قال: وقف رجل صوفي على إبراهيم بن أدهم، فقال: يا أبا إسحاق لم حجبت القلوب عن الله – عز وجل –؟ قال: لأنها أحبت ما أبغض الله، أحبت الدنيا، ومالت إلى دار الغرور واللهو واللعب، وترك العمل لدار فيها حياة الأبد، في نعيم لا يزول، ولا ينفد، خالد مخلد، في ملك سرمد، لا نفاد له ولا انقطاع.

وفي مسند الشهاب لأبي عبد الله القضاعي: بسنده عن أبي أيوب قال: خرج علينا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوما فأخذ بعضادتي باب المسجد، ونادى بأعلى صوته: يا أيها الناس يا أهل الإسلام: جاء الموت بما جاء، جاء بالروح والرحمة، والكرة المباركة لأولياء الله من أهل دار السرور، الذين كان سعيهم ورغبتهم

فيها. يا أيها الناس يا أهل الإسلام: جاء الموت بما جاء، جاء بالحسرة والندامة والكرة الخاسرة لأولياء الشيطان من أهل دار الغرور الذين كان سعيهم ورغبتهم فيها، ألا إن لكل ساع غاية، وغاية كل ساع الموت.

أما الأمر الجامع لهذين الأمرين فهو عقيدتنا التي اهتزت في " الآخرة "

ليست قضية الآخرة قضية موعظة ولا مبالغة في الزهد، ولا تسكين لآلام هذه الحياة

إن حصر هذه القضية في هذه المواضع جزء من التزييف الحاصل في ثقافتنا المعاصرة.

ولا يمكن إنقاذ هذه الثقافة من فقر الدم الذي أصابها طالما نحن نضع الآخرة في تلك المواضع.

إن قضية الآخرة قضية جوهرية في مسألة المعرفة و القيم، و الحضارة.

وهي إذ تسيطر على هذه الجوانب كمنهج إسلامي فإنها تحول مواقفنا جميعا إلى مواقف عملية.

وتنقلنا في ممارساتنا لقضايا المعرفة والقيم والبناء الحضاري إلى المنهج العملي.

وللكلام بقية

صرامة قوانين النظام الإلهي:

وتأتي الجنة والنار في الآخرة ضمن سياق مبدأ " النظام " الصارم الذي يحكم الدنيا والآخرة لإرادة الله دون شبهة تعسف أو استثناء مما قد يدور في صدور بعض الملحدين.

إن الكفار والعصاة يتصادمون مع سنن الله في الكون، ومن هنا جاءت منطقية الهلاك بالنار مع كل من يخرج على هذه السنن أو هذا النظام: إنهم يتصادمون مع سبيل الله.

كل ما في الوجود فإنه يتحرك طائعا في سبيل الله، يقول – تعالى –: (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها، قالتا أتينا طائعين، فقضاهن سبع سماوات في يومين، وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم) ١١– ١٢ فصلت.

وإشكالية الإنسان في خصوصيته حيث أراد الله له أن يتحرك في سبيل الله – كما هو شأن المخلوقات جميعا إلا أنه استثناء منهم أراد له أن تكون حركته وهي واجبة عليه باختياره، وهو ممتحن فيه.

معنى في سبيل الله بالنسبة للشمس كذا وكذا مما نطلق عليه قوانين الفلك والفيزياء، وبالنسبة للقمر الأمر كذلك، وبالنسبة للنجوم والكواكب والمجرات كذلك، وبالنسبة للرياح، وبالنسبة للذرة كذلك، وفي سبيل الله بالنسبة للإنسان: أن يتحرك باختياره في هذا السبيل – أي سبيل الله – وفق إرادته – سبحانه – في: الدين، ووفق إرادته – سبحانه – في الأخلاق، ووفق إرادته – سبحانه – في الشريعة، في الاقتصاد، في العبادة إلخ

كل نشاط إنساني يسير بحركته وفقا لإرادة الله وأوامره ونواهيه هو في سبيل الله.

وكل نشاط إنساني: فرديا كان أو اجتماعيا أو دوليا يخرج عما يريده الله وعما بينته رسله هو خارج سبيل الله. ليس هذا فحسب، ولكنه اعتداء على سبيل الله: اعتداء على سبيل الله الذي ينتظم الفلك والطبيعة والحياة والحضارة جميعا.

ومن هنا فإن المخالفين يجدون أنفسهم في خلاف لا مع خالقهم فحسب، ولكن مع المخلوقات جميعا، مع الكون، مع الطبيعة، ومع قوانين الله في الطبيعة، ومع قوانين الكون المخلوق الموزون: دنيا وأخرى

ولا منجاة لهم من سحق الكون لهم بالنار، لأنها قوانين، وسنن، كقوانين الذرة، وقوانين الجاذبية، وقوانين الحياة، أو أدق وأصدق منها جميعا

ومن هنا فإننا نجد النار تسعى إلي هؤلاء المخالفين بما يشبه الجاذبية، أو تطلبهم طلبا طبيعيا، كما أنهم يتحركون نحوها حركة طبيعية كذلك، وفق سنن الله، وسبيل الله.

إن جهنم خلقت لتستقبلهم هناك في آخر طريقهم الذي سلكوه.

إنهم مطرودون من الكون، وليس لهم مكان فيه غير النار، وذلك بعد أن أخذوا فرصة النجاة بالإنذار وبالهداية والتوبة والإصلاح في هذه الدنيا فضيعوها.

النار هناك تنتظرهم، فهم وقودها:

(قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة) ٦ التحريم (وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير، إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور، تكاد تميز من الغيظ) ٦-٨ الملك.

والنار تنتظرهم هناك بطول انتظار وترقب (فأنذرتكم نارا تلظى) ١٤ الليل.

وهي تنتظرهم بشراهة (يوم نقول لجهنم هل امتلأت، وتقول هل من مزيد) ٣٠ ق

والنار تنتظرهم هنالك بكراهية (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا، إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا) ١١- ١٢ الفرقان

(إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها) ٢٩ الكهف

(وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) ٤٩ التوبة.

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس قال: (إن العبد ليجر إلى النار، فتشهق إليه شهقة البغلة إلى الشفير، ثم تزفر زفرة لا يبقى منا أحد إلا خاف).

وهي تنتظرهم عالمة بأقدارهم! فقد أخرج أبو يعلى الموصلي من حديث أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى لله عليه وسلم أنه قال: (إذا جمع الله الناس في صعيد واحد يوم القيامة أقبلت النار يركب بعضها بعضا وخزنتها يكفونها وهي تقول: وعزة ربي لَتُخَلُّن بيني وبين أزواجي، أو لأغشَيَن الناس عنقا واحدا، فيقولون: من أزواجك؟ فتقول: كل متكبر جبار) [١]

وفي رواية أخرى تقول: (وُكلت اليوم بثلاثة: بكل جبار عنيد، ومن جعل مع الله إلها آخر، ومن قتل نفسا بغير نفس، فتنطوي عليهم فتقذفهم في غمرات جهنم) أخرجه الإمام أحمد

وأخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – (يخرج يوم القيامة عنق من النار، لها عينان تبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق: تقول: إني وكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلها آخر، وبالمصورين) وصححه الترمذي.

يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيما أخرجه البزار والطبراني من حديث ابن عباس قال: (أنا آخذ بحجزكم، فاتقوا النار اتقوا النار، اتقوا الحدود) وفي رواية

للبزار قال (وأنا آخذ بحجزكم أقول: إياكم وجهنم، إياكم والحدود، إياكم وجهنم، إياكم والحدود، إياكم وجهنم، إياكم والحدود).

نحن هنا أمام أحداث كونية محكومة بمنطقية الطبيعة وبالمنطقية الأخلاقية معا، الموضوعتين والموزونتين معا بميزان الله. إن ما جاء عن الآخرة والنار في العقيدة الإسلامية يبين أننا أمام حدث محكوم بميزان الله، ما يطلق عليه الناس تجوزا أو تجاوزا: قوانين الطبيعة، ونصحح القول فيه لنقول: قوانين الكون الموزون بموازين الله. إن هذا الحدث لا يهدد الكفار والعصاة فحسب، ولكن يخشاه الملائكة والنبيون كذلك. مما يدل على صرامة قوانين الله ونفاذ مشيئته وسننه في الكون والوجود: يقول – تعالى – في شأن الجماد: (وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله) ٧٤ البقرة.

ويقول عن الملائكة والأنبياء جميعا: (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهم من خشيته مشفقون، ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم، كذلك نجزي الظالمين) ٢٦–٢٩ الأنبياء. ويقول – تعالى –لسيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – (ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة، ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا) ٣٩ الإسراء.

وأخرج الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة في حديث الشفاعة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال في شفاعة الأنبياء: (فيأتون آدم أي يطلبون منه الشفاعة فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه أمرني بأمر فعصيته، فأخاف أن يطرحني في النار، انطلقوا إلى غيري..) ثم ذكر مثل ذلك عن نوح وموسى وعيسى: (إني أخاف أن يطرحني في النار) وفي رواية للبخاري جاء فيها (ولم يزل الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون يخافون النار، ويخوفون منها).

وروى ابن أبي الدنيا من حديث فضالة عن أشياخه قال: (إن لله – عز وجل – ملائكة لم يضحك أحدهم منذ خلقت جهنم)

فما فعلة الكافر تلك؟ إنها بمنطقية السنن والقوانين وبساطتها وهولها معا: (كذب وتولى)، ومن ثم كان التارك المتروك، ترك الله فانطبق عليه قانون الكون الإلهي، هذا الكون الموزون، المحكوم بنظام، أي: تركه الله، ويا لهول من يتركه الله، ويا لضياعه (وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا) ٣٤ الجاثية. (لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) ٢٦ ص (نسوا الله فنسيهم) ٦٧ التوبة (قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم) آخر الفرقان

ويأتي مقياس القيم ليكون هو المدخل إلى منهج الإسلام في طلب الآخرة فتأتي الدنيا وهي راغمة

نعم ليأخذ بيدنا ونحن نتعثر إذ نحتاج ونحن في قلب هذه الحياة الدنيا وزخرفها إلى مقياس نعرف به ما هو من الدنيا وما هو من الآخرة؟

وإذن فالمقياس واضح في حديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – (إنما الأعمال بالنية، وإنما لامرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله رسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

وروى الإمام مسلم بسنده عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: (إن أول ما يقضى يوم القيامة عليه: رجل استشهد فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها فقال: ما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت القرآن وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال.. فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن تنفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي به في النار).

ويشرح الإمام الغزالي هذا المقياس فيقول: (كل ما ليس لله فهو من الدنيا، وكل ما هو لله فليس من الدنيا).

ثم يُرجع الأمر إلى أن التفرقة بين الحالين تقوم على طبيعة العمل وعلى القصد معا ويقول على سبيل التفصيل: (الأشياء ثلاثة أقسام: منها ما لا يتصور أن يكون لله وهو المعاصي والمحظورات، وأنواع التنعم بقصد التلذذ في المباحات.

ومنها ما تكون صلته لله ويمكن بالقصد أن يكون لغير الله مثل الفكر والذكر والكف عن الشهوات، فإن هذه الأمور إن كان الغرض منها مجرد حفظ المال والبدن والاشتهار بالتقوى فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى، وإن كانت صورته أنه لله. وإذا جرت سرا أو لم يكن عليها باعث سوى الله واليوم الآخر فهي لله وليست من الدنيا.

ومنها ما تكون صورته لحظ النفس، ويمكن أن يكون معناه لله، وذلك كالأكل والنكاح، فإن كان القصد حظ النفس فهو من الدنيا، وإن كان القصد الاستعانة به على التقوى والحصولَ على رضا الله فهو لله، وإن كانت صورته من الدنيا.)

ثم يقول: (فانظر كيف اختلف ذلك بالقصد، فإذن: الدنيا حظ نفسك العاجل، الذي لا حاجة إليه لأمر الآخرة ويعبر عنه بالهوى، وإليه الإشارة بقوله – تعالى –: (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى). ٣٩-٤١ النازعات

ومجامع الهوى خمسة أمور وهي ما جمعه الله – تعالى –في قوله – تعالى –: (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد) ٢٠ الحديد، والأمور العينية التي تتحقق منها سبعة، يجمعها قوله – تعالى –(زين للناس حب الشهوات من النساء، والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب، قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد) ١٣-١٥ آل عمران.) اهـ

وعلى الذهب والفضة يقاس اليوم الدولار وما شابه، وعلى الخيل المسومة يقاس اليوم العربات والطائرات واليخوت وما شابه، وعلى الأنعام والحرث يقاس اليوم المصانع وما شابه.

يقول الإمام الغزالي: (فقد عرفت أن كل ما هو لله فليس من الدنيا، وقدر ضرورة القوت والمسكن والملبس إن قصد به وجه الله فهو لله، والاستكثار منه تنعم وتلذذ وهو لغير الله، وبين التنعم والضرورة درجة يعبر عنها بالحاجة، وللحاجة طرفان

ووسط: طرف يقترب من الضرورة فلا يضر، فإن الاقتصار على حد الضرورة غير ممكن، وطرف يقترب من التنعم فينبغي أن يحذر منه، وبينهما وسائط متشابهة، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه) [٢]

إن اهتزاز القيم الذي يعانيه المسلم المعاصر منشؤه اهتزاز نظرتنا إلى الآخرة والدنيا اهتزازا عقائديا خطيرا

جاء في صحيح البخاري باب قولِ النبي – صلى الله عليه وسلم –: «كنْ في الدنيا كأنكَ غَرِيب، أو عابرُ سَبيل» وروى بسنده عن عبدِ الله بن عمرَ – رضي الله عنهما – قال: «أخذ رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – بمنكبي فقال: كن في الدّنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سَبيل». وكان ابنُ عمرَ يقول: «إذا أمسيتَ فلا تنتَظِر الصباح، وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء. وخُذْ من صحتِكَ لمرضِك، ومن حَياتِك لموتك ».

وفي جامع الترمذي: بسنده عن مُجَاهِدٍ عنْ ابنِ عُمرَ قَالَ: «أَخَذَ رَسُولُ الله – صلى الله عليه وسلم – بِبَعْضِ جَسَدِي فقَالَ: «كُنْ فِي الدّنْيَا كَأَنّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ وَعُدّ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ القُبُورِ»، فَقَالِ لِي ابنُ عُمر: «إِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تُحَدّث نَفْسَكَ بالمَسَاءِ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تُحَدّثْ نَفْسَكَ بالصّبَاحِ، وَخُذْ مِنْ صِحّتِكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، فَإِنّكَ لاَ تَدْرِي يَا عَبْدَ الله ما اسْمُكَ غَداً ».

وفي مسند الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمر، قال: أخذ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ببعض جسدي، فقال: «أُعْبُدِ الله كَأَنّكَ تَرَاهُ، وَكُنْ فِي الدّنَيْا كَأَنّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيل ». وفيه بسنده عن ابن عمر أيضا قال: أَخذ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بثوبي، أَو ببعض جسدي، وقال: «عبدَ الله: كُنْ كَأَنّكَ غريب أَوْ عابر سبيل، وَعُدّ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ القُبُورِ».

نعم،. فنحن لا يمكن أن ندرك ميزان القيم الصحيح فيما بين الدنيا والآخرة دون أن ندرك أن الإنسان موجود في هذه الحياة الدنيا لا لتستغرقه بمتعها ونعيمها وأهوائها.

ولكي نرجع إلى الميزان الدقيق للقيم علينا أن نتأمل كثيرا في قوله – صلى الله عليه وسلم – فيما أخرجه ابن ماجة بسنده عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: كُنّا مَعَ رَسُولِ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – بِذِي الْحُلَيْفَةِ. فَإِذَا هُوَ بِشَاةٍ مَيّتَةٍ شَائِلَةٍ بِرِجْلِهَا. فَقَالَ: «أَتُرَوْنَ هَذِهِ هَيّنَةً عَلَى صَاحِبِهَا؟ فَوَ الّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلدّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللّهِ، مِنْ هَذِهِ عَلَى

صَاحِبِهَا. وَلَوْ كَانَتِ الدّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا قَطْرَةً أَبَداً ».

وفي سنن الترمذي بسنده عن سهلِ بنِ سَعْدٍ قالَ: قالَ رَسُولُ الله – صلى الله عليه وسلم –: «لَوْ كَانَتْ الدّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ ». وَفي البَابِ عن أَبِي هُرَيْرَةَ. قال أبو عِيسَى: هذا حَدِيثٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ.

إن التأمل في هذا الحديث يعيدنا إلى الوضع الصحيح في ميزان القيم.

إنه يقرر أن الأشياء ، المقتنيات الأموال الألقاب المناصب النساب –.. هذه الأشياء معطيات هذه الحياة الدنيا تأخذ قيمتها من إرادة من هي في يده أو في أيديهم.

لوحة لفان جوخ بيعت بسبعة وثمانين مليون دولار: ماذا يعني هذا؟

فوز في مباراة التنس نال فيها الفائز عددا من ملايين الدولارات؛ ماذا يعني هذا؟

لنتوقف ولنخرج قليلا من طابور هذه الحياة، ولنتأمل.

هل يعني أن اللوحة تساوي سبعة وثمانين مليون دولار؟ أم تعني أن السبعة والثمانين مليونا هذه تساوي لوحة؟ أيهما يعطي القيمة للآخر؟

إذا كان عمل س من الناس راقصة مثلا ثمنه مليون مثلا فما ذا يعني هذا؟ هل يعني أن هذا العمل يساوي المليون، لأم يعني أن المليون يساوي هذا العمل؟

الحديث الذي ذكرناه يعيدنا إلى ميزان القيم الصحيح.

إنه يعني لا أن الكافر قيمته هذه الدنيا، ولكنه يعني أن هذه الدنيا قيمتها هذا الكافر. وإذا كان الكافر لا يساوي عند الله شيئا فهذا يعني أن الدنيا التي أخذها لا تساوي عند الله شيئا.

إن عقيدة المقَيّمين أو إرادتهم هي الأساس في إعطاء شيء ما قيمة. فإذا تغيرت العقيدة تغيرت قيم الأشياء.

ولما كان الأمر كذلك فطريقنا نحن المسلمين إلى تقييم الأشياء يرجع إلى العقيدة الإسلامية وإرادتنا النابعة منها المسلمة أمرها إلى إرادة الله.

علينا أن نعطي الأشياء قيمة أو لا نعطيها وفقا لما جاءنا به الوحي: عقيدة وشريعة، أمرا ونهيا، وأحكاما ومقاصد. وعندئذ لا تختل نظرة المسلم عندما ينظر إلى متع هذه

الحياة الدنيا وقد أعطيت كأوسع ما تكون لكافر أو لص أو عاهر، فيظن أن هذا الكافر أو اللص أو العاهر قد ارتفعت قيمته. وإنما عليه أن يتيقن أنها وقد أعطيت للكافر أو اللص أو العاهر فهذا يعني أنها وقد أخذت مقطوعة عن الآخرة فهي لا قيمة لها.

إنه يحق له أن يتألم عندما يرى ذلك ولكن لا يحق له أن يتحسر أو يحسد. عن ابنِ مسعودٍ – رضي الله عنه – قال: سمعتُ النبيّ – صلى الله عليه وسلم – يقول «لا حسَدَ إلاّ في اثنَتينِ: رجُلٍ آتاهُ اللهُ مالاً فسلّطهُ على هَلَكتهِ في الحقّ، ورجُلٍ آتاهُ اللهُ حِكمةً فهو يَقضِي بها ويُعلّمها». رواه البخاري بسنده.

يتألم لأن ميزان القيم قد اختل في أيدي الناس وأصبحت له السيطرة على شئونهم وحياتهم، وانتصر الضلال، وسيطر الفساد، ولا يتحسر لأن متعة الدنيا قد أصبحت بيد الكافرين.

يتألم لأن المسلمين بدلا من أن يعملوا على إرجاع ميزان القيم الأخروية إلى وضعه الصحيح حسب التكليف الرباني لهم فيعلون من قيمة التقوى والجهاد ولأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطلب مرضاة الله.. بدلا من ذلك أخذوا يساهمون في المعاصي، ويعملون على ترسيخ قيم هذه الحياة الدنيا من الجري وراء المتعة واللهو والأكل في سبعة أمعاء.

إن مجرد تحسر المسلم على زينة الحياة الدنيا وأنها في يد الكافر أو اللص أو العاهر.. وحسده عليها.. إن مجرد هذا التحسر أو الحسد يعني أن لديه اختلالا في ميزان القيم وأنه لا يرتبط ارتباطا وثيقا بتعاليم الإسلام في الدنيا وزينتها، وعليه أن يتحرك فورا لتصحيح الميزان، ووضع الدنيا في وضعها الصحيح وفقا لتكليف الله وإرادته الإصلاح في هذه الأرض.

لقد مر المسلمون بمراحل من التدهور منذ أن اختلت في أيديهم قيمة هذه الحياة الدنيا وقيمة الآخرة، وكان آخر مراحل هذا التدهور خضوعهم لموجة عاتية من الاستعمار، وعندما جاء الاستعمار قالوا: الحل في رحيل هذا الاستعمار، وعندما رحل ولم يتحقق شيء مما أملوه قالوا: الحل في تغيير الأنظمة السياسية، وعند ما غيروا ما غيروا من هذه الأنظمة ولم يتحقق ما أملوه قالوا: الحل في الديموقراطية،

وعند ما غيروا ما غيروا من هذه الأنظمة ولم يتحقق ما أملوه قالوا: الحل في الديموقراطية، ولما تخبطوا في دهاليز الديموقراطية وعفونة التزوير فيها وأمراض الإيدز الناشبة في أسسها وأركانها حق لهم أن يقفوا مبهوتين يتساءلون عن الحل، وهم في هذا كله كانوا وما يزالون أشبه بتلميذ خائب، أتيحت له ظروف مواتية تنقلت به من سنة دراسية إلى أخرى: دون امتحان حقيقي، فلما جاءت سنة الشهادة الأخيرة اكتشفوا أنه لا يستحقها فنزلوا به عاما، ثم عاما، ثم عاما، إلى أن وصلوا به إلى ألفباء.

هم كذلك اليوم يكتشفون أنهم مازالوا عند ألفباء الحل الإسلامي.

إن الحضارة الأوربية المعاصرة اختارت وحسمت قرارها وانتهى الأمر، كان قرارها منسجما تماما مع قوله – تعالى –: (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها..). قرار يتصف لديهم بالاتساق والانسجام الداخلي، وإن تناقض مع قانون الخلود قانون الآخرة الذي نبذته.

وبمقدار اتساقها ذاك أثمرت؛ أثمرت شجرة الزقوم.

أما المسلمون فالأصل في حضارتهم أنها تقوم على التسليمية لله والأخروية في القيم، ولكنهم لم يأخذوا بهذه أو بتلك، كالشاة العائرة بين الغنمين، التي ذكرها الرسول – صلى الله عليه وسلم – فيمارواه مسلم بسنده عُبَيْدُ اللهِ عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النّبِيّ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ: «مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ. تَعِيرُ إلى هَذِهِ مَرّةً، وَإِلَىَ هَذِهِ مَرّةً ».

ويقول عيسى – عليه السلام – فيما ردده التراث الإسلامي: (من الذي يبني على موج البحر دارا؟ تلكم الدنيا فلا تتخذوها قرارا) وقيل له: (علمنا علما واحدا يُحبنا الله عليه؟ قال: أبغضوا الدنيا يحبكم الله – تعالى –)

إننا لا يمكن أن ندرك ميزان القيم الصحيح فيما بين الدنيا والآخرة دون أن ندرك أن الإنسان موجود في هذه الحياة الدنيا لا لتستغرقه بمتعها ونعيمها وأهوائها، ولكنه وجد فيها ليقوم برسالة تكليفية؛ رسالة تكليفية بمقتضى نزوله إليها ليكون خليفة، ليبني حضارة وفق تعاليم الله. نعم: عابر سبيل مكلف، وليس عابر سبيل تائها. هذه

المهمة التكليفية في هذا العبور هي التي تقتضي ميزانا دقيقا للعلاقة بين الدنيا والآخرة توجب على الإنسان أن يظل على رعاية له في كل لحظة.

في أحد كفتى الميزان: الدنيا مقطوعة عن الآخرة لا قيمة لها

وفي الكفة الأخرى: الدنيا كطريق موصول بالآخرة لها قيمة فاعلة.

ماذا حصل للمسلمين في حساب هذا الميزان؟ يقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – (اللهم إني أعوذ بك من الأربع: من علم لا ينفع ومن بطن لا تشبع ومن قلب لا يخشع ومن عين لا تدمع). وفي شرح سنن ابن ماجة للسيوطي: قوله من علم لا ينفع أي لا يهذب الأخلاق الباطنة فيسري منها إلى الأفعال الظاهرة ويحصل بها الثواب الأجل وأنشد:

يا من تقاعد عن مكارم خلقه *** ليس افتخار بالعلوم الزاخرة

من لم يهذب علمه أخلاقه *** لم ينتفع بعلومه في الآخرة

قال الطيبي فيما نقله عنه السيوطي: إعلم أن في كل من القرائن الأربع ما يشعر بأن وجوده مبنى على غاية وأن الغرض منه تلك الغاية، وذلك أن تحصيل العلوم إنما هو للانتفاع بها فإذا لم ينتفع لا يخلص منه كفاف، بل يكون وبالا، فلذلك استعاذ منه، وأن القلب إنما خلق لأن يخشع لربه، وينشرح لذلك الصدر، ويقذف النور فيه، فإذا لم يكن كذلك كان القلب قاسيا فيجب أن يستعاذ منه، قال الله – تعالى –"فويل للقاسية قلوبهم"، وأن النفس إنما يعتد بها إذا تجافت عن دار الغرور، وأنابت إلى دار الخلود والنفس مهما كانت منهومة لا تشبع حريصة على الدنيا كانت أشد عدو للمرء، فأولى ما يستعاذ منه هي، وعدم استجابة الدعاء دليل على أن الداعي لم ينتفع بعلمه ولم يخشع قلبه ولم تشبع بطنه إه السيوطي

والحق أن التغير الاستراتيجي الذي أصاب المجتمع الإسلامي كان من هنا: لقد أصبنا بهذه الأربع المستعاذ منها في ميزان الآخرة: لم تكن الكارثة سياسية بقدر ما أنها كانت ثقافية؛ اشتغلنا بالعلم الذي لا ينفع وما زلنا نشتغل به: في المتشابهات، في خلق القرآن، في العلاقة بين الذات والصفات، في العقول العشرة، في الجبر والاختيار، في الحقيقة المحمدية، والحكومة الباطنية، في رجعة الأموات في الدنيا، في صفة البراق وعدد أجنحته، إلخ وأصبنا بالبطن التي لا تشبع.

جاء في كتاب التواضع والخمول لابن أبي الدنيا بسنده عن يحيى بن عقيل قال: قال: علي بن أبي طالب لعمر رضي الله – تعالى –عنهما: إن أردت اللحوق بصاحبيك فاقصر الأمل، وكل دون الشبع، وانكس الإزار، وأخصف النعل تلحق بهما.

وفي فضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل بسنده عن سفيان قال: قال رجل لعلي: إن أردت أن تكون مثل عمر فاخصف نعلك وشمر ثوبك وكل دون الشبع.

وفي المعجم الكبير للطبراني بسنده عن عكرمة عن بن عباس قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: إن أهل الشبع في الدنيا هم أهل الجوع في الآخرة غدا.

وفي الآحاد والمثاني: بسنده عن عمرو بن الأسود العنسي رضي الله – تعالى –عنه أنه كان يدع كثيرا من الشبع مخافة الأشر.

وفي لسان الميزان لابن حجر العسقلاني: بسنده عن هشام بن عروة عن أبيه قالت عائشة رضي الله – تعالى –عنها " أول بلاء حدث في هذه الأمة بعد نبيها الشبع فان القوم لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم فضعفت قلوبهم وجمحت شهواتهم " أخرجه البخاري في الضعفاء.

وهذا الحديث وإن كان ضعيفا من ناحية سنده، لكن معناه يتفق مع تطور المجتمعات، وربما كان العكس صحيحا أيضا وهو أن القوم لما جمحت بهم نفوسهم إلى الدنيا نتيجة اختلال في ميزان القيم لديهم أشبعوا بطونهم.

يقول أبو طالب المكي: (مثل البطن مثل المزهر وهو العود المجوف ذو الأوتار إنما صوته لخفته ورقته، لأنه أجوف غير ممتلئ، وكذلك الجوف إذا خلا..)

وهكذا الجوف كالمزهر إذا امتلأ: لا صوت. !

وروي أن عيسى – عليه السلام – مكث يناجي ربه أوقاتا طويلة، لم يأكل فيها، فخطر بباله الخبز، فانقطع عن المناجاة، فإذا رغيف بين يديه، فجلس يبكي؛ علام يبكي وقد جاءه الخبز؟ هذا سؤال يطرحه أهل البطون، أما عيسى – عليه السلام – فقد بكى، بكى على فقد المناجاة،، إذ أدرك خطر الانشغال بالحصول على الرغيف. هذا الانشغال الذي نتمرغ في أوحاله صارفا للجمهور عن كل مشروع للإصلاح.

وهذا يطرح السؤال الآتي: ما فائدة الجوع الإرادي عند من يمارسونه وهم قادرون على الشبع كما هو شأن الدرس الرمضاني؟

من فائدته فيهم زوال البطر والفرح والأشر الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله.

من فائدته فيهم: ألا ينسى الواحد منهم بلاء الله فلا ينسى أهل البلاء.

من فائدته فيهم: كسر شهوات المعاصي والسيطرة على النفس الأمارة بالسوء.

على كل حال لقد أصبنا بهذين المرضين: علم لا ينفع، وبطن لا تشبع، وعندما يصاب المرء بهذين المرضين فإنه يصاب بعد ذلك بالقلب الذي لا يخشع وبالعين التي لا تدمع. وفي النهاية: بالجوع الذي لا يردع

ومن هنا اجتمعت لنا أسباب التأخر والانحطاط.

إن سر تأخر المسلمين لا يكفي أن نقول فيه: إنه البعد عن كتاب الله وسنة رسوله، لأننا لو اكتفينا بهذا الجواب ستظل الدهشة عالقة بأذهان الكثيرين منا، إذ يرون أن الغالبية الساحقة منا تردد هذا السبب، والكثيرون منهم يتمنون الأخذ بالكتاب والسنة، حلا لمشاكلنا، ويبقى السؤال بعد ذلك قائما: ما السر في أننا لا نقتحم هذا الحل ونأخذ به فعلا؟

في أعماقنا أنا لا نريد.

والسر في هجران الآخرة كمنهج عملي

والله أعلم

----

[١] تخويف.. ص ٢٣٠

[٢] أنظر إحياء العلوم ج٣ ص ٢١٠

المصدر : http://al-shaab.o g صلى الله عليه وسلم

================

حوار الحضارات الجذور والتاريخ

شهد العالم في الخمس والعشرين سنة الأخيرة العديد من التغيرات الأيدلوجية التي دفعته إلى حقبة جديدة وشكل غير مسبوق من الصراعات والحروب والتدمير وتحول العالم عبر انهيار سور برلين وسقوط الشيوعية بعد أن كان ثنائي الأقطاب [بتوازن

القوى بالاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية] إلى عالم أحادي القطب تقوده الولايات المتحدة الأمريكية التي تشهد نهضة حضارية قوية خاصة في مجالات العلوم المختلفة والتكنولوجيا ولعل هذا المشهد لا غرابة فيه أما المشهد الذي يليق به الاستغراب حقا فهو مشهد العالم وهو يعيش فترة سيطرة أحادية القطب [الولايات المتحدة الأمريكية].

ثم هو بعد ذلك يعاني من ويلات الحروب والتدمير والإبادة أضعاف ما كان يعاني وهو في الوضع الثنائي القطب وهو الوضع الذي تسعى فيه كل حضارة أو بالأحرى قطب من الأقطاب للهيمنة على العالم ولذا فالغالب المتوقع في حال سيطرة ثنائي الأقطاب على العالم حدوث مصادمات فيما بينهم وهذا المشهد متكرر على مدار أزمنة التاريخ فمن الصراع الدائر بين الفرس والروم إلى انجلترا وفرنسا إلى الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية وبين كل حقبة وأخرى من هؤلاء تتنوع الأمثلة وتتعدد الأشكال لحضارات تتصارع لتحقيق الهيمنة على العالم أما أن توجد حضارة واحدة يظهر من واقع العالم أنها الحضارة المسيطرة المهيمنة ثم بعد ذلك نرى مزيدا من الحروب والويلات والتدمير وملامح الاضطراب على الساحة العالمية بادية لا تخفى على أي ناظر فهذا هو المشهد الذي لا بد من الوقوف عنده وتأمله مليا للوصول إلى لبه ومضمونه.

إن وضع تصور حاكم للعلاقات بين الحضارات المختلفة كان الهم الشاغل للعديد من المفكرين والسياسيين والمنشغلين بتحليل الوضع الراهن للمنظومة العالمية حتى يمكن التوصل للفهم الناضج الواعي لطبيعة الأحداث ومن ثم محاولة الانتفاع بها وسوقها في الاتجاه المفيد النافع للبشرية وبناءا على ذلك فقد انطلقت العديد من النظريات تحاول جاهدة فهم وتحليل الواقع ومحاولة توجيه دفته إلى ما فيه النفع لعموم البشرية وظهرت أقوى تلك الأطروحات أو بالأحرى ما كتب له العيش منها على النحو التالي:

قبل ما يقارب من عقدين من الزمان والعالم ما زال في ذلك الوقت يتعامل بواقع ثنائي القطب إلى حد ما خرج المفكر الفرنسي روجيه جارودي على العالم أجمع بنظريته الرائدة ومشروعه للجمع بين الحضارات المختلفة على أساس أرضية مشتركة

للتفاهم على مستوى شعوب الأرض وسماه بـ' حوار الحضارات ' ولكن مشروعه كان يتسم بسمة أساسية ألا وهي النقد الشديد للهيمنة الغربية والسيطرة الأمريكية حتى أنه بشر في ثنايا نظريته بزوال الغرب عموما لكن هذه الصيحة وأخواتها من جانب جارودي أو غيره من المفكرين والساسة الذين سعوا إلى وضع نظرية أو قاعدة تحكم وتفسر واقع المجتمع العالمي لم تجد الصدى اللائق بها في ذلك الوقت لواقع الصراع القائم والمسمي بالحرب الباردة بين قطبي العالم آنذاك ومع انهيار الاتحاد السوفييتي وانفراد الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة العالم بدأت نظريات أخرى بالصعود إلى السطح والظهور لتفسير كيفية تعامل القطب الأحادي مع العالم في ضوء الواقع الجديد ومن هذه النظريات ما خرج به الأمريكي الجنسية الياباني الأصل 'فوكوياما' بما يسمى ويعرف بنظرية نهاية التاريخ تلك النظرية التي انتشرت سريعا لتتداعى بسرعة أكبر ومفادها تصوير انتصار الرأسمالية على الأرض أنها نهاية التاريخ وأن الإنسان الأمريكي هو من وصل إلى أقصى مستوى حضاري ممكن وبالتالي فهي نظرية نهاية الإنسان والتاريخ ثم تلا هذا المشهد مشهد آخر في أواخر صيف ١٩٩٣ م وكانت أول شرارة أشعلت المشهد مقالة نشرت في صحيفة [الشؤون الخارجية] للمفكر الأمريكي الشهير صمويل هتنجتون تحت عنوان [صدام الحضارات] والتي حاول فيها قراءة مستقبل العالم المعاصر وقرر فيها أن الصراع في خلال القرن القادم سيكون صراعا بين الحضارات وليس صراعا اقتصاديا أو أيدلوجيا وقد حدد في نظريته تلك سبع حضارات أساسية يتوقع أن يلتهب بينهم الصراع ولا بد في هذا الصراع من زوال البعض وخضوع البعض الآخر لهيمنة الأقوى وقرر في النهاية أن الحضارات المتوقع لها الاستمرار حتى النهاية لما تحمله من إمكانيات ومقومات للبقاء هي ثلاث حضارات الإسلامية والغربية والكونفوشيوسية [حضارة الصين] وحذر العالم الغربي من تحالف الحضارة الإسلامية مع نظيرتها الكونفوشيوسية في إشارة إلى إمكانية حدوث تحالف نووي بين الصين وبعض الدول الإسلامية.

مقالة هتنجتون أثارت عاصفة من الانتقادات والجدل حول المفاهيم التي تضمنتها وقابل هتنجتون ذلك بالرد أنه على الرغم من إمكانية الاعتراف بوجود ثغرات في نظرية صراع الحضارات إلا أن المعارضين والرافضين لهذه النظرية لم ينجحوا أن

يقدموا بديلا في طرحهم يوازيها في الواقعية والوضوح وبأن نظرية صراع الحضارات وهذا من وجهة نظر هتنجتون بالطبع هي خير وأفضل تصور موضوع للمستقبل في القرن القادم.

ولعل من الجدير بالذكر ردا على دعوى هتنجتون أن أحدا لم يطرح البديل المناسب أقول لعل من المناسب في هذا المقام بيان أن العديد من المفكرين والساسة الذين عارضوا نظرية صراع الحضارات والفكرة القائمة عليها قد طرحوا لها بديلا قويا ألا وهي نظرية حوار الحضارات كوسيلة لتجنيب المجتمع ويلات الحروب والقتال.

وتم إنشاء العديد من المؤتمرات والجمعيات والمؤسسات الداعية لترسيخ سياسة الحوار والتفاهم والتعايش السلمي بدلا من الصدام وتبني العديد من الكتاب هذه النظرية ودعوا إلى تنمية الحوار بين العالم الإسلامي والغرب حتى يمكن لكل طرف أن يتفهم الآخر ويتعايش معه وقد حددت الأمم المتحدة عام ٢٠٠١ م عام حوار الحضارات وعينت مندوبا متخصصا لهذا المنصب.

إلا أن أطروحة حوار الحضارات لم تخل من جدل شديد ونقد دائم مستمر حتى من جانب المفكرين المسلمين ولم يقف الجميع فيه على نسق واحد فمن رافض للفكرة من أساسها لعدم واقعيتها فكيف ستتحاور مع من يهدم بيتك ويشرد أهلك في أنحاء متفرقة من العالم الإسلامي إلى فريق آخر مؤيد للفكرة على الإطلاق وداع لها بغض النظر عن الواقع الحالي للأمة وفريق ثالث لا يستوعب المعنى المقصود من حوار الحضارات بل يحتفظ كل فرد في الفريق الثالث بفهم خاص له لهذا المصطلح.

ونحن بادئ ذي بدء لا نريد الوقوف مع واحد من تلك الفرق بدون نظرة محايدة منصفة قدر الإمكان ودراسة متأنية فالأمور لا تؤخذ كردود أفعال أو بدعوى الدفاع عن تهم لم نرتكبها أصلا أو بحكم العواطف والمشاهد الدامية كلا فالأمر يتعلق بمستقبل أمة وعلى الأمة أن تقرر طبيعة وشكل الطريق الذي تختار هي سلوكه في المرحلة القادمة بناءا على فهم واضح دقيق لأبعاد المصطلحات وحكم واضح صريح من علماء الأمة ومفكريها وقادتها مبني على قياس دقيق للمصالح والمفاسد.

بناءا على ما سبق يلزمنا إلقاء الضوء على نظرية حوار الحضارات وتحديد المقصود الدقيق بهذا المصطلح ثم بعد ذلك قياس حجم المصالح والمفاسد المترتبة على العمل بمقصودها ومن ثم تتضح إمكانية الحكم عليها.

' إن على الحضارات أن تكون قاعدة من الثوابت المشتركة فيما بينهم وتنطلق من خلال هذه القاعدة إلى حوار يؤمن بالتعددية وعدم هيمنة حضارة على الأخرى، هذا الحوار سيمكن كل طرف من تفهم الآخر والتعايش معه بدلا من الاصطدام والحروب ' هذه هي خلاصة نظرية حوار الحضارات وقبل أن نتسرع بإصدار الحكم عليها بالسلب أو الإيجاب علينا أن نوضح بعض المحاور الرئيسية وهي:

٧ شعبان ١٤٢٥هـ - ٢١ سبتمبر ٢٠٠٤ م

المصدر : http://www.islammemo.cc

==============

إعصار كاترينا .. القدر يكشف هشاشة الحضارة الأمريكية

أ. أحمد محمد إبراهيم

هل هو عقاب إلهي لما ارتكبه الأمريكيون من مجازر وانتهاكات بحق العراقيين؟

تابع العالم بذهول هشاشة ما يسميه القوة العظمى الوحيدة على كوكب الأرض، وهي تواجه صعوبات في التعامل مع عواقب الإعصار كاترينا أو كما يقال "وهي غارقة في شبر مياه"!.وقال البعض إن الفوضى تكشف مدى التصدعات والانقسامات العميقة في المجتمع الأمريكي.

وعبر زعماء العالم والمواطنون العاديون عن التعاطف مع سكان جنوب الولايات المتحدة ومعظمهم من السود والملونين الذين عصف بهم الإعصار وما أعقبه من فيضان.

لكن كثيرين صدمتهم أيضا حالة الفوضى التي نقلت صورها إلى أنحاء العالم، مذكرة بالفوضى التي سمح بها جيش الاحتلال الأمريكي للغوغاء بنهب وسلب الممتلكات العامة إثر سقوط العاصمة العراقية بغداد، والتي بدت في الحالتين على أنها جزء من الثقافة الأمريكية التي يبشر بها بوش العالم!.

فقد انتشرت أعمال السلب في الشوارع المليئة بالحطام وآثار الكارثة بينما آلاف الجثث ملقاة في الشوارع والمستنقعات المائية وتحت الأنقاض، وآلاف الناس الذين ظلوا على قيد الحياة تجمعوا في "نيو أورليانز" بانتظار ما ستقدمه لهم السلطات من طعام وماء وأغطية.

وكأن المشهد الدرامي الذي لحق بمدن الجنوب الأمريكي جاء انتقاما لما ارتكبته قوات الاحتلال الأمريكي من مجازر بحق آلاف الأسر العراقية من أطفال وفتيات ونساء ورجال، وما تبع ذلك من أعمال اغتصاب وانتهاك لحقوق الإنسان.

صحيفة "الصن" الأوسع انتشارا في بريطانيا وصفت المشهد بالقول: "فوضى في الولايات المتحدة".

بينما كانت صحيفة "هاندلسبلات" الألمانية اليومية أكثر تأثرا بالكارثة فكتبت عنها تحت عنوان: "نهاية العالم الآن".

وقد أعادت صور الكارثة التي قتلت الآلاف، إلى الأذهان ذكريات الأزمات في أفقر دول العالم مثل موجات المد "تسونامي" العام الماضي في آسيا التي خلفت أكثر من ٢٣٠ ألفاً بين قتيل ومفقود. لكن البعض يرى أن التحرك المسؤول من قبل المسؤولين والناجين إزاء تلك الكوارث كان أعلى مستوى أخلاقي من التسيب والنهب الهمجي الأمريكي الذي أعقب الإعصار كاترينا.

وقال ساجيوا شيناتاكا، ٣٦ عاما، وهو يتابع مباراة كريكيت في كولومبو بسيريلانكا: "أنا أشعر بالاشمئزاز تماما. بعد موجات المد أراد شعبنا حتى من فقدوا كل شيء مساعدة الآخرين الذين كانوا يعانون. لم يتعرض سائح واحد للسلب في المنطقة أثناء موجات المد. الآن وفي ظل كل هذا الذي يحدث في الولايات المتحدة يمكننا أن نرى بسهولة أين يقع الجزء المتحضر من العالم".

وأبرزت كثير من الصحف . كما تقول الشرق الأوسط . الانتقادات للسلطات المحلية وعلى مستوى الولايات وللرئيس الأمريكي جورج بوش. وقارن البعض بين الجهد الأخرق في عمليات الإغاثة والكميات الهائلة من الأموال والموارد التي توجه للعدوان على العراق، من أجل تحقيق مصالح فئة من العسكريين وصناع السلاح وتجار البترول المتحكمين.

وقالت صحيفة "ليبراسيون" الفرنسية ذات الميول اليسارية "إن غرق مدينة حديثة في الماء والفوضى مشهد قاس فعلا لمدافع عن الأمن مثل بوش".

وأضافت أن زعيم تنظيم القاعدة أسامة بن لادن الذي يعيش مبتهجا بعيدا.. لا بد أنه يكاد يموت من الضحك".

وقالت موظفة في شركة عالمية في كوريا الجنوبية إنها ربما ليست مصادفة أن لحق الضرر بالولايات المتحدة.

وأضافت الموظفة التي رفضت نشر اسمها حيث إن لها مديراً أمريكيا: "ربما كان عقابا لما فعلته في العراق. كثير من الناس الذين أعمل معهم يفكرون بهذه الطريقة. تحدثنا عن هذا الأمر في ذلك اليوم".

وأشار معلقون إلى أن الغالبية الساحقة من ضحايا الإعصار، أمريكيون سود منعهم الفقر من الفرار من المنطقة مع اقتراب الإعصار على عكس بعض من جيرانهم البيض.

وتحتل "نيو أورليانز" المركز الخامس في الولايات المتحدة فيما يتعلق بالسكان الأمريكيين السود وتبلغ نسبة السود بين سكان المدينة ٦٧ في المائة.

وقال تقرير في صحيفة "الغارديان" البريطانية: "يكتسب الأمر بعدا عنصريا في واحدة من أفقر ولايات البلاد حيث يكسب السود نصف ما يكسبه البيض".

وقال وزير خارجية لوكسمبورغ "جان اسلبورن" في انتقاد مغلف للفكر السياسي الأمريكي إن الكارثة أظهرت الحاجة إلى دولة قوية يمكنها أن تساعد الفقراء.

وقال طبيب التخدير "ديفيد فوردام" (٣٣ عاما)، متحدثا في محطة لمترو الإنفاق في لندن، إنه أمضى وقتا في الولايات المتحدة ولم يفاجأ بأن البلاد وجدت صعوبة في التعامل مع الوضع.

وأضاف: "ربما فكروا ببساطة أنه يمكنهم الجلوس في الهواء الطلق وسيكون كل شيء على ما يرام، لكن الأمر لا يصدق على أية حال".

وقد توقعت شركة "ريسك مانجمنت سوليوشنز" الأميركية المتخصصة في إدارة الكوارث، أن تتجاوز قيمة الأضرار التي ألحقها الإعصار "كاترينا" الذي اجتاح الاثنين الماضي لويزيانا ومسيسيبي، مائة مليار دولار.

وأوضحت الشركة أن نصف هذه الكلفة على الأقل ناجم عن الأضرار التي سببتها الفيضانات التي اجتاحت نيو أورليانز.

وكانت الشركة قد قدرت الاثنين قيمة الأملاك المدمرة والتي تحظى بتغطية شركات تأمين بـ ٢٥ مليار دولار.

وقالت المجموعة الأميركية إن هذا التقدير ينبغي إعادة النظر فيه إثر تصدع سدود تحمي أكبر مدن لويزيانا.

٠١-شعبان ١٤٢٦ هـ

٠٤-سبتمبر-٢٠٠٥

المصدر : http://www.lahaonline.com

=============

الحرية وازدهار الحضارة الاسلامية

- د. عمرو اسماعيل

كلما ناقش البعض ممن ينتمون الي التيار الليبرالي التحجر الفكري لبعض جماعات الاسلام السياسي وهجومهم علي رموز التنوير في عالمنا بدءا بمحمد عبده وقاسم أمين ومرورا بعلي عبد الرازق وطه حسين وانتهاءا بنجيب محفوظ وغيره من دعاة حرية الفكر في العصر الحالي ..دعاة الديمقراطية وفصل الدين عن الدولة التي أصبحت حقيقة واقعة .. ففصل الدين عن الدولة في المجتمعات العربية اصبح حقيقة تاريخية لا يمكن الرجوع عنها وكل ما ينقصها هو التحول الكامل الي الديمقراطية ..ذلك التحول الذي تقاومه الحكومات الديكتاتورية والاهم تقاومه جماعات و أحزاب الاسلام السياسي لأن هذا التحول سيسحب البساط نهائيا من تحت اقدامها ويحولها الي فولكلور ممكن أن تذكر في كتب التاريخ كجماعات سببت صداعا في الربع الاخير من القرن العشرين و أوائل القرن الحالي وقامت بعمليات ارهابية وسفكت دماء بريئة كثيرة ولكنها لن تستطيع تحقيق أكثر من ذلك مهما فعلت و دمرت وقتلت .. فمصيرها الذي لا مفر منه هو متاحف التاريخ كظاهرة عديمة الحيلة وسيئة السمعة

.. كلما ناقشنا هذه الجماعات و أوضحنا لهم الحقيقة التي لا يستطيعون أن يعوها وهي انهم مرحلة تعداها الزمن في مصر منذ مائتي عام وفي باقي الدول العربية في خلال القرن الماضي .. نجدهم يذكروننا بازدهار الحضارة الاسلامية في فترة زمنية معينة و أن الغرب قد أخذ عنا هذه الحضارة .. وهي حقيقة لا ينكرها أي من انصار الديمقراطية والليبرالية ..بالعكس فهي حقيقة تؤكد قولنا لا قولهم وهي حقيقة تؤكد أن الحضارة الانسانية هي حضارة متراكمة تستفيد مما سبقها وتفيد من يأتي بعدها وهي حضارة لن يقوم لها قائمة الا علي قواعد من الحرية.

.. فالمسلمون في فترة ازدهارهم استفادوا من الحضارة اليونانية وترجموا اهم انجازاتها الفكرية والغرب استفاد من الحضارة اليونانية والاسلامية خاصة عبر ابن رشد .. ثم انطلق حين سمح بحرية العقل وتخلص من كهنوتية الكنيسة بينما تبادلنا نحن معه المقاعد عندما وقعنا في فخ كهنوتية فقه النقل وثقافة العنعنة في اللحظة التي تم فيها ضرب كل رموز تلك الفترة من اصحاب العقل خاصة من المعتزلة ... لحظة انتصار اصحاب ثقافة النقل علي يد المتوكل العباسي وانتصاره لهم ..

الحقيقة أن الحضارة الاسلامية ازدهرت في فترة حرية العقل بدون حدود وشططه أحيانا وكل رموز هذه الفترة هم مثل طه حسين تماما بحثوا بعقولهم وقد اتهموا مثله بالزندقة والكفر احيانا ومعظمهم أن لم يكن كلهم من مدرسة المعتزلة والفلاسفة الذين كتب لهم ابو حامد الغزالي كتاب تهافت الفلاسفة .. حتي الفقهاء والأئمة من اصحاب مدرسة الراي مثل أبو حنيفة النعمان لم يسلم من اتهامات التكفير التي يمارسها البعض الآن علي يد أهم رموز مدرسة النقل ابن حنبل وسلسلته الممتدة حتي اليوم ابن تيمية وابن عبد الوهاب وابن باز وتلاميذهم .. ثم كل اتباع هذه المدرسة الذين انتشروا وسيطروا علي الشارع الاسلامي للأسف بقوة البترودولار .. حتي وصلوا الي مصر معقل التنوير في العصر الحديث ..

ويبدوا أن رائد مدرسة التكفير في العالم العربي وأهم رموزها هو ابن تيمية الذي كفر كل من أتي قبله من اصحاب مدرسة العقل من المعتزلة و الفلاسفة ..

والغريب في الموضوع أنه اننا وامتدادا لحالة فصام الشخصية لا نجد من العلماء خارج الفقه من نفخر بهم الا اصحاب هذه مدرسة العقل وحريته التامة .. نتغاضي

عن حقيقة تكفيرنا لهم واتهامهم بالزندقة من قبل ونذكرهم كمثال لفترة ازدهار الحضارة الاسلامية .. هذه الحضارة التي لم تزدهر الا بهم ولم تدخل حالة البيات الشتوي الا بعد القضاء عليهم مثلما يحاولون القضاء وأهالة التراب علي رموز التنوير في العصر الحديث ولتوضيح هذه النقطة فلنري معا راي ابن تيمية في هؤلاء :

ابن تيمية يسمي ارسطو واتباعه المشائين ، فابن تيمية يرى ان مذهب اكثر الاسلاميين الذين تكلموا عن الفلسفة في كتبهم مثل الفارابي وابن سينا وابن باجه وابن رشد وغيرهم هو مذهب ارسطو، وينبه الى ان بعضهم مثل ابن سينا والسهروردي، له مذهبان، احدهما مذهب ارسطو والآخر ما يرجحه هو من اقوال.

وابن تيمية يكفر مريدي ارسطو ومترجميه من «الاسلاميين» في رأيه لمقالات كثيرة يقولون بها، منها: قدم العالم. ومنها: قولهم في النبوة، حيث ينقل عنهم انهم يرون ان للنبوة ثلاث خصائص، وهي: ان تكون للنبي قوة حدسية وقوة تخييلية وقوة نفسية، مما يبطل كونها من عند الله. ومنها: انكارهم لمعاد الابدان، فينقل ابن تيمية عن فلاسفة الاسلام انهم اختلفوا في معاد الابدان والنفوس على اقوال: انكار المعاد مطلقا او اثبات معاد النفوس العالمة دون الجاهلة او اثبات معاد النفوس جميعا دون الابدان ..

وذكر ابن تيمية ان هذه الاقوال جميعا منقولة عن الفارابي، وان منهم من يقول بالتناسخ، وقد عرض ابن تيمية في مواضع كثيرة من كتبه لنقد ارسطو، واتهمه بانه من اجهل الناس برب العالمين، وبانه ساحر ووزير لملك ساحر هو الاسكندر المقدوني، ويبدو ان سبب هذه الاتهامات وغيرها ما نقله فلاسفة الاسلام عن ارسطو.و قد انتقد بل وكفر ابن تيمية كثير من الفلاسفة الاسلاميين اتباع ارسطو مثل: ابن سينا وابن رشد ونصير الدين الطوسي وغيرهم.والملاحظ على نقد ابن تيمية للفلاسفة المشائين اعتماده على ردود الغزالي والشهرستاني عليهم و علي كتابات المتكلمين كالرازي والارموي وغيرهما ومن ردود بعضهم على بعض ولذا فردوده تكاد تخلو من الاصالة وتقتصر على «الترجيح» بين المختلفين، ولعل السبب في هذا هو ان دراسة ابن تيمية للفلسفة لم تكن دراسة مقصودة لذاتها، بل كانت دراسة هدفها الحجاج مع المخالفين..

وقد هاجم ابن تيمية أيضا فلاسفة الصوفية بشدة قاسية، حيث كفر ابن عربي وابن سبعين والقونوي والتلمساني وغيرهم.وكذلك نقد ابن تيمية المنطق، لكن ما يهمنا هنا هو بيان سبب نقده له، فابن تيمية نقد المنطق لانه وجد ان من اصول فساد قول المتكلمين والفلاسفة في الالهيات هو ما ذكروه في المنطق.

اي أن ابن تيمية كفر الجميع .. علماء المسلمين الذين نفتخر بهم مثل ابن سينا والفارابي والرازي والكندي وكفر الصوفية ورموزها بل وهاجم المذهب الحنفي .. هذا طبعا غير تكفيره للشيعة وتسميتهم بالرافضة .. وهذا ما يعطي ابن تيمية الحق أن يكون زعيم مدرسة التكفير عن جدارة .. زعيم المدرسة السلفية ذات الصوت العالي الان التي كفر كل مدارس الفكر الاسلامي الأخري وتعتبر نفسها هي الفرقة الوحيدة الناجية .. هذه المدرسة التي افرخت كل مظاهر التطرف والتعصب الديني الذي وصل به الأمر أن يستحل دم كل مخالف في المذهب والدين وهي المدرسة المسئولة عن كل العنف الذي ابتلي به عالمنا مهما حاولت أن تنكر ذلك الآن بعد أن وصل العنف الي عقر دارها ..

لقد كفر اصحاب هذه المدرسة رموز مرحلة ازدهار الحضارة الاسلامية .. الم تزدهر الحضارة الاسلامية في عصر الحرية علي يد هؤلاء العلماء والفلاسفة وأهل الكلام .. الم تندحر الحضارة الاسلامية عندما تحولت الي ثقافة النقل وخفتت اصوات ابن سينا والفارابي وابن رشد والمعتزلة بصفة عامة حتي تمت أعادة اكتشافهم في العصر الحديث .. هل هناك اختلاف بين مافعله ابن تيمية في السابق وما يفعله البعض الآن من اتهامات التكفير التي تطول رموز التنوير الاسلامي في العصر الحديث مثلما طالت رموز التنوير في العصر القديم .. حتي الاشاعرة الذين اخذوا موقفا وسطا بين أهل الكلام وبين أهل النقل والذين كانوا يمثلون الأغلبية في العالم الاسلامي وحتي الصوفية المعتدلة من انصار ابو حامد الغزالي لم يسلموا من التكفير في العصر القديم والحديث علي يد اتباع ابن تيمية ..

وحتي الامام الأعظم ابو حنيفة النعمان رائد مدرسة الرأي في الفقه الاسلامي لم يسلم من اتهامات التكفير علي يد أتباع نفس المدرسة ..

أن الحقيقة المرة التي لا يريد أن يعيها أتباع مدرسة التكفير أن الحضارة الاسلامية لم تزدهر الا في عصور الحرية الفكرية .. عصور فقهاء عظام من أمثال ابو حنيفة النعمان وجعفر الصادق و مفكرين وعلماء وفلاسفة عظام أمثال ابن سينا والفارابي والكندي وابن رشد ولكنهم هوجموا وكفر الكثير منهم علي يد اصحاب مدرسة النقل وخاصة ابن تيمية وصحبه ... حتي من أخذوا خطا وسطا بين أهل الكلام والفلسفة وبين أهل النقل مثل الأشعري و أبو حامد الغزالي لم يسلموا من اتهامات التكفير ..

أن الحقيقة المرة والتي تمثل محنة للعقل العربي هي أن ازدهار الحضارة لا يمكن أن يحدث ألا في وجود الحرية الفكرية مهما صاحبها من شطط ... والحقيقة التي لا يستطيع ان يعيها أتباع مدرسة التكفير الحديثة من حسني النية والذين ينطلق أغلبهم من باب الغيرة علي الاسلام و التي نفخ فيها حلف البترودولار والسلفية للسيطرة السياسية علي المنطقة .. أن انتصار هذه المدرسة سيكون فيه ردة العالم العربي الاسلامي الي ما هو أسفل من قاع الحضارة التي نحتلها الآن بجدارة تامة .. مثلما حدث تماما علي يد نفس المدرسة في العصور الوسطي عندما تم القضاء علي ثقافة العقل التي كان يحمل لواءها علماء وفلاسفة عظام كابن سينا و ابن رشد ..

ولكن ما يعطي بعض الامل أن الشعوب قد ذاقت طعم الحرية وهي لن تعطي هؤلاء الفرصة مرة أخري للتحكم في مقدراتها .. ومدرسة التكفير والنقل تلفظ انفاسها الأخيرة خاصة بعد أن فقدت الدعم السياسي والمالي من نفس الاسرة التي كانت تدعمها سابقا لأغراض سياسية عندما انقلب السحر علي الساحر ..

وحتي نعي أن الحرية الفكرية هي اساس كل تقدم وحضارة فسيظل العقل العربي في محنة ... لنا الله

=============

دور أوزبكستان في الحضارة الإسلامية ودور حكومتها في محاربة الإسلام

يحيى بن ثابت طشقندي

تاريخ النشر :١٥ أغسطس, ٢٠٠٧ م

تشهد العاصمة الأوزبكية طشقند يومي الثلاثاء والأربعاء (١٤ و١٥ / أغسطس/٢٠٠٧م) مؤتمراً دولياً بعنوان "دور أوزبكستان في الحضارة الإسلامية"،

وذلك بمناسبة اختيارها عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ٢٠٠٧ من قبل المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة "ايسيسكو" التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي.

وسيحضر الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامى أكمل الدين إحسان أوغلو والأمين العام لجامعة الدول العربية عمرو موسى.

ويناقش المشاركون فيها في اليوم الأول خصائص تشكيل وتطور الثقافة الإسلامية على أرض أوزبكستان، في حين يناقشون في اليوم الثاني دور سمرقند فى الحضارة الإسلامية.

هذا، ويعتقد كريموف ومدّاحوه بأن اختيار هذا البلد العريق الذي له إسهامات كبيرة جداً في تطور الحضارة الإسلامية عبر التاريخ بلا شك – يعتقدون بأنه فرصة سانحة لتحسين صورة النظام الحاكم المشوهة والمسودّة أمام العالم، ولا سيما بعد أحداث أنديجان، بسبب سياسة القمع الدموية التي قتلت آلاف الأبرياء طوال السنين الماضية، ولا يزال عشرات الآلاف من الشباب المسلم في سجون الطاغية المجرم المتلقب بـ"إسلام كريموف"، وهو في الحقيقة "كفر بخيلوف" –كما اشتهر بذلك بين الناس لكثرة جرائمه في شتى المجالات–.

وقد سارعت السلطات الأوزبكية بعد تلقيها نبأ هذا الاختيار الذي لم تتوقعه أبداً لترميم بعض المساجد القديمة في حي "حاستي إمام" وسط العاصمة طشقند والتي بقيت طوال السنين الماضية بلا رعاية ولا ترميم وكأنها "خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا"، وذلك قبل قدوم الوفود الرسمية لتقديم التهاني والتبريكات للحكومة الأوزبكية.

ولئن كانت طشقند وما حولها من المدن الأوزبكية الطاهرة قد قدمت خدمات جليلة وعظيمة لأمة الإسلام في مختلف المجالات، ويكفيها أن أنجبت علماء عظماء وأئمة أجلاء لا يكاد أحد من المسلمين وغيرهم يجهلونهم، فقد قدمت الحكومة الأوزبكية برئاسة المدعو "إسلام كريموف" خدمات عظيمة وجليلة لأعداء الإسلام من شياطين الإنس والجن، وذلك بقمع الصحوة الإسلامية الصافية بكل عنف وهمجية، وتدمير عدد كبير من المساجد والمدارس غير المشهورة، ولا سيما مساجد الأحياء الصغيرة البعيدة عن الأنظار والمدارس الأهلية في مختلف أنحاء أوزبكستان.

ولئن كانت الحكومة الأوزبكية ترائي العالم وتدعي بأنها تحترم وتقدس ضرائح ومقابر الأئمة العظماء كأمثال البخاري والترمذي والسمرقندي والشاشي والمرغيلاني وغيرهم، فإنها تقتّل وتصفّي وتعذّب وتحتقر العلماء المعاصرين التابعين للمتقدمين بإحسان من أمثال المشايخ عبد الحكيم قاري المرغيلاني وعبد الولي قاري الأنديجاني وعابد خان قاري الطشقندي وعبد الأحد قاري النمنكاني ومحمد رجب قاري القوقندي وحسين خان قاري النمنكاني والشيخ مختار جان القوقندي والشيخ محمدي قاري الأنديجاني والشيخ محمد خان قاري السمرقندي والإخوة الدعاة روح الدين وعاقل وفاروق –وكلهم من طشقند– وغيرهم ممن لا يحصي عددهم وجهودهم في خدمة الإسلام والمسلمين إلا الله.

ولم تكتف السلطات الأوزبكية بمطاردة علماء أوزبكستان الصادعين بكلمة الحق في داخل البلاد، بل تجاوزت إلى دول أخرى حيث خطفت الشيخ صادق جان قاري الأوزجاني في جنوب قرغيزستان في عام ٢٠٠٣م ولا يعرف مصيره حتى الآن، وقتلت الشيخ محمد رفيق قاري القرغيزستاني في مدينة "قاراصو" حين كان يسير في وضح النهار قبل عام، وطاردت الشيخ مقيم جان محمودوف الأوشي القرغيزستاني واعتقلته لمدة سنين، كما اغتالت الاستخبارات الأوزبكية الشيخ مختارجان القوقندي في موسكو قبل سنين.

ولئن كان علماؤنا المتقدمون قد تركوا لنا آثاراً عظيمة ومخطوطات علمية نادرة في مختلف الفنون والعلوم فإن تلك الكنوز العظيمة ما زالت أسيرة مظلومة في مكتبات تراثية محاصرة بأجهزة الأمن الأوزبكية.

ولئن كانت الحكومة الأوزبكية قد قامت بترميم مجمّع "حاستي إمام" الذي يضم عدداً من المباني التاريخية في حي واحد، وأضافت إليه مسجداً جديداً بالرغم من وجود المساجد القريبة حولها، فإنها قد هدمت من المساجد والمدارس ما لا يحصيه إلا الله.

ونحن في هذه المقالة المختصرة سوف نذكر نزراً يسيراً من أخبار بعض المساجد والمدارس التي هدمت أو أغلقت ولم ولن يتحدث عنها الإعلام الأوزبكي ونستشهد بمقتطفات من الندوة الإذاعية التي أجرتها إذاعة صوت أوروبا الحرة بهذه المناسبة:

- إغلاق المسجد الجامع الكبير في أنديجان، الذي كان يؤم فيه الشيخ عبد الولي قاري –المخطوف بأيدي المخابرات الأوزبكية منذ عام ١٩٩٥م–، وكان المسلمون في أنديجان قاموا بتشييد هذا المسجد والآلاف من أمثاله بأنفسهم قبيل سقوط الاتحاد السوفييتي، حين أعلن آخر رؤساء السوفييت "ميخائيل غربتشوف" الحرية والعلنية. وقد أغلق المسجد في عام ١٩٩٧م بدعوى عدم الترخيص له من قبل الإدارة الدينية الرسمية، وهناك آلاف المساجد قد أغلقت بنفس هذه الدعوى في مختلف أنحاء أوزبكستان.

- إغلاق جامع ومدرسة "كمالات" بمدينة قوقند الذي أسسها الشيخان مختار جان قاري –رحمه الله– ومحمد رجب قاري –فرّج الله عنه–، وكان المئات من الناشئة والشباب يتعلمون العلوم الإسلامية في هذه المدرسة الشهيدة.

- هدم مسجد ومدرسة فاطمة الزهراء في شارع ساغبان في العاصمة الأوزبكية طشقند.

- هدم مدرسة "السيد أحمد إيشان" في مدينة مرغيلان، وبناء معهد طبي حكومي مكانه.

ويقول أحد المسلمين في مرغيلان السيد "أحمد جان محمدعمروف" في تصريح له لإذاعة "أوروبا الحرة":

"ماذا يمكن أن تقول عن هدم المدرسة الكبيرة – مدرسة السيد أحمد إيشان– التي شُيدت بتمويل من عامة المسلمين في مدينة مرغيلان؟ وعن إغلاق المسجد الذي كنا نصلي فيه قبل أيام بقرار من المدعي العام بالمدينة؟ أنا أعتقد بأن تنظيم مثل هذا المؤتمر (مؤتمر دور أوزبكستان في الحضارة الإسلامية) أو نحوه في طشقند ليس إلا من أجل الرياء والسمعة!"

- وأما المسلم الأنديجاني السيد "نور الدين نظام الدين وف" فيقول في تصريحه للإذاعة:

"هذه المباني التي تشيّد وهذه المساجد التاريخية التي ترمّم لا تعمّر من أجل مصلحة دين الإسلام، بل من أجل إخفاء عيوب نظام كريموف عدو الإسلام أمام الضيوف الرسميين الذين يأتون لمدة قصيرة، وهؤلاء الضيوف الذين اختاروا طشقند مركزاً

للثقافة الإسلامية معترفين بتاريخ أوزبكستان العظيم جاهلون بواقعها اليوم، وكريموف يجيد انتقاء الضيوف الذين يريد استضافتهم في مثل هذه الظروف، وفي الحقيقة حال أهل الإسلام مأساوية، وهذا شاهد واحد؛ قبل ١٥ يوماً فقط كان مجموعة من زملائنا في جلسة في أحد المطاعم فلما حان موعد صلاة المغرب قاموا فصلوا المغرب جماعة، ثم اعتُقلوا بسبب ذلك".

– وهذه سيدة أوزبكية أخرى تتحدث عن أوضاع المساجد والمسلمين الأوزبك:

"لم يبق في أوزبكستان إلا المساجد المركزية، أما المساجد التي في الأحياء الصغيرة فقد أغلقت، وكان المسلمون الكبير منهم والصغير في أول أيام الاستقلال يرتادون المساجد للصلوات الخمس وصلوات التراويح بلا خوف، أما الآن فالكل يخاف من ارتياد المساجد، حتى أنا منعت ولدي من الذهاب إلى المسجد خوفاً من محنة تصيبه (حيث يدرجه جلادوا كريموف ضمن القوائم السوداء)".

ويضيف مسلم أوزبكي آخر في ندوة إذاعة "أوروبا الحرة" قائلاً:

"أصيب المسلمون الأوزبكستانيون برعب شديد بسبب اعتبار الحكومة الأوزبكية أن المسلم العادي والإرهابي هما شيء واحد، فصاروا يبتعدون عن تعلم الإسلام وإقامة الصلوات في المساجد ويحاولون عدم الخروج من بيوتهم، وفي الأصل الإسلام بعيد عن الإرهاب كل البعد".

المصدر :«أوزبكستان المسلمة»

=============-

دستور المدينة.. مفخرة الحضارة الإسلامية

محمد مسعد ياقوت
yakoote@gmail.com
إسلام أو ن لاين

فور هجرة النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إلى المدينة المنورة كتب دستورًا تاريخيًا[١]، وقد أطنب فيه المؤرخون والمستشرقون على مدار التاريخ الإسلامي، واعتبره الكثيرون مفخرة من مفاخر الحضارة الإسلامية، ومَعلَمًا من معالم مجدها السياسي والإنساني..

إن هذا الدستور يهدف بالأساس إلى تنظيم العلاقة بين جميع طوائف وجماعات المدينة، وعلى رأسها المهاجرين والأنصار والفصائل اليهودية وغيرهم، يتصدى بمقتضاه المسلمون واليهود وجميع الفصائل لأي عدوان خارجي على المدينة..

وبإبرام هذا الدستور -وإقرار جميع الفصائل بما فيه- صارت المدينة دولة وفاقية رئيسها الرسول-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وصارت المرجعية العليا للشريعة الإسلامية، وصارت جميع الحقوق الإنسانية مكفولة، كحق حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر، والمساواة والعدل..

يقول المستشرق الروماني جيورجيو:

"حوى هذا الدستور اثنين وخمسين بندا، كلها من رأي رسول الله. خمسة وعشرون منها خاصة بأمور المسلمين، وسبعة وعشرون مرتبطة بالعلاقة بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى، ولاسيما اليهود وعبدة الأوثان. وقد دُون هذا الدستور بشكل يسمح لأصحاب الأديان الأخرى بالعيش مع المسلمين بحرية، ولهم أن يقيموا شعائرهم حسب رغبتهم، ومن غير أن يتضايق أحد الفرقاء. وضع هذا الدستور في السنة الأولى للهجرة، أى عام ٦٢٣م. ولكن في حال مهاجمة المدينة من قبل عدو عليهم أن يتحدوا لمجابهته وطرده"[٢].

ومن ثم تعالوا نقف وقفات سريعة على أهم معالم القيم الحضارية التي نراها جلية في هذا الدستور:

أولاً: الأمة الإسلامية فوق القبلية:

قال الدستور في ذلك:

"إنهم [أي الشعب المسلم] أمة واحدة من دون الناس"[٣].

وبهذا البند اندمج المسلمون على اختلاف قبائلهم وأنسابهم إلى جماعة الإسلام، فالانتماء للإسلام فوق الانتماء للقبيلة أو العائلة، وبهذا نقل رسول الله العرب من مستوى القبيلة إلى مستوى الأمة.

ثانيًا: التكافل الاجتماعي بين فصائل الشعب:

وفي هذه القيمة كُتبت البنود التالية:

"المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين"[٤].

"وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين"[٥].

"وبنو سَاعِدَةَ على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين...

"وبنو جُشَمٍ على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين..

"بنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين..

"وَبَنُو الْأَوْسِ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمْ الْأُولَى ، وَكُلّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ..

"وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرُكُونَ مُفْرَحًا بَيْنَهُمْ أَنْ يُعْطُوهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلٍ"[٦].

ثالثاً: ردع الخائنين للعهود :

وفي هذا الحق كُتب البند التالي:

"وإن المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[٧] ظلم أو إثما أو عدوانا أو فسادا بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم"[٨].

وهذا نص في جواز حمل السلاح على أي فصيل من فصائل المدينة إذا اعتدى على المسلمين..

وبموجب هذا النص حُكم بالإعدام على مجرمي قريظة – بعد معركة الأحزاب (في ذي القعدة ٥ هـ/إبريل ٦٢٧ م) – ، لما تحالفوا مع جيوش الأحزاب الغازية للمدينة، وبغوا وخانوا بقية الفصائل، على الرغم من أنهم أبناء وطن واحد!

رابعا: احترام أمان المسلم:

وجاء في هذا الأصل الأخلاقي البند التالي:

"وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس."[٩] ..

فلأي مسلم الحق في منح الأمان لأي إنسان، ومن ثم يجب على جميع أفراد الدولة أن تحترم هذا الأمان، وأن تجير من أجار المسلمُ، ولو كان المجير أحقرهم.

فيُجير على المسلمين أدناهم، بما في ذلك النساء، وقد قال النبي –صلى الله عليه وسلم– لأم هانئ: " أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمّ هَانِئٍ "[١٠].

خامسا: حماية أهل الذمة والأقليات غير الإسلامية:

وجاء في هذا الأصل:

"وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم"[١١].

وهو أصل أصيل في رعاية أهل الذمة، والمعاهدين، أو الأقليات غير الإسلامية التي تخضع لسيادة الدولة وسلطان المسلمين .. فلهم –إذا خضعوا للدولة– حق النصرة على من رامهم أو اعتدى عليهم بغير حق سواء من المسلمين أو من غير المسلمين، من داخل الدولة أو من خارجها..

سادسا: الأمن الاجتماعي وضمان الديات:

وجاء في هذا الأصل:

"وإنه من اعتبط[١٢] مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول (بالعقل)، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه"[١٣].

وبهذا أقر الدستور الأمن الاجتماعي، وضمنه بضمان الديات لأهل القتيل، وفي ذلك إبطال لعادة الثأر الجاهلية، وبين النص أن على المسلمين أن يكونوا جميعًا ضد المعتدي الظالم حتى يحكم عليه بحكم الشريعة..

"ولا شك أن تطبيق هذا الحكم ينتج عنه استتباب الأمن في المجتمع الإسلامي منذ أن طبق المسلمون هذا الحكم"[١٤].

سابعا: المرجعية في الحكم إلى الشريعة الإسلامية:

وجاء في هذا الأصل:

"وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله –عز وجل– وإلى محمد...

"وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مردَّه إلى الله، وإلى محمد رسول الله، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره"[١٥].

ثامنا: حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر مكفولة لكل فصائل الشعب:

وجاء في هذا الأصل:

"وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأَثِم فإنه لا يوتغ[١٦] إلا نفسه وأهل بيته" [١٧].

تاسعا: الدعم المالي للدفاع عن الدولة مسؤلية الجميع:

وجاء في هذا الأصل:

"وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين"[١٨].

فعلى كل الفصائل بما فيها اليهود أن يدعموا الجيش ماليًا وبالعدة والعتاد من أجل الدفاع عن الدولة، فكما أن المدينة وطن لكل الفصائل، كان على هذه الفصائل أن تشترك جميعها في تحمل جميع الأعباء المالية للحرب.

عاشرا: الاستقلال المالي لكل طائفة:

وجاء في هذا الأصل:

"وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم"[١٩].

فمع وجوب التعاون المالي بين جميع طوائف الدولة لرد أي عدوان خارجي، فإن لكل طائفة استقلالها المالي عن غيرها من الطوائف.

الحادي عشر: وجوب الدفاع المشترك ضد أي عدوان :

وجاء في هذا الأصل :

"وإن بينهم النصر على من دهم يثرب "[٢٠].

"وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة"[٢١].

وفي هذا النص دليل صريح على وجوب الدفاع المشترك، ضد أي عدوان على مبادئ هذه الوثيقة.

الثاني عشر: النصح والبر بين المسلمين وأهل الكتاب:

وجاء في هذا الأصل:

"وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم"[٢٢].

فالأصل في العلاقة بين جميع طوائف الدولة –مهما اختلفت معتقداتهم– هو النصح المتبادل، والنصيحة التي تنفع البلاد والعباد، والبر والخير والصلة بين هذه الطوائف.

وقد اشتملت الدستور على قيم حضارية أخرى منها:

الثالث عشر: حرية كل فصيل في عقد الأحلاف التي لا تضر الدولة:

وجاء في هذا الأصل:

"وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه"[٢٣].

الرابع عشر: ووجوب نصرة المظلوم:

وجاء في هذا الأصل :

"وإن النصر للمظلوم."[٢٤]

الخامس عشر: وحق الأمن لكل مواطن:

"إنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول"[٢٥].

هذه بعض معالم الحضارة الإسلامية في دستور المدينة، تبين لك – كما رأيت – كيف سبق النظامُ الإسلامي جميع الأنظمة في إعلاء قيم التسامح والتكافل والحرية ونصرة المظلوم .. وغيرها من القيم الحضارية التي يتغنى بها العالم في الوقت الراهن دون تفعيل جاد أو تطبيق فاعل.

[١] سماها ابن إسحاق وكتاب السير القدماء : الموادعة، وسماها الصلابي : الوثيقة أو الصحيفة، وسمها صفي الرحمن المباركفوري ميثاق التحالف الإسلامي، وسماها الحميدي :صحيفة المعاهدة بين أهل المدينة، وسماها البوطي وثيقة بين المسلمين وغيرهم ، واخترنا تسميتها بالدستور، فهو الاسم الحالي الرسمي للوثيقة التي تنظم الشأن للدولة . فالمعاهدة تنظم العلاقات الخارجية بين دولة ودولة، أما الدستور فيطلق على الوثيقة التي تنظيم الشأن العام الداخلي للدولة .

[٢] ك. جيورجيو : نظرة جديدة في سيرة رسول الله ، ص ١٩٢.

[٣] ابن سيد الناس : عيون الأثر ٢٦٠/١، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢١

[٤] ابن سيد الناس : عيون الأثر ٢٦٠/١، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢١

[٥] ابن سيد الناس : عيون الأثر ١/ ٢٦٠

[٦] ابن هشام : السيرة النبوية ١/ ٥٠١

[٧] أي: طلب دفعًا على سبيل الظلم، ويجوز أن يراد بها العطية.

[٨] ابن سيد الناس : عيون الأثر ١/٢٦٠، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢١، ابن هشام : السيرة النبوية ١/ ٥٠١

[٩] ابن سيد الناس : عيون الأثر ١/٢٦٠، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢١، ابن هشام : السيرة النبوية ١/ ٥٠٢

[١٠] ابن القيم : زاد المعاد ٣/ ١٠٨

[١١] ابن سيد الناس : عيون الأثر ١/٢٦٠، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢١، ابن هشام : السيرة النبوية ١/ ٥٠٢

[١٢] أي قتله دون جناية أو سبب يوجب قتله.

[١٣] ابن سيد الناس : عيون الأثر ١/٢٦٠، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٢، ابن هشام : السيرة النبوية ١/ ٥٠٢

[١٤] عبد العزيز بن عبد الله الحميدي : التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، ٣/٤٩

[١٥] ابن سيد الناس : عيون الأثر ١/٢٦١، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٢، ابن هشام : السيرة النبوية ١/ ٥٠٣

[١٦] يعني : يُهلك .

[١٧] ابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٢، ابن هشام : السيرة النبوية ١/ ٥٠٣

[١٨] ابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٢، ابن هشام : السيرة النبوية ١/ ٥٠٣

[١٩] ابن سيد الناس : عيون الأثر ١/٢٦١ وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٢، ابن هشام : السيرة النبوية ١/ ٥٠٣

[٢٠] ابن سيد الناس : عيون الأثر ١/٢٦١ وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٢، ابن هشام : السيرة النبوية ١/ ٥٠٣

[٢١] ابن سيد الناس : عيون الأثر ١/٢٦١ وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٢، ابن هشام : السيرة النبوية ١/ ٥٠٣

[٢٢] ابن سيد الناس : عيون الأثر ٢٦١/١ وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٢، ابن هشام : السيرة النبوية ١/ ٥٠٣

[٢٣] ابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٢، وابن سيد الناس : عيون الأثر ٢٦١/١ وابن هشام : السيرة النبوية ١/ ٥٠٣، والسهيلي : الروض الأنف ٣٤٥/٢

[٢٤] ابن سيد الناس : عيون الأثر ٢٦١/١ وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٣، ابن هشام : السيرة النبوية ١/ ٥٠٣، والسهيلي : الروض الأنف ٣٤٥/٢

[٢٥] ابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٣ وابن سيد الناس : عيون الأثر ٢٦٢/١ ، ابن هشام : السيرة النبوية ١/ ٥٠٣، والسهيلي : الروض الأنف ٣٤٥/٢

المصادر والمراجع

*

ابن سيد الناس (أبي الفتح محمد بن محمد بن عبدالله بن محمد بن يحيى))ت ٧٣٤هـ(: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، بيروت : دار الآفاق، ١٩٧٧م.

*

ابن القيم (محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي) : زاد المعاد في هدي خير العباد ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط – عبد القادر الأرناؤوط، بيروت – الكويت: مؤسسة الرسالة – مكتبة المنار الإسلامية –الطبعة الرابعة عشر ، ١٤٠٧ هـ– ١٩٨٦م

*

ابن كثير(إسماعيل بن عمر): السيرة النبوية، بيروت: مكتبة المعارف،د. ت.

*

ابن هشام (، أبو محمد بن عبد الملك) : السيرة النبوية ، دمشق : دار الفكر، د. ت.

*

السهيلي (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله) ت ٥٨١ هـ: الروض الأنف، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل ،القاهرة: ١٩٦٧ م

*

عبد العزيز بن عبد الله الحميدي : التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، الإسكندرية : دار الدعوة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م .

*

كونستانس جيورجيو : نظرة جديدة في سيرة رسول الله، تعريب : محمد التونجي، د. م : الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م

=============

#تاريخ الحضارة الإسلامية و الفكر الإسلامي

٢٨ يونيو ٢٠٠٧ كتبت بواسطة عمار كشاري

٥This entry has a rating of

تأليف أبو زيد شلبي أستاذ الحضارة بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر، ربما أستطيع أن أقول سابقا لأن الكتاب قديم فقد نشر في ١٣٨٣هـ

عدد الصفحات : ٣٧٩

الناشر: مكتبة وهبة

تاريخ الإسلام ليس مجموعة من الحروب و الغزوات، كما يتبادر إلى ذهن أي شخص يقرأ مناهج كتب التاريخ في المدارس، عندما ندرس التاريخ الإسلامي يجب أن ندرس تاريخ حضارة المسلمين وليس حروبهم فقط.

بدأ الكتاب في فصله الأول بتعريف الحضارة ونشأتها وأطوارها وعناصر تكوينها والحضارة في رأي المؤلف هي مدى ما وصلت إليه أمة من الأم في نواحى نشاطها الفكري و العقلي من عمران وعلوم ومعارف وفنون وما إلى ذلك.

في الفصل الثاني

جاء الإسلام في عالم تعمه الفوضى، هذه العبارة صحيحة إلى حد كبير، لكن كانت هناك أمم حضارات سبقت الإسلام منها الفرس و الروم، ورغم ما وصلت إليه هذه الدولتان من تقدم في زمانهم وكانتا وقتئذ تتحكمان في العالم، لكنهما كانتا متهالكتين من الداخل بسبب الحروب و الفساد ووصل هذه التهالك أوجه في وقت ظهور الإسلام.

العرب لم يكونوا أفضل حالا من غيرهم، فأهل شبة الجزيرة العربية كان همهم الوحيد البحث في الصحراء عن مكان جديد ليعيشوا فيه مع أغنامهم وجمالهم كما قال الشاعر المثقف العبدى في ناقته:

تقول إذا درأت لها وضيني ..... أهذا دينه أبدا وديني

أكل الدهر حل وارتحال ..... أما تبقى علي ، ولا تقيني

فأي حضارة بدون منزل!؟ كيف نطلب من شخص لا يجد قوت يومه ولديه مشكلات للصبح أن يبدع ويبنى حضارة!؟ وأنا أشير من هذا الكلام إلى الوقت الحالي وليس إلى ذلك الزمان!

كان الجاهلي يكرم زوجته ويجلها (!) أنظر إلى الشاعر يقول

ياربة البيت قومي غير صاغرة ..... ضمي إليك رحال القوم و القربا

كانت لدى العرب علوم لكن ما دعتهم إليه الضرورة فقط كأمراض الإبل و غزل الصوف و الوبر ومعرفة بعض الإمراض و النجوم و كانوا يجيدون علم القافية و الفراسة و الضيافة.

كان العرب أبعد الناس عن الصناعة، وذلك لأن عامتهم بدو متنقلون، بل أكثر من هذا فقد بلغ بهم الأمر إلى أن يعيبوا الصناعين، يقول قائلهم في وصف أهل بلد ما : (هم بين دابغ جلد وناسج برد) وكانت كسوة الكعبة تطرز من قبل عمال فرس أو روم وكذلك كانت صناعة الأصنام .

الفصل الثالث : أصول الحضارة الإسلامية

القران الكريم

السنة النبوية

الحضارة العربية

الحضارة الفارسية

الحضارة اليونانية و الرومانية

نستطيع أن نقول أن هذه هي المصادر التي استمدت منها الحضارة الإسلامية مقوماتها، في الكتاب تجد تفصيل ذلك، ربما يستغرب الكثير من وجود الحضارة

الفارسية و اليونانية و الرومانية كمصدر من مصادر الحضارة الإسلامية، لكن الجدير بالذكر أن المسلمين الأوائل تعلموا من أهل البلاد التي فتوحها.

الفصل الرابع : نظم الحكم

ديمقراطية الإسلام، الخلافة، الإدارة، الوزارة، الحجابة، الكتابة، الدواوين ، القضاء، الشرطة، البريد، الجيش، البحرية، حكومة الأقاليم.

لم يكن هذا الفصل مثيرا بالنسبة لي، فيه تفاصيل كثيرة عن المواضيع السابقة مما لا يفيدني ولا أفكر بتأسيس دولة –حاليا على الأقل!– لذلك مررت مرور الكرام عليه. لكن على كل حال في هذا الفصل نبذه عن كل من الإدارات السابقة وكيف بدأت في ظل الإسلام ونماذج تبين كيف كانت تمارس دورها في ذلك الوقت.

الفصل الخامس : نشأة العلوم الإسلامية وبدء الحياة العلمية (الحديث–التفسير–الفقه–النحو)

بعد أن استقرت أوضاع المسلمين بدأ نتائجهم العلمي في الظهور.

الحديث

لم يكن كبار الصحابة يكتبون الحديث في وقت مبكر لأسباب

–أنهم لا يعرفون الكتابة!

–أنهم يعتمدون على ملكة الحفظ التي امتازوا بها

–حتى لا يشتبه على الناس الآية من الحديث

أول من أمر بتدوين الحديث وجمعه كما قال القسطلاني كان عمر بن عبدالعزيز في سنة مائة للهجرة وقد أمر بهذا أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم. وهناك رواية أخرى ذكرها صاحب فتح البارى أن المأمور هو ابن شهاب الزهري.

التفسير

و التفسير ثلاث أقسام

التفسير بالرواية ويسمى التفسير بالمأثور

التفسير بالدراية ويسمى التفسير بالرأي

التفسير الإشارة ويسمى التفسير الإشاري

الأول كما هو واضح فقد كان التفسير نقلا عن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين، ومن أمثله هذه التفاسير تفسير مخلد القرطبي سنة ٢٦٠ ولكن للأسف لم يكتب لهذا التفسير البقاء وتفسير ابن كثير وهو من أصح التفاسير بالمأثور وتفسير السيوطي.

الثاني وقد يبدوا واضحا أيضا فهو يعتمد على الرأي بضرورة توفر بعض الشروط في من يريد أن يبدي رأيه! ومن أشهر هذه التفاسير تفسير الجلالين، و أنوار التنزيل و أسرار التأويل، و روح المعاني.

الثالث هو تفسير الفرق المختلفة، فبعد ظهور عدة طوائف في الإسلام تناولت كل طائفة كتاب الله تفسره بما ارتضته لنفسها، ويمكن تقسيم هذه التفاسير إلى نوعين الأول التفسير الإشاري أو التفسير الصوفي و الثاني تفسير أهل الكلام. ومن أمثلة التفسير الصوفي تفسير ابن عربي و تفسير النيسابوري، وأمثلة التفسير أهل الكلام مجمع البيان في تفسير القران.

الفقه

الفقه الإسلامي مثله مثل كل كائن مادي أو معنوي، لا ينشأ من لا شئ، ولا يبلغ كماله طفرة واحدة، بل ينشأ من شئ موجود سابق عليه، ويأخذ في السير متدرجا في مراتب الحياة والوجود، حتى يبلغ أقصى ما يقدر له من نضوج وكمال وتطور، ثم ينال من الزمن وأحداثه حتى يدركه الهرم. مر الفقه الإسلامي بأربع أطوار

١ – طور النشأة وكان في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم

٢– طور الشباب بدأ في عصر الخلفاء الراشدين وفي نهاية هذا الطور ظهرت نزعتان في الفقه الأولى نزعة أهل الحديث و الثانية نزعة أهل الرأي و القياس

٣– طور النضج و الكمال وهو العصر الذي ظهرت فيه المذاهب الفقهية

٤– طور الشيخوخة وهذه مستمر إلى عصرنا هذا، ولم تقم محاولة للاجتهاد إلا من الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، و النفوس اليوم متطلعة إلى أن يعود للفقه ازدهاره.

النحو

النحور قانون اللغة العربية

النحو يبسط من لسان الألكن .... و المرء تكرمه إذا لم يلحن

إذا طلبت من العلوم أجلها ... فأجلها عندي مقيم الألسن

وضع علم النحو بعد أن أختلط العرب بالعجم،ومن أمثلة ما ظهر أن أبا موسى الأشعري والى البصرة أرسل إلى عمر بن الخطاب كتابا ذكر فيه كاتبه: (من أبو موسى الأشعري) فكتب عمر لأبى موسى (عزمن عليك لما ضربت كاتبك سوطا).

لماذا غضب عمر؟

وضع هذا العلم أبو الأسود الدؤلي، بعد أن قال له علي رضي الله عنه (أنح هذا النحو) ، ولذلك سمى نحوا،وقيل لأن أبا الأسود كلما وضع بابا عرضه على علي رضي الله عنه فيقول له: ما أحس هذا النحو الذي قد نحو

مر النحو بأربع أطوار

١- طور النشوء و التكوين وكان في البصرة بدأ مع أبى الأسود الدؤلي إلى عصر الخليل بن أحمد

٢- طور الترقي و النمو : وقد اشتركت فيه مدرستا البصرة و الكوفة ويبدأ من عهد الخليل بن أحمد البصرى و أبى جعفر الرؤاسي الكوفي.

٣- طور الكمال: وقد اشتركت فيه مدرستا البصرة و الكوفة ويبدأ من عهد أبى عثمان المازني البصري ويعقوب بن السكيت الكوفي

٤- طور الترجيح و البسط: وهو من عد بغداد إلى وقتنا هذا وقد اشترك فيه البغداديون و الشاميون و المصريون و الأندلسيون.

وأنا أقترح طور جديد هو

٥- الانحطاط الشديد

الفصل السادس: مظاهر العمران

بني المسلمون عدة مدن منها الكوفة فبعد أن فتح الله على المسلمين ما فتح من العراق كانت رسلهم ترد على عمر رضي الله عنه فيرى في وجهوهم وألوانهم تغيرا فسألهم عن سر ذلك فقالوا له: وخومة البلاد, فكتب إلى سعد بن أبي وقاص (أنبئني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم) فكتب إليه سعد (إن العرب خددهم وكفي ألوانهم وخومة المدائن ودجلة) فكتب إليه (أن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان، فأبعث سلمان وحذيفة فيرتادا منزلا بريا بحريا ليس بينكم فيه بحر ولا جسر) فبعثهما

سعد حتى وصلا إلى الكوفة وهي حصباء ورمل فأعجبتهما البقعة فنزلا وصليا ودعوا الله أن يبارك لهم في هذه الكوفة وكتبا إلى سعد بالخبر فارتحل بالناس من المدائن حتى عسكر بالكوفة في المحرم سنة ١٧هـ.

ومن المدن التي خطها المسلمون الفسطاط وهي تقع الآن في المنطقة التي فيها جامع عمرو بمصر القديمة. كان كانها وهو معسكر جيش المسلمين حينا حاصروا حصن بابل المعروف اليوم بدير النصارى أو دير مارى جرجس. ولما فتح عمرو هذا الحصن أجمع المسير إلى الإسكندرية لفتحا، فأمر بنزع فسطاطه ·خيمته) فإذا يمامة قد باضت فقال: (لقد تحرمت بجوارنا) أقروا الفسطاط حتى تنقف وتطير أفراخها فأقر فساكة و وكل به من يحفظه إلا يهاج.

بغداد دار السلام سابقا و الحرب الآن!

أختار موقعها وبناها المنصور ووضع أول لبنة وقال (باسم الله والحمد لله، الأرض لله يورثها من يشاء و العاقبة للمتقين) وقال فيها الشاعر بعد بنائها

بغداد يا دار الملوك ومجتي .... صنوف المنى يا مستقر المنابر

يا وجنة الدنيا ويا مجتني الغني .... ومنبسط الآمال عند المتاجر

وهناك مدائن أخرى بنائها المسلمون كالقيروان و الفسطاط أو زادوا في عمارتها كدمشق و المدائن وغرناطة و طليطلة و الإسكندرية.

العمارة الإسلامية

للعمارة الإسلامية مظاهر

١- اتخاذ الأعمدة و المنحنيات و المشربيات و الشرفات و القباب و المآذن و المدخل الملتوي وبعض هذه المظاهر مستوحى من بيئاتهم وأحوال معيشتهم.

٢- إن المدن كانت تحاط بأسوار منيعة ولها أبواب متينة يمكن إغلاقها عند الحاجة كأسوار بغداد.

٣- أن تكون في وسط المدينة ساحة متسعة بها أكبر مساجدها.

٤- إن البيوت كانت تبنى داخل ساحة الدار، وليس لها نوافذ تطل على الشارع.

٥- أن يخصص حي من أحياء المدينة لأهل كل حرفة يعرف باسمهم، كما أن بغضهم للنظام المركزي جعلهم يتجمعون قبائل منفصلة أينما حلوا، ولكل قبيلة حيها

ومنزلها ومسجدها وسوقها ومقابرها وهذا يلائم ما درجوا عليه من الحرية و اعتبر ذلك بالكوفة و الفسطاط.

٦- إن اختيار موقع المدينة وتخطيطها يكون قريب الشبه من باديتهم وأحوال معيشتهم من حيت الموقع و اتساع الخطط وهم برعوا في تخطيط المدن.

٧- إن زخارفهم كانت مستمدة من المناظر الطبيعية و الأشكال الهندسية و النباتية و تحاشوا التماثيل و الصور المجسمة لأنها محرمة عليهم حتى لا يتشبهوا بعبده الأوثان.

٨- إن تخطيط المساجد كان يقوم على أربعة إيوانات مسقوفة وعقودها محمولة على عمد من الرخام أكبرها إيوان المحراب ويتوسط الإيوانات صحن مشكوف كثيرا ما تتوسطه قبلة.

الموسيقى و الغناء

الموسيقى فن رياضي يبحث فيه عن أحوال النغم من حيث الإتقان و التنافر، وأحوال الأزمنة المتخللة بين النقرات من حيث الوزن وعدمه ليحصل معرفة كيفة تأليف اللحن .. وهو يشتمل على بحثين. البحث الأول عن أحوال النغم و الثاني عن الأزمنة، فالأول يسمى علم التأليف و الثاني يسمى علم الإيقاع.

كان العرب يغنون قبل ظهور الإسلام قال الشاعر

فغنها وهي لك الفداء .... إن غناء الإبل الحداء

ومازال هذا النوع من الغناء موجودا حتى اليوم في بعض بلادنا بين من يقوم على الإبل، كذلك كان العرب يضربون الدف وهو نوع بدائي من الموسيقى وقد أباحه الإسلام في الولائم وكان الحارث بن كلدة الثقفي الذي كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم يضرب العود.

أشتهر من المسلمين بعد ذلك ك زرياب وهو الذي زاد في العود وترا خامسا و أخترع مضراب العود من قوادم النسر، وكذلك الفارابي الذي أخترع القانون ومازالت هذه الآلة تستخدم حتى الآن بدون تغيير.

ذكر ابن خلكان أن الفرابي حضر مجلس غناء لسيف الدولة الحمداني ولم يكن أحد من الحضور يعرفه فعاب المغنين، فسأله سيف الدولة الحمداني هل يحسن الغناء؟

ففتح خريطة و استخرج الآلة وركبها ثم لعب بها فضحك منها كل من كان في الملس، ثم فكها وركبها تركيبا آخر وضرب عليها فبكى كل من كان في المجلس، ثم فكها وغير تركيبها وضرب ضربا آخر فنام كل من في المجلس حتى البواب! فتركهم نياما وخرج.

وهناك فنون برع فيها المسلمون كالشعر و الخطابة و الزخرفة و الخط

الفصل السابع : الحياة الإجتماعية

تكوين المجتمع العربي ، الأسرة في الإسلام ، المرأة في الإسلام ، الرقم

الفصل الثامن : الحياة الإقتصادية

الزراعة ، الصناعة ، التجارة ، النظام المالي

الفصل التاسع : الحركة الفكرية

المذاهب و الفرق و الفلسفة و التربية

العلوم الطبيعة عند العرب الطلب الفلك الكيمياء الفيزياء و الرياضيات

العلوم الاجتماعية التاريخ الجغرافيا الاجتماع

لن أنقل هنا شيئا من الكلام الذي ذكره المؤلف عن الفرق و المذاهب فهو ملئ وهذه هي ملاحظتي الوحيدة على هذا الكتاب.

الفلسفة

لم ينقل العرب كتب فلاسفة اليونان إلى العربية إلا في عصر المأمون على وجه العموم- وهنا أتذكر هؤلاء الذين يلعنون المأمون لأنه سمح بنقل هذه العلوم إلى العرب و أن هذه الخطوة هي سبب تخلف المسلمين اليوم!- وكان من أشهر فلاسفة الإسلام الكندي (فليسوف العرب) ، الفارابي (المعلم الثاني) ، ابن سينا (يعرف في أوربا بـ أفسينا) ، الغزالي (حجة الإسلام وهو غير الغزالي المعاصر، مؤلف تهافت الفلاسفة ويقول عنه دى بور أنه أعجب شخصية في تاريخ الإسلام)، ابن رشد(الشارح العظيم ومؤلف تهافت التهافت ردا على الغزالي!).

الفصل العاشر : أثر الحضارة الإسلامية في الحضارة الأوربية

- ظل كتاب الحاوي في الطب للرازي المرجع الوحيد المعترف به في جامعات أوربا حتى القران السابع عشر.

– أعتمد روجر بيكون في دراسته لعلم البصريات على ما كبته الكندي

– أعترف بيكون ودافينشى وكيبلر بفضل الكندى لما لاحظه في طريقة تعرف العين على الأشياء

– جابر بن حيان مؤسس علم الكيمياء فقد نظم طرق البحث والتحليل وركب عددا من المواد الكيميائية وكانت أبحاثه وما توصل إليه من معلومات هي المرجع الأول حتى القرن الثامن عشر الميلادي.

– اعتمدت أوربا على ما كتب ابن سينا في علم طبقات الأرض الجيلوجيا إبان نهضتها العلمية.

– يعتبر ابن خلدون أول مفكر اجتماعي فهو أول من صاغ قوانين تقدم الأمم و انهياراها وأول من عرف للعوامل الطبيعية و الجغرافية و المناخية و أخميتها في ذلك.

– يقول جيب (إن أعظم أثر للأدب العربي كان في بعض روح الكتابة، فقد حرر الفكر الأوربي من النطاق الضيق للتقليد المميت).

–كان جامعة باريس وحتى القران الرابع عشر لا تعتبر بآراء أرسطو إلا على الوجه الذي حدده ابن رشد.

– وأخيرا يقول المسيو سيديو : (إن الكنوز الأدبية العظيمة التي أوجدها العرب في ذلك العصر ونتاج نبوغهم العلمي و اختراعاتهم الثمينة تنهض دليلا على نشاطهم الفكري وتؤيد الرأي القائل بأن العرب هم أساتذتنا في كل شئ وإذ أنهم زودونا بمواد جليلة القيمة في تاريخ العصور الوسطى وبأسفار مجيدة في التراجم وتركوا لنا صناعة لا مثيل لها وفنا معماريا آية في الروعة و الجمال و اكتشافات هامة في الفنون و الصناعات)

تلك أمة قد خلت!

هذا الكتاب " تاريخ الحضارة الإسلامية و الفكر الإسلامي " كتب في ٢٨ يونيو ٢٠٠٧ في الساعة ٥:٣٧ ص ومصنف بهذه التصنيفات: تاريخ, إسلاميات. يمكنك متابعة التعليقات على تاريخ الحضارة الإسلامية و الفكر الإسلامي عن طريق ملف

الخلاصات RSS ٢,٠. يمكنك أن تكتب تعليقاً, أو تعقب على تاريخ الحضارة الإسلامية و الفكر الإسلامي من

===============

علم استنباط المياه عند المسلمين

رزق العرب منذ قديم الدهر فراسة حاذقة يتعرفون بها على مكامن الماء في باطن الأرض ببعض الإشارات الدالة على وجوده، وبعده وقربه، بشم التراب أو برائحة بعض النباتات فيه، أو بحركة حيوان مخصوص. سمى العلماء معرفتهم هذه(١) علم الريافة(٢).

قال الألوسي : >هو نوع من الفراسة، وهي موجودة في بعض أعراب نجد، ويسمى من له هذه المعرفة اليوم "النصات"، ولم تذكره معاجم اللغة، وهو من مبالغات اسم الفاعل من : نصت الرجل ينصت نصتاً، وهو "القنقن"، وجمعه بالفتح "القناقن". وقد عرفته دواوين اللغة بأنه "البصير بالماء تحت الأرض" و"البصير بحفر الماء واستخراجها" و"الذي يسمع فيعرف مقدار الماء في البئر قريباً أو بعيداً" من القن، وهو "التفقد بالبصر"<(٣).

وورد (القناقن) بالجمع في شعر للطرماح بن حكيم (ت نحو ١٢٥هـ) قال :

يخافتن بعض المضغ من خشية الردى

وينصت للسمع انتصات (القناقن).

ويقال لمن يقوم بالحفر وإنباط الماء (القناء)، وقد تطورت هذه المعرفة الفطرية عند العرب إبان تفجر ينابيع العلم في الإسلام وتبحر العلماء المسلمين فيه، وقامت الحضارة الإسلامية وعمرانها على أسسه وقواعده، فصارت بجهود علماء الرياضيات والطبيعيات علماً محرراً ومدوناً، وفناً تطبيقياً بالغ الدقة، ارتقى به بعضهم إلى اختراع موازين يزن بها ارتفاعات الأرض على النحو الدقيق الذي اهتدى إليه، وشرح صفته المهندس الرياضي (الكرجي) على ما ستأتي الإشارة إليه.

وبدأ العلماء المسلمون التأليف في الماء في أواخر المائة الثانية الهجرية، وقد تناولوا بحثه من جوانب مختلفة، وأرقاها وأبلغها فوائد وعوائد ما ألفوه في (استنباط المياه الخفية). ولعل أول كتاب في هذا الفن، بلغنا خبره، هو كتاب "علل المياه وكيفية

استخراجها وإنباطها في الأرضين المجهولة"، الذي ألفه أبو بكر أحمد بن علي المعروف بابن وحشية، من أهل المائة الثالثة الهجرية، وأدرك المائة الرابعة، وقد عرفنا من ذلك الكتاب اسمه، ولم يبلغنا عن وجوده في مظنة خبر.

ووضع فيلسوف العرب "أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي" المتوفى نحو سنة ٢٦٠هـ شرحاً على كتاب "في قود المياه"، أي جرها لفنيلون البيزنطي.. ذكره أبو عمر أحمد بن محمد بن حجاج الإشبيلي في كتاب "المقنع في الفلاحة"، ونقل إلى كتابه فصلاً منه (فيما يعرف به قرب الماء من بعده وحلوه من مره)، وقال في صفته : >هو أحسن كتاب ألف في هذا الشأن، ولا بد لمن أراد قود ماء من موضع بعيد إلى مدينة أو قرية أو نحوهما، من تصفح هذا الكتاب، لما فيه من المنافع وقرب المآخذ<.

ونجد أيضاً في رسالة الكندي "في العلة الفاعلة للمد والجزر" اكتشافه للدورة الهيدرولوجية، فيذكر عناصرها المعروفة في الوقت الحاضر تقريباً وهي : التبخر. ويذكر أنه يتم بتأثير الشمس، التكاثف، وينعقد سحاباً. الهطل، ويصير مطراً أو ثلجاً أو بردًا. الجريان أو الانتقال : عائداً إلى الأرض سائلاً إلى البحار. ويشير بشكل واضح إلى دورية هذه الحوادث التي تشكل الدورة الهيدرولوجية بقوله : دائماً بهذا الدور أبداً ما بقي العالم، ثم يشير إلى حقيقتين تتعلقان بالمياه الجوفية :

أولاً : أن المطر والثلج يشكلان المصدر الأساس للمياه الجوفية.

ثانياً : وجود أجواف وخزانات في باطن الأرض تحتوي على المياه الجوفية.

ثم يشير إلى مصير هذه المياه محدداً أشكال ظهورها وأماكن استخراجها بأشكال مختلفة، مثل القنوات الجوفية أو الآبار أو ظهورها تلقائياً، كالعيون التي يعرفها كالآتي : >وهى الخروق المتفجرة من بطون الأرض انفجاراً<، أي باندفاعها الذاتي من غير حفر. هذا الكلام يقترب من الحقائق العلمية المعروفة حالياً. ثم يحدد الكندي أنواع الماء الجوفي : >فأما كون الماء في بطون الأرض فيكون بحالين : أما أحدهما فالجاري من أعلى، وأما الآخر فالمستحيل في بطون الأودية<. فالأول هو الذي مصدره المطر أو الثلج الذي يمكن الاعتماد عليه، كمصدر للإمداد بالماء. ويذكر نوعاً آخر من الماء الجوفي، وهو الماء الناجم عن التكاثف في أجواف

الأرض الباردة، وعلى الرغم من أن هذه العملية تحدث، إلا أنها لا تساهم بحال من الأحوال في زيادة كمية المياه الجوفية.

ثم يسهب الكندي في بيان تحول الهواء إلى ماء : >لأن الهواء والماء مشتركان في الكيفية المنفعلة<، وهو يعني هنا الرطوبة "متضادان في الكيفية الفاعلة"، وهو يعني هنا الحرارة والبرودة، فإذا استحال في رأيه الهواء بارداً وعدم الحرارة، فإنه يصير عنصراً بارداً رطباً، وهذا هو الماء. ويلاحظ أنه أدخل تأثير الرطوبة والحرارة والبرودة، وأن عملية التكاثف هذه، إنما يخضع لها الماء نتيجة لانخفاض درجة الحرارة. كما أشار إلى أن هذه العملية يمكن أن تحدث في الآبار ذات الأعماق البعيدة.

وبيَّن الكندي أيضاً في رسالته حادثة التكاثف تجريبياً كالآتي : تأخذ زجاجة قنينة، فتحشوها بالثلج حشواً تاماً ثم تستوثق من سد رأسها، ثم تزنها وتعرف وزنها، ثم تضعها في قدح تقرب أرجاؤها من ظاهرها، فإن الهواء يستحيل على ظاهر القنينة كالرشح على القلال، ثم يجتمع شيء، ثم يوزن الإناء والماء والقدح معاً، فيوجد وزنها زائداً على ما كان قبل. والوزن الزائد بالطبع ناتج عن تكاثف الهواء المحيط بزجاجة الثلج، ثم ذوبانه وسيلانه إلى مقر القدح.

كتاب إنباط المياه الخفية

مؤلف هذا الكتاب هو محمد بن الحاسب الكرجي المتوفى في القرن الخامس الهجري(٤)، والكتاب الذي وضعه في هذا العلم كتاب نفيس يمكن أن يُعدّ موسوعة فنية في دراسة المياه الجوفية واستثمارها. ويقصد المؤلف في عنوان كتابه بالإنباط إخراج الشيء وإظهاره بعد خفاء، وأنبطنا الماء، أي استنبطناه وانتهينا إليه. والاستنباط : الاستخراج(٥) والمياه الخفية هي المياه الجوفية حسب المصطلح العصري.

وقد أحاط الكرجي بموضوعه إحاطة الخبير المثقف الذي أدرك أهمية كل فكرة تحدث عنها. فدقة التفاصيل التي شرحها في هذا الكتاب وجمعه بين الهندسة العلمية والبرهان الرياضي، ولا سيما في (باب وزن الأرض) تدل دلالة واضحة على أن الكرجي ـ وهو العالم الرياضي ـ زاول مهنة المهندس وتعرف إلى دقائقها، بالشكل

الذي كانت تعرف به في ذلك الوقت. فالمهندس هو المقدر لمجاري المياه والقنى واحتفارها حيث تحفر. وثق الكرجي في هذا الكتاب خبرة هندسية اختزنتها وطورتها الذاكرة العلمية والعملية للحضارة الإسلامية في مجال الاستفادة من المياه الجوفية. لذلك كله، فإن الكتاب لفت انتباه المستشرقين، فترجموه إلى الألمانية(٦) والفرنسية(٧) والإنجليزية(٨).

ويذكر الكرجي عن سبب تأليف هذا الكتاب، أنه بعد أن تصفح شيئاً من كتب المتقدمين في الموضوع، ووجدها قاصرة على الكفاية واقعة دون الغاية، بدأ في تصنيف كتابه هذا في إنباط المياه الخفية، وعن مفهوم الدورة الهيدرولوجية للماء. ويذكر تحت عنوان صفة الأرض : >ومن حكمة الله أن خلق في الأرض مواضع كثيرة ذات جبال متصلة. فإذا كان الزمان في هذه المواضع شتاء، فإن الهواء يتكثف ويشتد البرد، ويستحيل الهواء إلى ماء استحالة قوية، ووقعت عليها الثلوج لا تنقطع شتاء ولا صيفاً. فإذا اشتد الحر بها بمسامته الشمس إياها، ذابت وصار ذوبها مادة الأرض والخروق التي في بطنها، فصارت مادة لمنابع في أماكن بعيدة<.

ويذكر كذلك : >لما خلق الله الأرض والماء خلق لكل واحدة منهما مادة، فمادة الماء الساكن في بطنها والعيون والأودية والينابيع عليها من الأمطار والثلوج، فلو انقطعت، قلت المياه وأدى ذلك إلى خراب الأرض<، ويقول أيضاً : >وعلى هذا يجب أن تكون المياه من الثلوج والأمطار من استحالة الماء إلى الهواء، والهواء إلى ماء<. وهو بقوله هذا يشير إلى التبخر والتكاثف. ولعل باقي كلامه من الوضوح، بحيث لا يحتاج إلى تعليق. ويصنف الكرجي أنواع المياه الأرضية تصنيفاً دقيقاً يثير العجب ينطبق تماماً على ما يعرفه الهيدرولوجيون اليوم، فيقول إن >الماء في بطن الأرض ثلاثة أنواع، ماء ساكن في جوفها لا يزيد بزيادة الأمطار ولا ينقص بنقصانها ولا يتغير حاله إلا شيء قليل، فقد غمر جرم الأرض بحسب وجود الخلل والمنافذ فيه، لا يتغير بشدة القيظ وأزمان الدهر، ويكون هذا الماء قليل الحركة والجريان في بطن الأرض، والثاني ما تكون استحالة الهواء إلى ماء في بطن الأرض دائماً، وهذا يدوم جريه ما بقي السبب الذي به يستحيل الهواء إلى ماء، والثالث الماء الذي مادته من

الثلوج والأمطار وأكثر عمارة أهل الأرض به، لأنه مادة الأودية العظام والعيون والقنى<.

هذه النصوص تدل دلالة قاطعة على الوضوح الكامل لفكرة الدورة الهيدرولوجية عند مؤلف الكتاب الذي عاش في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، وهو عندما يسوق هذه المفاهيم، لا يسوقها ليبحث بحثاً نظرياً أكاديمياً يعارض فيه هذا المؤلف أو ذاك، إذ الغاية من كتابه غاية يمهد لها بمعطيات نظرية، وهو يعبر عن هذه الفكرة بوضوح فيقول : >ومن تصور ما ذكرته وحققته، فقد عرف قطعة كبيرة من صناعة إنباط المياه، لأن تصور طبع الأرض والماء، وكيفية وضعهما وخلقتهما وصفة حال الماء وخللها يدل على معرفة قوية في هذه الصناعة<.

فهي معطيات نظرية تقود إلى إتقان صناعة علمية : صناعة إنباط المياه الخفية التي بها عمارة الأرض، وهو يدرك أهمية هذه الصناعة، فيقول : >فلست أعرف صناعة أعظم فائدة وأكثر منفعة من إنباط المياه الخفية التي بها عمارة الأرض وحياة أهلها<(٩).

ويقودنا الكرجي في كتابه إلى كيفية الاستدلال على وجود الماء الجوفي، فقد صنف الجبال والأحجار الدالة على الماء حسب كمية الماء الموجود فيها إلى :

ـ الجبال السوداء، إذا كانت من حجر يخالطه طين، والحجر رخو ذو أطباق، وعواليها ـ أي قممها ـ عريضة، وأجسامها ضخمة.

يتضح أن الجبال السوداء التي يتحدث عنها هي من الصخور الرسوبية التي تتألف من طبقات مرصوفة متوازية تفصلها سطوح الارتصاف التي تكون عادة من مواد متبلورة، ومن الصخور التي تمتاز بلون أسود "الهيماتيت". وتعدّ الصخور الرسوبية كالرمل والحصى، مناسبة لترسب الماء وامتصاصه. وهناك صخور استحالية تمتاز بلون أسود، كالغنايس الهوربنلندى والميكاشيست، ولونه فضي أسود. ومن الصخور سوداء اللون أيضاً، الصخور الاندفاعية:البيروكسيت، والبازلت والغابرو، وكلها صخور دالة على وجود ماء جوفي.

أما الصخور الأخرى التي يذكر الكرجي أنها تحتوي على الماء، فهي الصخور الخضراء، ومنها الدونيت، وهو أخضر مصفر، والفيليت، وكذلك الكلوريت شيست

ولونه أخضر به قطع سوداء، وكذلك يذكر الصخور الصفراء، ومنها الأنديسيت(١٠).

ويصف الكرجى أيضاً في كتابه أشكال الجبال التي تحتفظ بالثلوج وتختزن الماء في أجوافها. ومن صفاتها أن تكون مغطاة بالشجر، بشكل يظللها فيؤدي إلى احتفاظ الأرض بالرطوبة وتقليل البخار. وفي الصحارى ينظر إلى الأرض وشكل حجارتها. فالحجارة الرخوة السوداء تدل على الماء، والحجر المختلف الألوان المتبدد يدل عليه، و الحجر الأبيض المتفرق، وكذلك الصخور الثابتة، ويلاحظ أنه يشير إلى الحجر المتفرق والمتبدد، وهذا يعطي دليلاً على الفراغات، وبالتالي ازدياد تسرب الماء إليها(١١).

كما يذكر الكرجي في كتابه مجموعة من النباتات يدل وجودها على الماء الجوفي، ويذكر أن وجود هذه النباتات يدل على وجود الماء الجوفي مع الشروط الآتية :

ـ أن يكون نابتاً من غير زرع.

ـ أن يكون غضاً.

ويعلق على نبات الحاج بأن جذوره تمتد حتى تصل إلى الماء، وتمتد جذوره إلى ١٥ ذراعاً، أي ما يقرب من ٨ أمتار تقريباً، وذكر مثالاً آخر لنفس النبات، حيث وصلت جذوره إلى ٥٠ ذراعاً، أي نحو ٢٧ متراً.

ويصنف الكرجي المياه الجوفية وخواصها الكيميائية والفيزيائية إلى ثلاثة أنواع :

ـ الماء الساكن : هو ماء يجري في جوف الأرض، وهو لديه اضطراب في تعريف هذا الماء، خاصة عندما يذكر أن نشأته من استحالة الهواء إلى ماء في الأرض.

ـ الماء المتكاثف : ما تكون مادته استحالة الهواء إلى ماء، هذه العملية تحدث في أجواف الأرض الباردة، وهى بالطبع لا تعطي إلا كميات قليلة جداً من الماء، ولا علاقة لها بالماء الجوفي.

ـ الماء الذي مادته من الثلوج والأمطار، لأنه مادة الأودية العظام والقنى والعيون. وهو تعريف أيضاً يدل على طبقة الماء الجوفي، والتي تعرف بمنطقة الإشباع.

ويذكر الكرجي أيضاً صفات الماء الصالح للشرب والمتمثلة فيما يلي :

ـ أن لا يثقل على المعدة.

ـ ينفذ نفاذاً سريعاً.

ـ يقبل البرد والحر بسرعة.

تحتوي الشروط الثلاثة للماء الصالح للشرب ضمناً انخفاض نسبة المواد المنحلة (عدم الإثقال ـ النفاذ ـ قبول البرودة والحرارة)، والشروط الثلاثة لا تختلف من حيث الجوهر، وإنما من حيث الدقة والتحديد الكمي لهذه الشروط. وتم تحديد درجة حرارة الماء الملائم للشرب بين (١٥–١٠) درجة مئوية. وتعد نسبة ١٠٠٠ ملغ من المواد الذائبة حداً فاصلاً بين المياه العذبة وسواها. ويشير الكرجي إلى أن الماء الذي لا تتحقق فيه الشروط السابقة هو ماء (رديء وبيء)، والكلمتان لهما مدلولان محددان تماماً. فرديء، تعني عدم إمكانية شربه، أما وبيء فتعني أنه ناشر للوباء. والوباء هو المرض القابل للانتشار، ولا يخفى ما للمياه الملوثة من قدرة على نشر الأوبئة(١٢). ويتحدث الكرجي عن الماء العذب الذي يسميه الرقيق أو الخفيف، باعتباره الماء الصالح للشرب، والماء الثقيل أو الثخين أو الكريه، باعتباره الماء الملوث الذي لا يصلح للشرب.ويوصي بفحص الماء بالنظر والشم والتذوق. فالماء الصالح للشرب ليس له طعم ولا لون ولا رائحة ويقبل الحرارة والبرودة(١٣).

وبعد هذه الرحلة مع كتاب "إنباط المياه الخفية"ومؤلفه، فإن الدراسة المتعمقة له قد أفضت إلى مجموعة من النتائج، التي تجدر الإشارة إليها في النقاط التالية :

ـ تضمن الكتاب براهين رياضية وتحليلات هندسية، ووصفاً لتنفيذ أعمال إنشائية ولأجهزة قياس.

ـ ربط بين الاختلاف التضاريسي على سطح الأرض وحركة المياه.

ـ عرف الدورة المائية " الهيدرولوجية " وتوصل إلى أن الأمطار والثلوج تتسرب عبر شقوق القشرة الأرضية لتشكل مصدراً مغذياً للمياه الجوفية التي تظهر من جديد على سطح الأرض.

ـ شرح آلية انبثاق العيون، حين يصادف أن تتقاطع الطبقة المائية مع سطح الأرض من موقع الخزان الجوفي، فيؤدي هذا إلى تدفق العيون.

ـ شرح عدد من الحركات التي تحدث في الأرض، كالسقوط والانهدام بتأثير المركز، وانتقال المياه، وحركة الأجزاء الترابية الدقيقة لتترابط، وحركة القارات.

ـ ربط الكرجي بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة الإنسانية.

ـ شرح وفصل أنواع الماء الجوفي تبعاً لأشكال وجودها ومنسوبها عن سطح الأرض، منها الماء الساكن "البساط المائي" وماء التوآب "الماء المعلق".

ـ وضح أهمية الجبال كمخازن للماء الجوفي.

ـ أشار إلى أثر التبخر في تحويل الماء العذب إلى ماء ثخين وارتفاع نسبة المواد الصلبة فيه.

ـ ربط بين الأحواض المائية الجوفية والتكوينات الجيولوجية، وذكر من هذه التكوينات، حواجز قائمة ومسطحة ومائلة، وهذا الاختلاف أدى إلى ظهور المياه الجوفية بأشكال مختلفة.

ـ شرح وفصل طرق الاستدلال على الماء الجوفي، منها ما يتعلق بنوعية الصخور والتربة وصفاتها الفيزيائية، ومنها ما يتعلق بأنواع النبات، ومنها بعض الاختبارات، كطريقة القدح المقلوب.

ـ فصل الحديث في أنواع الماء الجوفي من الناحية الكيميائية، أي على حسب المواد المنحلة فيها، كالماء الصالح والمر والحلو والكبريتي والزرنيخي.

ـ تحدث عن الشروط الواجب توافرها في مياه الشرب، ومنها ضرورة انخفاض نسبة المواد المنحلة فيها، والاختبارات المتبعة لتحديد هذه الصلاحية، وتحديد أفضلية ماء على ماء، وبعض طرق تنقية المياه.

– تحدث عن دور الفصول والظواهر الطبيعية العائدة إلى كل فصل، وأعاد أصل الظواهر إلى التكاثف والتبخر والحالة المناخية الحرارية.

– صنف التربة تبعاً لمدى صلاحيتها لحفر القناة، والصفات الفيزيائية الواجب توافرها فيها، مثل كمية الرطوبة والقساوة، وخلوها من المواد العضوية والمركبات الضارة.

– شرح تأثير الزلازل على المياه الجوفية بالتغيرات الجيولوجية التي تحدث في باطن الأرض، وما تؤدي إليه من تغير مواقع التكوينات المائية، مما يؤدي إلى أخذها وضعية جديدة.

– أفاض في الحديث عن الأحكام والقوانين الشرعية الإسلامية التي تحكم مصادر المياه الجوفية، فأشار إلى اجتهادات عدد من الفقهاء.

ويلاحظ أن الكرجي كان مجتهداً في حل مشكلات حُرُم المصادر المائية الجوفية، وقد استفاد من ثقافته وخبرته العلمية الهندسية، مستشهداً بالأحاديث الشريفة، ومعتمداً على اجتهادات الفقهاء، فأدرك ضرورة فحص التربة والصخور، وضرورة اتباع اختبارات هندسية، كالآبار الاختبارية، وذلك من لأجل وضع تصور لأشكال التكوينات المائية الجوفية، وتحديد الحريم بناء عليه.

ـ فصل الحديث عن الصعوبات التي تعترض حفر الآبار والقنوات، وقدم حلولاً شاملة، منها حلول هندسية وتنفيذية، ومنها نصائح وقائية، ومنها أدوات وتقنيات تساعد في تذليل تلك الصعوبات.

ـ شرح طرق تنفيذ بعض منشآت المياه الجوفية، مثل تفاصيل حفر وإنشاء القناة وحفر الآبار والمصاعب التي تعترض العمل، والتعامل مع التربة في أثناء ذلك، كدعم التربة الرملية أو اللجوء إلى الأنابيب في التربة الطينية التي تحوي بقايا عضوية.

ـ ناقش الناحية الاقتصادية، وأكد أن قيمة الفائدة المرجوة يجب أن تكون أكبر من كلفة الاحتياطات المتخذة.

ـ أكد ضرورة حماية العمال الذين يقومون بالحفر من الغازات السامة التي يمكن أن تنطلق، وذلك باتباع طرائق هندسية معينة، أو باستخدام بعض الأجهزة، وكذلك ضرورة ارتداء الملابس الواقية من الماء أثناء حفر القناة.

ـ شرح كيفية استخدام الأنابيب الرصاصية في رفع ماء البئر إلى سطح الأرض.

ـ شرح بالتفصيل استخدام البرابخ "الأنابيب"، كوسيلة هندسية لجر المياه وأسباب اللجوء إليها، ووصف شكل البربخ و كيفية صناعته وطريقة تنفيذه.

ـ وأوضح أيضاً حلاً آخر للأنابيب، وهو رص ورصف جوانب الساقية.

ـ أشار إلى العديد من مواد البناء التي تستخدم في المنشآت المائية، كالآجر والحجارة والطين، وخلائط النورة بجميع أنواعها كرابط، واعتنى بتفصيل طريقة تصنيعها واستخدامها.

ـ ذكر ثلاثة أجهزة مساحية لقياس فروق الارتفاع في موقع القناة لتحديد ميلها الطولي، وهي : (جهاز الأنبوبة، وجهاز الصفيحة، وجهاز العمود، وهي أجهزة كانت معروفة في عصره).

ـ اخترع ميزانين آخرين : ميزان الصفيحة المربعة المدرجة، و ميزان الصفيحة ذات الأنبوبة. ومن معرفته الرياضية في استخراج هذه الموازين وتطويرها وتعديلها، حولها إلى أجهزة متكاملة مدرجة تعطي فرق الارتفاع للراصد مباشرة.

ـ إن الكرجي باختراعاته هذه يكون قد أدخل الأعمال المساحية بوصفها جزءاً من عمل هندسي مائي في حقل العلوم التطبيقية، فحولها من مجرد عمل حرفي يقوم به المساح، إلى عمل هندسي دقيق.

ـ ذكر مراحل تنفيذ منشأة القناة، كاختبار موقع القناة و توقيت البدء بتنفيذها، واختيار مقطع القناة على حسب نوعية التربة و الصخور، ثم تحديد ميول الأرض لتحديد الميل الطولي لأرضية القناة، ثم حفر وإنشاء القناة والحالات المختلفة التي تعترض ذلك، والأجهزة والأدوات المستخدمة أثناء العمل.

ـ أكد ضرورة صيانة منشأة القناة وترميمها باستمرار.

ـ ذكر تقاليد تسليم الأعمال المنفذة من المتعهدين منفذي القنوات "القنائين"، والشروط الواجب توافرها في القناة عند استلامها (انظر الأشكال ١، ٢، ٣، ٤).

ـ من المحتمل أن الكرجي قد اطلع على الباب الخامس حول هندسة إنباط المياه في كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية. ومن المحتمل أيضاً أن يكون قد اطلع على كتب غير عربية في مجال الاستفادة من المياه الجوفية، ومما يشير إلى ذلك أنه أورد أقوالاً وآراء ينسبها للأولين : "قال الأولون" ـ "قال الحكماء" دون أن يتبناها، وفى أحيان كثيرة ينقدها.

كتاب البئر(١٤)

ألف هذا الكتاب أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابي. ويعدّ هذا الكتاب من الرسائل التي كانت نواة للمعاجم العربية الكبيرة فيما بعد. ويجمع كتاب البئر لابن الأعرابي مجموعة لا باس بها من الألفاظ التي توصف بها الآبار في حفرها واستخراج المياه

منها، وقلة تلك المياه وكثرتها، وأجزاء البئر وأنواعها، وأسماء كل نوع، وأنواع المياه الخارجة منها، وآلات استخراج المياه من الآبار.

كتاب عين الحياة في علم استنباط المياه

يعدُّ هذا الكتاب من المؤلفات المتأخرة في هذا العلم، وعلى الرغم من ذلك فإن للكتاب أهمية خاصة، سنبينها من خلال تحليل مضمون هذا الكتاب.

مؤلف الكتاب :

هو أبو العباس أحمد بن عبد المنعم الدمنهورى، نسبة إلى دمنهور بمصر(١٥)، ولد فيها سنة ١١٠١هـ، ونشأ يتيماً ولا وزر له وكان ذكياً فهماً، وفي نفسه طموح وعزم، ووجد في اكتساب العلم والتحلي بحليته ما يخرجه من واقع حاله إلى ما يطمح إليه من الرفعة والمجد والعلم. فنزح إلى الأزهر صغيراً ولم يكفله أحد، واجتهد في تحصيل العلم، واشتد ولعه بالفقه، واجتهد في التعرف على المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة، وعني بعلوم الهندسة والمساحة والهيئة (الفلك) والميقات، وصنع المزاول(١٦) والحساب... إلخ.

وفي أواخر حياته سنة ١١٨١هـ ولي مشيخة الأزهر ولم تطل مدته فيها، إذ توفي في شوال ١١٨٢هـ.

سبب تأليف هذا الكتاب :

التمس تأليف هذا الكتاب من المؤلف الشيخ يوسف بن محمد الزغواني التونسي، وهو فقيه تونسي معروف. والغريب في هذا المطلب هو بعده عن تخصصه، والأمر الطبيعي من مثله أن يطلب منه تأليف كتاب في خاص علمه يزيل إشكالاً، أو يحل عويصاً، أو يفصل مجملاً، وليس كتاباً في علم إنباط المياه.

ويجلو هذا الاستغراب ما علمناه من صلة الرجل بأمير بلاده وما كان يدركه من حاجاته ومطالبه في العمران. وقد كان هذا الأمير (الباي حسين بن علي التركي) مؤسس الإمارة الحسينية بتونس، وإليه نسبتها، كان حفياً بالعمران، جاداً في نشره، وفي طليعة متطلباته هذا الماء ولزوم توفيره وإنشاء الفوارات والسقايات، فبنى المآجل والصهاريج واستكثر من نشره، ومن هنا نشأ اهتمام الشيخ بمطلب الماء، وحرص

على التعرف على طرق إنباطه ووسائله ليستعين بها هذا الأمير في نشر العمران والخصب.

محتويات الكتاب :

يتألف هذا الكتاب من مقدمة وبابين وخاتمة.

فأما (المقدمة)، فقد خصها المؤلف بأشياء تتصل بطبيعة موضوع الماء، ففسر الاستنباط لغة واصطلاحاً، وتكلم عن العالم والعناصر الأربعة التي كان القدماء يظنون أن العالم مركب منها، وهي الماء والهواء والنار والتراب، معللاً وشارحاً خواصها ونسبة بعضها إلى بعض، وذكر الرياح الأربع وحدوثها وصفاتها، وبين علاقتها بالمياه في تجفيفها أو زيادتها.

وأما (البابان)، فأولهما في "تعريف المواضع التي فيها ماء، والتي ماؤها قريب، والتي ماؤها بعيد وما يستدل به على ذلك من أمارات ذكرها"، وثانيهما تكلم فيه عن حفر الآبار، وطرائقه، ووسائل معالجته، وختمه بأقوال بعضها من الاعتقاد الباطل بالنجوم والقمر، مما يحكيه المنجمون، وبعض آخر من حكايات أهل الشعوذة. وقد كان الخليق بالمؤلف، إذ شاء أن يذكرها، أن يفندها، ويذكر بطلانها وسخفها كما لمثله بعلمه الواسع وعقله الحصيف أن يفعل(١٧). وهذان البابان هما لب موضوع الكتاب.

أما الخاتمة فقد ضمنها ثلاثة مباحث : الأول في إيضاح ما تقدم، مستمداً مادته من (عجائب المخلوقات) وغيره، وهو يتعلق بالأرض وطباعها وطبقاتها وما يحيط بها من الماء والهواء، وصفة الماء وأنواعه والأبخرة.

المبحث الثاني في بيان المعمور من الأرض، طوله وعرضه وطول البلد وعرضه، وقسمة الأقاليم إلى سبعة، وأثر الأقاليم في الأبدان والطبائع والأخلاق. والمبحث الثالث عقده لبيان فضل العلم وأهله، فذكر فيه بعض ما تواترت به الآيات والأحاديث والآثار على فضله والحث على تحصيله، كأنه أراد منه أن يحفز همم الأمة إلى اكتسابه لتفيد منه في شؤون دنياها وآخرتها فتعمر الأرض، وتنبط المياه، وتزرع وتغرس ما تتقوت به، وما يمد لها من أسباب الحياة الهانئة، إذ الحكمة تقول : <اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً>.

في مضمون الكتاب وخاتمته وضع المؤلف صوراً لمهاب الريح وكرة الأرض والأقاليم السبعة وغيرها.

ولا ريب في أن جملة ما تضمنه هذا الكتاب في المقدمة والبابين والخاتمة هو من العلم النافع الذي عني به الفلكيون وعلماء الفلاحة وتداولوه، وظل موضع نظر ودرس واعتبار على مسار رحلة العلم من زمن إلى آخر، ومن أوطان في الشرق إلى أوطان في الغرب، لا تحجزه حدود مغلقة النوافذ، ولا تقيده قيود(١٨)... ومع أن الدمنهوري لم يأت بجديد في كتابه، إلا أنه امتاز ببراعته في تلخيص الأصول التي أشارت إلى استنباط المياه، وغدت أصولها في حكم المفقود في زماننا(١٩)... يدل تأليف ذلك الكتاب في هذا الزمن المتأخر، فيما تدل عليه جملة معانيه، على مبلغ تعلق علماء الإسلام على تعاقب العصور بعلوم الحياة، دقيقها وجليلها، يدرسونها ويعلمونها، ويؤلفون فيها لا يفترون.

علم المياه الجارية

أحدث ما كتبه علماء المسلمين في هذا المضمار، ما خطه الشيخ محمد حسين العطار الدمشقي (١٢٤٣-١١٧٧هـ/١٨٢٧-١٧٦٤م)(٢٠) تحت عنوان علم المياه الجارية في مدينة دمشق، أو رسالة في علم المياه. يقول العطار عن سبب تأليف الرسالة ما يلي : >عنَّ لي أن أضع في ذلك تأليفاً وافياً بالمقصود كافياً، إذ لم أر في ذلك رسالة ولا كتاباً مع كونه من مهمات الحساب<. ركز العطار في رسالته على طرق حساب توزيع مياه نهر بَرَدَى على كل حارة وزقاق وبيت في دمشق وغوطتها، وهي تروي كل إنسان وحيوان ونبات، في كل وقت وزمان وعلى مدار أربع وعشرين ساعة في اليوم، سبعة أيام في الأسبوع، وعلى مدار العام، أليس ذلك دليلاً على التقدم والعلم ؟. لذلك قال العطار في مؤلفه إنَّ العلم وحده ودقة الحساب توصل الحياة إلى كل بيت وإنسان في زمن لم يكن للآلة والمضخات والرافعات وجود. لذا استخدم الدمشقيون الحسابات الدقيقة في تسيير قنوات المياه بمدينتهم، واستخدموا معها الأواني المستطرقة في التوزيع. وقد أوضح المؤلف في مخطوطته أسس علم توزيع المياه، وهو مبني على علم الفرائض والحساب، والعلوم الأخرى المساعدة، كعلم الهيئة، وهوعلم الفلك، ويفيد هنا في حساب الميول والانحدارات وفي توزيع

المخططات، وعلم الميقات، وذلك لحساب الزمن المخصص في توزيع المياه. كما يبين لنا الأدوات التي يستخدمها العالم في هذا العلم، كالذراع والبيكار وغيرها، ثم يوضح لنا طرق الحساب بحسب الفرائض والنسب والقراريط، ويشرح لنا أيضاً المسائل التي ترد في تطبيقات العلم، ويضرب الأمثلة على كل حالة ليعلمنا كيف نحل الإشكالات، ويبين أسباب الخلل الذي قد يحدث في بعض الأحيان عند توزيع المياه. كما حفلت رسالة العطار بالعديد من المصطلحات العلمية الهامة الخاصة بهذا العلم(٢١).

الماء في مصنفات علماء المسلمين

إذا كانت الكتب السابقة قد أفردت الحديث عن المياه، فإن مخطوطات التراث الإسلامي حفلت أيضاً بنصوص وموضوعات هامة تتعلق بالمياه واستنباطها، نبدأ هذا من خلال تعريف طاش كبري زاده (علم إنباط المياه) الذي قال : >هو علم يتعرف منه كيفية استخراج المياه الكامنة وإظهارها، ومنفعته إحياء الأرضين وأفلاجها<، وعده فرعاً من فروع الهندسة، فهو فرع من فروع هندسة الري.

بينما نرى القزويني في كتابه (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) يقدم وصفاً للمياه الجوفية، حيث يقول : >ذهبوا إلى أن جوف الأرض فيه منافذ ومسام، وفيها إما هواء أو ماء، فإن كان أصابه مدد من جهة أخرى لا يسع ذلك الموضع تنشق الأرض إن كانت رخوة، ويظهر وجهها إن لم يكن لها قوة الخروج، فيحتاج إلى أن ينحي عنه التراب حتى يظهر كماء القنوات والآبار...<. هذا، ويعدد القزويني بعض عيون المياه العجيبة في نظره، لينتقل منها إلى ذكر الآبار مما عاينه مشاهدة أو مما سمعه من الرواة والرحالة، منها (بئر كنود) في ليبيا، وبئر بدر، وبئر زمزم في مكة المكرمة. ومن اللاَّفت للنظر أن القزويني يتحدث عن الدورة الهيدرولوجية قائلاً في فصل سماه "في السحاب والمطر وما تعلق بهما" : >زعموا أن الشمس إذا أشرقت على الماء والأرض حللت من الماء أجزاء لطيفة مائية تسمى بخاراً، ومن الأرض أجزاء لطيفة أرضية تسمى دخاناً. فإذا ارتفع البخار والدخان في الهواء وتدافعهما الهواء إلى الجهات من فوقهما، برد الزمهرير ومن أسفلهما مادة البخار غلظاً في الهواء وتداخلت أجزاء بعضهما في بعض، فإنه يكون منهما سحاب مؤلف متراكم، ثم

إن السحاب كلما ارتفع أنمت أجزاء البخار بعضها إلى بعض حتى يصير ما كان منهما دخاناً وركاماً، وما كان بخاراً ماء، ثم تلتئم تلك الأجزاء المائية بعضها إلى بعض، فتصير مطراً، ثم تأخذ راجعة إلى الأسفل. فإن كان صعود ذلك البخار بالليل والهواء شديد البرد، منعه من الصعود وأجمده أولاً، فصار سحاباً رقيقاً، وإن كان البرد مفرطاً أجمده البخار في الغيم، وكان ذلك ثلجاً، لأن البرد أجمد الأجزاء المائية ويختلط بالأجزاء الهوائية وينزل برفق، فلذلك لا يكون له في الأرض وقع شديد كما هو الشأن بالنسبة للمطر والبرد، فإن كان الهواء دفيئاً وارتفع البخار في الغيوم وتراكمت منه السحب طبقات بعضها فوق بعض كما ترى في أيام الربيع والخريف، كأنها جبال من القطن مندوفاً. فإذا عرض لها برد الزمهرير من فوق غلظ البخار، فإنها تصير ماءاً وانضمت أجزاؤها فصارت قطراً عرض لها الثقل، فأخذت تهوي من أعلى السحاب وتلتئم القطرات الصغار بعضها إلى بعض حتى إذا خرجت من أسفلها صارت قطراً كباراً. فإن عرض لها برد مفرط في طريقها، جمدت وصارت برداً قبل أن تبلغ الأرض، وإن لم تبلغ الأبخرة إلى الهواء البارد، وكانت كثيرة صارت ضباباً، وإن كانت قليلة وتكاثف ببرد الليل ولم تجمد، نزلت صقيعاً<(٢٢).

وفي كتاب الخراج تعرض القاضي أبو يوسف، لعديد من القواعد التي تتعلق بالمياه والتي يمكن أن نعدّها قوانين شرعية تحدد العلاقة بين الماء والأرض والإنسان، منها على سبيل المثال، أن تنفيذ أي منشأة مائية في ملكية خاصة يجب أن يكون بإذن من صاحب الأرض(٢٣).

واشتمل كتاب صورة الأرض لابن حوقل على وصف لبعض المشاريع المائية. فعن سجستان يقول : >وللقرنين ـ وهي مدينة مياه جارية وقني من تحت الأرض كثيرة<، ويذكر عن مكة المكرمة : >وليس بمكة ماء حار إلا شيء أجري إليها من عين كان قد عمل فيها بعض الولاة فاستتم في أيام المقتدر<، وعن مدينة طبريا يقول : >وبها عيون جارية حارة ومستنبطها على نحو فرسخين من المدينة<(٢٤).

كما اهتمت المؤلفات الكبرى في الزراعة والنبات كـ المقنع في الفلاحة للإشبيلي، وكتاب الفلاحة لابن البصال، والفلاحة النبطية لابن وحشية، بطرق إنباط المياه الجوفية وهندستها. ونتوقف عند الزمخشري الذي ولد سنة ٤٦٧هـ وتوفي سنة

٥٣٨هـ، فقد وضع كتاباً بعنوان كتاب الأمكنة والمياه والجبال عرف فيه بشكل مختصر بأشهر الآبار والعيون(٢٥).

وقدم البيروني في مؤلفه الآثار الباقية عن القرون الخالية عرضاً علمياً عن المياه الجوفية، فحدد مصدرها وآلية جريانها الجوفي وأشكال وجودها بأسلوب دقيق ورصين قائم على التحليل الفيزيائي في معظم الأحيان، فهو يحدد بشكل قاطع وصريح، أن أصل المياه الجوفية هو (المطر)، حيث يقول : >فأما لما صارت مياه العيون في الشتاء أغزر... ومن البين أن وقوع الأنداء في الشتاء أكثر منه في الصيف، وفي الجبل أكثر منه في السهل، فإذا وقعت فيها وسال بالسيول غاص الباقي في المجاري التي في تجاويف الجبال وخزن هناك، ثم يأخذ في الخروج من المنافذ التي تسمى العيون...<، عبر هذا التحليل المنطقي المستند إلى انخفاض درجة الحرارة في الجبال وكون أمطارها أكثر، يوضح البيروني أن المطر له مسلكان، قسم يسلك في مسيلات سطحية، وقسم آخر يتسرب ويتخزن، كمياه جوفية، وهي المياه التي قد تخرج في شكل ينابيع.

ويعلّل البيروني حركة الماء الجوفي بالاستناد إلى مبادئ منها : حركة الماء إلى المركز، والمقصود بهذا بلغة العصر : خضوع الماء للجاذبية الأرضية مما يجعله يسيل آخذاً ميل الأرض، فهو يناقش وينتقد من قال إن : >صعود الماء في أنهار ومجاري مياه كلما تباعدت مع جري الماء تصاعدت< حسب هذا التصور. وفي الواقع أيضاً، قد ينبثق الماء الجوفي، ليس من الموضع الذي تسرب منه، وإنما من مكان بعيد عن هذا الموقع.

ويذكر البيروني أن الآبار على نوعين : إما بالرشح أو تفور بالقعر، ويبدو أن هذين النوعين يسميان حديثاً : الآبار العادية والآبار الارتوازية : >فإن من مياه الآبار ما يجتمع بالرشح من الجوانب فذلك لا يصعد، ويكون مأخذها من المياه القريبة إليها، وسطوح ما يجتمع منها موازية لتلك المياه التي هي مادتها<، هذه هي مادة الآبار العادية، فمياهها لا ترتفع إلى الأعلى، لعدم وجود الضاغط البارومتري، مصدرها طبقة مائية جوفية غير محتجزة، وقد تكون طبقة مائية معلقة تترشح مادتها في جوانب البئر، ويكون مستوى الماء في البئر هو مستوى الماء في الطبقة الجوفية.

أما النوع الثاني، فيصفه البيروني بقوله : >ومنها ما يفور في القعر، فذاك هو المرجو الممكن أن يفور إلى الأرض ويجري على وجهها، وأكثر ما يوجد في هذه الأرضين القريبة من جبال، بحيث لا يتوسطها بحيرات ولا أنهار مياه عميقة، فإذا كان مأخذه من خزانه أعلى من سطح الأرض، فإن الماء يصعد بالفوران إذا حصر، وإن كانت خزانه أسفل لم يتم ارتفاعه إليها ولم ينجح<، هذه هي البئر الارتوازية، ويقصد بخزانها (أعلى من سطح الأرض) أن موقع البئر الارتوازية يتعرض إلى ضغط مائي، مما يؤدي إلى الاندفاع إليه. فالمياه الجوفية تكون غير مقيدة أو حرة، عندما يساوي الضغط السطحي الضغط الجوي، وكذلك عندما لا تعزل بطبقات كتمية وسميكة غطائية، حتى يكون الضغط المائي السطحي أعلى من الضغط الجوي.

هكذا أبدى علماء المسلمين اهتماماً خاصاً بقضايا المياه وحلولها، حيث أفردوا لها كتباً خاصة، وفصولاً في مؤلفاتهم، وهذا يعني أنها كانت تعد عصب الحياة في الحضارة الإسلامية.

(١) للمزيد ينظر بحث محمد بهجة الأثري، خواطر وسوانح في حلول مشكلات الماء والتغذية وتزايد السكان، مجلة "الأكاديمية"، العدد ١، فبراير ١٩٨٤، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط.

(٢) طاش كبري زاده، مفتاح السعادة، ج ١، ص ٣٥٥، ج١ ، ص ٣٥٥، ط مصر، محمود شكري الألوسي، بلوغ الأرب، ج ٣، ص ٣٤٣، ط ٣، مصر. ومقدمة محمد بهجة الأثري، لكتاب عين الحياة في علم استنباط المياه، ص ٨، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية.

(٣) انظر تهذيب اللغة، لسان العرب، القاموس المحيط، تاج العروس (قنن).

(٤) عاش أبو بكر محمد بن الحسن الكرجي في فترة السيطرة البويهية على الدولة العباسية التي تمتد بين سنتي ٤٤٧-٣٣٤هـ/١٠٥٥-٩٤٥م، ولا تذكر المصادر سنة ميلاده أو سنة وفاته، وإن كانت بعض الكتب الحديثة ترجح وفاته بعد سنة ٤٠٦هـ. للكرجي إنجازات علمية رائعة، فله بحوث مبتكرة في الجذور الصم، ومربعات الأعداد الطبيعية ومكعباتها، والمتواليات الطبيعية التي تبدأ بواحد. كذلك أبدع الكرجي ما

يسمى مثلث المعادلات ذات الحدين، وهو المعروف اليوم باسم "مثلث باسكال"، الذي عاش في القرن السابع عشر الميلادي، وكان الأولى أن يسمى "مثلث الكرجي". ومن مؤلفاته في الجبر "الفخري في الجبر والمقابلة"، وله رسالة "علل حساب الجبر والمقابلة"، وله في الحساب "الكافي في الحساب" قدم فيه القوانين والطرق الحسابية المبتكرة لتسهيل المعاملات، كما شرح فيه كيفية إيجاد الجذر التقريبي للأعداد التي لا يمكن استخراج جذرها التربيعي، وكيفية حساب مساحات بعض السطوح، وبخاصة التي تحتوي على جذور، وله "البديع في علم الحساب" و"عقود الأبنية" و"نوادر الأشكال" و"الدور والوصايا".

. سليمان فياض، عمالقة العلوم التطبيقية وإنجازاتهم العلمية في الحضارة الإسلامية، ص ١٠٩-١٠٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.

. ابن خلكان، أحمد بن محمد أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ٦٥، المطبعة اليمنية، القاهرة، ١٣١٠هـ.

. عمر رضا كحالة ،معجم المؤلفين، ج ٩، ص ٢١١، دمشق، ١٩٦٠م.

. قدري حافظ طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص ٢٨٢، ط ٣، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٣م.

. الكرجي، محمد بن الحسن، إنباط المياه الخفية، ص ١٦-١٣، تحقيق بغداد عبد المنعم، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٩٧م.

(٥) انظر مادة نبط في لسان العرب لابن منظور.

(٦) wiedmann beitrage zurgeschichte der natur wissenschaften.
.(. karagi (mohammad_ al٤٠bd ١٩٠٨. x I v ٣٧bd ١٩٠٥v

(٧) La civilisation des eaux cachées de l صexploitation des eaux
.souterraines, texte etabli, traduit et commenté par aly mazaheri

(٨) ترجم قسم من الكتاب إلى الإنجليزية fr.bruin تحت عنوان : Surveying and surveying instruments being chapters ٢٦, ٢٧, ٢٨, and ٣٠ of the book on finding hidden water by Abu Baker Muhammad al Karaji, english edition, Beirut, ١٩٧٠.

(٩) الكرجي، إنباط المياه الخفية، ص ١٥٣.

(١٠) الكرجي، إنباط المياه الخفية، ص ١٥٤.

(١١) المصدر السابق، ص ١٦٢.

(١٢) المصدر السابق، ص ١٦٢.

(١٣) المصدر السابق، ص ١٦٣، ود. حسين علي محفوظ، "القنوات في التراث"، ص ١٩٤-١٩٢، بحث في كتاب ندوة الري عند العرب، مركز إحياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، ١٩٨٩م.

(١٤) لأبي عبد الله بن زياد الأعرابي، تحقيق د. رمضان عبد التواب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٠.

(١٥) وهي تقع غرب الدلتا، وهي مدينة كبيرة، عاصمة إقليم البحيرة بمصر.

(١٦) جمع مزولة، آلة يعرف بها زوال الشمس.

(١٧) أحمد بن عبد المنعم الدمنهوري، عين الحياة في علم استنباط المياه، ص ١١.

(١٨) المصدر السابق، ص ١١.

(١٩) د. محمد صالحيه ،علم الريافة عند العرب، ص ٩، الجمعية الجغرافية الكويتية، نشرة (٣٧) بالاشتراك مع جامعة الكويت.

(٢٠) يعد الشيخ محمد بن حسين الشهير بالعطار والمدرس الحنفي الدمشقي من علماء دمشق البارزين، أخذ عن والده الذي عاش في الفترة من ١١٥١ إلى ١٢٢٧هـ الذي أخذ العلم عن والده أيضاً. ومن أهم مؤلفاته : رسالة في علم المياه، رسالة في الرمي بالقنبرة، رسالة في فن القبان، وهي شرح على منظومة معاصرة للشيخ حسن العطار المصري. وله أيضاً رسالة في المزولة. سافر العطار إلى مصر ودخل الأزهر وأخذ عن علماء مصر. توفي محمد العطار بالطاعون الذي أصاب دمشق، وذلك في سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م ودفن في دمشق.

. الشطي، أعيان دمشق، ص ٩١-٩٠.

(٢١) محمد حسين العطار، علم المياه الجارية في مدينة دمشق، تحقيق أحمد غسان سبانو، دمشق، ١٩٨٤م.

(٢٢) القزويني، زكريا بن محمد، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ص ١١٨، مطبعة عيسي البابي الحلبي، القاهرة.

(٢٣) أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج، ص ٩٧، ط٢ ، القاهرة، ١٣٥٢هـ.

(٢٤) ابن حوقل، النصيبي أبو القاسم، كتاب صورة الأرض، ص ٣١٢، ٤٢٠، طبع في ليدن، ١٩٣٨م.

(٢٥) الزمخشري، محمود بن عمر، كتاب الأمكنة والمياه والجبال، ص ٣، تحقيق د.إبراهيم السامرائي، مكتبة سعدون، بغداد، بدون تاريخ.

=============

الحضارة الاسلاميه

قصة الحضاره تبدأ منذ أن عرف الانسان وهى حلقه متصله تسلمها الامه المتحضره الى من بعدها وتكاد لا تخلو امه من تسجيل بعض الصفحات في تاريخ الحضاره غير ان ما تمتازه الحضاره عن غيرها انما هو قوة الاسس التى تقوم عليها والتأثير الكبير الذي يكون لها والخير العميم الذي يصيب الانسانيه من قيامها

وكلما كانت الحضاره عالميه في رسالتها , انسانيه في نزعتها , خلقيه في اتجاهاتها , واقعيه في مبادئها كانت أخلد في التاريخ.

وحضارتنا حلقه من سلسه الحضارات الانسانيه , وقد كان لقيامها عوامل , ولا انهيارها أسباب , ولسنا هنا بصدد الحديث عن عوامل قيامها أوبيان اسباب انهيارها , ولكن حديثنا سيدور حول دورها في التاريخ والتقدم الانسانى وما تميزت به من خصائص .

ان ابرز ما يلفت النظر الى الحضاره الاسلاميه انها قامت على اساس الوحدانيه المطلقه في العقيده ,فهي اول حضاره تنادى باسم الله الواحد الاحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد .له في حكمه وملكه ......هذه السمو في فهم الوحدانيه كان له أثر كبير في رفع مستوى الانسان وتحرير الناس من الطغيان وتصحيح العلاقه بين الحاكمين والمحكومين ونتج عن هذه الوحدانيه خلو هذه الحضارات من كل مظاهر الوثنيه وأدابها وفلسفتها في العقيده والحكم والفن و الأدب وهذا هو سر

اعراض الحضاره الاسلاميه عن الترجمه لروايات الأدب اليوناني الوثنى وتحاشيها في فنون النحت والتصوير مع تبريزها في فنون النقش والحفر وزخرفة البناء

ان الاسلام الذي أعلن الحرب العوان على الوثنيه ومظاهرها لم يسمح لحضارته ان تقوم فيها مظاهر الوثنيه وبقاياها المستمره منذ أقدم العصور التاريخ كتماثيل العظماء والفاتحين

وبما ان حضارتنا الاسلاميه انسانيه النزعه والهدف , فالقرأن الكريم أعلن وحدة النوع الانسانى رغم تنوع أعراقه ومواطنه ,في قوله تعالى- يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلنكم شعوبا وقبائل لتعارفو ان اكرمكم عند الله اتقاكم)

جعل حضارته عقدا تنتظم فيه جميع العبقريات للشعوب التى خفقت فوقها راية الفتوحات الاسلاميه وكل حضاره تستطيع ان تفتخر لانها ابناء جنس واحد وامه واحده الا الحضاره الاسلاميه فانها تفتخر بالعباقره اللذين اقامو صرحها في جميع الشعوب والحضارات وان للمبادئ والاخلاق المحل الاول في كل نظمها ومختلف الميادين فلم تجعلها وسيله لاستغلال دوله او جماعه بل رويت تشريعا وتطبيقا وسلما وحربا وحضارتنا تؤمن بالعلم وترتكز على العقيده في اصفى مبادئها فهي تخاطب العاطفه والافكار في وقت واحد وهذه ميزه لم تشاركها أي حضاره في التاريخ وللدين الاسلامى عامل كبير في ارتقاء الحضارات فمن بين جدران المساجد في بغداد ودمشق والقاهره وقرطبه وغرناطه انطلقت أشعة العلن الى أنحاء الدنيا قاطبه

وان للحضارة الاسلاميه ميزه لم تعرفه البشريه وهي التسامح الدينى التى قامت على الدين وشادت عليه قواعدها ومبادئها وهى من أشد ما عرف التاريخ تسامحا وعداله وانسانيه ورحمه حمدا لله اننا مسلمون وحسبنا ان نعرف حضارتنا التى تنفرد في التاريخ بأنها اقيمت على دين واحد للناس اجمعين وان الحضارات لايقارن بالمقياس المادى ولا بالكميه في الأعداد والثروات والمساحات ولا بالترف المادي في المعيشه وانما يقارن بالأثار التى ترمها البشر الأخيار على مدى التاريخ المعارك والممالك ...مقارنه لا تقاس بسعة الرقعه ولابحساب العدد .

فان للمعارك شرفها وكرامتها ولو قيست بمعارك الحرب العالميه الثانيه من حيث العدد والعتاد ووسائل القتال لكانت شيئا تافها الا ان لها قيمتها التاريخه ذات الصدى

الكبير في معالمنا الحالى وخير دليل على هذه الفتوحات الاسلاميه بقيادة خالد بن الوليد في الشام والعراق لا تزال محل دراسه في المعاهد والكليات العسكريه الغربيه ومثار اعجاب لها وهي صفحات ذهبيه في تاريخنا الاسلامى

ومع هذا ما كان لبدر والقادسيه وحطين وعين جالوت ان يحول دون النظر اليها على انها معارك فاصله في التاريخ الاسلامى

==============

#القصور القديمة في الحضارة الإسلامية

أسفرت الحفائر في الدول العربية الإسلامية ولاسيما في سامراء بالعراق، والفسطاط بمصر ،ومدينة الزهراء بالأندلس عن كشف أطلال بعض البيوت الأثرية . وظهر أن معظم هذه البيوت قد لوحظ في تصميمها، موافقتها لجو البلاد وللعادات الشرقية الإسلامية، فكانت حرمة الدار مكفولة، ومن في ظاهر الدار لا يستطيع رؤية من في داخلها. وكانت في معظم البيوت فسقية وحديقة .

كما كان يعنى بالقصور الإسلامية عناية كبيرة ،وكانت الطبقات السفلية من هذه القصور متينة البناء ومشيدة بالحجر وذات عقود جميلة . وكانت الطبقات العلوية تمتاز بأسقفها البديعة المصنوعة من الخشب المزخرف بالنقوش المذهبة بينما كانت واجهات القصور تزدان بالمشربيات البارزة والمصنوعة من الخشب الخرط، مما كان يكسب المدن الإسلامية طابعاً جميلاً أُعجب به الرحالة والتجار من المشرق والمغرب .

وكانت القصور الإيرانية في العصر الصفوي صغيرة الحجم ،وكان كل ملك أو أمير يملك عددا كبيرا منها . وقد وصف الأوربيون الذين رأوا إيران في ذلك العصر ما شاهدوه من قصور ،وأطنبوا في ذكر ما فيها من أدلة النعيم وحسن الذوق، ووصفوا سقوفها الدقيقة واللوحات المصورة على جدرانها ،والأثاث الفاخر في قاعاتها ،وأشاروا إلى القاعات التي كانت تهيأ في جدرانها طاقات لوضع الأواني الخزفية الجميلة .

أما القصور في الأندلس وبلاد المغرب فقد كان معظمها آية في العظمة ،والسعة ، وجمال العقود ،ودقة الزخارف الجصية التي تزين الأعمدة وتيجانها، فضلا عن الأرضية الجميلة من الفسيفساء ،والسقوف الجميلة من الخشب المحفور والمزين

بالنقوش البديعة . وقصر الحمراء بغرناطة يكاد يكون في ذلك أبدع القصور الإسلامية على الإطلاق .

وفي عهد المماليك والأتراك كانت البيوت الكبيرة في القاهرة تشمل طابقا أرضيا للرجال (سلاملك) ،وطابقا علوياً للنساء (حرملك) ،وكان يلاحظ في تصميم الدار أن تُطلَ القاعات الرئيسية على الجهة البحرية لتستقبل النسيم . وكانت المشربيات أهم مايزين واجهات البيوت والقصور، فتلطف شدة الضوء وتدخل النسيم وتمكن النساء من رؤية ما يحدث الخارج بدون أن يراهن أحد . وكانت النوافذ المتسعة في القاعات تطل على صحن الدار ، أما النوافذ المطلة على الشارع فكانت صغيرة ومرتفعة .

ومن أمثلة القصور في الحضارة الإسلامية ما يلي :

قصير عمرة بالأردن

قصير عمرة قصر صغير يقع على بعد حوالي ٥٠ كيلو مترًا غرب الرأس الشمالي للبحر الميت، و يرجع بناؤه إلى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك سادس الخلفاء الأمويين، و الذي حكم ما بين عامي ٧٠٥ – ٧١٥ م، ويضم قاعة استقبال مستطيلة الشكل ذات عقدين يقسمانها إلى ثلاثة أروقة ، لكل رواق منها سقف من قبو نصف دائري ،ويتصل الرواق الأوسط في الجهة الجنوبية بحنية كبيرة على جانبيها غرفتان صغيرتان بدون نوافذ .

وإلي جانب قاعة الاستقبال حمام من ثلاث قاعات صغيرة : الأولى ذات سقف من قبو نصف دائري ،والثانية سقفها من قبوين متقابلين ، والثالثة تعلوها قبة نصف كروية ، أما الحمام فهو بحالة جيدة، و يشبه الحمامات الرومانية بشكلها ومكوناتها، حيث يتألف من قاعة كبيرة مخصصة لخلع الملابس مزودة بمقصورتين، و هناك أيضاً الغرفة الباردة والغرفة الفاترة و القاعة الحارة المجهزة بأنابيب البخار، أما جدران القصر فكانت مليئة بالرسومات و الجداريات. وكانت جدران هذا القصر وسقوفه محلاة بنقوش دب التلف إلى معظمها . وتضم هذه النقوش رسوم صيد، واستحمام، ورسوم راقصات، ونساء، ورسومًا رمزية لآلهة الشعر والفلسفة والنصر والتاريخ عند الأغريق، وأخرى لبعض مراحل العمر المختلفة: الفتوة والرجولة والكهولة، ورسما لقبة

السماء وبعض النجوم فضلا عن البروج المختلفة، ورسوم طيور وحيوانات وزخارف نباتية.

وأهم نقوش هذا القصر نقشان : الأول رسم الخليفة على عرشه وحول رأسه هالة وفوقه مظلة يحملها عمودان حلزونيان، ويحف به شخصان ، وكان على عقد المظلة عصابة من الكتابة الكوفية تطرَق التلف إلى كثير من أجزائها، ويستنبط من الكلمات الباقية أنها كانت تشتمل على عبارات دعائية، أما النقش الثاني فالصورة المشهورة فيه باسم صورة ملوك الأرض والتي اعتمدها علماء الآثار في تأريخ قصير عمرة .

قصر المشتى بالأردن

....

يقع القصر على مسافة حوالي ٣٢ كم جنوب شرق مدينة عمان، وتم إنشاؤه على يد الخليفة الأموي الوليد الثاني عام ٧٤٤م، ويحيط بالقصر سور مربع طوله ١٤٤ متراً، و يكتنفه ٢٥ برجاً دائرياً، عدا برجي المدخل فهما بشكل نصف مثمن، و يمتاز القصر بتقسيماته المختلفة، فهو مقسم إلى ثلاثة أجنحة، الجناح الأوسط

الأوسط مقسم إلى ثلاثة أقسام يضم القسمان الشمالي و الجنوبي الأبنية الرئيسية، أما القسم المتوسط فهو يشكل ساحة مكشوفة، وكان الجناح الشمالي مقراً للخليفة، أما الجناح الجنوبي فهو ممرات و غرف ومسجد، ومنه ينفتح المدخل الوحيد الذي تزينه من الخارج واجهة مزخرفة.

علي أن أعظم ما في قصر المشتى من الناحية الفنية الزخارف المحفورة في الحجر الجيري في الواجهة القبلية التي يقع بها المدخل . ونقلت تلك الواجهة إلى القسم الإسلامي بمتحف برلين، ونرى في قصر المشتى بعض العناصر الفنية التي تشبه زخارف قبة الصخرة

============

#صراع الحضارات ومستقبل الدعوة الإسلامية

أ. د. جعفر شيخ إدريس

قُدم هذا البحث لمؤتمر عقدته مجلة البيان بقاعة الصداقة بالخرطوم يوم ١٧ رجب ١٤٢٣ هـ الموافق ٢٤سبتمبر سنة ٢٠٠٢

هيمنة الحضارة الغربية

إذا أردنا للحديث عن صراع الحضارات أن يكون حديثا تبنى عليه مواقف فكرية وعملية فيحسن أن لا يكون حديثا عاما، بل يحسن أن نشير فيه إلى وقائع وحالات محددة. لذلك نقول:

ما الحضارات التي يقال إنها تتصارع الآن؟

لكي نجيب عن هذا السؤال يحسن أن نتفق على ما نعنيه بكلمة الحضارة، في بحثنا هذا على الأقل. الحضارة كما نستعملها هنا هي الكلمة العربية المقابلة للكلمة الانجليزية civilization . فالحضارة بحسب ما نراه هنا مكونة من جوهر ومظهر. أما الجوهر فهو معتقداتها وقيمها وأنماط السلوك الشائعة فيها، وأما مظهرها فهو انجازاتها المادية من قوة عسكرية واقتصادية، ونظم سياسية وعمران.

الحضارة بهذا المعنى مفهوم محايد، أعني أنه لا يدل بنفسه على مدح أو ذم، شأنه في ذلك شأن عبارات الأمة، والأئمة، والخُلق والدين وغير ذلك. فالأمة قد توصف بالاستقامة أو الزيغ، والأئمة قد يكونون هداة إلى الحق أو موردين لمتبوعهم إلى النار، والخُلق قد يكون حسناً وقد يكون سيئاً، والدين قد يكون حقاً وقد يكون باطلاً. وكذلك الحضارة قد توصف بالمادية أو الإيمانية، وبالقوة أو الضعف.

فما الحضارات . بهذا المعنى . التي تتصارع في عصرنا؟

لا نستطيع . فيما أرى . أن نشير في واقعنا الراهن إلى حضارة ماثلة محددة المعالم إلا حضارة واحدة هي الحضارة الغربية. وذلك أننا حين نتحدث عن الحضارة الغربية نستطيع أن نشير إلى دولٍ قائمة تتمثل فيها هذه الحضارة: فهنالك دول أوربا الغربية، والولايات المتحدة، وكندا، واستراليا ونيوزيلاندا. يجمع بين هذه الدول كونها كلها ذات نظام سياسي واحد هو الديمقراطية الليبرالية العلمانية، وأن بينها علاقات وتعاون، وأن لها تاريخاً واحداً مشتركاً، وأن الديانة النصرانية هي أكثر الديانات انتشاراً بين شعوبها. بل إن هذه الدول لتشترك شعوبها حتى في أزياء رجالها ونسائها، وفي كثير من اذواقها الأدبية والفنية. هذه الدول في مجموعها هي أقوى دول العالم اقتصاداً، وسلاحاً، وتأثيراً إعلامياً. حضارتها هذه هي الحضارة الغالبة المهيمنة على العالم.

هل نستطيع أن نقول مثل هذا عن أية حضارة أخري في واقعنا الراهن؟ كلا. نستطيع أن نشير إلى أقطارٍ أخرى إشارات سلبية بأن نقول إن حضارتها ليست غربية بالمعنى الكامل. فاليابان تشبه دول الحضارة الغربية في نظامها السياسي وفي تقدمها الاقتصادي، وتخالفها في تاريخها، وفي الدين السائد بين أهلها. وهي صديقة للغرب ومتعاونة معه لا مصارعة. وقل مثل ذلك عن الهند.

أما الصين فإنها تشبه الدول الغربية من حيث نموها الاقتصادي، بيد أنها تخالفها في نظامها السياسي والاقتصادي. لكن حتى هذين النظامين ليسا بنابعين من ثقافة صينية أو تاريخ صيني وإنما هما مستوردان من فكر غربي هو الفكر الماركسي.

مجموعة الدول التي كانت تسمى بالاتحاد السوفيتي كانت متشابهة في نظامها السياسي والاقتصادي، وكانت لها قوة عسكرية ورسالة أيدُلوجية ومطامع توسعية، فكانت هي فعلاً المنافسة للغرب، لكنها حتى في أوج عظمتها لم تكن تمثل حضارة متميزة. أما بعد تفكك اتحادها وسقوط نظامها السياسي والاقتصادي وذهاب بريقها الأيدلوجي، فقد صارت دولاً ضعيفة تحاول أن تتأسى بدول الحضارة الغربية في أنظمتها، كما تحاول تحسين علاقاتها بتلك الدول، ولا سيما الولايات المتحدة، طمعاً في مالها وجاهها.

ماذا بقي؟ بقيت الدول الإسلامية. هل نستطيع أن نقول إنها تمثل اليوم حضارة بالمعنى الذي وصفنا به الحضارة الغربية؟ نقول آسفين: كلا. فإنه ليس لها نظام سياسي واحد إسلامياً كان أو غير إسلامي، وليست ملتزمة كلها بالإسلام في نظمها الاقتصادية أو التعليمية أو الإعلامية أو غيرها. وليس بينها تعاون حقيقي يذكر رغم انضمامها كلها إلى عضوية المؤتمر الإسلامي.

فليس هنالك إذن حضارة إسلامية قائمة قياماً مادياً يميزها تمييزاً كاملاً عن الحضارة الغربية، ودعك أن تكون في صراع معها. نعم كانت لنا في الماضي حضارة، بل كانت الحضارة الإسلامية هي الحضارة العالمية الوحيدة إلى بداية القرن السابع عشر الميلادي، حضارة اعترف بوجودها وقوتها معاصروها، ويعترف بوجودها المؤرخون والمختصون بالدراسات الإسلامية حتى من الغربيين المعادين.

وعليه فنستطيع أن نقول إنه ليس هنالك في واقع الأمر صراع بين حضارة غربية وأخرى إسلامية، لأنه لا توجد اليوم حضارة إسلامية بالمعنى الذي توجد به حضارة غربية، أو بالمعنى الذي كانت توجد به حضارة إسلامية. فما مشكلتنا مع الحضارة الغربية إذن؟ مشكلتنا أن الحضارة الغربية ليست راضية حتى بهذا القليل الذي تبقى لنا من الحضارة الإسلامية، بل تريد لنا ولغيرنا أن لا نكون عقبة في طريق مصالحها القيمية أو المادية، بل أن نكون تابعين في كل ذلك لها. ومع أنه لا توجد اليوم حضارة إسلامية، إلا أن الحضارة الغربية ذات حساسية بالغة من أية بادرة بعث لتلك الحضارة لسبب تاريخي. إن قادة الفكر الغربي لا ينسون، كما أن كثيرين منا لا ينسون، أن الحضارة الإسلامية كانت كما قلنا هي الحضارة العالمية حتى القرن السابع عشر الميلادي. استمع إلى المستشرق اليهودي برنارد لويس وهو يقول في شيء من شماتة:

ظل الإسلام لقرون طويلة أعظم حضارة على وجه الأرض ـ أغنى حضارة، وأقواها، وأكثرها إبداعا في كل حقل ذي بال من حقول الجهد البشري. عسكرها، أساتذتها وتجارها كانوا يتقدمون في موقع أمامي في آسيا وأفريقيا وأوروبا، ليحملوا ما رأوه الحضارة والدين للكفار البرابرة الذين كانوا يعيشون خارج حدود العالم الإسلامي.

ثم يمضي ليقول:

ثم تغير كل شيء. فالمسلمون بدلا من يغزو الدول المسيحية ويسيطروا عليها، صاروا هم الذين تغزوهم القوى المسيحية وتسيطر عليهم. مشاعر الإحباط والغضب لما عدوه مخالفا للقانون الطبيعي والشرعي ظلت تتنامى لمدة قرون، ووصلا قمتهما في أيامنا.[١]

فقادة الحضارة الغربية يخشون على حضارتهم من كل بادرة إحياء لتلك الحضارة التي كانت سائدة. ومما يزيد من خوفهم قول المختصين منهم في التاريخ الإسلامي، إن للإسلام مقدرة عجيبة على العودة كلما هُزم.

ما الإجراءات التي يجب أن تتخذ لضمان عدم عودته؟ اختلفت الإجراءات في تفاصيلها بحسب الظروف العالمية، وبحسب التكتيكات الوقتية، لكن أمرين استراتيجيين اثنين لم يتغيرا، هما ضمان عدم رجوع الأمة إلى فهم صحيح للقرآن

الكريم، وضمان استمرارها ضعيفة محتاجة إلى الغرب، أي ضمان عدم توفر الشرطين اللازمين لتمكين الأمة وبالتالى لحضارتها، وهما الكتاب الهادي والسيف الناصر[٢] قال تعالى:

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ [الحديد:٢٥]

في عهد الاحتلال المباشر لبلدان العالم الإسلامي، كان أول ما فعله المستعمرون اقصاء العلم الشرعي عن المدارس والجامعات، وحصره في دوائر ضيقة روعي أن لا يكون لها علاقة بالمجتمع ولا بالعصر. وفي هذا العهد استغلت ثروات البلاد لتغذي مصانع أوربا وتقوي اقتصادها.

بعد انتهاء عصر الاستعمار والدخول في الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتي، انشغل الغرب بعدو ماثلٍ أكبر، فلم ير بأساً من التعاون التكتيكي مع بعض حملة هذا الفهم الصحيح كما حدث في أفغانستان. لكن الهدف الاستراتيجي لم يُنس أبدا؛ فقد ظل الغرب الديمقراطي بقيادة الولايات المتحدة هو . إلى حد كبير. الذي يصنع الحكومات غير الديمقراطية ويدعمها، مراعاة لمصالحه، وخوفاً من أن تكون الديمقراطية ذريعة لوصول الإسلام إلى السلطة.

أمريكا والنظام العالمي الجديد

وبسقوط الاتحاد السوفيتي واستتباب الأمر للحضارة الغربية، دخل العالم مرحلة جديدة، مرحلة القوة العالمية الكبرى الواحدة، التي لا تدانيها من حيث إمكاناتها الاقتصادية والعسكرية والتقنية والإعلامية قوة أخرى. وبدأت تظهر تبعاً لذلك معالمُ نظامٍ عالميٍ جديد، ما تزال تفاصيله محل نقاش كبير في الولايات المتحدة. لكن يمكن تلخيص اتجاهات هذا النقاش في اتجاهين كبيرين: الدعوة إلى الانفرادية، وضرورة الاستمرار في العمل ضمن الأطر العالمية السائدة.

الاتجاه الانفرادي

يرى أصحاب الاتجاه الانفرادي الذي تقوده عصبة ممن يسمون بالمحافظين الجدد، أن تستبد الولايات المتحدة باتخاذ ما تراه من قرارات وسياسات تحقق مصالحها،

وتنشر قيمها من غير تقيد بأعراف ولا قوانين دولية، ولا بمؤسسات عالمية كالأمم المتحدة. وهم يعتمدون في تسويغهم لهذا الرأي وتسويقه على أمرين:

أولهما: القوة الاقتصادية والعسكرية الهائلة للولايات المتحدة التي لم تعد تدانيها فيها قوة أخرى، هذه القوة التي جعلت الجميع يعترفون بأنه لم تعد توجد الآن إلا قوة عالمية كبرى واحدة. لكن الأعراف الدولية والقوانين العالمية السائدة حتى الآن هي في رأي المحافظين الجدد . من مخلفات نظام عالمي قديم، اقتضتها ظروف لم يعد لها الآن وجود. ولذلك فلا جناح على الولايات المتحدة أن لا تلتزم بها مادام الأمر قد استتب لها. إن الولايات المتحدة قد بلغت من القوة شأواً لا تدانيها فيه دولة أخرى. فميزانية وزارة الدفاع هي أكبر من مجموع ميزانيات الدول الاثنتين والعشرين التي تأتي بعدها، ويقولون إنها ستكون بحلول عام خمسة بعد الألفين أكبر من مجموع ميزانيات الدفاع في كل أنحاء العالم! وإذا كانت عادٌ قد قالت فيما مضى "من أشد منا قوة؟" فإن أمريكا تقول اليوم لا أحد أشد منا قوة في الحاضر، ولم يكن أحد أشد منا قوة في الماضي. ولكن كما قال ربنا لعاد، نقول لمن أطغتهم القوة اليوم: "أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة؟"

يقول أصحاب هذا الرأي من المحافظين الجدد: إن على أمريكا أن تكون هي لا المنظمات العالمية، بل ولا حتى حُلفاؤها من الدول الغربية، التي تقرر ما هو حسن وما هو سيء بالنسبة للعالم، وأن تتصرف بحسب حكمها من غير التزام بقرارات يفرضها عليها غيرها. فلسان حالهم يقول "مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَشاد". هذا لا يعني . كما يقولون . أن لا تستشير الولايات المتحدة غيرها، وأن لا تتعاون مع من يريد التعاون معها، ولكنه يعنى يصورة حاسمة أنه لا أحد له الحق الآن في أن يلزمها بما لا تلزم به نفسها. ولئن لم تفعل هذا فسيكون مثلها كمثل جلفر Gulliver الذي تقيده أقزامُ لليبوت، كما قال أحدهم.

وثانيهما: أن عامة الأمريكان يعتقدون أنهم أصحاب رسالة عالمية. رسالتهم هي رسالة الحرية، فهم لا يرون أنفسهم بأقوى الدول فقط، وإنما هم أخيرها، بل هم خير أمة عرفها التاريخ البشري، فهم بزعمهم أكثر الناس تدينا، وأشدهم استمساكا بالأخلاق الفاضلة. نظامهم السياسي كما يرون أحسن نظام، ودستورهم أحسن وثيقة

كتبت في التاريخ، ونظامهم الاقتصادي أنجح نظام، وقضاؤهم أعدل قضاء، ونظامهم التعليمي أرشد نظام، ونظامهم الصحي أفيد نظام، بل وسجونهم أكثر السجون إنسانية. أمريكا هي بلد الأحرار وبلد الشجعان وبلد الفرص. وعليه فإن استبدادهم بالأمر سيكون لخير البشرية " لأن الأمريكان كما قال أحد مفكريهم هم "حداة البشرية في سيرها نحو الكمال" لا يملك المرء إلا أن يذكر مرة أخرى مقالة فرعون "مَا أُرِيكُمْ إلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَشاد".

ولهذا تجد زعماءهم السياسيين يستغلون فيهم هذه النزعة الرسالية وإن شئت فقل الحمية، حمية الجاهلية، فيحرضون شعبهم . ولا سيما العسكريين منهم . على التضحية من أجل هذه المُثل العليا، لا من أجل المصلحة الوطنية بالمعنى المحدود، لأنهم يعلمون أن الذي يحرك الإنسان هو الاعتقاد في مثل هذه المثل، لا مجرد الدفاع عن أرض أو مصلحة مادية.

وقد ظهر هذا جلياً في الخطاب الذي ألقاه الرئيس جورج بوش لخريجي كلية وست بوينت العسكرية. فمن العبارات التي جاءت في ذلك الخطاب، الذي أنصح بقراءته:

أن أمريكا تدافع عن الحرية، وأن العَلَم الأمريكي حيثما رُفع فلن يكون رمزاً لقوتنا فحسب ولكن للحرية. لقد كانت أهدافنا دائماً أكبر من مجرد الدفاع عن أنفسنا. إننا كلما حاربنا فإنما نحارب من اجل سلام عادل، سلام يختار الحرية الإنسانية. سندافع عن السلام ضد تهديدات الإرهابيين والحكام المستبدين. إننا نريد لغيرنا ما نريد لأنفسنا ـ أمن من العنف، خيرات الحرية، والأمل في حياة أحسن. إن محاربة الإرهاب تحتاج إلى صبر، ولكنها تحتاج أيضا إلى هدف خُلقي. إن أعداءنا اليوم كما كانوا أيام الحرب الباردة شموليون، يؤمنون بمبدأ القوة التي لا مكان فيها للعزة الإنسانية. لقد كان الوضوح الخُلقي ضرورياً في انتصارنا في الحرب الباردة. يرى بعضهم أنه ليس من الدبلوماسية، وربما كان من سوء الأدب، أن نتحدث عن الحق والباطل. لكنني أختلف معهم. نعم إن الظروف المختلفة تقتضي وسائل مختلفة لكنها لا تقتضي أخلاقاً مختلفة. إن الحقيقة الخُلقية واحدة في كل ثقافة وفي كل زمان، وفي كل مكان. إن هنالك صراعاً بين الحق والشر، وستسمى أمريكا الشر باسمه.

لكن الذي يشكو منه كثير من الأمريكان أن هذا الشعور بقيمة أمريكا وتميزها بدأ يضعف جداً في أجيال الشباب الذين هم الآن في المدارس والجامعات. فقد انتشرت بينهم انتشاراً مخيفاً فواحش الإباحية، والشذوذ الجنسي وتعاطي المخدرات، وما استتبعه ذلك من غلبة للاتجاه الفردي والسخرية بالخلق والمثل.

دل استطلاع لبعض المدارس قبل جيل مضى بأن أكبر المشكلات التي يعاني منها الطلاب هي: عدم احترام الممتلكات، والكسل وعدم أداء الواجبات المنزلية، والحديث في الفصل وعدم الانتباه، التراشق بكور الورق المبلول بالبصاق، ترك المنافذ والأبواب مفتوحة. فلما أعيد ذلك الاستطلاع للمدارس نفسها قبل سنوات قليلة، كانت النتيجة أن أكبر المشكلات هي: الخوف من القتل العنيف بالبنادق أو السكاكين في المدرسة، الاغتصاب، المخدرات، الحمل، الإجهاض.[٣]

ولهذا صار كثير من الأمريكان لا يرسلون أولادهم إلى المدارس العامة، بل يفضلون لهم التعليم المنزلي

وكثيرا ما يحزن المرء حين يرى مسلما حاز على البطاقة الخضراء فطار بها فرحا إلى أمريكا ليقذف بالبنين والبنات من أطفاله في هذا المستنقع الآسن.

ومع انتشار الثقافة الغربية، وضعف الوازع الديني بدأ هذا الفساد ينتشر في بلدان العالم كله، بما في ذلك بلادنا الإسلامية.

الاتجاه الائتلافي

أما الاتجاه الائتلافي فلا يجادل أصحابه إخوانهم الانفراديين في كون الولايات المتحدة هي القوة العالمية الكبرى الوحيدة، ولا فيما يتميز به الشعب الأمريكي من صفات، لكنهم يرون أن الانفراد غير ممكن عملياً وإن أمكن فليس في مصلحة بلادهم. ومما يذكرونه في هذا الصدد:

• أن ما صار يوصف الآن بالنظام العالمي القديم كان إلى حد كبير من صنع الولايات المتحدة، وقد كان نظاماً ناجحاً حقق لها ما تريد فما الداعي الآن للانقلاب عليه وتقويضه؟

• أن القوة الحربية للولايات المتحدة ذات علاقة وثيقة باقتصادها، واقتصادها ليس أمراً محلياً تستطيع أن تصنع فيه ما تشاء، بل له ارتباط كبير بالأمم الأخري. فالأسلحة لا ينتجها البنتاجون وإنما تنتجها شركات تجارية. لكن هذه الشركات تعتمد في استمرار حياتها على السوق العالمي، بل إن منتجاتها العالية التقانة لها الآن نصيب الأسد في ما يبيعه الاقتصاد الأمريكي في السوق العالمي. على سبيل المثال فإن مبيعات هذه الشركات من الحاسوبات الرفيعة في السوق العالمي تمثل نصف دخلها.

• أن هذا سيؤدي إلى فوضى عالمية. فإذا جاز لنا أن نبدأ بشن حرب وقائية على العراق، فلماذا لا تفعل الصين ذلك بالنسبة لتايوان، أو الهند بالنسبة لباكسان؟

• وإذا أعطينا أنفسنا حق تغيير النظم، فهل سنعطيها حق الإتيان بنظم نرضى عنها؟ ماذا إذا لم يختر الناس من نريد؟ هل نعود لعصر الاحتلال؟

كيف يكون التعامل مع المسلمين، ولا سيما العرب منهم؟

حوادث الحادي من سبتمبر أكدت للغرب، وللولايات المتحدة بالذات خطر الإسلام لأنه مهما قيل عن الخطأ الذي ارتكبه من قاموا بتلك العملية إلا أن الحقيقة تبقى أنهم شباب متدينون، وأنهم ابتغوا بعملهم الشهادة، وأنهم فعلوا ما فعلوا انتقاماً للمسلمين من ظلم الحضارة الغربية متمثلة في دولتها الكبرى وقائدتها. لذلك عاد الحديث جذعاً عن المواقف التي ينبغي أن تُتخذ لدرء الخطر الإسلامي. ومن المسائل التي ذكروها في ذلك

المسألة الأولى: محاربة ما أسموه بالفهم الحرفي للإسلام

ما أسموه بالفهم الحرفي للإسلام هو في رأيهم الذي يغذي عداوة المسلمين للحضارة الغربية. ومن هنا كثر الحديث عن الإسلام الراديكالي، وعن الوهابي وعن السلفية . يقولون إنه لا يمكن أن يقال للمسلمين تنكروا لدينكم، ولكن الذي يقال لهم هو أن يفهموه فهماً لا يجعله في صدام مع مقومات الحضارة الغربية. مشكلة المسلمين المتشددين، بحسب هذا الرأي، هي أنهم رافضون للحداثة modernity التي تتطلب فيما تتطلب . أن تكون الدولة دولة علمانية تعددية. فالمطلوب من المسلمين إذن أن

يفعلوا ما فعله الغرب ليكتمل لدينهم التصالح مع هذه الحداثة كما تم للمسيحية والنصرانية.

كيف يكون ذلك؟ يكون

أولاً: بأن لا يعتقد المسلمون أن نصوص دينهم صالحة لكل زمان ومكان بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة، بل عليهم أن يتذكروا كما فعل الليبراليون من النصارى واليهود، أن هذه النصوص ذكرت في ظروف تاريخية وثقافية معينة، فلا يمكن أن تكون بحرفيتها مناسبة مع ظروف تاريخية وثقافية مختلفة عنها. ما الحل إذن؟ الحل هو أن نعيد تفسير هذه النصوص لتتناسب مع العصر، بأن نقول حتى عما يبدو أنه وصف لواقع كقصة قوم لوط إن هذا إنما كان كلاماً مجازياً. فلم يحدث أن دمر الله تعالى قرى أو عاقب قوما لتوجههم الجنسي. (قال أوريلى مدللا على أن القصة كانت رمزية لا حقيقية: لماذا لم يدمر الله سان فرانسسكو إذن؟)

وثانياً: بأن يفهم المسلمون بأن الحقيقة الدينية حقيقة نسبية، لأنك إذا اعتقدت أن الحق كله معك . كما يعتقد المسلمون اليوم . فستعتقد أن مخالفيك على باطل ويستحقون لذلك أن يقتلوا، هكذا قال الرئيس السابق كلنتون في محاضرة ألقاها في جامعة جورج تاون بواشنطن بعد أحداث الحادي عشر. وهذا يعنى أن يكون الأفراد داخل الدين الواحد متسامحين مع مخالفيهم في فهم دينهم، لأن لكل إنسان الحق في أن يفهم دينه كيف شاء، وأن يرى الحقيقة من منظاره. وعلى المنتمين إلى الأديان المختلفة أن يكونوا أيضا متسامحين مع مخالفيهم معتقدين بأن كل دين يهدي إلى الحقيقة بطريقته .

وثالثاً: أن يُمنع بالقانون نشر مثل هذا الفكر وتغلق كل المؤسسات التعليمية التي تنشره، وأن يعاقب الذين يروجون له أو يمولون مؤسساته.

ومما يساعد الغرب على تحقيق هذه الأهداف أن الأفكار التي تعتمد عليها قد شاعت منذ زمان بين المثقفين المسلمين، بل بين بعض الإسلاميين منهم . فقد صار الكثيرون منا جزءاً من الحضارة الغربية في فكرهم وقيمهم وطموحاتهم السياسية وعاداتهم وتقاليدهم بل وأزيائهم الرجالية والنسائية، لأنهم صاروا يعتقدون أن الحضارة الغربية هي حضارة العصر التي لا يكون الناس متحضرين إلا بها.

المسألة الثانية: معالجة الأسباب الاجتماعية التي أدت إلى معاداة المسلمين للغرب

يرى بعض المفكرين السياسيين الغربيين أن هنالك أوضاعاً اجتماعية وسياسية بغيضة إلى الناس في العالم العربي بالذات، وأن الغرب . ولا سيما الولايات المتحدة هو . في نظرهم . الذي يقف وراء هذه الأوضاع الظالمة ويدعمها فمن الطبيعي أن يكرهوه. ماذا نفعل إذن؟

يقول بعضهم: إن الحل واضح هو أن نعمل على تحويل أنظمة العالم العربي إلى انظمة ديمقراطية حقيقية يكون الحكم فيها للأغلبية، وتصان فيها الحريات، ويحارب فيها الفساد المالي. يقول الرئيس بوش في خطابه الشهير في كلية وست بوينت:

عندما يأتي الأمر إلى حقوق الناس رجالا ونساء وحاجاتهم فليس هنالك صدام حضارات. إن متطلبات الحرية تصدق على أفريقيا وأمريكا اللاتينية والعالم الإسلامي كله. إن جماهير الناس في الأمم الإسلامية يريدون ويستحقون أن يعطوا كل الحريات والفرص التي للناس في كل أمة. وعلى حكامهم أن يستجيبوا لطموحاتهم.[٤]

يقول آخرون: لكن لا تنسوا أن أغلبية الناس في هذه البلاد كارهون لنا، وعليه فإن الحكومات التي يختارونها في النظام الديمقراطي ستكون معادية لنا.

يقول أصحاب الاقتراح أولاً إن هذا الامر ربما يكون كذلك في البداية، ولكن سيظهر لهذه الحكومات أن من مصلحتها ومصلحة شعوبها أن تتعاون مع الغرب وتكون صديقة له. وثانياً إنه ليس من الصعب علينا أن نأتي بحكومات أغلبية حقيقية تكون في الوقت نفسه صديقة لنا. هنالك وسائل كثيرة لتحقيق ذلك.

هذا ما يراه بعض الساسة الأمريكان أما نتنياهو . رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق . فله نصيحة أخرى للولايات المتحدة. فهو ينصحها بأن تغزو العراق وتغير نظامها من غير اعتبار للأمم المتحدة، وأما بالنسبة لإيران فإنه يقول فض الله فاه

إنه بإمكان الولايات المتحدة أن تُحرض على إحداث ثورة ضد النظام الإسلامي المحافظ في إيران بأن تستغل وجود الآلاف المؤلفة من الأطباق الفضائية فيها لتوجيه برامج أمريكية قذرة كتلك التي تذيعها قناة فوكس يظهر فيها شباب وشابات حسان في حالات مختلفة من حالات العري، يعيشون حياة مادية بهيجة ويمارسون

الجنس بطرق إباحية. "هذه مادة هدامة. إن الأولاد في إيران سيحبون أن تكون لهم مثل تلك الملابس الجميلة التي يرونها في تلك الأفلام. سيحبون أن تكون لهم أحواض سباحة وأساليب تلك الحياة الفاتنة[٥] [٦]

المسألة الثالثة: القضية الفلسطينية

قضية العلاقة مع إسرائيل قضية حساسة بالنسبة لغالبية السياسيين الأمريكيين، لكن هذا لم يمنع بعضهم من أن يقول إن موقف الولايات المتحدة المنحاز لإسرائيل هو من الأسباب الرئيسة لعداوة الشعوب الإسلامية ولا سيما العربية للولايات المتحدة. وأنه ما لم تحل هذه القضية حلا يراه العرب والمسلمون منصفا فإن هذه الكراهية ستستمر ، وسيستمر باستمرارها الإرهاب.

الفكر الأمريكي المعارض

ما ركزنا عليه حتى الآن هو الاتجاهات الشائعة او الغالبة في أمريكا، لكن أمريكا بلد شاسع لا يسود فيه اتجاه واحد سيادة كاملة، بل ما من رأي ديني أو سياسي أو اقتصادي شائع، إلا وله معارضون أشداء قلَّ عددهم أو كثر. وكثيراً ما تكون آراء الفئات المعارضة هذه أقرب إلى الهدي الإسلامي من غيرها. وإليك بعض الأمثلة

• فمنهم من يرى كما نرى أن ما يُسمى بالفهم الحرفي للنصوص الدينية هو الفهم الصحيح الأمين لها. فنحن نوافقهم في المنهج ونستطيع لذلك أن نناقشهم في نصوص كتبهم التي نراها مجانبة للصواب، لكننا لا نستطيع أن ندخل في حوار مثمر مع من كلما ناقشته في صحة نص قال إنه مجازي وأعطاه من المعاني ما يوافق هواه.

• بل إن من هؤلاء من يدعو كما ندعو إلى تطبيق الحدود المذكورة في العهد القديم كرجم الزاني المحصن، وقتل المرتد، حتى قال أحد الصحفيين المعارضين إذا طبقنا هذه القوانين فسنقتل الغالبية العظمى من الشعب الأمريكي!

• ومنهم من يرى أن العلمانية هي العدو الأكبر، ومادام المسلمون يوافقوننا على ذلك فيجب أن نعدهم أصدقاء لا أعداء في مواجهة هذا العدو.

• ومن غير المتدينين، بل من العلمانيين من يدرس عيوب المجتمع الأمريكي دراسة علمية ممتازة، ينبغي أن يتعلم منها المسلمون المبهورون بالحياة الغربية، فالعاقل من اتعظ بغيره. من هؤلاء فوكوياما في كتابه الانفراط العظيم.

• وهنالك من ينتقد الممارسة الواقعية للديمقراطية ويرى أنها قد حادت عن المفهوم الصحيح لها. إن الكتب والدراسات في هذا المجال تعد بالمئات إن لم نقل الألوف.

• وهنالك من ينتقد الرأسمالية إما أصلا أو ممارسة.

• وهنالك من لا يداهن في نقده للسياسة الأمريكية الخارجية ولا سيما فيما يتعلق بإسرائيل.

• ثم هنالك إخواننا الدعاة المسلمون الذين يهدي الله تعالى بهم ما يقدر بخمسين شخصا في كل يوم! فإذا كانت الحضارة الغربية قد غزت العالم الإسلامي، فإن الإسلام يدخل الآن قلوب الآلاف المؤلفة ممن هم في أرضها، لأن الناس يجدون فيه ما لا يجدون في حضارته رغم قوة سلطانها المادي ورغم سيطرتها وقوة تأثيرها على بقية بلدان العالم.

البعث الإسلامي الحضاري

إذا لم تكن في الأرض اليوم حضارة إسلامية قائمة فعلاً، فإن فرص بعثها ما زالت متوفرة ومشجعة. إن المسلمين ما زالوا بحمد الله تعالى قادرين على الأوبة إلى الكتاب الهادي، وقادرين على السعي لامتلاك السيف الناصر. وذلك:

أولاً: لأن انحراف الأمة عن دينها لم يكن . وما كان له أن يكون . ردة كاملة عامة عن الدين الحق. فهذا دين تكفل الله تعالى بحفظ كتابه كما تكفل بحفظ العاملين من علمائه. فإذا كان الله تعالى قد قال، وقوله الحق "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" فإن رسوله صلى الله عليه وسلم قد قال . غير ناطق عن هوى . لا تزالُ طائفة من أمتي ظَاهرين على الحقِ لا يَضُرُهم من خالَفهم ولا من خَذَلهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون.

ثانياً: لأنه إذا كان جوهر الحضارة . أو المدنية . وأساسها الذي يُشيَّدُ عليه بنيانها هو رسالتها، هو المعتقدات والقيم التي تستمسك وتعتز بها، فإن الجوهر والأساس الإسلامي ما يزال أقوى من منافسه العلماني الغربي. إن الإسلام يما يزال يبرهن عبر

تاريخه الطويل بأنه فعلاً فطرة الله التي فطر الناس عليها. فليس على وجه الأرض دين عبر الحواجز الجغرافية والثقافات المحلية ليبقى بين المستمسكين به . في جملته . الدين الذي أنزله الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم. فكتابه هو الكتاب الذي أنزل على رسوله، وصلوات الناس هي الصلوات كانت تقام في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وزكاته هي الزكاة، وحجه وصيامه هما كما كانا في أشكالهما ومواقيتهما. وبالرغم مما أضيف إلى هذا الدين من بدع إلا أنه يظل رغم ذلك أكثر الأديان احتفاظاً بحقيقته، وقد كان هذا وحده مما أغرى بعض الباحثين عن الحق بالدخول فيه.

ثالثاً: وما يزال هذا الدين يؤكد هذه الحقيقة بسرعة انتشاره المذهلة حتى في موطن الحضارة الغربية. فهم يقولون إن معدل سرعة انتشاره أكبر من معدل سرعة الزيادة في سكان العالم.

رابعاً: لأنه باعتباره دين الفطرة، ما يزال هو الدين الذي يجد الناس في آيات كتابه عِلماً بالإله الحق الموصوف بكل صفات الكمال المُنَزَّه عن كل صفات النقص من الولد والوالد التي تطفح بها بعض الأديان، وهدياً بأنه هو وحده المستحق للعبادة الهادي إلى أنواعها وكيفياتها. ويجدون في آيات كتابه وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم عِلماً بحقيقة أنبياء الله وما كانوا عليه من كمال بشري أهَّلَهُم لأن يكونوا الأسوة التي يتأسى بها كل سالك طريق إلى الله. لكن الأديان المحرفة تجعل من بعضهم آلهة وأنى للبشر أن يتأسى بالإله؟ وتنسب إلى بعضهم جرائم يستنكف عن ارتكابها عامة عباد الله، فأنى يكونون أسوة لغيرهم؟

خامساً: ولأنه دين الفطرة فلا يجد الناس فيه تصادماً بين مقتضيات العقول التي فطرهم الله عليها، ولا مخالفة لحقائق الخلق التي يشاهدونها ويجربونها. فالعقل فيه نصير الدين لا خصيمه، كما هو حاله في بعض الأديان. والعلم التجريبي يشهد له ولا يشهد عليه كما يفعل مع بعض الأديان.

سادساً: ولأن الناس كما يجدون فيه حاجتهم إلى الإيمان الخالص والعبادة السليمة والأخلاق الحسنة فإنهم يجدون فيه هدياً لتنظيم الحياة الاجتماعية تنظيماً يتوافق مع

ذلك الإيمان وتلك العبادة وهاتيك الأخلاق، ويعبر عنها ويؤكدها ويحميها؛ فهو الدين الوحيد الذي لا يحتاج إلى علمانية تكمل نقصه، أو تتصالح معه.

سابعاً: وهو الدين الذي ما يزال يشهد لأحقيته سلوك المهتدين من أبنائه. فهؤلاء هم أكثر أهل الأرض ذكراً وعبادةً لله، وأبعدهم عن مساخط الله، وأكثرهم بذلاً لأنفسهم وأموالهم في سبيل الله، وأكثرهم رحمةً بصغير وتوقيراً لكبير وصلةً لرحم.

وقد اعترف بهذه الحقيقة حتى بعض علماءِ النصارى، ومن أعجبهم بيتر كريفت أستاذ الفلسفة بكلية بوستن، الذي يحث إخوانه النصارى على أن يعدوا المسلمين أصدقاء وأعوانا لهم في حربهم ضد العلمانية التي يرى فيها العدو اللدود للدين والخطر الأكبر على الحياة الاجتماعية. يقول هذا الرجل:

لماذا ينتشر الإسلام بهذه السرعة المذهلة؟ سيسارع علماء الاجتماع وعلماء النفس والمؤرخون والاقتصاديون والديمغرافيون والسياسيون إلى تفسير ذلك النمو تفسيرا دنيويا كل بحسب تخصصه. لكن الإجابة بدهية لكل مسيحي ذي صلة بالكتاب المقدس: إن الله تعالى يفي بوعده، ويبارك أولئك الذين يطيعون أوامره ويخشونه، ويعاقب الذين لا يفعلون ذلك. إن الأمر في غاية من البساطة التي يعسر على الأساتذة الأكاديميين رؤيتها: قارن بين كميات الإجهاض، وزنا المحصنين وغير المحصنين والشذوذ بين المسلمين والنصارى. ثم قارن بين كمية العبادة.[٧]

ثامناً: ولأن كثيراً من الناس في الغرب بدؤوا يشعرون بالخطر الذي تسوقهم إليه الحياة العلمانية المجردة عن الدين، خطر تمكينها للاتجاه الفردي في الناس، وإضعافها للوازع الخلقي، وعبادتها للجنس، وتحويلها الحياة إلى جهد لا معنى له ولا غاية. كل هذا يسبب للناس أنواعاً من الشقاء الروحي، فذهب الكثيرون منهم يبحثون عن دين ينقذهم فلم يجد كثير ممن عرف الإسلام منهم أكثر منه إجابة لمطالبهم الروحية والخلقية بالطريقة التي أشرنا إليها سابقاً.

وعليه فإذا كانت الحضارة الغربية قد غزت بلادنا فكرياً وخلقياً وجعلت جزءاً من الصراع بيننا وبينها صراعاً على أرضنا، وبيننا وبين أقوامنا، فإن الإسلام الآن يفعل الشيء نفسه، إنه يغزو أرض الحضارة الغربية ويجعل الصراع بينه وبينها صراعاً على أرضها وبينها وبين من كانوا بالأمس حماتها المدافعين عن حياضها.

تلك بعض فرص الدعوة إلى الإسلام وإلى بعث حضارته، وهنالك وسائل كثيرة لاستغلال هذه الفرص، لكنني لا أريد الآن الدخول في تفاصيلها، ولا في تفاصيل السعي لامتلاك السيف الناصر، فلتفاصيل كل ذلك مجال آخر. وإنما أريد أن أختم هذه المقالة بالتذكير بقواعد للعمل الإسلامي لما أرى من خطورتها ومن عدم الاهتمام الشديد بها. وهي

أولاً: أن أمر العودة للإسلام وحضارته ليس بالحمل الخفيف الذي يمكن أن ينهض به أفراد، أو تقوم به جماعة واحدة أو دولة واحدة، وإنما هو عبءٌ ثقيلٌ يجب أن تتضافر على حمله الجهود. لذلك لا بد أن يقنع كل فرد عامل للإسلام وكل جماعة وكل دولة بأن التعاون بين الساعين لتحقيق هذا الهدف أمر لازم، وأن التشاور فيما بينهم أول خطوات ذلك التعاون، ثم يأتي التنسيق وتوزيع المهام.

ثانياً: وإذا كان التعاون أمراً لازماً فيجب أن يكون السعي لبعث الحضارة الإسلامية أبعد شيء عن الحزبية. إن بعض الناس يخلط بين العمل الجماعي المنظم . وهو أمر لا بد منه . وبين الحزبية التي تحول التنظيم إلى غاية كثيراً ما يُضحى في سبيلها بالغاية التي أُنشئ من أجلها والتي كان في البداية مجرد وسيلة إليها. الحزبية أن تحصر علاقات الأخوة الإسلامية وواجباتها في من دخلوا ضمن إطار التنظيم، وأن لا يعان على عمل خير بل ولا يعترف به إلا إذا كان من منجزات الجماعة المنظمة.

ثالثاً: الالتزام الصارم الشديد بقيم العدل والصدق والأمانة والوفاء حتى في معاملة الأعداء. لأن هذه القيم قيم مطلقة لا تختص بحال دون حال. قال تعالى:

ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا. وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان.

قال المفسر الكبير ابن كثير: إن العدل واجب على كل أحد، مع كل أحد، في كل حال؟

لكن بعض العاملين للإسلام اليوم يحيدون عن هذه القيم لأوهي الأسباب، ويسلكون سلوك السياسيين الميكيافليين. ناسين أن هذه القيم قيم يحبها الله، وأن الالتزام بها حتى مع الأعداء . عبادة لله. وأنك لا يمكن أن تنصر دين الله بارتكاب مساخط الله.

رابعاً: على الأفراد وعلى الجماعات غير الحكومية أن تلتزم التزاماً معلناً وصارماً بالطرق السلمية. هذا هو الذي يدل عليه شرع الله، وهو الذي ينتهي إليه كل من اتعظ بالتجارب المريرة للجماعات التي دخلت في صراعات دموية لم تكن لها بكفء. إنك لا تحمل السلاح على من أنت تحت سلطانه، وإنما الذي يشرع لك هو الدعوة مع كف الايدي وإقامة الصلاة، فإذا كانت لك أرض مستقلة وقوة مادية فآنذاك:

أذن للدين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير.

اللَّهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

أستغفر الله، وأصلى وأسلم على خاتم رسل الله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

[١] For many centuries Islam was the greatest civilization on Earth -- the richest, the most powerful, the most creative in every significant field of human endeavor. Its armies, its teachers and its traders were advancing on every front in Asia, in Africa, in Europe, bringing, as they saw it, civilization and religion to the infidel barbarians who lived beyond the Muslim frontier.

And then everything changed, and Muslims, instead of invading and dominating Christendom, were invaded and dominated by Christian powers. The resulting frustration and anger at what seemed to them a reversal of both natural and divine law have been growing for centuries, and have reached a climax in our own times (The Washington Post, Tuesday, Sept. ١٠, ٢٠٠٢, p. ١٥A)

[٢] لكن هذا لا يعنى أن الحضارة الغربية هي السبب الوحيد لفقدان المسلمين لهذين الشرطين، فمن أسباب ذلك ما قد يكون محليا، بل ما لا بد أن يكون محليا، لأن ضعف الأمة الديني والمادي كان هو السب في هزيمتها. ولما عرف العدو ذلك حرص على استمرار أسباب الضعف وساعدته على ذلك عوامل محلية في الأمة نفسها.

[٣] Peter Kreeft, Ecumenical Jihad, Ignatius Press, ١٩٦٦, San Francisco, pp. ٦١-٢.

[٤]

http://www.whitehouse.gov/news/releases/٢٠٠٢/٠٦/٢٠٠٢٠٦٠١-٣.html

[٥] http://www.upi.com/view.cfm?StoryID=٢٠٠٢٠٩١٢-٠٣٤١٠٩r٦٣٧١

[٦] يرى آخرون غيرنتنياهو أن الديمقراطية وجو الحرية الذي بدأ يسود في إيران سيؤدي إلى إنهاء الحكم الإسلامي بطريقة سلمية ديمقراطية.

[٧] تصرفت قليلا في بعض الكلمات التي لم أجد لها في العربية مقابلا يفى بغرض الكاتب. لذلك يحسن أن أضع نص حديثه بين يدي من يريدون الاطلاع عليه في لغته الانجليزية:

Why is Islam spreading so spectacularly? Sociologists and psychologists and historians and economists and demographers and politicians are quick to explain this growth with "expert" worldly wisdom from each of their specialties; but to any Christian familiar with the Bible, the answer is obvious: because God keeps His promises and blesses those who obey His laws and fear Him and punishes those who do not. Much too simple for scholars to see. Compare the amounts of abortion, adultery, fornication, and sodomy among Muslims and among Christians. Then compare the amounts of prayer. Ecumenical Jihad, ١٩٩٦, Ignatius Press, San Francisco, p. ٣٨.

=============

#بُناة الفكر العلمي في الحضارة الإسلامية

ملامح من سِيَر علماء مسلمين من عصور مختلف

المقدمة

تعتبر العلوم من أهم المجالات التي نالت الكثير من اهتمام علماء المسلمين، والتي حققوا فيها إنجازات عظيمة ورائدة أسهمت بدور كبير في تطور المعرفة الإنسانية ؛

فعدد كبير من المؤرخين والباحثين الغربيين يعترفون بإسهامات العلماء المسلمين وإضافاتهم الجديدة في مجالات عديدة كالطب، والفلك، والرياضيات وغيرها، ويقرون بدورهم الريادي في وضع الأسس التي يقوم عليها العلم الحديث.

وإسهاماً منا في التعريف ببعض الشخصيات الإسلامية وما قدمته للإنسانية في مختلف العلوم، فكرنا في إنجاز بيبليوغرافيا لبعض علماء المسلمين. وقد سعينا للجمع في هذه البيبليوغرافيا، بين الشخصيات العلمية البارزة والذائعة الصيت، وبين الشخصيات التي لم تحظ بالشهرة العلمية الكافية، رغم ما قدمته من أعمال ومنجزات، وما أسهمت به في تطور مختلف العلوم، وذلك بهدف إتاحة الفرصة للمثقفين ولطلبة الجامعات ولتلاميذ المدارس الثانوية للتعرف على بناة الفكر العلمي في الحضارة الإسلامية وإلقاء نظرة سريعة وموجزة على بعض ما حققوه من إنجازات وما تركوه من مؤلفات في مختلف العلوم.

وإذا كان العلماء المسلمون يوصَفون بالموسوعيين، الذين يحيطون بعدد من المعارف في حقول معرفية متعددة ، تجمع عادة ما بين الفلسفة، والفلك، والرياضيات، والطب، وعلوم أخرى، فقد رأينا أن نخصص هذه البيبليوغرافيا، فقط، لبعض علماء المسلمين الذين أسهموا في تطوير المعرفة العلمية في ميادين محددة مثل : الكيمياء، والطب، والنبات، والصيدلة، وعلم الفلك، والرياضيات والهندسة، وأن نعطي نبذة مركزة عن حياة كل عالم، وفكرة مختصرة عن أهم ابتكاراته وإنجازاته العلمية، مع ذكر أهم مصنفاته وما حملته من جديد في الميدان العلمي، وذلك حسب ما تتفق عليه المراجع التي اعتمدنا عليها في إنجاز هذا العمل.

يتناول هذا العمل الذي نقدمه إلى القارئ نبذة مختصرة عن حياة أربعين عالماً من عصور مختلفة، تمتد من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، إلى القرن الثامن الهجري / الخامس عشر الميلادي. وإذا كنا قد اقتصرنا في هذه الرحلة الطويلة على بعض الشخصيات التي كان لها دور مهم في تطور العلوم وتقدم المعارف، فنحن واعون بأن هناك حاجة ملحة للعمل مستقبلاً، على التعريف بكل الشخصيات العلمية الأخرى التي لم نتمكن من تخصيص حيز لها في هذا العمل.

ولا يسعني وأنا أختتم هذه المقدمة، إلا أن أتقدم بجزيل الشكر والامتنان إلى معالي الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الذي كان له الفضل في إخراج هذا العمل إلى حيز الوجود، كما أتوجه بخالص الشكر والتقدير للدكتور فائق بلال مدير العلوم بالمنظمة الإسلامية الذي تبنى هذا العمل واقترح إدماجه ضمن البرامج العلمية للمنظمة.

حليمة الغراري

جابر بن حيان

١٠٢-١٩٩هـ/٨١٥-٧٢١ م

جابر بن حيان شخصية بارزة، ومن أعظم علماء القرون الوسطى(١). وهو أبو موسى جابر بن حيان الأزدي. ويلقب أحياناً بالحراني والصوفي. وعرف عند الأوربيين في القرون الوسطى باسم Geber. ويقال إنه كان من الصابئة ومن ثم جاء لقبه الحراني. ودخل جابر في الإسلام بعد ذلك وأظهر غيرة عظيمة على دينه الجديد، ويذكر الأب جورج قنواتي أن جابراً أرسل إلى الجزيرة العربية بعد وفاة والده، وهو صغير حيث درس القرآن والرياضيات، وذهب ابن النديم في "الفهرست" إلى أن الناس اختلفوا في نسبة جابر إلى جهة معينة كالشيعة والبرامكة والفلاسفة، >بل هناك من أنكر وجوده أصلاً<، لذلك يجب التحفظ بشأن نسبته إلى الصابئة. وإن كان أصله من خراسان فقد عاش معظم حياته في الكوفة. ولد جابر في طوس حوالي ١٠٢/٧٢١م، وتوفي حوالي ١٩٩ هـ موافق سنة ٨١٥م على اختلاف بين المؤرخين. مارس جابر الطب في بداية حياته تحت رعاية الوزير جعفر البرمكي أيام الخليفة العباسي هارون الرشيد. وبعد نكبة البرامكة سجن في الكوفة وظل في السجن حتى وفاته.

إسهاماته العلمية

كانت أهم الإسهامات العلمية لجابر في الكيمياء، فهو الذي أدخل البحث التجريبي إلى الكيمياء، وهو مخترع القلويات المعروفة في مصطلحات الكيمياء الحديثة باسمها العربي Alkali، وماء الفضة. وهو كذلك صاحب الفضل فيما عرفه الأوربيون عن

ملح النشادر، وماء الذهب، والبوتاس، وزيت الزاج. كما أنه تناول في كتاباته الفلزات، وأكسيدها، وأملاحها، وأحماض النتريك والكبريتيك، وعمليات التقطير، والترشيح، والتصعيد.

ومن أهم إسهاماته العلمية كذلك، أنه أدخل عنصرَيْ التجربة والمعمل في الكيمياء وأوصى بدقة البحث والاعتماد على التجربة والصبر على القيام بها. فجابر يُعَدُّ من رواد العلوم التطبيقية. وتتجلى إسهاماته في هذا الميدان في تكرير المعادن، وتحضير الفولاذ، وصبغ الأقمشة ودبغ الجلود، وطلاء القماش المانع لتسرب الماء، واستعمال ثاني أكسيد المنغنيز في صنع الزجاج.

وقد قسم جابر المواد حسب خصائصها إلى ثلاثة أنواع مختلفة، وهي :

١. الكحوليات، أي تلك المواد التي تتبخر عند تسخينها مثل الكافور وكلوريد الألمنيوم ؛

٢. المعادن مثل الذهب، والفضة، والرصاص، والحديد ؛

٣. المركبات، وهي التي يمكن تحويلها إلى مساحيق. وخلاصة القول، حسب "سارطون"، >إنه لا يمكن معرفة القيمة الحقيقية لما قام به جابر إلا إذا تم تحقيق وتحرير جميع مؤلفاته ونشرها.

مؤلفاته

تعود شهرة جابر بن حيان إلى مؤلفاته العديدة، ومنها :

."كتاب الرسائل السبعين"، ترجمه إلى اللاتينية جيرار الكريموني سنة ١١٨٧م ؛

."كتاب أصول الكيمياء" ؛

."صندوق الحكمة" ؛

." كتاب الملك" ؛

."كتاب الموازين الصغير" ؛

." كتاب الرحمة" ؛

. "كتاب الخواص" ؛

. "كتاب السموم ودفع مضارها".

وتضاف إلى هذه الكتب تصانيف أخرى عديدة تتناول، إلى جانب الكيمياء، شروحاً لكتب أر سطو وأفلاطون ؛ ورسائل في الفلسفة، والتنجيم، والرياضيات، والطب، والموسيقي. وجاء في "الأعلام" للزركلي أن جابراً "له تصانيف كثيرة تتراوح ما بين مائتين واثنين وثلاثين (٢٣٢) وخمسمائة (٥٠٠) كتاب، لكن ضاع أكثرها. وقد ترجمت بعض كتب جابر إلى اللغة اللاتينية في أوائل القرن الثاني عشر، كما ترجم بعضها من اللاتينية إلى الإنجليزية عام ١٦٧٨م. وظل الأوربيون يعتمدون على كتبه لعدة قرون، وقد كان لها أثر كبير في تطوير الكيمياء الحديثة. وفي هذا يقول ماكس مايرهوف : يمكن إرجاع تطور الكيمياء في أوربا إلى جابر ابن حيان بصورة مباشرة. وأكبر دليل على ذلك أن كثيراً من المصطلحات التي ابتكرها ما زالت مستعملة في مختلف اللغات الأوربية.

————————————

الخوارزمي

توفي سنة ٢٣٦هـ - ٨٥٠م

يُعَدُّ الخوارزمي من أكبر علماء العرب، ومن العلماء العالميين الذين كان لهم تأثير كبير على العلوم الرياضية والفلكية. وفي هذا الصدد يقول ألدو مييلي : وإذا انتقلنا إلى الرياضيات والفلك فسنلتقي، منذ البدء، بعلماء من الطراز الأول، ومن أشهر هؤلاء العلماء أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي.

لا يعرف تاريخ ميلاد الخوارزمي، كما أن تاريخ وفاته غير مدقق. وكل ما يعرف عنه أنه ولد في خوارزم (خيوة) (أوزبكستان اليوم) جنوب بحر الآرال، وعاش في بغداد أيام حكم المأمون العباسي، وأن المأمون عينه على رأس خزانة كتبه، وعهد إليه بجمع الكتب اليونانية وترجمتها. وقد استفاد الخوارزمي من الكتب التي كانت متوافرة في خزانة المأمون فدرس الرياضيات، والجغرافية، والفلك، والتاريخ، إضافةً إلى إحاطته بالمعارف اليونانية والهندية.

إسهاماته العلمية

يُعَدُّ الخوارزمي مؤسس علم الجبر كعلم مستقل عن الحساب، وقد أخذه الأوربيون عنه. كما أنه أول من استعمل كلمة "جبر" للعلم المعروف الآن بهذا الاسم. فلحد

الآن ما زال الجبر يعرف باسمه العربي في جميع اللغات الأوربية. وترجع كل الكلمات التي تنتهي في اللغات الأوربية بـ "algorism/algorithme" إلى اسم الخوارزمي. وهو أول من ألف في الجبر. كما يرجع إليه الفضل في تعريف الناس بالأرقام الهندية (وهي التي تعرف بالأرقام العربية). ومن الإسهامات الهامة للخوارزمي في الرياضيات اكتشافه بعض القواعد وتطويرها، ومنها : قاعدة الخطأين، والطريقة الهندسية لحل المربعات المجهولة وهي التي تسمي اليوم باسم المعادلة من الدرجة الثانية، كما نشر الخوارزمي أول الجداول العربية عن المثلثات للجيوب والظلال، وقد ترجمت إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر.

إضافةً إلى إسهاماته الكبرى في الحساب، أبدع الخوارزمي في علم الفلك وأتى ببحوث جديدة في المثلثات، ووضع جداول فلكية (زيجاً). وقد كان لهذا الزيج الأثر الكبير على الجداول الأخرى التي وضعها العرب فيما بعد، إذ استعانوا به واعتمدوا عليه وأخذوا منه.

ومن أهم إسهامات الخوارزمي العلمية التحسينات التي أدخلها على جغرافية بطليموس سواء بالنسبة للنص أو الخرائط.

مؤلفاته

ألف الخوارزمي عدة كتب من أهمها :

. كتاب "الجبر والمقابلة" وهو يعد الأول من نوعه، وقد ألفه بطلب من الخليفة المأمون. وهذا الكتاب >لم يؤد فقط إلى وضع لفظ الجبر وإعطائه مدلوله الحالي، بل إنه افتتح حقاً عصراً جديداً في الرياضيات. وقد ترجم إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر، وكانت هذه الترجمة هي التي أدخلت هذا العلم إلى الغرب. وظل هذا الكتاب قروناً عديدة مرجعاً في أوربا. وقد حققه الأستاذان علي مصطفى مُشَرَّفَة ومحمد مرسي أحمد، ونشر أول مرة في القاهرة سنة ١٩٣٩م.

. "كتاب صورة الأرض"، وهو مخطوط موجود في ستراسبورغ بفرنسا، وقد ترجم إلى اللاتينية، وتمت مقارنة المعلومات الموجودة فيه بمعلومات بطليموس.

. "كتاب العمل بالأسطرلاب" و"كتاب عمل الأسطرلاب".

وخلاصة القول إن الخوارزمي يعد من أعظم العلماء في عصره، وقد >كان له أعظم الفضل في تعريف العرب والأوربيين، من بعدهم، بنظام العدد الهندي. فهو واضع علم الجبر وواضع كثير من البحوث في الحساب والفلك والجغرافيا. وقد عبر ألدو مييلي عن عظمة الخوارزمي بقوله : >وقد افتتح الخوارزمي افتتاحاً باهراً سلسلة من الرياضيين العظام. وقد ظلت كتبه تدرس في الجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر.

ابن ربَّن الطبري

توفي سنة . ٢٤٧هـ . ٨٦١م

اسمه الكامل هو أبو الحسن علي بن سهل ربَّن الطبري. ولد في مرو من أعمال طبرستان سنة ٧٨٠ م ١٦٤ – هـ أوسنة ٧٧٠م . ١٥٣هـ. وهو ينحدر من أسرة فارسية مسيحية حسب كل من ألدو مييلي وابن خلكان ؛ لكنه اعتنق الإسلام على يد المعتصم. ويقول محمد زبير الصديقي محقق كتاب "فردوس الحكمة" : إن المتوكل هو الذي >دعاه إلى الإسلام فلباه واعتنقه، فلقبه بلقب مولى أمير المؤمنين، ولشرف فضله جعله من ندمائه<.

أما لقب ربَّن فيعني الأستاذ حسب ألدو مييلى الذي يقول : >إن اللقب السرياني، ربان، كان مستعملاً عند المسيحيين مطابقاً للفظ : أستاذ عندنا.

وكان والده سهل عالماً بارعاً في الطب، والهندسة، والتنجيم، والرياضيات، والفلسفة. ويقال إنه أول من ترجم إلى العربية كتاب "المجسطي" لبطليموس. وقد تلقى أبو الحسن دراسته الأولى على والده الذي علمه الطب، والهندسة، والفلسفة، إلى جانب اللغتين العربية والسريانية. وبعد وفاة والده تعمق في دراسة الطب وأصبح طبيباً مشهوراً. وقد مارس الطب في مدينة الري، ثم ذهب إلى العراق واستقر بمدينة "سر من رأى (سامراء)، حيث صار كاتباً للخلفاء : المعتصم والواثق والمتوكل.

إسهاماته في الطب

تتجلى الإسهامات العلمية لعلي بن ربَّن في تصنيفه في عدد من المواضيع الطبية التي تطرق لها بتفصيل في كتابه "فردوس الحكمة"، ومنها : وضع المبادئ العامة

للطب، وقواعد الحفاظ على الصحة الجيدة، وذكر بعض الأمراض التي تصيب العضلات، ووصف الحمية للحفاظ على الصحة الجيدة، والوقاية من الأمراض ؛ إضافةً إلى مناقشة جميع الأمراض من الرأس إلى القدم، وأمراض الرأس والدماغ، وأمراض العين، والأنف، والأذن، والفم، والأسنان، وأمراض العضلات، وأمراض الصدر والرئة، وأمراض البطن والكبد والأمعاء، وأنواع الحمى. كما وصف النكهة والطعم واللون، وتعرض للعقاقير والسموم.

مؤلفاته

لعلي بن ربن عدد من الكتب الطبية و أشهرها :

ـ كتاب "فردوس الحكمة"، (٨٥٠م) ٢٣٦هـ وهو عبارة عن موسوعة طبية، تطرق فيه لجميع فروع الطب ؛ إضافةً إلى بحوث في الفلسفة، وعلم النفس، والحيوان، والفلك، والظواهر الجوية. وقد كتبه بالعربية وترجمه في الوقت نفسه إلى اللغة السريانية. ونشرت منه عدة نسخ في بلدان مختلفة. وقام الدكتور محمد زبير الصديقي بتحقيق هذا الكتاب، وقد طبع في الهند عام ١٩٢٨. وفي سنة ١٩٩٦ تم طبع الكتاب ونشره من طرف معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت الألمانية.

ـ "كتاب تحفة الملوك"، و"حفظ الصحة"، و"كتاب في ترتيب الأغذية"، و"منافع الأطعمة والأشربة والعقاقير".

وأضاف الزركلي إلى مؤلفاته كتاب "الدين والدولة" الذي يدافع فيه عن الإسلام.

ـــــــــــــــــــــــــــــ

الفرغاني

توفي بعد سنة ٢٤٧هـ ـ ٨٦١م

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن كثير الفرغاني. ولد في فرغانة وعاش في بغداد أيام المأمون العباسي في القرن التاسع الميلادي. ويعرف عند الأوربيين باسم Alfraganus. ويُعَدُّ من أعظم الفلكيين الذين عملوا مع المأمون وخلفائه. يقول سارطون عنه : >كان مازال على قيد الحياة في ٨٦١م. وهو من معاصري الخوارزمي وبني موسى وسند بن علي.

إسهاماته العلمية

كان الفرغاني عالماً في الفلك وأحكام النجوم ومهندساً. من إسهاماته أنه حدد قطر الأرض بـ ٦٥٠٠ ميل، كما قدر أقطار الكواكب السيارة.

يقول ألدو ميبلي : >والمقاييس التي ذكرها الفرغاني لمسافات الكواكب وحجمها عمل بها كثيرون، دون تغيير تقريباً، حتى كوبرنيكوس. وبذلك فقد كان لهذا العالم الفلكي المسلم تأثير كبير في نهضة علم الفلك في أوربا. وفي سنة ٨٦١ كلفه الخليفة المتوكل على الله بالإشراف على بناء قياس منسوب مياه نهر النيل في الفسطاط، فأشرف عليه وأنجز بناءه وكتب اسمه عليه.

مؤلفاته

ترك الفرغاني عدداً من المؤلفات القيمة، من أشهرها :

ـ كتاب "جوامع علم النجوم والحركات السماوية". وقد ترجمه جيرار الكريموني إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر للميلاد كما ترجم إلى العبرية. وكان له تأثير كبير على علم الفلك في أوربا قبل ريجيومونتانوس Regiomontanus الرياضي الفلكي الذي برز في القرن الخامس عشر الميلادي. وقد طبعت ونشرت ترجمات هذا الكتاب عدة مرات خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين.

ـ كتاب "في الأسطرلاب"، و"كتاب الجمع والتفريق".

ـــــــــــــــــــــــــــــ

سند بن علي

توفي بعد سنة ٢٥٠هـ ـ ٨٦٤م

سند بن علي ويكنى أبا الطيب، عاصر الخليفة العباسي المأمون، يقال إنه نبغ حوالي ٨٥٠م. وحسب "سارطون" فقد توفي بعد سنة ٨٦٤م. وهو فلكي ورياضي مسلم. ويذكر أن "سند" كان يهودياً وأسلم على يد الخليفة المأمون، الذي جعله من بين منجميه، وعينه رئيساً على الأرصاد كلها.

إسهاماته

يعود الفضل إلى سند في إنشاء مرصد بغداد، كما أنه وضع جداول فلكية أطلق عليها اسم "أزياج المأمون"، عمل بها المنجمون في زمانه وبعده. واشتهر بصناعة

آلات الرصد الفلكية والأسطرلاب، كما أنه حقق مواضع بعض الكواكب. وشارك في قياس المساحات الأرضية والفلكية التي أمر بها المأمون.

مؤلفاته

كان سند بن علي، إضافةً إلى اهتمامه بالأرصاد، يهتم بالعلوم الرياضية ؛ وله فيها مؤلفات عديدة منها :

ـ " كتاب الحساب الهندي" ؛

ـ " كتاب الجمع والتفريق" ؛

ـ " كتاب الجبر والمفارقة" ؛

ـ " كتاب المنفصلات والمتوسطات" في النجوم والحساب.

إضافةً إلى ذلك، فَسَّرَ "سند" تسع مقالات من كتاب "الأصول في الهندسة" لإقليدس

———————————

بنو موسى بن شاكر

توفي محمد سنة ٢٥٩هـ . ٨٧٢م

عاش موسى بن شاكر في بغداد زمن الخليفة العباسي المأمون، وكان من المقربين من الخليفة، وقد اهتم بالفلك والتنجيم. وعندما توفي موسى بن شاكر، ترك أولاده الثلاثة صغاراً فرعاهم المأمون، وكلف إسحاق بن إبراهيم المصعبي بالعناية بهم. فأدخلهم إسحاق إلى بيت الحكمة الذي كان يحتوي على مكتبة كبيرة وعلى مرصد فلكي، إضافةً إلى القيام بترجمة الأعمال الفلسفية والعلمية من اليونانية. فنشأ بنو موسى في هذا الوسط العلمي وأصبحوا أبرز علماء بيت الحكمة. وقد اشتهر الأبناء الثلاثة، وهم محمد وأحمد والحسن باسم بنو موسى، أو الإخوة الثلاثة. وقد كان أكبرهم أبو جعفر محمد عالماً بالهندسة والنجوم و"المجسطي" ؛ وكان أحمد متعمقاً في صناعة الحيل (الهندسة الميكانيكية) وأجاد فيها، وتمكن من الابتكار فيه ؛ أما الحسن فكان متعمقاً في الهندسة. توفي أكبرهم سنة ٨٧٢م . ٢٥٩هـ.

إسهاماتهم العلمية

كان بنو موسى مبرزين في العلوم الرياضية، والفلكية، والميكانيكية، والهندسية؛ وأسهموا في تطويرها بفضل اختراعاتهم واكتشافاتهم المهمة.

فقد ظهرت إسهاماتهم العلمية في مجال الميكانيكا في اختراع عدد من الأدوات العملية والآلات المتحركة، حيث ابتكروا عدداً من الآلات الفلاحية، والنافورات التي تظهر صوراً متعددة بالمياه الصاعدة، كما صنعوا عدداً من الآلات المنزلية، ولعب الأطفال، وبعض الآلات المتحركة لجر الأثقال، أو رفعها أو وزنها.

وفي الرياضيات، "كان لبني موسى باع طويل بشكل عام. كما أنهم استخدموا هذه المعارف الرياضية في أمور عملية، من ذلك أنهم استعملوا الطريقة المعروفة في إنشاء الشكل الأهليليجي (elliptic).

والطريقة هي أن تغرز دبوسين في نقطتين، وأن تأخذ خيطاً طوله أكثر من ضعف البعد بين النقطتين، ثم بعد ذلك تربط هذا الخيط من طرفيه وتضعه حول الدبوسين وتدخل فيه قلم رصاص، فعند إدارة القلم يتكون الشكل الأهليليجي.

أما في مجال الفلك، فقد حسب بنو موسى الحركة المتوسطة للشمس في السنة الفارسية، ووضعوا تقويمات لمواضع الكواكب السيارة، و مارسوا مراقبة الأرصاد وسجلوها.

كما لعب بنو موسى دوراً مهماً في تطوير العلوم الرياضية، والفلكية، والهندسية وذلك من خلال مؤلفاتهم ؛ ومن خلال رعايتهم لحركة الترجمة والإنفاق على المترجمين والعلماء. وفي هذا الصدد تقول المؤلفة الألمانية زغريد هونكة عن بني موسى : >وقد قاموا بإيفاد الرسل على نفقتهم الخاصة إلى الإمبراطورية البيزنطية بحثاً عن المخطوطات الفلسفية، والفلكية، والرياضية، والطبية القديمة، ولم يتوانوا عن دفع المبالغ الطائلة لشراء الآثار اليونانية وحملها إلى بيتهم... وفي الدار التي قدمها لهم المتوكل على مقربة من قصره في سامراء، كان يعمل، دون إبطاء، فريق كبير من المترجمين من أنحاء البلاد....

مؤلفاتهم

كتب بنو موسى في علوم عدة مثل الهندسة، والمساحة، والمخروطات، والفلك، والميكانيكا، والرياضيات. ومن مؤلفاتهم :

- "كتاب الحيل"، وهو أشهر كتبهم، جمعوا فيه علم الميكانيكا القديمة، وتجاربهم الخاصة. يقول أحمد يوسف حسن محقق هذا الكتاب، إن الاهتمام بكتاب الحيل بدأ

في الغرب منذ نهاية القرن التاسع عشر، ولكن الدراسات الجادة لم تظهر إلا مع بداية القرن العشرين، وذلك عندما نشر كل من فيديمان وهاو سر مقالات حول هذا الكتاب. وفي سنة ١٩٧٩ قام هيل (Hill) بترجمة الكتاب إلى الإنجليزية. وفي سنة ١٩٨١ نشر معهد التراث العلمي العربي في سوريا "كتاب الحيل" بعد أن قام الدكتور أحمد يوسف حسن وآخرون بتحقيقه.

- " كتاب مساحة الأكر" ؛
- "كتاب قسمة الزوايا إلى ثلاثة أقسام متساوية"، ترجمه جيرارد كريموني إلى اللاتينية ؛
- " كتاب الشكل المدور والمستطيل" ؛
- "كتاب الشكل الهندسي" ؛
- "كتاب حركة الفلك الأولى".

وتجب الإشارة إلى أن بني موسى قد تعاونوا فيما بينهم لدرجة يصعب معها التمييز بين العمل الذي قام به كل واحد منهم. لكن المهم هو أنهم لعبوا دوراً مهماً في تطوير علوم الرياضيات، والفلك، والهندسة ؛ و أثروا في عصرهم تأثيراً كبيراً.

الكندي

٢٦٠-١٧٥هـ/٨٧٣-٨٠٠م

يلقب الكندي بفيلسوف العرب، ويعد <من الإثني عشر عبقرياً الذين هم من الطراز الأول في الذكاء وهو عالم موسوعي، فإضافةً إلى شهرته كفيلسوف، فقد كان عالماً بالرياضيات، والفلك، والفيزياء، والطب، والصيدلة، والجغرافيا.

واسمه الكامل هو يعقوب بن إسحاق ابن الصباح الكندي، أبو يوسف. وهو من قبيلة كنده. ويعرف عند اللاتينيين باسم Alkindus ولد بالكوفة، وكان والده أميراً عليها.

نشأ الكندي في البصرة ودرس بها، ثم أتم تحصيله على يد أشهر العلماء في بغداد. وكانت له معرفة واسعة بالعلوم والفلسفة اليونانية. عاصر ثلاثة من الخلفاء العباسيين وهم المأمون، والمعتصم، والمتوكل. كما عاصر الإخوة الفلكيين الثلاثة بنو موسى، والفلكي سند بن علي. وقد بلغ منزلة كبيرة عند المأمون والمعتصم، حتى إن المأمون

عهد إليه بترجمة مؤلفات أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان. كما أن المتوكل استخدمه كخطاط، لكن نظراً لآرائه الفلسفية ووشاية بعض الحاسدين به، فقد أمر المتوكل بمصادرة جميع كتبه ؛ غير أنها أعيدت إليه جميعها.

إسهاماته العلمية

كتب أربعة كتب عن استعمال الأرقام الهندية. كما قدم الكثير في مجال الهندسة الكروية لمساعدته في دراساته الفلكية.

راقب أوضاع النجوم والكواكب . خاصة الشمس والقمر . بالنسبة للأرض، وما لها من تأثير طبيعي وما ينشأ عنها من ظواهر. وأتى بآراء خطيرة وجريئة في هذه البحوث، وفي نشأة الحياة على ظهر الأرض، مما جعل الكثيرين من العلماء يعترفون بأن الكندي مفكر عميق من الطراز الرفيع.

أما في الكيمياء فقد عارض الفكرة القائلة بإمكانية استخراج المعادن الكريمة أو الثمينة كالذهب، من المعادن الخسيسة. وكتب في ذلك رسالة سماها "رسالة في بطلان دعوى المدعين صنعة الذهب والفضة وخدعهم".

أما في الفلك، فلم يكن الكندي يؤمن بأثر الكواكب في أحوال الناس، ورفض ما يقول به المنجمون من التنبؤات القائمة على حركات الأجرام. ووجه اهتمامه إلى الدراسة العلمية للفلك وعلم النجوم وأرصادها. ويعدّه بعض المؤرخين واحداً من ثمانية أئمة لعلوم الفلك في القرون الوسطى.

وقدم الكندي في علم الفيزياء الكثير في البصريات الهندسية والفيزيولوجية، وألف فيها كتاباً كان له تأثير فيما بعد على روجر بيكون (Roger Bacon) ووايتلو (Witelo) وغيرهما.

كما أن الكندي كان مهندساً بارعاً، يرجع إلى مؤلفاته ونظرياته عند القيام بأعمال البناء، خاصة بناء القنوات، كما حدث عند حفر القنوات بين دجلة والفرات.

وتتجلى إسهاماته في الطب في محاولته تحديد مقادير الأدوية على أسس رياضية. وبذلك يكون الكندي هو "أول من حدد بشكل منظم جرعات جميع الأدوية المعروفة في أيامه".

مؤلفاته

ألف الكندي وشرح كتباً كثيرة، اختلف في تقدير عددها ما بين ٢٣٠، و٢٧٠، و٣٠٠ ما بين رسالة وكتاب ؛ تناولت مواضيع مختلفة منها الفلسفة، والفلك، والحساب، والهندسة، والطب، والفيزياء، والمنطق، والمد والجزر، وعلم المعادن، وأنواع الجواهر، وأنواع الحديد، والسيوف. كما كان من أوائل مترجمي مؤلفات اليونان إلى العربية.

وسنكتفي، فقط، بذكر بعض مؤلفاته، وذلك استناداً إلى ما ذكره كل من طوقان والزركلي :

- "رسالة في المدخل إلى الأرثماطيقى : خمس مقالات" ؛
- "كتاب رسالة في استعمال الحساب الهندسي : أربع مقالات" ؛
- "رسالة في علل الأوضاع النجومية" ؛
- "رسالة في صنعة الإسطرلاب" ؛
- "رسالة في التنجيم" ؛
- "إلهيات أرسطو" ؛
- "الأدوية المركبة" ؛
- "رسالة في الموسيقي" ؛
- "المد والجزر" ؛
- "السيوف وأجناسها".

وقد ترجم "جيرار الكريموني" في القرن الثاني عشر للميلاد، معظم كتب الكندي إلى اللغة اللاتينية.فكان لها تأثير كبير على تطور علوم كثيرة على امتداد عدة قرون.

الرازي

٣١٣-٢٥١هـ/٩٢٥-٨٦٥م

هو محمد بن زكريا الرازي، أبو بكر، ويعرف عند اللاتينيين باسم Rhazes. طبيب، وكيماوي، وفيلسوف مسلم. وقد أجمع المؤرخون على أن الرازي أعظم أطباء الإسلام، وأشهر أطباء القرون الوسطى، "وأحد مشاهير أطباء العالم في كل زمن... كان واسع

الإطلاع إلى درجة الإحاطة بكل علم وفن". وقد وصفه ابن خلكان بأنه : >كان إمام وقته في علم الطب والمشار إليه في ذلك العصر، وكان متقناً لهذه الصناعة، حاذقاً فيها، عارفاً بأوضاعها وقوانينها، تشد إليه الرحال في أخذها عنه".

ولد الرازي في الري جنوب طهران. درس الرياضيات، والفلك، والفلسفة، والكيمياء، والمنطق، والأدب. ثم درس الطب على يد إسحاق بن حنين، الذي كان متضلعاً في الطب اليوناني، والفارسي، والهندي. ورغم أنه درس الطب بعد أن تجاوز الأربعين من عمره، فقد حقق فيه إنجازات مهمة ونال فيه شهرة واسعة. وقد عمل رئيساً لبيمارستان الري، ثم رئيساً لبيمارستان بغداد الذي أمر ببنائه الخليفة العباسي المقتدر.

إسهامات الرازي في الطب

إن إسهامات الرازي في الطب كثيرة ومتنوعة، ولذا سنكتفي بالإشارة إلى البعض منها، ونذكر من ذلك اهتمامه بالملاحظات السريرية التي تتعلق بدراسة سير المرض مع العلاج المستعمل، وتطور حالة المريض ونتيجة العلاج(٥). كما أنه سبق إلى الاهتمام بالأحوال النفسية في تشخيص الأمراض، وكان يرى أن بعض أمراض الجهاز البطني تكون ناتجة بالدرجة الأولى عن أسباب نفسية. ويعتبر تشخيص مرض الجذري ومرض الحصبة من أعظم منجزات الرازي الطبية، فقد وصف المرضين وصفاً دقيقاً، خاصة فيما يتعلق بأعراضهما الأولية وطريقة علاجهما. وكان يؤكد على أهمية الممارسة والخبرة والتجربة في علاج المرضى، كما كان يجرب العقاقير الجديدة على الحيوان قبل أن يصفها للمرضى.

ويعترف الغربيون بابتكارات الرازي في أمراض النساء والولادة، وفي الأمراض التناسلية، وجراحة العيون. كما تعرض لشلل الوجه وأسبابه، وميز بين الشلل الناتج عن سبب مركزي في الدماغ، والناتج عن سبب محلي، ووصف تشعب الأعصاب في القفص الصدري.كما أن الرازى من أوائل الذين طبقوا معلوماتهم في الكيمياء على الطب، وممن ينسبون شفاء المريض إلى تفاعل كيماوي في جسمه.

إسهاماته في الكيمياء

لم يكن الرازي طبيباً عظيماً فحسب، بل كان أيضاً كيماوياً ذا مقام رفيع. وهو أحد الأوائل الذين جعلوا من الكيمياء علماً صحيحاً. ويعدّه بعض الباحثين مؤسس الكيمياء الحديثة. قام بتجارب كيماوية مهمة، حيث استحضر بعض الحوامض، ولا تزال الطرق التي اتبعها في ذلك مستعملة حتى الآن. فهو أول من ذكر حامض الكبريتيك، وقد سماه "زيت الزاج" أو "الزاج الأخضر". واستخرج الكحول باستقطار مواد نشوية وسكرية مختمرة، وكان يستعمله في الصيدليات، لاستخراج الأدوية والعلاجات. ويتجلى فضل الرازي على الكيمياء بصفة واضحة، في تصنيفه للمواد الكيماوية إلى ثلاثة أصناف : نباتية، وحيوانية، ومعدنية ؛ وهذا التصنيف ما زال حتى الآن ثابتاً في العلم الحديث.

مؤلفاته

ألف الرازي مجموعة من التصانيف، يذكر البعض أنها تزيد عن المائتين والعشرين مؤلفاً، لكن أغلبها ضاع ولم يبق منها إلا القليل.

ففي الطب، ألف الرازي العديد من الكتب المهمة، وهي تشتمل إضافةً إلى أبحاثه المبتكرة، علوم اليونان والهنود. ومن أشهر هذه الكتب :

ـ كتاب "الحاوي" : يعتبر هذا المؤلف من أشهر ما كتبه الرازي. وهو أكبر موسوعة طبية عربية، جمع فيها الرازي، مقتطفات أخذها من الأطباء الإغريق والعرب، وأضاف إليها النتائج التي توصل إليها من تجاربه وآرائه الخاصة. وقد ترجمه إلى اللاتينية، الطبيب اليهودي "فرج بن سالم" بأمر من شارل الأول ملك صقلية (سنة ١٢٧٩م)، واستبدلت بكلمة "الحاوي" مقابلها باليونانية 'Continens' وترجم مرات عديدة في أوربا حتى سنة ١٥٤٢م. واعتمد عليه كبار علماء أوربا، وأخذوا منه الشيء الكثير، وبقي مرجعهم في مدارسهم وجامعاتهم حتى القرن السادس عشر.

ـ "كتاب الجذري والحصبة" : يشتمل على صورة مفصلة ودقيقة عن هذين المرضين وعن طرق علاجهما. وقد ترجم إلى اللاتينية بالبندقية سنة ١٥٦٥، ثم ترجم إلى عدة لغات أوربية، ونشر في أوربا أربعين مرة ما بين ١٤٩٨ و١٨٦٦.

ـ "طب الفقراء" : وهو عبارة عن قاموس شعبي يصف فيه كل الأمراض وظواهرها، وطرق علاجها، بالأغذية الرخيصة بدلاً من شراء الأدوية المرتفعة الثمن والتراكيب النادرة.

ـ كتاب "المنصوري" : سماه المنصوري نسبة إلى المنصور بن إسحاق حاكم خراسان. تناول فيه موضوعات طبية متعددة كالجراحة، وأمراض العيون، وأمراض البطن. نشر لأول مرة في ميلانو سنة ١٤٨١م. وترجم إلى اللاتينية، وظل معتمداً من قبل الأطباء في الجامعات الأوروبية حتى القرن السابع عشر للميلاد.

ومن أشهر كتبه في الكيمياء، نذكر :

ـ كتاب : "الأسرار في الكيمياء" : يصف الرازي في هذا الكتاب الطريقة التي يتبعها في القيام بتجاربه الكيماوية، وكيفية تحضير المواد الكيماوية، وكيفية استعمالها ؛ كما يصف الآلات والأدوات التي كان يستعملها.

ومن أشهر كتبه في الفلك :

ـ "كتاب هيئة العالم": يبرهن الرازي في هذا الكتاب : "على أن الأرض تدور حول محورين، وبأن الشمس أكبر حجماً من الأرض والقمر أصغر حجماً منها".

وللرازى كتب أخرى في الطب، و الصيدلة، والفلك والرياضيات، والفيزياء، والمنطق، والفلسفة، والعلوم الشرعية.

وخلاصة القول، إن الرازي قد أسهم، بفضل كتاباته واختراعاته، إسهاماً فعالاً في تقدم الطب والكيمياء، وتطور البحوث فيهما، وظلت كتبه مرجعاً في الطب في الجامعات الأوروبية حتى القرن السابع عشر.

البتاني

٢٤٤-٣١٧هـ/٨٥٨-٩٢٩م

هو أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان الرقي الحراني، المعروف بالبتاني. كنى بالرقي، نسبة إلى "الرقة" بلدة على نهر الفرات. ويعرف البتاني عند الغربيين في العصور الوسطى باسم Albategnius أو Albategni.

ولد البتاني في "بتان" من نواحي حران الواقعة على أحد روافد نهر الفرات بالعراق، وتاريخ ولادته غير معروف بدقة، إلا أن المرجح أنه ولد سنة ٢٤٤هـ/ ٨٥٨م. وإذا كان هناك شك في تاريخ ميلاده، "فقد أجمع المؤرخون على أن تاريخ وفاته كان عام ٣١٧هـ/٩٢٩م"، قرب مدينة الموصل في العراق. ويعدّ البتاني من أكبر علماء الفلك عند العرب، فقد أوقف حياته على رصد الأفلاك من عام ٢٦٤هـ حتى وفاته. درس في البداية على يد والده جابر البتاني الذي كان بدوره عالماً مشهوراً، ثم انتقل إلى "الرقة" حيث انكب على دراسة مؤلفات من سبقوه، وخاصة مؤلفات "بطليموس"، ثم انتقل إلى ميدان البحث في الفلك، والمثلثات، والجبر، والهندسة، والجغرافيا. وقد عاش حياته العلمية متنقلاً بين "الرقة" و"إنطاكية" في سوريا، وبها أنشأ مرصداً يحمل اسمه (مرصد البتاني).

وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية، أن البتاني يعدّ أحد المشهورين برصد الكواكب والمتقدمين في علم الهندسة، وهيئة الأفلاك، وحساب النجوم. كما يجمع علماء الإفرنج على أن البتاني كان في علمه أسمى مكانة من الفلكي الإغريقي بطليموس. "وقال لالاند Lalande الفلكي الفرنسي، إن البتاني من الفلكيين العشرين الأئمة الذين ظهروا في العالم كله".

وذكر قدري طوقان في كتابه "تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك" أن "كاجوري" و"هاليه"يعدّان البتاني من أقدر علماء الرصد، وسماه بعض الباحثين "بطليموس العرب". كما وصفه جورج سارطون بأنه أعظم فلكيي جنسه وزمنه، ومن أعظم علماء الإسلام.

إسهاماته في الفلك

من أهم إسهامات البتاني في علم الفلك اكتشافه السمت azimuth والنظير nadir، وتحديد نقطتيهما في السماء ؛ كما أنه حدد بدقة ميل الدائرة الكسوفية، وطول السنة المدارية، والفصول، والمدار الحقيقي والمتوسط للشمس. وخالف بطليموس في ثبات الأوج الشمسي، وبرهن على تبعيته لحركة المبادرة الاعتدالية. وله أرصاد دقيقة للكسوف والخسوف اعتمد عليها الغربيون (دنثورن Dunthorne سنة ١٧٤٩م) في تحديد تسارع حركة القمر في حركته خلال قرن من الزمن.

أما أهم أرصاده، فهي تصحيح حركات القمر والكواكب، ووضع جداول جديدة لموقعها، إضافةً إلى تحقيق مواقع عدد كبير من النجوم ضمنها زيجه الشهير الذي اعتمد عليه علماء الفلك قروناً عدة.

ويعترف "نللينو" بأنه استنبط نظرية جديدة "تشف عن شيء كثير من الحذق وسعة الحيلة لبيان الأحوال التي يرى فيها القمر عند ولادته".

إسهاماته في الرياضيات

يُعَدّ البتاني من أوائل العرب الذين استعملوا الجيب بدل الوتر، كما أنه استعمل الظل وظل التمام في المثلث الكروي، وبحث بعض المسائل التي عالجها اليونان بالطرق الهندسية وحاول حلها بالجبر. والبتاني من الذين أسسوا علم المثلثات، ومن الذين عملوا على توسيع نطاقها.

مؤلفاته

نذكر من مؤلفاته المهمة :

١. كتاب "زيج الصابي" وهو أهم مؤلفات البتاني جميعاً، وهو يحتوي على نتائج أرصاده للكواكب الثابتة لسنة ٢٩٩هـ، وجداول تتعلق بحركات الأجرام التي هي من اكتشافاته الخاصة، وما قام به من الأعمال الفلكية المختلفة التي امتدت طوال اثنتين وأربعين سنة، من سنة ٢٦٤ إلى ٣٠٦هـ، فقد كان أول زيج (الزيج هو لفظ يطلق على الجداول الفلكية القديمة، وأصل اللفظ فارسي) يحتوي على معلومات صحيحة دقيقة. وكان للكتاب أثر بالغ في تقدم علم الفلك والرياضيات سواء خلال النهضة العربية الإسلامية أو عند بداية النهضة الأوربية. فقد اعتمد عليه كثير من علماء العرب في حساباتهم، كما قام بعضهم باقتباس بعض محتوياته أو تفسيرها.

وقد ترجمه إلى اللاتينية بلاتوف تيفوك Platoof Tivok في القرن الثاني عشر الميلادي باسم "Sciencia de Sttellarum" ويقابلها في اللغة الإنجليزية "Science of Stars" أو علم النجوم. وطبع في نورمبرغ عام ١٥٣٧م. وفي القرن الثالث عشر الميلادي، أمر ألفونس العاشر ملك قشتالة بأن يترجم هذا الزيج من العربية إلى الإسبانية مباشرة. ويوجد مخطوط غير كامل لهذه الترجمة في باريس. كما توجد نسخة من هذا الكتاب في مكتبة الفاتيكان. وقد نشر كارلو نللينو بروما

١٨٩٩-١٩٠٧ طبعة للأصل العربي منقولاً عن النسخة الموجودة بمكتبة الأسكريال في ثلاثة مجلدات مصحوبة بترجمة لاتينية وتعليق على بعض الموضوعات.

٢. "كتاب معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك"، يتناول البتاني في هذا المؤلف الحل الرياضي للمسألة التنجيمية لاتجاه الراصد.

٣. "رسالة في مقدار الاتصالات".

٤. "رسالة في تحقيق أقدار الاتصالات".

وقد تناول البتاني في هاتين الرسالتين موضوع اتفاق كوكبين في خط الطول أو في خط العرض السماوي، سواء أكانا على فلك البروج، أو كان أحدهما أو كلاهما خارج هذه الدائرة.

٥. "شرح المقالات الأربع لبطليموس"، وهي أربع مقالات ذيل بها بطليموس كتابه "المجسطي" عالج فيها مسائل التنجيم وتأثير النجوم على المسائل الدنيوية.

٦. "كتاب تعديل الكواكب"، بحث البتاني في هذا الكتاب الفرق بين حركات الكواكب في مساراتها باعتبارها ثابتة المقدار، وبين حركاتها الحقيقية التي تختلف من موضع لآخر.

وخلاصة القول إن البتاني من عباقرة العالم الذين وضعوا نظريات هامة، وأسهموا في إغناء التراث العلمي للإنسانية بإضافة أبحاث جديدة في الفلك، والجبر، والمثلثات. فقد اشتهر برصد الكواكب والأجرام السماوية، وتمكن من القيام بأرصاد ما زالت تحظى باهتمام العلماء وتثير إعجابهم

. الفارابى

٢٥٧-٣٣٩هـ/٨٧٠-٩٥٠م

"كان الفارابي فيلسوفاً ورياضياً فذاً ذائع الصيت، بالإضافة إلى كونه موسيقياً بارعاً".

وهو محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ، أبو نصر الفارابي، ويعرف بالمعلم الثاني لدراسته كتب أرسطو (المعلم الأول) وشرحه لها. ويعرف الفارابي في اللاتينية باسم Alpharabius. ولد في مدينة "فاراب" في تركستان حيث كان والده تركياً من قواد الجيش. ويقول الدكتور علي عبد الواحد وافي : >إنه لا يعرف شيء يقيني عن

طفولة الفارابي الأولى أو مراحل حياته التالية<. وكل ما يعرف عنه أنه درس في مسقط رأسه مجموعة من المواد المختلفة كالعلوم، والرياضيات، والآداب، والفلسفة، واللغات خاصة التركية، والفارسية، واليونانية، والعربية. وفي سن متقدمة، غادر مسقط رأسه وذهب إلى العراق لمتابعة دراساته العليا، فدرس الفلسفة، والمنطق، والطب على يد الطبيب المسيحي يوحنا بن حيلان، كما درس العلوم اللسانية العربية والموسيقي. ومن العراق انتقل إلى مصر والشام، حيث التحق بقصر سيف الدولة في حلب واحتل مكانة بارزة بين العلماء، والأدباء، والفلاسفة.

وبعد حياة حافلة بالعطاء في شتى علوم المعرفة طوال ثمانين سنة، توفي الفارابي أعزب، بمدينة دمشق سنة ٣٣٩هـ/٩٥٠م.

إسهاماته العلمية

يعدّ الفارابي أكبر فلاسفة المسلمين. وقد أطلق عليه معاصروه لقب "المعلم الثاني" لاهتمامه الكبير بمؤلفات أرسطو "المعلم الأول"، وتفسيرها، وإضافة الحواشي والتعليقات عليها. ومن خصائص فلسفة الفارابي أنه حاول التوفيق من جهة، بين فلسفة أرسطو وفلسفة أفلاطون، ومن جهة أخرى بين الدين والفلسفة. كما أنه أدخل مذهب الفيض في الفلسفة الإسلامية ووضع بدايات التصوف الفلسفي.

ورغم شهرة الفارابي في الفلسفة والمنطق، فقد كانت له إسهامات مهمة في علوم أخرى كالرياضيات والطب والفيزياء. فقد برهن في الفيزياء على وجود الفراغ. وتتجلى أهم إسهاماته العلمية في كتابه "إحصاء العلوم" الذي وضع فيه المبادئ الأساس للعلوم وتصنيفها ؛ حيث صنف العلوم إلى مجموعات وفروع، وبين مواضيع كل فرع وفوائده.

وبجانب إسهامات الفارابي في الفلسفة، فقد برز في الموسيقى. وكانت رسالته فيها النواة الأولى لفكرة اللوغارتم حسب ما جاء في كتاب "تراث الإسلام"، حيث يقول كارا دي فو Carra de Vaux : >أما الفارابي الأستاذ الثاني بعد أر سطو وأحد أساطين الأفلاطونية الحديثة ذو العقلية التي وعت فلسفة الأقدمين، فقد كتب رسالة جليلة في الموسيقى وهو الفن الذي برز فيه، نجد فيها أول جرثومة لفكرة النسب (اللوغارتم)، ومنها نعرف علاقة الرياضيات بالموسيقى<. وتؤكد زغريد هونكه الفكرة نفسها حين

تقول : >إن اهتمام الفارابي بالموسيقى ومبادئ النغم والإيقاع قد قربه قاب قوسين أو أدنى من علم اللوغارتم الذي يكمن بصورة مصغرة في كتابه عناصر فن الموسيقى<.

مؤلفاته

من بين أهم الشروح والكتب التي ألفها الفارابي في العلوم نذكر ما يلي :

ـ شرح كتاب "المجسطي" في علم الهيئة لبطليموس ؛

ـ شرح المقالتين الأولى والخامسة من كتاب إقليدس في الهندسة ؛

ـ كتاب في المدخل إلى الهندسة الوهمية ؛

ـ كلام في حركة الفلك ؛

ـ مقالة في صناعة الكيمياء ؛

ـ كتاب إحصاء العلوم : قسم الفارابي، في هذا الكتاب، العلوم، إلى ثماني مجموعات، ثم ذكر فروع كل مجموعة، وموضوع كل فرع منها، وأغراضه، وفوائده. ترجمه جيرار الكريموني إلى اللاتينية.

ـ صناعة علم الموسيقى : شرح فيه الفارابي مبادئ النغم والإيقاع.

وللفارابي عدد كبير من المؤلفات الأخرى في الفلسفة والمنطق ومن أشهرها :

ـ "آراء أهل المدينة الفاضلة" ؛

ـ "الجمع بين رأى الحكيمين أفلاطون الإلهي و أرسطوطاليس" : وهو كتاب يوفق فيه الفارابي بين آراء أفلاطون وأرسطو.

>وأكثر الكتب التي ألفها الفارابي، إما أنها فقدت أو أنها لا تزال في الخزائن والمكتبات، والمعروف منها إلى الآن قليل، إذا قيس بمجموع ما كتبه في شتى العلوم والفنون<.

ـــــــــــــــــــــــــ

. عبد الرحمن الصوفي

٣٧٦-٢٩١هـ/٩٨٦-٩٠٣م

أبو الحسن عبد الرحمن بن عمر بن سهل الصوفي الرازي. ولد بالري، وكان من كبار علماء الفلك والتنجيم. وهو من أعظم فلكيي الإسلام، على حد تعبير المؤرخ

جورج سارطون. وقد كان صديقاً للخليفة البويهي عضد الدولة الذي اتخذه منجماً ومعلماً له لمعرفة مواضع النجوم الثابتة وحركاتها.

إسهاماته العلمية

قدم الصوفي في علم الفلك إسهامات مهمة تتجلى في المنجزات التالية : رَصَدَ النجوم، وعدَّها وحدد أبعادها عرضاً وطولاً في السماء، واكتشف نجوماً ثابتة لم يسبقه إليها أحد من قبل. ثم رسم خريطة للسماء حسب فيها مواضع النجوم الثابتة، وأحجامها، ودرجة شعاع كل منها. ووضع فهرساً للنجوم لتصحيح أخطاء من سبقوه. وقد اعترف الأوربيون بدقة ملاحظاته الفلكية حيث يصفه ألدومييلي بأنه <من أعظم الفلكيين العرب الذين ندين لهم بسلسلة دقيقة من الملاحظات المباشرة<، ثم يتابع قائلاً : <ولم يقتصر هذا الفلكي العظيم على تعيين كثير من الكواكب التي لا توجد عند بطليموس، بل صحح أيضاً كثيراً من الملاحظات التي أخطأ فيها، ومكن بذلك الفلكيين المحدثين من التعرف على الكواكب التي حدد لها الفلكي اليوناني مراكز غير دقيقة<.

مؤلفاته

ـ "كتاب الكواكب الثابتة" : يعدّه سارطون أحد الكتب الرئيسة الثلاثة التي اشتهرت في علم الفلك عند المسلمين. أما الكتابان الآخران، فأحدهما لابن يونس، والآخر لألغ بك. ويتميز كتاب الكواكب الثابتة بالرسوم الملونة للأبراج والصور السماوية.

ـ "رسالة العمل بالأسطرلاب" ؛

ـ "كتاب التذكرة" ؛

ـ "كتاب مطارح الشعاعات" ؛

ـ "كتاب الأرجوزة في الكواكب الثابتة".

وتوجد نسخ من بعض هذه المؤلفات في مكتبات عدد من الدول مثل الأسكوريال بمدريد، وباريس، وأكسفورد

. أبو الوفاء البوزجاني

٣٢٨-٣٨٧هـ/٩٤٠-٩٩٨م

أبو الوفاء محمد بن محمد بن يحيى بن إسماعيل بن العباس البوزجاني. وهو مهندس، وفلكي، ورياضي. وقد وصفه سارطون بأنه من أعظم الرياضيين في الإسلام.

ولد أبو الوفاء في "بوزجان" بخرا سان سنة (٣٢٨هـ/٩٤٠م). درس الرياضيات على عمه أبو عمر المغازلي، وخاله المعروف باسم أبي عبد الله محمد بن عنبة، كما درس الهندسة على أبي يحيى الماوردي، وأبي العلاء بن كرنيب. وفي سنة ٣٤٨هـ/٩٥٩ للميلاد ذهب إلى العراق وعاش في بغداد حتى وفاته (٣٨٧هـ/٩٩٨م). وقد أمضى حياته في بغداد في التأليف والرصد والتدريس. وأصبح عضواً في المرصد الذي أنشأه شرف الدولة سنة ٣٧٧هـ.

إسهاماته العلمية

كان أبو الوفاء من العلماء البارزين في الفلك والرياضيات. كما اعترف كثير من العلماء الغربيين بأنه من أشهر الذين برعوا في الهندسة.

وترجع أهمية البوزجاني إلى إسهامه في تقدم علم حساب المثلثات، حيث يعترف "كارادي فو" بأن الخدمات التي قدمها أبو الوفاء لعلم المثلثات لا يمكن أن يجادل فيها، فبفضله أصبح هذا العلم أكثر بساطة ووضوحاً. فقد استعمل القاطع وقاطع التمام، وأوجد طريقة جديدة لحساب الجيب. كما أنه أول من أثبت القانون العام للجيوب في المثلثات الكروية.

أما في الهندسة، فقد كان أبو الوفاء عالماً عبقرياً، حيث عالج عدداً من المسائل بخبرة كبيرة.

مؤلفاته

ترك البوزجاني مؤلفات قيمة منها :

١. "كتاب فيما يحتاج إليه الكتاب والعمال من علم الحساب"، وهو كتاب في الحساب. وتوجد منه نسختان ناقصتان في كل من ليدن بهولندا، والقاهرة.

٢. "كتاب الكامل"، وتوجد منه نسخة ناقصة بباريس. وقد ترجم "كارادي فو" بعض أجزائه.

٣. "كتاب فيما يحتاج إليه الصناع في أعمال الهندسة"، وقد كتبه أبو الوفاء بأمر من "بهاء الدولة". وتوجد نسخة منه في مكتبة جامع أيا صوفيا في استانبول.

٤. "كتاب المجسطي" وهو من أشهر مؤلفاته، وتوجد نسخة ناقصة منه في مكتبة باريس الوطنية.

٥. "كتاب الهندسة".

وإضافة إلى هذه المؤلفات، فقد كتب أبو الوفاء شروحاً وتعليقات على أقليدس، وديو فنطيس، والخوارزمي، إلا أن هذه الأعمال ضاعت.

وخلاصة القول إن بحوث البوزجاني ومؤلفاته كان لها تأثير كبير على تقدم العلوم، وبصفة خاصة على علم الفلك وعلم المثلثات. كما يُعدّ من الذين مهدوا الطريق لظهور الهندسة التحليلية، وذلك بإيجاده حلولاً هندسية لبعض المعاملات والأعمال الجبرية

____

. المجريطي

٣٣٨ . ٣٩٨هـ / ٩٥٠ .١٠٠٧م

"كان المجريطي إمام الرياضيين بالأندلس، وأوسعهم إحاطة بعلم الأفلاك وحركات النجوم". وهو أبو القاسم مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبد الله المجريطي، ولد في مدريد بإسبانيا سنة ٣٣٨هـ/٩٥٠م. وعاش في قرطبة، وتوفي بها سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م.

سافر إلى الشرق واتصل بعلماء العرب والمسلمين وتداول معهم في ما توصل إليه من أبحاثه في الرياضيات وعلم الفلك. وبنى مدرسة في قرطبة تتلمذ عليه فيها عدد من كبار علماء الرياضيات، والفلك، والطب، والفلسفة، والكيمياء، والحيوان.

إسهاماته العلمية

كان المجريطي يعد حجة عصره في الكيمياء، وقد كانت له في هذا المجال إسهامات عديدة، فقد ميز بين الكيمياء والسيمياء، وحرر علم الكيمياء من الخرافات والسحر، ودعا إلى دراسة الكيمياء دراسة علمية تعتمد على التجربة والاستقراء. وكان يرى أن الرياضيات ضرورية في دراسة الكيمياء. كما أولى المجريطي عناية خاصة للتجارب

الخاصة بالاحتراق والتفاعلات التي تنتج عنه. واشتهر بتحضيره أوكسيد الزئبق حيث لم يسبقه أحد إلى تحويل الزئبق إلى أوكسيد الزئبق.

أما في مجال علم الفلك، فقد اختصر الجداول الفلكية للبتاني، فكان مختصره مرجعاً لعلماء الفلك. وهو أول من علق على الخريطة الفلكية لبطليموس. كما أن المجريطي نال شهرة عظيمة "بتعليقه وتقويمه للجداول الفلكية للخوارزمي وتعويض تاريخها الفارسي بالتاريخ الهجري"، كما أنه طور نظريات الأعداد وهندسة إقليدس.

وإضافةً إلى ذلك، اهتم المجريطي كثيراً بعلم الحيوان، فقد تكلم عن تكوين الحيوانات وتفضيل بعضها على بعض وفوائدها.

مؤلفاته

ألف المجريطي في علوم مختلفة كالكيمياء، والفلك، والرياضيات، والحيوان ؛ ومن هذه المؤلفات ما ذكره سارطون والزركلي :

- "رتبة الحكيم"، تكلم فيه عن السيمياء والكيمياء والفرق بينهما ؛ وتبرز فيه تجربته عن الزئبق.
- "غاية الحكيم"، يشتمل على تاريخ الكيمياء. ترجم إلى اللاتينية سنة ١٢٥٢ بأمر من الملك ألفونس تحت عنوان Picatrix.
- "رسالة في الاسطرلاب"، ترجم إلى اللاتينية ؛
- "شرح كتاب المجسطي لبطليموس" ؛
- "كتاب ثمار العدد في الحساب".

ونشير إلى أن كتب المجريطي العلمية ظلت تدرس لعدة سنوات في الجامعات الأوربية، وأن علماء الغرب هم أول من أبرز إنتاج المجريطي وعرفوا به.

. ابن الجزار

توفي سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٩م

أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد القيرواني، ابن الجزار المعروف عند اللاتين باسم Algizar. وهو طبيب عربي مسلم عاش في القيروان بتونس في القرن العاشر الميلادي، وتوفي عام ١٠٠٩م عن سن تجاوزت ثمانين سنة. لا تتوافر معلومات

كثيرة عن حياته وإسهاماته العلمية. ويكتفي معظم المؤرخين بالإشارة إلى مؤلفاته. إلا أن "زغريد هونكة" تذكر أنه كان كثيراً ما يصاحب السفن العربية التي تذهب من تونس إلى الشواطئ الأوربية ويعمل كطبيب على ظهرها.

إسهاماته العلمية

وصف ابن الجزار في كتبه أسباب الأمراض التي قد تصيب المرء في رحلة ما، وعوارض هذه الأمراض، وطرق علاجها. كما قدم وصفاً دقيقاً لمرضَيْ الجذري والحصبة، ومعلومات جيدة عن الأمراض الباطنية، و تعرض لأنواع الحمى، وكتب عن الأوبئة.

مؤلفاته

لابن الجزار تصانيف طبية كثيرة، نذكر منها :

ـ "زاد المسافر" : وهو أشهر كتب ابن الجزار في الطب، ترجمه قسطنطين الإفريقي إلى اللاتينية، كما ترجم إلى اليونانية والعبرية. وقد كانت للكتاب شهرة واسعة بين أطباء القرون الوسطى، وظل يدرس في الجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر. وتوجد نسخ مخطوطة من هذا الكتاب في عدد من المكتبات عبر العالم.

ـ " كتاب الاعتماد" : وهو كتاب في الأدوية ألفه ابن الجزار لأحد ملوك الفاطميين بإفريقية، وتوجد مخطوطات منه في الجزائر واستنبول.

ـ "طب الفقراء والمساكين" : وهو رسالة مخطوطة توجد في المتحف العراقي.

ـ " أسباب الوباء بمصر والحيلة في دفعه".

. ابن يونس

توفي سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٩م

كان ابن يونس راصداً رفيع المنزلة للظواهر السماوية، وعالماً نظرياً من الطراز الأول. ويقول عنه سارطون ربما كان أعظم فلكي مسلم.

واسمه الكامل هو أبو الحسن علي بن أبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفي المصري. لا يعرف تاريخ ولادته، أما وفاته فكانت عام

٣٩٩هـ/١٠٠٩م بالقاهرة. ينتمي لأسرة اشتهرت بالعلم، فقد كان أبوه محدثاً ومؤرخاً كبيراً ، كما كان جده من المتخصصين في علم النجوم.

وقد حظي ابن يونس بمكانة كبيرة لدى الخلفاء الفاطميين الذين شجعوه علي متابعة بحوثه الفلكية والرياضية، و بنوا له مرصداً قرب الفسطاط (القاهرة)، وجهزوه بكل ما يلزم من الآلات والأدوات.

إسهاماته

برع ابن يونس في المثلثات، وله فيها بحوث قيمة ساعدت في تقدم علم المثلثات، فهو أول من وضع قانوناً في حساب المثلثات الكروية، كانت له أهمية كبرى عند علماء الفلك، قبل اكتشاف اللوغاريتمات، إذ يمكن بواسطة ذلك القانون تحويل عمليات الضرب في حساب المثلثات إلى عمليات جمع، فسهل حل كثير من المسائل الطويلة المعقدة. ويرجع إلى ابن يونس اختراع رقاص الساعة. كما أظهر ابن يونس براعة كبرى في حل كثير من المسائل العويصة في علم الفلك.

وقد رصد ابن يونس كسوف الشمس والقمر في القاهرة حوالي ٩٧٨م، فجاء حسابه أقرب ما عرف، إلى أن ظهرت آلات الرصد الحديثة.

مؤلفاته

أهم كتاب ألفه ابن يونس هو :

- "الزيج الكبير الحاكمي" : بدأ تأليفه، بأمر من الخليفة العزيز الفاطمي سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م، وأتمه سنة ١٠٠٧م في عهد الخليفة الحاكم ولد العزيز. وسماه الزيج الحاكمي، نسبة إلى الخليفة. وتوجد أجزاء من هذا الكتاب في عدد من المكتبات العالمية مثل اكسفورد، وباريس، والاسكريال، وبرلين، والقاهرة. وقد قام كوسان Caussin بنشر وترجمة أجزاء هذا الزيج التي فيها أرصاد الفلكيين القدماء وأرصاد ابن يونس نفسه عن الخسوف والكسوف، واقتران الكواكب. وكان هدف ابن يونس من تأليف كتابه هو تصحيح أرصاد وأقوال الفلكيين الذين سبقوه وتتميمها.

. الزهراوي

توفي سنة ٤٠٤هـ/١٠١٣م

يعدّ الزهراوي من أعظم الجراحين المسلمين والعالميين. وهو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي، ويعرف عند الغربيين باسم Abulcassis. ولد بمدينة الزهراء في ضواحي قرطبة بالأندلس. عاش في الأندلس خلال القرن الرابع،حيث كان طبيب عبد الرحمن الثالث، ثم طبيب ابنه الحكم الثاني المستنصر.

وإذا كان تاريخ ولادته غير معروف، فإن المؤرخين يرجحون أن وفاته كانت عام ٤٠٤هـ/١٠١٣م.

إسهاماته العلمية

تتجلى إسهامات الزهراوي العلمية فيما حققه من إنجازات وابتكارات متعددة في الطب بصفة عامة، وفي الجراحة بصفة خاصة، فهو أول من فرق بين الجراحة وغيرها من المواضيع الطبية، وجعلها علماً مستقلا قائماً على دراسة تشريح الأجسام الحية والميتة. وهو أول من أجرى عملية استئصال الحصى من المثانة عن طريق المهبل، وهو أول من نجح في عملية شق القصبة الهوائية حيث أجرى هذه العملية على خادمه. كما نجح في إيقاف نزيف الدم بربط الشرايين الكبيرة، وعلم تلاميذه خياطة الجروح خياطة داخلية لا تترك أثراً مرئياً، وكيفية الخياطة بإبرتين وخيط واحد مثبت بهما.

أما في ميدان الطب العام، فهو أول من وصف استعداد بعض الأجسام للنزيف (هيموفيليا)، كما اهتم بالتهاب المفاصل وبالسل في فقرات الظهر. كما أدخل طرقاً وآلات جديدة على فرع الأمراض النسائية. وقد استفاد الجراحون وأطباء الأسنان الأوربيون من الرسوم التي وضعها لصنع الآلات اللازمة لإجراء العمليات الجراحية.

مؤلفاته

أكبر تصانيف الزهراوي وأشهرها هو كتابه المسمى : ـ "التصريف لمن عجز عن التأليف"، وهو عبارة عن دائرة معارف طبية تقع في ثلاثين جزءاً. ويمتاز بكثرة رسومه ووفرة أشكال الآلات التي كان الزهراوي يستعملها في الجراحة. وقد ترجم جيرار الكريموني الجزء الخاص بالجراحة من هذا الكتاب إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي، وصدرت منه طبعات مختلفة، واحدة في البندقية ١٤٩٧م،

وثانية في بازل سنة ١٥٤١م، وثالثة في أكسفورد سنة ١٧٧٨م. كما أن الدكتور لوكليرك ترجمه إلى الفرنسية في القرن التاسع عشر.

وتقول زغريد هونكه عن هذا الجزء من الكتاب : >وقد لعب القسم الثالث من هذا الكتاب دوراً هاماً في أوربا إذ وضع أسس الجراحة الأوربية، وسما بهذا الفرع من الطب إلى مقام رفيع، فأصبحت الجراحة مستقلة بذاتها ومعتمدة في أصولها على علم التشريح<. وقد كان لكتاب الزهراوي أثر كبير في النهضة الأوربية على مدى خمسة قرون، حيث كان يدرس في جامعات أوروبا، كما كان الجراحون الأوربيون يرجعون إليه ويقتبسون منه.

. أبو سهل القوهي

توفي سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م

القوهي من العلماء المسلمين الذين اشتهروا في الفلك والرياضيات في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. وهو أبو سهل ويجن بن رستم القوهي. وإذا كان تاريخ ميلاده غير معروف، فإن وفاته كانت سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م. وهو من كوه في جبال طبرستان، لكنه عاش في بغداد. ولما تولى شرف الدولة البويهي الحكم، قرَّبه وعينه سنة ٣٧٨هـ/٩٨٨م رئيساً للمرصد الذي أسسه في بغداد، وطلب منه أن يقدم له دراسة عن رصده للكواكب السبعة من حيث مساراتها وتنقلها في بروجها.

إسهاماته العلمية

كان القوهى من نوابغ علماء الفلك في القرن الرابع الهجري/القرن العاشر الميلادي ؛ فقد وضع عدداً من الأرصاد التي كان يعتمد عليها في عصره، وانتقد بعض فرضيات علماء اليونان في الفلك، كما اشتهر بصناعة الآلات الرصدية.

أما في الرياضيات، فقد >اهتم القوهي بمسائل أرشميدس وأبولونيوس التي تؤدي إلى معادلات ذات درجة أعلى من معادلات الدرجة الثانية، ووجد حلاً لبعضها، كما ناقش شروط إمكانية ذلك. وتعتبر دراساته هذه من أحسن ما كتب عن الهندسة عند المسلمين<.

وأسهم القوهي أيضاً في دراسة الأثقال، وكان له السبق في هذا المجال، حيث استخدم البراهين الهندسية لحل كثير من المسائل التي لها علاقة بإيجاد الثقل. كما أنه ترك بحوثاً قيمة في المبادئ التي تقوم عليها الروافع.

مؤلفاته

ذكر كل من د.عبد الله الدفاع، والزركلي، عدداً من مؤلفات القوهي في الفلك والرياضيات، منها :

- "كتاب مراكز الأكر" ؛
- "كتاب الأصول على تحريكات أقليدس" ؛
- "كتاب صنعة الأسطرلاب بالبراهين" ؛
- كتاب الزيادات على أرشميدس في المقالة الثانية" ؛
- "إخراج الخطين من نقطة على زاوية معلومة" ؛
- "تثليث الزاوية وعمل المسبع المتساوي الأضلاع في الدائرة".

ويقول د. عبد الله دفاع في كتابه "العلوم البحتة في الحضارة العربية الإسلامية" : "إلا أن معظم مؤلفات القوهي قد ضاعت، ولم يعرف عنها إلا القليل من بعض الإشارات في المراجع اللاتينية".

. الكَرَخِي

توفي ما بين ٤٢٠-٤١٠ هـ/ ١٠٢٩-١٠١٩م

يُعدُّ الكرخي من كبار الرياضيين المسلمين، و>من أعظم الرياضيين الذين كان لهم أثر حقيقي في تقدم العلوم الرياضية<. ورغم ذلك لا تتوافر عنه معلومات كافية.

وهو أبو بكر محمد بن الحسن (أو الحسين) الحاسب الكرخى، نسبة إلى كرخ من ضواحي بغداد. عاش في بغداد أيام الوزير أبو غالب محمد بن خلف فخر الملك، وزير بهاء الدولة البويهي.

إسهاماته العلمية

توجد في كتب الكرخي، لأول مرة عند العرب، حلول للمعادلات غير المحددة، كبقية المعادلات، على أساس الطرق التي اتبعها ديو فنطس.

كما جاء الكرخي بحلول متنوعة لمعادلات الدرجة الثانية، وقدم بحوثاً في إيجاد الجذور التقريبية للأعداد، وبراهين للنظريات التي تتعلق بإيجاد مجموع مربعات ومكعبات الأعداد الطبيعية التي عددها.

مؤلفاته

ـ "الفخري في الجبر"، سمي الكتاب بالفخري نسبة إلى فخر الملك. وقد ألفه ما بين ٤٠١ و٤٠٧هـ.

ويقول سمث في كتابه "تاريخ الرياضيات"، إن كتاب الفخري أهم أثر في الجبر ؛ وقد ترجمه المستشرق الفرنسي "فرانز ويبك Franz Woepcke" سنة ١٨٥٣.

ـ "الكافي في الحساب"، ألفه ما بين ٤٠١ و٤٠٧هـ، وأهداه إلى فخر الملك. ويشتمل الكتاب على مبادئ الحساب المعروفة في ذلك الوقت، وكذلك بعض القوانين والطرق الحسابية المبتكرة لتسهيل بعض المعاملات. ولم يستخدم فيه الأرقام الهندية، بل وضع الأرقام كتابة بالحروف. وقد ترجمه "هوشايم Hocheim" إلى الألمانية، ونشر في ثلاثة أجزاء ما بين سنتي ١٨٧٨ و١٨٨٠.

ـ كتاب "البديع في الحساب".

. ابن سينا

٤٢٨-٣٧٠هـ/١٠٣٧-٩٨٠م

ابن سينا هو أعظم علماء المسلمين، ومن أشهر مشاهير العلماء العالميين ؛ فقد كان فيلسوفاً، وطبيباً، ورياضياً، وفلكياً.

واسمه الكامل هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، الملقب بالشيخ الرئيس، كما عرف بالمعلم الثالث بعد أرسطو والفارابي، ويعرف عند الأوربيين باسم "Avicenna". ولد قرب بخارى (في أوزبكستان حالياً) سنة ٣٧٠هـ/٩٨٠م ؛ وتوفي في همذان سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٧م. تلقى تعليمه الأول في بخارى حيث درس القرآن وأصول اللغة ؛ ودرس الأدب، والفلسفة، والمنطق، والهندسة، وعلم النجوم، والطب، والطبيعيات. وأصبح حجة في الطب، والفلك، والرياضيات، والفلسفة قبل بلوغه سن العشرين.

ولشهرته في الطب، دعاه الأمراء ليعالجهم. ووفق في مداواة أمير بخارى "نوح بن منصور"، كما عالج "شمس الدولة" أمير همذان، و"علاء الدولة" أمير أصفهان. فأنعموا عليه وفتحوا له أبواب دور كتبهم، فوجد فيها مجالاً كبيراً لإتمام دراساته والتعمق في مختلف فروع المعرفة.

وإضافةً إلى اهتمامات ابن سينا العلمية، فقد اشتغل بالسياسة وتدبير شؤون الدولة، حيث استوزره شمس الدولة في همذان، ولكن ابن شمس الدولة سجنه ؛ إلا أنه تمكن، بعد قضاء عدة أشهر في السجن، من الفرار إلى أصفهان حيث قضى أيامه الأخيرة في كنف أميرها "علاء الدولة"، وقد وافته المنية في همذان.

إسهاماته الطبية

برز ابن سينا بصفة خاصة في الطب، حيث حقق فيه اكتشافات جديدة. فهو أول من تحدث، بتفصيل، عن دودة سماها الدودة المستديرة، وهي ما يعرف الآن باسم "الأنكلستوما"، ودرس الاضطرابات العصبية وتوصل إلى بعض الحقائق النفسية والمرضية عن طريق التحليل النفسي. وكان يرى أن العوامل النفسية والعقلية لها تأثير كبير على أعضاء الجسم ووظائفها.كما وصف السكتة الدماغية الناتجة عن كثرة الدم.

وقد أضاف ابن سينا إلى الطب الكثير بناء على مشاهداته الخاصة، حيث كان يعطي للتجربة المكانة الأولى وتوصل بفضلها إلى ملاحظات أصيلة ؛ ومن أمثلة ذلك : إدراكه للطبيعة المعدية للسل الرئوي، وانتشار الأمراض عن طريق الماء والتربة، ووصفه الدقيق لأمراض الجلد، والأمراض التناسلية. هذا إضافةً إلى وصفه للطرق الصيدلية لتحضير عدد من الأدوية.

كما كان ابن سينا أول من اكتشف التهابات غشاء الدماغ المعدية، وميزها عن غيرها من الالتهابات المزمنة، ووضع أول وصف لتشخيص مرض تصلب الرقبة والتهاب السحايا بشكل واضح. وتحدث عن شلل الوجه وأسبابه، وميز بين الشلل الناتج عن سبب مركزي في الدماغ والناتج عن سبب محلي.

إسهاماته العلمية في علوم أخرى

تمثَّل إسهام ابن سينا في الفيزياء في دراسة عدد من الظواهر الطبيعية مثل : الحركة، والقوة، والفراغ، واللانهاية، والنور، والحرارة. ولاحظ أنه إذا كان إدراك الضوء ناتجاً عن انبعاث نوع ما من الجسيمات من مصدر مشع، فإن سرعة الضوء لا بد أن تكون محدودة.

أما في علم الجيولوجيا، فقد أسهم ابن سينا برسالته في تكون الجبال والأحجار الكريمة والمعادن التي ناقش فيها تأثير الزلزال، والماء، ودرجة الحرارة، والرواسب، والتحجر، والتعرية.

وإضافةً إلى ذلك، برع ابن سينا في الرياضيات والفلك، وعالج مسائل الأجسام اللامتناهية حجماً، دينياً وفيزيائياً ورياضياً، مما ساعد كلاً من "نيوتن" Newton و"لايبنز" Leibniz، في القرن السابع عشر، على وضع الحساب اللامتناهي.

مؤلفاته

تجاوزت مؤلفات ابن سينا المائتين ما بين كتب ورسائل، ومن أشهرها :

ـ كتاب "القانون" : وهو من أهم مؤلفات ابن سينا وأنفسها، وإليه ترجع شهرته في الطب. وقد عرف هذا الكتاب انتشاراً واسعاً في الغرب والشرق. ترجمه "جيرار الكريموني" إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر، وطبع في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الخامس عشر ستَّ عشرة طبعة، واحدة منها باللغة العبرية والباقي باللاتينية ؛ وفي القرن السادس عشر أعيدت طباعته أكثر من عشرين مرة، وظل يدرس في أوربا حتى القرن التاسع عشر. وقد أعيد سنة (١٩٩٦م) طبعه من طرف معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت ضمن سلسلة الطب الإسلامي التي يصدرها فؤاد سزكين.

ـ كتاب"الشفاء"، وهو موسوعة فلسفية تضم حصيلة المعارف التي توصل إليها ابن سينا في المنطق، والطبيعيات، والفلسفة ؛

ـ وكتاب"النجاة" وهو ملخص لكتاب الشفاء وأقل تعقيداً منه ؛

ـ وكتاب "الإشارات والتنبيهات"الذي يشتمل على دراسات في الطبيعيات، والإلهيات، والتصوف، والأخلاق.

ولابن سينا مؤلفات أخرى في الطب، والفلسفة، والموسيقى، واللغة، والإلهيات، والنفس، والمنطق، والطبيعيات، والرياضيات، والفلك.

. ابن الهيثم

٤٣٠-٣٥٤هـ/١٠٣٨-٩٦٥م

ابن الهيثم من أعظم علماء العرب في البصريات، والرياضيات، والطبيعيات، والطب، والفلسفة، وله إسهامات مهمة فيها.

وهو أبو علي الحسن ابن الحسن ابن الهيثم، المسمى عند الغربيين "الهازن Alhazen". ولد بالبصرة ودرس بها. ولما سمع الخليفة الفاطمي، الحاكم بأمر الله، أن ابن الهيثم له طريقة لتنظيم الفيضان السنوي لنهر النيل، دعاه إلى مصر وكلفه بتقنين مياه نهر النيل لمواجهة الفيضانات. ولما أخفق ابن الهيثم في مهمته تظاهر بالجنون، وظل على تلك الحال حتى توفي الخليفة، فعاد إلى حالته الطبيعية، واشتغل بنسخ كتب من سبقوه في الرياضيات والطبيعيات، إلى جانب التأليف في مواضيع مختلفة.

إسهاماته في البصريات

يعترف المؤرخون الغربيون بأهمية ابن الهيثم في تطوير علم البصريات، فأرنولد في كتاب " تراث الإسلام"، قال >إن علم البصريات وصل إلى الأوج بظهور ابن الهيثم<، أما سارطون فقال : >إن ابن الهيثم أعظم عالم ظهر عند المسلمين في علم الطبيعة، بل أعظم علماء الطبيعة في القرون الوسطى، ومن أعظم علماء البصريات القليلين المشهورين في كل زمن، وأنه كان أيضاً فلكياً، ورياضياً، وطبيباً<. أما دائرة المعارف البريطانية، فقد وصفته بأنه رائد علم البصريات بعد بطليموس.

وابن الهيثم هو أول من قال بأن العدسة المحدبة ترى الأشياء أكبر مما هي عليه. وأول من شرح تركيب العين ووضح أجزاءها بالرسوم وأعطاها أسماء أخذها عنه الغربيون وترجموها إلى لغاتهم، ما زالت مستعملة حتى الآن. ومن ذلك مثلاً الشبكية Retina، والقرنية (Cornea)، والسائل الزجاجي (Viteous Humour، والسائل

المائي((Aqueous Humour). كما أنه ترك بحوثاً في تكبير العدسات مهدت لاستعمال العدسات في إصلاح عيوب العين.

وتوصل ابن الهيثم إلى أن الرؤية تنشأ من انبعاث الأشعة من الجسم إلى العين التي تخترقها الأشعة، فترسم على الشبكية وينتقل الأثر من الشبكية إلى الدماغ بواسطة عصب الرؤية، فتتكون الصورة المرئية للجسم. وبذلك أبطل ابن الهيثم النظرية اليونانية لكل من أقليدس وبطليموس، التي كانت تقول بأن الرؤية تحصل من انبعاث شعاع ضوئي من العين إلى الجسم المرئي. كما بحث في الضوء والألوان والانعكاسات الضوئية على بعض التجارب في قياس الزوايا المحدثة والانعكاسية. ويعدّه بعض الباحثين رائد علم الضوء.

إسهاماته في الرياضيات

كان ابن الهيثم رياضياً بارعاً، فقد طبق الهندسة والمعادلات والأرقام في حل المسائل الفلكية. كما حل معادلات تكعيبية وأعطى قوانين صحيحة لمساحات الكرة، والهرم، والأسطوانة المائلة، والقطاع الدائر، والقطعة الدائرية.

إسهاماته في الفلك

اهتم ابن الهيثم بالفلك، وكتب فيه عدداً من الكتب وقام بعدد من الأرصاد. ومن أهم إسهاماته في علم الفلك : توصله إلى طريقة جديدة لتحديد ارتفاع القطب، فقد وضع نظرية عن تحركات الكواكب ؛ ولايزال أثر هذه النظرية قائماً حتى الآن، حيث توجد في ضواحي فينا بالنمسا طاولة صنعت بألمانيا سنة ١٤٢٨ وعليها رسم لحركات كواكب سيارة حسب نظرية ابن الهيثم. واكتشف ابن الهيثم أن كل الأجسام السماوية، بما فيها النجوم الثابتة، لها أشعة خاصة ترسلها، ما عدا القمر الذي يأخذ نوره من الشمس.

مؤلفاته

ترك ابن الهيثم تراثاً علميا غنياً في مختلف العلوم، ومن أهم ما ألفه :

- "كتاب المناظر" : يشتمل الكتاب على بحوث في الضوء، وتشريح العين، والرؤية. وقد أحدث الكتاب انقلاباً في علم البصريات، وكان له أثر كبير في معارف الغربيين (روجر بيكون و كيبلر)، وظلوا يعتمدون عليه لعدة قرون، إذ تمت ترجمته إلى

اللاتينية مرات عديدة في القرون الوسطى. ويشتمل الكتاب على سبع مقالات، حقق منها عبد الحميد صبرة المقالة الأولى والثالثة ونشرهما في كتاب سنة ١٩٨٣ بالكويت. كما أن الدكتور رشدي راشد حقق المقالة السابعة في كتابه "علم الهندسة والمناظر في القرن الرابع الهجري"، المطبوع في بيروت سنة ١٩٩٦. وتوجد مخطوطات كاملة من الكتاب أو لبعض مقالاته، في العديد من المكتبات، خاصة باستانبول بتركيا.

- "حل شكوك أقليدس" ؛
- "مقالة الشكوك على بطليموس" ؛
- "كتاب شرح أصول إقليدس في الهندسة والعدد" ؛
- "كتاب الجامع في أصول الحساب" ؛
- "كتاب في تحليل المسائل الهندسية".

ويذكر أن ابن الهيثم صنَّف ثمانين كتاباً ورسالة في الفلك شرح فيها سير الكواكب، والقمر، والأجرام السماوية، وأبعادها.

وقد كان لترجمة بعض كتب ابن الهيثم إلى اللاتينية، تأثير كبير على علماء الغرب من أمثال كبلر، وفرنسيس بيكون. ويؤكد مصطفى نظيف أن ابن الهيثم سبق"فرنسيس بيكون" في وضع المنهج التجريبي القائم على المشاهدة والتجربة والاستقراء. كما يقول عباس محمود العقاد في كتابه "أثر العرب في الحضارة الأوربية" إن ترجمة كتب ابن الهيثم كان عليها معول الأوربيين اللاحقين جميعاً في البصريات.

. البيروني

٤٣٩-٣٦٣هـ/١٠٤٨-٩٧٣م

هو محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني الخوارزمي، ولد سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م بإحدى ضواحي خوارزم في فارس (أوزبكستان حالياً). لا يعرف تاريخ وفاته على وجه التحديد، لكن الراجح أنه توفي عام ٤٣٩هـ/١٠٤٨م.

كان البيروني عالماً في الرياضيات، والطبيعيات، والفلك، والطب، والفلسفة، والتصوف، والأديان ؛ ومؤرخاً ولغوياً وأديباً. وعلى الرغم من اطلاعه الواسع على مختلف مجالات المعرفة في عصره، فإن اهتمامه كان مركزاً أكثر على الرياضيات والفلك. ويعدّه أعلام المستشرقين من العباقرة المسلمين العالميين الواسعي الاطلاع. ويعترف المؤرخ جورج سارطون بمكانته العلمية فيقول : <كان البيروني رحالة وفيلسوفاً، ورياضياً، وفلكياً، وجغرافياً، وعالماً موسوعياً، ومن أكبر عظماء الإسلام، ومن أكابر علماء العالم في كل زمن>.

وإذا كانت المصادر لا تذكر شيئاً عن أسرة البيروني أو عن صباه وما تعلمه في أول حياته، فهي تذكر أنه درس على ثلاثة أساتذة وهم : أبو نصر بن عراق، وأبو سهل بن يحيى المسيحي، وأبو الحسن بن علي الجبلي، وأنه عاصر الطبيب المشهور ابن سينا، وكانت بينهما مراسلات في مواضيع مختلفة، وأنه كان يتقن عدة لغات منها اليونانية، والسنسكريتية والفارسية، والعبرية، إضافةً إلى العربية.

ولما بلغ البيروني الخامسة والعشرين من عمره، رحل إلى جرجان حيث التحق ببلاط السلطان أبي الحسن قابوس بن وشمكير، ثم عاد إلى وطنه خوارزم بعد عدة سنوات، ودخل في خدمة أبي العباس المأمون بن المأمون آخر أمراء دولة المأمونيين، وبعد أن استولى السلطان محمود الغزنوي على خوارزم، ضمَّ البيروني إلى حاشيته ثم اصطحبه معه في رحلاته المتعددة إلى الهند. ويقال إن البيروني بقي في الهند مدة طويلة درس فيها ثقافتها وعلومها، ومعارفها، وأصبح بذلك أكثر العلماء المسلمين اطلاعاً على تاريخ الهند ومعارفها. كما نقل إلى الهنود العلوم اليونانية والعربية.

إسهاماته العلمية

يعترف للبيروني بإسهام في مختلف العلوم، فقد حدَّد بدقة خطوط الطول وخطوط العرض، وناقش مسألة ما إذا كانت الأرض تدور حول محورها أم لا، وبحث في الوزن النوعي، وقدر بدقة كثافة ١٨ نوعاً من الأحجار الكريمة والمعادن، وتوصل إلى أن سرعة الضوء أكبر من سرعة الصوت، كما شرح كيفية عمل الينابيع الطبيعية والآبار الارتوازية بناء على مبدأ هيدروستاتيكي. كما قدم وصفاً للمخلوقات الغريبة، منها ما يعرف باسم التوائم "السيامية".

وكان البيروني ألمع علماء زمانه في الرياضيات كما يعترف بذلك"سمث" في الجزء الأول من كتابه "تاريخ الرياضيات". وبجانب ذلك اشتغل بالفلك، وبحث في هيئة العالم وأحكام النجوم، ووضع طريقة لاستخراج مقدار محيط الأرض تعرف عند العلماء الغربيين باسم " قاعدة البيروني" ؛ ووصف ظواهر الشفق وكسوف الشمس وغير ذلك من الظواهر الطبيعية بجانب إشارته لدوران الأرض حول محورها.كما كان ملمًا بعلم المثلثات، وهو من الذين بحثوا في التقسيم الثلاثي للزاوية.

كان البيروني متصفاً بالروح العلمية، والإخلاص للحقيقة، إضافةً إلى دقة البحث والملاحظة.

مؤلفاته

ترك البيروني مؤلفات عديدة، تزيد عن مائة وخمسين كتاباً، وقد ذكر أغلبها في رسالته المعروفة بالفهرس، وتتناول مواضيع متنوعة منها الجغرافيا، والرياضيات، والفلك. ومن أشهر مؤلفاته :

- "كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية"، ناقش فيه البيروني دوران الأرض حول نفسها، وتسطيح الكرة ؛ وهو بذلك واضع أصول الرسم على سطح الكرة. ترجم "إدوارد ساخاو Sachau" هذا الكتاب إلى الإنجليزية، وطبع في لندن عام ١٧٨٩. كما ترجم إلى الألمانية والإنجليزية في القرن التاسع عشر.

- "القانون المسعودي في الهيئة والنجوم"، ألفه البيروني (٤٢١هـ/١٠٣٠م) بطلب من "مسعود بن محمد الغزنوي". وهو كتاب ضخم يشتمل على ١٤٣ باباً تناول فيه مختلف موضوعات الفلك والرياضيات. و طبع الكتاب في حيدرآباد بالهند.

- "تاريخ الهند"، ضمنه البيروني خلاصة دراساته في الهند. ترجمه "ساخاو" أيضاً إلى الإنجليزية، وطبع في لندن سنة ١٨٨٧م. وتناول فيه البيروني لغة أهل الهند وعاداتهم وعلومهم.

- "كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم"، يبحث هذا الكتاب الحساب، والهندسة، والجبر، والعدد، والفلك. وقد كتبه البيروني على شكل سؤال وجواب، ووضحه بالأشكال والرسوم.

إضافةً إلى هذه الكتب الكبيرة، ترك البيروني عدة رسائل في الهندسة، والحساب، والفلك، والآلات العلمية، والطب، والصيدلة. كما كانت له مراسلات مع ابن سينا. وإضافةً إلى ذلك، فقد ترجم عدداً من الكتب من اللغة السنسكريتية إلى العربية.

وقد ترجمت معظم كتبه إلى اللغات الفرنسية، والألمانية، والإنجليزية، ونشرت في القرنين التاسع عشر والعشرين.

. ابن رضوان

٤٥٣-٣٨٩هـ/١٠٦١-٩٩٨ م

طبيب مصري ذائع الصيت. كان طبيب الخليفة الحاكم بأمر الله، وعميد أطباء القاهرة.

واسمه الكامل هو أبو الحسن المصري علي بن رضوان بن علي بن جعفر. ولد بالجيزة قرب القاهرة سنة ٩٩٨م، وعاش فيها وتوفي بها ما بين ١٠٦١ (٤٥٣هـ) و١٠٦٧م. وكان طبيباً ورياضياً ومنجماً، ومن كبار الفلاسفة في الإسلام.

لا يعرف الكثير عن حياته. ويقال إن أباه كان فَرَّاناً أو سقَّاء، ولذا اضطر ابن رضوان في صغره إلى العمل ليحصل على ما يشتري به ما يحتاجه من الكتب.

إسهاماته العلمية

من أهم إسهاماته في الطب اهتمامه بمعاينة المريض والتعرف على المرض، وذلك بالنظر إلى هيئة أعضاء المريض وسحنته وبشرته، وتفقد أعضائه الباطنية والخارجية، وطريقة نظره وكلامه ومشيته، والتعرف على نبض قلبه وعلى مزاجه عن طريق توجيه الأسئلة إليه.

كما حدد ابن رضوان واجبات الطبيب في معالجة أعدائه بنفس الروح والإخلاص والاستعداد التي يبذلها عند معالجة أحبائه.

وكانت بين ابن رضوان وابن بطلان طبيب بغداد، مراسلات دارت حول صغار الطير وعدد من المواضيع، الأخرى خاصة منها تعلّم الطب اليوناني.

مؤلفاته

ألف ابن رضوان عدة كتب في الطب، أشهرها :

- "كتاب في دفع مضار الأبدان بأرض مصر"، ترجم ماكس مايرهوف فصلاً منه في كتابه : "دراسة المناخ والصحة في مصر القديمة" (١٩٢٣).

- "شرح الصناعة الصغيرة لجالينوس"، كان لهذا الكتاب شهرة عظيمة، وقد ترجمه جيرار الكريموني إلى اللاتينية. ونشر في البندقية سنة ١٤٩٦م.

- "شرح المقالات الأربع في القضايا بالنجوم لبطليموس".

- "كفاية الطبيب فيما صح لدي من التجارب".

- "الكتاب النافع في تعلم صناعة الطب"، ويحتوي هذا الكتاب على عرض لأفكار ابن رضوان وأفكار كثير من زملائه الآخرين عن الطب اليوناني القديم، وتطوره، وقيمته، وطريقة تعلمه

. الزرقالي

٤٢٠-٤٨٠هـ/١٠٢٩-١٠٨٧م

الزرقالي من أعظم راصدي الفلك في عصره، وواحد زمانه في علم العدد، والرصد، وعلم الأبراج. وهو فلكي عربي مسلم أندلسي من مدينة طليطلة، قام بأكثر أرصاده بها، ثم انتقل منها إلى قرطبة وبقي فيها حتى وفاته.

واسمه الكامل هو إبراهيم بن يحيى النقاش، المعروف بابن الزرقالة أو الزرقالي. ويعرف في اللاتينية باسم Arzachel.

إسهاماته العلمية

اخترع الزرقالي نوعاً جديداً من الأسطرلاب معروف باسم "الصفيحة الزرقالية" التي حظيت بأهمية كبيرة. وقد دخلت هذه الصفيحة إلى مجال علم الفلك تحت اسم ' الأسطرلاب الزرقالي"، وفي القرن الخامس عشر، نشر راجيومونتانوس مخطوطاً يبين فيه مجمل فوائدها. و هو من الأوائل الذين أثبتوا حركة أوج الشمس بالنسبة للنجوم، ووجد أنها تصل إلى ١٢,٠٤ دقيقة في السنة (والقيمة الحقيقية هي ١١,٨ دقيقة).

كما وضع الزرقالي جداول عن الكواكب، وهي المعروفة بالزيج الطليطلي، بناء على أرصاده التي قام بها في مدينة طليطلة من ١٠٦١إلى ١٠٨٠م.

وصحَّح الزرقالي المعلومات الجغرافية لبطليموس والخوارزمي. فقد وجد أن طول البحر الأبيض المتوسط هو ٤٢ درجة وليس ٦٢ درجة كما قال بطليموس.

وتقول هونكة أثناء حديثها عن تأثير علماء الفلك العرب على الغرب، بأن أعمال الزرقالي حظيت عند الغربيين بأهمية كبيرة، ففي القرن الثاني عشر ترجم جيرار الكريموني أعمال الزرقالي إلى اللاتينية، وفي القرن الخامس عشر، ألف راجيومونتانيوس كتاباً عن فوائد الصفيحة الزرقالية، وفي عام ١٥٣٠م كتب العالم البافاري يعقوب تسيجلر Jacob Ziegler تعليقاً على كتاب الزرقالي، وفي عام ١٥٣٠م ذكر كوبرنيك اسمي الزرقالي والبتاني في كتابه : "دوران الأجرام السماوية" (Revolutionibus de Clestium Orbium)١، واقتبس من آرائهما.

مؤلفاته

ذكر الزركلي من كتب الزرقالي المصنفات التالية :

- "العمل بالصفيحة الزيجية" ؛
- "التدبير" ؛
- "المدخل في علم النجوم" ؛
- "رسالة في طريقة استخدام الصفيحة المشتركة لجميع العروض".

كان لمؤلفات الزرقالي تأثير كبير على الفلكيين الإسبان الذين وضعوا الزيج المعروف باسم "ألفونسية" نسبة إلى ألفونس ملك قشتالة، الذي أمر بعد ٢٠٠ سنة على وفاة الزرقالي، بترجمة كل آثاره إلى اللغة المحلية في قشتالة

____

. ابن جِزْلَة

توفي سنة٤٩٣هـ/١١٠٠م

هو أبو علي يحيى بن عيسى بن جزلة طبيب عربي مسلم من بغداد. وإذا كان تاريخ ولادته غير معروف، فإن وفاته كانت سنة ٤٩٣هـ/١١٠٠م. يعرف عند الغربيين باسم Bengesla. كان مسيحياً، لكنه اعتنق الإسلام سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٤م، متأثراً بأستاذه أبي علي بن الوليد المعتزلي. وقد درس الطب على سعيد بن هبة الله طبيب

الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله. كان ابن جزلة <يطبب أهل محلته ومعارفه بغير أجر، ويحمل إليهم الأشربة والأدوية بغير عوض، ويتفقد الفقراء ويحسن إليهم<.

إسهاماته العلمية

كان ابن جزلة إمام الطب في عصره. وقد تجلت إسهاماته الطبية في وضع جداول تشتمل على شروح وافية عن كل مرض، كما استعرض أنواع الأوبئة والأمراض وأوقات ظهورها، ثم البلدان التي تنتشر فيها، وطرق تشخيصها، وكيفية علاجها. وقد اتبع طريقة منتظمة في متابعة أعضاء جسم الإنسان وأمراضها، ووضع ذلك في جداول تسهل على المثقف العادي في عصره استعماله في العلاج.

كما كان ابن جزلة من الصيادلة المشهورين في بغداد، وقد أسهم في هذا الميدان من خلال وصف العقاقير والأعشاب والأدوية، وكل ما يستعمله الإنسان في التطبب من لحوم ونباتات ومستحضرات كيماوية.

ومما يتميز به ابن جزلة في ميدان العلاج، أنه كان يؤمن بأهمية الموسيقى في شفاء الأمراض والوقاية منها. وقد قال في هذا الشأن : <إن موقع الألحان من النفوس السقيمة مثل موقع الأدوية من الأبدان المريضة<.

مؤلفاته

أشهر مصنفات ابن جزلة هي :

ـ "تقويم الأبدان في تدبير الإنسان"، رتب فيه ابن جزلة أسماء الأمراض في جداول، مع وصف طريقة علاج اثنين وخمسين وثلاثمائة (٣٥٢) مرض. وقد طبعت منه نسخة باللاتينية في ستراسبورغ سنة ١٥٣٢.

ـ "منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان"، كتبه للخليفة العباسي المقتدي. وهو قائمة للعقاقير والأعشاب الطبية مرتبة على الأحرف الهجائية .

ـ "الإشارة في تلخيص العبارة" ؛

ـ "رسالة في مدح الطب وموافقته للشرع" ؛

ـ "رسالة في الرد على النصرانية".

. عمر الخيام

٤٤٠-٥١٨هـ ١٠٤٨-١١٢٤ /م

أبو الفتح عمر بن إبراهيم الخيام، فيلسوف وشاعر فارسي وعالم في الرياضيات، والفلك، واللغة، والفقه، والتاريخ. ولد في نيسابور ما بين ١٠٣٨ و١٠٤٨، وتوفي فيها ما بين ١١٢٣ و١١٢٤م. لقب بالخيام لأنه كان في بداية حياته يصنع الخيام. لكن لما أصبح صديقه "نظام الملك" وزيراً للسلطان "ألب أرسلان"، ثم لحفيده "ملكشاه"، خصص له راتباً سنوياً من خزينة نيسابور ضمن له العيش في رفاهية مما ساعده على التفرغ للبحث والدراسة. وقد عاش معظم حياته في نيسابور وسمرقند. وكان يتنقل بين مراكز العلم الكبرى مثل بخاري وبلخ وأصفهان رغبة منه في التزود من العلم وتبادل الأفكار مع العلماء. وقد استقر في الأخير في بغداد.

إسهاماته العلمية

وترجع شهرته إلى عمله في الرياضيات حيث حلَّ معادلات الدرجة الثانية بطرق هندسية وجبرية. كما نظم المعادلات وحاول حلها كلها، ووصل إلى حلول هندسية جزئية لمعظمها. وقد بحث في نظرية ذات الحدين عندما يكون الأس صحيحاً موجباً، ووضع طرقاً لإيجاد الكثافة النوعية.

ولم ينبغ الخيام في الرياضيات فحسب، بل برع أيضاً في الفلك. وقد طلب منه السلطان "ملكشاه" سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م مساعدته في تعديل التقويم الفارسي القديم. ويقول "سارطون" إن تقويم الخيام كان أدق من التقويم الجريجوري.

مؤلفاته

للخيام عدة مؤلفات في الرياضيات والفلسفة والشعر، وأكثرها بالفارسية. أما كتبه بالعربية فمنها :

- "الجبر والمقابلة" : ترجمه إلى الفرنسية العالم فرانز وبكه Franz Woepcke، ونشره سنة ١٨٥١ في باريس. كما ترجمه إلى الإنجليزية داود قصير سنة ١٩٣١.
- "شرح ما أشكل من مصادرات كتاب أقليدس" ؛
- "الاحتيال لمعرفة مقداري الذهب والفضة في جسم مركب منهما"، وفيه طريقة قياس الكثافة النوعية ؛
- "رسالة في الموسيقى" .

وبلغت شهرة الخيام قمتها بمقطوعاته الشعرية "الرباعيات" التي كتبها بالفارسية وترجمت إلى العربية، واللاتينية،

ــــــــــــــــــــــ

. ابن باجة

توفي سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م

فيلسوف أندلسي وعالم في الفلك والطب والرياضيات.

وهو أبو بكر محمد بن يحيى التجيبي السرقسطي ابن باجة ؛ (و"باجة" كلمة إفرنجية تعني الفضة، كما يقول ابن خلكان)، ويعرف أيضاً بابن الصائغ. ويسمي عند الأوربيين Avempace. لا تعرف أشياء كثيرة عن حياته، وكل ما يعرف أنه ولد بمدينة سرقسطة من أعمال الأندلس في أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر ميلادي.

درس معظم علوم عصره من طب، وفلسفة، ورياضيات، وفلك وموسيقى. واشتغل بالسياسة، حيث كان وزيراً لأبي بكر إبراهيم صهر علي بن يوسف المرابطى، الذي كان والياً على غرناطة ثم على سرقسطة.

بعد استيلاء ألفونس الأول على مدينة سرقسطة، هاجر ابن باجة إلى إشبيلية (٥١٣هـ) ثم إلى غرناطة. وذهب، بعد ذلك، إلى فاس وقصد بلاط المرابطين وعمل طبيباً به ؛ وهنا تحامل عليه أعداؤه ورموه بالإلحاد والجهل. وتوفي مسموماً سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م.

إسهاماته العلمية

رغم شهرة ابن باجة بالفلسفة، فقد نبغ في العلوم الطبيعية، والرياضية، والفلك، والطب، والموسيقى.

ويذكر حافظ قدري طوقان أن ابن باجة كانت له ملاحظات قيمة على النظام الفلكي الذي وضعه بطليموس، فقد انتقد هذا النظام وبين مواضع الضعف فيه. وقد أَيَّدَ سارطون هذه الفكرة، وقال إن البطروجي تأثر بآراء ابن باجة في الفلك. كما أن ابن البيطار استشهد في كتابه "الأدوية المفردة" بابن باجة، واعتمد على رسالته في الطب.

مؤلفاته

ترك ابن باجة عدداً من المؤلفات بلغت الثلاثين في المنطق، والفلسفة والرياضيات، والطب، والطبيعة، والنبات، والأدوية ؛ لكن ضاع معظمها، ولم يبق منها إلا رسائل وصفحات في ترجمات لاتينية وعبرية.

فمن شروحه وتعليقاته العلمية :

- تعاليق في الهندسة وعلم الهيئة ؛
- شرح كتاب "السماع الطبيعي" لأرسطوطاليس ؛
- قول على بعض كتاب "الكون والفساد" لأرسطوطاليس ؛
- كلام على شيء من كتاب"الأدوية المفردة" لجالينوس ؛
- كتاب اختصار الحاوي للرازي ؛
- كتاب التجربتين على أدوية بن وافد.

وإضافةً إلى هذه المصنفات العلمية، فقد كتب ابن باجة عدداً من الشروحات والمؤلفات الفلسفية، ومن أشهرها :

- "رسالة الوداع" ؛
- "رسالة تدبير المتوحد" ؛

توجد مؤلفات ابن باجة في عدد من المكتبات العالمية مثل أكسفورد، والأسكريال، وبرلين.

. أبو مروان ابن زُهْر

٤٦٥-٥٥٧هـ/١٠٧٢-١١٦٢م

ابن زهر كنية أسرة من علماء المسلمين نشأوا في الأندلس من بداية القرن العاشر إلى أوائل القرن الثالث عشر الميلادي. وأشهرهم هو الطبيب أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر، ويسمى عادة أبو مروان ويعرف عند الأوربيين باسم Avenzoar. وهو ينحدر من عائلة عريقة في الطب، فقد كان والده أبو العلاء طبيباً ماهراً في التشخيص والعلاج، وكان جده طبيباً. ولد في إشبيلية سنة ٤٦٥هـ/

١٠٧٢م. وبعد أن درس الأدب والفقه وعلوم الشريعة، تعلم الطب على والده. وكان صديقاً للطبيب والفيلسوف ابن رشد.

اشتغل أبو مروان أول الأمر مع أمراء دولة المرابطين وأصابه من أميرها "علي بن يوسف بن تاشفين" ما أصاب والده من قبله من محنة، فسجن نحواً من عشر سنوات' في مراكش. وبعد زوال الدولة المرابطية وقيام الدولة الموحدية، اشتغل ابن زهر طبيباً ووزيراً مع عبد المؤمن مؤسس الدولة فشمله برعايته، مما مكنه من تأليف أفضل كتبه. وتوفي أبو مروان في إشبيلية مسقط رأسه سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م.

إسهاماته العلمية

يمثل ابن زهر حالة استثنائية في زمانه، إذ بالرغم من سعة معارفه وتنوعها فقد تخصص في الطب ومارسه طول حياته، فأضاف أشياء جديدة، منها وصفه لمختلف الأمراض الباطنية والجلدية، إضافةً إلى الجراحة. كما بحث في قروح الرأس وأمراضه، وأمراض الأذنين، والأنف، والفم، والشفاه، والأسنان، والعيون، وأمراض الرقبة، والرئة، والقلب، وأنوع الحمى، والأمراض الوبائية، ووصف التهاب غشاء القلب ومَيَّزَ بينه وبين التهاب الرئة.

وقد اعتمد ابن زهر على التجربة والتدقيق العلمي، وتوصل بذلك إلى الكشف عن أمراض لم تدرس من قبل، فقد درس أمراض الرئة، وأجرى عملية القصبة المؤدية إلى الرئة، كما كان أول من استعمل الحقن للتغذية الصناعية.

وأبو مروان هو من أوائل الأطباء الذين اهتموا بدراسة الأمراض الموجودة في بيئة معينة، فقد تكلم عن الأمراض التي يكثر التعرض لها في مراكش. كما أنه من أوائل الأطباء الذين بينوا قيمة العسل في الدواء والغذاء.

يُعدّ ابن زهر أحد أعظم أطباء الأندلس، فقد نال إعجاب كثير من معاصريه وعلى رأسهم صديقه ابن رشد الذي وصف ابن زهر في كتابه"الكليات" بأنه أعظم الأطباء بعد جالينوس. وقد استمر تأثير بن زهر في الطب الأوربي حتى القرن السابع عشر ميلادي، وذلك بفضل ترجمة كتبه إلى اللاتينية والعبرية.

مؤلفاته

أشهر كتب ابن زهر هي :

ـ "كتاب التيسير في المداواة والتدبير"، وهو موسوعة طبية يبرز فيها تضلع ابن زهر في الطب وموهبته فيه، وقد أهداه لصديقه ابن رشد الذي ألف فيما بعد "كتاب الكليات في الطب"، فكان الكتابان متممين أحدهما للآخر. وترجم الكتاب إلى اللاتينية سنة ١٤٩٠م، وكان له أثر كبير على الطب الأوربي حتى القرن السابع عشر. وتوجد نسخ منه في عدد من الخزانات، منها الخزانة العامة بالرباط، وخزانات باريس، وأكسفورد بإنجلترا، وفلورانسا بإيطاليا. وفي سنة ١٩٩١م قامت أكاديمية المملكة المغربية بطبعه ضمن "سلسلة التراث" بعدما حققه وهيأه للطبع الباحث محمد بن عبد الله الروداني.

ـ "كتاب الاقتصاد في إصلاح الأنفس والأجساد"، وهو خلاصة للأمراض، والأدوية، وعلم حفظ الصحة، والطب النفسي. توجد منه عدة نسخ مخطوطة، منها نسخة بالخزانة الملكية بالرباط.

ـ "كتاب الأغذية والأدوية"، يصف فيه ابن زهر مختلف أنواع الأغذية والعقاقير وآثارها على الصحة، وقد ترجم إلى اللاتينية. وهو لا يزال مخطوطاً، وتوجد منه نسختان بالخزانة الملكية بالرباط.

وإضافةً إلى هذه الكتب الثلاثة، ألف أبو مروان عدداً آخر من الكتب والرسائل في الطب.

. ابن طُفَيْل

توفي سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م

هو أبو بكر محمد بن عبد المالك بن محمد بن طفيل القيسي الأندلسي، يرجع نسبه إلى قبيلة بني قيس العربية. ولد قرب مدينة غرناطة بالأندلس، وتاريخ ولادته غير معروف، لكن من المحتمل أن يكون قد ولد في بداية القرن الثاني عشر الميلادي. كما لا يعرف شيء عن أسرته وتعلمه. وكل ما يعرف عنه أنه درس على علماء وحكماء عصره، وكانت له معرفة جيدة وشاملة بمختلف العلوم، خاصة منها الطب، والفلسفة، والفلك.

وقد تقلب ابن طفيل في مناصب عدة ، فاشتغل في البداية كاتباً في ديوان والي غرناطة، ثم في ديوان الأمير أبي سعيد بن عبد المؤمن حاكم طنجة ؛ ثم أصبح وزيراً وطبيباً للسلطان الموحدي "أبي يعقوب يوسف". ويقال إن ابن طفيل كان له تأثير كبير على الخليفة، وقد استغل ذلك في جلب العلماء إلى البلاط. ونذكر منهم بصفة خاصة الفيلسوف والطبيب ابن رشد الذي قدمه ابن طفيل عندما تقدم به السن إلى السلطان ليقوم بشرح كتب أرسطو وليخلفه في عمله كطبيب. وقد ظل ابن طفيل في بلاط السلطان إلى أن توفي بمراكش عام ٥٨١هـ/١١٨٥م.

إسهاماته العلمية

إسهاماته في الطب : ذكر لسان الدين ابن الخطيب أن ابن طفيل ألف في الطب كتاباً من مجلدين. كما ذكر ابن أبي أصيبعة أنه كان بين ابن الطفيل وابن رشد مراجعات ومباحث في "رسم الدواء" جمعها ابن رشد في كتابه "الكليات"، كما كانت لابن طفيل أرجوزة في الطب تتألف من ٧٧٠٠ بيت.

إسهاماته في الفلك : ويقال إن ابن طفيل كانت له آراء مبتكرة في الفلك ونظريات في تركيب الأجرام السماوية وحركاتها.

يقول الباحث ليون غوتيه في كتابه عن ابن طفيل : على الرغم من عدم وجود أي شيء مكتوب عن الفلك، باستثناء بعض الفقرات القصيرة في كتاب حي ابن يقظان، فإننا نعرف أن ابن طفيل لم يكن راضياً عن النظام الفلكي الذي وضعه بطليموس، وأنه فكر في نظام جديد. واستشهد الكاتب على ذلك بما كتبه كل من ابن رشد والبطروجي. فابن رشد في شرحه الأوسط لِ "الآثار العلوية" لأرسطو، انتقد بدوره فرضيات بطليموس عن تكوين الأفلاك وحركاتها، وقال إن ابن طفيل يتوفر في هذا المجال على نظريات رائعة يمكن الاستفادة منها كثيراً. كما أن البطروجي في مقدمة كتابه الشهير عن الفلك، ذكر أن ابن طفيل أوجد نظاماً فلكياً ومبادئ لحركاته، غير تلك المبادئ التي وضعها بطليموس. ويتساءل الباحث الفرنسي عن احتمال أن تكون فرضيات ابن طفيل تشتمل على بعض العناصر الأساس من الإصلاح الفلكي العظيم الذي جاء به كوبرنيك وجاليلي بعد أربعة قرون.

مؤلفاته

ـ "مراجعات ومباحث" جرت بينه وبين ابن رشد في " رسم الدواء"، جمعها ابن رشد في كتابه "الكليات" ؛

ـ "أرجوزة في الطب" : توجد في خزانة جامع القرويين بفاس بالمملكة المغربية؛

ـ "رسالة في النفس" في الفلسفة ؛

ـ "حي بن يقظان" أشهر ما ترك ابن طفيل، وهي قصة فلسفية عرض فيها أفكاره الفلسفية عرضاً قصصياً، محاولاً التوفيق فيها بين الدين والفلسفة. وقد عرفت هذه القصة في الغرب منذ القرن السابع عشر، وترجمت إلى عدة لغات، منها اللاتينية، والعبرية، والإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والهولندية.

———————————

. ابن رشد

٥٩٥-٥٢٠هـ/١١٩٨-١١٢٦م

هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد الأندلسي. ويعرف عند الغربيين باسم Averroes. فيلسوف وطبيب وفقيه عربي مسلم، ولد بمدينة قرطبة، ونشأ في أسرة عريقة في العلوم الإسلامية ؛ مارس كل من جده وأبيه القضاء. تعلم ابن رشد العلوم الشرعية على يد والده، ثم درس بعد ذلك الطب والفلسفة. وقد عاصر الفيلسوف الطبيب ابن طفيل، والطبيب المشهور ابن زهر.

زار ابن رشد مراكش عام ٥٤٨هـ/١١٥٣م بدعوة من السلطان الموحدي عبد المؤمن بن علي لاستشارته في إنشاء عدد من المدارس في المغرب. وعاد مرة ثانية إلى مراكش، حيث قدمه الفيلسوف الطبيب ابن طفيل إلى السلطان أبي يعقوب يوسف الذي كلفه سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م بشرح فلسفة أرسطو، وعينه قاضياً في مدينة إشبيلية، ثم قاضياً للقضاة قي قرطبة. وفي سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م استدعاه أبو يعقوب إلى مراكش وجعله طبيبه الخاص بدل ابن طفيل، ثم عينه قاضياً في قرطبة. وبعد وفاة الخليفة أبي يعقوب، خلفه ابنه أبو يوسف يعقوب، فقرب إليه ابن رشد، إلا أن بعض العلماء حملوا عليه فحوكم وأحرقت كتبه باستثناء مؤلفاته في الطب والفلك؛ ونفي إلى "أليسانة" قرب قرطبة، ثم عفي عنه، ورجع إلى المغرب سنة ١١٩٨. لكنه توفي في السنة نفسها.

إسهاماته العلمية

كان طبيباً باحثاً، ودارساً ومعالجاً، ومطبباً ؛ وإن كان أميل إلى البحث والدرس منه إلى التمريض والمعالجة. وقد أشار في كتابه "الكليات" إلى ممارسته للطب وإن كانت محدودة. وبيَّن ضرورة الاعتماد على المشاهدة والتجربة، وعلى الإلمام بكل ما وصل إليه العلم الطبيعي بمعرفة التشريح ووظائف الأعضاء. كما أضاف إلى الطب طريقة الشورى بين الأطباء. ومن إسهاماته الطبية توصله إلى أن مرض الجذري لا يصيب المريض إلا مرة واحدة، وأن داء الكَلبَ سببه "سؤر" الكلب المصاب بداء الكَلبَ. كما أنه اتفق مع ابن سينا حول انتقال الأمراض بالوراثة من الآباء إلى الأبناء. وقد أشار السير ستيوارت دوك ألدر Sir Stewart Duke Elder في موسوعة "طب العيون" System of Ophtalmology إلى أن ابن رشد سبق إلى القول بأن الشبكة هي المستقبِلة للضوء.

وكان ابن رشد يرى أن الحفاظ على الصحة يكون بالغذاء الجيد والشراب النظيف والهواء الصحي، ويعدّ الدواء مادة غريبة عن الجسم، تضر ببعض الأعضاء بسبب انعكاساتها وتأثيراتها المختلفة خاصة على الكبد والكلي، وهي الأعضاء التي تقوم بتخليص الجسم من السموم. كما وصف ابن رشد الكثير من الأمراض وعلاماتها ومضاعفاتها، وتكلم عن الأعراض النفسية مثل الغضب، والحزن، والقلق، والصرع. واهتم ابن رشد كذلك بمادة العلاج الطبي، وخصص جزءاً كبيراً من كتابه"الكليات" لأنواع الأغذية والأدوية وأفعالهما. كما حدد الأسس الواجب اتباعها في تقدير الأدوية.

مؤلفاته

ـ "كتاب "الكليات في الطب" : هو أهم مؤلفات ابن رشد في الطب، وقد تناول فيه المبادئ العامة في الطب وقسمه إلى سبعة أقسام بحسب المواضيع التي تناوله فيه. ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية في القرن الثالث عشر الميلادي تحت اسم Colliget، كما ترجم إلى العبرية. وأعيد طبعه عدة مرات في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. أما النص العربي فلم ينشر إلا سنة ١٩٨٤ في نيودلهي. وفي سنة ١٩٨٩ نشر المجلس الأعلى للثقافة الجزائري بالتعاون مع الاتحاد الدولي

للأكاديميات، كتاب "الكليات" بعدما قام كل من د.سعيد شيبان، ود. عمار الطالبي بتحقيقه والتعليق عليه.

- "تلخيص كتاب النفس" لأرسطو ؛
- "شرح كتاب النفس" لأرسطو؛
- "تلخيص العلل والأمراض لجالينوس" ؛
- "مسألة في علم النفس" ؛
- "كتاب "الترياق" (الترياق هو الدواء الذي يقاوم السموم)، حدد فيه ابن رشد الأمراض التي يمكن أن يعالجها الترياق، وشرح أسباب استخدامه وكيفية استعماله.
- "شرح أرجوزة ابن سينا في الطب" ؛

وإضافةً إلى هذه الكتب الطبية، ألف ابن رشد عدداً من الكتب في الفلسفة من أهمها : كتاب "تهافت التهافت" الذي رد فيه على كتاب الغزالي " تهافت الفلاسفة".

كما ألف ابن رشد في الفلك :"كتاب في حركات الأفلاك".

وخلاصة القول، إن ابن رشد كان من أعظم المفكرين والعلماء في القرن الثاني عشر الميلادي، وإن تأثيره في الغرب استمر حتى القرن السادس عشر.

وقد كان له تأثير كبير على تطور الطب نظرياً، لأنه مهد الطريق لفهم نظريات الإغريق في الطب بتلخيصه النقدي لمؤلفات جالينوس وغيره من جهة، وبانتقاده لنظرياتهم وإبداء آراء مخالفة لهم، من جهة أخرى.

. ابن الرزاز الجَزَرِي

عاش في القرن السادس للهجرة

هو بديع الزمان أبي العز إسماعيل بن الرزاز الجزري. وقد سمي بالجزري، لأنه من أبناء الجزيرة التي تقع بين دجلة والفرات. عاش في ديار بكر (تركيا الآن) في القرن السادس للهجرة، ودخل في خدمة ملوكها لمدة خمس وعشرين سنة، وذلك ابتداء من سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م.

رغم أن الجزري يعدّ من كبار المخترعين الميكانيكيين، إلا أن المعلومات عن حياته ليست كثيرة، وكل ما يعرف عنه هو ما كتبه عن نفسه في كتابه "الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل".

إسهاماته العلمية

تتجلى إسهامات ابن الرزاز في وصفه لعدد من الآلات الميكانيكية المختلفة من ضاغطة، ورافعة، وناقلة، ومحركة. كما أنه وصف بالتفصيل تركيب الساعات الدقيقة التي أخذت اسمها من الشكل الخاص الذي يظهر فوقها : ساعة القرد، وساعة الفيل، وساعة الرامي البارع، وساعة الكاتب، وساعة الطبال...إلخ.

ويستفاد من كتابه أنه اخترع عدداً كبيراً من النماذج الميكانيكية، إلا أنه اقتصر فقط على وصف خمسين نموذجاً. كما حرص على الجمع بين العلوم الميكانيكية النظرية التي كانت معروفة في زمانه، وبين النواحي التطبيقية العملية.

ويذكر دونالدهيل بأن الجزري صنع ساعات مائية وساعات تتحرك بفتائل القناديل، وآلات قياس، ونافورات، وآلات موسيقية، وأخرى لرفع المياه. كما صنع إبريقاً جعل غطاءه على شكل طير يصفر عند استعماله لفترة قصيرة قبل أن ينزل الماء. كما ذكر ألدوميلي أن الجزري صنع ساعة مائية لها ذراعان تشيران إلى الوقت.

مؤلفاته

يعدّ "كتاب الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل" أهم كتب الجزري. وقد كلفه بتصنيفه الملك ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أحد سلاطين بنى ارتق بديار بكر، أيام الخليفة العباسي ناصر دين الله أبو العباس أحمد سنة ١١٨١م. وقد أتم كتابته سنة (١٢٠٦م)، أي أن الكتاب كان نتيجة عمل دام خمس وعشرين سنة من الدراسة والبحث في الساعات، والفوارات المائية، والآلات الرافعة للماء والأثقال. ويعد الكتاب "أروع ما كتب في القرون الوسطي عن الآلات الميكانيكية والهيدروليكية".

وتوجد نسخ من كتاب الجزري في عدد من المتاحف العالمية كطوب كابي في استنبول، ومتحف الفنون الجميلة في بوسطن، ومتحف اللوفر بفرنسا، ومكتبة اكسفورد.

وقد اشتهر الكتاب كثيراً في الغرب، وقام بترجمة بعض فصوله إلى الألمانية كل من فيدمان Wiedmann وهاو سر Hawser في الربع الأول من القرن العشرين. كما ترجمه إلى الإنجليزية دونالد هيل Hill المتخصص في تاريخ التكنولوجيا العربية. وقد أصدر معهد التراث العلمي العربي في حلب بسورية، سنة ١٩٧٩ النص العربي، بعد أن قام بمراجعته وتحقيقه أحمد يوسف.

ـــــــــــــــــــــــ

. البطروجي

توفي سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م

أبو إسحاق نور الدين البطروجي الإشبيلي. ويعرف في الغرب باسم Alpetragius. فلكي من الأندلس، يقال إنه ولد في إشبيلية في القرن الثاني عشر للميلاد. أما الدكتور زهور فيقول إنه ولد في المغرب، ثم هاجر إلى إسبانيا وعاش في مدينة إشبيلية. وتوفي في بداية القرن الثالث عشر، أي حوالي ١٢٠٤م موافق ٦٠٠هـ. وقد عاصر ابن طفيل وتتلمذ عليه.

إسهاماته العلمية

وصف البطروجي نظرية فلكية جديدة، أحيا بها نظرية أودكسوس Eudoxos في الأفلاك المتعددة المركز، مع إدخال تعديل جذري عليها. وانتقد نظرية بطليموس الشهيرة في انحراف الكواكب ودورانها الدائري، فمهد الطريق بذلك أمام كوبرنيكوس. وقد كان معاصروه يعدّون آراءه تجديداً إيجابياً مهماً، بل إنهم كانوا، آنذاك، يتحدثون عن علم الفلك الجديد.

قال عنه كارادي فو : "أما البطروجي فله آراء مبتكرة في حركة الكواكب السيارة".

مؤلفاته

"كتاب الفلك" : كان هذا الكتاب معروفاً في أوربا في القرن الثالث عشر، وقد ترجمه ميشيل سكوت إلى اللاتينية في القرن الثالث عشر، كما ترجم إلى العبرية في القرن السادس عشر. وقد طبعت الترجمة اللاتينية لهذا الكتاب في فيينا عام ١٥٣١م.

ـــــــــــــــــــــــــــ

. ابن البيطار

٦٤٦-٥٩٣هـ/١٢٤٨-١١٩٧م

كان ابن البيطار أعظم النباتيين والصيادلة في الإسلام، وأوحد زمانه في معرفة النبات، وأعظم عالم نباتي وصيدلي في العصور الوسطى كلها.

واسمه الكامل هو أبو محمد عبد الله بن أحمد ضياء الدين الأندلسي المالقي المعروف بابن البيطار، والملقب بالعشاب. ولد بمدينة مالقة بالأندلس عام ٥٩٣هـ/١١٩٧م. كان والده بيطرياً. وقد درس ابن البيطار علم النبات على أبي العباس النباتي المعروف بابن الرومية، ولما بلغ العشرين من عمره، سافر إلى عدد من البلاد، كاليونان، وبلاد الروم، وشمال إفريقيا، والشام، ومصر للبحث عن النباتات الطبية ومشاهدتها بنفسه والتيقن منها. وفي مصر دخل في خدمة الملك الكامل الأيوبي، الذي عينه رئيساً على سائر العشابين. وبعد وفاة الكامل، ظل في خدمة ابنه الملك الصالح نجم الدين الذي كان يقيم في دمشق. ومن دمشق شرع ابن البيطار في دراسة النباتات في الشام وآسيا الصغرى بصفته طبيباً عشاباً. وقد تتلمذ عليه ابن أبي أصيبعة، ورافقه في رحلاته وأسفاره للبحث عن النباتات. وقد اشتهر ابن البيطار بكثرة أسفاره التي زار فيها الكثير من بقاع العالم لدراسة النباتات دراسة عالم خبير. توفي في دمشق عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م

إسهاماته في علم النبات والصيدلة

وصف ابن البيطار ١٤٠٠ نبتة طبية، منها ٣٠٠ لم يسبقه أحد إلى وصفها، وذكر أسماءها، وطرق استعمالها، وما قد يستعمل بديلاً لها. كما اكتشف أنواعاً كثيرة من النبات لم تكن معروفة من قبل. وقد درس النبات دراسة علمية تعتمد على التجربة التي تقوم على المشاهدة، والملاحظة، والاستنباط، مع ذكر المصادر التي نقل عنها وتحري الصدق والدقة.

وابن البيطار هو أول عالم اهتم بدراسة الحشائش التي تضر بالمحاصيل وصنفها حسب كل محصول.

إضافةً إلى اهتمامه بالنبات، اهتم ابن البيطار بدراسة الحيوانات البحرية والبرية، وذكر فوائدها في معالجة الأمراض، وهو بذلك يعد من كبار علماء علم الحيوان.

كما كان ابن البيطار من أعظم الصيادلة. ويقول سيد حسن في كتاب "العلوم والحضارة في الإسلام" : <إن ابن البيطار أعظم عالم مسلم في علمي النبات والعقاقير، وقد طغت سمعته الواسعة على جميع الصيادلة في القرون الوسطى، وبدون شك، فهو أعظم صيدلي منذ عصر ديسقوريدس حتى العصر الحديث>. ولم يقتصر ابن البيطار على استخلاص الأدوية من الأعشاب الطبية، بل استخرج كثيراً منها من الحيوانات والمعادن.

مؤلفاته

ألف ابن البيطار عدة كتب، من أشهرها :

- "كتاب جامع مفردات الأدوية والأغذية"، طبع عام ١٢٩١هـ. وهو مجموعة من الأدوية البسيطة المستخرجة من المعادن والنبات والحيوان، وقد جمعت من كتب اليونان والعرب، ومن التجارب الخاصة للمؤلف ؛ وهو مرتب على حروف المعجم. ترجم الكتاب إلى اللاتينية، وظل مرجعاً للغربيين حتى عصر النهضة الأوربية. ويقول جورج سارطون في كتابه "مدخل إلى تاريخ العلوم" :

ولقد رتب ابن البيطار مؤلفه "الجامع في الأدوية المفردة" ترتيباً يستند إلى الحروف الأبجدية ليسهل تناوله، وقد سرد أسماء الأدوية بسائر اللغات المختلفة. واعتمد علماء أوربا على هذا المؤلف حتى عصر النهضة الأوربية.

- "كتاب المغني في الأدوية المفردة"، وهو كتاب في العقاقير تناول فيه ابن البيطار علاج الأعضاء عضواً عضواً، وذلك بطريقة مختصرة كي ينتفع به الأطباء.

. ابن النفيس

٦٨٧-٦٠٧هـ/١٢٨٨-١٢١٠م

علاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي، الملقب بابن النفيس. ولد في نواحي دمشق ونشأ وتعلم بها. فدرس الطب على الدخوار، رئيس المستشفي النوري، وعلى مشاهير الأساتذة أمثال عمران الإسرائيلي، وراضي الدين الرحابى. ثم درَّس الطب بدوره وأشرف على جناح في المستشفى النوري. ثم انتقل بعد ذلك إلى القاهرة واشتغل في المستشفى الناصري. وقد ترقى في مناصب الطب إلى أن أصبح رئيس أطباء

مصر. وكان معاصروه يعدّونه في مستوى ابن سينا نفسه من حيث المكانة العلمية والمعرفة بالطب. ويروى أنه كان يحفظ قانون ابن سينا عن ظهر قلب، وملماً بكتب جالينوس. "وكانت طريقته في التأليف أن يكتب من حفظه، وتجاربه، ومشاهداته، ومستنبطاته" دون الرجوع إلى أي مرجع.

وكانت لابن النفيس معرفة واسعة بعلوم أخرى كالفلسفة، والمنطق، والنحو، وعلوم الشريعة. ولم يكن ابن النفيس يتقبل الأشياء، وإن كانت منقولة عن مشاهير العلماء، دون جدل أو نقاش. فقد انتقد تعابير جالينوس الطبية ووصفها بالضعف والتعقيد.

إسهامات ابن النفيس في مجال الطب

يعتبر ابن النفيس إمام الطب في عصره، وأحد أطباء دمشق المشهورين. و قد سبق غيره إلى اكتشاف الدورة الدموية الرئوية، ووصفها وصفاً علمياً صحيحاً، فسبق بذلك مايكل سرفتيس Miguel Servede الذي ينسب إليه الأوربيون هذا الاكتشاف.

وقد اعتمد ابن النفيس التشريح طريقةً للعمل وتوصل إلى عدد من النتائج منها :

١. اكتشاف الدورة الدموية في الشرايين الإكليلية ؛

٢. جريان الدم إلى الرئتين لمدهما بالهواء وليس لمدهما بالغذاء ؛

٣. عدم وجود هواء أو رواسب في شرايين الرئتين (كما ادعى جالينوس) بل وجود الدم فقط.

مؤلفاته

ترك ابن النفيس عدداً من المؤلفات، منها :

- "شرح تشريح القانون"، وقد شرح فيه باب التشريح من كتاب القانون لابن سينا، وانتقد عدداً من أقواله في هذا الباب. وقد ظل هذا الكتاب مغموراً في المكتبات إلى أن عثر عليه الطبيب المصري الدكتور محي الدين الطراوي سنة ١٩٢٤ في مكتبة برلين، وقام بدراسته في رسالة لنيل دكتوراه من جامعة فريبورج بألمانيا.

- "الكتاب الشامل في الطب"، وهو موسوعة من ثمانية أجزاء. ولا توجد سوى فقرات من هذا الكتاب في مكتبة أكسفورد.

- "المهذب في الكحل"، وهو مؤلف عن الرمد.

- "المختار في الأغذية "، وهو كتاب عن الغذاء.

- "شرح فصول أبقراط"، توجد نسخة منه في المكتبة الوطنية بباريس والأسكوريال. وقد تم طبعه في إيران عام ١٢٩٨هـ/١٨٨١م.

- "موجز القانون"، وهو موجز لقانون ابن سينا، يقع في خمسة أجزاء. وتوجد نسخ منه في كل من باريس وأكسفورد، وفلورنسا، وميونيخ، والأسكوريال. وقد ترجم هذا المؤلف إلى التركية والعبرية، وطبع بالإنجليزية لأول مرة سنة ١٨٣٨م في مدينة كالكوتا بالهند تحت عنوان "المغني في شرح الموجز".

. الحسن المراكشي

توفي سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م

هو أبو علي الحسن بن علي بن عمر المراكشي، من علماء المغرب، عاش في عصر الموحدين في النصف الأول من القرن السابع الهجري / منتصف القرن الثالث عشر للميلاد.

وقد اشتهر المراكشي في الفلك، والرياضيات، والجغرافيا، وصناعة الساعات الشمسية.

إسهاماته العلمية :

له بحوث في المثلثات مع إدخال عدد من التجديدات عليها. فقد أدخل فيها الجيب، وجيب التمام، والسهم. وعمل أيضاً الجداول للجيب، كما جاء بحلول لبعض المسائل الفلكية. وقدم تفصيلات عن أكثر من ٢٤٠ نجماً لسنة ٦٢٢هـ. وهو أول من استعمل الخطوط الدالة على الساعات المتساوية.

وإضافةً إلى ذلك، فقد قام المراكشي بإدخال تصحيحات جغرافية مهمة، وجدد في رسم خريطة المغرب.

مؤلفاته

- "جامع المبادئ والغايات في علم الميقات" : بهذا الكتاب اشتهر المراكشي بين علماء الغرب، واعتبروه من أعظم فلكيي العرب والمسلمين. واعتبر حاجي خليفة الكتاب أعظم ما صنف في هذا الفن، وقال إنه مرتب على أربعة فنون، هي الحساب، ووضع الآلات، والعمل بالآلات، ومطارحات تحصل بها الدراية والقوة على

الاستنباط ؛ وهو يشتمل على بعض المسائل في الجبر والمقابلة. أما "سارطون" فيقول عنه إنه من أحسن الكتب وفيه بحوث نفيسة في المثلثات، والساعات الشمسية المتنوعة. وقد ترجمه "إمانويل سيديو"، ونشر ابنه (لويس أميلي سيديو) هذه الترجمة ١٨٣٤-١٨٣٦، كما أن "كارادي فو" نشر من هذا الكتاب الجزء المتعلق بالأسطرلاب.

وللمراكشي كتب أخرى في الرياضيات منها :

- "كتاب القطوع المخروطية" ؛
- "رسالة تلخيص العمل في رؤية الهلال".

قطب الدين الشيرازي

٦٣٤-٧١٠هـ/١٢٣٦-١٣١١م

هو قطب الدين الشيرازي محمود بن مسعود بن مصلح الفارسي. ولد في شيراز (إيران). وتعلم الطب على والده وعمه، ثم تتلمذ على "نصير الدين الطوسي". وقد زار عدداً من البلدان، فذهب إلى خراسان، والعراق، وفارس، ومصر. ومارس الشيرازي إلى جانب نشاطه العلمي، القضاء والدبلوماسية حيث عين قاضياً في إحدى مدن فارس، ثم دخل في خدمة ملوكها. وقد أرسله أحدهم في بعثة إلى المنصور (سيف الدين قلاوون) سلطان المماليك في القاهرة، لعقد معاهدة سلام بين الطرفين. فبقي مدة في مصر،ثم رجع أخيراً إلى "تبريز" حيث كانت وفاته سنة ٧١٠هـ/١٣١١م.

إسهاماته العلمية

يعدّ "جورج سارطون" قطب الدين الشيرازي من علماء الرياضيات، والفلك، والفيزياء، والفلسفة البارزين. وقد تجلت إسهاماته في الفيزياء في شرحه لقوس قزح "شرحاً وافياً هو الأول من نوعه، فبين أن ظاهرة القوس هذه، تحدث من وقوع أشعة الشمس على قطيرات الماء الصغيرة الموجودة في الجو عند سقوط الأمطار، وحينئذ تعاني الأشعة انعكاساً داخلياً، وبعد ذلك تخرج الأشعة إلى عين الرائي".

أما في الفلك، فقد تابع أعمال أستاذه نصير الدين الطوسي، فطور نموذجاً فلكياً لعطارد كان الطوسي قد بدأه، كما شرح أفكار أستاذه الغامضة في الفلك والهندسة. وكان الشيرازي يعتمد في بحوثه على المشاهدة والتجربة والاستنتاج، مع الأخذ بالبرهان الرياضي على المسائل الفيزيائية والفلكية.

مؤلفاته

لقطب الدين مؤلفات عديدة، نذكر من أهمها :

- "نهاية الإدراك في دراية الأفلاك"، وهو كتاب . كما يقول سارطون . يشتمل "على موضوعات مختلفة، تتعلق بالفلك، والأرض، والبحار، والفصول، والظواهر الجوية، والميكانيكا، والبصريات".
- "كتاب التحفة الشاهية في الهيئة" ؛
- "كتاب التبصرة في الهيئة" ؛
- "كتاب نزهة الحكماء وروضة الأطباء" : وهو شرح وتعليق على كتاب القانون لابن سينا ؛
- "كتاب رسالة في بيان الحاجة إلى الطب وآداب الأطباء ووصاياهم" ؛
- "رسالة في البرص".

وللشيرازي أيضاً عدد آخر من المؤلفات في الفلك وفي علوم مختلفة. وقد توجه في أواخر حياته إلى التصوف، ووضع بعض المصنفات في علوم القرآن والحديث.

. ابن البناء

٧٢١-٦٥٤هـ/١٣٢١-١٢٥٦م

"عالم مراكشي متفنن في علوم جمة، برز بصفة خاصة في الرياضيات، والفلك، والتنجيم، والعلوم الخفية، وكذلك في الطب".

وهو أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المعروف بأبي العباس بن البناء المراكشي. كان أبوه بناء. ولد في مراكش بالمغرب عام ٦٥٤هـ/١٢٥٦م، وقضى أغلب فترات حياته بها، وهذا هو السبب في انتسابه لها، وبها درس النحو والحديث والفقه، ثم ذهب إلى فاس و درس الطب والفلك والرياضيات. وكان من أساتذته ابن مخلوف

السجلماسي الفلكي، وابن حجلة الرياضي. وقد حظي ابن البناء بتقدير ملوك الدولة المرينية في المغرب الذين استقدموه إلى فاس مراراً. وتوفي في مدينة مراكش عام ٧٢١هـ/١٣٢١م.

إسهاماته العلمية

من إسهامات ابن البناء في الحساب أنه أوضح النظريات الصعبة والقواعد المستعصية، وقام ببحوث مستفيضة عن الكسور، ووضع قواعد لجمع مربعات الأعداد ومكعباتها، وقاعدة الخطأين لحل معادلات الدرجة الأولى، والأعمال الحسابية. وأدخل بعض التعديل على الطريقة المعروفة "بطريقة الخطأ الواحد" ووضع ذلك على شكل قانون.

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أن ابن البناء قد تفوق على من سبقه من علماء الرياضة من العرب في الشرق وخاصة في حساب الكسور، كما عُدَّ من أهم الذين استعملوا الأرقام الهندية في صورتها المستعملة عند المغاربة.

مؤلفاته

ألف ابن البناء أكثر من سبعين كتاباً في الحساب، والهندسة، والجبر، والفلك، والتنجيم، ضاع أغلبها ولم يبق إلا القليل منها، وأشهرها :

- "كتاب تلخيص أعمال الحساب" : يعترف "سمث" و"سارطون" بأنه من أحسن الكتب التي ظهرت في الحساب. وقد ظل الغربيون يعملون به إلى نهاية القرن السادس عشر للميلاد، وكتب كثير من علماء العرب شروحاً له، واقتبس منه علماء الغرب. كما اهتم به علماء القرنين التاسع عشر والعشرين. وقد ترجم إلى الفرنسية عام ١٨٦٤م على يد مار Marre، ونشرت ترجمته في روما. وقد أعاد ترجمته إلى الفرنسية الدكتور محمد سويسي، ثم نشر النص والترجمة مع تقديم وتحقيق سنة ١٩٦٩.
- "مقالات في الحساب"، وهو بحث في الأعداد الصحيحة، والكسور، والجذور، والتناسب ؛
- "كتاب الجبر والمقابلة" ؛
- "كتاب الفصول في الفرائض" ؛

ـ "رسالة في المساحات" ؛

ـ "كتاب الأسطرلاب واستعماله" ؛

ـ "كتاب اليسارة في تقويم الكواكب السيارة" ؛

ـ "منهاج الطالب في تعديل الكواكب"، وقد حقق المستشرق الإسباني فيرنه خينس مقدمة الكتاب وبعض فصوله وترجمها إلى الإسبانية سنة ١٩٥٢ ؛

ـ "كتاب أحكام النجوم".

وقد صدر للأستاذين محمد أبلاغ وأحمد جبار كتاب بعنوان "حياة ومؤلفات ابن البنا" ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط سنة ٢٠٠١، يتضمن جرداً شاملاً لمؤلفاته.

ــــــــــــ

. ابن الشاطر

٧٧٧-٧٠٤هـ/١٣٧٥-١٣٠٤م

عالم دمشقي برع في الهندسة، والحساب، والفلك. هو أبو الحسن علاء الدين علي بن إبراهيم بن محمد الأنصاري الموقت، المعروف بابن الشاطر. ولد وتوفي بدمشق، وكني بـ "المطعم"، لأنه كان في صغره يطعم العاج.

توفي والده وتركه صغيراً فكفله جده، ثم ابن عم أبيه وزوج خالته الذي علمه تطعيم العاج. وقد كون ثروة كبيرة مكنته من زيارة عدد من البلدان كمصر، حيث درس في القاهرة والإسكندرية علمي الفلك والرياضيات. وقد قضى معظم حياته في وظيفة التوقيت ورئاسة المؤذنين في المسجد الأموي بدمشق.

إسهاماته العلمية

تظهر إسهامات ابن الشاطر في ابتكاره لكثير من الآلات مثل الأسطرلاب وتصحيحه للمزاول الشمسية، ووضعه لنظريات فلكية ذات قيمة علمية رفيعة. كما ظلت كتبه في الأسطرلاب والمزاول الشمسية متداولة لعدة قرون في كل من الشام، ومصر، وفي أرجاء الدولة العثمانية وسائر البلاد الإسلامية ؛ حيث كانت يعتمد عليها لضبط الوقت في العالم الإسلامي.

كما نجح ابن الشاطر في قياس زاوية انحراف دائرة البروج بدقة كبيرة، حيث قدَّرها بـ ٢٣ درجة و ٣١ دقيقة. وفي هذا الشأن يقول جورج سارطون :

"إن ابن الشاطر عالم فائق في ذكائه، فقد درس حركة الأجرام السماوية بكل دقة، وأثبت أن زاوية انحراف دائرة البروج تساوي ٢٣ درجة و ٣١ دقيقة سنة ١٣٦٥ علماً بأن القيمة المضبوطة التي توصل إليها علماء القرن العشرين بواسطة الآلات الحاسبة هي ٢٣ درجة و ٣١ دقيقة و ١٩,٨ ثانية".

كما برهن ابن الشاطر، بفضل الأرصاد التي قام بها، على عدم صحة نظرية بطليموس. وقال بأن الأرض تدور حول الشمس، والقمر يدور حول الأرض. وهذا هو الاكتشاف الذي توصل إليه كوبرنيك بعد عدة قرون.

مؤلفاته

ألف ابن الشاطر عدداً من الكتب مازال أغلبها مفقوداً. ومن مؤلفاته التي أشار الزركلي إليها في كتابه "الأعلام" نذكر :

ـ "الزيج الجديد"، كتبه بطلب من الخليفة العثماني مراد الأول الذي حكم الشام ما بين ١٣٦٠ و ١٣٨٩م. وقد قدم فيه ابن الشاطر نماذج فلكية قائمة على التجارب والمشاهدة والاستنتاج الصحيح.

ـ "إيضاح المغيب في العمل بالربع المجيب" ؛

ـ "أرجوزة في الكواكب" ؛

ـ "رسالة في الأسطرلاب" ؛

ـ "مختصر العمل بالأسطرلاب" ؛

ـ "النفع العام في العمل بالربع التام" ؛

ـ "رسالة نزهة السامع في العمل بالربع الجامع" ؛

ـ "رسالة كفاية القنوع في العمل بالربع المقطوع".

———————————

. الكاشي

توفي سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٦م

هو غياث الدين بن مسعود بن محمد الكاشي. ولد في أواخر القرن الثامن الهجري في مدينة قاشان (إيران). درس الكاشي النحو والصرف والفقه والمنطق، ثم درس الرياضيات وتفوق فيها. ولا غرابة في ذلك، فإن والده كان من أكبر علماء الرياضيات والفلك. وقد عاش الكاشي معظم حياته في سمرقند، وفيها بنى مرصداً سماه "مرصد سمرقند".

إسهاماته العلمية

شرح الكاشي كثيراً من إنتاج علماء الفلك الذين اشتغلوا مع نصير الدين الطوسي في مرصد "مراغة"، كما حقق جداول النجوم التي وضعها الراصدون في ذلك المرصد. وقدر الكاشي تقديراً دقيقاً ما حدث من كسوف للشمس خلال ثلاث سنوات (بين ٨٠٩ و ٨١١هـ/١٤٠٧ و١٤٠٩م). وهو أول من اكتشف أن مدارات القمر وعطارد إهليليجية.

وفي الرياضيات، ابتكر الكاشي الكسور العشرية، ويقول سمث في كتابه "تاريخ الرياضيات" : "إن الخلاف بين علماء الرياضيات كبير، ولكن غالبيتهم تتفق على أن الكاشي هو الذي ابتكر الكسر العشري".

كما وضع الكاشي قانوناً خاصاً بمجموع الأعداد الطبيعية المرفوعة إلى القوة الرابعة. ويقول كارادي فو في حديثه عن علماء الفلك المسلمين : "ثم يأتي الكاشي فيقدم لنا طريقة لجمع المتسلسلة العددية المرفوعة إلى القوة الرابعة، وهي الطريقة التي لا يمكن أن يتوصل إليها بقليل من النبوغ".

مؤلفاته

وضع الكاشي مصنفات في علوم مختلفة نذكر منها :

- "كتاب زيج الخاقاني"، وفيه ضبط لجداول النجوم التي وضعها الراصدون في مرصد مراغة.
- "رسالة في الحساب" ؛
- "رسالة في الهندسة" ؛
- "رسالة الجيب والوتر" ؛
- "رسالة عن إهليليجي القمر وعطارد".

ويقول عبد الله الدفاع عن أهمية مؤلفات الكاشي وخاصة "مفتاح الحساب" : "وكان كتابه "مفتاح الحساب" منهلاً استقى منه علماء الشرق والغرب على حد سواء، واعتمدوا عليه في تعليم أبنائهم في المدارس والجامعات عدة قرون، كما استخدموا كثيراً من النظريات والقوانين التي أتى بها وبرهنها وابتكرها".

____

. ألغ بك

٧٩٦-٨٥٣هـ/١٣٩٣-١٤٤٩م

ألغ بك محمد تورغاى بن شاه رخ بن تيمور ، ولد سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣م في "سلطانية" بآسيا الوسطى. ونشا في بيت إمارة وسلطان، فقد كان أبوه يحكم بلداناً كثيرة ومقاطعات واسعة.

وقبل سن العشرين، عينه والده أميراً على "تركستان" وبلاد ما وراء النهر. واتخذ ألغ بك سمرقند عاصمة له، وجعلها مركزاً للحضارة الإسلامية. وقد قام خلال مدة حكمه التي دامت ما يقرب من أربعين سنة، بعدة أعمال عظيمة وقدم خدمات كثيرة للعلوم والفنون.

إسهاماته العلمية

توصل ألغ بك إلى اختراع آلات فلكية جديدة أعانت الفلكيين على بحوثهم، وفي هذا يقول "L. Bouvat" : >استطاع "ألغ بك" أثناء عمله معهم، أي الفلكيين، استنباط آلات جديدة قوية، تعينهم في بحوثهم المشتركة". كما اشتغل بالمثلثات، وقد ساعدت جداوله في الجيوب والظلال على تقدم هذا العلم. واعتنى بفروع الرياضيات الأخرى، لا سيما الهندسة التي حلّ بعض مسائلها المعقدة.

وقد بنى في سمرقند مرصداً وجهزه بجميع الآلات والأدوات التي كانت معروفة في زمانه، وكان هذا المرصد "يعد في زمانه إحدى عجائب الدنيا"، وجمع فيه عدداً من كبار العلماء الفلكيين والرياضيين مثل "قاضي زاده الرومي"، و"معين الدين القاشاني" وغيرهما، وعكف معهم (من ٨٢٧ إلى ٨٣٩هـ) على تصحيح الأرصاد اليونانية.

لم يكن ألغ بك عالماً بالفلك والرصد والرياضيات فقط، بل كان كذلك أديباً ومؤرخاً وفقيهاً، فقد درس القرءان الكريم وحفظه وجوده بالقراءات السبع.

مؤلفاته

- "زيج ألغ بك"، جمع فيه نتائج الأرصاد التي تمت خلال اثنتي عشرة سنة.ويشتمل هذا الزيج على طرق عملية لحساب الخسوف والكسوف، وجداول النجوم الثابتة، ولحركات الشمس والقمر والكواكب، ولخطوط الطول والعرض للمدن الكبيرة في العالم. وهناك اختلاف حول اللغة التي كتب بها هذا الزيج، هل هي العربية أم الفارسية أم التركية ؟.

طبع هذا الكتاب لأول مرة في لندن سنة ١٦٥٠م. ونقل فيما بعد إلى اللغات الأوربية. وترجم "سيديو" المقدمة إلى الفرنسية ونشرها في باريس سنتي ١٨٤٧م و١٨٥٣م في مجلدين. وفي عام ١٤١٩هـ/١٩٩٨م قام فؤاد سزكين، بتعاون مع مجموعة من الباحثين، بجمع وإعادة طبع أعمال ألغ بك الفلكية باللغة الألمانية.

المراجع

١. أحمد عبد الباقي : معالم الحضارة العربية في القرن الثالث الهجري، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة التراث القومي، ١٩٩١، بيروت.

٢. أحمد جبار . محمد أبلاغ : حياة ومؤلفات ابن البنا المراكشي، منشورات كلية الآداب بالرباط، ط ١، ٢٠٠١,

٣. ابن أبي اصيبعة : كتاب عيون الأنباء، تحقيق عامر النجار، ١٩٩٦,

٤. أرنولد، سير توماس : تراث الإسلام، تعريب جرسيس فتح الله، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٢,

٥. ابن خلكان، أبو بكر : وفيات الأعيان، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، دار الصادر.

٦. ابن رشد : الكليات في الطب، تحقيق د. سعيد شيبان ود. عمار الطالبي، المجلس الأعلى للثقافة الجزائري، ١٩٨٩، الجزائر.

٧. ابن زهر، أبو مروان عبد الملك : كتاب التيسير في المداواة والتدبير، تحقيق محمد بن عبد الله الروداني، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، "سلسلة التراث"، ١٩٩١، الرباط.

٨. ابن طفيل : نصوص ودراسات، جمع وإعادة طبع فؤاد سركيس، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت، ألمانيا.
٩. بنو موسى بن شاكر : كتاب الحيل، تحقيق أحمد يوسف حسن، جامعة حلب، معهد التراث العلمي العربي، دمشق، ١٩٨١.
١٠. المجموعة الكاملة من مجلة تراث الإنسانية : وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر.
١١. التليلي : ابن رشد الفيلسوف العالم.
١٢. حركات، د. إبراهيم : المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣.
١٣. حكيم محمد سعيد : أعلام ومفكرون : لمحات عن مشاهير العلماء والمفكرين في عصور الإسلام الذهبية، ط. ٢، ٢٠٠٠، الأكاديمية الإسلامية للعلوم، عمان، الأردن.
١٤. الخطابي، محمد العربي : الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
١٥. دائرة المعارف الإسلامية : الترجمة العربية، أكتوبر، ١٩٣٢.
١٦. الدفاع، عبد الله : إسهام علماء العرب والمسلمين في علم الحيوان، ط. ١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦.
١٧. الدفاع، عبد الله : العلوم البحتة في الحضارة العربية الإسلامية، ط. ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١.
١٨. الدفاع، عبد الله : الموجز في التراث العلمي العربي الإسلامي، جون وايلي وأولاده، نيويورك، ١٩٧٩.
١٩. ألدو مييلي : العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي،عربه د. عبد الحليم النجار ود. محمد يوسف موسى، دار القلم.
٢٠. الزركلي، خير الدين : الأعلام؛ قاموس لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط. ٤، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٩.

٢١. طوقان، قدري حافظ : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ط. ٣، القاهرة"، دار القلم، ,١٩٦٣

٢٢. طوقان، قدري حافظ : العلوم عند العرب، دار اقرأ، بيروت.

٢٣. كنون، عبد الله : النبوغ المغربي في الأدب العربي، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ط. ٢، ,١٩٦١

٢٤. مرحبا، محمد عبد الرحمن : الجامع في تاريخ العلوم عند العرب، ط. ٢، بيروت، منشورات عويدات، ,١٩٨٨

٢٥. مريزن، سعيد مريزن عسيري : الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، مكتبة الطالب، مكة المكرمة، ,١٩٨٧

٢٦. المنوني، محمد : ورقات عن حضارة المرينيين، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، ,١٩٩٦

٢٧. الموسوعة العربية الميسرة، بإشراف محمد شفيق غربال، ط. ٢، دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٧٢، القاهرة.

٢٨. نليينو، كارلو : علم الفلك، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى. ملخص المحاضرات التي ألقاها بالجامعة المصرية.

٢٩. فروخ، د. عمر : تاريخ العلوم عند العرب.

٣٠. هونكه، زغريد : شمس العرب تسطع على الغرب، أثر الحضارة العربية على أوربا، تعريب فاروق بيضون وكمال الدسوقي، ط. ٨، بيروت، دار الجيل، دار الأفاق الجديدة، ,١٩٩٣

Sarton, George : Introduction to the History of Science, .٣١ Carnegie Institution of Washington , by The Williams and .Wilkins Company, Baltimore

, Chronology, ١٩٥٠-٥٧٠Zahoor, Akram : Muslim History . ٣٢ .(http: www. cyberistan. Org/ ٢٠٠٠ZMD Corporation, MD., .(.htm٥٧٠muslimhistory

...

#الحضارة والأخلاق ودورنا المطلوب

شهد العالم خلال القرون الثلاثة الأخيرة، ولا سيما في النصف الثاني من القرن العشرين، تقدماً حضارياً كبيراً شمل جميع مرافق الحياة، ورقياً فكرياً مذهلاً استطاع به الانسان أن يسبر أعماق البحار، ويضع قدمه على جبين الأقمار وتغيرت، تبعاً لذلك، أوضاع المجتمعات ونظم الحياة، بعضها بحكم القوانين التي شرعت لتجعلهما ملائمة للتطورات الحضارية الجديدة، وبعضها بتأثير المخترعات والاكتشافات التي ظهرت واستلزمت من الانسان أن يتكيف معها، ويتخذ من الترتيبات ما يناسبها، بما في ذلك مسكنه ومأكله وملبسه وتربية أبنائه وعلاقته بأهله وسلوكه إزاء محيطه، وحتى حيال المجتمعات البعيدة عنه، مما يجعل أسلوب معيشته يختلف كثيراً عن أسلوب معيشة آبائه الأولين.

وليس من شك في أن الانسانية استفادت كثيراً من الخطوات الإيجابية التي تحققت في الميدان الحضاري، وهي خطوات عملاقة، وأن كثيراً من العقبات ذللت أمام مسيرها فأصبحت الحياة أكثر يسراً ومتعها متوافرة والرغبة في البقاء فيها تزداد، ومن نافلة القول أن يشير الانسان إلى الفوارق بين راكبي الدواب في الأسفار قديماً، وبين راكبي الطائرات التي تسبق الصوت حديثاً، أو بين المستشفي بالكيِّ والحجامة وتعليق الرقى والتمائم، وبين المعالج بأشعة الليزر وزرع الأعضاء وبالونات الأوكسجين، أو بين المستصبح بفتيل القنديل وبين المستضيء بالنور المتولد من الكهرباء أو المقتبس من طاقة الشمس، إنها قدرات العقل البشرى ومكاسبه، وفتوحات العلم المتوالية المتلاحقة التي تؤكد ما خصّ الله به الجنس البشري من تفضيل وتكريم وسخّر له من الكائنات ناطقها والساكت، متحركها والجامد: (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) الإسراء/ ٧٠.

إن الحضارة المعاصرة . وإن كانت ذات طابع متميز يكاد يجعلها منقطعة الجذور ليست إلا امتداداً لحضارات سبقتها، استقت من روافدها وعالجتها بمخصبات لم

تعرف من قبل حتى أينعت وأثمرت وأصبحت سامقة الفروع وريفة الظلال، إذ ما زال الخف يستمد من السلف معارفه ويحسنها بالصقل والتصحيح، وما فتئ الآخر يستفيد من تجارب الأول ويضيف إليها ما استجد من التجارب وأفاد من الممارسات، وليس أحد بقادر على أن ينكر ما بلغته أمم قديمة من معارف وتجارب كانت هي حجر الأساس للمعارف العصرية والتجارب الآنية، كقدماء المصريين واليونان والرومان والفرس والصينيين، وعندما يقرأ المرء كتب التاريخ وهي تصف مظاهر الحياة الراقية التي عاشتها بعض الشعوب منذ آلاف السنين، أو يقف في المتاحف أمام الآثار العجيبة والصناعات الدقيقة الراجعة إلى عصور قديمة سحيقة ليدركه العجب مما اهتدى إليه الأقدمون من أسرار الطبيعة واكتشفوا من خفايا الكون ونواميسه ويقول إن المتأخرين ليسوا إلا تلامذة للمتقدمين، ولكن الحضارات تُصاب . ككل الكائنات بالقبض بعد البسط، ويخلف بعضها بعضاً، فيترك الهَرِمُ المعمّر منها مكانه للناشئ الفتي، والحضارة الاسلامية هي واحدة من الحضارات السالفة التي استفادت منها الحضارة الحديثة واستمدت، لقد كانت تلك الحضارة مِلء الأسماع والأبصار طيلة قرون، وفي مملكة الاسلام الفسيحة الممتدة من أرض الصين شرقاً شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، وبفضلها حفظت علوم الأقدمين وتجاربهم وأضيفت إليها معارف المسلمين وتجاربهم قبل أن تنقل إلى البلاد الغربية لتصير المنطلق الذي خطت منه الحضارة الحديثة خطواتها المتواصلة، ويرجع الفضل في شموخ بنيان الحضارة الاسلامية إلى الدين الاسلامي نفسه الذي فكّ العقل من عقال الجمود، وأمر معتنقيه بالتفقه والتعلم، وحثهم على السير في الأرض والتأمل في ملكوتها وملكوت السماوات، وأهاب بهم إلى النظر فيما حولهم وفوقهم وتحتهم ليدركوا نواميس الكون وسنن الله في الخلق، وفضل العالم على العابد، ورفع الذين أوتوا العلم درجات على الذين لم يؤتوه، وحضّ على التماس المعرفة ولو تناءت مواطن التماسها وأمكنة طلبها، فبفضل سماحة الاسلام وتعاليمه التقدمية تمكن المسلمون، لا من بسط حكمهم على أوسع مملكة فقط، ولكن تمكنوا أيضاً من أن ينشئوا فيها مجتمعات متحضرة يزينها العدل والرفق، ويدعمها العلم والمعرفة وحسن التنظيم، ونشطت بفضل الاسلام في هذه المجتمعات الحركة العلمية، وأقبل العلماء على دراسة مختلف

العلوم والفنون، إضافة إلى العلوم الدينية واللغوية، فما من باب من أبواب العلم إلا طرقوه، وما من درب من دروب الفن إلا سلكوه، وآثارهم في الهندسة والفلك، والطب والصيدلة، والجغرافية والموسيقى، والفلسفة والمنطق وغيرها، تشهد بذلك، كما أن حواضرهم بما اشتملت عليه من قصور فخمة، وحدائق أنيقة، ومساجد مزخرفة، ومدارس منمقة، ومستشفيات متطورة، وأسواق نافقة، ومهن مرتبة، ومراكب تغدو بالبضائع والمسافرين وتروح، كانت الشموس المضيئة والأقمار المنيرة في عصر ألقى الظلام بسجفه على غيرها من البلاد التي لا يدين أهلها بدين الاسلام. وهل يجهل أحد عظمة ما بلغته من حضارة رفيعة دمشق وبغداد، وبخارى واصفهان، والقاهرة وتونس القيروان، وبجاية وتلمسان، وفاس ومراكش وقرطبة وإشبيلية؟ وهل يجحد جاحد فتوح العلم وكشوف المعرفة التي تحققت على أيدي العلماء المسلمين كابن سينا والبيروني والفارابي وابن الهيثم وابن النفيس في شرق البلاد الاسلامية، وابن الجزار وابن البنا وابن طفيل وابن رشد وبني زهر في غربها؟ كلا لا يستطيع.

ومما امتازت به الحضارة الاسلامية طابعها الانساني والأخلاقي، لقد كان يواكب مظاهرها المادية . المتمثلة في الرقي العمراني والإبداع الفني والتقدم العلمي . مظاهر أخرى تتمثل في التحلي بمحامد الأخلاق ومكارم الشيم التي وصّى الله بها عباده المؤمنين، وحث رسوله الكريم على الاتصاف بها من دخل في دينه من المسلمين، كاحترام كرامة الانسان وتمتيعه بحقوقه، والحكم بالعدل، والتشاور في المصالح العمومية، ورفق القوي بالضعيف، ورد الغني من ماله على الفقير، وسؤال الراعي عن رعيته، وتحريم أكل الأموال بالباطل والإدلاء بها إلى الحكام، إن الاسلام أمر بالعدل والإحسان وأداء الأمانة، والجنوح إلى السلم وإفشاء السلام، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، نهى حتى عن قهر اليتيم ونهر السائل وتعذيب الحيوان، ألم يخبر الرسول أن امرأة دخلت الجنة في قطة وأخرى دخلت النار فيها؟ ألم يقل إن في كل ذي كبد حرّى صدقة؟ ألم يجعل إماطة الأذنى عن الطريق من شعب الإيمان؟

إن الحضارة الاسلامية تهدف إلى إسعاد الناس مادياً ومعنوياً، وإلى توفير الراحة البدنية لهم بنشر العلم وتنظيم العمارة وترقية الصناعة وتحسين الفلاحة لتأمين الغذاء اللازم لمعيشتهم، كما تهدف إلى توفير الطمأنينة النفسية لهم ولمن يساكنهم، ولو

كانوا على غير ملتهم، بصيانة كرامتهم وضمان حقوقهم، وتجنيبهم كل ضيم أو ضرر يلحق دماءهم وأموالهم وأعراضهم من أيٍّ كان، وإنا لَواجدون في الآثار المختلفة عن المسلمين أيام كانت حضارتهم الحضارة السائدة شواهد تدل على سمو تفكيرهم في الكائنات وبذلهم المال والمتاع لحفظها ابتغاء مرضاة الله، إن في المغرب . مثلاً . أوقافاً حبسها المحسنون لتجهيز اليتيمة والفقيرة إلى بيت بعلها كما تجهزُ ذات الأهل والمال، وأخرى لشراء الأواني التي قد تنكسرُ في الطريق بين أيدي الأطفال المتعلمين وهم ينقلون فيها أطعمة إلى معلميهم الصناع من البيوت، بل إن عندنا في المغرب أوقافاً يصرف ريعها على الطيور لجبر سيقانها وأجنحتها إذا انكسرت، وأخرى لإسماع الحمقى والمجانين نغمات الموسيقى الراقية مرة في كل أسبوع تهدئة لأعصابهم وتسكيناً لهياجهم، ومثل هذا . ولا شك . في سائر البلاد الاسلامية كثير.

بيد أن هذه الحضارة التي وفرت للمجتمعات الاسلامية طيلة قرون تقدماً مادياً وسمواً أخلاقياً، أصابها ما أصاب الحضارات التي سبقتها من تدهور، بفعل استبداد الحكام وجورهم، وتحجر أفكار بعض العلماء والفقهاء ومداهنتهم للولاة وسوء فهمهم وتأويلهم لأحكام الشريعة ومقاصدها، مما جرّأ عليهم عدوهم وأطمعه في امتلاك أوطانهم واستعباد رقابهم، و(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) الرعد/ ١١.

– الإيجاب والسلب في الحضارة السائدة:

يجد المسلمون اليوم أنفسهم أمام حضارة حديثة وطيدة الأركان شامخة البنيان تطرح أمامهم تحديات عليهم أن يواجهوها ثم يرفعوها، وهي الحضارة السائدة في العالم، المتغلبة على ما عداها من الحضارات، وليس لأحد مهرب منها بسبب تقارب الأبعاد وسهولة الاتصالات وتلاقح الثقافات، بل يرغب كل ذي لب في أن يحياها ويستمتع بها ويسهم في تطويرها وتوسيع آفاقها بحظ من الحظوظ، وتبذل الحكومات والشعوب التي خلعت نير الاستعمار، السائرة في طريق النمو جهداً وتنفق مالاً للاستفادة منها في أوطانها والحذو حذو صانعيها فيما يخططون لبلدانهم ويحققون، وتأخذهم غيرة مشروعة عندما يرون الأمم الراقية وقد أمسكت بناصية المعرفة وطوعت التكنولوجيا لصنع مخترعات جديدة أو تحسين ما سبق صنعه منها كبيراً كان أو صغيراً، من إبرة الخياطة وعود الثقاب إلى الحواسيب الدقيقة والصواريخ العابرة للقارات والأقمار

الاصطناعية ولكن الشعوب الاسلامية . وسائر شعوب العالم الثالث . تعوقها عن تحقق مطامحها في التقدم العلمي والرقي الحضاري معوقات كثيرة، بعضها موروث عن الماضي، وبعضها من مخلفات الحكم الاستعماري الراحل أو من السياسات المقررة من القوى الكبرى في حقها، كانتشار الأمية وقلة المال وضعف الإنفاق على البحث العلمي وإغلاق باب الاجتهاد والفوضى الفكرية وانعدام الاستقرار في الميدان السياسي، وما من أحد بقادر على أن يقلل من أهمية الخطوات التي خطتها شعوب اسلامية في مجال التعلم والتمدن والتصنيع، ولكن ما من أحد بقادر أيضاً على أن ينكر ما لهذه الشعوب لو نعمت بالاستقرار السياسي وتمتعت بحكم عادل يعبر عن إرادتها، ورشدت أموالها وثرواتها الطبيعية، وأنفقت بسخاء على البحث العلمي في الجامعات والمصانع، وتجاوزت مخلفات الماضي التي لم تبق صالحة للحاضر لضاقت مسافة الخلف المنفرجة بينها وبين الشعوب المتقدمة، ولأدركت ما تطمح إليه وتبتغيه.

على أن هناك جوانب سلبية في الحضارة الحديثة تقترن بجوانبها الإيجابية ويصعب التفريق بينها إن لم يكن التفريق مستحيلاً، لأنها كل لا يتجزأ، ولأن بعضها نتيجة حتمية لبعض، وهذا ما يجعل الشعوب الاسلامية أو النخبة المفكرة فيها تقف من الحضارة الحديثة موقف المتردد المحتار، لا تدري كيف تأخذ الصالح منها وحده وتترك الفاسد، الحضارة الحديثة بمعناها الشمولي فيها أفكار مادية وممارسات منحرفة تتنافى مع ما جاء به الاسلام من حميد الشيم وكريم الأخلاق، بل تتنافى مع جميع ما دعا إليه المصلحون قديماً وحديثاً من صفاء الروح وطهارة الجسد وحسن التعامل بين الناس وأن يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه، هي حضارة مادية متنكرة للأديان مستخفة بالقيم الخلقية التي لا تستقيم بدونها مجتمعات، صانعوها لا يفكرون إلا في المكاسب المادية والمتع البدنية ولو أضرت بالآخرين، يستوي في ذلك أفرادهم وجماعاتهم والحكومات، إنها تمتاز بحسنات كثيرة وسيئات عديدة، تمتاز بتطور الفكر وتقدم العلم اللذين نتج عنهما تحسن في المأكل والملبس وتطور العمران، وخفت بهما حدة الأوبئة والأمراض وسهلت المواصلات وانتشرت الثقافات، وحقق إنسان العصر الحديث ما لم يحققه انسان العصر القديم من غوص في الماء وطيران

في الفضاء وتصرف في الاليكترون والكهرباء وتسخير للمادة وتطويعها كيف يشاء، وبهما وبما واكبهما من تخل عن العقائد السليمة فسدت أخلاق الناس وتحركت نوازعهم الشيطانية وغرائزهم البهيمية، فجروا وراء الملذات وتسابقوا إلى جمع الأموال وكنز الثروات، وتفننوا في صنع آلات التدمير الكامل والإهلاك الشامل، ونظروا إلى الخلق بمنظارين وكالوهم بمكيالين، الحضارة الحديثة يهددها اليوم، بسبب تكرها للدين ونبذها للقيم، العديد من الأخطار وتتعرض لكثير من المحاذير، كانتشار المخدرات وتفشي الدعارة وترويج أفلام الفسق والعنف وظهور أمراض مستجدة كالإيدز، الذي يقدر الإحصائيون عدد مرضاه في نهاية القرن العشرين بأربعين مليوناً. يهددها التلوث البيئي والتمييز العنصري وغش الأقوياء للضعفاء وتعريضهم لأخطار محققة ببيع الأغذية والأدوية الفاسدة لهم، ودفن النفايات المشعة المضرة بأرضهم، وحظر تصدير التكنولوجيا والآلات المتطورة إليهم، وحرمان طلبتهم من تلقي العلم في كلياتهم ومعاهدهم، وإيصاد أبواب بلدانهم في وجوههم، والتضييق على مَن سبقت لهم الإقامة فيها بمختلف أنواع التضييق، تهددها اللامساواة في التعامل على الساحة الدولية، فدولة يباح لها أن تقيم المصانع لإنتاج السلاح النووي والجرثومي دون أن تخضع مصانعها لأية رقابة، ودولة تقام من حولها الضجات لأنها أنشأت مصنعاً لإنتاج المواد الصيدلية أو مساحيق التجميل، هبات مالية كبرى تعطى لدولة واحدة صغيرة ويعطى أقل منها لشعوب أخرى مجتمعة أكثر سكاناً وأشد احتياجاً، وشرعية دولية تطبق بقوة الحديد والنار على شعب، وشرعية دولية تقرر في حق شعب آخر ثم يتناساها مقرروها غداة تقريرها، ومناحات تقام في كل مكان حزناً على طائر تلوث جناحه بنفط سفينة جنحت للشاطئ وأصوات خافتة تستنكر . نفاقاً . كسر سواعد أطفال بالحجارة وقتل صبيان واغتصاب نساء وذبح رجال وتهجير شعب بأكمله من دياره، انه الظلم المؤدي إلى خراب العمران المشار إليه في الآية الكريمة: (وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً) الكهف/ ٥٩، والترف الطاغي المفضي إلى تدمير الحضارة المعبر عنه بقوله سبحانه وتعالى: (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) الإسراء/ ١٦.

ما كان للجوانب السيئة من الحضارة الحديثة أن تزهدنا فيها أو تصرفنا عنها، إن فيها محاسن شتى ضرورية ولا غنى عنها، وقد أخذنا منها بنصيب، وقطعنا فيها مراحل وأشواطاً. ولابد من مواصلة السير فيها واكتساب القوة من خلال التحكم فيها، إذ لا حياة اليوم . مثل الأمس . لقاعدة في ركن بيته أو ضعيف، علينا أن نعي كل الوعي جميع الأسباب والوسائل التي أدرك بها صانعو الحضارة الحديثة ما أدركوا من قوة ورخاء وسيطرة على الطاقات وتسخير للكائنات، فنعمل بها ما عملوا، ونحقق بها مثل الذي حققوا أو فوق الذي حققوا، ونضفي على الحضارة الحديثة . على الأقل في بلادنا الاسلامية . طابعاً إسلامياً لتصير حضارة فضلى تزدان بالحق والعدل، وتتحلى بالرفق والمساواة وكل خلق كريم فيستفيد من خيراتها جميع البشر دون تمييز، لا فرق بين الناس من أجل اللون أو اللغة أو الدين، وفي طليعة ما يسهل علينا اختصار المسافات لنلحق بسرعة الركب الحضاري المنطلق، العمل لتوطيد الاستقرار السياسي والتخلي عن العنف الديني والطائفي لاستكمال التحرر السياسي والاقتصادي لبلادنا الاسلامية، والتمسك بالثوابت الاسلامية والنظر من ضوئها في قضايا العصر ومشاكله ا لمستجدة لإيجاد الحلول لها دون التقيد بالآراء والاجتهادات التي حلّ بها المتقدمون قضايا عصرهم ومشاكله، فإذا نحن فعلنا ذلك بتعقل وسماحة نفس، وأخذنا بالوسائل الحديثة انفتحت أمامنا أبواب الرقي، ووضحت السبل لتطوير الحضارة الحديثة من حضارة مادية طاغية إلى حضارة إسلامية وسط، تضمن راحة البدن والروح، وتكفل لشطر غير ضئيل من المجموعة البشرية الهناء والاستقرار، وتحقق فينا ولنا الوعد الذي وعد به الله سبحانه وتعالى المؤمنين الصالحين من عباده: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً) البقرة/ ٥٥

============

#الحضارة الإسلامية – بداية التاريخ ونهايته أيضا

أحاول جاهدا ألا أرتبط بمسجد معين. أحب التنقل علي المنابر لعلني أجد ما أريد أن أسمعه (وقد يكون هذا هو جوهر المشكلة) أو أسمع ما يستفز عقلي حتي ولو لم

أتمني سماعه. ومهما كانت الخطبة مهلهلة وموضعها ركيك أحاول أن أتلمّس أي خيط متين أتعلق به لتجنب الشرود.

خطبة الجمعة

تحدث الخطيب في الجزء الأول من الخطبة عن السيرة النبوية في استعراض بانورامي سريع انتقلنا فيه من أذي المشركين في مكة إلي قرار الهجرة ثم ننحرف قليلا الي سيدنا أبو بكر ثم مرة أخري الي عمر بن الخطاب الخ في سرد ممل وكأن تتبع السيرة علي هذا النحو يصلح أن يكون موضوعا لخطبة الجمعة مهما طال زمنها. أو أن السرد بهذه الطريقة التقليدية يصلح في زمننا هذا أصلا.

سأتغافل عن هذا التساؤل لأنه يلهب أوجاعا سرمدية.

الجزء الثاني من الخطبه استهلّه الخطيب بما يلي:

تزعم أمريكا والغرب كله أنهم بناة الامبراطوريات والدول، ولكن مصعب بن عمير هو أول سفير في الاسلام بل أول سفير في العالم والانسانية كلها. ثم عاد مرة أخري للسيرة النبوية وفي أقل من خمس دقائق انتهت الخطبة وأقيمت الصلاة.

وسأركز فقط علي الجزء الثاني من الخطبة وتلك الجملة الاستهلالية التي تتحدث عن الصحابي الجليل مصعب بن عمير. لأبدأ من أول السطر: ليس لدي أي مشكلة مع سيدنا مصعب بل إنني أعتبر قصة اسلامه وحياته القصيرة بعد ذلك بمثابة كتاب ملئ بالعبر والدروس وقد كتبت فيه مقالا منذ سنة. لكن مشكلتي الأساسية كانت مع الرجل الذي خطب فينا، ورغبته في التأكيد علي أن تاريخ العالم كان صفحة بيضاء قبل مجئ الاسلام، ثم جاء الاسلام والمسلمون فكتبوا ما كتبوا ، ثم بعد ذلك خمدت جذوة الحضارة الاسلامية فأغلق كتاب التاريخ مرة أخري. هنا ترقد الحضارة الاسلامية حيث يتجمد التاريخ – حيث لا قبل ولا بعد.

نعم مشكلتي تكمن في ترويج هذه الرؤية – أن العالم لم يري أي تقدم حضاري وثقافي وتشريعي إلا بمجئ رسالة محمد عليه الصلاة والسلام وأن الاسلام والمسلمين هم أول من أرسي حقوق الانسان علي الاطلاق وأن الاسلام والمسلمين هم من علّموا الناس كيف يتعلموا. وكأن العالم لم يعرف قبل الاسلام أي نوع من الحضارات وكأن البشر جميعا قبل الاسلام رضوا بالظلم والاستعباد والفحش والتخلف وكأن

الفرس والروم والصينيين والفراعنة لم يفقهوا أي شئ في السياسة الي أن أصبح مصعب بن عمير سفيرا!! رؤية كارثية بحق.

الرؤية التي تجعلنا نتباكي علي أمجاد زائلة ونري جميع الخلائق والحضارات مجرد أقزام أو أشباه بشر مقارنة بالمسلمين الأوائل ورسالة الاسلام ذاتها – هذه الرؤية تدمر ولا تبني لأنها تجعل تراث الانسانية (الثمين منه والخسيس) مطموس لا لشئ إلا أنه صنع بأيادي وعقول غير مسلمة قبل مجئ الاسلام، أو ربما لكي نعزز شعورنا بذواتنا فيدفعنا ذلك الي بخس الناس أشياءهم. ألسنا نقرأ في كتاب الله:

فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم

هذه الرؤية تؤكد علي أن جماعة بشرية ما مكتفية بذاتها وأنها لا تحتاج مطلقا الي أي مفاهيم وخبرات من الجماعات الأخري وكأن اسهام المسلمين يأتي من العدم المطلق وكأن العالم قبل الاسلام كان في حالة فوضي عارمة رجوعا الي نزول الانسان الأول علي الأرض، فلم يكن هناك تشريع ولا مفاهيم جمالية ولا قيم خلقية أيا كان مصدرها.

شهد العالم قيام حضارات عديدة قبل أن يظهر دين الاسلام وقبل أن يعرف للعرب قائد أو يجتمعوا علي كلمة واحدة. ومن هذه الحضارات يمكنك أن تأخذ أو تطرح ما تشاء فليس صحيحا أن الأرض كانت خرابا فأتي المسلمون ليزرعوها كأول مستصلحين يشهدهم التاريخ، وليس صحيحا أن الأرض كانت خاوية من مفاهيم العدل والرحمة والمساواة والتشريعات القانونية انتظارا لمجئ الاسلام والمسلمين ليقدموا للبشرية مفاهيم ما سمع بها ابن آدم قط في كل وجميع المجالات بلا استثناء.

احترامنا لأنفسنا واعتزازنا بديننا لا يجب أن يكون عائقا لطمس حقوق الآخرين الأدبية، واحترامنا للآخر ولاسهاماته الفكرية في مجملها لا ينتقص أبدا من اسهامات المسلمين علي مر التاريخ. احترامنا لأنفسنا ولمكانتنا التاريخية لا يجب أن يثنينا عن ابتغاء كلمة الحق واستقصاء البحث في تاريخ الآخرين للإستفادة منهم.

ما أفهمه أن تراث البشرية الفكري والعلمي هو سلسلة لا تنقطع، كل أمة تكمل ما تركته الأمة التي تسبقها بقدر ما يتاح لها، كل حضارة تأخذ وتطرح ما يعنّ لها.

عار أن تكون من المطففين الذين يعزفون ليل نهار علي نغمة استفادة الغرب من علوم المسلمين إبّان عصر النهضة الأوروبية ولا يهدأون إلا بعد أن يستوفوا حقهم كاملا ثم يرتدّون علي أعقابهم إذا ما وصل الحديث الي الحضارات والأمم التي سبقت الاسلام

================

#مفهوم الامة بين الحضارة الغربية والحضارة الاسلامية

بقلم:غازي التوبة

بسم الله الرحمن الرحيم

اعتبرت الدراسات الغربية أن الأمة تأتي حصيلة تفاعل نوعين من العوامل : الأولى : موضوعية : مثل اللغة ، والتاريخ ، والجنس الواحد ، والإقليم الواحد ، والمصالح المشتركة ، والآمال الواحدة ، والعادات والتقاليد الواحدة ، والثقافة الواحدة إلخ... الثانية : عوامل ذاتية : وعي الأفراد بأن لهم شخصية متميزة ومنفصلة تدفعهم إلى التعبير التنظيمي عن هذه الشخصية المتميزة (١) . مفهوم الأمة في الحضارة الإسلامية :

لكن القرآن الكريم لم يعتبر المسلمين أمة واحدة لاجتماعهم على دين واحد فقط، بل لا بد لهم حتى يكونوا أمة إسلامية من أن يتصفوا بصفات أخرى يحققونها في وجودهم وكيانهم ، أبرزها :

١- الشهادة على الناس :

قال تعالى : {وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً} (البقرة،١٤٣) . تبين الآية السابقة أن الله -تعالى- جعل الأمة الإسلامية أمة وسطاً لعلّة وحكمة هي أن تكون قادرة على القيام بأمانة الشهادة على الناس ، والشهادة تقتضي العلم وتفتّح الوعي وتحقق الإدراك من الشاهد حتى يستطيع أن يقوم بأمانة الشهادة على المشهود عليه .

٢- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

قال تعالى : {ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر} (آل عمران،١٠٤) . وقال تعالى : {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله} (آل عمران ،١١٠) .

دعت الآية الأولى الأمة الإسلامية أن تكون أمة خير تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، ثم بيّنت الآية الثانية أن خيرية الأمة الإسلامية جاءت نتيجة أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر ، وليس من شك في أن تحقيق الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعني التطهير المستمر للمجتمع الإسلامي من أي ارتكاس ومن أية معوّقات داخلية ، ويعطيه أفقاً عالياً من الشفافية والحيوية .

٣- الدين واحد والقيادة للأنبياء جميعاً :

تحدثت "سورة الأنبياء" عن معظم الأنبياء السابقين وهم : موسى وهارون وإبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذو الكفل وذو النون وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام جميعاً ، وذكرت طرفاً من سيرتهم ، وحياتهم ، ومواقفهم ، وعبادتهم ، ودعوتهم ، وصراعهم مع الباطل ، وصبرهم على أذى الكافرين ، وفضل الله عليهم ، ثم عقّبت بعد ذلك بآية قال تعالى فيها : {إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون} (الأنبياء،١٩٢) .

كما تحدثت سورة أخرى هي "المؤمنون" عن عدد من الأنبياء هم : نوح وهود وموسى وهارون وعيسى عليهم السلام ثم قال الله تعالى بعد ذلك : {وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون} (المؤمنون ،٥١-٥٢) .

أشارت الآيتان السابقتان بعد الحديث عن معظم الانبياء إلى أن أمة الانبياء جميعهم أمة واحدة ، ويمكن أن نفسر الأمة الواحدة بتفسيرين مرتبطين ببعضهما هما :

الأول : الدين الواحد والملة الواحدة لجميع الانبياء من لدن آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام وهو دين الإسلام الذي أوحاه الله إليهم ، وأشارت آيات أخرى إلى مثل هذا المعنى فصرّحت إلى انتماء بعض الأنبياء إلى دين الإسلام فطلب يوسف عليه السلام أن يتوفاه الله على الإسلام ، قال تعالى : {أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما والحقني بالصالحين} (يوسف،١٠١) ، وقد وصى إبراهيم ويعقوب عليهما السلام أولادهما أن يموتوا على دين الإسلام ، فقال تعالى : {ووصى بها

إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون} (البقرة،١٣٢) .

الثاني : قيادة الأمة الإسلامية منوطة بجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لذلك فإن الامة الإسلامية ليست أتباع محمد (وحده بل تشمل أتباع الأنبياء السابقين جميعهم.

إذن نستطيع أن نتبين من خلال الكلام السابق أبعاداً أخرى لمفهوم الأمة في الحضارة الإسلامية يتجاوز الاجتماع الموحد والتجانس المشترك الذي قصدته الحضارة الغربية ، وأبرز هذه الأبعاد :

البعد الاجتماعي : يشتمل على واجبين :

الأول : نحو المجتمع الإسلامي : وذلك بالقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يعني ديناميكية فعالة من أجل التوازن المستمر

الثاني : نحو المجتمعات الأخرى : وذلك بالقيام بواجب الشهادة عليها ونقلها إلى ما هو أفضل لها وأخير .

٢- البعد الشرعي : يقوم على الالتزام بالشرع الذي جاء به الدين الإسلامي ، ولا شك أن هذا الالتزام يرفع الأمة باستمرار إلى أفق سامٍ من التكيفات الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية والعقلية والجمالية .

٣- البعد التاريخي : يقوم على الارتباط بالأمم السابقة وتشكيل أمة واحدة معها والاعتراف بحق القيادة لأنبيائهم .

ومما يؤكد وضوح الأبعاد السابقة عند علماء المسلمين ما أورده الشاطبي عن الجماعة في معرض حديثه عن الأمة الإسلامية والفرق التي افترقت إليها ، فقال إن الجماعة تعود إلى خمسة معان هي :

الأول : السواد الأعظم من أهل الإسلام .

الثاني : جماعة أئمة العلماء المجتهدين .

الثالث : الصحابة .

الرابع : جماعة أهل الإسلام إذا اجتمعوا على أمر فهو واجب على غيرهم من أهل الملل اتباعهم .

الخامس : ما اختاره الطبري الإمام من أن الجماعة جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير فأمر عليه الصلاة والسلام بلزومه (٣) .

وقد لخص بعض العلماء كلام الشاطبي فقالوا إن الجماعة ترجع في النهاية إلى معنيين :

الأول : الالتزام بالحق الموجود في الكتاب والسنة ، والخروج من الجماعة بهذا المعنى هو الابتداع والضلال .

الثاني : الالتزام بإمام جماعة المسلمين وطاعته ، والخروج عن الجماعة بهذا المعنى هو البغي والعدوان .

إذن يلتقي مفهوم الجماعة الذي وضحه الشاطبي مع مفهوم الأمة في بعدين :

الأول : بعد التزام الحق الموجود في الشريعة .

الثاني : بعد التزام القيادة المسلمة التي تتبع الرسول

والآن : ما هي أبرز نتائج الأبعاد الخاصة لمفهوم الأمة في الحضارة الإسلامية على مسيرة التاريخ الإسلامي ؟

لقد أعطى البعد الشرعي الأمة الإسلامية انطلاقة هائلة عندما أقام بنيانها على التعارف بين الشعوب والقبائل انطلاقاً من قوله تعالى : {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم} (الحجرات،١٣) . وقوله (في حجة الوداع : "يا أيها الناس إن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، الناس سواسية كأسنان المشط" ، وهذا ما جعل المجتمع الإسلامي مجتمعاً فريداً في الماضي والحاضر عندما استوعب أجناساً وعروقاً وشعوباً وقبائل متعددة داخل كيانه ، ليس هذا فحسب بل ساهمت هذه الأجناس والعروق والشعوب والقبائل في إقامة الحضارة الإسلامية بما وهبها الله – تعالى – من إمكانيات ، وفي الدفاع عنها عندما تعرضت للتهديدات .

٢- لقد حفظ البعد الشرعي الأمة الإسلامية بعيداً عن النزعات الاستعلائية وهي اللوثة التي أصابت الأمم في الحضارة الغربية والتي أدت إلى حربين عالميتين أهلكتا

الحرث والنسل ، وأدت إلى نهب قارتي آسيا وأفريقيا لمدة قرنين وإفقارهما وتدميرهما ، وأدت إلى إبادة الهنود الحمر في أمريكا .

٣- لقد أعطى البعد التاريخي الأمة الإسلامية سعة في الزمان وامتداداً في المكان ، وجعلها تتفاعل مع ما قبلها وتستوعبه دون إحساس بالغربة ، ولم يبق هذا الاتصال التاريخي شعوراً مبهماً بل تجسد في قواعد وأصول منها : القاعدة الأصولية التي تعتبر شرع من قبلنا شرع لنا ، وفي أحاديث الرسول (التي قال في أحدها تعقيباً على صيام العاشر من محرّم عند بني إسرائيل شكراً لله على إنجاء موسى عليه السلام من فرعون ، فصام وأمر بصيامه وقال : "نحن أولى بموسى منكم" .

٤- لقد أعطى البعد الاجتماعي الأمة الإسلامية اتساعاً في النطاق المدني فولّد الأوقاف التي أصبحت تمثل ربع ثروات العالم الإسلامي(٤) ، وولّد عدم توزيع أرض السواد في العراق على الفاتحين بعد معركة القادسية من أجل الأجيال القادمة من المسلمين، فقد روى البيهقي عن أسلم قال : سمعت عمر بن الخطاب (يقول : اجتمعوا لهذا المال فانظروا لمن ترونه ، ثم قال لهم : إني أمرتكم أن تجتمعوا لهذا المال فتنظروا لمن ترونه ، وإني قرأت آيات من كتاب الله ، سمعت الله يقول : {للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم - الآية} (الحشر،٨) والله ما هو لهؤلاء وحدهم . ثم تلا {والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم -الآية} (الحشر،٩) والله ما هو لهؤلاء وحدهم . ثم تلا {والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا في الإيمان - الآية} (الحشر،١٠) والله ما من أحد من المسلمين إلاّ وله حق في هذا المال أعطى أو منع حتى راعٍ بعدن ؛ وقد جاء في رواية أخرى قوله عن الآية السابقة: "هذه استوعبت الناس جميعاً ولم يبق أحد من المسلمين إلا وله في هذا المال حق إلا ما تملكون من رقيقكم، فإن أعش -إن شاء الله- لم يبق أحد من المسلمين إلا سيأتيه حقه حتى الراعي بسر وحمير يأتيه حقه ولم يعرق فيه جبينه"(٥) .

يتضح من المقارنة السابقة بين مفهومي الأمة في الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية أن مفهوم الأمة في الحضارة الإسلامية أكثر غنى لأنه لا يقوم فقط على الاجتماع الموحد ، والعادات الواحدة ، والتقاليد الواحدة إلخ...، بل لا بد من تحقيق

الأمة أموراً أخرى اجتماعية وشرعية فيجعلها أكثر إنسانية وأكثر انفتاحاً وأكثر شفافية وأكثر مدنية .

(١)موسوعة العلوم السياسية ، إصدار جامعة الكويت ، مادة ٢٥٧ ص٤٠٥ .

(٢) الراغب الأصفهاني ، المفردات ، ص٢١ .

(٣) الشاطبي ، الاعتصام ، جـ٢ ص٢٦٠ .

(٤) أحمد بن بلّة ، الحركة من اجل الديمقراطية في الجزائر ، الخطاب التوجيهي للرئيس أحمد بن بلّة ، باريس ١٩٨٤م ، ص١٠٧ .

(٥) حياة الصحابة ، جـ٢ ص٢١٠-٢١٢ .

==============

#علم النفس في الحضارة الاسلامية العربية

الطب النفسي الإسلامي جاءت فكرة هذا الموضوع في وقت شعرت فيه كما شعرَ كل يقظٍ في بلادنا بأنه جاء الوقت الذي يلزم فيه تحديد المواقف وأن يحدد كل واحد منا من هو وما يستطيع أن يكونه وما لا يستطيع ! فقد انقسَمَ العالمُ بالفعل إلى موالينَ للغرب دونَ أي قيد أوْ شرط أو معادينَ لهُ وليسَ هناكَ موقفٌ وسَطيٌ كما ترى الإدارة الأمريكية!!

وأنا كطالب في قسم علم النفس شعرت بأن عليَّ عبءَ تحديد موقفي في مجال عملي الذي درست فيه فقدْ أحسَسْتُ أنني لنْ أستطيع الاستمرار مكتَفيا بما اتعلمه على أنه الطب النفسي العالمي وهو في الحقيقةِ الطب النفسي الغربي!

كان عليَّ لذلك أن أفتش في أفكارنا وتراثنا كأمةٍ محاولا الوصول إلى سبب الهوة التي تفصل بين ما اتعلمه على أنه العلم العالميُّ الوحيد وبين مجتمعي الذي لا أستطيع مستريحا أن أتهمه بالجهل أو التخلف وبدأت رحلة لا أحتسب منها إلا رضا الله عز وجل ثم شيء من التوفيق بين نظرتين للوجود إحداهما وهي النظرة الغربية بدأت بوضع الإنسان في مركز الكون على أنه السيد الأوحد ثم تحولت تدريجيا إلى جعله جزءًا من الكون غير مستقل عنه بحيث تحكمه نفس القوانين التي تحكم الذرة والجزيء دون أي سمو عنهما! وبين نظرة ثنائية هي نظرة الإسلام ترى الإنسان

خليفة للخالق الأعظم استخلفه في الأرض وكرمه عن سائر المخلوقات ووضع فيه عقلا وروحا تسموان به عن سائر الأشياء وتجعلانه كفءً لتحمل الأمانة .

كانت أول صدمة لي حين بدَأتُ رحلتي هي حَجْمُ جهلي العظيم بتراث أمتي وأعني هنا تراثها في الطب النفسي وفي علاج المرض النفسي ومعاملة المريض كأي مريض بأي مرض آخر، ففي عام ٩٣ هجرية الموافق ٧٠٧ ميلادية أسس الوليد بن عبد الملك أول مستشفى في التاريخ للمرضى العقليين، وكانت تخصص لهم من بيت المال أموال تنفق عليهم للعيش داخل المشفى وخارجه، وفي سنة ١٥١ هجرية-٧٦٥ ميلادية، أسس العباسيون في مستشفى بغداد أول قسم للأمراض العقلية داخل مستشفى عام، إذن فقد كان المريض النفسي يُعالج في مستشفى بغداد وفي مستشفى قلاوون بالقاهرة في القرن الرابع عشر الميلادي جنبا إلى جنب مع مريض الجراحة والباطنة والرمد وهذا هو ما احتاج الغرب ستة قرون لكي يصلوا إليه على أنه أحدث الصيحات في علاج المريض النفسي مع غيره من المرضى لما لذلك من أثر جيد في تصحيح المفاهيم التي ترى المرض النفسي مجلبةً للعار وتفصل بين المريض النفسي وبين سواه من المرضى مما يتسبب في إعاقة اجتماعية بعد الشفاء أكثر مما يسببه المرض نفسه! ، كما نبين على مقالات متنوعة في مقال وصمة المرض النفسي : ليست من عندنا!

وجدت أيضا العديد من الرسائل التي تصف الأمراض النفسية وتُحَدِّدُ أعراضها وأسبابها بشكل إنما يبعث على الفخر والكبرياء ولست أدري من المسئول عن حجب كل هذا التراث المشرف عن الدارسين في بلادنا ولا أدري من الذي قرر أن أقرأ فقط وصفات الغربيين وأفكارهم ولا أقرأ مثلا ما يقوله الشيخ أبو حامد الغزالي رحمه الله في المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال وهو يصف نوبة اكتئاب حادة أصابته: "فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة، قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربع مائة. وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفة إلي، فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة ولا أستطيعها البتة، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في

القلب، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب: فكان لا ينساغ لي ثريد، ولا تنهضم لي لقمة؛ وتعدى إلى ضعف القوى، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا: ((هذا أمر نزل بالقلب، ومنه سرى إلى المزاج، فلا سبيل إليه بالعلاج، إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم)).ثم لما أحسست بعجزي، وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له، فأجابني الذي ((يجيب المضطر إذا دعاه))"اهـ

أو ما يقوله ابنُ سينا مثلا في تحليله للسلوك "إذا كان تناول الطعام مقترنا باللذة، والضربُ بالعصا مقترنا بالألمِ فإن الحيوانَ والإنسانَ يحتفظانِ في ذاكرتهما بصورة الطعام مقترنة باللذة ، وبصورة العصا مقترنا بالألم فتصبح رؤيةُ الطعام فيما بعد مثيرةً للشعور باللذة ورؤية العصا مثيرةً للشعور بالألم" وَهذه هي الاستجابةُ الشرطيةُ التي قال بها الروسي إيفان بافلوف بعد عشرة قرون والتي تعلمتها أنا عن بافلوف منذ أولى سنين دراستي للطب على أنه مبدعها الأول وهي أيضا حجر أساس علم النفس السلوكي وعلاجِهِ كله.

وكذلك وجدت مقالة لإسحاق بن عُمران عن المالنكوليا أو الاكتئاب حيث يصف ابن عمران بعض العوارض المرضية التي تميز هذه الحالات فهناك المريض الذي تمر به أفكار رهيبة خيالية فيشعر بأحاسيس خاطئة، كالذي رأى جماعة من السود يريدون قتله، وهناك الذي يتوهم أن لا رأس له أو يسمع مثل خرير المياه وقرع الرياح وعصفها وأصوات مهولة في أذنه، كما أن المريض يفقد المحاكمة والتمييز كالذي يخشى من سقوط السماء على رأسه فيجتنب المشي تحتها والأمثلة عديدة في هذا الصدد غير أن هؤلاء المرضى يشعرون بضرورة اللجوء إلى الطبيب بمزيد من التعطش والإلحاح لشدة يأسهم وكثرة آلامهم، أما من الناحية الجسمية فكلهم يشتكون من الهزال والأرق ثم يتعرض ابن عمران إلى الأعراض السريرية للأصناف المرضية المختلفة من المالينكوليا :

١) فيلاحظ في الشكل الذي يمس الدماغ الأرق ووجع الرأس وكثرة لمع العينين ونهم من يقل تقوته من الطعام والشراب وهى أخطر الأحداث ويتصف هذا الصنف

بالهياج وحتى بالوثب الذي يذكر بالسباع وسماه ابن عمران الصنف السبعي وهو يؤدى إلى الشرسام .

٢) أما في الصنف الشراسفي فان الأعراض تعم المرضى، وتزيد فيهم حسب قوله ما يجدون لمن التزقق في بطونهم من الرياح السوداوية. فهذا الصنف يتصف بشدة الكآبة وحب العزلة والاستراحة في الأماكن القاسية.

٣) وهناك أصناف أخرى تسبق أو تتبع ما يسميه ابن عمران بالمرض العظيم.

وأصبح واضحاً بالنسبةِ لي أن الفخ الذي وقع فيه السواد الأعظم من علمائنا ومفكرينا ومثقفينا هو اعتقادهم بأنَّ الهوة التي يجدونها بين علومهم وثقافتهم وما يعيشه الناس في بلادنا إنما ترجع إلى تخلفنا وقد أصبحت على قناعة بأن ذلك غير صحيح بالمرة! فمجتمعنا ليس متخلفا ولا جاهلا إلا حين ننطلق من مرجعية أنَّ النموذج الغربي المادي هو النموذج الوحيد الصحيح وهذه مرجعية أبعد ما تكون عن الصواب.

وأنا أدعوك عزيزي المتصفح أن تنتبه لما يحتويه الموقع من نفحاتٍ من تراثنا العربي الذي لا نعرف عنه إلا القليل ! فلم يكن علم النفس يوماً ولا كان الطب النفسي وليد النهضة الأوربية كما يقال، ولم يكن على الإطلاق أحد إفرازات الحضارة الغربية، ولكن شاء الكثير من الباحثين في علم النفس أن يتركوا أو يتناسوا التاريخ والغور في معالم النفس البشرية ولربما مالوا كل الميل ولا نقول بانحيازهم كل الانحياز إلى ما كتب حديثاً وسهلت طباعته وتيسر نشره، ولم تكن تهمهم تلك الجذور النفسية الموجودة في خضم الفكر القرآني والحضارة الإسلامية.

ويقوم الطب الإسلامي على صورة الإنسان في الإسلام والنظرة الإسلامية الشمولية للوجود وللإنسان. ولذلك يتميز الطب الإسلامي عن غيره بصورة الإنسان الشاملة الجامعة للجسم والنفس والعقل والقلب والروح كوحدة متماسكة لا تتأثر بتغييرات التيارات الفكرية المتقلبة والمحدودة في قفص المادة أو النسق المذهبي. والقصد من الطب هو حفظ سلامة الإنسان ماديا ومعنويا بالتربية والتنمية والتقوية والوقاية من الأمراض على اختلاف أسبابها وأنواعها والعلاج بكل الوسائل النافعة ماديا ومعنويا

لأن العلم، كما جاء في التراث الإسلامي، علمان: علم الأبدان وعلم الأديان، وهما مترابطان. وإن الغاية الحقيقية من الطب ينبغي أن تكون الحياة الإنسانية السليمة ماديا ومعنويا وأن يلقى الإنسان ربه بقلب سليم.

ومما لا شكَّ فيه أنَّ قلوبَ المؤمنين تطمئنُّ بذِكْرِ الله عز وجل وعليهِ فإنني لا أستطيع كطبيبٍ نفسي مسلمٍ أن أدَّعى أنَّ ذلك خارجَ تخَصُّصي ولا أستطيع كمثَقَّفٍ مسلمٍ أنْ أقبل بالوضعِ الذي يسمحُ لكلِّ من هبَّ وَدَبَّ أنْ يدَّعِيَ العِلمَ بالأمراض النفسيَّةِ وعلاجها حتى وإن كان عالِمًا بالقُرْآنِ وبعلومِ الدين! لأنَّ علمَ الأبدانِ غير علمِ الأديان وما النفس إلا انعكاسٌ لحالَةِ البَدَنِ؛ ومنْ يعالِجُ الأمراض النفسيةَ لابُدَّ أنْ يكون عالمًا بماهِيَتِها وبالتغَيُّراتِ البدنيةِ المصاحِبَةِ لها كما أنَّ من يُسْمَحُ لهُ بالتَّصَدِّي لآلامِ الناسِ وأوجاعِهِمْ لابُدَّ أن يكونَ كُفْءً لذلكْ

وَقد أثبَتَتْ مجموعة من الدراسات العلمية أجريتْ في ماليزيا على بعضِ مرضى اضطراب القلق العام ومرضى الاكتئاب الجسيم أنَّ المتدينين من هؤلاء المرضى يستفيدون بشكل لا يقبل الجدل عند إضافة بعضِ أساليب العلاج النفسي الديني لعلاجِهِم الدوائي مقارنة بالمرْضَى غير المتدينين حيث احتاج المتدينون لجرعاتٍ أقلَّ من العقَّاقير واستخدموها لفترات أقل من غيرهم؛ وتلخصت أساليب العلاج الديني تلك في ما يمكن اعتباره إسباغًا للوضوءِ وفي إطالة مدَّة الصلاةِ من خلال إطالة مدةِ الركوع ومدة السجود؛ وكذلك في قراءَةِ بعض آياتٍ من كتابِ الله عز وجل. ومعنى ذلك أنَّ كثيرين من مرضانا يمكنهم الاستفادةُ من ذلك العلاج وأنَّ إغفالنا كأطباءَ مُسْلِمينَ لذلكَ الباب الرحيب الذي يُسَهِّلُ الكثيرَ من الأمورِ على مرضانا لهو تقصيرٌ كبير؛ ولعَلَّهُ هوَ الذي يسْمَحُ لكلِّ من هَبَّ وَدَبَّ باستغلالِ القلوبِ المؤمنة؛ ولعل في الحديث الشريف التالي ما يشيرُ إلى أهمية الاطمئنان في الصلاة بحيثُ يسترخي المصلي وتخشع جوارحه: عن أبي هريرة رضيَ الله عنهُ قالَ : قالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع حتى تستوي قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تستوي قائما ثم افعل ذلك في صلاتك كلها) صدقَ رسول الله صلى الله

عليه وسلم.رواه البخاري ومسلم وابن ماجة، ولعل ها الأمر يتخذُ الآن أهمية قصوى وقد بدأت تغزو صيحات اليوجا والرياضات الروحية الشرقية بلداننا كما بينا على استشارات مجانين في إجابة: اليوجا، وما وراء المادة: قاعدة الانتشار في الفراغ

كما أن هناك اختلافاً جوهريا في تناول موضوع الصحة النفسية ما بين علماء الغرب وأطباء النفس الغربيين وبين تناول العلماء والمفكرين المسلمين السابقين له فعلماء الغرب يرون أن أهمَّ مقوِّمات الصحة النفسية هي فقط النجاح في حياة الإنسان المادية والدنيوية وقدرته على تحمل مسئوليات الحياة ومواجهة ما يقابله من مشكلات ، وتوافقه مع نفسه ومع غيره من الناس، ويغفلون ما غير ذلك إغفالاً تاما وأما علماء المسلمين ومفكريهم فيرون أن أهم مقومات الصحة النفسية هو توافق الفرد مع ربه وتمسكه بعبادته وتقواه سبحانه وتعالى، ومن الواضح أن انتهاجنا كأطباء نفسيين مسلمين لمنهج الغرب لم يحقق نجاحا يمس به المجتمع لأن المجتمع المسلم بطبيعته لا يستطيع إغفال العلاقة بين توافق الفرد مع دينه وربه وبين ما يحسه من أمن نفسي وأرى أن الأجدر بنا أن نتواصل مع جذورنا نحن لكي نستطيع التأثير في مجتمعاتنا بشكل يفيدُ ويثمر.

وقد بدأ بعض علماء النفس الغربيين المحدثين يدركون أخيرًا أهمية الإيمان بالله تعالى في صحة الإنسان النفسية، إذ أنه يمدُّهُ بطاقةٍ روحية تعينهُ على تحمل الكثير من مشاق الحياة وتساعده على التخلص من الكثير من القلق، لكن هؤلاء بالطبع قلةٌ منهم ولا يشجعهم أحد في المجتمع الغربي، وأنا لا أعرف سببا لتحرج الكثيرين من الأطباء النفسيين من التصريح والإعلان عن ملاحظاتهم مع المرضى في ممارستهم للطب النفسي والتي تختلف بالتأكيد عن ملاحظات الأطباء الغربيين التي يملئون بها آذان العالم كله ولا أجد من أطباء النفس المسلمين باستثناء حالات نادرة إلا أنهم يكررون ملاحظات الغرب ويحاولون إثبات أنها عندنا كما هي عندهم ولا أعرف كيف تكون كذلك لكن الواضح أننا كأمة أصبحنا نخاف من القول باختلافنا عن الغرب اللهم إلا في أننا فقراء وأننا محتاجون لرضاهم لكي نتقدم "أي أن نصبح مثلهم" ،

لا أريد البعد عن موضوعي الأصلي وهو الطب النفسي الإسلامي وإمكانية علاج الأمراض النفسية بالقرآن ولكنَّ لا بدَّ أولا من توضيح الفرقِ بين العلاج بالقرآنِ الكريم على أساسٍ فكريٍّ معرفيٍّ واضح ومن قِبَلِ من يعرف ما هو المرضُ وما أشكاله وأسبابه ، وبين من ينسب المرضَ النفسي إلى فعل الجنِّ ويتعامل مع آيات القرآنِ وكأنها تعاويذُ يؤثِّرُ بها في الجن وما إلى ذلك ويفعل أشياءً ما أنزل الله بها من سلطان ربما يصدقها هو نفسه إن كان سليم النية ويصدقها الآخرون على أنها دلائل على وجودِ الجني في بدن المريض؛ لكن الذي يشعرُ المسلم العالمَ بحقيقة الأمور ويخجله هو أن المنوم المغناطيسي أيا كانت ديانته للأسف يستطيع أن يفعل نفس الأفعال التي يفعلها ذلك الشيخ الهمام فيجعل المريضة تتكلم بصوت رجل والعكس دون أن يستخدم شيئًا من القرآن فكل هذه ممارسات ما أنزل الله بها من سلطان لا تحتاج إلا لمريض لديه قابلية عالية للإيحاء ورغبة غير واعية بالتالي في إسعاد المعالجِ أيا كان فيجدُ نفسه يفعل ما يريدُه المعالجُ ويحسب الأخير نفسه قد أنطق الجنَّ كما يحسب الكثيرون!!، كما سأبين بالتفصيل في مقال: الأمراض النفسية كلها بسبب المس والتلبس بالجن، وكما بينا أكثر من مرة في الروابط التالية وكلها من على مجانين: قيمة العقل في الإسلام ! ماذا جرى؟، السحر والحسد والشياطين، وأمة المساكين، والسحر والشياطين، وقول الأطباء النفسيين، والسحر وكيفية كشفه ؟، وكذلك خطيبتي والجن!!"التفكير الخرافي"، والجن المخفي: التفارق وادعاء العلم بالغيب، والجن المخفي وادعاء العلم بالغيب : مشاركة، وزدنا عليه في : بين الرقاة – مس قرين؟؟! أم وسواس قهري؟؟!!!، وأيضًا هو يقول ، ونحن نقول ... أين البحث العلمي، و"العلاج بالقرآن....من الراحة السلبية إلي الطمأنينة الوجودية"، والتفكير العلمي في مقابل التفكير الخرافي والأسطوري.

وأنا أحاوِلُ في السطورِ التاليَةِ أنْ أقدِّمَ بعضَ النماذِجَ مِنْ ما يُمكنُ أنْ يُساعِدَ في علاجِ أمراضٍ كالقلقِ العام والاكتئاب إضافَةً إلى العقَّاقير اللازمَةِ تبعًا لشدَّةِ الحالة المرضية أي أنه أسلوب علاجيٌ يضافُ إلى أدويَةِ المريض المتدين وربما يكون كافيا وحده في حالات مثل اضطرابات التأقلم Adjustment Disorders أو الحالات الخفيفة الشدة حسب معايير التشخيص في الطب النفسي؛ وَيُمْكِنُني أنْ

أسميهِ محاولَةً لوضْعِ حجَرِ أساسٍ لعلاج معرفِيٍّ يتناسَبُ مع بيئتنا المسلمة فالعلاجُ المعْرِفِيُّ كما ذكرت هو محاولةٌ يقوم بها المعالجُ لتغيير بعضِ الأفكارِ التي يعتبرها المريض من المسلماتِ التي لا تحتاج مناقشة في منظومته الفكرية بينما هي في حقيقتها أفكارُ خاطئة وغير قائمة على دليلٍ منطقي لكن المريض لا يدرك ذلك.

أرجو أن يكونَ واضِحًا للقارئ أن ما أقولُه هنا يَجب أنْ يُطَبِّقَهُ الطبيب المتخصص وليس مع كلِّ مريضٍ لأنَّ تطبيقَ هذا الأسلوب مع مريض بعيدٍ أصلاً عن الدين إنما يترك أثرًا آخرَ في نفس المريضِ الذي يشعرُ بأن الطبيب يأخُذُ دورَ الواعِظِ وربما رفضَ العلاجَ برُمَتِّهِ!، وأؤكِّدُ مرة أخرى هنا أنني أتكلَّمُ عن علاجٍ بالقرْآن لا ينطلقُ من أنَّ الاضطراباتِ النفسية ناتجة عن مس أو تلبس بالجان ولا عن ضعفٍ في الإيمان لأنها ليست كذلك، وإنما على أساسِ أنَّ القرْآنَ هو أسمى ما لدينا من فكْرٍ وهدْيٍ نتفقُ عليه جميعًا، فمثلاً:

١- إذا أرَدْنا دعوةَ المريض إلى التفاؤل وعدم اليأس: حسبُنا أن نذَكِّرَهُ بقول الله تعالى : "......... وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ" صدقَ اللهُ العظيم " يوسف (٨٧)"

وَقولهُ تعالى " قل يا عِبادِيَ الذينَ أسْرَفوا على أنفسِهِمْ لا تَقنَطُوا منْ رَحْمَةِ الله إنَّ اللهَ يغْفِرُ الذنوبَ جميعًا إنَّهُ هوَ الغفورُ الرحيم" صدقَ اللهُ العظيم" الزمر (٥٣)"، ويطمئن الله المؤمنين بأنه دائماً معهم, إذا سألوه فإنه قريب منهم ويجيبهم إذا دعوه :"وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ"، صدقَ اللهُ العظيم ." البقرة (١٨٦)"، نحتاج إلى ذلك بما لا يدعُ مجالاً للشكِّ مع مريضِ الاكتئاب بل وأحسبها نعمة من نعم الله التي أودعها في كتابه الكريم أن يكون لدينا مثلُ ذلك النور الهادي ولا أدري كيف لا نستخدمه في علاجِ مرضانا فهذه قمة الأمن النفسي للإنسان.

٢- فإذا أردْتُ تذكير المريض الواقع في كرب وضيقٍ لأيِّ مشكلة حياتيةٍ تواجههُ وقد أحسَّ أنَّهُ وحيدٌ فلماذا لا أناقشُهُ في أمرِ صلتهِ بالله عز وجل؟: فقوة الصلة بالله أمر أساسي في بناء المسلم النفسي حتى تكون حياته خالية من القلق والحزن والغم .. وتتم تقوية الصلة بالله بتنفيذ ما جاء في وصية الرسول صلى الله عليه وسلم لعبد الله

بن عباس: "يا غُلامُ إني أَعلِّمُكَ كَلِماتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجاهَكَ ، إذَا سَأَلْتَ فاسألِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ باللَّهِ, وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ على أنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا على أنْ يَضُرُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُوكَ إلا بِشَيءٍ قد كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ" رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح وفي رواية غير الترمذي زيادة "احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أمامَكَ، تَعَرَّفْ إلى الله في الرَّخاءِ يَعْرِفْكَ في الشِّدَّةِ، وَاعْلَمْ أنَّ ما أخْطأكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَاعْلَمْ أنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وأنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وأنَّ مَعَ العُسْرِ يُسراً" صدقَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وأنا كطبيبٍ نفسيٍّ مسلمٍ يعالجُ مريضا مسلما في ضيقٍ وكربٍ وخوف؛ إنْ لم أُذَكِّرْهُ بمثل هذا الحديث الشريف فماذا أقولُ لهُ ؟ هل مثلا أكلمه عن نصائح ديل كارنيجي لمواجهة القلق؟؟

٣- الثبات والتوازن الانفعالي: الإيمان بالله يشيع في القلب الطمأنينة والثبات والاتزان ويقي المسلم من عوامل القلق والخوف والاضطراب ... قال تعالى : " يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ " صدقَ اللهُ العظيم " إبراهيم (٢٧)"، وأيضًا "فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ" صدقَ اللهُ العظيم "البقرة (٣٨)"، وقوله تعالى : "هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ولِلهِ جنودُ السماواتِ و الأرضِ و كانَ الله عليمًا حكيمًا" صدقَ اللّهُ العظيم" الفتح (٤)"

٤- الصبر عند الشدائد: يربي الإسلام في المؤمن روح الصبر عند البلاء عندما يتذكر قوله تعالى: "..... وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" صدقَ اللهُ العظيم."البقرة (١٧٧)"، وقوله صلى الله عليه وسلم: "عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له"صدقَ رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم.

٥- المرونة في مواجهة الواقع: وهي من أهم ما يحصن الإنسان من القلق أو الاضطراب حين يتدبر قوله تعالى: "وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن

تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ" صدقَ اللهُ العظيم" البقرة (٢١٦)

وأيضًا قوله تعالى: "وعسى أنْ تكرَهُوا شيئًا ويجعلَ اللهُ فيهِ خيرًا كثيرًا" صدقَ اللهُ العظيم "النساء (١٩)"

٦- توافق المسلم مع الآخرين: الحياة بين المسلمين حياة تعاون على البر والتقوى, والتسامح هو الطريق الذي يزيد المودة بينهم ويبعد البغضاء, وكظم الغيظ والعفو عن الناس دليل على تقوى الله وقوة التوازن النفسي:"وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاّ ذُو حَظٍّ عَظِيم" صدقَ اللهُ العظيم "فصلت (٣٤)"

٧- ومما نجدهُ في تراثنا الإسلامي ويفيد في علاج مرضى وساوس التجنب سواء كانت من النوع المنتمي للوسواس القهري أو لأي من أنواع الرهاب مقولةٌ أعتبرها الركيزة الأولى للعلاج المعرفي السلوكي قالها الإمام علي رضي الله عنه وهي: "إذا هبت أمرا فقع فيه، فإن شدة توقيه، أعظم من الوقوع فيه" أي التعرض التدريجي لما تخاف منه مع منع الهروب، ومن ما يفيد في علاج مرضى الرهاب الاجتماعي أيضًا مقولة أحسبها لأحد المتصوفين وهي: "دوام النظر إلى الخالق ينسي ملاحظة المخلوق"، وما تزالُ الأمثلة وفيرةً ومعظمها لا يحتاجُ إلى تعليقٍ بل حسبهُ أنهُ يخرجُ من القلب إلى القلب ولكنني أعودُ لأؤكِّدَ أنَّ تحديد المريض المناسب والكلمات المناسبة لحالتهِ وله أمر يحتاج إلى من يعرف جيدًا عوارض وأبعاد الأمراضِ النفسية وكيفية التعامل معها ومتى نحتاجُ إلى هذا العلاج المعرفي مع الدواء ومتى يكون كافيا وحده ومتى يكون غير صالح على الأقل في مرحلة معينة من العلاج!

إذن فهناك طب نفسي إسلامي وَنعم هناك علاج بالقرآنِ للأمراضِ النفسية؛ ولكني أكَرِّرُ مَرَّةً أخرى أنني هنا أستعين بالقرآنِ كمادةٍ للعلاج المعرفي لها ما لها في قلوبنا و فيها ما فيها من بركة أودعَها الله عز وجل لكنني لا أتكلم عن آياتٍ تتعلق بالجن أو بالسحر ولا علاقة لها لا بالمرضِ ولا بما يعانيه المريضُ ولا أتكلم عن آياتٍ أكتبها على فخذ فتاةٍ مصابة بالشلل الهستيري ولا على ظهر امرأةٍ مكتئبة ولا في أوراق ليبلها المريض ويشرب ماءها أو يستحمَّ بها وإنما أتكلم عن آيات يفهمها ويتدبرها المريض؛ أنا أخاطبُ العقول والقلوب بالقرآنِ وقد أنزله الله تعالى لذلك

منقول من موقع مجانين بتصريف

=============

#دور المسجد في بناء الحضارة

د. وليد فتيحي *

إننا في أمس الحاجة إلى أن نعيد استقراء تاريخنا وأن ندرس عوامل نجاح أمتنا في قيادة الإنسانية قرابة ألف عام وبناء حضارة يشهد لها أعداؤها قبل أبنائها.

أي مدرسة وجامعة فكرية وعلمية واجتماعية تلك التي استمرت في إخراج أساتذة للإنسانية في العلوم النقلية والعقلية على حد سواء قرابة ألف عام من فقهاء ومحدثين وعلماء في الطب والهندسة والرياضيات والفلسفة والفلك والأدب وغيرها من علوم الدين والدنيا قلما يجتمع مثل هذا الرقم الهائل منهم في حضارة واحدة دع عنك أن يكونوا جميعا نتاج مدرسة واحدة.

أما المدرسة التي أقصدها فهي المسجد بمفهومه الشامل المتعمق وهو مفهوم غائب عن كثير من أبناء أمتنا, المسجد الذي يمثل نقطة التقاء الأمة وتوحيدها والمظهر العملي لوحدتها, ولذلك كان أول أعمال أستاذ الإنسانية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو بناء مسجد للمسلمين في قباء في أيامه الأولى التي أمضاها في المدينة, وبعد انتقاله من قباء الى المدينة كان أول أعماله كذلك بناء مسجده صلى الله عليه وسلم, وحمل أحجاره بيديه الكريمتين فكان المسجد النبوي مدرسة الدعوة الإسلامية الأولى ودار الدولة الإسلامية الكبرى, وكان المدرسة والجامعة ومقر مجلس الشورى, وعقد الرايات, وتجهيز الجيوش, وإدارة شؤون الأمة صغيرها وكبيرها.

إن المسجد في المفهوم الإسلامي الخالص هو مقر إعلان العبودية الخالصة لخالقنا (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا) وبما أن العبادة في المفهوم الإسلامي شاملة جامعة لحياة الانسان العابد لله تعالى { قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين, لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين } (الأنعام ١٦٢-١٦٣) وبما أن العلم في الإسلام شرط أساسي في أداء العبادة الصحيحة بمفهومها الشامل فلابد إذن من أن يقوم المسجد بدور نشر العلوم بل وأن يصبح منارة ومقصدا علميا.

وقد قام المسجد بدوره التعليمي منذ أيامه الأولى وحث رسول الله على هذا الدور العلمي لقوله صلى الله عليه وسلم: (من غدا الى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرا أو يعلمه كان كأجر حاج تاما حجه) أخرجه الطبراني, وهذا المقصد التعليمي أوضحه وبينه صلى الله عليه وسلم في حديثه ليفرق بينه وبين البعد الشعائري من إقامة الصلوات في المساجد.

ولم يقتصر الدور التعليمي للمسجد على الرجال بل نافست عليه النساء لما أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قالت النساء للنبي : (غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك, فوعدهن يوما لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن) وفتح المسجد صدره للمرأة تشهد دروس العلم ليتأكد حق المرأة في تحصيل العلم ومشاركة الرجل في الحياة, وقد أعجبت السيدة عائشة أم المؤمنين بإقبال الانصاريات على العلم فقالت: (نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء من أن يتفقهن في الدين).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرف على حلقات العلم التي كانت تنتشر في أرجاء المسجد النبوي الشريف خاصة في بواكير الصباح حيث حدث عبدالله بن عمرو بن العاص ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بمجلسين أحدهما فيه دعاء وإقبال على الله والآخر فيه علم, فأقرهما وقعد في مجلس العلم, وشجع رسول الله صلى الله عليه وسلم استخدام الوسائل المتاحة آنذاك لتوضيح المعاني والدروس سواء كانت بصرية او سمعية, ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن مسعود بقوله: خط لنا رسول الله خطا بيده ثم قال : (هذا سبيل الله مستقيما) وخط عن يمينه وشماله ثم قال: (هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو اليه) ثم قرأ(وإن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) (الأنعام ١٥٣).

ولو أن الوسائل التعليمية المتاحة لنا في عصرنا هذا وجدت في عصر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لحث على استعمالها وكان أول من يستعملها صلى الله عليه وسلم.

واستمر المسجد في التطور والنمو جيلا بعد جيل ليؤدي مهامه في صناعة الحياة ليصبح جامعات ومنارات علمية وفكرية رائدة, والأمثلة كثيرة نذكر بعضها مثل

جوامع الألف –وسميت كذلك لأنه مضى على تأسيسها أكثر من ألف عام– مثل جامع عمرو بن العاص قلب الفسطاط الفكري ومهد الحركة العلمية في مصر والذي كان يشهد مئات الزوايا العلمية, والجامع الأموي في دمشق وجامع المنصور ببغداد, وجامع القرويين في فاس بالمغرب الذي امتاز بالنظام التعليمي الجامعي وديموقراطية التعليم وطرق التدريس فيه فكان له شروط دقيقة للتعيين ووظائف التدريس وتخصيص كراسي الأستاذية والإجازات الفخرية, وكان له مساكن جامعية خاصة للطلبة والأساتذة ومكتبات متخصصة للدارسين الجامعيين فقصدها المسلمون وغير المسلمين من شتى أرجاء العالم وخاصة من أوروبا أمثال القس غربرت دورياق الذي أصبح بابا روما, وكان التدريس يبدأ قبل طلوع الفجر وحتى الواحدة بعد منتصف الليل, أما جامع الزيتونة بتونس فقد أبدع في شتى مجالات العلوم النقلية والعقلية وضمت مكتبته العامرة مايزيد عن مائتي الف مجلد, وكذلك كان حال الجامع الأزهر الذي بدأ كغيره كمسجد لإقامة الشعائر التعبدية وسرعان ما أصبح جامعة يدرس فيها العلوم المختلفة وتخرج فيها علماء عمالقة في كل مجالات الحياة.

واشتركت كل هذه الجامعات العظيمة في تشجيعها لطلبتها على مبدأ المناقشة والمناظرة والتمرس عليها, فأصبح من المألوف ان يخالف الطالب أستاذه في الرأي في إطار الأدب المتعارف عليه, وبهذا أوجدت المدرسة العظيمة التي يطلق عليها بالمسجد –بمفهومه الشامل– أجيالا ستظل معجزة العالم ومفخرته, ولها فضل على كل علوم الدنيا شرعية أو كونية أو إنسانية, حيث كونت أساس النهضة العلمية والصناعية في الغرب.

وحظي القرنان الخامس والسادس الهجريان بالتوسع في بناء المدارس المنفصلة عن المساجد مما أدى تدريجيا الى فقد شمولية التعليم في حلقات المسجد ليقتصر على العلوم الشرعية, وبدأ الضعف العلمي يدب في الأمة, ومما زاد في تسارع الضعف والانهيار حدوث كوارث ثلاث في تاريخ أمة الإسلام على مدى ثلاثة قرون.

أما الأولى فهي حرق مدينة الفسطاط عام ٥٦٤هـ وأما الثانية فهي تخريب وحرق التتار لبغداد مركز الحضارة الاسلامية آنذاك في عام ٦٥٦هـ أما الكارثة الثالثة فهي سقوط الأندلس عام ٨٩٧هـ.

وبفقد المسلمين للزعامة العلمية تم فقد قيادة الإسلام للبشرية وورثت أوروبا التراث العلمي فحمله أبناؤها وقدروه حق قدره فرفع قدرهم ليتسلموا من المسلمين الزعامة العلمية وقيادة البشرية, وأصبح المسلمون يتخبطون في الجهل وضاعت هويتهم الإسلامية فبدأوا يفصلون بين التعليم الديني والتعليم الدنيوي وهو مفهوم غريب عند جيل عمالقة المسلمين, وانفصل بذلك البعد الروحي والخلقي والتربوي للمسجد عن العلوم الدنيوية فضعف التحصيل في علوم الدنيا التي فيها قوام الحياة, وعمل الاستعمار على تقليص التعليم الإسلامي الشامل فعملت بريطانيا على الأزهر وفرنسا على جامع القرويين في فاس, وكذلك الحال بالنسبة للزيتونة بتونس, ومن وسائل تحجيم وتحييد هذه المساجد الجامعية اضعاف اوقافها, وتخرجت أجيال ممن صبغت بغير صبغة الله وبغير صبغة مدرسة الإسلام, وابتعد المسلمون أكثر فأكثر عن مفهوم الشمولية العلمية وعمارة الأرض والأخذ بأسباب كل ما يقيم الحياة ويبنيها بل وعندما فقدت صبغة المسجد فقد الإخلاص في تلقي العلوم, وسخرت أمم أخرى العلوم بمعزل عن القيم الروحية وما يصلح النفس البشرية.

ان ضعف دور المسجد هو انعكاس لضعف الأمة الإسلامية ولن تكون الصحوة الإسلامية الا عندما يقوم المسجد بدوره الشامل ويرتقي بأساليبه ووسائله التربوية والتعليمية بما يتناسب مع احتياجات العصر ومقتضياته ليصبح قلب الحياة الإسلامية من جديد, وهو واجب عصري حيث لا يتم واجب تعليم الجيل إلا به.

ان هناك جهودا حثيثة لإعادة دور المسجد في بناء الحضارة وصناعة الحياة, ومن هذه الجهود ما تقوم به الجمعية الإسلامية في بوسطن من إقامة أضخم مركز حضاري في أمريكا يشمل مسجدا جامعا ومدرسة ومكتبة تكون مرجعا للباحثين ومركزا لدعوة غير المسلمين وقاعات للمحاضرات.

وسيبنى المسجد ان شاء الله في موقع متميز بجوار المدينة الطبية والجامعات الكبرى مثل هارفرد وجامعة بوسطن على ارض قدمت للمسلمين بسعر رمزي لأول مرة في تاريخ امريكا, وسيكون هذا موضوعنا القادم ان شاء الله.

(ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها)

المرجع: المسجد ودوره التعليمي عبر العصور من خلال الحلق العلمية لعبدالله الوشلي.

======

* استشاري غدد صماء وسكر ورئيس برنامج في مركز جوزلن للسكر وعضو هيئة تدريس كلية طب جامعة هارفرد – بوسطن

عضو مجلس أمناء الجمعية الاسلامية في بوسطن

===============

#حضارتنا في عيون الغربيين

د.عبد المعطي الدالاتي

"لا يمكن أن نجد ديناً يحتل العلم والمعرفة

فيه محلاً بارزاً كما كان الأمر في الإسلام"

– كونستان جيورجيو –

تميزت الحضارة العربية الإسلامية بغايتها الربانية ، ورؤيتها الإنسانية ونزعتها العالمية ، ونظرتها الشمولية ، وفكرتها الوسطية ، وصبغتها الأخلاقية . وهذه الحضارة هي الوحيدة في التاريخ التي وصلت الدنيا بالآخرة ، وربطت السماء بالأرض ، وآخت بين العقل والقلب ، ومزجت المادة بالروح ، وأرضت الفرد والمجتمع ، ووازنت بين الحقوق والواجبات ، وجمعت بين الواقع والمثال .. لقد وحّدت بحق بين الثنائيات ، وأخرجت منها شراباً خالصاً سائغاً للشاربين .

وفيما يلي أنقل شهادات غربية منصفة في حضارتنا انتُزعت من أقلام مفكرين غربيين درسوا الإسلام فراعهم جماله ، وأعجبتهم مبادئه ، ولكنهم لم يُنزلوا قناعاتهم من سماء العقل إلى أرض القلب ، ولم يسقوها بماء الوجدان ، فلم تنمُ غراسها ولم تثمر !

وفشلوا في أن يحوّلوا الاقتناع بالحق إلى اعتناق له ، والإعجاب بالإسلام إلى عقيدة تجري في العروق ، نعم لم يبقَ أمامهم إلا ضربة معول واحدة كي يصلوا إلى النبع الثّر الزلال ، فلم يفعلوا ..

حاموا وهم الظّماء حول الماء ولم ينهلوا !!

وإنما أعرض أقوالهم لأولئك المهزومين أمام الغرب ، الذين لا يشربون الكأس الرويّة إلا إذا كانت بيد غربية ! ولا يجرعون الدواء إلا من تلك الصيدلية !!

على أن بعض هذه العبارات كانت في سياقها شَرَكاً نُصب للعقل المسلم ، ولا حرج علينا – أظن – إن لقطنا الحبة ، ومزقنا الشبكة ، وطرنا بسلام .

يقول المؤرخ الإنجليزي (ويلز) : "كل دين لا يسير مع المدنية في كل أطوارها فاضرب به عرض الحائط ، وإن الدين الحق الذي وجدته يسير مع المدنية أينما سارت هو الإسلام ... ومن أراد الدليل فليقرأ القرآن وما فيه من نظرات ومناهج علمية ، وقوانين اجتماعية ، فهو كتاب دين وعلم واجتماع وخلق وتاريخ ، وإذا طُلبَ مني أن أحدّد معنى الإسلام فإني أحدده بهذه العبارة " الإسلام هو المدنية"(١).

وتقول المستشرقة زيغريد هونكه في كتابها القيم : (شمس الله تسطع على الغرب) : "إن هذه القفزة السريعة المدهشة في سلم الحضارة التي قفزها أبناء الصحراء ، والتي بدأت من اللا شيء لهي جديرة بالاعتبار في تاريخ الفكر الإنساني... وإن انتصاراتهم العلمية المتلاحقة التي جعلت منهم سادة للشعوب المتحضرة لفريدة من نوعها ، لدرجة تجعلها أعظم من أن تُقارَن بغيرها ، وتدعونا أن نقف متأملين : كيف حدث هذا ؟! إنه الإسلام الذي جعل من القبائل المتفككة شعباً عظيماً ، آخت بينه العقيدة ، وبهذا الروح القوي الفتي شق العرب طريقهم بعزيمة قوية تحت قيادة حكيمة وضع أساسها الرسول بنفسه ... أو ليس في هذا الإيمان تفسير لذلك البعث الجديد ؟! والواقع أن روجر بيكون أو جاليليو أو دافنشي ليسوا هم الذين أسسوا البحث العلمي .. إنما السباقون في هذا المضمار كانوا من العرب الذين لجأوا – بعكس زملائهم المسيحيين – في بحثهم إلى العقل والملاحظة والتحقيق والبحث المستقيم ، لقد قدّم المسلمون أثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهدت أمام الغرب طريقه لمعرفة أسرار الطبيعة وتسلطه عليها اليوم ... وإن كل مستشفى وكل مركز علمي في أيامنا هذه إنما هي في حقيقة الأمر نُصب تذكارية للعبقرية العربية ... وقد بقي الطب الغربي قروناً عديدة نسخة ممسوخة عن الطب العربي ، وعلى الرغم من إحراق كتب ابن سينا في مدينة بازل بحركة مسيحية عدائية ، فإن كتب

التراث العربي لم تختف من رفوف المكتبات وجيوب الأطباء ، بل ظلت محفوظة يسرق منها السارقون ما شاء لهم أن يسرقوا"(٢).

وعلى مدى الكتاب كانت المؤلفة تعقد المقارنات بين منهج العرب المسلمين في البحث العلمي وبين ما كان عليه العقل الغربي من تسطّح فتقول : "اتسعت الهوة بين الحضارة العربية الشامخة والمعرفة السطحية في أوربة التي كانت ترى أن من الكفر والضلال القول بأن الأرض كروية ، فمعلم الكنيسة لاكتانتيوس يتساءل مستنكراً: أيعقل أن يُجنّ الناس إلى هذا الحد ، فيدخل في عقولهم أن البلدان والأشجار تتدلى من الجانب الآخر من الأرض ، وأن أقدام الناس تعلو رؤوسهم؟!!"(٣).

قلت : منذ ألف عام توصل فقيه الأندلس الإمام ابن حزم إلى الجزم بكروية الأرض منطلقاً من القرآن الكريم ومن التنظيم المطّرد لمواقيت الصلاة في محيط الأرض... وقد بسط ذلك في كتابه الموسوم (الفصل بين المِلل والنِّحَل) .

ويقول العلامة بريفولت : "ما من ناحية من نواحي الازدهار الأوربي إلا يمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، وإن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه لنا من كشوف مدهشة ونظريات مبتكرة ، بل إنه مدين بوجوده ذاته ... ولم يكن بيكون إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلامي إلى أوربة المسيحية ، وهو لم يَملّ قط من التصريح بأن اللغة العربية وعلوم العرب هما الطريق الوحيد لمعرفة الحق(٤).. ولقد انبعثت الحضارة الإسلامية انبعاثاً طبيعياً من القرآن ، وتميزت عن الحضارات البشرية المختلفة بطابع العدل والأخلاق والتوحيد ، كما اتسمت بالسماحة والإنسانية والأخوّة العالمية"(٥).

ويقول المفكر ليوبولد فايس : "لسنا نبالغ إذ قلنا إن العصر العلمي الحديث الذي نعيش فيه ، لم يُدشّن في مدن أوربة ، ولكن في المراكز الإسلامية في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة"(٦).

"نحن مدينون للمسلمين بكل محامد حضارتنا في العلم والفن والصناعة ، وحسب المسلمين أنهم كانوا مثالاً للكمال البشري ، بينما كنا مثالاً للهمجية"(٧).

ويقول الكاتب الفرنسي أناتول فرانس في كتابه (الحياة الجميلة) : "أسوأ يوم في التاريخ هو يوم معركة (بواتييه) عندما تراجع العلم والفن والحضارة العربية أمام

بربرية الفرنجة ، ألا ليت شارل مارتل قطعت يده ولم ينتصر على القائد الإسلامي عبد الرحمن الغافقي"

"حين نتذكر كم كان العرب بدائيين في جاهليتهم يصبح مدى التقدم الثقافي الذي أحرزوه خلال مئتي سنة ، وعمق ذلك التقدم ، أمراً يدعو إلى الذهول حقاً ، ذلك بأن علينا أن نتذكر أيضاً أن النصرانية احتاجت إلى نحو من ألف وخمسمئة سنة لكي تنشئ ما يمكن أن يدعى حضارة مسيحية ، وفي الإسلام لم يُولّ كل من العلم والدين ظهره للآخر ، بل كان الدين باعثاً على العلم ، وإن الحضارة الغربية مدينة للحضارة الإسلامية بشيء كثير إلى درجة نعجز معها عن فهم الأولى إذا لم تتم معرفة الثانية"(٨).

ويقول المسيو سيديو : "لم يشهد المجتمع الإسلامي ما شهدته أوربة من تحجر العقل ، وشل التفكير ، وجدب الروح ومحاربة العلم والعلماء ، ويذكر التاريخ أن اثنين وثلاثين ألف عالم قد أُحرقوا أحياء ! ولا جدال في أن تاريخ الإسلام لم يعرف هذا الاضطهاد الشنيع لحرية الفكر ، بل كان المسلمون منفردين بالعلم في تلك العصور المظلمة ، ولم يحدث أن انفرد دين بالسلطة ، ومنح مخالفيه في العقيدة كل أسباب الحرية كما فعل الإسلام"(٩).

"لقد ديست بالأقدام تلك المدنية العظيمة في الأندلس ! ولماذا ؟ لأنها نشأت من أصول رفيعة ، ومن طباع شريفة ، نعم من رجال الإسلام . إن المدنية الإسلامية لم تتنكر يوماً للحياة"(١٠).

ويقول العلامة جورج سارتون :

"المسلمون عباقرة الشرق ، لهم مأثرة عظمى على الإنسانية ، تتمثل في أنهم تولّوا كتابة أعظم الدراسات قيمة ، وأكثرها أصالة وعمقاً ، مستخدمين اللغة العربية التي كانت بلا مراء لغة العلم للجنس البشري(١١)... لقد بلغ المسلمون ما يجوز تسميته =معجزة العلم العربي+" .

وتقول الدكتورة لويجي رينالدي : ".. لما شعرنا بالحاجة إلى دفع الجهل الذي كان يثقل كاهلنا ، تقدمنا إلى العرب ومددنا إليهم أيدينا لأنهم كانوا الأساتذة الوحيدين في العالم"(١٢).

ويقول البروفسور غريسيب ، مدير جامعة برلين : "أيها المسلمون ما دام كتابكم المقدس عنوان نهضتكم موجوداً بينكم ، وتعاليم نبيكم محفوظة عندكم ، فارجعوا إلى الماضي لتؤسسوا المستقبل"(١٣).

ويقول المستشرق درايبر : "ينبغي أن أنعي على الطريقة التي تحايل بها الأدب الأوربي ليخفي عن الأنظار مآثر المسلمين العلمية علينا ! إن الجور المبنّي على الحقد الديني ، والغرور الوطني لا يمكن أن يستمر إلى الأبد"(١٤).

ويقول روم رولان : "تفرد العلم الإسلامي بأنه لم ينفصل عن الدين قط ، والواقع أن الدين كان ملهمه وقوته الدافعة الرئيسة ، ففي الإسلام ظهر العلم لإقامة الدليل على الألوهية" .

ويقول رينان : "ما يدرينا أن يعود العقل الإسلامي الوَلود إلى إبداع المدنية من جديد؟ إن فترات الازدهار والانحدار مرت على جميع الأمم بما فيها أوربة المتعجرفة"(١٥).

ونختم بنقول من كتاب (حضارة العرب) لغوستاف لوبون يقول : "إن حضارة العرب المسلمين قد أدخلت الأمم الأوربية الوحشية في عالم الإنسانية ، فلقد كان العرب أساتذتنا ... وإن جامعات الغرب لم تعرف لها مورداً علمياً سوى مؤلفات العرب ، فهم الذين مدّنوا أوربة مادة وعقلاً وأخلاقاً ، والتاريخ لا يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه ... إن أوربة مَدينة للعرب بحضارتها ... والحق إن أتباع محمد كانوا يذلّوننا بأفضلية حضارتهم السابقة ، وإننا لم نتحرر من عقدتنا إلا بالأمس ! وإن العرب هم أول من علّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين ... فهم الذين علّموا الشعوب النصرانية وإن شئت فقل حاولوا أن يعلموها التسامح الذي هو أثمن صفات الإنسان ... ولقد كانت أخلاق المسلمين في أدوار الإسلام الأولى أرقى كثيراً من أخلاق أمم الأرض قاطبة ... "(١٦).

إن القفزة الحضارية الهائلة التي سجّلتها أمتنا الإسلامية ، يمكنها أن تعود ، وأن تتكرر من جديد ، بشرط واحد هو أن نريد بإذن الله ، فالإمكان الحضاري الذي تهبنا إياه القيم المعصومة في الكتاب والسنة والسيرة ، ليس ببعيد على من يريده ويسعى إليه ، وقد بدأت تتفتح أزهار الانتصار العاطفي للإسلام في ضمير الأمة ، ولم يبقَ إلا أن تتعمق جذور الوعي كي تثمر هذه الأزهار . ويقع عبء التوعية أولاً على

كاهل النخبة المخلصة المتخصصة المؤتَمنة على إيصال صوت نبيها إلى العالم ... وهؤلاء هم (أولو الألباب) الذين مزجوا الحق بالصواب ، والذين باعوا أعمارهم وجهودهم وطاقاتِهم لله تعالى ، فربحوا مرتين إذ البضاعة منه والثمن ! "إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأنّ لهم الجنة"(١٧).

وإن الحضارة في صعود ، إذ كانت النخبة المبدعة المؤمنة هي التي تقود ، ومن بعد النخبة يأتي دور الأمة ، ليقوم كل مسلم بدوره في عملية النهوض الحضاري وإن أول عمل حضاري في تاريخ الإسلام وهو بناء المسجد ، قد شاركت فيه عزائم كل المسلمين ، بقيادة نبيهم الأمين ، وكذلك الأمر في حفر الخندق إذ كان الصحابة كلهم على أمرٍ جامع ، وإن الحضارة لن تنجم إلا عن تجمع آلاف الجهود الصغيرة النافعة ، والنهر المتدفق هو قطرات ماء تآخت ثم وجدت طريقها .

إن على كل مسلم أن يقوم بدوره في عملية البناء الحضاري للأمة ، وإن كل مسلم مدعوّ إلى نزهة القمم ، فعليه أن يُنَزِّه نفسه عن وهدة السفوح . فأمام المسلم اليوم خياران : إما أن يسعى إلى تغيير نفسه ليتغيّر العالم ، وإما أن يُغيّر اسمه .

ربنا هب عوامنا العلم ، وعلماءنا العمل ... وعاملينا الإخلاص ، وهب مخلصينا السداد والتميز في النجاح .

* * *

" من كتاب " ربحت محمدا ولم أخسر المسيح"

____

(١) عن (الإسلام والمبادئ المستوردة) د. عبد المنعم النمر (٨٤) .

(٢) (شمس الله تسطع على الغرب) ص (١٤٨ – ٢٦٩ – ٣١٥ – ٣٥٤) .

(٣) نفسه ص (٣٧٠) .

(٤) (بناء الإنسانية) رويلت بريفولت نقلاً عن (مقدمات العلوم والمناهج) أنور الجندي ، مجلد٤ ص(٧١٠) .

(٥) عن (أخطر ما تواصى به المسلمون عبر الأجيال) أنور الجندي (١٦) .

(٦) (الإسلام على مفترق الطرق) محمد أسد (٤٠) .

(٧) هنري شامبون عن (الإسلام والمبادئ المستوردة) د.عبد المنعم النمر (٨٤) .

(٨) المستشرق روم لاندو في (الإسلام والعرب) ص(٩-٢٤٦) .

(٩) نقلاً عن كتاب (هكذا كانوا ... يوم كنا) د. حسان شمسي باشا (٨٣) .

(١٠) الفيلسوف نيتشه عن (ظلام من الغرب) للعلامة محمد الغزالي (١٤٠) .

(١١) نقلاً عن (هكذا كانوا يوم كنا) د. حسان شمسي باشا ص(٨) .

(١٢) عن (مقدمات العلوم والمناهج) أنور الجندي – مجلد ٧ ص(١٤١) .

(١٣) عن (هكذا كانوا يوم كنا) د. حسان شمسي باشا (٩) .

(١٤) عن (تشكيل العقل المسلم) د. عماد الدين خليل (٩٤) .

(١٥) عن (مقدمات العلوم والمناهج) أنور الجندي (٨ / ١٧٣) .

(١٦) (حضارة العرب) غوستاف لوبون ص(٢٦ – ٢٧٦ – ٤٣٠ – ٥٦٦) .

(١٧) قرآن كريم (سورة التوبة – ١١١) .

============

#أسطورة غاندي

د. خالد بن محمد الغيث

لقد كان الزعيم الهندي غاندي من الزعماء القلائل الذين نالوا شهرة واسعة في هذا العصر ، وحيثما ذكر نجد الثناء العطر يرافق سيرته ، وأنه بطل المقاومة السلمية التي يحرص الغرب على تصديرها إلى العالم الإسلامي ، وتذكيرهم بها في كل مناسبة.. فيا ترى ما سر هذا الرجل الذي ظهر فجأة على المسرح السياسي في الديار الهندية ؟

إن الإجابة على هذا السؤال تتطلب منا العودة إلى القرن ١٦م ، الذي شهد الانطلاقة الحديثة للحروب الصليبية.

لقد كان هدف الموجة الجديدة من الحروب الصليبية الأوربية في القرن ١٦م هو الالتفاف حول العالم الإسلامي من الخلف لخنقه اقتصادياً ، من أجل إضعاف الدولتين المملوكية والعثمانية ، لكن أوربا فوجئت بأن العمق الإسلامي يمتد في وحدة دينية فريدة وخطيرة حتى يصل إلى جزر الفلبين ، ماراً بالهند ، التي أثارت لوحدها شهية الأوربيين بشكل عجيب ، لكونها من أعظم المراكز الاقتصادية الإسلامية في ذلك الوقت ، هذا وقد استغل الأوربيون سماحة السلطان المغولي المسلم (جها نكير)

فبدأوا بالتسلل إلى الهند كتجار ، حتى تمكن الإنجليزي (وليم هوكنز) من مقابلة السلطان (جها نكير) في عام (١٠١٧هـ / ١٦٠٨م) بصفته مبعوثاً من الملك الانجليزي (جيمس الأول) ، وقد حاول (وليم هوكنز) استثمار مقابلته للسلطان (جها نكير) بأن يأخذ منه خطاب مجاملة إلى الملك (جيمس الأول) لكن الوزير الأول في بلاط السلطان رد عليه قائلاً : (إنه مما لا يناسب قدر ملك مغولي مسلم أن يكتب كتاباً إلى سيد جزيرة صغيرة يسكنها صيادون !).

لقد عرف الإنجليز أن وجود الحكم الإسلامي في الهند كفيل بتعطيل أحلامهم الصليبية لذا فقد اكتفوا بما كان من تأسيسهم لشركة الهند الشرقية للتجارة الإنجليزية في الهند والأقطار المجاورة في عام (١٠٠٩هـ /١٦٠٠م). ومع الوقت كانت شركة الهند الشرقية تتوسع وتزداد فروعها في أرجاء الهند ، ومع الوقت بدأت حقيقة هذه الشركة وفروعها تتكشف فلم تكن إلا قواعد عسكرية إنجليزية ، وبؤر تجسسية كان هدفها تجنيد المنافقين من أبناء المسلمين ، والعملاء من أبناء الهندوس ، والسيخ.

وفي عام (١١٧٠هـ / ١٧٥٧م) وفي إبان الغزو الشيعي الصفوي الإيراني للهند قام الجيش البريطاني التابع لشركة الهند الشرقية باستغلال هذا الظرف الحرج فتمكن من هزيمة المسلمين في منطقة البنغال في معركة (بلاسي) التي تعد أول المعارك الحاسمة بين الطرفين ، وقد تم لهم ذلك بمساعدة المنافقين والعملاء الذين تم تجنيدهم عبر عشرات السنين ، إلا أن احتلال الإنجليز للهند لم يتم إلا بعد قرن من الزمان وبعد معارك طاحنة بين الطرفين ، انتهت بعزل (بهادر شاه) آخر السلاطين المسلمين ونفيه إلى بورما حيث توفي عام (١٢٧٩هـ / ١٨٦٢م) لذلك فقد قامت بريطانيا في عام (١٢٧٥هـ /١٨٥٨م) بضم الهند إلى التاج البريطاني رسمياً ، لتصبح درة التاج البريطاني منذ ذلك التاريخ.

تقريب الهنادكة :

لقد عرف الاحتلال البريطاني أنه من المستحيل أن يقبل المسلمون في الهند الرضوخ لسياسة الأمر الواقع وفي ذلك يقول (النبرو) الحاكم البريطاني في الهند : (إن العنصر الإسلامي في الهند عدو بريطانيا اللدود ، وإن السياسة البريطانية يجب أن

تهدف إلى تقريب العناصر الهندوكية إليها ، لتساعدهم في القضاء على الخطر الذي يتهدد بريطانيا في هذه البلاد).

وفي عام (١٣٠٣هـ / ١٨٨٥م) قامت بريطانيا بتأسيس حزب المؤتمر الوطني الهندي ، ومن خلال هذا الحزب تم إحياء القومية الهندوسية الوثنية القديمة ، لتكون عوناً لبريطانيا في محاربتها للإسلام والمسلمين في شبه القارة الهندية.

سياسة بريطانيا تجاه المسلمين :

لقد كانت بريطانيا تعلم أن بقاءها في الهند لن يكتب له الاستمرار في ظل مقاومة إسلامية صلبة ترفض الذوبان والانبطاح والتوسل للمحتل ، لذا فقد لجأت إلى تنفيذ سلسلة من الخطوات الرامية إلى خلخلة هذه المقاومة وكسرها ، ومن ذلك :

١- إقامة المذابح للمسلمين في كل مكان ، وفي ذلك يقول أحد الكتاب الإنجليز : (إن ما ارتكبه جنودنا من ظلم ووحشية ، ومن حرق وتقتيل ، لا نجد له مثيلاً في أي عصر).

٢- زرع العصبية الجاهلية داخل المجتمع المسلم ، حيث قسموا المسلمين إلى طوائف اجتماعية ، وأجبروهم على تسجيل أنفسهم رسمياً حسب هذا التقسيم الطائفي.

٣- العبث بمناهج التعليم لتخدم سياسة الاحتلال البريطاني ، مما جعل المسلمين ينفرون من المدارس العلمانية خوفاً على عقيدة أبنائهم.

٤- نشر الانحلال والمجون والإباحية والفساد.

٥- تأسيس الحركات الهدامة التي تتسمى باسم الإسلام مثل القاديانية ، التي نفت مبدأ ختم النبوة ، ونبذت الجهاد ومقاومة المحتل ، ودعت إلى طاعة الإنجليز والقبول بسياسة الأمر الواقع.

٦- تزوير التاريخ الجهادي للأمة المسلمة عن طريق نشر الكتب والمؤلفات التي تنبذ الجهاد والمقاومة ، ومن ذلك كتاب المستشرق ، تومس آرنولد : الدعوة إلى الإسلام.

٧- إبعاد العلماء وعزلهم عن قيادة وتوجيه الجماهير المسلمة.

٨- إيجاد زعامات قومية إسلامية ، تفتخر بقوميتها على حساب انتمائها إلى دينها وإسلامها ، وقد كان هؤلاء ممن تخرجوا من المدارس والكليات العلمانية.

صناعة غاندي :

عندما توفي السلطان العثماني محمد الفاتح رحمه الله (٨٨٦هـ) وهو يحاصر روما دعا بابا الفاتيكان في روما النصارى في أوروبا إلى الصلاة شكراً لله ابتهاجاً بوفاة محمد الفاتح.

هذه الحالة من الرعب والفزع لم تكن لتغيب عن أوروبا الصليبية في نظرتها إلى العالم الإسلامي ، لذا فقد كان أخطر عمل قامت به بريطانيا هو إلغاء الخلافة الإسلامية وإسقاط الدولة العثمانية وتفتيت العالمين العربي والإسلامي ، حتى لا تضطر أوربا لإقامة صلاة الشكر مرة أخرى.

لقد أدى قيام بريطانيا الصليبية بإلغاء الخلافة الإسلامية إلى إذكاء روح المقاومة الإسلامية في الهند ، ومن ذلك تأسيس المسلمين جمعية إنقاذ الخلافة في عام (١٩٢٠م) ، وقاموا بجمع (سبعة عشر مليون روبية) لأجل هذا الغرض.

وهنا طفا على السطح فجأة شخص هندوسي اسمه (غاندي) وقام بالتقرب إلى جمعية إنقاذ الخلافة وطرح عليهم فكرة التعاون مع حزب المؤتمر الوطني الهندي ، فرحب المسلمون بذلك ، ولما عقد أول اجتماع بين الطرفين ، طرح المسلمون شعار استقلال الهند عن بريطانيا ، بدلاً عن فكرة إصلاح حالة الهند التي كانت شعار المؤتمر الوطني ، لكن (غاندي) عارض هذا المقترح وثبط الهمم ، وفي عام (١٩٢١م) عقد الطرفان اجتماعاً مهما تمكن فيه المسلمون من فرض شعار الاستقلال عن بريطانيا وقاموا بتشكيل حكومة وطنية لإدارة البلاد.

هذا التطور الخطير لم تكن بريطانيا لتسمح له بإفساد فرحتها بإسقاط الدولة العثمانية وتقسيم العالم الإسلامي ، لذا فقد قام (ريدينج) الحاكم البريطاني للهند بالاجتماع (بغاندي) وقال له : (إن مصدر الحركة الاستقلالية في الهند هم المسلمون ، وأهدافها بأيدي زعمائهم ، ولو أجبنا مطالبكم ، وسلمنا لكم مقاليد الحكم ، صارت البلاد للمسلمين ، وإن الطريق الصحيح هو أن تسعوا أولاً لكسر شوكة المسلمين ، بالتعاون مع بريطانيا ، وحينئذ لن تتمهل بريطانيا في الاعتراف لكم بالاستقلال ، وتسليم مقاليد الحكم في البلاد إليكم).

وبناء على التنسيق والتفاهم الذي تم بين (ريدينج) و (غاندي) قامت بريطانيا بالقبض على الزعماء المسلمين المنادين بالاستقلال ، فأصبح الطريق ممهداً أمام (غاندي) الذي طلب من هيئة المؤتمر الإسلامي الهندوسي ، بأن تسلم له مقاليد الأمور بصفة مؤقتة نظراً لقبض بريطانيا على الزعماء المسلمين ، وعندما عقد أول اجتماع برئاسة (غاندي) نفذ ما تم الاتفاق عليه مع الحاكم البريطاني (ريدينج) وأعلن أن الوقت لم يحن بعد لاستقلال الهند.

وفي الفترة من (١٩٢١- ١٩٤٨م) نجد أن بريطانيا قد طبقت في الهند ما طبقته في فلسطين مع الصهاينة [انظر الجذور التوراتية للسياسة البريطانية – مقال بصفحة الكاتب في الموقع]، حيث قامت بتسليح الهندوس وتدريبهم ، والتنسيق معهم لإقامة المذابح للمسلمين ، أما غاندي الذي أصبح كل شيء بعد تلميعه في مسرحية نفيه المؤقت إلى جنوب أفريقيا فقد قام بمذبحة ثقافية بشعة للحضارة الإسلامية في الهند ، وفي ذلك يقول الأستاذ أنور الجندي رحمه الله : (لقد كانت دعوة غاندي إلى ما سماه اكتشاف الروح الهندي الصميم ، والرجوع إلى الحضارة الهندية ، هو بمثابة إعلان حرب على الحضارة الإسلامية التي عاشت على أرض الهند أربعة عشر قرناً ، وغيرت كل مفاهيم الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، بل إنها قد غيرت مفاهيم الهندوكية نفسها).

وعندما اطمأنت بريطانيا على مقدرة الهندوس على حكم الهند قامت بترتيب الأمور لاستقلال الهند.

لقد كان عام (١٩٤٨م) الفصل الأخير من مسرحية غاندي وبريطانيا حيث سلب الحق من أهله بإعلان استقلال الهند عن بريطانيا في تلك السنة ، لكن مسرحية المقاومة السلمية التي قام غاندي فيها بدور البطل لا تزال تعرض إلى يومنا هذا.

بقي أن نشير إلى أن من يطلق شرارة الحقد والكراهية لا بد أن يكتوي بنارها ، فقد مات غاندي مقتولاً عند استقلال الهند ، ثم تبعه في عام ١٩٧٨م آخر حاكم بريطاني للهند حيث قتل على أيدي الثوار الإيرلنديين ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

كتبه

د. خالد بن محمد الغيث
جامعة أم القرى – كلية الشريعة
قسم التاريخ والحضارة الإسلامية
@altareekh.com٧٥٠Km
==============

#الذاكرة التاريخية للأمة

د. جاسم سلطان

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسول الله.. أما بعد:

إن الحديث عن الذاكرة التاريخية للأمة يأتي في سياق هذه الهجمة الشرسة على ذاكرة الأمة وتصورها عن نفسها وعن العالم. فالحرب اليوم لا تدور بين الأساطيل والطائرات فحسب، وإنما تدور حرب نفسية موجهة لاستلاب العقول والقلوب تتسم بأنها أشد ضراوة، وأخطر تأثيراً. تلك الحرب التي تأخذ مسارها على خارطة العالم، ولا تتوقف آناء الليل وأطراف النهار. افتح المذياع أو التلفاز أو ادخل على شبكة الإنترنت، وانظر إلى هذا الفضاء الفسيح الذي يطاردك، ناهيك عن الاحتراب الإعلامي الضخم الذي يستهدف المدارس والتعليم وعمليات التثقيف المختلفة. ومن خلال ذلك كله يتم تشكيل العقل –ليس في بلادنا فحسب – ولكن على مستوى العالم أجمع. وللقوة المتفوقة اليوم النصيب الأوفر والباع الأطول في إعادة تشكيل الخارطة الذهنية للمجتمعات البشرية.

وعندما تكون أداة الحرب هي الإعلام والمدرسة فإن الخصم يتخفى ويتلون ويقوم كل مرة باحتلال مساحات صغيرة من هذا العقل البشري، حتى يجد الإنسان نفسه مستلباً لمقولات الآخر دون تمحيص أو تفكير. ويعتمد الخصوم في ذلك على أن الغالبية العظمى من البشر لا تقرأ ولا تمحص، وإنما تتلقى كل شيء من الخارج.

ويقول علماء البحوث الإنسانية أن الناس ينقسمون من حيث الرأي العام إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: قادة الرأي. وهؤلاء يصنعون الإعلام ويصنعون الدعاية السياسية ولا يتأثرون بها لأنهم يعلمون أنها أداة من أدوات الصراع.

القسم الثاني: المثقفون. والرأي العام المثقف يقرأ وينظر ويمحص بدرجة من الدرجات، ويشارك في أوقات السلم في صناعة الرأي، فإذا احتدمت الحرب انقلب إلى رأي عامي أيضاً. وتلك مفارقة كبيرة تلمحها في فترات الأزمات حيث ترى أن كثيراً من الكتاب والمفكرين يجنحون إلى الحديث بلغة الشارع ويخاطبون نفس العواطف ويتحدثون بنفس المنطق.

القسم الثالث: الرأي العام العامي. وهؤلاء هم نقطة الفعل ومحط التركيز من جهاز الإعلام.

و نحن نأمل اليوم أن نرتقي بالرأي العام المثقف أو قطاعات منه إلى مستوى الرأي العام القائد الذي يصنع الإعلام ولا يتأثر به.

أنواع العقول التي تتلقف الدعاية

قادة الرأي

المثقفون

الرأي العام العامي

إن فهم هذه النقطة المحورية يعيننا على إدراك أهمية إحياء الذاكرة التاريخية للأمة. فالهجوم على التاريخ الإسلامي وإعادة تشكيله وانتقاصه وتعظيم تاريخ القوى الغازية لبلاد الإسلام يؤثر تأثيراً كبيراً حتى على صفوف من يُظن أنهم يقعون في طليعة المتحركين لعملية النهضة. ولقد رأيت في أثناء التجوال والنظر أن الكثيرين من العاملين للنهضة لا يمتلكون خارطة واضحة للتاريخ البشري، وكثير من الاستشهادات والاستدلالات التي يلجأون إليها تبدو مبتورة وفي غير موضعها. ويأتي هذا البحث لمحاولة ردم هذه الفجوة.

لمن هذا الكتاب

إنّ القارئ الذي يشق عليه في خضم مشاغل الحياة المتعددة أن يلجأ إلى أمهات المراجع والبحوث هو هدفنا الأول في هذا البحث الوجيز، حيث إن هذه الشريحة

الكبيرة من المجتمع الإسلامي هي التي تمثل أمل الغد المشرق إن شاء الله. وكل جهد في سبيل العمل على تكوينها ثقافياً يخدم ولاشك مشروع نهضة الأمة.

إن الكتابة في موضوع البحث تستهدف كذلك كل من يريد أن يسهم في مشروع نهضة الأمّة، وكل من يريد أن يخرج من الأنا الضيقة إلى فسحة الإنسانية الرحبة. لهؤلاء نكتب ونستصحب كل من يعتقد أنه منتمٍ لهذه الأمة ديناً أو حضارة لا نستثني منهم أحداً، ما استصحب الجميع عقد الأمة الواحد وروحها، ونحن وإن تحدثنا عن أمتنا فإن هدفنا الأسمى هو خير الإنسان، وكل الخلق، في كل أرض ومصر، حتى يتحقق قول الله عز وجل لرسوله {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}(١)، وهذا الكتاب نرجو له أن

يسهم في مسيرة الأمّة نحو تحقيق ذاتها واستعادة دورها، خاصة وأن تباشير الفجر تظهر في كل مكان رغم الصعاب الداخلية والخارجية التي تواجهها.

هدف الكتاب

لقد هدفنا من خلال هذا البحث إلى الوصول إلى عدة أمور:

* فهم أطوار الحراك التاريخي التي تمر بها أي حضارة حتى تقوم.

* رسم خارطة مبسطة لصعود وهبوط الحضارة الإسلامية.

* رسم خارطة مبسطة لهبوط وصعود الحضارة الغربية.

* رسم خارطة توضح تقاطع مساري الحضارتين الإسلامية والغربية.

* معرفة دور الأمة الإسلامية في نقل البشرية من طور الطفولة العلمية إلى طور الرشد العلمي.

* معرفة العوامل التي تراكمت في أوروبا وأدت إلى النهضة.

* معرفة العوامل التي تراكمت في العالم الإسلامي وأدت إلى التخلف.

ولقد حاولنا أن نجيب على تلك الأسئلة المتكررة حول ماذا حدث؟ ولماذا حدث؟ وكيف حدث؟ كما حرصنا على الاختصار والإيجاز بقدر الإمكان. لأن الغرض هنا وضع أسس وخطوط عريضة يستطيع القارئ المتوسط أن يضع فيها معلوماته بعد ذلك، ويؤسس على تصور أكثر حنكة ودراية بالتاريخ. وبالتالي لا يقتصر التاريخ على تسجيل الوقائع، وإنما يساعد على تكوين رؤية فاحصة تستدعي نهضة الأمة

وإعادة ثقتها بنفسها، مع الالتزام بالحقيقة وبمنطق العلم. وبالتالي نكون قد وضعنا لبنة هامة في المكون الفكري الأساس للفرد الذي نريد.

إن الفهم هو النقطة الحرجة في إنجاح عملية "النهضة"، ونقصد به وجود صورة أو إطار واضح المعالم يستند إليه الساعون إلى النهضة، وينطلقون من خلاله. إطار مرشد، تتدفق بين ضفتيه مياه النهضة في حركتها ونشاطها لتلتقي في المصب فلا تتشتت الجهود ولا تضيع، ومن أهم خطوات بناء هذا الإطار الجامع السعي لإحياء الذاكرة التاريخية للأمة.

طريقة تناول كل باب

وحتى يمكن تنظيم الخارطة المعرفية للعقل المسلم رأينا أن نبدأ كل باب:

* بأهم الأسئلة التي سيجيب عليها الباب.

* ثم الشرح التفصيلي.

* وبعد ذلك نموذج (شكل توضيحي) لملخص ما قيل، بحيث يسهل رسمه ومن ثم استدعاؤه وتذكر خلاصة الباب وشرحه للآخرين.

* ثم خلاصات تحتوي على أهم النقاط التي ذكرت في الباب.

لماذا هذه المنهجية في التناول؟

إن تيار النهضة المتدفق كالسيل لا يزال عاجزاً عن إحداث نقلة نوعية حقيقية تنقله من مرحلة إلى أخرى؛ بل إن هذه المراحل ذاتها تعاني من الضبابية والتداخل الذي يعجز معه طلاب النهضة وقادتها من تحديد بدايات هذه المراحل ونهاياتها. وهذا العجز وليد مجموعة من العوامل من أهمها تعامل العاملين للنهضة مع العلوم الإنسانية كعلوم وليس كأدوات.

فالمادة التاريخية يتم التعامل معها كمادة أكاديمية. وفي أحسن الأحوال تؤخذ منها الدروس والعبر المغلوطة والمبتسرة والمقتطعة من سياقها التاريخي. ونحن نرى أنه من الضروري أن ننفض الغبار عن هذه المادة التاريخية وأن ننتقل بها من رفوف المكتبات وعقول المؤرخين إلى ميادين الصراع والتدافع وعقول الاستراتيجيين. فالتاريخ هو مخزن الاستراتيجي الذي لا ينضب.

إن إتقان التعامل مع المادة التاريخية لتصبح أداةً من أدوات العاملين للنهضة – تعينهم في التفسير والشرح والتنبؤ – هو من الضروريات وليس من الحاجيات أو التحسينيات. وقديماً قال أوغست كونت: "إن المعرفة قوة.. إنها تعني أن نعرف فنتنبأ فنستطيع". فالمعرفة إذا لم تتحول لتصبح أداة للاستطاعة والتمكين فهي ليست معرفة حقيقية؛ بل هي معرفة مجتزأة لا يتعدى دور صاحبها دور كتاب من الكتب أو موسوعة من الموسوعات.

وانطلاقاً من هذه الرؤية تم التعامل مع المادة التاريخية. لذلك فإن القارئ سيلحظ أن المادة مصاغة بشكل أشبه ما يكون بالدورة الحية، تجنبنا فيها الشكل السردي الصرف. كما أنها مصاغة لتكون أداة عمل وليست ثقافة مجردة.

وعلى ذلك تم عرض الدراسة في سبعة أبواب:

تناول الباب الأول منها صورة من فلسفة التاريخ لرسم إطار ونموذج معرفي تتدرج فيه المعلومة التاريخية، ويُمَكِّن القارئ من فهم المسار التاريخي لأي حضارة، كما يمكنه من تحديد الطور الذي تمر به أمتنا والأطوار التالية التي علينا طرق أبوابها والولوج إليها.

والباب الثاني أسس لمفهوم الحضارة واضعاً إجابات على ادعاءات الغرب بامتداد العلوية الحضارية له، ومفنداً لمقولة الرجل الأبيض الذكي. كما أنه يوضح العوامل المؤثرة في قيام الحضارات وتتابعها وتواليها على قمة المجد الحضاري.

أما الباب الثالث فيرسم صورةً لتقسيم التاريخ كما تتناوله الأدبيات الغربية، فيوضح النقاط المفصلية في تاريخ البشرية من وجهة نظر المؤرخين الغربيين وأسباب اختيارهم لهذه النقاط كفواصل كبرى بين كل مرحلة وأخرى من مراحل التاريخ البشري. ثم هو يتناول الدلالات الخفية في التقسيم وطريقة التناول التي تعزز الدور الحضاري والقيادي للرجل الغربي وتنفي أدوار الحضارات المشرقية الأخرى عامة والإسلامية والعربية خاصة.

والباب الرابع يرسم المسار التاريخي الأوروبي وأهم محطاته. ويوضح النقاط المفصلية في التاريخ الأوروبي، ويتناول عصور الظلام وعصر النهضة الأوروبية بالتحليل موضحاً تطور الفعل الحضاري في أوروبا.

والباب الخامس يرسم المسار الإسلامي وأهم محطاته وعوامل التحلل فيه.

والباب السادس تحدث عن تقاطع المسارين الإسلامي والأوروبي. فبين بداية مرحلة الصحوة الأوروبية وبداية خط الانكسار في مسار الحضارة الإسلامية. كما وضح أهم النقاط التاريخية المشتركة بين الحضارتين الإسلامية والأوروبية، وكيف أثرت نقاط التقاطع تلك سلباً وإيجاباً على كل من الحضارتين، وكيف أدت بإحداهما إلى القمة وأدت بالأخرى إلى الانحدار.

والباب السابع يضع الحدث الحاضر في سياقه التاريخي وفي الإطار والنموذج الذي تم شرحه في الباب الأول. فيحدد المرحلة الآنية والمستقبلية، ويوضح طبيعة الاستجابات العربية والإسلامية الحادثة والمرجوة في العوالم الثلاث (عالم الأفكار وعالم الأشياء وعالم العلاقات).

إن هذا الكتاب هو خطوة هامة على طريق الانتفاع بالعلوم الإنسانية وتحويلها لأدوات تدفع عنا غائلة الخصوم في هذا العالم المتدافع. وهو لبنة في بناء الشخصية التي تستطيع التصدي للحرب النفسية والإعلام الموجه. كما أنه – إذا أُحسن التعامل معه – يمكن استخدامه في الدعاية المضادة لينتقل بك من مقعد المتفرج والمفعول به إلى الفاعل.

الباب الأول

قبل البدء

(إطار فلسفة التاريخ)

أهم الأسئلة التي يجيب عليها الباب

١. كيف يمكن فهم المسار التاريخي لأي حضارة؟

٢. هل هناك عصا سحرية أو وسيلة ذهبية تؤدي إلى قيام الحضارات؟

٣. هل التحديات التي تواجه أمتنا فوق طاقتها ولا يمكنها التعامل معها واقعياً؟

٤. ما التحديات التي تعرقل أمتنا عن بناء حضارتها؟

٥. ما الأطوار الطبيعية التي تمر بها أي حضارة؟

٦. على أي ضوء يمكن تفسير حالة التخبط التي تحياها الأمة اليوم؟ وهل هذه العشوائية يمكن أن تقود إلى حضارة؟

٧.ما الطور الذي نمر به اليوم؟ وما هو الطور المرتقب؟

حتى نتمكن من فهم مسارات الحراك التاريخي للحضارات، ونستطيع وضع إطار شامل لذاكرة أمتنا، ينبغي لنا أولاً أن نتعرف على نظرية التحدي والاستجابة. والتي تبين الكيفية التي يتحرك بها مسار أي أمة من الأمم نحو بناء الحضارة.

نظرية التحدي والاستجابة

يعني التحدي وجود ظروف صعبة تواجه الإنسان في بناء حضاراته، وعلى قدر مواجهة الإنسان لهذه الظروف تكون استجابته إما ناجحة – إذا تغلب على هذه المصاعب – أو استجابة فاشلة إذا عجز الإنسان عن التغلب على هذه المصاعب. وصاحب هذه النظرية هو "أرنولد توينبي". وقد ذكر أن الظروف الصعبة التي تتحدى قدرة الإنسان وتستحثه على العمل لتكوين الحضارة تتمثل إما في بيئة طبيعية أو ظروف بشرية(١).

أولاً التحديات

إن التحديات هي سر نهضة الأمم، ولولا التحديات لما وجدت الحضارات، ولما كانت هجرات الشعوب واكتشافها لمواطن جديدة تصلح للحياة، ولذلك فإن الرغبة في حياة ليس بها تحديات يعتبر بمثابة حبس طاقات الإنسان. وفي هذا يقول روبرت شولر: "إن الصراع هو مكان ولادة الإبداع الأعظم"(٢). ويقول الدكتور كاريل: "الأهداف التي تعمل على إثارة الحافز فينا تقوم بتقديم أجمل الهدايا لنا على شكل إنجازات"(٣).

مستويات التحديات

أنواع التحديات

تحدي قاسي

أكبر من طاقة الإنسان

تحدي ضعيف

غير مستفز

تحدي خلاق

مستفز لطاقة الإنسان

١. تحدي قاسي أكبر من قدرة المجتمع ولا يستطيع الإنسان تطوير آليات التغلب عليه، مثل شعب الإسكيمو ومعاناته من الطبيعة الثلجية. فكانت النتيجة بقاء الإسكيمو على حالهم منذ أن استوطنوا ألاسكا.

٢. تحدي ضعيف غير مستفز لطاقة الإنسان كي يطور ذاته. وبالتالي يظل على حاله من غير تقدم مثل شعب نيوزلندا، حيث قلة السكان ووفرة الموارد وسهولة الأرض، فلم يتقدم سكان نيوزلندا الأصليين.

٣. تحدي خلاق يستفز طاقة الإنسان ولكنه – أي الإنسان – قادر على تطوير آليات للتغلب عليه مثل حالة كل الشعوب التي صنعت حضارات فطورت أدواتها المعرفية والعملية حتى ووجهت بتحد داخلي أو خارجي أو بيئي، ولم تستطع الاستمرار أو تقاصرت حركتها فسبقها غيرها.

مساحات التعرض للتحديات

إن التحديات التي تعاني منها أي أمة من الأمم تكون على أربعة أصعدة:

١- تحد على الصعيد النفسي: حيث تعمل كل الأجهزة المناوئة لفرض الهزيمة النفسية على الأمة.

٢-تحدٍ على الصعيد الفكري: حيث تشهد الساحة خليطاً واضطراباً في النسق الفكري معوق لحركتها.

٣- تحدٍ على الصعيد التنظيمي: حيث تنعكس الحالة الفكرية على جميع أشكال العلاقات الفردية والجماعية.

٤-تحدٍ على الصعيد المادي: حيث أن عالم الأشياء الذي تبدعه الأمة يتقلص وتصبح عالة على الآخرين.

التحديات

مادي

فكري

نفسي

تنظيمي

التحدي النفسي

إن التحدي النفسي يعد من أخطر التحديات التي تواجه أي أمة من الأمم. فعندما تفقد الأمة الإحساس بقدرتها على التفوق و التقدم والانتصار؛ عندها تبدأ عملية الهبوط. فالعامل النفسي هام جداً. ففي فترة الطموح وفترة الهمة وفترة الشعور القوي بالذات تبدأ عملية انطلاقات الأمم. وفي فترة الانهيار يفقد الإنسان ذلك البريق الداخلي والإحساس بالذات وينطفيء الوهج الخلاق الذي يدفعه إلى التحرك والعمل. وكل أمة تفقد هذا الوهج فمصيرها إلى الانهيار. و لم تعد اليوم قضية الباعث النفسي متروكة للصدف إنما تعمل أجهزة الإعلام والتعليم على زرع وبعث هذه الثقة بالذات. كما تقوم أجهزة الخصم على الطرف اللآخر بتحطيم هذه الثقة بالذات من خلال إعلامها وتعليمها.

التحدي الفكري

يتمثل التحدي الفكري في فوضى لا مثيل لها في عالم الأفكار .فعندما تكون قاعدة بيانات العقل مضطربة، فإن إضافة مزيد من البيانات لها تؤدي إلى مزيد من الفوضى. وينتج عن ذلك اضطراب وتشوه في عملية اتخاذ القرارات. إن التنظيم الكبير والأساس المتين الذي تنطلق منه كل أمة يبدأ بتنظيم خارطتها الذهنية. بحيث يكون للمعلومة قيمة وظيفية، وحتى يتسنى استدعاؤها واستخدامها بشكل صحيح.

كما أن انتشار كثير من الأفكار القاتلة التي تكرس الوضع القائم، ولا تبشر بحدوث التغيير المأمول يكون لها دور كبير كمعوق يحول دون النهضة.

التحدي التنظيمي

فكل أمة من الأمم تحتاج إلى نظم في السياسية والاقتصاد والمال والاجتماع وغير ذلك، وكل منظومة من النظم تشكل عماداً من أعمدة هذا البيت الكبير، فإذا انهارت النظم في أي مجتمع من المجتمعات كالنظام السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو الخلقي فقد انهار جزء من البناء.

التحدي المادي

وهناك تحد في الجانب المادي. فالأمم التي لا تنتج شيئاً يذكر في عالم المعرفة وفي عالم التطبيقات؛ هيهات أن تجد مكانها بين الأمم.

ثانياً الاستجابة

يؤمن "أرنولد توينبي" – صاحب نظرية " التحدي والاستجابة" – أنه كلما ازداد التحدي تصاعدت قوة الاستجابة حتى تصل بأصحابها إلى ما يسميه بالوسيلة الذهبية.

الوسيلة الذهبية

إن أي حضارة تقوم بمواجهة التحدي الذي يقابلها بسلسلة من الاستجابات، والتي قد تفشل في حل معضلة الحضارة، وحين تهتدي إلى الحل النموذجي تكون قد وصلت إلى الوسيلة الذهبية.

الوسيلة الذهبية

الاستجابة

الحضارة

إن منحنى تقدم الأمم نحو الحضارة لا يسير في خط مستقيم. ولكنه يمر بمنحنيات متغيرة متقلبة تشير بوضوح إلى سلسلة المحاولات السلبية التي مرت بها الأمة أو الحضارة في طريقها نحو القمة، حتى تأتي الوسيلة الذهبية (الاستجابة الصحيحة) فتعيد المنحنى مرة أخرى نحو الصعود. وهكذا تتكرر المحاولات السلبية والوسائل الذهبية حتى تصل الحضارة إلى ذروتها.

إن أمتنا ليست عقيماً أن تلد أفكاراً تصل بها إلى الوسيلة الذهبية، غير أنها تحتاج سعة أفق وجرأة على التصدي للمشاكل.

الطريق نحو التكرار

نحو النمو

ويبين الشكل كيف أن الاستمرار في الأخذ بالوسائل المجربة التي لم تجد يمثل الدوران حول النفس، بينما لو جربت الأمة طرقاً جديدة لوصلت إلى النهضة، فقط يتطلب الأمر الجرأة على طرق الأبواب الجديدة وعدم الاكتفاء بالوسائل المجربة سالفاً.

لذلك يقول روبرت شولر: "أفضل أن أغير رأيي وأنجح على أن أستمر على نفس الطريقة وأفشل"(١).

ويقول أديسون : "العديد من التجارب الفاشلة في الحياة تكون عندما لا يدرك الناس أنهم كانوا قريبين من النجاح عندما استسلموا"(٢).

وسئل أديسون ذات مرة هذا السؤال: "لقد قمت بألف تجربة فاشلة قبل التوصل للحل الصحيح. فما هو شعورك؟" فأجاب: "أنا لم أقم بألف تجربة فاشلة، بل تعرفت على ألف طريق لا يؤدي إلى الحل الصحيح".

الطريق نحو التكرار

...

الطريق نحو النمو

لا أهداف ... أهداف جديدة

كل شئ مألوف ... إثارة

ركود

... إنتاجية أعلى

يوم أمس آخر ... غد جديد

شئ تعيش عليه ... شئ تعيش له

إرهاق ... جودة

تسلية بالعمل المعروف ... استمتاع ببذل الجهد المثمر

مشاكل ... مشاكل

إن المفاصل المؤثرة في تاريخ الحضارات عادة ما كانت تصنعها الأقلية المبدعة، التي تعشق المحاولات، وتهيم بالعثور على الوسيلة الذهبية.

اللبنة المؤثرة

عادة ما تكون أحد هذه الوسائل الذهبية من الضخامة والتأثير بحيث تمثل لبنة هامة وخالدة تبني عليها الحضارات كثيراً من وسائلها وأشكالها وتحولاتها التالية. وبإمكاننا أن نطلق على هذه الوسيلة (اللبنة المؤثرة). وسنمثل لذلك بمثالين:

الأول: ما فعله الملك هنري في بريطانيا ونظامها السياسي. ففي القرن الثاني عشر الميلادي قام الملك هنري بتنظيم(١) وضبط الدولة بالقانون، وطبقه بصرامة على جميع المستويات، ودرب الجميع على احترامه. ورغم أن السبعين سنة التالية كانت

من نصيب ملوك ضعاف إلا أن نموذج هنري كان قد طبع المجتمع الإنكليزي وأصبح مطلباً مستمراً.

والثاني: هو ما فعله نابليون بونابرت في فرنسا بعد قيام الثورة الفرنسية عندما أدخل أساليب الإدارة الحديثة و أنشأ الجامعة لمجابهة التحديات التي كانت تواجهه، ورغم أن تجربته كانت قصيرة إلا أنها بقيت ما يكفي لجعل عدة تغييرات راسخة لا رجعة فيها. وما زال الكثير من هذه النظم معمول بها حتى الآن.

أنواع الاستجابات

١. استجابة فاشلة: وهي تؤدي إلى التخلف. ولها أعراضها الداخلية المتمثلة في الفوضى والتخبط ولها أعراضها الخارجية، المتمثلة بحدة في اعتماد الأمة على الغير في مأكلها ومشربها وحمايتها، بل وحتى في فكرها ونظمها. إنها حالة من الاستلاب للآخر وهي حالة بها كل مقومات "القابلية للاستعمار".

٢. استجابة ناجحة: وتمر بعدة أطوار: الصحوة، ثم اليقظة، ثم النهضة، ثم الحضارة.

وسنستعرض بشيء من التفصيل هذه الأطوار الأربعة التي تمر بها أي حضارة حتى تقوم. وهذه الأطوار لا تمثل أطوار الصعود والهبوط للحضارات، وإنما تمثل أطوار الصعود فقط. (١)

أطوارقيام الحضارات

الصحوة:

هي أولى مراحل انقشاع سحب التبلد الذهني. وسنستخدمها هنا لوصف المرحلة الأولى في البعث الحضاري.

من أعراضها الإيجابية: الإحساس بالذات والهوية. ويشعر الإنسان فيها بوجوب الحركة، ولكنه غير مدرك بالمحيط الذي يتحرك فيه.

من أعراضها السلبية: عدم تمتع أشكالها التنفيذية الانطلاقية بالرشد الكامل، فهي في جزء منها قد تبدو فوضوية غير منضبطة.

فالصحوة هي إرهاصات لحالة جديدة تعتري مجتمعاً ما، واضحة أحياناً ومشوشة أحياناً أخرى، ولكنها صرخات الجنين الأولى وحركة من صحا من نومه فجأة ولكنه

لم يستيقظ بعد ويتنبه لمحيطه الخارجي بشكل سليم، فربما اصطدم بمقعد أو دولاب دون أن يقصد أو يريد ولكن هذه الأخطار تزيده صحواً وتنقله للاستيقاظ الكامل.

وقد جاءت مرحلة الصحوة للأمة بعد مرحلة سبات عميق وركود مميت مكَّن أقدام المستكبرين من أن تدوس أرضها، وأن تخترق سهام الأفكار الغازية فضاءها العقلي. فانطلقت عمليات البعث الفكري الأولى بدءاً خجولاً في شكل دفاعي؛ لتطور نفسها بعد ذلك في شكل هجومي، ولكنها ظلت حركة عقلية للنخب والمثقفين، وليست زاداً للأمة بعمومها. فقيض الله من رجالات الأمة من نزلوا بهذه الأفكار لجماهير الأمة فبينوا عظمتها وسموها على غيرها، وكشفوا للأمة نقاط ضعف غيرها من الأفكار. ونجحت جهودهم في حشد الجماهير حول الإسلام, فتراجعت أمامهم جميع الأفكار وانزوت وانحصرت، ولولا سطوة السلطان ما بقى منها شيء.

والصحوة في جوهرها تيار عاطفي ضخم. تيار مؤمن بالإسلام ومبادئه, ولكنه قليل الخبرة، ضحل المعرفة بتفصيلات واقعه. تيار يفتقد الخبرة والصبر ليكتشف مناهج التغيير وطرائقه. تيار يتعجل قطف الثمار ولا يحسن فن ترقب الفرص. وفي خضم هذه العجلة دفعت الأمة وطلائعها الشابة الدم والدمع والعرض في مقابل القليل من النتائج. تضحيات كبيرة وثمرات قليلة. إنها مرحلة تعلمت الأمة فيها عقم واقعها وعظمة فكرتها، ولكنها لا تمتلك المناهج وخطط التعامل مع مشكلة الزمان والمكان، ولا تمتلك ما تحتاجه من تعدد الوسائل وطرق العمل وما يلزم لذلك من سعة الفكر والقدرة على الابتكار. وهي مرحلة على ما بها من حركة عشوائية أو شبه عشوائية، وما بها من عثرات طبيعية في مسارات الأمم والشعوب – مرت بها فرنسا واليابان وبريطانيا وغيرهم كثير – إلا أنها ظاهرة إيجابية تدل على أن الأمة قد أفاقت. فإذا نظرنا إلى فرنسا أو أوروبا وتأملنا محاولة التحرر من أسر عصر الظلمات أو الفترة الوسيطة؛ سنجد استجابات عشوائية في البداية، تمثلت في الصراع والتفتت والتجارب والاقتتال الديني وغير ذلك من الأشكال التي عانت منها كل الأمم أثناء تحركها من أجل نهضتها. إنها مرحلة تطول أو تقصر ولكنها موجودة لا محالة. إنها بشارة – رغم ما بها من آلام ومخاض – تقول أن الأمة قررت أن تهجر السكون.

إن طور الصحوة طور التمرد على الواقع، وعدم الاستسلام له، والبحث عن مخرج. وفي هذه الفترة من حراك المجتمعات والأمم ترتكب الأخطاء وتوجد الانفجارات غير العاقلة والصراعات المريرة والتجارب الفاشلة لكن هذا التراكم الضخم من الخبرات يقود إلى مرحلة لاحقة وهي مرحلة اليقظة.

وأما اليقظة:

فهي حالة تالية تنقشع فيها بقايا الخِمار العقلي، ويعرف فيها المرء مكانه ووضعه بالنسبة لما يحيط به من أشياء وبشر، فيكيف حركته ليسير بين عالم الموجودات المادية حوله وينظم علاقته بعالم البشر المحيط به.

* أعراضها الإيجابية: الرشد والوعي والعمل المخطط المدروس. في ظل رؤية تجمع الجهود العملية التي كانت تبدو متباينة أو متضاربة في مرحلة الصحوة. وتصبح القوى الفاعلة في هذه المجتمعات أقدر على رؤية الأرض، وتحديد الزمان والمكان، والممكن وغير الممكن في داخل بنائها. وبالتالي تؤسس لحركة منضبطة تسير شيئاً فشيئاً بالأمة نحو تحقيق أهدافها.

وميلاد مرحلة اليقظة من مرحلة الصحوة أمر طبيعي. فلو كانت مرحلة الصحوة بطبعها طور (أولي الأيدي) أو التنفيذيين فمرحلة اليقظة تضيف إلى التنفيذ دور (ذوي الأبصار)، لتتكامل معادلة (أولي الأيدي والأبصار) التي أشار إليها القرآن في قوله تعالى: {واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار}(١). إن العقول هنا تبدأ في التفكير في كل مسلمات المرحلة السابقة وطرق عملها. إنها مرحلة يطبعها الانتقال من طور المبادئ والعواطف والشعارات إلى إعمال العقل وإطلاق طاقاته الخلاقة. إنها مرحلة تتكثف فيها الجهود لفك الأغلال عن العقل ليبدع أساليب جديدة، لنقل الأمة من مرحلة الانتظار إلى مرحلة المشاركة الفعلية التي تتجلى ثمرتها بعدها في مرحلة النهضة.

وتبدو اليوم في مجتمعاتنا بوادر مثل هذا الرشاد. نلمحها في مختلف بقاع العالم الإسلامي متمثلة في مظاهر عدة، كانخفاض حدة لغة الاحتراب الداخلي، ومحاولات الموائمة والمصالحة بين أفراد الأطراف المختلفة، ومحاولات التقارب وإيجاد قواسم مشتركة للفعل، و محاولات التركيز على القضايا الجوهرية، وفهم الواقع والتحديات،

والإحساس بالخطر المشترك. كل ذلك يتم في أشكال مؤتمرات وملتقيات وندوات. وبدأ يأخذ مجراه لتعديل أفكار الأحزاب والجماعات شيئاً فشيئاً نحو رؤية المسار، وإدراك صعوبة الخلاص الفردي عبر حزب أو جماعة أو اتجاه معين وأن هذا الخلاص يحتاج كل الجهود.

وأما النهضة:

فهي حالة تالية عندما ينظم عالم الأفكار(١) ويستيقظ عالم المشاعر(٢) ويندفع الإنسان فيها متحرراً من قيود الخوف ليمارس دوره في جميع المجالات.

* أعراضها الإيجابية: استشعار الإنسان لذة العمل والاكتشاف والقوة، فهي حالة تتخلل كل أشكال الحياة، وحالة تعطي للزمن قيمته من حياة الأمة، وتعطي للتفوق والإبداع تقديرهما. إنها مرحلة تدفق الشلال – الذي كان يسمى بالصحوة – ليصوغ كل مجالات الحياة العلمية والتطبيقية صياغة جديدة. و في مرحلة النهضة يعم نور البحث والنظر وتولد الإبداعات التي تؤسس لنشوء عالم الأشياء الذي يزود الحق بالقوة فيسيران معاً.

والحرية شرط ضروري لحدوث النهضة. بحيث يأمن الإنسان على فكرة سواءً خالف المجموع أو وافقه، ويطلق لفكره العنان ناظراً متأملاً في مجالات المعرفة والنظر. وعندها تبدأ الحياة تدب في المجتمعات لأن هذا النشاط الإنساني المتنوع دلالة على خفة القيود التي كانت تقيد العقل والفكر. وكلما استطاع الإنسان أن يبدع فإنه يتجاوز واقعه إلى واقع أفضل. وعندما تبدأ عملية النهضة تتصاعد وتتبلور في شكلها الخارجي في الإصلاح الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والمادي إلى آخره .. وعندها يمكن أن يقال أن هذا المجتمع قد انتقل إلى مرحلة جديدة .. وهي الحضارة.

الحضارة:

وهي حالة من بناء النموذج المنشود في عالم الواقع متمثلاً في نموذج فكري متقدم، وعالم علاقات وسلوك(٣) متقدم، وعالم متقدم من الإنتاج المادي الصناعي والمعماري والفني (٤).

صحوة

يقظة

نهضة

حضارة

حماس

رشد

حماس

رشد

تحدي + استجابة

نموذج أطوار الحضارة

هذا النموذج الذي نتحدث عنه والمتمثل في التحدي ومرحلة الصحوة ومرحلة اليقظة ومرحلة النهضة ومرحلة الحضارة ينطبق عليه ما ينطبق على كل النماذج. فالنماذج عادة توضع تبسيطية لتنظيم العقل. وهي اختزال للواقع. وكلما استطعنا أن ننظم العقل المسلم من خلال هذه النماذج التبسيطية؛ كلما استطاع المسلم أن يعبر ويصف الحالة التي يواجهها. كذلك يجب أن ندرك أوجه القصور فيها، لأن كل النماذج يمكن نقدها بصورة أو بأخرى. وتكمن فائدتها في القدر الذي تسهم به في التعبير عن الحالة التي نواجهها، وفهم بعض الظواهر التي حدثت والتي ستحدث.

وإذا نظرنا إلى معالم اليقظة التي بدأت تدب في المجتمعات وعملية التحول، نكاد نلمح إرهاصات النهضة. إذ أن هذه المراحل ليست حدية. فليس انتهاء مرحلة يعني بداية مرحلة أخرى. لكن المراحل تتداخل وتبدو خيوط بعض المراحل مبكرة، ثم تنمو وتنضج في مرحلة أخرى بحيث تصبغ الفترة بطابعها.

هل لابد أن تمر أي حضارة بمرحلة من التخبط والعشوائية (طور الصحوة)؟

يقول رينه ريمون في تأريخه عن الثورة الفرنسية التي لا زالت عماد فرنسا الحديثة (الإخاء والمساواة والحرية): "فالثورة لم تكن على الدوام موفقة في إلهامها. فقد كانت مشاريعها على الدوام طوباوية (١)، وأحياناً تراجعية قهقرية" فالثورة لم تكن بكليتها متوجهة نحو المستقبل. ويقول في موضع آخر: " أوجبت الظروف – أي المخاطر

الداخلية والخارجية والمقاومة التي كان على الثورة أن تواجه بها العدوان الخارجي والحرب الأهلية – القيام بتغيير كامل.

وهكذا نرى أن أي صحوة تمر بها أمة من الأمم تكون أشكالها التنفيذية الانطلاقية شبه فوضوية أو عشوائية في كثير من جوانبها.

موقف بعض الأمم من التحدي:

رغم هذه التحديات الضخمة – النفسية والفكرية والتنظيمية والمادية – فإن أمم الأرض بدأت تخرج تباعاً من هذا الطوق. فالصين والهند وآخرون لما يلحقوا بهم بعد ولكنهم على هذا الطريق إن هي إلا نماذج من هذا النوع الحي الشاهد على إمكانية الخروج من هذا المشهد التاريخي وعوائقه.

وإن دراسة بعض هذه النماذج في عجالة ليؤكد أن نهوض أي أمة أمراً ليس بمستحيل شريطة أن تمتلك إرادة التغيير.

التحدي

...

* على المستوى الصحي: كثافة سكانية هائلة (٩٠٠مليون) – مجاعات – ١٠٠مليون مدمن – أمراض متوطنة (الرمد الحبيبي) – نسبة العمي كبيرة جداً.

* على المستوى الثقافي: جهل – تخلف تكنولوجي – انبهار بالغرب لدى الطبقات المثقفة.

* على المستوى السياسي: عرقيات كثيرة تريد الاستقلال وترفض التوحد – أجزاء مستعمرة للإنجليز – حرب الأفيون ١٨٤٠م – حرق الإنجليز والفرنسيين لقصر الصيف عام ١٨٦٠م – احتلال ياباني عام ١٨٩٥م.

* على المستوى الاقتصادي: قيود اقتصادية عبر المعاهدات غير المتكافئة مع الغرب.

محصلة الاستجابة

...

تحرير الصين.

توحيد الصين.

تقدم تكنولوجي.

من أكبر القوى العالمية.

ونأخذ مثالاً لذلك التجربة الصينية:

موقف الأمة الإسلامية من التحدي عبر مسارها الحضاري:

ليست الأمة الإسلامية بدعاً من الأمم، بل ينطبق عليها هذا القانون كما ينطبق على غيرها، وقد مرت الأمة في مسارها الحضاري بسلسلة من التحديات تبعته سلسلة من الاستجابات (الفاشلة والناجحة) استطاعت معها التغلب على تلك التحديات. ومن هذه التحديات:

الفترة ... التحدي ... الاستجابة

من خلافة أبي بكر إلى نهاية فترة عثمان ... كيف يؤَمَّن قلب الدولة وعمقها الاستراتيجي؟ ... حروب الردة والفتوحات الإسلامية

من علي إلى القرن الثالث ... مع كثرة دخول العجم في دين الله وظهور الفرق الإسلامية كان التحدي هو: كيف تقنن قضية التعامل مع الكتاب والسنة؟ ... ظهور علم تقنين العلوم المساندة للعلوم الشرعية (أصول الفقه – علوم السنة– علوم القرآن– اللغة العربية – مصطلح الحديث – ...)

جزء من خلافة الأمويين إلى العباسيين ... مع بدء تسرب علوم الحضارات الأخرى التي احتك بها المسلمون إليهم كان التحدي هو: كيف نستوعب تراث الأمم الأخرى ونحافظ على نقاء الإسلام. ... بدأت حركة ترجمة علوم الحضارات الأخرى ودراستها وانتشار المناظرات بين علماء المسلمين وغيرهم.

الخلافة العثمانية ... كيف يمكن التحرر من تراث الجبرية الصوفية؟ ... تصدي العلماء بالكتابة والمناظرة وإظهار الحجج ودرء الشبه.

بعد سقوط الخلافة ... كيف ننتقل وننهض من حالة التخلف ونستعيد وحدتنا؟ ... ظهرت الصحوة التي تمثل أول طور من أطوار الاستجابة، فظهر محمد عبده وقاسم أمين والكواكبي ورشيد رضا وحسن البنا وغيرهم.

وهكذا يتبين لنا أن الأمة الإسلامية استطاعت بالفعل أن تتصدى لكثير من التحديات التي واجهتها على فترات مختلفة، وكان يتصدى لها في كل مرة رجال يتمتعون بإرادة

قوية. غير أننا في تحدي العصر يجب أن لا ننسى فكرة (الوسيلة الذهبية) ، وأن أية محاولات فاشلة لا تعني اليأس من وجود حل، بل تعني أن الأمة في حاجة إلى إعمال تفكيرها لعلها تصادف الوسيلة الذهبية.

موقف الأمة الإسلامية من التحديات المعاصرة:

إن التحديات الأساسية التي تمر بها أمتنا اليوم يمكن بلورتها في ثلاثة تحديات:

١- التخلف: والتراجع عن ركب الأمم الأخرى في مجالات العلم والإنتاج. وهو حالة نسبية عل كل حال لا نستشعرها إلا إذا قارنا أنفسنا بمن يفوقنا ويتقدم علينا.

٢- الاستعمار: وحالة "القابلية للاستعمار" أو "حالة الاستعمار": هما وجهان لعملة واحدة، أو قل أنهما السبب والنتيجة وإذا زال السبب بطلت النتائج المترتبة عليه في هذه الحالة. وهو على كل حال داء تتعدد أشكاله منذ القرن الحادي عشر إلى يومنا هذا، ولكن تفوقه الحقيقي لم يظهر إلا بعد الثورة الصناعية وآثارها العملاقة على الحياة الأوروبية وما خلفته من إمكانات الحركة والاتصال والقوة التدميرية، الأمر الذي أخل بالتوازن لصالح الغرب بشكل ضاعف من أعباء النهضة في الشعوب المستضعفة، وجعله –أي الاستعمار– قادراً على التدخل المبكر ضد خصومه من الأمم التي تريد الانفكاك من طريقه. ومع هذه القدرات الفائقة فإن أمم الأرض بدأت تخرج تباعاً من هذا الطوق فالصين والهند وآخرون لما يلحقوا بهم بعد ولكنهم على هذا الطريق إن هي إلا نماذج من هذا النوع الحي الشاهد على إمكانية الخروج من هذا الدور التاريخي وعوائقه.

٣- التفتت والفرقة: حيث تم تفكيك وحدة الأمة ولحمتها وتمزيقها إلى دويلات صغيرة معزولة ضعيفة مهددة طوال الوقت.

ولا يمكن التصدي لهذه التحديات إلا بالعمل على الأربعة أصعدة التي تحدثنا عنها سلفاً: الصعيد النفسي، والفكري، والتنظيمي، والمادي.

التحديات الأساسية

التخلف

التفتت والفرقة

الاستعمار

وسوف نتناول استجابة الأمة الإسلامية للتحديات المعاصرة بشيء من التفصيل في الباب السابع.

النموذج الأول

هذا النموذج يعينك على استيعاب نظرية التحدي والاستجابة، وحفظ أهم ما فيها، وشرحها للآخرين.

التحدي

استجابة

تتبعه

فاشلة

ناجحة

صحوة

يقظة

نهضة

حضارة

تخلف

أعراض داخلية

الفوضى + التخبط

أعراض خارجية

القابلية للاستعمار

الوسائل الذهبية

الخلاصات

* إن التحديات هي سر نهضة الأمم، ولولا التحديات لما وجدت الحضارات.

* غالباً ما تؤثر التحديات على الصعيد النفسي والفكري والتنظيمي والمادي.

* أهم التحديات التي تواجه الأمة اليوم: التخلف، والاستعمار، والفرقة.

* إن مسار النهضة لا يكون أبداً في خط مستقيم، وسلسلة المحاولات الفاشلة تقدم الهدايا للباحثين عن الوسيلة الذهبية.

* الاستمرار في تجريب الوسائل الفاشلة لن يغير من الواقع. ولابد من أن تلعب القلة المبدعة دورها للعثور على الوسيلة الذهبية.

* تمر أي حضارة بأربعة أطوار: الصحوة، ثم اليقظة، ثم النهضة، ثم الحضارة.

* إن فهم نموذج أطوار الحضارة الأربعة يعين على استيعاب أسباب التخبط الذي يكون في مرحلة الصحوة، ويستخدم استخداماً إيجابياً كمؤشر على استيقاظ الأمة من سباتها. ومن ثم يعمل على إحياء الأمل والبعث النفسي في الأمة من جديد.

* آن الأوان لكي تدخل أمتنا مرحلة اليقظة، وتتحرك على بصيرة ووعي، مستفيدة من الأعمال التي كانت نتاج مرحلة الصحوة.

الباب الثاني

الحضارة

أهم الأسئلة التي يجيب عليها الباب

١. ما مفهوم الحضارة؟

٢. أين بدأت الحضارات؟

٣. ما العوامل المؤثرة في قيام الحضارات؟

٤. هل من الممكن أن تظل حضارة ما في قمة مجدها دون أن تنازعها على القمة حضارة غيرها ؟ وما الدليل على ذلك؟

٥. ما العلاقة بين الكثافة السكانية وقيام الحضارات؟

مفهوم الحضارة

يرى البعض أن الحضارة عبارة عن استقرار، وإنتاج مادي، ووجود ديني في المجتمع. فكل مجتمع تتوفر فيه هذه العوامل يقال عنه أنه قد أنشأ حضارة. فإذا كان المجتمع وثنياً لا يؤمن بأي دين من الأديان يُطلق عليها مدنية ولا يطلق عليها حضارة.

ونرى أن الأمر فيه سعة كبيرة. فعند العقلاء أن كل مجتمع استقر ونمى عالم أفكاره بشكل من الأشكال، وأبدع في مجالات العلم والعمران البشري يوصف بأنه قد نمت عنده حضارة، صغرت أم كبرت. فالحضارة عكس البداوة. ولأن الشيء بنقيضه يُعرف كان لابد من تعريف البداوة أولاً. فالبداوة مصطلح يطلق على البدو الذين

يعيشون في قبائل بالصحراء، والبربر الذين يسكنون الجبال في جماعات عشائرية وأسرية، والتتار الذين يسكنون السهول في عصبيات قوية. وهؤلاء جميعاً لا يخضعون لقوانين متحضرة ولا تحكمهم سوى حاجاتهم وعاداتهم. فهم قوم رحَّل لا يستقرون في مكان وبالتالي تفتقد البداوة التراكم المعرفي والفعلي فيبدأ البدوي من حيث بدأ أبوه، لا من حيث انتهى.

إن لاستقرار الإنسان ونضجه دوراً كبيراً في إيجاد ناتج تراكمي لجهده في حقبة من الزمان، وبنظرة واحدة لتراث الإنسان على الأرض، سنجد أمماً كثيرة خلّفت وراءها آثاراً عظيمة في العمران، والفلسفة، والقانون، والدين، والصناعة، والتجارة والفنون بقيت شاهداً على أن هؤلاء قد خرجوا من طور البداوة والارتحال، إلى طور الاستقرار والعطاء. وكل أمة خلفت خلفها تراثاً شاهداً على قدراتها فقد دخلت طور التحضر، مثل الحضارة الفرعونية وما خلفته من آثار وكتابات وحياة مدنية وفلسفات وعمران وفنون .. إلى غير ذلك، وقل ذلك عن الحضارات المشرقية الأخرى، وقل ذلك عن الحضارات التي قامت في اليونان أو روما .. إلخ. فهل نحتاج إلى كثير عناء في تصور معنى الحضارة؟ أو إلى فلسفة طويلة حول المصطلح؟!

نشأة الإنسان والهجرات البشرية

سنبدأ القصة، من حيث عُرف الإنسان علي الأرض: تشير الدراسات إلى أن الإنسان الأول، غادر موطنه الأول، الواقع في منطقة شرقي وشمال أفريقيا، وجنوب آسيا، والهند والصين، وجاوة. وبدأ ينتشر منذ مليون سنة عن طريق اليابسة فقط، فهو لم يعرف القوارب والسفن بعد .. ولعل سائلاً يسأل: فكيف عبر الناس إلى استراليا والشماليتين إذن؟

"يسود الاعتقاد بأنه خلال الدور الجليدي الأخير، كان منسوب البحر أدنى من منسوبه الحالي بحوالي ٣٠٠ قدماً، بل إن البعض يرى أن منسوب سطح البحر انخفض أثناء زحف الجليد بمقدار ٦٠٠ قدماً. ومن ثم كانت هناك معابر أرضية ربطت بين بعض القارات، واستطاع الإنسان الأول أن ينتشر انتشاراً برياً من مكان إلى آخر."(١)

ومع استخدام الإنسان للبحر من ٥٠٠٠ ق.م إلى ١٥٠٠م (أي بداية الكشوف الجغرافية) تزايدت هذه الهجرات وتحرك من مواطنه الأصلية والواقعة في جنوب الجزيرة العظمي(٢) متجهاً إلى الشمال.

وتركز الناس حول الأنهار والمناطق الخضراء في كل أنحاء العالم . أما الطابع العام لهذه الهجرات فهو في تلقائيتها وعدم تخطيطها. عكس الهجرات الأوروبية المنظمة في القرن الخامس عشر. "حيث كانت الهجرات الحديثة تتم عن طريق خطط مدروسة، وعن طريق تنظيم حكومي أو منظمات خاصة، وليس عن طريق مجهودات فردية."(٣)

أما تقديرات السكان في العالم في هذا الوقت ، فقد كان المجموع يصل إلى ٤٠٠ مليون نسمة، يسكن آسيا ٢٤٠ مليوناً وأوروبا ٨٠ مليوناً وأفريقيا ٧٠ مليوناً والأمريكتين حوالي ١٢ مليوناً وبقية العالم مليونان.

وبنظرة واحدة إلى الكثافة السكانية لأوروبا مقارنة بمساحتها ستجد أنها تتفوق على كل من قارة أفريقيا والأمريكتين، الأمر الذي سيكون له أثره بعد قرون طويلة (١).

ويجب أن نسجل هنا بعض القضايا الهامة :

١. إن من يظن أن الأوربيين امتلكوا الحضارة لأنهم أكثر ذكاء قد أغفل نقطة هامة، وهي أن موطن الإنسان الأصلي كان في الشرق، ثم توالت الهجرات، فلا يوجد جنس مفضل على آخر.

٢. كانت الكثافة السكانية العالية في أوروبا من أهم أسباب الإبداع، إذ كلما كثر عدد السكان كلما قلت فرص العمل. فيزاد التحدي وتتعدد المواهب وتزداد المنافسة، والحرص على التميز. وهذا التحدي هو الذي يولد الإبداع. كما أن الكثافة البشرية بطبيعتها تؤدي إلى وفرة في الطاقات.

٣. إن الكثافة السكانية العالية في القارة الأوروبية وقلة فرص العمل كانت من عوامل الطرد، مما أدى إلى الهجرات المنظمة من أوروبا إلى استراليا والأمريكتين للبحث عن مواطن جديدة للعمل.

قصة التتابع الحضاري

٤٠٠٠ ق.م

٤٧٦م

حتى الآن

٦٢٢م– الهجرة

١٦٠٠م

٣٠٠٠ ق.م

– المصرية

–ما بين النهرين

(السومريون– البابليون –...)

الفارسية

اليونانية

الرومانية

الإسلامية

الغربية الحديثة

التاريخ

الحضارات

حضارة شرقية

حضارة غربية

٢٠٠٠ ق.م

١٠٠٠ ق.م

ميلاد المسيح

١٠٠٠م

٢٠٠٠م

٤٠٠٠ ق.م

١١٠٠ ق.م

٦١٢ ق.م

٤٨٦ ق.م

٢٠٠٠ ق.م

٣٣٠م

٥٠٩ ق.م

١٤٩٢م

يبين الشكل كيف أن أغلب الحضارات جاءت موافقة لأفول نجم حضارة أخرى كانت تأخذ منها أفضل ما فيها ثم تزيد عليها إبداعاً لتصنع حضارة جديدة متميزة.

إن معرفة تاريخ الحضارات في صورته الزمنية، يعطي القارئ شيئاً من الإحساس بأن العالم لم يبدأ من هذا القرن، بل إن صنع البشرية فعل تراكمي، يضاعف في كل مرة من رصيد البشرية، ويجعل كل قفزة جديدة، تبدو وكأنها القفزة التي لا تضاهيها قفزة أخرى. وإليك تعاقب الأمم والحضارات وتداولها بين الشرق والغرب:

إن نظرة واحدة إلى ما خلفته الحضارات المصرية والآشورية والكلدانية والفينيقية والفارسية في الكتابة والبناء والطب والفلك، وفي التراث الفلسفي والديني تؤكد لنا مبدأ التلاقح الحضاري للمتجاورين. وتبين كيفية تراكم المعرفة الإنسانية لتعطي في كل مرة نبضاً جديداً للحياة. وينطبق الأمر على اليونان الذين جاوروا جغرافياً كل الحضارات التي ولدت حول وقرب البحر الأبيض المتوسط، فورثوا تراث المشرق العظيم ثم أضافوا من إبداعهم إبداعاً وقدموا للبشرية فكراً وعلماً سيرثه أهل المشرق بعدها ليعيدوا النظر فيه وينقدوه وينظموه عبر فلاسفتهم العظام كابن رشد وابن سينا وغيرهم. ثم يبدع الشرق قفزته العلمية التي ستنقل البشرية للعصور الحديثة في مختلف العلوم، لتستلم الأمم الغربية هذا التراث فتضيف له ما شاء الله لها ثم سيرثها من يرثها وهكذا.

التقاطع التاريخي

مما سبق يتبين أن نسيج الحضارة صاغته أمم عدة. ولا عجب أن اللاحق يزيد على من سبقه، ولكنه قطعاً لا يبدأ من فراغ. كما يتضح أن الحضارات القديمة هيأت للحضارة العربية الإسلامية كما هيأت الحضارة العربية الإسلامية للحضارة الغربية أرضيتها، رغم كل ادعاءات المبهورين بحضارة الغرب اليوم. وكما ستهيئ الحضارة

الغربية الحاضرة الأرضية لحضارة الشرق القادمة بإذن الله. ولطالما التقت الحضارات ببعضها سلباً وإيجاباً ولكن ما يعنينا نحن هنا هو تقاطعنا الحضاري مع الغرب.

إنه تقاطع تاريخي عميق بين الشرق الإسلامي والغرب، على مساحة الأرض، وعلى مساحة الفكر والتوجيه والقيادة. أمتان، ومشروعان يتدافعان بسبب طبيعتهما. فعلى الجانب الإسلامي أمة سادت الدنيا لمدة عشرة قرون (٦٢٢م – ١٥٦٦م) منها ستة قرون تبدأ من القرن السادس إلى الثاني عشر وسيادتها شبه كاملة لا يطمع فيها طامع، وأربعة قرون كانت لها فيها الكلمة الفاصلة وهي ترد الحروب الصليبية منكسرة وتدخل إلى قلب أوروبا لا تلوي على شيء. وعلى الجانب الآخر تقف أوروبا اليوم بكتلتها البشرية العملاقة، وإرثها الديني والوثني، مدججة بمبتكرات القرون الثلاثة الأخيرة الحاسمة في العلم وتطبيقاته، لتنتصر لهزائمها في عشرة قرون، وتسود العالم من أقصاه إلى أقصاه، ولا تعتقد بوجود المقاومة والاستعصاء، إلا فيما أسمته بالخطر الأخضر، هذا الجزء من العالم الذي يبدو مستعصياً لسبب أو لآخر على الذوبان، في حضارة المنتصر.

ويجب أن نسجل هنا بعض القضايا الهامة :

١- إن كل الحضارات إنما قامت في مكان متقارب حول البحر الأبيض المتوسط فهي ليست حضارات متباعدة. وإن ادعاء أن إبداعها خالص غير متأثر بالآخرين أمرٌ تنقصه العلمية. فقد كان الاتصال فيما بين هذه الحضارات في الحرب والسلم كان قائماً فالتلاقح بينها كان مستمراً.

٢- إن سبعاً منها هي حضارات شرقية، فالشرق هو منبت الحضارات على سبيل الحقيقة لا على سبيل الاستعلاء الجغرافي، وهو الأغزر إنتاجاً في مجالات عدة. ولقد عرفت أقدم هذه الحضارات – وهي الحضارة المصرية – الهندسة والمعمار وفنون الزراعة والري والطب، وكونت لها فلسفة حول الإله والبعث والحساب، وكتبت، ونقشت، ولونت. بينما اختفى الغرب عن الخارطة الحضارية، حتى ظهور الحضارة اليونانية. فادعاء أن العلم بدأ في الغرب اليوناني غير صحيح.

٣- إن تنظيم الجيوش وتدريبها كان قائماً في كل الحضارات وقوتها العسكرية خضعت لأمور كثيرة فليس كل من انتصر عسكرياً كان الأكثر تحضراً. ولا ينبغي

أن يستشهد على عظمة الحضارة الرومانية بقوة الجيش الروماني وتوسعه بقيادة الإسكندر المقدوني. فإن الحضارة الرومانية عندما انحسرت لم تترك شيئاً يذكر في تشكيل عقلية شعوب تلك المناطق. بينما نجد الحضارة الإسلامية تستوعب الشعوب في ظلالها. فتنتشر اللغة العربية، بل وتدافع هذه الشعوب التي دخلت في الإسلام حديثاً عن حمى الدولة الإسلامية. هذا مع قلة أعداد الفاتحين المسلمين بالمقارنة بالجحافل الجرارة للمستعمر الروماني. ولا تزال شعوب المستعمرات الرومانية السابقة تعتنق الإسلام. هنا تأتي الفاعلية الحضارية كمعيار وليست القوة العسكرية. كما أن الانتصار لا يعني بالضرورة التحضر. فقد ينتصر المؤمنون بأفكارهم، والمستعدون للتضحية في سبيلها،و الذين يجمعهم قائد مقدام، قد ينتصرون على الشعوب الأكثر تحضراً. فها هم التتار يجتاحون العالم الإسلامي المتحضر. بينما كانوا قبائل تحيا البداوة. كذلك سقط الرومان – الأكثر تحضراً – في أيدي البرابرة.

٦- إن بلاد الإغريق دخلت تحت حكم الفرس في عهد سطوتهم. فقد شربت من حضارة

المشرق مباشرة.

٧- إن بلاد اليونان لا تشكل من أوروبا إلا نقطة في بحر وكذلك روما. فادعاء أن أوروبا كل أوروبا مهد للحضارة وهم لا صحة له.

٨- إن امتداد الحضارة الرومانية كان شرقياً، أما ما وراء حدود روما من الشعوب بكل أقسامها (الجرمان والساكسون...) حسب التعبير الروماني هم قبائل برابرة. وكان الرومان يستعلون على شعوب أوروبا، وينظرون إلى من خارج أسوار روما أنهم متوحشون، ولم يكن الرومان يرون بقية أوروبا امتداداً حضارياً لهم. وكان سقوط الرومان في أيدي البرابرة بمثابة نكبة للحضارة الغربية، إذ بدأ بعدها ما يسمى بالعصر الوسيط أو "عهود الظلام".

بل إن أوروبا لم تتعرف على التراث اليوناني إلا عبر الحضارة الإسلامية. واكتشاف قيمة التراث اليوناني في الفلسفة والمنطق لم يتم إلا عن طريق الفلاسفة المسلمين كابن رشد وابن سينا وغيرهم، الذين درسوا للغرب كتابات أرسطو، ونقحوا التراث

الغربي وقدموه لأوروبا. إن التراث اليوناني يعد اكتشافاً إسلامياً، تم حفظه وتنقيحه وإعادة إنتاجه وتصديره للإنسانية عن طريق المسلمين.

البندول الحضاري

تصور الكثيرون – وبسبب ضغط اللحظة الحاضرة – أن الحضارة بضاعة غربية، ونحب أن نؤكد حقيقة بسيطة وهي أنّ الشرق الذي يندب اليوم حظه، وينظر بإعجاب إلى الغرب المتفوق؛ يجب أن لا تغيب الحقيقة عن عينيه، وهي أن منبت الحضارة كان هنا في الشرق لقرون متطاولة، فهذه الأمم المتراجعة اليوم، كانت يوماً تعتلي قمة الحضارة البشرية، ومنها بدأت تهب رياح التغيير على الإنسانية. ومع ذلك فإن حركة البندول الحضاري لم تتوقف عندها. فما هو هذا البندول؟

إن التاريخ ينبئنا أن الحضارات العظمى قد بدأت في مصر، وبلاد ما بين النهرين، وفارس وكلها حضارات شرقية، وما لبث البندول أن تحرك إلى الغرب ليقرع أبواب اليونان وروما، ثم غادر الغرب لقرون متطاولة تقرب من ألف عام ليستقر في مكانه في الشرق على يد الحضارة الإسلامية، وهو اليوم في الغرب ثانية على يد الحضارة الأوروبية، وهو عائد إلى مبتدئه مهما بدا للإنسان– كما

هو الحال في كل الفترات السابقة – أن حركة البندول قد انتهت وأنه قد توقف وإلى الأبد في مكان واحد لا يغادره.

الشرق

الحضارة المصرية القديمة.

حضارات ما بين النهرين.

الحضارة الفارسية.

الحضارة المرتقبة

الشرق

الغرب

الغرب

الشرق

الحضارة الغربية

الحديثة

الشرق

الغرب

الشرق

الغرب

الحضارة اليونانية.

الحضارة الرومانية.

الحضارة الإسلامية

النموذج الثاني

تراكم معرفي وإبداع جديد

تقاطع تاريخي

تقاطع تاريخي

تقاطع تاريخي

نشأة الإنسان

(في المشرق)

هجرات متتابعة غير منظمة

استيطان حول الأنهار

قيام حضارات شرقية

(المصرية –الآشورية –الكلدانية – ...)

قيام حضارات غربية

(اليونانية – الرومانية)

قيام حضارة شرقية

(الإسلامية)

قيام حضارة غربية

(الحديثة)

هجرات متتابعة منظمة

الحضارة المرتقبة

(شرقية)

تراكم معرفي وإبداع جديد

تراكم معرفي وإبداع جديد

تراكم معرفي وإبداع جديد

تقاطع تاريخي

تراكم معرفي وإبداع جديد

هذا النموذج يعينك على استيعاب تسلسل وتلاقح الحضارات.

الخلاصات:

* إن مفهوم الحضارة عكس مفهوم البداوة. وأي أمة تنتقل من طور الترحال والبداوة إلى طور الاستقرار والإضافة في المجالات العلمية والتطبيقية فهي أمة متحضرة.

* إن معرفة تاريخ الحضارات في صورته الزمنية، يعطي القارئ شيئاً من الإحساس بأن العالم لم يبدأ من هذا القرن، بل إن صنع البشرية فعل تراكمي، يضاعف في كل مرة من رصيد البشرية.

* إن من يظن أن الأوربيين امتلكوا الحضارة لأنهم أكثر ذكاء قد أغفل نقطة هامة، وهي أن موطن الإنسان الأصلي كان في الشرق، ثم توالت الهجرات، فلا يوجد جنس مفضل على آخر.

* كانت الكثافة السكانية العالية في أوروبا من أهم أسباب الإبداع.

o إن الاتصال فيما بين الحضارات في الحرب والسلم كان قائماً فالتلاقح بينها كان مستمراً. ولا توجد حضارة منفصلة كلية عن التي قبلها.

* إن تنظيم الجيوش وتدريبها كان قائماً في كل الحضارات وقوتها العسكرية خضعت لأمور كثيرة فليس كل من انتصر عسكرياً كان الأكثر تحضراً.

* لم تتعرف أوروبا على التراث اليوناني إلا عبر الحضارة الإسلامية.

* إن فكرة البندول الحضاري تؤكد أن حركة البندول لا تتوقف عند أمة بعينها، بل إن تداول الحضارات قائم ومستمر بين الشرق والغرب. والبندول عائد للشرق لا محالة.

الباب الثالث

تقسيم التاريخ

أهم الأسئلة التي يجيب عليها الباب

* كيف قسم علماء الغرب التاريخ البشري؟

* ما هي النقاط المفصلية في تاريخ البشرية من وجهة نظر المؤرخين الغربيين؟

* لماذا اختار المؤرخون هذه الأحداث كنقاط مفصلية بين كل مرحلة وأخرى من مراحل التاريخ البشري؟

* ما الذي تستنبطه من هذا التقسيم بنقاطه المفصلية؟

* ما الذي تستفيده من معرفة تقسيم التاريخ؟

يقسم المؤرخون الغربيون(١) التاريخ إلى قسمين كبيرين يفصل بينهما "اختراع الكتابة" وهذا القسمان هما:

١. عصور ما قبل التاريخ

وتبدأ بأول وجود للإنسان على الأرضٍ قبل مليونين من السنين على وجه التقريب إلى أن توصل الإنسان "لاختراع الكتابة" في الألف الرابعة قبل الميلاد (ميلاد المسيح).

٢. عصور التاريخ

وتبدأ من ٣٥٠٠ ق.م. حتى اليوم وتقسم إلى ثلاثة أقسام حسب التصور الغربي وهي:

* التاريخ القديم: منذ ٣٥٠٠ ق.م. إلى سقوط روما ٤٧٦م على يد البربر(٢) الجرمانيين.

* التاريخ الوسيط: منذ سنة ٤٧٦م إلى سقوط القسطنطينية ١٤٥٣م (أي ما يقرب من عشرة قرون).

* التاريخ الحديث: ويبدأ من سقوط القسطنطينية إلى يومنا الحاضر.

ونلحظ من هذا التقسيم أن المؤرخين الغربيين اختاروا ثلاث نقاط مفصلية لتكون الفاصل بين مرحلة وأخرى وهي:

١. اختراع الكتابة (٣٥٠٠ ق.م.).

٢. سقوط روما سنة ٤٧٦ م على يد قبائل البربر الجرمانيين.

٣. سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣م على يد محمد الفاتح.

أولاً: اختراع الكتابة

اعتبر المؤرخون الغربيون اختراع الكتابة حادثاً هاماً جداً وفاصلاً بين مرحلتين كبيرتين في تاريخ البشرية، وهما: مرحلة ما قبل التاريخ ومرحلة التاريخ القديم. وذلك لأن هذا الاختراع يمثل بداية عصر التدوين والتأريخ وهو ما يتيح للبشرية معرفة الأحداث التي مرت بها في عصورها القديمة وتتبع صعود وهبوط الحضارات والأحداث الكبرى التي أثرت في مسار التطور البشري.

ثانياً: سقوط روما سنة ٤٧٦م

يعتبر المؤرخون الغربيون سقوط روما على يد البربر الجرمانيين من الأحداث الهامة والفاصلة في حياة البشرية، والتي تعد فاصلاً بين مرحلتي التاريخ القديم والتاريخ الوسيط. وهنا لابد أن ننتبه إلى عدة أمور:

* أن أوروبا تنظر إلى العالم من خلال منظارها، وترى أنها رائدة البشرية وأن الأحداث التي مرت بها القارة الأوروبية هي أهم الأحداث في تاريخ البشرية. ونشير هنا إلى أن حدث سقوط روما قد يكون حدثاً مفصلياً في التاريخ الأوروبي ولكنه ليس بالضرورة حدثاً حول مجرى التاريخ البشري كله خاصة وأنه عاصر هذا الحدث العصر الذهبي للحضارة الهندية مثلاً والذي تجلى في سعادة الشعب الهندي وثرائه وإشاعة الأمن والاستقرار وتشييد المدن

الكبرى والمستشفيات وغيرها من مؤسسات الإحسان التي امتلأت بها البلاد، وغصت الجامعات والأديرة بالطلاب وامتازت القصور الملكية بالفخامة والعظمة، وهكذا نرى أن هذا الحدث الذي تراه أوروبا فاصلاً في حياة البشرية لا يعد كذلك بالنسبة للحضارة الهندية القديمة.

* اعتبر المؤرخون الأوربيون سقوط روما على يد البربر الجرمانيين خطباً جليلاً رغم أن هذا السقوط تم على يد أوروبيين أيضاً، وهذا يوضح طبيعة الحضارة التي كانت سائدة في أوروبا في هذا الوقت. فهي لم تكن حضارة ؛ بل كانت بداوة تغير فيها القبائل على المراكز الحضرية.

ثالثاً: سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣م

يعتبر هذا الحدث فاصلاً بين مرحلتين وهما التاريخ الوسيط والتاريخ الحديث. ولابد أن نعلم أن التاريخ الوسيط يطلق عليه في التاريخ الأوروبي عصر الظلام، بينما كان في التاريخ الإسلامي هو عصر الازدهار بل العصر الذهبي للحضارة الإسلامية.

وقد امتد هذا العصر عشرة قرون كاملة من التخلف والمعاناة والجهل والفقر بالنسبة للتاريخ الأوروبي، ومن الازدهار والعلم والانتصارات بالنسبة للحضارة الإسلامية.

النموذج الثالث

يوفر هذا النموذج صورة أو إطاراً تاريخياً كاملاً يسهل على القارئ تذكره واستحضاره أثناء قراءته للتاريخ.

ظهور الإنسان على الأرض (قبل مليونين سنة)

تعلم الإنسان الكتابة (٣,٥٠٠ قبل الميلاد)

سقوط روما (٤٧٦م)

سقوط القسطنطينية (١٤٥٣م)

اللحظة الحاضرة

عشرة قرون

خمسة قرون

قبل التاريخ

التاريخ القديم

التاريخ الوسيط

التاريخ الحديث

الباب الرابع

المسار الأوروبي

أهم الأسئلة التي يجيب عليها الباب

١. ما أهم الحضارات التي شهدتها أوروبا؟

٢. ما النقاط المفصلية في التاريخ الأوروبي التي تفصل بين كل من العصر القديم والعصر الوسيط وعصر النهضة؟

٣. لماذا اختار المؤرخون هذه الأحداث كنقاط مفصلية بين كل مرحلة وأخرى من مراحل التاريخ الأوروبي؟

٤. لماذا يطلق الأوربيون على العصور الوسطى "عصور الظلام"؟

٥. متى بدأ عصر النهضة الأوروبية؟

٦. ما أهم الأحداث التي واجهتها أوروبا في عصر نهضتها؟

٧. كيف تطور الفعل الحضاري في أوروبا؟

أولاً: الحضارة اليونانية

لقد ورث اليونان الحضارة الفينيقية وما وراءها من تراث ممتد إلى حضارة مصر وحضارة ما بين النهرين. وسنتوقف لنتناول في عجالة بعض المعلومات عن اليونانين.

اليونان والفكر والعلم والتنظيم

اليونان أو الإغريق شعب صغير من شعوب البحر الأبيض المتوسط في جانبه الأوروبي، سينتسب له الغرب فكرياً وحضارياً بعد ثلاثة عشر قرناً من الانقطاع، وسيصبغون بمصطلحاته الحياة الفكرية المعاصرة، رغم أن الغرب لم يعرف تراث اليونان إلا من خلال المسلمين في فجوة تزيد عن عشرة قرون.

ولقد بدأ ظهور اليونان في القرن السادس قبل الميلاد ومرت دولتهم بمرحلتين: الدولة اليونانية الأولى وعاصمتها أثينا .. والدولة اليونانية الثانية وعاصمتها مقدونيا، وهي التي سينطلق منها الإسكندر(١)(٣٣٦ ق.م.) ليكون إمبراطوريته التي ستشمل مصر وبلاد فارس، وسيقوم خلالها بدمج الحضارة اليونانية بالحضارة الفارسية والمصرية، مما سينتج لنا الحضارة الهيلينية التي مزجت بين الحضارتين اليونانية والشرقية، والتي ازدهرت خلال القرن الخامس والرابع ق.م. فالحضارة اليونانية ليست وليدة إبداعها الخاص بها فحسب؛ بل هي مزيج ثلاث حضارات معاً: الحضارة الفارسية والحضارة المصرية والحضارة اليونانية. ثم سيدور الزمن دوره وسيسقط اليونان على يد جيرانهم الرومان

وقد قدم اليونان للبشرية إبداعهم في مجالات عدة، وكان أكثرها أثراً في مجال الفلسفة السياسية والأخلاقية ثم الرياضيات والهندسة والطب.

ثانياً: الحضارة الرومانية

والرومان هم سكان روما وسيبدأ ظهورهم على المسرح التاريخي سنة ٥٠٩ ق.م. ليخضعوا لهم الشعوب الإيطالية واليونان الكبرى كذلك، ثم ليخضعوا لهم قرطاجة(١) –المستعصية عليهم – لاحقاً في سنة ١٤٦ ق.م.

ويهمنا الوقوف على التراث السياسي الذي خلفه الرومان وذلك لمعرفة بعض الخطوط الخاصة بالتراث الغربي فيما يتعلق بثلاثة أمور:

١. الانتخاب ومتعلقاته.

٢. حق الثورة ومطالب العدالة.

٣. وجود الدين والوثنية في أوروبا.

وسنبدأ من حيث التقسيم الطبقي للمجتمع الروماني، وهو على كل حال امتداد للتراث اليوناني، فاليونان كانوا يقسمون المجتمع إلى طبقات عدة والمثال الإسبارطي هو الذي سنستخدمه هنا لبيان الفكرة الطبقية في المجتمع الروماني وريث اليونان:

طبقة العبيد

طبقة العامة

طبقة المواطنون

تقسيم المجتمع الروماني

* طبقة المواطنون: وهم فقط أصحاب الثروة، يملكون الأرض، ويعيشون من إنتاجها.

* طبقة العامة: وهم السكان الأصليون، وصغار الملاك ويعملون في خدمة الطبقة الأولى ويخيم عليهم الفقر، ولكن ميزتهم أنهم لا يباعون ولا يشترون (أحرار).

* العبيد: وهم الأكثرية الساحقة من السكان، يعملون في خدمة المجتمع، وهم سلعة للبيع والشراء.

١) الانتخاب ومتعلقاته

والرومان بدأوا دولتهم بإقامة جمهورية أرستقراطية، تحكمها صفوة من العسكريين والأشراف. وهؤلاء القلة هم من يطلق عليهم مصطلح "الشعب السياسي" اليوم. ويتكون منهم مجلس الشعب، أو بمعنى آخر هؤلاء هم المواطنون الذين لهم حق الانتخاب، ولاحظ هنا ظهور مبدأ الانتخاب وهو سيكتسب أهميته في عصرنا.

٢) حق الثورة ومطالب العدالة

هنا يجب تسجيل خط آخر في التراث الروماني وهو مبدأ نضال العامة (حق الثورة أو حق المشاركة الكاملة) فلقد ثار العامة بسبب حرمانهم من الحقوق السياسية حتى تمكنوا من ذلك في سنة ٣٦٦ ق.م. وحصلوا على كامل حقوقهم في الانتخاب والترشيح لمنصب الحاكم أو القنصل، كما كان يسمى في النظام السياسي وقتها. وعلى ذلك فقضية المطالبة والمساواة خط يجب تسجيله في التراث الروماني.

ثم سلبت هذه الحقوق مرة أخرى على يد يوليوس قيصر، الذي أعاد الملكية بنظام مطلق. وقد قتل الرجل في سنة ٤٤ ق.م. وخلفه بعد حين الإمبراطور أغسطس(١) (٣١ق.م.) الذي أعاد توحيد الإمبراطورية بعد أن تمزقت في عهد من سبقه. ورغم سلب هذه الحقوق إلا أن العقلية الأوروبية قد تأسست فيها بذور قضيتين هامتين: الانتخاب وحق الثورة والمطالبة بالعدالة السياسية.

٣) وجود الدين والوثنية في أوروبا

ولد المسيح في عصر الإمبراطور أغسطس. الذي بدأ حكمه سنة ٣١ ق.م. ولم يُعترف بالديانة المسيحية في الدولة الرومانية إلا في عهد الإمبراطور قسطنطين ٣٢٤م ، حيث ساوى بينها وبين الوثنية وهي قضية في غاية الأهمية، فلاحظ هنا مجدداً أن الدين والوثنية سيسيران معاً في أوروبا المعاصرة وسيعلو كعب الكنيسة خلال العصور الوسطى (عشرة قرون) ثم سينقلب الحال لصالح الوثنية في العصور الحديثة.

ونعود لتاريخ الرومان. فبعد أن تبنت روما المسيحية، قرر الإمبراطور قسطنطين سنة ٣٢٤م ترك روما والانتقال لقرية بيزنطة (القسطنطينية لاحقاً)، مما يعني عدم استمرار الإمبراطورية الرومانية على وحدتها، ومع نقل العاصمة إلى موقع جديد. ستصبح قرية بيزنطة اليونانية القديمة الواقعة على البسفور – والتي نعرفها اليوم

باستانبول – عاصمة الإمبراطورية، وسيطلق عليها الإمبراطور قسطنطين اسم القسطنطينية نسبة إليه (سنة ٣٣٠م) وستصبح عاصمة موحدة للإمبراطورية بدلاً من روما. ولكن الإمبراطورية ستنقسم إلى إمبراطوريتين لاحقاً، غربية وعاصمتها روما، وشرقية وعاصمتها القسطنطينية، وبذلك ستكون لروما عاصمتان، وسيكون بين العاصمتين عداءً وندية لا ينتهيان، وستصبح العاصمة الرومانية روما عرضة للهجوم المستمر. بل وستتطور الأحداث لتنشأ عن ذلك مشكلة أخرى أن الكنيسة ستنقسم أيضاً إلى كنيستين: كنيسة شرقية وأخرى غربية.

أوروبا بين هزيمتين

١- سقوط روما

فستهاجم روما الضعيفة اقتصادياً وعسكرياً من قبل كل القبائل الشرسة المحيطة (فرنجة / قوط / هون) لتسقط ٤٧٦م على يد الجرمان وتدخل أوروبا العصر الوسيط أو كما أطلق عليها الغرب عصور الظلام.

٢- سقوط القسطنطينية

وبعد عشرة قرون من سقوط روما على يد الجرمان ستسقط القسطنطينية ١٤٥٣م على يد محمد الفاتح لتنتهي الإمبراطورية الرومانية ويهاجر علماؤها إلى أوروبا الغربية ناقلين معهم علومهم وفنونهم. ليبدأ الغرب دورة جديدة من الحياة.

ثالثاً: القرون الوسطى

القرون الوسطى (رحلة التيه) أو طور التشكل: وهي تمتد من ٤٧٣م – ١٤٥٣م. لاحظ أنها تقع بين سقوط روما وسقوط القسطنطينية. وسيسود القارة الأوروبية خلالها التخلف الشديد والفقر والأوبئة. وهي فترة سيسودها الجرمان وهم القبائل التي ستشكل أوروبا ويشمل الجرمان الجوت (الدانمارك)، الأنكلز والساكسون (بريطانيا)، الفرنج (فرنسا)، الفندال (بحر البلطيق) القوط (روسيا) وسيُسقط قسم من الجرمان روما ٤٧٦م. وستنقسم أوروبا خلال هذه الفترة لمدن متخلفة يسودها اقتصاد قروي ضعيف وسيقوم على ذلك النظام الإقطاعي المشهور، وستعصف بأوروبا الحروب والانقسامات والأوبئة وسيحاول شارلمان توحيدها سنة ٨٠٠م، وينجح في ذلك لمدة ثمانية أعوام فقط، ثم تعود للتفكك بعده ٨١٤م، وسينشر الفايكنغ الاسكندانفيون

الدمار وما أن تنتهي هذه الحقبة حتى تنطلق أوروبا نحو الشرق فيما عرف بالحروب الصليبية.

الحروب الصليبية

وتستمر الحروب الصليبية فيما بين ١٠٩٧م–١٢٩١م لتنتهي كل الحملات بفشل ذريع وتعود منكسرة إلى أوروبا. ولكن المكاسب الجانبية التي حققها الغرب منها ستظهر لاحقاً. حيث ستعود أوروبا بنظرة جديدة، وعلوم جديدة، وتصورات جديدة لتضع بذور النهضة في أوروبا.

تشكل أوائل الكيانات الأوروبية

* إنكلترا

تبدأ بمهاجمة الأنكلز والساكسون لها منذ القرن الخامس الميلادي وتسقط في يدهم في نهاية القرن السادس لتقوم فيها سبع ممالك ثم يحتلها الفايكنغ (النمساويون) ١٠١٦م–١٠٣٥م، ثم تستعاد ١٠٤٢م–١٠٦٦م ومنذ ١٠٦٦م ستشق بريطانيا طريقها بفضل التطور المستمر في نظامها السياسي لتصبح من أقوى الدول مع نهاية القرون الوسطى.

* فرنسا

تتشكل على يد كلوفيس ٤٨٦م–٥١١م الذي يحولها – على خلاف أوروبا – لتبعية الكنيسة الرومانية (مبدأها أن المسيح ثالوث متساوٍ من جميع الوجوه، فالأب يساوي الابن يساوي روح القدس والثلاثة واحد والواحد ثلاثة) وهو ما يعرف بالمذهب الأثينوس. وستدخل فرنسا في اضطرابات مستمرة ليحكمها سنة ٧١٤م شارل مارتل الذي أوقف المد الإسلامي في معركة بواتيه ٧٣٢م ثم يأتي شارلمان الذي ستستمر أسرته في الحكم إلى ٩٨٧م وهي فترات مليئة بالاضطرابات لتحل محلها أسرة كابيه إلى قيام الثورة الفرنسية ١٧٨٩م.

* أسبانيا

حكمها القوط منذ سنة ٤٢٠م وسقطت في أيدي المسلمين سنة ٧١١م وتحولت إلى دولة عربية حتى سنة ١٤٩٢م حيث سينجح الغرب في استرجاعها بعد هزيمة المسلمين وتعود أسبانيا إلى القوط وستنطلق البرتغال وأسبانيا بعدها فيما عرف

بالكشوف الجغرافية، وبعدها تصل هذه الكشوف إلى أمريكا، وستصبح أسبانيا إمبراطورية عظيمة بهذه الثروات ويستمر ذلك المجد طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر.

ذلك هو المسح السريع للتاريخ الأوروبي ومعالمه الكبرى حتى نهاية العصور الوسطى.

النظام الاجتماعي الأوروبي في العصور الوسطى

طبقة الفلاحين

طبقة رجال الدين

طبقة النبلاء

الملك

تقسيم المجتمع الأوربي في العصور الوسطى

الملك والكنيسة (العلمانية والدين)

الملك والكنيسة أو ثنائية العلمانية والدين – سمها ما شئت– ستطبع الحياة الأوروبية في كل تاريخها. فعلى رأس الدول الأوروبية في العصور الوسطى يقف الملك ويليه:

* النبلاء

وهم من توزع عليهم الأرض، ليقوموا بدورهم بتوزيعها على ملاك أصغر حسب نظام الإقطاع. والأرض المقطوعة يعمل بها الفلاحون والعبيد، ليطعموا السادة النبلاء، الذين تتركز مهمتهم في مساعدة الملك في حروبه.

* رجال الدين

ووظيفتهم الدعاء وتسكين العوام وبث الروح المسيحية في الفرسان.

* الفلاحون

وظيفتهم الخدمة للنبلاء ورجال الدين وتوفير احتياجاتهم.

الكنيسة وتطورها في أوروبا

مع سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب ٤٧٦م تعاظم دور الكنيسة في الحياة المدنية لتحل محل الدولة بالكامل في عهد البابا غريغيروس الأول (٥٩٠-٦٠٤م).

الكنيسة والتعليم

مع شيوع الاضطرابات ستقوم فكرة الأديرة. و قد أخذت من صعيد مصر وانتشرت في أوروبا. وستتحول إلى مراكز نشر للمسيحية بين الشعوب الأوروبية الوثنية. وستقوم بتعليم المنتسبين اللغة والكتاب المقدس وشيئاً من الحساب. وداخل هذا البناء المركب من الملك والنبلاء والبابا في القمة وجموع الشعب في القاع كان الصراع محتدماً طوال العصور الوسطى.

الكنيسة والصراع مع الملوك

فمنذ بداية القرن الحادي عشر حاول غريغريوس السابع منع تدخل الملوك في تنصيب رجال الدين، الأمر الذي كان يعني تحكمهم في الكنيسة، فحرَّم غريغريوس ذلك بقرار عام ١٠٧٥م، حتى خضع الملك سنة ١١٢٢م، وتنازل عن حقه في تسليم الصولجان للأسقف عند توليته وظيفته، مكتفياً أن يكون له صوت في الاختيار، ولكن ذلك لم يحسم النزاع الذي استمر وانتهى بانتصار الملوك على الكنيسة في القرن الثالث عشر.

رابعاً: بذور عصر النهضة

قلنا أن القرون الوسطى تبدأ مع سقوط روما وتنتهي بسقوط القسطنطينية. وتمتد من القرن الخامس الميلادي إلى القرن الخامس عشر، أي ما يقرب من عشرة قرون. ورغم أن القرون الخمسة الأولى تميزت بالانحطاط الشديد في معظم المجالات، في الدين، والعلم، والاقتصاد والسياسة، والاجتماع، إلا أن خطاً صاعداً خجولاً سيظهر منذ بداية القرن الحادي عشر وسيلقي ببذور متعددة في الأرض الأوروبية، ستظهر آثار ذلك في القرن السادس عشر وما بعده. وحتى يمكن تخيل الإطار العام للصورة والتعرف على البذور الجنينية التي ساهمت في نهضة أوروبا، نبدأ مع الإمبراطورية الرومانية وبشكل تجريدي يمكن تلخيص هذه البذور في:

البذرة الأولى:

لقد كانت روما في نظر الأوروبيين هي العَظَمَةُ والعلم والتقدم، فلما دخلتها المسيحية أصبحت هي أيضاً العاصمة المقدسة ويمكن تبسيط الصورة:

روما العظيمة + روما المقدسة = روما العظيمة المقدسة رمز الوحدة الأوروبية ومع الوقت ستفقد روما خصائصها مثل كل الحضارات فلا النشاط والمبادرة ولا الجند والحرب سيبقيان ولو وضعنا ذلك في معادلة أخرى لظهرت بهذا الشكل:

روما العظيمة المقدسة – النشاط والمبادرة – القوة العسكرية = روما الكسولة غير المحاربة المعتمدة على الشرق في الغذاء وعلى البرابرة لحماية حدودها. (لاحظ علامة الطرح [–] وعلامة [=])

والباقي هو تحصيل حاصل فبجمع المعادلتين سنكون أمام روما المنهزمة التي تسقط تحت يد البرابرة (جنودها المرتزقة سابقاً).

ثم تبدأ مرحلة التفتت لتظهر فرنسا، وأسبانيا، وإيطاليا، ثم يأتي شارلمان ٨٠٠م لمحاولة إعادة حلم الوحدة فيوحد الإمبراطورية ثانية لفترة قصيرة ومع شارلمان نقف قليلاً للتأمل، فلا شك أن الوحدة السياسية أمر عظيم ولكن اقتصاد بلاده كان اقتصاداً قروياً يعتمد على القرية والزراعة فيها، وهو ما سيعرف بالإقطاع أو الاقتصاد الموضعي ويمكن صياغة المعادلة كالتالي:

العظمة السياسية [ممثلة في الوحدة + الاقتصاد المجزأ (القروي)] = السقوط والتفتت للدولة ثانية، فالأعمال العظيمة تحتاج إلى موارد عظيمة واقتصاد قوي. وهو أمر لا يوفره الاقتصاد الريفي المتواضع. فكانت النتيجة الحتمية سقوط الدولة وتفتتها. لكن حلم الوحدة سيظل عميقاً في أوروبا، فرغم كل الأهوال التي ستمر بها أوروبا من حروب طاحنة ومشاحنات داخلية دائمة كما سنرى لاحقاً. فإن الحلم ظل قائماً إلى القرن العشرين ليتمثل في تحالف عسكري ووحدة اقتصادية اندماجية لها ما بعدها ألا وهي الوحدة الأوروبية المرتقبة.

البذرة الثانية:

الصراع بين الملكية والكنيسة وطرح مسألة: أيهما أسمى الكنيسة أم الملك والاحتكام للجمهور، فرغم دموية هذا الصراع وعنفه ولكن الحوارات حوله ستهيئ المجتمع ليقرر بنفسه لمن سينحاز، كما سيعتاد المجتمع استخدام الملكات العقلية وسيمكن الناس من التعامل مع المنطق السياسي.

البذرة الثالثة:

منذ بداية القرن الحادي عشر ستنشط التجارة في البحر الأبيض المتوسط، ففي السلم والحرب (الحروب الصليبية) ستنمو التجارة وتنشط ومع هذا التبادل النشط مع الشرق ستنتج آثار كبيرة. نستطيع أن نطلق عليها "بذور التحديث"(١). ويمكن بلورتها في الآتي:

١. ستقتبس أوروبا كثيراً في الصناعات من العالم الإسلامي.

٢. سيتم ترجمة كثير من الكتب.

٣. سيتم نقل كثير من العلوم التطبيقية في الطب والهندسة والفلك والميكانيكا.

٤. ستغير إيطاليا ومدنها وملوكها من نمط حياتهم ليتشبهوا بحياة القصور العربية، ومن هنا ستتغير القصور وأشكال التمدن في أوروبا مثل البناء والنظافة والعطور والأثاث .. إلخ.

٥. ستظهر في القصور حلقات العلم والمدارسة وستنشأ الجامعات.

٦. ستضاف أفكار جديدة للقضاء الأوروبي.

بذور الرأسمالية

وبتطور التجارة وتراكم الثروة القادمة من الأمريكتين والالتفاف حول العالم الإسلامي ستظهر في أوروبا طبقة جديدة وهي الطبقة البرجوازية ربيبة المدن وهذا الخط سيقلب النظام الاقتصادي من الاقتصاد القروي إلى الاقتصاد الرأسمالي التجاري التبادلي أو اقتصاد المدن بدلاً من اقتصاد الأرياف ولن يتوقف دور هذه الطبقة عند الاقتصاد بل سيمتد للسياسة الداخلية والخارجية على حدٍ سواء.

بذور الدولة القومية

ومع نشاط المدن وانتقال الناس إليها، سيقل دور الأرياف وقيمة الأرض، وبالتالي تقل قيمة النبلاء. وستصبح سلطة الملوك أكبر على الدول، وتصبح هذه المركزية، مقدمة منطقية لظهور الشعور بالانتماء القومي (لغة + شعب + أرض دائمة + تاريخ مشترك) وستتجلى هذه الروح في الحرب الفرنسية – البريطانية، المسماة بحرب المائة عام في القرن الرابع عشر. وفي الروح الجماعية التي رافقت إخراج المسلمين من أسبانيا.

بذور الإصلاح السياسي

ستظهر بذور الإصلاح السياسي في بريطانيا في القرن الثاني عشر الميلادي. عندما ينهض الملك هنري لينظم(١) ويضبط الدولة بالقانون، ويطبقه بصرامة على جميع المستويات، ويدرب الجميع على احترامه. ورغم أن السبعين سنة التالية كانت من نصيب ملوك ضعاف؛ إلا أن نموذج هنري كان قد طبع المجتمع الإنكليزي، وأصبح مطلباً مستمراً.

ثم تأتي قصة تطور البرلمان البريطاني (بيت الكلام) هذا هو معنى الكلمة ومحتواها أيضاً. ثم ظهور وثيقة العهد العظيم (MAGNA CARTA)، والتي ستشكل أول وأهم الوثائق الأوروبية في الإصلاح السياسي الدستوري.

ويمكن أن نشير إلى بعض القضايا الهامة في العصور الوسطى وعلى عجالة:

١- الحروب الصليبية

حرب أم هجرة أم مستعمرات جديدة؟

بنظرة واحدة، إلى الأسباب الحقيقية، التي دعت إلى خروج الكثيرين في الحملات الصليبية؛ سيبدو واضحاً، أن معظم هؤلاء كان دافعهم الخروج من أوضاعهم الصعبة، والوصول إلى ثروات الشرق، فالاكتظاظ السكاني في أوروبا كان دافعاً رئيساً للخروج، من ضيق العيش، وتقلص فرص الثروة، وندرة فرص العمل، وعدم توفر الحياة الكريمة، كل ذلك دفعهم إلى عالم سمعوا عنه الكثير، وأمّلوا فيه الكثير. ويكفي أن نفس هذه الجموع التي خرجت باسم الصليب، هاجمت القسطنطينية في إحدى حملاتها، في واحدة من أبشع عمليات التدمير والنهب. ولا يقلل ذلك بطبيعة الحال من عمق الحافز الديني وقدراته التحريضية العالية، الدافعة للتضحية والموت مقابل وعد الآخرة، وهو أبرز ما طبع الحياة الأوروبية حينها.

٢- الكشوف الجغرافية

حب المغامرة، الروح الوثابة، طلب العلم، هكذا تساق وتسوق الكشوف الجغرافية ولكننا مرة أخرى نتحدث، عن الهروب من أوروبا المكتظة إلى عالم جديد (مدن الذهب). تلك كانت قصة القصص في الرحلة الغربية، وحالما اكتشفت الأرض الجديدة، وهي بالمناسبة حدث عارض ومصادفة، خارج خطط الرحالة كولومبوس الذي كان يسعى للوصول للهند أساساً لا للكشوف الجغرافية إذا اعتبرنا اكتشاف

طريق جديد للهند ليس من قبيل الكشوف الجغرافية. وقد نتج عن صدفة اكتشاف الأراضي الجديدة وتدفق المهاجرون بعدها إلى أمريكا كالجراد.

أما المعرفة البحرية، وعبور رأس الرجاء الصالح، فذلك أمر آخر له قصة، فهنا سيصل القوم إلى إحدى الدول الأفريقية، وسيطلبون من زعيمها، أن يدلهم على طريق عبور رأس الرجاء الصالح، ولم يكن الرجل مغفلاً، فقد رفض بشدة، أن يقدم لهم العون فلم يملك القوم إلا أسر ابن أخته وأخذه رهينة في سفينتهم في البحر، مهددين بقتله، وعندها أرسل إليهم الملك أحمد بن ماجد العالم العربي الذي عجب بدوره من بدائية الأدوات والخرائط، وبدأ في استخدام خرائطه وأجهزته والقصة مشهورة .. ورغم خطورة الحدث وتأثيراته اللاحقة على العالم

الإسلامي، ولكننا مرة أخرى أمام أناس في وضع متخلف دفعتهم ظروف متعددة للخروج بحثاً عن حلول خارج قارتهم التي ضاقت بأهلها ولعبت مختلف العوامل لصالح هذه القارة في هذه الفترة من الزمن كما لعبت قبلها لصالح أمم أخرى وقارات أخرى والأيام دول.

٣- علوم أوروبا في هذه القرون

ستمضي القرون من الخامس إلى العاشر، دون أن يوجد شيء يذكر، قارن ذلك بالوضع في العالم الإسلامي، ودعنا نركز الضوء على الفترة من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر، وهي عموماً فترة الاحتكاك العظمى والمباشرة بالعالم الإسلامي سلماً وحرباً. وسنبحر في كتابه "عقلية العصور الوسطى" Frederick Bart mind of middle ages وهو من إصدارات The University of Chicago press سأحاول هنا أن أختصر الصفحات ما بين ٢٢٢-٢٦١ والفصل بعنوان إحياء الغرب ١٠٠٠-١٥٠٠ The Revival of the west يبدأ الكاتب بتصوير المعارف الأوروبية والعقلية العلمية في هذا القرن وما كانت عليه من تخلف ومجافاة للعلم في ١٦ صفحة ثم يقرر حقيقة علمية هامة:

The First Important steps beyond an elementary type of " "scientific writing had been taken by the Muslims

فبعد هضم التراث اليوناني والهندي، دفع المسلمون حدود العلم إلى آفاق جديدة فمنذ القرن الحادي عشر بدأت الأمم المسيحية اللاتينية تتلقى من أسبانيا وصقلية والقسطنطينية ترجمة الأعمال التجديدية التي قام بها المسلمون، بالإضافة إلى الكتابات الفلسفية لأرسطو وغيره مع شروحها وتعليقات المسلمين عليها.

ولاحظ أن الاتصال بالعلوم القادمة من الشرق الإسلامي سيبدأ في القرن العاشر، ولكن أوائل الكتب المترجمة، جاءت في القرن الحادي عشر، عن طريق يهودي عربي من نابلس، وهو كتاب عن الحمى وبعض العلاجات الطبية (١٠٨٧م) وبدأ استخدامه في جامعة سايرنو الطبية، وانظر إلى تعليق الكاتب على المترجم:

He either conceals the names of the authors from whom he " borrows or given them in correctly, a common trick with later "Translator

يقول الكاتب عن المترجم وصاحبنا قد أخفى اسم الكاتب أو أعطاه بشكل غير صحيح، وهي خدعة سيستخدمها المترجمون اللاحقون. (انظر كم من الغبن لحق بالعلماء المسلمين على يد هؤلاء المترجمين) ..

وقد ترجمت أعمال الخوارزمي في الرياضيات سنة ١١٥٠م من شخص يدعى Aldard الذي قضى بعض الوقت في أسبانيا وصقلية. وكتب خلاصة وافية عن العلم العربي Arab science أسماها الأسئلة الطبيعية "Natural Questions" ، وفي ١١٦٠م ترجم شخص يدعى روبرت Robert القرآن، وكتاباً عن الكيمياء، وكتاباً عن الجبر للخوارزمي. وعلى أساس هذا الكتاب عملت خطوط العرض والطول للندن. وبمنتصف القرن الثاني عشر، أصبحت طليطلة أهم مركز للترجمة حيث ترجمت فيزياء ايطوطاليس، ومجموعة كاملة من البحوث العلمية الفلكية. وكان جيرارد (Gerard١١٨٧) من أهم هؤلاء المترجمين حيث ترجم ٩٢ عملاً علمياً إغريقي وعربياً، منها كتاب الفلك المشهور لبطليموس (المجسط)، والموسوعة الطبية لابن سينا والحساب، والطب، والكيمياء، والفلك.

وفي صقلية تمت ترجمة الكثير من الكتب وخاصة تعليقات العلماء المسلمين واليهود على كتابات أرسطو، ولقد كان اهتمام الغرب بالعلوم الإغريقية والإسلامية، أكثر منه بفلسفة أرسطو وتعليقات المسلمين عليها والتي جاء الاهتمام بها لاحقاً.

By the end of thirteenth century, much of the surviving corpus " of Greek science, the best of Muslim scientific work, and most of Aristotle was circulating in the west in various translation."

وبنهاية القرن الثالث عشر، كان الجسم المتبقي من علوم اليونان وأفضل أعمال المسلمين العلمية ومعظم أعمال أرسطو متداولة في الغرب بترجمات مختلفة.

The New Greek and Arabic works circulating in western " Europe were usually the starting point for fresh development in Western philosophy and in the various science. Before ١٠٠٠, Europe knew scarcely any thing in medicine, its astronomy and mathematics were very rudimentary; chemistry and physics hardly existed … They did take over from Arabs a large number of chemical techniques that were of use later in turning chemistry into a real science. …. In mathematics and physics the starting point of new developments in the west was a gain the Introduction of Greek and Islamic writing….

هل نحتاج إلى ترجمة كل ذلك، لا أعتقد لكن حسبنا أن نسجل أول الكلمات هنا "كانت هذه الأعمال العلمية والعربية هي نقاط البدء لتطور الفلسفة والعلوم في أوروبا الغربية(١)".

وهكذا تستقبل أوروبا القرن السادس عشر الميلادي بمجموعة مقدمات:

١. التحول نحو الدولة المركزية.

٢. التحول نحو اقتصاد المدن. (ثروات القارتين الأمريكيتين)

٣. بروز الطبقة البرجوازية.

٤. لغة علمية موحدة وهي اللاتينية.

٥. تحولات علمية في العقل والمنهجية (العلوم المترجمة من العربية).

٦. مدارس / كنائس / جامعات / قصور مهتمة بالعلم بدأت في إيطاليا، ونقلت لفرنسا ثم غيرها (التقاليد العلمية العربية وتقاليد القصور العربية حلق العلم).

٧. كثافة سكانية طاردة.

٨. حلم بمدن الذهب سيدفع كل الطموحين للخارج.

٩. نشاط وتنافس في سبيل العظمة والقومية، ستصرف الدول على سفن المغامرات رغبة في العائد.

١٠. إصلاح في الفكر الديني (بعد ثورات متعددة وصراع دامٍ)

١١. حركة ترجمة واسعة سيسارع فيها اكتشاف الطباعة.

١٢. أمل كبير بعد هزيمة المسلمين في الأندلس.

١٣. حساسية كبيرة من هجوم المسلمين ونجاحهم في الدولة العثمانية سيضاعف من جهود الدول ونشاطها للمقاومة.

ونستطيع أن نجمل تلك التحولات كالتالي:

أ- تحول إيجابي في عالم الأفكار.

ب- تحول إيجابي في عالم العلاقات على الأقل الداخلية في المجتمعات (اقتصاد / اجتماع /سياسة .. إلخ).

جـ- تحول في عالم الأشياء:

* اكتشاف الأمريكيتين (مدن الذهب) مصادفة.

* اكتشاف رأس الرجاء الصالح (طريق الحرير الجديد) سرقة.

* توفر موارد تحرك الحياة العلمية والعملية عن طريق الحدثين السعيدين مدن الذهب! وطريق الحرير الجديد! أو رأس الرجاء الصالح.

د- تحول في عالم المشاعر: تنافس، روح قومية، روح دينية، روح فردية.

هـ-كثافة سكانية كبيرة: شكلت وسطاً طارداً، وسطاً تنافسياً، تركيز المبدعين.

خامساً: عصر النهضة الأوروبية

يعتبر عصر النهضة الأوروبية الحديثة من أدق أقسام التاريخ. فهو فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى التاريخ المعاصر. ويصعب على المؤرخ تحديد تاريخ معين يبدأ به التاريخ الحديث، وإن كان كثير من المؤرخين يعتبر سقوط القسطنطينية في

يد الخلافة العثمانية عام ١٤٥٣م بداية عصر النهضة والتاريخ الأوروبي الحديث. وقد اصطلح المؤرخون على تسمية هذه الفترة باسم عصر النهضة Renaissance بمعنى البعث الجديد أو بالمعنى الحرفي (الولادة الجديدة).

عالم الأفكار أولاً

وقد بدأت تباشير عصر النهضة بتغير في عالم الأفكار، فظهرت حركة إحياء العلوم وعرف المشتغلون بها باسم الإنسانيين. ومن روادها الأوائل دانتي وبوكاشيو. كما بدأ ظهور المبدعين والمفكرين في شتى المجالات، فظهر ليوناردو دافنشي، وميشيل أنجلو، ورافاييل في مجال الفنون، ومكيافيللي في الفكر السياسي، وكوبرنيك في علم الفلك، وغيرهم الكثير من المفكرين والعلماء والفنانين الذين مثلوا الشرارة الأولى لعصر النهضة.

وقد كانت هذه الثورة في عالم الأفكار من نتاج الحملات الصليبية الفاشلة على العالم الإسلامي والتي رجعت إلى أوروبا بكثير من فنون وعلوم وكتب علماء المسلمين.

التوسع الأوروبي وحركة الكشوف الجغرافية

كان الإسكندر المقدوني هو أول من قاد حركة التوسع الأوروبي. وبعد عصور طويلة من التخلف والتفرق بدأت أوروبا تستجمع قواها – بعد ظهور التشكيلات السياسية في العصور الوسطى ونتيجة للكثافة السكانية الطاردة وقلة موارد الرزق – وتوجه نشاطها نحو التوسع والاستعمار الخارجي.

تركت أوروبا البحر المتوسط – البحيرة الإسلامية – وتوجهت نحو الأطلنطي فكان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح(١) سنة ١٤٨٨م ثم اكتشاف الأمريكتين سنة ١٤٩٢م.

حركات الإصلاح الديني والحروب الدينية

في القرن السادس عشر كانت الكنيسة تسيطر سيطرة خطيرة على مقررات البلاد، وكانت النظرية السائدة وقتها هي أن البابا هو ظل الله في الأرض، وأنه يمثل سلطة الإله على الأرض. وقد غالى بعض الباباوات في التحكم وابتزاز الأموال. ولعل أسوأ مظهر من مظاهر ابتزاز الأموال هو التوسع في بيع صكوك الغفران(١).

بدأ الإصلاح الديني في ألمانيا على يد مارتن لوثر الذي أسس المذهب البروتستانتي. وقد قامت العديد من الثورات والحروب الدينية بين أتباع حركة الإصلاح الديني وبين الكنيسة الكاثوليكية، وبلغت ذروتها بتأسيس محكمة التفتيش في روما عام ١٥٤٢م والتي سعت لإخماد أنفاس البروتستانتية إلا أن هذه المحكمة لم تقتصر على قمع الحركة البروتستانتية بل تعدى ذلك إلى اضطهاد الكاثوليك الذين يدعون إلى الإصلاح الكاثوليكي، مما أدى إلى زيادة التعصب والكراهية بين هذه المذاهب. فاشتعلت الحروب والثورات الدينية. ومن أبرز هذه الأحداث:

١. مذبحة سان برثلميو الكبرى عام ١٥٧٢م والتي راح ضحيتها الآلاف من أتباع الحركة الإصلاحية البروتستنتية في باريس وما حولها من الأقاليم.

٢. حرب الثلاثين عاماً الدينية والتي بدأت في ألمانيا ثم ما لبثت أن أصبحت حرباً دولية بين أمم مختلفة.

وهكذا أصبحت القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر هي قرون الحروب والثورات المستمرة – سواءً كانت دينية أو لحفظ توازن القوى بين الممالك الأوروبية – والتي لم تكن تنتهي إلا لتبدأ.

وقد مهدت هذه الحروب المتتالية لقيام الثورة الأمريكية (حرب الاستقلال) والتي أدت إلى استقلال الولايات المتحدة الأمريكية عن الدولة الأم (إنجلترا)، ومن بعدها لقيام الثورة الفرنسية.

الثورة الصناعية:

بدأت الثورة الصناعية في نهاية القرن الثامن عشر في إنجلترا، وكانت النقلة الحقيقية في عالم التصنيع باكتشاف قوة البخار واستخدامه في عام ١٧٦٩م.

ونتيجة لحركة التصنيع حدثت تغيرات اجتماعية كبيرة في أوروبا ، فاختفت طبقة النبلاء وظهر مجتمع أصحاب البنوك ومديري الشركات والمصانع، وازدادت أهمية المهندسين والحرفيين ذوي المهارة، وعمت ظاهرة البحث عن المبدعين.

وبنهاية القرن الثامن عشر انتقلت أوروبا من عصر النهضة إلى عصر التقدم التكنولوجي والإنتاج الكبير.

الاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر

ظاهرة الاستعمار ظاهرة سياسية قديمة تتمثل في عدوان شعب على جيرانه الضعفاء، إلا أن أول شعب أو أمة أضفت على العدوان صورة الاستعمار المنظم هم الرومان. فهم أول شعب رسم لنفسه سياسة عدوانية للاستغلال المنظم الطويل الأمد للبلاد التي يضعون أيديهم عليها.

وهكذا بدأت أوروبا – بعد نهضتها وثورتها الصناعية في أواخر القرن الثامن عشر وظهور الحاجة للأسواق والموارد – في العدوان على الأمم الضعيفة أينما وجدت وفقاً لفكرة أجدادهم الرومان

الوثنيين وهي الاستغلال المنظم الطويل الأمد لنهب خيرات الأمم وتحقيق أكبر قدر من الرفاهية لشعوبهم.

وقد بدأ البرتغاليون الاستعمار الحديث ثم جاء بعدهم الهولنديون والفرنسيون والإنجليز، وأخذوا في غزو البلاد التي لا تملك سلاحاً والمتأخرة علمياً وثقافياً، وفي نهاية القرن التاسع عشر صار الاستعمار جزءاً ثابتاً من سياسات الدول الأوروبية القوية عسكرياً.

وقد اشتعل تنافس طويل الأمد بين الدول الاستعمارية على المستعمرات وانتهت قيادة الحركة الاستعمارية في أفريقيا وآسيا لأيدي الإنجليز والفرنسيين في نهاية القرن التاسع عشر مع اشتراك طفيف من جانب البرتغال وبلجيكا وأسبانيا وإيطاليا.

وهكذا ستستقبل أوروبا القرن العشرون الميلادي (التاريخ المعاصر) بمجموعة مقدمات:

١. ظهور دول جديدة مثل روسيا وبروسيا.
٢. النمو الكبير في القدرات الاقتصادية والعسكرية.
٣. تحولت إنجلترا من دولة قومية إلى إمبراطورية مترامية الأطراف..
٤. الثورة الصناعية والتطور التكنولوجي.
٥. التوسع الأوروبي والمستعمرات (الأسواق والموارد الجديدة).
٦. تحولات وتغيرات اجتماعية كبيرة نتيجة للثورة الصناعية والتوسعات الاستعمارية.
٧. تطور أساليب البحث والكشوف العلمية الواسعة.
٨. تطور الحركة الأدبية والفنية والموسيقية.

٩. إصلاح في الفكر الديني (بعد ثورات متعددة وصراع دامٍ)

١٠. روح دينية متعصبة.

١١. نمو في حجم التجارة المحلية والعالمية جعلت عملية انتقال رؤوس الأموال تتمتع بنوع من السرعة والسيولة.

وأخيراً

إن التوسع التجاري الأوروبي، سيخلق طبقة جديدة من الأغنياء، ويركز الحياة في المدن مؤذناَ، بعصر البرجوازية العتيد، وتغير الحياة الأوروبية للصورة التي نشهدها اليوم.

وسيصبح التنافس بعدها أوروبياً بحتا لينتهي بالحرب العالمية الأولى والتي بموجبها سينتهي دور العثمانيين في أوروبا من منافس إلى تابع وستصبح بعدها أيام الدولة الإسلامية المركزية معدودة. فبعد انتهاء الحرب الأولى بخمس سنوات أعلن سقوط الخلافة العثمانية ١٩٢٤ وإليك موجز للحرب العالمية الأولى من أجل استكمال المسار التاريخي:

الحرب العالمية الأولى:

أبرز التواريخ التي تُذكر بأحداث هامة في الحرب العالمية الأولى

٢٨ حزيران ١٩١٤ ... اغتيال ولي عهد النمسا فرانسوا فرديناند في ساراجيفو، ويتهم الصرب بتدبير الحادث.

٢٨ تموز ١٩١٤ ... النمسا – المجر تعلن الحرب على صربيا

١ آب ١٩١٤ ... ألمانيا تعلن الحرب على روسيا – بداية الحرب العالمية الأولى.

٣ آب ١٩١٤ ... ألمانيا تعلن الحرب على فرنسا.

٤ آب ١٩١٤ ... بريطانيا تدخل الحرب العالمية الأولى ضد ألمانيا والنمسا – المجر

٢ نيسان ١٩١٧ ... الولايات المتحدة الأمريكية تدخل الحرب إلى جانب بريطانيا وفرنسا ضد ألمانيا وحليفتها.

٣ آذار ١٩١٨ ... معاهدة برست – ليتوفسك بين روسيا وألمانيا.

هذه المعاهدة أدت إلى انسحاب روسيا من الحرب وتخليها عن مناطق أوروبية كثيرة.

١١ تشرين (٢) ١٩١٨ ... ألمانيا توقع هدنة ريتوند مع الحلفاء وتنهي الحرب مهزومة.

١٨ كانون (٢) ١٩١٩ ... عقد مؤتمر الصلح في باريس.

الدول المنتصرة: (فرنسا، بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية) تعاقب الدول المهزومة في الحرب العالمية الأولى: (ألمانيا، النمسا –المجر–السلطنة العثمانية وبلغاريا).

وستتبعها الحرب العالمية الثانية وخلاصتها:

الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩–١٩٤٥):

إعلان الحرب: ... سبتمبر ١٩٣٩ من قبل بريطانيا وفرنسا على ألمانيا.

الهدف: ... تحديد موقع ألمانيا في القارة الأوروبية ووقف هتلر عن التمدد.

انتصار ألمانيا: ... لم يبق بشكل حقيقي في مواجهة ألمانيا في أوروبا إلا بريطانيا.

رجل الحرب: ... هو وينستن تشرشل الذي هزم الألمان في أكبر معركة جوية للسيطرة على أجواء القنال الإنجليزي.

هتلر المنتصر: ... يواصل اكتساح الدول الأوروبية.

الغلطة التاريخية : ... غزو روسيا ومواجهة شتاء الجليد الروسي (دخل الألمان روسيا فحاصرهم الجليد)

الولايات المتحدة الأمريكية: ... تدخل الحرب مع الحلفاء وتضرب اليابان بالقنبلة النووية ١٩٤٥ وتشارك في تحرير القارة الأوروبية.

ألمانيا: ... تستسلم في مايو ١٩٤٥.

إن التفوق الأوروبي سيترجم إلى ما يعرف بالحركة الاستعمارية للعالم والتي تمتد إلى اليوم وبأشكال متعددة مباشرة وغير مباشرة وستقابلها حركات التحرير ومحاولات النهوض وتلك مواضيع حديثنا في البحوث اللاحقة، وإلى هنا قد استعرضنا أهم مراحل التاريخ الإسلامي والأوروبي وبينا فضل الحضارة الإسلامية في نقل البشرية خاص من عصر "العلوم البدائية" إلى عالم العلوم المعاصرة، وبينا أثر العامل الاقتصادي في الإحياء الأوروبي، وأثر العامل الاقتصادي في انكسار العالم الإسلامي، ثم ختمنا بأن أثر العامل الاقتصادي السالب في العالم الإسلامي جاء في

وقت كانت كثير من الخطوط السالبة قد تجمعت وتراكمت مما يسر سبيل الانكسار التاريخي.

إن المرحلة التي بدأت بالقرن السابع عشر، هي مرحلة أوروبية بحتة، وصراعاتها تدور حول ترتيب الدول الأوروبية في القارة من جهة ومن سيحتل أول القائمة ومن سيأتي في الترتيب الأخير، ثم الصراع حول العالم واقتسامه ووضع الآليات لاستمرار هذه السيطرة الأوروبية المطلقة.

النموذج الرابع

الحضارة اليونانية

ورثت الحضارات الشرقية القديمة.

الدولة اليونانية الأولى (العاصمة أثينا).

الدولة اليونانية الثانية (العاصمة مقدونيا).

الإمبراطورية اليونانية الكبرى (الحضارة الهيلينية).

الحضارة الرومانية

ورثت الحضارات اليونانية.

اعتراف الامبراطور قسطنطين بالمسيحية ٣٢٤م.

انتقال العاصمة من روما إلى القسطنطينية.

انقسام الإمبراطورية إلى شرقية (عاصمتها القسطنطينية) وغربية (عاصمتها روما).

العصر الوسيط

(عصر الظلام)

عشرة قرون

سقوط روما على يد الجرمان ٤٧٦م.

سقوط القسطنطينية على يد محمد الفاتح ١٤٥٣م.

انتشار الفقر والأوبئة والانقسامات داخل أوروبا.

الحروب الصليبية لأخذ خيرات المشرق (١٠٩٧م – ١٢٩١م) وهزيمتها.

تشكل أوائل الكيانات الأوروبية (انجلترا – فرنسا – أسبانيا).

الهجمات الصليبية المنهزمة ترجع بعلوم الشرق الإسلامي(القرن العاشر).

عصر النهضة الأوروبية الحديثة

التوسع الأوروبي وحركة الكشوف الجغرافية (الأمريكتين ورأس الرجاء الصالح).

أوروبا أصبحت طاردة للسكان (إلى الأمريكتين).

الحروب تجتاح القارة الأوروبية.

الثورتين الأمريكية و الفرنسية.

الثورة الصناعية واكتشاف البخار.

حركات الإصلاح الديني والحروب الدينية.

الاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر.

حركة إحياء العلوم.

هذا النموذج يعينك على استيعاب مسار الحضارة الإسلامية ، وحفظ أهم ما فيه، وشرحه للآخرين.

الخلاصات

* الحضارة اليونانية ليست وليدة إبداعها الخاص بها فحسب؛ بل هي مزيج ثلاث حضارات معاً: الحضارة الفارسية والحضارة المصرية والحضارة اليونانية

* خلفت الحضارة الرومانيا تراثاً كبيراً في السياسة وأسست لمبدأ نضال العامة (حق الثورة أو حق المشاركة الكاملة)

* انتهت الإمبراطورية الرومانية على يد محمد الفاتح بعد فتح القسطنطينية ١٤٥٣م، وهاجر علماؤها إلى أوروبا الغربية ناقلين معهم علومهم وفنونهم. ليبدأ الغرب دورة جديدة من الحياة

* بدأت القرون الوسطى بسقوط روما في يد الجرمان ٤٧٦م. وسميت بعصر الظلمات. وامتد عشرة قرون.

* كان الأوربيون في العصور الوسطى شهوداً على أنفسهم بالجهل وانتشار الأمراض والأوبئة والتخلف الشديد لمدة عشرة قرون من الزمان.

* يتناسى الأوروبيون في هذه الفترة أهمية الحضارة الإسلامية المجاورة لهم، ويحاولون أن يقَزِّموا هذه الفترة (عشرة قرون) بقدر الإمكان عند تناولها، ويقللوا من حجم ما أخذوا منها.

* بدأت بذور النهضة عبر صراعات دموية محتدمة بين الملك والكنيسة.

* كان للحروب الصليبية الأثر الكبير في بزوغ عصر النهضة. عندما تم نقل علوم الشرق إلى أووربا.

* كانت الثورة الصناعية هي سبب النقلة الحقيقية لأوروربا من عصر الظلمات إلى عصر النهضة.

الباب الخامس

المسار الإسلامي

أهم الأسئلة التي يجيب عليها الباب

١. ما أهم المحطات في مسار الحضارة الإسلامية؟

٢. ما المعايير التي يعاير بها أي نظام حكم ليتحدد قربه أو بعده من النموذج الراشد؟

٣. ما عوامل انهيار الحضارة الإسلامية؟

أولاً:الدولة الأولى (نبوّة وخلافة راشدة)

الجزيرة وتحدي الموقع

تمثل جزيرة العرب، شبه جزيرة تحيط بها البحار من ثلاث جهات، وتفصل أفريقيا عن آسيا، أو تقع بين كتلتين كبيرتين من اليابسة هما آسيا وأفريقيا، قلبها صحراء مجدبة ممتدة، وعلى أطرافها يوجد شريطان أخضران، أحدهما في الجنوب، في بلاد اليمن وعمان، والآخر في شمالها، حيث نهري دجلة والفرات يمدان الهلال الخصيب بالنماء، ورغم أن حضارات ما قبل الإسلام في اليمن قد قامت ونمت وكذلك حضارات ما بين النهرين وكانت بلاد ما بين النهرين على الأقل عرضة وباستمرار للهجوم الخارجي، إلا أنّ صحراء العرب، لم تكن مطمعاً للطامعين، ولا تهديداً لهم، وهكذا تحرك أهل هذه المنطقة، قبائل تعيش على الرعي والحرب، لا تعرف استقراراً إلا في جزر صغيرة داخل صحراء الرمال والجبال، ألا وهي الواحات، حيث الماء

والشجر والاستقرار، وأشهر هذه الواحات مكة، المدينة، والطائف، حيث توجد الحياة المستقرة، ويمارس الناس التجارة وشيئاً من الزراعة. ومن إحدى هذه الواحات خرجت رسالة الإسلام محاطة بالصحراء وأهلها.

تحدي المعطيات

وفي بطن مكة، ظهر الإسلام ، وبعث محمد e في أرض، لا تعد معطياتها بنماء رسالة، ولا بنقطة بدء صالحة. فالتنافس العائلي على أشده بين أهلها، والناس تأبى أن تتبع إلا من كان غنياً قوياً، وهي مركز العقيدة الوثنية، والطبقية الاجتماعية حادة، والحالة المادية لا تسمح بمهمة تشمل إصلاح العالم، استجابة لقوله تعالى: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}.(١) والمواصلات المتوفرة تجعل العالم جزراً متباعدة، والاتصالات تنتقل ببطء السلحفاة، ولو بحثت في الجزيرة يومها، فهيهات أن تجد قبيلتين ليس بينهما ثأر، والاقتصاد البدوي يقوم على الغزو، والغنيمة، والحياة مرتبة على هذه الأسس، فكيف ستنفذ الدعوة من خلال هذه المعطيات، إلى هذه البيئة أولاً ثم إلى العالم.

ومع ذلك شقت دعوة الإسلام طريقها، حين أيقظ القرآن عالم المشاعر لدى العرب، فأحسوا بأنهم أمة جديدة، لديها ما تقدمه للعالمين، وأحسوا بذاتهم وقدرهم {كنتم خير أمة أخرجت للناس}،(٢)ورتب عالم الأفكار، فصحح التصورات عن الكون والحياة الدنيا والآخرة، وأقام العالم على أسباب موضوعية، على المسلم أن يبحث عنها في كل مجال، بالإضافة إلأى وجود الفكرة المحفزة التي ملأت قلوب المسلمين أملاً، فانطلقوا يفتحون الأرض. تلك الفكرة التي عبر عنها ربعي بن عامر عندما ذهب إلى رستم: {لقد ابتعثنا الله لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة}. إنها الرسالة الحضارية لإنقاذ البشرية، وتحرير الإنسان، كل الإنسان.

ثم رتب الإسلام عالم العلاقات، فنظم الحياة الاجتماعية والسياسية والعسكرية والفردية، ومع توافر الظرف التاريخي المناسب بضعف الإمبراطوريتين الروم والفرس، انطلقت دعوة الإسلام، لتضئ العالم بدءاً من هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم سنة

٦٢٢م، ولتصل إلى قمة إشراقها في القرن العاشر، ثم تبدأ في الانحدار شيئاً فشيئاً لتصل إلى أقصى منحنيات الهبوط بضعف الدولة العثمانية ثم سقوطها.

ونحن حين نتحدث عن الدولة الإسلامية، ومسارها التاريخي، لا يعنينا ابتداءً الحديث عن التفصيلات، بل سنحاول أن نرسم خارطة عامة للحدث وتتابعه التاريخي.

الدولة الإسلامية النموذج المفاهيمي (٦٢٢م-٦٦١م)

حين نتحدث عن الدولة الإسلامية الأولى، فيجب أن نميز بين أمرين:

* الأول

وهو المفاهيم الأساسية في الدولة الأولى، والتي أصبحت نموذجاً ومقياساً لكل العصور، عبر عنه المسلمون بلفظ "الخلافة الراشدة" تمييزاً له عن أي شكل آخر من أشكال الحكم الأخرى، ويمكن اختزال تلك الملامح في:

في النظام السياسي ... في البناء الاجتماعي

١- المرجعية العليا للكتاب والسنة

٢- حكم القانون والتطبيق الشامل

٣- الحاكم منتخب

٤- الحاكم أجير

٥- استقلال بيت المال

٦- الشورى الشاملة (آلية تراضي)

٧- تفعيل كل المنتظم الإسلامي.(١)

... ١- الإعداد النفسي

٢- قوة الوازع الداخلي

٣- محاربة العنصرية

٤- إعداد الإنسان

٥- حماية حقوق الإنسان

٦- حماية الوحدة الداخلية

٧- حماية الحدود

٨- المسئولية الحضارية

وعلى هذه الأسس تم تقويم الحكومات الإسلامية المتعاقبة، فأعطيت جميع الألقاب الملكية، حتى يأتي الخليفة عمر بن عبد العزيز، فيعيد البناء على القواعد الأولى: حاكم منتخب، حكم القانون، استقلال بيت المال، الشورى الشاملة، تفعيل المنتظم الإسلامي كاملاً، فيطلق المسلمون عليه لقب الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز. ذلك هو "البروتوتايب" الإسلامي المختزل في ذاكرة الأمة.

إن هذه المعايير تعطي للأمة شخصيتها وهويتها، تحدد لها اتجاه التصور الأمثل للنظام.

وحين نتحدث عن هذا النموذج المعياري يجب أن نميز بين ثلاثة مستويات. فالمسلم يتحدث عن نموذجه المنتقى من زاوية، ويتحدث من زاوية ثانية عن الظروف التي تسمح أو تمنع من تحقق هذا النموذج بشكله الأمثل، ويتحدث من زاوية ثالثة عن المرونة الشديدة في الآليات لتحقيق هذا النموذج

* الثاني

وهو آليات التطبيق للمبادئ السابقة، ويعنينا في هذا المقام أن نشير إلى أن آليات التطبيق تخضع لمعطيات البيئة واحتياجاتها، فالحجم والكثافة السكانية والجغرافيا والخبرة

البشرية والزمن .. كل ذلك يلعب دوره في تطوير الآليات ولكن يبقى الإنسان يرقب مدى تطبيق المفاهيم السابقة ومصداقية العملية السياسية وهذا هو المحك الفاصل، ذلك هو النموذج المعياري.

ثانياً: الدولة الأموية (الشرقية) ٦٦١م-٧٥٠م

انطلقت الدولة الأموية بالإسلام إلى أقصى الشرق والغرب رغم تعطيلها للنظام الإسلامي الشوري المعروف في دور الخلافة الراشدة. وقد دخلت هذه الدولة في مرحلة الضعف منذ عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك (٧٤٣م). واستمر الانحدار والضعف حتى أسقطها العباسيون (٧٥٠م).

ونستطيع أن نجمل أهم سماتها في التالي:

الفتوحات

حيث امتدت الدولة شرقاً إلى بلاد ما وراء النهر (التركستان)، وشمال الهند (باكستان وبنجلادش). كما اتسعت غرباً من برقة إلى المحيط الأطلسي.

حركة التعريب

وهي من أهم الحركات التي شهدها العصر الأموي. وذلك لتقوية الحكم العربي في الدولة الممتدة. فتم تعريب دواوين وأجهزة الدولة، وتعريب العملة المتداولة وتوحيدها بين أبناء الدولة الشاسعة.

النهضة الفكرية والعمرانية

تكونت بذور الحضارة الإسلامية. واتخذت النهضة الفكرية طابع الدراسات الدينية والاهتمام باللغة العربية وآدابها، على حين تجلت النهضة العمرانية في اهتمام الأمويين بتشييد المساجد والقصور.

ثالثاً: الدولة العباسية

وفي عهدها تتزامن دولتان:

١- الدولة العباسية

في الشرق ولها عصرها الذهبي الذي يبدأ بالسفاح ٧٥٠م وينتهي بالواثق ٨٤٧م ثم عصر الانحطاط ويبدأ بالمتوكل ٨٤٧م وينتهي بالمستعصم ١٢٥٨م (دخول المغول).

٢- الدولة الأموية:

في الغرب والتي تقوم سنة ٧٥٦م على يد عبد الرحمن الداخل وتصل إلى مرحلة الضعف والتفكك سنة ١١٠٠م لتسقط في سنة ١٤٥٢م.

ومع ضعف الخلافة العباسية ودخولها في المنحنى التاريخي الهابط، وهو أمر فرضته ظروف كثيرة، داخلية وخارجية، أتيحت الفرصة لكثير من أطراف الدولة، أن تتحول لمراكز حضارية بديلة عن القلب.

وإليك خارطة التفتت التاريخي:

١. (٨١٥م) سيستقل السري بن الحكم (بمصر).
٢. (٨١٩م) الدولة الظاهرية (خراسان).
٣. (٨٦٨م-٩٠٥م) سيستقل أحمد بن طولون بمصر (الدولة الطولونية).

٤. (٩٠٩م) الدولة الفاطمية في المغرب ثم في مصر ٩٦٩م لتنتهي على يد صلاح الدين ١١٧١م.

٥. (٩٤٩م–١٠٥٥م) الدولة البويهية (خراسان) ومدت سلطانها لبغداد.

٦. (٩٣٥م–٩٦٩م) الدولة الإخشيدية (مصر–فلسطين–لبنان–سوريا).

٧. (٩٤٤م–١٠٠٣م) الدولة الحمدانية (حلب).

٨. (١٠٥٥م–١٢٥٨م) الدولة السلجوقية (عاصمتها بغداد، فارس، أفغانستان، أرمينيا، جورجيا، الأناضول–وصلوا حدود الصين وأخذوا الهلال الخصيب).

٩. (١١٧٢م–١٢٥٠م) الدولة الأيوبية.

١٠. المماليك (١٢٥٠م–١٥١٦م).

١١. العثمانيون (١٢٩٩م– ١٩٢٤م)

وسنركز في هذا المسار على دولتي المماليك والعثمانيين لما لهما من أهمية في الإطار الذي نتحدث عنه.

رابعاً: عصر المماليك

العصر المملوكي (منذ منتصف القرن الثالث عشر إلى أوائل القرن السادس عشر) وشهد عصرين:

* العصر المملوكي الأول: الذي ساده مماليك البحرية ١٢٥٠م–١٣٨٢م. وهو عصر القوة والعطاء.

* والعصر الثاني: الذي ساد مماليك البرجية ١٣٨٢م–١٥١٧م. وهو عصر الضعف.

وطبعت هذه الدولة تناقضات حادة نتيجة التركيبة المملوكية وسنحاول أن نلخص جملة التناقضات تحت مجموعة من المحاور.

الأول: محور الحكم

شكل المماليك طبقة مغلقة مترفعة عن الشعب، ومتقاتلة فيما بينها إلى أقصى درجة. فالمماليك لم يختلطوا بسكان مصر، وترفعوا عن الناس، وكان رجال الدين واسطة الاتصال بينهم وبين الشعب. وفرضوا أنفسهم بقوة الجيش الذي استغل موارد البلاد بتعسف.

أما المماليك البرجية فقد كونهم السلطان قلاوون. ليكون طائفة جديدة من المماليك، ترتبط به، ويكون ولاؤها له. فاختار عنصراً قوقازياً، أطلق عليهم الشركس، وكانوا على عداء مع المماليك البحرية. وبدأوا يتدخلون في الشئون العامة تدريجياً كمنافسين للمماليك البحرية. حتى وصلوا إلى سدة الحكم عام ١٣٨٢م.

الثاني: محور المجتمع

١. احترم المماليك – ربما من باب المصلحة – طبقة العلماء، وأكرموهم، ولكن للمفارقة كان كثير من المماليك يأبون على العلماء ركوب الخيل باعتبارها درجة لا ينالها إلا المماليك!

٢. قربوا التجار ولكنهم كانوا يرهقونهم بالمطالب.

٣. احتقر المماليك الشعب والفلاحين. فأرهقوا المجتمع واكتظت المدن بالفقراء والعاطلين وساءت حالة الفلاحين.

٤. كثرت الثورات خاصة في صعيد مصر معقل العرب.

الثالث: محور الاقتصاد

حدث نمو تجاري قوي، ونظمت التجارة الخارجية والداخلية، وزادت الثروات بطريقة خيالية في العصر المملوكي الأول. وفي العصر المملوكي الثاني دخل المماليك التجارة بأنفسهم واحتكروا السوق، وفرضوا الضرائب، وأرهقوا التجار الأوروبيين، واضطربت حالة النقد، بسبب التلاعب في موازين النقود. وكانت هذه الأوضاع المرهقة اقتصادياً من ضمن عوامل أخرى أجبرت أوروبا على البحث عن طريق جديد للتجارة.

الرابع: محور الحياة العمرانية

اتسمت بالرقي الفني بسبب الغنى الفاحش الناتج عن تجارة الترانزيت.

الخامس: محور العلم

اعتنى المماليك بالمدارس والتعليم الديني لإزالة آثار الدولة الفاطمية، فازدهرت المدارس، وكثر التأليف خاصة في التاريخ، وبرزت جمهرة من العلماء في الآداب والفلسفة: مثل ابن خلكان، وأبو الفداء، والمقريزي، وابن خلدون، وكثرت المكتبات وانتشرت في القصور والفنادق والجامعات.

السادس: محور الدين

اتسعت حركة التصوف، وذلك بسبب الضغوط على الشعب والفلاحين فتركوا الدنيا ولجأوا إلى طلب الآخرة.

السابع: المحور العسكري

كان للمماليك البحرية الفضل في صد الهجمات المغولية الشرسة التي تعرض لها العالم الإسلامي وذلك على يد المظفر قطز، كما كان لهم الفضل في إنهاء الوجود الصليبي في الشرق وذلك على يد الظاهر بيبرس.

إن التوصيف السابق يعطي مؤشراً على النتائج المتوقعة لمثل هذا المسار. فسنجد مجتمعاً اختل فيه عالم العلاقات:

فالحاكم مستأثر بالمال والحياة والسوق نتيجة لنعمة الموقع المتميز، ومرور التجارة في أراضيه. وهي على كل حال ثمرة لحدث سعيد يمكن مقارنته بالبترول في عصرنا في بعض دول العالم الثالث، وهو حدث لابد أن تنعكس آثاره على العمران والبناء والرفاهية الخاصة. بل والصرف على التعليم وخلق مناخ يسمح بظهور بعض المواهب.

ولكن على مسار الكتلة البشرية الكبيرة في المجتمع المملوكي كان الاتجاه معاكساً، فهذه الكتل لم يكن لها نصيب لا في مباهج الدنيا ولا في العلم، فانتعشت الطرق الصوفية، واستوعبت هذه الكتل مقابل وعد الآخرة، إذ فشلت في الحصول على نصيب من الدنيا.

ولما كان العمران والتعليم ثمرتين للوفرة المالية، لا لتطور عالم الأفكار والعلاقات الاجتماعية؛ فإن انقراضه سيحدث لنفس السبب، أي زوال الوفرة المالية. وهنا يأتي الحدث الكبير باكتشاف رأس الرجاء الصالح، وتحول طريق التجارة إلى مسار جديد .. فماذا سيحدث للعمران، والعلم؟ وقد قررنا أن المجتمع كان قد تدمر قبلها وانخرط في حياة الطرق الصوفية أو عالم الهروب من الدنيا على مستوى القاعدة، وعالم المتعة الحسية المادية على مستوى القمة.

إن الإجابة سنكتشفها مع حملة نابليون بعد قرنين من الزمان أي في القرن السابع عشر حيث يصف الجبرتي الحالة بشكل يدعو إلى الشفقة.

خامساً:التاريخ العثماني

مراحل الدولة الثلاث:

١. التأسيس (١٢٩٩-١٥١٢م) من عثمان الأول إلى بايزيد الأول.

٢. القوة (١٥١٢-١٥٩٥م) من سليم الأول إلى مراد الثالث.

٣. الضعف والانحلال (١٥٩٥ - ١٩٢٤م).

فترة التأسيس

* عهد التحول من الإمارة للدولة في القرن الرابع عشر.

* توسع في أسيا الصغرى وفي أوروبا وصل إلى البلقان ووضع نظام عسكري جديد يلقي الرعب في أوروبا لمدة أربعة قرون متتالية.

* امتداد حدود الدولة إلى شواطئ نهر الدانوب وجهات البوسنة في عمق أوروبا الشرقية ، وتم تحديد لون وشكل العلم العثماني.

* أكبر انتصاراتها:

القرن الخامس عشر

١. فارنا ١٤٤٤م.

٢. فتح القسطنطينية ١٤٥٣م.

* اتجاه الدولة العثمانية للشرق ١٥١٧م. ففي عام ١٥١٢م اعتلى السلطان سليم الأول عرش الدولة العثمانية. وبدأ بإخماد ثورة الشيعة في آسيا الصغرى. وفي عام ١٥١٤م استولى على أجزاء من إيران. ثم استطاع أن يقهر الدولة المملوكية في موقعة الريدانية عام ١٥١٧م. وغدت مصر ولاية عثمانية.

وهنا يخطر سؤال هام إذا كان المماليك قد هزموا على يد العثمانيين سنة ١٥١٧م في الريدانية فلماذا ينسب إليهم القرن السادس عشر والسابع عشر وهما قرنان عثمانيان؟

ونجيب على ذلك، أن الدولة العثمانية، تركت الشؤون الداخلية للبلاد على حالها، وبنفس ترتيب المماليك إلى حد كبير، وزادت ذلك بعزل العالم العربي عن الاحتكاك الخارجي في هذه الفترة الحرجة من المخاض البشري، فقد كانت دولة مشغولة بحروبها لا بتطوير الولايات فاستمر خط

الانحدار على جميع المستويات، وعلى كل حال فالدولة العثمانية وصلت أوجها ١٥٦٦م وبدأت في الانحدار بعدها، سواءً في المركز أو الأطراف.

* أقوى فتراتها (١٥٦٦م سليمان القانوني في منتصف القرن السادس عشر).

ترك السلطان سليمان الأول بصماته الثقافية والسياسية على الدولة العثمانية، فأطلق عليه الغرب لقب "العظيم"، وكانت شخصيته في أوروبا موضوعاً لروايات وتمثيليات عديدة، وكان عظيماً في حجم تجهيزات جيوشه، وفي اتساع حملاته التي وصلت إلى النمسا، وفي أعماله العمرانية، حتى أن درجة تكامل دولته لا يمكن قياسها مع تكامل أية دولة أوروبية خلال المدة نفسها، كما اتصف بالورع والتمسك بأهداب السنة.

فترات الضعف والانحلال

* فترة الضعف الأولى بين القرنين السابع عشر والثامن عشر من محمد الثالث إلى مصطفى الرابع (١٥٩٥-١٨٠٨م).

* فترة عهد الإصلاح والتغيير والتنظيمات التي غطت القرن التاسع عشر حتى صدور دستور عام ١٨٧٦م. ويمثل هذه الفترة كل من السلاطين: محمود الثاني – عبد المجيد الأول – عبد العزيز ومراد الخامس.

* احتلال بريطانيا وفرنسا لأجزاء من العالم الإسلامي.

* أوروبا تضغط على السلطان عبد الحميد الثاني ليسمح بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وقد رفض السلطان مبلغ ثلاثة ملايين جنيه عرضها عليه تيودور هرتزل زعيم الصهاينة مقابل أن يسمح لهم بإقامة وطنهم في فلسطين، غير أنه حاول تقليل هجرات اليهود إلى فلسطين ولم يتمكن من منعها.

* فترة تنفيذ نظرية الجامعة الإسلامية والمشروطية(١) طيلة عهد السلطان عبد الحميد الثاني حتى عام ١٩٠٩م.

* فترة قيام الثورة بزعامة حزب الاتحاد والترقي وإنهاء دور الخلافة الإسلامية بين عامي ١٩٠٩م – ١٩٢٤م. ويمثل هذه الفترة كل من السلاطين: محمد الخامس – محمد السادس وعبد المجيد الثاني.

* هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى وحلفاؤهم (ألمانيا والنمسا وبلغاريا) أجهض الدولة وأصابها إصابة بالغة.

* لم تعد الدولة العثمانية تمتلك من أراضيها سوى تركيا.

* تنامي الفكر القومي التركي و أخرج مصطفى كمال الخليفة من البلاد وأعلن سقوط الخلافة الإسلامية ١٩٢٤م

* امتدادها الزمني ستة قرون ١٢٩٩-١٩٢٤م.

أسباب ضعفها

١. الفكري : غياب الصورة الكلية للصراع.

٢. التنظيمي:

الحكم

الوراثي (تَذَبْذبُ مستوى من يصلون للحكم وكثرة الصراع وهو معلم تدميري هام لأي دولة).

الجيش

عدم مرونته (رفض الانكشارية التحديث وهم العمود الفقري للجيش العثماني).

القانون

ضعفه (وعدم تطوره ليناسب احتياجات الدولة وولاياتها).

الجبهات

كثرتها (تعدد جبهات الصراع يضعف أكبر الأمم).

وإذا كان لنا من تعليق على الدولة العثمانية، وجَردْ حسابها التاريخي، فيمكن القول بأنها كانت أهم ثغور التاريخ الإسلامي. وقد حمت العالم الإسلامي طوال ما يقرب من أربعة قرون أو يزيد من السقوط تحت الاحتلال الغربي. ويمكن القول أنها حمت الجزء السني في العالم الإسلامي من الدولة الصفوية وما كان يمكن أن تحدثه في العالم العربي من آثار، ولاشك أنها

كانت طوال القرن الرابع عشر أقوى دول العالم قاطبة من حيث القوة العسكرية وقوة التنظيم، بل وكانت اسطنبول أفضل عواصم العالم تحضراً.

ولكن النصف الثاني من القرن السادس عشر سيشهد أفول نجم هذه الدولة وصعود نجم الدول الأوروبية المجاورة بسبب وفرة التمويل القادم من القارة الأمريكية المكتشفة حديثاً، مع ما وفرته فرصة أربعة قرون من الاحتكاك بالعالم الإسلامي من تغيرات في الثقافة والعلوم الأوروبية والتي أشرنا إليها سابقاً .. كل ذلك سيلعب دوره في تغير كفة الميزان تدريجياً لصالح الكتلة الأوروبية. ولكن هذا التفوق لن يكون حاسماً إلا في القرن الثامن عشر مع الثورة الصناعية، وستكون صحوة الدولة العثمانية متأخرة جداً، وستفشل عملية التحديث ومحاولات الإصلاح في القرن التاسع عشر، بسبب – عاملين هامين– في تصورنا. أولهما: تركيبة العسكر في الدولة وقوتهم وتمردهم على الإصلاح، والثاني: أن عملية الإصلاح جاءت والدول الأوروبية قد تطورت وحاصرت الدولة العثمانية، حتى غرست أظافرها في جسد الدولة المريضة، وتدخلت لمنع هذا المريض من الشفاء.

ويبقى بعد ذلك أمرٌ لابد من الإشارة إليه، هو الموازنة بين إيجابية الدولة العثمانية بحماية العالم الإسلامي من أوروبا على مدار قرون وحماية العالم العربي من الدولة الصفوية أيضاً وبين سلبية عزل العالم العربي عن الاحتكاك بالعالم الخارجي والسياسات السالبة لعدد من الولاة الأتراك مما أثر سلباً على حالة العالم العربي لاحقاً. هذان الأمران محل جدل قائم إلى اليوم ويشكلان عاملا استقطاب للتيارات في العالم العربي وكلا الأمرين له وجاهته ولكننا نعتقد أن المقارنة بين الأمرين لاشك تعطي تفوقاً إيجابياً لصالح الدولة العثمانية وتاريخها الطويل في حماية العالم الإسلامي.

عوامل التحلل في الكيان الإسلامي

أولاً: العوامل الخارجية

الحملات العسكرية

والتي تجسدت في الحملات الصليبية والتترية على العالم الإسلامي فأنهكته بطبيعة الحال مثلما تفعل الحروب فتبتلع الأخضر واليابس.

اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح

والذي أضعف العالم الإسلامي اقتصادياً حين تحولت التجارة إلى طريق الحرير، وقل احتياج الأوروبيين إلى البحر الأبيض المتوسط. فجفت الثروات التجارية الناتجة عن التبادل التجاري مع الموانئ التي توجد على ساحله.

ثانياً: العوامل الداخلية

١) المعضلة الجغرافية

حين تتوسع أية أمة، على مساحة جغرافية ممتدة، في عصر تبدو خطوط الاتصال والمواصلات فيه لا متناهية، فإن أكبر مشكلة تواجهها هي السيطرة على الأطراف، ولو نظرنا إلى عاصمة الخلافة العباسية في بغداد، كقلب وللشام والعراق كصدر يحوى هذا القلب، ثم تصورنا الجناحين المهولين اللذين يحملهما على جانبيه وهما مصر والشمال الإفريقي غرباً وبلاد فارس وما وراء النهرين شرقاً. لكان الأصعب هو تصور إمكانية استمرار تحريك هذين الجناحين والمحافظة عليها، مع علمنا أن صحة القلب، ليست مضمونة إلى الأبد.

بغداد

تركيا

مصر

وما بعدها

فارس

وما بعدها

البحر المتوسطالشريط المقدس

المعضلة الجغرافية ممثلة بقلب صغير وجناحين عملاقين

٢) المعضلة الإثنية

إن تركيب أي مجتمع، متعدد الأعراق، يشكل تحدياً محيراً اليوم، ناهيك عن الأمس البعيد، ونقصد باليوم الواقع الفكري المتطور لأطراف المعادلة، وإمكانية صياغة العقد الاجتماعي على أسس توافقية، أما في المجتمعات الملكية القديمة وهي التي سادت التاريخ الإسلامي، فقد كانت صياغة مثل هذه العقود، من قبيل الإعجاز، ومثل هذه

الإشكالية كانت ولازالت تحتاج إلى دولة مركزية قوية تنتظم فيها الأطراف ونظام عادل يمنع البغي على

الحقوق وآلة إعلامية وروحية عالية ونظام اتصال فعّال .. إلخ، وكل ذلك ضروري لتماسك المجتمع.

٣) المعضلة السياسية

إن النموذج الإسلامي الأول "النموذج الراشد" ظل هو الحلم الذي يعيش عليه المسلمون. ويقيسون به صلاح الوضع السياسي، ولما كان الاعتداء على بعض أجزاء النموذج قد تم في مرحلة مبكرة، بالتحول من الدولة الراشدة إلى النظام الملكي، وعجز المجتمع المدني عن استعادة زمام المبادرة، رغم كل المحاولات وأولها محاولة عبدالله بن الزبير الناجحة حيث استعيدت الخلافة لمدة تسع سنوات ولكن عودة الملكية وانتصار الأمويين، قاد إلى استمرار الصراع داخل المجتمع وكثرت الثورات وتعددها في كل مكان، ثم إن طبيعة الحكم الملكي الداخلية، التي تعتمد على الغلبة، جعلت تيار العنف الداخلي يسود وهو أمر سيظل مصاحباً لمجتمعات كثيرة وإلى اليوم، كما أن حماية الحكم الملكي كانت تعتمد بالأساس على المرتزقة بشكل أساسي في عصور متطاولة، وفي بعض الفترات على تغليب فئات اجتماعية على أخرى، مما مهد الأرضية لعدم الاستقرار بصورة دائمة. ورغم أن الإسلام حل هذه المعضلة بآلية التراضي المسماة بـ "الخلافة الراشدة"؛ فإن ضمانات تفعيل آلية التراضي لم تتبلور إلا في عصرنا الحاضر. ولم تعرف دول العالم قاطبة ذلك النمط إلا في القرن الثامن عشر مع الثورتين الأمريكتين والفرنسية وبتكلفة عالية جداً ابتداءً، باستثناء بريطانيا، التي تدرجت في حل هذه الإشكالية ربما بأقل قدر من العنف، بينما لم تعرف بعض دول أوروبا مثل أسبانيا حلاً لهذه المشكلة إلا منذ سنوات قليلة.

٤) معضلة التعصب

اختلال المفاهيم الدينية والنزعات

أ- حول الخلافة

١-السنة. ٢-الشيعة . ٣-الخوارج.

وكل منها لها تشعباتها وفرقها ونزعاتها، وكثر الاحتراب حتى غدت كل فرقة تجسد تجمعاً دينياً مغايراً، متبايناً في أمور كثيرة. وقد ولدت فترة الفتنة فقهاً يدعو إلى القبول بالظلم، والرضوخ له، وانتظار الأقدار لتغييره بصورة أو بأخرى. وأصبحت ولاية المتغلب عنوان عند أهل السنة والجماعة. واعتبرت قضية الحكم قضية خاصة بفئة من الناس، وأن الآخرين عليهم الانتظار. إن جاءهم صالح فبها ونعمت، وإن لم يأتهم فهذا قدر الله عليهم. هذه النظرة التي هي أقرب إلى الجبرية السياسية تعززت في الفقه الإسلامي وفي العقلية الإسلامية، وأصبحت تفرخ كثيراً من المدارس التي لم تكن تدرك خطورة هذا المنهج على مجمل حركة الحياة الإسلامية بعد ذلك.

ب- في العقائد

أولى المسائل التي أثيرت مسألة القدر وسؤالهم: هل الإنسان مخير أم مسير؟

وثانيتها مسألة مرتكب الكبيرة: مرتكب الكبيرة الذي لم يتب هل هو مؤمن أم كافر؟

وثالثتها مسألة الأسماء والصفات وأهم مسألة طرحت يومها: هل القرآن كلام الله أم خلق من مخلوقاته؟

وستظهر فرق تنافح عن اختياراتها:

- الجبرية: الإنسان مسير، لا ينسب إليه فعل، بل الفاعل هو الله!.
- القدرية: الإنسان فاعل بنفسه، لا توجد لله إرادة مع فعل الإنسان! .. وإطلاق لفظ القدرية عليهم على سبيل المغايرة، فهم نفاة للقدر جملة واحدة.
- المرجئة: "لا يضر مع الإيمان ذنب" بهذه المقولة، قامت هذه الفرقة. فالمؤمن يرتكب ما يرتكب ويدخل الجنة على كل حال. وترتب على ذلك أن العمل غير داخل في مسمى الإيمان. الأمر الذي لم يدر بخلد أولئك المتوقفين في الحكم المحتارين في قضية الشهادة، والذين اختلفوا في الإجابة على السؤال: "هل كل من شهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة؟!"
- المعتزلة.
- الأشاعرة.
- الماتيردية.
- حنابلة القرن الرابع والتيميه.

o أغلب الفقهاء، وعموم أهل السنة.

جـ- في الفقه:

تعددت المذاهب بين جميع الفرق، واختلفت الآراء، ولم تخل من التعصب. وتلك هي الآفة الكبرى لأي مجتمع، فعندما ينتقل النقاش المنطقي، إلى ساحة الفعل التحريضي، ومن ثم إلى ساحة العنف فإن ذلك دمار للمجتمع، فإذا استدعيت جماهير الغوغاء إلى ساحة المعركة الكلامية، فتلك بداية النهاية لكل شيء جميل، لأنها تنتقل تلقائياً إلى ساحة العنف ضد المعارضين، وذلك الأمر الذي يقتل الفكرة والعقل وهما دعامة النجاح لأي مجتمع وعليهما يقوم الإيمان والتكليف وبهما يخطط لنصرة الدين وإعمار الحياة.

٥) المعضلة الاقتصادية

سوء توزيع واستخدام الثروة، الاحتكار، تداول الثروة بين طبقة محددة بالباطل، اعتبار الدولة غنيمة، وملكاً شخصياً للوالي. كل هذه المثالب طبعت الدولة في عصورها المختلفة، ثم الانغماس في الملذات بشكل غير مسبوق، حكيت عنه الأساطير، خاصة لبعض الولاة في تاريخنا، هذا الترف والسرف، أضاع الدنيا والدين معاً على مر التاريخ، ونحن هنا سنأخذ واحدة من أغنى الدول التي حكمت العالم الإسلامي قبل انهيار الوضع، ونسجل للدولة المملوكية، غناها التجاري الباهر، ونسجل عليها فقر الفلاحين وطبقات الشعب، والحرمان الذي كانوا يعانونه، في هذه الدولة الغنية، والمدى الذي وصلت إليه الأحوال في الشارع المصري من جراء ذلك، والآثار المدمرة التي ستقود إليها بعد ذلك، والتي سيصفها لنا الجبرتي – المؤرخ المشهور– يوم نزل نابليون إلى مصر، ومدى تدهور الحالة الحضارية للمجتمع. ويمكن أن يرجع إلى ذلك في تاريخ الجبرتي.

إنّ أخطر ما في الحالة الاقتصادية المذكورة، أن الغنى والترف، كانا نتاج حدث عارض، وهو أن موقع الدولة في قلب العالم وسرته حتَّم مرور تجارة العالم القديم خلال مصر إلى أوروبا، ولم يكن ذلك ناتجاً عن نشاط المجتمع وحيويته الكلية ومشاركته في الدفع الاقتصادي، ولما كان الحدث العارض عارضاً، فزاوله محتوم، وقد حدث ذلك باكتشاف طريق

الرجاء الصالح وعندها انكشفت القدرات الحقيقية للمجتمع، وأختبرت صلابة بنائه وكانت النتيجة ذلك السقوط المريع للمجتمع. أن إيجاد مجتمع نشط بسبب حالته الداخلية الصحيحة كان ولا يزال التحدي الأكبر لأمتنا. وهي مدعوة لأن تتعلم الدرس التاريخي الأزلي، أن المال يجب أن لا يكون "دولة بين الأغنياء" ويجب أن تعتمد الدولة على نشاط المجتمع وحيويته لا الأحداث العارضة مثل تجارة الترانزيت والاقتصاد السياحي الذي يعلم الجميع أنه لا يبني العمود الفقري للاقتصاد وأقصى ما يمكن أن يقدمه فسحة من الوقت لبناء ذلك الاقتصاد لا أكثر ولا ضمان لاستقلال أي أمة لا تمتلك اقتصاداً حقيقياً.

٦) إهمال العلوم التطبيقية

لقد شاع في كثير من فترات التاريخ الإسلامي، أن العلوم الشريفة هي علوم الدين، أو كما قيل "قال الله وقال رسوله" أما عدى ذلك، فهو أمر يؤخذ منه بأقل قدر، فالحساب، والفلك، والكيمياء .. إلخ كلها يجب أن تعطى أقل قدر من الاهتمام، وفي مراحل أخرى، أصاب الاضمحلال حتى العلوم الدينية، وساد التقليد واجترار الموروث، دون أي خلق وإبداع جديد .. تلك النظرة للعلم وتطبيقاته، قضية لم تحل إلى اليوم، وإن كانت دخلت في طور جديد، وهو عالم استهلاك التطبيقات العلمية، وعدم تجاوز ذلك إلى سبر المعرفة العلمية، والغوص في أعماق العلوم. وأصبحت الجامعات محطات تفريخ لمجاميع تفتقد المضمون العلمي، وروح العلم وأن حملت أوراق اجتياز الامتحانات النظرية والشهادات المعهودة. إن الخروج من هذه الحالة هو تحدٍ لابد من اجتيازه إذا أردنا النهوض والخروج من المأزق.

٧) ضعف الدافع العقدي

إن الناظر في أحوال الأمم، يستطيع أن يلمح، وباستمرار أثر الدافع العقدي، في مسيرة أية أمة، هذا الدافع العقدي، هو الإيمان بقضية ما إيماناً لا يحتمل الجدل، والحماس للفكرة، حماساً يجعل كل تضحية في سبيلها أمراً هيناً، تلك هي "المكنة النفسية" التي إذا زرعت في أمة ما نفخت الرياح في أشرعتها، وإذا نزعت من أمة ما دب السكون والموات في جنباتها، ونكست راياتها، وبفضل هذه النفخة، اندفعت الأمة في الأرض، وكلما خفتت هذه

الروح، سكنت وتراجعت، ومع مرور الأيام والسنين بدأ الوهن العقائدي يدب في أوصال الأمة، مما مهد لحالة التراجع، ورسم خطأً مبكراً هدد ولايزال هذا الكيان الكبير، لقد عرّف الصدر الأول العقيدة بالعمل، وعرفت الأمة بعدها العقيدة بالجدل. والفرق بين المعنيين كبير، فالأولى تعني أن المؤشر الحقيقي للعقيدة، هو في مجموع الجهد الذي يضعه الفرد لخدمة أهداف الدين على جميع المستويات، والمعنى الثاني يعني مجموع ما يعرفه الفرد من اصطلاحات وتعريفات، وما يتقنه من جدل وحجه في موضوع العقائد، هذا الخط وهذا التحول سيظل قائماً يؤدي دوره السلبي على مر العصور اللاحقة.

٨) عدم متابعة تطور الأمم الأخرى

لقد كانت الأمة في حالة صراع حاد ومازالت، هذه الحالة التنافسية كانت تستدعي بالضرورة، متابعة التطورات التي تحدث في الأمم المنافسة، ولكن ذلك لم يحدث، وكان له أسوأ الأثر على مستقبل الأمة الإسلامية. فالدولة العثمانية المشتبكة مع الغرب، لم تفلح في رصد متغيرات الحالة الأوروبية في القرن الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر، ولذلك فوجئت بالتحولات العسكرية التي حدثت بعدها، وقل ذلك عن المماليك، الذين كانت بعض ممالك البحر الأبيض المتوسط الأوروبية تدفع لهم الجزية، فقد فوجئوا لحظة نزول نابليون بصنف آخر من الناس غير الذين عهدوهم في الحروب الصليبية وهزموهم فوجاً بعد فوج، ولم يكن ذلك ليحدث لو كانت قرون الاستشعار حية في الأمة ونسبة الغرور أقل.

٩) تكوين النخب حول السلطان

لقد رأينا أرسطو على رأس مرافقي الإسكندر المقدوني، ورأينا جاك أتالي حول ميتران في عصرنا، ورأينا النخب المفكرة الاستراتيجية حول رجالات البيت الأبيض، لكن من يجتمع حول سلاطيننا على مر العصور؟! فإذا استثنينا إشراقات صغيرة داخل التاريخ فسنجد غالبية غالبة من محترفي النفاق تتمركز حول نقطة اتخاذ القرار، نخب تفتقد العلم والخبرة، تحيط بالوالي إحاطة السوار بالمعصم يسمع بآذانها، ويفكر بعقلها، ويتردى وهو يحسب أنه يصعد، تتحول الهزائم إلى انتصارات والنكسات إلى أفراح واحتفالات، تهيئ له أن

يستريح لتحمل هي عنه الهم، فتسرح وتمرح في المال العام، ثم تقوم المعادلة الصعبة، فهو يحتاجهم ليستمر في الحكم، وهم يحتاجونه ليستمروا في النهب. تلك الفكرة الضيقة عن الحكم، والغنيمة، صبغت – ومازالت – كثيراً من عصور التاريخ، ولم ننتقل لفكرة الوطن والأمة بعد. ولم يسلم من مثل هذا الوضع إلا قلة في الماضي والحاضر وعندما يتحول الوضع إلى الصورة أعلاه، تتوارى النخب الحقيقية وتبتعد تجنباً لمثل هذه الأجواء المريضة، ويبتعد الشعب عن المسئولية، وعن البناء، ليتحول إلى أداة عاطلة عن العمل، وتصعد فرق الهدم على هذه الأنقاض لتشارك في عمليات النهب بقدر استطاعتها، تلك هي الحلقة المفرغة التي تدور فيها الأمة منذ أجيال، وتصحبنا إلى هذا الحاضر الذي نعيشه، وعلى الأمة قادة وقاعدة أن تنتبه لهذا الوضع المدمر.

١٠) حكم من لا يعرف الإسلام

ثم إن كثيراً ممن حكموا ويحكمون العالم الإسلامي إلى اليوم، معرفتهم بالإسلام لا تتعدى المعرفة السطحية، وأداء العبادات إن فعلوا. هذا إذا تحدثنا عن الغالب التاريخي، أما الإسلام كمشروع حضاري كلي، وكنظام جديد للبشرية، وكدعوة ورسالة للعالمين، أما معرفة المنتظم الإسلامي، وخريطة الحركة الكلية من أجل الإسلام، أما التجرد للفكرة وبنائها لبنة بعد لبنة في هذا الصرح العظيم، فذلك أمر كان بعيداً عن أذهان كثير من الساسة، وما حمله وقام بتبعاته، في الغالب إلا جمهور الأمة وبعض من أشرق النور في قلوبهم ولو ومضة من حكام الأمة، لقد انفصل الحكم عن المشروع ولم ينفصل عن الحاجة للدين في شكله الطقوسي، لأنه أداة تسكين للجمهور وأداة لكسب الشرعية، وبالتالي إذا أردنا التقدم فلابد من حل هذه المعضلة المستعصية تاريخياً وإعادة الدولة لخدمة المشروع والحياة به، وهو الأمر الذي لابد أن تتحمله قيادات الأمة الإسلامية سواءً كانت نخب الحكم أم نخب الثقافة.

١١) أزمة المدينة العربية

وهي جزء من أزمة الديموغرفيا المختلة، فنتيجة للكثافة السكانية، وأزمة الحكم المستمرة، كانت الحاجة دائمة عند الملوك لاستدعاء البادية لحكم المدينة العربية، وفي أشكال

مختلفة، فمرة تستدعي البادية العربية، ومرة تستدعي البادية التركية، والشركسية ومرة تستدعي العسكرتاريا أو القبيلة المعاصرة، وهي في كل الأحوال كتل بشرية معرفتها بالحضارة قليلة، ولكن قدرتها التنظيمية عالية، بسبب من رابطة الدم، أو رابطة الانتماء للعسكر، وعبر التاريخ الطويل، انتقلت هذه من حماية الحكم إلى حكم المدينة، في حين عُزِلَ أهل المدينة عن تسييرها في جهازها الأعلى، هذا الاختلال، قد تم إصلاحه في الحركة التاريخية الأوروبية، يوم أن حكمت المدينة نفسها، ممثلة في سكان المدن، فأوجدت حالة الاستقرار والتنمية، مهدت لحركة النهضة، أما في المدينة العربية وإلى يومنا الحاضر، فلم تستطع المدينة استعادة حريتها وتوازنها.

نظرات في مسار المماليك والعثمانيين

إن أهم مراحل التاريخ الإسلامي هما مرحلتي المماليك والعثمانيين من حيث بدء خط الانكسار واصطدامه بخط النهضة الأوروبي ولابد أن نلحظ هنا عدة أمور:

١. يبدو للوهلة الأولى، أن دخول الأتراك للمعادلة الإسلامية حدث قد جاء مع الدولة العثمانية، وهنا نحب أن نذكر بأن الإسلام وصل إلى بلاد ما وراء نهر جيحون سنة ٧٠٥م على يد قتيبة بن مسلم حيث تستقر القبائل التركية القادمة من أواسط آسيا وأن المعتصم سنة ٨٣٣م استقدمهم كحرس وجنود وخدم وسيبني مدينة سامراء في العراق ليستقر بها مع جنوده هؤلاء. وهؤلاء بدورهم سينقلبون بعد ذلك من أداة للسيد إلى سيد للسيد وسيمارسون الحكم كلما سنحت الفرصة وتهيأت الظروف وهي سنةٌ جارية في البشر.

٢. ونؤكد أنّ الأتراك لعبوا دوراً هاماً كدول ثغور طوال تاريخهم الطويل، وهم الذين وقفوا في وجه الغرب وطموحاته في الشرق منذ عصر مبكر.

٣. إن الدولة الأموية التي مدت رواق الإسلام إلى أقاصي العالم شرقاً وغرباً لم تدم في الشرق إلا ما يقرب من قرن، وهي مدة قصيرة في حساب الزمن، ومع ذلك حقق جيبها في أسبانيا معجزة حضارية، ستظل محل اعتزاز الأمة على مدى الأجيال.

٤. دخلت الدولة العباسية في عهود الضعف، مع استلام المتوكل ٨٤٧م (القرن التاسع)، حيث بلغت الدولة، أوج اتساعها، وبدت على الخريطة، كطائر ذي جسم صغير، وهو العراق والشام، وجناحين كبيرين، ويمثل الجناح الشرقي، بلاد فارس،

والجناح الغربي مصر والشمال الإفريقي، قلب ذو كثافة سكانية منخفضة، مقارنة بجناحين، ثقيلين عريضين، في عصر تشكل القوة البشرية والموارد عناصر حاسمة في صراعات القوة، وأي مرض سيطرأ على عقل الطائر أو جسمه سينعكس على الأجنحة، وسيختل ذلك التوازن الصعب، الذي سبب معضلة الدولة العباسية. وذلك ما حدث فمع ضعف قلب الدولة، بدأ تفكك الأطراف فالجناح الغربي وبالتحديد في مصر، سيبدأ أول عملية انفصالية على يد السرى بن الحكم ٨١٥م لتظهر في الجناح الشرقي المقابل وبالتحديد في خراسان الدولة الظاهرية

سنة ٨١٩م ولو تابعت التواريخ اللاحقة لقيام الدول ستجد عملية التناوب على التفكيك من الأجنحة، ثم الاتجاه للسيطرة على القلب والجسد الضعيف.

٥. هذه الدول رغم كل العيوب الناتجة عن تفكيك الإمبراطورية الإسلامية، فإن معظمها كان له إسهام حضاري أضاف للتراث الإسلامي، وسد عجزاً ما، في مراحل ضعف القلب. ودافع عسكرياً عن الأمة بشكل أو بآخر.

٦. هذا الوضع المجزأ، والضعف البادي في القلب، سيغري أولاً الكتل البشرية العملاقة في الغرب على الحركة للاستيلاء على هذه الممالك الغنية وستبدأ حركة الحروب الصليبية بين العامين ١٠٩٥م–١٢٩١م (نهاية القرن الحادي عشر إلى نهاية القرن الثالث عشر) أي متزامنة مع عمر ثلاث دول إسلامية، الدولة السلجوقية، والدولة الأيوبية، وما يقرب من أربعين سنة من عمر الدولة المملوكية. ويغري ثانياً الكتل البشرية العملاقة من الشرق ممثلة في المغول سنة ١٢٥٨م أي قبل انتهاء الحروب الصليبية بثلاث وثلاثين سنة ليسقطوا الدولة السلجوقية وينهوا الخلافة العباسية ليوقفهم المماليك في فلسطين ١٢٦٠م. وفي عين جالوت يتوقف المغول بعد توقيع الصلح مع المماليك ١٣٢٠م. وبعدها ببضعة عقود يدخل التتار بقيادة تيمورلنك مرة أخرى ليستولوا على بغداد ١٣٩٣م ويجتاحون المدن السورية ويدمرون دمشق سنة ١٤٠١م ويأخذون خيرة الفنانين والصناع إلى عاصمة ملكهم سمرقند قبل أن تصل إليهم جيوش المماليك وتنهي وجودهم في الشام.

والخلاصة: أن القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر هي قرون صبغتها الحروب المتواصلة من أجل البقاء، بما تعنيه الحروب مادياً وبشرياً من تكاليف

تكبدها العالم الإسلامي ومناطقه الحضارية. فقد تم تدمير بغداد وحرق مكتباتها على يد المغول ثم قام تيمورلنك بتفريغ المنطقة من خيرة الصناع والفنانين.

النموذج الخامس

هذا النموذج يعينك على استيعاب مسار الحضارة الإسلامية ، وحفظ أهم ما فيه، وشرحه للآخرين.

الدولة العثمانية

(١٢٨٨ – ١٩٢٤م)

ستة قرون

الدولة الإسلامية

النموذجية

(٦٢٢م – ٦٦١م)

الهجرة ٦٢٢م

فتوحات مستمرة ضمت أجزاء واسعة من امبراطوريتي بيزنطة وفارس

مقتل علي بن أبي طالب ٦٦١م ونهاية الخلافة الراشدة.

الدولة الأموية الشرقية

(٦٦١م – ٧٥٠م)

معاوية ابن أبي سفيان (٦٦١م – ٦٨٠م) وبداية الملك.

سقطت في أيدي العباسيين ٧٥٠م

خلافة عمر ابن عبد العزيز الراشدة (٧١٧م – ٧٢٠م)

عهود قوة وفتوحات حتى عهد الوليد بن يزيد وبداية الضعف ٧٤٣م

الدولة العباسية

(٧٥٠م – ١٢٥٨م)

العصر الذهبي على يد السفاح ٧٥٠م

انتهاء العصر الذهبي في عهد الواثق ٨٤٧م وبداية التدهور في عهد المتوكل

دخول المغول بغداد وسقوط الدولة العباسية في عهد المستعصم ١٢٥٨م

هزيمة الهجمات الصليبية وتحرير بيت المقدس ١١٨٧م

قيام الدولة الأموية الغربية على يد عبد الرحمن الداخل ٧٥٦م
ضعف الدولة الأموية الغربية وتفككها ١١٠٠م
قيام دولة المماليك البحرية ١٢٥٠م في مصر والشام والحجاز واليمن
سقوط الدولة الأموية الغربية ١٤٥٢م
مرحلة التأسيس (١٢٨٨ – ١٥١٣م)
فارانا ١٤٤٤م
فتح القسطنطينية ١٤٥٣م
أقوى فتراتها في عهد سليمان القانوني ١٥٦٦م
فترة ضعف وانحلال (١٥٩٥ – ١٨٠٨م)
عهد الإصلاح والتغيير دستور ١٨٧٦م
تنفيذ نظرية الجامعة الإسلامية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني وحتى ١٩٠٩م
سقوط الخلافة الإسلامية ١٩٢٤م وبداية الملك الجبري.
سقوط دولة المماليك البحرية وقيام دولة المماليك البرجية ١٣٨٢م
سقوط دولة المماليك البرجية على يد العثمانيين في موقعة الريدانية ١٥١٧م
مد السلطان مراد الأول حدود الدولة العثمانية إلى البوسنة ١٣٨٩م
دولةالمماليك البحرية تتصدى للهجمات المغولية ١٢٦٠م (عين جالوت)

الخلاصات

* قامت الدولة الإسلامية الأولى ٦٢٢م على يد النبي صلى الله عليه وسلم رغم المعطيات الصفرية. شأنها شأن كل الأمم التي نهضت.

* كانت الدولة الأموية دولة فتوحات نشرت الإسلام شرقاً وغرباً.

* تزامنت في عهد الخلافة العباسية دولتان: الدولة العباسية في الشرق والدولة الأموية في الغرب والتي قامت على يد عبد الرحمن الداخل.

* شهد عصر المماليك مرحلتين: مرحلة المماليك البحرية ١٢٥٠م – ١٣٨٢م. وكان عصر قوة وعطاء، انكسرت فيه الحملات الصليبية. والمرحلة الثانية هي مرحلة المماليك البرجية ١٣٨٢م – ١٥١٧م وهو عصر ضعف.

* تأسست الدولة العثمانية عام ١٢٩٩م وانتهت ١٩٢٤م. وكانت أقوى فتراتها (١٥١٢م – ١٥٩٥م).

* في الوقت الذي طرد فيه المسلمون من الأندلس (غرب أوروبا)١٤٥٢م كانت الدولة العثمانية تستعد لمواجهة أوروبا وتمكنت من فتح القسطنطينية ١٤٥٣م (شرق أوروبا).

* إن الأسباب التي أدت إلى سقوط الحضارة الإسلامية تتجسد في عوامل خارجية مثل الحروب الصليبية أو عوامل داخلية تتجسد في الممارسات السيئة الداخلية.

الباب السادس

تقاطع المسارين

الإسلامي والأوروبي

أهم الأسئلة التي يجيب عليها الباب

١. متى استطاع الغرب أن يفيق من غفوته ويبني حضارته؟

٢. متى بدأ خط الانكسار في مسار الحضارة الإسلامية؟

٣. ما أهم النقاط التاريخية المشتركة بين الحضارتين الإسلامية والأوروبية؟

٤. كيف أثرت نقاط التقاطع سلباً وإيجاباً على كل من الحضارتين الإسلامية والأوروبية؟

إن العامل في مجال النهضة يلزمه أن يلم بالمفاصل المشتركة بين الحضارتين الأوروبية والإسلامية. ليتعرف على بداية السقوط وكيف بدأ شيئاً فشيئاً على مدار قرون طويلة.

وسنستعرض كل حدث مفصلي مشترك على حدة. ونذكر تأثيره على كلا المسارين الإسلامي والأوروبي.

٦٢٢م تكوين نواة للدولة الإسلامية في المدينة

على المسار الإسلامي: كان ظهور نواة الدولة يمثل دافعاً نفسياً كبيراً للأمة الإسلامية الصاعدة، التي تستشرف من البشارات القرآنية والنبوية مستقبلها المشرق. وبدأ سلم الحضارة الإسلامية في الصعود حتى فتحت الدولة الإسلامية مشارق الأرض ومغاربها. وصدرت عاداتها وثقافاتها إلى الغرب.

على المسار الأوروبي: نسجل هنا أن المسارالغربي كان يعيش عصر التخلف والظلام. وكان بمثابة المتلقي من الحضارة الإسلامية الجديدة.

(١٠٩٧م – ١٢٩١م) الحروب الصليبية والتترية

على المسار الإسلامي: أنهكت الحروب الصليبية العالم الإسلامي رغم أن الحملات المعتدية لم تتمكن من تحقيق أهدافها المباشرة.

أما الحروب التترية فقد دمرت صرح العلوم الإسلامية، وعزلت خيرة الصناع والفنانين والعلماء والمبدعين عن العالم الإسلامي.

على المسار الغربي: رغم هزيمة الغرب في الحروب الصليبية إلا أنه عاد بالعلوم الإسلامية. فقام بترجمتها

وتغير نمط الحياة الغربي،. ليبدأ رحلة النهوض.

القرن الخامس عشر (قرن التحولات)

١٤٥٢م طرد المسلمين من الأندلس

على المسار الإسلامي: أثر سلباً على الروح المعنوية للمسلمين. إلا أننا يجب أن نسجل هنا أن الدولة العثمانية ونخص تركيا كانت قادرة على التصدي لأوروبا بأكملها وقد استطاعت في ١٤٥٣م أن تصل إلى القسطنطينية ثم تحاصر بعد ذلك فيينا.

على المسار الأوروبي: كان لطرد المسلمين من الأندلس رفعاً للروح المعنوية للغرب، وإحساسهم بإمكانية الفعل والتصدي للإمبراطورية الإسلامية.

اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح(١٤٨٨م) والأمريكتين (١٤٩٢م)

على المسار الإسلامي: أدى إلى ضمور التدفق التجاري على العالم الإسلامي، ومن ثم فقد أحد أهم ركائز قوته.

على المسار الأوروبي: انطلاقة كبرى للسيطرة على قلب الاقتصاد العالمي. واكتشاف مدينة الذهب ما أدى إلى وفرة الموارد.

١٤٥٣م فتح القسطنطينية

على المسار الإسلامي: أكد أن العالم الإسلامي لازال فيه رمق، وأن جيشه يستطيع قهر أوروبا.

على المسار الأوروبي: الإحساس بالتهديد ومن ثم استفزار الطاقات لمواجهة التحديات.

١٧٦٩م اكتشاف قوة البخار

المسار الإسلامي: كان يعاني من ضعف شديد في العلوم التطبيقية، بالإضافة إلأى الاحتقانات الداخلية جراء نظم الحكم المستبدة.

المسار الأوروبي: مثلت الثورة الصناعية نقلة في عالم التصنيع باكتشاف قوة البخار واستخدامه. وقد أدى ذلك إلى تغيير المعادلة العسكرية تماماً. فأصبحت القوة العسكرية الأوروبية تتفوق بمراحل على القوة العسكرية الإسلامية.

ونتيجة لحركة التصنيع حدثت تغيرات اجتماعية كبيرة في أوروبا ، فاختفت طبقة النبلاء وظهر مجتمع أصحاب البنوك ومديري الشركات والمصانع، وازدادت أهمية المهندسين والحرفيين ذوي المهارة، وعمت ظاهرة البحث عن المبدعين.

وبنهاية القرن الثامن عشر انتقلت أوروبا من عصر النهضة إلى عصر التقدم التكنولوجي والإنتاج الكبير.

إن إرهاصات أفول نجم الحضارة الإسلامية بدأت مع الحروب الصليبية . لكن الفجوة اتسعت بشكل يصعب التعامل معه بعد الثورة الصناعية. وهذا هو المفصل التاريخي للانهيار الحقيقي للحضارة الإسلامية. ومن ثم الصعود الأوروبي.

ملخص التقاطع الإسلامي الأوروبي

البرابرة الأوروبيين

عصر الظلام

(٤٧٦م–١٥٠٠م)

... ٤٧٦م ...

* تسقط روما وتدخل أوروبا عصور التخلف والفوضى والاقتتال حتى القرن الخامس عشر ولن تخرج من الإشكاليات المميتة إلا بعد الحرب العالمية الثانية وإلى أجل.

* عصر الظلام الأوروبي:

تخلف في: [الفكر (النظرة في الكون)–السياسة–الاقتصاد–الصحة–المأكل والمشرب–النظافة–البنية التحتية]

* العلوم (الرياضيات–الفلك–الجغرافيا–الكيمياء–الفيزياء–الإنسانية–الميكانيكا)

العصر الإسلامي المجيد

(٦٢٢م –١٠٠٠م)

نضج الحضارة الإسلامية

...

٦٢٢م

حادث الهجرة

...

* تذكر أن كل العلوم المعاصرة كان المسلمون هم من فتح أبوابها الرئيسة (انظر شهادة الطرف الآخر).

* وأن وسائل التحضر في المأكل والمشرب ووسائل الراحة جاءت من الشرق ومازالت في كثير من الأحوال بأسمائها العربية في العالم (أنظر زيجرد هونيكه شمس الله تشرق على الغرب).

* استمرار العطاء الإسلامي حتى نهاية القرن الخامس عشر واستمرار تدريس الكتب العلمية لمؤلفيها المسلمين في أوروبا كمراجع العلوم التطبيقية في الطب والرياضيات وغيرها.

الاشتباكات الحاسمة بين المسلمين والأوروبيين ...

١٠٩٧–١٢٩١م

الحروب الصليبية

... فوائد الغرب من الحروب الصليبية:

kتمت ترجمت كل العلوم الإسلامية. kنقل التقنية. kالعلوم التطبيقية. kتغيير نمط الحياة في إيطاليا. kالقانون والفكر القانوني.

(التحول من البدائية إلى العلم الحديث)

القرن

الخامس عشر

قرن التحولات

...

* أسبانيا تطرد المسلمين (ارتفاع المعنويات الصليبية)

* اكتشاف رأس الرجاء الصالح (نمو تجارة أوروبا–وانكسار تجارة الحواضر الإسلامية حول البحر الأبيض المتوسط)

* اكتشاف الأمريكيتين (نمو تجاري–وفرة أموال [الصرف على العلم–الصرف على الصحة–الصرف على البنية التحتية])

– سقوط القسطنطينية (تحفز الغرب وإحساسه الخطر الخارجي)

الثورة الصناعية ...

* اكتشاف قوة البخار ١٧٦٩م

الباب السابع

استجابة العالم الإسلامي

إن أمتنا الإسلامية منذ نشأتها وهي تتعرض على مر العصور والأحقاب المتتابعة لتيار متصل من التحديات والأخطار أشبه ما يكون بالتيار الكهربائي والذي تمثل الأخطار الكبرى كالحملات الصليبية والهجمة التتارية ومحاكم التفتيش في الأندلس ومعاهدات التجزئة والتقسيم ثم إسقاط الخلافة قمم موجاته. ويخطئ كل من يحصر الأخطار والتحديات في قمم الموج فقط. فتيار المخاطر لم ينقطع البتة، ولم تكن تنكسر موجة إلا لتعلو غيرها. وما بين الانكسار والعلو تلتقط الأمة أنفاسها قليلاً استعداداً للموجة التالية.

هذه القراءة للأحداث التاريخية وللواقع المعاصر لابد وأن تنقلنا من مجرد الاستجابة المتشنجة للتحديات القائمة ومن المحاولات المستميتة والمضطربة للتغلب على قمة الموجة العاتية إلى وضع رؤية استراتيجية شاملة واعية راشدة في محاولة للتقليل من قوة الأمواج المستقبلية ومن ثم للوصول إلى قمة المجد الحضاري في المستقبل.

لقد أوجزنا التحديات التي تواجهها أمتنا الآن في ثلاثية التخلف والاستعمار والفرقة. وأكدنا أنه لا يمكن التصدي لهذه التحديات إلا بالعمل على الأصعدة الأربعة التي تحدثنا عنها سلفاً: الصعيد النفسي، والفكري، والتنظيمي، والمادي.

إن هذا التحدي السافر على أمتنا يفرض علينا الرد، وقد بدأت بشائره في كل مكان .. قد تكون متعثرة، قد تكون مترددة، وقد يكون الميلاد صعباً، ولكنه الأمل الذي يراه الناس، أسرى اللحظة البائسة خيالاً، ونراه بعين البحث والنظر حقيقة لابد أن تتجسد معالمها الكلية على أرض الواقع بعد أن وضعت اللبنات الأولى منذ مطلع هذا القرن وتبلورت في أشكال فكرية وحركية واجتماعية في مجتمعنا، وبدأ البناء في الصعود شيئاً فشيئاً متضحاً في أشكال المقاومة المختلفة الراشدة وغير الراشدة. وما يحدث في الساحة الآن يمثل الصحوة التي يرتجى أن تتحول قريباً إلى يقظة تلملم أوراقها لتنطلق في ميادين النهضة، ثم تكون حضارة للعالمين.

إن من أوجب واجبات الوقت الآن عكوف قادة النهضة وطلابها على تمحيص السبل والوسائل للانتقال بالأمة من مرحلة الصحوة – التي طال أمدها واستطابت ثمارها – إلى مرحلة اليقظة والرشد والوعي. إن الانتقال بالأمة من مرحلة الخطط التشغيلية والتنفيذية إلى مرحلة الخطط الاستراتيجية هو وحده الكفيل – بعد استمداد العون من الله تبارك وتعالى – بالقضاء على الأمواج وتقليل قوة تيار المخاطر إلى الحد المسموح به.

وتباشير الانطلاق إلى مرحلة اليقظة قد بدأت بالفعل استجابةً للتحديات القائمة وذلك على مستوى العوالم الثلاث:

فعلى مستوى عالم الأفكار تموج الساحة النهضوية الآن بالكثير من الأفكار التي تتدافع فيما بينها. وسوف يكتب لأصلح هذه الأفكار وأقواها البقاء والصمود.

كما شهد القرن العشرين صعود نجم الكثير من الحركات النهضوية الإصلاحية والتغييرية التي أحدثت فارقاً ضخماً ونقلةً حقيقية في عالم الأفكار. كما ظهرت العديد من كتابات النوعية التي وإن كانت شحيحة ونادرة إلا أنها بادرة إيجابية ومؤشر على التطور الذي يشهده عالم الأفكار في المشروع النهضوي الإسلامي.

هذا بعض حصاد مرحلة الصحوة فيما يتعلق بعالم الأفكار. وتكاد تطوى صفحات هذه المرحلة ولا تزال علوم السياسة والاقتصاد والاجتماع وغيرها من العلوم الإنسانية – التي هي بطبيعتها علوم تتعلق بعملية التدافع – رهينة المكتبات وعقول الأكاديميين. ولا يزال هناك الكثير ليبذل على الصعيد الفكري لتحويل هذه الأفكار

والعلوم إلى أدوات للاستخدام. ونعتقد أن هذا هو المشروع الذي لابد أن تقوم به طائفة من علماء ومفكري الأمة لتنتهي بهذا المشروع مرحلة الصحوة ونكون قد ولجنا إلى مرحلة اليقظة.

أما على مستوى عالم الأشياء فقد استطاعت بعض الدول الإسلامية امتلاك تكنولوجيا متقدمة على الصعيدين العسكري والمدني بما يؤهلها لإحداث بعض التوازن مع القوى العالمية الأخرى عسكرياً ومدنياً. وأقرب الأمثلة إلى الذهن باكستان النووية وماليزيا العملاق الاقتصادي القادم.

ولكن لا يزال أمامنا الكثير لردم الفجوة التكنولوجية والاقتصادية الهائلة بين أمتنا وبين القوى المهيمنة الأخرى. ولا تزال أكبر المشاكل التي تواجه أمتنا التبعية الاقتصادية ومشكلة السماء المفتوحة.

فالتبعية الاقتصادية تجعل الأمة تدور في فلك المستهلكين لا المنتجين. كما أن التبعية الاقتصادية يلازمها بالضرورة التبعية السياسية وما يترتب عليها من قرارات تتعلق بالصراع والتنمية والنهضة جميعاً.

أما مشكلة السماء المفتوحة فنقصد بها عجز العالم الإسلامي عن حماية سمائه ضد القوة المادية الصلبة التي قد تستخدمها القوى الأخرى إذا ما تململ المارد الإسلامي أو حاول التحرك أو القيام من

كبوته. إنها تعني الخوف من عواقب أي قرار سياسي حقيقي؛ بل الخوف من أن يُساء فهم أي قرار سياسي.

أما على مستوى عالم العلاقات فلا يزال هذا العالم أكثر العوالم الثلاثة تخلفاً. فالعلاقات لا تزال مضطربة بين الحكام والمحكومين، وبين الأحزاب والهيئات والسلطات، وبين الحركات النهضوية بعضها البعض؛ بل وبين الحكام أنفسهم. ولا تزال الانقلابات العسكرية والاستفتاءات هي أسلوب تداول السلطة أو احتكارها. وما أشبه عالم العلاقات في يومنا هذا بعالم العلاقات الذي كان سائداً في عصر دول وملوك الطوائف بالأندلس. وكم ستكون النهايتين شبيهتين لو استمر عالم العلاقات على هذا الحال.

إن استجابة الأمة الإسلامية والعربية للتحديات الآنية هي استجابة إيجابية إلى حد بعيد. ولكن لا يزال أمام الأمة البحث عن الوسيلة الذهبية التي بها يُحسم الصراع وتزول معها الأدواء. والأمة – ممثلة في علمائها ومفكريها وقادة وطلاب النهضة – وهي في طريقها للوصول إلى تلك الوسيلة الذهبية ينبغي عليها ألا تُغفل طريقاً أو سبيلاً أو فكرةً إلا وتمحصه أو تجربه. وينبغي ألا تشغلها مصارعة الموجة الحالية – التي ستنكسر بلا شك – عن التفكير العميق في كيفية الخروج من دوامة الأمواج العاتية المتتالية لعلها تجد مخرجاً أو تصادف منقذاً.

============

#السواك الدواء والسجائر الداء

الكاتب: الطبيب رامي محمد ديابي
Email: ithmed@islamway.com
الثلاثاء ، ٢٧ رجب ، ١٤٢٤

أرسل الموضوع إلى صديق

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

رسالة علمية باسم :

نظرية (السواك الدواء والسجائر الداء)

أسرار طبية حديثة من عراقة الحضارة الإسلامية

إشراقة نبوية :

كنت عبر السنوات الست الأخيرة في عملي ضد التدخين كثيراً ما أعود لأعيش مع اللحظات الأخيرة من وفاة نبي الرحمة وهو يتسوك بعود من الآراك بفكر المتأمل والباحث العلمي والمتبحر لسر هذا الاختيار النبوي في فراق الدنيا على عود من الآراك ؟

وكان كل يوم أزداد فيه إطلاعاً على خفايا الميزات العلمية للآراك أزداد تعظيماً للآراك تلك المعجزة الطبية البيئية لسكان القرن العشرين إذ تبين أن الآراك هو الشجرة الأمثل لوقف التصحر بقدرتها على النمو في السبخات المالحة وإمكانية استمرارها في الحياة بريها بماء البحر ، عدا عن التأثير المذهل لعود الآراك في شفاء

المدمنين على النيكوتين (من المدخنين) والذي يبشر بزوال أمراض وخيمة مثل المخدرات والإدمان الكحولي والتدخين إذا تبنته الحكومات في برامجها الصحية والوقائية .

مقدمة الرسالة :

إن الحضارة الشرقية العريقة التي امتدت عبر مئات السنين لتمد جسور النور لأوربة في عصور الظلام هي نفسها تلك الحضارة التي توشك أن تنقذ العالم اليوم من أمراض الحضارة المدنية الحديثة ولاعجب ...

وربما كان مثالنا في هذا النظرية مصداقية لتلك العبارات السابقة وهو ما كشفه العلم الحديث وما يتوقع من الدور المستقبلي لتلك الجذور الطبية المسماة (بالآراك – Persica Salvadoria) في العلاج والوقاية من مشكلة التصحر عالمياً وكعلاج عملي بسيط التكلفة لوباء التدخين والمخدرات والكحولية .

أما كيف ذلك فالجواب يقع في شطرين :

الأول ربما كان في خبر نقلته محطة البي بي سي عن نجاح أمارة أبوظبي في زرع مليوني شجرة آراك (شجرة السواك) عبر مسافة تصل إلى ١٠٠ كيلومتر باتجاه الربع الخالي بعدما تبين أن الآراك يستطيع النمو في السبخات المالحة ويمكن ريه بماء البحر.

إن أهمية الجذور الطبية لنبات الأراك المستخدم في البلاد العربية منذ آلاف السنين معروفة كدواء عشبي لأمراض كثيرة وكفرشاة ومعجون أسنان بآن واحد ومؤخراً جاءت الأبحاث العلمية في جامعة عين شمس عبر أربع سنين لتكشف حقائق مذهلة تضاف إلى الأبحاث الغربية الأمريكية والسويسرية وغيرها لتثبت أهمية طبية خاصة لهذا الجذر النباتي الطبي..

ويحضرني هنا ما ذكره أستاذنا الدكتور محمد علي البار في كتابه القيم (السواك) نقلاً عن المجامع الغربية والشرقية في تميز السواك بمادة الثيو سيانات المضادة للنخور السنية والتي كانت معظم السبب في عدم حاجة العرب قديماً لطبيب الأسنان .

من خلال هذه السطور أركز على الإعجاز النبوي في عظمة الدلالة العلمية البيئية الصحية في وفاة النبي عليه السلام وهو يتسوك وأدلل على كون السواك ربما المخرج العملي للأمة الإسلامية من وباء التدخين , ذلك الوباء الذي يعد السبب الأول والوحيد لوباء المخدرات والإنحرافات السلوكية المختلفة في المجتمعات المسلمة.

نظرية السواك الدواء والسجائر الداء

الأسس التي قامت عليها النظرية :

١- خاصية الاعتياد المشترك (للسواك والسجائر) فيزيولوجياً وميكانيكياً.

الميل الفيزيولوجي والعلاقة الميكانيكية بين اليد والفم هي أساس من أسس نجاح صناعة السجائرتجارياً وهي عامل مشترك بين الداء (التدخين) والدواء (السواك) ولعل منعكس المص عند الأطفال أحد الشواهد على ذلك.

تنص الفرضية :

"أن الأصل في عادة السجائر فيزيولوجي وميكانيكي ويحدث الإدمان خاصة في حال انعدام البديل الفطري الصحي "السواك" .

أما شواهد النظرية فهي كثيرة منها الميل الفيزيولوجي عند الأطفال لعادات كثيرة تربط الفم باليد ومنها مص الأصبع ونتف الشارب وغيرها"

شاهد منW.H.O منظمة الصحة العالمية:

يذكر الفنان دريد لحام في شريط الفيديو الذي أصدرته منظمة الصحة العالمية في عام ٢٠٠١ بمناسبة اليوم العالمي للتدخين خلاصة مهمة وهي :

إدمان التدخين هو إدمان المدخن للعادة الميكانيكية الحركية بين يديه والسجائر بشكل أساسي .

٢- السواك وسيلة ناجعة في علاج إدمان السجائر:

هناك حالات عديدة نجحت بالإقلاع من مرضى عيادة الإقلاع الخاصة بي في حلب – سورية وذلك باستعمال السواك الأخضر الطازج والذي يأتي من منطقة أبها ومن بلاد اليمن خاصة وكانت أفضل النتائج لعلاج ادمان التدخين بالسواك تتأتى باستعمال السواك الحار (له مذاق حار مثل مذاق قشر الفجل) وإن لم يكن الشفاء

من السجائر كاملاً فالانخفاض ملحوظ ، وهو عادة من ٤٠-١٠٠ % عند مختلف الحالات ولذلك كنت أنصح المدخنين دوماً بوضع السواك داخل علبة السجائر.

فضلاً عن تقارير حالات الشفاء من الإدمان باستعمال الآراك كبديل ميكانيكي عن السجائرمن دول إسلامية كثيرة والتي جعلت أحد المحسنين في السعودية "كما علمت " يقوم ببناء معمل مشهور (سواك مكة) ليحارب وباء التدخين ، ويبدو أن العادة الميكانيكية لليد بالتردد على الوجه هي عادة مغروسة في فيزيولوجيا الكائن البشري من قبل الإله الخالق سبحانه وهذا ما يتبادر للذهن عند قراءة حديث صحيح مسلم : عشر من سنن الفطرة وذكر أولها : السواك .

٣- تأثيرات صحية نافعة للسواك تعاكس تأثيرات السجائر الضارة:

لعنات السجائر وآثارها المدمرة الصحية تصيب كل الطرق التنفسية بشكل أساسي حيث التماس المباشر مع دخان السجائر ثم تتعداه لكل الأجهزة الحيوية لتظهرالتأثيرات المخربة والمسرطنة بعد حين فتتنوع من اللثة والأسنان والفم والحنجرة والمعدة والأعصاب إلى الناحية الجنسية وبالمقابل يأتي السواك ليلعب دوراً معاكساً في كل الأجهزة السابقة بداية من لون الأسنان وطعم الفم ورائحته للحنجرة والمعدة وغيرها .

ودور السواك في علاج التهابات الحنجرة والوقاية منها معروف لتجاور المخاطية المبطنة للفم والحنجرة إضافة لتأثير السواك المهدء للأعصاب والمعدة ثم إلى دوره المضاد للسرطان المثبت في أبحاث غربية وباكستانية، إضافة لدوره المقوي جنسياً المعروف لكونه يعتبر أقوى معطر ومنكه للفم فضلاً عن كونه أقوى مزيل فوري لرائحة الفم الكريهة والتي غالباً ما ينجم عنها قرف الزوجة من الزوج والبرود الجنسي. (قارن بين مظهر أسنان المتسوك والمدخن للتتأكد)

ولعل من المفيد هنا ذكر الأدب النبوي في بدء دخوله عليه السلام البيت بالسواك فإذا أراد تقبيل بعض أهله كان فمه عطراً منكهاً.

أما الدلالات العظيمة من وفاة النبي عليه السلام على السواك فكثيرة منها :

• رسالة بيئية ضد التصحر ورسالة للعودة للفطرة والموت عليها (السواك من سنن الفطرة) فضلاً عن دلالتها في تشخيصها لأهم داء ودواء للأمة الإسلامية فالتدخين

يكلف المسلمين ١,٥ مليون وفاة سنويا بالإضافة ل ٨٠٠ مليون دولار يومياً كثمن للسجائر مضافاً لها ٤-٦ مليار دولار نفقات المخدرات المالية (التدخين مرتبط بالمخدرات وهو سبب له وحيد) عدا عن داء الخمر (الكحولية) وخسائره المالية والروحية الذي يعد التدخين سببه الوحيد إضافة للفواتير الصحية المنوعة وخسائر الدين والشاهد على ذلك قول الدكتور محمد خطيب الممثل الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية في اليمن - مؤتمر الكويت ١٩٩٨ -

إن مادة النيكوتين التي يدمنها الفرد تعتبر من أخطر المواد المسببة للإدمان والتدخين مقدمة لإدمان المواد المخدرة كلها ويبدئ تعاطي الكحول دوماً بالسجائر !

٥- حرمة السجائر وسنية السواك (ماتركت سنة إلا وجاءت مكانها بدعة)

إن ارتباط السواك بالملائكة والسيجارة بالشياطين واضح من خلال عدة أمور منها : الحديث الشريف : (السواك مطهرة للفم مرضاة للرب) ، وفي رواية : مطردة للشيطان..

ثم علاقة من يمارسون السحر والجن وحبهم للسجائر ومعرفة أن المدخن يؤذي من حوله بمواد سامة غازية وسائلة ثم تسببه في حرائق الغابات والبيوت مع ما تحويه السجائر من مواد مشعة,إضافة لنفور الملائكة عن المدخنين ، لوصفه عليه السلام طبيعة الملائكة الكرام اللطيفة بأنها (تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم) .

(ولعل هذا يفسر الإنحرافات السلوكية للمدخنين والتي أثبتها البحث العلمي في مصر والكويت وغيرها) عداعن البحث العلمي الكندي الذي قمت بترجمته منذ شهرين للصحف والذي توصلت عبره الطبيبة الكندية لوجود علاقة تآزر قوية بين مستقبلات النيكوتين الدماغية وإدمان الكحول.

وشاهد آخر هو كثرة أعداد الذين يمارسون هوايتهم المفضلة " التدخين " في بيوت الشياطين لاحظ أعقاب السجائر الموجودة بكثرة في دورات المياه .

ويحضرني هنا شهادة أحد شخصيات دبي المشهورة " المهندس أحمد سفاريني "
عندما جربت السجائر وجدت في نفسي ضعف النازع للخير وقوة نوازع الشر والشهوات !

تعقيب عملي للأمة الإسلامية :

أمتاه استبدلي السيجارة بالسواك لكي يكتب لك التمكين .فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

قاطعي التبغ لأنه حيلة الصهاينة الأولى في إفساد المجتمعات الإسلامية ونهب ثرواتها بما يدره عليهم من أموال هائلة وبما يساهم به سوق التبغ في اتساع أسواق المخدرات والكحول والدعارة .

وهو إضافة لما سبق عمود الاقتصاد الصهيوني العالمي الأول.

أمتاه إن لم تقدري على جهاد الصهاينة بمالك ولملمة جراح الأقصى فلا أقل أن لا ندعم سكاكين الأقصى .

أمتاه فلا تشتري سموم التبغ رحمة بأطفال المسلمين وأراملهم " التبغ من أكبر أسباب المآسي الاجتماعية في بلاد المسلمين"

بحث علمي شاهد مهم عن حجم المأساة :

في بلد فقير يدعى إدلب في سورية – ينفق المدرس المعدوم من راتبه الشهري الذي يبلغ معدله ١٠٠ دولار ما مقداره ٤٠ –٥٠ % على شراء السجائر [من بحث منشور عالميا للطبيب وسيم مزيك من حلب]

أمتاه ما غلنت أمتنا إلا بسيف النفاق وبسيف علماء مسلمين سخروا الدين لقتل المسلمين !!

أمتاه حاربي كل مفتٍ يقول " أن التدخين مكروه فقط " بالحجة والبيان.

وأقيمي عليه الحجة بما استجد من أبحاث وحقائق علمية ووثائق سرية لشركات التبغ فضحت حديثاً ، فإن أصر فاتهمي ذلك العالم في دينه ، فكما بينت تقارير شركات التبغ السرية أن من خططهم دعم علماء المسلمين القائلين بكراهة التبغ والمواصلة معهم لبناء جسور علاقات قوية تحول دون تعطل تجارة الموت بين شباب المسلمين.

أمتاه ادعمي كل تحرك ضد التبغ صحي وإعلامي ووقفي وخاصة المشاريع الصحية والإسلامية الإعلامية على الإنترنت .

إخواني حاربوا كل المنافقين من أعوان هذه الشركات اللعينة والتي وضعت في بلاد المسلمين من المسئولين والإعلاميين ممن يحارب كل تحرك صحي لحماية شباب

المسلمين (وتفصيل ذلك موجود على الانترنت في تقارير منظمة الصحة العالمية المسماة تقرير صوت الحقيقة) وفيها فضح لعملاء حكوميين وإعلاميين في بلاد العرب باعوا أطفال المسلمين بحفنة من الدولارات .

خلاصة:

السواك من وجهة نظر علمية بحتة موضوع خرج من باب الشبهات والتساؤلات التشكيكية المطروحة حوله قديماً من قبل من اعتادوا التهجم على كل قضية علمية أضاءت صروحاً من تاريخ المسلمين العلمي العريق .

وذلك ليتربع على عرش المواد الطبيعية الفعالة في صحة الجسم والفم في البلاد المتقدمة حالياً خاصة بعدما عاد الطب الحديث ليثبت مقولة قديمة : الفم مرآة الجسد أي (إن صحة الجسم في صحة الفم)

وأهميته تتعدى النواحي الصحية العظيمة للنواحي الاقتصادية وذلك لأن السواك (مادة استهلاكية) و يمكن أن يدخل في صناعات عديدة من مواد طب الأسنان – لمواد الطب الشعبي لصناعات تغليف السواك (مثل : حقن السواك على الفرشاة البلاستيكية وغيرها (إضافة لصلاحيته في الطب الشعبي كمانع حمل طبيعي (يستخدم منقوعه شربا كما ورد ذلك عبر سماعي له من الكويت ومن اللاذقية) – مع كونه معقم معوي شديد– معقم فموي للغرغرة – ويصنع منه الآن مشروب متة ممزوجة مع السواك (موجودة في سورية ويصرف بوصفات طبية– وكذلك يمكن وضعه ضمن البهارات أي ممزوجة مع السواك – وكذلك يستعمل كمزيل روائح للفم و مقوي جنسي) وبالتالي يحقق السواك بديلاً اقتصادياً للحكومات عن أرباح التبغ وضرائبه .

واليوم الغرب ينتظر منا أن نخاطبه بما يفهم ومع نهاية البحث العلمي المزمع إجراؤه لإثبات تلك النظرية أكاديمياً بعون الله يمكن للمسلمين أن يتوجهوا للغرب ليقولوا لهم لقد أنزل الله الدواء قبل أن يكتشف الداء بمئات السنين وهذا غيض من فيض من رحمات الإسلام للعالم والتي جاءت عبر نبي الرحمة ليدل العالم على كل علاجات أوبئة الروح والجسد قبل مئات السنين .

جدول مقارنة بين بعض فوائد السواك وما يقابلها من أضرار السجائر

مقارنة ... السواك ... السجائر

رائحة الفم ... معطرة – ومزيل فوري لكافة الروائح الكريهة – أسرع مزيل للروائح ... رائحة الزفت والقطران

طعم الفم ... من أسباب سعادة المرء ليلاً استعماله السواك قبل النوم – الطعم الرائع (مطيبة للفم) – واستعمال النبي للسواك على أطراف اللسان ليلاً إرشاد صحي لصحة الحليمات الذوقية التي تعطينا حس الطعام ... مرارة الطعم الكريه وهلاك الحليمات الذوقية بواسطة دخان السجائر يجبر المدخن على استعمال كميات كبيرة من التوابل في سنين التدخين الأخيرة .

مفرزات البلعوم الأنفي المنظفة للبلغم ... يقضي عليها تماماً بأسرع وقت قياسا لكثير من الأدوية التقليدية ... يسبب المفرزات المزعجة الدائمة للبلعوم الأنفي والتي تجبر المدخن على البصاق دوماً

طعم الطعام ... يحفظ صحة الحليمات الذوقية ويطيل عمرها – (انظر حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في وصف تسوك النبي عليه السلام ليلاً وكيف كان يمرر السواك على طرف لسانه) ... تموت الحليمات الذوقية بسرعة مما يجبر المدخن على استعمال البهارات والمنكهات بكمية أكبر

لون الأسنان ... أبيض مميز بسبب السيليكات المبيضة للأسنان وغيرها من المواد المعقمة للجراثيم ... قبيح ويدل على الإهمال العام للشخصية

إفراز اللعاب ... محرض قوي على الإلعاب وهو عامل مهم جداً في صيانة الصحة الفموية ... اضطرابات في إفراز اللعاب والتهابات فموية عديدة.

أمراض اللثة ... يحافظ على حافة متقرنة للثة وهي قضية مهمة في صحة الفم والأسنان

(أحدث ما قررته البحوث الصحية) ... مدمر للثة مسرطن بأساليب عديدة وآليات موضعية وجهازية

تأثير جهازي عام ... صحة الجسم في صحة الفم المنكه والمطيب للمتسوك حقيقة علمية قديمة جداً عاد الطب الحديث ليؤكدها ... شقاء وبلاء عام منتشر من الفم لكل الجسم بعدة آليات أقلها السرطانات

المعدة ... مهدئ للأعصاب المعدية (مستعمل كمنقوع في الطب الشعبي من القدم) ... تأثيرات مقرحة ومسرطنة ومعطلة للشهية

البيئة ... نموه في السبخات والماء المالح جعل الامارات تتبناه وتحول ١٠٠ كيلومتر من الصحراء إلى أشجار ... سبب رئيسي في الحرائق و نسبة ٣٣% من حرائق الغابات وبالتالي التصحر

عدا عن قذارة أماكن التدخين بالفضلات الناجمة عنه

... ...

الجدول المقارن بين بعض فوائد السواك الدينية وما يقابلها من أضرار السجائر

مقارنة ... السواك ... السجائر

رضى الرب ... مرضاة للرب ويطرد الشياطين

وتحبه الملائكة ... تطرد الملائكة وتأتي بالشياطين

البصر ... مجلاة للبصر – كما وردت اللآثار ... مرارة الطعم الكريه وهلاك الحليمات الذوقية بواسطة دخان السجائر يجبر المدخن على استعمال كميات كبيرة من التوابل

الفم ... مطيبة ومطهرة للفم – كما أوردت الأحاديث ... الرائحة الكريهة والسرطانات وتخرب الأسنان والأنسجة

نطق الشهادة عند الموت ... يذكر بالشهادة كما أورد العلماء ... يمنع من النطق بالشهادة *

النصرة من الله ... من أسباب النصر ... من أسباب الهزيمة

مكانه ووقته ... المسجد والصلاة والوضوء والقرآن ... دور الخلاء والمقاهي ودور القمار والخمر

نوع مستخدميه

(عموماً) ... أهل المساجد والصلاح ... أهل الخمر والزنى والمخدرات عموماً

تأثير سلوكي ... يقوم الأخلاق ويهذبها – لصحبة الملائكة ... انحرافات سلوكية متعددة كما أوردت الأبحاث – مفتاح الخمر والزنى والممر الإجباري له

مثل جليسه ... حامل العطر ... نافخ الكير

==============

#الاستشراق

إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي

التعريف:

الاستشراق Orientalism تعبير يدل على الاتجاه نحو الشرق، ويطلق على كل من يبحث في أمور الشرقيين وثقافتهم وتاريخهم. ويقصد به ذلك التيار الفكري الذي يتمثل في إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، والتي تشمل حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته. ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن الشرق عامة وعن العالم الإسلامي بصورة خاصة، معبراً عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما.

التأسيس وأبرز الشخصيات :

البدايات :

- من الصعب تحديد بداية للاستشراق، إذ أن بعض المؤرخين يعودون به إلى أيام الدولة الإسلامية في الأندلس، في حين يعود به آخرون إلى أيام الصليبيين، بينما يرجعه كثيرون إلى أيام الدولة الأموية في القرن الثاني الهجري. وأنه نشط في الشام بواسطة الراهب(*) يوحنا الدمشقي John of Damascus في كتابين الأول: حياة محمد. والثاني: حوار بين مسيحي ومسلم. وكان هدفه إرشاد النصار في جدل(*) المسلمين. وأيًّا كان الأمر فإن حركة الاستشراق قد انطلقت بباعث ديني يستهدف خدمة الاستعمار(*) وتسهيل عمله ونشر المسيحية(*).

- وقد بدأ الاستشراق اللاهوتي بشكل رسمي حين صدور قرار مجمع فيينا الكنسي عام ١٣١٢م وذلك بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوروبية.

- لم يظهر مفهوم الاستشراق Orientalism في أوروبا إلا مع نهاية القرن الثامن عشر، فقد ظهر أولاً في إنجلترا عام ١٧٧٩م، وفي فرنسا عام ١٧٩٩م كما أدرج في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٨م.

– هربر دي أورلياك (٩٣٨ – ١٠٠٣م) Herbert de Oraliac من الرهبانية(*) البندكتية، قصد الأندلس، وقرأ على أساتذتها ثم انتخب – بعد عودته – حبراً أعظم باسم سلفستر الثاني ٩٩٩ – ١٠٠٣م فكان بذلك أول بابا(*) فرنسي.

– في عام ١١٣٠م قام رئيس أساقفة(*) طليطلة بترجمة بعض الكتب العلمية العربية.

– جيرار دي كريمونا ١١١٤ – ١١٨٧م Gerard de Gremona إيطالي، قصد طليطلة وترجم ما لا يقل عن ٨٧ مصنفاً في الفلسفة(*) والطب والفلك وضرب الرمل.

– بطرس المكرم ١٠٩٤ – ١١٥٦م Prerre le venerable فرنسي من الرهبانية البندكتية، رئيس دير كلوني، قام بتشكيل جماعة من المترجمين للحصول على معرفة موضوعية عن الإسلام. وقد كان هو ذاته وراء أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية ١١٤٣م التي قام بها الإنجليزي روبرت أوف كيتون robert of Ketton.

– يوحنا الإشبيلي: يهودي متنصر Juan de Sevilla ظهر في منتصف القرن الثاني عشر وعني بعلم التنجيم(*)، نقل إلى العربية أربعة كتب لأبي معشر البلخي ١١٣٣م وقد كان ذلك بمعاونة إدلر أوف باث.

– روجر بيكون ١٢١٤ – ١٢٩٤م roger Bacon إنجليزي، تلقى علومه في أكسفورد وباريس حيث نال الدكتوراه في اللاهوت(*)، ترجم عن العربية كتاب مرآة الكيمياء نورمبرج ١٥٢١م.

– رايموند لول ١٢٣٥ – ١٣١٤م قضى تسع سنوات ١٢٦٦ – ١٢٧٥م في تعلم العربية ودراسة القرآن وقصد بابا روما وطالبه بإنشاء جامعات تدّرس العربية لتخريج مستشرقين قادرين على محاربة الإسلام. ووافقه البابا. وفي مؤتمر فينا سنة ١٣١٢م تم إنشاء كراسٍ للغة العربية في خمس جامعات أوربية هي: باريسُ، اكسفورد، وبولونيا بإيطاليا، وسلمنكا بأسبانيا، بالإضافة إلى جامعة البابوية في روما.

– قام المستشرقون بدراسات متعددة عن الإسلام واللغة العربية والمجتمعات المسلمة. ووظفوا خلفياتهم الثقافية وتدريبهم البحثي لدراسة الحضارة الإسلامية والتعرف على خباياها لتحقيق أغراض الغرب الاستعمارية والتنصيرية.

وقد اهتم عدد من المستشرقين اهتماماً حقيقيًّا بالحضارة الإسلامية وحاول أن يتعامل معها بموضوعية. وقد نجح عدد قليل منهم في هذا المجال. ولكن حتى هؤلاء الذين حاولوا أن ينصفوا الإسلام وكتابه ورسوله r لم يستطيعوا أن ينفكوا من تأثير ثقافاتهم وعقائدهم فصدر منهم ما لا يقبله المسلم من المغالطات والتحريفات؛ ولهذا يخطئ من يظنهم منصفين . (انظر للتوضيح : رسالة " الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجري " لعلي بخيت الزهراني .

• مستشرقون يُزعم أنهم منصفون:

– هادريان ريلاند ت١٧١٨م Hardrian roland أستاذ اللغات الشرقية في جامعة أوترشت بهولندا، له كتاب الديانة المحمدية في جزأين باللغة اللاتينية ١٧٠٥م، لكن الكنيسة(*) في أوروبا وضعت كتابه في قائمة الكتب المحرم تداولها.

– يوهان ج. رايسكه ١٧١٦ – ١٧٧٤م J.J.reiske وهو مستشرق ألماني جدير بالذكر، اتهم بالزندقة (*) لموقفه الإيجابي من الإسلام، عاش بائساً ومات مسلولاً، وإليه يرجع الفضل في إيجاد مكان بارز للدراسات العربية بألمانيا.

– سلفستر دي ساسي: ١٨٣٨م Silvestre de Sacy اهتم بالأدب والنحو مبتعداً عن الخوض في الدراسات الإسلامية، وإليه يرجع الفضل في جعل باريس مركزاً للدراسات العربية، وكان ممن اتصل به رفاعة الطهطاوي.

– توماس أرنولد ١٨٦٤–١٩٣٠م إنجليزي، له الدعوة إلى الإسلام الذي نقل إلى التركية والأردية والعربية.

– غوستاف لوبون: مستشرق وفيلسوف مادي(*)، لا يؤمن بالأديان(*) مطلقاً، جاءت أبحاثه وكتبه الكثيرة متسمة بإنصاف الحضارة الإسلامية مما دفع الغربيين إلى إهماله وعدم تقديره.

– زيجريد هونكه: اتسمت كتابتها بالإنصاف وذلك بإبرازها تأثير الحضارة العربية على الغرب في مؤلفها الشهير شمس العرب تسطع على الغرب.

- ومنهم: جاك بيرك، أنا ماري شمل، وكارلايل، ورينيه جينو، والدكتور جرينيه، وجوته الألماني.

- أ.ج. أربري A.J. Arberry، من كتبه الإسلام اليوم صدر ١٩٤٣م، وله التصوف صدر ١٩٥٠م، وترجمة معاني القرآن الكريم.

• مستشرقون متعصبون:

- جولدزيهر Goldizher١٨٥٠-١٩٢٠م مجري يهودي، من كتبه تاريخ مذاهب التفسير الإسلامي. والعقيدة والشريعة. ولقد أصبح زعيم الإسلاميات في أوروبا بلا منازع.

- جون ماينارد Maynard J. أمريكي، متعصب، من محرري مجلة الدراسات الإسلامية.

- ص م. زويمر S.M. Zweimer مستشرق مبشر، مؤسس مجلة العالم الإسلامي الأمريكية، له كتاب الإسلام تحد لعقيدة صدر ١٩٠٨م، وله كتاب الإسلام عبارة عن مجموعة مقالات قدمت للمؤتمر التبشيري الثاني سنة ١٩١١م في لكهنئو بالهند.

- غ. فون. غرونباوم G. Von Grunbaum ألماني يهودي، درَّس في جامعات أمريكا، له كتاب الأعياد المحمدية ١٩٥١م ودراسات في تاريخ الثقافة الإسلامية ١٩٥٤م.

- أ.ج. فينسينك A.J. Wensink عدو للإسلام، له كتاب عقيدة الإسلام ١٩٣٢م. وهو ناشر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي في لغته الأولى.

- كينيث كراج K. Gragg أمريكي، متعصب، له كتاب دعوة المئذنة ١٩٥٦م.

- لوي ماسينيون L.Massignon فرنسي، مبشر، مستشار في وزارة المستعمرات الفرنسية لشؤون شمال أفريقيا، له كتاب الحلاج الصوفي شهيد الإسلام ١٩٢٢م.

- د.ب. ماكدونالد D.B. Macdonald أمريكي، متعصب، مبشر، له كتاب تطور علم الكلام(*) والفقه والنظرية الدستورية ١٩٣٠م. وله الموقف الديني والحياة في الإسلام ١٩٠٨م.

- مايلز جرين M. Green سكرتير تحرير مجلة الشرق الأوسط.

- د.س. مرجليوث D.S. Margoliouth ١٨٨٥– ١٩٤٠م إنجليزي، متعصب، من مدرسته طه حسين وأحمد أمين، وله كتاب التطورات المبكرة في الإسلام صدر ١٩١٣م. وله محمد ومطلع الإسلام صدر ١٩٠٥م وله الجامعة الإسلامية صدر ١٩١٢م.

- بارون كارادي فو Baron Carra de Voux فرنسي، متعصب، من كبار محرري دائرة المعارف الإسلامية.

- هـ.أ.ر. جب H.A.r. Gibb ١٨٩٥– ١٩٦٥ م إنجليزي، من كتبه المذهب(*) المحمدي ١٩٤٧م والإتجاهات الحديثة في الإسلام ١٩٤٧م.

- ر.أ. نيكولسون r.A. Nicholson إنجليزي، ينكر أن يكون الإسلام ديناً روحيًّا وينعته بالمادية وعدم السمو الإنساني، وله كتاب متصوفو الإسلام ١٩١٠م وله التاريخ الأدبي للعرب ١٩٣٠م.

- هنري لامنس اليسوعي ١٨٧٢ – ١٩٣٧م H.Lammans فرنسي ، متعصب، له كتاب الإسلام وله كتاب الطائف، من محرري دائرة المعارف الإسلامية.

- جوزيف شاخت J. Schacht ألماني ، متعصب ضد الإسلام، له كتاب أصول الفقه الإسلامي.

- بلاشير: كان يعمل في وزارة الخارجية الفرنسية كخبير في شؤون العرب والمسلمين.

- ألفرد جيوم A. Geom إنجليزي، متعصب ضد الإسلام من كتبه الإسلام.

الأفكار والمعتقدات:

أهداف الاستشراق:

الهدف الديني :

كان هذا الهدف وراء نشأة الاستشراق، وقد صاحبه خلال مراحله الطويلة، وهو يتمثل في:

١- التشكيك في صحة رسالة النبي(*) صلى الله عليه وسلم ، والزعم بأن الحديث النبوي إنما هو من عمل المسلمين خلال القرون الثلاثة الأولى. والهدف الخبيث من وراء ذلك هو محاربة السُّنة بهدف إسقاطها حتى يفقد المسلمون الصورة التطبيقية

الحقيقية لأحكام الإسلام ولحياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبذلك يفقد الإسلام أكبر عناصر قوته.

٢- التشكيك في صحة القرآن والطعن فيه، حتى ينصرف المسلمون عن الالتقاء على هدف واحد يجمعهم ويكون مصدر قوتهم وتأى بهم اللهجات القومية عن الوحي باعتباره المصدر الأساسي لهذا الدين (تنزيل من حكيم حميد).

٣- التقليل من قيمة الفقه الإسلامي واعتباره مستمداً من الفقه الروماني.

٤- النيل من اللغة العربية واستبعاد قدرتها على مسايرة ركب التطور وتكريس دراسة اللهجات لتحل محل العربية الفصحى.

٥- إرجاع الإسلام إلى مصادر يهودية ونصرانية بدلاً من إرجاع التشابه بين الإسلام وهاتين الديانتين إلى وحدة المصدر.

٦- العمل على تنصير المسلمين.

٧- الاعتماد على الأحاديث الضعيفة والأخبار الموضوعة في سبيل تدعيم آرائهم وبناء نظرياتهم.

٨- لقد كان الهدف الاستراتيجي الديني من حملة التشويه ضد الإسلام هو حماية أوروبا من قبول الإسلام بعد أن عجزت عن القضاء عليه من خلال الحرب الصليبية.

- الهدف التجاري :

لقد كانت المؤسسات والشركات الكبرى، والملوك كذلك، يدفعون المال الوفير للباحثين، من أجل معرفة البلاد الإسلامية وكتابة تقارير عنها، وقد كان ذلك جليًّا في عصر ما قبل الاستعمار(*) الغربي للعالم الإسلامي في القرنين التاسع عشر والعشرين.

- الهدف السياسي يهدف إلى:

١- إضعاف روح الإخاء بين المسلمين والعمل على فرقتهم لإحكام السيطرة عليهم.

٢- العناية باللهجات العامية ودراسة العادات السائدة لتمزيق وحدة المجتمعات المسلمة.

٣- كانوا يوجهون موظفيهم في هذه المستعمرات إلى تعلم لغات تلك البلاد ودراسة آدابها ودينها ليعرفوا كيف يسوسونها ويحكمونها.

٤- في كثير من الأحيان كان المستشرقون ملحقين بأجهزة الاستخبارات لسبر غور حالة المسلمين وتقديم النصائح لما ينبغي أن يفعلوه لمقاومة حركات البعث الإسلامي.

الهدف العلمي الخالص :

- بعضهم اتجه إلى البحث والتمحيص لمعرفة الحقيقة خالصة، وقد وصل بعض هؤلاء إلى الإسلام ودخل فيه، نذكر منهم:

١- توماس أرنولد الذي أنصف المسلمين في كتابة الدعوة إلى الإسلام.

٢- المستشرق الفرنسي رينيه فقد أسلم وعاش في الجزائر وله كتاب أشعة خاصة بنور الإسلام مات في فرنسا لكنه دفن في الجزائر.

• أهم المؤلفات :

- تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان ت١٩٥٦م.

- دائرة المعارف الإسلامية: ظهرت الطبعة الأولى بالإنجليزية والفرنسية والألمانية وقد صدرت في الفترة ١٩١٣-١٩٣٨م. غير أن الطبعة الجديدة قد ظهرت بالإنجليزية والفرنسية فقط من عام ١٩٤٥م وحتى عام ١٩٧٧م.

- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف والذي يشمل الكتب الستة المشهورة بالإضافة إلى مسند الدارمي وموطأ مالك ومسند أحمد بن حنبل وقد وضع في سبعة مجلدات نشرت ابتداءً من عام ١٩٣٦م.

- لقد بلغ ما ألفوه عن الشرق في قرن ونصف قرن (منذ أوائل القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين) ستين ألف كتاب.

• المؤتمرات والجمعيات:

- عقد أول مؤتمر دولي للمستشرقين في باريس سنة ١٨٧٣م.

- تتابعت المؤتمرات بعد ذلك حتى بلغت أكثر من ثلاثين مؤتمراً دوليًا، فضلاً عن الندوات واللقاءات الإقليمية الكثيرة الخاصة بكل دولة من الدول كمؤتمر المستشرقين

الألمان الذي عقد في مدينة درسدن بألمانيا عام ١٨٤٩م، وما تزال تنعقد مثل هذه المؤتمرات باستمرار حتى الآن.

- يحضر هذه المؤتمرات مئات من العلماء المستشرقين، حيث حضر مؤتمر أكسفورد تسعمائة ٩٠٠ عالم من خمس وعشرين دولة وثمانين جامعة وتسع وستين جمعية علمية.

- هناك العديد من الجمعيات الاستشراقية كالجمعية الآسيوية في باريس تأسست عام ١٨٢٢م، والجمعية الملكية الآسيوية في بريطانيا وأيرلندا عام ١٨٢٣م، والجمعية الشرقية الأمريكية عام ١٨٤٢م والجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٤٥م.

• المجلات الاستشراقية:

للمستشرقين اليوم من المجلات والدوريات عدد هائل يزيد على ثلاثمائة مجلة متنوعة وبمختلف اللغات نذكر منها على سبيل المثال:

١- مجلة العالم الإسلامي The Muslim World أنشأها صمويل زويمر ت١٩٥٢م في بريطانيا سنة ١٩١١م وقد كان زويمر هذا رئيس المبشرين في الشرق الأوسط.

٢- مجلة عالم الإسلام Mir Islama ظهرت في بطرسبرج عام ١٩١٢م لكنها لم تعمر طويلاً.

٣- مجلة ينابيع الشرق أصدرها هامر برجشتال في فيينا من ١٨٠٩ إلى ١٨١٨م.

٤- مجلة : الإسلام ظهرت في باريس عام ١٨٩٥م ثم خلفتها عام ١٩٠٦م مجلة العالم الإسلامي التي صدرت عن البعثة العلمية الفرنسية في المغرب وقد تحولت بعد ذلك إلى مجلة الدراسات الإسلامية.

٥- في عام ١٩١٠م ظهرت مجلة الإسلام Der Islam .

• الاستشراق في خدمة الاستعمار(*):

كارل هنيريش بيكر Kar Heinrich Beeker ت ١٩٣٣م مؤسس مجلة الإسلام الألمانية، قام بدراسات تخدم الأهداف الاستعمارية في أفريقيا.

- بارتولد Barthold ت ١٩٣٠م مؤسس مجلة عالم الإسلام الروسية، قام ببحوث تخدم مصالح السيادة الروسية في آسيا الوسطى.

- الهولندي سنوك هرجرونجه Snouck Hurgonje, G. ١٨٥٧-١٩٣٦م قدم إلى مكة عام ١٨٨٤م تحت اسم عبد الغفار، ومكث مدة نصف عام، وعاد ليكتب تقارير تخدم الاستعمار في المشرق الإسلامي. وقد سبق له أن أقام في جاوه مدة ١٧ سنة وقد صدرت الصور التي أخذها لمكة والأماكن المقدسة في كتاب بمناسبة مرور مائة سنة على تصويرها.

معهد اللغات الشرقية بباريس المؤسس عام ١٨٨٥م كانت مهمته الحصول على معلومات عن البلدان الشرقية وبلدان الشرق الأقصى مما يشكل أرضية تسهل عملية الاستعمار في تلك المناطق.

- وهكذا نرى أن مثل هؤلاء المستشرقين جزء من مخطط كبير هو المخطط الصهيوني الصليبي لمحاربة الإسلام، ولا نستطيع أن نفهمهم على حقيقتهم إلا عندما نراهم في إطار ذلك المخطط الذي يهدف إلى تخريج أجيال لا تعرف الإسلام أو لا تعرف من الإسلام إلا الشبهات، وقد تم انتقاء أفراد من هذه الأجيال لتتبوأ أعلى المناصب ومراكز القيادة والتوجيه لتستمر في خدمة الاستعمار(*).

• آراء استشراقية خطرة:

- جورج سيل G.Sale زعم في مقدمة ترجمته لمعاني القرآن ١٧٣٦م، أن القرآن إنما هو من اختراع محمد ومن تأليفه وأن ذلك أمر لا يقبل الجدل(*).

- ريتشارد بل richard Bell يزعم بأن النبي(*) محمد r قد استمد القرآن من مصادر يهودية ومن العهد القديم (*) بشكل خاص، وكذلك من مصادر نصرانية.

- دوزي ت١٨٨٣م: يزعم أن القرآن الكريم ذو ذوق رديء للغاية ولا جديد فيه إلا القليل، كما يزعم أن فيه إطناباً بالغاً ومملاً إلى حد بعيد.

- جاء في تقرير وزير المستعمرات البريطاني أو مسبي غو لرئيس حكومته بتاريخ ٩ يناير ١٩٣٨م: "أن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه، وليس الإمبراطورية وحدها بل فرنسا أيضاً، ولفرحتنا فقد ذهبت الخلافة(*) وأتمنى أن تكون إلى غير رجعة".

- يقول شيلدون آموس: "إن الشرع المحمدي ليس إلا القانون الروماني للإمبراطورية الشرقية معدلاً وفق الأحوال السياسية في الممتلكات العربية، ويقول كذلك: "إن القانون المحمدي ليس سوى قانون جستنيان في لباس عربي".

- قال رينان الفرنسي: "إن الفلسفة العربية هي الفلسفة اليونانية مكتوبة بأحرف عربية".

- أما لويس ماسينيون فقد كان زعيم الحركة الرامية إلى الكتابة في العامية وبالحرف اللاتيني.

ولكن:

- مما لا شك فيه أن للمستشرقين فضلاً كبيراً في إخراج الكثير من كتب التراث ونشرها محققة مفهرسة مبوبة.

- ولا شك أن الكثير منهم يملكون منهجية علمية تعينهم على البحث.

- ولا ريب في أن لدى بعضهم صبراً ودأباً وجلداً في التحقيق والتمحيص وتتبع المسائل.

- وما على المسلم إلا أن يلتقط الخير من مؤلفاتهم متنبهاً إلى مواطن الدس والتحريف ليتجنبها أو ليكشفها أو ليرد عليها لأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها، خاصة وأن الفكر الاستشراقي المعاصر قد بدأ يغير من أساليبه وقسماته من أجل المحافظة على الصداقة والتعاون بين العالم الغربي والعالم الإسلامي وإقامة حوار بين المسيحية(*) والإسلام، ومحاولة تغيير النظرة السطحية الغربية إلى المسلمين، وربما كمحاولة لاستقطاب القوى الإسلامية وتوظيفها لخدمة أهدافهم فلنكن حذرين.

الجذور الفكرية والعقائدية:

• لقد كان الاستشراق وليد الاحتكاك بين الشرق الإسلامي والغرب النصراني أيام الصليبيين، وعن طريق السفارات والرحلات. ويلاحظ دائماً أن هناك تقارباً وتعاوناً بين الثالوث المدمر: التنصير والاستشراق والاستعمار(*)، والمستعمرون يساندون المستشرقين والمنصرين لأنهم يستفيدون منهم كثيراً في خططهم الاستعمارية.

• كان الدافع الأساسي هو الجانب اللاهوتي(*) النصراني بغية تحطيم الإسلام من داخله بالدس والكيد والتشويه، ولكن الاستشراق بعد ذلك وفي الآونة الأخيرة بدأ يتحلل من هذا القيد نوعاً ما ليتوجه توجهاً أقرب إلى الروح العلمية.

الانتشار ومواقع النفوذ:

• الغرب هو المسرح الذي يتحرك فوق أرضه المستشرقون، فمنهم الألمان ومنهم البريطانيون والفرنسيون والهولنديون والمجريون، وظهر بعضهم في إيطاليا وفي أسبانيا، وقد علا نجم الاستشراق في أمريكا وصارت له فيها مراكز كثيرة.

• لم تبخل الحكومات، ولا الهيئات ولا الشركات ولا المؤسسات ولا الكنائس في يوم من الأيام في دعم حركة الاستشراق ومدّها بما تحتاجه من مال، وتأييد وإفساح الطريق أمامها في الجامعات حتى بلغ عدد هؤلاء المستشرقين آلافاً كثيرة.

• لقد كانت حركة الاستشراق مُسخَّرة في خدمة الاستعمار، وفي خدمة التنصير وأخيراً في خدمة اليهودية والصهيونية التي يهمها إضعاف الشرق الإسلامي وإحكام السيطرة عليه بشكل مباشر أو غير مباشر.

• استطاع المستشرقون أن يتسللوا إلى المجامع العلمية وقد عُيِّن عدد كبير منهم أعضاء في هذه المجامع في سوريا ومصر، كما استطاعوا أن يؤثروا على الدراسات العربية والإسلامية في العالم الإسلامي من خلال تلاميذهم ومؤلفاتهم.

ويتضح مما سبق:

• أن الاستشراق تيار فكري، يتجه صوب الشرق، لدراسة حضارته وأديانه وثقافته ولغته وآدابه، من خلال أفكار اتسم معظمها بالتعصب، والرغبة في خدمة الاستعمار، وتنصير المسلمين، وجعلهم مسخاً مشوهاً للثقافة الغربية، وذلك ببث الدونية فيهم، وبيان أن دينهم مزيج من اليهودية والنصرانية، وشريعتهم هي القوانين الرومانية مكتوبة بأحرف عربية، والنيل من لغتهم، وتشويه عقيدتهم وقيمهم، ولكن بعضهم رأى نور الحقيقة فأسلم وخدم العقيدة الإسلامية، وأثَّرَ في مُحْدثيهم، فبدأت كتاباتهم تجنح نحو العلمية، وتنحو نحو العمق بدلاً من السطحية، وربما صدر ذلك عن رغبة من بعضهم في استقطاب القوى الإسلامية وتوظيفها لخدمة أهدافهم

الاستشراقية، وهذا يقتضي الحذر عند التعامل مع الفكر الاستشراقي الذي يتدثر الآن بدثار الموضوعية.

مراجع للتوسع :

- الاستتشراق، إدوارد سعيد- ترجمة كمال أبو ديب- مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت ١٩٨١م.

- المستشرقون، نجيب العقيقي - دار المعارف - القاهرة - ١٩٨١م.

- الاستشراق والمستشرقون، د. مصطفى السباعي - ط٢- المكتب الإسلامي - ١٩٧٩م.

- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي - بيروت ١٩٧٨م.

- إنتاج المستشرقين، مالك بن نبي.

- أوروبا والإسلام، هشام جعيط - ترجمة طلال عتريسي - دار الحقيقة - بيروت - ١٩٨٠م.

- الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، د. جورج سارطون - ترجمة د. عمر فروخ - ط١- مكتبة المعارف - بيروت - ١٩٥٢م.

- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. محمود حمدي زقزوق - ط١ - كتاب الأمة ١٤٠٤هـ.

- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، محمد البهي - دار الفكر - بيروت ١٩٧٣م.

- المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، د. عبد الكريم زيدان - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٩٨١م.

- الإسلام في الفكر الغربي، محمود حمدي زقزوق - دار القلم - الكويت ١٩٨١م.

- الدراسات الإسلامية بالعربية في الجامعات الألمانية، رودي بارت - ترجمة د. مصطفى ماهر - القاهرة ١٩٦٧م.

- أضواء على الاستشراق، د. محمد عبد الفتاح عليان – ط١ – دار البحوث العلمية – الكويت ١٩٨٠م.

- المستشرقون والإسلام، محاضرة للأستاذ محمد قطب.

- المستشرقون والموضوعية، د. أحمد غراب.

المراجع الأجنبية :

- rudi Parel: Der Koran Uebersetzung Stuttgart ١٩٨٠.

- C.E. Bosworth: Orientalism and Orientalists (in Arab Islamic Bibliography) ١٩٧٧ Great Britain.

- H.A. Flacher – Bernicol: Die Islamische revolution Stuttgart ١٩٨١.

- Johann Fueck: Die Arabischon Studien in Europa Leipzig ١٩٥٥.

- Custar Pfonn Mueller: Handbuch der Islami Leteratur Berlin ١٩٣٣.

- M. rodinson, Mohammed: Frank Furt ١٩٧٥.

=============-

أزمة الخطاب الليبرالي

محمد بن عيسى الكنعان

يؤكد الليبراليون دائماً على (المبادئ الحضارية والقيم الإنسانية) .. كتحقيق الحرية الفردية.. وإقامة العدالة الاجتماعية.. وتطبيق الديمقراطية السياسية.. وإشاعة المساواة البشرية .. وتقرير الحقوق الإنسانية.. إلى غير ذلك في قائمة المبادئ والقيم ، التي يرونها تمهد ل(الإصلاح الشامل) ، وتعزز مسيرة الأمة بوسائل الفكر والإبداع كي تلحق بركب الحضارة الإنسانية الذي تجاوزها منذ قرون، لذا هم يحاربون (الوصاية الفكرية) بكل أشكالها، ويدينون سياسة (تكميم الأفواه) التي تعارض الحق الإنساني في التعبير، أو جريرة (الإقصاء) بكل صوره، لأنه نقيض احترام الآخر، كما

يرفضون التدخل في شؤون الناس، أو عقلية رفض المخالف (عقائدياً) والأخذ من ثقافته، أو التحجر عند الماضي وعدم التعاطي مع الحضارة المعاصرة..!

كل هذا الوصف (النظري) ينقلب إلى خسف (عملي) عندما يقدر الله لك التعاطي مع الخطاب الليبرالي والنزول إلى (واقعه) والاحتكاك بالليبراليين على ميادين الكتابة، والتعامل معهم على مسارات الفكر الواعي أو ملتقيات الحوار الجاد، بل لا أبالغ إن قلت إنك سوف تصطدم بمن يلتهم مبادئ الليبرالية في الليل فهماً وحفظاً، ثم يدوسها في النهار جهاراً نهاراً في أول مقال يكتبه على رقاع الصحافة، أو فكرة يترجمها إلى مشاركة إلكترونية، ناهيك عن حالة (التبلد الفكري) التي تنتابهم إزاء قراءتهم للأحداث والمواقف التي تتقاطع فيها النظرة الإسلامية مع النظرة الغربية، أو تتصادم معها على مساحات الرفض أو القبول أو الحياد، فتلك القراءة تفتقر لمنطق الأشياء في تحليل هذا الموقف أو ذاك الحدث، كما تمتاز بالازدواجية في الحكم على الأطراف الفاعلة في الحدث أو الموقف، أضف إلى ذلك الخروج البائن عن إجماع الأمة في قضية من قضاياها المصيرية بالإعلان عن هذا الخروج بموقف يتمسح بعباءة الغرب ويتغنى بفضائله الحضارية، بحجة أننا أمة رعاع ليس لها راية أو قيادة أو حضارة. ولعل احتلال العراق، أو قضية الرسوم الدنمركية المهينة، أو تصريح البابا الفاتيكاني العدائي خير شاهد.

لهذا أخفقوا بدرجة (امتياز) في استمالة جماهير الأمة نحو مشاريعهم الحضارية أو برامجهم التنموية، وشواهد الإخفاق حاضرة مع الاختبارات الأولى لهم، فالذي ينادي ب(الديمقراطية) ثم ينقلب عليها لأن صناديق الانتخابات (لفظته)، حتى اتهم شعبه بالجهل وعدم النضج .. كيف يكون ديمقراطياً أصلاً ؟

والذي يدعو لتحرير المرأة من قيد (الأصولية) الإسلامية، كيف يحارب الوصاية الفكرية وهو يخلصها من القيد ويرميها بوحل التغريب، كي تكون مسخاً للمرأة الغربية في طريقة التفكير وأسلوب الحياة، ولك أن تعجب عندما شنوا حملة فكرية شعواء على الشيخ الهلالي مفتي أستراليا على خلفية تصريحه (اللحم المكشوف) عن النساء العاريات، لأن هذا تعدٍّ على الآخر لكنهم صمتوا صمت القبور على تصريح أحد وزراء الثقافة العرب ضد الحجاب واعتبروه رأياً يدخل في حرية التعبير.

يسفهون خصومهم من الإسلاميين لأنهم يمجدون التاريخ الإسلامي ويستلهمون منه نظرتهم للمستقبل، ولكنهم لا يفعلون ذلك مع غيرهم الذين يمجدون الإغريق ويتعلقون بآخر حرف كتبه أحد فلاسفة اليونان وهو على فراش الموت عن وحدة الوجود، لأن المعين بالنسبة لهم واحد، خاصة وأنهم رضعوا موروثات الحضارة الإغريقية ثم قفزوا إلى مائدة الحضارة الغربية فتغذوا على أيدي التنوير وموائد الاستشراق، وخلال هذه القفزة كانت قطيعتهم مع الموروث الديني والشاهد التاريخي، الأمر الذي أوجد لديهم قدرة عجيبة ونفساً طويلاً في جلد الذات العربية والتشكيك في الحضارة الإسلامية والطعن في تاريخ الأمة.

أما (الإقصاء) فهو الشماعة التي يعلقون عليها (انحسار) مدهم الفكري إلى المنصات التي يتحدثون منها في الندوات الفكرية والملتقيات الأدبية، لذا هم يحفلون بأي نظام يقصي الإسلاميين عن مراكز السلطة أو دوائر صنع القرار أو منابر مخاطبة الجماهير، لأن المبرر أن الإسلاميين إذا وصلوا فصلوا.

يتحدثون كثيراً عن (الحرية الفكرية) التي تتعارض تماماً مع سياسة (تكميم الأفواه)، غير أنهم لا يجدون بأساً في تكميم أي فم لا يتحدث بخطابهم الليبرالي، لأن أي خطاب ما عدا خطابهم هو خطاب (متطرف) يستلزم تكميمه أو سحقه إن لزم الأمر، لدرجة أن بعضهم يبرر عدم التسامح مع أتباع التيار الديني لأنهم أعداء التسامح! وينادي بالمنطق العقلاني في تناول الأمور ويشدد على الواقعية في تصور الأشياء والحكم عليها إلا مع الإسلاميين لأنهم جميعاً متطرفون ومشاريع جاهزة للإرهاب، وعليه لا تجد في قواميسهم إلا القنوات الفضائية الإسلامية التي يتحدثون عنها ويحذرون منها ويشنعون عليها ويرمونها بكل نقيصة، دون الموازنة وفق المنطق المتبصر عن العهر السياسي والأخلاقي الذي تمثله قنوات تتبنى الطرح الليبرالي.

بعد هذا كله.. هل يمكن تصديق الخطاب الليبرالي الذي ثبت أنه يعيش أزمة حقيقية، أو هل يمكن الوثوق بالليبراليين أو على أقل تقدير التلاقي معهم على أرضية مشتركة، خاصة وأن عدد المنصفين منهم يكاد لا يتعدى أصابع اليد الواحدة ؟

ربما.. وهو بعيد الاحتمال، ما لم تكن هناك مكاشفة فكرية حقيقية معهم، تدفعهم نحو تبني مواقف عاقلة وقراءة الأحداث قراءة واعية تسهم في تخفيف حدة الغلو في خطابهم الذي بات مكشوفاً على كل الصعد والمجالات الحياتية ، فلعل فيهم بارقة أمل للعلاج حتى لا نضطر يوماً إلى إنشاء وكالة غوث الليبراليين، بسبب أنيميا الفكر وهزال الوعي ، إذا كنا بالفعل نبتغي (وحدة الصف) وننشد (إصلاح الفكر) ، خاصة وأن الإسلاميين قد تجاوزوا إشكالية نقد الذات مع واقع مراجعة خطابهم ورفض الغلو فيه والدعوة للتجديد الديني، والوقوف في وجه المتطرفين منهم ونقد منهجهم بأدوات الفكر الإسلامي ونصوصه الدينية المقدسة، إضافة على دورهم الفاعل والرئيس في فضح دعاوى الإرهابيين ونقض حججهم الدينية.

المصدر : جريدة الجزيرة السعودية

==============

#العولمة الثقافية لا تقل خطورة عن الإرهاب

د. أميمة بنت أحمد الجلاهمة

أكاديمية سعودية .. جامعة الملك فيصل الدمام

إن اهتمامنا عند الحديث عن التحديات المعاصرة التي تواجه أمتنا الإسلامية، وعن ضرورة مواكبة مناهجنا لهذه التحديات، لا تتحقق الغاية منه بمعالجة أحد الجانبين دون الآخر، ولو فعلنا فسنصل بمجتمعاتنا إلى المهالك

بما أن النية لم تكن قد توجهت للكتابة فيما أنا بصدده كان لابد من إيعاز الفضل لأصحابه، فلقد توقفت عند اهتمام الصحف المحلية بما دار في افتتاحية المؤتمر السنوي الذي تنظمه رابطة العالم الإسلامي، والذي تمت تسميته بـ(مناهج العلوم الإسلامية)..

لقد تأملت الكلمات التي ألقيت يوم الافتتاح، وعاودت تأمل محتواها مرات عدة، لأنتهي بعد هذا كله لحالة من الذهول، حالة أصبحت هذه الأيام ترافقني كظلي، فقد لا أفهم كيف هذا؟.. ولم كان ذاك؟.. ولكني بالتأكيد أفهم ما علينا فعله تجاه ديننا ثم أوطاننا.. فالأمانة تجاههما لا تتجزأ ولا يتأتى لها ذلك.. وبالتالي كان من الطبيعي عدم تمكني من التغاضي عن النقص الذي وصل إلينا في كلمة الأمين العام لرابطة

العالم الإسلامي الأستاذ الذي أعتز به وبعلمه معالي الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي، وكلمة مفتي عام المملكة ورئيس المجلس التأسيسي للرابطة سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ، فكلا الكلمتين – وكما وصلتا إلينا عبر الإعلام المقروء – تحدثت عن التحديات الداخلية التي وصمت أمتنا إلا سلامية بالإرهاب، وعن كيفية فهم حقيقة الدين الإسلامي كما ينبغي لنا أن نفهمه، وعن دوره وتعاليمه في تدعيم الحضارة الإسلامية، إلا أن كلا من الكلمتين غضت الطرف عن تبيان أهمية وضرورة رعاية مناهج العلوم الإسلامية في عالمنا للتحديات الخارجية، والتي تحاول التربع على حياتنا الاجتماعية والاقتصادية مرورا بحياتنا السياسية، بل حتى الدينية، تحديات لا تقل أهمية عن تحدياتنا الداخلية.. بأي حال من الأحوال.

وفي هذا الصدد أدعو المولى سبحانه أن يكون ما وصلنا من كلمتيهما ناقصا، إذ كيف لهذين الشخصيتين الإسلاميتين العالميتين التغاضي عن هذه الجزئية الهامة في مؤتمر عالمي إسلامي، تم تخصيصه للحديث عن (مناهج العلوم الإسلامية)..

إن الكلمة التي أراحت فوادي وهدأت من روعي وأنا أتابع الكلمات التي ألقيت يوم الافتتاح كانت كلمة خادم الحرمين الشريفين، فقد توقفت عند بيان خطورة التحديات الداخلية والخارجية ولم تبخس حق أي منهما من الاهتمام..

ولأن المسلمين وغيرهم يتطلعون لما يصدر على لسان الملك عبدالله بن عبدالعزيز بحكم كونه خادم الحرمين الشريفين، وبحكم كونه ولي أمر وطن اختصه الله سبحانه بثروات طبيعية حيوية، لهذا كله اخترت التوقف معكم عند أهم معالم كلمته تلك، فقد جاء فيها ما يلي:

* إن العلوم الإسلامية هي المواد التي تصاغ منها الشخصية الإسلامية الفردية والجماعية، فتحدد.. هويتها ووجهتها.

* كل أمة على وجه الأرض من حقها أن تنقل المبادئ الأساسية لثقافتها وحضارتها إلى الأجيال المتلاحقة عبر وسائل التعليم والتربية.

* من حقها أن تكفل الحماية لتلك المبادئ من الانتهاك والتعدي عليها وبشتى وسائل الحماية ومن خلال ما ترسمه من نظم وتشريعات أساسية وثانوية.

* يواجه العالم الإسلامي اليوم تحديات جسيمه، ما فتئت تتعاظم وتلقي بانعكاساتها الوخيمة على الأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية، مما أضعف الأمة الإسلامية في العالم المعاصر.

* إن مما يجب علينا أن نفعله للمحافظة على ذاتيتنا وحمايتها من خطر العولمة الثقافية التي تهددها هو أن نقف وقفة الواثق بنفسه المعتمد على ربه.

* لنبرهن للعالم أجمع بالأقوال والأفعال أننا أمة نشرت أيام قوتها حضارة العلم والمعرفة والحق والعدل وصيانة حقوق الإنسان بين أمم العالم.. وأنها بمنأى عن التطرف والإرهاب في التعامل مع الغير.

* إن ما يحدث في الواقع مما يخالف ذلك لا صلة له بجوهر الثقافة الإسلامية، وإنما له أسبابه الطارئة التي يجب أن نعالجها بما تتطلبه من جهود في التوعية والتربية والتوجيه والتصدي لأصحابها بقوة وحزم.

لقد اهتمت هذه الكلمة بتحديد منبع شخصية الإنسان المسلم وهويته، وحقه كإنسان في نقل مبادئ ثقافته وفكره عبر التربية ومناهج التعليم لأجياله المتلاحقة، كما اهتمت بتقرير حق الأمم أن تكفل الحماية لتلك المبادئ من الانتهاك ولو بسن القوانين والتشريعات لهذا الشأن. كما توقفت عند التحديات الخطيرة التي تواجه العالم الإسلامي اليوم، والتي تتطلع للمساس بأوضاعنا السياسية والاقتصادية والثقافية وحتى العلمية منها، وكما أشارت إلى أن السبيل للمحافظة على ذاتيتنا وحمايتها من خطر العولمة الثقافية التي تهددنا هو أن نقف وقفة الواثق بنفسه المعتمد على ربه.. وهي في هذا كله لم تغفل خطورة التحديات الداخلية والمتحققة بالفكر الإرهابي التكفيري،مبينة أهمية توافق أفعالنا مع أقوالنا التي تؤكد أننا أمة الحق والعدل وصيانة حقوق الإنسان، وأن علينا أن نقف موقف القوة والحزم أمام كل من يخالف هذا المنهج، مع ضرورة استئصال جذور هذا الفكر الذي لا علاقة له بجوهر الإسلام من أساسه، مسخرين لهذا الهدف مناهج التربية والتوجيه.

إن الواجب عند الحديث عن التحديات التي تواجهنا كأمة إسلامية يلزمنا النظر في تحديات داخلية تركت علينا وعلى غيرنا آثارا سلبية تتطلب منا تضافر الجهود للتصدي لها، كما يلزمنا في الوقت نفسه الحديث عن تحديات ترعرعت ونمت في

الخارج تتطلع بشغف للقضاء على معالم ثقافتنا إسلامية المنبع، عالمية الرسالة، إنسانية الهدف، بثقافات مادية جافة لا تمت إلينا بصلة ولا تعتد بالروح، ثقافات لا ترى خلف الأبدان إلا التراب، ثقافات أثبتت فشلها على الصعيد الإنساني، وبشهادة أهلها،

إن اهتمامنا عند الحديث عن التحديات المعاصرة التي تواجه أمتنا الإسلامية، وعن ضرورة مواكبة مناهجنا لهذه التحديات، لا تتحقق الغاية منه بمعالجة أحد الجانبين دون الآخر، ولو فعلنا فسنصل بمجتمعاتنا إلى المهالك.. وسيتجرع أبناؤنا وأحفادنا المرارة جراء هذا التهاون، عندها قد لا نكون معهم، أو قد نكون حينها مسلوبي الإرادة..

وأخيرا لا أشك أن معظمنا يتفق أن العولمة الثقافية الهادفة لإلغاء ثقافات الشعوب لا تقل خطورة عن الإرهاب..

==============

#انتبهوا يا سنة العالم!

إن الخصومة التي تظهر للناس على سطح السياسة الدولية بين الأمريكان وبعض الدول المجاورة للعراق، هي خصومة خادعة ومكر خبيث، الهدف منها القضاء على كيان أهل السنة واستئصال تاريخهم الذي بدأ بناؤه في العهد الراشدي الذي يبغضه بعض من يدعون الإسلام ومحبة أهل البيت هذا العهد الذي قضى على الدولة الفارسية، وأقام الحضارة الإسلامية التي أوقدت نار الحقد في قلوب المهزومين الذين كانوا يتربعون على عرش إمبراطورية مترامية الأطراف.

وإن المخطط الشيعي ضد أهل السنة في العالم الإسلامي، ومنه الدول العربية، قد بدأ من عام ١٩٧٩م الذي قامت فيه أول حكومة أعلنت تصدير سياستها للسيطرة على العالم الإسلامي، وبدأت بإحداث الاضطرابات في مواسم الحج، واستضافة كثير من شباب أهل السنة للدراسة في مدينة "قم" ليعودوا إلى بلدانهم آياتٍ وحُجَجاً إلى يحدثون فيها فتنا واضطرابا بين أهل السنة، وقد حصل ذلك فعلا وانخدع بهم في حينه كثير من أهل السنة في الدول العربية وغيرها، ومنهم بعض العلماء والدعاة وأيدتهم بعض الصحف الإسلامية ظنا بزعم أن الخلافة الإسلامية التي ستجمع

المسلمين في كل الأقطار الإسلامية في ظل رايتها قد آذنت بالرجوع إلى هذه الأمة... ثم اكتشف المتفائلون أن ما كانوا يظنونه ماء ليس سرابا بقيعة فقط، بل هو مشروع لتصدير مذهب معين بالقوة إلى المسلمين الذين استمروا في السير على مذهب أهل لسنة والجماعة المستند إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم الذي طبقه الجيل المباشر لتلقي الهدى الرباني من القدوة الحسنة للأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبعد أن ظهرت للمتفائلين أهداف المشروع الخميني وفي طليعتها هدف تصدير ما يسمى بـ(الثورة الإسلامية) كفوا عن الثناء والمديح الذي كالوه للزعيم الشيعي، بل بدأت الصحف الإسلامية التي كانت تؤيده تكفر عن إطرائها له بكشف ماكان مستورا عن المسلمين، وأذكر من تلك الصحف "مجلة المجتمع الكويتية"

وكان من المتفائلين والمؤيدين للخميني بعض الدعاة من أساتذة أهل السنة الذين التقيتهم في مناسبات كثيرة من المؤتمرات والندوات الرسمية والأهلية، وحصل بيني وبينهم حوار حول اندفاعهم المؤيد للزعيم الشيعي، وكان بعضهم يرد علي بصيغة المزاح: الشيخ القادري متأثر بالعقل الجمعي الذي يسيطر على زملائه العلماء في بلده، وأذكر أن زعيما سودانيا قال لي عندما حذرت من العقائد الشيعية الإثني عشرية: إنكم تبعثون عقائد من قبور، قد ماتت واندثرت.

ومن الأساتذة الذين ذهبوا في وفد إلى الخميني لتهنئته، الشيخ سعيد حوا رحمه الله، ولكنه انقلب ١٩٠ درجة بعد أن كُشِفت له حقائق الزعيم في عقائده وفي سياساته وبخاصة موقفه من المظلومين من أهل السنة، في بعض الشعوب التي تسلط عليها من هم للخميني حلفاء خلصاء، إضافة إلى اضطهاد أهل السنة في إيران، فكتب ناقدا له رسالة بعنوان: :الخميني شذوذ في العقائد شذوذ في المواقف"

http://www.almeshkat.net/books/open.php?cat=٢١&book=١٧٢٧

ولقد احتضنت الدولة الإيرانية بعض المراجع الشيعية التي كانت أصولها وافدة إلى العراق ودرب أفرادَها الحرسُ الإيراني منتظرة اليوم الذي تسلمها أمريكا السلطة في العراق، فكانت الهجمة الأمريكية التي تواطأت معها الزُّمَر الشيعية في أمريكا وبريطانيا، هي الفرصة السانحة لتنفيذ الخطة الإيرانية الأمريكية على العراق في

الحرب الأخيرة، فتدفقت الكتائب الشيعية المدربة في إيران – وعلى رأسها – ما يسمى "لواء بدر" ومدربوه الإيرانيون بعد الغزو الأمريكي مباشرة إلى العراق على مرأى ومسمع من الجيش الأمريكي الذي اصطف وراءه لهدم المدن السنية على رءوس أهلها.

ولتغطية الخداع الشيعي الأمريكي المعتدِيَيْنِ على أهل السنة في العراق، رفعت أمريكا وإيران عنوان الخلاف والشقاق بينهما، وكانت أمريكا تصرح بأن إيران ترسل السلاح والمقاتلين إلى العراق، وهي – أمريكا – تشكو من اجتياز المقاتلين الإيرانيين الحدود الشرقية للعراق، وتجمع جيشها و"لواء بدر" للهجوم على أهل السنة في الغرب والوسط!

ولقد حذرنا مرارا من الخداع الأمريكي الإيراني، ودعونا أهل السنة في العراق إلى اجتماع كلمتهم وتوحيد مرجعيتهم في شئونهم السياسية ليقوا أنفسهم من الحرب الشيعية الأمريكية عليهم.

http://www.al-
٨٢_hadath&p=٥=a١=allbooks&sub٠rawdah.net/r.php?sub

ولكنهم – مع أسفنا الشديد – تفرقوا في سياستهم، فقسم منهم أعلنوا عدم دخولهم في الألاعيب السياسية الأمريكية الشيعية المرسومة لتمييع أهل السنة وإذابتهم والسيطرة في نهاية الأمر عليهم، واغتر بعضهم ببريق السياسة ودخلوا في زنزانة سجنها السياسي البغيض، في الوقت الذي تنزف دماء ابنائهم في وسط العراق وغربه.

وها هي اليوم أمريكا تهدد السلطة الإيرانية في وسائل الإعلام وتشكو من تدخلها في العراق، ويصطف جيشها مع الجيش الموالي لإيران، ضد أهل السنة في سامراء، ثم يعلن كلا الطرفين قبول التفاوض مع الأخر بطلب في الشأن العراقي من الربيب الإيراني زعيم "لواء بدر"

-٢٠٠٦http://www.islam-online.net/Arabic/news/
.shtml١٠/article١٦/٠٣

وإن الواجب على علماء أهل السنة ومفكريهم وسياسييهم أن يبينوا لهم ما يضرهم وما ينفعهم، سواء تعلق بعقيدتهم أو اقتصادهم أو سياستهم أو العدوان على بلادهم، و

السكوت عن ذلك مع العلم به غير لائق بهم، فهاهم مراجع الشيعة وعلماؤهم وسياسيوهم واقتصاديوهم ومقاتلوهم يقوم كل منهم بدوره.

وهاهي فضائياتهم في كل من إيران والعراق ولبنان، بل وفي بعض الدول الغربية، تبث لكل تلك الفئات عقائدهم وأفكارهم وسياساتهم، وموضوعاتهم موجهة توجيها ذكيا ونشيطا إلى شبابنا وشاباتنا منطلقين في ذلك من أساس يدعونه، وهو منهم براء، ونحن أولى به منهم، وهو الولاء لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي يرفعون رايته مع إهانة لصفوة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهدفهم من ذلك تكثير سوادهم لينقضوا على أهل السنة في العالم وليس في العراق فقط، وإن أول البلدان التي ستنال قسطها من عدوانهم إذا تمكنوا هي الدول المجاورة – وبالأخص دول الخليج – التي بها من المغريات الدينية والاقتصادية ما لا يوجد في غيرها.

إن الأمريكان واليهود والبريطانيين وبعض الدول الغربية، يعلمون علم اليقين أن العقبة الكأداء أمام تحقيق أهدافهم هم أهل السنة وليس الشيعة، لأن الشيعة قد تعاونوا مع المعتدين على البلدان الإسلامية من قديم الزمن، كما هي الحال مع التتار، وهم اليوم قد تعاونوا معهم في أفغانستان وركبوا دباباتهم عندما احتلوا العراق، ولا تخدعنا تصريحات خلافاتهم المعلنة فالنار تحت الرماد.

وللشيعة في البلدان الإسلامية مواطنون يوالونهم ضد أهل البلد الذي يستوطنونه، لا يجوز الاستهانة بهم، في الجزيرة العربية وغيرها.

لقد صدرت تصريحات من بعض المسئولين الحكوميين على مستويات عليا في بعض الشعوب الإسلامية السنية تحذر من الخطر الشيعي ثم سكتت.

والمسئولون الرسميون قد يضطرون إلى السكوت لأسباب سياسية ودبلوماسية ...ولكننا نحن الشعوب لا يجوز لنا السكوت على خطر نسمعه بآذاننا ونراه بأعيننا، ولا ينبغي أن نخفي الحقائق عن شعوبنا تحت لغة دبلوماسية غير واضحة، خشية من وقوعنا فيما وقع فيه أهل الكتاب قبلنا الذين نهاهم تعالى عن ذلك نهيا صريحا فصيحا في الكتاب العربي المبين:

((وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) [البقرة]

فهل سينتبه أهل السنة للخطر المحدق بهم من قبل العدو اليهودي والصليبي ومن يواليه عليهم؟

كتبه

د . عبد الله قادري الأهدل

==============

الفهرس العام